الجزء السادس خبر عبيد الله بن زياد

بعد موت يزيد بن معاوية ومقتل مسعود بن عمر

قال هشام ابن الكلبي في إسناده: أتى عبيد الله بن زياد خبرُ وفاة يزيد بن معاوية وهو بالبصرة، وخليفته على الكوفة عمرو بن حُريث المخزومي، فقال لأهل البصرة: إن شئتم فبايعوني بالإمرة حتى تنظروا ما يصنع الناس وتروا رأي من رواءكم، فبايعه أهل البصرة على ذلك، ووجّه عبيد الله من البصرة عامر بن مسمع من بني قيس بن ثعلبة وسعد بن القرحاء ليعلما أهل الكوفة ما كان من أهل البصرة ويسألاهم البيعة لابن زياد على الإمرة حتى يصطلح الناس على إمام، فجمع عمرو بن حريث الناس وعرض ذلك عليهم، وأمر عامر بن مسمع أن يتكلم فتكلم ودعاهم إلى البيعة لعبيد الله وقال: إنما الكوفة والبصرة شيء واحد فليكن أمرنا وأمركم مجتمعاً، وقام سعد بن القرحاء فقال نحواً من ذلك، فقام يزيد بن الحارث بن رُويم الشيباني فحصبهما، ثم حصبهما الناس وقالوا: أنحن نبايع لابن مرجانة! لا ولا كرامةً، فشرُف بذلك يزيد بالمصر وارتفع، فرجع الرجلان إلى البصرة فأخبرا الناس الخبر فقال أهل البصرة: أيخلعه أهل الكوفة ونبايعه نحن؟ هذا ما لا يكون! فوثب الناس به وكان عبيد الله يقول: ما نزلت بزياد نازلة فاستجار فيها إلا بالأزد، فاستجار بمسعود بن عمرو الأزدي من ولد معن بن مالك بن فهر بن غنم بن دوس، وكان مسعود يُدعى القمر لجماله، وهو جد الوجناء الحبلي فيما يقال، فأجار ابن زياد ومنعه، فمكث ابن زياد بالبصرة أربعين ليلة بعد موت يزيد، ثم خرج إلى الشام، واستخلف مسعوداً على البصرة، ووجّه معه مسعود مَن شخَصَ به إلى مأمنه من الشام؛ فقالت بنو تميم وقيس: لا نرضى ولا نولي علينا إلا رجلا ترضاه جماعتنا، فقال مسعود:استخلفني عبيد الله ولا أدع ذلك أبداً، وخرج في قومه حتى انتهى إلى القصر فدخله، واجتمعت بنو تميم إلى الأحنف بن قيس فقالوا له: إن الأزد قد دخلت المسجد، فقال الأحنف: وإن دخلوه فمه، إنما هو لكم ولهم وأنتم تدخلونه أيضاً، ثم قالوا: إن مسعوداً قد دخل القصر وصعد المنبر، وكانت خوارج قد خرجوا فنزلوا بنهر الأساورة حين مضى عبيد الله إلى الشام، فزعموا أن الأحنف بعث إلى أولئك الخوارج: إن الرجل الذي دخل القصر عدو لنا ولكم، فما يمنعكم أن تبدأوا به؟ فجاءت عصابة من الخوارج حتى دخلوا المسجد ومسعود على المنبر يبايع من أتاه، فضربه علج فارسي يقال له مسلم، وكان مسلم هذا دخل البصرة فأسلم وصار مع الخوارج، فضرب مسعوداً فقتله وخرج، فجال بعض الناس في بعض وقالوا: قتل مسعود، قتله الخوارج، فخرج الأزد إلى تلك الخوارج فقاتلوهم،

فقتلوا منهم وطردوا من بقي وأخرجوهم عن البصرة، ودفنوا مسعود بن عمرو، وجاء ناس من الناس إلى الأزد فقالوا: أتعلمون أن قيساً من بني تميم يزعمون أنهم قتلوا مسعوداً؟ فبقيت الأزد تسأل عن ذلك، فإذا قوم يقولون ويتحدثون بما كان من رسالة الأحنف، فاجتمعت الأزد عند ذلك إلى زياد بن عمرو بن الأشرف العتكي فرأسته عليها، ثم ازدلفوا إلى بني تميم وخرج مع الأزد مالك بن مسمع في بكر بن وائل، وأتت بنو تميم الأحنف فقالوا له: قد جاء القوم فأخرج، فجعل يتمكث حتى جاءته امرأة من بني تميم من قومه فقالت: يا أحنف اجلس على هذا، وأشارت إليه بإصبعها الإبهام، أي إنما أنت امرأة، فقال: استك أحق به، فما سمعت من الأحنف قط كلمة أرفث منها؛ ويقال إنها جاءته بمجمر فقال: استك أولى بالمجمر، ثم دعا الأحنف برايته فقال: اللهم أنصرها ولا تذلها، اللهم احقن دماءنا وأصلح ذات بيننا، وكانت قيس مع بني تميم، فسار الأحنف وسار بين يديه ابن أخته إياس بن قتادة بن أوفى من بني عيد شمس بن سعد، فالتقى القوم فاقتتلوا أشد قتال فقتل بينهم قتلى كثيرة، فقالت بنو تميم: الله الله يا معشر الأزد في دمائنا ودمائكم، بيننا وبينكم القرآن أو من شئتم من أهل الإسلام، فإن كانت لكم علينا بقتل مسعود بينة فاختاروا أفضل رجل منا فاقتلوه به، وإن لم تكن بينة فنحن نحلف لكم بالله أنا ما قتلنا ولا أمرنا، وإن الخوارج أعتمدت صاحبكم من قبل أنفسهم، وأنا لا نعرف قاتله، وإن كرهتم ذلك فنحن ندي صاحبكم مائة ألف درهم، فاصطلحوا، وأتاهم الأحنف في وجوه مضر إلى منزل زياد بن عمرو العتكي فقال لهم: يا معشر الأزد أنتم جيراننا في الدار وإخواننا عند القتال، وقد أتيناكم في رحالكم لنطفئ حسيكتكم ونسلّ سخيمتكم، ولكم الحكم، فعولوا على أموالنا

فإنا لا يتعاظمنا منها شيءٌ يكون فيه صلاح ذات بيننا، ولأنتم أحب إلينا من تميم الكوفة، فقالوا: تدون صاحبنا عشر دياتٍ، فقال: هي لكم، وأنصرف الناس وقد أصطلحوا.

وقال هشام أبن الكلبي عن أبيه: إنهم قتلوا مسعوداً وهم يظنون أنه عبيد الله بن زياد فاقتتلوا، ثم إن إياس بن قتادة حمل الديات التي ودوه إياها وهي عشر؛ قال: وكان الأزد تقاتل وهي تقول:

إياس لا نرضى به ... أحنف لا ننطى به

قال: وقتل مسعود وهو ابن ثمانين سنة؛ قال، وقال الهيثم بن الأسود النخعي أبو العُريان بن الهيثم بن الأسود:

علا النعي لمسعودٍ فقلت لهم ... نعم اليمانيُّ تنعى أيها الناعي

وفى ثمانين لا يسطيعه أحد ... حتى دعاه لرأس العدة الداعي

آوى ابن حربٍ وقد سدت مذاهبه ... وأوسع السرب منه أي إيساع

وقال عبيد الله بن الحر الجعفي:

مازلت أرجو الأزد حتى رأيتها تقاصرُ من بنيانها المتطاولِ

ومقتل مسعود فلم يثأروا به وصارت سيوف الأزد مثل المناجلِ

وما خير عقلٍ أورث الأزد ذلةً يسب بها أحياؤهم في المحافلِ

قالوا: وكان يزيد بن زياد بن ربيعة بن مفرغ الحميري قد قدم من كرمان حين مضى ابن زياد إلى الشام فقال:

أعبيد هلا كنت أول فارسٍ يوم الهياج دعا لحينك داع

أسلمت أمك والرماح شوارعٌ يا ليتني لك ليلة الأفزاع

لأبن الزبير غداة يجمع أمره أولى بغاية كل يوم وقاع

وأحق بالصبر الجميل من امرئٍ كَزٍّ أناملُهُ قصير الباع

وقال ابن الكلبي في إسناده عن أبي مخنف وغيره: لما أصطلح الناس وتفرقوا جعلوا عبد الله بن الحارث بن نوفل بن الحارث بن عبد المطلب يصلي بهم، ارتضوا به، ثم إن ابن الزبير ولى البصرة القباع، وهو الحارث بن عبد الله بن أبي ربيعة المخزومي، وإنما سمي القباع لأن أهل البصرة أتوه بمكيال لهم فقال: ما هذا القباع، والقباع الأجوف، وله يقول أبو الأسود الديلي:

أبا بكرٍ جزاك الله خيراً أرحنا من قباع بني المغيره

وأبو بكر عبد الله بن الزبير: قال: واجتمع أهل الكوفة على عامر بن مسعود بن أمية بن خلف الجمحي وكان يلقب دحروجة الجُعل لقصره، وفيه يقول عبد الله بن همام السلولي:

يا بن الزبير أمير المؤمنين ألم يبلغك ما فعل العمال بالعملِ

باعوا التجار طعام الأرضِ واقتسموا صلب الخراجِ شحاحاً قسمة النفلِ

وقدموا لك شيخاً خائناً خذلاً مهما يقل لك شيخٌ كاذبٌ يقل

وقيل طالبُ حقٍّ ذو مزابنة جلد القوى ليس بالواني ولا الوكلِ

أشدد يديك بزيدٍ إن ظفرت به واشف الأرامل من دحروجة الجعلِ

يريد مرثد بن شراحيل كان أساء في البيع، وزيد مولى عتاب بن ورقاء الرياحي كان خازنه، فمكث عامر ستة أشهر ثم عزله ابن الزبير وولى عبد الله بن يزيد الخطمي.

وحدثني العمري عن الهيثم بن عدي أن مسعوداً آوى ابن زياد، ثم وجه معه رجلاً في جماعة فأبلغه مأمنه

من الشام، وكان ابن زياد صير مسعوداً خليفته، فصعد مسعود المنبر وجعل يخطب، فبايعه قوم يهوون هوى بني أمية، فلم يزل كذلك إلى الليل، ثم أنصرف وقد تفرق الناس عنه، وبقي في جميعة، فلما صار في بنو تميم شدت عليه الخوارج فقتله، فاهم بني تميم، وجعل قوم يقولون: إن الأحنف دسهم وجعلها زبيرية، يعني أنه دس للزبير حتى قتل.

وقال أبو عبيدة معمر بن المثنى في روايته: عاد ابن زياد عبد الله بن نافع بن الحارث بن كلدة الثقفي ثم خرج من عنده فلقيه حمران مولاه، وكان قد وجهه إلى يزيد، فأسر إليه موت يزيد وأختلاف أهل الشام، فأمر عبيد الله فنودي الصلاة جامعة، ثم خطب فنعى يزيد وحض الناس على الطاعة وقال: أختاروا لأنفسكم فماسحوه، ثم بدا لهم في بيعته وجعلوا يمسحون أيديهم منها بالحيطان؛ وكان في سجنه نافع بن الأزرق الحنفي، ونجدة بن عامر الحنفي، وعبد الله بن إباض، وعبيدة بن هلال العتري، وعمرو القنا بن عميرة من بني ملادس بن عبشمس بن سعد بن زيد مناة بن تميم، وكانوا غضبوا للبيت فقاتلوا مع أبن الزبير وهم لا يرون نصره، ولكنهم أحتسبوا في جهاد أهل الشام. ثم إنهم قدموا البصرة فالتقطهم ابن زياد وحبسهم، فيقال إنه كان في سجنه من الخوارج مائة وأربعون.

وقال أبو عبيدة: لما هرب ابن زياد إلى الأزد أقام أهل البصرة ببّة؛ وكان هربه إلى الشام بعد قتل مسعود.

قال أبو عبيدة في بعض روايته: لما كان موت يزيد بن معاوية وإظهار ابن زياد إياه بالبصرة، خرج سلمة بن ذؤيب الرياحي الفقيه وهو على فرس له شهباء وقد لبس سلاحه ومعه لواءٌ، فدعا الناس إلى بيعة ابن الزبير وطاعته وقال: عليكم بالعائذ بالبيت الحرام، وابن حواري رسول الله صلى الله عليه وسلم، فبايعه جماعة يسيرة، وبلغ بان زياد ذلك فخطب الناس فاقتص أول أمره وأمر أبيه بالبصرة، وعدد بلاءه عنه أهلها ثم قال: بايعتموني ثم مسحتم أيديكم بالحيطان وقلتم ما قلتم، ثم هذا سلمة بن ذؤيب يدعوكم إلى الخلاف إرادة أن يُفرق جماعتكم ليضرب بعضكم جباه بعضٍ؛ وكان الذي أخبر ابن زياد بأمر سلمة بن ذؤيب عبد الرحمن بن أبي بكرة، ويكنى أبا الحرّ، فقال الأحنف بن قيس والناس: نحن نجيئك بسلمة فأتوا سلمة فإذا معه جمع كثيف قد سافر إليه وإذا الفتق قد اتسع، فامتنع عليهم، فلما رأوا ذلك قعدوا عن ابن زياد فلم يأتوه، فقال: والله لقد لبسنا الخزّ حتى اجمته جلودنا فما نبالي أن نعقبها الحديد أياماً، والله لو اجتمعتم على قرن عتز لتكسروه ما كسرتموه؛ ودعا البخارية ومن كان من أصحاب السلطان إلى المحاربة معه، فلم يجيبوه واعتلوا عليه، فانغمس في الأزد في بيت مسعود.

قال: وكان في بيت مال ابن زياد نحو ثمانية آلاف ألف درهم، فقال للناس حين خطب: هذا فيئكم فخذوا أرزاقكم وأرزاق عيالاتكم وذرِّيتكم، وأمر الكتاب بتحصيل الناس وتقرير ما لهم، فلما رأى قعود

الناس عنه وظهور أمر سلمة كف عن ذلك، وأمر بنقل المال حين هرب فهو يتردد في آل زياد، وقال له إخوته: والله ما من خليفةٍ تقاتل عنه، ولا تأمن أن يُدال عليك فتعطب وتهلك وتذهب أموالنا، وقال له عبد الله أخوه وهو ابن مرجانة، والله لئن قاتلت القوم لأقتلن نفسي بسيفي هذا؛ فلما رأى عبيد الله ذلك أرسل إلى الحارث بن قيس بن صهبان الجهضمي فسأله أن يسأل مسعوداً أن يُجيره، فسأله ذلك فأباه، فقال له الحارث: يامعشر الأزرد إنكم أجرتم زياداً فبقي لكم شرف ذلك وذكره وفخره، فقال مسعود: أترى أن نُعادي أهل مصرنا في عبيد الله وقد أبليناه في أبيه ما أبليناه فلم يكافنا و لم يشكر، ماكنت أحب أن يكون هذا رأيك، فقال: قد بايعته فيمن بايع ولن يُعاديك أحدٌ على الوفاء له؛ فلما أبى مسعود إجازة ابن زياد أتى الحارث إلى أم بسطام امرأة مسعود وهي ابنة عمه فقال لها: إني دعوتُ مسعوداً إلى مكرمةٍ فأباها، وأنا أدعوك إلى أن تسودي نساء قومك أبداً، وكلمها في إجارة ابن زياد، فأجارته، ويقال إنه أعطاها مائة ألف درهم كانت مع ابن زياد، فأدخلته حجلتها وألبسته ثوباً لزوجها، فلما جاء مسعود أعلمته ذلك، فغضب وأخذ برأسها، حتى خرج عبيد الله والحارث فحجزوا بينهما، وقال له عبيد الله: أجارتني عليك وألبستني ثوبك وأكلتُ من طعامك وقد التف عليّ مترلك، وتلطف والحارث له حتى رضي، فلم يزل في مترل مسعود، ثم شخص إلى الشام؛ وقال أبو عبيدة: وآل زياد ينكرون أن يكون ابن زياد شخص قبل قتل مسعود، وأن يكون مسعود بعث معه من بذرقهُ.

وقال يزيد بن ربيعة بن مفرغ شعراً ذكر فيه فرار ابن زياد من دار الإمارة إلى الأزد، ثم إلى الشام بعد مقتل مسعود وخذلانه اياه، وذكر هربه عن أمه وامرأته هند الفزراية:

أقرَّ لعيني أنه عقَّ أمَّهُ ... دعته فولاها آستهُ وهو يهربُ

وقال عليك الناس كوني سبيةً ... كما كنت أو موتي فللموت أقرب

وقد هتف هند به ما أمرتني ... أبن لي وخبرني إلي أين أذهب

فقال أريد الأزد في عقر دارهم ... وبكراً فيما لي عنهم متجنب

بما قدمت كفاك مالك مهرب ... من القوم يوماً والدماء تصبب

ولو كنت صلبَ العود أو ذا حفيظة ... كررت على هندٍ وهندٌ تسحب

وغادرت مسعوداً رهينة حتفه ... يمج نجيع الجوف وهو ملحب

ولو لم يفت ركضاً حثيثاً لحلقت ... بأشلائه من الجو عنقاء مغرب

وقال أيضاً:

قدمت مسعوداً ليصلى حرها ... ووألت لما أن نعاه الناعي

أفلا كررت وراءه متشزباً لما أصيب، دعا لحتفك داع

وترك أمك والرماح شوارع يا ليتني لك ليلة الأفزاع

ليس الكريم بمن يفارق أمه وبناته بالمنزل الجعجاع

وخذلت مسعوداً وطرت مولياً مثل الظليم أثرته بالقاع

وقال أبو عبيدة: فهذا دليل على أنه إنما هرب إلى الشام بعد مسعود وأنه حين قُتل مسعود كان بالمصر فلم يبرح.

قال أبو عبيدة: ولما هرب ابن زياد بقي الناس بغير أمير فلما لم يكن لهم أميرا ارتضوا بنعمان بن صبهان الراسبي، وقيس بن الهيثم يختاران لهم، فكان رأيُ قيس في عبد الله بن الأسود الزهري، ورأى النعمان بن صبهان في ببة، وقال النعمان: هو هاشمي وابن أخت القوم الملك فيهم، لأن أم ببة هند بنت أبي سفيان، وكان النعمان شيعياً شهد مع عليّ صفين، وأقبلوا ببة فنزل دار الإمارة؛ قال أبو عبيدة: وكان ذلك رضا جميع الناس الأزد فقولهم باطل، قال الفرزدق:

وبايعت أقواماً وفيت بعهدهم وببة قد بايعته غير نادمِ

وقوم يرونه: وهو نائمُ.

قال أبو الحسن المدائني: جعل ببة على شرطته هميمان بن عدي – ويقال النعمان بن صبهان، وهميان بن عدي أثبت – فأتى هميان دار فيل مولى زياد، وهي في بني سليم، فأمر بتفريغهما لينزلها رجل قدم على ببة من المدينة، وكان فيل قد هرب وأقفل أبواب داره، فمنعت بنو سليم هميان بن عدي ما أراد حتى قاتلوه، واستصرخوا عبد الملك بن عبد الله بن عامر بن كريز، فأرسل بخاريته ومواليه في السلاح حتى طردوا هميان بن عدي، وعدل عبد الملك من الغد إلى دار الإمارة ليسلم على ببة، فلقيه على الباب رجلٌ من قيس بن ثعلبة فقال: أنت المعين علينا بالأمس، ورفع يده فلطمه، فضرب رجل من البخارية يد القيسي فأطارها، ويقال بل ضربه ضربةً شلت منها يده، وغضب ابن عامر فرجع، وغضبت له مضر واجتمعت، وأتت بكرُ بن وائل أشيم بن شقيق بن ثور فاستصرخوه، فأقبل ومعه مالك بن مسمع، ثم إن القوم تحاجزوا وانصرفت بكر والمضرية، وتحالف بكر والأزد، فقال حارثة بن بدر الغداني:

نزعنا وأمرنا وبكر بن وائل تجر خُصاها تبتغي من تحالفُ

وما بات بكريٌّ من الدهر ليلةً فيصبح إلا وهو للذلِّ عارفُ

وقال أبو عُبيدة حدثني زهير بن هنيد عن عمرو بن عيسى قال: كان مالك بن مسمع في المسجد، فبينا هو قاعد، وفي الحلقة رجل من ولد عبد الله بن عامر بن كريز، إذ نازع القرشي فأغلظ له القرشي، فلطم

رجلٌ من بكر القرشي، فتهايج من ثم من مضر وربيعة، وكثرهم ربيعة ممن في المسجد، فنادى رجلٌ يال تميم، فوثب قومٌ من بني ضبة على رماح حرس المسجد وترستهم، ثم شدوا على الربعين فهزموهم، وبلغ ذلك أشيم بن شقيق بن ثور، وهو يومئذ رئيس بكر بن وائل، فأقبل إلى المسجد فقال: لا يجدن ربعي مضرياً الا قتله، فبلغ ذلك مالك بنم مسمع فأقبل متفضلاً فسكن الناس حتى كف بعضهم عن بعضٍ، وسأل مالك أن يجدد الحلف بين الأزد وربيعة.

حدثنا المدائني: أن الأحنف قال لمالك بن مسمع حين تحالفوا: أحلف في الإسلام؟! قال: حالفتُ على الزط والسيابجة، فقال: معاذ الله، قال: يا أبا بحر كانت نعمة سبقناك إليها فقال الأحنف: والله مأردها ولتحلبنها دماً عبيطاً، لقد حالفت قوماً إن اتبعتهم استذلوك، وإن خالفتهم عزوك وقهروك.

وقال المدائني في بعض روايته: لما جددوا الحلف وأقبلوا مع مسعود إلى المسجد الجامع فزعت تميم إلى الأحنف فعقد عمامته على قناة ودفعها إلى سلمة بن ذؤيب الرياحي، فأقبل وبين يديه الأساورة حتى دخل المسجد ومسعود يخطب، فاستنزلوه فقتلوه، فجعلوا يحكمون فقيل إن الخوارج قتله؛ وزعمت الأزد أن الأزارفة قتلوه بأمر الأحنف، فكانت الفتنة، وسفر بينهم بن عبيد الله بن معمر، وعمر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام حتى رضيت الأزد من دم مسعود بعشر دياتٍ، ولزم ببة بيته وكان متديناً، وكان القاضي في هذه الفتنة هشام بن هبيرة.

وكتب ابن الزبير إلى عمر بن عبيد الله بعهده على البصرة فوافاه وهو متوجه يريد العمرة، فكتب عمر بن عبيد الله إلى أخيه عبيد الله بن عبيد الله بن معمر أن يصلي بالناس، فصلى بهم حتى قدم عمر بن عبيد الله؛ قال أبو الحسن: ولما لزم ببة بيته كتب أهل البصرة إلى عبد الله بن الزبير بذلك، فكتب إلى أنس بن مالك يسأله أن يصلي بهم، فصلى بهم أربعين يوماً.

وقال أبو عُبيدة: لما جددوا الحلف في الفتنة قالت الأزد: لا نرضى حتى يكون الرئيس منّا، وقال مسعود لعبيد الله سر معنا حتى نترلك الدار، وبعث عبيد الله غلماناً له على خيل مع مسعود، وأتى بكرسي فجلس على باب مسعود، وقدم مسعود مالك بن مسمع في ربيعة فأخذوا سكة المدينة، فامتلأ المربد رماحاً، وجاء مسعود حتى علا المنبر وببة في دار الإمارة، وقيل له: إن ربيعة واليمن قد ساروا وسيهيج بين الناس شر فو أصلحت بينهم وركبت مع بني تميم إليهم، فقال: أبعدهم الله والله لا أفسد نفسي بصلاحهم، وجعل رجل من أصحاب مسعود يقول:

لأنكحن ببةجارية في قبةتمشط رأس لعبة

فلما لم يحل أحد بين مسعود وبين صعود المنبر، خرج مالك بن مسمع في كتيبه حتى علا الجبان، وأتى دور بني تميم فدخل بني العدوية، فجعل يحرق دورهم، وذلك أن رجلاً من بني ضبة كان لاحى رجلاً من بني يشكر فقتله الضبي، فبينا هو كذلك إذ أتاه قتل مسعود.

قال: وأتت بنو تميم الأحنف فقالوا يا أبا بحر أنت سيدنا وقد اجتمعت الأزد، وربيعة، فقال: سيدكم الشيطان، فقيل: قد أتو الرحبة، فقال: لستم بأحق بها منهم، ثم قالوا: قد دخلوا المسجد، فقال: لستم بأحق بالمسجد منهم، فقال سلمة بن ذؤيب: يا معشر مضر إنما هذا كبش منجرٌ في أذنيه لا خير لكم عنده، فندب بني تميم فانتدب منهم خمسمائة، وتلقاه رأس الأساورة يومئذ في بعض الطريق وهو في أربعمائة من الرماة، فقال لهم سلمة: أين تريدون؟ قالوا: إياكم. وأتت الأحنف امرأة بمجمر فقالت: مالك وللرئاسة، تجمر، فقال: آست المرأة أحق بالمجمر، فعتبت عليه؛ وتحول الأحنف في تلك الأيام من داره إلى بني عامر بن عبيدة، وأتوه فقالوا: إن عبلة بنت ناجية الرياحي، وهي أخت مطر، وأمرأة قد سبناه وأخذت خلا خيلهما من أسواقهما، وقتل المقعد الذي كان على باب المسجد والصباغ الذي في طريقك، وحرق مالك بن مسمع دور بني العدوية، فقال: ثبنوا ذلك، فثبتوه، فطلب عبّاد بن الحصين فلم يوجد، فدعا بعبس بن طلق- ويقال طليق- السعدي ثم انتزع معجزاً في رأسه ثم جثا على ركبتيه وعقده في رمح ثم دفعه إليه ثم قال:

ما إن أرى فخراً ولا حياءَ   إذا اتخذت معجري لواءَ

ثم قال لعبس: سر، فلما ولى قال: اللهم لأ تخزها اليوم فإنك لم تخزها فيما مضى، فسار عبس وصاحب النظارة هاجت زبراءُ، وزبراءُ أمةٌ للأحنف- أرادوه بذلك وقال الأحنف: يابني تميم إن شر الناس من لم يستحي من الفرار، ثم جاء عباد في ستين راكباً، فأبى أن يسير تحت لواء عبس، ولقوا القوم فاقتتلوا، ورمى الأساورة بألفي نشابة في رشق واحد فتلقوهم برماحهم، فرماهم الأساورة بألفي نشابة في رشق آخر، فأجلوا عن أفواه السكك وأقاموا على أبواب المسجد، فاقتتلوا، ورماهم الأساورة فقلعوهم عن الأبواب، ودخلت تميم المسجد فاقتتلوا فيه ومسعود على المنبر مسعود وكان الحكم بن مخرمة العبدي قد ثبط قومه وقال: أتقتلون إخوتكم مع الأزد؟ فردهم، وذلك عند باب المسجد، قال إسحاق بن سويد العدوي: فأتوا مسعوداً وهو على المنبر واستنزلوه وقتلوه، وذلك في شعبان سنة أربعٍ وستين، فانهزم القوم وهرب أشيم بن شقيق فطعنه رجل طعناً فتنحى، فقال الفرزدق.

لو أن أشيم لم يسبق أسنتنا   وأخطأ الباب إذ نيراننا تقدُ

إذاً لصاحب مسعوداً وصاحبهُ وقد تماءت له الأعفاج والكبدُ

قال: فبينا ابن زياد ينتظر ما يكون من مسعود أُتي فقيل: قد صعد المنبر، فتهيأ للركوب، فبينا هو كذلك إذ قيل قد قُتل، فاغترز في ركابه ولحق بالشام مسعود وذلك في أول شعبان سنة أربعٍ وستين، قال: وقوم يقولون أنه شخص في شوال، وكان مقتل مسعود في شوال، والأول أصح، وكان نزوله دار مسعود في جمادى الآخرة سنة أربعٍ وستين.

وقال المدائني: مات الحارث بن معاوية أيام مسعود فقال الأحنف: رحمك الله أبا المؤرق فارقتنا أحوج ما كنا إليك.

أبو الحسن المدائني عن عامر بن حفص مسعود قال: خرج ابن زياد من البصرة هارباً الى الشام في قوم وفوا له، فقال ذات ليلة: إنه قد ثقل عليّ ركوب الإبل فوطئوا لي على ذات حافر مسعود فألقيت له قطيفة على حمار فركبه وإن رجليه لتخدّان الأرض، فقال بعض من كان معه ورآه قد سكت سكتة طويلة: هذا عبيد الله بن زياد أمير العراق بالأمس نائماً على حمار لو سقط عنه أعنته، ثم دنا منه فقال: أنائم أنت؟ فقال ابن زياد: لا، قال: فما هذه السكتة؟ قال: كنت أحدث نفسي، قال له: أنا أخبرك بما فكرت فيه، قل، قال: قلت ليتني لم أقتل حسيناً، وليتني لم أكن بنيت البيضاء، وليتني لم أكن استعملت الدهاقين، وليتني لم أقتل من قتلت، فقال ابن زياد: والله ما نطقت بصوابٍ ولا سكت عن خطأ، أما الحسين فإنه سار إلي يريد قتلي فاخترت قتله على أن يقتلني، وأما البيضاء فإني اشتريتها من عبد الله بن عثمان الثقفي فأرسل إلي يزيد بألف ألف فأنفقتها عليها، فإن بقيت فلأهلي و إلا فإني لا آسى عليها، وأما استعمالي الدهاقين فإن عبد الرحمن بن أبي بكرة وزاذانفروخ رفعا عليّ عند معاوية فخيرني معاوية بين الضمان والعزل فكرهت العزل، وكنت إذا استعملت الرجل من العرب فكسر الخراج فأقدمت عليه أو غرت صدور عشيرته، أو أغرمته فحملت على عطاء قومه أضررت بهم، وإن تركته تركت مال الله وأنا أعرف مكانه، فوجدت الدهاقين أبصر بالجبابة وأوفى بالأمانة وأهون عليّ مطالبة، وأما قتلي من قتلت فما علمت بعد قولي كلمة الإخلاص عملاً أقرب إلى الله من قبلي من قتلت من الخوارج، ولكني حدثت نفسي فقلت: ليتني قاتلت أهل البصرة فإنهم بايعوني طائعين ثم نكثوا، ولقد أردت ذلك ولكن بني زياد أتوني فقالوا: إنك إن قاتلتهم فظهروا عليك لم يبقوا منا أحداً إلا قتلوه، وإن تركتهم تغيب الرجل منا عند أخواله وأصهاره وخلطائه، فلم أقاتل، وقلت: ليتني أخرجت أهل السجن فضربت أعناقهم، فأما إذ فأتت هاتان فليتني أقدم الشام و لم يبرموا شيئاً فأكون معهم فيما يبرمون، قال: وبينا هو يسير إذ عرض له فارس بيده رمح، فقال: لا وألت إن وألت، فقال: أوما هو خير لك، ألف دينار، فركن إليها، فشددنا

عليه فأخذناه، فقال له ابن زياد: لا تُرعٍ فكان دليلنا حتى وردنا الشام، فقال الرجل: عهدنا بابن زياد يأكل في كل يومٍ أكلاتٍ أولها عناق أو جدي يتخير له، فكان يأكل وهو يريد الشام أقل مما يأكله أحدنا ويقول: الأكل مع الأمر والسرور.

وقال أبو عُبيدة قال يونس بن حبيب: فاقتلوا مسعوداً وهرب ابن زيادٍ إلى الشام أقبلت فعمة ابنة مسعود وقد ركبت دابة موكفة، وولت وجهها قبل ذنبها، وسدلت شعرها وتجلببت مسحها ومعها نادبة تقول:

مسعود من يقتل بك ... احنف لا نعطي بك

ثم أتت مالكاً وهو واقف في سكة المربد وقد رجع من تحريق دور بني العدوية فقال: ارجعي، فقالت: لا أو أوتى برأس الأحنف، فأتوها برأس من رؤوس القتلى ضخمٍ فأزمت بأنفه عضاً وغمست أطراف كميها في دم لغاديده ثم انصرفت إلى رحلها، فتزوجت بعد.

قال: وأتى دار مالكٍ قومٌ من مضر وحرقوا عليه،فقال غطفان بن أنيف الكعبي في ذلك:

كيف ترانا وترى الأميرا ... بصرحةِ المربد إذ أبيرا

نقودُ فيه جحفلاً جرورا ... أكثر جمعاً حلقاً مسمورا

وصارماً ذا هيبةٍ مأثورا ... فقد قد الجازر الجزورا

لما رجا مسعود التأميرا ... وأصبح ابن مسمعٍ محصورا

وقد شببنا حوله السعيرا

ولما هرب عبيد الله طلب فأعجز طلبته، فانتهب ما وجد له، فقال واقد بن خليفة السعدي:

يارب جبارٍ شديدٍ كلبه ... قد صار فينا تاجه وسلبه

لو لم ينج ابن زياد هربه ... منا للاقى شر يومٍ يشعبه

وقاد مسعوداً شقاءٌ يأدبه ... في عارضٍ أرعن ضاحٍ كؤبه

وقال جرير بن عطية:

ويوم عُبيدة الله خضنا برايةٍ ... وزافرةٍ تمت إلينا تميمها

وقال سؤر الذئب السعدي:

نحن نهطنا الأزد يوم المسجد ... والحي من بكرٍ ويوم المربد

بكل عراصِ المهز مذود ... مُحربٍ وصارمٍ لم ينأد

كأنهم من مقعصٍ ومقصد ... وداحض بالرجل منه واليد

من السواري وطريق المسجد		أعجاز نخل النيط والمسند
إذ خرَّ مسعودٌ ولم يوسَّدِ

وقال جرير أيضاً:

سائل ذوي يمن إذا لا قيتهم		والأزد إذ ندبوا مسعودا
لاقاهم عشون ألف مدجج		متسربلين دلامصاً وحديدا
فلغادروا مسعودهم متجدلاً		قد أودعوه جنادلاً وصعيدا

قال أبو عُبيدة: وقال قوم: مسعود من عيادة صديقٍ له، فلما كان بموضع من بني تميم عرض له خارجي فقتله وذلك بُهْت وباطل، وقال قوم: لما صعد مسعود المنبر وأغفل الناسُ الخوارجَ خرجوا من السجن ودخلوا المسجد لا يلقون أحداً إلّا قتلوه حتى قتلوا مسعوداً في المسجد في اثني عشر من قومه ثم ظهروا إلى الأهواز، وأقبل قوم من بني مِنْقَر فاحتملوا مسعوداً إلى دورهم ثم مثلوا به، وذلك باطل أيضاً.

وقال أبو عبيدة: لما قُتل مسعود وَلَّت الأزد رئاستها زياد بن عمرو بن الأشرف العَتَكي، ثم خرجوا من الغَد، وخرجت ربيعة وعليها مالك بن مِسْمَع يطلبون بدماء مَن أصيب منهم، وعبّوا عبد القيس وأَلفافها من أهل هَجَر وعليهم الحَكَم بن مُخَرَّبة مَيْسَرَةً، وعبّوا بكراً وألفافها من عَنَزَةً والنَمر وعليهم مالك بن مِسْمَع مَيْمَنَةً، وعلى الأزد زياد بن عمرو، وهم القلب، وخرجت مُضر وعليها الأحنف بن قيس، وقد عبّأ بني سعد وألفافهم من الأساورة والاندعان وضَبّة وعدياً وعبد مناة وعليهم قبيصة بن حريث بن عمرو بن ضرار الضبَيّ، وعلى الآخرين من بني سعد والأساورة عَبْس بن طَلْق الصَريمي – ويقال طليق فجعلهم بإزاء الأزد، وعبّأ قيس عَيْلان وعليهم قيس بن بن الهَيثم السُلَمي فجعلهم بإزاء الأزد، وعبد القيس، وعبّأ بني عمرو بن تميم وعليهم عَبَّاد بن الحُصين الحنظلي ومعهم بنو حنظلة بن مالك وأَلفافُها من بني العَمَّ والزُطّ والسَيابجَة، وعلى جماعتهم سَلَمة بن ذُؤَيْب الرِياحي، وجعلهم بِإزاء بكر،وفي ذلك يقول الشاعر من بني عمرو أو بني حنظلة:

سَيَكْفيك عَبْسٌ أخو كَهْمِسٍ		مُقارَعَةَ الأَزْدِ بالمرْبَدِ
وتَكْفيك قَيْسٌ وَأَلْفافُها		لُكَيْزَ بْنَ أَقْصَى وما عَدَّدوا
وَنَكْفيكَ بَكْراً وألفافها		بِضَرْبٍ بَشيبُ لَهُ الأُمْرَدُ

فاقتتلوا ثم إنّ عمر بن عبيد الله بن مَعْمر، وعمر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام مَشَيا للصلح فيما بينهم حتى التقى الأحنفُ ومالكٌ والعُمَرانِ في الصلح، فجعل الأحنف يَخفّ عند المُراوضة وجعل مالكٌ

يَثْقُل، فقال القُرَشيّان: يا أبا بَحْر، مالك تَّخِفُ وقد ذهب حلمك في الناس، ومالكٌ يَرْزُنُ؟ فقال: إنّه يرجع إلى قوم لا يخالفونه إذا قال، وأنا أرجع إلى قوم يتأَبّون عليّ، فلم يّتفق بينهم صلح؛ وأجتمعت ربيعة واليمن فكتبوا قتلاهم فلما بلغوا دّية مسعود كتبوها عشر ديات لأنه كان مُثِّل به، فقال الأحنف لا نَزيدُ على دية رجل من المسلمين فاضطربوا بالأَيْدي والنعال، ثم عادوا للقتال فاقتتلوا أياماً، ثم إنّ عُمَر وعمر أتيا الأحنفَ فعظمّا أمرَ الإسلام وحرمته وحقّ الجوار وقالا: إنّما أنتم إخوان وأصهار ويدٌ على العدوّ، فقال الأحنف: انطلقا فاعقدا على ما أحببتما وأبعدا عني العار، فأتيا ربيعة واليمن، فلما دنوا رماهما السفهاء فركضا حتى وقفا حيث لا ينالهما النَبْل والنُشَاب، وصبّ عبَس بأمر الأحنف عليهم الخيل فأجلت عن قتلى، فقال أهل الحجى منهم: رَمَيتم رجلَين مَشَيا في الصلح بينكم؛ ثم إنهم اجتمعوا على الرضا بما حكم به عمر وعمر، فحمل عمر بن عبيد الله تسع ديات، ويقال حملاها بينهما وقالا: قد لج الأحنف وأبى إلا ديةً وإنما سألنا أن نحكم عليه ونحن أولى بأن نحمل هذا الشيء، قال: ويقال إن بني تميم قالوا: نحن نحملها، وقال عبد الله بن حكيم بن زياد بن حوي بن سفيان بن مجاشع بن دارم: أنا في أيديكم رهينة بهذه الديات، فقبلا ذلك، فقال الفرزدق:

ومِنّا الذي أَعْطَى يَدَيْهِ رَهينَةً ... لِعارَيْ نزارٍ قَبلَ ضربِ الجَماجمِ

كَفَى كُلَّ أَمَّ ما تخافُ على ابْنها ... وهُنَّ قيامٌ رافِعاتُ المَعاصمِ

عَشيَّةَ سالَ المرْبدان كلاهما ... عجاجة موتٍ بالسيوفِ الصوارمِ

رأونا أحق أبني نزارٍ وغيرها ... بإصلاحِ صدعٍ بينهم متفاقمِ

حقنا دماء المسلمين فأصبحت ... لنا نعمةٌ يثُنى بها في المواسمِ

المدائني عن محمد بن حفص الباهلي عن هلال بن أحوز قال: أتى الغضبان بن القبعثري الأحنف فقال: يا أبا بحر أتيتك في أمر عليك فيه قضاءٌ، قال: أيصلحني وإياك؟ قال: نعم قال: فلا قضاه الله عليّ فيما يصلحنا، فما هو؟ قال: أختاروا واحدة من ثلاث، إن شئتم فاخرجوا من المصر فلا يبقى فيه مضري وقمدر هذه الدماء، وإن شئتم فدوا قتلاناى ولا ندي قتلاكم وتدون مسعوداً عشر ديات، أو الحرب، فقال الأحنف: لا حول ولا قوة إلا بالله لقد سمتمونا خطة الذليل، أما خروجنا عن المصر فإنا لا ندع مهاجرنا ومراكزنا وفيء الله علينا فيه فنتعرب بعد الهجرة، وأما الحرب فلسنا بأجزع فيها منكم، وأما أن ندي قتلاكم ونلغي قتلانا فليس ذلك في صلاحنا، وأما مسعود فرجل مسلم ديته دية رجل من المسلمين، ثم قال الأحنف: في ربيعة عجب شديد.

المدائني في إسناده قال: لم توادعوا ورضوا بالديات خطب الأحنف فقال: يا معشر الأزد وربيعة إنكم

إخواننا في الإسلام، وشركاؤنا في الصهر، وجيراننا في الدار، ويدنا على العدو، ولأزد البصرة أحب إلي من تميم الكوفة، ولأزد الكوفة أحب إلي من تميم الشام، فإذا استشرت شأفتكم، وحميت جمرتكم، وأبت حسائك صدوركم أن تلين، ففي أموالنا وأحلامنا سعة لنا ولكم، أرضيتم بحمل هذه الديات – يعني ديات الأزد – من أعطيتنا من بيت المال؟ قالوا: رضينا، فضمنها والقيام بها إياس بن قتادة بن أوفى، وأما من رهط الأحنف، وعرض ذلك على غيره من وجود تميم فأباه، وقالت الأزد وربيعة لإياس: قد رضينا بك لأنك رجل شريف مسلم ورع، فقام بذلك، ثم رجع إلى مترله فقال قومه: طلت دماؤنا وحملت دماء الأزد وربيعة فحملها لهم، وكان إياس ناسكاً فقال لبني اتميم: قد وهبت لكم شبيبتي فهبوا لي شيبتي، وأقام يؤذن في مسجده حتى مات، فقال الحسن البصري: علم والله أن القبر يأكل السمن ولا يأكل الإيمان. قال أبو عُبيدة: وحمل القرشيان أو أحدهما تسع ديات أرضوا بها الأزد من دم مسعود، وقال القلاخ في أرجوزته:

ثم بعثنا لهم إياسا	حمال أثقالٍ بها قنعاسا

وقال عمرو بن دراك العبدي:

قتلنا بقتلى الأزد مثنى وضوعفت	ديات وأهدرنا دماء تميمِ
بعشر دياتٍ لأبن عمرو توفيت	عياناً ولم تجعل ضمان نجومِ
نزلتم على حكم الأغر ابن مسمعٍ	على حكمِ طلابِ التراثِ غشومِ

قال أبو عُبيدة: وكان هذا وببة ملازمٌ لمترله لا يعين أحداً ولا يدخل في شيء، والناس على الرضا به، وكان متديناً، وكانت هذه الهزاهز ثمانية أشهر أو تسعة أشهر.

وقال أبو الحسن المدائني: خرج نافع بن الأزرق في أيام ببة حتى أتى الأهواز، وخافه الناس، فانتدب مسلم بن عبيس بن كريز لقتاله، فعقد له ببة فسار إلى نافع، فقتل مسلم بدولاب من الأهواز، واختلط أمر الناس، فأخذ ببة نعله فلبسها وصار إلى مترله – وكان متديناً – وقال: لست أحب إصلاحكم بفساد نفسي وديني.

حدثني أحمد بن إبراهيم الدورقي حدثنا وهب بن جرير عن أبيه عن حبيب بن الشهيد عن الحسن قال: جاء مسعود وعليه قباء ديباج وحوله قومه حتى صعد المنبر فخطب وهم يقولون الشمس.

وقال أبو عُبيدة حدثنا سلام عن الحسن قال: أقبل مسعود من هنا، وأشار إلى مترل الأزد، في أمثال الطير معلماً عليه قباء ديباج أصفر معين بسواد يأمر بالسنة.

وحدثني أحمد بن إبراهيم، حدثنا وهب بن جرير، حدثنا محمد بن أبي عيينة حدثني شهرك قال: شهدت

عبيد الله بن زياد حين جاء موت يزيد بن معاوية فقام خطيباً فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: يا أهل البصرة أتسبوني فو الله لتجدن مهاجر أبي ومولدي وداري فيكم وبينكم، ولقد وليتكم وما أحصي في ديوان مقاتلتكم إلا أربعون ألفاً، ولا في ديوان عيالاتكم إلا سبعون ألفاً، ولقد أحصي ألي اليوم في ديوانكم ثمانون ألف مقاتلٍ، وفي ديوان عيالاتكم مائة وعشرون ألفا، وما تركت لكم ظنيناً أخافه عليكم إلا وهو في سجنكم، وإن أمير المؤمنين قد توفي، وولى عهده من بعده معاوية بن يزيد ابنه، وإنكم اليوم أكثر الناس عدداً وأعرضهم فيئاً، وأغناهم عن الناس، فاختاروا لأنفسكم رجلاً ترضونه لدينكم وجماعتكم، فأنا أول من يرضى ويبايع ويعين بنصيحته وماله، فإذا أجتمع أهل الشام على رجل يرضونه لدينهم دخلتم فيما دخل فيه المسلمون، فقامت خطباء أهل البصرة فقالوا: قد سمعنا مقالتك أيها الأمير، ولا نعلم أحداً أقوى عليها منك فهلم نبايعك، فقال: لا حاجة لي في ذلك فاختاروا لأنفسكم، فلما كرروا عليه القول بسط يده ودعاهم إلى بيعته فبايعوه، ثم انصرفوا وهم يقولون: أيظن أبن مرجانة أننا ننقاد له في الجماعة والفرقة، كذب والله؛ ثم وثبوا به.

حدثني أحمد بن إبراهيم حدثنا وهب بن جرير حدثنا غسان بن مضر عن سعيد بن يزيد قال: بايعوا عبيد الله بن زياد ثم قالوا: أخرج لنا إخواننا. وكانت السجون مملوءة من الخوارج، فقال: لا تفعلوا فإنهم يفسدون عليكم، فقالوا: لا بد من إخراجهم، فجعلوا يخرجون ويبايعونه فما تتامَّ آخرهم حتى جعلوا يغلظون له.

حدثني أبو خثيمة زهير بن حرب حدثنا وهب بن جرير بن حازم حدثنا أبي عن مصعب بن يزيد قال: لما مات يزيد بن معاوية نعاه ابن زياد وقال: اختاروا لأنفسكم، قالوا: قد رضينا بك، ثم خرجوا فجعلوا يمسحون أيديهم بجدر دار الإمارة ويقولون: هذه بيعة ابن مرجانة، واجترأ الناس عليه حتى جعلوا يأخذون دوابه من مربطه.

حدثني أحمد بن إبراهيم وخَلَفَ بن سالم قالا حدثنا وهب بن جرير حدثنا الأسود بن شيبان عن خالد بن سُمَير أنّ شَقيق بن ثَوْر، ومالك بن مِسْمَع، وحَضين بن المنذر أتوا ابن زياد وهو في دار الإمارة ليلاً، قبل أن يتحوّل إلى مسعود بن عمرو، فأقاموا عنده عامّة ليله ثم خرجوا ومعهم بغل موقر مالاً، فقال رجل من بني سدوس: خوفتهم بأن أنادي أن فلاناً وفلاناً قد اجتمعوا في دمائكم، فأعطوه خمسمائة درهم.

وحدثني أبو خَثْيَمة وأحمد بن إبراهيم قالا: حدثنا وهب بن جرير حدثنا القاسم بن الفضل الحُدّاني قال: أخرج ابن زياد الحَروريّة من السجن حين طُلب إليه، فخرجوا مع نافع بن الأزرق فعسكروا بالمرْبَد، فلما رأى ذلك ابن زياد خافهم على نفسه، فعرض نفسه على أشراف أهل البصرة فكرهوا وأبو أن يقبلوه، فأرسل إلى الحارث بن قيس، فمضى به إلى مترل مسعود.

وحدثني أبو خثيمة وأحمد بن إبراهيم قالا حدثنا وهب بن جرير بن حازم حدثني أبي عن الزبير بن خريت عن أبي لبيد عن الحارث بن قيس قال، قال ابن زياد: إني لأعرف سُوء رأيٍ كان في قومك، ولكنهم قوم كرام كان بلاؤهم عند أبي جميلاً، فرققت له فأردفته على بغلي ليلاً، وأخذت به على بني سليم، فقال: من هؤلاء قلت: بن سليم، قال: سلمنا إن شاء الله، ثم مررنا ببني ناجية ومعهم السلاح، وكان الناس يومئذ يتحارسون فقال رجل منهم: هذا والله ابن مرجانة خلف الحارث بن قيس فرماه بسهم وقع في كْور عمامته، فقال: يا أبا محمد من هؤلاء؟ قلت: الذين كنت تزعم أنهم من قريش، هؤلاء بنو ناجية فقال: نَجوتُ إن شاء الله.

قال وهب: وحدثني القاسم بن الفضل الحداني بنحو هذا الحديث وزاد فيه: ومررنا ببني طاحية فوثبوا علينا وتشبثوا بنا حتى أفتدينا منهم بشيء.

وحدثني أبو خيثمة وأحمد بن إبراهيم قالا: حدثنا وهب بن جرير بن حازم حدثني أبي عن الزبير بن خريت عن أبي لبيد عن الحارث بن قيس قال: قال لي ابن زياد: إنك قد أحسنت وأجملت، فهل أنت صانع ما أشير به عليك؟ قد عرفت مترلة مسعود بن عمرو وشَرَفه وسنه وطاعة قومه له، فهل لك في أن تذهب بي إليه فأكون في داره فهي في وسط الأزد؟ قال: فانطلقت به فما شعر مسعود بشيء حتى دخلنا عليه وهو جالس يوقد له بقصب على لبنةٍ، وهو يعالج خفيه حتى خلع أحدهما وبقي الآخر، فلما نظر في وجوهنا عرفنا فقال: إنه كان يتعوذ من طارق السوء وإنكما لمن طارق السوء، قال الحارث: فقلنا أتخرج رَجُلاً قد دخل إليك متعوذاً بك؟ قال: فأمره فدخل بيت عبد الغافر بن مسعود وامرأته خيرة بنت خفاف بن عمرو، ثم ركب مسعود من تَحْتِ ليلته ومَعه الحارث وجماعة من قومه فطافوا في الأزد وهم في مجالسهم فقالوا: إن ابن زياد قد فقد ولا نأمن أن تلطخوا به، فأصبحوا في السلاح، فأصبحت الأزد في السلاح، وفقد الناس ابن زياد فقالوا: أيْن توجه؟ وما هو في الأزد؛ فقالت عجوز من بني عقيل: اندحس والله في أجمة أبيه – يعني الأزد – لأن أباه كان فيهم أيّام دار ابن الحَضْرَمَي.

قال وهب فقال جرير بن حازم: أقبلت الحرورية إلى الأزد فخرجوا إليهم فقاتلوهم حتى نفوهم، ومرج أمرُ الناس.

وحدثني أحمد بن إبراهيم حدثنا وهب بن جرير حدثنا غسان بن مضرعن سعيد بن يزيد ابن زياد قال لمسعود في بعض الليالي: أبعث إلي رجلاً من الأزد نستشيره، فبعث إلى رجل منهم يقال له حدش الأعور، فجاء يجر ملحفته، فقال له مسعود: هذا ابن زياد وقد بعث إليك يستشيرك، فقال لابن زياد: والله ما أتيتنا لمعروفٍ صنعته إلينا، ولقد كنت تقضينا وتهيننا وتذمنا وتقع فينا لم ترض حتى جئتنا لتهريق دمائنا،

ثم أقبل على مسعود فقال له: أيها الشيخ الأحمق ادفن هذا ولا تره أحداً من الناس حتى تدسه فينطلق فيكون كطائر وقع ثم طار، فقال ابن زياد: أين كنا عن مثل هذا الرأي قبل اليوم؟ فأخرجه في نحو من ستين أو سبعين من الأزد معه.

حدثنا أبو خيثمة حدثنا وهب بن جرير عن أبيه عن الزبير بن خريت عن خيرة بنت خفاف قالت: كان ابن زياد يقبل عليّ فيشكو بثه وهو في حجلتي، فإذا أتته امرأته هند بنت أسماء الفزارية ضاحكها وحثها وذهب عنه الهم حتى كأنه لم يصبه شيء، وكان أرفق الناس كفاً، رقعت يوماً ثوباً لي فقال: ما أرى رفقاً، وأخذه فعالجه فإذا أرفق الناس.

حدثنا أحمد بن إبراهيم حدثنا وهب بن جرير عن أبيه عن الزبير بن خريت قال: بعث مسعود مع ابن زياد مائة عليهم فروة بن عمر حتى قدموا به الشام.

وحدثني أبو خيثمة حدثنا وهب عن أبيه عن الزبير بن خريت قال: أقام ابن زياد عند مسعود نحواً من ثلاثة أشهر.

وحدثنا أحمد بن إبراهيم الدورقي حدثنا وهب بن جرير عن أبيه عن الزبير بن خريت عن أبي لبيد أن أهل البصرة اجتمعوا فقلدوا أمرهم النعمان بن صهبان الأزدي ثم الراسبي، ورجلاً من مضر، ليختارا لهم رجلاً يولونه عليهم، فقالوا: من رضيتماه لنا فقد رضينا به، قال وهب: وقال غير أبي لبيد: إن الرجل قيس بن الهيثم السلمي، قال: وكان رأي المضري في بني أمية، ورأي النعمان في بني هاشم، فقال النعمان للمضري: ما أرى أحداً أولى بهذا الأمر من فلان، يعني رجلاً من بني أمية، قال: أوذاك رأيك؟ قال: نعم قال: فقد قلدتك أمري ورضيت بمن رضيت به، ثم خرجا إلى الناس فقالوا لهما: ماصنعتما؟ فقال المضري: رضيت بمن رضي به النعمان فمن سمى فأنا راضٍ به، فقال الناس للنعمان: ماتقول؟ فقال الذي سميت فقال: إنه لهو، فرضي الناس ببة وبايعوه.

قال وهب: فحدثني ابن أبي عيينة عن سبرة بن النحف قال: بايعوا عبد الله بن الحارث، وغدت الأزد مع مسعود للبيعة.

وحدثني خلف بن سالم المخزومي حدثنا وهب بن جرير حدثنا غسان بن مضر عن سعيد بن يزيد عن إبراهيم بن عبد الله قال: سارت الأزد وربيعة حتى أتوا المسجد، وصعد مسعود بن عمرو المنبر، ثم خرج وخرجنا فإذا بمسعود على بغلته وقد ازدحم الناس عليه حتى سقط، وأقبل ابن الأزرق من قبل بني سليم في نحو من أربعين يحكمون، فقصدوا له فضربوه بأسيافهم حتى قلوه، قال خلف: قال وهب: فكان يقال إن الأحنف بعث إلى الخوارج فحرضهم عليه.

وحدثني أحمد بن إبراهيم الدورقي حدثنا وهب بن القاسم بن الفضل الحداني قال: لما بايعوا عبد الله بن الحارث انطلقت الأزد مع مسعود للبيعة، ووقفت بكر بن وائل بالمربد، فلما كان الغد أراد بنو بكر أن ينطلقوا للبيعة فأتاهم ناس من قومهم حرورية فقالوا: لا تنطلقوا فإنا نخاف عليكم الحرورية إلا أن ينطلق معكم الأزد، فكلمت ربيعة مسعوداً في ذلك، فقال له عبد الله بن حوذان: ألا تسير معهم؟ قال: قد بايعنا أمس ووقفوا بالمربد فدعهم فلينطلقوا ونقف لهم بالمربد، فإن أتاهم شيء أعناهم وأغثناهم، فقالوا لمسعود: لابد من أن تسير معنا، فقال له ابن حوذان: والله لئن ذهبت لا ترجع، والله لا أسير معك، فإنا لم نخرج أمس حتى ظننا أنك لا ترجع، فسار مسعود معهم، وتخلف ابن حوذان، وناس من الأزد، فلما كان مسعود بالرحبة ازدحم الناس عليه فلم يشعر حتى أتاه قوم من الحرورية فقتلوه، وهرب الناس.

حدثني أحمد بن إبراهيم حدثني وهب بن جرير عن أبيه عن مصعب بن يزيد قال: كان مسعود يدعو إلى بني أمية وقد بايعه قوم، وكانت الخوارج قد ظهرت بالبصرة وكانت تطلبه، فقتله قوم منهم وقد انصرف من المسجد، فلما انصرف الأزد وجدته في بني منقر وقد مثل به، فرميت به بنو تميم، فاقتتلوا ثم اصطلحوا، واجتمع أهل البصرة على عبد الله بن الحارث ببة، فبايعوه، ثم إنه كثر الشر والقتال فاعتزلهم.

حدثنا خلف بن سالم حدثنا وهب بن جرير عن محمد بن أبي عيينة قال: حدثت أن مسعوداً لما قتل اجترته بنو منقر إلى دور بني إبراهيم فأصبح وقد مثل به وأصبحت بنو تميم ترمى بقتله.

حدثنا أحمد بن إبراهيم الدورقي حدثنا وهب أخبرني القاسم بن الفضل الحداني عن اشياخه قالوا: لما قتل مسعود جعلت الأزد زياد بن عمرو العتكي رئيساً عليهم، والمهلب بن أبي صفرة يومئذٍ غائب، فلما قدم أتاه زياد فقال له: اني قد كفيتك أمر قومك ما غبت، فأما إذ شهدت فشأنك بهم، وجاءت الأزد فدخلت على المهلب فقال لهم: أجأتم هذا العبد وناويتم أهل بلدكم، فغضب الأزد وقالت: إنما سيدنا من غضب لغضبنا ورضي لرضانا، ثم انطلقوا فشق ذلك على المهلب ومضى إلى ابن الزبير وأظهر أنه كاتبه في القدوم عليه واجتمعت تميم إلى الأحنف فقالوا: إن الأزد قد اجتمعت علينا ولا بد أن تلي أمرنا فقال: لا إلا أن تجعلوا الأمر إليّ فما امضيته قبلتموه وأمضيتموه، اهمتم بقتل مسعود و لم تنتفلوا من دمه، فولوا أمرهم فسار بهم إلى المربد، واجتمعت الأزد وبكر بن وائل فاقتتلوا ثم توافقوا، فبعث الأحنف إلى زياد بن عمرو أن هلم فرسوا بيننا صلحاً، وبعثوا بالغضبان بن القبعثرى الشيباني فأتى الأحنف فقال: تدي قتلانا فندعهم وأما قتلاهم فنديهم، وأما دية مسعود فكدية رجل مسلم.

وحدثني أحمد بن إبراهيم وأبو خيثمة زهير بن حرب قالا: حدثنا وهب بن جرير أنبأنا حماد بن زيد أنبأنا خالد الحذاء عن المثنى بن عفان قال: رأيت الأحنف يطوف في المسجد على الحلق وهو يقول: إنكم

تلقون عدوكم غداً فاصبروا فإنهم يألمون كما تألمون.

وحدثني أحمد بن إبراهيم حدثنا وهب حدثنا محمد بن أبي عيينة قال: حدثت أن الأحنف قال: يامعشر الأزد اتقوا الله فإنا والله ما نحن قتلنا مسعوداً إنما قتله الخوارج، قالوا: فإنا وجدناه عندكم في دوركم وما نطلب به إلا من وجدناه عنده قتيلاً وفي داره، قال الأحنف: فما الذي يرضيكم؟ قالوا: واحدة من ثلاث، ترحلون فتلحقون بباديتكم وتخلون بيننا وبين المصر، أو تقيمون الحرب بيننا وبينكم حتى تكون الدار لنا أو لكم، أو تدون مسعوداً عشر ديات وتهدرون قتلاكم وتدون قتلانا، فقال الأحنف: أما هذه فقد قبلناها، واما الأُخريان فلا، فدعا لها أناساً من قومه فأبوا أن يحملوها، فدعا لها إياس بن قتادة فتحملها وأداها كلها من عطائه وأعطيات قومه وأمواله، فقال الفرزدق:

ومنا الذي أعطى يديه رهينة ... لغار نزارٍ يوم ضرب الجماجمِ

كفى كل يوم أم ما تخاف على ابنها ... وهن قيامٌ رافعاتُ المعاصمِ

قال: وكان الأحنف قام في قومه يحرضهم على الأزد في الليلة التي اقتتلوا في صبيحتها فكان ذلك مما تعلق به عليه.

وحدثني أحمد بن إبراهيم الدورقي حدثنا وهب عن القاسم بن الفضل الحداني عن أشياخه قالوا: لم يزالوا في أمرهم وقد أبوا أن يدوا مسعوداً إلا دية رجلٍ من المسلمين حتى قدم القباع وهو الحارث بن عبد الله المخزومي، أميراً من قبل عبد الله بن الزبير، فأخبر بأن الأحنف كره أن يحمل دية مسعود مائة ألف، فقال: قد تحملتها من بيت المال، فقالت له الأزد: فمن يقوم لنا بذلك؟ فدعا الأحنف إياس بن قتادة وهو ابن اخته فاصطلح الناس وودوا قتلى الأزد وهدروا قتلاهم، وأعطى القباع – وهو الحارث بن عبد الله بن أبي ربيعة بن المغيرة – مائة ألف درهم من بيت المال فقام بذلك إياس بن قتادة.

وحدثني أحمد بن إبراهيم الدورقي حدثنا وهب بن جرير عن أبيه عن محمد بن الزبير قال: وليهم عبد الله بن الحارث ببة أربعة أشهر، وخرج نافع بن الأزرق إلى الأهواز فقال الناس قد أكل الناس بعضاً، تؤخذ المرأة من الطريق فتفضح فما يمنعها أحد، قال: فتريدون ماذا؟ قالوا: تشهر سيفك وتبسط يدك، فقال: ما كنت لأصلح أمركم بفساد أمري؛ ثم انتقل ولحق بأهله وأمر الناس عليهم عبيد الله بن عبيد الله بن معمر التيمي أخا عمر بن عبيد الله.

وحدثني أحمد بن إبراهيم حدثنا وهب بن جرير بن حازم حدثني أبي عن صعب بن يزيد أن الطاعون الجارف وقع بالبصرة وعبيد الله بن عبيد الله بن معمر التيمي عليها، فماتت أمه فما وجدوا من يحملها حتى استأجروا لها أربعة أعلاج فحملوها إلى حفرتها، وهو الأمير يومئذٍ.

وقال هشام بن الكلبي: صلى بهم بة أشهراً ثم أمروا عليهم عمر بن عبيد الله فاستخلف أخاه.

قالوا: وكان من موالي آل أبي سفيان بن حرب عبد الله بن هرمز مولى عنبسة وكان على ديوان الجند زمن الحجاج ثم ولده من بعده، وله يقول القائل:

أعوذ بالله الأحد ... من هرمزٍ وما ولدْ

وكان قدرهم بالبصرة عظيماً وكان لهم يسار، وعبد الله بن دراج مولى معاوية ولاه خراج الكوفة مع معونتها وكان قدم مكة أيام ابن الزبير فقتله، فقال ابن الزبير الشاعر:

أيها العائذ في مكة كم ... من دمٍ تسفكه من غير دم

أيد عائذةٌ معصمةٌ ... ويدٌ تقتل من جاء الحرمْ

وولد سفيان بن أمية

الحارث، وطليقاً، وحمنة وهي أم سعد بن أبي وقاص؛ وكان لسفيان قدر في زمانه، وكان حكيم بن طليق من المؤلفة قلوبهم، أعطاه النبي صلى الله عليه وسلم يوم حنين مائة من الإبل، وكان له ابن يقال له مهاجر تزوج ابنته زياد بن سمية فدرج عقبه.

وكان من بني أبي سفيان بن أمية

سفيان بن أمية بن أبي سفيان بن أمية، وهو الذي قدم بموت عليّ عليه السلام إلى الحجاز.

وولد العاص بن أمية

سعيداً أبا أحيحة، وأم حبيب تزوجها عمر بن عبيد الله بن أبي قيس من بني عامر بن لؤي خلف عليها بعد أخٍ له؛ وكان أبو أحيحة عظيم القدر عزيزاً في قومه وكان إذا اعتم لم يعتم أحدٌ بمكة بلون عمامته إعظاماً له، وكان يقال له ذو التاج وذو العمامة، وكان عظيم النخوة وأدرك النبي صلى الله عليه وسلم، فلما احتضر بكى فقال له أبو جهل وأبو لهب: مايبكيك؟ فقال: والله ما أبكي جزعاً من الموت ولكن أخاف أن يُعبد إله ابن أبي كبشة بعدي، فأبكي على العزى ومفارقتها، ومات فدفن بالظريبة. وأم أبي أحيحة ريطة بنت البياع بن عبد ياليل من كنانة.

فمن ولد أبي أحيحة

أحيحة بن سعيد، قتل يوم الفجار، قتلته خزاعة وله عقب، وأمه هند بنت المغيرة؛ والعاص بن سعيد، وعبيدة بن سعيد قُتلا يوم بدر كافرين، فأما عبيدة فقتله الزبير، وأمه صفية بنت المغيرة، وأما العاص فقتله عليّ بن أبي طالب وأمه هند بنت المغيرة.

وخالد بن سعيد بن العاص

ويكنى أبا سعيد وأمه ثقفية وكان قديم الإسلام، رأى في منامه كأنه وقف على شفير جهنم فذكر من نعتها ما الله به أعلم، ورأى كأن أباه جعل يدفعه فيها ورسول الله صلى الله عليه وسلم آخذ بحقوبيه لئلا يقع فيها، فلقي أبا بكر فأعلمه فقال له أبو بكر: تدرك خيراً، هذا رسول الله فاتبعه فإن الإسلام هو الذي يمنعك من الوقوع في النار، وأبوك واقع فيها فإن أطعته واتبعته كنت معه، فلقي خالد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له: يا محمد إلى ما تدعو؟ فقال: إلى الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله وخلع ما أنت عليه من عبادة حجر لا يسمع ولا يبصر ولا يضر ولا يعرف من عَبَده ممن لم يعبده، فقال خالد: فإني أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله، فسرّ النبي صلى الله عليه وسلم بإسلامه. ويقال أنه رأى ناراً خرجت من زمزم فملأت الأفقين وسمع قائلاً يقول: هلكت اللات والعزى، فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فقص عليه رؤياه ثم أسلم؛ ولما أسلم خالد تغيب، وبلغ أباه فأرسل في طلبه إلى الطائف فلم يوجد بها فأخبر أنه بأعلى مكة في شعب أبي دب الخزاعي، فأرسل إليه أبان وعمراً أخويه ورافعاً مولاه فوجدوه قائماً يصلي، فأتوه به فأنبه وبكته وضربه بعصاً كانت معه حتى كسرها وقال: اتبعت محمداً وأنت ترى خلافة لقومه وما جاء به من عيب آلهتهم والزري على من مضى من آبائهم، وزعمه أن بعد موتهم ناراً يخلدون فيها، فقال خالد: قد اتبعته وهو والله صادق، فقال: أو تصدقه أيضاً؟ فحدثه رؤياه فشتمه أبو أحيحة وقال: اذهب يالكع حيث شئت فوالله لأمنعنك القوت، وأمر بنيه أن لا يكلموه، ولقي أبا سفيان بن حرب فقال له: هدمت شرفك، قال: بل شيدته وعمرته، فقال: أنت غلام حدث ولو بُسط عليك العذاب لأقصرت، فانصرف خالد فلزم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكثر تأنيب قريش له، ودخل أبو جهل على أبي أحيحة فقال له: والله أضعفت أم ضجعت الرأي أم أدركت المنافية، فقال أبو أحيحة. والله لقد غاظني أمر محمد وإنه لأوسطنا نسباً، ولقد نشأ صادق الحديث مؤدياً للأمانة، ولقد جاء بدينٍ مُحدثٍ فرق به جماعتنا وشتت أمرنا وأذهب بهاءنا، ولئن صدقني ظني فيه ليخرجن إلى قوم يقوى بهم علينا، فقال أبو جهل: لا تقل هذا فما الفرج لنا إلا في خروجه عنا وتحوله من دارنا حتى تعود أُلفتنا. وروي عن أم خالد بنت خالد بن سعيد أنها قالت: كان أبي خامساً في الإسلام، تقدمه ابن أبي طالب وزيد بن حارثة وابن أبي قحافة وسعد بن أبي وقاص.

قالوا: وقدم عثمان بن الحويرث بن أسد بن عبد العزى بن قصي على قيصر، وكان قد رفض الأوثان ومات على النصرانية، فكان ترجمان قيصر يحرف ما يقول له عثمان فلا يرى عند قيصر ما يحب، فبينا هو يمر يوماً في مدينة قيصر إذ سمع رجلاً في زي الروم يتكلم بالعربية وينشد بيتاً فقال له: يا هذا ممن أنت؟ قال: أنا عربي من بني أسد فاكتم ما سمعت، فشكا إليه جفوة قيصر فقال: قد بلغني خبرك، وإنما تؤتى من الترجمان، فدخل عثمان على قيصر فدعا له الترجمان فقال: قل للملك إن الكذوب الفاجر الغادر، قال الملك: هيه، فالتزم عثمان الترجمان يريد أنه الموصوف بهذه الصفة، فقال: إن لهذا العربي لقصة، فدعا له ترجماناً آخر فكلمه وأدى عنه إلى قيصر فقال: إني ضارب للملك ضريبة على قريش يؤدونها إليه كل عام إذا جاؤوا بتجاراتهم، فأتى مكة فقال لقريش وغيرها: إن قيصر يأمركم أن تجعلوا له ضريبة عليكم وإلا منعكم من الدخول إلى بلاده، فزبروه وأغلظوا له وعابوا دينه، وكان أشدهم عليه أبو أحيحة والوليد بن المغيرة، ثم إن أبا أحيحة قدم الشام ومعه أبو ذؤيب هشام بن شعبة بن عبد الله بن أبي قيس أحد بني عامر بن لؤي، وكان أبو ذؤيب ابن اخته، فسعى بهما عثمان إلى قيصر وقال: إن هذين اعترضا عليّ وحملا قريشاً على مخالفتي، فحبس قيصر أبا أحيحة والوليد وعدةً من قريش، فمات أبو ذؤيب في الحبس، وتكلم عثمان في الباقين فخلوا، فقالت أروى بنت الحارث بن عبد المطلب:

أبلغ لديك بني عمي مغلغلة	حرباً وعفان أهل الصيت والحسب
وابني ربيعة والأعياص كلهم	واعمم بني عبد شمس سادة العربِ
ما لي أراكم قعوداً في بيوتكم	وخيركم منكم للجار ذي الجنب
وذو الحفاظ على جل الأمور إذا	نابت نوائبها في شدة الكربِ
أبو أحيحة محبوس لدى ملكٍ	بالشامِ في غير ما ذنبٍ ولا ريبِ
لو كان بعضكم في غير محبسه	ألفيتموه شديد الهم والنصبِ
إن الذي صده عنكم وثبطكم	عبدٌ لعبدٍ لئيمٍ حقٌّ مجتلبِ
لو كان صميماً في أرومتكم	لشفه ما عناكم غير ما كذبِ

ومن ولد أبي أحيحة.

عمرو بن سعيد بن العاص ويكنى أبا عتبة، سمع قول أخيه خالد ودعاه إلى الإسلام، فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسلم، وهاجر خلد وعمرو إلى أرض الحبشة وأقاما بها حتى قدما مع أصحاب السفينتين

حين قدم جعفر بن أبي طالب، فوافوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بخيبر، وكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم المسلمين في خالد وعمرو فأسهموا لهما في الغنيمة.

ويقال إن خالداً هاجر إلى الحبشة ثم أتى عمرو النبي صلى الله عليه وسلم فأسلم ولحق بخالد بالحبشة، وولى رسول الله صلى الله عليه وسلم خالداً صدقات اليمن، ويقال: ولاه أمر بني زبيد خاصة، فتوفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو باليمن وقدم منها بعد أن بويع أبو بكر، فكان جالساً في بيته نحواً من ثلاثة أشهر، فمر عليه أبو بكر مظهراً وهو في داره فسلم فقال: أتحب أن أبايعك؟ قال أبو بكر: أحب أن تدخل فيما دخل فيه الناس، فقال له: موعدك العشية؛ فجاءه وهو على المنبر فبايعه، وكان قال حين قدم من اليمن لعلي وعثمان: أرضيتم يابني عبد مناف بأن يلي عليكم الأمر غيركم؟ فاحتملها أبو بكر، وحقدها عمر رضي الله عنهم، واستشهد خالد يوم مرج الصفر بالشام، ويقال أنه استشهد يوم اليرموك، وكان ممن كتب لرسول الله صلى الله عليه وسلم. ووهب عمرو بن معدي كرب لخالدٍ سيفه الصمصامة وقال:

حبوت به كريماً من قريشٍ فسرَّ به وصين عن اللئام

فأعطاه خالد خاتم ذهب كان عليه.

وولى رسول الله صلى الله عليه وسلم عمرو بن سعيد قرى عربية منها تبوك وخيبر وفدك واستشهد يوم أجنادين بالشام، ويقال: يوم فحلٍ بالأردن، وأمه صفية بنت المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم.

وأبان بن أبي أحيحة

ويكنى أبا الوليد وأمه صفية بنت المغيرة وكان مقيماً بمكة حتى قدم خالد وعمرو ابنا أبي أحيحة من أرض الحبشة، فكتبا إليه يدعوانه إلى الإسلام فأجابهما وخرج حتى أتى المدينة مسلماً، وصار معهما إلى خيبر، وكان أبان أجار عثمان بن عفان وأنزله حين دخل مكة في عمرة القضية، وأبان يومئذ كافر، ولما رأى أبو أحيحة أن عمراً وخالداً قد أسلما غمه ذلك، فشخص إلى الطائف فاعتزل في مال له هناك، ومات بعد الهجرة بسنة أو سنتين وله تسعون سنة، فلما غزا رسول الله صلى الله عليه وسلم الطائف رأى أبو بكر قبر أبي أحيحة مشرفاً قال: لعن الله صاحب هذا القبر فإنه كان ممن يحاد الله ورسوله، فقال أبناه عمرو وأبان، وهما مع رسول الله صلى الله عليه وسلم: بل لعن الله أبا قحافة فإنه كان لا يقري الضيف ولا يمنع الضيم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم."سب الأموات يؤذي الأحياء فإذا سببتم فعموا".

وحدثني عباس بن هشام الكلبي عن أبيه عن ابن خربوذ عن مشايخ أهل مكة أن أبا أحيحة مات بالظريبة،

وكان عمرو وخالد ابناه مهاجرين بالحبشة، فكتبا إلى أبان أخيهما يدعوانه إلى الإسلام واللحاق بهما فقال:

ألا ليتَ ميتاً بالظريبةِ شاهدُ — لما يفتري في الدينِ عمروٌ وخالدٌ
أطاعا بنا أمرَ الغواةِ فأصبحا — يعينانِ من أعدائِنا ما نُكابدِ

فأجابه خالد:

أخي ما أخي لا شاتمٌ أنا عِرضهُ — ولا هو عن سوءِ المقالةِ يقصرُ
يقولُ إذا شدت عليه أمورُه — إلا ليت ميتاً بالظريبةِ ينشرُ
فدعْ عنكَ ميتاً قد مضى لسبيله — وأقبل على الحق الذي هو أحضرُ

فأسلم حين قدم أخوه من الحبشة مع جعفر بن أبي طالب، ولحق برسول الله صلى الله عليه وسلم وولاه رسول الله صلى الله عليه وسلم واستشهد أبان يوم أجنادين بالشام؛وقال بعضهم: توفي في سنة تسع وعشرين، وقيل إنه توفي يوم فحل بالشام، والأول أثبت.

ومن ولد أبي أحيحة

سعيدُ بن سعيد بن العاص

وأمه هند بنت المغيرة أخت صفية أم عمرو، فلحق سعيد بالمدينة بعد أبان فقلده النبي صلى الله عليه وسلم بعض أمره، واستشهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الطائف.

والحكم بن أبي أحيحة

وأمه هند بنت المغيرة، لحق بإخوته مسلماً قبل الفتح فسماه رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله وجعله يعلم الحكمة بالمدينة واستشهد يوم مؤتة، ويقال يوم اليمامة، ويقال إنه تلقى رسول الله صلى الله عليه وسلم مسلماً فيمن تلقاه وهو يريد مكة.

وكان لأبي أحيحة فيما ذكر غير الكلبي ابن يقال له عياش درج.

ومن بني أبي أحيحة

سعيد بن العاص بن سعيد بن العاص بن أمية، وأمه أم كلثوم من ولد عامر لم لؤي، ويكنى أبا عثمان، ويقال أبا عمرو، وكان جواداً مبرزاً، وولاه عثمان بن عفان الكوفة فقال: ويل للأشراف مني وقال: أنما السواد بستان لقريش، فأخرجه أهلها عنها، وولاه معاوية المدينة وولاه الموسم، وفيه يقول الحطيئة:

سعيدٌ وما يفعل سعيدٌ فإنه ... نجيبٌ فلاه في الرباطِ نجيبُ

سعيدٌ فلا يغررك قِلةُ لحمِه ... تخددَ عنه اللحمُ وهو صليبُ

إذا غاب عَنَّا غاب عنَّا ربيعنا ... ونسقي الغمامَ الغرَّ حينَ يؤوبُ

وكان سعيد آدم خفيف اللحم لا يترع قميصه، ومات في سنة تسع وخمسين فقال فيه إبراهيم بن متمم بن نويرة.

فدىً لِسعيدٍ منْ أمير وخلةٍ ... ردائي وما ضمتْ عليه الحمائلُ

أتاني ورحلي بالشربةِ أنهُ ... توفي والأخبار حقٌ وباطلٌ

فأصبحتُ لا أدري أحيٌّ بغبطةٍ ... فأفرحَ أم غالَتهُ ثم الغوائِل

وحدثني محمد بن الأعرابي عن المفضل الضبي أن عبيد بن الحصين الراعي لما مدح سعيداً بقصيدته التي يقول فيها:

كريمٌ تعزبُ العِلاتُ عنهُ ... إذا ما حان يوماً أن يزارا

قال لوكيله: كم عندك؟ قال: ثلاثة آلاف دينار، قال: أدفعها إليه، وأعتزر من قلتها.

وكان سعيد بن العاص حين قتل أبوه العاص ببدر صغيراً فكفله عمه الحكم بن سعيد، فرآه رسول الله صلى الله عليه وسلم معه بالمدينة أو بمكة في أيام الفتح فقال له: من هذا الصبي؟ قال: ابن أخي، فمسح رسول الله صلى الله عليه وسلم رأسه ودعا بثوب يمانٍ مسهم فكساه أياه، فقطعت له منه جبة، فسمي كل ثوب مسهم مذ ذاك سعيدياً بسعيد بن العاص، ويقال إنه كساه جبة مسهمة مخيطة.

وقال هشام بن الكلبي: كان سعيد يوجه في كل قليلٍ إلى اليمن فيعمل له ثياب مسهمة تبركاُ بكسوة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكان يلبسها ويكسوا منها ويهدي.

وحدثني العمري عن الهيثم بن عدي عن ابن عياش عن رجل من آل سعيد بن العاص أن الجبة التي كانت لسعيد من كسوة النبي صلى الله عليه وسلم لم تزل عنده حتى دفنت معه.

وحدثني المدائني عن أبي اليقظان قال: كان سعيد بن العاص أول من خش الإبل–والخش أن تجعل البرة في جوف عظم الأنف، وهو الخشاش – وذلك لأنه كان يسير إلى معاوية فجذب زمام ناقته فانخزمت البرة،

فألى أن لا يركب بعيراً إلا وفي يده عظم منه، فخش إبله.

المدائني عن ابن جعدبة عن أبي الزناد قال: عبد الله بن الزبير: أرسل الزبير إلى سعيد بن العاص يسأله قرض مائة ألف درهم فبعث بها إليه، فلما قتل الزبير قلت لسعيد: أقبض مالك فإنه بخواتيمه، قال: ابعث به، قلت: أحب أن تتولى قبضه، فلما صار إلي أخرجت المال إليه فقال: ما تريد؟ قلت: أريد أن تدعه، فتركه و لم يأخذ منه درهماً.

وحدثني عبد الله بن صالح العجلي قال: سمعت سفيان بن عيينة قال: كُلِّم سعيد بن العاص في يتيم كان يمونه أن يزوجه فقال: والله ما عندي ما يحتاج إليه لتزويجه فادانوا عليّ ما يصلحه، فاستقرضوا عشرة آلاف درهم، فأتوا ابنه عمرو بن سعيد وهو الأشدق حين مات فأخبروه بالقصة فقال: سبحان الله والله لو أنها مائة ألف لقضيتها فقضاها.

قال: وكان سعيد يسأل المال بالغاً ما بلغ مما يسأله مثله، فإذا لم يكن عنده مال قال لسائله: اكتب عليّ ذكر حق.

وحدثني منصور بن أبي مزاحم عن شعيب بن صفوان قال: لما احتضر سعيد بن العاص قال لأبنه عمرو الأشدق: انظروا في ديني، فوجدوه تسعين ألف دينار منها سبعون ألفاً لما سأله الرفد والصلة، فإذا هو قد كتب بذلك أجمع على نفسه صكاكاً، فحول عمرو تلك الصكاك على نفسه وقضاها.

وحدثني منصور عن شعيب. وحدثني عمر بن بكير عن الهيثم بن عدي عن الضحاك بن رمل السكسكي قال: خرج سعيد بن العاص ذات يوم من عند معاوية مظهراً، فبصر به رجل وهو وحده، فسار معه نحو منزله، فلما قرب منه قال: ألك حاجة؟ قال: لا ولكني رأيتك وحدك فأحببت أن أونسك وأصل جناحك، فتركه حتى إذا وصل إلى منزله قال لخازنه: كم عندك؟ قال: الفا دينار، قال أعطه منها ألفاً واحبس لنفقتنا ألفاً، وقال: هذا لك هندي في كل سنة.

المدائني عن ابن أبي الزناد، قال: سال ميزاب لسعيد بن العاص في الطريق فقال رجل من الأنصار: لقد آذتنا ميازيب سعيد فأمر بكل ميزاب له أن يحول إلى داره.

حدثني عبد الله بن صالح العجلي حدثني ابن كناسة الأسدي عن بعض ولد عنبسة بن يحيى بن سعيد بن العاص قال: كان سعيد سخياً على مبرٍ فيه، وكان يقول: إن رجلاً بات ليله متململاً يراوح بين شقيه يعرض الناس على نفسه أيهم يراه موضعاً لحاجته ورغبته، فاعتمدني دونهم بأمله واختارني بتنفيس كربته، لأعظم منةً عليّ من منتي عليه إذا قضيت حاجته وبلغته أمله.

وحدثني منصور بن أبي مزاحم عن شعيب بن صفوان عن عبد الملك بن عمير قال: لما حضرت سعيد بن العاص الوفاة دعا ولده فقال أيكم يكفل ديني ؟ فقال عمرو الأشدق: أنا أكفله، وكم هو يا أبه؟ قال:

سبعون ألف دينار أو تسعون ألف دينار، فقال: فما أدمت هذا المال يا أبه ؟ قال: في لئيم اشتريت عرضي منه أو كريم وفرت عرضه وسددت خلته، فدعا غرماءه فحول صكاكهم على نفسه، ثم قال سعيد: يابني لا تزوج بناتي إلا من أكفائهن ولو بفلق خبز الشعير وانظر أخواتي فلا تقطع وجوههن عنك ولا معروفي الذي كنت آتيه إليهم عنهم.

وحدثني أبو الحسن المدائني عن ابن جعدبة وغيره قالوا: قال سعيد بن العاص لابنه: يابني إني والله ماشتمت رجلاً مذ كنت رجلاً ولا زحمته بركبتي ولا كلفت راجياً لمعروفي أن يسأل فيبذل وجهه إليّ.

المدائني عن عوانة قال: كان سعيد بن العاص يقول: أربعة لا أبلغ مكافأتهم ولو خرجت إليهم من مالي كله، رجل قام لي في مجلس غاصٍّ بأهله فأجلسني مكانه، ورجل تخطى الناس إليّ حتى أتاني مسلماً علي لغير رغبة ولا رهبة، ورجل رآني منفرداً فآنسني بحديثه ووصل جناحي بمسايرته ومماشاته، رجل فكر ليله فرآني موضعاً لحاجته ورغبته فغدا إلي حتى واجهني بمسألته.

وحدثني عباس بن هشام الكلبي عن أبيه عن عوانة وابن خربوذ وغيرهما قالوا: كان سعيد بن العاص بن سعيد بن العاص بن أمية يقول: قبح الله المعروف إلا ابتداءً، فأما إذا سألك الرجل حاجته وجبينه يرشح رشح السقاء والدم يكاد يبرز من وجهه مخاطراً لا يدري أتقضيها له أم لا ولسانه معتقل بصر المسألة وذل الطلب، فوالله لو خرجت إليه من جميع ما أملكه ما كافأته ولا بلغت ما يستحقه.

حدثني عليّ بن المغيرة الأثرم عن أبي عبيدة قال: لما طلب زياد الفرزدق وهرب من البصرة أتى المدينة فدخل على سعيد بن العاص، فأنشده قوله فيه وهو والٍ يومئذٍ على المدينة:

إليك هربت منك ومن زيادٍ	ولم أحسب دمي لكما حلالا
ترى الغر الجحاجح من قريش	إذا ما الأمر في الأحداث عالا
قياماً ينظرون إلى سعيدٍ	كأنهم يرون به الهلالا

فقال له مروان بن الحكم وكان حاضراً: لو جعلتنا قعوداً، فقال: كلا يا أبا عبد الملك وإنك فيهم لصافن.

وأنشد الفرزدق بلال بن أبي بردة شعراً له فيه فقال له: هلا مدحتني بمثل ما مدحت به سعيداً وفلاناً وفلاناً، قال: جئتني بحسب كأحسابهم حتى أقول فيك مثل قولي فيهم.

وحدثني العمري عن الهيثم بن عدي عن ابن عياش الهمذاني أن سعيد بن العاص كان جالساً ومعه قوم يحدثهم فسقط جدار على قوم فانفضوا إلا فتىً ثبت معه حتى استتم حديثه، فقال لغلامه: ادع وكيلنا، فلما جاءه قال: أعط الفتى عشرة آلاف درهم إعظامه حقناً، وحسن مجالسه إيانا.

وحدثني بعض أعل العلم قال: خرج هدبة بن خشرم بن كريز بن أبي حبة بن الأسحم بن عامر بن ثعلبة بن قرة بن حبيش بن عمرو بن ثعلبة بن عبد الله بن ذبيان بن الحارث بن سعد بن زيد، أخي عذرة بن زيد في نفر من بني عمه وزيادة بن زيد بن مالك بن ثعلبة من ولد الحارث بن سعد أيضاً في نفر من بني عمه في سفر، ومع هدبة أخته فاطمة بنت خشرم، ومع زيادة اخته أم القاسط، وكان هدبة وزيادة شاعرين راجزين، فساق بهم زيادة وهو يقول:

عوجي علينا واربعي يا فاطما ... ألا ترين الدمع مني ساجما

فظن هدبة أنه عرض بأخته فاطمة، ثم أن هدبة ساق بهم فقال:

لقد رآني والغلام الحازما ... نزجي المطي ضمراً سواهما

متى تظنُّ القلص الرواسبا ... يذكرن أم قاسمٍ وقاسما

فغضب زيادة، وقال هدبة: إني والله ما ذهبت حيث ذهبت، ولا عنيت اختك ولقد عنيت أختي، وتشاتما ثم تناصيا، ووثب رهط هدبة ورهط زيادة فتضاربوا بالنعال، ثم أقبل كل واحدٍ منهما يهجو صاحبه، وجعلا يتفاخران، وجاء زيادة في قومه ليلاً إلى هدبة فشجو أباه عشراً وعقروه فقال زيادة:

شججنا خشرماً في الرأس عشراً ... ولم نرهب هديبة إذ هجانا

ثم اقتل هدبة ورهطه وزيادة ورهطه، فقتل هدبة زيادة وجدع زيادة أنف هدبة، وهرب هدبة والنفر الذين كانوا معه فلحقوا باليمن وقال:

الآ ليت الرياح مسخراتٌ ... لحاجتنا تُباكر أو تؤوبُ

فتخبرنا الشمال إذا التقينا ... وتخبر أهلنا عنا الجنوبُ

ثم أن رهط زيادة استعدوا معاوية بن أبي سفيان على هدبة، فكتب لهم إلى سعيد بن العاص، وهو عامل المدينة، يأمره بإعدائهم على هدبة، وان ينظر في دعواهم عليه، وأن يطلبه طلباً حثيثاً، وأن يأخذ به أولياءه، فأخذ عمه وأهله فحبسهم في السجن حيناً، فلما بلغ هدبة ذلك أتى السلطان فوضع يده في يده كراهة أن يسلم عمه وأهله، فأمر سعيد بحبس هدبة وخلى سبيل من حبس بسببه ووهب لهم مالاً، وسأل أولياء زيادة سعيداً أن ينظر في أمرهم فأخر ذلك وأبطأ به، وكان هدبة قد مدحه، وعرض عليهم أن يدي صاحبهم عنه ثلاث ديات، فأبوا وقالوا: ارفعنا إلى أمير المؤمنين معاوية، فقال هدبة:

ألا يالقوم للنوائب والدهر ... وللمرء يردي نفسه وهو لا يدري

وللأرض كم من صالحٍ قد تلاءمت ... عليه فوارته بداويةٍ قفرِ

ولما دخلت السجن يا أم معمرٍ ذكرتك والأطراف في حلقٍ سمر

و لم يزالوا بسعيد حتى حملهم إلى معاوية ودس إلى هدبة صلة وكسوة، ونظر معاوية في أمرهم فقضى بقود هدبة، وكتب بذلك كتاباً مع أولياء زيادة إلى سعيد فجعل لهم سعيد عشر ديات على أن لا يقتلوه فأبى أخوه وأهل بيته ذلك فأخرج فقتل، وقال حين أخرج:

إن تقتلوني في الحديد فإنني قتلت أخاكم مطلقاً غير موثقِ

فقيل لسعيد لا تقتله إلا مطلقاً عنه حديده ثم قُتل.

ومن ولد سعيد بن العاص

عمرو بن سعيد وكان سخياً لسناً وقيل له الأشدق للقوةٍ عرضت له فأمالت شدقه، وسمي أيضاً لطيم الجن، ولطيم الشيطان، ويقال إن معاوية دعاه في غلمة من بني أمية فاستنطقهم فقال عمرو: إن الابتداء مركب صعبٌ ومع اليوم غد، ثم فتكلم بكلام أعجبه فقال: إن ابن سعيد لأشدق، وهذا مما يقوله ولده، وكان عمرو يكنى أبا أمية، وأمه أم البنين بنت الحكم بن أبي العاص، وهي أخت مروان وعمة عبد الملك بن مروان، وقد ولي المدينة ليزيد بن معاوية.

اخراج بني أمية عن المدينة

حدثني أبو هشام محمد بن يزيد الرفاعي حدثني عمي كثير بن محمد أخبرني عبد الله بن عياش الهمداني حدثني أمية بن عمرو عن أبيه عن محمد بن عمرو المعيطي قال: كتب ابن الزبير إلى عبد الله بن مطيع في نفي بني أمية عن المدينة إلى الشام، ومروان يومئذ شيخهم، وابنه عبد الملك ناسكهم ومن يصدرون عن رأيه، وكان بعبد الملك يومئذ جدري قد ظهر به، فدخلهم من إخراجهم عن المدينة أمر عظيم، وكان ابن الزبير رجلاً إذا عرض له الرأي أمضاه من غير روية ولا مشاورة، فأشخصهم ابن مطيع، وحمل مروان ابنه عبد الملك على جملٍ وشده عليه شداً، ثم إن وجوه قريش ومشايخهم اجتمعوا إلى ابن الزبير فقالوا: بلغنا ما أمرت به من إلحاق بني أمية بالشام، وإنما بعثت عليك أفاعي لا يبلُّ سليمها، أمثل مروان وبني أمية يشخصون إلى الشام ؟ فوجه ابن الزبير رسولاً إلى ابن مطيع بكتاب منه يأمره فيه بإقرار بني أمية بالمدينة وترك إشخاصهم، فاتبعهم حتى وافاهم بأداني أرض الشام فعرض عليهم الانصراف فأبوا، وقال عبد الملك وقد نقه من مرضه للرسول: قل لأبي خُبيب إنا نقول لا حول ولا قوة إلا بالله، يصنع الله.

وكان فيمن شخص معهم عمرو بن سعيد الأشدق، وخاله مروان بن الحكم، وكان معهم خالد بن عبد الله بن خالد بن أسيد بن أبي العاص بن أمية فكانا خاصين بمروان وبعبد الملك، فوافوا الشام وقد بايع

الناس لمعاوية بن يزيد وهو كاره لذلك، فلم يلبث مروان بعد ذلك إلا يسيراً حتى مات معاوية بن يزيد وبويع له بالخلافة، فبايع لابنه عبد الملك بن مروان ولعبد العزيز من بعده، وكان عمرو الأشدق أجد الناس في أمر مروان وأحسنهم معاونة ومكانفةً له واجتهاداً في صلاح أمره وإفساد أمر ابن الزبير، فقاتل معه يوم المرج، ووجه ابن الزبير أخاه مصعب بن الزبير إلى فلسطين فوجه مروان عمراً الأشدق في جيش لهام، فلقيه قبل أن يدخلها فهزم مصعباً وأصحابه حتى رجعوا إلى المدينة، وكان مروان يعد عمراً بالخلافة بعده، يستدعي بذلك طاعته ويستنزل نصيحته، فكان يقول: الأمر لي بعد مروان فقد ولاني العهد، فلمال استقام لمروان أمره ووجه عمراً إلى ابن جحدم عامل ابن الزبير على مصر – وهو عبد الرحمن بن عتبة بن أبي إياس بن الحارث بن عبد بن أسد بن جحدم بن عمرو بن عابس بن ظرب بن الحارث بن فهر – وفتحت مصر ورجع مروان إلى دمشق، قال لحسان بن مالك بن بحدل الكلبي: إني أريد تولية عهدي عبد الملك وبعده عبد العزيز، وإن عمرو بن سعيد يدعي أنه الخليفة بعدي، وخالد بن يزيد يدعي مثل ذلك، فقال حسان: أنا أكفيك أمرهما، وجمع الناس ثم قام فقال: يبلغ أمير المؤمنين ويبلغنا أن رجالاً يتمنون الأماني ويدعون الأباطيل ويحدثون أنفسهم بما لم يجعله الله لهم، وما أولئك بالراشدين ولا المسددين، فقوموا أيها الناس فبايعوا لعبد الملك ابن أمير المؤمنين ولعبد العزيز من بعده، فقام الناس فبايعوا مسارعين غير مثقلين من عند آخرهم، حتى لم يبق منهم أحد.

المدائني عن خالد بن عطية قال: ولى يزيد بن معاوية عمرو بن سعيد المدينة فشكوه إلى يزيد فعزله، وولى مكانه عثمان بن محمد بن أبي سفيان، فلما قرب من المدينة تلقوه بذي خشب فشكوا إليه عمراً، فلما قدم عثمان خطبهم فمناهم ووعدهم ونال من عمرو وقال: ما كان قرشي ليفعل هذا بقريش، فقال عمرو من تحت المنبر: مهلاً يا عثمان فوالله ما أنا بحلو المذاق وإني لقمن المضرة ولقد ضرستني الأمور وجرستني الدهور فزعاً مرةً وأمنا مرة، وإن قريشاً لتعلم أني ساكن الليل، داهية النهار لا أتتبع الظلام، ولا أقمص حاجبي ولا تستنكر شبهي، ولا أدعى لغير أبي.
وقيل لعمرو بن سعيد إلى من أوصى بك أبوك؟ قال: أوصى إلي و لم يوص بي.

مقتل عمرو بن سعيد بن العاص

قال أبو مخنف في روايته وغيره. كان عمرو بن سعيد أشد الناس في أمر مروان حتى ولي الخلافة، وقاتل معه الضحاك بن قيس الفهري يوم مرج راهط، فلما مات مروان وبويع عبد الملك بالخلافة بلغه أن مصعب بن الزبير بن العوام يريد الجزيرة متوجهاً من العراق، فسار عبد الملك حتى شارف الفرات ومعه عمرو بن

سعيد الأشدق، فقال له عمرو: إنك تشخص إلى العراق فقد كان أبوك أوعدني أن يوليني الأمر بعده، وعلى ذلك قمت بشأنه وحاربت معه، فاجعل لي الأمر بعدك، فلم يجبه عبد الملك بشيء مما يسره، فانصرف عن عبد الملك وقصد إلى دمشق حتى دخلها وقال: إن مروان كان ولاني عهده ولذلك قمت بنصره وصنعت ما أنتم عالمون به، فبايعه عبد الملك بن يزيد بن أسد بن كرز – وهو أبو خالد بن عبد الله البجلي ثم القسري – ثم بايعه وجوه أهل دمشق ومالوا إليه لسخائه وجود كفه، وألقى على سور دمشق المسوح والخشب والكرابيس والفرش المحشوة وتهيأ للحصار واستعد له، وبلغ عبد الملك خبره فانكفأ راجعاً يغذ السير ويجد فيه حتى أتى دمشق، وقد أغلق عمرو أبوابها وجعل على شرطه عبد الله بن يزيد، فحاصره عبد الملك و لم يزل يراسله ويمنيه ويعده، وضمن له أن يوليه بيت المال والديوان ويجعل له ولاية الأمر بعده مقدماً على عبد العزيز، وكتب بينه وبينه بما شرطه له كتاباً، فخرج عمرو إليه وهو في عسكره وكان نازلاً في قصر بالمعسكر وأصحابه حوله، فلما دخل عليه بسطه ووانسه ثم قال: يا أبا أمية إني حلفت أن أجعل في عنقك سلسة وأوثقك بجامعة ثم لا بأس عليك، فأوثق وجعل السلسلة في عنقه، فقال عمرو: يا أمير المؤمنين أخرجني إلى الناس لأقوم فيهم بما تحب وأقول ما تريد، وإنما التمس أن يخرجه من عنده فيخلصه أصحابه وكانوا مطيفين بالقصر، فقال عبد الملك: هيهات أمكراً في السلسلة أبا أمية، ثم قال عبد الملك لبشر بن مروان: قم فاقتله، فأبى، وقال لعبد العزيز: اقتله، فأبى، فأسمعهما وشتمهما وعجزهما، ثم قال لأبي الزعيزعة البربري مولاه: خذه اليك فاقتله، فجره بالسلسلة فقال: ارفق ارفق، وأصاب فمه الأرض وخديه، فقال: فمي فمي فقال عبد الملك: اللهم اخزه فما أحمقه يسأل الرفق ويشكو فمه وهو يُجرّ للقتل، ثم قال لأبي الزعيزعة: لأنصرفن من الصلاة إلا وقد كفيتنيه، فقتله أبو الزعيزعة قبل انصرافه، ذبحه ذبحاً، فلما انصرف عبد الملك من صلاته أمر برأسه فاحتز ورمى به إلى أصحابه الذين حضروا باب القصر، ومعهم يحيى بن سعيد أخوه، فشدّ يحيى على الوليد بن عبد الملك وهو قائم على باب القصر بالسيف، فلما رآه أدبر فضرب به أليته، فبادر الوليد فدخل، وأمن عبد الملك الناس أسودهم وأبيضهم و لم يعرض ليحيى في ذلك الوقت ولا لغيره، ودعا الناس إلى العطاء، ولحق يحيى بن سعيد بمصعب بن الزبير فصار معه، فلما رآه مصعب قال: يا يحيى أفلت العير وانحص الذنب، قال: إنه لبهلبه.

وحدثني هشام بن عمار الدمشقي أنبأنا صدقة بن خالد القرشي عن خالد بن دهقان قال: كان عمرو بن سعيد في عسكر عبد الملك وقد فصل من دمشق وهو يريد العراق فقال له: إن أباك وعدني أن يجعل لي الأمر بعده فبايع لك ولعبد العزيز إن كان بعدك، فاجعل لي العهد بعدك، فقال له: يالطيم الشيطان أو أنت تصلح للخلافة: أنت ذو كبر وجبن وسرف وعجب وإفك ظاهرٍ، لا ولا كرامة ولا نعمة عين،

فانخزل عنه وأتى دمشق ودعا إلى نفسه، وكان سخياً، فبويع وأغلق أبواب المدينة واستعد للحصار، فرجع عبد الملك وترك وجهه ذلك، فحاصره وجعل يرسل إليه ويعده ويرفق به ويحلف له ليولنيه عهده، فقبل ذلك وسكن إليه وخرج إلى عبد الملك، فيقال إنه دخل عليه وهو في قصر كان في عسكره وأصحابه مطيفون به فقتله من يومه.

قال صدقة، وقال غير خالد بن دهقان: أنه فتح أبواب دمشق لعبد الملك فدخلها ونزل في دار الخلافة، وكان عمرو يركب إليه أياماً، ثم إنه جعل في عنقه جامعةً فقال له: يا أمير المؤمنين أنشدك الله أن تخرجني إلى الناس في هذه الجامعة فيروني، وإنما أراد أن يريه كراهته للخروج، يغريه ذلك بإخراجه فيخلصه أصحابه، فقال أمكراً في الجامعة أبا أمية؟ ثم أمر أبا الزعيزعة بقتله فقتله، وجعل يحيى بن سعيد أخوه ومن كان على باب القصر من أصحابه يقولون: يا أبا أمية ما خبرك؟ أسمعنا كلامك؛ فأمر عبد الملك برأسه فاحتز ورمي به إليهم فسكنوا، ووثب أصحاب عمرو على بيت المال بدمشق فانتهبوه، فلم يعرض لهم عبد الملك فيه حتى إذا استقام الأمر أخذهم به فارتجعه وفضل مائة ألف درهم.

قال هشام: وسمعت بعض مشايخنا يحدث أن عبد الملك خرج إلى الصلاة وأمر أبا الزعيزعة أن يقتله قبل انصرافه من الصلاة، فلما ابتدأ عبد الملك صلاته ضج أصحاب عمرو فقالوا: أخرجوه إلينا، فوضع عبد الملك يده على أنفه كأنه قد رعف ثم انسل فدخل القصر، وأمر برأس عمرو فاحتز وألقاه إلى أصحابه فسكنوا.

وحدثني هشام بن عمار عن الوليد بن مسلم حدثني رجل من ولد سعيد بن العاص قال: خرج عبد الملك إلى صلاة العصر، وأقبل يحيى بن سعيد في خلق ينادون: يا أبا امية أين أنت؟ اخرج إلينا، أسمعنا كلامك، فراع ذلك عبد الملك فقال: ما أحسبني على طهر للصلاة، ودخل القصر كأنه يريد الطهور، وإذا عمرو مقتول، فأمر برأسه فألقي إلى اصحابه والناس، ثم وضع لهم المال ودعاهم إلى العطاء فسكتوا.

المدائني عن عليّ بن مجاهد بن عبد الأعْلىَ بن ميمون بن مِهْران قال: لما صالح عمرو بن سعيد عبد الملك دخل عبد الملك دمشق فأقام بها وعمرو يدخل عليه مُكرَماً، فدخل عليه ذات يوم فكلّمه بكلام شديد، فأغلظ له عمرو وقال: إني لأحقّ بالخلافة منك فإن شئتَ فافْسَخ الصلح وأَعِد الحرب، فأمر به فجعلت في عنقه سلسلة وأُوثق بجامعة من فضّة، ثم قال لعبد العزيز بن مروان: قم فاضرب عنقه فأَبى، فقال لأبي الزعيزعة مولاه: لا أرجعنّ من الصلاة إلا وقد قتَلته وأرحتني منه، فخرج إلى صلاة العصر فلما أنصرف وجد أبا الزعيزعة قد ضرب عنقه، فأمر برأسه فألقي إلى أصحابه وكانوا مجتمعين يطلبونه ومعهم يحيى بن سعيد أخوه.

وقال هشام بن عمّار: سمعت من يذكر أن أبا الزعيزعة أدخل سيفه في ظهر عمرو حتى أخرجه من بطنه

ثم جذبه ففاضت نفسُه.

وحدثني حفص بن عمر عن الهيثم بن عَديّ عن ابن عيّاش الهمذاني وأبي جنّاب قالا: قال قبيصة بن ذؤيب الخزاعيّ: كنت عند عبد الملك بن مروان أنا وحسّان بن مالك بن بَحْدَل الكلبي وولده وإخواته وأبو الزعيزعة مولاه فجاء الآذان فأستأذن لعمرو بن سعيد، فأذن له وجعل يقول:

إحْذَرْ عدوّكَ أن يكونَ صُدُيَّقاً وإذا هَمَمتَّ بقتلِهِ فتمكن

أدنيته مني ليسكن روعه فأصول صولة حازمٍ مستمكن

غضباً ومحميةً لديني إنه ليس المسيءْ سبيله كالمحسنِ

ثم التفت إلي وإلى حسان فقال إن شئتما فقوما، فلما نهضنا وقد أقبل عمرو قال عبد الملك وهو يتضاحك: يا حسان أنت أطول من قبيصة، ثم خرجنا فقال حسان: هو والله قاتله، إن عبد الملك رجلٌ ليس في منطقه فضل، إنما مازحنا ليؤنسه ثم يثب به.

قال: وسلم عمرو ثم جلس مع عبد الملك على سريره فحادثه ساعة ثم أقبل أبو الزعيزعة فأخذ السيف عن عاتقه فقال: يا أمير المؤمنين أيؤْخذ سيفي؟ فضحك عبد الملك ثم قال: أوتَطْمع لا أبا لغيرك أن تقعدَ َمعي بسيفٍ بعد الذي كان منك؟ فأطرق عمرو ثم قال له عبد الملك: يا أبا أمية إنّي كنت أعطيت الله عهداً إن ملأت عيني منك مستمكناً أن أجمع يديك إلى عنقك ثم أثقلك حديداً، فقال عبد العزيز بن مروان: ثم تصنع ما ذا يا أمير المؤمنين؟ قال: ثم أطلقه وما عسيت أن أصنع بأبي أمية؟ قم يا أبا الزعيزعة فأت بجامعة وقيدٍ، فأتى بهما وكانا قد أعدا له فصيرهما في عنقه ورجليه، فقال عمرو: نشدتك الله يا أمير المؤمنين أن تخرجني فيهما على رؤوس الناس، فقال: أو مكراً يا أبا أمية، لعمري ما أخرجك فيهما ولا أخرجهما منك إلا صعداً، ثم جذبه أبو الزعيزعة جذبةً سقط منها على وجهه فأصابت قائمة السرير تثنيته فانكسرت، فقال: يا عبد الملك نشدتك الله أن يدعوك كسر عظمٍ مني إلى أن تركبني بأشد منه، فقال: يا أبا أمية لو علمت أن العرب والعجم يبقون هملاً ويصلح أمر قريش فقط لفديتك بدم النواظر، ولكنه والله ما اجتمع فحلان في هجمةٍ قط إلا قتل أحدهما صاحبه، قم يا عبد العزيز فاضرب عنقه؛ وخرج عبد الملك لصلاة العصر وإذا يحيى بن سعيد قد وافى في ألفٍ من مواليه من أهل حمص، فلما أحس به عبد الملك أمسك أنفه بيده كالرعيف وقدم ابن أم الحكم الثقفي وكان خلفه، فصلى ابن أم الحكم بالناس، ودخل عبد الملك القصر فقال لعبد العزيز: ما صنعت؟ قال: يا أمير المؤمنين ناشدني الله والرحم فكرهت

قتله، فقال: أخزى الله أمك البوالة على عقبيها فإنكّ لم تشبه غيرها - وكانت أمه ليلى بنت زبان بن الأصبغ الكلبي - أدنه يا غلام، فأضجع له ثم ذبحه بيده بالسيف ذبحاً وهو يقول:

يا عمرو إلا تدع شتمي ومنقصتي أضربك حيث تقول الهامة اسْقوني

قال: وانقضت الصلاة وخرج يحيى بن سعيد إلى الباب في مواليه وأصحابه، فكثر ضجيجهم وجعلوا يقولون: أسمعنا صوتك يا أبا أمية، فخرج إليهم الوليد بن عبد الملك في موالي عبد الملك وغيرهم فناوشوهم فأصابته ضربة على أليته وذلك الصحيح- ويقال على رأسه- فأخذه ابن أرقم فأدخله بيتا وأجاف عليه الباب، ودخل عبد الرحمن بن أم الحكم من باب المسجد فقال لعبد الملك: أيها الرحل ما صنعت فقد جل الخطب؟ قال: قتلته، قال: أصاب الله بك الخير والرشد، فأخذ ابن أم الحكم الرأس فرمى به إلى أصحاب الأشدق فانكسروا حين يئسوا منه، وأمر عبد الملك ببيت المال ففتح ونادى في الناس أن احضروا أعطياتكم، فأقبل الناس وتركوا ما كانوا فيه.ووضع لعبد الملك سرير فخرج فجلس عليه وهو يقول: اين الوليد والله لئن كانوا أصابوه لقد أدركوا ثأرهم، فأخبر بمكانه وأنه لم يصب فأمسك، وأمر عبد الملك فنودي: من أتى بيحيى بن سعيد أو بأحد من ولد سعيد فله ألف دينار فأخذوا جميعاً من ساعتهم فأمر بإشخاصهم إلى الكوفة فصار يحيى مع مصعب بن الزبير.

المدائني عن سحيم بن حفص قال: انتدب قوم يقاتلون عن عمرو بن سعيد فبعث إليهم عبد الملك قوماً فقاتلوهم وعليهم خالد بن الحكم بن أبي العاص.

قالوا: وقال عوانة بن الحكم: كان عبد الملك يتمثل قبل قتل عمرو.

يا عمرو إلا تدع شتمي ومنقصتي أضربك حتى تقول الهامة اسقوني

وحدثني عباس بن هشام الكلبي عن أبيه عن جدّه عن أبي صالح ابن عباس أنه بلغه قتل عبد الملك عمراً الأشدق فقال: أيها الناس إن عبد الملك قتل ابن عمه وابن عمته بعد أن آمنه فلا تأمنوه ولا تصدقوه.

قالوا: وكان ابن الحنفية قد شخص يريد عبد الملك بن مروان، فلما بلغه قتله عمراَ بعد الذي أعطاه من المواثيق استوحش فانصرف إلى الحجاز.

وقال يحيى بن الحكم بن أبي العاص، ويقال بشر بن مروان:

أعيني جودا بالدموع على عمرو عشية شددنا الخلافة بالغدر

كأنَّ بني مروان إذ يقتلونه بغاثٌ من الطير اجتمعن على صقر

فرحنا وراح الشامتون بنعشه كأن على أكتافها فلق الصخر

لَحا الله دنيا تدخل النار أهلها وتهتك ما دون المحارمِ من سترِ

وما كان عمروٌ عاجزا غير أنه | أتته المنايا بغتة وهو لا يدري

وقال يحيى بن سعيد أخو الأشدق:

غدرتم بعمرو يا بني خيط باطل | ومثلكم يبني البيوت على الغدر
وددت وبيت الله أني فديته | وعبد العزيز يوم يضرب في الخمر

وكان مصعب بن عبد الرحمن بن عوف ضرب عبد العزيز في شراب، ويقال بل حدة عمرو بن سعيد.

وحدثني أحمد بن إبراهيم الدورقي حدثنا وهب بن جرير بن حازم عن أبيه عن أشياخه قال: بايع عبد الملك أهل الشام والجزيرة، إلا زفر بن الحارث الكلابي فإنه غلب على قرقيسسياء وتحصن بها، فخرج إليه عبد الملك وخلف بعقبه عمراً الأشدق،فغلب على دمشق وأغلق أبوابها وأعطى أهلها عطايا كثيرة، فرجع عبد الملك حين أتاه الخبر، فأغلق عمرو أبواب المدينة وتحصن، فقال له عبد الملك: إنك إذا أفسدت أمر أهل بيتك، وأطمعت فيهم عدوهم، وفيما صنعت قوةٌ لابن الزبير، أرجع إلى بيعتك وطاعتك فإني اجعل لك العهد وأنفذ كل ما أعطيت من الأموال، فرضي وفتح الأبواب ودخل عبد الملك المدينة، ومع عمرو خمسمائة رجل يترلون حيث نزل، فقال عبد الملك لحاجبه: ويحك أتستطيع إذا جاء عمرو بن سعيد أن تغلق الباب دون أصحابه؟ قال: نعم، قال: فافعل؛ وكان عمرو عظيم الكبر لا يرى لأحد عليه فضلاً ولا يلتفت إذا مشى، فلما جاء فتح له الحاجب، وأعوانه بالباب دون أصحاب عمرو، ومضى وهو لا يلتفت وهو يظن أن أصحابه قد دخلوا معه كعادهم، فعاتبه عبد الملك طويلاً وكان قد أوصى أبا الزعيزعة صاحب شرطه أن يضرب عنقه، فكلمه عبد الملك فأغلظ له، قال لعبد الملك: أتستطيل عليّ كأنك ترى أن لك عليّ فضلاً، إن شئت نقضت العهد بيني وبينك ثم نصبت لك الحرب، فقال عبد الملك: فقد شئت، فقال عمرو: قد فعلت، ثم قال عبد الملك: يا أبا الزعيزعة شأنك به، فنظر عمرو فإذا ليس أصحابه في الدار، فسقط في يده، فدنا من عبد الملك فقال: وما يدنيك مني؟ قال: أستعطفك بما بين الرحم والقرابة، فقال لأبي الزعيزعة: إيه، فقتله أبو الزعيزعة فقال عبد الملك: ارموا برأسه إلى أصحابه، فلما رأوه تفرقوا وخطب عبد الملك فذكر عمراً وشقاقه وما جنى بعقوقه ومروقه وادعائه ما ليس له حتى قتله،وأنشد:

أدنيته مني ليسكن نفره | وأصول صولة حازمٍ مستمكنِ
غضباً ومحميةً لديني إنه | ليس المسيء سبيله كالمحسنِ

وكان عبد الملك إذا توعد رجلاً قال: إن جامعة عمرو عندي، والله لا يدخل فيها عنق رجل فيخرج منها إلا صعداً؛ وقال هذه المقالة في خطبته بالكوفة.

ومن ولد سعيد بن العاص سوى

الأشدق

يحيى بن سعيد ويكنى أبا أيوب، وهو الذي ضرب الوليد بن عبد الملك ولحق بمصعب، فكان عبد الملك مغيظاً عليه، فلما قتل مصعب آمن الناس كلهم إلا نفراً يحيى أحدهم ثم كلم فيه فتركه؛ وولده بالكوفة وواسط.

قال هشامٍ ابن الكلبي: لما ولد يحيى بن سعيد استرضع من بني كنانة، فأتاه قوم من كنانة في حمالة فمتوا إليه بالرضاع فلم يصنع بهم خيراً، فقال بعضهم:

وربتك منا كهلةٌ نوفليةٌ لها في بني الدِيلِ الكرامِ عروقُ

رأيت أبا أيوب للصهر منكراً وما أنت يا يحيى لذاك خليق

غذوناك يا يحيى فكان جزاؤنا لك الخير فيكم جفوةٌ وعقوقُ

فاعتذر وقضى حاجتهم.

ومن ولد يحيى بن سعيد هذا عنبسة بن يحيى الذي يقول فيه الشاعر العدواني:

إذا ما جئت عنبسة بن يحيى رَجَعَتَ مقلداً خُفَّيْ حنيْنِ

يظنك حين تطْلُبُه لأكلٍ غريماًجاء يطْلُبُهُ بدينِ

فما هو بالمؤمل من قريشٍ ولا هو بني العاصي بِزينِ

وسعيد بن يحيى بن سعيد

وولده في جعفي وكان شريفاً، وحدثني المدائني عن عليّ بن مجاهد عن عبد الأعلى بن ميمون بن مهران قال: حبس عبد الملك سعيد بن يحيى بن سعيد أربعين يوماً، ثم دعا به وعنده رجال من خاصته فشاورهم في قتله فقال بعضهم: أقتله، وقال بعضهم: لا تقتله، فقال عبد الله بن مسعدة الفزاري: إن له يا أمير المؤمنين رحماً وقرابة، والعفو أقرب للتقوى، وأنت أحق بالفضل، فمن عليه وسيره إلى عدوك تكف أمره بخيل من خيلك، فلحق بعبد الله بن الزبير فقال له: الحق بمصعب.

ومحمد بن سعيد بن العاص

وولده بالشام وأمه أم الأشدق.

وعبد الله بن سعيد

وولده بالكوفة وواسط، هو الذي مدحه الأخطل فقال:

فمن يَكُ سائِلاً ببني سعيدٍ فعبد الله أكبرهم نصابا
أيجمع نوفلاً وبني عكب كلا الحيين أفلح من أصابا

فقال عبد الملك: كذب الأخطل، عثمان بن سعيد أكبرهم نصاباً. وأم عثمان بن سعيد ابنة عثمان بن عفان وولده بالكوفة، وأم عبد الله بنت جبير بن مطعم بن عدي بن نوفل بن عبد مناف، وأم أمه من بني عِكَبّ من بني تغلب.

وعنبسة بن سعيد بن العاص

وكان أثيراً عند الحجاج، ولم يزل معه لا يفارقه، وأمه أمةٌ يقال لها عصماء، وولده بالمدينة والكوفة، وبقي بعد الحجاج، ومات وقد هرم، ويكنى أبا خالد.

قالوا: ولما ولد عنبسة قال سعيد ليحيى ابنه: أنحله قال: وما أنحله وهو ابن أمة؟ فنحله دجاجةً فقال سعيد: لئن صدق القائل ليكونن أكثرهم ولداً.

ومن ولد عنبسة عبد الله بن عنبسة، وكان بمكة قبل أيام داود بن عليّ وهو والي الحجاز، وعبد الرحمن بن عنبسة بن سعيد كان شريفاً بالكوفة.

وأبان بن سعيد بن العاص

بن أبي أحيحة:

كان يترل أيلة للعزلة، فخطب عائشة ابنة عثمان بن عفان فقالت: ما أنزله أيلة إلا سقوطه وتمثلت:

مقيمٌ بجحر الضب لا أنت ضائرٌ عدواً ولا مستنفعاً أنت نافعٌ

وله يقول عبد الله بن عنبسة بن سعيد وهو ابن أخيه:

أتركت طيبة رغبةً عن أهلها ونزلت منتبذاً بدير القنفذِ

فأجابه:

أَوطَنتُ أرضاً بُرُّها كترابها والفقر معدنُهُ بقصر الجنبدِ

وولد أبان بالكوفة.

وعبد الرحمن بن سعيد

وكان ابنه سعيد بن عبد الرحمن بن سعيد مع يزيد بن عمر بن هبيرة وفيه يقول خلف بن خليفة:

وأما سعيدٌ إذا ما مشى فحبلى تُرادُ لها قابلِهْ

وكان عظيم البطن وقتل مع ابن هبيرة.

وكان لعنبسة بن سعيد ابن يقال له الحجاج بن عنبسة سماه الحجاج باسمه فآمنه المنصور، وله عقب.

ومن بني عمرو الأشدق

موسى بن عمرو الذي يقول فيه ابن قنيع النصري:

وكل بني العاصي حمدت عطاءه وإني لموسى في العطاء للائم

وليس بمعطٍ نائلاً وهو قاعدٌ وحسبك من بخل امرئٍ وهو قائم

فإن يك من قومٍ كرامٍ فإنه ذنابى أبت أن تستوي والقودام

فزعموا أن خالد بن سعيد قال: والله ما أعطى أحدٌ خيرا قط حتى يقعد.

ومنهم إسماعيل بن عمرو بن سعيد وهو صاحب الأعوص الذي قال فيه عمر بن عبد العزيز: لو أن لي من الأمر شيئاً لوليت صاحب الأعوص.

ومنهم إسماعيل بن أمية بن عمرو الأشدق الفقيه وكان بمكة.

وسعيد بن عمرو الأشدق وكان أعلم قريش بالكوفة وولده بها، وفيه يقول داود بن متمم بن نويرة:

إن تجفني بشر بن مروان يكفني سعيد بن عمروٍ ذو الندى ابن سعيد

فتى وجد الخيرات قد قدمت له مساعي آباءٍ له وجدود

وعمرو بن أمية بن عمرو بن سعيد الشاعر.

وزعم أبو اليقظان: ان معيقيب بن أبي فاطمة الدوسي كان مولى أو حليفاً لأبي أحيحة، وكانت له صحبة وكان بها جذام، وكان لسعيد بن العاص مولى له يقال له أبو رافع، وله ابن يقال له رافع، وله ابن يقال له عبيد الله، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أعتق رافعاً، فكان يدعي ولاء رسول الله صلى الله عليه

وسلم، فضربه الأشدق بالسياط حتى قال: أنا مولاك، وقد ذكرنا خبره في موالي رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما قتل الأشدق قال عبيد الله بن أبي رافع:

صحت ولا شك وضرب عدوها يمين هراقت مهجة ابن سعيد

وجدت ابن مروان الرشيد فعاله أبياً حديد العزمِ غير بليدِ

هو ابن أبي العاص قراراً وينتمي إلى عصبةٍ طابت له وجدودِ

وولد أبو العيص بن أمية

أسيد بن أبي العيص، أمه أروى بنت أسيد بن علاج الثقفي، وأمها صفية بنت وهب بن الحارث بن زهرة، وكانت أم أسيد الثقفي سوداء، فكان أبو سفيان وولده يسبون بالسواد، وأروى بنت أبي العيص أمها رقية مخزومية فتزوج أروى أبو جهل بن هشام؛ وعمي أسيد بن أبي العيص، لم يدرك الإسلام.

فمن ولد أسيد أبي العيص: عتاب بن أسيد بن أبي العيص، أسلم يوم فتح مكة فحسن إسلامه واستعمله رسول الله صلى الله عليه وسلم على مكة فقال له: يا رسول الله أصحبك وأكون معك، فقال له: "أو ما ترضى بأن استعملتك على أهل الله"، فلم يزل عليها حتى قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم، وولاه رسول الله الطائف أيضاً، وأمره أن يخرص أعناب النخل؛ ولما استخلف أبو بكر رضي الله تعالى عنه أقره خلافته كلها، فماتا جميعاً لم يعلم واحد منهما بموت صاحبه. ولما حضرت عتاباً الوفاة استخلف محرز بن حارثة بن ربيعة بن عبد العزى بن عبد شمس، فأقره عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه؛ أقره خلافته كلها، فماتا جميهاً لم يعلم واحد منهما بموت صاحبه. ولما حضرت عتاباً الوفاة استخلف محرز بن حارثة بن ربيعة بن عبد العزى بن عبد شمس، فأقره عمر بن الخطاب رضي الله عنه؛ وقال الهيثم بن عديّ: بقي عتاب إلى خلافة عمر ومات بمكة وذلك وهم، وقال مصعب بن عبد الله الزبيري: جاء نعي أبي بكر حين توفي عتاب.

وحدثني عمر بن شبة عن أبي عاصم النبيل عن خالد بن أبي عثمان قال: قال عتاب بن أسيد: ما أصبت من عمل إلا ثوبين معقدين كسوتهما غلامي كيسان.

وولد عتاب بن أسيد عبد الرحمن بن عتاب، وأمه جويرية بنت أبي جهل، وأمها بنت أبي العيص، وكان من رجال قريش، وشهد الجمل مع عائشة فقتل فمر بع على عليّ بن أبي طالب عليه السلام فقال: هذا يعسوب قريش، ويقال إن كفه قطعت فاحتملها عُقاب فأصيبت ذلك اليوم بحجر من اليمامة، فعرفت

بخاتمه.

وكان لعبد الرحمن هذا ابن يقال له سعيد ويلقب الطرس لسواده، وفيه يقول عبيد بن حصين الراعي:

أبلغ سعيد بن عتاب مغلغلةً إن لم تغلك بأرضٍ دونه غولُ

وكان معبد بن علقمة المازني عنده فخرج فوجد سرجه مكسوراً، فلم يعطه سرجاً مكانه فقال:

ألا فأبلغنا ابن أبي سعيد جزاه الله شراً من عميد

فلو في دار طلحة دقَّ سرجي لآداني على سرجٍ جديدِ

وما اعروريت تحت الليل لبداًعلى بغلٍ وسيساءٍ حديد يقال اعروريت الدابة: إذا ركبتها عُرياً.

ومن ولده أم الجلاس بنت سعيد بن عبد الرحمن بن عتاب، وأمها من تيم قريش تزوجها الحجاج بن يوسف الثقفي.

ومن ولد عتاب بن أسيد حليلان وهو عتاب بن عتاب بن سعيد بن عبد الرحمن بن عتاب بن أسيد بن أبي العيص بن أمية، وأمه أمة، وكان من فتيان أهل البصرة، وكان صاحب حمام وصيد ولهو وشرب ينتابه الفتيان والمغنون وأصحاب الشطرنج والنرد، واستشهده رجلٌ من رجل بمال فدعاه إلى الشهادة، فخاف ألا يجيز شهادته، فغرم المال افتداءً من الشهادة، وكان ذا يسار وسخاءٍ يصوغ الغناء ويتغنى للناس أيضاً، وكان لحليلان ابن يقال له سعيد، صاحب نبيذ، وكان حسن المذهب سخياً.

وكان كنية بن أسيد أبا عبد الرحمن، وأمه وأم خالد بن أسيد بن أبي العيص زينب بني أبي عمرو بن أمية، وأسلم خالد بعد فتح مكة وتوفي بمكة، ويقال أنه استشهد باليمامة، ويزعم قوم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مر به فسلم عليه فلم يرد فقال: "اللهم جنبهم النصر وألزمهم العجز"، فلم يلق احد من ولده أحداً إلا هزمه العدو.

فولد خالد بن أسيد: أمية بن خالد، وعبد الله بن خالد، وأبا عثمان. فأما عبد الله بن خالد فكان ذا قدر، ولاه زياد أردشيرخره من فارس، ويقال ولاه فارس بأسرها، ووهب له ابنه جوانبوذان بن المكعبر فولدت له الحارث بن عبد الله، وكتب زياد إلى معاوية وعبد الله بن خالد عنده أن ابعث الي رجلاً من قريش يكون بقربي فإن حدث بي حدث استخلفته، فكتب إليه: اختر من شئت، فاختار عبد الله بن خالد، فكان عند زياد وهو صلى عليه حين مات، وجعله خليفته فلم يزل قائماً بعمله حتى قدم الضحاك بن قيس الفهري والياً على الكوفة، فلعبد الله بن خالد يقول قبيع النصري:

وأنت كريم من لؤي بن غالبٍ وقومك أقوامٌ وأنت شريفُ

فولد عبد الله بن خالد بن أسيد أمية بن عبد الله، وخالد بن عبد الله، وعبد الرحمن، وأمهم بنت شيبة بن عثمان العبدري يقال لها أم حجر؛ وعبد العزيز بن عبد الله، وعبد الملك بن عبد الله، وأمهما أم حبيب بنت جبير بن مطعم؛ وعمران، والقاسم، وعمر، ومحمداً، والمخارق، والحصين، وأبا عثمان لأمهات شتى.

فأما أمية بن عبد الله بن خالد فكان يكنى أبا عبد الله، استعمله زياد على السوس، ثم على الأُبُلة وكور دجلة، وزوجه رملة بنت زياد، وكان أمية جواداً، فتوجه إلى أبي فديك عبد الله بن ثور الخارجي وهو بالبحرين، ففر أبو فُديك، فقال الفرزدق:

جاءوا على الريح أو طاروا بأجنحةٍ	ساروا ثلاثاً إلى الجلحاء من هجرا

حدثنا خلف بن سالم حدثنا وهب بن جرير عن أبيه عن عمه مصعب بن زيد ومحمد بن أبي عُيينة قالا: خرج أبو فديك بالبحرين فلقيه أمية بن عبد الله فهزم، فركب أمية فرساً له جواداً كان يقال له المهرجان فدخل البصرة عليه في ليلتين، فقال يوماً وهو بالبصرة: لقد سرت على المهرجان إلى البصرة فدخلتها في ليلتين، فقال بعضهم: هذا المهرجان فلو ركبت النوروز لم تسر إلا ليلةً حتى تدخلها.

وحدثنا خلف وأحمد بن إبراهيم الدورقي قالا: حدثنا وهب بن جرير عن أبيه عن مصعب بن زيد وغيره أن خالد بن عبد الله قدم البصرة فتجهز لقتال الحرورية، ثم خرج إليهم وهم بنهر تيرى، وكان بإزائه قطريّ، وخرج أبو فديك بالبحرين، فبعث إليه خالد أخاه أمية فهزم، فبعث عمر بن عبيد الله بن معمر فقتله، ثم استعمل عبد الملك أمية على خراسان فمكث عليها حيناً، ثم أتى دمشق فمات بها، وصلى عليه عبد الملك وقال: أما إني أعلم أن بقائي بعده قليل.

وكان أمية ولى ابنه عبد الله بن أمية سجستان فقال أبو حُزابة:

إني وإن كنتُ كبيراً نازحاً	يطرح القفر بي المطارحا
أَلقى من الغرام برحاً بارحا	لمادحٌ إني كفى بي مادحا
من لم أجد في العرض منه قادحا	إن لعبد الله وجهاً واضحا
ونسباً في الصالحين صالحا	النافحين بالندى المنافحا

وخرج عبد الله بن أمية مع ابن الأشعث فآمنه الحجاج وبعث بعه إلى عبد الملك، فلما دخل عليه قال: ويلك أخرجت مع ابن الأشعث؟ فقال: إنما مثلي ومثلك قول الشاعر:

إذا نزوات الحب أحدثن بيننا	عتاباً تراجعنا وعاد العواطفُ

فقال له: كذبت يا أحمق، وعفا عنه.

وولد لعبد الله بن أمية عبد الله، أمه ابنة ضرار بن القعقاع، وأبو عثمان، وإبراهيم، وعبد العظيم.

وكان عبد العظيم فاضلاً ناسكاً، وذكروا أنه سأل الحسن البصري عن لعب الشطرنج فقال: لا بأس ما لم تحلفوا عليها، وتزوج محمد بن سليمان بن عليّ ابنته نُهية، ثم خلف عليها إسحاق بن سليمان وماتت عنده.

وكان عبد الله بن أبي عثمان بن عبد الله بن أمية بن خالد بن أسيد ولي البصرة، وذلك أن أهلها اصطلحوا عليه حين قتل الوليد بن يزيد بن عبد الملك، وهرب القاسم بن محمد الثقفي عامل يوسف بن عمر عليها، وهو القائل:

ما قريشٌ بمنكرين إذا ما قلتُ إني كريمها وفتاها

وأقره عبد الله بن عمر بن عبد العزيز على البصرة، ويقال إنه كان المتولي لحفر نهر عبد الله بن عمر بالبصرة، ثم ضعف أمره لأنه لم يكن معه جند فولى عمرو بن سهيل بن عبد العزيز بن مروان البصرة وعزله، وكان ابن أبي عثمان هذا يشذ حين اصطلحوا عليه في كل أيام ساعة، فيصير إلى مترله فيأتيه وجوه البصرة فيردونه.

وحدثني حفص بن عمر عن الهيثم بن عدي عن ابن عياش أن أمية بن عبد الله بن خالد بن أسيد قال لأبيه: والله ماعندك شيء أقوى به، وقد أردت التزويج، وما أظنني إلا سآتي زياداً فأخطب إليه، فقال: يابني والله ما أحب أن تخلط سمنك بإهالته، قال: فرحل إلى زياد وهو بالبصرة فقال: يابن أخي ما أقدمك؟ قال: لتصلني وتزوجني، قال: نعم ونعمة عينٍ، فزوجه آمنة زياد، ثم دعا كاتبه على الخراج فقال: اطلب له كورةً يعيش بها مرتفعة عن عمق السواد، متنحية عن حزونة الجبال وبردها فقال الكاتب: السوس، فولاه إياه فقال أمية: والله ما كنت أفرش إلا الخزّ، ولا أستشعر إلا به، ولا اشرب إلا السكر، ولقد عزلت عنها وما أظن أحداً يلبس إلا الخز ولا يأكل إلا السكر، ثم ولاه كور دجلة، وولاه عبد الملك خراسان ثم عزله وضم خراسان إلى الحجاج.

وحدثن عليّ بن المغيرة الأثرم عن معمر بن المثنى قال عبد الملك كانت عند عبد الله بن خالد بن أسيد أم حجر الحجبية وكانت موسرة، فضاق عبد الله ضيقاً شديداً فقال لأم حجر: إني خارج إلى معاوية فأصحبيني جاريةً تخدمني، فاصحبته جارية لها فزانية سوداء، فخرج إلى معاوية وهي معه، فوصله معاوية وأسنى له العطية، فانصرف إلى مترله وبالجارية حبلٌ، فسألتها أم حجر عن حبلها فقالت: هو من عبد الله

بن خالد، فقال عبد الله: والله ما وطئتها قط، أو مثلي يطأ مثلها، وحلف على كذبها،فولدت غلاماً فسمي رشيداً فكان يخدمهم، ومات عبد الله وبلغ رشيد أربعين سنة فأعتقته أم حجر، فاكتنى أبا عثمان، وادعى أنه ابن عبد الله بن خالد.

وأمر عبد الأعلى بن أبي عثمان لخلفٍ الأقطع بشيء و لم ينفذه فقال:

أراك إذا هممت بفعل خيرٍ	هممت لدفع ذاك بأمر شرٍّ
أبت لك ذاك أماتٌ ثلاثٌ	من الأحبوش هُنَّ لشرٍّ نجر
ولم يُعتق أبوك من اعتبادٍ	أبو عثمان إلا بعد دهر
ألم تك أمهُ أمةً لُكاعاً	من الفزان قينة أمٍّ حجر
تعممت الخبيث على اعتداءٍ	بلا إذن الحليلة أو بمهرِ

وأبو عثمان جد الحسن بن محمد بن أبي الشوارب عبد الملك بن محمد بن عبد الله بن أبي عثمان بن عبد الله بن خالد بن أسيد قاضي سرمن رأى.

خبر يوم الجفرة بالبصرة

سنة تسع وستين:

كان يقال لها جفرة نافع ثم سميت جفرة خالد.

قالوا: وأما خالد بن عبد الله بن خالد بن أسيد فكان جواداً، ويكنى أبا سعيد، وكان بالشام مع عبد الملك يحبه ويستصحبه.

فحدثني عباس بن هشام عن أبيه عن أبي مخنف بإسناده أن خالداً قال لعبد الملك: وجهني إلى البصرة في جماعة من أهل الشام آخذها لك وأدعو الناس إلى طاعتك، فقال له: اذهب بكتبي إلى وجوه أهلها وامض مستخفياً، وأنا متبعك جنداً كثيفاً مع رجل أثق به، فسار خالد حتى دخلها وعليها من قبل مصعب بن الزبير عمر بن عبيد الله بن معمر القرشي ثم التيمي، وجهه إليها من الكوفة عند مقتل المختار بن أبي عبيد، وكان صاحب شرطته عباد بن الحصين الحبطي من بني تميم، وكان مصعب يستخلفه عليها ويوليه تدبير الأمر فيها إذا حضرها أو غاب عنها، فترل خالد على عليّ بن أصمع الباهلي، فعجز عليّ عن الذبِّ عنه ومنعه من عباد إن أراده، فدله على مالك بن مسمع بن شهاب أحد بني جحدر بن ضبيعة بن قيس بن ثعلبة بن عكابة، فأتى مالكاً فاستجار به وأوصل إليه كتاباً من عبد الملك، فسره ما وعده فيه ومناه

فأجاره، وبعث إلى من يثق به من أهل البصرة ممن كتب إليه عبد الملك بن مروان وغيرهم، فأتاه زياد بن عمرو العتكي في الأزد إلا آل المهلب، ووافته خيول بكر بن وائل إلا آل شقيق بن ثور السدوسي، واجتمعت إليه شيعة بني أمية من العثمانية، وأتاه صعصعة بن معاوية عم الأحنف، وكان ممن كتب إليه عبد الملك، وأتاه عبيد الله بن أبي بكرة، ثم قدم عليه عبيد الله بن زياد بن ظبيان من الشام في جيش سرحه معه عبد الملك إلى خالد كما وعده، وكان عبيد الله بن زياد بن ظبيان قد خلع مصعباً ولحق بعبد الملك بن مروان لأن مصعباً قتل أخاه النابئ بن زياد فكان حنقاً عليه، فسأل عبد الملك أن يكون الذي يوجهه إلى العراق لمحاربته، فسرحه إلى خالد بذلك الجيش وأمره أن يسمع له ويطيع، فاجتمعوا بالجفرة التي تعرف بجفرة خالد، وزحف إليهم عمرو بن عبيد الله بن معمر في الزبيرية ومن معه من أهل البصرة فاقتتلوا أشد قتال وأبرحه وفقئت عين مالك بن مسمع يومئذٍ، ثم إن القوم كرهوا الحرب وخافوا أن يتفانوا فتحاجزوا، وأقبل مصعب بن الزبير من الكوفة حين بلغه خبر خالد عبد بن عبد الله بن خالد وشغل عبد الملك بن مروان عنه بعمرو وبزفر بن الحارث، وكتابه إلى خالد أنه لايمكنه ورود العراق في عامه لما انتشر عليه من الأمور، فوهن أمر خالد، وطلب مالك بن مسمع بن شهاب ومن معه ممن أنجد خالداً الأمان من عمر بن عبيد الله فآمنهم، وهرب خالد بن عبد الله حتى أتى عبد الملك، وهرب أيضاً مالك بن مسمع إلى قرية من قرى اليمامة لبكر بن وائل يقال لها ثاج، فلم يزل بها إلى أن صالح عبد الملك زُفر بن الحارث الكلابي وانصرف إلى الشام ثم شخص إلى العراق فقتل مصعباً، ويقال إنه رجع إلى البصرة في أيام حمزة بن عبد الله ثم رجع إلى ثاج، ويقال أيضاً أن مصعباً استؤمن له حين رجع إلى البصرة.

وولى له بالبصرة، فأكرم مالكاً ومن كان أجاره وقاتل معه، فكان عبيد الله بن زياد بن ظبيان أتى الشام بعد الجفرة ثم قدم العراق مع عبد الملك، ويقال إنه اعتزل في بعض النواحي حتى أقبل عبد الملك إلى العراق فأتاه.

وحدثني عليّ بن المغيرة الأثرم عن معمر بن المثنى عن أبي عمرو قال: كان قيس بن الهيثم ويكنى أبا كبير خليفةً للحارث بن أبي ربيعة – وهو القباع – على البصرة أيام ابن الزبير، وكان ممن قاتل مالك بن مسمع مع الزبيرية وهو على فرس مجلجل، وقد استأجر قوماً يقاتلون معه فكانوا يرتجزون:

لساء ماتحكم يا جلاجل النقد دين والطعان عاجلُ

وأنت بالماء ضنينٌ باخلُ

وحدثنا خلف بن سالم حدثنا وهب بن جرير حدثنا أبي قال:– ولا أعلمه إلا عن مصعب بن زيد – أن أشراف أهل العراق إلى عبد الملك بن مروان يدعونه إلى أنفسهم ويخبرونه أنهم مبايعوه، فلم يبق بالبصرة شريف إلا كتب إليه غير المهلب بن أبي صفرة، فبعث عبد الملك خالد بن عبد الله بن خالد بن أسيد ليقاتل في طاعته، فقدم وقد كان الطاعون الجارف وقع بالبصرة، وذلك في سنة تسعٍ وستين، فكثر الموت بالبصرة حتى جعل أهل الدار يموتون عن آخرهم لا يجدون من يدفنهم، وأمير البصرة يومئذ عمرو بن عبيد الله بن معمر بها، استعمله عليها مصعب فقدم خالد على مالك بن مسمع وعسكره بجفرة خالدٍ، ومال إليه كثير من الناس، فكان ممن أتاه من الأزد معن بن المغيرة بن أبي صفرة، وكان قد عتب على المهلب في تأخير صلته، فكان القوم يغدون إلى المربد ثم يفترقون: فرقة إلى خالد وفرقة إلى المصعبية فإذا رجعوا رجع الأخوان أحدهما من هؤلاء وأحدهما من هؤلاء فيقول هذا: فعلنا بكم، ويقول هذا: فعلنا بكم، فلم يزالوا على ذلك حتى هرب خالد بن عبد الله وتفرق أصحابه وهرب مالك إلى اليمامة، فلما قتل عبد الملك مصعباً ودخل الكوفة بعث خالداً أميراً على البصرة، واستعمل بشر بن مروان أخاه على الكوفة، وبلغ ذلك مالك بن مسمع وهو باليمامة، فأقبل حتى دخل البصرة، فأتى دار الإمارة على ناقته، ففتح له الباب فدخل حتى أناخ على بساط خالد، وأقطعه عبد الملك قطائع كثيرة ووصله، وكتب عبد الملك إلى المهلب وهو بإزاء الحرورية: إن الناس مجتمعون على بيعتي، فإن دخلت فيما دخل الناس فيه عرفنا لك منزلتك وشرفك، وإن لم تفعل استعنا بالله عليك، فكتب إليه: أما إذ اجتمع الناس فإني لم أكن أشق عصا المسلمين، ولا أسفك دماءهم، ولا أفرق جماعتهم، فكتب إليه بإقراره على ماهو بسبيله.

وحدثني العمري عن الهيثم بن عدي قال: التقى الأموية والزبيرية بالبصرة ففقئت عين مالك بن مسمع، وقال وهب بن أبجر العجلي:

ونحن صرمنا أمر بكر بن وائل	وأنت بثاجٍ لا تمر ولا تحلي
هجرت لجيماً أن أصبت زيادةً	وعذت بهم عند الزلازل والأزل
فلا ترج خيراً عند بابِ ابن مسمعٍ	إذا كنت من حيي حنيفة أو عجلِ

قال: فقال جرير:

وفينا كما أدتْ ربيعةُ خالداً	إلى قومهِ حرباً ولما يسالم

وحدثنا خلف بن سالم حدثنا وهب بن جرير عن محمد بن أبي عيينة عن ذكوان مولى أبي عيينة قال: لما قدم خالد البصرة واجتمعت الحرورية بالأهواز خرج إليها خالد في نحو تسعين ألفاً من أهل البصرة

والكوفة ومن أمده به بشر بن مروان، فقاتلته الخوارج وفلوه ونادوا: يا خالد يا مخنث، فأتى البصرة، وكان رئيس الخوارج قطري، وكان خالد قد وجه أخاه عبد العزيز إلى جماعة من الخوارج انحازوا إلى فارس، بعد قتل أبي فديك، فهزموه أقبح هزيمة وفضحوه، فكتب خالد بأمر الخوارج إلى عبد الملك وقال للمهلب: ما ظنك بأمير المؤمنين؟ قال: أحسبه سيعزلك فما كنت صانعاً فاصنعه فقال: أتراه ينسى بلائي ويستخف بحق قرابتي؟ قال المهلب: إن الناس حديثو عهدٍ بفتنة، ويبلغه ما لقيته من الخوارج ويأتيه خبر أخيك عبد العزيز فيخاف أن يطمع فيما قبلك ويجترأ عليك، فتنتشر الأمور ويضيع العمل، فعزله عبد الملك وجمع البصرة والكوفة لبشر بن مروان.

قالوا: ولما قتل عبد الملك مصعباً ودخل الكوفة ولاها حين أراد الرجوع إلى الشام قطن بن عبد الله بن الحصين الحارثي أربعين يوماً أو شهرين، ثم عزله وولى بشراً أخاه، فاستخلف بشر على الكوفة حين ولي البصرة عمرو بن حريث، ثم قدم البصرة فأقام أشهراً، ثم احتضر فاستخلف خالداً على عمله حتى قدم الحجاج وقد شد خالد على بيت المال فأخرج جميع ما فيه ففرقه على الناس، فيزعمون أنه جلس مجلسين فلم يقم حتى فرق ألف ألف درهم؛وكان الحجاج أراد حبسه ومحاسبته، فأمر عبد الملك أن لا يعرض له فتركه، فلما شخص عن البصرة شيعة القرشيون، ففرق فيهم ثلاثمائة ألف درهم.

وقال المدائني وأبو عبيدة: أقبل عبد الملك من الشام يريد العراق ومعه خالد بن عبد الله بن خالد بن أسيد فقال له: إن وجهتني إلى العراق وأتبعتني خيلاً يسيرة كفيتك البصرة، فوجهه عبد الملك فقدمها مستخفياً في خاصته ومواليه حتى نزل على عليّ بن أصمع الباهلي، فأرسل إلى عباد بن الحصين وهو على شرطة ابن معمر: إني قد أجرت خالداً وأنا أحب أن أتعلم ذلك وتكون لي ظهيراً، فبعث إليه: والله لا أنزل عن فرسي حتى آتيك في الخيل، فقال ابن أصمع لخالد: لا أغرك إن عباداً يأتينا الساعة ولا أقدر على منعك ولكن عليك بمالك بن مسمع، ويقال ان نزوله كان على عمرو بن أصمع، وأن عباداً أرسل اليه ابتداءً: إنه قد بلغني نزول خالد عليك، وأنا موافيك في الخيل.

المدائني عن مسلمة وعوانة قالا: فخرج خالد من عند ابن أصمع يركض وعليه قميص قوهي رقيق، وقد حسر عن فخذيه وأخرج رجليه من الركابين حتى أتى مالكاً فقال: إني قد اضطررت إليك فأجرني، قال: نعم، وخرج وبنو أخيه فأرسل إلى بكر بن وائل والإزد، فكانت أول راية أتته راية بني يشكر،وأقبل عباد بن الحصين في الخيل فتوافقوا و لم يقتتلوا، فلما كان الغد بدروا إلى جفرة نافع بن الحارث التي نسبت بعد إلى خالد، ومع خالد رجال من بني تميم وافوه، وهم: صعصعة بن معاوية وعبد العزيز بن بشر ومرة بن محكان الربيعي، ومعه عبيد الله بن أبي بكرة وحمران ومغيرة بن المهلب، وكان على الزبيرية قيس بن الهيثم

السلمي، وكان يستأجر الرجال يقاتلون معه، فتقاضى رجل أجرته فقال: غداً أعطيتك إياها، وكان في عنق فرسه جلاجل، فقال رجل يقال له غطفان بن أنيف أحد بن كعب بن عمرو بن تميم:

لبئسَ ما حكمتَ يا جلاجلُ　　النقدُ دينٌ والطعانُ عاجلُ

وأنتَ بالبذلِ ضنينٌ باخلُ

وكان على خيل بني حنظلة عمرو بن وبرة العجيفي، وكان له عبيد يؤاجرهم كل يوم بثلاثين فيعطيهم عشرةً عشرةً، فقيل له:

لبئس ما حكمت يا بن وبرة　　تعطى ثلاثين وتعطي عشرةْ

ووجه مصعبُ بن الزبير زحر بن قيس الجعفي مدداً لا بن معمر في ألف، ووجه عبد الملك عبيد الله بن زياد بن ظيبان بن الجعد أحد بني عائش بن مالك بن تيم الله بن ثعلبة بن عكابة مدداً لخالد، فوافى وقد تفرق الناس عنه، فلحق بعبد الملك.

أبو الحسن المدائني عن رجل عن السكن بن قتادة قال: اقتتلوا أربعة وعشرين يوماً فأصيبت عين مالك بن مسمع، فضجوا من الحرب، ومشت السفراء بينهم وفيهم: يوسف بن عبد الله بن عثمان بن أبي العاص الثقفي، فصالحهم ابن معمر على أن يخرج خالداً من البصرة وهم آمنون، فخرج خالد فلحق بالشام، وخاف مالك ألا يجيز مصعب أمان عمر بن عبيد الله أو عبيد الله بن عبيد الله بن معمر فلحق مالك بثاج، فقال الفرزدق:

عجبتُ لأقوامٍ تميمٌ أبوهمُ　　وهمْ في بني سعدٍ عظامُ المباركِ

وكانوا أعزّ الناس قبلَ مصيرهمْ　　إلى الأزدِ مصفراً لحاها ومالك

وما ظنكم بابنِ الحواريِّ مصعبٍ　　إذا أفترَ عنْ أنيابه غيرَ ضاحكِ

ونحنُ نفينا مالكاً عنْ بلادهِ　　ونحنُ فقأنا عينهُ بالنيازكِ

وقال بعض بني حنظلة:

أبلغ أبا حسان أنكَ إنْ تعدْ　　تعدْ لكَ بالبيضِ الخفافِ تميمُ

تقاضوكَ عيناً منكَ حتى قضيتها　　ورحتَ وفي الأخرى عليك خصومُ

وقال غطفان بن أنيف:

كيف رأيت نصرنا الأميرا　　بصرحةِ المربدِ إذ أبيرا

يقودُ فيهِ جحفلاً جروراً　　الخيلَ والصلادمَ الذّكورا

وصارماً ذا هيئةٍ مأثورا فأصبحَ ابنُ مسمعٍ محصورا

يرى قصوراً دونهُ ودورا

وقال الشاعر لمصعب:

ألحقْ أميةَ بالحجازِ وخالداً واضرب علاوةَ مالكٍ يا مصعبُ

فلئن فعلت لتحزمن بقتلهِ وليصفونْ لكَ بالعراقِ المشربُ

وقال آخر:

أخافُ عليكَ زيادَ العراقِ وأخشى عليكَ بني مسمعِ

فقال مصعب: يكفي الله مؤونتهم.

قالوا:ولما بويع مصعب وانصرف عبد الملك إلى دمشق بسبب عمرو الأشدق لم يكن له همة إلا البصرة، وطمع أن يدرك خالداً، فلما قدمها وجده قد خرج، ووجد ابن معمر قد آمن الجفرية، فغضب على ابن معمر وحلف أن لا يوليه، وأرسل إلى الجفرية فشتمهم وأنبهم قال: نصرتم ابن طريد رسول الله صلى الله عليه وسلم على ابن حواريه، وأقبل على عبيد الله بن أبي بكرة فقال: يا بن مسروح إنما أنت ابن كلبة تعاورتها الكلاب فجاءت بأحمر وأسود وأصفر من كل كلبٍ ما يشبهه، وإنما كان أبوك عبداً نزل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من حصن الطائف، تدعون أن أبا سفيان زنى بأمكم، أما والله لئن بقيت لالحقنكم بنسبكم، ثم دعا بحمران فقال: يا بن اليهودية إنما أنت علج نبطي سبيت من عين التمر وكان أبوك يدعى أبي. ثم قال للحكم بن المنذر بن الجارود: يا بن الخبيثة اللخناء أتدري من أنت ومن الجارود؟ إنما كان علجاً بجزيرة ابن كاوان فارسياً فقطع إلى ساحل العرب فانتمى إلى عبد القيس، ولا والله ما أعرف حياً أشد إشتمالاً على سوءة منهم ثم انكح أخته المكعبر الفارسي فلم يصب شرفاً قط أعظم من ذلك، فهؤلاء ولدها يا بن قباذ؛ثم أتي بعبد الله بن فضالة الزهراني فقال: ألست من أهل هجر ثم من أهل سماهيج؟ أما والله لأردنك إلى نسبك. ثم بعلي بن أصمع فقال: أنت غبد لبني تميم مرة، وعربي من باهلة مرة. ثم أتي بعبد العزيز بن بشر بن حناط فقال: يا بن المشتور ألم يسرق عمك في زمن عمر فأمر به فسير ليقطعه؟ أما والله ما أعيب إلا من نكح أختك، وكانت أخته تحت مقاتل بن مسمع، ثم أتي بأبي حاضر الأسدي فقال: يا بن الإصطخرية وما أنت دعي في بني أسد. ثم أتي بزياد بن عمرو فقال: يا بن الكرماني إنما أنت علج من أهل كرمان قطعت إلى فارس فصرت ملاحاً، مالك وللحروب؟ أنت بجر القلس أعلم. ثم أتي بعبد الرحمن بن عثمان بن أبي العاص فقال: أعلي تكثر وأنت علج من أهل هجر لحق أبوك

بالطائف، وهم يضمون من تأشب إليهم ليتعززوا به، أما والله لأردنك إلى أصلك، ثم أتي بشمخ بن النعمان فقال:يا بن الخبيثة أنت علج من أهل زندورد هربت أمك وقتل أبوك فتزوج أخته رجل من بني يشكر فجاءت بغلامين فألحقك بنسبهما. ثم ضربهم مائةً مائةً، وحلق رؤوسهم ولحاهم، وهدم دورهم، وصهرهم في الشمس ثلاثاً، وحملهم على طلاق نسائهم،وجمر أولادهم في البعوث، وطاف بهم في أقطار البصرة، وأحلفهم أن لا ينكحوا الحرائر؛ فلما استقام الأمر لعبد الملك أمر ببناء دورهم. وبعث مصعب خداش بن يزيد في طلب من هرب من أصحاب خالد، فأدرك مرة بن محكان فقال:

بني أسدٍ إن تقتلوني تحاربوا ... تميماً إذا الحرب العوان أشمعلت
بني أسدٍ هل عندكم من هوادةٍ ... فتعفوا وإن كانت بي النعل زلت
أيمشي خداشٌ في الأزقةِ آمناً ... وقد نهلت مني الرماحُ وعلتِ

فضربه خداش فقتله وكان على شرط مصعب يومئذٍ، وهدم مصعب دار مالك بن مسمع وأخذ ما كان فيها فكان مما أخذ جارية ولدت له عمر بن مصعب، و لم يزل مصعب بالبصرة حتى أتى الكوفة ثم مسكن فقتل.

قالوا: لما قتل مصعب وثب حمران بن أبان، وعبيد الله بن أبي بكرة تنازعا ولاية البصرة، فقال ابن أبي بكرة: أنا أعظم غناءً منك، أنا كنت أنفق على أصحاب خالد بن عبد الله يوم الجفرة، فقيل لحمران: إنك لا تقوى على ابن بكرة فاستعن بعبد الله بن الأهتم، فاستعان به فغلب حمران على البصرة، وجعل ابن الأهتم على شرطها، وكان لحمران عند بني أمية منزلة، وزعموا أن رداء حمران زال عن كتفه فابتدره مروان وسعيد بن العاص أيهما يسويه، وقيل إنه مد رجله فابتدرها معاوية وابن عامر أيهما يغمزها؛ ومكان الحجاج حبس حمران لأنه ولي لخالد بن عبد الله سابور فكتب إلى عبد الملك:

لو بغير الماء حلقي شرقٌ ... كنت كالغصبان بالماء اعتصاري

فكتب إلى الحجاج: إن حمران أخو من مضي منا، وعم من بقي، وهو ربع من أرباع بني أمية،فلا تعرض له وأكرمه واعرف له حقه، ففعل واعتذر إليه ورد عليه ما استأداه، وبعث بذلك مع غلمان وهبهم له، وكان الذي أغرمه مائة ألف درهم، فقصمها في أصحابه، وقال للغلمان:أنتم أحرار.

المدائني قال: ولي خالد بن عبد الله البصرة سنتين فوجه في ولايته أخاه أمية إلى أبي فديك إلى البحرين فهزمه أبو فديك، ووجه أخاه عبد العزيز بن عبد الله إلى الأزارقة بفارس فهزموه أيضاً، وأخذوا امرأته أم حفص بنت المنذر بن الجارود فقتلوها، فقال الفرزدق:

كل بني السوداء قد فر فرةً فلم يبق إلا فرة عند خالد

فضحتم قريشاً بالفرار وأنتم لدى الحرب أنكاس قصار السواعد

فطلبه خالد فلحق ببشر بن مروان وقال:

وما كف عني خالد عن تقيةٍ ولكن بدت دوني الليوث الهواصر

غداة رأى من مالك تحت غابها ورائي ودوني من يخاف المحاذر

تحللت إذا أقسمت أنك قاتلي وكفر إذا آليت أنك قادر

أتوعدني والمالكان كلاهما ورائي وسعد والحلول الكراكر

هم منعوني من زياد وقد رأى زياد مكاني وهو للناس قاهر

ومن مصعب حيث القباع لخوفه علي ولم تستطعني زماجر

وقال ابن أبي بكرة:

تداركني من خالد بعد أن التقت على ودجي أنيابه ومخالبه

قال أبو الحسن: ولما قتل مصعب خرج رسول فطم إلى مالك بن مسمع وهو بثاج يبشره بقتله، فقدم وخالد بن عبد الله بالبصرة قد قدمها والياً، فجاء يسير حتى أناخ ناقته على بساط خالد، فقال العديل بن الفرخ:

أنيخت على ظهر البساط فلم تثر على رغم من أمسى عدواً لخالد

ثم أنصرف مالك إلى داره وقد هدمت، فعدل عنها فتزل في بني جحدر، ولم يمكث مالك إلا سبع عشرة ليلة حتى هلك، حتى هلك، فدفن عند دار عيسى بن سليمان حيث دفن بعده بشر بن مروان، وجاء مالك فخاصم في الجارية التي أخذها مصعب، فمات قبل أن يحكم له بها.

وقال الأخطل يمدح خالد بن عبد الله بن خالدبن أسيد، وقدم إليه وهو بالبصرة:

إلى خالد حتى أنحن بخالدٍ فنعم الفتى يرجى ونعم المؤمل

أخالد مأواكم لمن حل واسعٌ وجدواك غيثٌ للصعاليك مرسل

أبى عودك المعجوم إلا صلابة وكفاك إلا نائلاً حين تسأل

ألا أيها الساعي ليدرك خالداً تناه وأقصر بعض ما كنت تفعل

فهل أنت إذا إن مد المدى لك خالدٌ موازٍ له أو حاملٌ ما يحمل

وحدثني عبد الله بن صالح العجلي عن ابن عوانة عن عوانة قال: كان خالد وأمية أبنا عبد الله بن خالد بن أسيد عند عبد الملك بن مروان، فقدمت عليه عير من العراق عليها مالٌ حمله الحجاج بن يوسف، فقال عبد الملك: هذا والله الجلب الأغر لا جلبكما، أما أنت يا خالد فاستعملتك على البصرة وهي تهدم بالأموال فاستعملت كل ذئب فاجر: تحمل من العشرة درهماً وتحتجن التسعة لنفسك، وأما أنت يا أمية فإني وليتك خراسان وسجستان وهما يقلسان الذهب والفضة، فبعثت إلي ببرذون حطم وحريرتين ومفتاح فيه رطل من ذهب زعمت أنه مفتاح مدينة الفيل، وما مدينة الفيل قبحها الله، فإذا استعملناكم أسأتم وقصرتم، وإذا أستعملنا غيركم قلتم: حرمنا وقطع أرحامنا وآثر علينا غيرنا، والملك لا يصلح إلا بالرجال، والرجال لا يقيمهاإلا الأموال، والأموال لا تجتمع إلا بالتوفير والأحتياط وأداء الأمانة، فقال خالد: بعثتني إلى البصرة والناس بها رجلان: رجل هواه معك، ورجل هواه لسواك، فأعطيت الذي هواه معك لأستبثت مودته وأستديم طاعته، وأعطيت الذي يهوى غيرك متألفاً لأجتر هواه وأعطف قلبه وأستنزل نصيحته، وكان أتخاذ الرجال أحب إلي وأصوب عندي من جمع الأموال، وإن الحجاج جمع الأموال وأوغر صدور الرجال، فكأني بهم أنتقضوا عليه، فأنفقت هذه الأموال وأضعافها، فلما خرج أهل العراق على الحجاج قال عبد الملك: يا خالد هذا مصداق ما قلت.

وحدثني الحسن بن عليّ الحرمازي عن أبي الحسن المدائني عن عبد الله بن مسلم قال: قال عبد الملك بن مروان: إنا لنولي الرجل فيخون ويعجز كأنه يعرض بخالد بن عبد الله بن خالد بن أسيد، فقال خالد: أما العجز فأنه لم يعجز من وطأ لك مجلسك هذا، وأما الخيانة فما طلب العمل إلا لاصطناع المعروف، وما زال الناس من لدن عثمان يصيبون من هذا المال: أنت وغيرك، فسكت عبد الملك.

وحدثني عباس بن هشام الكلبي عن أبيه عن أبي مسكين المدني قال: باع خالد بن عبد الله ثمرة أبيه وحمل ثمنها في كمه، فلقيه أبو صخر الهذلي فقال له: هب لي هذه الدنانير التي في كمك، فقال: والله ما مدحتني قط، قال: بلى والله قبل أن تولد، قال: وما قلت؟ قال: قلت:

إذا نفس المولود من آل خالدٍ بدا كرمٌ للناظرين يطيب

قال: خذها فهي لك، فأتى أباه عبد الله بن خالد فسأله عن ثمن الثمرة فأخبره بخبرها فقال: أحسنت، وكانت ثلاثمائة دينار.

وكان سعيد بن خالد بن عبد الله بن خالد بن أسيد جواداً يقال له عقيد الندى، فمدحه موسى شهوات فقال:

فداً للكريم العبشمي أبن خالدٍ | بني ومالي طارفي وتليدي
عقيد الندى ما عاش يرضى به الندى | فإن مات لم يرض الندى بعقيد
أبا خالدٍ أعني سعيد بن خالدٍ | أخا العرف لا أعني ابن بنت سعيد
ولكنني أعني ابن عائشة الذي | كلا أبويه خالد بن أسيد
دعوه دعوه أنكم قد رقدتم | وما هو عن إحسانكم برقود

وأم عقيد الندى عائشة بنت عبد الله بن خلف الخزاعي أخت طلحة الطلحات الجواد، وأبوه خالد، وجده خالد بن أسيد، وكل واحد منهما ابن أسيد، وابن بنت سعيد: سعيد بن خالد بن عمرو بن عثمان بن عفان أمه آمنة – ويقال حميدة– بنت سعيد بن العاص بن أبي أحيحة فهو ابن بنت سعيد، ويقال أنه كان يغلب على عقله ستة أشهر ويفيق ستة فيكون أصح الناس وأسخاهم، وقد ذكر ذلك أبو اليقظان.

وحدثني عبد الله بن صالح المقرئ عن ابن عوانة عن أبيه عن جده قال: شكا سعيد بن خالد بن عمرو بن عثمان بن عفان موسى شهوات إلى سليمان بن عبد الملك وقال هجاني، وقال سليمان لموسى: لا أم لك أتهجو سعيد بن خالد وهو ابن أمير المؤمنين عثمان؟ فقال: يا أمير المؤمنين أحدثك بقصتي وقصته عشقت جارية لبعض أهل دمشق، فأبى أهلها أن ينقصوها من مائتي دينار، فأتيت سعيد بن خالد هذا فأخبرته بذلك وسألته أن يشتريها لي، فقال: بورك فيك، فقال سليمان: ما هذا بموضع بورك فيك، قال: ثم أتيت سعيد بن خالد بن عبد الله بن خالد بن أسيد فشكوت إليه ذلك فدعا بمطرف خز فبسط ثم قال: يا جارية صري في كل جانب منه مائتي دينار وفي وسطه مائتي دينار، ثم قال: خز المطرف بما فيه، فأخذته وفيه ألف دينار فقلت، وأنشده الأبيات التي تقدم ذكرها، وزاد فيها ببيت وهو:

فقل لبغاة الخير قد مات خالدٌ | ومات الندى إلا فضول سعيد

قال: فقال سليمان بن عبد الملك: قل ما بدا لك فلا تلام.

المدائني عن سحيم قال: كان عبد العزيز بن عبد الله بن خالد بن أسيد سيداً وجهه أخوه خالد إلى الخوارج بفارس وعليهم قطري فهزموه وقتلوا أصحابه وأخذوا امرأته أم حفص بنت المنذر بن الجارود، فمر بالمهلب فكساه ووصله وحمله، فقال الشاعر:

عبد العزيز فضحت جيشك كلهم | وتركتهم صرعى بكل سبيل
هلا صبرت مع الشهيد مقاتلٍ | إذ رحت تمعن هارباً بأصيل
وتركت عرسك والرماح شوارع | عار عليك إلى الممات طويل

الشهيد: مقاتل بن مسمع كان معه فقتل.
وولي عبد الملك بن عبد العزيز بعد ذلك مكة، فمدحه رجل من بني الحارث بن كعب فقال:

أبا خالد إني أعوذ بخالدٍ وما جاره بالمستذل المغرر
أعوذ ببرديه اللذين أرتداهما كريم المحيا طيب المتأزر

وعزل عبد الملك عبد العزيز وولى بعده أخاه عمرو بن عبد الله، وبقي عمرو إلى دولة بني العباس.
وأما عبد الملك بن عبد الله بن خالد بن أسيد فله شرفٌ وعقب بالبصرة.

ومن ولد عبد الرحمن بن عبد الله بن خالد بن أسيد العالية بنت عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الرحمن بن عبد الله بن خالد بن أسيد، تزوجها المنصور أمير المؤمنين، وبعث إسحاق الأزرق فحملها من الحجاز، وحمل إليه امرأة أخرى تزوجها من ولده طلحة بن عبيد الله التيمي.

وولد أبو العاص بن امية

عفان وعفيف بن أبي العاص درجا، وعوفاً درج في الجاهلية، وصفية، أمهم آمنة بنت عبد العزيز بن حارث من بني عدي، والحكم، والمغيرة، وريحانة تزوجها بشر بن دهمان الثقفي، أمهم رقية بنت الحارث بن عبيد بن عمر بن مخزوم؛ فأما صفية فتزوجها أبو سفيان بن حرب، وسعيد بن أبي العاص درج، وخالدة تزوجها الأخنس بن شريق الثقفي، ولبابة أمها صفية بنت ربيعة بن عبد شمس، تزوجها غيلان بن سلمة بن معتب الثقفي، وأم حبيب بنت أبي العاص تزوجها أمية بن أبي الصلت الثقفي الشاعر.
وأما المغيرة بن أبي العاص فولد معاوية بن المغيرة، وأمه ابنة صفوان بن نوفل بن أسد بن عبد العزى، فولد معاوية بن المغيرة عائشة أم عبد الملك بن مروان، وكان معاوية بن المغيرة جدع أنف حمزة بن عبد المطلب، فقتل بأحد بعد انصراف قريش بثلاث، ولا عقب له سوى عائشة، وأم عائشة ابنة عقبة بن أبي معيط.
وكانت لمعاوية بن المغيرة بن أبي العاص ابنة يقال لها أم جميل، تزوجها سفيان بن عبد الأسد المخزومي، وكانت له ابنة ثالثة يقال لها عمرة تزوجها أبو تجراه النصراني فهم يعابون بذلك.
وقال المدائني: لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم الحكم وولده إلا المؤمنين منهم،وسيره النبي صلى الله عليه وسلم إلى بطن وج.
وقال المدائني: في آل الحكم يقول حسان، وكانوا في الجاهلية فقراء:

لقد أبصرتكم عن غير بعد | وما تلقون في بيت بساطا
وكان أبي لكم في الدهر نكلاً | وفي الإسلام كنت لكم علاطا

فقال عبد الله بن عمر: علاط سوء، وقال عبد الملك: ما كان ابن الزبير يعيرنا به؟ قالوا: الفقر.

فولد عفان بن أبي العاص عثمان بن عفان ويكنى أبا عمرو وأبا عبد الله، وآمنة وأرنب وأم طلحة، أمهم أروى بنت كريز بن ربيعة بن حبيب بن عبد شمس، فأما آمنة فتزوجها الحكم بن كيسان حليف بني المغيرة ثم تزوجها عبد الله بن أبي سعد – ويقال ابن يعد – حليف أبي أمية بن المغيرة، ويقال أنه من سعد العشيرة.

وقتل عفان بالغميصاء مع الفاكه بن المغيرة، ويقال إنه مات بالشام في تجارة، ومات عفان وحرب بن أمية في شهر واحد، وقال الحارث بن أمية الأصغر بن عبد شمس وكان شاعراً:

والله لو لا أن حرباًدعامة | لقلت على عفان ما يسمع الصما
أفي نصف شهرٍ كان موتهما معاً | لقد جاء أهل الله ما ينطق البكما

وإخوة عثمان لأمه: الوليد، وخالد، وعمارة، وأم كلثوم، بنو عقبة بن أبي معيط.

وقال المدائني: لم يكن لعفان نباهةٌ فقال الشاعر:

عفان أول حائك لثيابكم | قدماً وقد يدعى أخا الأشرار

ولكن جاء والله الإسلام فشرف عفان بعثمان، والحمد لله.

بسم الله الرحمن الرحيم

أمر عثمان بن عفان وفضائله وسيرته ومقتله رضي الله تعالى عنه

أم عثمان أروى بنت كريز وأمها أم حكيم البيضاء بنت عبد المطلب، توأمة عبد الله والد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان عثمان يدعى في الجاهلية أبا عمرو، فلما ولدت رقية بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله أكتنى أبا عبد الله، وكناه المسلمون بذلك.

وكانت أم حكيم بنت عبد المطلب ترقص عثمان في صغره فتقول:

ظني به صدق وبر | يأمره ويأتمر
من فتيةٍ بيضٍ صبر | يحمون عورات الدبر
ويضرب الكبش النعر | يضربه حتى يخر
من سررٍ ومن آخر

المدائني قال: نزل عصفان بن قيس اليربوعي على أروى بنت كريز فقري وأكرم فقال:

خلف على أروى السلام فإنما جزاء الثوى أن يعف ويحمدا

حدثني محمد بن سعد مولى بني هاشم عن الواقدي محمد بن عمر عن محمد بن صالح عن يزيد بن رومان قال: خرج عثمان وطلحة بن عبيد الله على أثر الزبير بن العوام حين أسلم، فدخلا على النبي صلى الله عليه وسلم فعرض عليهما الإسلام وقرأ القرآن فأمنا وصدقا. وقال عثمان: يا رسول الله قدمت حديثاً من الشام، فلما كنت بين معال وموضع سماه إذا منادٍ ينادي: أيها النيام هبو إن أحمد قد خرج بمكة، فقدمنا فسمعنا بك، فلم أتمالك أن جئتك.

قالوا: ولما أسلم عثمان بن عفان أوثقه عمه الحكم بن أبي العاص بن أمية رباطاً وقال: أترغب عن دين آبائك إلى دين محدث؟ والله لا أحلك أبداً! فلما رأى صلابته في دينه تركه، وحلفت أمه أروى بنت كريز ألا تأكل له طعاماً ولا تلبس له ثوباً ولا تشرب له شراباً حتى يدع دين محمد، فتحولت إلى بيت أخيها عامر بن كريز فأقامت به حولاً، فلما أيست منه رجعت إلى مترلها.

قالوا: وأتى عثمان رضي الله تعالى عنه أبا أحيحة فقال له: إني قد آمنت واتبعت محمداً صلى الله عليه وسلم،فقال: قبحت وقبح ما جئت به. ثم خرج من عنده وأتا أبا سفيان بن حرب فأعلمه إسلامه فعنفه. وكان عثمان ممن هاجر الهجرتين جميعاً إلى أرض الحبشة فراراً من قريش بأديانهم وتنحياً عن أذاهم ومكروههم، وكانت معه في هجرته الثانية رقية بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "وإنهما لأول من هاجر إلى الله تعالى بعد إبراهيم ولوط". ثم هاجر إلى المدينة، ولما هاجر من مكة إلى المدينة نزل على أوس بن ثابت الأنصاري من بني النجار، فأقطعه رسول الله صلى الله عليه وسلم داره التي في المدينة وآخى بينه وبين عبد الرحمن بن عوفن وآخى أيضاً بينه وبين أوس بن ثابت، ويقال: آخى بينه وبين سعد بن عثمان الزرقي من الأنصار، ويكنى أبا عبيد.

وحدثنا محمد بن سعد عن الواقدي عن مالك بن أنس عن العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه أن عثمان دفع مالاً مضاربةً على النصف.

وحدث ابن دأب عن داود بن الحصين عن عبد الله بن عمرو بن عثمان قال: قال عثمان: دخلت على خالتي بنت عبد المطلب أعودها وعندها رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت له: يا أبا القاسم ما أعجب ما يقال عليك مع مكانك منا، فقال: "يا عثمان لا إله إلا الله"، الله يعلم أني قد اقشعررت ثم قال: "وفي السماء رزقكم وما توعدون، فورب السماء والأرض إنه لحقٌ مثل ما أنكم تنطقون" فخرج فاتبعته

فأسلمت.

المدائني عن سعيد بن خالد عن صالح بن كيسان عن سعيد بن المسيب قال: نظر رسول الله إلى عثمان فقال: "هذا التقي المؤمن الشهيد شبيه إبراهيم".

وحدثني محمد بن سعد عن الواقدي عن عتبة بن جبيرة عن الحصين بن عبد الرحمن بن عمرو بن سعد بن معاذ عن محمد بن لبيد أنه رأى عثمان على بغلة عليه ثوبان أصفران وراءه غديرتان.

حدثني محمد بن سعد عن خالد بن مخلد عن الحكم بن الصلت عن أبيه قال: رأيت عثمان وعليه خميصة سوداء وهو مخضوب بالحناء.

المدائني عن شعبة عن حصين قال: قلت لأبي وائل: أعليٌّ أفضل أم عثمان؟ قال: عليّ إلى أن أحدث، فأما الآن فعثمان.

وحدثني محمد بن سعيد حدثنا عفان بن مسلم حدثنا يزيد بن هارون عن ابن أبي ذئب عن عبد الرحمن بن سعد قال: رأيت عثمان على بغل مصفراً لحيته.

حدثنا محمد بن سعد عن الواقدي عن عبد الله بن محمد عن ثابت بن عجلان عن سُليم أبي عامر قال: رأيت على عثمان برداً ثمنه مائة دينار.

حدثنا عفان حدثنا حمَّاد بن سلمة أنبأنا عبد الله بن عثمان بن خثيم حدثنا إبراهيم عن عكرمة عن ابن عباس قي قوله الله عز وجل "هل يستوي هو ومن يأمر بالعدل" قال: عثمان بن عفان.

وحدثني محمد بن سعد عن الواقدي عن ابن أبي سبرة عن مروان بن أبي سعيد قال: حدثني الأعرج عن محمد بن ربيعة بن الحارث قال: كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يوسعون على نسائهم في اللباس الذي يُصان ويتجمل به، ثم يقول: رأيت على عثمان مطرف خزٍّ ثمنته مائة دينار، فقال: هذا لنائله، كسوتُها إياه فأنا ألبسه لأسرّها بذلك.

حدثنا عبد الله بن صالح عن ابن أبي الزناد عن أبيه قال: كان عثمان يتختَّم في اليسار.

حدثنا محمد بن سعد عن الواقدي في إسناده قال: كان عثمان ربعة ليس بالطويل ولا القصير حسن الوجه رقيق البشرة كث اللحية أسمر اللون عظيم الكراديس بعيد ما بين المنكبين كثير شعر الرأس يصفِّر لحيته.

حدثنا محمد بن الصباح البزاز حدثنا محمد بن الصباح البزاز حدثنا هشيم بن بشير عن حفص عن عمرو بن جأوان عن الأحنف بن قيس قال: رأيت على عثمان ملاءة صفراء.

حدثنا محمد بن سعد عن الواقدي عن واقد بن أبي ياسر أن عثمان كان قد شدّ أسنانه بالذهب، قال واقد بن أبي ياسر: وأخبرني عبيد الله بن أبي دارة أنه كان بعثمان سلس البول فكان يتوضأ لكل صلاة.

حدثنا عمرو بن محمد الناقد وأحمد بن إبراهيم الدورقي قالا: أنبأنا أبو أسامة عن عليّ بن مسعدة الباهلي عن عبد الله الدومي قال: كان عثمان يلي وضوء الليل بنفسه فقيل له: لو أمرت بعض الخدم لكفاك، فقال: الليل لهم يستريحون فيه.

حدثنا محمد بن سعد حدثنا عفان أنبأنا وهيب بن خالد عن يونس عن الحسن قال: رأيت عثمان بن عفان نائماً في المسجد متوسداً رداءه.

حدثنا خلف بن هشام البزار حدثنا هُشيم أنبأنا محمد بن قيس عن موسى بن طلحة قال: رأيت عثمان على المنبر يوم الجمعة والمؤذنون يؤذنون وهو يحدث الناس ويستخبرهم عن أسعارهم وأخبارهم ومرضاهم.

وروى الواقدي في إسناده عن موسى بن طلحة قال: رأيت عثمان على المنبر، فذكر نحوه وزاد فيه: فإذا سكت المؤذن قام فتوكأ على عصاً له عقفاء وخطب وهي بيده ثم يجلس فيبتدىء كلام الناس فيسألهم كمسألته الأولى ثم يقوم فيخطب ويقيم المؤذنون.

حدثنا عفان حدثنا سُليم بن أخضر عن ابن عون عن ابن سيرين قال: كان عثمان أعلمهم بالمناسك وبعده ابن عمر.

وحدثنا عفّان بن مسلم، حدثنا وهيب بن خالد، أنبأنا خالد الحذاء، حدثني أبو قلابة عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أصدق أمتي حياءً عثمان".

حدثنا محمد بن سعد حدثنا عبد الله عن نمير عن قيس عن أبي إسحاق عن رجل سماه قال: رأيت رجلاً طيب الريح نظيف الثوب قائماً يصلي إلى الكعبة وغلام خلفه كلما تعايا فتح عليه فقلت: من هذا؟ قالوا: عثمان.

حدثنا عبد الله بن محمد بن أبي شيبة حدثنا زيد بن الحباب أنبأنا ابن لهيعة عن يزيد بن عمر المعافري قال: سمعت أبا ثور الفهمي يقول: قال عبد الرحمن بن عُديس البلوي وكان ممن بايع تحت الشجرة: دخلنا على عثمان وهو محصور فقال: إني رابع الإسلام.

محمد بن أبان والمدائني عن أبي هلال عن قتادة قال: قال رجل بالكوفة: أشهد أن عثمان قُتل شهيداً، فأُتي به عليّ عليه السلام فقال له علي: وما علّمك؟ قال: فأنت تعلم، أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنت حاضر فسألته فأعطاني، وسألت أبا بكر فأعطاني، وسألت عمر فأعطاني، وسألت عثمان فأعطاني، فقلت للنبي صلى الله عليه وسلم: ادع لي بالبركة، فقال: "وكيف لا يبارك الله لك إنما أعطاك نبي أو صديق أو شهيد".

وحدثنا خلف البزار حدثنا أبو شهاب عن خالد عن أبي قلابة عن أنس قال: قال رسول الله صلى الله

عليه وسلم: "أرحمكم أبو بكر، وأشدكم في الدين عمر، وأقرؤكم أُبيّ، وأصدقكم حياءً عثمان، وأعلمكم بالحلال والحرام معاذ بن جبل، وأفرضكم زيد بن ثابت، ألا وإن لكل أمة أمينا وأمين هذه الأمة أبو عبيد بن الجراح".

حدثنا أحمد بن إبراهيم الدورقي حدثنا يحيى بن الحجاج عن أبي مسعود الجريري عن ثمامة بن حزن القشيري قال: أشرف عثمان من داره علينا فقال: ائتوني بصاحبيكم اللذين ألباكم علي، قال فجيء بهما كأنهما حماران فقال: أنشدكما الله هل تعلمان أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قدم المدينة وليس بها مساء مستعذب إلا بئر فقال: "من يشتري بئر رومة فيجعل دلوه فيها مع دلاء المسلمين بخير له منها الجنة"؟ فاشتريتها من صلب مالي؟ قالا: اللهم نعم، قال: فأنشدكما الله والإسلام هل تعلمان أن المسجد ضاق بأهله، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من يشتري بقعة آل فلان لتُزاد في المسجد بخيرٍ لهمنها الجنة"؟ فاشتريتها ممن صلب مالي؟ قالا: اللهم نعم، قال: فأنشدكما الله هل تعلمان أني جهزت جيش العسرة من مالي؟ قالا: اللهم نعم، قال: أنشدكما الله هل تعلمان أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان بثبير – أو قال بحراء – فتحرك الجبل حتى تساقطت حجارته إلى الحضيض فركضه برجله فقال: "اسكن، فما عليك إلا نبي أو صديق أو شهيد"؟ قالا: اللهم نعم.

حدثنا أحمد بن إبراهيم ومحمد بن حاتم بن ميمون قالا: حدثنا عبد الله بن ادريس قال: سمعت حصيناً يذكر عن عمرو بن جأوان عن الأحنف بن قيس قال: قدمنا حاجين فإنا لبمنى إذ أتى آتٍ فقال: إن الناس قد اجتمعوا في المسجد، فانطلقنا فإذا الناس مجتمعون على نفر في وسط المسجد، وإذا عليّ والزبير وطلحة وسعد بن أبي وقاص، قال: فإنا كذلك إذ جاء عثمان وعليه لملاءة صفراء قد قنع بها رأسه فقال: أنشدكم الله الذي لا إله إلا هو، أتعلمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "من ابتاع مربد بني فلان غفر الله له"، فابتعته له بعشرين – أو قال: بخمسة وعشرين – ألفاً فقال: "اجعله في مسجدنا واجره لك"؟ قالوا: نعم، قال أنشدكم الله أتعلمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "من ابتاع بئر رومة غفر الله له"، فابتعتها بكذا وكذا، فقال: "اجعلها سقاية للمسلمين وأجرها لك"، قالوا: اللهم نعم، قال: أنشدكم الله هل تعلمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نظر في وجوه القوم فقال: "من جهز هؤلاء – يعني جيش العسرة – غفر الله له"، فجهزهم حتى لم يفتقدوا عقالاً ولا خطاماً؟ قالوا: نعم، قال اللهم اشهد، اللهم اشهد، اللهم اشهد.

وحدثني عمر بن بكير عن هشام ابن الكلبي عن أبيه عن أبي صالح عن ابن عباس قال: تدارأ عثمان والزبير في شيءٍ فقال الزبير أنا ابن صفية، فقال عثمان: هي أدنتك من الظل، ولولا هي كنت ضاحياً.

حدثني روح بن عبد المؤمن المقرىء حدثنا مسلم بن إبراهيم حدثنا قرة بن خالد عن محمد بن سيرين قال: جمع عثمان القرآن على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، يقول: حفظه.

وحدثني محمد بن سعد عن الواقدي عن ابن أبي سبرة عن مسلم بن يسار قال: جمع عثمان القرآن على عهد عمر، قال الواقدي: وهذا أثبتُ ما رُوي.

حدثنا شيبان بن فروخ الأُبُلّي حدثنا سلام بن مسكين وأبو هلال قالا: حدثنا محمد بن سيرين قال: قالت امرأة عثمان حين أرادوا قتله: إن تقتلوه أو تدعوه فقد كان يُحيي الليل بركعة يختم فيها القرآن.

حدثني الحسين بن عليّ بن الأسود أنبأنا أبو أسامة عن محمد بن عمرو عن محمد بن إبراهيم عن عبد الرحمن التيمي قال: قمت في الحجر فقلت: لا يغلبني عليه أحد الليلة، فجاء رجل من خلفي فغمزني، فأبيت أن ألتفت، ثم غمزني فأبيت أن التف، ثم غمزني الثالثة فالتفتُّ، فإذا عثمان، فتأخرتُ عن الحجر، فقرأ القرآن في ركعة ثم انصرف.حدثنا شيبان الآجري حدثنا عقبة بن الأصم قال: سمعت الحسن يقول: أعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم عثمان من غنيمة بدرٍ و لم يشهد القتال، تخلّف على رقية.

وحدثني أحمد بن هشام بن بهرام حدثنا شعيب بن حرب حدثنا عبيد بن بُخت حدثنا ربعي بن حراش قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمر بن الخطاب: "ألا أدلك على ختنٍ خير لك من عثمان وأدل عثمان على ختن خير له منك"؟ قال: بلى يا رسول الله: قال: "زوجني ابنتك وأزوج ابنتي من عثمان".

حدثنا محمد بن سعد حدثنا محمد بن ربيعة الكلابي قال، حدثتني أمّ غُراب جدة عليّ بن غراب عن بنانة أن عثمان كان يتنشف إذا توضأ بعد الوضوء، فكنت أجيئه إذا تنشف بثيابه فقال: لا تنظري إليّ فإنه لا يحل لك، وعليه حُلة صفراء كانت لامرأته؛ وكانت لحيته بيضاء.

حدثني محمد بن سعد عن الواقدي عن إسحاق بن يحيى عن موسى بن طلحة قال: أعطى عثمان طلحة في خلافته مائتي ألف دينار.

حدثني خلف البزار حدثنا عبد الوهاب عن عطاء عن سعيد بن أبي عروبة عن ابن أخي مُطرف بن عبد الله بن الشخير عن مطرف قال: لقيت علياً يوم الجمل، فأسرع إليّ بدابته فقلت: أنا أحقُّ أن أسرع إليك، فقال: أحسبُ عثمان منعك من إتياننا، فأقبلت أعتذر إليه فقال: لئن أحببته لقد كان أبرنا وأوصلنا.

حدثني عبد الله بن صالح وأبو نصر التمار أخبرني شريك أخبرني بعض آل حاطب عن أبيه قال: رأيت على عثمان قوهياً وهو على المنبر.

وحدثنا محمد بن سعد حدثنا خالد بن مخلد عن إسحاق بن يحيى بن طلحة عن موسى بن طلحة قال:

رأيت عثمان وعليه ثوبان ممصَّران.

المدائني عن عبد الحميد بن مهران عن أبيه قال: دخل على سالم بن عبد الله بن عمر رجلٌ، وكان ممن يحمد علياً ويذم عثمان، فذكر له فضائل عثمان ثم قال: غزا رسول الله صلى الله عليه وسلم غزاة تبوك فلم يلق في غزاة من غزواته ما لقي فيها من الظمأ والمخمصة، فاشترى عثمان طعاماً وأدماً وما يصلح للنبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين، فنظر إليه النبي صلى الله عليه وسلم وهو مقبل فرفع يديه وقال: "اللهم إني راضٍ عنه فارض عنه"، ثلاثاً.

حدثنا محمد بن سعد عن الواقدي قال: أتى عثمان مترل عائشة فسأل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت: ذهب يبتغي لأهله قوتاً فإنه ما أوقد في أبياته نار منذ سبعة أيام، فقال: رحمك الله أفلا تُعلميني إذا كان مثل هذا؟ ورجع فبعث بطعام وشاة إلى كل بيت. فلما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ما هذا يا عائشة؟ قالت: بعث به عثمان، فقال: ابعثي منه إلى النسوة، فقالت: ما منهن امرأة أتاها مثل هذا، فرفع يديه وقال "اللهم لا تنسها لعثمان".

حدثني وهب بن بقية عن يزيد بن العوام بن حوشب قال: قال محمد بن حاطب لعلي: إن هؤلاء سيسألونا عن عثمان غداً فما نقول؟ قال: نقول: كان من الذين "آمنوا وعملوا الصالحات ثم اتقوا وآمنوا ثم اتقوا وأحسنوا".

حدثني أبو عمر الدوري المقرىء عن عباد بن عباد المهلبي عن هشام بن عروة عن عروة قال: أوصى عثمان و لم يتشهد في الوصية؛ قال عبّاد: إن يتشهد الرجل فحسن، وإن لم يشهد فلا بأس.

حدثنا محمد بن سعد حدثنا خالد بن مخلد عن إسحاق بن يحيى بن طلحة قال: قال رجل لعثمان: إنك لأجمل الناس: ذاك رسول الله صلى الله عليه وسلم.

حدثنا عمرو الناقد حدثنا قبيصة بن عقبة عن سفيان الثوري قال: بلغني أن عثمان كان إذا ولد له ولد دعا به وهو في خرقة فشمه، فقيل له: لم تفعل هذا؟ قال: أحب إن أصابه شيء أن يكون قد وقع له في قلبي شيءٌ، يعني من الحب والرقة.

المدائني عن أبي اليقظان عن أبي المقدام، قال: بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى عثمان بشيء، فأبطأ الرسول بالانصراف، فلما رجعت إليه قال: "أراك جعلت تنظرين إلى عثمان ورقية أيهما أحسن".

حدثني علان الوراق عن الجمحي عن ابن دأب، قال: كان سعيد بن يربوع عن عنكثة المخزومي يقول: دخلت وأنا غلام ومعي طائر أريد أن أرسله وذلك في الهاجرة وإذا شيخ نائم تحت رأسه لبنة، فجعلت أنظر إليه متعجباً من حسنه، ففتح عينه فقال: من أنت يا غلام؟ فاخبرته، فدعا لي بألف درهم وحلة، فأمر فألبست الحلة وأُعطيت الألف الدرهم، فرجعت إلى أبي فأخبرته، فقال: يا بني هذا أمير المؤمنين

عثمان.

حدثني مصعب بن عبد الله الزبيري عن أبيه عن أشياخهم أن عبد الله بن الزبير قال: لقيني قوم ممن يطعن على عثمان فحاجوني فحدثتهم بسيرة أبي بكر وعمر وما كان منهما مما لم يعب وعيب على عثمان فحججتهم حتى كأنهم صبيانٌ يمضغون سُخُبهم.

وحدثني وهب بن بقية عن يزيد بن هارون عن القاسم الحداني عن أبي سعيد أخي محمد بن زياد قال: قال عليّ: أنا والله على أثر الذي أتى عثمان، لقد سبقت له في الله سوابق لا يعذبه بعدها أبداً.

حدثني محمد بن سعد عن الواقدي عن ابن أبي الزناد عن أبيه أن رجلاً كان آنساً بعثمان، وكان الرجل من ثقيف، فحد في الشراب، فقال له عثمان: لن تعود والله إلى مجلسي والخلوة معي ما لم يكن لنا ثالثٌ.

حدثني عمرو الناقد حدثنا إسحاق بن يوسف الأزرق عن عوف عن محمد بن سيرين قال: قال عليّ بن أبي طالب: إني لأرجو أن أكون أنا وعثمان ممن قال الله: "ونزعنا ما في صدورهم من غلٍّ إخواناً على سُرِرٍ متقابلين".

وحدثني عمرو الناقد عن عمرو بن عاصم عن جعفر بن أبي وحشية أبي بشر عن يوسف سعيد مولى حاطب عن محمد بن حاطب، وكان قدم البصرة مع علي أن علياً ذكر عثمان فقال ومعه عُود ينكت به "إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون" أولئك عثمان وأصحاب عثمان.

المدائني عن الحسن بن دينار عن ابن سيرين عن أبي موسى الأشعري، أو عبد الله بن عمرو بن العاص، أن النبي صلى الله عليه وسلم كان في حائط مدلياً رجله في بئر، فاستأذن أبو بكر فقال: "ائذن له وبشره بالجنة"، فدخل فدلى رجله في البئر، ثم جاء عمر فقال: "ائذن له وبشره بالجنة"، فدخل فدلى رجله في البئر أيضاً؛ ثم جاء عثمان فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "ائذن له وبشره بالجنة على بلوى شديدة ستناله"، فدخل وعيناه تذرفان.

المدائني عن الأسود بن شيبان عن ابن سيرين قال: قالت عائشة دخل أبو بكر على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو مضطجع وعليه ثوبه فقضى حاجته وخرج، ودخل عمر فقضى حاجته وخرج، ثم جاء عليّ فقضى حاجته وخرج، ثم جاء عثمان فجلس له رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقلت له: لم تصنع هذا بأحد، فقال: "إن عثمان شديد الحياء ولو رآني على تلك الحال لانقبض عن حاجته وقصر فيها".

المدائني عن عباد بن راشد عن الحسن قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من يجهز هذا الجيش – يعني جيش العسرة – بشفاعة متقبلة"؟ فقال عثمان: يارسول الله بشفاعة متقبلة؟ قال: "نعم على الله ورسوله"، قال: أنا، فجهزهم بسبعين ألفاً.

وفي حديث آخر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "كيف لا أستحيي ممن تستحيي منه الملائكة"؟
وحدثني أحمد بن هشام بن بهرام حدثنا شعيب بن حرب أنبأنا إسرائيل أنبأنا أبو إسحاق عن حارثة بن مضرب قال: حججت مع عمر فسمعت الحادي يقول:

إنَّ الأمير بعده ابن عفان

وحدثني أحمد بن هشام، حدثنا وكيع بن الجراح عن الأعمش عن أبي صالح قال: كان الحادي يحدو لعثمان فيقول:

إن الأمير بعدهُ عليٌّ وفي الزبير خلفٌ رضيٌّ

فقال كعب: لا بل هو صاحب البغلة الشهباء – يعني معاوية – فأتى معاوية كعباً فقال: يا أبا إسحاق أنى يكون هذا وهؤلاء أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم؟ قال: أنت صاحبها يا أبا عبد الرحمن.
وحدثني أحمد بن إبراهيم الدورقي حدثنا حماد بن أسامة أنبأنا إسماعيل بن أبي خالد عن قيس بن أبي حازم عن أبي سهلة مولى عثمان عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في مرضه: "وددت أن عندي بعض أصحابي، فقلت: يا رسول الله، أندعو لك أبا بكر؟فاسكت، فقلت: أندعو لك عمر؟ فأسكت، فقلت: أندعو لك عثمان؟ قال: نعم، فدعوته، فلما أقبل أشار رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تباعدي. وجاء عثمان فجلس فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول له قولاً ولون عثمان يتغير، فلما كان يوم الدار قيل لعثمان: ألا تقاتل؟ فقال: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم عهد إليّ عهداً وأنا صائر إليه"؛ قال أبو سهلة: فيرون أنه مما كان قال له ذلك اليوم.
المدائني عن يزيد بن عياض عن ابن جعدبة عن صالح بن كيسان قال: كان عثمان محبباً في قريش، قال القائل:

أحبُّكَ والرحمن حبَّ قريشٍ عُثمان إذا دعا بالميزان

حدثنا عباس عن بن هشام الكلبي عن أبيه عن خالد بن سعيد الأموي قال: تزوج سعيد بن العاص بن أبي أحيحة هند بنت الفرافصة بن الأحوص الكلبي، فبلغ ذلك عثمان فكتب إليه إن كان لها أخت أن يخطبها عليه، فبعث سعيد إلى الفرافصة بن الأحوص الكلبي، وكان نصرانياً، أن زوج أمير المؤمنين ابنتك فقد ذكرها، فقال لضب بن القرافصة: زوجها أمير المؤمنين فإنك على دينه، فزوجه نائلة؛ وقال لها الفرافصة: إنك تقدمين على نساء من قريش هن أقدر على العطر منك فلا تُغلبي على الكحل والماء، تطهري حتى يكون ريحك ريح شنةٍ أصابها قطر، فقالت حين حملت إلى المدينة:

ألست ترى ياضبُّ بالله أنني مصاحبة نحو المدينة أركبا

أريد أمير المؤمنين أخا التقى وخير قريشٍ منصباً ثم مركبا

وكان عثمان مهرها عشرة آلاف درهم وأعطاها كيسان أبا سليم وامرأته رُمانة، وهي من سبي كرمان، فأعتقتها نائلة وهو خرج معها إلى الشام بعد عثمان، ويقال إنه من موالي كلب، قدم معها ثم خرج إلى الشام معها. فلما دخلت على عثمان جلس على سرير وأجلست على سرير ثم وضع قلنسوته فبدت صلعته فقال: لا تكرهن ما ترين من صلعي فإن وراءه ما تحبين، فقالت: إني من نسوةٍ أحبُّ بعولتهن إليهن الشيخ السيد، قال: إما أن تقومي إليَّ أو أقوم إليك، قالت: ما تجشمت من مسافة السماوة أبعد من عرض البيت، ثم قامت فجلست إلى جانبه فمسح رأسها ودعا لها ثم قال: اطرحي ملحفتك، فطرحتها، ثم قال: اطرحي خمارك، فطرحته، ثم قال: اطرحي درعك، فطرحته، ثم قال: اطرحي إزارك، فقالت: أنت وذاك، فلم تزل عنده حتى قُتل، فلما دخل عليه أهل مصر، وكانت عظيمة العجيزة، ضرب رجل منهم بيده على أليتها فقالت: أشهد أنك فاسق وأنك لم تأت غضباً لله ولا محاماةً عن الدين، وذهب بعضهم ليضرب عثمان فاتقته بيدها فقطع السيف إصبعين من أصابعها، وولدت لعثمان مريم، فتزوجها عمرو بن الوليد بن عقبة بن أبي مُعيط، وكانت مريم سيئة الخلق، فكانت تقول له: جئتك برداً وسلاماً، فيقول: قد أفسد بردك وسلامتك سوءُ خلقك، وخطب معاوية نائلة وألح عليها، فنزعت ثنيتين من ثناياها فأمسك عنها، وولدت لعثمان أم أبان وأم خالد وأروى أيضاً، وقالت نائلة حين قتل عثمان:

وما لي لا أبكي وأبكي قرابتي وقد نُزعت منا فُضولُ أبي عمرو

إذا جئتهُ يوماً تُرجى نوالهُ بدت لك سيماهُ بأبيض كالبدرِ

قال: وكان جُندب بن عمرو بن حممة الدوسي قدم المدينة مهاجراً، ثم أتى الشام غازياً وخلَّف ابنته عند عمر بن الخطاب وقال: إن حدث بي حدث فزوجها كفوءاً ولو بشراك نعله، فكان يدعوها ابنتي وتدعوه أبي، فلما استشهد أبوها قال عمر: من يتزوج الجميلة الحسيبة؟ فقال عثمان: أنا، فزوجه إياها على صداق بذله، فأتاها به عمر فوضعه في حجرها، فقالت: ما هذا؟ قال مهرك، فنفحت به، فأمر حفصة فأصلحت من شأنها، ودخل بها عثمان فولدت له. وكان يقول: ما شيء أحببته في امرأة إلا وهو فيها.

وتزوج عثمان رضي الله تعالى عنه ابنه شيبة بن ربيعة على ثلاثين ألفاً، ويقال أربعين ألفاً.

وتزوج ابنه خالد بن أسيد على أربعين ألفاً.

وتزوج أم عبد الله بنت الوليد بن عبد شمس بن المغيرة ثلاثين ألفاً.

وخطب فاطمة بنت عمر الخطاب رضي الله تعالى عنه، بعد وفاة عمر، وأصدقها مائة ألف، فقال ابن

عمر، إن ابن عمها أحق بها، فزوجها عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب.
وتزوج ابنه عيينة على خمسمائة دينار.

وحدثني عباس بن هشام عن أبيه عمن حدثه عن حسين بن عبد الله بن عبد الله بن عباس عن أبيه عن عبد الله بن عباس أن عثمان شكا علياً إلى العباس فقال له: يا خال إن علياً قد قطع رحمي وألب الناس علي، والله لئن كنتم يا بني عبد المطلب أقررتم هذا الأمر في أيدي بني تيم وعدي فبنو عبد مناف أحق أن لا تنازعوهم ولا تحسدوهم عليه، قال عبد الله بن العباس: فأطرق أبي طويلاً ثم قال: يا ابن أخت، لئن كنت لا تحمد علياً فما نحمدك له، وإن حقك في القرابة والإمامة للحق الذي لا يدفع ولا يجحد، فلو رقيت فيما تطأطأ أو تطأتطأت ما يرقى تقاربتما، وكان ذلك أوصل وأجمل، قال: صيرت الأمر في ذلك إليك، فقرب الأمر بيننا، قال: فلما خرجنا من عنده دخل عليه مروان فأزاله عن رأيه فما لبثنا أن جاء أبي رسول عثمان بالرجوع إليه، فلما رجع قال: يا خال، أحب أن تؤخر النظر في الأمر الذي ألقيت إليك حتى أرى من رأيي، فخرج أبي من عنده ثم التفت إلي فقال:يا بني، ليس إلى هذا الرجل من أمره شيءٌ، ثم قال: اللهم اسبق بي الفتن ولا تبقني إلى ما لا خير لي في البقاء إليه، فما كانت جمعة حتى هلك.
وحدثني أحمد بن إبراهيم الدورقي، حدثني أبو داود الطيالسي عن شعبة عن عمرو بن مرة عن ذكوان عن صهيب مولى العباس أن العباس قال لعثمان: أذكرك الله في أمر ابن عمك وابن خالك وصهرك وصاحبك مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقد بلغني أنك تريد أن تقوم به وبأصحابه، فقال: أول ما أجيبك به أني قد شفعتك، إن علياً لو شاء لم يكن أحد عندي إلا دونه، ولكنه أبي إلا رأيه، ثم قال لعلي مثل قوله لعثمان فقال علي: لو أمرني عثمان أن أخرج من داري لخرجت.
وجدت في كتاب لعبد الله بن صالح العجلي: ذكروا أن عثمان نازع الزبير، فقال الزبير: إن شئت تقاذفنا، فقال عثمان: بماذا؟ بالبعر يا أبا عبد الله؟ قال: لا والله ولكن بطبع خبابٍ وريش المقعد، وكان خباب بطبع السيوف وكان المقعد يريش النبل.
حدثني عباس بن هشام الكلبي عن أبيه عن جده محمد بن السائب عن محمد بن سهل بن سعد الساعدي قال: تنازع عليّ وطلحة في شرب، فكان عليّ يحب إقراره وكان طلحة يحب إبطاله، فاختصما إلى عثمان، فركب معهما إلى الشرب، ووافاهم معاوية قادماً من الشام فأدركته المنافية فقال: إن كان هذا الشرب مقراً في خلافة عمر فمن ذا يغير شيئاً أقره عمر؟ فلقنها عثمان فقال: هذا شرب لم يغيره عمر ولسنا بمغيري ما أقره عمر، فقال طلحة: وماذا الذي أنت عليه من أمر عمر؟ المدائني قال: وقع بين سالم بن دارة – وهي أمه وأبوه مُسافِع بن عقبة من بني عبد الله بن غطفان – وبين زميل بن أبير الفزاري –

وهو ابن أم دينار – كلامٌ، فضربه فجرحه زميل، فأدخل المدينة وحمل إلى عثمان، فأمر عثمان الطبيب فنظر إليه فقال: لا عمق للجراحة، فأمر أن يداوى، فدست ابنه عتيبة امرأة عثمان إلى الطبيب دنانير فذر على جرحه سماً فانتقض فمات، ويقال: أعطى منظور الطبيب دينارين فسم جرحه، فقال لأبيه وهو بالموت:

أبلغْ أبا سالمٍ عَنيِّ مغلغلةً فلا تكونَنَّ أَدنَى القومِ للعارِ
لا تأخذنْ مِائةً مني موسَّمةً ولوْ أتاكَ بها يجذي ابن سيارِ

أمر الشورى وبيعة عثمان

رضي الله تعالى عنه:

حدثني محمد بن سعد عن الواقدي عن هشام بن سعد عن زيد بن أسلم عن أبيه أن عمر رضي الله تعالى عنه قال: إن رجلاً يقولون إن بيعة أبي بكر كانت فلتة وقى الله شرها، وإن بيعة عمر كانت عن غير مشورة، والأمر بعدي شورى، فإذا اجتمع رأي أربعة فليتبع الاثنان الأربعة، وإذا اجتمع رأي ثلاثة وثلاثة فاتبعوا رأي عبد الرحمن فاسمعوا وأطيعوا، وإن صفق عبد الرحمن بإحدى يديه على الأخرى فاتبعوه.وحدثنا عبيد الله بن معاذ العنبري، حدثنا أبي، أنبأنا شعبة، أنبأنا قتادة عن سا لم بن أبي الجعد عن معدان اليعمري أن عمر بن الخطاب خطب الناس يوم جمعة فذكر النبي صلى الله عليه وسلم وأبا بكر ثم قال: إني رأيت كأن ديكا نقرني ولا أراه إلا حضور أجلي، وإن قوماً يأمرونني أن أستخلف، وإن الله لم يكن ليضيع دينه وخلافته والذي بعث به نبيه، فإن عجل بي الأمر فالخلافة شورى بين هؤلاء الستة الذين توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عنهم راضٍ، وقد علمت أنه سيطعن في الأمر أقوام أنا ضربتهم بيدي على الإسلام، فإن فعلوا فأولئك أعداء الله الضالون.

وحدثني الحسين بن عليّ بن الأسود حدثنا عبيد الله بن موسى أنبأنا إسرائيل عن أبي إسحاق عن عمرو بن ميمون قال: كنت شاهداً لعمر يوم طعن، فذكر حديثاً طويلاً ثم قال: قال عمر: ادعوا لي علياً وعثمان وطلحة والزبير وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص، فلم يكلم أحداً منهم غير عليّ وعثمان، فقال: يا علي، لعل هؤلاء سيعرفون لك قرابتك من النبي صلى الله عليه وسلم وصهرك وما أنا لك الله من الفقه والعلم، فإن وليت هذا الأمر فاتق الله فيه، ثم دعا بعثمان فقال: يا عثمان، لعل هؤلاء القوم يعرفون لك صهرك من رسول الله وسنك، فإن وليت هذا الأمر فاتق الله ولا تحمل آل أبي معيط

على رقاب الناس، ثم قال: ادعوا لي صهيباً، فدعي، فقال: صل بالناس ثلاثاً وليخل هؤلاء النفر في بيت، فإذا اجتمعوا على رجل منهم فمن خالفهم فاضربوا رأسه. فلما خرجوا من عند عمر قال: إن ولوها الأجلح سلك بهم الطريق، قال ابن عمر: فما يمنعك منه يا أمير المؤمنين؟ قال: أكره أن أتحملها حياً وميتاً.
حدثنا محمد بن سعد حدثنا الواقدي عن محمد بن عبيد الله الزهري عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة عن ابن عباس قال: قال عمر: لا أدري ما أصنع بأمة محمد- وذلك قبل أن يطعن- فقلت: و لم تهتم وأنت تجد من تستخلفهم عليهم؟ قال: أصحابكم؟ يعني علياً، قلت: نعم هو أهل لها في قرابته برسول الله صلى الله عليه وسلم وصهره وسابقته وبلائه، فقال عمر: أن فيه بطالةً وفكاهة، قلت: فأين أنت عن طلحة؟ قال: فأين الزهو والنخوة. قلت: عبد الرحمن بن عوف، قال: هو رجل صالح على ضعف فيه، قلت: فسعد، قال: ذاك صاحب مقنب وقتال لا يقول بقرية لو حمل أمرها قلت: فالزبير، قال لقس، مؤمن الرضى، كافر الغضب، شحيح، إن هذا الأمر لا يصلح إلا لقوي في غير عنف، رفيقٍ في غير ضعف، جوادٍ في غير سرف، قلت: فأين أنت عن عثمان؟ قال: لو وليها لحمل بني أبي معيط على رقاب الناس، ولو فعلها لقتلوه.
حدثني محمد بن سعد عن الواقدي عن عبد الله بن جعفر عن عبد الرحمن بن عبد الله عن أبيه قال: ذكر عمه من يستخلف فقيل: أين أنت عن عثمان؟ قال: لو فعلت لحمل بني أبي معيط على رقاب الناس، قيل الزبير قال: مؤمن الرضى كافر الغضب، قيل: طلحة، قال: أنفه في السماء واسته في الماء، قيل: سعد، قال: صاحب مقنب، قرية له كثيرٌ، قيل: عبد الرحمن، قال: بحبسه أن يجري أهل بيته.
حدثني محمد بن سعد عن الواقدي عن الثوري عن حصين عن عمرو بن ميمون أن عمر جعل الشورى إلى ستة وقال: عبد الله بن عمر معكم وليس معه من الأمر شيء.
حدثنا هشام بن عمار الدمشقي قال: سمعت مالك بن أنس يقول: قال عمر بن الخطاب: من يدلني على رجلٍ بر تقي أوليه؟ فقال المغيرة بن شعبة: أنا أدلك عليه يا أمير المؤمنين، قال: من هو؟ قال: عبد الله بن عمر، قال: قاتلك الله، والله ما الله أردت بها. قال هشام: وبلغنا أن عثمان لما ولي الخلافة قال له المغيرة: أما والله لو ولي غيرك ما بايعته، فقال عبد الرحمن بن عوف، كذبت يا أعور، لو ولي غيره لبايعته ولقلت له مثل هذا القول.

وفي راوية الواقدي أن عمرو بن العاص تطاول ليدخل في الشورى فقال له عمر أطمئن كما وضعك الله، لا أجعل فيها أحداً حمل السلاح على نبي الله.
حدثنا محمد بن سعد حدثني شهاب بن عبادة حدثنا إبراهيم بن حميد عن ابن أبي خالد عن جبير بن محمد

بن جبير بن مطعم قال: أخبرنا إن عمر قال لعلي: إن وليت من أمر الناس شيئاً فلا تحملن بني عبد المطلب على رقاب الناس، وقال لعثمان: إن وليت من أمر الناس شيئاً فلا تحملن بني أبي معيط على رقاب الناس.

حدثنا محمد بن سعد عن الواقدي في إسناده أن عمر بن الخطاب لما طعن قال: ليصل صهيب ثلاثاً وتشاوروا في أمركم والأمر إلى هؤلاء الستة، فمن نغل بأمركم فاضربوا عنقه.

حدثنا محمد بن سعد عن الواقدي عن نافع بن أبي نعيم عن نافع عن ابن عمر قال: قال عمر: ليتبع الأقل الأكثر، فمن خالفكم فاضربوا عنقه.

حدثنا محمد بن سعد عن الواقدي في إسناده أن المسور بن مخرمة قال: كان عمر بن الخطاب وهو صحيح يسأل أن يستخلف فيأبى ذلك، ثم صعد المنبر فتكلم بكلمات ثم قال: إن مت فأمركم إلى هؤلاء الستة النفر فارقوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عنهم راضٍ: عليّ بن أبي طالب، ونظيره الزبير، وعبد الرحمن بن عوف، ونظيره عثمان، وطلحة، ونظيره سعد بن مالك، ألا وإني أوصيكم بتقوى الله في الحكم والعدل في القسم.

وحدثني عباس بن هشام الكلبي عن أبيه عن أبي مخنف في إسناده أن عمر بن الخطاب أمر صهيباً مولى عبد الله بن جدعان حين طعن أن يجمع إليه وجوه المهاجرين والأنصار، فلما دخلوا عليه قال لهم إني قد جعلت أمركم شورى إلى الستة نفر المهاجرين الأولين الذين قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عنهم راضٍ ليختاروا أحدهم لإمامتكم، وسماهم، ثم قال لأبي طلحة زيد بن سهل الخزرجي: اختر خمسين رجلاً من الأنصار يكونون معك فإذا توفيت فاستحث هؤلاء النفر حتى يختاروا لأنفسهم وللأمة أحدهم ولا يتأخرن عن أمرهم فوق ثلاث. وأمر صهيباً أن يصلي بالناس إلى أن يتفقوا على إمام، وكان طلحة بن عبيد الله غائباً في ماله بالسراة فقال عمر: إن قدم طلحة في الثلاثة الأيام وإلا فلا تنتظروه بعدها وأبرموا الأمر واصرموه وبايعوا من تتفقون عليه، فمن خالف عليكم فاضربوا عنقه، قال: فبعثوا إلى طلحة رسولاً يستحثونه ويستعجلونه بالقدوم فلم يرد المدينة إلا بعد وفاة عمر والبيعة لعثمان، فجلس في بيته وقال: أعلى مثلي يفتأت؟ فأتاه عثمان فقال له طلحة: إن رددت الأمر أترده؟ قال: نعم قال: فإني أمضيته، فبايعه، وقد قال بعض الرواة إن طلحة كان حاضراً لوفاة عمر والشورى، والأول أثبت.

وقال أبو مخنف: أمر عمر أصحاب الشورى أن يتشاوروا في أمرهم ثلاثاً فإن اجتمع اثنان على رجل واحد رجعوا في الشورى، فإن اجتمعوا أربعة على واحد وأباه واحد كانوا مع الأربعة، وإن كانوا ثلاثة وثلاثة كانوا مع الثلاثة الذين فيهم ابن عوف، إذا كان الثقة في دينه ورأيه المأمون على الاختيار للمسلمين.

وحدثنا محمد بن سعيد والوليد بن صالح عن الواقدي عن إسماعيل بن إبراهيم من ولد عبد الله بن أبي

ربيعة أن عبد الله قال: إن بايعتم علياً سمعنا وعصينا وإن بايعتم عثمان سمعنا وأطعنا، فاتق الله يابن عوف. وحدثاني عن الواقدي عن هشام بن سعد عن زيد بن أسلم عن أبيه أن عمر قال: إن اجتمع رأى ثلاثة فاتبعوا صنف عبد الرحمن بن عوف واسمعوا وأطيعوا.

وحدثني عباس بن هشام الكلبي عن أبيه عن أبي مخنف في إسناده أن علياً شكا إلى عمه العباس ما سمع من قول عمر "كونوا مع الذين فيهم عبد الرحمن بن عوف" وقال: والله لقد ذهب الأمر منا، فقال العباس: وكيف قلت ذلك يابن أخي؟ فقال: إن سعداً لا يخالف عمه عبد الرحمن، وعبد الرحمن نظير عثمان وصهره، فأحدهما لا يخالف صاحبه لا محالة، وإن كان الزبير وطلحة معي فلن أنتفع بذلك إذ كان ابن عوف في الثلاثة الآخرين؛ وقال ابن الكلبي: عبد الرحمن بن عوف زوج أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط، وأمها أروى بنت كريز، وأروى أم عثمان فلذلك صهره. وحدثني محمد بن سعد عن الواقدي عن أبي بكر بن إسماعيل عن أبيه قال: كان طلحة بالسراة في أمواله وافى الموسم ثم أتى أمواله وانحدر عمر، فلما طُعن وذكره في الشورى، بعث إليه رسولٌ مسرع، فأقبل مسرعاً فوجد الناس قد بايعوا لعثمان، فجلس في بيته وقال: مثلي لا يفتأت عليه، ولقد عجلتم وأنا على أمري، فأتاه عبد الرحمن بن عوف فعظم عليه حُرمة الإسلام وخوفه الفرقة.

حدثني محمد عن الواقدي عن محمد بن إسماعيل عن محمد بن زيد أن طلحة لما قدم أتاه عثمان فسلم عليه، فقال طلحة: يا أبا عبد الله، أرأيت إن رددت الأمر أترده حتى يكون فينا على شورى؟ قال عثمان: نعم يا أبا محمد، قال طلحة: فإني لا أرده، فإن شئت بايعتك في مجلسك وإن شئت ففي المسجد، فبايعه، فقال عبد الله بن سعد بن أبي سرح: ما زلت خائفاً لأن ينتقض هذا الأمر حتى كان من طلحة ما كان فوصلته رحمٌ. و لم يزل عثمان مكرماً لطلحة حتى حصر، فكان طلحة أشد الناس عليه. وقال الواقدي في إسناده، قال عمر قبل أن يموت بساعة: يا أبا طلحة كن في خمسين من الأنصار من قومك مع أصحاب الشورى ولا تتركهم يمضي اليوم الثالث من وفاتي حتى يؤمروا أحدهم؛ قال: فلما قبض عمر وافى أبو طلحة في أصحابه فلزم أصحاب الشورى، فلما جعلوا أمرهم إلى عبد الرحمن بن عوف ليختار لهم لزم باب عبد الرحمن حتى بايع عثمان.

وفي رواية أبي مخنف أن علياً خاف أن يجتمع أمر عبد الرحمن وعثمان وسعد فأتى سعداً ومعه الحسن والحسين فقال له: يا أبا إسحاق إني لا أسألك أن تدع حق ابن عمك بحقي أو تؤثرني عليه فتبايعني وتدعه، ولكن إن دعاك إلى أن تكون له ولعثمان ثالثاً فأنكر ذلك فإني أدلي إليك من القرابة والحق بما لا يُدلي به عثمان، وناشده بالقرابة بينه وبين الحسن والحسين وبحق آمنة أم رسول الله صلى الله عليه وسلم،

فقال سعد: لك ما سألت؛ وأتى سعد عبد الرحمن فقال له عبد الرحمن: هلم فلنجتمع، فقال سعد: إن كنت تدعوني والأمر لك وقد فارقك عثمان على مبايعتك كنت معك، وإن كنت إنما تريد لعثمان فعلي أحق بالأمر إلي من عثمان؛ قال: وأتاهم أبو طلحة فاستحثهم وألح عليهم، فقال عبد الرحمن: ياقوم أراكم تتشاحون عليها وتؤخرون إبرام هذا الأمر، أفكلكم رحمكم الله يرجو أن يكون خليفة؟ ورأى أبو طلحة ما هم فيه فبكى وقال: كنت أظن بهم خلاف هذا الحرص، إنما كنت أخاف أن يتدافعوها.

حدثني محمد بن سعد عن الواقدي عن إسماعيل بن إبراهيم بن عقبة عن موسى بن عقبة عن مكحول قال: لم يكن سعد في الشورى؛ قال: وحدثني ابن أبي ذئب عن الزهري قال: لم يكن سعد في الشورى.

المدائني عن عبد الله بن سلم الفهري وابن جعدبة أن عمر أدخل ابنه عبد الله في الشورى على أنه خارج من الخلافة وليس له الاختيار فقط قال أبو الحسن المدائني: و لم يجتمع على ذلك.

وحدثني عباس بن هشام الكلبي عن أبيه عن أبي مخنف في إسناد له قال: لما دفن عمر أمسك أصحاب الشورى وأبو طلحة يومهم فلم يُحدثوا شيئاً، فلما أصبحوا جعل أبو طلحة يحوشهم للمناظرة في دار المال، وكان دفن عمر يوم الأحد وهو اليوم الرابع من يوم طُعن وصلى عليه صُهيب بن سنان؛ قال: فلما رأى عبد الرحمن طول تناجي القوم وتناظرهم وأن كل واحد منهم يدفع صاحبه عنها قال لهم: يا هؤلاء، أنا أخرج نفسي وسعداً من الأمر على أن إختاروا معشر الأربعة أحدكم، فقد طال التناجي وتطلع الناس إلى معرفة خليفتهم وإمامهم واحتاج من أقام لانتظار ذلك من أهل البلدان إلى الرجوع إلى أوطانهم؛ فأجابوا إلى ما عرض عليهم إلا علياً فإنه قال: أنظر. وأتاهم أبو طلحة فأخبره عبد الرحمن بما عرض وبإجابة القوم إياه إلا علياً، فأقبل أبو طلحة على عليّ فقال: يا أبا الحسن، إن أبا محمد ثقة لك وللمسلمين فمابالك تخالفه وقد عدل الأمر عن نفسه فلن يتحمل المأثم لغيره؟ فأحلف عليّ عبد الرحمن بن عوف أن لا يميل إلى هوىً وأن يؤثر الحقَّ ويجتهد للأمة وأن لا يحابي ذا قرابة، فحلف له، فقال: اختر مسدَّداً، وكان ذلك في دار المال ويقال في دار المسور بن مخرمة، ثم إن عبد الرحمن أحلف رجلاً رجلاً منهم بالأيمان المغلظة وأخذ عليهم المواثيق والعهود أنهم لا يخالفون إن بايع منهم رجلاً وأن يكونوا معه على من يناويه، فحلفوا على ذلك، ثم أخذ بيد عليّ فقال له: عليك عهد الله وميثاقه إن بايعتك أن لا تحمل بني عبد المطلب على رقاب الناس ولتسيرن بسيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تحول عنها ولا تقصر في شيء منها، فقال علي: لا أحمل عهد الله وميثاقه على ما لا أدركه ولا يدركه أحدٌ، من ذا يطيق سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ ولكني أسير من سيرته بما يبلغه الاجتهاد مني وبما يمكنني وبقدر علمي، فأرسل عبد الرحمن يده. ثم أحلف عثمان وأخذ عليه العهود والمواثيق أن لا يحمل بني أمية على

رقاب الناس، وعلى أن يسير بسيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبي بكر وعمر ولا يخالف شيئاً من ذلك، فحلف له، فقال علي: قد أعطاك أبو عبد الله الرضا فشأنك فبايعه، ثم أن عبد الرحمن عاد إلى عليّ فأخذ بيده وعرض عليه أن يحلف تلك اليمين أن لا يخالف سيرة رسول الله وأبي بكر وعمر، فقال عليٌّ: عليّ الاجتهادُ، وعثمان يقول: نعم، عليّ عهد الله وميثاقه وأشدُّ ما أخذ على أنبيائه أن لا أخالف سيرة رسول الله وأبي بكر وعمر في شيء ولا أقصر عنها، فبايعه عبد الرحمن وصافقه وبايعه أصحاب الشورى.

وكان عليّ قائماً فقعد، فقال له عبد الرحمن: بايع وإلا ضربت عنقك، و لم يكن مع أحد يومئذ سيف غيره، فيقال إن علياً خرج مغضباً فلحقه أصحاب الشورى وقالوا: بايع وإلا جاهدناك، فأقبل معهم يمشي حتى بايع عثمان.

وحدثني عباس بن هشام الكلبي عن أبيه عن أبي صالح عن ابن عباس أن علياً أول من بايع عثمان من أصحاب الشورى بعد عبد الرحمن بن عوف، لم يتلعثم.

محمد عن الواقدي عن محمد بن عبد الله بن جبير عن خالد بن كيسان عن كثير بن عباس، قال: لما استخلف عثمان دخل عليّ على العباس فقال له: إني ما قدمتك قط إلا تأخرت، قلت لك: هذا الموت بين في وجه رسول الله فتعالى نسأله عن هذا الأمر، فقلت: أتخوف أن لا يكون فينا فلا نستخلف أبداً، ثم مات وأنت المنظور إليه، فقلت: تعال أبايعك فلا يختلف عليك، فأبيت، ثم مات عمر فقلت لك: قد أطلق الله يديك فليس لأحد عليك تبعةٌ فلا تدخل في الشورى عسى ذلك أن يكون خيرا.

وقال الواقدي: قال العباس لعلي حين طُعن عمر: الزم بيتك ولا تدخل في الشورى فلا يختلف عليك اثنان.

وحدثني محمد بن سعد عن الواقدي عن سعيد الكتب عن سلمة بن أبي سلمة بن عبد الرحمن بن عوف عن أبيه قال: رأيت أول من بايع عثمان: عبد الرحمن بن عوف ثم عليّ بن أبي طالب.

حدثنا عفان بن مسلم، حدثنا حماد بن سلمة، أنبأنا عاصم بن بهدلة عن أبي وائل أن عبد الله بن مسعود سار من المدينة إلى الكوفة حين استخلف عثمان في ثمان فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أما بعد، فإن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب مات فلم نر يوماً كان أكثر نشيجاً من يومه، وإنا اجتمعنا معشر أصحاب محمد فلم نألُ عن خيرنا ذا فُوق فبايعنا عثمان بن عفان فبايعوه.

حدثنا خلف بن هشام البزار، حدثنا أبو معاوية الضرير عن الأعمش عن عبد الله بن سنان قال: قال عبد الله حين استخلف عثمان: ما ألونا أعلانا ذا فوق.

وحدثني محمد بن سعد عن أبي معاوية وعبيد الله بن موسى والفضل بن دُكين عن عبد الملك بن ميسرة

عن النزال بن سبرة قال: قال عبد الله بن مسعود: استخلفنا خير من بقي و لم نألُ.

وقال الواقدي في إسناده: بويع عثمان يوم الاثنين لليلة بقيت من ذي الحجة سنة ثلاث وعشرين واستقبل بخلافته المحرم سنة أربعٍ وعشرين، ووجه في سنة أربع وعشرين للحج عبد الرحمن بن عوف فحج بالناس، ثم حج عثمان في خلافته كلها عشر سنين إلى السنة التي حُوصر فيها، ووجه في تلك السنة على الموسم وهي سنة خمس وثلاثين عبد الله بن العباس بن عبد المطلب فحجّ بالناس.

وحدثني محمد بن سعد عن محمد بن عمر الواقدي، حدثني إسماعيل بن إبراهيم بن عبد الرحمن عن أبيه أن عثمان لما بويع خرج إلى الناس فخطب فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أيها الناس، إن أول مركب صعبٌ وإن بعد اليوم أياماً وإن أعش تأتكم الخطبة على وجهها فما كنا خطباء وسيعلمنا الله.

وروى أبو مخنف أن عثمان لما صعد المنبر قال: أيها الناس، إن هذا مقامٌ لم أزور له خطبة ولا أعددت له كلاماً وسنعود فنقول إن شاء الله.

المدائني عن غياث بن إبراهيم أن عثمان صعد المنبر فقال: أيها الناس، إنا لم نكن خطباء وأن نعشْ تأتكم الخطبة على وجهها إن شاء الله. وقد كان من قضاء الله أن عبيد الله بن عمر أصاب الهرمزان، وكان الهرمزان من المسلمين ولا وارث له إلا المسلمون عامة وإنا إمامكم وقد عفوت أفتعفون؟ قالوا: نعم، فقال علي: أقد الفاسق فإنه أتى عظيماً، قتل مسلماً بلا ذنب، وقال لعبيد الله: يا فاسق لئن ظفرت يوماً لأقتلنك بالهرمزان.

وقال الوادقي في راوية له: خطب عثمان الناس فقال: الحمد الله أحمده وأستعين وأومن به وأتوكل عليه وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، من يطع الله ورسوله فقد رشد ومن يعصهما فقد غوى؛ إني أيها الناس قد وليت أمركم فأستعين الله ولو كنت بمعزل عن الأمر كان خيراً لي وأسلم، مضى قبلي صاحباي رحمهما الله فهماني سلف وقدوة فإنما أنا متبع، وأرجو القوة من القوي العزيز، فادعوا لي بالله العون والتسديد، فدعا الناس له ثم بايعوه.

وقال الواقدي في رواية له: خطب عثمان فقال: الحمد لله الذي لا ينبغي الحمد إلا له الحمد لله الذي هدانا للإسلام وأكرمنا بمحمد عليه الصلاة والسلام، أما بعد أيها الناس، فاتقوا الله في سر أمركم وعلانيته، وكونوا أعواناً على الخير والبر والصلة ولا تكونوا أخواناً في العلانية أعداءً في الستر فإنا قد كنا نحذر أولئك، من رأى منكم منكراً فليغيره فإن كان لا قوة له به فليرفعه إلي، وكفوا سفهائكم وشدوا بهم أيديكم فإن السفيه قمع إنقمع وإذا ترك تتايع، ثم جلس وبايعه الناس. وروي أن عثمان خطب فقال: إن أبا بكر وعمر كانا يعدان لهذا المقام مقالاً وسيأتي الله به. وقال الفرزدق:

صلى صهيب ثلاثاً ثم أنزلها	على ابن عفان ملكاً غير مقسور
وصيةً من أبي حفصٍ لستتهم	كانوا أخلاء مهدي ومأمور

ذكر ما أنكروا من سيرة عثمان بن عفان وأمره رضي الله عنه.

حدثني محمد بن سعد عن الواقدي عن عبد الله بن جعفر عن أم بكر بنت المسور بن مخرمة عن أبيها قال: سمعت عثمان يقول: أيها الناس إن أبا بكر وعمرو كانا يتأولان في هذا المال ظلف أنفسهما وذوي أرحمهما وإني تأولت فيه صلة رحمي.

وحدثني محمد بن سعد عن الواقدي حدثني محمد بن عبد الله عن الزهري قال: لما ولي عثمان عاش اثنتي عشرة سنة أميراً، فمكث ست سنين لا ينقم الناس عليهم شيئاً إنه لأحب إلى قريش من عمر لشدة عمر ولين عثمان لهم ورفقه بهم، ثم توانى في أمرهم واستعمل أقاربه وأهل بيته في الست الأواخر وأهملهم وكتب لمروان بن الحكم بخمس إفريقية، وأعطى أقاربه المال وتأول في ذلك الصلة التي أمر الله بها، واتخذ الأموال واستسلف من بيت المال مالاً وقال: إن أبا بكر وعمر تركا من هذا المال ما كان لهما وإني آخذه فأصل به ذوي رحمي، فأنكر الناس ذلك عليه.

وحدثنا هشام بن عمار الدمشقي حدثنا محمد بن عيسى بن سميعٍ عن محمد بن أبي ذئب عن الزهري عن سعيد بن المسيب قال: لما ولي عثمان كره ولايته نفرٌ من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم لأن عثمان كان يحب قومه، فولي الناس اثنتي عشرة حجة وكان كثيراً ما يولي من بني أمية من لم يكن له مع النبي صلى الله عليه وسلم صحبه، فكان يجيء من أمرائه ما ينكره، أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم وكان يستعتب فيهم فلا يعزلهم، فلما كان في الست الأواخر استأثر ببني عمه فولاهم وولى عبد الله بن سعد بن أبي سرح مصر فمكث عليهم سنين فجاء أهل مصر يشكونه ويتظلمون منه، وقد كانت من عثمان قبل هنات إلى عبد الله بن مسعود وأبي ذر وعمار بن ياسر، فكان في قلوب هذيل وبني زهرة وبني غفار وأحلافها من غضب لأبي ذر ما فيها، وحنقت بنو مخزوم لحال عمار بن ياسر، فلما جاء أهل مصر يشكون ابن أبي سرح كتب إليه كتاباً يتهدده فيه، فأبى أن يترع عما نهاه عثمان عنه وضرب بعض من كان شكاه إلى عثمان من أهل مصر حتى قتله، فخرج من أهل مصر سبعمائة إلى المدينة فترلوا المسجد وشكوا ما صنع بهم ابن أبي سرح في مواقيت الصلاة إلى أصحاب محمد، فقام طلحة إلى عثمان فكلمه

بكلام شديد، وأرسلت إليه عائشة رضي الله تعالى عنها تسأله أن ينصفهم من عامله، ودخل عليه عليّ بن أبي طالب – وكان متكلم القوم – وقال له: إنما يسألك القوم رجلاً مكان رجل وقد ادعوا قبله دماً فاعزله عنهم وأقضِ بينهم فإن وجب عليه حق فانصفهم منه، فقال لهم: اختاروا رجلاً أوليه عليكم مكانه، فأشار الناس عليهم بمحمد بن أبي بكر الصديق، فقالوا: استعمل علينا محمد بن أبي بكر، فكتب عهده على مصر ووجه معهم عدةً من المهاجرين والأنصار ينظرون فيما بينهم وبين ابن أبي سرح.

حدثني محمد بن سعد عن الواقدي عن محمد بن عبد الله الزهري أن عثمان كان يأخذ من الخيل الزكاة، فأنكر ذلك من فعله وقالوا: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "عفوت لكم عن صدقة الخيل والرقيق".

وحدثني محمد بن سعدالواقدي عن محمد بن عبد الله عن الزهري، وحدثني عباس بن هشام الكلبي عن أبيه عن جده – وفي أحد الحديثين زيادة عن الآخر فسقتهما ورددت بعضهما على بعض – أن الحكم بن أبي العاص بن أمية عم عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية كان جاراً لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان أشد جيرانه أذى له في الإسلام وكان قدومه المدينة بعد فتح مكة، وكان مغموصاً عليه في دينه، فكان يمر خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم فيغمز به ويحكيه ويخلج بأنفه وفمه وإذا صلى قام خلفه فأشار بأصابعه، فبقي تخليجه وأصابته خبلةٌ، واطلع على رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم وهو في بعض حُجر نسائه فعرفه وخرج إليه بعنزة وقال: "من عذيري من هذا الوزغة اللعين، ثم قال: لا يساكنني ولا ولده"، فغربهم جميعاً إلى الطائف، فلما قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم كلم عثمان أبا بكر وسأله ردهم فأبى ذلك وقال: ماكنت لآوي طُرداء رسول الله صلى الله عليه وسلم. ثم لما استخلف عمر كلمه فيهم فقال مثل قول أبي بكر. فلما استخلف عثمان أدخلهم المدينة وقال: قد كنت كلمت رسول الله فيهم وسألته ردَّهم فوعدني أن يأذن لهم فقبض قبل ذلك، فأنكر المسلمون عليه إدخاله إياهم المدينة.

قال الواقدي: ومات الحكم بن أبي العاص بالمدينة في خلافة عثمان فصلى عليه وضرب على قبره فسطاطاً.

وحدثني محمد بن سعد عن الواقدي عن محمد بن عبد الله عن الزهري عن سعيد بن المسيب قال: خطب عثمان فأمر بذبح الحمام وقال: إن الحمام قد كثر في بيوتكم حتى كثر الرَمْي ونالنا بعضه، فقال الناس: يأمر بذبح الحمام، وقد آوى طرداء رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وحدثني محمد بن سعد عن الواقدي عن أسامة بن زيد بن أسلم عن نافع مولى الزبير عن عبد الله بن الزبير قال: أغزانا عثمان سنة سبع وعشرين إفريقية، فأصاب عبد الله بن سعد بن أبي سرح غنائم جليلة، فأعطى عثمان مروان بن الحكم خمس الغنائم.

وحدثني عباس بن هشام الكلبي عن أبيه عن لوط بن يحيى أبي مخنف عمن حدثه قال: قال: كان عبد الله بن سعد بن أبي سرح أخا عثمان من الرضاعة وعامله على المغرب، فغزا إفريقية سنة سبع وعشرين فافتتحها وكان معه مروان بن الحكم، فابتاع خمس الغنيمة بمائة ألف أو مائتي ألف دينار، فكلم عثمان فوهبها له، فأنكر الناس ذلك على عثمان.

وحدثني محمد بن سعد عن الواقدي عن عبد الله بن جعفر عن أم بكر بنت المسور قالت: لما بنى مروان داره بالمدينة دعا الناس إلى طعامه، وكان المسور فيمن دعا، فقال مروان وهو يحدثهم: والله ما أنفقت في داري هذه من مال المسلمين درهماً فما فوقه، فقال المسور: لو أكلت طعامك وسكت لكان خيراً لك، لقد غزوت معنا إفريقية وإنك لأقلنا مالاً ورقيقاً وأعواناً وأخفنا ثقلاً فأعطاك ابن عفان خمس إفريقية، وعملت على الصدقات فأخذت أموال المسلمين؛ فشكاه مروان إلى عُروة وقال: يُغلظ لي وأنا له مكرم متقٍ.

وحدثني محمد بن سعد الواقدي عن عبد الله بن جعفر عن أم بكر عن أبيها قالت: قدمت إبل الصدقة على عثمان فوهبها للحارث بن الحكم بن أبي العاص.

وحدثني محمد بن حاتم بن ميمون الحجاج الأعور عن ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس قال: كان مما أنكروا على عثمان أنه ولى الحكم بن أبي العاص صدقات قضاعة فبلغت ثلاثمائة ألف درهم، فوهبها له حين أتاه بها.

وقال أبو مخنف والواقدي في روايتهما: أنكر الناس على عثمان إعطاءه سعيد بن العاص مائة ألف درهم، فكلّمه عليّ والزبير وطلحة وسعد وعبد الرحمن بن عوف في ذلك، فقال: إن له قرابة ورحماً، قالوا: أفما كان لأبي بكر وعمرو قرابة وذوو رحم؟ فقال: إن أبا بكر وعمرو كانا يحتسبان في منع قرابتهما، وأنا أحتسب في إعطاء قرابتي، قالوا: فهديهما والله أحب إلينا من هديك، فقال: لا حول ولا قوة إلا بالله.

حدثني محمد بن سعد عن الواقدي عن ابن أبي سبرة عن أشياخه قالوا: كان عثمان يبعث السعاة لقبض الصدقات إذا حضر الناس المياه، ثم يعهد إليهم فيتعدون حدوده فلا يكون منه لذلك تغيير ولا نكير، فاجترأوا عليه ونسب فعلهم إليه وتكلم الناس في ذلك وأنكروه.

حدثني محمد بن سعد عن الواقدي عن زيد بن السائب عن خالد مولى أبان بن عثمان قال: كان مروان قد ازدرع بالمدينة في خلافة عثمان على ثلاثين جملاً، فكان يأمر بالنوى أن يشتري فينادي: إن أمير المؤمنين يريده، وعثمان لا يشعر بذلك بن فدخل عليه طلحة وكلمه في أمر النوى فحلف أنه لم يأمر بذلك، فقال طلحة: هذا أعجب أن يُفتأت عليك بمثل هذا، فهلا صنعت كما صنع ابن حنتمة، يعني عمر بن الخطاب، خرج يرفأ بدرهم يشتري لحماً فقال للحام، إني أريده لعمر، فبلغ ذلك عمر فأرسل إلى يرفأ

فأتي به وقد برك عمر على ركبتيه وهو يفتل شاربه، فلم أزل أكلمه فيه حتى سكنته، فقال له: والله لئن عدت لأجعلنك نكالاً، أتشتري السلعة ثم تقول هي لأمير المؤمنين؟.

أمر الوليد بن عقبة

حين ولاه عثمان الكوفة:

حدثني عباس بن هشام عن أبيه عن أبي مخنف ومحمد بن سعد عن محمد ابن عمر الواقدي أن عمر بن الخطاب أوصى أن يقر عُماله من ولي الأمر بعده سنة وأن يولي سعد بن أبي وقاص الكوفة، ويقر أبا موسى الأشعري على البصرة، فلما ولي عثمان عزل المغيرة بن شعبة وولى سعداً الكوفة سنةً ثم عزله وولى أخاه لأمه الوليد بن عقبة بن أبي معيط بن أبي عمرو بن أمية، فلما دخل الكوفة قال له سعد: يا أبا وهب، أأمير أم زائر؟ قال: لا بل أمير، فقال سعد ما أدري أحمقت بعدك؟ قال: ما حمقت بعدي ولا كست بعدك، ولكن القوم ملكوا فاستأثروا، فقال سعد: ما أراك إلا صادقاً؛ وقال الناس: بئسما ابتدلنا به عثمان، عزل أبا إسحاق الهين اللين الحبر، صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وولى أخاه الفاسق الفاجر الأحمق الماجن، فأعظم الناسُ ذلك، وكان الوليد يُدعى الأشعر بركاً، والبرك الصدر. وعزل أبا موسى عن البصرة وأعمالها وولى عبد الله بن عامر بن كريز، وهو ابن خاله، فقال له عليّ بن أبي طالب وطلحة والزبير: ألم يوصيك عمر ألا تحمل آل مُعيط وبني أمية على رقاب الناس؟ فلم يُجبهم بشيْ.

وقال أبو مخنف في إسناده: لما شاع فعلُ عثمان وسارت به الركبان كان أول من دعا إلى خلعه والبيعة لعلي عمرو بن زُرارة بن قيس بن الحارث بن عمرو بن عداء النخعي، وكميل بن زياد بن نهيك بن هتيم النخعي ثم أحد بني صهبان، فقام عمرو بن زرارة فقال: أيها الناس، إن عثمان قد ترك الحق وهو يعرفه وقد أُغري بصلحائكم يولي عليهم شراركم، فمضى خالد بن عُرفطة بن أبرهة بن سنان العذري حليف بني زهرة إلى الوليد فأخبره بقول عمرو بن زرارة واجتماع الناس إليه، فركب الوليد نحوهم، فقيل له: الأمر أشد من ذاك، والقوم مجتمعون، فاتق الله ولا تسعر الفتنة، وقال له مالك بن الحارث الأشتر النخعي: أنا أكفيك أمرهم، فأتاهم فكفهم وسكنهم وحذرهم الفتنة والفرقة فانصرفوا. وكتب الوليد إلى عثمان بما كان من ابن زرارة، فكتب إليه عثمان: إن ابن زرارة أعرابي جلف فسيره إلى الشام، فسيره وشيعه الأشتر، والأسود بن يزيد بن قيس وعلقمة بن قيس بن يزيد، وهو عم الأسود، والأسود أكبر منه، فقال قيس بن قهذان بن سلمة من بني البداء من كندة يومئذٍ:

أقسم بالله رب البيت مجتهداً	أرجو الثواب به سراً وإعلانا
لأخلعن أبا وهبٍ وصاحبهُ	كهف الضلالة عثمان بن عفانا

وحدثني عباس بن هشام عن أبيه عن أبي مخنف في إسناده قال: لما قدم الوليد الكوفة ألفى ابن مسعود على بيت المال فاستقرضه مالاً وقد كانت الولاة تفعل ذلك ثم ترد ما تأخذ، فأقرضه عبد الله ما سأله، ثم إنه اقتضاه إياه، فكتب الوليد في ذلك إلى عثمان فكتب عثمان إلى عبد الله بن مسعود: إنما أنت خازن لنا فلا تعرض للوليد فيما أخذ من المال، فطرح ابن مسعود المفاتيح وقال: كنت أظن أني خازن للمسلمين فأما إذا كنتُ خازناً لكم فلا حاجة لي في ذلك، وأقام بالكوفة بعد إلقائه مفاتيح بيت المال.

حدثني محمد بن سعد عن الواقدي عن معمر عن جابر عن عامر الشعبي قال: قدم الوليد الكوفة فكان عمله خمس سنين، وغزا أذربيجان، وكان يشرب الخمر.

حدثني عمرو بن محمد الناقد حدثنا حفص بن غياث حدثنا الأعمش عن إبراهيم قال: كان حذيفة وعلقمة وأصحاب عبد الله في غزاة، فأصاب أمير الجيش حداً فأرادوا أن يقيموه عليه فقال حذيفة: أتقيمون عليه الحد وهو بإزاء العدو؟ فكفوا عن ذلك؛ قال حفص: أراه الوليد بن عقبة.

حدثني محمد بن سعد عن الواقدي عن معمرعن جابر عن عامر الشعبي قال: كان عمر بن الخطاب ولى الوليد بن عقبة صدقات بني تغلب، فوجد أبا زُبيد حرملة بن المنذر الطائي الشاعر فيهم وقد ظلمه أخواله، فأخذ له منهم بحقه فمدحه، فلما سمع بولايته الكوفة لعثمان قدم فيمن قدم عليه فكان ينادمه، وأنزله داراً بقربه تُعرف بدار الضيافة.

وقال أبو مخنف أن الوليد يُدخل أبا زبيد المسجد وهو نصراني ويجري عليه وظيفة من خمر وخنازير تقام له كل شهر، فقيل له: قد عظم إنكار الناس لما تجري على أبي زبيد، فقوم ما كان وظف له دراهم وضمها إلى رزق كان يجريه عليه.

وروى أبو مخنف وغيره أن الوليد أتى بساحر يقال له نطروي، ويقال بساني، فرآه جندب الخير – وهو جندب بن عبد الله الأزدي، وقال غير الكلبي: هو جندب بن كعب – يلعب بين يديه فأتى معقلاً مولى الصقعب بن زهير الكبيري من ولد كبير بن الدول من الأزد، ويقال: بل أتى مولى لبني ظبيان بن غامد وهم قومه، فاستعار منه سيفاً قاطعاً فاشتمل عليه وخرج يريد الوليد بن عقبة. فلقيه معضد بن يزيد أحد بني تيم الله بن ثعلبة بن عكابة، وكان ناسكاً، فأخبره بما يريد، فقال له: أما قتل الوليد فإنه يورث فرقة وفتنة ولكن شأنك بالعلج؛ فشد على الساحر فقتله ثم قال له: أحيِ نفسك إن كنت صادقاً، فقال الوليد: هذا رجل يلعب فيأخذ بالعين سُرعةً وخفةً، فقدم جندباً ليضرب عنقه فأنكرت الأزد ذلك وقالوا: تقتل

صاحبنا بعلجٍ ساحر؟ فحبسه، فلما رأى السجان طول صلاته وكثرة صيامه تحوّب من حبسه فخلى سبيله، فمضى جندب فلحق بالمدينة وكان يُكنى أبا عبد الله، فأخذ الوليد السجان، وكان يقال له دينار ويُكنى أبا سنان، فضرب عنقه وصلبه بالسبخة، ويقال إنه ضرب عنقه بالسبخة و لم يصلبه. و لم يزل جندب بالمدينة حتى كلَّم فيه عليّ بن أبي طالب عثمان فكتب إلىالوليد يأمره بالإمساك عنه، فقدم الكوفة.

وقال أبو مخنف وغيره: خرج الوليد بن عقبة لصلاة الصبح وهو يميل، فصلى ركعتين ثم التفت إلى الناس فقال: أزيدكم، فقال له عتاب بن علاق أحد بني عوافة بن سعد وكان شريفاً: لا زادك الله مزيد الخير، ثم تناول حفنة من حصى فضرب بها وجه الوليد، وحصبه الناس، وقالوا: والله ما العجب إلا ممن ولاك، وكان عمر بن الخطاب فرض لعتاب هذا مع الأشراف في ألفين وخمسمائة وذكر بعضهم أن القيء غلب على الوليد في مكانه، وقال يزيد بن قيس الأرحبي ومعقل بن قيس الرياحي: لقد أراد عثمان كرامة أخيه بهوان أمة محمد صلى الله عليه وسلم.

وفي الوليد يقول الحطيئة، وهو جرول بن أوس بن مالك بن جؤية العبسي:

شهد الحطيئة يوم يلقى ربه	أن الوليد أحقُّ بالغدر
نادى وقد نفذت صلاتهم	أأزيدكم ثملاً وما يدري
ليزيدهم خيراً ولو قبلوا	منه لزادهم على عشر
فأبوا أبا وهب ولو فعلوا	لقرنت بين الشفع والوتر
حسبوا عنانك إذ جريت ولو	خلوا عنانك لم تزل تجري

قالوا: و لم يكن بسيرة الوليد في عمله بأس، ولكنه كان فاسقاً مسرفاً على نفسه.

حدثني العباس بن يزيد البصري حدثنا عبد الوهاب الثقفي عن جعفر بن محمد عن أبيه أن الوليد صلى بالناس الصبح ثم أقبل عليهم فقال: أزيدكم، فرحل في ذلك رجل - أو قال رجال - إلى عثمان فأتي بالوليد فأمر بجلده، فلم يُقم أحد، فلما قال الثالثة: من يجلده؟ قال علي: أنا، فقام إليه فجلده بدرة يقال لها السبتية لها رأسان، فضربه بها أربعين فذلك ثمانون.

وقال أبو مخنف: لما صلى الوليد بالناس وهو سكران، أتى أبو زينب زهير بن عوف الأزدي صديقاً له من بني أسد يقال له موُرع، فسأله أن يعاونه على الوليد في التماسه غرته، فتفقداه ذات يوم فلم يرياه خرج لصلاة العصر، فانطلقا إلى بابه ليدخلا عليه فمنعهما البواب، فأعطاه أبو زينب ديناراً فسكت، فدخلا،

فإذا هما به سكران ما يعقل، فحملاه حتى وضعاه على سريره، فقاء خمراً، وانتزع أبو زينب خاتمه من يده ومضى وصاحبه على طريق البصرة حتى قدما على عثمان فشهدا عليه عنده بما رأيا حين صلى وبما كان منه حين دخلا عليه، فقال عثمان لعلي: ماترى؟ قال: أرى أن تُشخصه إليك، فإذا شهدا في وجهه حددته، فعزله عثمان وولى سعيد بن العاص بن أبي أحيحة الكوفة، وأمره بإشخاص الوليد ففعل، ودعا عثمان بالرجلين فشهدا عليه في وجهه، فقال عليّ للحسن ابنه: قم يابني فاجلده، فقال عثمان: يكفيك ذلك بعض من ترى، فأخذ عليّ السوط ومشى إليه فجعل يضربه والوليد يسبه، وكان للسوط طرفان فضربه أربعين وعليه جُبة حبرٍ.

وحدثني محمد بن سعد عن الواقدي عن عيسى بن عبد الرحمن عن أبي إسحاق الهمذاني أن الوليد بن عقبة شرب فسكر فصلى بالناس الغداة ركعتين ثم التفت فقال: أزيدكم؟ فقالوا: لا، قد قضينا صلاتنا، ثم دخل عليه بعد ذلك أبو زينب وجندب بن زهير الأزدي وهو سكران فانتزعا خاتمه من يده وهو لا يشعر سُكراً.

قال أبو إسحاق: وأخبرني مسروق أنه حين صلى لم يرم حتى قاء، فخرج في أمره إلى عثمان أربعة نفر: أبو زينب وجندب بن زهير وأبو حبيبة الغفاري والصعب بن جثامة، فأخبروا عثمان خبره، فقال عبد الرحمن بن عوف: ما له أجُنَّ قالوا: لا، ولكنه سكر، قال: فأوعدهم عثمان وتهددهم وقال لجندب: أنت رأيت أخي يشرب الخمر؟ قال: معاذ الله، ولكني أشهد أني رأيته سكران يقلسها من جوفه وأني أخذت خاتمه من يده وهو سكران لا يعقل؛ قال أبو إسحاق: فأتى الشهود عائشة فأخبروها بما جرى بينهم وبين عثمان وأن عثمان زبرهم، فنادت عائشة: إن عثمان أبطل الحدود وتوعد الشهود.

قال الواقدي: وقد يقال إن عثمان ضرب بعض الشهود أسواطاً، فأتوا علياً فشكوا إليه، فأتى عثمان فقال: عطلت الحدود وضربت قوماً شهدوا على أخيك فقلبت الحكم وقد قال عمر: لا تحمل بني أمية وآل أبي معيط خاصة على رقاب الناس، قال: فما ترى: قال: أرى أن تعزله ولا توليه شيئاً من أمور المسلمين، وأن تسأل عن الشهود فإن لم يكونوا أهل ظنة ولا عداوة أقمت على صاحبك الحدّ.

قال: ويقال إن عائشة أغلظت لعثمان وأغلظ لها وقال: وما أنتِ وهذا؟ إنما أُمرتِ أن تقري في بيتك، فقال قومٌ مثل قوله، وقال آخرون: ومن أولى بذلك منها؟ فاضطربوا بالنعال، وكان ذلك أول قتالٍ بين المسلمين بعد النبي صلى الله عليه وسلم.

وقال الهيثم بن عدي: اللذان دخلا على الوليد وهو سكران: زياد بن علاقة التيمي، وجندب بن زهير الأزدي.

وحدثني محمد بن سعد عن الواقدي في اسناده وعباس بن هشام عن أبيه عن جده وأبي مخنف وغيرهما قالوا: أتى طلحة والزبير عثمان فقالا له: قد نهيناك عن تولية الوليد شيئاً من أمور المسلمين فأبيت، وقد شُهد عليه بشرب الخمر والسكر فاعزله، وقال له علي: اعزله وحُدَّه إذا شهد الشهود عليه في وجهه، فولى عثمان سعيد بن العاص الكوفة وأمره بإشخاص الوليد، فلما قدم سعيد الكوفة غسل المنبر ودار الإمارة وأشخص الوليد، فلما شُهد عليه في وجهه وأراد عثمان أن يحده ألبسه جُبة حبرٍ وأدخلهُ بيتاً، فجعل إذا بعث إليه رجلاً من قريش ليضربه قال له الوليد: أنشدك الله أن تقطع رحمي وتغُضب أمير المؤمنين عليك، فيكفُّ، فلما رأى ذلك عليّ بن أبي طالب أخذ السوط ودخل عليه ومعه ابنه الحسن، فقال له الوليد مثل تلك المقالة، فقال له الحسن: صدقَ يا أبه، فقال عليّ: ما أنا إذاً بمؤمن، وجلده بسوطٍ له شعبتان أربعين جلدة و لم يترع جُبته، وكان عليه كساء فجاذبه عليّ إياه حتى طرحه عن ظهره وضربه ومايبدو إبطه.

قالوا: وسئل عثمان أن يحلقه، وقيل له إن عمر حلق مثله، فقال: قد كان فعل ذلك، ثم تركه.

وكان النبي صلى الله عليه وسلم وجه الوليد على صدقات بني المصطلق فجاء فقال: إنهم منعوا الصدقة، فترل فيه "إن جاءكم فاسقٍ" فتبينوا الآية.

وحدثني عباس بن يزيد البحراني حدثنا عبد الرحمن بن عثمان عن سعيد بن أبي عروبة عن عبد الله الداناج عن حضين بن المنذر أنه شهد على الوليد بن عقبة عند عثمان بشرب الخمر، فكلم عليّ عثمان فيه، فقال: دونك ابن عمك، فقال عليّ قم يا عبد الله بن جعفر، فقام عبد الله فجلده، وعدَّ عليٌّ، فلما أتم أربعين قال: حسبك، أو قال: أمسك، جلد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر أربعين واكتمل عمر ثمانين وكلٌّ سنةٌ.

وحدثني هشام بن عمار حدثنا عيسى بن يونس عن إسماعيل بن أبي خالد عن زياد مولى بني مخزوم قال: لما ضرب عليّ الوليد بن عقبة الحد جعل الوليد يقول: يا مكيثة يا مكيثة.

قالوا: وقال الوليد حين حُدّ:

باعد الله ما بيني وبينكمُ ... بني أمية من قُربى ومن نسبِ
إن يكثر المال لا يذمم فعالكم ... وإن يعش عائلاً مولاكم يخبِ

أمر عبد الله بن مسعود الهذلي رضي الله عنه:

حدثني عباس بن هشام عن أبيه عن أبي مخنف وعوانة في إسنادهما أن عبد الله بن مسعود حين ألقى مفاتيح بيت المال إلى الوليد بن عقبة قال: من غيَّرَ غيَّرَ الله عليه، وما أرى صاحبكم إلا وقد غير وبدل، أيعزل مثل سعد بن أبي وقاص ويولى الوليد. وكان يتكلم بكلام لا يدعه وهو: إن أصدق القول كتاب الله، وأحسن الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكل مُحدث بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

فكتب الوليد إلى عثمان بذلك وقال: إنه يعيبك ويطعن عليك، فكتب إليه عثمان يأمره بإشخاصه، وشيعه أهل الكوفة، فأوصاهم بتقوى الله ولزوم القرآن، فقالوا له: جُزيت خيراً، فلقد علمت جاهلنا وثبتَّ عالمنا، وأقرأتنا القرآن، وفقهتنا في الدين، فنعم أخو الإسلام أنت، ونعم الخليل، ثم ودعوه وانصرفوا وقدم ابن مسعود المدينة وعثمان يخطب على منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما رآه قال: ألا أنه قدمت عليكم دويبة سوءٍ من تمشِ على طعامه يقيء ويسلح، فقال ابن مسعود: لست كذلك، ولكني صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم بدر، ويوم بيعة الرضوان، ونادت عائشة، أي عثمان، أتقول هذا لصاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ ثم أمر عثمان به فأخرج من المسجد إخراجاً عنيفاً، وضرب به عبد الله بن زمعة بن الأسود بن المطلب بن أسد بن عبد العزى بن قصي الأرض، ويقال بل احتمله يحموم غلام عثمان ورجلاه تختلفان على عنقه حتى ضرب به الأرض فدق ضلعه، فقال علي: ياعثمان أتفعل هذا بصاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم بقول الوليد بن عقبة؟ فقال: ما يقول الوليد فعلت هذا، ولكن وجهت زُبيد بن الصلت الكندي إلى الكوفة فقال له ابن مسعود: إن دم عثمان حلال، فقال عليّ أحلت من زبيد على غير ثقة، وقال ابن الكلبي: زُبيد بن الصلت أخو كثير بن الصلت الكندي.

وقام عليّ بأمر ابن مسعود حتى أتى به منزله، فأقام ابن مسعود بالمدينة لا يأذن له عثمان في الخروج منها إلى ناحية من النواحي، وأراد حين برىء الغزو فمنعه من ذلك؛ وقال له مروان: إن ابن مسعود أفسد عليك العراق أفتريد أن يفسد عليك الشام؟ فلم يبرح المدينة حتى توفي قبل مقتل عثمان بسنتين، وكان مقيماً بالمدينة ثلاث سنين؛ وقال قوم إنه كان نازلاً على سعد بن أبي وقاص.

ولما مرض ابن مسعود مرضه الذي مات فيه أتاه عثمان عائداً فقال: ما تشتكي؟ قال: ذنوبي قال: فما تشتهي؟ قال: رحمة ربي، قال: ألا أدعو لك طبيباً؟ قال: الطبيب أمرضني، قال: أفلا آمر لك بعطائك؟ قال: منعتنيه وأنا محتاج إليه وتعطينيه وأنا مستغنٍ عنه؟ قال: يكون لولدك، قال: رزقهم على الله قال: استغفر لي يا أبا عبد الرحمن، قال: أسأل الله أن يأخذ لي منك بحقي، وأوصى أن لا يصلي عليه عثمان،

فدفن بالبقيع وعثمان لا يعلم، فلما علم غضب وقال: سبقتموني به، فقال له عمار بن ياسر: إنه أوصى أن لا تصلي عليه؛ وقال الزبير:

لأعرفنك بعد الموت تندُبني	وفي حياتي ما زودتني زادي

وكان الزبير وصي ابن مسعود في ماله وولده، وهو كلَّم عثمان في عطائه بعد وفاته حتى أخرجه لولده، وأوصى ابن مسعود أن يصلي عليه عمار بن ياسر، وقوم يزعمون أن عماراً كان وصيَّهُ، ووصيةُ الزبير أثبت.

وحدثني إسحاق الفروي أبو موسى حدثنا عبد الله بن إدريس عن عبد الرحمن بن عبد الله عن رجل نسيه إسحاق قال: دخل عثمان على ابن مسعود في مرضه فاستغفر كل واحد منهما لصاحبه، فلما انصرف عثمان قال بعض من حضر: إن دمه لحلال، فقال ابن مسعود: ما يسرني أنني سددت إليه سهماً يخطئه وأن لي مثل أُحدٍ ذهباً.

وقال الواقدي: مات عبد الله بن مسعود في سنة اثنتين وثلاثين وله بضعٍ وستون سنة، ودفن بالبقيع، وكان نحيفاً قصيراً، شديد الأدمة، يُغيّر شيبه، ويكنى أبا عبد الرحمن.

أمر الحمى وغيره

حدثني محمد بن سعد عن الواقدي عن معمر عن الزهري: أن عثمان حمى النقيع لخيل المسلمين،وكان يحمل في كل سنة على خمسمائة فرس وألف بعير، وكانت الإبل ترعى بناحية الربذة في حمى لها؛ وقال الواقدي: النقيع على ليلتين من المدينة.

وقال أبو مخنف في إسناده: أنكر على عثمان مع ما أنكر أن حمى الحمى، وأن أعطى زيد بن ثابت مائة ألف درهم من ألف ألف درهم حملها أبو موسى الأشعري وقال له: هذا حقك فقال أسلم بن أوس بن بجرة الساعدي من الخزرج، وهو الذي منع أن يُدفن عثمان بالبقيع:

أقسمُ بالله رب العباد	ما ترك الله خلقاً سُدى
دعوت اللعين فأدنيته	خلافاً لسنَّةِ من قد مضى

يعني الحكم:

وأعطيت مروان خمس العباد	ظلماً لهم وحميت الحمى
ومالٌ أتاك به الأشعري	من الفيء أنهته من ترى
فأما الأمينان إذ بيَّنا	منار الطريق عليه الصوى

فلم يأخذا درهماً غيلةً ولم يصرفا درهماً في هوى

وحدثني مصعب بن عبد الله الزبيري عن مالك بن أنس عن الزهري قال: وسَّع عثمان مسجد النبي صلى الله عليه وسلم فأنفق عليه من ماله عشرة آلاف درهم، فقال الناس: يوسع مسجد رسول الله ويغير سنته.

وحدثني محمد بن سعد عن الواقدي عن محمد بن عبد الله عن الزهري عن سالم بن عبد الله عن أبيه قال: صليت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بمنى ركعتين، ومع أبي بكر وعمر ومع عثمان صدراً من خلافته، ثم أتمها أربعاً فتكلم الناس في ذلك فأكثروا، وسئل أن يرجع عن ذلك فلم يرجع.

قال الواقدي: بلغنا أن عبد الرحمن بن عوف قال له: ألم تُصلِّ مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بهذا المكان ركعتين، وصليت في خلافتك كذلك؟ قال: بلى، قال: فما هذا؟ قال: إني أُخبرك يا أبا محمد أن بعض حجاج اليمن وجفاة الناس قالوا في عامنا هذا: إن صلاة المقيم أربعاً، وإن إمامنا عثمان قد اتخذ بمكة أهلاً فهو كالمقيم وقد صلى اثنتين فرأيت أن أصلي أربعاً، فقال عبد الرحمن: يا سبحان الله زوجتك بالمدينة تقدم بها إذا شئت وتخرجها إذا أردت، فعظم إنكار الناس لذلك وكانت تلك الحجة في سنة تسعٍ وعشرين، وكان أول فسطاطٍ ضرب بمنى فسطاطٌ ضُرِبَ له.

وحدثني محمد بن سعد عن الواقدي عن عبد الله بن جعفر عن إسماعيل بن محمد عن السائب بن يزيد قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا خرج للصلاة أذن المؤذن ثم يقيم، وكذلك كان الأمر على عهد أبي بكر وعمر وفي صدرٍ من أيام عثمان، ثم أن عثمان نادى النداء الثالث في السنة السابعة، فعاب الناس ذلك وقالوا بدعة.

قال: وكان ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب شريك عثمان في الجاهلية، فقال العباس بن ربيعة بن الحارث لعثمان: اكتب إلى ابن عامر يُسلفني مائة ألف درهم، فكتب له فأعطاه مائة ألف درهم صلةً، وأقطعه دارَ العباس بن ربيعة فهي تُعرف به.

أمر سعيد بن العاص بن أبي أحيحة

وولايته الكوفة بعد الوليد:

حدثنا عباس بن هشام عن أبيه عن أبي مخنف في إسناده قال: لما عزل عثمان بن عفان رضي الله عنه الوليد بن عقبة عن الكوفة ولاها سعيد بن العاص وأمره بمداراة أهلها، فكان يجالس قراءها ووجوه أهلها

ويسامرهم، فيجتمع عنده منهم: مالك بن الحارث الأشتر النخعي، وزيد وصعصعة ابنا صُوحان العبديان، وحُرقوص بن زهير السعدي، وجندب بن زهير الأزدي، وشيرح بن أوفى بن يزيد بن زاهر العبسي، وكعب بن عبدة النهدي – وكان يقال لعبدة بن سعد ذو الحبكة، وكان كعب ناسكاً، وهو الذي قتله بُسر بن أبي أرطأة بتثليث – وعدي بن حاتم الجواد بن عبد الله بن سعد بن الحشرج الطائي ويكنى أبا طريف، وكدام بن حضرمي بن عامر أحد بني مالك بن مالك بن مالك بن ثعلبة بن دودان بن أسد بن خزيمة، ومالك بن حبيب بن خراش من بني ثعلبة بن يربوع، وقيس بن عطارد بن حاجب بن زرارة بن عُدسُ بن زيد بن عبد الله بن دارم، وزياد بن خصفة بن ثقيف من بني تيم الله بن ثعلبة بن عكابة، ويزيد بن قيس الأرحبي وغيرهم؛ فإنهم لعنده وقد صلوا العصر إذ تذاكروا السواد والجبل ففضلوا السواد وقالوا: هو ينبت ما ينبت الجبل، وله هذا النخل، وكان حسان بن محدوج بن بشر بن حوط بن سعنة الذهلي الذي أبتدأ الكلام في ذلك، فقال عبد الرحمن بن خنيس الأسدي صاحب شرطه: لوددت أنه للأمير وإن لكم أفضل منه، فقال له الأشتر: تمن للأمير أفضل منه ولا تمن له أموالنا، فقال عبد الرحمن: ما يضرك من تمني حتى تزوي ما بين عينيك؟ فو الله لو شاء كان له، فقال الأشتر: والله لورام ذلك ما قدر عليه، فغضب سعيد وقال: إنما السواد بستان لقريش، فقال الأشتر:أتجعل مراكز رماحنا وما أفاء الله علينا بستاناً لك ولقومك؟ والله لو رامه أحد لقرع قرعاً يتصأصأ منه، ووثب بابن خنيس فأخذته الأيدي، فكتب سعيد بن العاص بذلك إلى عثمان وقال: إني لا أملك من الكوفة مع الأشتر وأصحابه الذين يدعون القراء– وهم السفهاء– شيئاً، فكتب إليه أن سيرهم إلى الشام، وكتب إلى الأشتر: إني لأراك تضمر شيئاً لو أظهرته لحل دمك، وما أظنك منتهياً حتى تصيبك قارعة لا بقيا بعدها، فإذا أتاك كتابي هذا فسر إلى الشام لإفسادك من قبلك وأنك لا تألوهم خبالاً، فسير سعيد الأشتر ومن كان وثب مع الأشتر وهم: زيد وصعصعة ابنا صوحان، وعائذ بن حملة الطهوي، من بني تميم، وكميل بن زياد النخعي، وجندب بن زهير الأزدي، والحارث بن عبد الله الأعور الهمداني من بني حوث بن سبع بن صعب إخوة السبيع بن سبع بن صعب ويزيد بن المكفف النخعي، وثابت بن قيس بن المنقع بن الحارث النخعي، وأصعر بن قيس بن الحارث بن وقاص الحارثي من بني المعقل.

فكتب جماعة من القراء إلى عثمان منهم: معقل بن قيس الرياحي، وعبد الله بن الطفيل العامري، ومالك بن حبيب التميمي، ويزيد بن قيس الأرحبي، وحجر بن عدي الكندي، وعمرو بن الحمق الخزاعي، وسليمان بن صرد الخزاعي، ويكنى أبا مطرف، والمسيب بن نجبة الفزاري، وزيد بن حصن الطائي، وكعب بن عبدة النهدي، وزياد بن النضر بن بشر بن مالك بن الديان الحارثي، ومسلمة بن عبد القاري من القارة من بني الهون بن خزيمة بن مدركة، أن سعيداً كثر على قوم من أهل الورع والفضل والعفاف

فحملك في أمرهم على ما لا يحل في دين، ولا يحسن في سماع، وإنا نذكرك الله في أمة محمد فقد خفنا أن يكون فساد أمرهم على يديك لأنك قد حملت بني أبيك على رقابهم، وأعلم أن لك ناصراً ظالماً، وناقماً عليك مظلوماً، فمتى نصرك الظالم ونقم عليك الناقم تباين الفريقان وأختلفت الكلمة، ونحن نشهد عليك الله وكفى به شهيداً، فإنك أميرنا ما أطعت الله واستقمت، ولن تجد دون الله ملتحداً ولا عنه منتقذن و لم يسم أحداً منهم نفسه في الكتاب، وبعثوا به مع رجل من عنزة يكنى أبا ربيعة، وكتب كعب بن عبدة كتاباً من نفسه تسمى فيه ودفعه إلى أبي ربيعة.

فلما قدم أبو ربيعة على عثمان سأله عن اسماء القوم الذي كتبوا الكتاب فلم يخبره، فأراد ضربه وحبسه، فمنعه عليّ من ذلك وقال: إنما هو رسول أدى ما حمل؛ وكتب عثمان إلى سعيد أن يضرب كعب بن عبدة عشرين سوطاً ويحول ديوانه إلى الري ففعل، ثم إن عثمان تحوب وندم فكتب إشخاصه إليه ففعل، فلما ورد عليه قال له: إنه كانت مني طيرة، ثم نزع ثيابه وألقى إليه سوطاً وقال: اقتص، فقال: قد عفوت يا أمير المؤمنين.

ويقال إن عثمان لما قرأ كتاب كعب كتب إلى سعيد في إشخاصه إليه، فأشخصه إليه مع رجل أعرابي من أعراب بني أسد، فلما رأى الأعرابي صلاته وعرف نسكه وفضله قال:

ليت حظي من مسيري بكعب عفوه عني وغفران ذنبي

فلما قدم به على عثمان قال عثمان:لأن تسمع بالمعيدي خيرٌ من أن تراه، وكان شاباً حديث السن نحيفاً، ثم أقبل عليه فقال: أأنت تعلمني الحق وقد قرأت كتاب الله وأنت في صلب رجلٍ مشرك، فقال له كعب: إن إمارة المؤمنين إنما كانت لك بما أوجبته الشورى حين عاهدت الله على نفسك لتسيرن بسيرة نبيه لا تقصر عنها، وإن يشاورونا فيك ثانيةً نقلناها عنك، يا عثمان إن كتاب الله لمن بلغه وقرأه، وقد شركناك في قراءته، ومتى لم يعمل القارىء بما فيه كان حجةً عليه، فقال عثمان والله ما أظنك تدري أين ربك فقال: هو بالمرصاد، فقال مروان: حلمك أغرى مثل هذا بك وجرأه عليك، فأمر عثمان بكعب فجرد وضرب عشرين سوطاً وسيره إلى دباوند، ويقال إلى جبل الدخان؛ فلما ورد على سعيد فحمله مع بكير بن حمران الأحمري فقال الدهقان الذي ورد عليه: لم أفعل بهذا الرجل ما أرى؟ قال بكير: لأنه شرير، فقال: إن قوماً هذا من شرارهم لخيارٌ.

ثم إن طلحة والزبير وبخا عثمان في أمره كعب وغيره، وقال طلحة: عند غب الصدر تحمد عاقبة الورد،

فكتب في رد كعب رضي الله تعالى عنه وحمله إليه فلما قدم عليه نزع ثوبه وقال: يا كعب اقتص، فعفا رضي الله عنهم أجمعين.

أمير المسيرين من أهل الكوفة إلى الشام

قالوا: لما خرج المسيرون من قراء أهل الكوفة فاجتمعوا بدمشق نزلوا مع عمرو بن زرارة، فبرهم معاوية وأكرمهم، ثم إنه جرى بينه وبين الأشتر قول حتى تغالظا، فحبسه معاوية، فقام عمرو، بن زارارة فقال: لئن حسبته لتجدن من يمنعه، فأمر بحبس عمرو،فتكلم سائر القوم فقالوا: أحسن جوارنا يا معاوية، ثم سكتوا فقال معاوية: ما لكم لا تكلمون؟ فقال زيد بن صوحان: وما نصنع بالكلام لئن كنا ظالمين فنحن نتوب إلى الله، وإن كنا مظلومين فإنا نسأل الله العافية، فقال معاوية: يا أبا عائشة أنت رجل صدقٍ، وأذن له في اللحاق بالكوفة؛ وكتب إلى سعيد بن العاص: أما بعد فأني قد أذنت لزيد بن صوحان في المسير إلى منزله بالكوفة لما رأيت من فضله وقصده وحسن هديه، فأحسن جواره وكف الأذى عنه وأقبل إليه بوجهك وودك فإنه قد أعطاني موثقاً أن لا ترى منه مكروهاً، فشكر زيد معاوية وسأله عند وداعه إخراج من حبس ففعل. وبلغ معاوية أن قوماً من أهل دمشق يجالسون الأشتر وأصحابه، فكتب إلى عثمان: إنك بعثت إلي قوماً أفسدوا مصرهم وأنغلوه ولا آمن أن يفسدوا طاعة من قبل ويعلموهم ما لا يحسنونه حتى تعود سلامتهم غائلةً وأستقامتهم اعوجاجاً، فكتب إلى معاوية يأمره أن يسيرهم إلى حمص ففعل، وكان واليها عبد الرحمن بن خالد بن الوليد بن المغيرة. ويقال إن عثمان كتب في ردهم إلى الكوفة فضج منهم سعيد ثانيةً، فكتب في تسييرهم إلى حمص فنزلوا الساحل.

قالوا: وكتب عثمان رضي الله تعالى عنه إلى أمرائه في القدوم عليه للذي رأى من ضجيج الناس وشكيتهم، فقدم عليه معاوية من الشام، وعبد الله بن سعد بن أبي سرح من المغرب، وعبد الله بن عامر بن كريز من البصرة، وسعيد بن العاص من الكوفة، فأما معاوية فقال له: أعدني وعمالك إلى أعمالنا وخذنا بما تحت أيدينا، وأشار عليه أيضاً بالمسير إلى الشام فأبى وقال: لا أخرج من مهاجر رسول الله وجوار قبره ومسكن أزواجه، فعرض عليه أن يوجه إليه جيشاً يقيم معه فيمنع منه فقال: لا أكون أول من وطيء أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنصاره بجيش؛ وأما سعيد بن العاص فقال له: إنما دعا الناس إلى الشكية وسوء القول الفراغ فأشغلهم بالغزو، وأما أبن عامر فقال: إن الناس نقموا عليك في المال فأعطهم إياه، فردهم إلى أعمالهم.

وقال علي: يا عثمان إن الحق ثقيل مريءٌ، وإن الباطل خفيف وبيءٌ، وإنك متى تصدق تسخط، ومتى تكذب ترضى؛ وقال له طلحة: إنك قد أحدثت أحداثاً لم يكن الناس يعهدونها، فقال عثمان: ما أحدثت

حدثاً ولكنّكم أظِنّاءُ تفسدون عليّ الناس وتؤلبونها.

وكان علباء بن الهيثم السدوسي قد شخص مع سعيد بن العاص إلى المدينة ليقرظه ويثني عليه لأنه سأله ذلك، وأحب علباءٌ أيضاً أن يلقي علياً ويعلم حال عثمان وما يكون منه، فلما رأى أن عثمان قد عزم على رد عماله تعجل إلى الكوفة على ناقة له، فلما قدمها قال: يا أهل الكوفة هذا أميركم الذي يزعم أن السواد بستان له قد أقبل، وأغتنم أهل الكوفة غيبة معاوية عن الشام، فكتبوا إلى إخوانهم الذين بحمص مع هانئ بن خطاب الأرحبي يدعونهم إلى القدوم ويشجعونهم عليه ويعلمونهم أنه لا طاعة لعثمان مع إقامته على ماينكر منه، فسار إليهم هانئ بن خطاب مغذاً للسير راكباً للفلاة، فلما قرأوا كتاب أصحابهم أقبل الأشتر والقوم المسيرون حتى قدموا الكوفة، فأعطاه القراء والوجوه جميعاً مواثيقهم وعهودهم أن لا يدعوا سعيد بن العاص يدخل الكوفة والياً أبداً، وكان الذين كتبوا مع هانئ بن خطاب: مالك بن كعب بن عبد الله الهمداني ثم الأرحبي، ويزيد بن قيس بن ثمامة الأرحبي، وشريح بن أوفى العبسي، وعبد الله بن شجرة السلمي، وجمرة بن سنان الأسدي، وحرقوص بن زهير السعدي، وزياد بن خصفة التيمي، وعبد الله بن قفل البكري ثم التيمي، وزياد بن نضر الحارثي، وعمرو بن شرحبيل أبو ميسرة الهمداني، وعلقمة بن قيس النخعي في رجال أشباههم.
وقام مالك بن الحارث الأشتر يوماً فقال: إن عثمان قد غير وبدل، وحض الناس على منع سعيد من دخول الكوفة، فقال له قبيصة بن جابر بن وهب الأسدي من ولد عميرة بن جدار: يا أشتر دام شترك، وعفا أثرك، أطلت الغيبة، وجئت بالخيبة، أتأمرنا بالفرقة والفتنة ونكث البيعة وخلع الخليفة.؟ فقال الأشتر: يا قبيصة بن جابر وما أنت وهذا، فوالله ما أسلم قومك إلى كرهاً ولا هاجروا إلا فقراً، ثم وثب الناس على قبصة فضربوه وجرحوه فوق حاجبه، وجعل الأشتر يقول: لا حر بوادي عوفٍ، من لا يذد عن حوضه يهدم؛ ثم صلى بالناس الجمعة وقال لزياد بن النضر: صل بالناس سائر صلواتهم والزم القصر، وأمر كميل بن زياد فأخرج ثابت بن قيس بن الخطيم الأنصاري من القصر، وكان سعيد بن العاص خلفه على الكوفة حين شخص إلى عثمان، وعسكر الأشتر بين الكوفة والحيرة وبعث عائذ بن حملة في خمسمائة إلى أسفل كسكرمسلحةً بينه وبين البصرة، وبعث جمرة بن سنان الأسدي في خمسمائة إلى عين التمر ليكون مسلحة بينه وبين الشام،وبعث هانئ بن أبي حية بن علقمة الهمداني ثم الوادعي إلى حلوان في ألف فارس ليحفظ الطريق بالجبل،فلقي الأكراد بناحية الدينور وقد أفسدوا فأوقع بهم وقتل منهم مقتلة عظيمة، وبعث الأشتر إيضاً يزيد بن حجية التيمي إلى المدائن وأرض جوخى، وولى عروة بن زيد الخيل الطائي ما دون المدائن، وتقدم إلى عماله أن لا يجبوا درهماً وأن يسكنوا الناس وأن يضبطوا النواحي،

وبعث مالك بن كعب الأرحبي في خمسمائة فارس ومعه عبد الله بن كباثة أحد بني عائذ الله بن سعد العشيرة بن مالك بن أدد بن زيد إلى العذيب ليلقى سعيد بن العاص ويرده، فلقي مالك بن كعب الأرحبي سعيداً فرده وقال: لا والله لا تشرب من ماء الفرات قطرة، فرجع إلى المدينة فقال له عثمان: ما وراءك؟ قال: الشر، فقال عثمان: هذا كله عمل هؤلاء يعني علياً والزبير وطلحة.

وأنهب الأشتر دار الوليد بن عقبة وكان فيها مال سعيد ومتاعه حتى قلعت أبوابها، ودخل الأشتر الكوفة فقال لأبي موسى: تول الصلاة بأهل الكوفة، ولينول حذيفة السواد والخراج.

وكتب عثمان إلى الأشتر وأصحابه مع عبد الرحمن بن أبي بكر، والمسور بن مخرمة يدعوهم إلى الطاعة ويعلمهم أنهم أول من سن الفرقة ويأمرهم بتقوى الله ومراجعة الحق والكتاب إليه بالذي يحبون، فكتب إليه الأشتر: من مالك بن الحارث إلى الخليفة المبتلى الخاطئ الحائد عن سنة نبيه، النابذ لحكم القرآن وراء ظهره، أما بعد فقد قرأنا كتابك فانه نفسك وعمالك عن الظلم والعدوان وتسيير الصالحين نسمح لك بطاعتنا، وزعمت أنا قد ظلمنا أنفسنا وذلك ظنك الذي أرداك الجور عدلاً والباطل حقاً، وأما محبتنا فأن تنزع وتتوب وتستغفر الله من تجنيك على خيارنا وتسييرك صلحاءنا وإخراجك إيانا من ديارنا وتوليتك الأحداث علينا، وأن تولي مصرنا عبد الله بن قيس أبا موسى الأشعري وحذيفة فقد رضيناهما، واحبس عنا وليدك وسعيدك ومن يدعوك إليه الهوى منم أهل بيتك إن شاء الله والسلام.

وخرج بكتابهم يزيد بن قيس الأرحبي ومسروق بن الأجدع الهمداني وعبد الله بن أبي سبرة الجعفي، واسم أبي سبرة يزيد، وعلقمة بن قيس أبو شبل النخعي وخارجة بن الصلت البرجمي من بني تميم في آخرين، فلما قرأ عثمان الكتاب قال: اللهم إني تائب، وكتب إلى أبي موسى وحذيفة: أنتما لأهل الكوفة رضىً ولنا ثقة فتوليا أمرهم وقوماً به بالحق، غفر الله لنا ولكما، فتولى أبو موسى وحذيفة الأمر وسكن أبو موسى الناس.

وقال عتبة بن الوغل:

تصدق علينا يا بن عفان واحتسب ... وأمر علينا الأشعري لياليا

فقال عثمان: نعم وشهوراً إن بقيت.

ذكر قول جبلة الأنصاري

وجهجاه الغفاري لعثمان رضي الله عنه.

قال الكلبي: هو رخيلة بن ثعلبة البياضي بدري.

حدثني محمد بن سعد عن الواقدي في إسناده قال: مر عثمان بن عفان على جبلة بن عمرو الساعدي وهو على باب داره وقد أنكر الناس عليه ما أنكروا فقال له: يا نعثل والله لأقتلنك ولأحملنك على قلوصٍ جرباء ولأخرجنك إلى حرة النار؛ ثم أتاه وهو على المنبر فأنزله وكان أول من اجترأ على عثمان وتجهمه بالمنطق الغليظ، وأتاه يوماً بجامعة فقال: والله لأطرحنها في عنقك أو لتتركن بطانتك هذه، وأطعمت الحارث بن الحكم السوق وفعلت وفعلت. وكان عثمان ولى الحارث السوق فكان يشتري الجلب بحكمه ويبيعه بسومه، ويجبي مقاعد المتسوقين ويصنع صنيعاً منكراً، فكلم في إخراج السوق من يده فلم يفعل؛ وقيل لجبلة في أمر عثمان وسئل الكف عنه فقال: والله لا ألقى الله غداً فأقول "إنا أطعنا سادتنا فأضلونا السبيل".

وقال الواقدي في بعض إسناده: خطب عثمان في بعض أيامه فقال له جهجاه بن سعيد الغفاري: يا عثمان أنزل ندرعك عباءةً ونحملك على شارف من الأبل إلى جبل الدخان كما سيرت خيار الناس، فقال له عثمان: قبحك الله وقبح ما جئت به، وكان جهجاهٌ متغيظاً على عثمان، فلما كان يوم الدار دخل عليه ومعه عصاً كان النبي صلى الله عليه وسلم يتحضر بها فكسرها على ركبته، فوقعت فيها الأكلة.

حدثني روح بن عبد المؤمن حدثني أبو الربيع سليمان بن داود الزهراني أنبأنا حماد بن زيد عن يزيد بن حازم عن سليمان بن يسار أن جهجاهاً الغفاري دخل على عثمان فأخذ منه عصا النبي صلى الله عليه وسلم التي كان يتخصر بها فكسرها على ركبته فأخذته الأكلة في ركبته؛ وكان جهجاه ممن بايع تحت الشجرة، رضي الله تعالى عنه.

أمر عمار بن ياسر العنسي

رضي الله تعالى عنه:

حدثنا عباس بن هشام بن محمد عن أبي مخنف في إسناده قال: كان في بيت المال بالمدينة سفط فيه حلي وجوهر فأخذ منه عثمان ما حلى به بعض أهله، فأظهر الناس الطعن عليه في ذلك وكلموه فيه بكلام شديد حتى أغضبوه، فخطب فقال: لنأخذن حاجتنا من هذا الفيء وإن رغمت أنوف أقوام، فقال له علي: إذاً تمنع من ذلك ويحال بينك وبينه، وقال عمار بن ياسر: أشهد الله أن أنفي أول راغم من ذلك، فقال عثمان: أعلي يا بن المتكاء تجترئ؟ خذوه، فأخذ ودخل عثمان فدعا به فضربه حتى غشي عليه ثم

أخرج فحمل حتى أتي به مترل أم سلمة زوج رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يصل الظهر والعصر والمغرب، فلما أفاق توضأ وصلىّ وقال: الحمد لله ليس هذا أول يوم أوذينا فيه في الله؛ وقال هشام بن الوليد بن المغيرة المخزومي وكان عمار حليفاً لبني مخزوم فقال: يا عثمان أما عليّ فاتقيته وبني أبيه، وأما نحن فاجترأت علينا وضربت أخانا حتى أشفيت به على التلف، أما والله لئن مات لأقتلن به رجلاً من بني أمية عظيم السرة، فقال عثمان: وإنك لها هنا يا بن القسرية، قال فأهما قسريتان، وكانت أمه وجدته قسريتين من بجيلة، فشتمه عثمان وأمر به فأخرج، فأتى أم سلمة وإذا هي غضبت لعمار، وبلغ عائشة ما صنع بعمار فغضبت وأخرجت شعراً من شعر رسول الله صلى الله عليه وسلم وثوباً من ثيابه ونعلاً من نعاله ثم قالت: ما أسرع ما تركتم سنة نبيكم وهذا شعره وثوبه ونعله و لم يبل بعد، فغضب عثمان غضباً شديداً حتى ما درى ما يقول، فالتج المسجد وقال الناس سبحان الله سبحان الله؛ وكان عمرو بن العاص واجداً على عثمان لعزله إياه عن مصر وتوليته إياها عبد الله بن سعد بن أبي سرح، فجعل يكثر التعجب والتسبيح، وبلغ عثمان مصير هشام بن الوليد ومن مشى معه من بني مخزوم إلى أم سلمة وغضبها لعمار فأرسل إليها: ما هذا الجمع؟ فأرسلت إليه: دع ذا عنك يا عثمان ولا تحمل الناس في أمرك على ما يكرهون. واستقبح الناس فعله بعمار، وشاع فيهم، فاشتد إنكارهم له.

ويقال إن المقداد بن عمرو وعمار بن ياسر وطلحة والزبير في عدة من أصحاب رسول صلى الله عليه وسلم كتبوا كتاباً عددوا فيه أحداث عثمان وخوفوه ربه وأعلموه الهم مواثبوه إن لم يقلع، فأخذ عمار الكتاب وأتاه به، فقرأ صدراً منه فقال له عثمان: أعلي تقدم من بينهم؟ فقال عمار: لأني أنصحهم لك، فقال: كذبت يابن سمية، فقال: وأنا والله ابن سمية وابن ياسر، فأمر غلماناً له فمدوا بيديه ورجليه ثم ضربه عثمان برجليه وهي في الخفين على مذاكيره فأصابه الفتق، وكان ضعيفاً فغشي عليه.

وقد قيل أيضاً إن عثمان مر بقبر جديد فسأل عنه فقيل قبر عبد الله بن مسعود، فغضب على عمار لكتمانه إياه موته إذ كان المتولي للصلاة عليه والقيام بشأنه، فعندها وطىء عماراً حتى أصابه الفتق.

وكان محمد بتن أبي بكر بن أبي قحافة، ومحمد بن أبي حذيفة خرجا إلى مصر عام خرج عبد الله بن سعد بن أبي سرح إليها، فأظهر محمد بن أبي حذيفة عيب عثمان والطعن عليه وقال: استعمل عثمان رجلاً أباح رسول الله صلى الله عليه وسلم دمه يوم الفتح ونزل القرآن بكفره حين "قال سأنزل مثل ما أنزل الله".

وكانت غزاة ذات الصواري في المحرم سنة أربعٍ وثلاثين وعليها عبد الله بن سعد فصلى بالناس، فكبر ابن أبي حُذيفة تكبيرة أفزعه بها فقال: لولا أنك حدث أحمق لقاربت بين خطوك، و لم يزل يبلغه عنه وعن ابن أبي بكر ما يكره، وجعل ابن حذيفة يقول: يا أهل مصر إنا خلفنا الغزو وراءنا يعني غزو عثمان؛ وقد

كان عثمان رضي الله تعالى عنه ضرب ابن أبي حذيفة في الشراب فاحتمل عليه لذلك حقداً وحنقاً وهو كان رباه بعد مقتل أبيه باليمامة، فكتب ابن أبي سرح إلى عثمان إن محمد بن أبي بكر، ومحمد بن أبي حذيفة قد أنغلا عليّ المغرب وأفسداه، فكتب إليه عثمان: أما محمد بن أبي بكر فإني أدعه لأبي بكر الصديق وعائشة أم المؤمنين، وأما محمد بن أبي حذيفة فإنه ابني وابن أخي وأنا ربيته وهو فرخ قريش.

وحدثني خلف بن سالم حدثنا وهب بن جرير عن ابن جعدبة عن صالح بن كيسان عن عمر بن عبد العزيز أن محمد بن أبي حذيفة، ومحمد بن أبي بكر حين أكثر الناس في أمر عثمان قدما مصر وعليها عبد الله بن سعد بن أبي سرح، ووافقا بمصر محمد بن طلحة بن عبيد الله وهو مع عبد الله بن سعد، وأن ابن أبي حذيفة شهد صلاة الصبح في صبيحة الليلة التي قدم فيها ففاتته الصلاة فجهر بالقراءة، فسمع ابن أبي سرح قراءته فسأل عنه فقيل رجلٌ أبيض طوال وضيء الوجه، فأمر إذا صلى أن يُؤتى به، فلما رآه قال: ما جاء بك إلى بلدي؟ قال: جئت غازياً قال: ومن معك؟ قال محمد بن أبي بكر، فقال؛ والله ما جئتما إلا لتفسدا الناس وأمر بهما فسُحبا، فأرسلا إلى محمد بن طلحة يسألانه أن يكلمه فيهما لئلا يمنعهما من الغزو، فأطلقهما ابن أبي سرح، وغزا ابن أبي سرح إفريقية فأعد لهما سفينة مفردة لئلا يفسدا عليه الناس، فمرض ابن أبي بكر فتخلف وتخلف معه ابن أبي حذيفة، ثم إنهما خرجا في جماعة الناس فما رجعا من غزاتهما إلا وقد أوغرا صدور الناس على عثمان، فلما وافى ابن أبي سرح مصر وافاه كتاب عثمان بالمصير إليه، فشخص إلى المدينة، وخلف على مصر رجلاً كان هواه مع ابن أبي بكر، وابن أبي حذيفة، فكان ممن شايعهم وشجعهم على المسير إلى عثمان.

قالوا: وبعث عثمان إلى ابن حذيفة بثلاثين ألف درهم وبجملٍ عليه كسوة فأمر به فوضع في المسجد وقال: يامعشر المسلمين ألا ترون إلى عثمان يخادعني عن ديني ويرشوني عليه، فازداد أهل مصر عيباً لعثمان وطعناً عليه، واجتمعوا إلى ابن أبي حذيفة فرأسوه عليهم؛ فلما بلغ عثمان ذلك دعا بعمار بن ياسر فاعتذر إليه مما فعل به واستغفر الله منه وسأله أن لايحقد عليه وقال: بحسبك من سلامتي لك ثقتي بك، وسأله الشخوص إلى مصر ليأتيه بصحة خبر ابن أبي حُذيفَة وحق ما بلغه عنه من باطله، وأمره أن يقوم بعذره ويضمن عنه العتبي لمن قدم عليه، فلما ورد عمار مصر حرض الناس على عثمان ودعاهم إلى خلعه وأشعلها عليه، وقوي رأي ابن أبي حُذيفة وابن أبي بكر وشجعهما على المسير إلى المدينة، فكتب ابن سرح إلى عثمان يعلمه ما كان من عمار ويستأذنه في عقوبته، فكتب إليه: بئس الرأي رأيت يا بن أبي سرح، فأحسن جهاز عمار واحمله اليَّ، فتحرك أهل مصر وقالوا: سُير عمار، ودب فيهم ابن أبي حذيفة ودعاهم إلى المسير فأجابوه.

حدثني روح بن عبد المؤمن المقرىء وأحمد بن إبراهيم الدورقي قالا: حدثنا بهز بن أسد حدثنا حُصين بن نمير عن جهيم الفهري قال: أنا حاضر أمر عثمان، قال: فجاء سعد وعمار ومعهما إلى باب عثمان فأرسلوا إلى عثمان: إنا نريد أن نذاكرك أشياء أحدثتها، فأرسل إليهم: إني مشغول عنكم اليوم فانصرفوا يومكم وعودوا يوم كذا، فانصرف سعد و لم ينصرف عمار، وأعاد الرسول إلى عثمان، فرد عليه مثل القول الأول، فأبى أن ينصرف فتناوله رسول عثمان، فلما اجتمعوا للميعاد قال لهم عثمان: ما تنقمون عليّ؟ قالوا: أول ذلك ضربك عماراً، فقال: تناوله رسولي بغير رضائي وأمري، وذكر كلاماً بعد ذلك.

أمر أبي ذر جندب بن جنادة

الغفاري رضي الله عنه:

من بني كنانة بن خزيمة.

قالوا: لما أعطى عثمان مروان بن الحكم ما أعطاه. وأعطى الحارث بن الحكم بن أبي العاص ثلاثمائة ألف درهم، وأعطى زيد بن ثابت الأنصاري مائة ألف درهم جعل أبو ذر يقول بشر الكانزين بعذاب أليم ويتلو قول الله عز وجل "والذين يكترون الذهب والفضة" الآية، فرفع ذلك مروان بن الحكم إلى عثمان فأرسل إلى أبي ذر ناتلا مولاه أن انته عما يبلغني عنك فقال: أينهاني عثمان عن قراءة كتاب الله وعيب من ترك أمر الله، فوا الله لأن أرضي الله بسخط عثمان أحب إلي وخير لي من أن أُسخط الله برضاه، فأغضب عثمان وأحفظه، فتصابر وكفّ.

وقال عثمان يوماً: أيجوز لإمام أن يأخذ من المال فإذا أيسر قضى؟ فقال كعب الأحبار: لا بأس بذلك، فقال أبو ذر: يا بن اليهوديين أتعلمنا ديننا؟ فقال عثمان: ما أكثر أذاك لي وأولعك بأصحابي، الحق بكتبك، وكان مكتبه بالشام إلا أنه كان يقدم حاجاً ويسأل عثمان الإذن له في مجاورة قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم فيأذن له ذلك، وإنما صار مكتبه بالشام لأنه قال لعثمان حين رأى البناء قد بلغ سلعاً: إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: " إذا بلغ البناء سلعاً فالهرب"، فأذن لي آت الشام فأغزو هناك، فأذن له.

وكان أبو ذر ينكر على معاوية أشياء يفعلها، وبعث إليه معاوية بثلاثمائة دينار فقال: إن كانت من عطائي الذي حرمتمونيه عامي هذا قبلتها، وإن كانت صلةً فلا حاجة لي فيها، وبعث إليه حبيب بن مسلمة الفهري بمائتي دينار فقال: أما وجدت أهون عليك مني حين تبعث إليّ بمال؟ وردها. وبنى معاوية الخضراء

بدمشق فقال: يا معاوية إن كانت هذه الدار من مالك الله فهي الخيانة، وإن كانت من مالك فهذا الإسراف، فسكت معاوية.

وكان أبو ذر يقول: والله لقد حدثت أعمالٌ ما أعرفها، والله ما هي في كتاب الله ولا سنة نبيه، والله إني لا أرى حقاً يطفأ، وباطلاً يحيا، وصادقاً يُكذبُ. وأثرةً بغير تقى وصالحاً مستاثراً عليه. فقال حبيب بن مسلمة لمعاوية: إن أبا ذر مفسد عليك الشام فتدارك أهله إن كانت به حاجة، فكتب معاوية إلى عثمان فيه، فكتب عثمان إلى معاوية: أما بعد فاحمل جُندباً إليّ على أغلظ مركب وأوعره، فوجه معاوية من سار به الليل والنهار، فلما قدم أبو ذر المدينة جعل يقول: ستعمل الصبيان ويحمي الحمى ويقرب أولاد الطلقاء، فبعث إليه عثمان الحق بأي أرض شئت، فقال: بمكة، فقال: لا، قال: فبيت المقدس، قال: لا، قال: فبأحد المصرين، قال: لا، ولكني مسيرك إلى الربذة، فسيره إليها فلم يزل بها حتى مات.

ويقال إن عثمان قال لأبي ذر حين قدم من الشام: قربنا يا أبا ذر خير لك من بُعدنا يغدى عليك باللقاح ويراح فقال: لا حاجة لي في دنياكم ولكني آتي الربذة، فأذن فأتاها ومات بها.

حدثني محمد بن سعد عن الواقدي عن هشام بن الغاز حدثنا مكحول قال: قدم حبيب بن مسلمة من أرمينية فمر بأبي ذر بالربذة فعرض عليه خادمين معه ونفقه فأبى قبول ذلك فقال له: ما أتى بك ها هنا؟ قال: نفسي، رأيت ما هاهنا أسلم لي.

حدثني محمد عن الواقدي عن عبد الله بن محمد بن سمعان عن أبيه أنه قيل لعثمان إن أبا ذر يوقل إنك أخرجته إلى الربذة، فقال: سبحان الله ما كان هذا شيء قط، وإني لأعرف فضله وقديم إسلامه وما كُنا نعد في أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم أكلَّ شوكة منه.

وحدثني عباس بن هشام عن أبيه عن أبي مخنف عن فضيل بن خديج عن كميل بن زياد قال: كنت بالمدينة حين أمر عثمان أبا ذر باللحاق بالشام، وكنت بها في العام المقبل حين سيره إلى الربذة.

وحدثني بكر بن الهيثم عن عبد الرزاق عن معمر عن قتادة قال: تلكم أبو ذر بشيْ كرهه عثمان فكذبه فقال: ما ظننت أن أحداً يكذبني بعد قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: " ما أقلّت الغبراء ولا أطبقت الخضراء على ذي لهجةٍ أصدق من أبي ذر"، ثم سيره إلى الربذة، فكان أبو ذر يقول: ما ترك الحق لي صديقاً؛ فلما سار إلى الربذة قال: ردني عثمان بعد الهجرة أعرابياً.

قال: وشيع عليّ أبا ذر فأراد مروان منعه منه، فضرب عليّ بسوطه بين أذني راحلته، وجرى بين عليّ وعثمان في ذلك كلام حتى قال عثمان: ما أنت بأفضل عندي منه، وتغالطا، فأنكر الناس قول عثمان ودخلوا بينهما حتى اصطلحا.

وقد روي أيضاً أنه لما بلغ عثمان موت أبي ذر بالبذة قال: رحمه الله، فقال عمار بن ياسر: نعم فرحمه الله

من كل أنفسنا، فقال عثمان: يا عاضَّ أير أبيه أتراني ندمت على تسييره؟ وأمر فدفع في قفاه وقال: الحق بمكانه، فلما تهيأ للخروج جاءت بنو مخزوم إلى عليّ فسألوه أن يكلم عثمان فيه فقال له علي: يا عثمان اتق الله فإنك سيرت رجلاً صالحاً من المسلمين فهلك في تسييرك، ثم أنت الآن تريد أن تنفي نظيره، وجرى بينهما كلام حتى قال عثمان: أنت أحق بالنفي منه، فقال علي: رُم ذلك إن شئت، واجتمع المهاجرون فقالوا: إن كنت كلما كلمك رجل سيرته ونفيته فإن هذا شيء لا يسوغ، فكف عن عمار.

حدثني محمد عن الواقدي عن موسى بن عبيدة عن عبد الله بن خراش الكعبي قال وجدت أبا ذر بالربذة في مظلة شعرٍ فقال: ما زال بي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حتى لم يتركالحق لي صديقاً.

حدثني محمد عن الواقدي عن شيبان النحوي عن الأعمش عن إبراهيم التيمي عن أبيه قال: قلت لأبي ذر ما أنزلك الربذة قال: نصحي لعثمان ومعاوية.

محمد عن الواقدي عن طلحة بن محمد عن بشر بن حوشب الفزاري عن أبيه قال: كان أهلي بالشربة فجلبت غنماً لي إلى المدينة فمررت بالربذة وإذا بها شيخ أبيض الرأس واللحية، قلت: من هذا؟ قالوا: أبو ذر صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإذا هو في حفشٍ ومعه قطعةٌ من غنم، فقلت: والله ما هذا البلد بمحلة لبني غفار، فقال: أُخرجت كارهاً؛ فقال بشر بن حوشب: فحدثت بهذا الحديث سعيد بن المسيب فأنكر أن يكون عثمان أخرجه وقال: إنما خرج أبو ذر إليها راغباً في سكناها.

وقال أبو مخنف: لما حضرت أبا ذر الوفاة بالربذة أقبل ركبٌ من أهل الكوفة فيهم جرير بن عبد الله البجلي، ومالك بن الحارث الأشتر النخعي، والأسود بن يزيد بن قيس بنيزيد النخعي، وعلقمة بن قيس بن يزيد عم الأسود في عدة آخرين فسألوا عنه ليسلموا عليه فوجدوه وقد توفي، فقال جرير: هذه غنيمة ساقها الله إلينا، فحنطه جرير وكفنه وصلى عليه - ويقال بل صلى عليه الأشتر - وحملوا امرأته حتى أتو بها المدينة، وكانت وفاته لأربع سنين بقيت من خلافة عثمان، وقال الواقدي: صلى عليه ابن مسعود بالربذة في آخر ذي القعدة سنة إحدى وثلاثين.

وحدثنا عفان بن مسلم حدثنا معتمر بن سليمان حدثنا أيوب حدثنا سليمان بن المغيرة حدثنا حُميد بن هلال أن رفقةً خرجوا من الوفة لحجةٍ أو عمرة فأتوا الربذة فبعثوا رجلاً يشتري لهم شاة، فأتى على خباءٍ فقال: هل عندكم جزرة؟ فقالت أم ذر: أو خير من ذلك؟ قال: وما هو؟ قالت: مات أبو ذر والناس خُلوف، وليس عنده أحد يغسله ويجُنُّه وقد دعا الله أن يوفق قوماً صالحين يغسلونه ويدفنونه، فرجع الرجل فأعلمهم فأقبلوا مسارعين ومعهم الكفن والحنوط فقاموا بأمره حتى أجنوه.

وروى الواقدي عن هُشيم في إسناده أن أبا ذر رضي الله تعالى عنه مات فقالت امرأته: بينا أنا جالسة

عنده وقد توفي إذ أقبل ركب فسلموا فقالوا: ما فعل أبو ذر؟ قلت: هو هذا ميت قد عجزت عن غسله ودفنه، فأناخوا فحفروا له وغسلوه، وأخرج جرير بن عبد الله حنوطاً وكفناً فحنطه وكفنه، ثم دفنوه وحملوها إلى المدينة؛ فقالت حدثني أبو ذر قال: قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إنك تموت بأرض غُربة وأخبرني أنه يلي دفني رهطٌ صالحون".

وحدثت عن هشام عن العوام بن حوشب عن رجل من بني ثعلبة بن سعد قال: رأيت أبا ذر وقوم يقولون له فعل بك هذا الرجل وفعل، يعنون عثمان، فهل أنت ناصبٌ لنا رايةً فتجتمع إليك الرجال؟ فقال: لو أن ابن عفان صلبني على أطول جذع لسمعت وأطعت واحتسبت وصبرت فإنه من أذل السلطان فلا توبة له، فرجعوا.

قول عبد الرحمن بن عوف في عثمان

رضي الله تعالى عنه:

حدثني محمد بن سعد عن الواقدي عن إبراهيم بن سعد عن أبيه قال: لما توفي أبو ذر بالربذة تذاكر عليّ وعبد الرحمن بن عوف فعل عثمان فقال علي: هذا عملك، فقال عبد الرحمن: إذا شئت فخذ سيفك وآخذ سيفي، إنه قد خالف ما أعطاني.

وحدثني محمد بن سعد عن الواقدي عن محمد بن صالح عن عبيد بن رافع عن عثمان بن الشريد قال: ذُكر عثمان عند عبد الرحمن بن عوف في مرضه الذي مات فيه فقال عبد الرحمن: عاجلوه قبل أن يتمادى في ملكه، فبلغ ذلك عثمان، فبعث إلى بئر كان يُسقى منها نعمُ عبد الرحمن بن عوف فمنعه إياها، فقال عبد الرحمن: اللهم اجعل ماءها غوراً، فما وجدت فيها قطرة.

وحدثني محمد بن سعد عن الواقدي عن محمد بن عبد الله عن أبيه عن عبد الله بن ثعلبة بن صُعير أن عبد الرحمن بن عوف كان حلف ألا يكلم عثمان أبداً.

وحدثني مصعب بن عبد الله الزبيري عن إبراهيم بن سعد عن أبيه أن عبد الرحمن أوصى أن لا يصلي عليه عثمان، فصلى عليه الزبير، أو سعد بن أبي وقاص، وتوفي سنة اثنتين وثلاثين.

أمر عامر بن عبد قيس

بن ناشب العنبري من بني تميم:

قال أبو مخنف لوط بن يحيى وغيره: كان عامر بن عبد قيس التميمي يُنكر على عثمان أمره وسيرته، فكتب حُمران بن أبان مولى عثمان إلى عثمان بخبره، فكتب عثمان إلى عبد الله بن عامر بن كريز في حمله محمله، فلما قدم عليه فرآه، وقد أعظم الناس إشخاصه وإزعاجه عن بلده لعبادته وزهده، ألطفه وأكرمه ورده إلى البصرة؛ وكان عثمان وجه حُمران إلى الكوفة حين شكا الناس الوليد بن عقبة ليأتيه بحقيقة خبره فرشاه الوليد، فلما قدم على عثمان كذَّب عن الوليد وقرظه، ثم إنه لقي مروان فسأله عن الوليد فقال له: الأمر جليل، فأخبر عثمان بذلك، فغضب على حُمران وغربه إلى البصرة لكذبه إياه وأقطعه داراً، وكان يقال للوليد الأشعرُ بركاً، والبرك الصدر.

أمر عبد الله بن الأرقم الزهري

قال أبو مخنف: كان على بيت مال عثمان عبد الله بن الأرقم بن عبد يغوث بن وهب بنعبد مناف بن زهرة بن كلاب – وبعض الرواة يقول: عبد الله بن الأرقم بن أُهيب بن عبد مناف بن زهرة – فاستسلف عثمان من بيت المال مائة ألف درهم وكتب عليه بها عبد الله بن الأرقم ذكر حق للمسلمين وأشهد عليه علياً وطلحة والزبير وسعد بن أبي وقاص وعبد الله بن عمر، فلما حل الأجل ردّه عثمان، ثم قدم عليه عبد الله بن خالد بن أسيد بن أبي العيص من مكة وناسٌ معهُ غُزاةً، فأمر لعبد الله بثلاثمائة ألف درهم ولكل رجلٍ من القوم ألف درهم وصك بذلك إلى ابن أرقم فاستكثره وردّ الصك له، ويقال أنه سأل عثمان أن يكتب عليه به ذكر حقّ فأبى ذلك، فامتنع ابن الأرقم من أن يدفع المال إلى القوم، فقال له عثمان: إنما أنت خازن لنا فما حَملك على مافعلت؟ فقال ابن الأرقم: كنت أراني خازناً للمسلمين، وإنما خازنك غلامك، والله لا ألي لك بيت المال أبداً، وجاء بالمفاتيح فعلقها على المنبر، ويقال بل ألقاها إلى عثمان، فدفعها عثمان إلى ناتل مولاه، ثم ولّى زيد بن ثابت الأنصاري بيت المال وأعطاه المفاتيح، ويقال إنه ولى بيت المال معيقيب بن أبي فاطمة، وبعث إلى عبد الله بن الأرقم ثلاثمائة ألف درهم فلم يقبلها.

مسير أهل الأمصار إلى عثمان

واجتماعهم إليه مع من اجتمع من أهل المدينة:

حدثني عباس بن هشام الكلبي عن أبيه مخنف في إسناده قالوا: التقى أهل الأمصار الثلاثة: الكوفة، والبصرة ومصر في المسجد الحرام قبل مقتل عثمان بعام، كان رئيس أهل الكوفة كعب بن عبدة النهدي، ورئيس أهل البصرة المثنى بن مخربة العبدي أهل مصر كنانة بن بشر بن عتاب بن عوف السكوني ثم التجيبي،

فتذاكروا سيرة عثمان وتبديله وتركه الوفاء بما أعطى من نفسه وعاهد الله عليه وقالوا: لا يسعنا الرضى بهذا، فاجتمع رأيهم على أن يرجع كل واحد من هؤلاء الثلاثة إلى مصره فيكون رسول من شهد مكة من أهل الخلاف على عثمان إلى من كان على مثل رأيهم من أهل بلده، وأن يوافوا عثمان في العام المقبل في داره فيستعتبوه فإن أعتب وإلا رأوا رأيهم فيه، ففعلوا ذلك؛ فلما حضر الوقت خرج الأشتر إلى المدينة في مائتين، وخرج حُكيم بن جبلة العبدي في مائة ولحق به بعد ذلك خمسون فكان في مائة وخمسين، وجاء أهل مصر وهم أربعمائة، ويقال سبعمائة ويقال ستمائة، عليهم أمراء أربعة: أبو عمرو بن بُديل بن ورقاء بنعبد العزى الخزاعي على ربع، وعبد الرحمن بن عديس البلوي على ربع، وكنانة بن بشر التجيبي على ربع، وعروة بن شييم بن البياع الكناني ثم الليثي على ربع؛ فلما أتوا دار عثمان، ووثب معهم رجال من أهل المدينة منهم: عمار بن ياسر العنسي، ورفاعة بن رافع الأنصاري – وكان بدرياً – والحجاج بن غزية – وكانت له صحبة – وعامر بن بكير أحد بني كنانة، فحصروا عثمان الحصار الأول.

وقال الواقدي في إسناده: لما كانت سنة أربع وثلاثين كتب بعض أصحاب رسول الله إلى بعض يتشاكون سيرة عثمان وتغييره وتبديله، وما الناس فيه من عُماله ويكثرون عليه ويسأل بعضهم بعضاً أن يقدموا المدينة إن كانوا يريدون الجهاد، و لم يكن أحد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يدفع عن عثمان ولا ينكر ما يقال فيه، إلا زيد بن ثابت، وأبو أسيد الساعدي، وكعب بن مالك بن أبي كعب من بني سلمة من الأنصار، وحسان بن ثابت الأنصاري، فاجتمع المهاجرون وغيرهم إلى عليّ فسألوه أن يكلم عثمان ويعظه، فأتاه فقال له: إن الناس ورائي قد كلموني في أمرك، والله ما أدري ما أقول لك، ما أعرف شيئاً تجهله، ولا أدلك على أمر لا تعرفه، وأنك لتعلم ما نعلم وما سبقناك إلى شيء فنخبرك عنه، لقد صحبت رسول الله صلى الله عليه وسلم وسمعت ورأيت مثل ما سمعنا ورأينا، وما بان أبي قحافة وابن الخطاب بأولى بالحق منك، ولأنت أقرب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم رحماً، ولقد نلت من صهره ما لم ينالا، فالله الله في نفسك، فإنك لا تبصر من عمى ولا تُعلم من جهل؛ فقال له عثمان: والله لو كنت مكاني ما عنفتك ولا أسلمتك ولا عتبت عليك أن وصلت رحماً وسددت خلة وآويت ضائعاً ووليت من كان عمر يوليه، نشدتُك الله ألم يُول عمر المغيرة بن شعبة وليس هناك؟ قال: نعم،قال: أو لم يولِّ معاوية؟ فقال علي: إن معاوية مان أشد خوفاً وطاعة لعمر من يرفأ، وهو الآن يبتز الأمور دونك، ويقطعها بغير علمك ويقول للناس: هذا أمر عثمان، ويبلغك فلا تُغير، ثم خرج وخرج عثمان بعده فصعد المنبر فقال: أما بعد فإن لكل شيءٍ آفةً، ولكل أمر عاهةً، وإن آفة هذه الأمة وعاهة هذه النعمة عيابون طعانون يرُونكم ما تُحبون، ويُسرون لكم ما تكرهون مثل النعام، يتبعون أول ناعق، أحبُّ مواردهم إليهم البعيدُ،

والله نقمتم عليّ ما أقررتم لابن الخطاب بمثله، ولكنه وطئكم برجله وخبطكم بيده وقمعكم بلسانه فدنتم له على ما أحببتم وكرهتم، وألنتُ لكم كنفي وكففت عنكم لساني ويدي فاجترأتم عليَّ، فأراد مروان الكلام فقال له عثمان: اسكت ودعني وأصحابي.

وقال الواقدي في روايته: وكان محمد بن أبي بكر،ومحمد بن أبي حُذيفة لا يفتران من التحريض على عثمان بمصر، فخرج عبد الرحمن بن عُديس البلوي، وسودان بن حمران المُرادي، وعمرو بن الحمق الخزاعي، وعروة بن شييم الليثي في خمسمائة،وأظهروا أنهم يريدون العمرة، وكان خروجهم في رجب، ووجه عبد الله بن سعد بن أبي سرح إلى عثمان بخبرهم رسولاً سار إحدى عشرة ليلة، وساروا المنازل حتى نزلوا بذي خُشب، فقال عثمان: هؤلاء يُظهرون أنهم يريدون العمرة ووالله مايريدون إلا الفتنة، لقد طال على الناس عمري، ولئن فارقتهم ليتمنون يوماً من أيامي. فأتى عثمان علياً في منزله فقال له: يابن عم إن قرابتي قريبة وحقي عظيم، والقوم فيما بلغني على أن يصبحوني ليقتلوني، وأنا أعلم أن لك عند الناس قدراً وأنهم يسمعون منك، فأُحب أن تركب إليهم فتردهم على أن أصير إلى ماتُشير به وتراه ولا أخرج عن أمرك ولا أخالفك. فركب عليّ ومعه: سعيد بن زيد عمرو بن نُفيل أبو الأعور، وأبو الجهم بن حُذيفة العدوي، وجبير بن مطعم، وحكيم بن حزام، وسعيد بن العاص، وعبد الرحمن بن عتاب بن أسيد، ومن الأنصار: أبو حميد الساعدي، وأبو أُسيد الساعدي، وزيد بن ثابت، وحسان بن ثابت، وكعب بن مالك، ومحمد بن مسلمة – وقال بعضهم: إن عمار بن ياسر كان معهم – فكلمهم عليّ ومحمد بن مسلمة حتى انصرفوا راجعين إلى مصر، ثم لم ينشبوا أن رجعوا وادعوا أموراً، فأقسم عثمان أنه لم يفعلها.

وحدثني بكر بن الهيثم حدثني إسماعيل بن عبد الكريم، من آل منبه اليماني، حدثني عبد الرزاق عن معمر عن الزهري أن الناس كانوا يأتون علياً لسابقته وقرابته وفضله، لا أنه أراد ذلك منهم، وكان مروان يأتي عثمان فيخبره أنه يؤلب الناس عليه ويعصب كل شيء يكون من أهل مصر وغيرهم له، وأبلغه عنه أن قوماً قدموا من مصر فاستقل عدتهم فقال لهم: ارجعوا فتأهبوا فإني باعث إلى العراق من يأتيني من أهله بجيش يُبطل الله به هذه السيرة الجائرة ويُريح من مروان وذويه، فقال عثمان: اللهم إن علياً أبى إلا حب الإمارة فلا تُبارك له فيها.

محمد بن سعد عن الواقدي عن ابن جريج، وداود بن عبد الرحمن العطار عن عمرو بن دينار عن جابر بن عبد الله أن المصريين لما نزلوا بذي خُشُب بعث عثمان إليهم محمد بن مسلمة في خمسين من الأنصار أنا فيهم، فلم يزل بهم حتى رجعوا، فرأوا بعيرا عليه ميسم الصدقة وعليه غلامٌ لعثمان فوجدوا معه كتاباً أن

اقتل فلانا وفلانا، فرجعوا فحصروه.

وروى أبو مخنف أن المصريين وردوا المدينة فأحاطوا وغيرهم بدرا عثمان في المرة الأولى فأشرف عليهم عثمان فقال: أيها الناس ما الذي نقمتم عليّ فإني معتبكم ونازلٌ عند محبتكم، فقالوا: زدت في الحمى لإبل الصدقة على ما حمى عمر فقال: إنها زادت في ولايتي، قالوا: أحرقت كتاب الله، قال: اختلف الناس في القراءة فقال هذا: قرآني خير من قرآنك، وقال هذا: قرآني خير من قرآنك، وكان حُذيفة أول من أنكر ذلك وأنهاه إليّ، فجمعت الناس على القراءة التي كُتبت بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم، قالوا: فلم حرقت المصاحف، أما كان فيها يوافق هذه القراءة التي جمعت الناس عليها، أفهلاً تركت المصاحف بحالها؟ قال؛ أردت أن لا يبقى إلا ما كتب بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم وثبت في الصحف التي كانت عند حفصة زوج رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأنا استغفر الله؛ قالوا: فإنك لم تشهد بدراً، قال: خلفني رسول الله صلى الله عليه وسلم على ابنته،قالوا: لم تشهد بيعة الرضوان، قال:بعثني رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى مكة فصفق عني بيده، وشمال رسول الله صلى الله عليه وسلم خير من يميني، قالوا: فررت من الزحف قال: فإن الله قد عفا عن ذلك، قالوا: سيرت خيارنا وضربت أبشارنا ووليت علينا سفهاء أهل بيتك، قال: إنما سيرتُ من سيرتُ من مخالفة الفتنة فمن مات منهم فارضوا بالله حكماً بيني وبينه ومن بقي منهم فردوه واقتصوا مني لمن ضربت، وأما عمالي فمن شئتم عزله فاعزلوه ومن رأيته إقراره فأقروه، قالوا: فمال الله الذي أعطيت قرابتك؟ قال: اكتبوا به عليّ للمسلمين صكاً لأعجل منه ما قدرت على تعجيله وأسعى في باقيه، إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث زنىً بعد إحصان أو كفر بعد إيمان، أو أن يقتل رجلٌ رجلاً فيقتل به"، ووالله ما زنيت في جاهلية ولا إسلام ولا قتلت نفساً بدون حقها، ولا أبتغيت بديني بدلاً مذ هداني الله للإسلام، ولا والله ما وضعت يدي على عورتي مذ بايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم إكراماً ليده.

فلما قال هذه المقالة كسر حلماؤهم عنه، ونصب له كنانة بن بشر التجيبي وعروة بن شييم فأقبلا لا يقلعان ولا يكفان عنه، وأتى المغيرة بن شعبة عثمان فقال له: دعني آت القوم فانظر ما يريدون، فمضى نحوهم فلما دنا منهم صاحوا به يا أعور وراءك، يا فاجر وراءك، يا فاسق وراءك، فرجع؛ ودعا عثمان عمرو بن العاص فال له: إئت القوم فادعهم إلى كتاب الله والعتبى مما ساءهم، فلما دنا منهم سلم فقالوا: لا سلم الله عليك، ارجع يا عدو الله، أرجع يا ابن النابغة فلست عندنا بأمين ولامأمون، فقال له ابن عمر وغيره: ليس لهم إلا عليّ بن أبي طالب فبعث عثمان إلى عليّ فلما أتاه قال: يا أبا الحسن أئت هؤلاء القوم فادعهم إلى كتاب الله وسنة نبيه، قال: نعم إن أعطيتني عهد الله وميثاقه على أنك تفي لهم بكل ماأضمنه

عنك،قال:نعم،فاخذ عليّ عليه عهد الله وميثاقه على أوكد ما يكون واغلظ،وخرج إلى القوم فقالوا:وراءك قال:لابل أمامي تعطون كتاب الله وتعتبون من كل ما سخطتم،فعرض عليهم ما بذل عثمان فقالوا:أتضمن ذلك عنه؟ قال: نعم،قالوا: رضينا،وأقبل وجوههم وأشرافهم مع عليّ حتى دخلوا على عثمان وعاتبوه فأعتبهم من كل شيء فقالوا: اكتب بهذا كتابا فكتب:بسم الله الرحمن الرحيم هذا كتاب من عبد الله عثمان أمير المؤمنين لمن نقم عليه من المؤمنين والمسلمين، "إن لكم أن أعمل فيكم بكتاب الله وسنة نبيه،يعطى المحروم ويؤمن الخائف ويرد المنفي ولا تجمر البعوث ويوفر الفيء،وعلي بن أبي طالب ضمين للمؤمنين والمسلمين على عثمان بالوفاء بما في هذا الكتاب،شهد: الزبير بن العوام،وطلحة بن عبيد الله وسعد بن مالك بن أبي وقاص،وعبد الله بن عمر وزيد بن ثابت،وسهل بن حنيف، وأبو أيوب خالد بن زيد، وكتب في ذي القعدة سنة خمس وثلاثين، فأخذ كل يوم كتاباً فانصرفوا.

وقال عليّ بن أبي طالب لعثمان: اخرج فتكلم كلاماً يسمعه الناس ويحملونه عنك وأشهد الله على ما في قلبك فإن البلاد قد تمخضت عليك ولا تأمن أن يأتي ركب آخر من الكوفة أو من البصرة أو من مصر فتقول: يا عليّ اركب إليهم فإن لم افعل قلت: قطع رحمي واستخف بحقي، فخرج عثمان فخطب الناس فأقر بما فعل واستغفر الله منه وقال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: من فلينب فأنا أول من اتغظ،فاذا نزلت فليأتني اشرافكم فليروني رأيهم، فو الله لو ردني إلى الحق عبد لا تبعته،وما عن الله مذهب إلا إليه،فسر الناس بخطبته واجتمعوا إلى بابه مبتهجين بما كان منه، فخرج إ ليهم مروان فزبرهم وقال: شاهت وجوهكم، ما اجتماعكم؟ أمير المؤمنين مشغول عنكم،فإن احتاج إلى أحد منكم فسيدعوه فانصرفوا، وبلغ علياً الخبر فأتى عثمان وهو مغضب فقال: أما رضيت من مروان ولا رضي منك إلا بإفساد دينك وخديعتك عن عقلك،وإني لأراه سيوردك ثم لا يصدرك،وما أنا بعائد بعد مقامي هذا لمعاتبتك. وقالت له امرأته نائلة بنت الفرافصة:قد سمعت قول عليّ بن أبي طالب في مروان وقد أخبرك أنه غير عائد إليك،وقد أطعت مروان ولا قدر له عند الناس ولا هيبة،فبعث إلى عليّ فلم يأته.
حدثني محمد بن سعد عن الواقدي عن شرحبيل بن أبي عون عن أبيه قال: سمعت عبد الرحمن بن الأسود بن عبد يغوث ذكر مروان فقال: قبحه الله خرج عثمان على الناس فأعطاهم الرضى وبكى على المنبر حتى استهلت دموعه، فلم يزل مروان يفتله في الذروة والغارب حتى لفته عن رأيه، قال: وجئت إلى عليّ فأجده بين القبر والمنبر ومعه عمار بن ياسر، ومحمد بن أبي بكر، وهما يقولان صنع مروان بالناس وصنع وأنتهرهم وأغلظ لهم حتى ردهم عن باب عثمان على أقبح الوجوه، فأقبل عليّ علي فقال: أحضرت خطبة عثمان؟ قلت: نعم، قال: أفحضرت مقالة مروان للناس؟ قلت نعم.

قال أبو مخنف: لما شخص المصريون بعد الكتاب الذي كتبه عثمان فصاروا بأيلة أو بمتز قبلها رأوا راكباً خلفهم يزيد مصر فقالوا له: من أنت؟ فقال: رسول أمير المؤمنين إلى عبد الله بن سعد وأنا غلام أمير المؤمنين، وكان أسود، فقال بعضهم لبعض: لو أنزلناه وفتشناه لا يكون صاحبه قد كتب فينا بشيء، ففعلوا فلم يجدوا معه شيئاً فقال بعضهم لبعض: خلوا سبيله، فقال كنانة بن بشر: أما والله دون أن أنظر إداوته فلا فقالوا: سبحان الله أيكون كتاب في ماءٍ؟ فقال: إن للناس حيلاً، ثم حل الإداوة فإذا فيها قارورة مختومة – أو قال مضمومة – في جوف القارورة كتاب في أنبوب من رصاص فأخرجه فقرئ فإذا فيه: "أما بعد فإذا قدم عليك أبو عمرو بن بديل فأضرب عنقه، وأقطع يدي ابن عديس، وكنانة، وعروة، ثم دعهم يتشحطون في دمائهم حتى يموتوا، ثم أوثقهم على جذوع النخل". فيقال أن مروان كتب الكتاب بغير علم عثمان، فلما عرفوا ما في الكتاب قالوا: عثمان محل، ثم رجعوا عودهم على بدئهم حتى دخلوا المدينة، فلقوا علياً بالكتاب وكان خاتمة من رصاص، فدخل به عليّ على عثمان فحلف بالله ما هو كتابه ولا يعرفه وقال: أما الخط فخط كاتبي، وأما الخاتم فعلى خاتمي، قال عليّ: فمن تتهم؟قال أتهمك وأتهم كاتبي،فخرج عليّ مغضبا وهو يقول:بل هو أمرك.

قال أبو مخنف:وكان خاتم عثمان بديا في يد حمران بن أبان،ثم أخذه مروان حين شخص حمران إلى البصرة فكان معه.

وجاء المصريون إلى دار عثمان فأحدقوا بها وقالوا لعثمان وقد أشرف عليهم:يا عثمان أهذا كتابك؟فجحد وحلف،فقالوا:هذا شر،يكتب عنك بما لا تعلمه،ما مثلك يلي أمور المسلمين، فاختلع من الخلافة،فقال:ما كنت لأنزع قميصاً قمصنيه الله أو قال:سر بلنيه الله – وقالت بنو أمية:يا عليّ أفسدت علينا أمرنا ودست وألبت،فقال:يا سفهاء إنكم لتعلمون انه لا ناقة لي في هذا ولا جمل، وأني رددت أهل مصر عن عثمان ثم أصلحت أمره مرة بعد أخرى فما حيلتي؟ وانصرف وهو يقول: اللهم إني بريء مما يقولون ومن دمه إن حدث به حدثٌ.

قال: وكتب عثمان حين حصروه كتاباً قرأه ابن الزبير على اناس يقول فيه: "والله ما كتبت الكتاب ولا أمرت به ولا علمت بقصته وأنتم معتبون من كل ما ساءكم فأمروا على مصركم من أحببتم، وهذه مفاتيح بيت مالكم فادفعوها إلى من شئتم"، فقالوا: قد اتهمناك بالكتاب فاعتزلنا؛ وقال بعضهم: الذي قرأ كتاب عثمان الزبير نفسه، والأول أثبت.

وحدثني محمد بن سعد عن الواقدي عن داود العطار عن عمرو بن دينار عن جابر بن عبد الله أن عثمان وجه إلى المصريين لما أقبلوا يريدونه محمد بن مسلمة في خمسين من الأنصار أنا فيهم فأعطاهم الرضى

وانصرفوا، فلما كانوا ببعض الطريق رأوا جملاً عليه ميسم الصدقة فأخذوه، فإذا غلامٌ لعثمان، ففتشوه فإذا معه قصبة من رصاص في جوف إداوة فيها كتابٌ إلى عامل مصر أن افعل بفلان كذا وبفلان كذا، فرجع القوم إلى المدينة، فأرسل إليهم عثمان محمد بن مسلمة فلم يرجعوا وحصروه.
وحدثني هشام بن عمار الدمشقي أبو الوليد حدثنا محمد بن سميع عن محمد بن أبي ذئب عن ابن شهاب الزهري عن سعيد بن المسيب أن المصريين لما قدموا فشكوا عبد الله بن سعد بن أبي سرح سألوا عثمان أن يولى مكانه محمد بن أبي بكر، فكتب عهده وولاه ووجه معهم عدة من المهاجرين والأنصار ينظرون فيما بينهم وبين ابن أبي سرج، فشخص محمد بن أبي بكر وشخصوا جميعاً، فلما كانوا على مسيرة ثلاث من المدينة إذا هم بغلام أسود على بعير وهو يخبط البعير خبطاً كأنه رجل يطلب أو يُطلب، فقال له أصحاب محمد بن أبي بكر: ما قصتك وما شأنك هارب أو طالب، فقال لهم مرةً: أنا غلام أمير المؤمنين، وقال مرة أخرى: أنا غلام مروان وجهني إلى عامل مصر برسالة، قالوا: فمعك كتاب؟ قال: لا، ففتشوه فلم يجدوا معه شيئاً، وكانت معه إداوة قد يبست وفيها شيء يتقلقل، فحركوه ليخرج فلم يخرج، فشقوا الإداوة فإذا فيها كتاب من عثمان إلى ابن أبي سرح. فجمع محمد من كان معه من المهاجرين والأنصار وغيرهم، ثم فك الكتاب بمحضر منهم فإذا فيه: "إذ أتاك محمد بن أبي بكر وفلان وفلان فاحتل لقتلهم وأبطل كتاب محمد، وقر على عملك حتى يأتيك رأيي، واحبس من يجيء إلي متظلماً منك إن شاء الله". فلما قرأوا الكتاب فزعوا وغضبوا ورجعوا إلى المدينة، وختم محمد بن أبي بكر الكتاب بخواتيم نفر ممن كان معه ودفعه إلى رجل منهم، وقدموا المدينة فجمعوا علياً وطلحة والزبير وسعداً ومن كان من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، ثم فكوا الكتاب بمحضر منهم وأخبروهم بقصة الغلام وأقرأهم الكتاب فلم يبق أحد من أهل المدينة إلا حنق على عثمان، وزاد ذلك من غضب لابن مسعود وعمار بن ياسر وأبي ذر حنقاً وغيظاً، وقام أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم بمنازلهم ما منهم أحد إلا وهو مغتنم لما في الكتاب.

وحاصر الناس عثمان وأجلب عليه محمد بن أبي بكر ببني تيم وغيرهم، وأعانه على ذلك طلحة بن عبيد الله، وكانت عائشة تقرصه كثيراً، ودخل عليّ وطلحة والزبير وسعد وعمار في نفر من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم كلهم بدري على عثمان، ومع عليّ الكتاب والغلام والبعير ، فقال له علي: هذا الغلام غلامك؟ قال: نعم، قال: والبعير؟ قال: نعم، قال: وأنت كتبت هذا الكتاب؟ قال: لا، وحلف بالله ما كتبت هذا الكتاب ولا أمرت به ولا علمت شأنه، فقال له علي: أفالخاتم خاتمك؟ قال: نعم، قال: فكيف يخرج غلامك ببعيرك بكتاب عليه خاتمك ولا تعلم به؟ فحلف بالله ما كتبت الكتاب ولا أمرتُ به

ولا وجهت هذا الغلام إلى مصر قط، وعرفوا أن خط مروان فسأله أن يدفع إليهم مروان فأبى، وكان مروان عنده في الدار، فخرج أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم من عنده غاضباً وعلموا أنه لا يحلف بباطل، إلا أن قوماً قالوا: لن يبرأ عثمان في قلوبنا إلا بأن يدفع إلينا مروان حتى نبحثه عن الأمر، ونعرف حال الكتاب وكيف يؤمر بقتل رجال من أصحاب رسول الله بغير حق، فإن يكن عثمان كتبه عزلناه، وإن يكن مروان كتبه عن لسان عثمان نظرنا ما يكون منا في أمر مروان، فلزموا بيوتهم وأبى عثمان أن يخرج مروان؛ فحاصر الناس عثمان ومنعوه الماء، فأشرف على الناس فقال: أفيكم علي؟ فقالوا: لا، قال: أفيكم سعد، فقالوا: لا، فسكت ثم قال: ألا أحدٌ يبلغ فيسقينا ماءً؟ فبلغ ذلك علياً فبعث إليه بثلاث قربٍ مملوءة ماءً فما كادت تصل إليه، وجرح بسببها عدة من موالي بني هاشم وبني أمية حتى وصلت.؟ وبلغ علياً أن القوم يريدون قتل عثمان فقال: إنما أردنا مروان، فأما قتل عثمان فلا، وقال للحسن والحسين: اذهبا بسيفكما حتى تقوما على باب عثمان فلا تدعا أحداً يصل إليه، وبعث الزبير ابنه عبد الله، وبعث طلحة ابنه على كره، وبعث عدة من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم أبناءهم ليمنعوا الناس من الدخول على عثمان ويسألوه إخراج مروان؛ فلما رأى محمد بن أبي بكر، وقد رمى الناس عثمان بالسهام حتى خُضب الحسن بالدماء على بابه، وأصاب مروان سهم وهو في الدار، وخُضب محمد بن طلحة، وشُج قنبر مولى علي، خشي محمد بن أبي بكر أن يغضب بنو هاشم لحال الحسن والحسين فيثيروها فتنةً، وأخذ بيد رجلين فقال لهما: إن جاءت بنو هاشم فرأت الدماء على وجه الحسن كشفوا الناس عن عثمان وبطل ما تريدون، ولكن مروا بنا حتى نتسور عليه الدار فنقتله من غير أن يعلم أحد، فتسور محمد وصاحباه من دار رجل من الأنصار حتى دخلوا على عثمان وما يعلم أحد ممن كان معه لأنهم كانوا فوق البيوت و لم يكن معه إلا امرأته. فاقل محمد بن أبي بكر: أنا أبدأ كما بالدخول، فإذا أنا ضبطته فادخلا فتوجاه حتى تقتلاه، فدخل محمد فأخذ بلحيته فقال له عثمان: والله لو رآك أبوك لساء مكانك مني، فتراخت يده، ودخل الرجلان عليه فتوجآه حتى قتلاه وخرجوا هاربين من حيث دخلوا، وصرخت امرأته إلى الناس فلم يُسمع صراخها لما كان في الدار من الجلبة، وصعدت امرأته إلى الناس فقالت: إن أمير المؤمنين قد قتل، فدخل الحسن والحسين ومن كان معهما فوجدوا عثمان مذبوحاً، فانكبوا عليه يبكون، وخرجوا ودخل الناس فوجدواه وذبوحاً، وبلغ عليّ بن أبي طالب الخبر، وطلحة، والزبير، وسعداً، ومن كان بالمدينة فخرجوا وقد ذهبت عقولهم للخبر الذي أتاهم حتى دخلوا على عثمان فوجدوه مقتولاً فاسترجعوا، وقال على لابنيه: كيف قتل أمير المؤمنين وأنتما على الباب ورفع يده فلطم الحسن وضرب صدر الحسين وشتم محمد بن طلحة، ولعن عبد الله بن الزبير، وخرج عليّ وهو غضبان يرى أن طلحة أعان على ما كان، فلقيه طلحة فقال: ما لك يا أبا الحسن ضربت الحسن والحسين، فقال: عليك لعنة الله

أبيت إلا أن يسوءني ذلك، يقتل أمير المؤمنين، رجلٌ من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بدريٌّ لم يقم عليه بينة ولا حجة، فقال طلحة: لو دفع مروان لم يُقتل، فقال علي: لو أخرج إليكم مروان لقتل قبل أن تثبت عليه حكومة.

وخرج عليّ فأتى مترله وجاء الناس كلهم يهرعون إلى علي، أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وغيرهم وهم يقولون: إن أمير المؤمنين علي، حتى دخلوا داره فقالوا له: نبايعك فمد يدك فإنه لا بد من أمير، فقال علي: ليس ذاك إليكم إنما ذاك إلى أهل بدر فمن رضي به أهل بدر فهو خليفة، فلم يبق أحد من أهل بدر إلاّ أتى علياً فقالوا: ما نرى أحداً أحق بها منك فمد يدك نبايعك، فقال: أين طلحة والزبير؟ وكان طلحة أول من بايعه بلسانه وسعدٌ بيده، فلما رأى عليّ ذلك صعد المنبر وكان أول من صعد إليه، فبايعه طلحة بيده، وكانت إصبع طلحة شلاء فتطير منها عليّ وقال: ما أخلقه أن ينكث، ثم بايعه الزبير وسعد وأصحاب النبي صلى الله عليه وسلم جميعاً، ثم نزل فدعا الناس وطلب مروان، وبني أبي معيط فهربوا منه.

وخرجت عائشة رضي الله تعالى عنها باكية تقول: قُتل عثمان رحمه الله، فقال لها عمار بن ياسر عبد الملك أنت بالأمس تحرضين عليه ثم أنت اليوم تبكينه. وجاء عليّ إلى امرأة عثمان فقال لها: من قتل عثمان رحمه الله تعالى؟فقالت لا أدري دخل عليه رجلان لا أعرفهما إلا أن أرى وجوههما، وكان معهما محمد بن أبي بكر، وأخبرت علياً والناس بما صنع محمد، فدعا عليّ محمداً فسألهى عما ذكرت امرأة عثمان فقال محمد: لم تكذب فقد دخلت والله عليه وأنا أريد قتله، فذكر أبي فقمت عنه وأنا تائب، والله ما قتلته ولا أمسكته، قالت امرأة عثمان: صدق أدخلهما.

حدثني محمد بن هشام بن بهرام حدثنا وكيع عن الأعمش عن عُبيد بن عمير قال: قال علي: لا آمركم بالإقدام على عثمان فإن أبيتم فبيضٌ سيفرخُ.

وحدثني عمرو بن محمد عن قبيصة بن عقبة عن أبي سفيان عن أبي إسحاق عن عمرو بن الأصم قال: كنت فيمن أرسلوه من ذي خُشب فقالوا: سلوا أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم واجعلوا علياً آخر من تسألونه، فسألناهم فقالوا: أقدموا إلا علياً فإنه قال: لا آمركم فإن أبيتم فبيضٌ سيفرخ.

حدثنا محمد بن حاتم المروزي عن أبي معاوية عن الأعمش عن أبي صالح قال:، قال علي: لو علمت أن الأمر يبلغ ما دخلت فيه.

وحدثنا أحمد بن إبراهيم الدورقي محمد بن الأعرابي حدثنا أزهر بن سعد السمان أبو بكر حدثنا ابن عون عن الحسن قال: خطب عثمان فقام رجل فقال: نريد كتاب الله فقال له: اقعد أما لكتاب الله طالب

غيرك؟ فحصب وتحاصبوا فنزل الشيخ وما يكاد يقيم عنقه، فقال ابن عون: فقلت للحسن ابن كم منت يومئذٍ؟ قال: ابن أربع عشرة خمس عشرة.

وقال أبو مخنف وغيره: حرس القوم عثمان ومنعوا من أجل أن يدخل عليه، وأشار عليه بن العاص بأن يُحرم ويلبي ويخرج فيأتي مكة فلا يُقدم عليه، فبلغهم قوله فقالوا: والله لئن خرج لا فارقناه حتى يحكم الله بيننا وبينه، واشتد عليه طلحة بن عبيد الله في الحصار، ومنع من أجل أن يدخل إليه الماء حتى غضب عليّ بن أبي طالب من ذلك، فأدخلت على روايا الماء.

قالوا: وكتب عثمان إلى عبد الله بن عامر بن كريز، ومعاوية بن أبي سفيان يُعلمهما أن أهل البغي والعدوان من أهل العراق ومصر والمدينة قد أحاطوا بداره فليس يرضيهم بزعمهم شيء دون قتله، أو يخلع السربال الذي سربله الله إياه، ويأمرهما بإغاثته برجال ذوي نجدة وبأس ورأي لعل الله أن يدفع بهم عنه بأس من يكيده ويريده، وكان رسوله إلى ابن عامر جبير بن مطعم، والى معاوية المسور بن مخرمة الزهري، فأما ابن عامر فوجه إليه مجاشع بن مسعود السلمي في خمسمائة أعطاهم خمسمائة خمسمائة درهم، وكان فيمن ندب مع مجاشع زفر بن الحارث الكلابي على مائة رجل، وأما معاوية فبعث إليه حبيب بن مسلمة الفهري في ألف فارس، فقدم حبيب أمامه يزيد بنأسد البجلي جد خالد بن عبد الله بن يزيد القسري من بجيلة، وبلغ أهل مصر ومن معهم ممن حاصر عثمان ما كتب به إلى عامر ومعاوية فزادهم ذلك شدة عليه وجداً في حصاره، وحرصاً على معاجلته بالقتل.

المدائني عن حبان بن موسى عن مجالد عن الشعبي قال: كتب عثمان إلى معاوية أن أمدني، فأمده بأربعة آلاف مع يزيد بن أسد بن كرز الجلي فتلقاه الناس بمقتل عثمان فرجع من الطريق وقال: لو دخلت المدينة وعثمان حي ما تركت بها محتلماً إلا قتلته لأن الخاذل والقاتل سواء.

ذكر كراهة عثمان للقتال

رضي الله عنه:

قال أبو مخنف والواقدي وغيرهما في روايتهم: إن المغيرة بن شعبة الثقفي أشار على عثمان أن يأمر مواليه ومن معه من أهل بيته بالتسلح ليراهم المحاصرون له فينكسروا عنه، ففعل، وجعلوا يمرون على تعبيتهم، ثم أمرهم بالانصراف وأن لا يقاتلوا، فقال الوليد بن عقبة بن أبي معيط:

وكف يديه ثم أغلق بابه ... وأيقن أن الله ليس بغافل

وقال لأهل الدار مه لا تقاتلوا		عفا الله عن كل أمرئٍ لم يقاتل

وكيف رأيت الله ألقى عليهم ال		عداوة والبغضاء بعد التواصل

وكيف رأيت الخير أدبر بعده		عن الناس إدبار المخاض الحوامل

قالوا: ولما أنصرف أولئك الذين تسلحوا خرج سيدان بن حمران المرادي – ويقال سودان بن حمران– حتى لحق بهم، فرجع إليه مروان فاضطربا بسيفيهما، فلم يصنعا شيئاً، فقال عثمان: يا سبحان الله أكل هذا في نزعي وتأميري، يا ناتل الق مروان بعزمة مني أن ينصرف إلي ومن معه، فجاء مروان حتى دخل الدار.

قالوا: وأتى قطن بن عبد الله بن الحصين ذي الغصة الحارثي عثمان وهو محصور فدعاه إلى دفعهم عن نفسه بمن أطاعه ومال إليه فقال: أنا آكلهم إلى الله ولا أقاتلهم فإن ذلك أعظم لحجتي عليهم فانصرف محموداً رشيداً، فكان يقول: لو ددت إني قتلت مع عثمان.

وحدثني عمرو بن محمد الناقد حدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة قال: قلت لعثمان يوم الدار يا أمير المؤمنين: أنفرجهم عنك بالضرب؟ فقال: لا إنك إن قتلت رجلاً واحداً فكأنما قتلت الناس جميعاً، قال: فرجعت و لم أقاتل.

حدثني محمد بن حاتم بن ميمون حدثنا عبد الله بن إدريس الأزدي عن هشام بن حسان عن ابن سيرين قال: جاء زيد بن ثابت إلى عثمان فقال له: إن الأنصار بالباب يقولون إن شئت كنا أنصار الله مرتين فقال عثمان: أما القتل فلا.

حدثني يحيى بن معين حدثنا ابن إدريس عن يحيى بن سعيد عن عبد الله بن عامر بن ربيعة قال: قال عثمان يوم الدار: أعظمكم عني غناءً رجل كف يده وسلاحه.

حدثني أحمد بن إبراهيم الدروقي حدثنا أبو داود الطيالسي عن قرة بن خالد عن محمد بن سيرين عن أبي هريرة قال: كنت في الدار يوم قتل عثمان فسمعته يقول: عزمت على من رأى لنا عليه سمعاً وطاعةً أن يلقي سلاحه، فألقى القوم أسلحتهم إلا مروان فإنه قال: وأنا أعزم على نفسي ألا ألقي سلاحه،قال: وكان شجاعاً،قال أبو هريرة،فألقيت سيفي فلا أدري من أخذه.

وحدثنا يحيى بن أيوب الزاهد حدثنا اسماعيل بن عليه عن ابن أبي ملكيه عن عبد الله بن الزبير قال: قلت لعثمان يوم الدار معك عصابة مستبصرة تنصر الله فأذن لي أقاتل،فقال: أذكر الله رجلاً هراق في دماً.

وحدثني يحيى بن أيوب عن اسماعيل بن علية عن ابن عون عن ابن سيرين قال: كان مع عثمان في الدار سبعمائة لو يدعهم لضربوهم إن شاء الله حتى يخرجوهم من أقطارها منهم الحسن والحسين ابنا عليّ وابن

الزبير.
وحدثني أحمد بن إبراهيم الدروقي حدثنا أبو أسامة عن هشام بن عروة عن أبيه عن عبد الله بن الزبير قال: قلت لعثمان يوم الدار قاتلهم فو الله لقد أحل لك قتالهم فقال: لا والله لا أقاتلهم أبداً، فدخلوا عليه وهو صائم فقتلوه، وكان عثمان قد أمر ابن الزبير على الدار وقال: من كانت لي عليه طاعة فليطع عبد الله بن الزبير.
وفي رواية أبي مخنف وغيره أن عثمان بن أبي العاص الثقفي دخل على عثمان وهو محصور فعرض عليه أن يقاتل ليقاتل معه فأبى، فاستأذنه في إتيان البصرة فأذن له في ذلك فلحق بالبصرة.

أمر عمرو بن العاص وغيره

قالوا: وكان عمرو بن العاص قال لعثمان حين حضر الحصار الأول: إنك يا عثمان ركبت بالناس النهابير فاتق الله وتب إليه فقال له: يا بن النابغة وأنك لمن تاؤلب عليّ الطغام لأن عزلتك عن مصر، فخرج إلى فلسطين فأقام بها في ماله هناك، وجعل يحرض الناس على عثمان حتى رعاة الغنم، فلما بلغه مقتله قال:أنا أبو عبد الله إني إذا حككت قرحة نكاتها.
قالوا: ومر مجمع بن جارية الأنصاري بطلحة بن عبيد الله فقال: يا مجمع ما فعل صاحبك؟ قال: أظنكم والله قاتليه، فقال طلحة: فإن قتل فل ملك مقرب ولا نبي مرسل.

قالوا: وقال عثمان لعبد الله بن سلام: اخرج إليهم فكلمهم، فخرج إليهم فوعظهم وعظم حرمة المدينة وقال لهم: إنه ما قتل خليفة قط إلا قتل به خمسة وثلاثون ألفاً، فقالوا: كذبت يا يهودي ابن اليهودية.
قالوا: ولما أشتد الأمر على عثمان أمر مروان بن الحكم وعبد الرحمن بن عتاب بن أسيد فأتيا عائشة وهي تريد الحج فقالا لها: لو أقمت فلعل الله يدفع بك عن هذا الرجل،فقالت: قد قربت ركابي وأوجبت الحج على نفسي ووالله لا أفعل، فنهض مروان وصاحبه ومروان يقول:

وحرق قيسٌ عليّ البلاد ... حتى إذا اضطرمت أجذما

فقالت عائشة: يا مروان وددت والله أنه في غرارة من غرائري هذه وإني صوقت حمله حتى ألقيه في البحر، ومر عبد الله بن عباس بعائشة وقد ولاه عثمان الموسم وهي بمترل من منازل طريقها فقالت: يا بن عباس إن الله قد أتاك عقلاً وفهماً وبياناً فإياك أن ترد الناس عن هذه الطاغية.
حدثنا خلف بن هشام البزار حدثنا حماد بن زيد عن يحيى بن سعيد عن أبي أمامة بن سهل قال: كنا مع عثمان وهو محصور فدخل يوماً لحاجته فسمع كلام بالبلاط ثم خرج إلينا وهو متغير اللون فقال: إنهم

ليتوعدونني بالقتل، أما إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "لا يحل دم امرئ مسلم إلا في إحدى ثلاث: رجل كفر بعد إيمانه أو زنى بعد إحصانه أو قتل نفساً بغير نفس"، ووالله ما زنيت في جاهلية ولا إسلام ولا تمنيت أن لي بديني مذ هداني الله بدلاً ولا قتلت نفساً، فبماذا يقتلونني؟ حدثنا عفان عن حماد عن يحيى بن سعيد عن أبي أمامة بن سهل بنحوه.

حدثني القاسم بن سلام – أبو عبيد – حدثنا كثير بن هشام أنبأنا جعفر بن برقان عن ميمون بن مهران قال: لما حوصر عثمان في الدار بعث رجلاً فقال له: اسمع ما يقول الناس، فأتاه فقال: سمعت بعضهم يقول: لقد حل دمه، فقال عثمان: "ما يحل دم مسلم إلا أن يكفر بعد إيمانه أو يزني بعد إحصانه أو يقتل رجلاً فيقتل به أو يسعى في الأرض فساداً".

وحدثني الحسين بن عليّ بن الأسود حدثنا أبو أسامة حماد بن أسامة عن عبد الملك بن أبي سليمان عن أبي ليلى الكندي قال: شهدت عثمان وهو محصور فاطلع من كوٍّ فقال: أيها الناس لا تقتلوني فوالله لئن قتلمتوني لا تصلون جميعاً أبداً ولا تجاهدون جميعاً أبدا ولتختلقُن "حتى تصيروا هكذا" وشبك بين أصابعه، ثم قال: "يا قوم لا يجرمنكم شقاقي أن يُصيبكم مثل ما أصاب قوم نوحٍ أو قوم هودٍ أو قوم صالحٍ وما قوم لوطٍ منكم ببعيد" ثم دعا ابن سلام فقال: ما نرى؟ قال: الكف فإنه أبلغ في الحجة.

حدثنا عفان بن مسلم أبو عثمان حدثنا جرير بن حازم أنبأنا يعلى بن حكيم عن نافع حدثني عبد الله بن عمر قال: قال عثمان وهو محصور: ما تقول فيما أشار به عليّ المغيرة بن الأخنس؟ قال: قلت: وما هو؟ قال: إن هؤلاء القوم يرون خلعك، فإن فعلت وإلا قتلوك، فدع أمرهم إليهم قال: فقلت: أرأيت إن لم تخلع هل يزيدون على قتلك؟ قال: لا، قال: فقلت: فلا أرى أن تسن هذه السنة في الإسلام فكلما سخط قومٌ أميرهم خلعوه، لا تخلع قميصاً قمصكه الله.

وحدثني عباس بن هشام عن أبيه عن أبي مخنف بإسناده قال: أشرف عثمان على الناس فسمع بعضهم يقول لا نقتله ولكن نعزله فقال: أما عزلي فلا وأما قتلي فعسى؛ وسلم على جماعة فيهم طلحة فلم يردوا عليه فقال: يا طلحة ما كنت أرى أني أعيش إلى أن اسلِّم عليك فلا ترد عليّ السلام.

قال: جاء الزبير إلى عثمان فقال له: إن مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم جماعة يمنعون من ظلمك ويأخذونك بالحق فاخرج فخاصم القوم إلى أزواج النبي صلى الله عليه وسلم، فخرج معه فوثب الناس عليه بالسلاح فقال: يازبير ما أرى أحداً يأخذ بحق ولا يمنع من ظلم، ودخل ومضى الزبير إلى منزله.

وحدثني أحمد بن إبراهيم الدورقي حدثنا شبابة بن سوار عن إبراهيم بن سعد عن أبيه عن جده قال: سمعت عثمان بن عفان يوقل: إن وجتم في كتاب الله أن تضعوا رجلي في القيود فضعوهما.

وقال أبو مخنف والواقدي في روايتهما: أن أم حبيبة بنت أبي سفيان زوج النبي صلى الله عليه وسلم أتت

عثمان بإداوة وقد اشتد عليه الحصار فمنعوها من الدخول فقالت: إنه كان المتولي لوصايانا وأمر أيتامنا وأنا أريد مناظرته في ذلك، فأذنوا لها فأعطته الإداوة.

وحدثني عبد الله بن صالح عن عبد الجبار بن الورد قال سمعت ابن أبي مليكة يقول قال جبير بن مطعم: حُصر عثمان حتى كان لا يشرب إلا من فقير في داره، فدخلت على عليّ فقلت: أرضيت بهذا أن يحصر ابن عمتك حتى والله ما يشرب إلا من فقير داره؟ فقال: سبحان الله أو قد بلغوا به هذه الحال؟ قلت: نعم، فعمد إلى روايا ماء فأدخلها إليه فسقاه.

وحدثني إسحاق الفروي أبو موسى عبد الله بن إدريس حدثنا يحيى بن سعيد قال: كان طلحة قد استولى على أمر الناس في الحصار، فبعث عثمان عبد الله بن الحارث بن نوفل بن الحارث بن عبد المطلب إلى عليّ بهذا البيت:

إن كنتُ مأكولاً فكن أنت آكلي وإلا فأدركني ولما أمزقِ

وقال هشام ابن الكلبي: هذا البيت للمزق العبدي واسمه شأس بن نهار بن الأسود بن حزيل، وبه سمي الممزق.

قالوا: وقال أسامة بن زيد بن حارثة لعلي بن أبي طالب: والله يا أبا الحسن والله لأنت أعز عليّ من سمعي وبصري فأطعني وأخرج إلى أرضك بينبع فإن عثمان إن قتل وأنت بالمدينة رُميت بدمه، وإن أنت لم تشهد أمره لم يعدل الناس بك، فقال ابن عباس لأسامة: يا أبا محمد أتطلب أثراً بعد عينٍ؟ أبعد ثلاثةٍ من قريش ينبغي لعلي أن يعتزل؟ وقال أبو مخنف: صلى على عليّ بالناس يوم النحروعثمان محصور، فبعث إليه عثمان ببيت الممزق:

إن كنت مأكولاً فكن أنت آكلي وإلا فأدركني ولما أمزقِ

وكان رسوله به عبد الله بن الحارث، ففرق عليّ الناس عن طلحة، فلما رأى ذلك طلحة دخل عثمان فاعتذر فقال له عثمان: يا بن الحضرمية ألبت عليّ الناس ودعوتهم إلى قتلي حتى إذا فاتك ما تريد جئت معتذراً، لا قبل الله ممن قبل عذرك.

وقال أبو مخنف في روايته: نظر مروان بن الحكم إلى الحسين بن عليّ فقال: ما جاء بك؟ قال: الوفاء ببيعتي، قال: اخرج عنا، أبوك يؤلب الناس علينا وأنت هاهنا معنا؛ وقال له عثمان: انصرف فلست أريد قتالاً ولا آمر به.

حدثنا عمرو الناقد عن عبد الله بن جعفر الرقي عن عبيد الله بن عمرو عن إسحاق بن راشد عن أبي

جعفر أنبأنا عثمان قال: لما كثر علينا الرمي بالحجارة أتيت علياً فقلت: يا عم قد كثرت علينا الحجارة، فمشى معي فرماهم حتى فترت يده، ثم قال: يا بن أخي اجمع مواليكم ومن كان منكم بسبيل ثم لتكن هذه حالكم.

قال أبو مخنف في روايته: إن زيد بن ثابت الأنصاري قال: يا معشر الأنصار إنكم نصرتم الله ونبيه فانصروا خليفته، فأجابه قوم منهم فقال سهل بن حنيف: يا زيد أشبعك عثمان من عضدان المدينة – والعضيدة نخلة قصيرة يُنال حملها – فقال زيد: لا تقتلوا الشيخ ودعوه حتى يموت فما أقرب أجله، فقال الحجاج بن غزية الأنصاري أحد بني النجار: والله لو لم يبق من عمره إلا مابين الظهر والعصر لتقربنا بدمه. وجاء رفاعة بن رافع بن مالك الأنصاري ثم الزرقي بنارٍ في حطب فأشعلها في أحد البابين فاحترق وسقط وفتح الناس الباب الآخر واقتحموا الدار. وقال عدي بن حاتم الطائي: أيها الناس اقتلوه فإنه لا تحبقُ فيه عناقٌ. وتهيأ مروان وعدة معه للقتال فنهاهم عثمان فلم يقبلوا منه وحملوا على من دخل الدار فأخرجوهم، ورُمي عثمان بالحجارة من دار بني حزم بن زيد بن لوذان الأنصاري ونادوا: لسنا نرميك الله يرميك: لو رماني الله بم يخطئني. وشد المغيرة بن الأخنس بالسيف وهو يقول:

قد علمت جاريةٌ عُطبول لها وشاحٌ ولها جديل

أني بمن حاربت ذو تنكيل

فشد عليه رفاعة بن رافع وهو يقول:

قد علمت خود سحوب للذيل تُرخي قروناً مثل أذناب الخيل

أن لقرني في الوغى مني الويل

فضربه على رأسه بالسيف فقتله – ويقال بل قتله رجل من عُرض الناس – وقاتل يومئذٍ عبد الله بن الزبير حتى جُرح جراحاتٍ، وخرج مروان بن الحكم وهو يقول:

قد علمت ذاتُ القرون الميل والكف والأنامل الطُّفولِ

أني أروع أول الرعيل

ثم ضرب عن يمينه وشماله، فحمل عليه الحجاج بن غزية وهو يقول:

قد علمت بيضاء حسناء الطلل واضحة الليتين قعساءُ الكفل

أني غداة الروع مقدامٌ بطل

فضربه على عنقه بالسيف فلم يقطع سيفه وخر مروان لوجهه، وجاءت فاطمة بنت شريك الأنصارية من

بلي. وهي أم إبراهيم بن عربي الكناني الذي كان عبد الملك بن مروان ولاه اليمامة وهي التي كانت ربت مروان، فقامت على رأسه ثم أمرت به فحُمل وأدخل بيتاً فيه كتب. وشد عامر بن بكير الكناني وهو بدري على سعيد بن العاص بن سعيد بن العاص بن أمية فضربه بالسيف على رأسه فصرعه، وقامت نائلة بنت الفرافصة على رأسه ثم احتملته فأدخلته بيتاً وأغلقت بابه.

المدائني عن مسلمة بن محارب عن خالد بن حرب قال: لجأ بنو أمية يوم قتل عثمان إلى أم حبيبة، فجعلت آل العاص وآل حرب وآل أبي العاص وآل أسيد في كندوج وجعلت سائرهم في مكان آخر؛ ونظر معاوية يوماً إلى عمرو بن سعيد يختل في مشيته فقال: بأبي وأمي أمُّ حبيبة ما كان أعلمها بهذا الحي حين جعلتك في كندوج.

قالوا: ومشى الناس إلى عثمان وتسلقوا عليه من دار بني حزم الأنصاري، فقاتل دونه ثلاثة نفر من قريش: عبد الله بن زمعة بن الأسود أحد بني أسد بن عبد العزى بن قصي، وعبد الله بن عوف بن السباق بن عبد الدار بن قصي، وعبد الله بن عبد الرحمن بن العوام بن خويلد، وكان عبد الله بن عبد الرحمن بن العوام يقول: يا عباد الله بيننا وبينكم كتاب الله، فشد عليه عبد الرحمن بن عبد الله الجمحي وهو يقول:

لأضربن اليوم بالقرضاب ... بقية الكفار والأحزابِ

ضرب امرىءٍ ليس بذي ارتياب ... أأنت تدعونا إلى كتابِ

نبذتُهُ في سائر الأحقاب

فقتله، وشد جماعةٌ من الناس على عبد الله بن وهب بن زمعة وعبد الله بن عوف بن السباق فقلوهما في جانب الدار.

وقال المدائني: كان كنانة مولى صفية بنت حيي بن أخطب أخرج أربعة محمولين كانوا يذودون عن عثمان: الحسن بن علي، وعبد الله بن الزبير، وعبد الله بن حاطب، ومروان بن الحكم. والذي قتله رجلٌ من أهل مصر يقال له جبلة بن الأيهم طاف بالمدينة ثلاثة أيام يقول: أنا قاتل نعثل، وكان عليّ في داره.

قالوا: وجاء مالك الأشتر حتى انتهى إلى عثمان فلم ير عنده أحداً فرجع، فقال له مسلم بن كريب القابضي من همدان: يا أشتر دعوتنا إلى قتل رجل فأجبناك حتى إذا نظرت إليه نكصت عنه على عقبيك، فقال له الأشتر: لله أبوك أما تراه ليس له مانع ولا عنه وازع، فلما ذهب لينصرف قال ناتل مولى عثمان: واثلاه هذا والله الأشتر الذي سعر البلاد كلها على أمير المؤمنين، قتلني الله إن لم أقتله، فشد في أثره فصاح به عمرو بن عبيد الحارثي من همدان وراءك الرجل يا أشتر، فالتفت الأشتر إلى ناتل فضربه بالسيف فأطار

يده اليسرى، ونادى الأشتر: ياعمرو بن عبيد إليك الرجل، فاتبع عمرو ناتلاً فقتله.
وقال مروان في يوم الدار:

وما قلت يوم الدار للقوم حاجزوا رويداً و لا اختاروا الحياة على القتلِ
ولكنني قد قلت للقوم قاتلوا بأسيافكم لا يوصلن إلى الكهلِ

المدائني عن قيس بن الربيع عن أبي حصين قال، علي: لو أعلم أن بني أمية يذهب ما في أنفسها أن أحلف لها لحلفت خمسين يميناً مرددة بين الركن والمقام أني لم أقتل عثمان و لم أمالىء على قتله.
المدائني عن أبي جزيّ عن أيوب وابن عون عن ابن سيرين قال: لم يكن أحد من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم أشد على عثمان من طلحة.
المدائني عن أبي جزيّ عن قتادة عن أبي موسى قال: لو كان قتل عثمان هدى لاحتلبوا به لبناً لكنه كان ضلالاً فاحتلبوا به دماً.
المدائني عن أبي جزي عن قتادة قال: رأى عليّ الحسن عليهما السلام يتوضأ فقال له: أسبغ الوضوء، فقال الحسن: لقد قتلتم رجلاً كان يسبغ الوضوء لكل صلاة، فقال علي: لقد طال حزنك على عثمان.

رؤيا عثمان رضي الله عنه ومقتله

قالوا: لما كان اليوم الذي قتل فيه عثمان، وقد أصبح صائماً، قال لأصحابه: إني مقتول، قالوا: وكيف ذلك؟ قال: رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبا بكر وعمر رضي الله تعالى عنهما أتوني في منامي البارحة، فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم:"أفطر عندنا غداً يا عثمان".

وحدثني أحمد بن هشام بن بهرام حدثنا يزيد بن هارون أنبأنا فرج بن فضالة عن مروان بن أبي أمية عن عبد الله بن سلام قال: أتيت عثمان وهو محصور فقال حين دخلت عليه: مرحباً بأخي، رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذه الليلة فقال لي:"يا عثمان حصروك؟ قلت: نعم، قال: أعطشوك؟ قلت: نعم، قال: فأدلى لي دلواً فشربت منها حتى رويت فإني لأجد برد الماء بين ثديي وكتفي، ثم قال: إن شئت أفطرت عندنا وإن شئت نصرت عليهم فاخترت أن أفطر عنده"؛فقتل ذلك اليوم.
حدثنا عفان بن مسلم حدثنا وهيب بن خالد حدثنا موسى بن عقبة عن أبي علقمة مولى عبد الرحمن بن عوف عن كثير بن الصلت الكندي قال: قال عثمان في اليوم الذي قتل فيه، وهو يوم الجمعة وقد استيقظ من النوم: رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في منامي هذا فقال:" إنك شاهدٌ فينا الجمعة".

حدثني أحمد بن إبراهيم الدروقي حدثنا وهب بن جرير حدثنا أبي قال: سمعت يعلى يحدث عن نافع أن عثمان رأى في الليلة التي قتل في صبيحتها أن النبي صلى الله عليه وسلم أتاه فقال له:"أفطر عندنا يا عثمان: فقتل وهو صائم.

قال الواقدي: ودخل محمد بن أبي بكر على عثمان حتى جلس بين يديه وأخذ بلحيته فقال: يا نعثل – ونعثل دهقان اصبهان كان جميلاً جيد اللحية فشبهوا عثمان به – كيف ترى صنع الله بك؟ قال: خيراً اتقي الله يا بن أخي ودع لحيتي فإن أباك لو كان حياً لم يقعد مني هذا المقعد و لم يأخذ بلحيتي، فقال محمد: إن أبي لو كان حياً ثم رآك تعمل هذا العمل لأنكره عليك، وتناول عثمان المصحف فوضعه في حجره فقال: عباد الله لكم ما فيه والعتبى مما تكرهون، اللهم أشهد. فقال محمد بن أبي بكر"ألآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين" ثم رفع جماعة قداحٍ كانت في يده فوجأ بها خششائه حتى وقعت في أوداجه فحزت و لم تقطع فقال: عباد الله لا تقتلوني فتندموا وتختلفوا، فرفع كنانة بن بشر بن عتاب التجيبي عموداً من حديد كان معه فضرب به جبهته فوقع، وضربه سودان بن حمران – ويقال سيدان بن حمران – المرادي بالسيف ضربةً فكانت أول قطرة قطرت من دمه في المصحف على "فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم "وقعد عمرو بن الحمق الخزاعي على صدره فوجأه تسع وجآت بمشاقص كانت معه فكان عمرو يقول:طعنته تسع طعنات علمت أنه مات في ثلاث منهن،ولكني وجأته الست الأخر لما كان في نفسي عليه من الحنق والغيظ؛ وانصرف الناس عن عثمان وترك قتيلاً في داره يوماً أو يومين حتى حمله أربعةٌ فيهم امرأةٌ، أحد الأربعة جبير بن مطعم.

المدائني:يقال إن أول من دمى عثمان رضي الله تعالى عنه نيار بن عياض الأسلمي،وجأه بمشقص في وجهه فدماه،وكان بالمدينة نياران فكان يقال لهذا نيار وللآخر نيار الخير.

ومن رواية أبي مخنف لوط بن يحيى:أن عثمان رضي الله عنه قتل يوم الجمعة فترك في داره قتيلاً،فجاء جبير بن مطعم، وعبد الرحمن بن أبي بكر،ومسور بن مخرمة الزهري،وأبو الجهم بن حذيفة العدوي ليصلوا عليه ويجنوه، فجاء رجال من الأنصار فقالوا: لا ندعكم تصلون عليه، فقال أبوالجهم:إلا تدعونا نصلي عليه فقد صلت عليه الملائكة، فقال الحجاج بن غزية: إن كنت كاذباً فأدخلك الله مدخله قال: نعم حشرني الله معه، قال ابن غزية: إن الله حاشرك معه ومع الشيطان، والله إن تركي إلحاقك به لخطأ وعجزٌ، فسكت أبو الجهم؛ثم إن القوم أغفلوا أمر عثمان وشغلوا عنه فعاد هؤلاء النفر فصلوا عليه ودفنوه، وأمهم جبير بن مطعم، وحملت أم البنين بنت عيينة بن حصن امرأة عثمانلهم السراج، وحمل على باب صغير من جريد قد خرجت عنه رجلاه.

وقال: إنه لقيهم قوم من الأنصار فقاتلوهم حتى طرحوه ثم توطأ عمير بن ضابئ بن الحارث بن أرطاة

التميمي ثم البرجمي بطنه، وجعل يقول: ما رأيك كافراً ألين بطن منه، وكان عمير أشد الناس على عثمان،وكان أبوه ضابئ أندس ليتوجأ عثمان ويفتك به ففطن به، فحبسه أحمد فقال في الحبس:

همت ولم أفعل وكدت وليتني — فعلت فكان المعولات حلائله
وما الفتك إلا لامرئٍ ذي حفيظةٍ — إذا ريع لم ترع لجبن خصائله
وما الفتك ما أمرت فيه ولا الذي — تخبر من لاقيت أنك فاعله
فلا يرأمن بعدي امرؤ ضيم ضائمٍ — حذار لقاء الموت فالموت نائله

وكان عمير بن ضابئ ممن شهد الدار، وكان أشد االناس على عثمان فكان يقول يومئذ: أربي ضابئاً، أحي لي ضابئاً، يقول ليرى ما عثمان عليه من الحال وما فعلت به، فقرعه الحجاج بن يوسف بذلك يوم قتله. وكان من خبر ضابئ أن بني جرول بن نهشل وهبوا له كلباً سألهم إياه، ثم ركبت إليه جماعة منهم فارتجعوه منه، وكان الكلب يسمى قرحان فقال فيهم:

تجاوز نحوي ركب قرحان مهمهماً — تظل به الوجناء وهي حسير
فأمكم لا تعقلوها لكلبكم — فإن عقوق الوالدين كبير
فمن يك منكم ذا غفولٍ فإنه — عليم بما تحت النطاق بصير
رددت أخاهم فاستمروا كأنما — حباهم بتاج الهرمزان أمير

فاستعدوا عليه عثمان لما قال في أمهم وفيهم، فيقال أنه أدبه وخلاه، ويقال بل حبسه إلا خلاه، فأراد الفتك ففطن له وأخذ فحبس حتى مات في السجن، فقال في الحبس:

همت ولا أفعل وكدت وليتني — فعلت فكان المعولات حلائله
ما الفتك إلا لامرئٍ ذي حفيظةٍ — إذا ريع لم ترعد لجبنٍ خصائله

قالوا: ودفن عثمان في حش كوكب وهو نخلٌ لرجل قديمٍ يقال له كوكب، ثم أقبل الناس حين دفن إلى عليّ فبايعوه، وأرادوا دفن عثمان بالبقيع فمنعهم من ذلك قوم فيهم أسلم بن بجرة الساعدي ويقال جبلة بن عمرو الساعدي، وقال ابن دأب: صلى عليه مسور بن مخرمة.
وقال المدائني عن الوقاصي عن الزهري: امتنعوا من دفن عثمان فوقفت أم حبيبة بباب المسجد ثم قالت: لتخلن بيننا وبين دفن هذا الرجل أو لأكشفن ستر رسول الله. فخلوا بينهم وبين دفنه.
قال الواقدي: بويع عثمان بالخلافة أول يوم من المحرم سنة أربع وعشرين وقتل يوم الجمعة لثماني عشرة

ليلة خلت من ذي الحجة سنة خمس وثلاثين بعد العصر، ودفن ليلة السبت بين المغرب والعشاء في حش كوكب إلى جانب البقيع في موضع نخل، وكوكب رجلٌ، فهي مقبرة بني أمية اليوم، وكانت خلافته اثنتي عشرة سنة غير اثني عشر يوماً، وقتل وهو ابن اثنتين وثمانين سنة؛ وكان الذي حملوه جبير بن مطعم بن عدي بن نوفل بن عبد مناف وهو ممن أسلم في هدنة الحديبية وحكيم بن حزام بن خويلد بن أسد بن عبد العزي،وأبو الجهم بن حذيفة بن غانم العدوي، واسمه عبيد، ونيار بن مكرم الأسلمي. ويقال إن عبد الرحمن بن أبي بكر، والمسور بن مخرمة الزهري كانا معهم.

قال الواقدي: لما حج معاوية نظر إلى منازل أسلم شارعةً في السوق فقال: أظلموا عليهم بيوتهم أظلم الله عليه قبورهم، فإنهم قتلة عثمان، فقال نيار بن مكرم الأسلمي: تظلم عليّ بيتي وأنا رابع أربعةٍ حملنا عثمان وقبرناه؟ قال: فعرفه، فقال: لا تبنوا في وجه داره، ثم دعا به خالياً فقال: حدثني كيف صنعتم؟ فقال: حملناه ليلة السبت بين المغرب والعشاء الآخرة، فكنت أنا، وحكيم، وجبير، وأبو الجهم بن حذيفة، وتقدم جبير فصلى عليه ونزلناه في حفرته.

قال الواقدي: ويقال إنه قتل في عشر ذي الحجة، والأول أثبت.

قال هشام بن محمد الكلبي: قال عوانة وغيره: كان مقتل عثمان على رأس إحدى عشرة سنة وأحد عشر شهراً وثمانية عشر يوماً من مقتل عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه، وقتل صلاة العصر، وبايع الناس علياً يوم السبت لتسع عشرة ليلة خلت من ذي الحجة سنة خمس وثلاثين.

حدثنا عفان بن مسلم الصفار حدثنا معتمر بن سليمان قال: سمعت أبي يقول: حدثنا أبو عثمان النهدي أن عثمان بن عفان قتل في أوسط أيام التشريق.

قال الواقدي: وكان عثمان رجلاً ليس بالقصير ولا الطويل، حسن الوجه رقيق البشرة كبير اللحية عظيمها، أسمر اللون، عظيم الكراديس، بعيد ما بين المنكبين، كثير شعر الرأس يصفر لحيته، وكان يشد أسنانه بالذهب.

وقال أبو مخنف في روايته: أقبل القاسم بن ربيعة بن أمية بن أبي الصلت الثقفي، وكان عامل عثمان على الطائف، لينصره، فلما انتهى إلى العقيق بلغه أنه قد قتل فانصرف؛ وأقبل عبد الله بن أبي ربيعة المخزومي، وكان عامله على مخليف الجند، لينصره، فلما انتهى إلى بطن نخلة سقط عن راحلته فانكسرت رجله فانصرف إلى أهله، وهو أبو عمر بن عبد الله بن أبي ربيعة المخزومي الشاعر؛ وأقبل مجاشع بن مسعود السلمي من البصرة فيمن وجه عبد الله بن عامر، فلما كان ببعض الطريق إذا راكبٌ مقبلٌ، فلقيه زفر بن الحارث الكلابي وكان مع مجاشع فقال له: ما وراءك؟ قال: قتل المسلمون نعثلاً، قال: ويحك ما تقول؟

قال: الحق، وهذه طاقاتٌ من شعره معي، فقال له زفر: لعنك الله ولعن ما أقبل منك وما أدبر، وشد عليه فقتله، فكان أول قتيل بعثمان. خرج النعمان بن بشير الأنصاري يريد الشام، فدفعت إليه أم حبيبة بنت أبي سفيان زوج النبي صلى الله عليه وسلم قميص عثمان وعليه الدم، فخرج به يركض حتى لقي يزيد بن أسد البجلي بوادي القرى، وهو على مقدمة حبيب بن مسلمة، فرجع إلى حبيب فانصرفا جميعاً. وفي حبيب يقول شريح القاضي حين بعثه معاوية في الخيل من الشام لنصر عثمان:

كل امرىءٍ يدعى حبيباً ولو بدت مروته يفدي حبيب بني فهر

أميرٌ يقود الخيل حتى كأنما يطأن برضراض الحصى جاحم الجمر

قالوا: وبلغ عمرو بن العاص مقتل عثمان وهو بفلسطين فقال: أنا أبو عبد الله، إني حككت قرحةً أدميتها ونكأتها.

قالوا: ولما قتل عثمان قال حذيفة بن اليمان: إن عثمان استأثر فأساء الأثرة، وجزعنا فأسأنا الجزع، رأوا منه أشياء أنكروها وليرون أنكر منها فلا ينكروها؛ وقال عمرو بن العاص: أسخط قوماً، وأرضى قوماً، وآثرهم فأنكر ذلك أهل السخط فغلبوا أهل الأثرة فقتل.

وحدثني أحمد بن إبراهيم الدورقي حدثنا وهب بن جرير بن حازم حدثنا أبي عن يونس بن يزيد الأيلي عن الزهري قال: كن مما عابوا على عثمان أن عزل سعد بن أبي وقاص، وولى الوليد بن عقبة، وأقطع آل الحكم دوراً بناها واشترى لهم أموالاً، وأعطى مروان بن الحكم خمس إفريقية، وخص ناساً ومن بني أمية فقال له الناس: قد ولي هذا الأمر قبلك خليفتان فمنعا هذا المال أنفسهما وأهليهما، فقال: إنما صنعا ذلك احتساباً ووصلت به احتساباً، فقال له الناس إن أبا بكر استسلف من بيت المال فقضته عائشة بعد وفاته، واستسلف عمر شيئاً ضمنه عنه عبد الله وحفصة فباعوا سهامه ووفوا عنه، واستسلف من بيت المال خمسمائة ألف درهم وليس عندك لها قضاء، وقال عبد الله بن الأرقم خازن بيت المال وصاحبه: اقبض عنا مفاتيحك، فلم يفعل وجعل يستسلف ولا يرد، فجاء عبد الله بالمفاتيح هو وصاحبه يوم الجمعة فوضعاها على المنبر وقالا: هذه مفاتيح بيت مالكم – أو قال: مفاتيح خزائنكم – ونحن نبرأ إليكم منها، فقبضها عثمان ودفعها إلى زيد بن ثابت.

قال الزهري: وكان في الخزائن سفط فيه حلي فأخذ منه عثمان فحلى به بعض أهله فأظهروا عند ذلك الطعن عليه، وبلغه ذلك فخطب فقال: هذا مال الله أعطيه من شئت وأمنعه من شئت، فأرغم الله أنف من رغم، فقال عمار: أنا والله أول من رغم أنفه من ذلك، فقال عثمان: لقد اجترأت عليّ يا بن سمية، وضربه حتى غشي عليه، فقال عمار: ما هذا بأول ما أوذيت في الله، وأطلعت عائشة شعراً من شعر

رسول الله صلى الله عليه وسلم ونعله وثياباً من ثيابه – فيما يحسب وهب – ثم قالت: ما أسرع ما تركتم سنة نبيكم، وقال عمرو بن العاص: هذا منبر نبيكم وهذه ثيابه وهذا شعره لم يبل فيكم وقد بدلتم وغيرتم، فغضب عثمان حتى لم يدر ما يقول، والتج المسجد واغتنمها عمرو بن العاص، وقد كان عثمان قال لعمرو قبل ذلك وقد عزله عن مصر: إن اللقاح بمصر قد درت بعدك ألبانها، فقال: لأنكم أعجفتم أولادها، فقال له عثمان: قملت جبتك مذ عزلت عن مصر، فقال: يا عثمان إنك قد ركبت بالناس نهابير وركبوها بك فإما أن تعدل وإما أن تعتزل، فقال: يا بن النابغة وأنت أيضاً تتكلم بهذا لأني عزلتك عن مصر؟! وتوعده.

ونشب الناس في الطعن على عثمان، وأرسل عثمان إلى امرائه سعيد بن العاص وابن عامر ومعاوية فجمعهم وقال: إن الناس قد صنعوا ما ترون فأشيروا علي، فقال سعيد بن العاص: جمرهم وتابع البعوث عليهم حتى تكون دبرة دابة أحدهم أهم إليه من الكلام، وقال ابن عامر: أعطيهم ما بين لوحي المصحف ترض الناس كلهم، وقال معاوية: قد أشارا عليك بما أشار به فأمرهما فليعملا بذلك في أهل عمليهما، وأنا أكفيك أهل الشام.

حتى إذا كان أول سنة خمس وثلاثين قدم عليه المصريون فترلوا ذا خشب، فخرج إليهم عليّ بن أبي طالب فردهم فقال بعض الناس:– قال جرير: يعني مروان – استقلهم عليّ وأمرهم أن يجتمعوا فيكونوا أكثر مما هم، فانصرفوا ثم رجعوا أكثر مما كانوا، وقدم طوائف من أهل الأمصار فاجتمعوا بالمدينة، فخرج عثمان إلى الجمعة وكان رجلاً مربوعاً حسن الشعر والوجه أصلع أروح الرجلين، فلما صعد المنبر قام إليه رجل من أهل مصر من تجيب عليه كساء خز أصفر فشتمه وعابه وقال: فعلمت كذا وفعلت كذا، فجعل عثمان يلتفت إلى الناس فلا يتكلم أحد و لم يرد عليه، فقعد و لم يكد، فقام جهجاه بن سعيد الغفاري، فقال مثل قول المصري، ثم انتزع منه عصا كانت في يده فكسرها، فما رد أحد عليه ولا منعه، فقام عثمان على دهش فتكلم بكلمات يسيرة وصلى، وحف به الناس منن بني أمية وغيرهم حتى دخل داره وحصروه.

واجتمعت الأنصار إلى زيد بن ثابت فقالوا: ماذا ترى يا أبا سعيد؟ فقال أتطيعوني؟ قالوا: نعم إن شاء الله، فقال: إنكم نصرتم رسول الله صلى الله عليه وسلم فكنتم أنصار الله، فأنصروا خليفته تكونوا أنصاراً لله مرتين، فقال الحجاج بن غزية: والله إن تدري هذه البقرة الصيحاء ما تقول: والله لو لم يبق من أجله إلا ما بين العصر إلى الليل لتربنا إلى الله بدمه؛ فقال عبد الله بن سلام: الله الله في دم هذا الرجل، فوالله مابقي من أجله إلا اليسير، فدعوه يمت على فراشه فإنكم إن قتلتموه سُل عليكم سيف الله المغمود فلم

يُغمد حتى يقتل منكم خمسة وثلاثون ألفاً.

وكان الزبير وطلحة قد استوليا على الأمر، ومنع طلحة عثمان من أن يدخل عليه الماء العذب، فأرسل عليّ إلى طلحة وهو في أرض له على ميل من المدينة أن دع هذا الرجل فليشرب من مائه ومن بئره – يعني بئر رومة – ولا تقتلوه من العطش، فأبى، فقال علي: لولا أني قد آليت يوم ذي خشب أنه إن لم يُطعني لا أرد عنه أحداً لأدخلت عليه الماء.

قال: وسمعهم عثمان يقولون لنقتلنه فقال: أيريدون قتلي؟ فوالله ما يحل لهم ذلك، ولقد كنت في أول المسلمين إسلاماً، ولقد مات رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عني راضٍ، ثم أبو بكر من بعده، ثم عمر، ثم أمر بكتابٍ فكتب وأمر عبد الله بن الزبير أن يقرأه على الناس، فلم يدعوه حين اطلع من الدار يقرأه حتى ترسوه بالترسة، ثم قرأه بأعلى صوته ولم يترع حتى فرغ منه ورموه بالنبل، فكان فيما كتب به عثمان: "إني أنزع عن كل شيء أنكرتموه مني وأتوب من كل قبيح عملته، ولا آتمر ما أجمع عليه أزواج النبي صلى الله عليه وسلم وذوو الرأي منكم، ولست أخلع قميصاً قمصنيه الله ولا أقيلكم بيعتكم.

وأرسل عثمان عبد الله بن الحارث بن نوفل إلى عليّ فقال قل له:

إن كنت مأكولاً فكن خير آكلٍ

أترضى بأن يقتل ابن عمتك وتسلب ملكك؟ فقال علي: صدق والله لا نترك ابن الحضرمية يأكلها – يعني طلحة – فلم يُرع الناس – صلاة الظهر – إلا بعلي وهو يقول لهم: أيها الناس هلموا إلي، فتقدم فصلى بهم فمال الناس إليه وصلى بهم يوم النحر، وعثمان محصور في الدار.

وقد كان عثمان بعث عبد الله بن عباس على الموسم، فلما صدر ابن عباس بلغه قتل عثمان بالطريق فقال: وردت أني لا أبرح حتى يأتيني الذي قتل عثمان فيقتلني، جزعاً من قتله.

وقد كانت عائشة وأم سلمة حجتا ذلك العام، وكانت عائشة تؤلب على عثمان، فلما بلغها أمره، وهي بمكة، أمرت بقبتها فضربت في المسجد الحرام وقالت: إني أرى عثمان سيشوم قومه كما شأم أبو سفيان قومه يوم بدرٍ.

وقتل عثمان فزعم بعض الناس أنه قُتل في أيام التشريق، وقال بعضهم قتل يوم الجمعة لثماني عشرة ليلة خلت من ذي الحجة، وولي قتله محمد بن أبي بكر ومعه سودان بن حمران، وبايع الناس علياً، ومكث عثمان في الدار يوماً أو يومين حتى أخرجه أهله على باب من جريد النخل صغير خرجت عنه رجلاه، وتلقاهم قوم فقاتلوهم حتى طرحوه وتوطأه بعضهم، ثم حملوه وقد حُفر له قبر إلى جانب البقيع ودفنوه.

وخرجت عائشة من مكة حتى نزلت بسرف، فمر راكب فقالت: ما وراءك؟ قال: قتل عثمان، فقالت: كأني أنظر إلى الناس يبايعون طلحة وإصبعه تحس أيديهم، ثم جاء راكب آخر فقال: قتل عثمان وبايع الناس علياً فقالت: واعثماناه، ورجعت إلى مكة فضربت لها قبتها في المسجد الحرام وقالت: يا معشر قريش إن عثمان قد قتل، قتله عليّ بن أبي طالب، والله لأنملةٌ - أو قالت لليلةٌ - من عثمان خير من عليّ الدهر كله، وخرجت أم سلمة إلى المدينة وأقامت عائشة بمكة.

حدثني أبو عبيد حدثنا ابن علية عن ابن عون عن الحسن عن وثاب، وكان مع عثمان يوم الدار وأصابته طعنتان كأنهما كيتان، قال: بعثني عثمان فدعوت الأشتر له فقال: يا أشتر ما يريد الناس مني؟ قال: يخبرونك أن تخلع لهم أمرهم أو تُقصَّ من نفسك وإلا فهم قاتلوك، قال: أما الخلع فما كنت لأخلع سربالاً سربلنيه الله، وأما القصاص فوالله لقد علمت أن صاحبيَّ كانا يعاقبان، وما يقوم بدني للقصاص، وأما قتلي فوالله لئن قتلتموني لا تتحابون بعدي أبداً ولا تُقاتلون عدواً جميعاً أبداً.

حدثني خلف بن هشام البزار حدثنا أبو شهاب عن ليث عن رجل عن حذيفة أنه قال: اللهم إني برىء إليك من دم عثمان، عهدوا إليه واستعتبوه ثم قتلوه.

حدثني هدبة حدثنا أبو الأشهب عن عوف عن محمد بن سيرين أن حذيفة بن اليمان قال: اللهم إن كان قتل عثمان خيراً فليس لي منه نصيبٌ، وإن كان شراً فأنا منه بريء، ولئن كان خيراً ليحتلبنها لبناً، وإن كان قتله شراً ليمتصرنها دماً.

وحدثني هدبة بن خالد حدثنا أبو هلال قال سمعت الحسن يقول: عمل عثمان اثنتي عشرة سنة ثم جاء فسقةٌ فقالوا: يا عثمان أعطنا كتاب الله، وتراموا بحصباء المسجد حتى ما يُرى أديم السماء من الغبار، فحصره ثم أغلقوا باب القصر؛ قال الحسن: فحدثني وثاب مولى عثمان قال: أصابتني جراحة ف أنا أنزف مرة وأقوم مرةً، فقال لي عثمان: هل عندك وضوءٌ؟ قلت: نعم، فتوضأ ثم أخذ المصحف فتحرم به من الفسقة فبينا هو كذلك إذا جاء هر كأنه ذئب فاطلع ثم رجعنا فقلنا لقد ردهم أمر ونهارهم، فدخل محمد بن أبي بكر حتى جثا على ركبتيه، وكان عثمان حسن اللحية، فجعل يهزها حتى سُمع نقيض أضراسه ثم قال: ما أعني عنك معاوية، ما أغنى عنك ابن عامر؟ فقال: يابن أخي مهلاً فوالله ما كان أبوك ليجلس مني هذا المجلس، قال: فأشعره وتعاونوا عليه فقتلوه، فوالله ما أفلت منهم مخبر.

وحدثني أحمد بن إبراهيم الدورقي حدثني محمد بن الأعرابي الراوية حدثني سعيد بن سلم عن ابن عون قال: سمعت القاسم بن محمد بن أبي بكر يقول وهو ساجد: اللهم اغفر لأبي ذنبه في عثمان.

وحدثني أحمد بن إبراهيم حدثنا قريش بن أنس عن سليمان التيمي عن أبي نضرة عن أبي سعيد مولى أبي أسيد قال:: دخل المصريون على عثمان فضربه أحدهم على يده فقطر من دمه في المصحف على

"فسيكفيكهم الله" فقال عثمان عند ذلك: أما إنها الأول يد خطت المفصل.

حدثنا عمرو بن محمد الناقد حدثنا محمد بن أبي عدي عن ابن عون عن ابن سيرين قال: لما نزل القوم بابن عفان قال ابن عمر: صحبت رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا أعلمه ظل يوماً ولا بات ليلة إلا وهو عني راضٍ، ثم صحبت أبا بكر فكان كذلك، ثم صحبت عمر فرأيت له حقين حق الإبوة وحق الإمامة فكان كذلك، ثم صحبتك يا أمير المؤمنين فرأيت لك مثل الذي رأيت لمن مضى، أو كما قال، فقال له عثمان: جزاكم الله خيراً يا لآل عمر، وسأله عن القوم فقال: اعرض عليهم كتاب الله فإن أبوه خيرٌ لك وشر لهم، وإن قبلوه فهو خير لهم وخير لك. فأرسل عليّ بن أبي طالب فعرض عليهم كتاب الله فقبلوه، واشترطوا جميعاً: أن المنفي يقلب والمحرم يعطي ويوفر الفيء ويعدل في القسم ويستعمل ذوو القوة والأمانة؛ وقال: لقد قتل عثمان وإن في الدار لسبعمائة منهم الحسن وابن الزبير، فلو أذن لهم لأخرجوهم من أقطار المدينة.

وحدثني عمرو بن محمد الناقد حدثنا يزيد بن هارون ومحمد بن يزيد الواسطي عن العوام بن حوشب عن حبيب بن أبي ثابت عن أبي جعفر محمد بن عليّ قال: بعث عثمان إلي عليّ يدعوه وهو محصور فأراد أن يأتيه فتعلقوا به ومنعوه فقال: اللهم إني لا أرضى قتله ولا آمر به، مراتٍ.

وحدثني محمد بن سعد حدثنا كثير بن هشام حدثنا جعفر بن برقان حدثني راشد أبو فزارة العبسي أن عثمان بعث إلى عليّ وهو محصور، فأراد أن يأتيه فقام إليه بعض أهله فحبسه وقال: ألا ترى ما بين يديك من الكتائب ولن تخلص إليه، فنفض عمامة سوداء كانت على رأسه ثم رمى بها إلى رسول عثمان وقال: أخبره بالذي رأيت، ثم إنه خرج إلى سوق المدينة فقال: اللهم إني أبرأ إليك من دمه أن أكون قتلته أو مالأت على قتله.

حدثني محمد بن سعد عن الواقدي عن يعقوب بن عبد الله القمي عن جعفر بن أبي المغيرة عن سعيد بن عبد الرحمن بن أبزى عن أبيه قال: لما رجع أهل مصر وأحاطوا بالدار بعث إلى عثمان إلى عليّ بن أبي طالب أن أئتني، فبعث إليه حسيناً ابنه، فلما جاء قال له عثمان: يا بن أخي ما جاء بك؟ قال جئت لأفي بيعتي، قال: يا بن أخي أتقدر على أن تمنعني من الناس؟ قال: لا، قال: فأنت في حل من بيعتي، فقل لأبيك يأتني، فجاء الحسين إلى عليّ فأخبره بقول عثمان، فقام عليّ ليأتيه فقام إليه ابن الحنفية فأخذ بضبعيه يمنعه من ذلك، قال ابن أبزى: فأنا رأيت علياً يطرف له ويقول: لا أم لك، حتى جاء الصريخ أن قد قتل عثمان فمد عليّ يده إلى القبلة ثم قال: اللهم إني أبرأ إليك من دم عثمان.

حدثني عمرو بن محمد حدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن منذر أبي يعلى عن ابن الحنفية قال: لما كان

اليوم الذي أرادوا فيه قتل عثمان أرسل مروان إلى علي: ألا تأتي هذا الرجل فتمنعه فإنهم لن يبرموا أمراً دونك ولو كنت بمنقطع التراب، قال: فقام عليّ ليأتيهم فأخذ ابن الحنفية بكتفيه – أو قال بحقويه – وقال: والله مايريد ونك إلا رهينة، فجلس وأرسل إليهم بعمامته ينهاهم عنه.

حدثني الحسين بن عليّ العجلي عن عبيد الله بن موسى عن إسرائي عن عبد الأعلى عن محمد بن عليّ قال: والله لقد قتل عثمان وعلي في داره ما علم به وبمن قتله.

وحدثني عمرو بن محمد عن عبد الله بن جعفر الرقي عن عبيد الله بن عمرو عن زيد بن أبي أنيسة عن محمد بن عبيد الأنصاري عن أبيه قال: أتيت علياً في داره يوم قتل عثمان فقال: ما وراءك؟ قلت: شرٌّ، قتل أمير المؤمنين، فاسترجع ثم قال: أحبب حبيبك هوناً ماعسى أن يكون بغيضك يوماً ما، قال: وسمعته يقول مراراً: اللهم إني أبرأ إليك من قتل عثمان.

حدثني أحمد ين إبراهيم الدورقي حدثنا موسى بن داود حدثنا نافع بن عمر الجمحي عن عمرو بن دينار قال: كلم أهل المدينة ابن عباس في أن يحج بهم عثمان محصور، فاستأذنه في ذلك فقال عبد الملك حُج بهم، ثم رجع وقد قتل عثمان فقال لعلي: إنك إن قمت بهذا الأمر ألزمك الناس دم عثمان إلى يوم القيامة.

وحدثني أحمد بن إبراهيم حدثنا بهز حدثنا حصين بن نمير عن جهيم الفهري قال: أنا حاضر أمر عثمان، فذكر كلاماً في أمر عمار، فانصرف القوم راضين، ثم وجدوا كتاباً إلى عامله على مصر أن يضرب أعناق رؤساء المصريين فرجعوا ودفعوا الكتاب إلى عليّ فأتاه به فحلف له أنه لم يكتبه و لم يعلم به فقال له علي: فمن تتهم فيه؟ فقال: أتهم كاتبي وأتهمك يا عليّ لأنك مطاع عند القوم و لم تردهم عني، قال: فحصروه.

وحدثني أحمد بن إبراهيم الدورقي حدثنا الضحاك بن مخلد أبو عاصم النبيل عن سعدان بن بشر الجهني عن أبي محمد الأنصاري قال: شهدت عثمان في الدار، والحسن بن عليّ يضارب عنه فخرج الحسن، فكنت فيمن حمله جريحاً، قال: وجاء رجل فضرب عثمان فرأيت الدم ينثعب على المصحف.

وحدثني عمرو بن محمد الناقد حدثنا سليمان بن حرب أنبأنا حماد بن زيد حدثنا أبو سلمة عن أبي نضرة العبدي المنذر بن مالك عن أبي سعيد مولى أبي أسيد قال: كلم المصريون ومن معهم عثمان وذكروا مانقموا عليه فيه، فأعطاهم الرضى وحلف على الكتاب الذي وجوه، فقال الأشتر: أي قوم ارجعوا فوالله إني لأسمع حلف رجلٍ قد مكر به ومكر بكم عنه، فقال رجل: انتفخ سحرك يا أشتر – يا مالك – ثم أقاموا حتى قتلوه.

حدثني أحمد بن إبراهيم حدثنا وهب بن جرير بن حازم حدثنا أبي قال: سمعت حميد بن هلال قال، حدث رجل ممن دخل على عثمان يوم الدار قال: قتلوه ثم فتحوا تابوتاً له فاستخرجوا منه جوازاً فجعلوا

يأكلونه ويضحكون فقلت في نفسي: لا يصيب هؤلاء خيرٌ أبداً، قتلوا أمير المؤمنين ثم هم يأكلون ويضحكون.

حدثني أحمد بن إبراهيم حدثنا ابن عدي عن ابن عون عن نافع قال: لبس ابن عمر الدرع يوم الدار مرتين.

حدثني أحمد بن إبراهيم حدثنا وهب بن جرير حدثنا جرير حدثنا جويرية بن أسماء حدثنا محمد بن الحارث بن زهدم وهو ابن فاختة عمة مالك بن أنس أن مالك بن أبي عامر حدثه قال: احتملنا عثمان فانتهينا به إلى أقصى البقيع إلى حائط قد كان عثمان اشتراه ليصله بالمقبرة، فكان الناس يتحاملونه للدعوة التي ذكرت في أهل البقيع فقيل: يا أمير المؤمنين لو أكرهت الناس عليه، فقال:: دعوه لعله يدفن فيه رجل صالح فيستن الناس في الدفن بعه، فكان عثمان أول من دفن فيه.

المدائني عن أبي جزي عن عمرو بن دينار عن طاوس قال: لما قتل عثمان قال أبو موسى: هذه حيصةٌ من حيصات الفتن، وبقيت المثقلة الرداح التي من هاج فيها هاجت به ومن أشرف لها أشرفت له.

المدائني عن الوقاصي عن الزهري قال: كان سعيد بن المسيب يسمي العام الذي قتل فيه عثمان عام الحزن.

المدائني عن أبي جزي عن عمرو بن طاوس أنه سمع رجلاً يقول: ما رأيت رجلاً أجرأ على الله من فلان، فقال: إنك لم تر قاتل عثمان.

وحدثني محمد بن سعد عن الواقدي عن الحكم بن القاسم عن ابن عون مولى المسور بن مخرمة قال: كان المصريون كافين حتى أبلغهم أن الأمداد قد أقبلت إلى عثمان من عماله فعند ذلك عاجاوه.

وحدثني محمد بن سعد عن الواقدي عن عبد الله بن أبي سبرة عن عبد المجيد بن سهيل قال عبد الملك قال سعد بن أبي وقاص حين رأى الأشتر وحكيم بن جبلة وعبد الرحمن بن عديس: إن أمراً هؤلاء أمراؤه لأمر سوءٍ.

حدثني محمد بن سعد عن الواقدي عن أبي الزناد عن أبي جعفر القاري مولى بني مخزوم قال: كان المصريون الذين حصروا عثمان ستمائة عليهم عبد الرحمن بن عديس البلوي وكنانة بنبشر بن عتاب الكندي وعمرو بن الحمق الخزاعي، والذين قدموا من الكوفة مائتين عليهم مالك بن الأشتر النخعي، والذين قدموا من البصرة مائة رجل رئيسهم حكيم بن جبلة العبدي وضوت إليه حثالة من الناس قد مرجت أماناتهم وسفهت أحلامهم، وكان أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم الذين خذلوه لا يرون أن الأمر يبلغ به القتل فلما قتل ندموا، ولعمري لو قام بعضهم فحثا التراب في وجوه أولئك لانصرفوا.

وقال الواقدي في روايته: تسور على عثمان من دار عمرو بن حزم محمد بن أبي بكر، وكنانة بن بشر،

وسودان بن حمران المرادي، وعمرو بن الحمق الخزاعي، فوجدوا عثمان عند امرأته نائلة وهو يقرأ سورة البقرة في المصحف، فتقدمهم محمد وأخذ بلحيته وقال: قد أخزاك الله يا نعثل، فقال عثمان: لست بنعثل، ولكني عبد الله أمير المؤمنين، فقال محمد: ما أغنى عنك معاوية وفلان وفلان؟ فقال: يابن أخي دع لحيتي فما كان أبوك ليجلس هذا المجلس، ولا يقبض على ما قبضت عليه منها، فقال: اللذي أريد بك أشد من هذا، فقال عثمان: استعين بالله واستنصره عليك، فاجتمعوا على قتله.

المدائني عن أبي هلال عن ابن سيرين قال: جاء ابن بديل إلى عثمان، وكان بينهما شحناء، ومعه السيف وهو يقول: لأقتلنه، فقالت له جارية عثمان: لأنت أهون على الله من ذاك، فدخل على عثمان فضربه ضربةً لا أدري ما أخذت منه.

وقال الواقدي في روايته: لما ضرب محمد بن أبي بكر عثمان بمشاقصة قال عثمان: بسم الله توكلت على الله، وإذا الدم يسيل على لحيته وعلى المصحف حتى وقع على: "فسيكفيكهم الله" وأطبق عثمان المصحف.

وقال الكلبي: ضرب كنانة بن بشر التجيبي عثمان بعمودٍ ضربةً على مقدم رأسه وجبينه، فقال الوليد بن عقبة بن أبي مُعيط.

ألا إن خير الناس بعد ثلاثةٍ — قتيل التجيبي الذي جاء من مصر

قال: وقال الوليد أو غيره:

علاه بالعمود أخو تُجيبس — فأوهى الرأس منه والجبينا

حدثني محمد بن سعد حدثنا عفان حدثنا حوثرة بن بشير حدثني أبو خلدة: أنه سمع علياً رضي الله تعالى عنه يقول وهو يخطب، فذكر عثمان فقال: والله الذي لا إله إلا هو ما قتلته ولا مالأتُ على قتله ولا ساءني.

حدثني محمد بن سعد عن الواقدي عن عبد الله بن جعفر عن رجل عن الزهري قال: قتل عثمان عند صلاة العصر، وشد عبدٌ أسود على كنانة بن بشر فقتله، وشد سودان بن حمران على العبد فقتله، وركب الغوغاء دار عثمان، فصاح إنسان منهم: أيحل دم عثمان ولا يحل ماله؟ فانتهبوا متاعه، فقالت نائلة امرأته: لصوصٌ ورب الكعبة، والله ما أردتم الله بقتله، ولقد قتلتموه صواماً قواماً يقرأ القرآن في ركعة. وخرج الناس من الدار وأغلق الباب على ثلاثة قتلى: عثمان وعبدٍ لعثمان ومنانة بن بشر.

قال محمد بن سعد: قال الواقدي: والثبت أن كنانة بن بشر قتل حين قتل ابن أبي بكر بها، وذكر كنانة

هاهنا وهم.

وحدثني أبو مسعود الكوفي عن غياث بن إبراهيم قال: توفي عثمان وله خمس وثمانون سنة. وقال الواقدي وابن الكلبي: توفي وله اثنان وثمانون سنة.

وقال المدائني عن أبي مخنف ومسلمة بن محارب: كتبت نائلة بنت الفرافصة امرأة عثمان إلى معاوية كتاباً تخبره فيه بأمر عثمان ومقتله، وتعلمه أن أهل مصر أسندوا أمرهم إلى عليّ بن أبي طالب، وابن أبي بكر، وعمار بن ياسر فأمروهم بقتله، وأن فيمن حصره خزاعة وسعد بن بكر وهذيلاً وطوائف من جهينة ومزينة وأنباط يثرب، وبعثت بقميصه إليه، فقال قوم من أهل الشام: والله لنقتلن علياً.

حدثني عبد الله بن صالح عن إسرائيل عن عبد الرحمن بن زياد بن أنعم عن مسلم بن يسار قال: سألت ابن عمر هل شرك عليّ في دم عثمان؟فقال:لا والله ما علمت ذلك في سر ولا علانية، ولكنه كان رأساً يفزع إليه فألحق به ما لم يكن.

حدثني عبد الله بن صالح العجلي عن ابن أبي الزناد عن أبيه قال: خرجت نائلة امرأة عثمان ليلة دفن ومعها سراج وقد شقت جيبها وهي تصيح واعثماناه واأمير المؤمنيناه، فقال جبير بن مطعم: أطفئي السرج فقد ترين من الباب، فأطفأت السراج وانتهوا به إلى البقيع فصلى عليه جبير، وخلفه حكيم بن حزام بن خويلد بن أسد بن عبد العزى، وأبو جهم بن حذيفة، ونيار بن مكرم، ونائلة، وأم البنين بنت عُيينة بن حصن امرأتاه، ونزل في حفرته: نياز، وأبو جهم، وجبير، وكان حكيم والامرأتان يدلونه على الرجال حتى قبر، وبنى عليه وعموا قبره وتفرقوا.

وخرجت نائلة إلى الشام فخطبها معاوية فنزعت ثنيتيها و لم تجبه.

وخلف أبو هريرة على فاختة بنت غزوان وهي بُسرة فكان يقول: كنت أجير ابن عفان بطعام بطني وعقبة رجلي أخدمهم إذا نزلوا، وأسوق بهم إذا ركبوا، فغضب يعلي يوماً فقال: لتمشين حافياً، ثم تزوجت امرأته.

وقال أبو الحسن المدائني في روايته: طلق عثمان ابنة عُيينة في حصاره، وكان فيها جفاء كجفاء أبيها، بلغها أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: مزينة وجهينة وأسلم وغفار خير من تميم وأسد وعامر وغطفان، فقال عُيينة: لأن أكون مع هؤلاء في النار أحب إلي من أكون مع أولئك في الجنة، فقالت: والله ما أبعد أبي.

حدثني هدبة بن خالد البصري حدثنا المبارك بن فضالة عن الحسن قال: أدركت عثمان على ما نقموا منه، وما يأتي على الناس يومٌ وهم ينالون فيه خيراً ويقال: اغدوا على أعطياتكم فيغدون فيأخذونها، ويقال: اغدوا على كسوتكم فيأخذونها، حتى لربما أعطوا العسل والسمن، فالأعطيات دارة، والعدو

مقموع وذات البين صلح.

حدثني أحمد بن إبراهيم الدورقي حدثنا سليمان بن حرب. حدثنا حماد بن زيد عن يحيى بن سعد قال: كانت الامرأة تجيء على عهد عثمان فتحمل وقرها من الطعام والثياب وغير ذلك ثم تقول: اللهم بدل؛ فلما قتل عثمان قال حسان بن ثابت:

مانقمتم من ثيابٍ خلفةٍ وعبيد وإماءٍ وذهب

قال: وقال أبو حثميد الساعدي وكان بدريا: والله ما كنا نرى أنه يقتل اللهم إن لك عليّ ألا أفعل كذا ولا أضحك حتى ألقاك.

حدثنا سليمان بن داود أبو الربيع حدثنا حماد بن زيد أنبأنا هشام حسان عن ابن سيرين قال: لقد قتل عثمان يوم قُتل وما أحد يتهم علياً في قتله.

وحدثني أحمد بن هشام بن بهرام حدثنا وكيع أنبأنا الأعمش عن ثابت بن عبيد عن أبي جعفر الأنصاري قال: رأيت علياً يوم قتل عثمان وعليه عمامة سوداء وهو محتبٍ بسيفه في ظلة النساء فسمعته يقول: تباً لكم سائر الدهر.

وحدثني محمد بن سعد عن الواقدي عن الحكم بن الصلت عن محمد بن عمار بن ياسر عن أبيه قال: رأيت علياً على منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قتل عثمان وهو يقول: ما أحببت قتله ولا كرهته، ولا أمرت به ولا نهيت عنه.

حدثنا سريج بن يونس أبو الحارث الزاهد حدثنا أبو معوية الضرير أنبأنا ليث عن طاووس عن ابن عباس أنه سمع علياً يقول حين قتل عثمان: والله ما قتلت ولا أمرت ولكني غلبت، يقولها ثلاثاً.

حدثنا عمرو بن محمد الناقد أبو عثمان حدثنا عبد الله بن نمير أنبأنا شريك عن عبد الله بن عيسى عن ابن أبي ليلى قال: رأيت علياً عند أحجار الزيت رافعاً يديه يقول: اللهم إني ابرأ اليك من دم عثمان.

حدثني عمرو بن محمد عن إسحاق بن يوسف الأزرق عن مسعر بن كدام عن عبد الكريم عنطاووس عن ابن عباس قال: أشهد على عليّ أنه قال في قتل عثمان: لقد نهيت عنه ولقد كنت كارهاً لقتله ولكني غلبت.

حدثني أحمد بن إبراهيم الدورقي حدثنا عبد الله بن إدريس عن ليث عن زياد بن أبي المليح عن أبي المليح قال: قال ابن عباس: لو أن الناس أجمعوا على قتل عثمان لرموا بالحجارة كما رمى قوم لوطٍ.

حدثنا أحمد بن إبراهيم حدثنا وهب بن جرير حدثنا أبي قال: سمعت يعلى بن عبيد يحدث عن نافع عن

ابنعمر قال: ما زال ابن عباس ينهى عن قتل عثمان ويعظم شأنه حتى جعلت ألوم نفسي على أن لا أكون قلت مثل ما قال.

حدثنا أبو خيثمة زهير بن حرب وأحمد بن إبراهيم قالا: حدثنا وهب بن جرير عن أبيه عن النعمان بن راشد عن الزهري عن عروة عن عائشة قالت: ليتني كنت نسياً منسياً قبل أمر عثمان فوالله ما أحببت له شيئاً إلا منيت بمثله، حتى لو أحببت أن يقتل لقتلت.

حدثني أحمد بن إبراهيم حدثنا أبو داود الطيالسي أنبأنا وكيع عن قيس بن مسلم عن أم الحجاج العوفية قالت: كنت عند عائشة وعثمان محصور فجاء الأشتر فقال لها: يا أم المؤمنين ما تقولين في أمر هذا الرجل؟ فتكلمت امرأة صيته بينةُ اللسان فقالت: معاذ الله أن آمر بسفك دماء المسلمين، وقتل إمامهم واستحلال حرمتهم، فقال الأشتر: كتبتن إلينا حتى إذا قامت الحرب على ساق أنشأتن تنهيننا.

وحدثنا أحمد بن إبراهيم عن أبي داود عن حزم القطعي عن أبي الأسود عن طلق بن خشاف قال: قدمت المدينة بعد مقتل عثمان فسألت عائشة عن قتله فقالت: لعن الله قتلته فقد قتل مظلوماً، أقاد الله من أبي بكر وأهدى إلى الأشتر سهماً من سهامه وهراق دم ابني بديل، فوالله ما من القوم أحد إلا أصابته دعوتها.

المدائني عن النضر بن إسحاق عن قتادة أن رجلاً من بني سدوس قال: كنت فيمن قتل عثمان فما منهم رجلٌ إلا أصابته عقوبة غيري؛ قالقتادة: فما مات حتى عمي، قال أبو داود: وقتل ابنا بديل بصفين.

وقال ثمامة بن عدي. وكان أميراً على صنعاء، وكانت له صحبة: أقتل عثمان؟ قولا: نعم، فقال: هذا حين انتزعت خلافة النبوة وصار الأمر ملكاً وجبرية من غلب على شيءٍ أكله.

حدثني أحمد بن إبراهيم حدثني عبد الرحمن بن مهدي عن سفيان عن موسى الجهني عن ابنة عبد الله بن عكيم أبي معبد الجهني قالت: كان أبي يحب عثمان وكان عبد الرحمن بن أبي ليلى يحب علياً، وكانا متآخيين، فما سمعت أبي يقول لعبد الرحمن شيئاً قط في عليّ إلا إني سمعته يوماً يقول:لو أن صاحبك صبر لأتاه الناس.

حدثني أحمد بن إبراهيم عن ابن إدريس عن محمد بن "أبي" أيوب عن حميد بن هلال عن عبد الله بن عكيم الجهني قال: لا أعين على دم خليفة أبداً بعد عثمان، فقيل له يا أبا معبد وأعنت على دمه؟ قال: إني أعد ذكر مساويه إعانةً على دمه.

حدثنا عبد الله بن أبي شيبة حدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن أبي صالح قال: كان أبو هريرة إذا ذكر ما صنع بعثمان بكى فكأني أسمعه يقول هاه هاه، ينتحب.

المدائني عن سلمة بن عثمان عن عليّ بن زيد الحسن قال: دخل عليّ يوماً على بناته وهن يمسحن عيونهن فقال: مالكن تبكين؟ قلن: نبكي على عثمان، فبكى وقال: ابكين.

حدثني سريج بن يونس ومحمد بن سعد قالا: حدثنا أبو معاوية حدثنا الأعمش عن خثيمة عن مسروق عن عائشة أنها قالت حين قتل عثمان: تركتموه كالثوب النقي من الدنس ثم ذبحتموه كما يذبح الكبش، فهلا كان هذا قبل هذا؟ فقال مسروق: هذا عملك، كتبت إلى الناس تأمرينهم بالخروج إليه، فقالت: لا والذي آمن به المؤمنون وكفر به الكافررون ما كتبت إليهم بسوداء في بياض حتى جلست مجلسي هذا؛ قال الأعمش: فكانوا يرون أنه كتب على لسانها.

وحدثني هدبة بن خالد حدثنا أبو الأشهب عن الحسن أنه كان لا يسمي محمد بن أبي بكر إلا بالفاسق.

وقال مصعب الزبيري: أوصى عثمان إلى الزبير إلى بلوغ عمرو ابنه.

حدثني محمد بن خالد الطحان الواسطي حدثنا يزيد بن هارون عن اليمان بن المغيرة عن اسحاق بن سويد قال: رثى حسان بن ثابت عثمان رضي الله تعالى عنه فقال:

أبكي أبا عمرٍو لحسن بلائه ... أمسى رهيناً في بقيع الغقد

وكأن أصحاب النبي عشيةً ... بدنُ تنحر عند باب المسجد

وقال مصعب بن عبد الله الزبيري: لقي الوليد بن عقبة بجاداً مولى عثمان بن عفان بالمراض وهو صادر عن المدينة فسأله عن الخبر فأعلمه بقتل عثمان فقال:

ليت أني هلكت قبل حديث ... سل جسمي وريع منه فؤادي

يوم لاقيت بالمراض بجاداً ... ليت أني هلكت قبل بجاد

وقال الوليد بن عقبة بن أبي معيط في أمر عثمان:

بَني هاشم ردوا سلاح أبن أختكم ... ولا تنهبوه لا تحل مناهبه

هم قتلوه كي يكونوا مكانه ... كما غدرت يوماً بكسرى مرازبه

وكيف يرجون البراءة عندنا ... وعند عليّ سيفه ونجائبه

فإلاَّ تكونوا قاتليه فإنه ... سواءٌ علينا ممسكاه وضاربه

في أبيات.

وقال حسان بن ثابت:

ان تمس دار بني عفان خاويةً ... بابٌ صريعٌ وبابٌ محرقٌ خربُ

فقد يصادف باغي الخير حاجته ... فيها ويأوي إليها العز والحسبُ

يا أيها الناس أبدوا ذات أنفسكم لا يستوي الصدق عند الله والكذب

إلا تتوبوا إلى الرحمن تعترفوا بغارة عصبٍ من خلفها عصب

فيهم حبيب إمام القوم يقدمهم مستلئماً قد بدا في وجهه الغضب

وقال حسان أيضاً:

صبراً جميلاً بني الأحرار لا تهنوا قد ينفع الصبر في المكروه أحياناً

يا ليت شعري وليت الطير تخبرني ما كان شأن عليّ وابن عفانا

لتسمعن وشيكاً في دياركم الله أكبر يا ثارات عثمانا

وقال عليّ بن الغدير بن المضرس الغنوي، ويقال إهاب بن همام بن صعصعة بن ناجية بن عقال المجاشعي، ويقال ابن الغريرة النهشلي:

لعمر أبيك فلا تكذبي لقد ذهب الخير إلا قليلا

لقد فتن الناس في دينهم وخلى ابن عفان شراً طويلا

وقال حبيب بن عوف العبدي:

أرى عيني تأوبها قذاها فما تغفي فينفعها كراها

لقد كرهت قتال الشيخ إني أرى حرباً سيندم من جناها

أتى الرحمن أمتنا بأمرٍ وأقشع عن جماعتها دجاها

وأصلح بينها حتى نراها تقارع أمةً أخرى سواها

وقال الأعور الشني:

بكت عين من يبكي ابن عفان بعدما نفى ورق الفرقان كل مكان

ثوى تاركاً للحق متبع الهوى وأورث حرباً حشها بطعان

برئت إلى الرحمن من دين نعثلٍ ودين ابن صخرٍ أيها الرجلان

وقال عبد الرحمن بن الحكم:

لقد شركت زريقُ في ابن أروى فقد ضلت زريقُ أجمعونا

حدثني المدائني عن ابن جعدبة قال: مر عليّ بدار بعض آل أبي سفيان فسمع بعض بناته تضرب بدف وتقول:

ظلامة عثمان عند الزبير وأوتر منه لنا طلحه

هما سعراها بأجذالها وكانا حقيقين بالفضحه

يهران شر هرير الكلاب ولو أعلنا كانت النبحه

فقال علي: قاتلها الله ما أعلمها بموضع ثأرها.

وولد عثمان بن عفان

رضي الله تعالى عنه

عبد الله الأصغر، أمه فأخته بنت غزوان أخت عتبة بن غزوان، وعبد الله الأكبر، أمه رقية بنت النبي صلى الله عليه وسلم نقر عينه ديكٌ فمات وقد ذكرناه فيما تقدم، وعمرو، وأبان، وخالد، وعمر، ومريم، أمهم أم عمرو بنت جندب بن عمرو بن حممة الدوسي من الأزد، وسعيد، والوليد وأم سعيد، أمهم أم عبد الله بنت الوليد بن عبد شمس بن المغيرة المخزومي و اسمها فاطمة، والمغيرة، أمه أسماء بنت أبي جهل بن هشام، وعبد الملك، أمه مليكة بنت عيينة بن حصن الفزارية وهي ام البنين.

قال أبو الحسن المدائني: تزوج عثمان أم البنين بنت عيينة بن حصن فدخل عليها عيينة ليلاً وهي عند عثمان وهو يفطر فدعاه إلى العشاء فقال: إني صائم فقال عثمان: سبحان الله أيصام بالليل؟ قال: إني مثلت بين صوم الليل والنهار فوجدت صيام الليل أخف علي، فتبسم عثمان.

وأم أبان، وأم عمرو، وعائشة، أمهن رملة بنت شيبة بن ربيعة بن عبد شمس وكانت من المهاجرات، ولها تقول هند بنت عتبة:

عدمنا كل صابئة بوجٍّ ومكة أو بأطراف الحجون

تدين لمعشرٍ قتلوا أباها أقتل أبيك جاءك باليقينِ

ومريم الصغرى، وأمها نائلة بنت الفرافصة الكلبي، وأخواتٌ لها وهن أم خالد، وأروى، وأم أبان الصغرى.

فأما أم عمرو فتزوجها سعيد بن العاص بن أمية فهلكت عنده فتزوج أختها مريم الكبرى بنت عثمان، ثم هلك عنها فخلف عليها عبد الرحمن بن الحارث بن هشام المخزومي فهلكت عنده.

وأما عائشة فتوجها الحارث بن الحكم بن أبي العاص، ثم خلف عليها عبد الله بن الزبير.

وأما أم أبان فتزوجها مروان بن الحكم بن أبي العاص.

وأما أم سعيد فتزوجها عبد الله بن خالد بن أسيد بن أبي العيص.

وأما مريم الصغرى فتزوجها عمرو بن الوليد بن عقبة بن أبي معيط.

وأما عمرو فكان أكبر بني عثمان وأشرفهم ولداً، دعاه مروان إلى أن يشخص إلى الشام ليبايع له فأبى ومات بمنى؛ وكان مع أهل المدينة حين قدم مسلم بن عقبة لقتالهم بالحرة فدعا به فقال له: إيه يا فاسق إذا خرج أهل المدينة قلت: أنا رجل منكم، وإذا ظهر أهل الشام قلت: أنا ابن أمير المؤمنين عثمان، ثم التفت إلى من معه فقال عبد الملك هذا الخبيث بن الطيب، وإنما أتي من قبل أمه، لقد بلغني أنها كانت تجعل الشيء في فيها ثم تقول لأمير المؤمنين: حازيتك ما في فمي، وغفي فمها ما ساءها وناءها، ثم أمر فضرب بالسياط.

فولد عمرو بن عثمان بن عفان عثمان الأكبر، وخالداً، أمهما رملة بنت معاوية بن أبي سفيان، وعبد الله الأكبر، أمه حفصة بنت عبد الله بن عمر بن الخطاب وأمها صفية بنت أبي عبيد أخت المختار بن أبي عبيد الثقفي وأمها عاتكة بنت أسيد بن أبي العيص، وعثمان الأصغر بن عمرو، وأمه بنت عمارة بن الحارث بن عوف بن أبي عوف بن أبي حارثة المري، وعبد الله الأصغر، والمغيرة وكان شاعراً، وعنبسة، وعمر، والوليد لأمهات أولاد شتى.

فأما عبد الله الأكبر بن عمرو بن عثمان فكان يسمى المطرف لجماله، وفيه يقول الفرزدق:

أعبد الله إنك خيرُ ماشٍ	وساعٍ بالجراثيم الكبارِ
نمى الفاروق جدك وابن أروى	أبوك فأنت منصدع النهارِ
كلا أبويك عند الله حيٌّ	شهيد في المنازل بالخيارِ

يعني عمراً وعثمان.

وفي المطرف يقول الثعلبي عباد:

جميل المحيا واضح اللون لم يطأ	بحزنٍ ولم تألم له النكب إصبعُ
من النفر الشم الذين إذا أتو	وهاب اللئام حلقة الباب قعقعوا
إذا النفر الأدم اليمانيون يسروا	له حوك برديه أرقوا وأوسعوا

وأما خالد بن عمرو فولد سعيد بن خالد، أمه ابنة سعيد بن العاص وأمها ابنة جرير بن عبد الله البجلي، وكان سعيد بن خالد بن عمرو هذا بخيلاً وله يقول موسى شهواتٍ يذمه:

أبا خالدٍ أعني سعيد بن خالدٍ	أخا العرف لا أعني ابن بنت سعيد

وقال كثير يمدحه:

أذكر سعيداً بخلاتٍ له	ميراث والده والعرق منتسبُ

يابن الأكارم والمحمود سعيهم وابن الذي عوقبت في قتله العرب

وكانت ابنة له عند هشام بن عبد الملك وكانت أخرى عند الوليد بن يزيد فطلقها قبل الخلافة ثم خلف على ابنه له أخرى وهو خليفة، وله يقول الفرزدق:

كل امرىءٍ يرضى وإن كان كاملاً إذا نال نصفا من سعيد بن خالد

له من قريش طيبوها وقبصها وإن عض كفي أمه كل حاسدِ

وكان يقول إذا برقت السماء: أمطري حيث شئت فما تمطرين إلا على بلد لي فيه مال، وهو صاحب الفدين، وكان الديباج بن المطرف يمر فيصله، فقيل له لم تمر وتعدل إليه؟ فقال: إنه يصلني في كل مرة بألف دينار فيقع مني موقعاً حسناً.

وأما عثمان بن عمرو بن عثمان فكان يلقب خرء الزنج، وكان مضعوفاً وفيه يقول الشاعر:

لعمرك مايأتي وإن كان معرقاً خرُ الزنج عثمان بن عمرٍ وبطائل

وأما عنبسة بن عمرو فله يقول الشاعر:

يا قصر عنبسة الذي بالرايع لا زلت تحيا بالحيا المتتابع

كم لذةٍ قد نلتها ومسرةٍ بفنائك الحسن الرحيب الواسع

حدثني أبو الحسن عليّ بن محمد المدائني عن سحيم بن حفص وغيره قالوا:كان عبد الله بن عمرو بن عثمان يلقب المطرف لجماله وبهائه، وقيل سمي بذلك لأنه قيل هذا حسنُمطرف بعد عمرو بن الزبير؛وكان عبد الله بن عمرو فائق الجمال فأتاه مدرك الفقعسي فقال له: أنا ابن عمك قال: ومن أنت؟ قال: مدرك الفقسي من بني أسد، فقال:إنما بنو عمي من قريش، فقال مدرك:

كأني إذ دخلت على ابن عمروٍ دخلت على مخبأةٍ كعاب

منعمةٍ لها آّباء صدقٍ تحل بيوتهم أعلى الروابي

تخون بغيبهم ويكون مما يعد عليهم يوم السباب

وكان عثمان بن حيان المري أيام ولايته المدينة أخذ مثجور بن غيلان في قصر لعبد الله بن عمرو بن عثمان المطرف لأنه كان استخفى فيه من الحجاج وقد هرب من العراق، فادعى المطرف دروعاً له، فقال لعثمان: ذهب بها أصحابك، فقال عثمان بن حيان: ما دروعك إلا دروع النساء يا منخس – ويقال قال له:يا منكوح – فلما استخلف سليمان بن عبد الملك وعزل عثمان بن حيان وولي أبو بكر بن عمرو بن

حزم جلد عثمان له حداً.

وكان للمطرف من الولد خالد، وعائشة، أمهما أسماء بنت عبدالرحمن بن الحارث بن هشام بن المغيرة المخزومي وأمها أم الحسن بنت الزبيربن العوام وأمها أسماء بنت أبي بكر الصديق؛ وعبدالعزيز،وأمية، وأم عبد الله، أمهم أم عبد العزيز بنت عبد الله بن خالد بن أسيد، ومحمد الأصغر، والقاسم، ورقية، أمهم فاطمة بنت حسين بن عليّ بن أبي طالب، ومحمد الأكبر، لأم ولد وهو الخارق، وعمرو، وسعدة، أمهما أم عمرو بنت أبان بن عثمان بن عفان.

فأما عائشة بنت المطرف فتزوجها عبد الله بن سليمان بن عبد الملك، وأما سعدة فتزوجها يزيد بن عبد الملك، وأما أم عبد الله فتزوجها الوليد بن عبد الملك.

وكان يقال لمحمد الأصغر بن المطرف الديباج لجماله، وكان له قدر ونبل وصلاة طويلة، حدثني الزبير بن بكار عن عمه مصعب بن عبد الله قال: أم الديباج – وهو محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان – فاطمة بنت حسين بن عليّ بن أبي طالب، وكان الحسن بن الحسن بن عليّ بن أبي طالب خطبها إلى الحسين فزوجه إياها، فلما حضرت الحسن بن الحسن الوفاة قال لها: كأني بك قد نظرت إلى عبد الله بن عمرو بن عثمان المطرف مرجلاً جمته لابساً حلته معترضاً لك، فانكحي من شئت سواه، فحلفت أن لا تتزوجه وكانت جميلةً يرغب فيها، ومات الحسن بن الحسن وخرج بجنازته فحضرها المطرف عبد الله بن عمرو بن عثمان، فنظر إلى فاطمة حاسراً تلطم وجهها فأرسل إليها: إن لنا في وجهك حاجةً فارفقي به، فعرف فيها الإسترخاء وخمرت وجهها، ثم خطبها حين حلت للأزواج فقالت: كيف أصنع بيميني؟ فقال: لك مكان كل شيء شيئان، فتزوجها وكفر عن يمينها، فولدت له محمداً الذي يقال له الديباج. وكان جميلُ يقول لبثينة: ما رأيت عبد الله بن عمرو بن عثمان يخطر على البلاط قط إلا أخذتني الغيرة عليك خوفاً أن تريه أوتري مثله إن بعدت دارك.

وقال موسى شهواتٍ يمدحه:

ليس فيما بدا لنا منك عيبُ	عابه الناس غير أنك فاني
أنت خير المتاع لو كنت تبقى	غير أن لا بقاء للإنسان

وقال فيه رجل من ولد عويم بن ساعدة:

يا بن عثمان وابن خير قريشٍ	أبغني ما يقرني بقباء
ربما ربما بلني نداك وجلى	عن جبيني عجاجة الغرماء

وحدثني المدائني قال: كان الديباج نبيلاً فقال الناس: هو سمي النبي وابن سمي أبي النبي ومن ذريته ونسل الخليفة المظلوم، فعظم في أعينهم وجل أمره عند أهل الشام خاصة وهموا وأن يبايعوا له. وكان كثير التزويج كثير الطلاق فقالت له امرأة جماعة من نسائه: وإنما مثلك مثل الدنيا لا يدوم نعيمها ولا تأمن فجعاها؛ فأخذه أمير المؤمنين المنصور مع الطالبيين أيام محمد بن عبد الله بن حسن بن حسن بن عليّ فضربت عنقه صبراً وبعث برأسه إلى الهند وأظهر أنه رأس محمد بن عبد الله بن الحسن.

قال أبو اليقظان: زوج الديباج ابنته من محمد بن عبد الله أو إبراهيم بن عبد الله بن حسن بن حسن بن علي، فدعا به المنصور أمير المؤمنين بالمدينة فعاتبه على ميل إلى ولد عبد الله بن حسن بن حسن وضربه ستين سوطاً وأمر بحبسه، فلما خرج محمد وإبراهيم دعا به فضرب عنقه صبراً بالهاشمية وقال: والله لا يقر عينك بخروج صاحبيك، وبعث برأسه إلى خراسان، وكان الديباج أخا عبد الله بن حسن بن حسن لامه، أمهما فاطمة بنت حسين.

وكان القاسم بن المطرف شديد النفس واللسان، وخطب عليه هشام ابنته وهو خليفة على ابنه فأبى أن يزوجه إلا على حكمه وشروطه يشتطرها، ومات في خلاف هشام فزوج ابنه ابنته.

وأما خالد بن المطرف فكان نبيلاً وفد إلى يزيد بن عبد الملك فخطب إليه يزيد أخته فقال له: إن عبد الله بن عمرو بن عثمان أبي قد سن لنسائه عشرين ألف دينار فإن أعطيتها وإلا لم أزوجك، فقال يزيد: أو ما ترانا أكفاء إلا بالمال؟ قال: بلى والله إنكم بنو عمنا، قال: إني لأظنك لو خطب إليك رجل من قريش لزوجته بأقل مما ذكرت من المال، قال: أي لعمري لأنها تكون عنده مالكة مملكة وهي عندكم مملوكة مقهورة وأبى أن يزوجه، فأمر أن يحمل على بعير ثم ينخس به إلى المدينة، وكتب إلى ابن الضحاك بن قيس الفهري وهو عامله على المدينة أن وكل بخالد من يأخذ بيده في كل يوم وينطلق به إلى شبيبة بن نصاح المقريء ليقرأ عليه القرآن فإنه من الجاهلين، فأتى به شبيبة فقيل له: يقول لك أمير المؤمنين علمه القرآن فإنه من الجاهلين فقال شيبة حين قرأ عليه: ما رأيت أحداً قط أقرأ للقرآن منه وإن الذي جهله لا جهل منه. ثم كتب يزيد إلى عامله: بلغني أن خالداً يذهب ويجيء في سكك المدينة فمر بعض من معك أن يبطش به، فضربوه حتى مرض ومات، وله عقب بالمدينة.

وأما عبد العزيز بن المطرف فكان على الجيش الذين قاتلوا الإباضية بقديد، فسقط لواؤه يوم سار فتطيروا من ذلك، وانهزم، وقتل يومئذٍ أمية بن المطرف أخوه. وولى يزيد بن الوليد بن عبد الملك عبد العزيز هذا مكة والطائف.

المدائني قال، قال المطرف: أنا ابن أبي العاص، فقال له محمد بن المنذر بن الزبير: دون ذلك ما يدق عنقك، يعني عفان، كان موضعاً.

وأما عمر بن عمرو بن عثمان فمن ولده: عبد الله بن عمر بن عمرو بن عثمان بن عفان وأمه ابنه عمر بن عثمان بن عفان وكان يترل عرج الطائف فكان يعرف بالعرجي، وكان شاعراً سخياً له يسار وحال؛ وكان شاعراً سخياً له يسار وحال؛ فحدثت أن عمر بن أبي ربيعة المخزومي لما نعي وكان موته بالشام بكت عليه مولدة من مولدات مكة كانت لبعض بني مروان وجعلت توجع له وتفجع عليه وقالت: من لأباطح مكة بعده؟ وكان يصف حسنها وملاحة نسائها، فقيل لها: إنه قد حدث فتى من ولد عثمان بن عفان يسكن بعرج الطائف شاعرٌ يذهب مذهبه، فقالت: الحمد لله الذي جعل له خلفاً، سريتم والله عني. وضرب العرجي، الحد في السكر في أيام هشام بن عبد الملك.

قالوا: وكان العرجي من فتيان قريش، وكان فتيان قريش وغيرهما يفدون إليه فيفضل عليهم ويعطيهم، وغزا مع مسلمة بن عبد الملك في آخر خلافة سليمان بن عبد الملك فقال: يا معشر التجار من أراد من الغزاة المعدمين شيئاً فأعطوه إياه، فأعطوهم إياها، فأعطوهم عليه عشرين ألف دينار، فلما استخلف عمر بن عبد العزيز قال: بيت المال أولى بمال هؤلاء التجار من مال العرجي، فقضى ذلك من بيت المال.

و لم يزل العرجي فتى قريش حتى حبسه إبراهيم بن هشام إسماعيل بن هشام بن الوليد بن المغيرة المخزومي، وهو والي المدينة من قبل هشام بن عبد الملك، وكان العرجي هجا إبراهيم هذا فقال وقد حج بالناس:

كان العام ليس بعام حجٍ ... تغيرت المواسم والشكولُ
وقد بعثوا إلى جيدا رسولاً ... ليخبرها فلا رجع الرسول

وجيداء أمه بعث إليها رسولاً بسلامته، وقال أيضاً:

حتى دفعت إلى جعداء جالسةٍ ... قد تركت أهل بيت الله في ضيق

فلم يزل في الحبس حتى كان، وقال في حبسه:

ياليت شعري وليت الطير تخبرني ... هل أدخل القبة الحمراء من أدم
أسلمني أسرتي طراً وحاشيتي ... حتى كأني من عادٍ ومن إرمِ

وحدثني المدائني عن عبد الله بن أسلم الفهري قال: كان ابن هشام بن إسماعيل والياً لهشام بن عبد الملك على مكة وهو ابن خاله وأمه أم هشام بنت هشام بن إسماعيل بن هشام بن الوليد بن المغيرة فحبس عبد الله بن عمر بن عمرو بن عثمان في قممة دم مولى لعبد الله بن عمر أدعى عليه قتله، فلم يزل محبوساً حتى مات، وكان ابن هشام متحاملاً عليه فقال في السجن:

أضاعوني وأي فتىً أضاعوا ... ليوم كريهةٍ وسداد ثغرِ

قال المدائني: ويقال إن هذا البيت لمحمد بن القاسم الثقفي وإنما تمثل به العرجي.

وقال أبو الحسن المدائني: يقال إن إبراهيم بن هشام حبس العرجي، ويقال بل حبسه إسماعيل ين هشام بن إسماعيل.

قال مصعب الزبيري: وكل العرجي مولى له بحرمه فكان يخالف اليهن وصح ذلك عند العرجي فقتل مولاه ثم أحرقه، فاستعدت عليه امرأة مولاه محمد بن هشام بن إسماعيل وكان حنقاً عليه بهجائه إياه، فحبسه وضربه وشهره.

قال: وله في زوجة محمد بن هشام:

عوجي علينا ربة الهودج	إنك إن لا تفعلي تحرجي
نلبث حولاً كاملاً كلهُ	لا نلتقي إلا على منهجِ

وفيها يقول:

عوجي عليّ فسلمي جبر	فيم الوقوف وأنتم سفرُ

وقال الواقدي: كان من قول العرجي في سجن ابن هشام:

سينصرني الخليفة بعد ربي	ويغضب حين يخبر عن مساقي
عليَّ عباءةٌ برقاءُ ليست	مع البلوى تغيب نصف ساقي
ويغضب لي بأجمعها قصي	قطين البيت والدمث الرقاق

قال: فلما طال حبسه ولم يغث قال:

أضاعوني وأيَّ فتى أضاعوا	ليوم كريهةٍ وسداد ثغر
وخلوني بمعترك المنايا	وقد شرعت أسنتها لصدري
كأني لم أكن فيهم وسيطاً	ولم تك نسبتي في آل عمرو

يعني عمرو بن عثمان، وقال أيضاً:

ياليت سلمى رأتنا لا نزاع لنا	لما هبطنا جميعاً أبطح السوقِ
وكشرنا وكبول القين ينكبنا	كالأسد تكشر عن أنيابها الروق
والناس صفان من ذي بغضةٍ حنقٍ	وممسك لدموع العين مخنوقِ
وفي السطوح كأمثال الدمى خردٌ	يكتمن لوعة حب غير ممذوقِ
من كل ناشرةِ فرعاً لرؤيتنا	ومفرقاً ذا نباتٍ غير مفروق

يضربن حر وجوه لا يلوحها لفح السموم ولا شمسُ المشاريق

كأن أعناقهنَّ التلع مشرفةً من كل جيزٍ كأعناق الأباريقِ

ومن ولد عمرو بن عثمان سوى العرجي عاصم بن عمر الذي يقول فيه الشاعر:

سيراً فقد جن الظلام عليكما فيا بؤس من يرجو القرى عند عاصمِ

فما كان لي ذنبٌ إليه علمتهُ سوى أنني قد زرته غير صائمِ

وقال أيضاً وهو من كنانة:

فقل لابن عثمان بن عفان عاصم إليك سرت عيسٌ فطال سراها

أتتكم بنا ندلي بحقٍّ وحرمةٍ ونقطع أرضاً ما يثار قطاها

فقد صادقت كز اليدين ملعَّناً جباناً إذا ما الحرب شب لظاها

بخيلاً بما في رحله غير أنه إذا ما خلت عرس الصديق قفاها

فقال عاصم: الآن أنضج الكيُّ.

وحدثت أن العرجي أو غيره من قريش بعث إلى إمرأة فأتته على حمار ومعها جارية على أتان فوثب الحمار على الأتان، وغلامه على جاريتها، وقام فباضعها فقال: هذا يوم قد غاب عذاله.

واتهم العرجي جارية أبي جراب أحد بني أمية الأصغر عنده بشعرٍ قاله فيها فحملها أبو جراب على غرارتي بعير إلى مكة، فأحلفها بين الركن والمقام على كذبه، فحلفت فرضي عنها.

وأما الوليد بن عثمان بن عفان فكان من فتيان قريش سخاءً وفتوة وشرفاً، قال أبو اليقظان، قال رجل من ولد عثمان: قبح الله الوليد فإن أباه عثمان قتل وهو مخلق في حجلته.

وفي الوليد يقول عبد الرحمن بن أرطأة بن سيحان المحاربي ورأى عنده إداوةً كان بعث إليه فيها بشراب:

لا تبعدن إداوةٌ مطروحةٌ كانت قديماً للشراب العاتق

بأبي الوليد وأم نفسي كلما طلع النجوم وذر قرن الشارق

لما أتيناه أتينا ماجداً ضخم الدسائع ذا ندىً وخلائق

أثوى وأحسن في الثواء وقضيت حاجاتنا من عند أروع باسق

وحدثني محمد بن سعد عن الواقدي عن عبد الرحمن بن أبي الزناد عن أبيه قال: كان ابن سيحان حليف بني حرب بن أمية شاعراً حلو الحديث وهو على ذلك يقارف الشراب، فكان ينادم أحداث بني أمية،

وكان يشرب مع الوليد بن عتبة بن أبي سفيان، وكان الوليد بن عثمان بن عفان ينادم الوليد بن عتبة، وهو جاء بابن سيحان إليه، فأصاب الوليد بن عتبة خمارٌ فدفعا بابن سيحان فقال له: اشرب، فأتى بإداوة فيها فضلة شراب فشربها، ثم أمدوه فقال:

بأبي الوليد وأم نفسي كلما ... كان الصباح وذرَّ قرن الشارق

أثوى فأحسن في الثواء وقضيت ... حاجاتنا من عند أبيض باسق

كم عنده من نائلٍ وسماحةٍ ... وشمائلٍ ميمونةٍ وخلائق

وكرامةٍ للمعتفين إذا اعتفوا ... في ماله حقاً وقولٍ صادق

فالى الوليد يدي لكم ولغيركم ... رهنٌ بصامت ماله والناطق

لا تبعدنَّ إداوةٌ مطروحةٌ ... كانت زماناً للشراب العاتق

وحدثني المدائني قال: ويقال أن أبا زبيد قال هذا الشعر في الوليد بن عقبة بن أبي معيط، والأول أثبت.

وكان للوليد بن عثمان بن عفان ابن يظهر التأله يقال له عبد الله بن الوليد، كان يلعن علياً ويقول: قتل جدي عثمان والزبير، وكانت أمه ابنة الزبير بن العوام، وقام إلى هشام بن عبد الملك وهو على المنبر عشية عرفة فقال: يا أمير المؤمنين إن هذا يوم كانت الخلفاء تستحب فيه لعن أبي تراب، فقال له: يا عبد الله إنّا لم نأتِ هاهنا لسب الناس ولعنهم.

وأما خالد بن عثمان بن عفان فتوفي في خلافة أبيه، ركض دابةً فأصابه قطع فهلك منه، وله عقب، وهو الذي يقال له الكسير، وكان مصحف عثمان الذي قتل وهو في حجرة عند ولده. وقال الواقدي: كان بالسُقْيا فركب بغلةً ليلحق صلاة الجمعة مع أبيه عثمان وأسرع السير فسقطت البغلةَ نافقةً وأصاب خالداً كسر.

وكان زيد بن عمر بن عثمان تزوّج سُكَينة بنت الحسين بن عليّ فنهاه سليمان بن عبد الملك عنها فطّلقها لأنّ عبد الملك خطبها بعد مصعب بن الزبير فأبَته.

وأما سعيد بن عثمان بن عفان ويكنى أبا عثمان فإنّ معاوية ولاّه خراسان ففتح سمرقند، وكان أعور نحيلاً أُصيبت عينُه بسمرقند، وهو الَذي يقول فيه الشاعر:

سَعيدُ بنُ عُثْمانَ بنِ عَفّانَ لا يَرَى ... لِصاحِبِهِ قَرْضاً عليهِ ولا فَرْضَا

وفيه يقول ابن مفرغ:

إن تركي ندى سعيد بن عثما ... ن بن عفان ناصري وعديدي

واتباعي أخا الرضاعة واللؤ ... م لنقصٌ وفوت شأوٍ بعيد

قلت قول المحزون والليل داجٍ ليتني مت قبل موت سعيد

هذا حين تركه وخرج مع ابن زياد.

وكان عند سعيد غلمانٌ من أبناء ملوك السغد دفعوا إليه رهائن، فقدم بهم معه حين عزله معاوية لما خاف من طلبه الخلافة، فلما صار بهم إلى المدينة جعل يأخذ كسوتهم ومناطقهم فيدفعها إلى غلمانه، وألبسهم جباب الصوف وألزمهم السواني والعمل الصعب، فدخلوا عليه في مجلسه ففتكوا به ثم قتلوا أنفسهم، فقال الوليد بن عقبة بن أبي معيط:

ألا إن خير الناس نفساً ووالداً سعيد بن عثمانٍ قتيل الأعاجم

وقال عبد الرحمن بن سيحان المحاربي:

يلومونني في الدار إن غبت عنهم وقد فر عنهم خالدٌ وهو دراعٌ

فإن كان نادى دعوةً فسمعتها فشلت يدي واستك مني المسامع

يعني خالد بن عقبة بن أبي معيط، وكان قاضياً وكان قاضياً بالمدينة في أيام مروان بن الحكم.

فقال خالد:

لعمري قد أبصرتهم فتركتهم بعينيك إذا ممشاك في الدار واسعُ

قالوا: ولما بويع يزيد بن معاوية جعل صبيان أهل المدينة وعبيدهم ونساؤهم يقولون:

والله لا ينالها يزيد حتى ينال رأسه الحديد إن الأمير بعده سعيد

فقدم سعيد على معاوية فقال له: يا بن أخي ما شيء بلغني يقوله أهل المدينة؟ قال: وما تنكر من ذلك معاوية؟ والله إن أبي لخيرٌ من أبي يزيد، وإن أمي لخير من أمه، وإني لخير منه، ولقد، استعملناك فما عزلناك، ووصلناك فما قطعناك، وصار أمرنا في يدك فحلأتنا عنه أجمع، فقال معاوية: قد صدقت في قولك خير مني وأن أمك خير من أمه لأن أمك من قريش وأمه من كلب، ويحسب امرأة أن تكون من صالحي نسائها، وأما قولك أنك خير منه فوالله ما يسرني أن بيني وبين العراق حبلاً نُظم لي فيه أمثالك. ثم قال له: الحق بعمك زياد فقد أرته أن يوليك خراسان، وأن يولي الخراج رجلاً حازماً، فولاه زياد خراسان، وولى أسلم بن زرعة الكلابي خراجها، ثم عزله خوفاً منه.

وقال مصعب بن عبد الله الزبيري: لما قتل السغد سعيداً كان معه في الدار عبد الرحمن بن أرطأة بن سيحان، فقال خالد بن عقبة بن أبي معيط:

ياعين جودي بدمعٍ منك تهتانا وأبكي سعيد بن عثمان بن عفانا

إن المواكل لم تصدق مودته وفر عنه ابن أرطأة بن سيحانا

المواكل الضعيف، يعني بالمواكل ابن أرطأة لم تصدق مودته وفر عنه، فقال ابن سيحان:

يقول خليلي قد دعاك فلم تجب وذلك من تلقاء مثلك رائعُ

فإن كان نادى دعوةً فسمعتها فشلت يدي واستك مني المسامعُ

يلومني أن كنت في الدار حاسراً وقد فرَّ عنه خالدٌ وهو دارعُ

وقال بعضهم لابن سيحان:

فإنك لم تسمع ولكن رأيته بعينك إذ مجراك في الدار واسعُ

فأسلمتهُ للسغد تدمى كلومه وفارقته والصوت في الدار شائعُ

وما كان فيها خالد اللؤم معذراً سواءً عليه صم أو هو سامعُ

فلا زلتما في حال سوءٍ ذميمةٍ ودارت عليكم بالبلاء القوارعُ

قال: وقال بعض ولد أبي معيط:

يا نفس موتي حسرةً وأبكي هُبلت على سعيدِ

وأبكي لقرمٍ ماجدٍ بين الخليفة والوليد

ولقد أُصبت بغدرةٍ وحملت حتفك من بعيدِ

قال: وقال الوليد أو خالد بن عقبة:

ألا إن خير الناس ووالداً سعيد بن عثمان قتيل الأعاجم

فإن تكن الأيام أردت صروفها سعيداً حي على الدهر سالمُ

المدائني عن سحيم بن حفص قال: لقي الحسين بن عليّ سعيداً وأبناء السغد معه فقال متمثلاً:

أبا عمارة إما كنت ذا ثقلٍ فإن قومك لم تأكلهم الضبعُ

وكان قوم من بني عثمان: يقولون: ما قتله إلا عين الحسين؛ قال: فبينا سعيد في حائط له وقد جعل أولئك السغد فيه يعملون بالمساحي إذا أغلقوا باب الحائط ووثبوا عليه فقتلوه، فجاء مروان بن الحكم يطلب المدخل عليهم فلم يجده، وقتل السغد أنفسهم، وتسورت الرجال ففتحوا الباب وأخرجوا سعيداً.
وأما أبان بن عثمان بن عفان ويكنى أبا سعيد فشهد الجمل مع عائشة فكان أول من انهزم، وكان أبرص أحول أصم، وقال مالك بن الريب المازني:

ولولا بنو حربٍ لطلت دماؤكم بطون العظايا من كسير وأعورا

وما كان في عثمان عيبٌ علمتهُ سوى عقبة منن بعده حين أدبرا

يعني ببطون العظايا البرص.

المدائني قال: ولى عبد الملك علقمة بن صفوان بن المحرث مكة فشتم طلحة والزبير على المنبر، فلما نزل قال لأبان: أرضيتك في المدهنين في أمير المؤمنين عثمان، قال: لا والله ولكن سؤتني، بحسبي بليةً أن يكونا شركاء في دمه.

وولي أبان المدينة في أيام عبد الملك فقال عروة بن الزبير: الله أكبر جاء في الحديث إن هلاك بني أمية عند ولاية رجل أحول وأرجو أن يكون هذا، وإنما كان الأحوال هشاماً، وكانت عند أبان أم كلثوم بنت عبد الله بن جعفر خلف عليها بعد الحجاج، وكان أبان صاحب رشوة وجور في عمله.

وقال الواقدي: أصاب أبان فالج شديد قبل موته بسنة، فكانوا يقولون بالمدينة اذا دعوا: أصابك فالج أبان، ومات في خلافة يزيد بن عبد الملك.

وكان عبد الرحمن بن أبان بن عثمان، وأمه بنت عبد الرحمن بن الحارث بن هشام المخزومي، مصلياً يصلي في كل يوم ألف ركعة ويكثر الحج والعمرة، وكان له خطر ومروءة وصلاح وصدقة كثيرة؛ وكان إذا تصدق بصدقةٍ قال: اللهم هذا لوجهك الكريم فخفف عني الموت، فانطلق حاجاً فصلى الغداة ثم نام، فذهبوا يوقظونه للرحيل فوجدوه ميتاً، فأقاموا عليه المأتم بالمدينة، وجاء أشعب أبو العلاء الطمع وقد طين رأسه ووجهه – ويقال: بل جعل على رأسه كمة من طين – فجعل يلتدم مع النساء، وكان إليه محسناً.

وكان عبد الرحمن بن أبان يخرج إلى مكة للحج ومعه أصحابه فيقول لغلامه: قدم بنا طعامنا يا خداش، على الطعام يقتل الناس الناس.

ولأبان ولد بالأندلس. وكان لأبان ابنٌ يقال له مروان وكان ردياً فسلاً، وكان مخنثاً مأبونا يجمع بين الرجال والنساء على الريبة والفاحشة، فلما مات لم يبق أحد بلغه موته ممن في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا لعنه وذكره بسوء، فقال ربيعة الرأي: لو شاؤوا لأخفوا موته فكان ذلك أجمل.

وحدثني بعض العدويين من قريش قال: قدم الوليد بن عبد الملك المدينة وهو خليفة فوضع أربعة كراسي جلس عليها أربعة أشراف من قريش، أم كل واحد منهم عدوية: عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان المطرف، أمه حفصة بنت عبد الله بن عمر بن الخطاب؛ ومحمد بن المنذر بن الزبير، أمه عاتكة بنت سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل؛ وطلحة الندى بن عبد الله بن عوف بن عبد الحارث بن زهرة، وأمه ابنة مطيع بن الأسود العدوي؛ ونوفل بن مساحيق بن عبد الله بن مخرمة بن عبد العزى بن أبي قيس بن عبد ود من

بني عامر بن لؤي؛ وأمه ابنه مطيع بن الأسود العدوي أيضاً.

ووقع بين محمد بن المنذر وبين المطرف كلام فقال محمد: ما كنت أظنك إلا جارية لقد هممت أن أخطبك إلى أبيك، فقال: أنا عبد الله أبو محمد بن عمرو بن عثمان، فقال: لك اسم أحبُ اليك من هذا، يعني المطرف.

وحدثني محمد بن سعد عن الواقدي قال عبد الملك كان المغيرة بن عمرو بن عثمان بن عفان شاعراً وهو الذي يقول:

أرو سقيا لعدك المعهود	ولما في ودادك المودود
ولشرب لديك يا أرو يشفي	من جوى حائم لحين الورود
حذراً أن نرد منك بيأس	أو صدودٍ فتولعي بالصدود
أرو إني سلمٌ لأهلك أروى	فصليني وأنجزي موعودي

وحدثني الزبير بن بكار عن عمه وغيره قالوا: زوج بكير بن عمرو بن عثمان بن عفان ابنته أم عثمان بنت بكير، وأمها سكينة بنت مصعب بن الزبير، عامر بن حمزة بن عبد الله بن الزبير، فبلغ ذلك إبراهيم بن هشام المخزومي وهو على المدينة، فبعث إلى بكير فقال له: ما حملك على أن زوجت ابنتك زبيرياً وبالشام من به من فتيان بني الحكم بن أبي العاص لم تعرضها عليهم وهم بنو عمك، فقال له: إن يد عبد الله بن الزبير عندنا يوم الدار ما علمت، فسكت.

وحدثني الزبير بن بكار قال: لما زوجت فاطمة بنت الحسين ابنتها من عبد الله المطرف دخلت وسكينة بنت الحسين على هشام بن عبد الملك فقال لفاطمة: صفي لنا يا بنت حسين ولدك من ابن عمك – يعني حسن بن حسن – وصفي لنا ولدك من ابن عمنا – يعني المطرف – فقالت: أما عبد الله بن حسن فسيدنا وشريفنا والمطاع فينا، وأما حسن بن حسن بن حسن فلساننا ومدرهنا، وأما إبراهيم بن حسن فأشبه الناس برسول الله صلى الله عليه وسلم شمائلاً ولوناً وتقلعاً – وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا مشى تقلع فلا تكاد تمس عقباه الأرض – وأما اللذان من ابن عمكم فإن محمد بن عبد الله – تعني الديباج – جمالنا الذي نباهي به، والقاسم عارضتنا التي نمتنع بها وأشبه الناس بأبي العاص بن أمية عارضةً ونفساً، فقال: والله لقد أحسنت في صفاتهم يا بنت حسين، ووثب فجبذت سكينة بردائه وقالت: والله يا أحول لقد أصبحت تهكم بنا، أما والله ما أبرزنا لك إلا يوم الطف، فضحك وقال: أنت امرأة كثيرة

الشر، ولكنك كبيرة السن فنحن نكرمك.

قال الزبير: وأنشدني عمي لأبي وجزة السعدي في الديباج محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان:

وجدنا المحض الأبيض من قريشٍ فتىً بين الخليفة والرسول

أتاك المجد من هنا وهنا فكنت له بمعتلج السيول

فما للمجد دونك من مبيتٍ وما للمجد دونك من مقيل

فدى لك من يذود الحق عنه ومن يرضي أخاه بالقليل

فلولا أنت ما رُحلت ركابي محملةً ولا حمدت رحيلي

قال المدائني: وخطب الديباج محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان امرأة وخطبها عبد العزيز بن عبد الله بن عبد الله بن عمر بن الخطاب، وكان يقال له الديباج أيضاً، فجعلت تبحث عن أحسنهما، فبينا هي كذلك إذ خرجت ليلة فرأت الديباجين جميعاً يتعاقبان في أمرها أو أمر غيره في ليلة مقمرة، وكان وجه عبد العزيز إليها فرأت بياضه وطوله فقالت: حسبي به، فتزوجها ودعا محمد بن عبد الله في وليمتها فأكرمه، فلما أكل برك له ثم خرج وهو يقول:

بينا أرجي أن أكون وليها رضيت بعرقٍ من وليمتها سُخن

وحدثني الزبير قال: أتى الرماح بن ميادة وهو ابن أبرد، المدينة وعليها عبد الواحد بن 4، فسمع عبد الواحد يقول: أني لأهم يالتزويج فابغوني أيما، فقال الرماح: أنا أدلك، فقال: على من يا أبا شرحبيل؟ فقال: دخلت مسجدكم فإذا أشبه شيء به وبمن فيه الجنة وأهلها فبينا أنا أمشي إذ قادتني رائحة عطر رجل، فلما وقعت عيني عليه استلهاني حسنه، وتكلم قرأ قرآنا أو زبوراً حتى سكت، فلولا علمي بالأمير لقلت: هو هو، فسألت عنه فأخبرت أنه بين الحيين للخليفتين عثمان وعلي رضي الله عنهما، وأنه قد نالته ولادة من النبي صلى الله عليه وسلم فلها نور ساطع في غرته، فإن اجتمعت وهو على ولد بأن تتزوج ابنته ساد العباد وجاب ذكره البلاد؛ فقلا: ذاك محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان لفاطمة بنت الحسين يا أبا شرحبيل، فقال ابن ميادة:

لهم نبرة لم يعطها الله غيرهم وكل عطاء الله فضل مقسم

قال: وكان محمد الأكبر ابن المطرف، وهو الحازوق، يلبس أسرى الحلل، فإذا تعجب الناس من حلة قالوا: كأنها حلة الحازوق، وإذا فخر أحد بحلة قالوا: لو كانت حلة الحازوق ما عدا.

قال: وقتل أمية بن المطرف بقديد، وكان عبد الواحد بن سليمان قد ولاه على أسد وطيء فجاءه سبعون من فزارة، وذلك في أيام مروان بن محمد فسألوه أن يخرج بهم معه ليغيروا على طيء لثأرٍ كان لهم فيهم،

فخرج بهم وتجمع إليهم ناس من أهل المعادن طلباً للغنائم، فلقيه معدان الطائي بالمنتهب في جماعة من طيء فهزموه، وقد كانوا عرضوا عليه أن يرد فزارة ويأتي فيمن أحب لأخذ صدقة أموالهم، وفي ذلك يقول معدان يعتذر إلى عبد الواحد وأهل المدينة ويذكر عرضهم على أمية أن يرد فزارة ويعطوه صدقاتهم:

ألا هل أتى المدينة عرضنا خصالاً من المعروف يعرف حالها

على عاملينا والسيوف مصونةٌ بأغمادها ما زايلتها نصالها

أتينا إلى فرتاج سمعاً وطاعةً نؤدي الزكاة حين حان عقالها

ومن قبل ما صرنا وجاءت وفودنا إلى فيد حتى ما يُعد رجالها

فقالوا أغر بالناس تعطيك طيءٌ إذا وطئتها الخيل واجتيح مالها

ودون الذي منوا أمية هبوةٌ من الضرب قدماً لا تجلى ظلالها

دعوا بنزارٍ فاعترينا بطيءٍ هنالك زلت في نزارٍ نعالها

وولى يزيد بن الوليد عبد العزيز بن المطرف مكة والطائف.

مروان بن الحكم

ومن بني أبي العاص بن أمية بن عبد شمس أيضاً مروان بن الحكم بن أبي العاص، وهو ابن عم عثمان، ويكنى أبا عبد الملك؛ وأمه آمنة بنت علقمة بن صفوان بن أمية بن المحرث بن جمل بن شق بن رقبة بن مخدج بن عامر بن ثعلبة بن الحارث بن مالك بن كنانة بن خزيمة.

وكان الحكم أبو مروان مغموصاً عليه في إسلامه وكان إظهاره الإسلام في يوم فتح مكة؛ فكان يمر خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم فيخلع بأنفه ويغمز بعينيه فبقي على ذلك التخليج وأصابته خبلة؛ فقال عبد الرحمن بن حسان بن ثابت الأنصاري لمروان:

إن اللعين أباك فأرم عظامهُ إن ترم ترمِ مخلجاً مجنونا

يضحي خميص البطن من عمل التقى ويظلُّ من عمل الخبيث بطينا

وطلع الحكم ذات يوم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو في بعض حجر نسائه فخرج إليه بعنزة وقال: "من عذيري من هذه الوزغة"، وكان يفشي أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فلعنه وسيره إلى الطائف ومعه عثمان الأزرق، والحارث وغيرهما من بنيه وقال لا يساكني فلم يزالوا طرداء حتى ردهم عثمان رضي الله تعالى عنه، فكان مما نقم فيه عليه.

وقال المدائني عن أشياخه: كلن مروان من رجال قريش وكان من قرأ الناس للقرآن وكان يقول: ما أخلت بالقرآن قط، أي لم آت الفواحش والكبائر قط.

وروي: أن النبي صلى الله عليه وسلم قال للحكم: "كأني ببنيه يصعدون منبري ويتزلون".

وكان مروان يكنى أبا القاسم ثم اكتنى أبا عبد الملك.

حدثنا روح بن عبد المؤمن المقرىء حدثنا مسلم بن إبراهيم عن جعفر بن سليمان عن سعيد بن زيد عن عليّ بن الحكم عن أبي الحسن الجزري عن عمرو بن مرة الجهني قال: استأذن الحكم بن أبي العاص على النبي صلى الله عليه وسلم فقال: "ائذنوا له لعنة الله عليه وعلى من يخرج من صلبه إلا المؤمنين وقليل ما هم، يشرفون في الدنيا ويتضعون في الآخرة".

قال المدائني: نزل الحكم في الجاهلية على حاتم طيء فتناوله قوم من رهط أوس بن حارث فغضب حاتم فقال:

الآن إذ مطرت سماؤكم دماً ورفعت رأسك مثل رأس الأصيد

قالوا: وكان مروان يلقب خيط باطل لدقته وطوله، شبه الخيط الأبيض الذي يرى في الشمس، فقال الشاعر، ويقال أنه عبد الرحمن بن الحكم أخوه:

لعمرك ما أدري وإني لسائلٌ حليلة مضروب القفا كيف يصنع

لحى الله قوماً أمروا خيط باطلٍ على الناس يعطي ما يشاء ويمنع

وكان ضرب يوم الدار على قفاه.

وكانت أم آمنة أم مروان وإخوته صفية، ويقال الصعبة، بنت أبي طلحة العبدي، وأمها مارية بنت موهب كندية، وهي الزرقاء التي يعيرون بها فيقال بنو الزرقاء وكان موهب قيناً.

وولى معاوية بن أبي سفيان مروان بن الحكم البحرين وولاه المدينة مرتين؛ وهو الذي كان رمى طلحة بن عبيد الله بالبصرة، فمات من رميته.

وقال أبو مخنف والواقدي في روايتهما: كان مروان بالمدينة حين مات مسلم بن عقبة المري بعد ايقاعه بأهل الحرة، ثم أشخص إلى الشام فلم يزل بها حتى ولي الخلافة بعد معاوية بن يزيد بن معاوية.

وقال المدائني: لم يزل مروان بالمدينة حتى كتب ابن الزبير بعد موت يزيد، وشخوص حصين بن نمير السكوني، إلى ابن مطيع في تسيير بني أمية فسيروه وسيرهم فورد الشأم معاوية بن يزيد قد بويع،؛ وكان مروان لما سيروا اكترى أبعرة وبنوه وأمر أن يحث به وبهم، فقال راجزه:

حرم مروان عليهن النوم إلا قليلاً وتلاهن القوم

حتى يقلن أو يبتن بالدوم

والدوم على مسيرة ليلتين من المدينة؛ وكان عبد الملك بن مروان عليلاً فقال للرسول الذي وكل بإزعاجهم: قل لأبي خبيب: يصنع الله، وفي ذلك يقول أبو قطيفة، واسمه عمروبن الوليد بن عقبة بن أبي معيط وإنما قيل له أبو قطيفة لأنه كثير شعر الرأس ثائرة عظيم اللحية، وكان ممن سيره ابن الزبير إلى الشام.

بكى أحدٌ لما تحمل أهله فكيف بذي وجدٍ من القوم آلف

وقال أيضاً، ويقال غيره:

ألا هل أتاها والحوادث جمةُ بأن قطين الله بعدك سيرا

ولما بنى مروان داره قال له أبو هريرة: ابن شديداً، وأمل بعيداً وعش قليلاً وكل خضماً والموعد الله. وكان مروان إذا سمع الأذان قال مرحباً بالقائلين عدلاً وبالصلاة مرحباً وأهلها؛ ويروي هذا عن معاوية أيضاً.

وأمر مروان عبد الملك حين ولاه فلسطين بتقوى الله، وقال، وقال له: مُر حاجبك أن يخبرك بمن يحضر بابك في كل يوم فتأذن أو تحجب، وآنس من يدخل عليك بالحديث يبسطوا إليك، ولا تعجل بالعقوبة إذا اشكل عليك أمرٌ على العقوبة إذا أردها أقدر منك على ارتجاعها إذا أمضيتها؛ ويقال إنه أوصى بهذه الوصية عبد العزيز حين ولاه مصر، والأول أثبت.

ولما مات معاوية بن يزيد بن معاوية أبو ليلى، علم ابن الزبير أنه لم يبق أحد يضاده فولى الضحاك بن قيس الفهري دمشق، وكان صاغياً إليه وقد كاتبه فبعث إليه وقد كاتبه فبعث إليه بعهده وكتاب إلى من قبله يدعوهم إلى طاعته، وبعث إلى النعمان بعهده على حمص، وكان النعمان مائلاً إليه، وولى ناتل بن قيس بن زيد الجذامي فلسطين وكان لناتل فيه هوى، ويقال: بل كان عنده بمكة فقال له: ألا تكفيني قومك فخرج ناتل حتى أتى فلسطين، وكان إليها ووالي الأردن من قبل يزيد بن معاوية حسان بن مالك بن بحدل، فبقيتا في يده وفيهما عماله فأرسل إليه ناتل: إما أن تخرج من بلاد قومي وإما أن أدخل عليك فأقاتلك فعرف ابن بحدل أنه لا قوة له به وبقومه من جذام،فخرج ابن بحدل إلى الأردن فترل طبرية وبويع لابن الزبير بفلسطين، وضبط له الضحاك بن قيس دمشق، وأخذ له بيعة أهلها وفرق عماله فيها، وأخذ له النعمان بن بشير الأنصاري بيعة أهل حمص فاستقامت لابن الزبير الشام كلها إلا الأردن وهذا الثبت.

ويقال: إن بعض أهل الأردن قد كانوا مائلين إلى ناتل، ومنحرفين عن حسان بن مالك بن بحدل وكانت الزبيرية بالشام تقول: ابن الزبير أولى أهل زمانه بالأمر لأنه ابن حواري رسول الله صلى الله عليه وسلم، والطالب بدم الخليفة المظلوم عثمان، ورجل له شجاعة وسنٌّ وفضل، وولى ابن الزبير مصر عبد الرحمن بن عتبة بن جحدم الفهري فضبطها له، وأظهر حسان بن مالك بن بحدل الدعاء لخالد بن يزيد بن معاوية وعزم عليه فسار في كلب حتى نزل الجابية فاجتمع إليه بها الحصين بن نمير السكوني ومالك ابن هبيرة السكوني، وروح بن زنباع الجذامي وزمل بن عمرو العذري وعبد الله بن مسعدة الفزاري، وعبد الله بن عضاه الأشعري، وأبو كبشة حيويل بن يسار السكسكي، وصار إليه مروان بن الحكم وهو لا يفكر في الخلافة وخالد بن يزيد بن معاوية، وعمرو الأشدق بن سعيد بن العاص وغيرهم من الأمويين ودعا قوماً من أهل البلقاء وأذرعات فأجابوه؛ فقال له ابن عضاه الأشعري: أراك تريد هذا الأمر لخالد بن يزيد، وهو حدث السن فقال ك إنه معدن الملك ومقر السياسة والرئاسة، فأتى ابن عضاه خالداً في جماعة من نظرائه من الوجوه فوجده نائماً متصبحاً، فقال: يا قوم أنجعل نحورنا أغراضاً للأسنة والسهوم بهذا الغلام وهو نائم في هذه الساعة، وإنما صاحب هذا الأمر المجد المشمر الحازم المتيقظ، ثم أتى مروان بن الحكم فألفاه في فسطاط له وإذا درعه إلى جانبه والرمح مركون بفنائه وفرسه مربوط إلى جانب فسطاطه، والمصحف بين يديه وهو يقرأ القرآن، فقال ابن عضاه يا قوم هذا صاحبنا الذي يصلح له الأمر وهو ابن عم عثمان أمير المؤمنين وشيخ قريش وسنها؛ فرجعوا إلى حسان بن مالك فأخبروه بخبر خالد ومروان، وأعلموه أنهم مجمعون على مروان لأنه كبير قريش وشيخها، فقال ابن بحدل: رأيي لرأيكم تبعٌ، إنما كرهت أن تعدل الخلافة إلى ابن الزبير، وتخرج من أهل هذا البيت؛ ثم قام حسان خطيباً فحمد الله وأثنى عليه، ثم ذكر مروان فقال: هو كبير قريش وسنها، وابن عم الخليفة المظلوم والطالب بدمه قبل الناس أجمعين فبايعوه رحمكم الله فهو أولى بميراث عثمان وأحق بالأمر من الملحد ابن الزبير الذي خلع الخلافة وجاهر الله بالمعصية، فسارعوا إلى بيعته وماسحوه ودعوا له والتفت إليه بنو أمية فقالوا: الحمد لله الذي لم يخرجها منا.

وقال مروان أحييت ليلة كلها فلما طلع الفجر صليت الغداة ونمت فجاء عمر حين أصبحت، فقال: ما بال مروان لم يحضر الصلاة؟ فقيل له: أحيى ليلته ونام حين صلى الغداة، فقال: لأن أصليها في جماعة يعني العشاء والغداة أحب إليّ من أن أحيي ما بينهما.

وقال مروان حين ولي: لقد رأيتني عند عمر في فتيةٍ من قريش كلهم يقرب دوني فما زال ايثاري الحق حتى كان يبعثني في مهم أمره، ولو لم يبق من أجلي إلا ظمءُ حمار ثم أخير بين أمرين من الدنيا والآخرة لاخترت الآخرة.

وكان بين مروان وعمرو بن العاص منازعة فقال عمرو: يا بن الزرقاء، فقال مروان: إن كانت زرقاء فقد أنجبت وأدت الشبه إذ لم تؤده النابغة.

المدائني؛ قال: قال مروان. لجيش بن دلجة: إن لأظنك أحمق فقال حبيش: أحمق ما يكون الشيخ إذا أعمل ظنه.

المدائني عن مسلمة، قال: كان لمروان بأرضه بذي غلام يقال له جريج، فقال له يوماً: يا جريج أدرك شيٌ من غلاتنا؟ قال: يوشك أن يدرك، وكأنك بها، فركب مروان إلى أرضه فتلقته أحمالٌ، فقال: من أين هذه؟ قالوا: من ضيعتك بذي خشب، فأتى الأرض فقال: ياجريج إني أظنك خائناً؟ قال: وأنا والله أظنك أيها الأمير عاجزاً اشتريتني وأنا في مدرعة صوف، ثم أنا اليوم موسر قد اتخذت الخدم وابتنيت المنازل والله إني لأخونك، وإنك لتخون أمير المؤمنين، وإن أمير المؤمنين ليخون الله فلعن الله شر الثلاثة.

المدائني، قال: قيل لمروان وهو بمكة إن عمرا الكناني يبيت في دارك فبعث مروان ابن جحش الكناني وأمره أن يحمل كل من يجد في الدار، فسار من مكة إلى المدينة على ناقة له يقال لها الزلوج، وكان يقال إن في ظهرها زيادة فقارتين، فورد ليلاً كل من وجد في الدار من عيال مروان إلى مكة ودخل الدار وهو يقول:

يا أيها الخالفة اللجوج	أخرج فقد حان لك الخروج
أنا ابن جحش وهي الزلوج	كأن فاها قتبٌ معروج

وأتى أعرابي مروان فقال: أفرض لي، فقال: قد طوينا الدفتر وفرغنا قال الأعرابي أما إني الذي أقول:

إذا مدح الكريم يزيداً خيراً	وإن مدح اللئيم فلا يزيد

وقد كان مدح مروان ثم هجاه فقال: أنت هو لا بد لك من فرض ففرض له.

المدائني قال: قال الجارود بن أبي سبرة: دخلت على مروان فإذا رجل أحمر أزرق كأنه من رجال خراسان لو أشاء أن أدخل يدي في علابي عنقه لفعلت، وكان ضرب يوم الدار على قفاه وله وله يقول عبد الرحمن بن الحكم:

والله ما أدري وإني لسائلٌ	حليلة مضروب القفا كيف يصنع
لحى الله قوماً أمروا خيط باطلٍ	على الناس يعطي من يشاء ويمنع

وكان على شرطة مروان يحيى بن قيس الغساني.

المدائني عن أبي مخنف، وعوانة، ومسلمة بن محارب: أن مروان قاتل أهل المرج فظفر بهم وقتل الضحاك، ثم قدم دمشق فبايعه الناس بيعة جديدة فقال بعض الأنصار أو غيرهم:

الله أعطاك التي لا فوقها وقد أراد الملحدون عوقها

عنك ويأبى الله إلا سوقها إليك حتى قلدوك طوقها

ويقال: إن هذا الشعر قيل في عبد الملك قاله كثير بن عبد الرحمن.

قالوا: ودخل زياد الأعجم على مروان بالدينة فقال له يا أبا أمامة أنشدني فقال له: بألف دينار فأنشده:

رأيتك أمس خير بني لؤي وأنت اليوم خيرٌ منك أمس

وأنت غداً تزيد الضعف خيراً كذاك تكون سادة عبد شمس

فأعطاه ألفي دينار؛ ويقال: إنه قال هذا في غير مروان.

قالوا: وكان عبيد الله بن زياد بن أبي سفيان لما أخرجه أهل البصرة بعد موت يزيد بن معاوية قدم دمشق فبلغه خبر ابن بحدل ونزوله الجابية، وكان الضحاك بن قيس الفهري بدمشق، قد بايعه الناس لابن الزبير وتابعوه على أمره، فقال له ابن زياد قد بويع صاحبك واستقامت له النواحي وأنت ها هنا قد حصرت نفسك بدمشق فأخرج فعسكر ناحية يأتيك الناس من كل أوب فإنك كبير قريش والمنظور إليه؛ فخرج الضحاك إلى مرج راهط فعسكر فما هو إلا أن خرج حتى دخلها عمرو بن سعيد الأشدق فأغلقها على نفسه وذلك أنه كانت بلغت عمراً حركة الضحاك، وكتب إليه بها ابن زياد فدنا من دمشق فاستعد لدخولها وأتى ابن زياد مروان وهو بالجابية فقال: إني قد أخرجت الضحاك إلى الصحراء وأدخلتها عمرو بن سعيد.

وقال عوانة بن الحكم: لما مات يزيد بن معاوية، وأخرج عبيد الله بن زياد من البصرة، قدم دمشق وعليها الضحاك بن قيس بن خالد الفهري عاملاً لعبد الله بن الزبير، وقد ثار زفر الحارث الكلابي بقنسرين يبايع لابن الزبير والنعمان بن بشير بحمص على طاعته، وكان حسان بن مالك بن بحدل عاملاً ليزيد بن معاوية على فلسطين، وكان بفلسطين ناتل بن قيس وهو ممالىء لابن الزبير وكان سيد أهل فلسطين فاستخلف حسان روح بن زنباع الجذامي على فلسطين وأتى الأردن فوثب ناتل على روح بن زنباع فأخرجه عن فلسطين، واستولى عليها وبايع لابن الزبير لهواه فيه ن وقد كان ابن الزبير أمر بنفي بني أمية عن المدينة فسيرهم عامله على المدينة إلى الشام وفيهم مروان، وكان الناس فريقين حساني وزبيري فقال عبد الرحمن بن الحكم أخو مروان:

وما الناس إلا بحدليٌّ عن الهوى وإلا زبيري عصى فتزبرا

فقام حسان بالأردن فقال: يا أهل الأردن ما تقولون في عبد الله بن الزبير وقتلى أهل الحرة قالوا: عبد الله منافق وقتلى أهل الحرة في النار، قال: فما تقولون في يزيد بن معاوية ومن قتل بالحرة من أهل الشام؟ قالوا

يزيد في الجنة وقتلانا في الجنة، فقال: لئن كان يزيد يومئذ على حق إن شيعته على حق، ولئن كان ابن الزبير يومئذ على باطل إنه اليوم لعلى باطل، قالوا: صدقت نبايعك على قتال من خالفك وأطاع ابن الزبير على أن تجنبنا هذين الغلامية: خالد بن يزيد، وأخيه عبد الله فإنهما حديثةٌ أسنانهما، ونحن نكره أن يأتي الناس بشيخ ونأتيهم بصبي.

وكان الضحاك بدمشق يبايع الناس لابن الزبير سراً خوفاً من بني أمية وكلب، فكتب إليه ابن بحذل كتاباً يشتم فيه ابن الزبير، ويعظم له حق بني أمية ويذكره إحسانهم إليه واصطناعهم له وبرهم به، وانفذ الكتاب إليه مع رجل يقال له ناعصة من ولد تغلب بن وبرة إخوة كلب، ودفع إليه نسخته وقال: إن لم يظهر الضحاك هذا الكتاب وكتمه فأقرأه أنت على الناس، فأوصل الكتاب إليه فقرأه و لم يظهره فقرأ ناعصة نسخته فقام الوليد بن عتبة بن أبي سفيان فقال: صدق حسان وكذب ابن الزبير وشتمه، وقام يزيد بن أبي النمس، واسم أبي النمس الأسود بن المعد بن شراحيل الغساني، فصدق مقالة حسان وكتابه وشتم ابن الزبير، وقام سفيان بن الأبرد الكلبي فقال مثل ذلك، ثم قام أبو رجاء عمر بن زيد الحكمي فشتم حسان بن مالك وكذبه وأثنى على عبد الله بن الزبير، واضطرب الناس بنعالهم، ثم أمر الضحاك بالوليد بن عتبة ويزيد بن أبي النمس وسفيان فحبسوا، وجال بعض الناس في بعض، ووثب كلب على عمر بن زيد الحكمي، وقام خالد بن يزيد بن معاوية على مرقاتين من المنبر فتكلم وسكن الناس، وجاءت كلب فأخرجت سفيان من الحبس، وجاءت غسان فأخرجت ابن أبي النمس، فقال الوليد بن عتبة: لو كنت من كلب أو غسان أخرجت فجاء خالد بن يزيد، وعبد الله بن يزيد ومعهما أخوالهما من كلب فأخرجوا الوليد؛ فكان أهل الشام يسمون هذا اليوم يوم جيرون، وجيرون موضع بدمشق عند المسجد. قال: وخرج الضحاك بن قيس إلى مسجد دمشق فجلس فيه فوقع في يزيد بن معاوية، فقام إليه شاب من كلب بعصاً فضربه بها والناس جلوس في الحلق وعليهم سيوفهم، إلى بعضهم إلى بعض فاقتتلوا، وقيس تدعوا إلى ابن الزبير ونصرة الضحاك، وكلب تدعو إلى بني أمية وإلى خالد بن يزيد وتتعصب ليزيد بن معاوية؛ قال: ودخل الضحاك دار الإمارة و لم يخرج لصلاة الفجر وبعث إلى بني أمية فاعتذر إليهم، وقال: لم يقم منكم قائم، وكتب إليَّ هذا فولاني وذكر حسن بلائهم عنده،وأنه لا يريد شيئاً يكرهونه، وقال: اكتبوا ونكتب إلى حسان حتى يوافي الجابية ونوافيه فنبايع لرجل منكم الناس وبنو أمية للميعاد، فجاء ثور بن معن بن يزيد السلمي، ويقال معن بن يزيد بن الأخنس نفسه، إلى الضحاك فقال له: عجباً لك دعوتنا إلى طاعة رجل فبايعناك، ثم أنت الآن تسير إلى هذا الأعرابي من كلب ليستخلف ابن اخته خالد بن يزيد وهو صبي غمر قال الضحاك: فما الرأي؟ قال: أن تظهر ما كنا نستره من بيعه ابن الزبير، ونقاتل على

طاعته فعرج الضحاك بمن معه وعطفهم وأقبل حتى نزل مرج راهط، وأظهر بيعه ابن الزبير وخلع بني أمية.

وصار بنو أمية إلى الجابية، ووافى حسان فصلى بهم أربعين ليلة والناس يتشاورون، وكتب الضحاك إلى النعمان بن بشير وهو بحمص وإلى زفر بن الحارث وهو على قنسرين، وإلى ناتل وهو بفلسطين فأمدوه فصار إليه خلق من الخلق بمرج راهط؛ وكانت الأهواء بالجابية مختلفة: حصين بن نمير يهوى أن يولى مروان، ومالك بن هبيرة يهوي أن يولى خالد بن يزيد، فقال مالك بن هبيرة للحصين: هلم نبايع خالد بن يزيد فقد عرفت مترلتنا كانت من أبيه، فقال الحصين: لا والله لا يأتينا الناس بشيخ بصبي، فقال: مالك ويحك إن مروان وآل مروان يحسدونك على سوطك وشراك نعلك، وظل شجرة تستظل بها، ومروان أبو عشرة وأخو عشرة، وعم عشرة وإن بايعتموه منتم عبيداً لهم، ولكن عليكم بابن أختكم خالد فقال: مروان شيخ قريش، والطالب بدم الخليفة المظلوم، وهو يدبرنا ويسوسنا ولا يحتاج إلى أن ندبره ونسوسه، وغيره يحتاج إلى أن يدبر ويساس! وذكر بعضهم عبد الله بن عمر بن الخطاب فقال روح بن زنباع: إنكم تذكرون عبد الله بن عمر وهو كما ذكرتم إلا أنه ضعيف وليس صاحب أمة محمد بالضعيف، وتذكرون ابن الزبير، وهو والله ابن حواري رسول الله وابن أسماء بنت أبي بكر الصديق ذات النطاقين، وهو بعد كما ذكرتم في قدمه ولكنه منافق خلع خليفتين: يزيد بن معاوية، ومعاوية بن يزيد، وسفك الدماء، وشق العصا، وأما مروان فما كان في الإسلام صدع إلا كان ممن شعبه وهو الذي قاتل أمير المؤمنين عثمان يوم الدار، وقاتل عليّ بن أبي طالب يوم الجمل، ورمى طلحة فاستقاد منه لعثمان، أفنبايع الصغير وندع الكبير؟! فتم رأيهم على البيعة لمروان وأجمعوا عليها، ثم لخالد من بعده، ثم لعمرو بن سعيد الأشدق من بعد خالد، فبويع مروان، فلم يقع البيعة لغيره، وسار مروان حتى نزل مرج راهط فصار بازاء الضحاك وحاربه ودعا الناس فاجتمع إليه خلق.

وحدثني عمر بن محمد الناقد والقاسم بن سلام قالا: حدثنا محمد بن يزيد الواسطي عن إسماعيل بن أبي خالد الشعبي عن أيمن بن خريم بن فاتك الأسدي قال: دعاني مروان إلى القتال معه فقال: ألا تخرج فتقاتل معنا؟ قلت: لا لأن أبي وعمي شهدا بدراً مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد عهدا إلي أن لا أقاتل انساناً يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فإن أتيتني ببراءة من النار قاتلت معك، فقال: انطلق لاحاجة لنا بك فقلت:

ولست مقاتلاً رجلاً يصلي   على سلطان آخر من قريش

له سلطانه وعلي إثمي — معاذ الله من سفهٍ وطيش

أأقتل مسلماً في غير ذنبٍ — فليس بنافعي ما عشت عيشي

وحدثني عباس بن هشام الكلبي عن أبيه عن جده قال: سلم على حسان بن مالك بن بحدل أربعين ليلة بالخلافة، ثم سلمها إلى مروان وقال:

فإلا يكن منا الخليفة نفسه — فما نالها إلا ونحن شهود

وقال بعض الكلبيين:

نزلنا لكم عن منبر الملك بعد ما — ظللتم وما إن تستطيعون منبراً

خبر يوم مرج راهط

قال عوانة بن الحكم وغيره: جعل مروان على ميمنته عمرو بن سعيد الأشدق، وعلى ميسرته عبيد الله بن زياد، وجعل الضحاك بن قيس على ميمنته زياد بن عمرو بن معاوية العقيلي، وعلى ميسرته زحر بن أبي شمر الهلالي من أهل حمص، وثار يزيد بن أبي النمس بدمشق، فغلب عليها وأخرج عامل الضحاك منها، وغلب على الخزائن وبيوت الأموال، وبايع بها لمروان، وأمده بالأموال والرجال والسلاح، وأقبل عباد بن زياد من حوارين في ألفين من مواليه وغيرهم،وكان الضحاك في ستين ألفاً، فقاتل مروان الضحاك بالمرج عشرين ليلة، ثم هزم أهل المرج وقتلوا، وقتل من قيس من لم يقتل مثلهم قط وقتل الضحاك، وقتل معه من الأشراف ثمانون كلهم كان يأخذ القطيفة، كان لكل رجل منهم في العطاء ألفان وقطيفة يعطونها مع عطائهم وقتل من أهل الشأم مقتله عظيمة، وقتل ثور بن معن السلمي، وجاء رجل من كلب برأس الضحاك فلما رآه مروان قال: الآن حين كبرت سني، ودق عظمي، وصرت في مثل ظمء الحمار، أقبلت أضرب الكتائب بالكتائب؟! قال الهيثم: و لم يحضر عبد الملك يوم المرج تورعاً.

وقال ابن مقبل:

ياجدع آنف قيس بعد همام — بعد المذبب عن أحسابها الحامي

يعني همام ين قبيصة وكان ممن قتل يوم المرج.

وقال الفرزدق:

ولولا بنو حسان أسياف عزكم — لعاد نصاب الملك في آل هاشم

ولكن أبي مروان أن يقبل التي — يسب أبو العاصي بها في المواسم

ويقال: إنه قال هذا حين بايع مروان لابنيه عبد الملك وعبد العزيز بالعهد.

قال الكلبي: مر رجل يوم المرج فقال:

وما ضرهم غير حين النفو ... س أي رئيسي قريش غلب

ويقال: إن مروان رأى رجلاً يعرفه صريعاً فتمثل بهذا البيت؛ ويقال: إن ابنه عبد العزيز قال له: يا أبه الله الله أن يسمع هذا منك أحد، فقال: صدقت يا بني استرها على أبيك.

وقال المدائني أتي مروان برأس زياد بن عمرو العقيلي، وثور بن معن السلمي، فتمثل بهذا البيت، وهو لأيمن بن خريم الأسدي.

حدثني عباس بن يزيد البصري عن عبد العزيز بن عبد الحميد عن عوانه قال: وفد الوازع بن ذؤالة الكلبي على الحجاج بن يوسف، وكانت عينه أصيبت يوم المرج فقال له الحجاج: ما الشجاعة؟ قال: غرائز يجعلها الله في الناس فقد تجد الرجل شجاعاً لا رأي له، فتلك الشجاعة الضارة لصاحبها لأنها تقدم به في غير حال الأقدام، وتحجم به في غير وقت الإحجام فيهلك ويهلك، وقد تكون الشجاعة نافعة لصاحبها إذا أقدمت به حين الإقدام، وأحجمت به في حين الإحجام، والله أصلح الله الأمير لقد رأيتني يوم مرج راهط وإن همام بن قبيصة النميري لواقف وقد انفض عنه أصحابه، وإنه من شجاعته لواقف لايدري ما يصنع، ولو فر لكان الفرار يمكنه، ولكن حمي أنفاً فحمل عليّ وحملت عليه فبادرته بضربة على عاتقه فأرديته عن دابته، ثم نزلت إليه لأحتز رأسه فتفل في وجهي ثم قال:

ألا يا بن ذات النوف أجهز على أمرىءٍ ... يرى الموت خيراً من فرارٍ وأكرما

ولا تتركني بالحشاشة إنني ... أكر إذا ما الناس مثلك أحجما

فأخذت رأسه وأتيت به مروان، وقلت: هذا رأس همام بن قبيصة، قال: أأنت قتلته؟ قلت: نعم، قال: فهل أعانك عليه أحد؟ قلت: نعم الله وانقضاء مدته، فقال: هو والله كما قال الشاعر:

وفارس هيجا لا يقام لبأسه ... له صولةٌ يزور عنها الفوارس

وشدة ليثٍ ترهب الأسد وقعها ... وتذعر منها العاويات العساعس

جريء على الإقدام ليس بناكلٍ ... ولا يزدهيه الأحوشي المغامس

قالوا: وقال مروان في حربه يوم المرج:

لما رأيت الأمر أمراً صعباً ... يسرت غسان لهم وكلبا

ويروى:

لما رأيت الناس مالوا جبنا ... والسكسكيين الرجال الغلبا

والقين تمشي في الحديد نكبا وطيئاً يأبون إلا ضربا

ومن تنوخ مشمخراً صعبا لا يأخذون الملك إلا غصباً

فإن دنت قيس فقل لا قربا

وقال أبو مخنف: جاء عبيد الله بن زياد، وعبد الرحمن بن عبد الله الثقفي، وهو ابن أم الحكم أخت معاوية إلى مروان، فقال عبد الرحمن: يا مروان إجمع إليك موالي بني أمية فأنا أسلحهم لك أجمعين، وقال عبيد الله بن زياد: وأنا أبذل لك من المال والقوة على عدوك ما شئت، واجتمع رؤوس أهل الشام ينظرون من يولون، فقالوا: مالكم في تولية الأحداث خيرٌ، وهذا مروان شيخ قريش، وسيد بني أمية، وهو ذو رأي وحيلة وتجربة للحرب، فقاموا إلى مروان فبايعوه، ثم بعثوا إلى أهل الأردن فجلبوهم وأقبلوا بهم يسيرون إلى الضحاك، وأصحر الضحاك حتى عسكر بمرج راهط، واستمد عمال ابن الزبير فأمدوه من الأجناد، فبعث مروان على ميمنته الحصين بن نمير السكوني،وعلى مسيرته عبد الرحمن بن أم الحكم، وعلى الخيل حسان بن مالك بحدل، ومالك بن هبيرة بن خالد السكوني، وعلى الرجالة عبيد الله بن زياد، ثم زحف بهم فاقتتلوا أياماً، ثم قتل الضحاك بن قيس.

وقال الكلبي والشرقي بن القطامي: كان الذي قتل الضحاك زحنة بن عبد الله الكلبي، من بني تيم الله رفيدة بن ثور بن كلب بن وبرة، وأخذ رأسه عليم بن رقيم التميمي؛ فقال الشاعر، وهو رويفع البلوي:

ويوم لدى الضحاك حين تألبت علينا العدى من كل شرقٍ ومغرب

حشاه ابن تيمم اللات زحنة ثعلباً طريراً كقبس القابس المتلهب

قالوا: وكانت بيعة مروان بالجابية يوم الأربعاء لثلاث ليال خلون من ذي القعدة سنة أربع وستين؛ ويقال: في رجب سنة أربع وستين؛ وكانت وقعة مرج راهط، ومقتل اضحاك بن قيس الفهري في سنة أربع وستين.

وقال ثمامة بن قيس بن حصن أحد بني العبيد من كلب:

أشهدكم أني لمروان سامعُ مطيعُ وللضحاك عاصٍ مخالف

قالوا: ولما برز مروان إلى المرجع جعل الناس يقولون: أبا أنيس، أعجزاً بعد كيس؟ فقال: نعم قد يكون العجز بعد الكيس.

قالوا: وكانت مع بشر بن مروان يوم المرج راية يقاتل بها وهو يقول:

إن على كل رئيس حقاً أن يخضب الصعدة أو تندقا

ورأى مروان رجلاً من محارب يقاتل في قلة فقال له: لو انضممت إلى الناس فإنك منفرد في قلة، فقال: إن معنا مدداً من السماء، فسر مروان وضحك وأمر قوماً كانوا حوله أن ينضموا إليه، وقال سهم بن حنظلة:

نصر الإله بني أمية إنه — من يعطه سيب الخلافة ينصر

الوارثين محمداً سلطانه — وجواز خاتمه وعود المنبر

لما لقوا الضحاك ضل ضلاله — في يوم موتٍ للجبان محير

حطوا سيوفهم بحبل نخاعه — وفقلن هامته وراء المغفر

ألق السلاح أبا خبيب إنه — عار عليك وخذ وشاحي معصر

لو أدركت زفر الضلالة خيلنا — لتركنه لخوامع ولأنسر

وقال ضبثم الكلبي: وقفت مع عبد العزيز بن مروان ومعي راية قومي فقال:

إقدم بها يا ضبثم — فالموت قدماً أكرم

فإذا رجل بفري الفري، فأقبل حتى فرق جمعنا عن عبد العزيز ثم طعنه فأرداه ثم نجله برمحه وقال: خذها يداً مشكورةً أو مكفورةً، ثم انصرف فسألت عنه فقيل: هذا خالد بن الحصين الكلابي، وقتل خالد يوم المرج قتله بشر بن مروان وعمرو بن سعيد.

وهرب زفر بن الحارث الكلابي إلى قرقيسيا وبها عياض فمنعه من دخولها، فقال له زفر بن الحارث: أوثق لك بالطلاق والعتاق إذا أنا دخلت الحمام بها أن أخرج منها، فأذن له فدخلها فلم يدخل الحمام وأقام بها، وأخرج عياضاً عنها وتحصن بها وثابت إليه قيس، وهذا قول من زعم أن زفر لم يحضر وقعة المرج.

وهرب ناتل بن قيس الجذامي من فلسطين، فلحق بعبد الله بن الزبير بالحجاز.

قال الواقدي: لما رأى قوم ناتل قوة أمر مروان قالوا: إنه لا طاقة لنا بمروان، فالحق بأبن الزبير لتأمن، ونأمن فشخص إلى ابن الزبير.

قال الهيثم عن عوانه: قال عبد الله بن صفوان الجمحي لأبي العباس الأعمى: أخبرني عن مروان، ويوم المرج؟ فقال: لم أسمع بمثله. وإنه لكما قال حصين بن الحمام المري:

ترى الموت لا ينحاش عنه تكرماً — وصبراً وإن كان القيام على الجمر

حفاظاً على ما أورثتنا جدودنا — وصبراً وما في الناس خيرٌ من الصبر

بذلك أوصانا ابن عوفٍ فلم نزل — على ملك نمضي لا نضج من الدهر

فقال: ما أبصرك بأبي عبد الملك وإن قدر الله لابن الزبير شيئاً فهو كائن، وإن أكبر ظني أنه وبنيه سيملكون لأن عثمان ضم عبد الملك إلى صدره وقال: رأيتني وقد أخذت برنسي فوضعته على رأسه، وقد ولده أبو العاص مرتين.

قالوا: وقاتل عبد الله بن معاوية بن أبي سفيان، وأمه فاختة بنت قرظة بن عمرو بن نوفل بن عبد مناف، مع الضحاك يوم المرج، وكان يحمق، فأخذ أسيراً وأتي به عمرو بن سعيد الأشدق فقال له عمرو: يا أبا سليمان نحن نقاتل لنشدد ملككم، وأنت تقاتل لتضعفه؟ فقال له: اسكت يا لطيم الشيطان.

ومن رواية أبي مخنف أيضاً: أنه لما قدم عبيد الله بن زياد من البصرة فترل الشام وجد بني أمية بتدمر قد نفاهم ابن الزبير من مكة والمدينة والحجاز كله، وألفى الضحاك بن قيس أميراً على الشام من قبل عبد الله بن الزبير، ووافى مروان وهو يريد الركوب إلى ابن الزبير ليبايعه بالخلافة،ويأخذ منه الأمان لبني أمية فقال له ابن زياد: أنشدك الله أن تفعل أتنطلق وأنت شيخ قريش إلى أبي خبيب فتبايعه وهو منافق مضطرب الرأي، ولكن ادع أهل تدمر فبايعهم وسر بهم وبمن معك من بني أمية ومواليهم وأتباعهم إلى الضحاك حتى تخرجه من الشام، فقال عمرو بن سعيد: صدق والله عبيد الله، ثم قال عمرو: أنت سيد قريش وفرعها وأنت أحق الناس بهذا الأمر، وإنما ينظر الناس إلى هذا الغلام يعني خالد بن يزيد بن معاوية فتزوج أمه فيكون في حجرك، قال: ففعل مروان ذلك، ووعدها أن يولي ابنها عهده، فتزوج أم خالد، وهي فاختة بنت أبي هاشم بن عتبة بن ربيعة ولقبها حبة، وجمع بني أمية فبايعوه بالإمرة عليهم، وبايعه مواليهم وأتباعهم، وبايعه أهل تدمر، ثم سار في جمع عظيم إلى الضحاك، وهو يومئذ بدمشق، فلما بلغه خروج مروان إليه خرج بمن معه من أهل دمشق وغيرهم، وفيهم زفر بن الحارث، فاقتتلوا بمرج راهط أشد قتال، فقتل الضحاك وعامة أصحابه، وانهزم بقيتهم وتفرقوا، ولحق زفر بقرقيسيا فاجتمعت إليه قيس ورأسوه عليهم فذلك حين يقول زفر بن الحارث:

أريني سلاحي لا أبا لك إنني	أرى الحرب لا تزداد إلا تماديا
أتاني عن مروان بالغيب أنه	مقيد دمي أو قاطع من لسانيا
ففي العيس لي منجي وفي الأرض مهرب	إذا نحن رفعنا لهن المثانيا
فلا تحسبوني إن تغيبت غافلاً	ولاتفرحوا إن جئتكم بلقائيا
فقد ينبت المرعى على دمن الثرى	وتبقى حزازات النفوس كما هيا
أتذهب كلب لم تنلها رماحنا	ونترك قتلى راهطٍ وهي ما هيا

وكان معه رجلان من سليم فلما حاص يوم المرج تركهما ونجا فذلك يقول:

فلم تر مني نبوة قبل هذه ... فراري وتركي صاحبي ورائيا

فأجابه جواس بن القعطل، واسم القعطل ثابت، وهو أحد بني حصن بن ضمضم بن جناب الكلبي فقال:

لعمري لقد أبقت وقيعة راهطٍ ... على زفر داءً من الداء باقيا

يبكي على قتلى سليمٍ وعامرٍ ... وذبيان معذوراً ويبكي البواكيا

دعا بسلاح ثم أحجم إذ رأى ... سيوف جناب والطوال المذاكيا

عليها كأسد الغاب فتيان نجدةٍ ... إذا أشرعوا يوم الطعان العواليا

قال الكلبي: وكان هشام بن عبد الملك في أيامه عزل حنظلة بن صفوان الكلبي عن إفريقية، ولاها عبيدة بن عبد الرحمن السلمي، فأضر بمن هناك من كلب وتعصب عليهم، فقال أبو الخطار الحسام بن ضرار:

أقادت بنو مروان قيساً دماءنا ... وفي الله إن لم تعدلوا حكمٌ عدل

كأنكم لم تشهدوا مرج راهطٍ ... ولم تعلموا من كان ثم له الفضل

وقيناكم ورد القنا بنحورنا ... وليس لكم خيل سوانا ولا رجل

قال الكلبي: وكاد مروان يقتل يوم المرج فاستنقذه محرز بن حزيب بن مسعود أحمد بني هزيم ين عدي بن جناب الكلبي، هو والحراق بن حصين بن غرار أحد بني نوفل بن عدي بن جناب، فرأى جواس بن القعطل من عبد العزيز بن مروان جفوة له وتقديماً للحراق فقال له:

ألا بئس امرىءٍ من ضرب حصنٍ ... أضاع قرابتي وحبا الحراقا

يقال في بني فلان ضرب نساء من فلان؛ وأم عبد العزيز كليبة من بني حصن.

ومحترم على رأيٍ أصيلٍ ... إذا ما شد حازمه النطاقا

أبى لي أن أقر الضيم قوم ... هم راخوا لمروان الخناقا

وإني فاعلمن لذو انصراف ... إذا ما صاحبي رام الفراقا

فإلا تقبل الأمراء عذلي ... ونصحي الغيب لا أهب الشقاقا

قال: وقتل همام بن قبيصة فرثته عميرة بنت عامر الجعونية فقالت:

لقد فجعتني الحادثات بسيدٍ ... كريم نشاه نمير بن عامر

أعز إذا ماشى الرجال علاهم ... بآباء صدقٍ جدهم غير عاثر

هم يردون الموت إذ طاب ورده ببيض خفاف في الأكف بواتر

فإن كان همامٌ أتته منيةٌ فما كان وقافاً غداة التغاور

ولا حائداً عن قرنه إذ تبادرت فوارس قيس بالرماح الشواجر

لقد كر حتى ناله الموت مقدماً وحامة بمسنون الغرارين باتر

فإن تلك كلبٌ أقصدته فربما رمى حي كلب باللدواهي الفواقر

وغادرهم شتى عزين فلولهم على كل عدٍ من مياه قراقر

حدثنا خلف بن سالم المخزومي، حدثنا وهب بن جرير بن حازم عن أبيه عن أشياخهم قالوا: لما مات معاوية بن يزيد بن معاوية و لم يستخلف اجتمع أهل الأردن فبايعوا خالد بن يزيد، وهو يومئذ غلام شاب، وأمه أم هاشم بنت هاشم بن عتبة، وبايع أهل العراق والحجاز ابن الزبير، وأخرج أهل البصرة عبيد الله بن زياد فألحقوه بالشام، وذاك حيث أخرجه مسعود بن عمرو فيمن أخرجه من الأزد حتى أبلغوه الشام، فقدم ابن زياد الأردن على بني أمية وقد بايعوا خالداً فقال: إنكم قد أخطأتم الرأي في بيعة خالد، وقد بايع الناس ابن الزبير وهو ابن حواري رسول الله صلى الله عليه وسلم ورجل له سنٌ وصلاح في دينه وفضل وتبايعون أنتم غلاماً حديث السن ليست له حنكة وتريدون أن تقارعوا به ابن الزبير؟ قالوا: فما ترى؟ قال: أرى أن تبايعوا مروان بن الحكم فإن له سناً وفقهاً وفضلاً، وتشترطون عليه أن يبايع خالد بن يزيد من بعده ففعلوا، وبعث ابن الزبير الضحاك بن قيس الفهري فغلب على دمشق وناحية الشام والجزيرة، فحاربه مروان بمرج راهط فقتله.

حدثني هشام بن عمار قال: ذكروا إن مروان قال عجبت للضحاك يقاتلني، وإنما قتل أباه تيس حبقلي، فأدركوه وما به حيص ولا بيص فقتل هذا عبد الرحمن ابنه فنال سوءة.

وقال مروان لابن زياد: إياك والفرار يا بن زياد فقال ابن زياد:

سيعلم مروان ابن فسوة أنني إذا التقت الخيلان غير حيود

فقال مروان: وأي أمهاتي فسوة إنه لشديد العضيهة، رمتني بدائها وانسلت، وأقبل رجل يريد مروان، فقال: يا بن زياد الرجل فشد عليه ابن زياد فقتله.

وقال حبيب بن كرز: كانت معي راية مروان يوم المرج فدفع بنعل سيفه في ظهري، وقال: ادن بها لا أبا لك فإن هؤلاء لو قد وجدوا ألم الجراح انفرجوا.

المدائني عن مسلمة بن محارب عن أبيه: أن مروان غزا أهل مصر فامتنعوا منه، وتحصنوا فقاتلهم حتى ظهر عليهم، ثم رجع إلى الأردن فخطب أم خالد فدعت ابنها فذكرت له ذلك فنهاها، وقال: والله ما له فيك

حاجة وما يريد إلا فضيحتي والتقصير بي وإسقاط مترلتي في الناس، فأبت إلا أن تزوجه فلما كانت ليلة البناء وأدخلت عليه جلست معه على فراشه، فأخرج إلقبل ينظر إلى سقف البيت ويحدث نفسه و لم يكلمها حتى أصبح في الصلاة وأرسلت إلى صاحب شرطه ألا ترى إلى ما صنع بي صاحبك من الإستخفاف، وقد عصيت الناس فيه فدخل على مروان فذكر له ذلك، فقال: صدقت قد فعلت،إني كنت وأنا شاب مقبلاً على أمر آخرتي، ولا أوثر عليها شيئاً، فلما كبرت سني واقترب أجلي آثرت دنياي على آخرتي، فليس يعرض لي أمران أحدهما للدنيا إلا آثرته، فأتيت بها وأنا في ذلك فشغلني عنها، ثم إن مروان استخف بابنها خالد وأقصاه فدخل عليه يوماً فكلمه في شيء فأغلظ له وتجهمه، فرد عليه خالد، فقال له مروان: أراك تجيبني بابن الرطبة. فقال له: أمين مختبر، وخرج الفتى إلى أمه فأخبرها فقالت: أفعل؟ قال: نعم، قال: فزعم بعض الناس أنها سقته شربة لبن مسموم فقتلته؛ وزعم بعضهم أنها ألقت على وجهه مرفقة حين أخذ مضجعه بعد العشاء الآخرة، ووثبت عليه هي وجواريها فغممته حتى أتين على نفسه ثم صرخن وقالت: مات فجأةً؛ وكان بين بيعته وموته سنة وبايع لابنه عبد الملك، ولعبد العزيز من بعده، ونقض بيعة خالد، ولما ولي عبد الملك ولى أخاه عبد العزيز مصر، فلم يزل عبد العزيز عليها حتى مات بها.

المدائني عن خليد بن عجلان، قال: كان بني طابخة كلبٍ سبعة إخوة جاء كل واحد منهم برأس يضعه فيقول: أنا ابن زرارة، فقال مروان: إن زرارة كان مخبثاً مكثراً فقيل له: أمسك عن هذا وإلا لم يقاتل معك أحد.

قال الواقدي في بعض روايته: كان ابن زياد قال لمروان حين بويع: إني ذاهب إلى الضحاك بن قيس فمبايعه لابن الزبير ومخبره إني قد كرهتكم، فقدم ابن زياد على الضحاك فبايعه فسر بذلك، وجعل ابن زياد يدب في الناس فيفسدهم ويدعوهم إلى مروان، وكان ابن زياد أعطى مروان مالاً عظيماً فأنفقه على جيشه،و لم يزل ابن زياد حتى لطفت الحال بينه وبين الضحاك ووثق به، فقال له: والله العجب لرأيك في بيعتك ابن الزبير وأنت أولى بهذا الأمر منه أنت شيخ قريش اليوم وسيدها فادع الناس إلى بيعتك، فلم يزل به حتى خلع ابن الزبير، ودعا إلى نفسه فاختلف عليه جنده ثم عاد إلى أمره فكتب ابن زياد إلى مروان: إني قد صدعت على الرجل أمره وأفسدته، فأقبل مروان حتى نزل مرج راهط، فأراد الضحاك أن يغلق أبواب مدينة دمشق ويتحصن فيها، فقال ابن زياد: ألا تستحي مما تريد أن تصنع والناس كلهم معك، أخرج إليه فقاتله، وأنا معك فأخرجه، فلما التقوا انصرف ابن زياد إلى مروان بمن كان تابعه فقتل

الضحاك وقتلت قيس معه يومئذ قتلاً ذريعاً، وكانت قيس زبيرية إلا قليلاً منهم كانوا مع مروان، فذلك حيث يقول القائل:

إن تك قتلى راهطٍ قد تنوسيت   فسقيا لأصداءٍ هناك وهام

ودخل مروان دمشق فبايعه أهلها، واستوسقت له الشام والجزيرة وبايعه أهلهما.

حدثني أبو مسعود الكوفي عن عوانة قال: قتل الوازع بن ذؤالة الكلبي همام بن قبيصة، فقال وعتب على بعض الأمراء:

أتنسى الذي أسديته يوم راهطٍ   وقد ضاق عنك المرج والمرج واسع

وأقبل حادي الموت يحدو مشمراً   بفرسان حرب لم ترعها الروائع

عليها قرومٌ من قضاعة سادٌ   لهم شيمٌ محمودةٌ ودسائع

إذا لقحت حربٌ مرتها سيوفهم   وأيدٍ طوالُ لم تخنها الأشاجع

يرون ورود الموت حقاً عليهم   إذا حاد عن ورد المنايا المخادع

فكم من كريم قد تركنا ملحباً   وآخر قد سدت عليه المطالع

قال: ورثت هماماً عميرة الجعونية فقالت:

لعمري لقد قرت عيون كثيرة   بمصرع همام وما كان مدبرا

لقد صادفت منه المنايا مجرباً   صبوراً على دفع الصوارم قسورا

أبيت فلم تلحق بعرضك سبةٌ   وغامرت في وردٍ من الموت أحمرا

مقتل النعمان بن بشير

ابن سعد بن ثعلبة من بني الحارث بن الخزرج

قالوا:لما بلغ النعمان بن بشير الأنصاري رضي الله تعالى عنه الهزيمة يوم مرج راهط، ومقتل الضحاك بن قيس الفهري، وهو على حمص من قبل ابن الزبير خرج ليلاً هارباً منها يريد المدينة، ومعه امرأته نائلة بنت عمارة الكلبي، ومعه ثقله وولده فتحير ليلته كلها، وأصبح أهل حمص فطلبوه وكان الذي جد في طلبه رجل من الكلاعيين يقال له عمرة بن الخلي قد كان النعمان حده في الخمر ومعه غوغاء أهل حمص،فلحقه فقتله، فأقبل برأسه وبنائلة امرأته وولدها فألقى الرأس في حجر أم أبان بنت النعمان بن بشير، وهي التي كانت عند الحجاج بن يوسف بعد فقالت نائلة امرأة النعمان: ألقوا الرأس إلي فإني أحق

به فألقي الرأس في حجرها، ثم أقبلوا بهم إلى حمص فجاء من بحمص من كلب فأخذوا نائلة وولدها وبعثوا بثقله إلى المدينة، ويقال: انهم بعثوا بولده وامرأته نائلة إلى المدينة.

وكان النعمان رضي الله تعالى عنه أول مولود في الإسلام من الأنصار بالمدينة.

وقال الضحاك بن فيروز بن الديملي من أبناء اليمن:

أصحوت أم سلبت فؤادك دوسر ... أم أنت عن أبيات دوسر أزور

زعموا بأن أخا التفضل والندى ... قتلته غدراً إذ تعاوت حمير

غدروا بنعمان بن سعدٍ غدرةً ... ولرأس حمير مثلها أو أكثر

في أبيات.

وقال عبد الرحمن بن الحكم:

إن يمكن الله من خاءٍ ومن حكمٍ ... ومن جذام نقتل صاحب الحرم

نفري جماجم أقوامٍ على حنقٍ ... فرياً ينكل عنا سائر الأمم

وقال عمرو بن مخلى الكلبي:

رددنا لمروان الخلافة بعدما ... جرى للزبيريين كل بريد

وقال أيضاً:

أصابت رماح القوم بشراً وثابتاً ... وثوراً وكل للعشيرة فاجع

وأدرك هماماً بأبيض صارمٍ ... فتى من بني عمروٍ وصبورٌ مدافع

فأجابه زفر:

فخرت اين مخلاة الحمار بمشهدً ... علاك به بالمرج من قد تدافع

علاك به قومٌ كأنك بينهم ... إذا الحرب شبت ثعلبٌ متضالع

وقال ابن طرامة الكلبي:

وبادية الجواعرِ من نمير ... وتنادي وهي حاسرة النقاب

قتلنا منكم ألفين صبراً ... وألفاً بالتلاع وبالراوبي

فتح مروان نصر

قالوا: وخرج مروان بعدما اجتمع له أمر الناس بالشام إلى مصر وذلك في جمادى سنة خمس وستين، واستخف ابنه عبد الملك على دمشق، وكان والي مصر من قبل ابن الزبير عبد الرحمن بن عتبة بن أبي إياس بن الحارث بن عبد أسد بن جحدم بن عمرو بن عابس بن ظرب بن الحارث بن بن فهر، فوجه ابن جحدم إلى مروان ثلاثة آلاف فارس عليهم السائب بن هشام بن عمرو بن ربيعة العامري، وكان مروان لما مر بفلسطين أشار عليه روح بن زنباع بأخذ ابنين له كانا هناك، ويقال: إنهما كانا برفح فكانا رهينةً عنده، وقال قوم: إن الغلامين كانا ابني جحدم، فلما لقي السائب مروان بجمعه دون الفسطاط أمر أن يوقف الغلامان بين الخيلين ويقال له: يقول لك أمير المؤمنين: قد ترى هذين الغلامين، والذي نفسي بيده لتصرفن خيلك إلى الفسطاط أو لأضر بن أعناقهما ولأرمين إليك برؤوسهما فانصرف السائب راجعاً إلى الفسطاط، فغضب ابن جحدم فقال كريب بن أبرهة الحميري: إنه لم يبتل بمثل ما ابتلى به السائب أحد إلا فعل مثل فعله فرضي، ووجه مروان عمرو بن سعيد العاص الأشدق إلى ابن جحدم في أربعة آلاف، فأخرج إليه ابن جحدم خيلاً فاقتتلوا فهزم المصريون وصالح ابن جحدم مروان على أن يخلي مصر ويلحق بمأمنه، فلحق بابن الزبير وصارت مصر في يد مروان، وكان الذي سفر بين ابن جحدم وعمرو بن سعيد كريب بن أبرهة بن الصباح الحميري.

وقال الكلبي: قتل عبد الرحمن بن عتبة بن أبي إياس بن جحدم.

قال جرير:

هلا سألت بهم مصر التي نكثت ... وراهطاً يوم يحمي الراية البهم

ودخل مروان الفسطاط حتى فتحت مصر، وولى عقبة بن نافع الفهري حربها وصلاتها وجباياتها، فلم يزل واليها حتى مات مروان، فولاها عبد الملك أخاه عبد العزيز، وكان مروان أوصاه بتوليته إياها عند مصير الأمر إليه فيما يقال، وولى مروان عبد الملك فلسطين حين صار إلى دمشق.

قالوا: ولما أقبل راجعاً يريد دمشق بلغة أن عبد الله بن الزبير قد بعث أخاه مصعباً نحو فلسطين حين بلغه خبر ناتل وإقباله إليه هارباً، فوجه إليه عمرو بن سعيد في جيش لهامٍ، فلقيه عمرو قبل أن يدخل إلى الشام، فقاتله عمرو فهزم أصحابه، فرجع إلى الحجاز ورجع عمرو سعيد إلى مروان.

المدائني عن مسلمة وغيره: أن مروان ولى عبد الملك فلسطين، وجعل روح بن زنباع خليفة لعبد الملك عليها، وشخص مروان يريد دمشق، فلما كان بالصنبرة من عمل الأردن بلغه أن مالك بن هبيرة السكوني يقول: شرط لي مروان بالمرج أن يجعل لي ولقومي مورة البلقاء، وكان عمرو يقول: الأمر لي بعد مروان،

وذلك أن مروان كان يعده ذلك ليستنزل به طاعته ونصيحته، وكان خالد بن يزيد بن معاوية يقول: الأمر لي بعد مروان، فقال مروان لحسان بن مالك بن بحدل: إن قوماً يزعمون أني اشترطت لهم شروطاً ووعدهم عداتٍ منهم: عطارة مكحلة مخضبة، يعني مالك بن هبيرة فقال مالك: هذا و لم تفتح تهامة و لم يبلغ الحزام الطبيين، فقال مروان: يا أبا سليمان إنما داعبناك، ومنهم عمرو بن سعيد يزعم أني جعلت له الخلافة ويطمع نفسه فيها، ومنهم خالد بن يزيد، وقال إني أريد البيعة لعبد الملك ولعبد العزيز من بعده بالعهد فقال حسان: أنا أكفيك هذا الأمر، فلما اجتمع الناس عند مروان قام ابن بحدل فقال:إنه يبلغنا أن رجالاً يتمنون أماني ويدعون أباطيل، فقوموا فبايعوا لعبد الملك ابن أمير المؤمنين بالعهد، ولعبد العزيز من بعده، فقام الناس فبايعوا مسارعين من عند آخرهم. وكان مروان قال لحسان بن مالك بن بحدل:بلغني أنك تقول: إني اشترطت على مروان أن يولي خالد بن يزيد الخلافة بعده، فحداه ذلك على الجد في بيعة ابنيه ليكذب ما أبلغ مروان عنه، ولقي عمرو بن سعيد حسان بن مالك فقال: ما أسرع ما خرت! فقال: اسكت يا لطيم الشيطان، ثم إن مروان عقد لعبيد الله بن زياد بدمشق ووجهه إلى الجزيرة والعراق فقتل بالموصل، يقتله إبراهيم بن الأشتر، وسنذكر خبره فيما يستقبل إن شاء الله.

وقال الهيثم بن عدي: خرج مروان إلى مصر فقتل حمام بن أكدر اللخمي، وهلال بن عمرو، وفتحها ثم انصرف، فلما كان بالأردن بايع لعبد الملك وعبد العزيز، وخلع خالد بن يزيد، وعمرو بن سعيد.

خبر يوم الربذة

قالوا: ووجه مروان جيشاً من فلسطين أو غيرها مع حبيش بن دلجة القيني أحد بني وائل بن جشم إلى ابن الزبير، في ستة آلاف وأربعمائة فيهم يوسف بن الحكم الثقفي ومعه ابنه الحجاج بن يوسف، وكانوا يتنزلون على الناس ولا يعطون أحداً لشيء ثمناً، فلما صاروا إلى وادي القري هرب عامل عبد الله بن الزبير منها فوضعوا على أهلها ضريبة أدوها إليهم، ونزلوا بذي المروة فلقي أهلها منهم عنتاً.

وبلغ أهل المدينة خبر جيش حبيش بن لجة، فتغيب بشر من الصالحين، وقيل لسعيد بن المسيب: لو تغيبت أو أتيت البادية، فقال فأين فضل الجماعة، والله لا رآني الله والناس أخوف عندي منه، وهرب عامل ابن الزبير وهو المنذر، ويقال: عبيدة بن الزبير، ويقال: جابر بن الأسود بن عوف، وكان عبد الله بن الزبير لما بلغته حركة هذا الجيش حين أنفذ، كتب إلى الحارث بن عبد الله بن أبي ربيعة، والحارث هو القباع، وكان عامله على البصرة يأمره أن يوجه إليه جيشاً كثيفاً، وكتب إلى ابن مطيع وهو عامله على الكوفة بمثل ذلك، فوجه الحارث الحنتف بن السجف التميمي، ثم أحد بني العجيف بن ربيع بن مالك بن حنظلة في ثلاثة آلاف ويقال في ألفين، ووجه ابن مطيع محمد بن الأشعث بن قيس في ألفين من أهل الكوفة،

ووجه ابن الزبير من مكة مسروقاً النصري، وقدم جيش دلجة فعسكر بالجرف، وكان مروان أمره أن لا يعرض لأهل المدينة،وأن لايكون صمده وقصده إلا لمن يوجهه ابن الزبير للمحاربة، فالتقى النصري وحبيش بالمنبجس، فاقتتلوا قتالاً شديداً،وكان أول الوقعة لابن الزبير ثم صارت الدولة لحبيش وأهل الشام، فقتلوا من أصحب النصري خلقا، وهزموهم، فأمر ابن دلجة بدفن من قتل من أصحابه وبقي أصحاب النصري بالعراء تأكلهم السباع والطير، وقدم محمد بن الأشعث بن قيس، فلما بلغه خبر الوقعة تداخله وأصحابه رعب وهيبة، فانكفأ منصرفاً إلى الكوفة، وكتب ابن الزبير إلى ابن مطيع بتولية محمد بن الأشعث الموصل إذا وافاه، وقد روي: أن محمداً كان بالموصل وإليها وأن القادم بالجيش والمنصرف عن حبيش عبد الرحمن بن محمد الأشعث، والله أعلم.

قالوا: ودخل حبيش المدينة، فترل دار مروان وخطب على منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: يا أهل المدينة نفاقكم قديم بقول الله:"لئن لم ينته المنافقوان والذين في قلوبهم مرض والمرجفون في المدينة لنغرينك بهم ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلاً" كيف رأيتم صنع الله بكم، والله لا يتكلم أحد منكم بكلمة إلا ضربته بسيفي هذا.

قال الهيثم بن عدي: كان حبيش بن دلجة يأكل التمر على منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ويحذف أهل المدينة بالنوى، ويقول إني لأعلم أنه ليس بأكل تمر، ولكنني أحببت أن أعلمكم هوانكم علي، وقيل له: إن بها الأنصار ولهم بك قرابة فقال: إنهم خذلوا أمير المؤمنين عثمان.

وبلغ حبيشاً قرب الحنتف بن السجف، فأشير عليه أن يتلقاه ولا يمهله حتى يصير إلى المدينة فيعينه أهلها ومن حولها، ويأتيه مدد عبد الله بن الزبير، فجمع حبيش أصحابه وقواهم بالسلاح والعدة، وسار ليلقي الحنتف فيحاربه دون يثرب، فسار في أربعة آلاف من أصحابه،وخلف بالمدينة سائر من معه وولى أمرهم رجلاً من أهل الشام يقال له ثعلبة، وخرج معه من أهل المدينة يزيد بن يزيد أخو السائب بن يزيد الذي يعرف بابن أخت النمر، وهو كندي حليف في قريش، وذكوان مولى مروان، وكعب مولى سعيد بن العاص، وعبيد الله بن إياس بن أبي فاطمة في آخرين، فلما انتهى إلى الربذة وجد الحنتف قد وردها قبله بيوم، فجعل حبيش يدعو إلى طاعة مروان، والحنتف يدعوا إلى طاعة عبد الله بن الزبير، ثم إنهما التقيا في وقت الظهر، وكان الحنتف ألف فارس فد أكمنهم في غيابه من الأرض، أي هبطة، وعليهم رجل من قومه يقال له رباح، فاقتتل البصريون والشاميون ساعة والشاميون ظاهرون، ثم إن كمين الحنتف خرج عليهم، فلم يشعروا إلا وهم من ورائهم فانهزم أصحاب حبيش في كل وجه وقتل حبيش بن دلجة عند حوافر الخيل وتقطع أصحابه، ويقال:إن أصحاب حبيش كروا بعد الهزيمة، وثابوا فنادي رجل من

أصحاب الحنتف: هل من مبارز فبارزه رجل من الشامين، فلم يلبث أن قتله البصري وأخذ همياناً معه وجرده فأغضب ذلك حبيشاَ فقال: هل من مبارز، فبارزه الرجل الذي قتل الشامي وأخذ هميانه، فضرب حبيشاً ضربة أثخنته، ثم ثنى بأخرى فقتله، وانهزم الشاميون فقتلوا قتلاً ذريعاً، وأسر منهم خمسمائة ويقال أكثر، وهرب منهم ثلاثمائة فأتوا المدينة فاستخفوا بها، ثم قدر عليهم فخلطوا بالأسرى، وهرب يوسف بن الحكم وقد أردف الحجاج ابنه خلفه، فلم يعرج دون نخل، فكان الحجاج يقول: ما أقبح الهزيمة، لقد كنت ورجل آخر يعني أباه في جيش حبيش بن دلجة فانهزمنا فركضنا ثلاثين ميلاً حتى قام الفرس، وإنه ليخيل إلينا أن رماح القوم في أكتافنا.

قالوا: و لم يقتل رجل من أصحاب ابن دلجة إلا كان أقل ما وجد معه مائة دينار.

وقال توسعة من بن تيم الله بن ثعلبة بن عكابة:

ونجى يوسف الثقفي ركض	دراك بعد ما سقط اللواء
ولو أدركته لقضين نحبا	به ولكل مخطأةٍ وقاء

يريد لكل نفس مخطأة، وكان مع يوسف لواء، ويقال: أراد أنه حين قتل حبيش سقط لواء القوم عند الهزيمة.

قالوا: وقدم الحنتف بن السجف بالأساري إلى المدينة، فتطلع أحل المدينة إلى قدومه وتلقوه واستبشروا به وجعل قوم يقولون: ليس هو الحنتف إنما هو الحتف، وهرب ثعلبة حليفة حبيش، ويقال طرده أهل المدينة، ويقال إن قوماً من أهل المدينة وثبوا به فقتل والله أعلم، وبعث عبد الله بن الزبيرأخاه مصعباً لقتل الأسارى لاغير، وقوم يقولون: ولاه المدينة، فلما قدم المدينة قتل أولئك الأسارى، ثم انصرف إلى مكة، وكان جميع من قتل ثمانمائة أسير، وكان قتله إياهم بالحرة في مصارع ابن الغسيل وأصحابه،وجعل مصعب لمن جاء بيوسف بن الحكم وابنه أو أحدهما جعلا فلم يقدر عليهما، وكان يزيد بن يزيد أخو السائب بن يزيد في الأسارى، فدعا به مصعب أول الأسارى فقال: أي عدو الله ألست الذي صنعت بالحرة ما صنعت، فلم ترضى بذلك حتى عدت الثانية مع ابن دلجة، ألدين طلبت ذلك أم لدينا، إنك لصفر منهما، وأمر به فقتل في الموضع الذي قتل فيه مسلم بن عقبة أسراء الحرة، فكان السائب أخوه يقول: لقد مر بنا صياح من صاح بنا من النساء والصبيان بالشماتة والفرح بمقتل يزيد ما كان أشد علينا من قتله، وقييل لسعيد بن المسيب ألا تعزي السائب عن أخيه؟فقال: لا رحمة الله، والله إني لأحسب السائب قد سر بقتله، وأخذ في المعركة يوم الربذة ذكوان مولى مروان، وكعب مولى سعيد بن العاص وابن أبي فاطمة،

فقال مصعب،السيف أروح لهم، فضربهم بالسياط ضرباً شديداً.
وقال الواقدي: جعلت المرأة من أهل المدينة تأتي الحنتف فتقبل رأسه وتقول شفيت النفوس وثأرت لنا بقتلى أهل الحرة، وكان انصراف الحنتف إلى البصرة مع مصعب حين ولاه إياها أخوه عبد الله بعد أيام الربذة، ويقال: إن ابن الزبير أمره أن ينفذ إلى الشام فيغير على أطرافه، فمات بوادي القرى وأهل المدينة يقولون: أمر ابن الزبير حنتفاً أن يقيم بالمدينة ليعاضد عامله فلم يزل مقيماً حتى وجه عبد الملك طارقاً مولى عثمان إلى وادي القرى فلقيه الحنتف بموضع يقال له شبكة الدوم فقتله طارق، وقال بعضهم: واقعه بوادي القرى والله أعلم.
قالوا: وخطب المصعب بالمدينة فقال: ياأهل المدينة أحمدوا الله على ما أبلاكم وأولادكم من نفي عدوكم عن ساحة بلادكم واتقوا الله واسمعوا وأطيعوا فقد غضبنا لما انتهك من حرمتكم حتى أقادكم الله من عدوكم، فأعينوا رحمكم الله ولاتكم، وليبلغ أمير المؤمنين أصلحه الله ما يحب عنكم، وأقام بالمدينة خمسة أيام ثم رجع إلى مكة، وشخص معه الحنتف ثم ولاه أخوه العراق، فشخص إلى البصرة وولى عبد الله بن الزبير المدينة عبد الله بن عبيد الله بن أبي ثور حليف بني عبد مناف، وهو الذي خطب ذات يوم فقال: اتقوا الله وخافوه فإن عقابه شديد، وقد علمتم ما صنع بالقوم الذين عقروا ناقته، وإنما قيمتها خمسمائة درهم فسمي مقوم الناقة.
وقال الهيثم بن عدي وغيره: وجه مروان عبيد الله بن الحكم أخاه مع حبيش، وقال: إن حدث بحبيش حدث فأنت على الجيش، فقتله الحنتف يوم الربذة في المعركة.
حدثني أحمد بن إبراهيم الدورقي، وأبو خيثمة زهير بن حرب قالا: حدثنا وهب بن جرير بن حازم عن ابن جعدبة عن صالح بن كيسان قال:بعث ابن الزبير جيشاً فلقي ابن دلجة بوادي القرى فهزمه ابن دلجة، وقدم الحنتف بن السجف في ثمانمائة، وابن دلجة في أربعة آلاف، فاقتتلوا بالربذة فقتل حبيش وعامة أصحابه، ولحق باقوهم بالشام.

وقال أبو مخنف في بعض رواياته: انتهى ابن دلجة إلى المدينة، وعليها جابر بن الأسود بن عوف الزهري، فهرب جابر، ولما سمع ابن دلجة بمسير الحنتف إليه سار من المدينة نحوه ووجه عبد الله بن الزبير عباس بن سهل بن سعد الساعدي إلى المدينة وأمره أن يسير في طلب ابن دلجة ويحاربه إلى قدوم الحنتف وأهل البصرة، فأسرع في إثره وهو متوجه نحو الربذة، لأنه أشير على ابن دلجة بأن يتلقى الحنتف ولا يواقعه بالمدينة، فلحقه بالربذة وقد وافى الحنتف وأهل البصرة، وكان بعض أصحاب ابن دلجة قال له: لا تعجل إلى قتال أهل البصرة، فقال: لا والله لا أنزل حتى أشرب منقندهم يعني سويقهم، فاقتتلوا فجاء ابن دلجة

سهم غربٍ فقتله، وقتل المنذر بن قيس الجذامي، وتحرز من الشامين في عمود الربذة نحو من خمسمائة، فحصرهم عباس بن سهل والحنتف، فعرض عليهم الحنتف أن يترلوا على حكمه فلم يفعلوا، فقال لهم عباس: انزلوا حكمي، وكانوا له أرجى منهم للحنتف للأنصارية وأنه يماني الأصل، فترلوا فضربت أعناقهم ورجع الفل إلى الشام.

وحدثني زهير بن حرب، وخلف بن سالم، وأحمد بن إبراهيم الدورقي قالوا: حدثنا وهب بن جرير حدثنا جويرية بن أسماء قال: سمعت المدنيين تحدثوا قالوا: لما رجع حصين بن نمير واستوسقت البلاد كلها بن الزبير والشام أيضاً غير طبرية مدينة الأردن، بلغ عمرو بن سعيد أن الضحاك بن قيس وهو عامل ابن الزبير ليس بمناصح له، فقال لمروان:ما يمنعك من طلب الخلافة وأنت شيخ قريش وكبيرها وسيدها، وأحق بهذا الأمر من غيرك فقال مروان: ليست لي بالضحاك طاقة، قال: بلى إن شئت نكحت أم خالد بن يزيد فيصير موالي معاوية وأتباعهم معك، قال فدونك فأتاها عمرو بن سعيد، فقال لها: أما تريدين أن يرجع ملك أهل بيتك؟ فقالت: بلى، قال: فما الذي يمنعك من شيخ قريش وسيدها فلم يزل بها حتى فعلت؛ فقوي أمر مروان، واشتد عليه الضحاك في البيعة لابن الزبير فقال اخرج إلى المرج حتى اشترط عليك رؤوس الناس أشياء ثم أبايعك، وقد كان مروان أراد أن يبايع لابن الزبير قبل ذلك،فاتعدوا المرج على أن يغدوا إليه فقال مروان لعمرو: اركب فرسك الفلاني وكان ذلك الفرس خبيث الخلق لا يمشي إلا معترضاً ويكدم كل دابة تكون إلى جانبه ثم سر بيني وبين الضحاك فإني سأتأذى بك وبفرسك فآمرك أنترجع فتركب غيره، فإذا رجعت فأغلق أبواب المدينة عليك،وخل بيني وبين العبد حتى يحكم الله ثم بيني وبينه، وخرج مروان وعمرو والضحاك فما جاوز المدينة جعل فرس عمرو يكدم ويعترض ولا يستقيم فقال له مروان: ما هذا الشيطان تحتك؟ ارجع فاركب غيره، فرجع، وكان محبباً في أهل الشام،فأغلق عليه أبواب دمشق، ومضى مروان وصاحبه وجعل الضحاك يقول ساعة بعد ساعة: يا مروان أين عمرو؟

فيقول:يلحقنا حتى نزل المرج،فقال: هلم حتى يلتئم الناس،ويترلوا، فأمر الضحاك بمنبره فنصب وانخزل مروان فانضمت إليه كلب وسائر السفيانية وقد واطأهم، وبعث إلى الضحاك: مالك ولهذا الأمر لا أم لك، وأنت رجل من محارب بن فهر،وإنما هذا الأمر في بني عبد مناف، وأنت وإن أظهرت الدعاء لابن الزبير، فإنه رجل من بني أسد بن عبد العزى، فتزاحفوا بالمرج، ومع مروان أهل اليمن، ومع الضحاك قيس، فاقتتلوا فقتل الضحاك وهزمت قيس؛ وفي ذلك يقول زفر بن الحارث:

لعمري لقد أبقت وقيعة راهطٍ ... لدى المرج صدعاً بيننا متباينا

ووجه مروان حبيش بن دلجة في جيش إلى ابن الزبير، وبلغ ابن الزبير أنه قد يسر له جيش، فكتب إلى عامله على البصرة في توجيه جيش إليه، فوجه الحنتف التميمي، فقيل لحبيش: قاتله قبل دخوله المدينة، فلقيه بالربذة فقتله الحنتف وقتل الشاميين.

وحدثني أبو خيثمة وأحمد بن إبراهيم عن وهب بن جرير عن جويرية قال: بلغني أن زفر بن الحارث قال ذات يوم: أي المصائب أشد؟ فقال بعض القوم: المصيبة بالولد، وقال بعضهم المصيبة بالولد، وقال بعضهم: المصيبة بالأخ، فقال زفر: ما مصيبة أشد من مصيبة في مال، لقد رأيتني عشية راهط وانهزمنا ومعي بنون لي أربعة، وليي مع الأكبر مائتا دينار وعطفت علينا الخيل، فقلت للأكبر حين غشيتنا الخيل: ادفع النفقة التي معك إلى أخيك فلان ورد عنا الخيل، فدفع الدنانير إلى أخيه وقاتل حتى أصيب، ثم لحقنا الخيل، فقلت: يا فلان ادفع النفقة إلى أخيك فلان ورد عنا الخيل، فما زلت أقول هذا القوم حتى أصيب الثلاثة، ثم قلت للرابع: ادفع النفقة إلى فلان مولانا ورد عنا الخيل، ففعل وقاتل حتى قتل، وقتل مولانا، فما وجدت على أحد من ولدي كما وجدت على مولاي في ذلك المكان نفقتي.
واجتمع أهل الشام لمروان فعاش ثمانية أشهر ثم هلك؛ فبلغني أنه كان بينه وبين خالد كلام فقال له مروان: يا بن الرطبة فقال خالد: والله لئن كان أؤتمن فما أدى الأمانة ولا أحسن، ودخل على أمه فقال لها ما صنعت بي، قال لي مروان على رؤوس الناس كذا، فقالت: أما والله لا تسمع منه شيئاً تكرهه أبداً فسقته شراباً فيما يزعمون مسموماً فلم يزل يضطرب حتى مات.
قال جويرية: وبلغني أن مروان قد كان بايع لعبد الملك ولعبد العزيز من بعده، واشترط على عبد الملك أن مصر لعبد العزيز حياته ليس لعبد الملك أن يعزله.
وحدثني هشام بن عمار الدمشقي قال: أقصى مروان خالد بن يزيد بن معاوية وجفاه فدخل عليه يوماً وهو يتمثل:

وما الناس بالناس الذين عهدتهم　　　وما الدار بالدار التي كنت تعرف

فشمته مروان وقال: ما الذي تنكر وتعرف يا بن الرطبة؟ وأخبر أمه بذلك فقتله غماً.
المدائني عن مسلمة بن محارب، وعامر بن حفص عن عبد الحميد، أن ناتل بن قيس الجذامي كان من شيعة ابن الزبير فلما مات الحنتف بوادي القرى، أو قتل، وقد وجهة ابن الزبير إليها وأمرهأن يصير منها إلى نواحي الشام، ويقال: بل أمره أن يكون مسلحة بها، بعث ناتلاً لما بعث الحنتف فدخل الشام فلقيه عبد الملك بأجنادين فحاربه فقتل ناتلاً، وكان مع ناتل قوم من الرماة وكانت سهامهم تكاد تصل إلى

عبد الملك بن مروان، ثم إن عبد الملك مضى إلى بطنان حبيب وهو يريد الجزيرة والعراق، فلم ينفذ في مرته ورجع إلىدمشق لمحاربة عمرو بن سعيدحي أغلقها على نفسه؛ فقال الشاعر وهو من كلب:

قلنا بأجنادين يا قوم ناتلاً قصاصاً بما لاقى حبيش بني القين

وقال أيضاً:

بشر بني القين وخص وائلا أنا أبأنا بحبيشٍ ناتلا
غداة نقريه القنا الذوابلا حتى أذقناه حماماً عاجلا

وقال هشام بن محمد الكلبي: كانت ولاية مروان بن الحكم سنة وشهرين، وقال غيره: سنة إلا شهرين، وقال بعضهم: سنة؛ وقال الكلبي: كان سبب وفاته أنه تزوج أم هاشم بنت أبي هاشم بن عتبة بن معاوية فيما وعده من ولاية العهد ودخل عليه خالد على مرحلة من دمشق، فقال له: ما أدخلك عليّ في هذا الوقت يا بن الرطبة؟ فقال خالد: أمين مختبر أبعدها الله واسحقها، وأتى أمه فأخبرها بما قال له مروان، فقالت له: لن تسمع منه مثلها أبداً، ودخل مروان على أم خالد فتركته حتى نام ثم عمدت إلى مرفقة محشوة ريشاً فجعلتها على وجهه وجلست وجواريها عليها حتى مات غماً، ثم صرخت وجواريها وولولن وقلن مات أمير المؤمنين فجأة.

وقال عوانة: كان اللبن يعجبه فجاءته بلبن مسموم فقال ائتوني به إذا أفطرت، فلما أفطر أتوه به فاعتقل لسانه فصرخت وجواريها وأقبل يشير إلى من اجتمع إليه من ولده وغيرهم إنها قتلتني، وجعلت تقول: أما ترونه يوصيكم بي ويشير إليكم بحفظي.

وقال الهيثم بن عدي: أخبرني عبد الله بن عياش الهمداني وغيره قالوا: مات مروان في سنة خمس وستين في شهر رمضان وله ثلاث وستون سنة، وصلى عليه ابنه عبد الملك.

وقال المدائني: صلى عليه عبد الرحمن بن أم الحكم وكان خليفته بدمشق.

وقال الواقدي: قبض النبي صلى الله عليه وسلم ومروان ابن ثماني سنين، ومات بدمشق سنة خمس وستين، وهو ابن ثلاث وستين سنة، ودفن بمقبرة الباب الصغير وصلى عليه عبد الملك ابنه وكان حاضره.

وقد روى مروان عن عمر، وعن عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنهما، وفي مروان يقول الراجز:

مروان نبع وسعيد خروع مروان يعطي وسعيد يمنع

يعني سعيد بن العاص بن سعيد.

وولد الحكم بن أبي العاص

سوى مروان عثمان الأزرق وهو أكبر ولده، وعبد الرحمن،والحارث، وصالح بن الحكم، وأم البنين، وزينب، أمهم آمنة بنت علقمة الكنانية، وهي أم مروان، وأم صفية بنت أبي طلحة من بني عبد الدار، وأمها مارية بنت موهب الكندي وهي الزرقاء التي يعيرون بها؛وعثمان الأصغر، ويحيى ولاه عبد الملك المدينة، وأبان، وعمر، وحبيباً، وأم يحيى، وأم سلمة، وأم عثمان، أمهم مليكة بنت أوفى بن الحارث بن عوف المرية، وأمها من بني عوف بن أبي حارثة المري وأمها مليكة بنت قيس بن زحل بن ظالم المري؛ ويوسف، وأمه أم يوسف بنت هاشم بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس، والنعمان، وأوساً، وعمراً، وأم الحكم، وأم أبان، وأمامة، وسهيلاً، أمهم أم النعمان بنت حذيفة ثقفية؛ وعبيد الله، وعبد الله، والحكم، أمهم أم ولد؛ وخالداً، وعبد الرحمن الأصغر، لأم ولد؛ ومسلماً، لأم ولد.

فتزوج أم البنين سعيد بن العاص، وتزوج زينب أسيد بن الأخنس الثقفي، وتزوج أم يحيى عروة بن الزبير بن العوام، وهي أصغر ولد الحكم، وتزوج أم أبان عبد الله بن المطلب بن حنطب المخزومي، ثم خلف على أختها أم الحكم، وتزوج أمامة عبد الرحمن بن الحارث بن أبي ذئب بني عامر بن لؤي.

وأما خالد بن الحكم فكان حضر عبد الملك يوم قتل عمرو بن سعيد الأشدق، فانتدب قوم يقاتلون عن عمرو، فبعث عبد الملك إليهم من يقاتلهم فكان خالد عليهم.

وأما أبان بن الحكم فتزوج أم عثمان بنت خالد بن عقبة بن أبي معيط، فولدت له، فتزوج سليمان بن عبد الملك من ولده أم أبان بنت أبان.

وأما عبيد الله بن الحكم فقتله الحنتف بن السجف يوم الربذة وأما الحارث بن الحكم فتزوج مفداة بنت الزبرقان بن بدر، فولدت له، وولى هشام خالد بن عبد الملك بن الحارث بن الحكم المدينة فكان مذموم السيرة ولقب فرقداً.

وأما عبد العزيز بن الحارث بن الحكم فولد سعيد بن عبد العزيز، خدينة ولاه مسلمة بن عبد الملك خراسان، حين ولي مسلمة العراق، ولقب خدينة لأن بعض دهاقين ما وراء نهر بلخ دخل عليه معصفرة وقد رجل شعره فقال: هذا خدينة، وهي الدهقانة والقيمة بمترل زوجها بكلامهم،وكان سعيد صهر مسلمة على ابنته، وقد خذينة سورة بن أبجر الحنظلي من ولد أبان بن دارم بن مالك بن حنظلة، ثم اتبعه فتوجه إلى ما وراء نهر بلخ فترل إشتيخن وقد صارت الترك إليها، فحاربهم وهزمهم ومنع الناس من طلبهم جبناً وخوفاً من أن تكون لهم كرة، ثم لقي الترك بعد فهزموه وأكثروا القتل في أصحابه وولى خدينة نصر بن سيار طخارستان؛ وكان يقول سميت خدينة لأني لم أطاوع على قتل اليمانية فضعفوني؛ وقال الشاعر في سعيد عبد العزيز خدينة:

وشرت إلى الأعداء تلهو بلعبةٍ وأيرك مشهور وسيفك مغمد

ويروي:تسعين ليلة وأيرك

وأنت امرؤ عاديت عرس حفيةٍ وأنت علينا كالحسام تجرد

وكلمم خدينة بعض الأسدين في شيء فقال له: يا ملط، فقال:

زعمت خدينة أنني ملط ولخدنة المقراض والمشط

ومكاحل ومجامر ولها من دلها في خدها خط

وشخص قوم من أهل حرسان إلى مسلمة، فشكوا سعيد بن عبد العزيز، خدينة، فعزله وولى سعيد بن عمرو الحرشي خراسان.

وفي أيام خدينة قتل جهم بن زحر قيس الجعفي، سعى به إليه ترفل، وهو عبيد الله بن عبد الحميد بن عبد الكريم بن عامر بن كريز، الذي قتله أبو مسلم بخراسان، وسعى بعدة معه من اليمانية، وقال إنهم قد ولوا ليزيد بن الملهب وعندهم أموال قد أحتجنوها واختانوها وسماهم له، فأرسل إليهم فحسبهم في قهندز مرو فقيل له: إنهم لايؤدون بالحبس دون البسط عليهم، فأمر بإخصار جهم فجيء به على حمار فقام إليه الفيض بن عمران فوجأ انفه فقال له جهم: يا فاسق هلا فعلت هذا حين ضربتك في الخمر، فغضب سعيد على جهم وقال أتجترىء عليّ أن تكلمه بهذا الكلام بحضرتي، وحمل فضربه مائتي سوط، فكبر أهل السوق ثم دفع جهماً وأولئك اليمانية إلى الزبير بن نشيط مولى باهلة ليستأديهم فعذبهم، فمات جهم في الحبس فقال ثابت قطنةٍ الأزدي، وكان أعور يضع على عينه قطنةً:

أتذهب أيامي ولم أسق ترفلاً وأشياعه الكأس التي صبحوا جهما

ولم تقرها السعدي عمرو بن مالك فيشعب من حوض المنايا لها قسما

وكان خدينة يقول قبح الله الزبير قتل جهماً.

وولى عبد الملك عبد الواحد بن الحارث بن الحكم المدينة وفيه يقول القطامي:

أهل المدينة لا يحزنك شأنهم إذا تخطأ عبد الواحد الأجل

وأما يحيى بن الحكم فكان والياً على المدينة لعبد الملك؛ وكان يكنى أبا مروان، وله يقول أيمن بن خريم بن فاتك الأسدي:

تركت بن مروان تندى أكفهم وصاحبت يحيى ضلةً من ضلاليا

لقد كان في ظل الخليفة وأبنه وظل ابن ليلى ما يسد اختلاليا

يعني عبد العزيز بن مروان:

أمير إذا ما جئت طالب حاجةٍ تهيا لشتمي أو أراد قتاليا

فإنك لو أشبهت مروان لم تقل لقومي هجراً إذ أتوك ولا ليا

وقال فيه عمرو بن أحمر بن العمرد الباهلي:

يحيى أي بن ملوك الناس أحرقنا ظلم السعاة وباد الماء والشجر

إن تنب يا بن أبي العاصي بحاجتنا فما لحاجتنا ورد ولا صدر

وتزوج زينب بنتع عبد الرحمن بن الحارث بن هشام فقال عبد الملك ادركوا بيت المال.وولاه أيضاً فلسطين.

وكان الحر بن يوسف بن يحيى بن الحكم على الموصل فمات وهو عليها فقيال أبو ماوية حين دفن: لا رحم الله متوفاكم ولا أكرم ممشاكم.

وكانت أم يحيى بن الحكم مرية.

وأما عبد الرحمن بن الحكم ويكني أبا مطرف، ويقال أبا حرب، فكان شاعراً، وهاجى عبد الرحمن بن حسان، وهو الذي يقول لمروان بن الحكم:

تجبرت واستكبرت حتى كأنما نرى بك فينا قيصراً وابن قيصرا

فذا العرش لا يغفر لمروان إنني أراه بأخلاق المكارم أعسرا

وقال في ابنته واسمها زينب:

لعمرك ما زنيبة أم عمرو بحمد الله من قزم الحواري

ألم تر أنها كرمت وطابت وكانت من قريش في النضار

وتزوجها يحيى بن سعيد العاص، وكنية زينب هذه أم عمرو.

ولد مروان بن الحكم

ولد مروان بن الحكم: عبد الملك، ومعاوية وأم عمرو تزوجها سعيد بن خالد بن عمرو بن عثمان بن عفان، وأمهم عائشة بنت معاوية بن المغيرة بن أبي العاص بن أمية وأمهما جميحةٌ، ومعاوية بن المغيرة وهو الذي جدع أنف حمزة بن عبد المطلب يوم أحد فقتل على أحد بعد إنصراف قريش بثلاثة أيام قتله عليّ بن أبي طالب بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم، وذلك أنه تخلف بعد مضي قريش فظفر به.

وعبيد الله، وأبان، وداود أمهم أم أبان بنت عثمان بن عفان.

وعبد العزيز وعبد الرحمن مات صغيراً، وأم عثمان تزوجها الوليد بن عثمان بن عفان، أمهم ليلى بنت زبان بن الأصبغ الكلبي، وفيها يقول عبد الرحمن بن الحكم وكان يشبب بنساء أخيه:

ليلى وهل في الناس أنثى كمثلها إذا ما استكبرت بين درعٍ ومجسدٍ

وعمرو بن مروان، وأمه زينب بنت عمر بن أبي سلمة بن عبد الأسد المخزومي.

وبشر بن مروان، وأمه قطية بنت بشر بن عامر بن مالك بن جعفر بن كلاب، ولقيطة يقول عبد الرحمن بن الحكم:

قطية كالتمثال أحسن نقشهُ وأم أبان كالشراب المبرد

ومحمد بن مروان، لأم ولد.

فأما عبد الملك فولي الخلافة وسنذكر أخباره إن شاء الله.

وأما معاوية بن مروان

ويكنى أبا المغيرة، فكان من أحمق الناس، طار له بازي فأمر بغلق أبواب دمشق، ومر بحقل له وقد سمع أهل الشام يقولون: لا يفلح حقل لا يرى است صاحبه، فترل وأحدث فيه.

ثم ركب ومر ذات يوم بديراني وهو في غرفة له فصعد إليه فوجده يقرأ كتاباً، فقال له: ما تقرأ؟ قال له: إنجيل وجعل الديراني يقول مرة بعد مرة: حر فقال له: أفي الإنجيل حر؟ قال: لا، ولكن حماراً لي يطحن أسفل هذه العلية وفي عنقه جلجل، فإذا لم أسمع صوت الجلجل علمت أنه قد وقف فأزجره فقال له وما يدريك لعله يقف ثم يحرك رأسه فقال الديراني لو كان له مثل عقل الأمير لفعل هذا.

وقال يوماً لعبد الملك: يا أمير المؤمنين متى يكون الضحى في شهر رمضان؟ فغمر عبد الملك أبا الزعيزعة فأقامه.

وقال هشام بن عمار: بلغني أن معاوية بن مروان زوج امرأة من كلب، فلما رأى أباها قال له: أخذت ابنتك فخجأتها بأير كأنه عمود المنبر، فملأتني دماً، فقال: إنها من نسوة يحفظن لأزواجهن، ولو كنت غنياً لما زوجتك.

المدائني: قال له رجل: يا أبا المغيرة أنت ابن مروان، وأمك عائشة فأنت مقابل مدابر في بني أبي العاص، قال: فأنا كما قال القائل: مردد في بني اللخناء ترديداً.

فولد لمعاوية بن مروان: عبد الملك، والمغيرة، وبشر؛ وقوم يقولون: كان الوليد بن معاوية بن مروان على دمشق من قبل مروان بن محمد الجعدي فحصره عبد الله بن عليّ بن عبد الله بن العباس ثم فتح دمشق وقتل الوليد وهدم عبد الله سور مدينة دمشق.

وقال ابن الكلبي وأبو اليقظان: ولد معاوية هذا: عبد الملك، والمغيرة، وبشراً فقط، والثبت أن صاحب دمشق كان الوليد بن معاوية بن مروان بن عبد الملك بن مروان، والأول قول قومٍ لا علم لهم.

وقال أبو اليقظان: قال خالد بن يزيد بن معاوية لمعاوية بن مروان: يا أبا المغيرة لا أرى أخاك يوليك، ولا يعتد بك فقال: لو أردت ذلك لولاني قال فسله أن يوليك بيت لهيا، فغدا على عبد الملك فقال: يا أمير ألست أخاك؟ قال: بلى وشقيقي، قال: فولني، قال: وما تريد؟ قال بيت لهيا، قال: متى لقيت خالد بن يزيد؟ قال: عشية أمس، قال: لا تكتمه، ودخل خالد فقال: كيف أصبحت أبا المغيرة؟ قال: قد نهانا هذا عن كلامك.

وقال له خالد بن يزيد يوماً: لو كان لك قلب كنت أمير المؤمنين، قال: كيف؟ قال: إذا دخل أمير المؤمنين المقصورة فاسبقه إلى المنبر فاصعده فإنه إذا رآك على المنبر كنت أمير المؤمنين، ففعل ذلك، فالتفت عبد الملك إلى خالد فقال له: أنت امرأته؟ قال: نعم، قال: قد علمت فلا تعد إلى مثلها.

قالوا: وسرق لمعاوية بن مروان برذون فقال لغلام له: انظر من سرقه؟ قال الغلام: لو علمت من سرقه لأتيتك به.

وأما أبا مروان فولي فلسطين لأخيه عبد الملك، وكان الحجاج بن يوسف على شرطه، وهو الذي يقول فيه ابن أقرم النميري، وكان أبان أخذه فأفلت منه:

طليق الله لم يمنن عليه	أبو داود وابن أبي كبير
ولا جزءٌ ولا ابن أبي شريفٍ	ولا أهل الأمير مع الأمير
ولا الحجاج عينا بنت ماءٍ	تقلب طرفها حذر الصقور

أبو داود يزيد بن هبيرة المحاربي، وابن أبي كبير رجل من ولد أبي كبير المنهب بن عبد بن قصي بن كلاب، وكان الحجاج أخفش الناس فشبه عينه بعين طائر الماء.

وأما داود بن مروان فولد سليمان وكان أعور فتزوج فاطمة بنت عبد الملك بن عبد العزيز بعد زوجٍ لها فقيل: نذل أعور.

وأما بشر بن مروان

فكان يكنى أبا مروان وشهد المرج فقتل خالد بن حصين الكلابي ومعه عمرو بن سعيد، فقال الشاعر رثيه:

ثوى خالدٌ بالمرج غير ملومٍ ولا برمٍ عام الرياح الصوارد
لعمري قد أرداه بشر لحينه وعمرو فقد نالا كريمٍ المشاهد
هلا بني العاص ذكرتهم بلاءه وما شاكر المعروف يوماً كجاحد
براهط إذ عبد العزيز معفرٌ لدى مسندٍ منكم وآخر ساجد
فلا صلح أو تزقون لمروان هامةٌ علينا بأيدينا بواءً لخالد

وكان خالد صرع عبد العزيز يوم المرج ثم استبقاه، وهو من بني أبي بكر بن كلاب.

وكان بشر منقطعاً إلى عبد العزيز قبل ولاية عبد الملك الخلافة، فلما ولي الخلافة استجفاه بشر فقال:

أتجعل صالح الغنوي دوني ورحلي منك أقصى الرحال
سيغنيني الذي أغناك عينك عني ويفرج كربتي ويرب مالي
إذا أبلغتني وحلت رحلي إلى عبد العزيز فلما أبالي

فولاه عبد الملك الكوفة، ثم أضاف إليه البصرة، فكتب إلى عبد العزيز :

غنينا فأغنانا غنانا وعاقنا مأكل عما عندكم ومشارب

فكتب إليه عبد العزيز: هلا كتبت بأحسن من هذا، وهو قول عبد العزيز بن زرارة الكلابي:

فأصبحت قد ودعت نجداً وأهله وما عهد نجدٍ عندنا بذميم

فقال بشر: صدق أبو الأصبغ رعاه الله فما عهد بذميم وكان بشر لين الولاية، سهل الحجاب، طلق الوجه كريماً، وكان صاحب شراب ينادم عليه. وقال كثير يمدح بشراً:

أبا مروان أنت فتى قريش وكهلهم إذا عدوا الكهولا

وقال الأخطل:

إذا أتيت أبا مروان تسألهُ وجدته حاضنيه المجد والحسبُ
ترى إليهِ رفاقَ الناس سائلة من كل أوبٍ على أبوابه عصب
لا يبلغ الناس أقصى واديه ولا يعطي جواد كما يعطي ولايهب

وقال أيضاً:

إني دعاني إلى بشر فواضلهُ والخير قد علم الأقوام متبعُ
يا بشر لو لم أكن منكم بمنزلةٍ ألقى عليّ يديه الأزلم الجذعُ
أنتم خيارُ قريشٍ عندَ نسبتها وأهل بطحائها الاثرون والفرع

وقال أيضاً:

إذا وزن الأقوام لم تلق فيهم كبشرٍ ولا ميزان بشر يعادله
أغر عليه التاج لا متعبس ولا زبرج الدنيا عن الحق شاغله
إذا انفرج الأبواب عنه رأيته كصدر اليماني أخلصته صياقله

قال الهيثم بن عدي: وكان الفرزدق هجا خالد بن عبد الله بن خالد بن أسيد وأمية أخاه، فطلبه خالد وهو يتقلد البصرة قبل بشر فآلى أن يقتله إن ظفر به، ووضع عليه الأرصاد فكان منطمراً لايظهر، فلما قدم بشر البصرة استبطأه فبلغه أنه وجد عليه ثم إن بني تميم وجهوا معه من أبلغه البصرة فقال:

لو أنني كنت ذا نفسين إن هلكت إحداهما بقيت أخرى لمن غبرا
إذاً لجئت على ما كان من حذر وما رأيت حذاراً يغلب القدرا
كل امرىءٍ آمن للموت آمنه بشر بن مروان والمذعور من ذعرا
تغدو الرياح وتمسي وهي فاترة وأنت ذو نائل يمسي وما فترا

وفي قصيدة، فحباه بشر وأكرمه وحمله على فرس رائع وكساه، وكان الفرزدق إذا حمل حمالة أداها بشر عنه، وإذا سأل حاجة قضيت له في نفسه ومن شفع له، ويدخل دار البشر فيدعوا بشهوته من الطعام فيؤتي بها، حتى قيل إنه نادم بشراً.

وقال جرير أو غيره يذكر لين حجابه:

بعيد مراد الطرف لم يثن طرفه حذار الغواشي باب دار ولا ستر
ولو شاء بشر حل من دون بابه طماطم سود أو صقالبة حمر
ولكن بشراً سهل الباب للتي يكون له في غبها الحمد والأجر

أبو الحسن المدائني، قال: اقحط الناس في أيام بشر فاستسقوا وهو معهم فمطروا فقال سراقة بن مرداس البارقي بالكوفة:

دعا الرحمن بشر فاستجابا لدعوته فأسقانا السحابا

وكان دعاء بشر صوب غيث | يعاش به ويحيى من أصابا

ومر بشر بعد استسقائه بسراقة وقد دخل الماء داره فقال: ما هذا يا سراقة؟ قال: قد نرى أيها الأمير هذا ولم ترفع يديك بالدعاء، فلو رفعتهما لجاءنا الطوفان فضحك بشر.

وقد أعشى بني شيبان:

رأينا ما خلا أخويه بشراً | من الفتيان سيد عبد شمس

وسيد من سواهم من قريشٍ | فيصبح خيرهم أبداً ويمسي

إذا خلى أخوك إلى أخيه | خلافته لسعدٍ غير نحس

فأنت الثالث الموصي إليه | وصية حازمٍ في غير لبس

وله يقول أيمن بن خريم بن فاتك الأسدي:

ركبت من المقطم في جمادى | إلى بشر بن مروان البريدا

فلو أعطاك بسر ألف ألفٍ | رأى حقاً عليه أن يزيدا

وقال أعشى بن أبي ربيعة بن ذهل بن شيبان:

لعمري لقد أمست معداً وأصبحت | تحبك يا بشر بن مروان كلها

تمنى وترجو أن تكون خليفة | وترجوك للدنيا وللدين جلها

في أبيات: وقال هشام بن محمد الكلبي: قام بشر بن مروان على المنبر فقام عبد الرحمن بن أرطاة بن شراحيل الجعفي، فقال له وقد تكلم بشيء: اتق الله فانك ميت ومحاسب، فأمر به فضرب أسواطاً مات منها.

قالوا:وأمر بشر بن مروان سراقة البارقي بهجاء جرير فهجاه سراقة، ويقال:بل هجاه مبتدئاً فقال جرير:

يا بشر حق لوجهك التبشير | هلا غضبت لنا وأنت أمير

قد كان حقاً أن تقول لبارقٍ | يا آل بارق فيم سب جرير

أسراق إنك قد كسبت لبارقٍ | أمراً مطالعه عليك وعور

لا يدخلون عليك إن دخولهم | رجس وإن خروجهم تطهير

تعطى النساء مهورهن سياقةً | ونساء بارق ما لهن مهور

فلما سمع قوله:

قد كان حقاً أن تقول لبارقٍ ... يا آل بارق فيم سب جرير

قال: أخزاه الله أما وجد وكيلاً غيري.

وحدثني محمد بن الأعرابي قال: لقي سراقة جريراً فقال له جرير: من أنت؟ فقال: بعض من أخزاه الله على يدك، قال: أيهم أنت؟ قال: سراقة، قال: البارقي؟ قال: نعم. فقال: والله لو ظننت بك ما رأيت منك لعفوت عن زلتك.

قال: وولى بشر شرطته بالكوفة عكرمة بن ربعي من بني تيم الله بن ثعلبه.

وقال هشام ابن الكلبي: بعث بشر بن مروان إلى موسى بن طلحة بمال وأمره أن يقسمة بين قراء أهل الكوفة، فأما مرة الهمداني فلم يقبل من المال شيئاً وما في بيته ما يساوي عشرة دراهم، ورد أبو رزين العقيلي ما بعث به إليه وامتنع منه، وقبل عمرو بن ميمون الأودي ما بعث به إليه، وقبل أبو جحيفة السوائي واسمه وهب بن عبد الله.

حدثنا خلف بن هشام حدثنا هشيم بن حضين قال: أول من احدث الأذان في العيدين بالكوفة بشر بن مروان، فلما سمع الناس ذلك أنكروه واستشرفوا له، وجعلوا يرفعون رؤوسهم تعجباً.

عبيد الله بن معاذ عن أبيه عن شعبة عن حصين بن عبد الرحمن عن عمارة بن روبية الثقفي: أنه رأى بشر بن مروان في يوم جمعة يرفع يده للدعاء، وهو على المنبر، فقال انظروا إلى هذا الفاسق لقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم، وما يزيد على هذا، وأشار بإصبعه السبابة.

المدائني، قال: عزل عبد الملك خالد بن عبد الله عن البصرة،وضمها إلى بشر بن مروان، وبعث إليه بعهده عليها، فجمع له العراق كله، وقد كان شرب التياذريطوس، فلم يزل بالبصرة عليلاً، ولما قدم ولى الملهب قتال الأزارقة.

قال: وقدم الأخطل البصرة عليه وقد حمل ديات عن قومه، فأتى بني سدوس وفيهم سويد بن منجوف، ورجل من بني أسعد بن همام فسألهم،فقال الأسعدي: ألست القائل:

إذا ما قلت قد صالحت بكراً ... أبى الأضغان والنسب البعيد

وأيام لنا ولهم طوال ... يعض آلهام فيهن الحديد

لا لعمر الله لا نرفدك ولا نعينك وإنك منا للهوان لأهل فقال:

متى آت الأراقم لا يضرني ... نتيت الأسعدي وما يقول

فإن تمنع سدوس درهميها ... فإن الريح طيبة قبول

وإن بني أمية ألبستني ... ظلال كرامةٍ ليست تزول

سيحملها أبو مروان بشر فذاك لكل مثقلةٍ حمول

ويكفيني التي استكفيت منها بفعلٍ لا يمن ولا يحول

فقال له بشر: يا أبا مالك وكم حمالتك؟ قال: خمسون ألفاً، فأمر له بها، وقال أنا أحق برفدك من بني سدوس وبني أسعد.

ولبشر يقول أعشى بني أبي ربيعة

يا سيد الناس من عجم ومن عرب وأفضل الناس في دين وفي حسب

قالوا: وكان بشر صاحب شراب، فدخل البصرة بين الحكم بن المنذر بن الجارود ورجل آخر كان مدمناً للشراب، فعلم الناس أنه لا يدع الشراب فلم يزالا نديميه حتى مات.

وكان بشر يقول الشعر فلما اشتدت علته قال لعبد الملك:

إذا مت يا خير البرية لم تجد أخاً لك يغني عنك مثل غنائيا

يواسيك في الضراء واليسر جهده إذا لم تجد عند الحفاظ مواسيا

شريجان لوني من سوادٍ وحمرةٍ تبدلته من واضح كان صافيا

وكم من رسول قد أتاني بعثته إلي ورسل يكتمونك ما بيا

وحدثني الأثرم عن أبي عبيدة قال: كان بشر إذا سكر يقول خضبوا يدي، ويقول ائتوني برأس عبيد الله بن أبي بكرة، فلما بلغت أبيات بشر هذه ابن أبي بكرة قال: مالك بن الريب كان أشعر منه حين يقول:

لعمري لئن غالت خراسان هامتي لقد كنت عن بابي خراسان نائيا

و لم يكترث لموته بل كان هيناً عليه، ويقال: إن عبد الملك قال ذلك.

حدثنا روح بن عبد المؤمن حدثنا أبو عوانة عن مغيرة عن إبراهيم عن شريح: أنه حبس رجلاً في السجن، فأرسل إليه بشر أن أخرجه فقال: السجن سجنك والبواب عاملك، وأما أنا فإني رأيت في الحق أن أحبسه.

وحدثنا عن سعيد عن الحكم عن خثيمة عن عبد الله بن شهاب قال: شهدت بشر بن مروان وأتاه رجل وامرأة في خلع فأبى أن يجيزه، فقال عبد الله بن شهاب: شهدت عمر بن الخطاب وأتاه رجل وامرأة في خلع فأجازه، وقال: إنما طلقك بمالك.

المدائني، قال: بينا بشر، وخالد بن عبد الله بن خالد بن أسيد، وخالد بن عتاب بن ورقاء، وعكرمة بن ربعي في شربهم. أمرت امرأة بشر وصيفة لها أن تخبرهم أن الشراب قد نفد، فجعل بشر يقول:

إسقي ابن ربعي قعيباً واحدا　　　وخالداً من بعده وخالدا

أما ترين الليل باردا　　　ولا تقولن لشيء نافذا

حدثنا العمري عن الهيثم بن عدي، عن مجالد، عن الشعبي قال: كانت إلي مظالم بشر بن مروان، فأتيته يوماً لأمر فإذا أعين مولاه جالس،وكان حاجبه وصاحب حرسه فقلت:أبا عمر استأذن لي عليه، فقال:إن الأمير لا يؤتى بالعشي،فقلت: أنه أمر لابد من ذكره له. فأعلمه مكاني في رقعة رفعها إليه، فأذن لي فدخلت فإذا هو جالس على فرش صفر وعن يمينه وشماله وخلفه مرافق، وعلى رأسه إكليل ريحان، وعنده عكرمة بن ربعي، وخالد بن عتاب بن ورقاء فقال: يا شعبي لو غيرك من الناس ما أذنت له، فقلت: إن عندي لك خلالاً ثلاثاً: الستر لما يجب أن يستر، والشكر لما تولي، والدخول معك فيما يحل ويجمل، ثم التفت فإذا حنين بن بلوع العبادي المغني وأمرت فعمل له سمك وجعل في محسي، ثم ارسلت إليه ليكن غداؤك عندي فأتاها فتغدى فاستطاب غداءه ثم قال: لهذا ما يصلحه، فدعت بالشراب فوجده أجود من شرابه، فقال بقيت واحدة، فقالت: ما هي؟ قال: من يحادثنا، فارسلت إلى أخويها: مالك بن أسماء وعيينة فنادماه، فحظيت عنده وولدت له عبد الملك بن بشر.

قالوا: وكانت لحجار بن أبجر العجلي مترلة من بشر، فبينا هو جالس على سريره إذ دخل المتوكل الليثي عليه فأنشده أبياتاً فيها:

تجرم لي بشر غداة أتيته　　　فقلت له يا بشر ماذا التجرم

فقال بشر: ويلك لوصرت إلى ذلك لضربت عنقك، فقال: أصلح الله الأمير كلام تسقط منه الحبالى، فقال حجار: أو حبلى أنت يا متوكل، فقال: ما إياك اخاطب، ولا عليك أدل، فقال حجار: والله لوسألتني بمثل هذا الشعر درهما ما أعطيتك إياه، ولا رأيتك له أهلاً، فقال: صدقت والله أتاك عيسى بن مريم فطلب مثل ذلك لمنعته إياه، فلما خرج حجار قال له بشر: ويلك يا متوكل كيف جئت بعيسى بن مريم من الأنبياء؟ قال لأن أباه كان نصرانياً،وهو يرق للنصرانية، فضحك بشر وقال: أتراه فطن لما أردت؟ قال: نعم والله وما أقامه إلا ذلك.

حدثني عليّ بن المغيرة الأثرم عن أبي عبيدة معمر بن المثنى قال: قال بشر بن مروان لسراقة: أجرير أشعر أم الفرزدق؟ قال: الفرزدق، قال: فقل في ذلك أبياتاً فقال:

أبلغ تميماً غثها وسمينها　　　والحكم يقصد مرةً ويجور

أن الفرزدق برزت آباؤه　　　عفواً وغودر في الغبار جرير

ما كنت أول مقرف عثرت به　　　أعراقه إن اللئيم عثور

ذهب الفرزدق بالفضائل والعلى | وابن المراغة مفحم محسور

فكتبها بشر، وبعث بها إلى جرير مع رسول، وقال: لاتبرح حتى ينقضها فذلك حين يقول جرير:

يا بشر حق لوجهك التبشير | هلا غضبت لنا وأنت أمير

قد كان حقاً أن تقول لبارقٍ | يا آل بارق في سب جرير

أسراق إنك قد كسبت لبارق | أمراً مطالعه عليك وعور

تعطي النساء مهورهن سياقةً | ونساء بارق ما لهن مهور

لا يدخلن عليك أن دخولهم | رجس وإن خروجهم تطهير

إن الكريمة تنصر الكرم ابنها | وابن اللئيمة للئام نصور

فلما قرئت القصيدة على بشر قال: أما وجد ابن المراغة رسولاً غيري وقال جرير:

يا رب قائلةٍ تقول وقائلٍ | أسراق إنك قد غويت سراقاً

إن الذين عووا عواءك قد لقوا | مني صواعق تقطع الأعناقا

ولقد هممت بأن أدمر بارقاً | فحفظت فيهم عمنا إسحاقاً

قالوا: وجعل جرير يوماً ينشد، وسراقة يقول:أحسنت والله، فقال له: يا فتى من أنت؟ قال بعض من أخزى الله على يدك، قال؛ وأيهم أنت؟ قال: سراقة البارقي، قال: لو علمت أنك على ما شاهدت لعفوت عنك.

وقال ابن قيس الرقيات في بشر بن مروان:

يابشر يا بن الجعفرية ما | خلق الإله يديك للبخل

جاءت به عجز مقابلة | ما هن من جرمٍ ولا عكل

فقال له بشر: أحتكم، قال: أعطني عشرين ألف درهم، قال: قبحك الله لك عشرون وعشرون، فأعطاه مائة ألف درهم؛ وقد قال قوم: إن هذا الشعر لابن الزبير الأسدي، وقيل لأعشى بني أبي ربيعة، وفيها

أنت ابن الأشياخ الذين لهم | في بطن مكة عزة الأصل

وقال ابن الزبير:

كأن بني أمية حول بشرٍ | نجوم وسطها قمر منير

هو الفرع المقدم في قريشٍ | إذا أخذت مآخذها الأمور

فأمر له بخمسة آلاف درهم.

وكان بشر يغري بين الشعراء، قالوا: أنشد أعشى بني أبي ربيعة بشراً

أمست أمية بعد اثنين قد علموا | لو يوزنون ببشر كلهم غلبوا

فقال ما صنعت شيئاً فقال:

وجدنا ما خلا أخويه بشراً | من الأحياء سادة عبد شمس
وجدتك أمس خير بني معدٍ | وأنت اليوم خير منك أمس
وأنت غداً تزيد الخير ضعفاً | كذاك تزيد سادة عبد شمس

فقال ما صنعت شيئاً فقال:

مكثت زماناً ثالثاً لم يزل | بك الجري حتى كنت أنت المصليا

قال: نعم، قال إن شئت جعلتك سابقاً؟ قال: أما هذا فلا، وأعطاه عشرة آلاف درهم وكساه حدثني عمر بن شبة قال: أعوز بشر بن غالب حتى لزم بيته فأتت امرأته عكرمة بن ربعي فقالت: هل أنت مسلفي خمسمائة درهم، فدفعها إليها وبعث رسولاً ليعلم أين صارت، فلما عرف الذي له استسلفت الخمس المائة الدرهم أخذ ألف دينار وقرع على بشر بن غالب الأسدي بابه ليلاً وقال: هذه ألف دينار فاقبضها، وقال إن تيسر رددت وغن تعذر فهو لك،قال ومن أنت؟ قال: إذا قبضت المال أخبرتك فلما قبضته قال: أنا عكرمة بن ربعي جابر عثرات الكرام، فدخل بشر بيته مهموماً فقالت له امرأته: مالك؟ فاخبرها خبر عكرمة وما صنع وقال: لا أزال متضائلاً حتى أرد ماله أو أكافيه، فقالت: فمنه والله أخذت الخمس المائة، فلما قدم بشر بن مروان الكوفة أرسل إلى بشر بن غالب الأسدي يسأله أن يلي شرطته، وكان إذا ولى رجلاً شرطته أمر له بمائة ألف درهم، فقال: لست أضبط أمر الشرطة ولا أقوم به ولكني أشير عليك برجل؟ قال: ومن هو؟ قال: عكرمة بن ربعي فولاه شرطته وأمر له بمائة ألف درهم.

قال المدائني: كان أيمن بن خريم بن فاتك عند عبد العزيز بن مروان بمصر، فدخل عليه نصيب فأنشده مديحاً امتدحه به فقال: أتقول إنني ملول وأنا أؤاكلك مذ كذا وكذا، وكان بأيمن بياض في يده فغضب، ولحق ببشر بن مروان وقال:

ركبت من المقطم في جمادى | إلى بشر بن مروان البريدا
فلو أعطاك بشر ألف ألف | رأي حقاً عليه أن يزيدا

فأمر له بمائة ألف درهم.

وقال: ومر به نصيب بالكوفة فقال له: إني تركت غديراً ناضباً وأتيت بحراً زاخراً.

وكان بشر لا يؤاكل أيمن واشتهى يوماً لبناً وقال للحاجب اخرج فانظر لي من يأكل معي، فخرج فأدخل أيمن بن خريم فلما رآه بشر ساءه، فقال:إني اشتهيت البارحة لبناَ فهيء لي، واصبحت أنوي الصوم فاتيت باللبن فلما وضع بين يدي ذكرت أن أبي صائم وليس أحد بأحق بأكله منك، فدونكه فلم يلبث أن صفره وكان يغير بياض يده بالزعفران.

حدثني الحسن الوراق عن شهام ابن الكلبي قال: كانوا يقولون إن دية الضرطة أربعون درهما وقطيفة، فأتي بشر بن مروان بتراس فأمر جلساءه بغمزها، فغمز رجل من بني هلال ترساً منها فضرط، فضحكوا منه فغضب بشر وقال: وكم دية الضرطة؟ قالوا: أربعون درهما وقطيفة، فأمر للهلالي باربعين الفاً وأربعين قطيفة خز فقال الشاعر:

أيضرط ضارط من غمز ترسٍ	فيعطيه الأمير لها بدورا
فيا لك ضرطةً عادت بخير	ويا لك ضرطةً أغنت فقيرا
فود القوم أن ضرطوا جميعاً	فنالوا من عطيته عشيرا
أيقبل ضارطاً ألفاً بألفٍ	ليرخص أصلح الله الأميرا

فلما أنشد الشعر قال: لا حاجة لنا في ضراطه، وأمر له بأربعة آلاف درهم وهذا الثبت؛ وقوم يزعمون: أن الضارط كان عند خالد القسري.

المدائني، قال: دخل الأخطل على بشر وعنده الراعي عبيد بن حصين فقال بشر: أأنت أشعر أم هذا؟ قال: أنا أشعر منه وأكرم فقال للراعي: ما تقول؟ قال: أما شعره فلا أدري، وأما قوله أكرم فإن كان في أمهاته من ولدت مثل الأمير فقد صدق، فلما خرج الأخطل من عند بشر قال له رجل: ويلك أتقول لخال الأمير أنا أكرم منه؟ قال: إن أبانسطوس الخمار وضع في جمجمتي، أكؤسا لا والله ما أعقل معها ما أقول؛ وللأخطل في بشر شعر.

وقال الكلبي: كان ممن ينادم بشراً بالبصرة الهذيل بن عمران بن الفضيل التميمي ثم الحنظلي.

قال: و لم يزل بشر على الكوفة حتى ضمت إله البصرة سنة أربع وسبعين، فانحدر إلى البصرة واستخلف على الكوفة عمرو بن حريث المخرزومي، فكان عليها حتى مات بشر بالبصرة، وولي الحجاج العراق.

وقال مالك بن دينار: لما مات بشر فدفن مات أسود فدفن إلى جانبه فتبعنا جنازته ودفن عند قبر بشر بن مروان، فلما أتت عليه أيام مررت فلم أعرف قبر هذا من قبر هذا، فذكرت قول الشاعر:

وسواء قبر مثر ومقل

وقال المدائني: كان مقام بشر بالبصرة شهرين، ويقال: أربعة أشهر، وكان شرب التياذريطوس فأمرضه حتى هلك، وكان أول أمير بالبصرة مات بها؛ ودفن بشر إلى جانب قبر سلم بن زياد ومشى الفرزدق في جنازته ومعه فرس كان حمل عليه، وهو يقوده حتى إذا فرغ من دفنه عقر الفرس على القبر وأنشأ يقول:

أقول لمحبوك السراة معاودٍ سباق الجياد قد أمر على شزر

ألست شحيحاً إن ركبتك بعده ليوم رهانٍ أو غدوت معي تجري

حلفت له لا أركب الدهر بعده صحيح النسا حتى يكوس على القبر

وقال الفرزدق يرثيه:

أعيني إلا تسعداني ألمكما فما بعد بشرٍ من عزاءٍ ولا صبرٍ

فلو أن قوما دافعوا الموت بعده بشيءٍ لدافعت المنية عن بشر

ولكن فجعنا والرزيئة مثله بأبيض ميمون النقيبة والأمر

فإلا تكن هند بكته فقد بكت عليه الثريا في كواكبها الزهر

أغر أبو العاصي أبوه كأنما تفرجت الأبواب عن قمر بدر

على ملكٍ كاد النجوم لفقده تدهدى وتلك الراسيات من الصخر

سيأتي أمير المؤمنين مصابه وعبد العزيز للإمارة في مصر

بأن أبا مروان بشراً أخاهما ثوى غير متبوعٍ بعجزٍ ولا غدر

في قصيدة.

ولما احتضر بشر استخلف خالد بن عبد الله بن خالد بن أسيد بن أبي العيص على البصرة فكان عليها بعد وفاة بشر حتى ولي الحجاج العراق، فولى الحكم بن أيوب، ويقال: وجه ابن أبي بكرة، حتى قبض العمل من خالد ثم ولي الحكم بعد.

وقال أبو اليقظان: قدم بشر البصرة فأقام بها ستة أشهر ويقال أربع أشهر، فشرب التياذريطوس فاشتد وجعه، ويقال: شربه بالكوفة ثم شخص إلى البصرة فأمرضه السعب فمات بالبصرة بعد أشهر.

قال: ولما قدم بشر جعل يسال عن الأشعار والشعراء وكان جواداً.

وقال ابن الكلبي وغيره: كتب ابن الزبير بعد مقتل مصعب بن الزبير إلى أهل العراق يدعوهم إلى طاعته مع رجل من الأنصار، فنزل الرجل على نعيم بن القعقاع بن معبد بن زرارة بن عدس بن زيد بن عبد الله

بن دارم، وكان نعيم يذم بشراً وينسبه إلى الفسق والأفن، ويقرظ ابن الزبير، ويدعو إلى طاعته سراً، ويقال: إنه كان مع الأنصاري كتاب إلى نعيم فعلم حوشب بن يزيد بن الحارث بن يزيد ين رويم الشيباني بخبر الأنصاري ونعيم، فعسى بنعيم إلى بشر فقتل الأنصاري وقتل نعيماً؛ وقال بعضهم: سعى بنعيم يزيد بن الحارث، وذلك وهم لأن يزيد قتل بالري حين لقيتها الخوارج؛ وقال بعضهم: إن الأنصاري لما قتل جعل نعيم يذكر ابن الزبير بخير ويذكر بشرا بشر، فسعى به يزيد فدعا به بشر فقتله صبراً وأنه لم يترل على نعيم ولا كان معه كتاب، والله أعلم.

قالوا: وكان بشر بن مروان يطعم خاصته وحرسه، ولا يطعم العامة، وكذلك كان مصعب بن الزبير قبله.

فولد بشر بن مروان

الحكم. وأمه أم كلثوم بنت أبي سلمة بن عبد الرحمن بن عوف؛ وعبد العزيز بن بشر بن مروان، وأمه ابنة خالد بن عقبة بن أبي معيط؛ وعبد الملك بن بشر، أمه هند بنت أسماء بن خارجة الفزاري، وكان عبد الملك سخياً مطعاماً للطعام.

فحدثني عباس بن هشام الكلبي عن أبيه قال: كان بالكوفة فتيان يطعمون الطعام منهم: عبد الملك بن بشر بن مروان، وكان أكثرهم طعاماً وأسخاهم به، وعبد الله بن عمارة بن عقبة بن أبي معيط، وخالد بن الوليد بن عقبة بن أبي معيط، وعمران بن موسى بن طلحة ن عبيد الله، فقدم المغيرة الأعور بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام بن المغيرة المخزومي الكوفة فغمرهم، وكان يتخذ فيما يقال حيسة يأكل منها الراكب، وتجعل على الأنطاع، وكان ينفق في كل يوم على مائدته دنانير كثيرة؛ فقال الأقيشر:

أتاك البحر طم على قريش ... مغيري فقد راغ ابن بشر

وراغ الجدي جدي التيم لما ... رأى المعروف منه غير نزر

ومن أولاد عقبة قد شفاني ... ورهط الحاطبي ورهط صخر

وكان مسلمة بن عبد الملك ولى عبد الملك بن بشر البصرة، ثم عزله فقال الفرزدق

عزل ابن بشرٍ وابن عمرٍو عنهم ... وأخو هراة لمثلها يتوقع

ورأى عبد الملك بن بشر ابن عبدل الشاعر فقال له: ما أغضبك علي؟ قال: جفاؤك لي، وقد رأيت رؤيا قال: وما هي؟ قال فأنشده:

ما بال عينك لا يجف سجامها ... أقذى بها أم عادها تهمامها

حتى بلغ قوله:

أغفيت عند الصبح نوم مسهدٍ في ساعةٍ ما كنت قبل أنامها
فرأيت أنك جدت لي بوصيفةٍ مغنوجةٍ حسن عليّ قيامها
وببدرةٍ حملت إلي وبغلةٍ شقراء ناجية يصل لجامها
فدعوت ربي أن يثيبك جنةً عني ينالك بردها وسلامها

فبعث إليه بذلك كله، وزاده وقال: هذا كان في رؤياك فنسيت أن تذكره؛ ويقال: إنه قال: كل هذا عندي إلا البغلة فما عندي شقراء، ولكن دهماء فقال الطلاق لازم له إن كان رآها إلا دهماء ولكن غلط.

وولد عبد الملك بن بشر أبان والحكم كانا مع ابن هبيرة وقتلا معه بواسط يوم قتل.

وقال خلف بن خليفة الأقطع من بني قيس بن ثعلبة بن عكابة، وذكر في شعره من كان يدخل على ابن هبيرة:

وقامت قريش قريش البطاح هي العصب الأول الداخلة
يقودهم الفيل والزندبيل وذو الضرس والشفة المائلة

الفيل والزندبيل أبان والحكم ابنا عبد الملك بن بشر، وذو الضرس خالد بن سلمة المخزومي، وهو ذو الشفة المائلة أيضاً.

قالوا: وتزوج عبد الملك بن بشر أم سعيد بنت سعيد بن خالد بن عقبة بن أبي معيط، فقال عبد الله بن عمرو بن الوليد بن عقبة:

أسعدة هل إليك بنا سبيل وهل حتى القيامة من تلاق
بلى ولعل ذلك أن يوافي بموت من حيلك أو طلاق
فلطلقها لها بكفءٍ ولو أعطيت هنداً في الصداق

قالوا: ولي مسلمة بن عبد الملك البصرة عبد الملك بن بشر، فولى شرطته شريك بن معاوية الباهلي، وولى القضاء موسى بن أنس بن مالك،وأقام مسلمة بالعراق ثمانية أشهر، ويقال ستة أشهر، فلما ولي عمر بن هبيرة وعزله الملك قال:

جئت بشراً زائراً فوجدته والله سحا

في أبيات.

وقال ابن عبدل الأسدي:

إني امرؤ نزه يعصي الهوى كرمي   فمربضي مربض الوحشي ذي الزمع

وقد تركت ابن بشرٍ أن ألم به   وما تركت أبا مروان من شبع

في أبيات.

وقال ذو الرمة:

إذا ما عددنا يا بن بشرٍ ثقاتنا   عددتك في نفسي بأولى الأصابع

وأما عبد العزيز بن مروان

ويكنى أبا الأصبغ، فإنه كان جواداً كريماً، ولي العهد بعد عبد الملك بن مروان فمات قبله بمصر، وكان عبد الملك أراد خلعه وتولية الوليد ابنه فمات قبل ذلك، وفيه يقول كثير:

شهدت ابن ليلى في مواطن جمةٍ   يزيد بها ذا حلم حلماً حضورها

فلا هجرات القول تؤثر عنده   ولا كلمات النصح مقصىً مشيرها

قال كثير:

قليل الألايا حافظٌ ليمينه   إذا سبقت منه الألية برت

وقال أيمن بن خريم بن فاتك في عبد العزيز حين ولاه أخوه مصر:

فبشر أهل مصر فقد أتاهم   مع النيل الذي في مصر نيل

فتى لا يرزأ الخلان إلا   مودتهم ويرزؤه الخليل

وقال أيضاً:

أما تستحي الناس أن يعدلوا   بعبد العزيز ابن ليلى أميرا

وقد جرب الناس عبد العزيز   صغيراً وقد جربوه كبيرا

ترى قدره معلماً بالفناء   تلقم بعد جزورٍ جزورا

وقال رجل من كلب:

إلى عبد العزيز فتى قريشٍ   رحلنا العيس عشراً بعد عشر

وقال رجل من خثعم زار عبد العزيز فجفاه:

أرى عبد العزيز يصد عني بأنفٍ مثل فيشلةِ الحمارِ
فما عبد العزيز لنا برب وما دار الهوان لنا بدارِ

وقال عبيد الله بن قيس الرقيات:

أعني ابن ليلى عبد العزيز ببا ب اليون تأتي جفانه رذما
الواهب البخت والوصائف كال غزلان والخيل تألك اللجما

فوهب له من كل ما ذكره وأعطاه مالا.

وقال كثير يرثيه:

أبعد ابن ليلى يأمل الخلد واحدٌ من الناس أو يرجو الثراء مثمرُ

وقال أبو بكر بن أبي جهم بن حذيفة العدوي:

أبعدك يا عبد العزيز لحاجةٌ وبعد أبي الزبان يستعتب الدهرُ
فلا صلحت مصر لحيٍ سواكما ولا سقيت بالنيل بعدكما مصرُ
ولا زال مجرى النيل بعدك يابساً يموت به العصفور واستبطىء القطرُ

أبو الزبان الأصبغ بن عبد العزيز، مات قبل أبيه بخمس عشرة ليلة.

وقال المدائني وغيره: كان عمرو بن سعيد الأشدق، ويقال: مصعب بن عبد الرحمن بن عوف حد عبد العزيز بن مروان في الشراب فقال الشاعر:

وددت وبيت الله أني فديته وعبد العزيز حين يجلد في الخمر

قالوا: فوجد عمر بن عبد العزيز إسحاق بن عليّ بن عبد الله بن جعفر في بيت خليدة العرجاء فجلده عمر الحد، فقال له إسحاق: يا عمر على ودك الناس كلهم مجلودون يعرض بأبيه عبد العزيز.

وقال الواقدي:خطب عبد العزيز بن مروان أم عاصم بنت عاصم بن عمر بن الخطاب فزوجها، وحملت إليه وهو بمصر وإليها فتوفيت عنده، فتزوج حفصة بنت عاصم وكان زوجها قبله إبراهيم بن نعيم النحام العدوي، فقتل عنها بالحرة وحملت إليه إلى مصر أيضاً وكانت أم عاصم حين مرت بأيلة أهدى لها معتوه كان هناك، يقال له شرشير هديةً فأثابته وأحسنت إليه، فلما مرت به حفصة أهدى لها كما أهدى لأم عاصم أختها فدنت فيما وهبت له، أو أغفلته فقال: هيهات ليست حفصة من رجال أم عاصم.

وولد عبد العزيز

عمر بن عبد العزيز ولي الخلافة وسنذكر خبره إن شاء الله؛ وأبا بكر بن عبد العزيز وعاصما، أمهما أم عاصم بنت عاصم بن عمر بن عمر الخطاب، وأمها عمارة ثقفية؛ والأصبغ لأم ولد؛ وسهلاً، وسهيلاً، وأم الحكم، أمهم أم عبد الله بنت عبد الله بن عمرو بن العاص؛ وزبان، وأم البنين كانت عند الوليد بن عبد الملك، أمهما ليلى بنت سهيل جعفرية.

وكان أبو بكر من خيار المسلمين، وكان عمر بن عبد العزيز على توليته عهده وكان معجباً به.

وأما عاصم بن عبد العزيز فكان مخنثاً.

وأما سهيل فولد عمرو بن سهيل، وكان يلقب كيلجة لقصره، وكان عمرو من رجال قريش ولاه عبد الله بن عمر بن عبد العزيز البصرة، فعزل المسور عن شرطته وولاها رجالاً من بني سدوس، وكان المسور يتولى الشرطة لمن قبله فجانبه المسور ودب في بني تميم فكان في فتنة حتى عزل ابن سهيل، وسنذكر خبره في موضعه إن شاء الله.

وكان الأصبغ بن عبد العزيز، وهو أبو الزبان، عالماً، وكان له قدر في بني أمية يتعاطى الزجر والنجوم، هلك بمصر قبل أبيه بخمس عشرة ليلة. ومن ولده دحية بن مصعب بن الأصبغ، خرج أمير المؤمنين موسى الهادي بن المهدي، فقتلة الفضل بن صالح بن عليّ بمصر بعد قتالٍ، وبعث برأسه إلى الهادي، ويقال: بل حاربه وقتله عليّ بن سليمان بن علي.

وأما محمد بن مروان

ويكنى فيما أخبرني به هشام بن عمار أبا عبد الرحمن، وأمه أم ولد وكان من أشد ولد مروان وأشجعهم في حسن خلق، وكان عبد الملك يحسده على شجاعته، ويجب أن يضع منه، وكان وجهه لمحاربة مصعب فقتله وقتل إبراهيم بن الأشتر، فازداد عبد الملك حسداً له، وفيه يقول الشاعر:

جمع ابن مروان الأغر محمدٌ ... بين ابن أشترهم وبين المصعب

وكان عبد الله بن يزيد ين معاوية متقدماً محمداً عند عبد الملك، وذلك لأن أخته عاتكة بنت يزيد كانت عنده، وكان يحبها؛ فقال ابن وابصة:

لا تجعلن مثدياً ذا سرةٍ ... ضخماً سرادقة عظيم الموكب

كأغر يتخذ السيوف معاقلاً ... يمشي بسكته كمشي الأنكب

وقد كتبنا الشعر في خبر مصعب.

المدائني، قال: كان عبد الملك يحسد محمداً لما يرى من جلده وبأسه وعارضته، ولاسيما بعد قتله مصعب بن الزبير، فعزم على إتيان أرمينية لغزو العدو بها فأمر بإبله فرحلت وعزم على الشخوص إليها، فدخل على عبد الملك مودعاً فقال: إني أريد أرمينية والغزو بها وتمثل:

فإنك لن ترى طرداً لحرٍ كالإزاق به طرف الهوان
ولو كنا بمنزلةٍ جميعاً جريت وأنت مضطرب العنان

فقال عبد الملك: أقسمت عليك يا أخي لما أقمت فوالله لا أقذيت عينك أبداً، ولا رأيت مني مكروهاً أبداً، وولاه الموصل والجزيرة وأرمينية.

وغزا محمد بن مروان في سنة خمس وسبعين فهربت الروم منه.

وفي هذه السنة غزا يحيى بن الحكم كلباً فنال منهم.

فولد محمد بن مروان

يزيد، وأمه أم يزيد بنت يزيد بن عبيد الله بن شيبة بن ربيعة؛ وعبد الرحمن، وأمه أم جميل من ولد عمر بن الخطاب؛ وعبد العزيز بن محمد، لأم ولد؛ ومروان بن محمد، ويكنى أبا عبد الملك وأمه كردية أخذها أبوه من عسكر ابن الأشتر، فيقال: إنه أخذها وبها حبلٌ فولدت على فراشه، ومروان هو الجعدي، وقد ولي الخلافة وسنذكره خبره إن شاء الله.

وكان مروان قد ولي الجزيرة وأرمينية لهشام بن عبد الملك، وللوليد بن يزيد بن عبد الملك من بعده، فلما بلغه مقتل الوليد انصرف إلى الجزيرة، ثم طلب بدم الوليد وسماه الخليفة المظلوم، وقال: أمري شبيه بأمر معاوية في طلبه بدم عثمان، وكان مروان رجلاً من الرجال، إلا أنه كان بخيلاً، فولي الأمر بعد خلع إبراهيم بن الوليد بن عبد الملك خمس سنين، وقتل بمصر في سنة ثلاث وثلاثين ومائة، وهو ابن تسع وستين سنة، وسنذكر أخباره إن شاء الله تعالى.

أمر عبد الله بن الزبير

في أيام مروان وعبد الملك بن مروان والأحداث في فتنته

حدثني جماعة من العلماء سقت حديثهم قالوا: لما دعا ابن الزبير الناس إلى بيعته بعد موت يزيد بن معاوية

بايعوه على كتاب الله وسنة نبيه وسيرة الخلفاء الصالحين، وكان ممن بايعه عبيد الله بن عليّ بن أبي طالب، وقبض ابن مطيع يده، فقام مصعب بن عبد الرحمن بن عوف فبايع، فقال الناس: أبى ابن مطيع أن يبايع، وبايع مصعب أمر فيه صعوبة، وبايعه عبد الله بن جعفر، وأراد ابن الحنفية على البيعة فأبى، وأبى ابن عمر أن يبايع، وقال: أنا لا أعطي صفقة يميني في فرقة، ولا أمنعها في جماعة، وقال له آلزم المدينة حيث بويع الخلفاء فلم يفعل.

وقال أبو حرة مولى خزاعة لما دعا لنفسه: ألهذا نصرناك إنما كنت تدعو إلى الرضى والشورى، أفلا صبرت وشاورت فنختارك ونبايعك وقال:

أبلغ أمية عني إن عرضت لها	وابن الزبير وأبلغ ذلك العربا
أن الموالي أضحت وهي عاتبة	على الخليفة تشكو الجوع والحربا
إخوانكم إن بلاء حل ساحتكم	ولا ترون لنا في غيره نسبا
نعاهد الله عهداً لا نخيس به	أن نقبل اليوم شورى بعد من ذهبا

وأتت ابن الزبير بيعة الآفاق إلا الأردن، وأخرج ابن زياد من البصرة وتراضى أهلها ببة، والأزد، فاعتزل أمرهم فكتبوا إلى ابن الزبير يسألونه أن يستعمل عليهم رجلاً، فكتب إلى أنس بن مالك فصلى بالناس أربعين يوماً، ثم بعث ابن الزبير إلى عمر بن عبيد الله بن معمر القرشي ثم التيمي بعهده على البصرة فوافقه وهو يريد العمرة، فكتب إلى أخيه عبيد الله بن معمر فصلى بالناس، وقام بأمرهم حتى قدم.

وبايع لابن الزبير باليمن بجير بن ريسان، وكان قبله عاملاً ليزيد بن معاوية.

ودعا له بخراسان عبد الله بن خازم السلمي.

وولى جابر بن الأسود بن عوف المدينة.

وأصابت الناس بالمدينة مجاعة، وكان عليها ابن أبي ثور حليف بني عبد مناف، من قبل ابن الزبير، فكان الناس في جهد ينالون من ليل إلى ليل حسى من حنطة مطبوخة وعدس فوعظهم وأمرهم بالتناهي عن المعاصي، وقال: إن الله أهلك قوم صالح في ناقة قيمتها خمسمائة درهم فسمي مقوم الناقة.

المدائني، قال: ولى ابن الزبير المدينة جابر بن الأسود ثم عبيدة بن الزبير، وبعث بمصعب بن الزبير لقتل الأسرى من أصحاب حبيش بن دلجة، وولى بعد عبيدة ابن أبي ثور ثم عزله، وولى الحارث بن حاطب الجمحي ثم عزله، وولى جابر بن الأسود، ويقال جعفر بن الزبير، ثم وهب معتب مولى الزبير، ثم رجلاً يكنى أبا قيس، فقال الناس: كان ليزيد أبو قيس لا يضر ولا ينفع، يعنون قرد يزيد الذي كان يكنيه أبا قيس، ولابن الزبير أبو قيس يضر ولا ينفع.

المدائني عن عامر بن أبي محمد، قال:قاتل مع ابن الزبير أربعون امرأة فقتلت امرأة يقال لها شعثاء، فقال رجل من أهل الشام:

وكانت لشعثا في القتال بصيرة بل كان بغية أهلها بالأردن

وأخذت مريم بنت طلحة سيفاً وقالت: لئن دخل علينا أهل الشام لنقاتلنهم.

وأعطى ابن الزبير الأمان في بعض أيامه، إما في أيام يزيد أو في أيام عبد الملك فقال: والله لاأخلعها حتى يخلعها الموت، ولوفعلت ما بقيت إلا قليلاً حتى أموت وتمثل:

الموت أكرم من إعطاء منقصةٍ إلا نمت عبطةٍ فالغاية الهرم

قال: وبلغ ابن الزبير أن الحجاج كان يقول: احذروا أن يفر كما فر أبوه فقال: هو عدو الله الفرار بن الفرار يوم الربذة.

المدائني، قال: كان عبد الله بن الزبير يشمر إزراره، ويحمل الدرة يتشبه بعمر بن الخطاب رضي الله عنه، فقال أبو حرة:

لم نر من سيرة الفاروق عندكم غير الإزار وغير الدرة الخلق

قال: وكانت عند عبد الله بن الزبير قهطم بنت منظور بن زبان، ويقال تماضر، فولدت له حمزة وماتت، فتزوج أختها أم هاشم، فقال الحجاج عجباً لرجل تزوج امرأة لم تنجب ثم تزوج أختها؛ وخرج حمزة بن عبد الله بن الزبير يريد الحجاج فقال ابن الزبير لأم هاشم: من الخارج؟ قالت: حمزة، قال أي الحمزتين، يعني حمزة هذا وحمزة بن الزبير، وأمه كلبية، وهو أخو مصعب لأمه الرباب بنت أنيف، قالت: ابن الكلبية فقال كذبت ولو ولدت الكلبية الناس جميعاً ما كانوا إلا صبراً، ولكنه ابن اختك.

قالوا: واصطلح أهل الكوفة على عامر بن مسعود بعد موت يزيد وهرب ابن زياد إلى الشام، فأقره ابن الزبير أشهراً ثم عزله وولى عبد الله بن يزيد الخطمي من الأنصار الصلاة، وإبراهيم بن محمد بن طلحة الخراج، وكان يقال لعامر بن مسعود دحروجة الجعل لقصره، وهو عامر بن مسعود بن أمية بن خلف بن وهب بن حذافة بن جمح بن عمرو بن هصيص بن كعب.

فخطب أهل الكوفة فقال إن لكل قوم أشربةً ولذاتٍ فاطلبوها في مظانها وعليكم بما يجمل ويحل منها، واكسروا شرابكم بالماء، وتواروا عني بهذه الجدران، فقال عبد الله بن همام السلولي:

إشرب شرابك وأنعم غير محسود واكسره بالماء لاتعص ابن مسعودٍ

إن الأمير له في الخمر مأربةٌ فاشرب هنيئاً مريئاً غير تصريدٍ

وقال آخر:

من ذا يحرم ماء المزن خالطه	في قعر خائبةٍ ماء العناقيد
إني لأكره تشديد الرواة لنا	فيها ويعجبني قول ابن مسعودٍ

فلما بلغ ابن مسعود قول ابن همام قال: قطع الله لسان عدل الحمار، فقد أساء القول، وذهب إلى قول الأخطل:

بئس الفوارس عند مختلف القنا	عدلا الحمار محارب وسلول

وحدثني العمري عن الهيثم بن عدي قال: خطب عامر بن مسعود فقال: يا أهل الكوفة لأنسينكم سيرة عمر بن الخطاب؛ قال: وقال يوماً: يا أهل الكوفة إني تزوجت امرأة من بني نصر بن معاوية فأعينوني بارزاقكم شهراً فقال قائل: نعم، فاخذ أرزاقهم كلها لشهر؛ قال: وحصب ذات يوم على المنبر فغطى وجهه بكمه وقال: لم ذا حسبكم الآن.

وقال ابن همام السلولي:

ما زلت أرجوا أبا حفص وسيرته	حتى نكحت بأرزاق المساكين
أنكحتم يا بني نصرٍ فتاتكم	وجهاً يشين وجوه الربرب العين
انكحتم لا فتى دنيا يعاش به	ولا شجاعاً إذا شقت عصا الدين
يا بن الزبير لقد وليته شبقاً	كز اليدين بخيلاً غير عنين
لا يستطف له مال فيتركه	ولا يقول لما يعطاه يكفيني

قالوا: وولى عامر عمالاً فأساءوا السيرة ومالوا إلى الخيانة، فقال ابن همام في ذلك:

يا بن الزبير أمير المؤمنين ألم	يبلغك ما فعل العمال بالعمل
باعو التجار طعام الأرض واقتسموا	صلب الخراج شحاحاً قسمة النفل
وقدموا لك شيخاً كاذباً خذلاً	مهما يقل لك شيخ كاذب يقل

الشيخ هو مرثد بن شراحيل كان أمينا على التجار في بيع الطعام.

وفيك طالب حقٍ ذو مزابنة	جلد القوى ليس بالواني ولا الوكل
أشدد يديك بزيدٍ إن ظفرت به	واشف الأرامل من دحروجة الجعل

زيد خازنه وهو مولى عتاب بن ورقاء.

إنا منينا بضبٍ من بني خلفٍ	يرى الخيانة شرب الماء بالعسل

يعني عامرا.

خذ العصيفير فانتف ريش ناهضه   حتى ينوء بشرٍ بعد مقتبل

يعني عبد الله بن أبي عصيفير الثقفي، وكان المدائن، وهو الذي مات الأحنف في داره بالكوفة.

وما أمانة عتابٍ بسالمةٍ   لا غمز فيها ولكن جمة السبل

يعني عتاب بن ورقاء كان على أصبهان.

وقيس كندة قد طالت إمارته   بسرة الأرض بين السهل والجبل

قال هشام ابن الكلبي: هو قيس بن يزيد بن عمرو بن شراحيل بن النعمان بن المنذر بن مالك بن الحارث الكندي، وبعض من لا علم له يقول: هو قيس بن الأشعث.

وخذ حجيراً فأتبعه محاسبةً   ومن عذرت فلا تعذر بني قفل

يعني حجير بن حجار بن الحر، ويقال: حجير بن جعيل الجمحي، كان على الزوابي أو الزاذانات، وبنو قفل من تيم الله بن ثعلبة كان منهم قوم على صدقات بكر بن وائل.

مارابني منهم إلا ارتفاعهم   إلى الخبيص عن الصخاة والبصل

وما غلام على أرض مسالمةٍ   كمن غزا دستبى غير مجتمل

يجبى إليه خراج الأرض مكتئباً   مستهزئاً بغناء القينة الفضل

والوالبي الذي مهران أمره   فزال مهران مذموماً ولم يزل

مهران مولى زياد، كان شفع في هذا الرجل، فصار في عداد العمال، والرجل سعيد بن حرملة بن الكاهل الوالبي، ويقال: هو أبو هياج عمرو بن مالك الوالبي:

ودونك ابن أبي عش وصاحبه   قبل السبيع فقد أجرى على مهلٍ

ابن أبي عش همذاني قدم الكوفة، فقال من سيد قومي؟ فقالوا: الحجاج بن عمرو الزبيدي فقال: أنا لا أقيم ببلدة يسود فيها زبيدي، وكان على الدينور، وصاحبه عبد الرحمن بن سعيد بن قيس الهمداني

لا تجعلن بيت مال الله ماكله   لكل أزرق من همدان مكتحل

والدارمي يطيف البهرمان به   في شارب بدلت من رعية الإبل

الدارمي لبيد بن عطارد، ويقال مسعود بن قيس بن عطارد.

ومنقذ بن طريفٍ من بني أسدٍ   أنبئت عاملهم قد راح ذا ثقل

يعني منقذ بن طريف بن عمرو بن قعين بن الحارث بن ثعلبة بن دودان بن أسد، وأخبر أن عاملهم، وهو رجل منهم، قد حسنت حاله للخيانة، وقال ابن الكلبي: وكان عاملهم نعيم بن دجاجة وكان على أسفل الفرات.

وما أخينس جعفيٍ يمانعه   من المتاع قيام الليل بالطول

يعني زحر بن قيس، ويقال محمد بن أبي سبرة كان على جوخى

وآخران من العمال عندهما   بعض المنالة إن ترفق بها تنل

محمد بن عمير والذي كذبت   بكر عليه غداة الروع والوهل

محمد بن عمير بن عطارد ويزيد بن رويم حين امر به عمرو بن حريث.

وما فرات وإن قيل امرؤ ورع   إن نال شيئاً بذاك الخائف الوجل

فرات بن زحر قتله المختار يوم جبانة السبيع.

والحارثي سيرضى أن تقاسمه   إذا تجاوزت عن أعماله الأول

الحارثي السري بن وقاص وكان على نهاوند

وداع الأقارع فأقرعهم بداهيةٍ   واحمل خيانة مسعودٍ على جمل

مسعود من يني أسد

كانوا أتونا رجالاً لا ركاب لهم   فاصبحوا اليوم أهل الخيل والأبل

لن يعتبوك ولما يعل هامهم   ضرب السياط وشد بعد في الحجل

جمع حجل.

إن السياط إذا غضت غواربهم   ابدوا ذخائر من مال ومن حلل

وحدثني المدائني عن سحيم بن حفص عن أشياخه قالوا: كان ابن الزبير يكنى أبا بكر وأبا خبيب، وكان شديد القلب واللسان، وهو أول مولود بالمدينة في الإسلام، وكان بخيلاً فقال فيه الشاعر:

رأيت أبا بكر وربك غالب   على أمره يبغي الخلافة بالتمر

وقتل وهو ابن ثلاث وسبعين، ويقال: اثنتين وسبعين وأشهرٍ.

وقال لعامله على وادي القرى: أكلت تمري وعصيت أمري، وجعل يضربه.

وقال لأعراب أتوه: غن سلاحكم لرث، وإن حديثكم لغث، وإنكم لعيال في الجدب، وأعداء في الخصب.

وأتاه أعرابي يستفرضه فقال: افرضوا له، فقال أعطني، قال:قاتل أولاً، فقال الأعرابي: دمي نقد ودراهمك نسيئة.

قالوا: ولما طال الحصار على ابن الزبير حبس الطعام وقال إن أخرجته فني ولكنكم تنظرون إليه فتقوى قلوبكم وتطيب أنفسكم، ومتى أكلتموه نفد، ولا يأتيكم ميرة فتلقون بأيديكم.

قالوا: وشكت امرأة من أهل مكة إلى ابن الزبير فقالت: غررت سفهاءنا وأخذت رباعنا، فاقل سفهاءنا واردد رباعنا، فقال: ما تقول هذه الهرة الثرماء.

قالوا: وقال صحير بن أبي الجهم: دخلت على ابن مطيع وهو غائب على ابن الزبير، وعلي سيفي، فقال ضع سيفك وأرح نفسك فما عند ابن الزبير خير لدين ولا دنيا، قال: فأتيت الحجاج فأعطاني الأمان.

المدائني عن عوانة، قال: نادى أهل الشام يا بن الزبير يا بن الحواري فقال لمولى له: أجبهم فقال: هل تعيبون من حواري رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئاً؟ قالوا: يا بن ذات النطاقين فقال أتعيبونها بالنطاق التي كانت تحمل به الطعام إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وإلى الصديق أم بالنطاق الذي تنطق به المرأة الحرة في بيتها وقد قال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لك نطاقان في الجنة" فقالوا: يا بن الزبير يا مشؤوم فسكت، فقال له ابن الزبير، أجبهم، قال: كيف أجيبهم وقد صدقوا.

المدائني عن المثنى بن عبد الله عن عوف، قال: قال ابن عمر: كنت أتمنى ألا أموت حتى أعلم إلى ما يصير أمر ابن الزبير، فيرحم الله أبا بكر طلب دراهم العراق، ورحم الله مروان طلب دراهم الشام.

المدائني عن عبد الله بن فائد، قال: نظر ثابت بن عبد الله بن الزبير إلى أهل الشام فقال: إني لأبغضهم فقال سعيد بن خالد بن عمرو بن عثمان: تبغضهم لأنهم قتلوا أباك؟ قال: صدقت قتل أبي علوج الشام وجفاته، وقتل جدك المهاجرون والأنصار.

المدائني عن عليّ بن حماد، قال: قال مصعب بن الزبير لابن عمر: يا أبا عبد الرحمن أنسيت حق الله عليك في هذا الأمر؟ قال: نعم كتبت إلى عبد الملك آمره وأن يكف نفسه، فكتب اليّ: أنا أخرج نفسي إن أخرج ابن الزبير نفسه ويجهل الأمر شورى، وكتبت إلى أخيك فكتب إليّ: إنك لست من هذا الأمر في شيء.

المدائني، قال: قال ابن أبي مليكة: ما رأيت أحداً أحسن مناجاةً لربه في عقب الصدر من عبد الله بن الزبير.

المدائني قال: كان مصعب بن الزبير جواداً، فكتب إلى أخيه عبد الله: من سألك شيئاً فاكتب إليّ له فإن أعطيته كان حمده لك، وإن منعته كان ذمه عليّ، فلم يكتب لأحد إليه إلا أعطاه، فأمسك عن الكتاب

لأحد إليه.

قال: وقال عليّ بن زيد: كان عبد الله طويل الصلاة، كثير الصيام، شديد البأس، كريم الجدات والأمهات والخالات، وكانت فيه خلال مباينة لما حاول من الخلافة: بخل وضيق وسوء خلق، ولجاج.

المدائني عن أبي زكريا العجلاني عن ابن نجيح عن مجاهد عن ابن عباس أنه قال: إن هذا الأمر بدأ بنبوة ورحمة، وخلافة، وإنه اليوم ملك عقيم، فمن سمع مقالتي فليهرب من بني أمية وآل الزبير فإنهم يدعون إلى النار.

المدائني عن سفيان عن عمرو بن دينار: إن ابن الزبير أقاد من لطمة.

المدائني عن أبي هلال الراسبي: إن الحسن كتب إلى ابن الزبير: إن لأهل الخير علاماتٍ يعرفون بها ويعرفونها من أنفسهم، فمنها الصَبْرَ على البلاء، والرضى بالقضاء، وإنما الإمام سُوق فما نفق فيها حمل إليها فانظر أي سوق سوقك.

المدائني عن ابن المبارك قال: قال أبو برزة الأسلمي: إنكم معشر العرب كنتم على الحال التي علمتم من القلة والذلة والضلالة، وإن الله رفعكم بالإسلام وبمحمد عليه السلام حتى بلغتم ما ترون، وإن هذه الدنيا قد أفسدت ما بينكم، أما الذي بالشام – يعني مروان – فإنما يقاتل عن الدنيا، وكذلك الذي بمكة – يعني ابن الزبير – وما يقاتل الذين تدعونهم قراءكم إلا على الدنيا، وما نرى خير الناس إلا عصابة لابدةً خماص البطون من أموال الناس، خفاف الظهور من دمائهم.

حدثني هدبة حدثنا حماد بن سلمة عن أبي حمزة قال: قلت لابن عباس: إني بايعت ابن الزبير فأعطاني وحملني على فرس، أفأقاتل معه؟ قال: لا تقاتل معه، ورد عليه ما أعطاك واشتر بغلاً أو بغلين، وغلاماً واغزُ المشركين، فإن قتلت على ذلك كنت شهيداً إن شاء الله تعالى، قال: فرددت على ابن الزبير ما أخذت منه.

المدائني عن قيس بن الربيع عن ابن أبي ليلى عن عطاء، قال: أتي ابن الزبير برجل فأمر بضرب عنقه فقال امرأته طالق ثلاثاً فورثها منه.

المدائني، قال: بعث يزيد بن معاوية الضحاك بن قيس ليأخذ بيعة ابن الزبير فأبى أن يبايع فقال الضحاك إنك إن لم تبايع طائعاً بايعت كارهاً، فقال ابن الزبير: إنك يا ثعلبة تيس بحيرةٍ تبيع الصربة بالقبضة، أردت الحقحقة فأخطأت استك الحفرة.

المدائني، قال: جاء رجلٌ إلى ابن عمر فقال: هذه خيلنا، قال: أية خيل؟ قال: خيل ابن الزبير، قال: ماهي لنا بخيل، وجاء آخر فقال: بايعت ابن الزبير على كتاب الله وسنة نبيه، فأبى ذلك، فقال: صدق ولو أعطاك ذلك لم يف لك به؛ قال: وجاءه آخر فقال: بماذا تأمر يا أبا عبد الرحمن؟ قال: بطاعة الله،

والجماعة وأنهاك عن الفرقة، قال: ثم بماذا؟ قال: إن كانت لك ضيعة فالحق بضيعتك.

المدائني عن عبد الله بن فائد، قال: كان ابن الزبير لا يتكلم يوم الجمعة إلا أنه كان يشتم ثقيفاً فيقول قصار الخدود. لئام الجدود. سود الجلود. بقية ثمود.

المدائني عن يزيد بن زريع عن حبيب بن الشهيد: أن عبد الله بن جعفر لقي ابن الزبير فقال له ابن الزبير: أتذكر يوم لقينا رسول الله صلى الله عليه وسلم أنا وأنت وأحد ابني فاطمة؟ فقال: نعم، فحملنا وتركك، فسكت ولو علم ابن الزبير أنه يقول حملنا وتركك ما سأله.

المدائني عن ابن فائد، قال: سمع معاوية رجلاً من كلب يقول:

ومن رقاش ماجد سميدع يأبى فيعطي عن يدٍ ويمنع

فقال ذاك منا، ذاك عبد الله بن الزبير.

المدائني عن مسلمة وغيره: إن فضالة بن شريك الأسدي أتى عبد الله بن الزبير فقال له: إني جشمت إليك سفراً بعيداً، أتعبت فيه نفسي وأنفدت نفقتي، وأنقبت فيه راحلتي، فقال ارقعها بسبت، واخصفها بهلب، وأنجد بها العصرين يبرد خفها، فقال: لعن الله ناقةً حملتني إليك، فقال: إن وراكبها، وانصرف و لم يصله فقال:

أقول لغلمتي أدنو ركابي أفارق بطن مكة في سواد

فما لي حين أقطع ذات عرقٍ إلى ابن الكاهلية من معاد

سيبعد بيننا حث المطايا وتعليق الأداوي والمزاد

أرى الحاجات عند أبي خبيبٍ نكدن ولا أمية بالبلاد

وكيف بأن يسوس الأمر منهم أغر مقابل واري الزناد

من الأعياص أو من آل حربٍ أغر كغرة الفرس الجواد

فلما بلغ ابن الزبير الشعر فمر به فوله إلى ابن الكاهلية قال:لو علم أن لي جدة ألأم من عمتي لسبني بها، وكانت أم خويلد بن أسد بن عبد العزى، جدة العوام بن خويلد، زهرة بنت عمرو بن حنثر، من بني كاهل بن أسد بن خزيمة.

وقال بعض قضاعة:

عدمت قريشاً أن رضوا بك سيداً وأنت بخيل الكف غير جواد

فقال عبد الله بن الحجاج:

أتطلب شأو ابن الزبير ولم تكن لتدركه ما حج لله راكب

تكلفت أمراً لم تكن لتناله طوال الليالي أو تنال الكواكب

فمهلاً بني مروان لستم بذادةٍ إذا ما التقت يوم اللقاء الكتائب

إذا التقت الأبطال كنتم ثعالباً وأسد الشرى في السلم عن الكواعب

المدائني، قال: قال وهب بن منبه: استعمل ابن الزبير على اليمن رجلاً دميماً، وكان يلقب عجوز اليمن، فكتب إليه ابن الزبير يأمره بالجباية، فقال: لي أرضيكم مجرودة فانطلقوا إلى أمير المؤمنين، فادفعوا عن أنفسكم، فقدمت في وفد، ودخلت عليه وعنده عبد الله بن خالد بن أسيد، فقال لي: كيف عجوز اليمن؟ فقلت:"أسلمت مع سليمان لله رب العالمين" ولكن ما فعلت عجوز قريش أم حبلٍ حمالة الحطب؟فضحك ابن الزبير وقال لابن خالد:أسأت المسألة وأحسن الجواب.

حدثني عباس بن هشام الكلبي عن أبيه عن جده قال: أهدى أبو حمل أحد بني حصين بن سعدانة بن حارثة الكلبي إلى عبد الله بن الزبير فطراً فأتاه به وعنده زفر بن الحارث الكلابي، فقال زفر يحرض ابن الزبير على صلته:

ألا أبلغ أبا حملٍ رسولاً فقد أهديت فطرك من بعيد

فأنت المرء يعطي كل خيرٍ ويحبي بالولائد والعبيد

فقال ابن الكلبي: قال خالد بن سعيد: فوالله ما أثابه عليه شيئا، وقد أتاه به من السماوة، فلقيه زفر بن الحارث بعد ذلك فقال له:يا أبا الكوثر، أو يا أبا الهذيل، والله ما اعطاني قيمة الفطر، فكيف يحبوني بالولائد والعبيد.

وقال هشام ابن الكلبي: أخبرني خالد بن سعيد عن أبيه قال: حمل بن سعدانة الذي يقول:

لبث قليلاً يلحق الهيجا حمل

وكان حمل بن سعدانة بن حارثة العليمي وفد إلى النبي صلى الله عليه وسلم وعقد له لواء.

وقال أبو دهبل واسمه وهب بن وهب بن زمعة الجمحي:

أتاركة عليا قريشٍ سراتها وساداتها عند المقام تذبح

هم عوذ بالله جيران بيته به يعصمون أن يباحوا ويفضحوا

وقال ابن الزبير: لا تزال قريش تعرف العز وإنكار الضيم ما رأيتني حياً.

المدائني قال: بعث الزبير ابنه عبد الله إلى خاله العباس بن عبد المطلب فوافقه يتغدى فقال: ادن يا بن أختي

فأكل أكلاً ضعيفاً ثم أتي بعقب من لبن فقال اشرب فشرب شراباً ضعيفاً فقال يا ابن أخيتي أضواك آل أبي بكر.

حدثني أبو مسلم الأحمري عن هشام ابن الكلبي عن أبيه وعوانة قالا: خطب النوار بنت أعين بن ضبيعة بن ناجية بن عقال رجل من بني مجاشع بن دارم بن مالك فقالت للفرزدق بن غالب بن صعصعة بن ناجية: أنت وليي واشهدت له برضاها بما صنع في تزويجها، فلما خرج الشهود قال لهم: حفظتم الشهادة؟ قالوا: نعم، قال: واشهدوا أني قد تزوجتها على خمسة آلاف وبلغها الخبر فلم ترض، وأتت ناجية بن عقال، فأعانوها على الفرزدق، وحولها إلى بني عاصم من بني منقر بن عبيد واكتروا لها كرياً من بني عدي بن عبد مناة أد بن طابخة أحد بني ملكان بن عدي، ومعه أجير له خراساني يقال له زهير، وخرجت إلى ابن الزبير مستغيثةً به، ويقال:إنهم حولوها إلى بني عاصم بن عبيد بن ثعلبة يربوع فقال الفرزدق:

ولولا أن يقول بنو عديٍ ... أليست أم حنظلة النوار

أم حنظلة بن مالك بن زيد مناة بن تميم، النوار بنت جل بن عدي بن عبد مناة، فيقول لولا أن يقولوا أليست جدتكم منا

إذاً لأتي بني ملكان مني ... بضائع لا يقسمها التجار

ملكان بن عدي بن عبد مناة أخو جل بن عدي، وقال:

لقد أهدت وليدتنا إليكم ... عزائز لايقسمها التجار

لبئس العبء يحمله زهير ... على أعجاز صرمته نوار

وقال أيضاً:

ولولا أن أمي من عدي ... وأني كاره سخط الرباب

لصلت على بني ملكان مني ... بجيش غير منتظر الإياب

وقال يهجو بني قيس بن عاصم:

بني عاصمٍ إن تلجئوها فإنكم ... ملاجىء للنسوان دسم العمائم

بني عاصمٍ لو كان حياً لديكم ... للام بنيه الشيخ قيس بن عاصم

فقالوا للفرذدق:والله لئن زدت على هذين البيتين لنقتلنك؛ وخرج الفرزدق إلى ابن الزبير، فترلت النوار بنت أعين على أم هاشم بنت منظور بن زبان، ونزل الفرزدق على بني عبد الله بن الزبير وسألهم أن يشفعوا له، وشفعت أم هاشم للنوار فشفعها، فقال الفرزدق:

أما بنوه فلم يقبل شفاعتهم وشفعت بنت منظور بن زبانا

ليسى النجي الذي يأتيك مؤتزراً مثل النجي الذي يأتيك عريانا

فقال ابن الزبير للنوار: إن شئت فرقت بينكما وقتلته فلا يهجونا، وإن شئت سيرته إلى بلاد العدو؟ فقالت: ما أريد واحدة منهما، قال: فإنه ابن عمك، وهو راغب فيك فأزوجك إياه؟ فقالت:نعم فزوجها إياه، فكان الفرزدق يقول: حرجنا متباغضين ورجعنا متحابين والله يفعل ما يشاء.

وقال قوم: نزل الفرزدق على حمزة بن عبد الله بن الزبير وقال:

اليوم قد نزلت بحمزة حاجتي إن المنوه بأسمه الموثوق

بأبي عماة خير من وطيء الحصا ونمت به في الصالحين عروق

بين الحواري الغر وهاشمٍ ثم الخليفة بعده الصديق

وقال أيضاً:

يا حمزة هل لك في ذي حاجة عرضت انضاؤه بمكان غيرمعمور

وأنت أحرى قريش أن تقوم بها وأنت بين أبي بكرٍ ومنظور

وكانت أمة قهطم بنت منظور، وقال بعضهم: تماضر بنت منظور.

حدثني بعض النوفليين من ولد عبد الله بن الحارث ببة قال: وقع بين ببة وبين عبد الله بن الزبير كلام فعيره بلقبه، وقال: ألست ببة ما ببة، فقال له عبد الله بن الحارث: ألست الضبابي وكان ابن الزبير في صغره جلس على حجرٍ ضبٍ ففسا حتى خرج الضب، فكان يعير بذلك ويقال له الضبابي، فترضى ابن الزبير ببة عندها وصالحه.

حدثني أبو محمد التوزي النحوي عن أبي زيد الأنصاري عن أبي عمرو بن العلاء قال: خطب ابن الزبير يوماً، فتكلم رجل من ناحية المسجد، فقال ابن الزبير: من المتكلم؟ فسكت، فقال ابن الزبير: ما له قاتله الله ضبح ضباح الثعلب، وقبع قباع القنفذ.

قالوا: وكان ابن الزبير يقول عالجت لحيتي لتكثر فلما بلغت سنين يئست منها وكان معصوباً خفيف اللحم، فكان الزبير يقول:عبد الله يشبه أبا بكر، فهو ابنه ومنعني ابني. وقال الحارث بن ضب العتكي في ابن الزبير، ويقال إنها قيلت في معصب، وذلك الثبت:

فرد الخلافة يا بن الزبير إلى أهلها قبل أن تخلع

اخاف عليك زياد العراق وأخشى عليك بني مسمع

ولا تأمن المكر من حارث فثم امرؤ سمه ينقع

ذكرت لك المعشر الأكرمين ذوي المجد والحسب الأرفع

الحارث بن قيس الجهضمي، وزياد بن عمرو العتكي، ومالك بن مسمع وإخوته.

المدائني عن عبد الله بن فائد: أن عبد الله بن الزبير أتى الطائف واستخلف ابنه عباد بن عبد الله، فأتى عباد بخالد بن خالد بن الوليد وقد شرب وشهد عليه بأنه يعانق النساء في الطواف فأمر بضربه الحد، فجلد فأتى بنو مخزوم أباه فكلموه فقال: ما أصنع به؛ وكان يتحدث عند امرأة من قريش، فقيل لابن الزبير فحبسه وقيده فقال:

تذكار ليلي ليس يقصر مده طول النهار

فلئن خطاي تقاربت رسف المقيد في الحصار

لبما أمشي بالأبا طح يقتفي أثري إزاري

في أبيات؛ ثم أخرجه وسيره إلى الشأم، فتزوج ابنة النعمان بن بشير فنازغها يوماً فقال:

لظباء بين الحطيم إلى الحثمة في مظلمات ليلٍ وشرق

قاطنات الحجون أشهى إلى القلب من الساكنات دور دمشق

فقالت:

كهول دمشق وشبانها أحب إلينا من الجاليه

إذا ما أتى وافد منهم كنسنا له داره الخاليه

لقمل يدب دبيب الدبى أكاريس أعيت علىالغاليه

وريحهم مثل ريح التيو س عفت على ألبان والغاليه

فبلغ عبد الملك الشعر فقال: يا خالد جعلتك من الجالية؟ قال: وأنت يا أمير المؤمنين أيضاً من الجالية، فاقام بالشأم فانكسرت فخذه، فقيل لعبد الملك: فقال: لاجبرها الله، ومات من وجعه فقيل لعبد الملك: لا رحمه الله.

قال ابن الكلبي: كان خالد بن المهاجر مع ابن الحنفية بالشعب، فعلق عليه ابن الزبير زكرة خمر، ثم ضربه

الحد.

ورثته هند ابنة النعمان فقالت:

ألا يا بن المهاجر قد دهاني طارق طرقا

دعاك فما أبيت ولا سددنا دونك الغلقا

ألا عيني جودا بالدموع عليه واستبقا

أعيناني بفيضكما ومجا الدمع والعلقا

وقال عقبة الأسدي حين ضرب خالد بن المهاجر:

ما كنت مذحجج بمكة ملحداً في حيث يأمن قاطن وحمام

أبنو المغيرة مثل آل خويلدٍ يال الرجال لخفة الأحلام

فلينهض لخالدً من قومه مثل الأغر الحارث بن هشام

المشترين الحمد من أموالهم في كل صامتةٍ وكل سوام

ولتنهرن العيس تنفح في البرى تجتاب عرض مكارم الأعلام

بالدارعين عليهم أبدانهم لتجاب دعوة واصل صرام

المدائني، قال: قال عبد الله بن الزبير: لقد أعظم الناس ولادة صفية بنت عبد المطلب لنا حتى لقد هممت أن أطلق بنت الحسين، فبلغ ذلك عبد الملك فقال: الكلب أضن بالشحمة.

قالوا:وذكر مروان طلحة فأثنى عليه وذكر الزبير فلم يقل فيه شيئاً وكان عبد الله بن الزبير حاضراً فقال إن أبا محمد أهل لما ذكرته لكني أعرف من لم يذكر بخير قط، قال: ومن هو؟ قال: أبوك، فوثب إليه مروان فاضطربا حتى حجز موسى بن طلحة بينهما فقال له: دعني أصك عين ابن لعين رسول الله صلى الله عليه وسلم.

أمر التوابين وخبرهم بعين الوردة

وهي رأس العين من الجزيرة.

حدثني عباس بن هشام عن أبيه عن جده، وأبي مخنف قالوا: لما فرغ مروان من مرج راهط قصد مصر ومر بفلسطين وقد هرب منها ناتل، فولاها مروان روح بن زنباع، ثم سار نحو مصر فغلب عليهم، ثم قدم الشأم فإذا زفر بن الحارث الكلابي قد غلب على قرقيسيا وتحصن بها، وبلغه خبر مصعب بن الزبير، وأنه

يريد الشام فوجه مروان: عبيد الله بن زياد إلى الجزيرة والعراق، فسار في ستين ألفاً فيهم الحصين بن نمير، وابن ذي الكلاع الحميري، وعمير بن الحباب السلمي، وكان عمير قد بايع مروان وصار في حيزه، فسار ابن زياد حتى أوقع التوابين بعين الوردة، ثم أتي قرقيسيا فرام زفر فلم يقدر عليه، فسار يريد العراق فقتل على الخازر وهو نهر بأرض الموصل، وكانت وفاة مروان من قبل نفوذ ابن زياد إلى الجزيرة، فكتب إليه عبد الملك بوفاته، وأخذ البيعة له، ولعبد العزيز بن مروان من بعده، وأن يتولى من أمر الجيش ما كان وليه.

حدثني عباس عن أبيه عن أبي مخنف وغيره قالوا: لما قتل الحسين بن عليّ عليهما السلام ودخل عبيد الله بن زياد من معسكره بالنخيلة إلى الكوفة تلاقت الشيعة بالتلاوم والتندم، ففزعوا إلى خمسة نفر من رؤوس الشيعة وهم: سليمان بن صرد الخزاعي، وكانت له صحبة، المسيب بن نجبة الفزازي، وكان من خيار أصحاب علي، وعبد الله بن سعد بن نفيل الأزدي، وعبد الله بن والٍ التيمي، ورفاعة بن شداد البجلي ثم القتباني، فاجتمع هؤلاء الخمسة النفر في مترل سليمان بن صرد، ومعهم ناس من وجوه الشيعة، فابتدأ المسيب بن نجبة الكلام فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أما بعد فإنا قد ابتلينا بطول العمر فنرغب إلى ربنا في أن لا يجعلنا ممن يقول له غداً: "أولم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر" وقد بلا الله أخبارنا فوجدنا كاذبين في أمر ابن أبنه نبينا، وقد بلغتنا كتبه، وقد أتتنا رسله، وسألنا نصره عوداً وبدءاً، وعلانية وسراً، فبخلنا عليه بأنفسنا حتى قتل إلى جانبنا، فلا نحن نصرناه بأيدينا ولا خذلنا عنه ألسنتنا، ولا قويناه بأموالنا، ولا طلبنا له النصرة من عشائرنا، فما عذرنا عند ربنا لاعذر والله أو نقتل قاتليه والموالين عليه، وإنه لابد لكم من أمير تفزعون إليه، وترجعون إلى أمره، وراية تحفون بها معه.

ثم تكلم رفاعة بن شداد البجلي، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال:دعوت إلى الجهاد جهاد الفاسقين، والتوبة من الذنب العظيم، فمسموع ذلك عنك، ومقبول منك، وقلت ولوا أمركم رجلا تفزعون إليه وتطيفون برايته وتطيعون له، فإن تكن ذلك الرجل تكن عندنا مرضياً متنصحاً، وإن رأيت ورأي أصحابنا ولينا هذا الأمر شيخ الشيعة، وصاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإذا لسابقة والقدم سليمان بن صرد، المحمود في دينه وبأسه، الموثوق برأيه وتدبيره.

ثم تكلم عبد الله بن وال وعبد الله بن سعد بن نفيل بنحو من كلام رفاعة بن شداد، وذكر المسيب بن نجبة وفضله، وذكر سليمان بن صرد لسابقته ورضاهما به، فقال المسيب أصبتم ووفقتم، وأنا أرى مثل الذي رأيتم، فولوا سليمان أمركم.

فولوه عليهم، وقلدوه رئاستهم، فخطب سليمان بن صرد فقال: إني أخاف ألا نكون أخرنا إلى هذا الدهر الذي نكدت فيه المعيشة، وعظمت فيه الرزية لما هو خير لنا، نمد أعناقنا إلى قدوم آل نبينا، ونعدهم

نصرنا، ونحثهم على المصير إلينا فلما قدموا علينا ونينا وعجزنا وداهنا وتربصنا، حتى قتل ولد نبينا وسلالته وبضعة من لحمه، فاتخذه الفاسقون غرضاً للنبل ودرية للرماح، فلا ترجعوا إلى الحلائل والأبناء حتى يرضى الله عنكم بأن تناجزوا من قتله وتبيروه، ألا ولا تهابوا الموت، فوالله ما هابه أحد قط إلا ذل، وكونوا كتوابي بني اسرائيل إذ قال لهم نبيهم"إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم ذلكم خير لكم عند بارئكم" فما فعل القوم جثوا والله للركب، ومدوا الأعناق، ورضوا بالقضاء حين علموا أنه لا ينجيهم من عظم الذنب إلا الصَبْرَ على القتل، فكيف بكم لو قد دعيتم إلى مثل ما دعي القوم إليه، اشحذوا السيوف، وركبوا الأسنة وأعدوا لعدوكم ما استطعتم من قوة.

وقال عبد الله بن سعد بن نفيل، أو أخوه خالد: أشهد الله ومن حضر من المسلمين أني قد جعلت مالي الذي أصبحت أملكه، سوى سلاحي الذي أقاتل به عدوي، صدقة على المسلمين أقويهم به على قتال القاسطين، وقام أبو المعتمر حنش بن ربيعة الكناني فقال: وأنا أشهدكم على مثل ذلك، وتصدق حجر بن عوضة الكندي بماله عليهم أيضاً، وتصدق الأسود بن ربيعة بن مالك بن ذي العينين الكندي بماله عليهم أيضاً.

وكتب سليمان بن صرد إلى سعد بن حذيفة يدعوه ومن قبله إلى التوبة، والطلب بدم الحسين، فأجابوه إلى ذلك، وهم شيعة بالمدائن، وكانوا انتقلوا إليها من الكوفة، وقال لهم سعد بن حذيفة: أنكم كنتم على نصرة الحسين لولا أن خبر قتله ومعاجلة القوم إياه أتاكم، فانهضوا لقتال قتلته.

وكتب سليمان بن صرد إلى المثنى بن مخربة العبدي، ومن قبله من شيعة البصرة، بمثل ذلك فأجابوه إلى النهوض معه.

وكان ابتداء أمر التوابين في آخر سنة إحدى وستين، فكانوا يتداعون ويستعدون ويرتأون، وكان مهلك يزيد بن معاوية في شهر ربيع الأول سنة أربع وستين وكان أجل الشيعة الذي ضربوه لمن كتبوا إليه في شهر ربيع الآخر سنة خمس وستين، على أن يتوافوا ويجتمعوا بالنخيلة.

وكان عبيد الله حين أتاه موت يزيد بالبصرة وثب به أهلها حتى استخفى، ثم لحق بالشام، فلم يزل مع مروان بن الحكم إلى أن عقد له مروان على ما غلب عليه وفتحه من أرض الجزيرة والعراق، ووثب أهل الكوفة بعامله عمرو بن حريث أيضاً فأخرجوه واصطلحوا على عامر بن مسعود الجمحي دحروجة الجعل، فكان يصلي بهم ويدعو لابن الزبير حتى عزله ابن الزبير، وولى عبد الله بن يزيد الخطمي، فقدمها ابن يزيد لثماني بقين من شهر رمضان سنة أربع وستين، ويقال: بعد ذلك بأشهر.

وقدم المختار بن أبي عبيد الكوفة بعد عبد الله بن يزيد بثمانية أيام، فكان المختار إذا دعا الشيعة إلى نفسه،

وإلى الطلب بدم الحسين قالوا: هذا سليمان بن صرد شيخ الشيعة وقد أطاعته الشيعة وانقادت له وولته أمرها، فيقول: إن سليمان رجل لا علم له بالحروب وسياسة الرجال، وقد جئتكم من قبل المهدي محمد – يعني ابن الحنفية – مؤتمناً منتجباً ووزيراً مناصحاً، فلم يزل حتى انشعبت إليه طائفة منهم، وعظمهم مع ابن صرد، فكان سليمان أثقل الناس على المختار.

وأتى يزيد بن الحارث بن يزيد بن رويم الشيباني عبد الله بن يزيد الخطمي فأخبره بخبر سليمان بن صرد والمختار بن أبي عبيد وما يدعوان إليه من الطلب بدم الحسين بن علي، وأنه لا يأمن أن توليه الشيعة، فخطب الناس فقال: إن قوماً اجتمعوا للطلب بدم الحسين، فرحم الله الحسين، ورحم هؤلاء القوم، والله لقد دللت على أماكنهم وعليهم، فأبيت أن أهجيهم، والله ما قتلت الحسين، ولا مالأت على قتله وما أحببته، فلعن الله قتلته، فليظهر هؤلاء القوم آمنين، ثم ليسيروا إلى قاتل الحسين وقاتل خياركم وأماثلكم، فقد أقبل إليكم فإن عهد العاهد به على مسيرة ليلة من منبج فقتاله والاستعداد له أحزم وأرشد من أن تجعلوا بأسكم بينكم، وكان عامل ابن الزبير على الخراج دون عبد الله بن يزيد: إبراهيم بن محمد بن طلحة بن عبيد الله، فقام حين فرغ ابن يزيد من كلامه فقال: لا يغرنكم مقالة هذا المداهن، فوالله لئن خرج علينا خارج لنقتلنه، أو كما قال، فقطع عليه المسيب بن نجبه كلامه فقال: أأنت تتهددنا بالقتل إنك لأذل من ذلك، وأما أنت أيها الأمير فجزاك الله خيراً، فقد قلت قولاً سديداً، وكلم القوم إبراهيم بكلام شديد غليظ، وقالوا لابن يزيد خيراً، ثم أن أصحاب سليمان بن صرد انتشروا يشترون السلاح، ويتجهزون ظاهرين لا يخافون أحداً.

فلما أهل هلال شهر ربيع الآخر سنة خمس وستين، خرج سليمان إلى النخيلة في أصحابه فعسكر بها، وبعث حكيم بن منقذ والوليد بن غضين بن مسلم الكناني ثم الغفاري في خيل فناديا بالكوفة: يا لثأرات الحسين فتلاحق به بعد النداء قوم، وكان مبلغ من أثبت في ديوانه ستة عشر ألفاً، ويقال: اثنا عشر ألفاً، فعرض أصحابه ومن اجتمع إليه من أهل الكوفة فوجدهم أربعة آلاف، فقال: يا سبحان الله أما وافاني من ستة عشر ألفاً إلا أربعة آلاف؟ ويقال إنه قال أما وافاني من اثني عشر ألفاً إلا أربعة آلاف؟! فقيل له إن المختار ثبط الناس عنك، وقد صار معه ألفان فقال: سبحان الله أما تذكر هؤلاء الله وما أعطونا من الميثاق.

وكان مقامه بالنخيلة ثلاثاً، ثم بعث إلى من تخلف عنه يذكرهم الله وما أعطوه من العهود، فخرج إليه منهم ألف أو نحو ألف، فقام إليه المسيب بن نجبة، فقال: يرحمك الله إنه لا ينفعك المكره، ولا يقاتل معك إلا من أخرجته النية والحسبة، ومن فر إلى ربه من ذنبه، فقال سليمان:أيها الناس إنا والله ما نطلب من

الغنيمة إلا رضوان الله، وما معنا من ذهب ولا فضة ولا خزٍ ولا حريرٍ، وما هي إلا سيوفنا على عواتقنا، ورماحنا بأيدينا وزرد قدر البلغة إلى لقاء عدونا، فمن لم يرض بهذا فلا يصحبنا، فنادى الناس من كل جانب: إنا لا نطلب الدنيا، وليس لها خرجنا.

وأجمع سليمان المسير فأشار عليه عبد الله بن سعد بن نفيل بأن يطلب بدم الحسين عمر بن سعد بن أبي وقاص، ومن بالمصر فإنهم الذين شركوا في دمه وتولوا أمره، فقال سليمان: إن هذا لكما قلت، ولكن ابن زياد هو الذي سرب إليه عمر بن سعد والجنود، وعبأهم عليه، وقال: لا أمان له عندي، فسيروا إليه فإنكم إن رزقتم الظفر به فأمر من دونه أهل مصركم أيسر من أمره.

وعرض عليه عبد الله بن يزيد الخطمي أن ينظر إلى قدوم ابن زياد ليكون أمرهم وأمره في محاربته واحداً، فكره ذلك، فعرض عليه أن يوجه معه جيشاً، وقال: إنكم أعلام أهل مصركم فإن أصبتم اختل مصركم فحاجزه، وأجمع على الشخوص واستقبال ابن زياد.

ووعظ سليمان الناس، ثم سار من النخيلة، فلما صار إلى دير الأعور عرض أصحابه فإذا قد تخلف منهم نحوٌ من ألف، فقال لأصحابه:ما أحب من تخلف عنكم معكم ولوخرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالاً، ولما انتهى سليمان وأصحابه إلى قبر الحسين صرخوا صرخة واحدة، وبكوا وقال سليمان: اللهم ارحم الشهيد بن الشهيد ونادوا: يالثأرات الحسين، وأظهروا التوبة من خذلانه، ثم إن سليمان سار فأخذ على الجصاصة، ثم على الأنبار، ثم صندوداء قرية الأنصار ثم على القيارة وبعث سليمان على مقدمته كريب بن مرثد الحميري.

فلما انتهى إلى قرقيسيا أخرج إليهم زفر بن الحارث الكلابي أنزالاً وسوقاً وأهدى إلى وجوههم الجزر، ونحر لسائرأهل العسكر، وأمر ابنه الهذيل بن زفر فأقام لهم كل ما احتاجوا إليه، وزودهم، وقال لهم: إن عبيد الله بن زياد قد أقبل ومعه حصين بن نمير السكوني، وشرحبيل بن ذي الكلاع الحميري، وأدهم بن محرز الباهلي وربيعة بن المخارق الغنوي، وحملة بن عبد الله الخثعمي، وهم في الشوك والشجر، وقد وردوا الرقة فسيروا إلى عين الوردة فاجعلوها في ظهوركم فيكون الماء والمادة في أيديكم، وما بيني وبينكم فأنتم له آمنون، وعرض عليهم أن يقيموا عنده فيقاتل معهم، وقال: إنه يريدني فلا تبرحوا حتى يكون أمرنا واحداً، فلم يفعلوا، فقال: أما والله لو أن خيلي كرجالي لأمددتكم.

فأغذوا السير وانتهوا إلى قول زفر بن الحارث ورأيه وساروا إلى الشمسانية وإلى السكير، ثم إلى التنينيرين وساعا، ثم إن سليمان عبأ الكتائب ووجه إلى أول عسكر أهل الشام، وقد فصلوا من الرقة، عسكر ابن ذي الكلاع أربعمائة عليهم المسيب بن نجبة، فقاتلوهم قتالاً شديداً فنالوا منهم وهزموهم وغنموا غنيمة

حسنة، فبلغ الخبر ابن زياد فسرح إليهم الحصين بن نمير في اثنى عشر ألفاً، فخرج إليهم سليمان في التعبئة، فلما تواقفوا دعاهم الحصين إلى طاعة عبد الملك، وكان مروان قد هلك، ودعاهم سليمان إلى أن يسلموا إليهم عبيد الله بن زياد ويخلعوا عبد الملك، ويخرج عمال عبد الله بن الزبير، ويسلم الأمر إلى أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم، فاقتتلوا أشد قتال سمع به، فهزم أهل الشام يومهم، وحجز الليل بينهم، ثم قاتلوهم من الغد وقد أمد ابن زياد الحصين بابن ذي الكلاع في ثمانية آلاف فاقتتلوا قتالاً لم ير مثله، ثم تحاجزوا وقد فشت في الفريقين الجراح، ووافاهم أدهم بن محرز الباهلي في عشرة آلاف فالتقوا فقتل سليمان بن صرد الخزاعي، رماه يزيد بن الحصين بسهم، ثم أخذ الراية بعده المسيب بن نجبة الفزاري فقتل، ثم أخذها عبد الله بن سعد بن نفيل وهو يقول: "فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر" رحمكما الله فقد صدقتما ووفيتما وقاتل فحمل وحمل عليه ربيعة بن المخارق ابن جأوان الغنوي فاختلف هو و عبد الله بن سعد بن نفيل ضربتين فلم يصنع سيفاهما شيئاً، وطعن ابن أخي ربيعة بن المخارق عبد الله بن سعد بن نفيل في ثغره نحره فقتله، وأخذ الراية عبد الله بن والٍ التيمي فقتل، ويقال: بل دعي ابن وال حين قتل عبد الله بن سعد لتدفع الراية إليه فوجدوه قد استلحم فحمل رفاعه بن شداد، فكشف الناس عنه ثم إنه أقبل إلى الراية وقد أمسكها عبد الله بن حازم الكبيري من بني كبير من الأزد، فقال لا بن والٍ: خذ رايتك فأخذها وقاتل ابن وال حتى قتل، وقتل ابن حازم إلى جنب ابن وال.

وجاء الليل فنظر رفاعة إلى كل جريح، فدفعه إلى قومه، وسار بالناس حتى أصبح بالتنينيرين فعبر الخابور، ثم مضى لا يمر بمعبر إلا قطعه، ودلف أهل الشام لمحاربتهم حين أصبحوا فوجدوهم قد مضوا فلم يتبعوهم، وسار رفاعة بالناس فأسرع وخلف وراءهم أبا الجويرية العبدي في سبعين فارساً لحمل من سقط من الرجال، وقبض ما وجد من المتاع وحفظه على أهله وتعريفه، فلما مروا بزفر بن الحارث بقرقيسيا بعث إليهم من الطعام والعلف بمثل الذي كان بعث به في بدأتهم، وأرسل إليهم الأطباء والأدوية، وقال: أقيموا عندنا إن أحببتم فإن لكم الكرامة والمواساة، فأقاموا ثلاثاً ثم زودهم وساروا فأقبل ابن زياد يريد زفر بن الحارث.

وجاء سعد بن حذيفة بن اليمان من المدائن حتى انتهى إلى هيت، فاستقبله الأعراب فأخبروه بما لقي الناس فانصرف، ولقي سعد المثنى بن مخربة بصندوداء فأخبره الخبر، فأقاما فيمن معهما حتى قيل لهما إن رفاعة قد أظلمكما فاستقبلوه فبكى بعضهم إلى بعض، وانصرف سعد بن حذيفة بمن معه إلى المدائن، وانصرف أهل الكوفة إلى الكوفة، وانصرف ابن مخربة إلى البصرة.

وقوم يزعمون: إن سعد بن حذيفة كان وجه إلى أهل عين الوردة ابن الحصل يبشرهم بإقبالهم إليهم ليقووا منتهم وتطيب أنفسهم، وأن ابن مخربة وافاهم بقبر الحسين عليه السلام في بدأتهم وشهد حربهم

والله أعلم.

وقال هشام ابن الكلبي عن أبيه: قتل بعين الوردة حجر بن عوضة بن حجر بن مالك بن ذي العينين، واسم ذي العينين معاوية بن مالك بن الحارث بن بداء الكندي، وبعض الرواة يقول عوضة وذلك خطأ.

وقال الهيثم بن عدي: بعث حصين بن نمير إلى سليمان بن صرد حين التقوا إني أعرف لك حقك وسنك وقرابتك، وأنا اكره قتالك، فبعث إليه والله ما خرجت وأنا أحب الحياة، فوجه إليه سليمان بن عبد الرحمن الكلاعي في خمسة آلاف فقتل ابن صرد، ثم أخذ الراية ابن نجبة فقتل، ثم ابن سعد بن نفيل فقتل.

قالوا: وأتى أدهم بن محرز عبد الملك ببشارة الفتح، فصعد عبد الملك المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أما بعد فإن الله قد أهلك من أهل العراق ملقح الفتنة، ورأس الضلالة سليمان بن صرد، ألا وإن السيوف تركت رأس ابن نجبة خذاريف. ألا وقد قتل الله منهم رجلين ضالين مضلين: عبد الله بن سعد أخا الأزد، وابن والٍ أخا بكر بن وائل، فلم يبق بعد هؤلاء أحد عنده دفاع ولا امتناع ثم نزل.

ولما قدم رفاعة بن شداد وأصحابه الكوفة، كانوا يقولون إذا ذكر لهم أصحابهم: صبروا والله، وفررنا، وخفنا أن نلقي بأيدينا إلى التهلكة، وأن نؤكل أهل الشام لحومنا، وقلنا لعل الأيام تبقي لهم منا شراً.

وكان عمر بن سعد بن أبي وقاص، وشبث بن ربعي الرياحي، ويزيد بن الحارث بن رويم يقولون لعبد الله بن يزيد الخطمي وإبراهيم بن محمد بن طلحة بن عبيد الله عاملي ابن الزبير على الكوفة، بعد خروج ابن صرد: إن المختار بن أبي عبيد أشد عليكم من ابن صرد، وهو يقول إذا ذكر ابن صرد: إنه عشمة من العشم وحفش من الأحفاش بالٍ، ليس بذي تجربة للأمور، ولا علمٍ بالحروب وأنا رجل أعمل على مثالٍ مثل لي، وأمرٍ تقدم فيه إلي، ويدل بنفسه غير إدلال ابن صرد، وليس البلد والمختار فيه لكم ببلد، فأودعوه الحبس حتى يجتمع الناس على رجل، فأخذاه فحبساه مقيدا.

وقدم رفاعة وأصحابه الكوفة من عين الوردة، وهو محبوس فكتب إليهم: أما بعد فمرحبا بالعصبة الذين حكم الله لهم بالأجر حين رحلوا، ورضي انصرافهم حين أقبلوا، إن سليمان بن صرد رحمه الله تعالى قضى ما عليه وتوفاه الله إليه، فجعل روحه مع أرواح الأنبياء الصديقين والشهداء والصالحين، و لم يكن بصاحبكم الذي تنتظرون، ولكني الآمر والمأمور وقاتل الجبارين فأعدوا واستعدوا فإني أدعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه والطلب بدماء أهل البيت، والدفع عن الضعفة وجهاد المحلين فأجابوه إلى ما دعاهم إليه؛ وقالوا: إن شئت أخرجناك من محبسك، فقال: أنا أخرج في أيامي هذه، وكانت صفية بنت أبي عبيد أخته امرأة عبد الله بن عمر بن الخطاب، فكتب إلى عبد الله بن عمر يعلمه أن ابن يزيد وابن محمد بن طلحة حبساه لغير جناية، فكتب إليهما يسألهما إخراجه، فأخرجاه، فكان من أمره ما كان.

أمر المختار بن أبي عبيد الثقفي

وقصصه

قالوا: ولد المختار بن أبي عبيد بن مسعود بن عمرو بن عمير بن عوف بن عقدة بن غيرة بن عوف بن قسي وهو ثقيف بن منبه بن بكر بن هوازن في السنة التي هاجر فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة إلى المدينة، وتزوج أبوه دومة بنت عمرو بن وهب بن معتب؛ وكان قبل تزوجه إياها يختار نساء قومه فرأى في منامه قائلاً يقول له: تزوج دومة. فإنها عظيمة الحومة. لا يسمع فيها من لائم لومه، فتزوجها فلما اشتملت على المختار رأت في منامها قائلاً يقول لها: أبشري بولد. أشد من الأسد. إذا الرجال في كبد يتغالبون على بلد. له فيه الحظ الأسد، فلما ولد قيل لها إن ابنك قبل أن يتسعسع. وبعد أن يترعرع. كثير التبع قليل الهلع. خنشليل غير ورع يدان بما صنع.

وكان مع أبيه أبي عبيد بن مسعود حين وجهه عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه إلى العراق في الثقل، وكان له يوم قتل أبوه ثلاث عشرة سنة، وكان يقول: والله لأعلون منبراً بعد منبر. ولأفلن عسكراً بعد عسكر ولأخفين أهل الحرمين. ولأذعرن أهل المشرقين والمغربين. وإن خبري لفي زبر الأولين.

وكان المختار مع عمه بالمدائن حين جرح الحسن بن عليّ في مظلم ساباط أشار على عمه بدفعه إلى معاوية، والتقرب إليه به، طلبه قوم من الشيعة منهم الحارث الأعور، وظبيان بن عمارة التميمي ليقتلوه، فكلم عمه الحسن فسألهم الإمساك عنه فأمسكوا وكان المختار عند الشيعة عثمانياً.

فلما بعث الحسين بن عليّ مسلم بن عقيل نزل دار المختار، فبايعه المختار فيمن بايعه سراً، وخرج ابن عقيل يوم خرج والمختار في ضيعة له بخطرنيه، ولم يكن خروج مسلم عن مواعدة لأصحابه، إنما خرج بداهة حين كان من أمر هانىء ما كان وقدم المختار الكوفة مسرعاً، فوقف على باب المسجد الذي يعرف بباب الفيل في جماعة، فمر به هانىء بن أبي حية الوادعي فقال له يا بن أبي عبيد لا أنت في مترلك ولا مع القوم – يعني أهل الكوفة من أصحاب ابن زياد – فقال: أمسى رأيي مرتجنا عليّ لعظيم خطبكم، فأتى هانىء عمرو بن حريث، وهو خليفة ابن زياد فأخبره بقول المختار فأرسل إليه عمرو بن حريث رسولاً وقال له: استنهه عن نفسه، وحذره أن يجعل عليها سبيلاً، فقام زائدة بن قدامة الثقفي فقال: آتيك به على أنه آمن وإن رقي إلى الأمير عبيد الله فيه شيء قمت بشأنه عنده؟ فقال عمرو بن حريث: أما مني فهو آمنٌ، وأما الأمير فإن بلغه عنه شيء أقمت له بمحضره الشهادة وشفعت عنده أحسن الشفاعة، فأبلغ المختار رسالة عمرو بن حريث فأتى حتى جلس تحت رايته وبات ليلته، ثم إن ابن زياد جلس للناس وفتح

بابه فدخل المختار عليه فلما رآه قال له: أنت المقبل في الجموع لنصر ابن عقيل؟ فقال: والله ما بت إلا تحت راية عمرو، فرفع ابن زياد قضيباً كان في يده فاعترض به وجه المختار فشتر عينه، وشهد له عمرو على ما قال، فقال ابن زياد لولا شهادة عمرو لك لضربت عنقك، وأمر به فحبس فلم يزل محبوساً حتى قتل الحسين.

ثم إن المختار سأل زائدة بن قدامة الثقفي أن يسير إلى عبد الله بن عمر فيسأله الكتاب إلى يزيد بن معاوية في استيهابه منه، وكانت صفية بنت أبي عبيد أخت المختار عند عبد الله بن عمر، فسار ابن قدامة إلى ابن عمر فكتب إلى يزيد بما سأل المختار، فكتب يزيد إلى ابن زياد بتخلية سبيل المختار فخلاه وأجله في المقام بالكوفة ثلاثاً؛ فخرج في اليوم الثالث إلى الحجاز، فلقيه ابن الغرق من وراء واقصة، فلما رأى شتر عينه استرجع فقال المختار: شتر عيني ابن الزانية بالقضيب، قتلني الله إن لم أقطع أنامله وأباجله وأعضاءه إرباً إرباً، فاحفظ هذا الكلام عني، ثم ذكر ابن الزبير فقال: إن سمع مني وقبل عني كفيته أمر الناس، وإلا فلست بدون رجل من العرب، إن الفتنة قد برقت ورعدت، وكأن قد انبعثت فوطئت في خطامها؛

فروي عن ابن الغرق أنه قال: حدثت بهذا الحديث الحجاج بن يوسف، وضحك وذكر سجع المختار فقال: كان يقول: ورافعة ذيلها. وصائحة ويلها. بدجلة أو حولها. فوالله ما أدري ما كان يقول، إلا أنه كان رجلاً ديناً، ومقارعٍ أعداء، ومسعر حرب.

قال: وقدم المختار على عبد الله بن الزبير، فرحب به وأوسع له ثم قال له: ما حال العراق يا أبا إسحاق؟ قال: هم لسلطانهم في العلانية أولياء، وفي السر أعداء، فقال ابن الزبير: هذه صفة عبيد السوء إذا رأوا أربابهم خدموهم وأطاعوهم، وإذا غابوا عنهم شتموهم وعابوهم، وعرض على ابن الزبير أن يقلده أمره ويستكفه إياه فلم يفعل؛ فقام عنه ولحق بالطائف فتصرف في أموره وغاب عن ابن الزبير سنة، وجعل يقول: أنا مبير الجبارين، فبلغ ذلك ابن الزبير فقال: إن يهلك الله الجبارين يكن المختار أحدهم، قاتله الله كذاباً متهكماً.

وأقبل المختار بعد سنة حتى دخل المسجد وابن الزبير في ذكره فقال ابن الزبير: إذكر غائباً تره، وأقبل المختار فطاف بالبيت وصلى عند الحجر ركعتين، ثم جلس واجتمع إليه قوم يسلمون عليه، واستبطأه ابن الزبير فقال له بعضهم: قم إليه فقد استبطأك؟ فقال أتيته عاماً أول فعرضت عليه نفسي فرأيته منحرفاً عني، والله أنه إلي لأحوج مني إليه، فقال له عباس بن سهل بن سعد الساعدي: إنك أتيته نهاراً، وهذا أمر تضرب عليه الستور، فأته ليلاً، فقال: أنا فاعل، فلما كان الليل أتاه عباس، فمضيا جميعاً حتى دخلا على ابن الزبير فسلم عليه ابن الزبير وصافحه، فابتدأ المختار القول فقال: إنه لاخير في الإكثار من المنطق،

ولاحظ في التقصير عن الحاجة، وقد جئتك لأبايعك على أن لا تقضي أمراً دوني، وعلى أن أكون أول من تأذن له، وإذا ظهرت استعنت بي على أفضل عملك؟ فقال ابن الزبير: أبايعك على كتاب الله وسنة نبيه؟ فقال المختار: لو أتاك شر غلماني لبايعته هذه المبايعة العامة، والله لا أبايعك إلا على هذه الخصال، فبسط ابن الزبير يده فبايعه.

ومكث المختار معه حتى شهد حصار ابن الزبير الأول، وهو حصار حصين بن نمير السكوني، وقاتل في جماعة معه أشد القتال وأغنى أعظم الغناء، ولما كان آخر يومٍ قاتل فيه الحصين بن نمير ابن الزبير نادى: يا أهل الشام أنا المختار بن أبي عبيد، أنا الكرار غير الفرار، أنا المقدم غير المحجم إلي يا أهل الحفاظ وحماة الأدبار، وكان آخر أيامهم في القتال اليوم الذي علم أهل الشام فيه بموت يزيد؛ وكان عبد الرحمن بن بحدج بن ربيعة أحد بني عامر بن حنيفة في عصابة من الخوارج من أهل اليمامة يقاتل مدافعة عن البيت، لا غضباً لابن الزبير.

وأقام المختار مع ابن الزبير حتى انصرف عنه الحصين بن نمير وأهل الشام إلى الشام، فلما رأى أن ابن الزبير لا يوليه شيئاً أقبل يسأل الناس عن خبر الكوفة وأهلها، فيقال له إنهم أخرجوا عمرو بن حريث عامل ابن زياد واصطلحوا على عامر بن مسعود بن أمية بن خلف، فيقول: أنا أبو إسحاق، أنا لها إذ ليس لها أحد غيري، أنا راعيها إذا أظل راعيها، ثم ركب رواحله وأتى الكوفة، فلما صار بنهر الحيرة اغتسل وادهن، ولبس ثيابه، واعتم وتقلد بسيفه وركب راحلته فمر بمسجد السكون، وجبانة كندة، وجعل لا يمر بمسجد إلا سلم على أهله حتى مر ببني بداء من كندة، فسلم على عبيدة بن عمرو البدي، وقال يا أبا عمرو أبشر بالنصر واليسر والفرج إنك على رأيٍ تستر معه العيوب، وتغفر الذنوب، وكان عبيدة من أشد الناس تشيعاً وحباً لعلي، وكان شجاعاً، فقال للمختار: بشرك الله بخير، قال: القني رحمك الله وأهل مسجدك؛ ودار على الشيعة من همدان وغيرها يبشرهم ويبلغهم السلام عن ابن الحنفية.

فيقال: إنه لما أراد الشخوص إلى الكوفة أتى ابن الحنفية فقال له إني على الشخوص للطلب بدمائكم، والإنتصار لكم، فسكت ابن الحنفية فلم يأمره و لم ينهه فقال إن سكوته عني إذن لي وودعه، فقال له ابن الحنفية: عليك بتقوى الله ما استطعت؛ ويقال: إنه لما قال له: إني على الشخوص للطلب بدمائكم والإنتصار لكم قال: إني لأحب أن ينصرنا ربنا ويهلك من سفك دمائنا ولست آمر بحرب ولا إراقة دم، فإنه كفى بالله لنا ناصراً، ولحقنا آخذاً وبدمائنا طالباً.

وحدثني عبيد الله بن صالح بن مسلم العجلي، حدثنا إسماعيل بن مجالد عن أبيه عن الشعبي أنه قال – وسئل هل كان أمر المختار عن رأي محمد ابن الحنفية – فقال: كان لذلك سبب، إلا أنه أمره بما لم يعمل

به. وقال أبو مخنف في روايته: لما اجتمعت الشيعة إلى المختار حمد الله وأثنى عليه، ثم قال أما بعد فإن المهدي ابن الوصي محمد بن عليّ بعثني إليكم أميناً ووزيراً ومنتجباً وأميراً، وأمرني بقتال المحلين والطلب بدماء أهل بيته الطيبين؛ فكان أول من بايعه عبيدة بن عمرو، وقد كانت الشيعة مجتمعة لسليمان بن صرد الخزاعي، فجعل يثبطها عنه ويقول هذا رجل عشمة هامة اليوم أو غدٍ، وإنما يريد أن يقتلكم ونفسه، فإنه لا علم له بالحروب وسياسة الأمور حتى مال إليه كثير منهم، وكان ابن الزبير قد جعل مكان عامر بن مسعود على صلاة الكوفة وحربها عبد الله بن يزيد الأنصاري، ثم أحد بني خطمة، وعلى الخراج إبراهيم الأعرج بن محمد بن طلحة بن عبيد الله فأتاهما عمر بن سعد بن أبي وقاص ويزيد بن الحارث بن يزيد بن رويم الشيباني، وشبث بن ربعي الرياحي فقالوا لهما: إن سليمان بن صرد يريد قتال أعدائكما، وإن المختار يريد الوثوب بكما في مصركما والإفساد عليكما، فأخذاه فحبساه وقيداه.

فكان يقول في السجن: أما ورب البحار. والنخل والأشجار. والمهامة والقفار. والملائكة الأبرار. والمصطفين الأخيار. لأقتلن كل جبار. بكل لدن خطار. ومهند بتار. في جموع من الأنصار. ليسوا بميل أغمار. ولا عزلٍ أشرار. حتى إذا أقمت عمود الدين. ورأيت صدع المسلمين. وشفيت غليل صدور المؤمنين. وأدركت ثأر أبناء النبيين. لم يكبر عليّ فراق الدنيا و لم أحفل بالموت إذا أتى.

وكان يسجع بعد خروج ابن صرد إلى الجزيرة فيقول: عدوا لغزيكم أكثر من عشر. وأقل من شهر. فليأتينكم نبأ هتر. وطعن نتر. وضرب هبر. وقتل جم. وأمر قد حم. فمن لها يومئذ، أنا لها.

وكتب من الحبس إلى عبد الله بن عمر: "أما بعد فقد حبست مظلوماً، وظن بي ولاة المصر ظنوناً، وحملت عني أكاذيب، فاكتب رحمك الله إلى هذين الواليين الظالمين في أمري لعل الله يتخلصني ببركتك"، فكتب ابن عمر إليهما: "أما بعد فقد علمتما الذي بيني وبين المختار بن أبي عبيد من الصهر، وما أنا عليه لكما من الود فأقسمت عليكما بما بيني وبينكما لما خليتما سبيله"، فلما أتى الكتاب عبد الله بن يزيد، وإبراهيم بن محمد دعوا المختار وقالوا: هات بكفلاء يضمونك فضمنه زائدة بن قدامة الثقفي، وعبد الرحمن بن أبي عمير الثقفي، والسائب بن مالك الأشعري وقيس بن طهفة النهدي، وعبد الله بن كامل الشاكري من همدان، ويزيد بن أنس الأسدي، وأحمر بن شميط البجلي ثم الأحمسي، وعبد الله بن شداد الجشمي ورفاعة بن شداد البجلي، وسليم بن يزيد الكندي ثم الجوني، وسعيد بن منقذ الهمذاني ثم الثوري أخو حبيب بن منقذ، ومسافر بن سعيد بن عمران الناعطي وسعر بن أبي سعر الحنفي، فلما ضمنوه دعا به عبد الله بن يزيد وإبراهيم بن محمد فأحلفاه ألا يبغيهما غائلة ولا يخرج عليهما ما كان لهما سلطان، فلما خرج من عندهما قال: أما حلفي لهما به، فإنه ينبغي لي أن اكفر يميني فإن خروجي عليهما خير، ومن حلف على يمين فرأى غيرها خيراً منها أتى الذي هو خير وكفر عن يمينه، وأما حلفي بعتق مماليكي فوددت أني نلت

الذي أريد وأني لا أملك مملوكاً أبداً وأما هدي ألف بدنة فذلك أهون عليّ من بصقة.

ثم إنه صار إلى داره فتداكت عليه الشيع يبايعونه، فلم يزل أصحابه يكثرون وأمره يقوى حتى عزل ابن الزبير عبد الله بن يزيد وإبراهيم بن محمد وولى عبد الله بن مطيع بن الأسود الكوفة، فقدمها في شهر رمضان سنة خمس وستين وبعث ابن الزبير الحارث بن عبد الله بن أبي ربيعة المخزومي، وهو القباع، على البصرة، وخرج إبراهيم بن محمد إلى المدينة وكسر الخراج على ابن الزبير، وقال: إنها كانت فتنة؛ وقبل خروجه حبسه ابن مطيع، فكتب إليه إسماعيل بن طلحة: "والله لتطلقنه أو لتعلمن أني لك بئس الشعار وأنها لك بئس الدار"، فأطلقة.

ودعا ابن مطيع الناس إلى البيعة لابن الزبير، و لم يسمه، وقال: بايعوا لأمير المؤمنين فكان ممن بايعه فضالة بن شريك الأسدي، ويقال: ابن همام السلولي وقال:

دعا ابن مطيعٍ للبياع فجئته	إلى بيعةٍ قلبي لها غير عارف
فأخرج لي خشناء حيث لمستها	من الخشن ليست من أكف الخلائف
من الشثنات الكزم أنكرت مسها	وليست من البيض السباط اللطائف
معاودةٍ ضرب الهراوى لقومها	فروراً إذا ما كان يوم التسايف
ولم يسم إذ بايعته من خليفتي	ولم يشترط إلا اشتراط المجازف

قالوا: وخطب ابن مطيع فقال إن أمير المؤمنين بعثني على مصركم وثغوركم وأمكرني بجباية فيئكم ولا أحمل شيئاً مما يفضل عنكم إلا أن ترضوا بحمل ذلك، فاتقوا الله واستقيموا ولا تختلفوا، وخذوا فوق أيدي سفهائكم فوالله لأوقعن بالسقيم العاصي، ولأقيمن درء الأصعر المرتاب، ولأبالغن للمحسن في الإحسان، ولأتبعن سيرة عمر وعثمان، فقال له السائب بن مالك: أما سيرة عثمان فكانت هوى وأثره فلا حاجة لنا فيها، وأما سيرة عمر فأقل السيرتين ضرراً علينا لكن عليك بسيرة عليّ بن أبي طالب، فإنا لا نرضى بما دونها، فقال ابن مطيع: نسير فيكم بكل ما تهوون وتريدون؛ وكان على شرط ابن مطيع إياس بن مضارب العجلي، وقال له حين ولاه: عليك بحسن السيرة والشدة على أهل الريبة.

قالوا: وبعث ابن مطيع إياساً إلى المختار ليأتيه به فتمارض المختار ودعا بقطيفة وقال: إني لأجد قفقفةً، وجعل المختار يبعث إلى أصحابه فيجمعهم في الدور حوله، وأراد الوثوب بالكوفة في المحرم؛ فجاء رجل من شبام يقال له عبد الرحمن بن شريح إلى وجوه الشيعة فقال لهم: إن المختار يريد الخروج بنا ولا ندري لعل محمد بن عليّ لم يوجهه إلينا، فانهضوا بنا إليه لنخبره خبره فإن رخص لنا في اتباعه اتبعناه، وإن نهانا

عنه اجتنبناه فما ينبغي أن يكون شيء آثر عندنا من أدياننا، فخرج عبد الرحمن بن شريح الشبامي، والأسود بن جراد الكندي، وسعر بن أبي سعر الحنفي في عدة معهم إلى ابن الحنفية، فلما لقوه قال عبد الرحمن: إنكم أهل بيت قد خصكم الله بالفضيلة، وشرفكم بالنبوة، وعظم حقكم على الأمة فلا يجهله إلا غبين الرأي مخسوس الحظ، وقد أصبتم بحسين رحمه الله، وأتانا المختاربن أبي عبيد يزعم أنه جاء من تلقائك يطلب بدمه، فمرنا بأمرك، فقال ابن الحنفية: إن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء، فالحمد لله على ما آتانا وأعطانا، وأما المصيبة بحسين فقد خصت أهله، وعمت المسلمين، وما دعاكم المختار إليه، فوالله لوددت أن الله انتصر لنا بمن شاء من خلقه، فقالوا: هذا إذن منه، ورخصة، ولو شاء لقال: لا تفعلوا حتى يبلغ الله أمره، فلم تكن إلا زيادة أيام على الشهر حتى وافوا الكوفة فبدأوا بالمختار، وكان ظنه ساء، وخاف أن يأتي القوم بأمر يخذلون به الشيعة عنه، فقال لهم حين قدموا: ارتبتم وتحيرتم، فما ورائكم؟ قالوا: أذن لنا في نصرتك، فقال: الله أكبر أنا أبو إسحاق، اجمعوا إلي الشيعة، فاجتمعوا فقال: إن نفراً منكم أحبوا أن يعلموا مصداق ما جئت له، فرحلوا إلى إمام الهدى. والنجيب المرتضى. وابن خير من جلس ومشى. بعد النبي المصطفى. فسألوه عما قدمت له. فأنبأهم أني وزيره وظهيره ورسوله، فقام عبد الرحمن بن شريح فقال: إنا قدمنا على المهدي بن عليّ فأمرنا بمظاهرة المختار ومؤازرته، وإجابة دعوته، فأقبلنا طيبةً أنفسنا منشرحة صدورنا، قد أذهب الله عنا الشك والغل والريب، واستقامت لنا بصيرتنا في قتال عدونا، فليبلغ ذلك شاهدكم غائبكم، وقام الوفد رجلاً رجلاً فتكلموا بنحو ما تكلم به عبد الرحمن، فاستجمعت له الشيعة، وقالوا: إن أشراف الكوفة مجمعون على قتالك مع ابن مطيع فإن جاء معنا إبراهيم بن الأشتر على عدونا، فإنه فتى بئيس، وابن رجل شريف وله عشيرة ذات عز وعدد.
فروي عن الشعبي أنه قال: فخرج إليه وجوه الشيعة، وأنا فيهم فكلموه ودعوه إلى الطلب بدم الحسين، وأهل البيت، وقالوا: إن هذا أمر جسيم إن أجبتنا إليه، عادت لك منزلة أبيك في الناس، وأحييت شرفه وما كان مشهوراً به من الفضل، ونصرة الحق، والغضب لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وأهل بيته فقال: قد أجبتكم إلى ما دعوتموني إليه من الطلب بدم الحسين وأهل بيته على أن تولوني الأمر.

فقالوا: أنت لذلك أهلٌ، ولكن المهدي محمد بن عليّ وجه المختار إلينا فهو الآمر والمأمور بالقتال، وقد شخص إليه نفر منا اختباراً لما جاء به فأمرنا بطاعته؛ ثم إن المختار أتاه في جماعة من الشيعة بعد أيام كثيرة، فأقراه كتاباً من محمد بن عليّ إليه نسخته: "من محمد المهدي بن عليّ إلى إبراهيم بن مالك. أما بعد: فإني بعثت إليكم المختار بن أبي عبيد، نصيحي ووزيري، وثقتي وأميني المرضي عندي، للطلب بدماء أهل بيتي، فانهض معه بنفسك وعشيرتك وأتباعك ومن أطاعك، فإنك إن نصرتني، وساعدت

وزيري، كانت لك عندي بذلك فضيلة، ولك الأعنة والمنابر، وكل بلد ظهرت عليه فيما بين الكوفة وأقصى بلاد الشام".

فقال ابن الأشتر: قد كاتبت محمد بن علي، وكاتبني فما رأيته كتب إلي قط إلا باسمه اسم أبيه، لا يزيد على ذلك، وقد استربت بهذا الكتاب، فقام يزيد بن أنس، واحمر بن شميط، وعبد الله بن كامل بن عمرو الهمذاني ثم الشاكري، وورقاء بن عازب الأسدي، فشهدوا أنه كتاب ابن الحنفية، فتنحى إبراهيم عن صدر المجلس وأجلس المختار فيه وبايعه.

فمكثوا يدبرون أمرهم حتى أجمع رأيهم على أن يخرجوا ليلة النصف من شهر ربيع الأول سنة ست وستين، ووطنوا على ذلك شيعتهم ومن معهم، فلما كان عند غروب الشمس ليلة النصف وهي ليلة الميعاد، قام إبراهيم بن الأشتر فصلى المغرب حين قال القائل: أخوك أم الذئب؟ ثم أتى المختار؛ قال الشعبي: فأقبلنا معه وعلينا السلاح فلم يمكن في تلك الليلة الخروج، فاتعدوا لليلة الخميس.

المدائني في إسناده، قال: كان للمختار مجلس يجلس فيه بالطائف ليلاً فرفع رأسه إلى السماء ثم قاتل متمثلاً:

ذو مناديح وذو ملتبطٍ	وركابٍ حيث وجهت ذلل
لاتذمن بلداً تكرهه	وإذا ذلت بك النعل فزل

قد والله مات يزيد، فلما لبثوا أن جاء موته.

المدائني في إسناده، قال: ركب المختار يوماً مع المغيرة بن شعبة، فمر بالسوق فقال المغيرة، أما والله إني لأعرف كلمة لو دعا بها أريب لاستمال بها أقواماً فصاروا له أنصارا، ثم لا سيما العجم الذين يقبلون ما يلقى إليهم قال المختار: وما هي يا عمّ؟ قال: يدعوهم إلى نصرة آل محمد والطلب بدمائهم، فكانت في نفس المختار حتى دعا.

مقتل إياس بن مضارب
وابنه راشد بن إياس

قالوا: وبلغ ابن مطيع إجماع المختار بالخروج فأخبر إياساً بذلك وهو على شرطه، فخرج إياس في الشرط، وبعث ابنه راشد إلى الكناسة وأقبل يسير حول السوق في الشرط، وأشار على ابن مطيع أن يبعث إلى كل جبانة عظيمة رجلاً من ثقاته في جماعة من أهل الطاعة له، فوجه ابن مطيع عبد الرحمن بن

سعيد بن قيس الهمداني إلى جبانة السبيع فقال: اكفني قومك،وبعث كعب بن أبي كعب الخثعمي إلى جبانة بشر بن ربيعة الخثعمي، وبعث زحر بن قيس الجعفي إلى جبانة كندة، وبعث شمر بن ذي الجوشن الكلابي إلى جبانة سالم، وبعث عبد الرحمن محنف إلى جبانة مراد وأمر كل أمرئ منهم أن يتحفظ ويحكم أمره وما يليه، وبعث شبث بن ربعي إلى السبخة؛ فخرج إبراهيم بن الأشتر إلى المختار ليلة الأربعاء في جماعة عظيمة عليهم الدروع وهم متقلدو السيوف وقد كفروا الدروع بالأقبية، وستروا السيوف، وفيهم شراحيل وابنه عامر بن شراحيل الشعبي، وقال الشعبي: كان إبراهيم فتى حدثا شجاعاً لا يكره أن يلقى أحداً من أصحاب ابن مطيع فمر بدار عمرو بن حريث المخزومي فلقيه إياس بن مضارب في الشرط، فقال: من أنتم؟ قال إبراهيم: أنا إبراهيم بن مالك الأشتر، فقال: ما هذا الجمع لقد رابني أمرك، ولست بتاركك حتى آتي بك الأمير وكان مع إياس رجل همذاني يكنى أبا قطن، وفي يده رمح له طويل، كان صديقاً لإبراهيم فاستدناه إبراهيم فدنا منه وهو يظن أنه يكلمه في مسألة ابن مضارب الأمساك عنه، فكلمه إبراهيم بشيء، ثم استلب الرمح منه وحمل على إياس فطعنه في ثغره نحره، فصرعه وأمر رجلاً ممن معه فاحتز رأسه وتفرق أصحاب ابن مضارب؛ فبعث ابن مطيع راشد بن إياس بن مضارب مكان أبيه على الشرطة، وصير مكان راشد بالكناسة سويد بن عبد الرحمن بن بجير المنقري أبا القعقاع بن سويد، وبعضهم يقول: هو سويد بن عمرو، والأول أصح، وأقبل إبراهيم بن الأشتر إلى المختار فقال إنا اتعدنا للخروج القابلة، وهي ليلة الخميس وقد حدث أمر لا بد لنا معه من الخروج الليلة، وأخبره خبر ابن مضارب وألقى رأسه بين يديه، فقال المختار: بشرك الله بخير فهذا أول الفتح، ثم لبس المختار سلاحه وأمر فنودي: يا منصور أمت وأمر أيضاً فنودي: "يا لثأرات الحسين" وجعل يقول:

قد علمت بيضاء حسناء الطلل　　　واضحة الخدين عجزاء الكفل

أني غداة الروع مقدامٌ بطل

وقال ابن الأشتر: إن هؤلاء الذين رتبهم ابن مطيع في المواضع يمنعون إخواننا من المصير إلينا وإتياننا، فالرأي أن آتى قومي في كتيبتي هذه التي جئتك فيها ليجتمعوا، ثم أدور في نواحي الكوفة، وأنادي بشعارنا فيخرج إلي من أراد الخروج، فقال المختار استخر الله، ففعل إبراهيم، وجعل كلما تسرعت إليه خيل كشفها، ثم عاد يخترق السكك ويجتنب منها سكك الأمراء.

وخرج المختار في جماعة أصحابه حتى نزل عند السبخة، ونادى أبو عثمان النهدي في شاكر: ألا إن وزير آل محمد قد خرج وبعثني إليكم، فخرجوا من الدور ينادون: "يا لثأرات الحسين" وضاربوا كعب بن أبي كعب الخثعمي وهو بجبانة بشر حتى خلى لهم الطريق، فأتوا عسكر المختار، وجاء حجار بن أبجر العجلي

فعبأ له المختار أحمر بن شميط الأحمسي، فقاتله وأقبل إليهم ابن الأشتر فلما أحس به حجار هرب وأصحابه؛ وتوافى إلى المختار من كل قبيل المائة والمائتان، وكانوا يحملون على من عرض لهم حتى تتام إليه ثلاثة آلاف وثمانمائة رجل، فعبأهم المختار وكتبهم، وتوجه ابن الأشتر إلى راشد بن إياس بن مضارب فلقيه في جبانة مراد وهو في أربعة آلاف، فاقتتلوا، فقتل خزيمة بن نصر العبسي، وأبو نصر بن خزيمة المقتول مع زيد بن عليّ بن الحسين، راشد بن إياس ونادى: قتلت راشداً ورب الكعبة، وانهزم أصحاب راشد؛ فقالت أخته تريثه:

لحى الله قوماً أسلموا أمس راشداً	بجبانة الدارين عند مراد
فلا ولدت عجلية بعد راشدٍ	غلاماً ولا حلت بصوب رعاد

وجعل إبراهيم يحرض أصحابه فيقول إنه ليس مع الحق قلة، ولامع الباطل كثرة ف"كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين".

أمر حسان بن فائد
وحصار ابن مطيع وهربه

قالوا: وأقبل إبراهيم بن الأشتر بعد قتل راشد بن إياس نحو المختار وقدم البشراء بين يديه يقتل راشد، فقويت أنفس أصحابه ودخل ابن مطيع وأصحابه الفشل والوهن، فسرح ابن مطيع حسان بن فائد بن بكير بن إسعاف العبسي في نحو من ألفين فاعترض له إبراهيم ليرده عمن بالسبخة من أصحابه، فزحف إبراهيم إليه في أصحابه، فما تطاعنوا برمح ولا تضاربوا بسيف حتى انهزم أصحاب حسان وظفروا به فكلم فيه خزيمة بن نصر العبسي إبراهيم وقال: ابن عمي فحمله إبراهيم على فرس وقال: الحق بأهلك. وقصد إبراهيم بن الأشتر لشبت بن ربعي فاعترضه يزيد بن الحارث بن يزيد بن رويم ليصده عنه، فأمر إبراهيم خزيمة بن نصر أن يصمد له، فهزم خزيمة يزيد وكشف إبراهيم شبثاً وأصحابه،فانهزموا إلى ابن مطيع وولى ابن مطيع شرطته بعد إياس وابنه سويد بن عبد الرحمن المنقري أبا القعقاع واستخلف على المصر شبث بن ربعي، وضم إلى مساحق بن عبد الله بن مخرمة القرشي ثم العامري، ويقال إلى ابنه نوفل بن مساحق، خمسة آلاف فاجتمعت مقاتلة ابن مطيع إليه، وقد صار إلى الكناسة، فدلف إليهم ابن الأشتر وقال لأصحابه: انزلوا ولا يهولنكم آل فلان، وآل فلان، فإن هؤلاء الذين ترون لوقد وجدوا وقع السيوف انفرجوا عن ابن مطيع انفراج المعزى، ثم أخذ أسفل قبائه فأدخله في منطقة له حمراء من حواشي

البرود، ثم قال لأصحابه: شدوا عليهم فداكم عمي وخالي، فما لبثوا أن انهزموا، وركب بعضهم بعضاً على أفواه السكك، وازدحموا وانتهى ابن الأشتر إلى مساحق، أو ابن مساحق، فرفع عليه بالسيف فقال له: يا بن الأشتر هل بيني وبينك إحنة أو عداوة، أو لك قبلي ثأر تطلبني به؟ فخلى سبيله، فكان بعد ذلك يشكره.

وآتى ابن مطيع القصر، واتبعه ابن الأشتر وجاء المختار حتى دخل المسجد وولى حصار ابن مطيع في القصر إبراهيم بن الأشتر، وأحمر بن شميط، ويزيد بن أنس الأسدي، فصار كل امرىء منهم في ناحية من القصر، ومكث ابن مطيع ثلاثاً يرزق أصحابه الدقيق، ومعه أشراف الناس إلا عمرو بن حريث، فإنه دخل القصر معه، ثم كره الحصار فخرج من الكوفة، وأشار شبث بن ربعي على ابن مطيع أن يأخذ لنفسه أماناً، ويخرج فأبى ذلك، قال: الأمر مستقيم بالحجاز لأمير المؤمنين عبد الله بن الزبير وبالبصرة، فكيف أرضى بهذه المنزلة؟ فقال: فإذا كرهت هذه فصر إلى بعض من تثق به سراً فاستخف عنده، ثم الحق بأمير المؤمنين، فقال لأسماء بن خارجة بن حصن الفزاري، وعبد الرحمن بن مخنف، وأشراف أهل الكوفة: ما ترون فيما أشار به شبث؟ قالوا: هو الرأي، قال: ننتظر المساء، واطلع من القصر رجل فشتم المختار، فرماه عمرو بن مالك النهدي أبو نمر بسهم فعقره و لم يقتله فقال:

خذها من ابن مالك ... من فاعل كذلك

ولما أمسى ابن مطيع جمع الأشراف الذين معه فقال: جزاكم الله عن الطاعة خيراً، أما إني سأعلم أمير المؤمنين بما كان محاماتكم وجدكم واجتهادكم، فقال شبث: جزاك الله من أمير خيراً، فقد عففت عن أموالنا وأكرمت أشرافنا، ونصحت لإمامك وقضيت الذي عليك وما كنا لنفارقك إلا بإذن منك، فقال: ليذهب كل امرىء منكم إلى حيث أحب، ثم احتال للخروج فخرج من ناحية دار الروميين، حتى أتى آل أبي موسى وخلى القصر، واستأمن أصحابه فآمنهم ابن الأشتر، وخرجوا فبايعوا المختار.

قالوا: ودخل المختار القصر في اليوم الرابع من حصار ابن مطيع فقال: الحمد لله الذي وعد وليه النصر وعدوه الخسر. وجعله فيه إلى آخر الدهر. وعداً مفعولاً. وقضاء مقضياً. وقد خاب من افترى. إنه رفعت لنا راية. ومدت لنا غاية. فقيل لنا في الراية. ارفعوها ولا تضعوها. وفي الغاية اجروا إليها ولا تعتدوها. فسمعنا دعوة الداعي. وإهابة الراعي. فكم من ناع ناعية. لقتيل في الواغية.وبعداً لمن طغى. وكذب وتولى. ألا ادخلوا أيها الناس فبايعوا بيعة هدى. فوالذي جعل السماء سقفاً ملفوفاً. والأرض فجاجاً سبلاً. ما بايعتم بعد بيعة أمير المؤمنين عليّ وآل عليّ بيعة أهدى منها؛ فبايعه الناس على كتاب الله وسنة

نبيه، والطلب بدماء أهل البيت، وجهاد المحلين، والدفع عن الضعفاء،وقتال من قاتله، وسلم من سالمه، والوفاء بعهده وبيعته لا يقيل ولا يستقيلون، فكان الرجل إذا عرض عليه ذلك فقال: نعم، ماسحه، فجاء المنذر بن حسان بن ضرار الضبي ليبايع ومعه ابنه فرآهما جماعة من الشيعة، كانوا وقوفاً مع سعيد بن منقذ الهمداني، فقالوا: هذا والله من رؤساء الجبارين فشدوا عليه وعلى ابنه فقتلوهما، فصاح بهم سعيد:

لاتعجلوا، وبلغ ذلك المختار فكرهه حتى استبينت في وجهه كراهنة، وبعث المختار إلى ابن مطيع: إني قد عرفت مكانك وقد ظننت أن بك عجزاً عن النهوض، وقد بعثت إليك بمائة ألف درهم، فقبلها ابن مطيع وشخص عن الكوفة، وكان المختار قد وجد في بيت مال الكوفة تسعة آلاف ألف درهم، فأعطى أصحابه ومن بايعه، وأحسن المختار مجاورة أهل الكوفة والسيرة فيهم، وأكرم الأشراف، وولى شرطته عبد الله بن كامل الشاكري، وولى حرسه كيسان مولى عرينة، ويكنى أبا عمرة، وهو صاحب الكيسانية وولى المختار عماله، وولى عبد الرحمن بن سعيد بن قيس الموصل.

وكان عبد الله بن الزبير كتب إلى ابن مطيع في تولية محمد بن الأشعث الموصل فولاه إياه فلما وردها عبد الرحمن بن سعيد انحاز ابن الأشعث إلى تكريت، وكتب بخبره إلى ابن الزبير، فكتب إليه ابن الزبير قد فهمت كتابك ولا عذر لك عندي فيما فعلت، أتخلي أرض الموصل وخراجها وحصونها من غير جهاد ولا إعذار وقد خرطتك عليها فأنت تأكل منها الكثير وتبعث إلي بالقليل، فوالله لو لم تقاتل مناصحةً لإمامك ولا طلباً لثواب ربك لكنت حرياً بأن تقاتل عن بلد أنت أميره لك خيره وعليك عيبه فلم تفعل ذلك غضباً ولا محاماةً على سلطانك، فلست في أمر دنياك بالحازم القوي ولا أمر آخرتك بالخائف التقي، فقد عجزت عن عدوك وضيعت ما وليتك والسلام.

وأتاه عبد الرحمن بن محمد ابنه فقال له: على ماذا نقيم في غير عز ولا منعة ولا انتظار قوة، ولم يزل به حتى قدم الكوفة ودخل على المختار فسلم عليه ودعا له وهنأه وعرض عليه أن يجلس للقضاء فأبى ذلك، فأجلس المختار شريحاً للقضاء، ثم إنه تمارض فقيل للمختار: إنه عثماني فصير على القضاء عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود، ثم مرض فصير مكانه عبد الله بن مالك الطائي.

وكان ابن همام السلولي الشاعر عثمانياً، وكان سمع رجلاً من الشيعة نال من عثمان فعنفه فاستخفى حين ظهروا، وقوي أمرهم، ثم قال في المختار شعراً وأتاه وأنشده إياه فحمله المختار على فرس وقال لأصحابه إنه قد أثنى عليكم فأعطاه قيس بن طهفة النهدي فرساً ومطرفاً، ووثب به قوم من الشيعة فأجاره ابن الأشعث فامتنعوا منه، وسمع المختار الضوضاء فخرج إليهم فقال: إذا قيل لكم خير فأقبلوا وإذا قدرتم على مكافأة فافعلوا، وإلا فتنصلوا واتقوا لسان الشاعر فإن شره حاضر وقوله جارح ومضى به إبراهيم بن

الأشتر إلى مترله فأعطاه ألف درهم فرساً، وكان ابن همام حين حصر ابن مطيع في القصر فتدلى منه مع ناس تدلوا أيضاً فقال:

لما رأيت القصر أغلق بابه — وتعلقت همدان بالأسباب
ورأيت أفواه الأزقة حولنا — ملئت بكل هراوةٍ وذياب
ورأيت أصحاب الدقيق كأنهم — حول البيوت ثعالب الأسراب
أيقنت أن إمارة ابن مضارب — لم تبق منها قيس أثر ذباب

وكان عبيد الله بن زياد حين أوقع بالتوابين بعين الوردة، وحاول الظفر بزفر بن الحارث فلم يمكنه فيه شيء، أقبل نحو الموصل فكتب عبد الرحمن بن سعيد بن قيس الهمداني إلى المختار يعلمه أن خيل عبيد الله بن زياد قد أشرفت على الموصل، وأنه ليس معه خيل ولا رجال، وانه خائف أن يعجز عنه وانحاز إلى تكريت، فولى المختار يزيد بن أنس بن كلاب الأسدي الموصل، وأمره أن لا يناظر عدوه وأن ينتهز الفرصة منه إذا أمكنته، وقال له: إني ممدك بمدد بعد مدد، وإن ذلك أشد لعضدك، وأعز لجندك، وأهد لعدوك، ثم ضم إليه ورقاء بن عازب الأسدي وسعر بن أبي سعر الحنفي، وبعث ابن زياد بين يديه ربيعة بن الخارق الغنوي، وعبد الله بن حملة بن عبد الرحمن الخثعمي في ستة آلاف، هذا في ثلاثة آلاف، وهذا في ثلاثة آلاف، وسبق ربيعة إلى يزيد، فخرج إليه يزيد بالناس وهو مريض لما به وذلك في ذي الحجة سنة ست وستين، فجعل يحرض الناس ويأمرهم بالصَبْرَ والجد والعزم، ثم التقوا من لدن طلوع الشمس إلى ارتفاع الضحاء فهزم المختارية ربيعة وأصحابه، وحووا عسكرهم، وقتل ربيعة بن الخارق، قتله عبد الله بن صبرة، و لم يمس يزيد حتى مات فانصرف أصحابه كراهة أن يقيموا بعد أميرهم.

فولى المختار إبراهيم بن الأشتر الموصل وأمره أن يرد جيش يزيد بن أنس معه إلى الموصل، فلما خرج من الكوفة أرجف أهلها بالمختار وطمعوا فيه ن فكتب إلى إبراهيم في الرجوع.

وكان أصحاب المختار يسمون الخشبية، لأن أكثرهم كانوا يقاتلون بالخشب، ويقال إنهم سموا الخشبية لأن الذي وجههم المختار إلى مكة لنصرة ابن الحنفية أخذوا بأيديهم الخشب الذي كان ابن الزبير جمعه ليحرق به ابن الحنفية وأصحابه فيما زعم، ويقال بل كرهوا دخول الحرم بسيوف مشهورة فدخلوه ومعهم الخشب و لم يسلوا سيوفهم من أغمادها.

وحدثني عباس بن هشام عن أبيه قال: أتي يزيد بن أنس الأسدي بأسرى وهو لما به، فجعل يومىء بيده حتى ثقلت يده، فجعل يومىء بحاجبيه حتى مات على تلك الحال.

وقال الهيثم بن عدي: لما وجه المختار يزيد بن أنس الأسدي توجه إليه حصين بن نمير، فقدم أمامه حملة بن عبد الرحمن الخثعمي فالتقوا بباتلى فقتل حملة وأتى يزيد بستة آلاف أسير فضرب أعناقهم، وهو يكيد بنفسه ثم مات.

وقدم مصعب على البصرة والكوفة في أول سنة سبع وستين فتوقف عن قتال المختار حيناً.

يوم جبانة السبيع

قالوا: لما سار ابن الأشتر يريد الموصل تواطأ أهل الكوفة على حرب المختار وقالوا: إنما هذا كاهن، فخرج عبد الرحمن بن سعيد بن قيس الهمداني بجبانة السبيع، وخرج زحر بن قيس الجعفي، وإسحاق بن الأشعث في جبانة كندة، وخرج كعب بن أبي كعب الخثعمي في جبانة بشر، وخرج عبد الرحمن بن مخنف في الأزد، وخرج شمر بن ذي الجوشن في جبانة بني سلول وخرج شبث بن ربعي بالكناسة في مضر، وخرج حجار بن أبجر العجلي، ويزيد بن الحارث بن يزيد بن رويم في ربيعة بناحية السبخة، وخرج عمرو بن الحجاج الزبيدي في جبانة مراد، وبلغ من في جبانة السبيع أن المختار قد عزم على معاجلتهم، فأقسموا على من في النواحي متن الأشراف اليمانية أن يصيروا بأصحابهم إليهم، فتواقف اليمانية جميعاً في جبانة السبيع، ويقال أن عمرو بن الحجاج الزبيدي وحده أقام فيمن معه بجبانة مراد و لم يأتهم.

وأقبل إبراهيم بن الأشتر من المدائن مجداً في السير مجذماً له حتى قدم الكوفة، ووافى المختار فرأى المختار أنه وجه إبراهيم لقتال قومه بجبانة السبيع لم يبالغ فيه، فقال له: ازحف أنت إلى شبث بن ربعي، فقاتل المضرية بالكناسة وأمضي أنا إلى جبانة السبيع، فنفذ إبراهيم لأمره ومضى هو حتى صار في طرف الجبانة، ووجه أحمر بن شميط، وعبد الله بن كامل إلى من بها، وأمرهما بقتالهم، وانتهى ابن الأشتر إلى مضر اليمن فقاتلهم قتالاً شديداً فهزمهم، ولقي ابن شميط وابن كامل أهل اليمن بجبانة السبيع، وقد صار إليهم شمر بن ذي الجوشن، ويقال إنه لم يصر إليهم ولكنه صار إلى مضر فهزم ابن شميط حتى لحق وأصحابه بالمختار، وصبر ابن كامل في جماعة من أصحابه فأمده المختار بثلاثمائة رجل مع عبد الله بن قراد الخثعمي ثم ثابت إلى ابن شميط ثائبة من أصحابه، فقاتل وقاتلوا، وبعث المختار بأبي القلوص ومعه جماعة من شبام، فدخلوا الجبانة، وهم ينادون: يا لثأرات الحسين ونادى أيضاً أصحاب ابن شميط وابن كامل يا لثأرات الحسين وحملوا فلم يلبثوا أن هزموا من بجبانة السبيع فلما هزمت مضر واليمن تفرقت ربيعة، وكل من

اعتزى إلى اليمن ومضر، ويقال بل أتى أولئك أصحاب المختار فقاتلوهم أيضاً قتالاً خفيفاً حتى تفرقوا، وقال قوم: بل قاتل يومئذ بجبانة السبيع رفاعة بن شداد البجلي مع المختار، وهو يقول:

أنا ابن شدادٍ على دين علي	لستُ لعثمان بن أروى بولي
لأصلين اليوم فيمن يصطلي	بحر نار الحرب غير ملتوي

وقال آخرون: أنه قاتل يومئذ مع أهل الكوفة فقتل، ويقال: إنه بقي بعد المختار وذلك الثبت.

حدثنا عفان حدثنا حماد بن سلمة أنبأنا عبد الملك بن عمير حدثني رفاعة بن شداد قال: كنت أقوم على رأس المختار، فلما عرفت كذابته هممت وأيم الله أن أضرب عنقه، فذكرت حديثاً حدثنيه عمرو بن الحمق عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: "من أمن رجلاً على نفسه فقتله أعطي لواء غدرٍ يوم القيامة".

حدثني أبو أيوب الرقي المعلم عن عيسى بن يونس عن نصير بن أبي نصير عن إسماعيل السدي عن رفاعة قال: دخلت على المختار وإذا وسادتان ملقاتان فقال: يا فلان أئت فلاناً، لرجلٍ دخل، بوسادة، قلت: وما هاتان الوسادتان؟ فقال قام عن إحداهما جبريل وعن الأخرى ميكائيل، فوالله إن منعني من أن أضربه بالسيف إلا حديث حدثني به عمرو بن الحمق قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "من ائتمنه رجل على دمه فقتله فأنا منه بريء ولو كان المقتول كافراً".

وقال الهيثم بن عدي: كان المختار يقول: العجب كل العجب.

بين جمادى ورجب؛ وكان يقول: أحياء وأموات. وجميع وأشتات. والموجبة الواجبة. جبا كذاجبة، فقاتله النعمان بن صهبان يوم جبانة السبيع فقتل؛ قال: وقاتل رفاعة بن شداد مع أهل الكوفة.

قالوا: وقتل المختارية يوم جبانة السبيع النعمان بن صهبان الراسبي، وكان ناسكاً شيعياً قدم من البصرة ليقاتل مع الشيعة ويطلب بدم الحسين، فسمع من المختار كلاماً أنكره أهل جبانة السبيع حتى قتل، والفرات بن زحر وعمرو بن مخنف ومالك بن حزام بن ربيعة، وهو ابن أخي لبيد بن ربيعة الشاعر، ويقال بل قتل مع المضرية؛ وقالوا: ولما هزم أهل جبانة السبيع استخرج من دور الوادعيين من همدان خمسمائة أسير، فأتى بهم المختار فقتل منهم من كان شهد مقتل الحسين فكانوا مائتين وثمانمائة وأربعين، ويقال كانوا مائتين وخمسين.

وكان سراقة بن مرادس البارقي صنع أشعاراً فجعل يقول:

أمنن عليّ اليوم يا خير معد	وخير من لبى وحيا وسجد

فأمر به فحبس ليلة ثم خلاه فقال شعراً ذكر فيه أنه رأى الملائكة تقاتل مع المختار على خيل بلق، فأمره المختار أن يصعد المنبر فيعلم الناس ما رأى ففعل، ثم هرب إلى مصعب بن الزبير وهو بالبصرة وقال:

ألا أبلغ أبا إسحاق أني ... رأيت البلق دهماً مصمتات

كفرت بوحيكم وجعلت نذراً ... علي قتلكم حتى الممات

أري عيني ما لم تبصراه ... كلانا عالم بالترهات

وأخذ المختار سحيما مولى عتبة بن فرقد السلمي، وكان يكثر الكلام فيه فقال له:أنت القائل قاتلوا الكذاب، وما علمك أني كذاب، فضرب عنقه.

وقال عبيد الله بن همام السلولي رحمه الله تعالى:

وفي ليلة المختار ما يذهل الفتى ... ويلهيه عن رؤد الشباب شموع

دعا يا لثأرات الحسين فاقبلت ... كتائب من همدان بعد هزيع

ومن مذحج جاء الرئيس ابن مالكٍ ... يقود جموعاً عبئت لجموع

ومن أسد وافى يزيد لنصره ... بكل فتى ماضي الجنان منيع

وزعم بعضهم أن شبث بن ربعي قتل يومئذ واحتج بشعر أعشى همدان حين يقول:

جزى الله إبراهيم عن أهل مصره ... جزاء امرىءً عن وجهه الحق ناكب

سما بالقنا من أرض ساباط مرقلاً ... إلى الموت إرقال الجمال المصاعب

فصب على الأحياء من صوب ودقة ... شآبيب موتٍ عقبت بالحرائب

فأضحى ابن ربعيٍ قتيلاً مجدلاً ... كأن لم يقاتل مرةً ويحارب

فأما أبو إسحاق فانصاع سائراً ... إلى عسكرٍ جم القنا والكتائب

فلما التقينا بالسبيع وأنسلوا ... إلينا ضربنا هامهم بالقواضب

فما راعنا إلا شبام تحسنا ... بأسيافها لا أسقيت صوب هاضب

أيقتلنا المختار ظلماً بكفره ... في لك دهراً مرصداً بالعجائب

ومن نفى قتل شبث يومئذ روى هذا البيت.

فأضحى ابن صهبانٍ قتيلاً مجدلاً

وذلك الثبت والأول غلط وإنما مات شبث حتف أنفه، وكانت وقعة الجبانة في ذي الحجة سنة ست وستين، فلما فرغ المختار منها أمر إبراهيم بن الأشتر بالمسير للقاء عبيد الله بن زياد وطلب قتله الحسين وأهله.

وجعل يقول في شجعه: أما ومنشيء السحاب. شديد العقاب. سريع الحساب. مترل الكتاب. العزيز الوهاب. القدير الغلاب. لننبشن قبر كثير بن شهاب. المفترى الكذاب. المعيب المعتاب. المجرم المرتاب. ثم لأبعثن الأحزاب. إلى بلاد الأعراب. ثم لأورثن دورهم وقصورهم وأموالهم الصابرين الصادقين السامعين المنيبين.

وكان يقول: ورب البلد الأمين. وحرمة طور سنين. لأقتلن الشاعر الهجين. أعشى الناعطيين. وسوء برق البارقين. ابن الأمة من جلولاء خانقين.الذي مننت عليه فكفر. وتابعني فغدر.وغداً يلقى فينحر. ثم يصير إلى سقر. فيذوق فيها العذاب الأكبر. وويل لابن همام اللعين. وأخي الأسديين. أولئك أولياء الشياطين. وإخوان الكافرين. الذين قرفوا عليّ الأباطيل. وتقولوا عليّ الأقاويل. فسموني كذاباً وأنا الصادق المصدوق. وكاهنا وأنا المجيب الفاروق. وطوبى لعبد الله وعبيدة. وأخي ليلى الطريدة. ذوي الأخلاق الحميدة. والمقالة السديدة. والأنفس السعيدة.

وقال أيضاً: أما والذي خلقني بصيراً. ونور قلبي تنويراً. لأحرقن بالمصر دورا. ولأنبشن قبورا. ولأقتلن جباراً كفورا.

وقال أيضاً: في صفر الأصفار.يقتل كل جبار. على يد المختار.

وكان يقول: أما ورب الجبال الشم الشوامخ الصم. لأقتلن أزد عمان. بكل شيعي يمان. من مذحجٍ وهمدان. ولأبيرن عبساً وذبيان. وتميماً أولياء الشيطان. حاشا النجيب ظبيان.

وقال: أما ورب القلم. واللوح ذي الكرم. لتدينن لي العرب والعجم. ولأتخذن من تميم خدم.

وقال: أما والسميع العليم. العزيز الكريم. لأعركن عمان عرك الأديم. ثم لأتخذن خدماً من تميم.

وكان يمسح رأس ابنته ثم يقول: صلى الله على عيسى بن مريم، لأنه فيما يزعمون كان يقول سيتزوجها بن مريم عليه السلام.

مقتل عمر بن سعد بن أبي وقاص ومن شرك في دم الحسين عليه السلام

حدثني عباس بن هشام عن أبيه عن عوانة قال: كان لعمر بن سعد بن أبي وقاص جعبة فيها سياط قد كتب على سوط منها عشرة وعلى آخر عشرين إلى خمسائة، فغضب على غلام له فضرب بيده إلى الجعبة فخرج سوط المائة فجلده مائة، فأتي الغلام سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه وهو يبكي وقد سال دمه على عقبيه، فقال سعد: اللهم اقتل عمر وأسل دمه على عقبيه، فمات الغلام وقتل المختار عمر بن سعد وكان سعد مستجاب الدعوة.

قالوا: ولما هزم الناس يوم جبانة السبيع خرج أشراف أهل الكوفة فلحقوا بمصعب بن الزبير، وقد قدم البصرة والياً على العراقين، فقال المختار: ليس من ديننا ان ندع قوماً قتلوا الحسين يمشون على الأرض.

ويقال إنه بلغه أن ابن الحنفية قال: عجباً للمختار يزعم أنه يطلب بدمائنا وقتله الحسين جلساؤه وحداثة يحترفون في المصر. فحركه ذلك تحريكاً.

شديداً، فقال ذات يوم: والله لأقتلن رجلاً عظيم القدمين. غائر العينين. مشرف الحاجبين. أسر بقتله المؤمنين والملائكة المقربين. وكانت هذه صفة عمر بن سعد، فسمعها الهيثم بن الأسود وهو عند المختار فدس ابنه العريان بن الهيثم إلى عمر فأخبره بقول المختار، وقد كان المختار سأل عن ابن سعد فأخبره بأنه مستخفٍ فكتب له أماناً على نفسه وأهله ولا يؤخذ بحدث كان منه ما لزم مصره ومترلة، فلما أبلغ العريان عمر بن سعد رسالة أبيه هم عمر بالخروج عن المصر، ثم قيل له إن هذا قول باغ فأقام في مترله، فبعث المختار أبا عمرة كيسان مولى عرينة وهو على حرسه إليه سراً وأمره أن يأتيه برأسه، فدخل أبو عمرة عليه داره، وعنده أهله فضرب عنقه وأتى المختار برأسه، وعند المختار حفص بن عمر بن سعد وهو لا يعرف القصة، فقال له المختار: يا حفص أتعرف هذا الرأس؟ قال نعم هذا رأس أبي حفصٍ فقبح الله العيش بعده، قال فإنك لا تعيش بعده، وأمر به فضربت عنقه، ثم بعث برأسيهما إلى ابن الحنفية، وقال هذا بالحسين، وهذا بعلي بن الحسين ولا سواء؛ فقيل له آمنه على أن لايحدث حدثاً و لم يحدث؟ فقال: سبحان الله ألم يدخل الخلاء مذ آمنته.

ثم بعث معاذ بن هانئ الكندي، وأبا عمرة، ومعبد بن سلمة الحضرمي فأحاطوا بدار خولي بن يزيد الأصبحي صاحب رأس الحسين فاختبأ في مخرجه فطلبوه فخرجت إليهم امرأته فقالوا لها أين زوجك؟ قالت: لا أدري، وأشارت بيدها إلى المخرج، فدخلوا عليه فوجدوا على رأسه قوصرة فأخرجوه وأقبل المختار حين بلغه أخذه فقتله إلى جانب مترله،ثم أمر به فأحرق فلم يبرح حتى صار رماداً، وكانت امرأته تسمى العيوف، وكانت حين أتاها برأس الحسين قد نفرت منه فكانت لا تكتحل ولا تطيب وقالت: والله لا يرى مني سروراً أبداً.

ولما هزمت مضر يوم الجبانة خرج شمر بن ذي الجوشن يركض فرسه خارجاً من الكوفة، واتبعه غلام للمختار يقال له زربي فعطف عليه شمر فقتله ولحق ببعض القرى فتزلها، وكتب إلى المصعب كتاباً، ووجه فيجاً فأخذت الفيج مسلحة للمختار، فسألوه عن صاحب الكتاب، فدل على القرية التي هو فيها فأنهى الأمر إلى المختار فوجه إلى شمر خيلاً فلم يشعر إلا وقد أحاطوا بالقرية فخرج إليهم فقاتلهم وهو يرتجز ويقول:

نبهتم ليث عرين باسلاً لم ير يوماً عن عدوٍ ناكلا

إلا كذا مقاتلاً أو قاتلا

فقيل: قتله عبد الرحمن بن عبد الله الهمداني طعنه في ثغرة نحره، ونادى يا لثأرات الحسين ثم أوطأه الخيل وبه رمق حتى مات، ثم احتز رأسه وأتى به المختار ونبذت جيفته للكلاب.

وكان حكيم بن طفيل الطائي سلب العباس بن عليّ ثيابه ورمى الحسين بسهم، فكان يقول: تعلق سهمي بسرباله وما ضره، فبعث إليه عبد الله بن كامل فأخذه، فاستغاث أهله بعدي بن حاتم فكلم فيه ابن كامل فقال: أمره إلى الأمير المختار، وبادر به إلى المختار قبل شفاعة ابن حاتم له إلى المختار فأمر به المختار فعري ورمي بالسهام حتى مات.

وكان زيد بن رقاد الجنبي يقول رميت فتىً من آل الحسين ويده على جبهته، وكان ذلك الفتى عبد الله بن مسلم بن عقيل بن أبي طالب، وكان رماه بسهم فلق قلبه فكان يقول نزعت سهمي من قلبه وهو ميت ولم أزل أنضنض سهمي الذي رميت به جبهته فيها حتى انتزعته وبقي النصل، فبعث إليه المختار ابن كامل في جماعة فأحاط بداره فخرج مصلتاً سيفه فقاتل، فقال ابن كامل: لا تضربوه ولا تطعنوه، ولكن ارموه بالنبل والحجارة ففعلوا ذلك حتى سقط، ودعا ابن كامل بنار فحرقه بها وبه حياة حتى صار رمادا، ويقال أنه سلخه وهو حي حتى مات.

وكان عمر بن صبيح يقول: طعنتت فيهم وجرحت وما قتلت أحداً، ويقال: إنه رمى عبد الله بن مسلم بالسهم في جبهته، وأن زيد بن رقاد فلق قلبه فبعث المختار إلى عمرو فأتي به ليلاً، فلما أصبح أدخل إليه مقيداً وحضر الناس فأمر به فعري، ثم طعن بالرماح حتى مات ثم أحرق، ولما نزعت ثيابه جعل يقول: أما والله لو أن سيفي معي لعلمتم أني بنصل السيف غير رعيش ولا رعديد، وما يسرني أني إذ كانت منيتي القتل أنه قتلني غيركم السحرة الكفرة.

وكان مالك بن النسير البدي الذي ضرب الحسين بن عليّ على رأسه وعليه برنس، فامتلأ دماً فألقاه

فجاء فأخذه، فبعث المختار إليه مالك بن عمرو النهدي وقد دل عليه، فجاء به فأمر بنار فأججت في الرحبة عظيمة ثم أمر فقطعت يده وألقيت في تلك النار، ثم قطعت رجله فألقيت فيها وهو ينظر فلم يزل يفعل ذلك بعضو منه بعد عضو حتى مات.

ودل المختار أيضاً على عبد الله بن أسيد الجهني، وحمل بن مالك المحاربي فجاءه بهما مالك بن عمرو النهدي، فأمر بهما فضربت أعناقهما، ودل المختار أيضاً على عمران بن خالد العتري، وعبد الرحمن بن أبي خشكارة البجلي، وعبد الله بن قيس الخولاني، وهو أصحاب الحلل والورس وعدة كانوا أخذوها معهم، فبعث إليهم ابن كامل فاتاه بهم، فلما أدخلوا إليه قال: يا قتلة الصالحين وأبناء النبيين لقد أقاد الله منكم، ثم قال: اضربوا أعناقهم لقد جاءكم الورس بيوم نحس، فضربت أعناقهم في السوق، وبعث المختار السائب بن مالك الأشعري في خيل فأخذ عبد الله وعبد الرحمن ابني وهب الهمداني وهما ابنا عم أعشى همدان فأمر بهما المختار فقتلا في السوق، وطلب حميد بن مسلم فنجا وقال:

ألم ترني على دهشٍ	نجوت ولم أكد أنجو
رجاء الله أنقذني	ولم أك غيره أرجو

ووجه المختار في طلب عثمان بن خالد الجهني ونسر بن شوط القابضي من همدان، وهما قاتلا عبد الرحمن بن عقيل بن أبي طالب فظفر بهما فضربت أعناقهما ثم أحرقا، فقال أعشى همدان، وهو عبد الرحمن بن الحارث بن نظام الهمداني:

ياعين بكي فتى الفتيان عثمانا	لا يبعدن الفتى من آل دهمانا
واذكر فتىً ماجداً عفاً شمائله	ما مثله فارس في آل همدانا

وبعث المختار إلى مرة بن منقذ قاتلٍ عليّ بن الحسين عليهما السلام ابن كامل فأحاط بداره، وكان منقذ شجاعاً، فخرج عليهم وبيده الرمح وهو على فراس جواد، فطعن عبيد الله بن ناجية الشبامي فصرعه و لم يضره،وضربه ابن كامل فشلت يده ونجا فلحق بمصعب.

وهرب عمرو بن الحجاج الزبيدي فمات بواقصة عطشاً.

وحدثني أبو عثمان عمرو بن محمد قال: سمعت أبا نعيم الفضل بن دكين يقول: هرب عمرو بن الحجاج فسقط من العطش،فلحقه أصحاب المختار وبه رمق فذبحوه واحتزوا رأسه.

وهرب سنان بن أنس النخعي الذي كان يدعى قاتل الحسين فلحق. بالبصرة فهدم المختار داره.

قالوا: فبينا الحجاج يخطب ذات يوم إذا قال: ليقم كل ذي بلاءٍ وغناءٍ فيتكلم، فقام سنان فقال: أنا قاتل

الحسين بن عليّ فقال الحجاج: بلاء لعمر الله حسين، واعتقل لسان سنان، ومات بعد خمس عشرة ليلة. وهرب حرملة الأسدي وعبد الله بن عقبة الغنوي الذي ذكره ابن أبي عقب فقال:

وعند غنيٍ قطرة من دمائنا		وفي أسدٍ أخرى تعد وتذكر

فيقال إنهما أدركا فقتلا، ويقال بل ماتا عطشاً.

وبعث المختار حوشباً اليرسمي إلى محمد بن الأشعث الكندي وقال: ستجده قائماً متلدداً. أو كامنا معتمداً، أولا هياً متصيدا، وكان في قرية له عند القادسية فهرب ولحق بالبصرة.

وكان أسماء بن خارجة مستخفياً فقال المختار ذات يوم وعنده أصحابه: أما ورب الأرض والسماء. والضياء والظلماء. لتزلن من السماء. نار دهماء. أو أحمر أو سحماء. فلتحرقن دار أسماء؛ فأتى الخبر أسماء فقال: سجع أبو إسحاق بنا، ليس على هذا مقام، فخرج هارباً حتى أتى البادية فلم يزل بها يترل مرة في بني عبس، ومرة في غيرهم حتى قتل المختار وهدم المختار له ثلاثة آدر؛ فقال عبد الله بن الزبير الأسدي في قصيدة له:

تركتم أبا حسان تهدم داره		منبذةً أبوابها وحديدها

فلو كان من قحطان أسماء شمرت		كتائب من قحطان صعر خدودها

فأجابه أيوب بن سعنة النخعي وقال:

رمى الله عين ابن الزبير بلقوةٍ		فخلخلها حتى يطول شهودها

بكيت على دار لأسماء هدمت		مساكنها كانت غلولاً وشيدها

ولم تبك بيت الله إذ دلفت له		أمية حتى هدمته جنودها

أمر الكرسي

قالوا: وقال المختار لآل جعدة بن هبيرة، وأم جعدة أم هانئ بنت أبي طالب: ائتوني بكرسي عليّ بن أبي طالب فقالوا: لا والله ما له عندنا كرسي، قال: لا تكونوا حمقى وائتوني به، فظن القوم عند ذلك أنهم لا يأتونه بكرسي فيقولون هذا كرسي عليّ إلا قبله منهم، فجاؤوه بكرسي فقالوا: هذا هو، فخرجت شبام وشاكر ورؤوس أصحاب المختار وقد عصبوه بخرق الحرير والديباج، فكان أول من سدن الكرسي حين جيء به موسى بن أبي موسى الأشعري، وأمه ابنة الفضل بن العباس بن عبد المطلب، ثم إنه دفع إلى حوشب اليرسمي، يرسم بن حمير وهم في همدان، فكان خازنه وصاحبه حتى هلك المختار، وكان أصحاب

المختار يعكفون عليه ويقولون: هو بمنزلة تابوت موسى فيه السكينة، ويستسقون به ويستنصرون، ويقدمونه أمامهم إذا أرادوا أمراً فقال الشاعر:

أبلغ شباماً وأبا هانيءٍ أني بكرسيهم كافر

وقال أعشى همدان:

شهدت عليكم أنكم خشبية وأني بكم يا شرطة الكفر عارف

وأقسم ما كرسيكم بسكينةٍ وإن ظل قد لفت عليه اللفائف

وأن ليس كالتابوت فينا وإن سعت شبام حواليه ونهد وخارف

وإن شاكر طافت به وتمسحت بأعواده أو أدبرت لا يساعف

وإني امرؤ أحببت آل محمدٍ وآثرت وحياً ضمنته الصحائف

وكان له عم يكنى أبا أمامة، وكان من أصحاب المختار، فكان يأتي مجلس قومه فيقول: أتانا اليوم بوحي ما سمع الناس بمثله.

وحدثني عباس بن هشام عن أبيه عن جده قال: قيل لابن عمر إن المختار يعمد إلى كرسي علي، فيحمله على بغل أشهب ويحف به الديباج ويطيف به أصحابه يستسقون به ويستنصرون فقال: فأين جنادبة الأزد عنه لا يعقربه؟ قال: وهم جندب بن زهير، وجندب بن كعب منبني ظبيان، وجندب بن عبد الله وهو جندب الخير.

أمر المثنى بن مخربة العبدي

وأمر عمر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام المخزومي بالبصرة

قالوا: وكان المثنى لقي المختار عند انصراف من انصراف التوابين من عين الوردة بالكوفة، فبايعه فقال له المثنى: إن لنا بالبصرة شيعةً فأذن لنا في القدوم عليهم والدعاء لهم، فأذن له في ذلك، فخرج إلى البصرة فلم يزل بها حتى بلغه ظهور المختار؛ وكان ابن مطيع لما أخذ المائة الألف من المختار ليشخص إلى المدينة استحيا من الرجوع إلى ابن الزبير، فعدل إلى البصرة فأقام بها، وكان المختار خائفاً من أن يوجه إليه ابن الزبير جيشاً لما فعل بابن مطيع ولإخراجه إياه، فكتب إليه: أما بعد فقد عرفت مناصحتي كانت لك واجتهادي في طاعتك ونصرتك، وما كنت أعطيتني من نفسك، فلما وفيت لك خست لي ولم تعترف لي بما عاهدتني فكان مني ما كان، فإن تراجعني أراجعك، وإن ترد مناصحتي أنصح لك.

فلما قرأ ابن الزبير كتابه دعا عمر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام فقال له: قد وليتك الكوفة فسر

إليها، فقال: وكيف وبها المختار؟قال: قد كتب لي أنه سامع مطيع لي، فسار عمر إليها وبلغ المختار خبره، فوجه زائدة بن قدامة الثقفي ومعه مسافر بن سعيد بن نمران الناعطي في خمسمائة دارع ورامح، ومعه سبعون ألف درهم وقال: إذا لقيته فقل له عني: بلغني أنك قد تكلفت لسفرك خمسة وثلاثين ألف درهم، وهذه سبعون ألف درهم فخذها وانصرف، فإن أبى ذلك فأره أصحاب مسافر وحذره إياهم، فلما لقيه زائدة أدى إليه رسالة المختار فقال: ما أنا بقابل مالاً ولا بد لي من النفوذ لأمر أمير المؤمنين، فدعا زائدة بالخيل وقد كان أكمنها فقال: إني محاربك بمن ترى ووراءهم مثلهم ومثلهم، فقال عمر: أما الآن فقد وجب العذر، وهذا أجمل بي فأخذ السبعين الألف فاستحيا من الرجوع إلى مكة فصار إلى البصرة فأقام بها وذلك في إمارة القباع الحارث بن عبد الله بن أبي ربيعة وقبل قدوم مصعب بن الزبير البصرة.

قالوا: واتخذ المثنى بن مخربة مسجداً يصلي فيه بأصحابه، واجتمعت الشيعة فبعث إليهم القباع عباد بن الحصين الحبطي في الخيل فبعث المثنى رجلاً من أصحابه فلقيه فهزم عباد، فبعث القباع الأحنف على خيل مضر ورجالها، فصاروا إلى عبد القيس، فخرج مالك بن مسمع في بكر بن وائل مانعاً لعبد القيس منهم بالربعية لأنه كان يرى رأي المثنى، وبعثت ربيعة إلى الأزد فأجابوهم، ورئيس الأزد يومئذ زياد بن عمرو العتكي فكانوا يقتتلون قتالاً ضعيفاً، وكلهم يهوى الصلح فكان عمر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام المخزومي وعبد الله بن مطيع يختلفان بين الفريقين فقال لهم عمر: يا معشر بكر والأزد ألستم على طاعة ابن الزبير؟ قالوا: بلى غير أنا نكره أن نسلم إخواننا من عبد القيس، فقال ابن مطيع: قولوا لإخوانكم فليذهبوا حيث شاؤوا فهم آمنون ولا يدخلن بينكم وبين أهل مصركم فرقة، فأتى مالك بن مسمع، وزياد بن عمرو: عبد القيس فقالا: إن هؤلاء القوم قد دعوا الصلح، وأعطوا النصف و لم نأتكم حين أتيناكم ونحن نرى رأيكم، ولكنا حمينا لكم أن تضاموا وتوطأوا، ثم أخذ بيد المثنى فقالا له:إن الذين يرون رأيك قبلنا قليل، فخذ أمانا لنفسك والحق بأصحابك، فقبل ذلك، وجاء ابن مطيع وعمر بن عبد الرحمن فعرضا الصلح فقبله القوم أجابوا إليه؛ وأما الأحنف فقالا له: إن القوم قد أحبو الصلح ودعوا إليه، فكأن الأحنف كره ذلك وتأرب فلم يجب إليه فقال له عمر بن عبد الرحمن: إني لأعجب ممن يزعم أنكم حليم، قبل القوم الصلح وأجابوا إلى النصف وتأبى إلا الفرقة وما تسفك فيه الدماء وتنتهك الحرمة؟ فقال الأحنف: هلم يا بن أخي إلى خالك، يعني نفسه، وذلك أن أم الحارث جده من ولد نهشل بن دارم فتميم أخواله، فقال له: إن ربيعة والأزد كثير عددهم بالمصر وقد تحالفوا وصاروا يداً علينا، فإن أريناهم الهيبة لهم ركبونا، والله ما هم بأحرص على السلم والصلح مني، اذهب يا بن أخي فاصنع ما أحببت، فاصطلح

القوم ورجع المثنى وخرج من البصرة.

وكتب المختار إلى الأحنف وهو على مضر: "أما بعد فويل أم ربيعة ومضر. من أمر سوءٍ فد حضر. وإن الأحنف قد أورد قومه سقر.وإني لا أملك القدر. وما خطر في الزبر. ولعمري لئن قاتلتموني وكذبتموني لقد كذب من كان قبلي وما أنا بخيرهم." وكتب المختار أيضاً إلى مالك بن مسمع وزياد بن عمرو: أما بعد فاسمعا وأطيعا وداوما. على أحسن ما أوتيتما أوتيكما من الدنيا وما شئتما.وأضمن لكما الجنة إذا توفيتما؛ فلما قرأ مالك الكتاب ضحك وقال لزياد: لقد أكثر لنا أخو ثقيف، وأوسع أعطانا الدنيا والآخرة، فضحك زياد وقال: نحن لا نقاتل بالنسيئة من عجل لنا النقد قاتلنا معه وحدثنا عليّ بن محمد المدائني عن أبي إسماعيل الهمداني عن الشعبي قال: جلست يوماً إلى الأحنف، فقال رجل من جلسائه يا كوفي استنقذناكم من عبيدكم، يعني يوم قتل المختار، قلت قد عفونا عنكم يوم الجمل فلم تشكروا، وأنشدته شعر أعشى همدان:

أفخرتم أن قتلتم أعبداً	وكفرتم نعمة الله الأجل
نحن سقناكم إليهم عنوةً	وجمعنا أمركم بعد الفشل
فإذا فاخرتمونا فاذكروا	ما فعلنا بكم يوم الجمل

فقال: يا كوفي أنتم أصحاب أنبياء، يعني المختار، قال فأجبته بجواب كرهه الأحنف وقلت: تكذبون علينا في أشياء، فقام فجاء بصحيفة صفراء فقال اقرأ آنفاً فإذا فيها: " ومن المختار بن أبي عبيد إلى الأحنف ومن قبله سلم أنتم، أما بعد فويل لربيعة ومضر. وإن الأحنف مورد قومه سقر. حين لا يستطيع لهم الصدر. وإني لا أملك لكم إلا ماخط في الزبر، فبلغني أنكم تكذبوني وقد كذبت الأنبياء مثلي ولست بخير من كثير" قال الأحنف: يا شعب أكوفي هذا أم بصري؟ ثم ضحك، وقال لأصحابه: أحسنوا مجالسة أخيكم.

خبر شرحبيل بن ورس

المدعي من حمير وهم في همدان

قالوا: لما بلغ المختار إقبال أهل الشام نحو العراق، وعلم أنه يبدأ به خاف أن يأتيه أهل الشام من شامهم، وأهل البصرة من بصرهم، فأظهر الميل إلى عبد الله بن الزبير ومداراته وكتب إليه: "بلغني أن ابن مروان قد بعث إلى الحجاز جنداً فإن أحببت أن أمدك أمددتك" فكتب إليه ابن الزبير: "إن كنت على طاعتي فبايع

لي، وخذ بيعة من قبلك، فإنه إن جاءتني بيعتك صدقت مقالتك، وكففت الجنود عن بلادك،وسرح الجيش الذي أنت باعث به إلى وادي القرى ليلقوا من بها من جند ابن مروان إن شاء الله ".

فدعا المختار شرحبيل بن ورس المدعي فسرحه في ثلاثة آلاف أكثرهم موالٍ ليس فيهم من العرب إلا سبعمائة، وقال له: سر حتى تدخل المدينة فإذا دخلتها فاكتب إلي بذلك ن ودبر أن يدخل شرحبيل المدينة، ثم يبعث إليها عاملاً من قبله، ثم يأمره أن يسير إلى مكة فيحاصر ابن الزبير؛ ووقع في نفس ابن الزبير ما دبر المختار وظن به مكيدته، فبعث عباس بن سهل بن سعد الساعدي من مكة في ألفين، وقال له: الق جيش ابن ورس فإن كان في طاعتي وإلا فحاربهم حتى تهلكهم، وأمره أن يستنفر الأعراب ففعل، وأقبل حتى لقي ابن ورس بالرقم، وقد عبأ ابن عبأ ابن ورس أصحابه وأصحاب عباس منقطعون على غير تعبئة، فقال له عباس: ألست على طاعة عبد الله بن الزبير؟ قال: نعم، قال فسر بنا إلى عدوه بوادي القرى، قال: نعم ولكن أريد المدينة أولاً ثم أرى رأيي، فتركهم ابن سهل حتى نزعوا سلاحهم وشغلوا بأثقالهم، ثم قصد قصد ابن ورس في ألف من كماة أصحابه وشجعانهم، وجعل ابن ورس يقو ل: يا شرطة الله إلي قاتلوا الملحدين. أولياء الشياطين. فإنكم على الحق المبين. وقد غدر القوم وفجروا، فانتهى إليه عباس بن سهل وهو يقول:

أنا ابن سهلٍ فارسٌ وكل   أروع مقدامٌ إذا النكس نكل

فلم يطل القتال بينهم حتى قتل ابن ورس في سبعين، ورفع عباس راية أمان لأصحابه فأتوها إلا نحواً من ثلاثمائة انصرفوا مع سليمان بن حمير الثوري، فظفر ابن سهل منهم بنحو من مائتين فقتلهم، وأفلت الباقون.

فلما بلغ المختار خبر شرحبيل بن ورس وأصحابه قال: إن الفجار الأشرار. قتلوا الأخيار الأبرار. ألا وإن الفاسق النجس. القذر الرجس. قتل ابن ورس. وكان أمراً مأتياً. وقضاءاً مقضياً.

وكتب المختار إلى ابن الحنفية: "إني كنت بعثت جنداً ليحووا لك البلاد، ويدوخوا الأعداء، فلما صاورا بطيبة لقيهم جند الملحد فخدعوهم وغروهم فإن رأيت أن ابعث إلى المدينة خليلاً وجنداً كثيفاً وثبعث من قبلك رسلاً يعلمونهم أني في طاعتك وأني بعثت عن أمرك فافعل فإنك ستجدهم بحقك أعرف، وبكم أهل البيت أرأف منهم بآل الزبير الظلمة الملحدين والسلام"، فكتب إليه ابن الحنفية: " إن أحب الأمر إلي ما أطيع الله فيه فأطعه ما استطعت فيما أعلنت وأسررت، وأعلم أني لو أردت القتال وجدت الناس إليّ فيه سراعاً، وعليه أعواناً، ولكني أعتزلهم وأصبر حتى يحكم الله، وهو خير الحاكمين".

مسير إبراهيم بن مالك الأشتر

إلى الموصل ومقتل عبيد الله بن زياد وحصين بن نمير السكوني

قالوا: لما فرغ المختار من أمر من خرج من أهل الكوفة وانقضت حرهم بجبانة السبيع والكناسة لم يكن له همة إلا إمضاء جيش إبراهيم بن الأشتر للوجه الذي وجهه له، فشخص إبراهيم من الكوفة لست ليال خلون من ذي الحجة سنة ست وستين، ويقال: لثمان خلون من ذي الحجة سنة ست وستين، ويقال: لثمان خلون من ذي الحجة، وكان معه قيس بن طهفة على ربع أهل المدينة، وعبد الله بن جندب على مذحج وأسد، والأسود بن جراد الكندي على كندة وربيعة وحبيب بن منقذ على تميم وهمدان، فقال شاعرهم:

أما ورب المرسلات عرفا　　　لنقتلن بعد صفٍ صفا

وبعد ألف قاسطين ألفا

فخرج في زهاء تسعة آلاف، وشيعه المختار، فلما صار إلى القنطرة إذا أصحاب الكرسي قد وقفوا يستنصرون ويدعون فقال ابن الأشتر ربنا لا تؤاخذنا بما فعل السفهاء منا، سنة بني اسرائيل والذي أنا له. وانتهى ابن الأشتر إلى المدائن فلقي من كان انصرف من أصحاب يزيد بن أنس، فردهم معه، فلما تجاوز الكحيل من أرض الموصل جعل لا يسير إلا بتعبئة.

وسبق ابن زياد إلى الموصل، وبادر دخوله العراق واجتمعا على الخازر إلى جنب قرية تدعى باريتا، بينها وبين مدينة الموصل خمسة فراسخ، فترل ونزل عبيد الله بن زياد قريباً منه على شاطيء الخازر، وهو نهر قريب من الزابي، فأرسل إليه عمير بن الحباب السلمي: إني أريد لقاءك الليلة، وكانت قيس الجزيرة مضطغنة على بني مروان لما كان من مروان إليهم في وقعة مرج راهط، فأتاه ابن الحباب فجرى بينهما كلام كثير وقال: ما أحد أبغض إليّ ظفراً من آل مروان، فاعلم أني منهزم بالناس إذا قامت الحرب، فأراد ابن الأشتر أن يبلو صدق ذلك فقال له أترى أن أخندق على نفسي وأتلوم يومين أو ثلاثة؟ فقال عمير: لا تفعل فإن القوم أضعافكم فإن طاولوك وما طلوك خبروا أمركم واجترأوا عليكم لكثرهم وقلتكم، وخرج ما في قلوبهم من الهيبة لكم فإن في أنفسهم منكم روعة، وهم من لقائكم على وجل، فعاجلهم وناجزهم، فإن القليل لا يطيق الكثير على المطاولة ولا آمن إن شاموكم يوماً بعد يوم، ومرة بعد مرة أن يقهروكم، فقال ابن الأشتر: الآن علمت أنك ناصح، كان عمير بن الحباب على مسيرة عبيد الله بن زياد، فأذكى ابن الأشتر تلك الليلة حرسه، و لم يدخل الغمض عينه.

فلما كان في السحر عبأ أصحابه، فجعل سفيان بن يزيد بن المغفل على ميمنته، وعلي بن مالك الجشمي

على مسيرته، وصلى الغداة بغبش، ثم صف أصحابه وألحق كل صاحب راية برايته، وجلس على تل عظيم ووجه من عرف خبر القوم فقيل له إنهم على دهش، فأخبره بعض رسله وعيونه أنه لقي منهم رجلاً ماله هجيراً إلا: يا شيعة أبي تراب: يا شيعة المختار الكذاب، وجعل ابن الأشتر يحرض الناس فيقول: يا أنصار الدين، ياشيعة الحق، ياشرطة الله هذا قاتل الحسين فما الذي تبقون له جدكم واجتهادكم بعده، هذا الذي حال بين الحسين وبين ماء الفرات، ومنعه الذهاب في الأرض العريضة حتى قتله وأهل بيته، فوالله ما كان عمل فرعون ببني اسرائيل إلا دون عمل هذا الفاجر، وزحف الشاميون وعلى ميمنة ابن زياد الحصين بن نمير، وعلى مسيرته عمير بن الحباب السلمي، وعلى خيله شرحبيل بن ذي الكلاع الحميري، ومشى ابن زياد في رجاله، فلما تدانى الصفان حمل حصين بن نمير على مسيرة أهل الكوفة فقتل عليّ بن مالك الجشمي فأخذ الراية ابنه فقتل في رجال من أهل الحفاظ، وانهزمت ميسرة ابن الأشتر فصير عليها عبد الله بن ورقاء السلولي فثابت المسيرة إليه، وجعل ابن الأشتر يقول: يا شرطة الله إلي أنا إبراهيم بن الأشتر، إن خير فراركم كراركم وحملت ميمنة ابن الأشتر على عمير بن الحباب وأصحابه فثبتوا، وكان عمير أنف من الفرار فقاتل قتالاً شديداً، فلما رأى ابن الأشتر ذلك قال لأصحابه أموا السواد الأعظم فضضتموه لم يكن للقوم ثبات بعده، ففعلوا ذلك، وتضاربوا بالسيوف وتطاعنوا بالرماح، فإبراهيم يشد بسيفه فلا يضرب أحداً إلا صرعه والقوم يهربون من بين يديه كأنهم الغنم، وجعل إذا حمل برايته حمل أصحابه حملة رجل واحد لا يثنيهم شيء، فكانوا على ذلك، ثم إن أهل الشام انهزموا بعد قتال شديد وقتلى بين الفريقين كثيرة؛ ويقال إن عميرا أول من أنهزم بالقوم بعد تعذير منه. ووصل إبراهيم إلى عبيد الله بن زياد فقتله وهو لا يثنيه فقال: ياقوم لقد قتلت رجلاً وجدت منه رائحة المسك شرقت يداه وغربت رجلاه، فطلب فإذا هو ابن زياد، فأمر برأسه فأخذ وأحرقت جثته بالنار؛ وحمل شريك بن جرير التغلبي على الحصين بن نمير السكوني وهو يظنه ابن زياد فقتله؛ وقتل شرحبيل بن ذي الكلاع، فادعى قتله سفيان بن يزيد بن المغفل الأزدي وورقاء بن عازب الأسدي وعبد الله بن زهير السلولي، ولما هزموهم اتبعوهم فكان من غرق منهم أكثر ممن قتل، واحتووا على عسكرهم.

وأرجف الناس بالكوفة بمقتل ابن الاشتر فخرج المختار إلى المدائن فلما صار بها تلقته البشارات بقتل عبيد الله بن زياد وفض عسكره؛ وقال عامر الشعبي: كنت في عسكر المختار بالمدائن، فكان يحرضنا ويحضنا ويقول إن شيعة الله يقتلونهم بنصيبين أو قرب نصيبين، فقال لي بعض الهمدانيين حين جاء قتل ابن زياد: يا شعبي ألا تبوء وتقر للمختار؟ قلت: بما أبوء له أقول إنه يعلم الغيب والله ما يعلم إلا الله، قال: ألم يقل إنهم يهزمون؟ قلت: إنه قال: بنصيبين أو قرب نصيبين، وإنما كانت الوقعة بالخازر، فقال لا تؤمن يا شعبي

حتى ترى العذاب الأليم.

حدثنا خلف بن سالم وأبو خيثمة قالا: حدثنا وهب بن جرير عن أبيه حدثني إبراهيم بن الأشتر قال: مر بي ابن زياد يوم الخازر فسطع منه المسك وأنا لا أعرفه فظننت أنه رجل له مترلة في القوم وحالٌ، فقصدت له فضربته على رأسه بالسيف فخر بين قوائم برذونه يخور كخوار الثور، فنظرت فإذا هو ابن زياد.

وانصرف المختار إلى الكوفة، ومضى إبراهيم بن الأشتر إلى الموصل، وبعث عماله عليها وعلى نصيبين، وسنجار ودارا، وما ولاها من أرض الجزيرة.

وقال الهيثم بن عدي: ولى ابن الأشتر زفر بن الحارث قرقيسيا، وحاتم بن النعمان الباهلي بين النعمان الباهلي حران الرها، وسميساط وناحيتها، وعمير بن الحباب كفرتوثا وطور عبدين؛ وليس ذلك يثبت عند الكلبي.

وقال عمير بن الحباب حين قتل ابن زياد:

ما كان جيش يجمع الخمر والزنا ... محلاً إذا لاقى العدو لينصرا

وقال ابن المفرغ حين قتل ابن زياد:

إن المنايا إذا ما زرن طاغية ... هتكن أستار حجاب وأبواب

أقول بُعداً وسحقاً عند مصرعه ... لابن الخبيثة وابن الكودن الكابي

لا أنت زاحمت عن ملكٍ فتمنعهُ ... ولا متت إلى قومٍ بأسباب

لا من نزارٍ ولا من جذم ذي يمنٍ ... جلمودةٌ ألقيت من بين ألهاب

لا تقبل الأرض موتاهم إذا قبروا ... وكيف تقبل رجساً بين أثواب

قالوا: ولحق جميع من كان هرب من المختار من أهل الكوفة أو أكثرهم بمصعب بن الزبير بالبصرة، وقد قدمها والياً على المصرين، فقدم شبث بن ربعي التميمي على بغلة قد قطع ذنبها وطرفي أذنيها وشق قباءه، ووقف ينادي واغوثاه، واغوثاه، فدخل على المصعب فأخبره بما لقي الناس من المختار، وهذا أصح من قول من قال إن شبثاً قتل بالكوفة، وأخبره أيضاً وجوه أهل الكوفة بما نالهم وسألوه نصرهم والمسير معهم، وقدم عليه محمد بن الأشعث و لم يكن شهد وقعة الكوفة، فاستحث المصعب بالشخوص إلى الكوفة، فقال: لست فاعلاً حتى يقدم المهلب علي، وكان بفارس، فكتب إليه يأمره بالقدوم، فاعتل بالخراج، فقال محمد بن الأشعث: وجهني إليه آتك به، فسار محمد حتى قدم فارس فلما رآه المهلب قال: يا محمد أما وجد المصعب بريداً غيرك؟ فقال: يا أبا سعيد والله ما أنا إلا بريد نسائنا وأبنائنا، فأقبل المهلب

معه في جموع وهيئة وعلاج ليس لأحد مثلها حتى قدم البصرة، وكان المهلب أتى عبد الله بن الزبير فكتب له عهده على خراسان فلما صار إلى البصرة طلب إليه أهلها أن يقاتل الخوارج وكانوا قد ظهروا وأبرزوا عليهم، فأقام لقتالهم فاتبعهم إلى فارس، فكان يحاربهم، وقدم المصعب فولاه فارس خراجها وحربها.

وحدثني أحمد بن إبراهيم الدورقي حدثنا وهب بن جرير عن أبيه عن صعب بن زيد، وصعب عم جرير بن حازم قال: قدم المهلب بعهده على خراسان من قبل عبد الله بن الزبير، وقد نزلت الحرورية بين الجسرين بالبصرة فقتلوا وحرقوا، وغلبوا على كور الأهواز، وشاطئ دجلة فأتى الأحنف وأشراف أهل البصرة المهلب فسألوه أن يتولى قتال الأزارقة، فقال: لست أقدر على ذلك هذا العهد عهد أمير المؤمنين إلي على خراسان، قالوا: فإنا نخرج إلى أمير المؤمنين فنسأله أن يعفيك من خراسان ويوليك قال الأزارقة، قال: فرأيكم. فخرج من خرج منهم فجاؤوا بكتاب ابن الزبير بتوليته قتال الأزارقة، وقال بعض الناس: افتعلوه على لسان ابن الزبير، وقال آخرون: بل خرج ناس فجاؤوا بكتابه، فنفى الخوارج إلى الأهواز.

قال جرير بن حازم: ثم صاروا إلى فاس فاتبعهم، وكتب عبد الله إلى مصعب بن الزبير بتوليته فارس، وكان قدوم المصعب البصرة والياً عليها بعد القباع في سنة سبع وستين.

خبر يوم المذار

ومقتل أحمر بن شميط وابن كامل

قالوا: قدم المهلب بن أبي صفرة من فارس، واستخلف المغيرة ابنه، ويقال غيره، وقال بعضهم: قسم فارس بين أصحابه وأمرهم أن يجتمعوا على قتال الخوارج من صاحب الناحية التي تكون قيها، فلما دخل على مصعب أمره بالعسكرة عند الجسر الأكبر، و لم ير المصعب أحداً إعظامه له، ودعا عبد الرحمن بن محنف فقال له: ائت الكوفة مستخفياً حتى تخرج إلي من استطعت إخراجه وخذل الناس عن المختار، فمضى حتى نزل مترله سراً فلم يظهر، وخرج مصعب بن الزبير وقد جعل المهلب على مسيرته، وعمر بن عبيد الله بن معمر على ميمنته وقدم عباد بن الحصين التميمي أمامه على مقدمته، وكان مالك بن مسمع على جيش بكر بن وائل، ومالك بن المنذر بن الجارود على جيش بن قيس، والحنف بن قيس على جيش العالية، وبلغ المختار ذلك، فقال لأصحابه: يا أهل الدين وأعون الحق، وأنصار الضعيف، وشيعة الرسول وآل الرسول وشرطة الله إن هؤلاء الذين هربوا من أسيافكم أتو أشباهاً لهم من أهل البصرة من الفاسقين

فاستنفروهم ليمات الحق وينعش الباطل، ويدال أولياء الله في الرض فانتدبوا يرحمكم الله مع أحمر بن شميط الأحمسي.

فعسكر ابن سميط بحمام أعين، وضم إليه المختار الناس، وبعث على مقدمته عبد الله بن كامل الشاكري من همدان فسار؟أحمر بن شميط حتى ورد المذار، وأقبل مصعب فترل قريباً منه وعبأ كل واحداً منهما جنده، فجعل ابن شميط ابن كامل على ميمنته وعبد الله بن أنس بن وهب بن نضلة الجشمي على مسيرته، وجعل على الخيل رزين بن عبد السلولي وعلى الرجال كثير بن إسماعيل بن كثير الكندي، وجعل أبا عمرة على الموالي وأقر المصعب الملهلب على مسيرته، وعمر بن عبيد الله على ميمنته، وجعل على الرجال مقاتل بن مسمع، وعلى الخيل عباد بن الحصين، فالتقوا وحمل عباد على ابن شميط وأصحابه، فلم يزل منهم رجل عن موقفه، وحمل ابن كامل على المهلب فلم يزالوا كذلك يحملوا بعضهم على بعض،ثم حمل أهل البصرة جميعاً على ابن شميط حملة واحدة فقاتل حتى قتل، وتنادى أهل الكوفة يا معشر بجيلة وخثعم الصَبْرَ الصَبْرَ،فنادى بهم المهلب: الفرار الفرار على ما تقاتلون أضل الله سعيكم، ثم مالت الخيل على رجالة ابن شميط فاصطلموا، وقتل عبد الله بن كامل.

وسرح مصعب بن محمد بن الأشعث في خيل عظيمة من أهل الكوفة ممن هرب من المختار ومن بعث به عبد الرحمن بن مخنف، وقال دونكم الطلب بثأركم، فكانوا اشد عليهم من أهل البصرة لا يتركون رجلاً إلا قتلوه فلم ينج من ذلك الجند إلا شرذمة قليلة من أصحاب الخيل.

وروي عن معاوية بن قرة المزني أبي إياس بن معاوية أنه قال: أنتهيت إلى رجل منهم فأدخلت سنان الرمح في عينه وجعلت أخضخضه، فقيل له: أو فعلت ذلك؟قال: نعم والله إنهم كانوا أحل عندنا من الترك والديلم، وكان معاوية قاضياً بين أهل البصرة، وقال أعشى همدان:

أما نبئت الأنباء تنمي	بما لاقت بجليه بالمذار
أتيح لهم بها ضربٌ طلخفٌ	وطعن صائب وجه النهار
فبشر شيعة المختار إما	مررت على الكويفة بالصغار
وما إني سرني إهلاك قومي	وإن كانوا وجدك في خسار
ولكني أسر بما يلاقي	أبو إسحاق من خزي وعار

وكان على البصرة حين شخص المصعب إلى المذار عبيد الله بن عبيد الله بن معمر التيمي ولاه إياها المصعب، وهو كان عليها أيضاً حين خرج لقتال المختار، والثبت أنه كان خليفة أخيه عمر بن عبيد الله لأن أمرها كان إلى عمر، وكان عمر الخليفة المصعب عليها في ظعنه ومقامه.

وبلغ المختار ومن معه خبر ابن شميط وابن كامل ووجوه رجاله وحماته، فقال من كان بالكوفة من الأعاجم كلاماً بالفارسية تفسيره: لم يصدق أبو اسحاق المرة.

وقال بعض الشعراء فيما ذكر المدائني:

ونحن قتلنا أحمراً وجموعه وقد كان قتال الكماة مظفراً

غداة علا الإسكاف بالسيف رأسه فخر صريعاً لليدين معفرا

قال: والإسكاف محمد بن عبد الرحمن الأسكاف.

حدثنا خلف بن سالم وأحمد بن إبراهيم قالا: حدثنا وهب بن جرير حدثنا جويرية حدثني الصقعب بن ثابت عن أبيه قال: سمعت المختار بالمدائن وهو يقول: والذي كرم وجه أبي القاسم ليدخلن أبن شميط البصرة في عافية صافية. قضاءً مقضيا. وقد خاب من أفترى، وقد بعث براية ما غزلتها يدٌ ولا نسجها نساج، وكان أدرجها ولف عليها خرقة ثم ختمها، وقال: لا تفتحها حتى تبلغ ساعة كذا من النهار، ثم انشرها فإن القوم إذا نظروا إليها انهزموا.

وحدثاني قالا: حدثنا وهب بن جرير بن حازم حدثني أبي عن الأزرق قال: بعث المختار ابن شميط فدفع إليه سفطاً مختوماً، وقال إن فيه راية لم ينسجها إنس ولا جن فأخرجها فأنك تظفر عليها، وإياك أن تخرجها من أول النهار فقتل، ومضى مصعب إلى الكوفة فانحاز المختار إلى دار فحصره فيها، فخرج ليلاً فعرفه الناس فقتلوه وقتلوا أصحابه وقد نزلوا على حكمه، وهم سبعة آلاف.

خبر قدوم المصعب بن الزبير الكوفة

ويوم حروراء ومقتل المختار بن أبي عبيد

حدثني محمد بن يزيد أبو هشام الرفاعي، حدثني عمي كثير بن محمد عن عبد الله بن عياش المتنوف عن مجالد عن الشعبي قال: ولي عبيد الله بن معمر المسمى القباع، وإنما سمي القباع لأنه رأى مكيالا لأهل البصرة فقال ما هذا القباع؟ يعني الأجوف، فلقبوه قباعاً، وهو الذي يقول فيه أبو الأسود الديلي لعبد الله بن الزبير.

أبا بكر جزاك الله خيراً أرحنا من قباع بني المغيره

فعزله ابن الزبير، وولى البصرة والكوفة جميعاً مصعب بن الزبير أخاه، فقدم البصرة وكان المختار بالكوفة وقد أخرج عنها ابن مطيع عامل ابن الزبير.

فلما قدم أصحاب المختار المذار ليغلبوا على البصرة فيما دبروا زحف إليهم المصعب بوجوه أهل البصرة، واستخف عمر بن عبيد الله عليها عبيد الله بن عبيد الله بن معمر أخاه ويكنى أبا معاذ بكنية أبيه، فقتل المصعب ابن شميط وأصحاب المختار وفض عسكره، ثم إن عمر بن عبيد الله استخف أيضاً على البصرة أخاه بأمر المصعب، وسار المصعب إلى الكوفة وقتل المختار.

وولى عبد الله بن الزبير حمزة ابنه البصرة بعد أشهر، وذلك بمشورة رجل شخص إليه من أهل العراق مولى لبني عجل، يقال له إبراهيم بن حيان فأخبره أن أهل البصرة يحبون ولايته، وكتب إلى مصعب في ضم من قبله من رجال البصرة إلى حمزة، فغضب مصعب وشخص إلى مكة وحمل معه مالاً من مال الكوفة واستخلف عليها القباع.

وقدم حمزة البصرة في سننه فكان جواداً إلا أنه كان أحمق، شخص إلى الأهواز فدعا بدهقانها واسمه مردانشاه فأمر أن يحمل الخراج فاستأجله، فشد عليه فضرب عنقه وعنده الأحنف فقال له إن سيف الأمير لحاد، ونظر حمزة إلى جبل الأهواز فقال كأنه قعيقعان يعني جبلاً بمكة، فسموه قعيقعان، وسموا الجبل أيضاً قعيقعان.

ولما ورد مصعب على عبد الله أخيه قال له: من استخلف على الكوفة؟ قال الحارث بن عبد الله بن أبي ربيعة، وقال له: ما رأيت في حمزة ابنك حتى عزلتني ووليته؟ قال: ما أرى عثمان في ابن عامر حين عزل أبا موسى وولاه و لم أعزلك تفضيلاً له عليك، ورده على المصرين جميعاً، فأقر القباع بالكوفة على خلافته، وأقر عمر بن عبيد الله على أمر البصرة، ثم ولاه فارس.

وقال ابن عياش ك كان حمزة يعطي الكثير من لا يستحقه، ويمنع القليل من يستحق الكثير، وكان يعطي مائة ألف ويمنع شسعاً، ورأى فيض البصرة فقال: إن هذا غدير إن رفق به أهله كفاهم ضيعتهم، وركب إلى فيض البصرة في الجزر، فقال: لو اقتصدوا فيه لم ينقص هذا النقصان.

ومدحه موسى شهوات فقال:

حمزة المبتاع حمداً باللهى	ويرى في بيعه أن قد غبن
وإذا أعطى عطاءً فاضلاً	ذا إخاء لم يكدره بمن
وإذا ما سنةٌ مجدبةٌ	برت المال كبري بالسفن
إنجلت عنه نقياً ثوبه	وتولت ومحياه حسن
نورُ صدقٍ نيرٌ في وجهه	لم يصب أثوابه لون الدرن

ولجأ الفرزدق إليه وهو بالحجاز في امرأته، وقد كتبنا قصته في خبر ابن الزبير.

قالوا: ولما صنع حمزة بدهقان الأهواز كتب الأحنف ووجوه أهل البصرة في عزله وإعادة مصعب، فعزله واحتمل حمزة مالاً من مال البصرة فعرض له مالك بن مسمع وقال: لا ندعك تخرج بأعطياتنا فضمن له عبيد الله بن عبيد الله بن معمر العطاء كاملاً فكف وقد كان عسكر في ربيعة، وتخلص حمزة بالمال فترك أباه وأتى المدينة فأودع المال رجالاً فذهبوا به إلا يهودياً وفى له، وقال أبوه: أبعده الله أردت أن أباهي به بني مروان فنكص.

قالوا: وكان حمزة محباً لابن سريج المغني، وهو غني في قول موسى شهوات.

حمزة المبتاع حمداً باللهى

وكان حمزة لا يخالفه، فسأله رجل أن يكلمه في إسلافه ألف دينار، ففعل وأسلف الرجل ألفا وأعطى ابن سريج ألفا.

وحدثني أحمد إبراهيم الدورقي عن وهب بن جرير عن أبيه عن صعب بن زيد قال: بعث ابن الزبير ابنه حمزة وكان فيه ضعف وحمق، فخرج إلى الأهواز فلما رأى جبلها قال إن هذا الجبل لشبيه قعيقان فسمي لذلك بقعيقان؛ قال صعب: وفرغنا يوماً من الخوارج ونحن بالأهواز فخرج على فرسه مطلقاً برحات قبائه فكأني انظر إلى تكة سراويله قد بدت على قربوس سرجه وهو يركض فكان وجهه إلى البصرة و لم يلق قتالاً؛ وكان خليفته بالبصرة عبيد الله بن عبيد الله بن معمر وأقام بالبصرة سنة، وكان عمر بن عبيد الله على فارس.

قالوا: ولما انقضى أمر يوم المذار أقبل المصعب نحو واسط القصب، و لم تكن يومئذ إنما كان أحداثها الحجاج بعدُ، فأخذ في كسكر وحمل الضعفاء في السفن فخرجوا في نهر يقال له قوسان منه إلى الفرات، فكان أهل البصرة يخرجون فيجرون سفينهم ويقولون:

عودنا المصعب جر القلس   بالزنبريات الطوال الملس

ويقال: إنهم قالوا ذلك حين شخص إلى الكوفة ثم إلى مسكن.

وقالوا: وبلغ المختار مسيرهم فخرج حتى نزل السيلحون بالكوفة وسكر الفرات على نهر السيلحون، ونهر يوسف، وجعل يذكر ابن شميط وأصحابه فيقول: حبذا مصارعُ الكرام، وبقيت سفن البصريين تجر على الطين، فلما رأوا ذلك وجهوا خيلاً إلى السكر فكسروه وصمدوا صمد الكوفة، فلما رأى المختار ذلك أقبل حتى نزل حروراء وحال بينهم وبين الكوفة، وقد كان حصن القصر والمسجد واستخلف بالكوفة

عبد الله بن شداد الجشمي، وجعل المختار يومئذ على ميمنته سليمان بن يزيد الكندي وعلى ميسرته سعيد بن منقذ الهمداني، وكان على شرطته يومئذ عبد الله بن قراد الخثعمي، وكان على ميمنة المصعب المهلب بن أبي صفرة، وعلى ميسرته عمر بن عبيد الله بن معمر، وعلى الخيل عباد بن الحصين، وعلى الرجال مقاتل بن مسمع، وعلى أهل الكوفة محمد بن الأشعث بن قيس، وعلى بكر بن وائل مالك بن مسمع.

فلما رأى المختار ذلك وجه إلى كل خمس من أخماس أهل البصرة رجلاً، فبعث إلى بكر بن وائل سعيد ين منقذ صاحب ميسرته وإلى عبد القيس وعليهم مالك بن المنذر بن الجارود عبد الرحمن بن المنذر بن الجارود عبد الرحمن بن شريح الشبامي من همدان، وكان على بيت ماله، وبعث إلى أهل العالية وعليهم قيس بن الهيثم السلمي عبد الله بن جعدة بن هبيرة المخزومي، وبعث إلى الأزد وعليهم زياد بن عمرو العتكي سليمان بن يزيد بن عمرو العتكي سليمان بن يزيد الكندي، وكان على ميمنته، وبعث إلى محمد بن الأشعث السائب بن مالك الأشعري، ووقف في بقية أصحابه، وكان المهلب في خمسين كثيري العدد والفرسان، وهم الأزد، وتميم، وكان الأحنف حاضراً، ولم يجب أن يشهر نفسه فحمل بعض القوم على بعض، والمهلب واقف فقيل له: ألا نتحمل؟ فقال: ما كنت لأجزر الأزد وتميماً خشبية أهل الكوفة حتى أرى فرصتي، وحمل ابن جعدة على أهل العالية فكشفهم حتى ألحقهم بمصعب، فجثا المصعب عندها على ركبتيه ورمى سهمه فرمى الناس سهامهم،وبعث إلى المهلب: ما تنتظر لا أبا لغيرك احمل على من يليك، فحمل بخمسمائة على أصحاب المختار فحطموهم، وحمل الناس بأجمعهم فانهزم أصحاب المختار.

وقال عمرو بن عبد الله بن النهدي: اللهم إني أبرأ إليك من فعل هؤلاء، يعني أصحابه حين انهزموا، وأبرأ إليك من هؤلاء، يعني أصحاب مصعب، اللهم إني على ما كنت عليه بصفين، ثم قاتل حتى قتل، وقال مالك بن عمرو النهدي وكان على الرجالة وأتي بفرسه ليركبه: والله لا فعلت ولأن أقتل في أهل الصبر أحب إلي من أن أقتل في بيتي، أين أهل الصبر اليوم؟ فثاب إليه خمسون رجلاً، فشدّ وشدوا على محمد بن الأشعث، بن قيس وأصحابه، وكان بالقرب منه، فقتل محمد بن الأشعث، فبنوا نهد يدعون قتله يقولون قتله مالك، وكندة تقول قتله عبد الملك بن أشاءة الكندي، وخثعم تقول قتله ابن قراد الخثعمي، ويقال إن المختار مر في أصحابه على ابن الأشعث وقال لهم: يا شرطة الله كروا على الثعالب الرواغة، فحملوا فقتل محمد بن الأشعث فقال أعشى همدان:

وما عذر عينٍ على ابن الأشـ ... ـج في أن يفتر تقطارها

فلا تبعدنً أبا قاسم فقد تبلغ النفس مقدارها
بشط حرورا إذا استجمعت عليك ثقيفٌ وسحارها

وقتل سعيد بن منقذ في سبعين راكبا من قومه، وقتل سليمان بن يزيد الكندي في تسعين، ونزل المختار على فم سكة شبث بن ربعي فقاتل عامة ليلته وقتل معه بشر من همدان وغيرها، وانصرف البصريون عن المختار فعمد إلى قصر فترله، وكان وقعتهم يوم الأربعاء، وكان عبد الله بن ثوب لما خرج يريد حروراء جعل يقول: اليوم يوم الأربعاء. تربعت السماء. ونزل القضاء. بهزيمة الأعداء، فلما كانت الوقعة ضرب على وجهه فقيل له أين ما كنت تقول؟ قال: "يمحوا الله ما يشاء ويثبت عنده أم الكتاب" ويقال إن المختار قال ذلك، وكان عبيد الله بن عليّ بن أبي طالب مع المصعب فقتل يومئذ، ويقال: انه قتل يوم المذار فقال المصعب للملهب: يا أبا سعيد أعلمت أنهم قتلوا عبيد الله بن عليّ وهم يعرفونه ويزعمون أنهم شيعة أبيه؟ فقال المهلب للمصعب: أصلح الله الأمير أي فتحٍ لو لم يكن محمد بن الأشعث قتل؟ فقال: نعم، فرحم الله محمداً.

قالوا: وسار مصعب يوم الخميس بمن معه فأتى السبخة فقطع عن المختار المادة، وبعث عبد الرحمن بن الأشعث وزخر بن قيس إلى جبانة مراد،وبعث عبيد الله بن الحر الجعفي إلى جبانة الصائديين من همدان، وبعث عباد بن الحصين إلى جبانة كندة فكانوا كلهم يقطعون عنه المادة؛ وأمر المصعب المهلب أن يتخذ على الكوفة دروباً ففعل فلم يقدر المختار على الماء، فجعل يشرب وأصحابه من ماء البئر ويعطيهم من عسل عنده فيديفونه به ليطيب الماء، واقترب مصعب وأصحابه من القصر ورتبهم في مواضع وقفهم بها، وأقبل أحداث يصيحون يا بن دومة، فأشرف عليهم فقال: إن الذي تعيرونه ابن رجل من القريتين عظيمٍ، وكانت أم المختار دومة بنت وهب بن معتب بن وهب بن كعب الثقفي، ثم خرج المختار في مائتين فحمل على أصحاب مصعب فقاتلهم وضرب يحيى بن ضمضم وكان فارساً شجاعاً إذا ركب خطت الأرض رجله، فأطار قحف رأسه فخر ميتاً؛ ثم تتابع الناس عليه وكثروه، فلم يكن له لهم طاقة، فدخل القصر واشتد عليه الحصار، فقال لأصحابه: انزلوا بنا نقاتل حتى نقتل كراماً، والله ما أنا بآيس إن صدقتم أن تنصروا، فضعف أصحابه وعجزوا، فقال: أما والله لا أعطي بيدي ولا أحكم في نفسي، فلما رأى عبد الله بن جعدة ما يريد المختار تدلى من القصر فلحق بناس من إخوانه فاستخفى عندهم.

ثم إن المختار أرسل إلى امرأته أم ثابت بنت سمرة بن جندب فبعثت إليه بطيب فاغتسل، وتحنط، ووضع الطيب في رأسه ولحيته، ثم خرج في تسعة وعشرين رجلاً من أصحابه فيهم السائب بن مالك الأشعري، فقال للسائب: ما ترى؟ قال السائب: أنا أرى أم أنت؟ قال المختار: بل الله يرى، أنت ويحك أحمق، إنما

أنا رجل من العرب رأيت ابن الزبير انتزى على الحجاز، مروان على الشام، ونجدة على اليمامة، فلم أكن دون أحدهم فقاتل على حسبك، فقال السائب: وما كنت أصنع بالقتال على حسبي؛ وتمثل المختار بقول ابن الزبعرى:

كل بؤسٍ ونعيمٍ زائلٌ ... وسواء قبر مثرٍ ومقل

ثم قال لأصحابه لما رأى ما بهم من الروع والفشل، والامتناع من أن يتابعوه على الخروج والقتال معه: إني والله إن قتلت لم تزدادوا إلا ضعفاً وذلاً. ثم إن أخذتم ذبحتم كما يذبح الغنم يقولون: هذا قاتل أبي، وهذا قاتل أخي، وإن قاتلتم صابرين فقتلتم متم كراماً.

ثم خرج فقاتل وهو يقول:

إن يقتلوني يجدوا لي جزرا ... محمداً قتلته وعمرا

والأبرص الجاهل لما أدبرا

فقتل السائب بن مالك، ثم قتل المختار عند الزياتين قتله أخوان من عنزة يقال لهما طرفة وطريفة، وبنو تميم أن يدعون أن مولىً لبني عطارد يقال له محمد بن عبد الرحمن قتل المختار.

وقال أبو اليقظان: قتله فيما تقول ربيعة: طراف بن يزيد الحنفي.

ونزل الباقون من أصحابه على الحكم، فجعل عباد بن الحصين يترلهم مكتفين وكان فيهم عبد الله بن قراد فمروا به على عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث وهو يقول:

ما كنت أخشى أن أرى أسيرا ... إن الذين خالفوا الأميرا

قد خسروا وتبروا تتبيرا

فقال عبد الرحمن: أئتوني به فقدموه إليه، فقال له ابن قراد: أما إني على دين جدك الذي آمن به ثم كفر، يعني الأشعث إن لم أكن الذي ضربت أباك حتى فاضت نفسه، فدنا منه فقتله، فغضب عباد بن الحسين من قتله إياه دون أمر مصعب.

وأتي مصعب برجل من بني مسلية فقال: الحمد لله الذي ابتلانا بالأمير وابتلاه بنا، إن من عفا عفا الله عنه، ومن عاقب لم يأمن القصاص، يا بن الزبير نحن أهل قبلتكم وعلى ملتكم ونحن قومكم لسنا بروم ولا ديلم، لم نعد أن خالفنا اخواننا من أهل مصرنا، فإما أن نكون أصبنا وأخطأوا، أو أصابوا وأخطأنا فاقتتلنا بيننا كما اقتتل أهل الشام بينهم وكما اقتتل أهل البصرة بينهم، فقد افترقوا ثم اجتمعوا، وقد ملكتهم فأسجحوا، وقدرتم فاعفوا، فرق له مصعب وللأسرى، فقام عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث فقال: أيها

الأمير اخترنا عليهم أو اخترهم علينا، وقام محمد بن عبد الرحمن بن سعيد بن قيس الهمداني فقال: قد قتل أبي وأشرفنا وخمسمائة أو أكثر منا وتخلي سبيلهم ودماؤنا ترقرق في أثوابهم، اخترنا أو اخترهم فأمر بهم أن يقتلوا، فقال بعضهم: قد أمرنا المختار أن لا نموت هذه الميتة الدنية فأبينا، وكان من أخرج من القصر نحواً من ستة آلاف.

حدثني أبو مسعود عن عليّ بن مجاهد قال: لما ظفر مصعب بأصحاب المختار، بعثت إليه عائشة بنت طلحة في أمرهم الحارث بن خالد المخزومي فوجدهم قد قتلوا.

وقال مسافر بن سعيد بن نمران الناعطي: ما تقول يا بن الزبير غداً وقد قتلت أمةً من المسلمين حكموك في أنفسهم ودمائهم صبراً وإن فينا لرجالاً ما شهدوا حربنا وحربكم إلا اليوم؟! فقتل وقتل القوم.

حدثني عبد الله بن صالح المقرىء عن الهيثم عن عوانة قال: لما أراد المصعب قتل أصحاب المختار ونزلوا على حكمه شاور الأحنف بن قيس فيهم، فقال: أرى أن تعفو عنهم فإن العفو أقرب للتقوى، فقال أشراف أهل الكوفة: اقتلهم وضجوا فلما قتلوا، قال الأحنف: ما أدركتم بقتلهم ثأراً فليته لا يكون في الآخرة وبالا.

وكان المصعب قال: اقتلوا الموالي واعفوا عمن كان صليبةً مع المختار، فقام ابن الأصبهاني وابن الإسكاف، صاحب الدار بالبصرة فقالا: ما هذا بحكم الإسلام، فقتل الجميع.

قالوا: وبعث المصعب إلى أم ثابت بنت سمرة بن جندب الفزازي، وعمرة بنت النعمان بن بشير الأنصاري، امرأتي المختار، فأحضرتا فقال لهما ما تقولان في المختار؟ فأما أم ثابت فقالت: ما عسينا أن نقول فيه إلا مثل ما تقولون من الكذب وادعاء الباطل فخلى سبيلها، وقالت عمرة: ما عملته رحمه الله إلا مسلماً من عباد الله الصالحين، فحسبها المصعب في السجن، وكتب إلى عبد الله بن الزبير: إنها تزعم أنه نبي فكتب إليه أن أخرجها فاقتلها، فأخرجها إلى ما بين الحيرة والكوفة بعد العشاء الآخرة فأمر بها رجلاً من الشرطة يقال له مطر، فضربها بالسيف ثلاث ضربات، وهي تقول: يا أبتاه، يا أهلاه، يا عشيرتاه، فرفع رجل يده فلطم مطراً وقال: يا بن الزانية عذبتها فقطعت نفسها ثم تشحطت وماتت، وتعلق مطر بالرجل فأتى به مصعباً فقال: خلوه رأى أمراً عظيماً فظيعاً، وكان لقب مطر هذا تابعه.

فقال عبد الله بن الزبير الأسدي، ويقال عمر بن أبي ربيعة:

إن من أعجب العجائب عندي ... قتل بيضاء حرةٍ عطبول
قتلوها ظلماً على غير ذنبٍ ... إن الله درها من قتيل
كتب القتل والقتال علينا ... وعلى المحصنات جر الذيول

وقال الأحوص، ويقال غيره:

ألم تعجب الأقوام من قتل حرةٍ	من الجامعات العقل والدين الحسب
من العلاقات المؤمنات بريةٍ	من الشك والبهتان والإثم والريب
كأنهم إذ أبرزوها فقطعت	بأسيافهم فازوا بمملكة العرب

وكان مقتل المختار في شهر رمضان سنة تسع وستين.

وبعث المصعب برأسه ورؤوس وجوه أصحابه إلى عبد الله بن الزبير بمكة، وسمر المصعب يد المختار على حائط المسجد الجامع، فلم تزل مسمورة حتى قدم الحجاج الكوفة فأمر بها فانتزعت ثم دفنت.

ولما قتل المصعب المختار أنفذ عمر بن عبيد الله بن معمر إلى البصرة وأقام بالكوفة لإصلاح أمرها، فكان يوم الجفرة بالبصرة في أيام عمر بن عبيد الله هذه، ثم لحق به مصعب وقد ذكرنا ذلك فيما تقدم من نسب بني أبي العيص.

حدثني العمري عن الهيثم بن عدي عن عوانة وغيره قالوا: وفد مصعب على أخيه عبد الله ثلاث مرات أولاهن من الكوفة حين قتل المختار ومعه إبراهيم بن الأشتر، والثانية من البصرة بمال العراق حين عزله وولى حمزة بن عبد الله البصرة فقدمها غلام معجب حريص، فقصر بالأشراف وبسط يده ففزعوا إلى مالك بن مسمع فأمر بحمل سرادقة فضرب على الجسر، ثم أرسل إلى حمزة يا بن أخي الحق بأبيك فأخرجه عن البصرة، فقال العديل بن فرخ العجلي:

إذا ما خشينا من أمير ظلامة	دعونا أبا غسان يوماً فعسكرا
فما في معدٍ كلها مثل مالك	أغر إذا سامى وأهيب منظرا
بني مسمع لولا الإله وأنتم	بني مسمعٍ لم ينكر الناس منكرا
بني مسمع أنتم ذؤابة وائلٍ	وأكرمها في أول الدهر جوهرا

فرد عبد الله مصعباً على الكوفة والبصرة، ثم إنه احتاج إلى مشافهة أخيه عبد الله بشيء في أمر عبد الملك حين بلغه عزمه على إيتان العراق فشخص إليه فلم يقم قبله إلا يوماً، ثم ركب رواحله إلى البصرة.

وحدثني عباس بن هشام عن أبيه عن أبي مخنف وعن عوانة قالا: لما قدم مصعب على أخيه بعد قتل المختار، قال له ابن عمر: أأنت الذي قتلت ستة آلاف من أهل القبلة في غداة واحدة على دمٍ؟ فقال: إنهم كانوا سحرة كفرة، فقال له: والله لو كانوا غنماً من تراث الزبير لقد كان ما أتيت عظيماً.

قالوا: وقال عبد الله بن الزبير لابن عباس وأخبره بأمر المختار فرأى منه توجعاً وإكباراً لقتله أتتوجع لأبن أبي عبيد وتكره أن تسميه كذاباً؟ فقال له: ما جزاؤه ذلك منا، قتل قتلتنا وطلب بدمائنا وشفى غليل

صدورنا.

قالوا: ومر عروة بن الزبير على ابن عباس فقال يا أبا عباس إن ربك قتل المختار الكذاب وهذا رأسه قد جيء به، فقال ابن عباس قد بقيت لكم عقبة إن صعدتموها فأنتم أنتم يعني، عبد الملك وأهل الشام.

وحدثني عمر بن شبة عن موسى بن اسماعيل عن أبي هلال عن أبي يزيد المدني قال: ذكر ابن عمر الدجالين والكذابين فقال ومنهم ذو صهري هذا، قال: قلت: ومن ذو صهرك؟ قال: المختار.

وحدثني عمر، حدثنا أبو داود، حدثنا قيس عن أبي إسحاق، عن سعيد بن وهب قال: قيل لابن الزبير إن المختار يزعم أنه يوحي إليه قال صدق ثم قرأ: "هل أنبئكم على من تترل الشياطين تترل على كل أفاك أثيم".

حدثني مصعب بن عبد الله الزبيري عن أبيه قال: قال هشام بن عروة:قيل لابن عباس إن المختار يزعم أنه يوحى إليه. فقال: صدق إنهما وحيان وحي الله إلى محمد صلى الله عليه وسلم، ووحي الشياطين، وقرأ: "وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم".

وحدثني عباس بن هشام عن أبيه عن جده عن أبي صالح قال: كان ابن عباس يقول في المختار: طلب بثأرنا، وقتل قتلتنا، فنهاه محمد بن الحنفية وقال: نحن أعلم به فلا تقل فيه من الخير شيئاً.

وقد روي عن ابن عباس إنه ذكر عنده المختار، فقال: صلى عليه الكرام الكاتبون.

حدثنا بسام الحمال وغيره قالوا: حدثنا حماد بن سلمة عن يحيى بن سعيد عن أبيه: إن المختار دعا الناس لبيعته، رأيت الحارث بن سويد يذهب مرقلا، فقلت إلى أين تذهب، أما تدري ما هذه البيعة؟ قال: بلى ولكني سمعت ابن مسعود يقول ما كلام أتكلم به يرد عني ضربتين بسوط إلا كنت متكلما.

المدائني قال: وجد المختار في بيت مال الكوفة تسعة آلاف ألف درهم، ويقال ألف ألف وتسعمائة ألف.

المدائني، قال: كتب المختار ابن الزبير، إن ابن مطيع خالفك، وكاتب عبد الملك، وأنت أحب إلينا من عبد الملك، فوجه عمر بن عبد الرحمن بن الحارث فماكره المختار وقد كتبنا خبره.

قال: وكتب المختار إلى ابن الزبير إني اتخذت الكوفة دارا، فإن سوغتني ذلك وأمرت بألف ألف درهم سرت إلى الشام وكفيتك أمره، فقال ابن الزبير: إلى متى أماكر كذاب ثقيف ويماكرني ثم تمثل:

عاري الجواعر من ثمود أصله ... عبد ويزعم أنه من يقدم

وكتب إليه: ولا والله ولا درهماً، وقال:

ولا أمتري بالهون حتى يدرني ... وإني لآبى الخسف مادمت أسمع

فجاهره المختار عندها ونصب له.

وقال المدائني: أعظمت ربيعة قتل إياس وابنه، وقالوا نقتل بهما إبراهيم بن الأشتر، فقال سراقة البارقي:

أتوعدنا ربيعة في إياسٍ وما تدري ربيعة ما تقول

ولولا رفعنا عنهم لكانوا كمن غالته في الأيام غول

لإبراهيم أمنه من سهيلٍ إذا طارت من الفزع العقول

وأمنع جانباً من ليث غابٍ جريءٍ دونه أجم وغيل

وأصدق عدوة منه إذا ما تدمى من فريسته التليل

حدثني روح بن عبد المؤمن عن غندر عن شعبة عن الحكم قال: صليت خلف أبي عبد الله الجدلي، زمن الكذاب، وكان الكذاب استخلفه فقرأ بسم الله الرحمن الرحيم فلما قرأ "غير المغضوب عليهم ولا الضالين" قال: كفى بالله هاديا ونصيرا، ثم قال بسم الله الرحمن الرحيم.

المدائني، قال: قال المختار:من جاءنا من عبد فهو حر، فبلغ ذلك ابن الزبير فقال: قد كان يقول إني لأعرف كلمة لو قلتها كثر تبعي، وهي هذه ليكثرن تبعه.

قال أبو الحسن المدائني: أتى عباد بن زياد دومة الجندل بعد مرج راهط طالباً للعزلة وهارباً من الفتنة، فوجه المختار إليه شرحبيل بن روس الهمداني في أربعة آلاف، فأرسل إليه عباد إني هربت إلى دومة الجندل بديني واعتزلت الفتنة، فقال له أصحابه:هو رأس الفتنة وأولها وآخرها فلا يبرح حتى يسفك دمه، فعزم ابن ورس على قتاله، فقال عباد لأصحابه، وهم سبعمائة من عبيده ومواليه وأتباعه: اخرجوا بنا إلى هؤلاء القوم فإنه لم يحصر قوم قط إلا وهنوا وذلوا فقاتلهم. فقتل من أصحاب ابن روس أكثر من ألف و لم يقتل من أصحاب عباد إلا الوليد بن قيس مولى عبيد الله بن زياد، وانهزم ابن روس فوثب الأعاريب عليه فانتهبوه وقتلوا جماعة من أصحابه، فصار فيمن بقي معه إلى بلاط طيء، فجمع له معدان الطائي، وهو معدان بن سلمة بن حنظلة، فقاتله ابن ورس وهو يقول:

أنا ابن ورسٍ فارس غير وكل أروع مقدام إذا النكس نكل

وأعتلي راس الطرماح البطل بالسيف يوم الروع حتى ينجدل

وجعل معدان يقول:

إيهٍ بني معنٍ ذوي العديد فجردوا البيض من الحديد

ولا تعيدوهن في الغمود وانتزعوا سرادق العبيد

فقتلوا منهم سبعمائة ودخل ابن روس الكوفة.

فقال الأخطل:

وأنت يا بن زيادٍ عندنا حسن — منك البلاء وأنت الناصح الشفق

المستقل أموراً ليس يحملها — غمر من القوم رعديد ولا خرق

وقال المدائني: مال عمير بن الحباب يوم الخازر وقال: يا لثأرات المرج فقتل: ابن زياد وحصين بن نمير. وشرحبيل بن ذي الكلاع.

وقال أبو الحسن المدائني: أقام عبيد الله بن زياد حين وجهه مروان على قرقيساء سنةً فلم يقدر على شيء، فتوجه يريد العراق فلقي التوابين، ثم سار يريد العراق فقتل بالخازر وقال عمير بن الحباب:

جزيناهم بيوم المرج يوماً — كسوف الشمس أسود ذا ظلال

فلم ينفك أعظم سكسكيٍ — أمام الجسر ما اختلف الليالي

وقال الفرزدق:

ألا رب من يدعى الفتى ليس بالفتى — ولكنما كان الفتى ابن زياد

وقال المدائني: بعث المختار برأس ابن زياد إلى عبد الله بن الزبير، فبعث به عبد الله إلى ابن الحنفية فقال: "الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص" قال: ويقال إنه بعث برأس ابن زياد إلى ابن الحنفية، ويقال: إن مصعباً بعث برأس المختار إلى ابن الزبير فبعث به ابن الزبير إلى ابن الحنفية فتلا ابن الحنفية الآية، وذلك أشبه بالحق.

وقال المدائني: قتل المختار عبد الله بن شداد الجهني، وأبا عثمان بن خالد بن أسيد، وزيد بن الحجاج الزبيدي فقد فمات عطشاً، وهرب مسكين بن عامر الدرامي،وكان ممن قاتل قبل المختار بالكوفة،ولحق .بمحمد بن عمير بن عطارد بآذربيجان وقال في أبيات له:

لهف نفسي على قريع قريشٍ — يوم يؤتى برأسه المختار

ليتنا قبل ذلك اليوم متنا — أو فعلنا ما يفعل الأحرار

وقال المدائني: هرب اسماء بن خارجة إلى البادية، فنزل على رجل من بني عبس وكان للعبسي كلب يقال له وقاع فقال العبسي: إني أخاف على كلبي، فقال أسماء: أن له ضامن، فكان يأمر بإطعامه تناهى سمنه، ثم رحل أسماء فنزل بلاد كلب ونزل العبسي رجل من بني ثعلبة بن سعد يكنى أبا حيان، فجاء الكلب والطعام موضوع فرماه أبو حيان بسهم فقتله، وأمن نأسماء فرجع ونزل بالعبسي فقال: ما فعل وقاع؟ فأخبره فقال: قد كنت ضمنته، قال: فاحتكم قال: ألف درهم، فأعطاه أربعة آلاف درهم.

حدثني عمر بن شبه حدثني حيان بن بشر عن يحيى بن آدم عن عليّ بن هشام عن أبي الجحاف قال: قال لي معاوية بن ثعلبة: لما خرج المختار كرهت الخروج معه، فأتيت محمد ابن الحنفية فسألته فقال إني آمرك بما آمر به نفسي لا تخرج معه، فإنا أهل البيت لا نبتز هذه الأمة أمرها، وإن عليا لم يقاتل حتى كانت له بيعة.

وذكر الأصمعي عن أبي عمرو بن العلاء قال: أراد ابن الحنفية أن يقدم الكوفة، فقال المختار إن في المهدي علامة وهي أن يضربه رجل بالسيف ضربة فلا تضر فبلغ ابن الحنفية ذلك فأقام.

وقال نصر بن عاصم الليثي:

فارقت نجدة والذين تزرقوا وابن الزبير وشيعة الكذاب
والصفر الآذان حين تخيروا ديناً بلا فقهٍ ولا بكتاب

حدثنا سعيد بن سليمان سعدويه وعمرو بن محمد الناقد قالا: حدثنا هشيم بن المغيرة عن إبراهيم قال: ما كانوا يقرأون خلف الإمام حتى كان المختار فاهموه، فقرأوا خلفه،وكان يصلي بهم صلاة النهار ولا يصلي بهم صلاة الليل.

حدثني عبد الله بن صالح حدثنا أشياخنا: أن الشعبي كان يقول للخشبية: يا شرطة الله قعي وطيري.

حدثني عمرو بن محمد الناقد عن حفص بن غياث عن الأعمش عن حبيب بن أبي ثابت قال: كانت هدايا المختار تأتي ابن عمر وابن عباس، وابن الحنفية فيقبلونها.

حدثني هدبة بن خالد عن وهيب عن ابن عون عن نافع عن ابن عمر: أنه ما ورد على أحد من الولاة هديته أو قال: صلته إلا المختار،فإنه بعث إليه بمائة ألف درهم فردها.

حدثني عمر بن شبة حدثنا الوليد بن هشام عن وهيب بن خالد عن ابن عون عن نافع قال: ما رد ابن عمر على أحد من الولاة صلته إلا المختار فإنه بعث إليه بمائة ألف درهم فردها.

حدثني المدائني قال: قدم محمد بن الأشعث البصرة وهو ينادي: واغوثاه تركنا السيوف تنظف وقلف العبيد في الأحراح، وكان على البصرة القباع، فقدم المصعب على بقية ذاك.

وقال ابن قيس الرقيات يمدح مصعباً:

والذي نغص ابن دومة ما يو حي الشياطين والسيوف ظماء
فأباح العراق يضربهم بالسي ف صلتا وفي الضراب جلاء
ملكه ملك رحمةٍ ليس فيه جبروت منه ولا كبرياء

وقال ابن الكلبي: بعث مصعب إلى عبد الرحمن بن حجر بن عدي وعبد رب بن حجر، وعمران بن حذيفة بن اليمان، فقتلهم صبراً. وكانوا خرجوا من المختار.
حدثني يوسف بن موسى القطان عن جرير بن عبد الحميد عن المغيرة قال: قتل عبيد الله بن عليّ مع مصعب يوم المختار.

وحدثني عباس بن هشام عن أبيه عن عوانة عن أبيه قال: لما وفد مصعب على أخيه بعد قتل المختار قال لابن عمر: ما تقوم في قوم خلعوا ربقة الطاعة، وسفكوا الدماء وقاتلوا فقوتلوا، حتى إذا غلبوا دخلوا حصناً فسألوا الأمان على الحكم، فأعطوا ذلك ثم أخرجوا فقتلوا؟ قال: وكم العدة؟ قال: خمسة آلاف، قال فسبح ابن عمر، ثم قال: عمرك الله يا بن الزبير، لو أن رجلاً أتى ماشيةً لآل الزبير فذبح منها خمسة آلاف آلم تكن تراه مسرفاً؟ قال: فسكت فلم يجبه، فقال: ألم يكن فيهم من ترجى له التوبة، ألم يكن فيهم مستكره.
حدثني عباس بن هشام عن أبيه حدثني أبو بكر بن عياش حدثني أبو إسحاق السبيعي قال: ما زال شرابب أهل الكوفةة الزبيب حتى كان زياد فشربوا التمر.
قال وحدثنا أبو بكر قال: أول ما قرىء خلف الإمام في زمن المختار، لأنهم اتهموه.
حدثنا أحمد بن إبراهيم حدثنا وهب بن جرير عن أبيه عن صعب بن زيد قال: كان عبد الله بن الزبير استعمل مصعباً على البصرة ثم عزله، واستعمل ابنه حمزة وذلك بعد قتل المختار، فلما رأى أهل البصرة ضعف حمزة طلبوا إلى ابن الزبير أن يرد إليهم المصعب، وكان المصعب رجلاً له نجدة وشجاعة وسخاء وبصر بما يأتي ويذر، فلما قدم البصرة جبى خراج الأهواز، وشاطئ دجلة، وجعل يعطي الناس العطاء في كل سنة مرتين في أولها وآخرها، فلم يزل المصعب بالبصرة إلى أن خرج إلى مسكن.
حدثنا أبو خثيمة وأحمد بن اسرائيل قالا: حدثنا وهب بن جرير عن أبيه قال: استعمل عبد الله بن الزبير عبد الله بن مطيع العدوي على الكوفة، فقال المختار لابن الزبير وهو يومئذ عنده إني لأعلم قوماً لو أن لهم رجلاً له رفق وعلم بما يأتي ويذر، لاستخرد لك منهم جنداً تقاتل بهم أهل الشام، قال: من هم؟ قال: شيعة عليّ وبني هاشم بالكوفة، قال: فكن أنت ذلك الرجل؛ فبعثه إلى الكوفة فترل ناحية منها، وجعل يبكي على الحسين، ويذكر مصابه حتى ألفوه وأحبوه فنقلوه إلى وسط الكوفة، وأتاه منهم بشر كثير، فلما غلظ أمره وقوي شأنه سار إلى ابن مطيع فأخرجه من الدار.
وحدثني أحمد بن إبراهيم حدثنا وهب عن أبيه عن عدة حدثوه: أن المختار لما غلب على الكوفة ابتنى لنفسه من بيت المال داراً أنفق عليها مالاً عظيماً، وأتخذ بستاناً من بيت المال، وأعطى عطايا كثيرة وأنفق

نفقات وكتب إلى ابن الزبير: إن سوغتني ما أنفقت من بيت المال فإني في طاعتك وإنما حملني على إخراج ابن مطيع ما رأيت ن وهنه وضعفه وأنه لم يكن صاحب ما هو فيه، فأبى ابن الزبير أن بفعل فخلعه المختار؛ وكتب إلى عليّ بن الحسين بن عليّ يريده على أن يبايع له، وبعث إله بمال فأبى أن يقبله وأن يجيبه، وخرج إلى المسجد فشتمه وعابه وذكر كذبه؛ فكتب المختار إلى ابن الحنفية يريده على ذلك، فأتاه عليّ بن الحسين فاشار عليه أن لايقبل، وأن يخرج إلى الناس فيتبرأ منه وعيبه ويذكر كذبه، فأتاه ابن عباس فقال: لا تفعل فإنك لا تدري على ما أنت من ابن الزبير، فأطاع ابن عباس، وسكت عن عيب المختار؛ وغلظ أمر المختار بالكوفة، وكثرت خشبيته، فجعل يخبرهم أن جبريل يأتيه وتتبع قتله الحسين فقتلهم، وكان ممن قتل عمر بن سعد بن أبي وقاص، وهو الذي كان لقي الحسين فقتله، فازداد أهل الكوفة إعظاماً له وحباً وطاعة؛ فخرج النعمان بن صهبان الراسبي من البصرة، وكان يرى رأي الشيعة، حتى قدم الكوفة فدخل على المختار ذات يوم، فقال له المختار: هنا مجلس جبريل قام عنه آنفاً، فخرج النعمان وأصحابه فقاتلوه فقتلوا اجمعين.

وحدثنا أبو خيثمة حدثنا وهب بن جرير حدثني أبي ومحمد بن أبي عيينة: أن المختار وجه أحمر بن شميط ليأخذ البصرة فخرج في أربعين ألفاً فترل المذار واستنفر المصعب الناس، وخرج إليه بالبصرة، وقد كان مصعب لما قدم العراق كتب إلى المهلب حين قتل ابن الماحوز الخارجي أن يصير إليه، فأتاه فسار المصعب بالناس حتى نزل بإزاء ابن أبي صفرة بالمذار، واستعمل على ميمنة الناس الملهب بن أبي صفرة، وعلى ميسرقم عمر بن عبيد الله بن معمر وكانت في الميمنة تميم والأزد، وفي الميسرة ربيعة، وكان مصعب في القلب ومعه أهل العالية من أخلاط الناس، فلما زحف بعض الناس إلى بعض حمل عمر بن عبيد الله على ميمنتهم فهزمهم، وقتل ابن شميط وأصحابه.

الجزء السابع بنو أمية بن عبد شمس

عمال ابن الزبير

قال علي بن محمد أبو الحسن المدائني وغيره: اصطلح أهل الكوفة بعد موت يزيد، وهرب ابن زياد على عامر بن مسعود، فأقره عبد الله بن الزبير أشهراً ثم عزله وولى الحرب والصلاة عبد الله بن يزيد الخطمي، وولى الخراج إبراهيم بن محمد بن طلحة.

فحدثني عمر بن شبة حدثنا أبو داوود حدثنا زهير بن معاوية عن أبي إسحاق قال: خرج عبد الله بن يزيد يستسقي، وخرج معه البراء بن عازب وزيد بن أرقم، وخرجت معهم يومئذ فخطب على رجليه على غير منبر، فاستغفر الله واستسقى وصلى بنا ركعتين جهر فيهما بالقراءة ونحن خلفه، و لم يؤذن يومئذ و لم يقم.

وحدثني الحسين بن علي بن الأسود حدثنا يحيى بن آدم عن إسرائيل عن عبد الله بن يزيد: أنه دفن ميتاً فسله من قبل رجليه.

حدثنا عمرو بن محمد الناقد حدثنا أبو أحمد الزبيري عن مسعر عن ثابت بن عبيد قال: رأيت على عبد الله بن يزيد خاتما من ذهب وطيلسانا مدبجا.

وحدثني الحسين بن علي عن يحيى بن آدم عن إسرائيل عن الأشعث بن سليم عن عبد الله بن يزيد الأنصاري: أنه كان على الناس، فقام من العشي قبل العيد فقال: إنا خارجون وإنا مصلون قبل الخطبة.

حدثنا عفان حدثنا حماد بن سلمة حدثنا أبو جعفر الخطمي أنبأنا محمد بن كعب قال: دعي عبد الله بن يزيد إلى طعام فلما جاء وجد البيت منجدا فقعد خارجاً يبكي، فقالوا: ما يبكيك ؟ قال: كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا شيع جيشا فبلغ عقبة الوادي قال: أستودع الله دينكم وخواتم أعمالكم فرأى ذات يوم رجلاً قد رقع بردة له بقطعة فرو فقال: أأنتم اليوم خير أم إذا غدت عليكم قصعة وراحت قصعة، وغدا أحدكم في حلة وراح في حلة، وسترتم بيوتكم كما تستر الكعبة.

وقال المدائني وغيره: وعزل ابن الزبير عبد الله وصاحبه، وولى الكوفة عبد الله بن مطيع، فأخرجه المختار منها، ثم ولى أخاه مصعباً البصرة والكوفة، وقال له: إذا فتحت الكوفة فأنت أميرها وأمير ثغورها، فقتل المختار بالكوفة سنة تسع وستين، ثم استخلف على الكوفة القباع وهو الحارث بن عبد الله بن أبي ربيعة المخزومي، وولى المهلب بن أبي صفرة الموصل والجزيرة وأرمينية، وقال له: إنما وليتك لتكون بيني وبين

عبد الملك وجيوشه لثقتي بحزمك، ووجه إلى البصرة عمر بن عبيد الله بن معمر، ولم يزل خليفته عليها، ثم ولاه فارس بعد مصير والي الكوفة إليها.

وقال بعضهم: إن مصعباً استخلف القباع، وأمره أن يجعل عمرو بن حريث خليفته وعزل عبد الله بن الزبير أخاه بعد سنة من مقتل المختار، أو أقل، عن البصرة، وولى البصرة ابنه حمزة، وأمر مصعبا أن يلحق بمن معه من رجال البصرة، فعزل المهلب عن الموصل ونواحيها فلحق بحمزة بالبصرة، وخرج المصعب إلى أخيه فرده على البصرة والكوفة، فكانت ولاية حمزة نحواً من سنة، وأقر حمزة عمر بن عبيد الله على فارس، وكلم في توجيه المهلب لقتال الأزارقة ففعل.

قالوا: وولى القباع شرطه بالكوفة شبث بن ربعي الرياحي.

فذكر عبد الله بن المبارك عن مسعر عن عبيد الله بن القبطي: أن الحارث بن عبد الله بن أبي ربيعة القباع فاتته الركعتان قبل الفجر فأعتق رقبة.

وحدثني عمر بن شبة عن أبي داود عن شعبة عن مغيرة عن الشعبي عن ابن أبي ربيعة: أنه أجل العنين سنةً. وروي أن الشعبي قال يؤجل تسعة أشهر.

وحدثني عمرو بن محمد الناقد حدثنا أبو أحمد الزبيري عن سفيان عن حماد عن الشعبي قال: ماتت أم الحارث بن أبي ربيعة، وهي نصرانية فشهدها معه قوم من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم.

وقال المدائني: كانت أمه نصرانية سوداء، وكانت أكلت حمامة من حمام مكة، فكان يعير بذلك.

المدائني قال: تقدم شبث بن ربعي ليصلي على جنازة رجل من بني حميري بن رياح، وهو على شرط القباع بالكوفة فمنعوه، فوثب ابنه عبد السلام على رجل فقطع أذنه فدفعه شبث إليهم ليقطعوا أذنه فقالوا: هو ابن أمة وصاحبنا ابن مهيرة، فدفع إليهم ابنه عبد المؤمن فأبوه، فدفع إليهم عبد القدوس فقطعوا اذنه، فعزله القباع وقال هذا أعرابي، وولى شرطته سويد بن عبد الرحمن المنقري، فقال شبث:

أبعد القباع آمن الدهر صاحباً ... على سوءه إنّي إذاً لغبين

وأمك سوداء الجواعر جعدةٌ ... لها شبهٌ في منخريك مبين

وقال الهيثم بن عدي والمدائني: أتى بني تميم محمد بن عمير بن عطارد في حمالة فقال: يقسم على بني عمرو كذا، وعلى حنظلة كذا، وعلى بني سعيد كذا، فقال شبث: بل كلها علي، فقال ابن عمير: نعم العون على المروءة المال.

قال: وكان شبث علوياً والهيثم بن الأسود أبو العريان عثمانياً، وكانا متصافيين، فقال الهيثم لشبث: إني

أخاف عليك من يوم صفين؛ قال العريان بن الهيثم بن الأسود: فمرض شبث فأتيته فقلت له: يقول لك أبي كيف تجدك ؟ قال: أنا في آخر يوم من الدنيا وأول يوم من الآخرة فأخبر أباك أني لم أندم على قتال معاوية يوم صفين، وتمثل قول لبيد:

تمنّى ابنتاي أن يعيش أبوهما وهل أنا إلاّ من ربيعة أو مضر

و لم يلبث شبث أن مات، فلم أبلغ إلى أبي حتى سمعت الصياح؛ فقال أبي يرثي شبثاً:

إنّني اليوم وإن أمّلتني لقليل المكث من بعد شبث

عاش تسعين خريفاً همّه جمع ما يملك من غير خبث

لم يخلف في تميمٍ سبّةً ينكس الرأس ولا عهداً نكث

في أبيات.

وجاءت الخوارج تريد الكوفة فخطب القباع فقال: إن أول القتال السباب، ثم الرميا، ثم الطعان، ثم السلة، فقالوا: ما أحسن صفة الأمير، وسار من الكوفة إلى باجوا شهراً فقال الشاعر:

سار بنا القباع سيراً نكرا يسير يوماً ويقيم شهرا

وزعم قوم أن حمزة بن عبد الله ولي البصرة والكوفة فعزل المهلب عن البصرة ونواحيها، وأنه ولى القباع الكوفة وليس ذلك بثبت، والثبت أنه ولي البصرة فقط، وأن مصعبا عزل المهلب عن عمله ذلك، وألحقه بحمزة كما أمره أخوه، وولى عمل الموصل ونواحيها إبراهيم بن الأشتر، فكان عليها حتى قدم المصعب والياً على البصرة، وبعد ذلك إلى أن أحضره قتال عبد الملك.

وقال قوم: استخلف مكان المهلب عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث، وكان إبراهيم بن الأشتر بالكوفة مشرفاً على القباع.

وقال المدائني: ولى عبد الله بن الزبير البصرة بعد ابنه عمر بن عبيد الله، فكان سخيا شجاعاً ممدحا، وقال المهلب ما رأيت مثل أحمر قريش في شجاعته، ما لقينا خيلا قط إلا وكان في سرعان خيلنا، ولما ولاه مصعب فارس، بلغه ذلك، فقال: رماها بحجرها، لقد ولاها شريفاً شجاعاً.

وقد مدحه الفرزدق، ومدحه نصيب وغيرهما، وفيه يقول يزيد بن الحكم بن أبي العاص الثقفي:

فما كعب بن مامة وابن سعدى بأجود منك يا عمر الجوادا

وقال المدائني: كانت لمغيرة بن حبناء التميمي جارية نفيسة، فاضطر إلى بيعها فجعل يمسك حتى قالت له: لو بعتني فانتفعت بثمني كان أمثل مما أراك تلقى، قال: أفعل على كره، فعرضها على عمر بن عبيد الله وقد بلغته خلته وخبره فاشتراها منه بمائة ألف، وذلك أضعاف ما تساوي، وقبض الثمن وقال:

لولا قعود الدهر بي عنك لم يكن يفرقنا شيءٌ سوى الموت فاعذري
أروح بهمٍّ في الفؤاد مبرح أناجي به قلباً قليل التصبّر
عليك سلامٌ لا زيارة بيننا ولا وصل إلاّ أن يشاء ابن معمر

فلما بلغ الشعر عمر بن عبيد الله قال: فقد شاء ابن معمر، فخذ بيدها والمال لك.

قالوا: وعزل عبد الله بن الزبير عمر بن عبيد الله بن معمر عن البصرة وولاها القباع، فحبس عمر بن عبيد الله بن معمر وطالبه بمال، فجزع من الحبس فقال له القباع: يا أبا حفص لا تجزع فإنك أول من سن هذا، حبست عبد الله بن الحارث يعني ببة، وكان حبسه وطالبه بمال.

وقال عبد الملك بن مروان من ولى ابن الزبير البصرة ؟ فقالوا: الحارث بن عبد الله بن أبي ربيعة، فقال: لا حر بوادي عوف. ووقع بين الحارث وبين يحيى بن الحكم بن أبي العاص كلام، فقال له يحيى: يا بن السوداء يا بن آكلة حمام مكة، وكانت حبشية.

وزعموا أنه لما مات قال الوليد بن عبد الملك: مات سيد بني مخزوم، فقال عبد الملك بل سيد قريش.

وقال أبو الأسود الديلي، وسأل القباع حاجةً فلم يقضها:

أبا بكرٍ جزاك اللّه خيراً أرحنا من قباع بني المغيره
بلوناه فلمناه وأعيا علينا ما يمرّ لنا مريره
على أنّ الفتى نكحٌ أكولٌ ومسهابٌ مذاهبه كثيره

وكان عباد بن الحصين على شرطه بالبصرة، وفيه يقول زياد الأعجم:

فإن تك يا عبّاد ولّيت شرطةً فباست زمانٍ صرت فيه تكلّم

قال المدائني: تواقف جرير والفرزدق بالمربد في ولاية القباع فأرسل اليهما عبادا فهربا فهدم دورهما وطلبهما، فقال الفرزدق:

أفي قملي من كليبٍ هجوته أبو جهضمٍ تغلي عليّ مراجله
فما كان شيءٌ كنت فينا تحبّه من الشرّ إلاّ قد أبانت شواكله
وقبلك ما أعييت كاسر عينه زياداً فلم يقدر عليّ حبائله
وقد عاش لم يعقد لسيفٍ حمالةً ولكن عصام القربتين حمائله
أحارث داري مرّتين هدمتها وكنت ابن أختٍ ما تخاف غوائله

في أبيات، وكانت أسماء بنت مخربة النهشلية عند أبي ربيعة خلف عليها بعد هشام بن المغيرة.

وقال جرير:

فما في كتاب اللّه هدم بيوتنا	كتهديم ماخور خبيثٍ مداخله
في مخدعٍ منه نوار وسربها	وفي مخدعٍ أكياره ومراجله
أحارث خذ ما شئت منّا ومنهم	فأنت كريمٌ ما تغبّ فواضله

وقال يزيد بن نهشل الدارمي:

لولا حواجز قربى لست راعيها	وخشية اللّه فيمن قد يعاديني
لقد بريتك برياً لا اجتبار له	إنّي رأيتك لا تنفكّ تبريني

في أبيات.

وقال الأشهب بن رميلة:

أحار بن عبد الله يا خير مطلبٍ	لذي خلّةٍ أو أن أتاه نسيب
إذا متّ مات الجود وانقطع الندى	وعادت أكفّ السائلين تخيب

في أبيات.

وقال المدائني وغيره: كان ببة أول من وجه لقتال الأزارقة، وكان القباع أول الناس عقد للمهلب على قتال الأزارقة، وكانوا قد غلبوا على الأهواز، ولم يزل القباع على البصرة من قبل عبد الله بن الزبير حتى قدم المصعب والياً على البصرة والكوفة.

قالوا: قدم المصعب البصرة فدخل المسجد فصلى ركعتين ثم أرسل إلى عمر بن عبيد الله بن معمر، وكان محبوساً عند القباع فأطلقه وجعله خليفته بينه وبين الناس.

وقال المدائني: وولى شرطته مطرف بن سيدان الباهلي ثم عزله، وولاه الأهواز وولى شرطه بشر بن غالب الأسدي.

وقال المدائني: كان عمر بن سرج مولى ابن الزبير يحدث قال: كنت في الذين قدموا مع مصعب من مكة إلى البصرة، فقدم متلثما حتى أناخ على باب المسجد ودخل فصعد المنبر، وقال الناس: أمير، أمير، وجاء الحارث بن عبد الله بن أبي ربيعة فسفر المصعب فعرفوه وقالوا: مصعب بن الزبير، فقال للحارث: اظهر فصعد حتى جلس على المنبر دونه بدرجة، ثم قام المصعب فحمد الله وأثنى عليه وقرأ: "طسم تِلْكَ آيَات الكتاب الْمُبِين نَتْلُو عَلَيْكَ مِنْ نَبإِ مُوسَى وَفِرْعَونَ بِالحَقّ لِقَوم يؤمنون إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلاَ فِي الأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيعَاً يَسْتَضْعِف طَائِفَة منهم يُذبّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحِيي نِساءَهُمْ إِنَّهُ كانَ من الْمُفسِدينَ" وأشار نحو

الشام "وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهِمْ أَئِمَّة ونجعلهم الْوَارِثِينَ" وأشار بيده نحو الحجاز "وَنُمَكِّن لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَنرِي فرعونَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَا كانُوا يَحْذَرُونَ" وأشار إلى الشام.

حدثني أبو هشام الرفاعي عن عمه عن ابن عياش الهمداني عن الشعبي أنه قال: ما رأيت أميراً قط على منبر أحسن من مصعب بن الزبير.

المدائني قال: وجد مصعب على رجال أهل البصرة فيهم أنس بن مالك، وصعصعة بن معاوية فضرب صعصعة محمولاً على استه، ثم أمر بأنس فقال له أنس: أنشدك الله وخدمتي رسول الله ووصيته بالأنصار، فخر مصعب من المنبر حتى ألصق خديه بالأرض وقال: سمعاً وطاعةً لله ولرسوله، وحمله وكساه وأمر له بعشرين ألف درهم.

المدائني، قال: وجد مصعب على الفرات بن معاوية البكائي فحلق رأسه ولحيته في غداة يوم فراح إليه الفرات من يومه وقد أعتم فسلم عليه فتذمم مصعب وقال: رجل فعلت به ما فعلت وأتاني في عشية يوم فأحسن إليه وأكرمه ووصله وولاه.

وقيل لعبد الملك إن مصعباً ينال الشراب فقال: والله لو علم مصعب منذ حارب أن شرب الماء يفسد مروته ما شربه فكيف يشرب الشراب، ما عرفت له زلة مذ حارب.

محمد بن سعد عن الواقدي، قال: كان مصعب وعبد الملك، وعبد الله بن أبي فروة أخلاء لا يكادون يفترقون، فكان عبد الملك وابن أبي فروة يتباريان في الكسوة، و لم يكن مصعب يقدر على ما يقدران عليه، فاكتسى ابن أبي فروة حلة واكتسى عبد الملك مثلها وبقي مصعب لا شيء له فذكر عبد الله، فلما ولي مصعب العراق استكتب عبد الله بن أبي فروة، فإنه لعند المصعب إذ أتي المصعب بعقد جوهر قد أصيب في بعض بلاد العجم لبعض ملوكهم، فقال: يا عبد الله أيسرك أن أهبه لك ؟ قال: نعم فدفعه إليه، وقال: والله لسروري بالحلة لو كسوتمونيها أشد من سرورك بهذا العقد فبارك الله لك فيه؛ قال: فلم يزل العقد عنده حتى أخذ أخوه عمران في إمرة عمر بن عبد العزيز على المدينة شارباً، فأمر عمر باستنكاهه فوجدت من رائحة الشراب فأمر بحسبه فجاء عبد الله بالعقد فدسه تحت مصلى عمر، ثم قام، فرفع عمر المصلى فرأى العقد فقال: ردوه ما هذا قال: هذا أهديته إليك، فقال له لو كنت تقدمت إليك لأحسنت أدبك، ثم أمر بعمران فضرب الحد، وكان عمران صديقاً لعبد الله بن عمرو بن عثمان مع الولاء، فجاء عبد الله راكبا ومعه بغل يجنب فلما ضرب عمران حمله على البغل المجنوب، ويقال: على البغل الذي كان راكباً عليه وركب هو المجنوب، وانطلق به إلى مترله.

قالوا: وكان مصعب يعطي أهل العراق في كل سنة عطاءين في الشتاء عطاء، وفي الصيف عطاء، فأحبه الناس حبا شديداً، فقال عمرو بن يزيد النهدي:

ألم تر أنّ الجود إذ مات مصعبٌ دفنّاه واسترعي الأمانة ذئب

فهبنا أناساً أوبقتنا ذنوبنا أما لثقيفٍ حوبةٌ وذنوب

فأتي به الحجاج، فقال له: أنت القائل ما قلت ؟ فقال: فقدنا والله مصعباً ففقدنا به عدلا شاملاً، وعطاءً جزيلاً وحسنا به، فجعلنا أحاديث، ومزقنا كل ممزق، فأمر به فضربت عنقه.

المدائني، قال: قدم مصعب البصرة وماء البطيحة يفيض على السباخ حتى كاد يصير في نهر معقل، فاخذ المسناة التي نسبت إليه وحاز تلك الأرضين لنفسه، فأقطعها عبد الملك الناس فحفروا الأنهار فهي اليوم قطائع عبد الملك.

المدائني وأبو مسعود عن عوانه، قال: كتب عبد الله بن الزبير إلى مصعب لرجل من قريش بألف درهم فاستقل ذلك واستحيا من الرجل فقال له: إن بيني وبين أمير المؤمنين علامة أنه إذا كتب إلي بألف فهي مائة ألف، فأعطاه مائة ألف، فبلغ ذلك عبد الله بن الزبير فغضب منه؛ وكتب عبد الله إلى مصعب في قوم، فوصلهم بخلفة ذلك، فلم يكتب إليه في أحد.

المدائني والحرمازي قالا: خطب مصعب أهل البصرة، فقال: يا أهل البصرة بلغني أنكم تلقبون أمراءكم، وقد لقبت نفسي الجزار.

واستخلف مصعب على البصرة عبيد الله بن عبيد الله بن معمر على أن الولاية لعمر بن عبيد الله، وإياه كان يكاتب، وسار إلى المختار فقتله وأنفذ عمر بن عبيد الله إلى البصرة حين قتل المختار فصار إلى البصرة فحدث بها ما حدث من أمر الجفرة، فقدم مصعب البصرة فتلافى ذلك الأمر، ثم إن ابن الزبير ولى حمزة ابنه البصرة سنة أو نحوها، وكان خليفة مصعب على الكوفة القباع فأقره، ومضى إلى أخيه، ثم قدم بولاية المصرين في سنة تسع وستين، فأقر مصعب القباع على الكوفة حتى شخص إلى مسكن، فانصرف القباع إلى ابن الزبير بمكة.

المدائني، قال: لما قدم المصعب بعد عزل ابن الزبير حمزة ابنه، وقد أعاده على المصرين، بدأ بالبصرة فقدمها فتزوج وهو بالبصرة سكينة بنت الحسين عليه السلام، فولدت له جارية سماها فاطمة، وصير على شرطه عباد بن الحصين، فلما بلغ عبد الله أخاه تزويجه قال: إن مصعباً غمد سيفه وسل أيره.

قال: ولما سار مصعب إلى الكوفة أخذ معه مالك بن مسمع، وزياد بن عمرو، فاستأذناه في الرجوع فأذن لهما وقال: إنهما لا يريدان خيراً، فقال الشاعر:

الحق أميّة بالحجاز وخالداً واضرب علاوة مالكٍ يا مصعب

فلئن فعلت لتحرمنّ بقتله وليصفون لك بالعراق المشرب

وقال آخر:

أخاف عليك زياد العراق وأخشى عليك بني مسمع

وقال المدائني عن جهم بن حسان السليطي قال: كلم الأحنف مصعباً في قوم حبسهم فقال: أصلح الله الأمير إن كنت حبستهم بحق فالعفو يسعهم، وإن كنت حبستهم بباطل فالحق يخرجهم، فقال: صدقت وأخرجهم.

المدائني عن مسلمة بن محارب قال: دخل أسقف نجران على مصعب فكلمه بشيء فأغضبه فرماه بقضيب كان معه فأدماه، فقال الأسقف: إن أذن لي الأمير في الكلام تكلمت. قال: تكلم بما شئت، قال إن المسيح قال لا ينبغي للإمام أن يكون سفيهاً ومنه يتلمس الحلم، ولا جائراً ومنه يلتمس العدل، فقضى حاجته.

حدثني حفص بن عمر عن الهيثم بن عدي، فذكره المدائني عن ابن جعدبة: ان المصعب بن الزبير قال لحبى المدينية: ابغيني امرأة أتزوجها، فقالت: بأبي أنت وأمي عائشة بنت طلحة على عظم في أذنيها وقدميها، فقال المصعب: أما الأذنان فيغطيهما الخمار، وأما القدمان فيغطيهما الخف فتزوجها، وأصدقها خمسمائة ألف درهم وأهدى لها خمسمائة ألف درهم.

فقال أنس بن أبي أناس، وبعضهم يقول: ابن همام، والأول أثبت:

أبلغ أمير المؤمنين رسالةً من ناصحٍ ما إن يريد متاعا

بضع الفتاة بألف ألفٍ كاملٍ وتبيت قادات الجيوش جياعا

فلو انّني الفاروق أخبر بالذي شاهدته ورأيته لارتاعا

وقال المدائني: قيل هذا الشعر حين تزوج مصعب سكينة بنت الحسين بن علي عليهما السلام.

وقال محمد بن سلام الجمحي: كانت عائشة بنت طلحة عند عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي بكر، ثم عند مصعب، ثم عند عمر بن عبيد الله بن معمر التيمي، وأم عائشة أم كلثوم بنت أبي بكر رضي الله تعالى عنه، وأمها ابنة خارجة الأنصاري.

حدثني الحرمازي عن الشعبي: انه ركب مع المصعب يوماً فلما نزل أمره بالنزول وأخذ بيده، قال: فلم أزل أدخل معه حتى صرت إلى بيت قد سدلت ستوره، فترك يدي ودخل فبقيت لا أقدر على تقدم ولا

تأخر، ثم نادى من وراء الستر ادخل يا شعبي فدخلت فإذا هو وعائشة بنت طلحة على سرير، فوالله ما شبهت بوجهما إلا القمر طالعاً فكلمني، ثم قال انصرف فقالت: والله لا ينصرف إلا بجائزة، فأمر لي بعشرة آلاف درهم، وأمرت لي بمثلها، فلما كان الغد دخلت عليه والناس عنده، وهو على سريره وأمرت فاستدناني فدنوت حتى ألصقت صدري بالسرير، فقال: ادن، فمددت إليه عنقي، فقال كيف رأيت ذاك الانسان ؟ قال: قلت: والله ما رأيت مثله قط، فبارك الله للأمير، ثم رجعت إلى مقعدي.

وقال الهيثم بن عدي عن مجالد قال: لما دخل الشعبي على مصعب ومعه عائشة قال: أنا وهذه كما قال الشاعر:

وما زلت في ليلى لدن طرّ شاربي	إلى اليوم أبدي إحنةً وأواحن

قال المدائني: قيل هذا الشعر:

أبلغ أمير المؤمنين رسالةً

حين تزوج مصعب سكينة بنت الحسين عليه السلام.

حدثني عمر بن شبة عن مخلد بن يحيى: أن مصعب بن الزبير ولى مطرف بن سيدان الباهلي أحد بني جئاوة شرطته في بعض الأيام التي ولي فيها العراق لأخيه عبد الله، فأتي مطرف بالنابىء بن زياد بن ظبيان أحد بني عائش بن مالك بن تيم الله بن ثعلبة، وبرجل من بني نمير وقد قطعا الطريق، فقتل النابىء بأمر مصعب وضرب النميري بالسياط وتركه، فلما عزل مطرفا عن الشرطة ولاه الأهواز فجمع عبيد الله بن زياد بن ظبيان جمعاً وخرج يريده فالتقيا فتواقفا وبينهما نهر، فعبر مطرف بن سيدان إليه فعاجله ابن ظبيان فطعنه فقتله، فبعث مصعب ابن مطرف في طلبه فلم يلحقه، ولحق ابن ظبيان بعبد الملك، وقاتل مصعباً معه، قال البعيث اليشكري:

لمّا رأينا الأمر نكساً صدوره	وهمّ الهوادي أن تكون تواليا
صبرنا لأمر اللّه حتّى يقيمه	ولم نرض إلاّ من أميّة واليا
ونحن قتلنا مصعباً وابن مصعبٍ	أخا أسدٍ والأشتريّ اليمانيا
سقينا ابن سيدانٍ بكأسٍ رويّةٍ	كفتنا وخير الأمر ما كان كافياً

المدائني قال: قدم مصعب بامرأته عائشة البصرة، وكانت أجمل الناس، فكانت تسأل عن أجمل النساء البصرة، فأخبرت عن أم الفضل بنت غيلان بن خرشة الضبي، وكانت تحت داود بن قحذم أحد بني قيس بن ثعلبة، وكان مصعب يطالبه بمائة ألف درهم من خراج غلته، فكانت عائشة تحب أن تراها، فقيل لابن

قحذم لو بعثت بها إلى عائشة فكلمتها في أن تكلم مصعباً في إسقاط ما يطالبك به عنك، فقال: إنه من فتيان قريش مترف قد أسكره السلطان فأخاف منه ما يخاف من مثله، فلم يترك حتى أرسلها إلى عائشة فوجدتها في بركة لها في دارها، فقالت لها عائشة انزلي فنزلت، فظلتا في البركة ملياً، ثم خرجتا فدخلتا بيتا وتحدثتا، وكلمتها في زوجها فلم تلبثا أن جاء مصعب فأدخلتها الحجلة ودخلت معها ونزع مصعب ثيابه فقالت عائشة: إن معي في الحجلة فلانة، وقد جاءت في أمر زوجها وضمنت لها عنك قضاء حاجتها، فأسقط ما على ابن قحذم ووهبه له وانصرفت أم الفضل، فدخلت على زوجها فقالت له: والله ما جئتك حتى دخلت الحجلة، وأرخيت علي الستور، واغتسلت ثم قضيت حاجتي، فقال: وا سوءتاه لمصعب إن كان فعل، قالت: لا ترع وحدثته الحديث.

المدائني عن ابن جعدبة، قال: جلس ابن عمر ومصعب وعروة وعبد الملك بالمدينة يتحدثون فتمنى ابن عمر الجنة، وتمنى مصعب ولاية العراق وأن يتزوج سكينة بنت الحسين، وعائشة بنت طلحة، وتمنى عروة أن يفقه في الدين ويحمل عنه العلم، وتمنى عبد الملك الخلافة.

المدائني عن ابن جعدبة عن صالح بن كيسان، قال: كان يقال ليس في الدنيا زوج أحسن من مصعب وعائشة.

قال المدائني: وكان مصعب يحسد الناس على الجمال فبينا هو ذات يوم يخطب إذ رأى رجلاً جميلاً من بني حمان مستقبلاً له فأعرض عنه، ثم أقبل ابن جودان الأزدي، وكان جميلاً فأعرض عنه، ثم دخل الحسن بن أبي الحسن البصري فلما رآه نزل مبادراً.

قال: وكانت عائشة سيئة الخلق، فغاضبها مصعب في بعض الأمر فتهاجرا، فبلغ ذلك من كل واحد منهما مبلغاً شديداً، فأقبل مصعب من حرب وعليه سلاحه فقالت لها حاضنتها وقد شكت إليها وجدها: قومي إليه فأمسحي وجهه من الغبار، وانزعي سلاحه، فقامت إليه فقال: بأبي أنت إني مشفق عليك من ريح الحديد والصدأ، فقالت: والله لهو أطيب ريحاً من المسك الأذفر فقبلها وصالحها.

وقال المدائني: خرج مصعب من البصرة إلى الكوفة للقاء عبد الملك، وخلف على البصرة سنان بن سلمة بن المحبق الهذلي، وكانت لأبيه صحبة وولد سنان ايام حنين، فحنكه النبي صلى الله عليه وسلم، فلم يزل على البصرة حتى قدم مصعب.

وخلف عباد بن الحصين معه على شرطته وقتل مصعب يوم الثلاثاء لثلاث عشرة ليلة خلت من جمادى الأولى- أو الآخرة- سنة اثنتين وسبعين، ولما قتل مصعب وثب حمران على البصرة.

المدائني وغيره، قالوا: لما قدم مصعب الكوفة دخل إليه عبد الله بن الزبير الأسدي فقال أنت القائل:

إلى رجب أو ذلك الشهر قبله | توافيكم بيض المنايا وسودها
ثمانون ألفاً دين عثمان دينهم | مسوّمةً جبريل فيها يقودها

فخافه، ثم قال: نعم أنا قلته، قال: فإنا قد عفونا عنك وأمرنا لك بمائة ألف، فخرج من عنده وهو يقول:

جزى اللّه عنّي مصبعاً إنّ سيبه | ينال به الجاني ومن ليس جانيا
ويعفو عن المذنب العظيم تكرّماً | ويعطي من المعروف ما لست ناسيا

المدائني، قال: أتى رسول مصعب عمرو بن النعمان بن مقرن بمال فقال له: الأمير يقرئك السلام، ويقول: إنا لم ندع بالكوفة قارئاً إلا وقد ناله معروفنا فاستعن على نفقة شهر رمضان بهذا، فقال: وعلى الأمير السلام، قل له: إنا والله ما قرأنا القرآن لنطلب به الدنيا ورده عليه؛ وكان يؤم الناس في شهر رمضان.

حدثني بكر بن الهيثم حدثنا أبو نعيم عن يحيى بن زكرياء عن اسماعيل بن أبي خالد عن الشعبي قال: ما رأينا أميراً قط على منبر أحسن من مصعب.

حدثني محمد بن حيان الحراني حدثنا زهير بن معاوية حدثنا عطاء بن السائب عن أبي البختري قال: كان مصعب إذا سلم في الصلاة كلها قال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، لا إله إلا الله والله أكبر، لا حول ولا قوة إلا بالله، ويرفع بذلك صوته، فقال عبيدة: ماله قاتله الله نعار بالبدع.

قال المدائني: وكان عبيد الله بن الحر الجعفي يغشى مصعباً بالكوفة فيراه يقدم أهل البصرة فقال:

لقد ساءني من مصعب أنّ مصعبا | ارى كلّ ذي غشّ له هو صاحبه
إذا ما أتيت الباب يدخل مسلمٌ | ويمنعني أن أدخل الباب حاجبه

وقال أيضاً:

بأي بلاءٍ أو بأيّة نعمة | يقدّم دوني مسلمٌ والمهلّب
ويدعى ابن منجوفٍ سويدٌ كأنّه | خصيّ أتى للماء من غير مشرب

وقال أيضاً:

ألم تر قيساً قيس عيلان برقعت | لحاها وباعت نبلها بالمغازل

وكتب زفر بن الحارث إلى مصعب: أنا قد كفيتك قتال ابن الزرقاء، يعني عبد الملك؛ ثم أن نفراً من بني سليم أخذوا ابن الحر فخافهم فقال: إنما قلت:

ألم تر قيساً قيس عيلان أقبلت ... إلينا وسارت بالقنا والقبائل

فقتله رجل منهم يقال له عباس؛ فقال زفر:

لما رأيت الناس أولاد علة ... وأغرق فينا نزعه كلّ نائل

فلو يسئل ابن الحر أخبر أنّها ... يمانيةٌ لا تشترى بالمغازل

وقال ابن همام السلولي:

ترنّمت يا بن الحر وحدك خالياً ... بقول امرىءٍ نشوان أو قول ساقط

أتذكر قوماً أوجعتك رماحهم ... وذبّوا عن الأحساب يوم المآقط

وتبكي لما لاقت ربيعةٌ منهم ... وما أنت في أحساب بكرٍ بواسط

فهلا لجعفّيٍ طلبت ذحولها ... ورهطك دنيا في السنين الفوارط

في أبيات.

وقد أنكر أن ابن الحر قتل هذه التلة وقد ذكرت خبره بعد هذا.

المدائني، قال: كان ابن أبي عصيفير الثقفي محبوساً بمائة ألف، ويقال بخمسمائة ألف، وقد كان وجه من يقيم الأنزال للأحنف منذ فصل من البصرة إلى أن دخل الكوفة مع مصعب ثم أنزله داره، فسأل عنه فقيل محبوس، فكلم مصعباً فيه، وكان أكرم الناس عليه، فقال: إن عليه كذا وكذا فقال: مثل الأمير سئلها، ومثلي ترك له مثلها، فقال له: هي لك ومثلها فلما أتي الأحنف بماله بعث به إلى ابن أبي عصيفير أيضاً.

وكان عبيد الله بن الحر محبوساً، فكلم الأحنف مصعباً فيه، فلما أخرجه قال له: يا أبا بحر جعلني الله فداك ما أدري ما أكافئك به إلا أن أقتلك فتدخل الجنة وأدخل النار فضحك الأحنف، وقال: لا حاجة لي في مكافأتك يا بن اخي.

قال المدائني: وجلس الأحنف في مسجد الكوفة، وقد أطافت به بنو تميم، فكلمهم في شيء فقالوا: لا، فقال: إن بني تميم خيل صعاب تضطرب على سائسها ساعة ثم تتبعه.

المدائني، قال: دخل الأحنف على مصعب في بعض الأيام فأنكر تكبره، ويقال: إنه مد رجليه بين يديه وهو جالس معه على السرير، فقال عجباً لمن يتكبر ويتجبر، وقد جرى في مجرى البول مرتين؛ وبلغ قوله عبد الملك فقال: لله هو وتمثل.

وأضمر في ليلى لقومٍ ضغينةً ... وتضمر في ليلى عليّ الضغائن

قال: وكلم الأحنف مصعباً في رجل فقال: أبلغني عنه الثقة أنه قال كذا وكذا، فقال: اللهم غفراً إن الثقة لا يبلغ.

قال: وحضر الأحنف مصعباً وقد أتي برجل فجعل الشرط يقولون له اصدق الأمير. فقال الأحنف: إن بعض الصدق معجزة.

قالوا: ولما بلغ عبد الملك قول الأحنف عجباً لمن يتكبر وقد جرى في مجرى البول مرتين بعث إليه: إنه بلغني تنكر صاحبك لك فهلم إلينا فلك عندنا ولاية الشام، فقال الأحنف: يا عجباً لابن الزرقاء يدعوني إلى نفسه وأهل الشام والله لوددت أن بيننا وبينهم بحراً من نار لا يعبره إلينا منهم أحد إلا احترق، ثم قال: اللهم أمت الأحنف قبل أن يرى لأهل العراق غدراً فمات بالكوفة بعد يسير.

حدثني عبد الله بن صالح ابن كناسة عن الأشياخ قالوا: لما حضرت الأحنف الوفاة بالكوفة قال: لا تندبني نادبة ولا تبكيني باكية، ولا يعلمن بموتي أحد، وأسرعو إخراجي، فأرسل مصعب: إذا حضر اخراجه فأعلموني ففعلوا، فأرسل من أخذ بأفواه السكك لئلا تخرج امرأة فانتفجت عليهم امرأة من بني منقر في رحالة وهي تقول:

قل لأميري مصعبٍ إنّني	سأندب المدفون بالقاع
أندبه بالخير لا أبكي	بخير ما ينعى به الناعي

فقال مصعب: دعوها، فلما دفن قامت على قبره فقالت: أيها الناس أنتم خول الله في بلاده، وشهداؤه على عباده. وإنا قائلون ومثنون صدقاً، رحمك الله من مجن في جنن ومدرج في كفن. فقد كنت من أعظم الناس حلماً وأكرمهم فعلاً، فلن يرثى بعدك مثلك إنا لله وإنا إليه راجعون، فقال مصعب: صدقت والله كذلك كان أبو بحر وبكى وبكى الناس؛ وقال مصعب: مات سيد العرب؛ قال: ومشى مصعب أمام جنازته متسلباً إعظاماً لموته.

قال: وقدم بموت الأحنف البصرة رجل من بني يشكر، فكذبه رجل من بني تميم، ثم علم الخبر فقال:

أمات فلم تبك السماء لفقده	ولا الأرض أو تبدو الكواكب بالظهر
كذبت إذاً ما قرّ في بطن حاملٍ	جنينٌ ولا أمسى على الأرض من شفر
ولما أتيت اليشكريّ وجدته	بأمر أبي بحر بن قيسٍ أخا خبر

وكان موته بالكوفة، وقد شخص مصعب إليه يريد عبد الملك، فشخص منها إلى مسكن وقد دخلها معه في أيام المختار أيضاً وشهد مقتله.

حدثني عباس بن هشام الكلبي عن أبيه قال: كان عقيبة بن هبيرة الأسدي فاتكاً، وكانت له ابنة صغيرة فلاعبت ابن عم له يقال له تميم، فكسرت الصبية ثنية ابنة عقيبة فجاءت أباها تبكي، فدخل على تميم

داره فقتله، فرفع إلى مصعب فأقر بالقتل فحبسه فأعطى ابن تميم جماعة من الأشراف الدية كاملة لئلا يقتل عقيبة، وأعطى محمد بن عمير بن عطارد دية فأبى ابن تميم إلا قتل عقيبة، فما جيء به ليقتل قال: يا أهل الكوفة اسمعوا والله ما قتلته لما جنت ابنته على ابنتي، ولكن سمعت أمير المؤمنين علي ابن أبي طالب يقول، وعن له تميم هذا في جانب المسجد: من سره أن ينظر إلى جذل من أجذال جهنم فلينظر إلى هذا، رحم الله قاتله، فما زالت في نفسي حتى قتلته، فقال الناس: رحمك الله، ثم قال لابنة تميم لقد ضربت أباك ضربة حتى رأيت ضوء الثريا في سلحه، قالت: وأنت يا فاسق ستضرب ضربة حتى أرى ضوى بنات نعش في سلحك، ثم قدم فضربت عنقه.

أمر عبيد الله بن الحر

ابن عمرو بن خالد بن المجمع بن مالك بن عوف بن حريم بن جعفي بن سعد العشيرة.

حدثني عبد الرحمن الأحمري- أبو مسلم- أنبأنا هشام بن محمد الكلبي حدثنا جرير بن عمرو الجعفي- وكانت أمه العالية بنت الأسعر بن عبيد الله بن الحر- قال: وحدثني لوط بن يحيى- أبو مخنف- ببعضه عن أشياخه قال: شهد عبيد الله بن الحر القادسية مع خاليه زهير ومرثد ابني قيس بن مشجعة بن المجمع، وكان شجاعاً فاتكاً لا يعطي الأمراء طاعة، ثم أنه صار مع معاوية بن أبي سفيان، فكان يكرمه، فبلغ معاوية أنه يجتمع إليه جموع من أصحابه فسأله عنهم فقال: بطانتي وأصحابي وإخواني أتقى بهم إن نابني أمر أو خفت ظلامة من أمير جائر، فقال له معاوية: لعل نفسك قد تطلعت إلى علي بن أبي طالب، فقال: إن علياً لعلى الحق وأنت بذلك عالم، فقال عمرو بن العاص: كذبت يا بن الحر فقال: انت وأبوك أكذب مني، ثم خرج من عند معاوية مغضباً يريد الكوفة في خمسين فارساً ممن كان ينتابه، وسأل معاوية عنه فقيل قد خرج، وسار ابن الحر يومه حتى إذا أمسى منعه بعض مسالح معاوية من المسير، فشد وأصحابه عليهم فقتلوا منهم نفراً، وهرب الباقون وأخذوا من دارهم ما احتاجوا إليه، وأخذوا سلاحاً من سلاحهم، ومضى عبيد الله لا يمر على قرية من قرى الشام إلا أغار عليها حتى قدم الكوفة، وبلغ معاوية خبره فقال لعمرو: هذا ما هجت علينا من ابن الحر.

وكانت لابن الحر بالكوفة امرأة يقال لها الدرداء، وهي كبشة بنت مالك، فلما فقده أهلها زوجوها من عكرمة بن الحنبص، فقاضاهم إلى علي فقضى له بأمرأته، وأقام عبيد الله منقبضا عن كل أمر من أمور علي وغيره حتى توفي علي عليه السلام، وولي معاوية ويزيد ابنه، وكان من أمر الحسين ما كان.

وقال أبو مخنف: لما أقبل الحسين من المدينة، وقتل مسلم بن عقيل. خرج ابن الحر فترل قصر بني مقاتل

الذي صار لعيسى بن علي متحرجاً من أن يتلطخ بشيء من أمر الحسين أو يشرك في دمه، فلما صار الحسين إلى قصر بني مقاتل رأى فسطاطاً فسأل عنه فقيل هو لعبيد الله بن الحر، فبعث إليه الحجاج بن مسروق الجعفي يدعوه إلى نصرته فقال للحجاج: قل له: إني إنما خرجت إلى هاهنا فراراً من دمك ودماء أهل بيتك لأني إن قاتلتك كان ذلك عظيماً وإن قاتلت معك و لم أقتل بين يديك فقد قصرت، وأنا أحمى أنفاً من ذلك، وليس لك بالكوفة شيعة، ولا أنصار يقاتلون معك، فلما ابلغه الحجاج الرسالة تمشى إليه الحسين، فلما رآه قام من مجلسه فسأله الخروج معه فاستعفاه من ذلك، واعتل عليه، وعرض فرسا له يقال لها الملحقة، وبعضهم يقول: المحلقة، وقال له انج عليها حتى تلحق بمأمنك، وأنا وأصحابي لك بالعيالات فانصرف عنه، ويقال: إنه دفع الفرس إليه، وقال له ابن الحر: أأنت تخضب أم هو سواد لحيتك ؟ فقال: عجل علي الشيب فاختضبت، وخرج ابن الحر من مترله بشاطىء الفرات فتزله حتى أصيب الحسين بكربلاء، وكان ابن الحر رجلا لا يقاتل لديانة، وإنما كان همه الفتك والتصعلك والغارات.

ثم إن ابن الحر أتى الكوفة فقال له عبيد الله بن زياد، وكان قد تفقد أهل الكوفة: أكنت معنا أم مع عدونا ؟ قال: لا والله ما كنت مع عدوك، ولو كنت معه لبلغك ذلك ولكني كنت مريضاً، قال: مريض القلب، قال: ما مرض قلبي قط، وقد وهب الله لي في بدني العافية.

وكان ابن الحر يغير على مال الخراج فيقتطعه ويعطي منه أصحابه وكان سخياً متلافا، وقد كان من أهل الديوان والعطاء.

قالوا: فخرج من عند ابن زياد مغضبا، فبات عند أحمر بن يزيد بن الكبشم الطائي، ثم خرج من عنده فأتى المدائن، وقال يرثي الحسين عليه السلام:

يقول أميرٌ جائرٌ حقّ جائرٍ ... ألا كنت قاتلت الشهيد ابن فاطمه

ونفسي على خذلانه واعتزاله ... وبيعة هذا الناكث العهد سادمه

فيا ندمي ألاّ أكون نصرته ... ألاّ كلّ نفسٍ لا تسدد نادمه

سقى اللّه أرواح الذين تأزّروا ... على نصبره سقياً من اللّه دائمه

في أبيات.

وقال أيضاً:

يا لك حسرةٍ ما دمت حيّاً ... تردّد بين حلقي والتراقي

وله فيه شعر غير هذا.

قالوا: فلما خرج المختار بالكوفة أبى ابن الحر أن يبايعه، وبعث المختار في طلبه، أتاه بعد فبايعه تعذيراً،

فكان المختار يهم أن يسطو به ثم تمسك عن ذلك لمكان إبراهيم بن الأشتر معه، وجعل ابن الحر يتعبث بالنواحي، كما كان يصنع به إبراهيم، ففارقه وأقبل في أصحابه وهم نحو من ثلاثمائة فأغار على الأنبار، فأخذ ما كان في بيت مالها فقسمه بين أصحابه بلقنسوة دلهم المرادي، وكانت ضخمة، وكان دلهم جسيما عظيم الرأس، شديد البأس وفي ذلك يقول ابن الحر:

أنا الحرّ وابن الحر يحمل شكّتي	طوال الهوادي مشرفات الحوانك
فمن يك أمسى الزعفران خلوقه	فإنّ خلوقي مستشار السنابك
اذا ما غنمنا مغنماً كان قسمةً	ولم نتّبع رأي الشحيح المتارك
أقول لهم كيلوا بكمّة بعضكم	ولا تجعلوني في الندى كابن مالك

يعني إبراهيم بن الأشتر.

ثم اغار على كسكر فأخذ ما كان في بيت مال عاملها وقتله وقسم بين أصحابه قبل أن يستبيحوه، ولما بلغ المختار غارته على الأنبار بعث عبد الله بن كامل الشاكري فهدم داره، وأخذ امرأته أم سلمة بنت عبدة بن الحليق الجعفية فحبسها في السجن؛ فبلغ ابن الحر فقال:

أشدّ حيازيمي لكل كريهةٍ	وإنّي على ما نابني لجليد
هم هدموا داري وساقوا حليلتي	إلى سجنهم والمسلمون شهود
فلست إذاً للحر إن لم أرعكم	بخيلٍ عليها الدارعون قعود

في أبيات.

وسار حتى أتى ساباط المدائن فتلقى بها أصحاب الزبير بن علي، وهو من الأزارقة، فظنوا أصحابه جيشاً سرح إليهم، وظن أنهم جيش سرح إليه فحكموا، فلما سمع تحكيمهم قاتلهم قتالاً شديداً فقتل يومئذ بشر مولى الزبير وكاتبه وناس من أصاحبه، ثم أديل ابن الحر عليهم فقتل منهم وغنم، وقال في ذلك شعراً منه قوله:

أقدّم مهري في الوغى ثمّ أنتحي	على قربوس السرج غير صدود
دعوني إلى مكروهها فأجبتهم	وما أنا إذ يدعونني ببعيد
اذا ما التقوني بالسيوف غشيتهم	بنفسٍ لما يخشى النفوس ورود
فأقلعت الغمّاء عنّا وفرّجت	ونحن بها من غانمٍ وشهيد

وقال أيضاً:

أقول لفتيان الصعالك أسرجوا ... عناجيج أدنى سيرهنّ وجيف

دعاني بشرٌ دعوةً فأجبته ... بساباط إذ سيقت إليه حتوف

فلم أخلف الظنّ الذي كان يرتجى ... وفي بعض أخلاق الرجال خلوف

ثم أتى ابن الحر وهو في مائة وثلاثين فارساً الكوفة، ومعهم الفؤوس والكلاليب لمكاثرة أصحاب السجن فأتى السجن فدخله فأخرج امرأته وكل من كان في السجن. فقاتله ابن كامل صاحب شرطة المختار فهزمنه ابن الحر وانطلق ابن الحر بامرأته حتى أدخلها بيوت جعفي، فتوارت عند كريب بن سلمة الجعفي، و لم يزل ابن الحر يقاتل قومه بالكوفة ويقول:

ألم تعلمي يا أمّ توبة أنّني ... أنا الفارس الحامي حقائق مذحج

وأنّي أتيت السجن في رونق الضحى ... بكلّ فتىً يحمي الذمار مدجج

ثم أغار ابن الحر على شبام من همدان فقاتله عبد الله بن اريم وجعل يقول:

لقد منيتم بأخي جلاد ... ليس بفرّارٍ ولا حيّاد

ثبت المقام مقعص الأعادي

فشد عليه ابن الحر فصرعه وظن أنه قد قتله ثم عولج فبرىء وهزم من لقيه من شبام وشاكر وقال:

سائل بي المختار كم قد ذعرته ... وشرّدت أطرافاً له وجموعاً

وقاتلته والناس قد أذعنوا له ... وقد أقشع الأحياء عنه جميعاً

فلم يزل مخالفاً للمختار حتى قتله المصعب.

وتكلم أهل الكوفة في قتل أصحاب المختار فقال ابن الحر: أما أنا فأرى أن يرد الأمير كل قوم ممن كان مع هذا الكذاب إلى قومهم، فإنه لا غناء بنا عنهم في ثغورنا، ويرد عبيدنا علينا فإنهم لأراملنا وضعفائنا وأن نضرب أعناق الموالي فقد بدا كفرهم وعظم كبرهم وقل شكرهم ولا آمنهم على الدين، فضحك المصعب ودفعهم إلى ابن الحر فضرب أعناقهم وكانوا سبعمائة.

وقاتل ابن الحر المختار مع مصعب، وبعث المصعب إلى ابن الحر: إن لك ولأصحابك خراج بادوريا على أن تقاتل معي عبد الملك وأهل الشام فقال: أوليس لي خراج بادوريا وغيرها، لست فاعلاً وأنشأ يقول:

أترجو ابن الزبير اليوم نصري ... لعاقبةٍ ولم أنصر حسينا

في أبيات.

وقيل لمصعب: إن ابن الحر غير مأمون على أن يصنع في سلطانك ما كان يصنع في سلطان من كان قبلك، ويفسد عليك، فلم يزل مصعب يتلطف له ويعده حتى أتاه، فأمر بحبسه فقال في السجن:

من يبلغ الفتيان أنّ أخاهم … أتى دونه بابٌ منيعٌ وحاجبه

بمنزلةٍ ما كان يرضى بمثلها … إذا قام غنّته كبولٌ تجاذبه

في أبيات.

وقال أيضاً:

بأيّ بلاءٍ أم بأيّة نعمةٍ … تقدّم قبلي مسلمٌ والمهلّب

وكتب ابن الحر إلى الأحنف وغيره يسألهم الكلام لمصعب فيه، فكلمه فيه الأحنف فأخرجه من الحبس، وأطعمه خراج كسكر، فصار إليه فقسمه في أصحابه، ثم أتى ابن الحر نفر فأخذ خراجها فقسمه ولحق ببرس؛ فبعث إليه المصعب الأبرد بن قرة التميمي، فقاتله وقد صار مع ابن الحر خلق، فهزم الأبرد وضربه ضربة على جبينه، فبعث إليه حريث بن زيد الخيل الطائي فقتله عبيد الله بن الحر بمبارزة وهزم أصحابه، فبعث إليه المصعب الحجاج بن حارثة الخثعمي فقاتله حتى حجز الليل بينهم، وقاتله بسطام بن مصقلة بن هبيرة الشيباني وهو وال على عين التمر، فدعا رجل من أصحاب بسطام يقال له يونس بن عاهان ابن الحر للمبارزة فقال عبيد الله: شر دهرك آخره فذهبت مثلاً ما كنت أظن أني أعيش حتى يدعوني مثل هذا إلى البراز، وهزم أصحاب بسطام فافتدى نفسه بماله وقال:

لو أنّ لي مثل جريرٍ أربعه … صبحت بيت المال حتى أجمعه

ولم يهلني مصعبٌ ومن معه

يعني جرير بن كريب، وكان صاحب ميسرته؛ وأتى ابن الحر شهرزور وأخذ ما كان في بيت مالها وقاتله عاملها فهزمه وظفر به فضرب عنقه، وكان من قبل المهلب، لأنه كان على الموصل وأعمالها والجزيرة وما يليها من قبل المصعب، وقال ابن الحر:

يخوفني بالقتل قومي وإنّما … أموت إذا جاء الكتاب المؤجّل

لعلّ القنا تدمي بأطرافها الغنى … فنحيا كراماً نجتدى ونؤمّل

ألم تر أنّ الفقر يزري بأهله … وأنّ الغنى فيه العلى والتجمّل

وإنّك إن لا تركب الهول لا تنل		من المال ما يرضي الصديق ويفضل

وبايع ابن الحر عبد الملك مراغمة للمصعب واجتمع إليه بشر من أهل الموصل بتكريت، فبعث إليه المهلب عبد الله بن يزيد بن المغفل الأزدي، وبعث إليه مصعب الأبرد بن قرة التميمي والجون الهمداني فقاتلهم فلم يزل ينتصف منه، ثم إنه بيتهم فقتل منهم بشراً، وأصاب منهم خيلاً وسلاحاً وقاتلوه من الغد، فجرح ابن الحر وانهزم أصحابه، فلم يبق إلا في خمسين من أهل الحفاظ وحجز بينهم الليل، فخرج من تكريت، وأتى ناحية من الكوفة، فبعث إليه المصعب جماعة فيهم حجار بن أبجر فأصيب صاحب راية ابن الحر، فدفعها إلى أحمر طيىءٍ، ومضى إلى نفر فأخذ ما كان بها من مال؛ ويقال: إن المصعب بعث إليه عمر بن عبيد الله بن معمر فقاتله فضربه في وجهه ضربة لم يزل أثرها باقياً حتى مات، وليس ذلك بثبت؛ وقال بعضهم وأحسبه الهيثم بن عدي: بعث به حين دخل البصرة بعد الجفرة، وقبل توليته فارس.

ومضى ابن الحر إلى عبد الملك، ومعه جماعة من أصحابه، فلما قدم عليه أذن له وأجلسه معه على السرير، وأمر له بمائة ألف درهم، ولكل رجل من أصحابه الذين دخلوا معه بمال، فقال له ابن الحر: إني أتيتك لتوجه معي جنداً إلى مصعب لأحاربه، فأمر له بمائة ألف درهم أخرى، ولأصحابه بمال فرقه عليهم، وقال: سر وأجمع من قدرت عليهم وأنا ممدك بالخيل والرجال، فسار ابن الحر فنزل بقرية يقال لها بيت فارط إلى جانب الأنبار، وهي على شاطىء الفرات، فاستأذنه أصحابه في دخول الكوفة، فأذن لهم وأمرهم أن يؤذنوا من كان بالكوفة من أصحابهم ليسيروا إليه، وبلغ خبره عبيد الله بن عباس السلمي، فاغتنم الفرصة فسأل الحارث بن عبيد الله بن أبي ربيعة القباع، وكان خليفة مصعب على الكوفة يومئذ، والمصعب بالبصرة، أن يبعثه إلى ابن الحر، وأخبره بمكانه وتفرق أصحابه، فسار إليه في خيل كثيفة من قيس، فنزل على حاتم بن النعمان الباهلي وهو نازل في قصر عند كويفة ابن عمر بين كوثا وبزيقيا، واستمده فأمده بخمسمائة من قيس، فسار حتى لقي ابن الحر، وهو في عدة يسيرة من أصحابه، فقالوا: هذا جيش لا طاقة لنا به، فقال: ما كنت لأدعهم، وحمل عليهم حملات وهو يقول:

يا لك يومٌ فات فيه نهبي		وغاب عنّي ثقتي وصحبي

ثم عطفوا عليه وكشفوا أصحابه، وحاولوا أن يأسروه، فقال لأصحابه: انصرفوا سالمين، ودعوني أقتل، فقالوا: والله لا نسلمك، فقاتلوا طويلاً حتى أثخنوا بالجراح، ثم أذن لهم بالذهاب فذهبوا و لم يعرض لهم، وجعل يقاتل وحده، فحمل عليه رجل من باهلة يكنى أبا كدينة فطعنه وجعلوا يرمونه ولا يدنون منه، وجعل يقول: هذه نبل أم مغازل، فلما اثخنته الجراح خلص إلى معبر فدخله و لم يدخل فرسه فنسف

عرقوبة ومضى به الملاح حتى توسط به الفرات، فأشرفت عليه الخيل وفي المعبر نبيط، فقالوا لهم: إن الذي في السفينة بغية أمير المؤمنين والأمير، فإن فاتكم قتلنا كم، فوثب ابن الحر ليقع في الماء فوثب إليه رجل عظيم طوال فقبض على عضديه وجراحاته تشخب دماً وضربه الآخرون بالمجاذيف، فلما رأى ابن الحر أنه يمال به نحو القيسية قبض على الذي كان يمنعه، وأخذ بعضده فعالجه حتى سقطا جميعاً إلى الفرات فغرقا؛ فقال أبو كدينة الباهلي: إني لأنظر إلى شيخ على شاطىء الفرات يصيح ويبكي وينتف لحيته ويقول: يا بختيار، يا بختيار، فقلنا: ما لك يا شيخ، ما لك يا شيخ ؟ فقال: ابني بختيار، كان يقتل الأسد، ويخرج هذا المعبر من الماء وحده ثم يرده، حتى وقع عليه هذا الشيطان الذي دخل المعبر فغرقه؛ ولما بلغ عبد الملك خبره جزع عليه وندم على بعثته في أصحابه من غير أن يضم إليه جنداً، وقال: أي مدره حرب وسداد ثغر كان عبيد الله لا يبعدنك الله يا بن الحر، والله ما وجدوك خواراً ولا فراراً.

قال ابن الكلبي: وكان ابن الحر لما صار إلى الأنبار بلغه أن حبشياً يقال له الغداف، يقطع الطريق للعدة من الشجعاء فيهزمهم ويسلبهم، ويدخل القرية نهاراً فلا يعجبه امرأة إلا افترشها وقضى حاجته منها، لا يقدر أحد على منعه ولا دفعه، فمضى إليه وحده، فلما رآه عرفه بالنعت فسايره ابن الحر، فقال له: من أين اقبلت يا صاحب الفرس ؟ قال: من الأنبار، قال: فإنه بلغني أن ابن الحر نزلها فما تراه يريد ؟ قال: اياك يريد، أنا ابن الحر فخذ حذرك أيها الكلب، ثم حمل عليه فطعنه فصرعه، ثم نزل فضرب رجله فأبانها، فأخذ الأسود رجله فرمى بها ابن الحر، فمشى اليه ابن الحر فقتله، وأخذ فرسه وجعل ابن الحر يقول:

أمّ الغداف فشقّي الجيب وانتحبي … إنّ الغداف وربّي وافق الأجلا
دهدهته بين أنهارٍ وأوديةٍ … لا يعلم الناس غيري ما الذي فعلا

أمر زفر بن الحارث الكلابي

وهو الحارث بن عبد عمرو بن معاز بن يزيد بن عمرو بن خويلد بن نفيل بن عمرو بن كلاب.

حدثني هشام بن عمار الدمشقي عن الوليد بن مسلم عن مروان بن جناح عن يونس بن مسرة: أن مروان بن الحكم أنفذ مع عبيد الله بن زياد بن أبي سفيان جيشاً إلى الجزيرة والعراق، وقال له: كل بلد افتتحته فأنت أميره، فسار في زهاء ستين ألفاً يبلغ الجزيرة حتى مات مروان، فقلده عبد الملك ما قلده أبوه وأعطاه مثل الذي أعطاه من الولاية، فلما صار إلى الرقة وهو يريد زفر بن الحارث بقرقيساء وقد تحصن بها، بلغه خبر قوم خرجوا من الكوفة يطلبونه بدم الحسين بن علي، وعليهم سليمان بن صرد، فعرج إليهم وسرب للقائهم جيشاً بعد جيش حتى قتلهم فقل من أفلت منهم، وأتى قرقيسياء. فحاصر زفر بن الحارث، فلم

يمكنه فيه شيء، فمضى يريد العراق ليواقع المختار بن أبي عبيد الكذاب ومصعب بن الزبير، فلما صار بالموصل لقيه إبراهيم بن مالك الأشتر النخعي، فقاتله فقتل ابن زياد، وحصين بن نمير، وابن ذي الكلاع، فاستخلف عبد الملك على دمشق عبد الله بن يزيد بن أسد بن كرز أبا خالد القسري وشخص، فلما شارف الفرات انخزل عمرو بن سعيد الأشدق من عسكره وصار إلى دمشق، فبايعه عبد الله بن يزيد، وأغلق أبواب دمشق، فانكفأ عبد الملك راجعاً إليه حتى قتله بعد أن آمنه، واستخلف على دمشق عبد الرحمن بن عبد الله الثقفي، وأمه أم الحكم أخت معاوية وبها يعرف، وصار إلى زفر فحصره حتى صالحه؛ وكان بالجزيرة رجل من بني تغلب يقال له جدار بن عباد قد تحصن في بعض مدنها، وكان ابن زياد على محاربته وحصاره بعد الفراغ من أمر زفر، فلما حدث من أمره ما حدث قال زفر:

تمسّك ويح أمك يا جدار أتاك الغوث وانقطع الحصار

فوجه عبد الملك أخاه محمد بن مروان إلى جدار بن عباد فحصره، ثم صالحه وبايع جدار لعبد الملك وقد مدحه الأخطل.

قال: وأقبل طاغية الروم يريد الشام، وخرج أيضاً قائد من قواد الضواحي في جبل اللكام، فاتبعه خلق من الجراجمة والأنباط وأباق عبيد المسلمين وغيرهم، ثم صار إلى لبنان، فأقبل عبد الملك مغذاً للسير حين أتاه كتاب ابن أم الحكم بذلك، فلما ورد دمشق وجه حميد بن حريث بن بحدل الكلبي بهدايا وألطاف إلى طاغية الروم، وكتب إليه معه يسأله الموادعة على إتاوة وأعطاه اياها كما فعل معاوية حين أراد إتيان العراق فقبل الطاغية الهدايا وما بذل له عبد الملك من الإتاوة وأعطاه رهناء من أبناء الروم صيرهم ببعلبك، وكان مع حميد أيضاً كريب بن أبرهة بن الصباح الحميري ووادع عبد الملك الذين خرجوا بلبنان وجعل لهم في كل جمعة ألف دينار، فركنوا إلى ذلك ولم يعيثوا بفساد؛ ثم دس إليهم سحيم بن المهاجر فتلطف حتى وصل إلى رئيسهم متنكراً فأظهر ممالأته وتقرب إليه بذم عبد الملك وشتمه ووعده أن يدله على عوراته وما هو خير له من الصلح الذي بذل له، ثم عطف عليه وهو وأصحابه غارون غافلون بجيش من موالي عبد الملك وبني أمية وجند من ثقات جنده وكماتهم كان أعدهم لمحاربته وأكمنهم في مكان بالقرب منه خفي، فقتل أولئك الروم وبشراً من الجراجمة وغيرهم، ثم نادى بالأمان فيمن بقي من الجراجمة ومن سواهم فتفرقوا في قراهم ومواضعهم، فلما أصلح عبد الملك أموره استخلف ابنه الوليد على دمشق، ومعه سعيد بن مالك بن بحدل، ويقال: إنه خلف ابن أم الحكم أيضاً، وأنفذ عبد العزيز إلى مصر، وسار إلى مسكن، فقتل مصعب بن الزبير.

وقال هشام: قال الوليد: وقد سمعت أن خروج هؤلاء الذين خرجوا بلبنان كان مع مخالفة عمرو الأشدق، وإغلاقه أبواب دمشق، وحديث ابن جناح أصح.

وقال الوليد: وبلغني أن عبد الملك أمر فنودي: من أتانا من العبيد يعني الذين كانوا مع أولئك القوم فهو حر وله أن نثبته في الديوان، فانفض إليه خلق منهم، فكانوا ممن قاتل مع سحيم، وأنه وفى لهم وجعل لهم ربعاً على حدة، فهم يسمون الفتيان إلى الآن.

حدثني عباس بن هشام الكلبي عن أبيه عن لوط بن يحيى في اسناده قال: التقى مروان والضحاك يوم مرج راهط، وكان مع الضحاك خلق من أهل اليمن إلا أن قيساً كانوا رؤوس الناس معه عددهم، فلما قتل الضحاك مضى زفر فأتى قنسرين فاحتمل ما كان له بها إلى قرقيسياء.

قال الكلبي: ويقال بل كان عاملاً عليها من قبل الضحاك، فأمده وسرب الخيول إليه، فلما قتل هرب إلى قرقيسياء. ولما أتى قرقيسياء ضوى إليه خلق من قيس فرسان ورجال، وكان عياض بن عمرو الحميري بقرقيساء وقد غلب عليها، فقال له زفر: إني إنما جئت لدخول الحمام لعلة عرضت لي، ثم أنا منصرف عنك فخاف عياض أن لا يفعل فأحلفه فحلف له زفر ليخرجن منها بعد دخول الحمام بقرقيسياء، فلما صار بالمدينة أخرج عياضاً منها و لم يدخل الحمام بها أيام مقامه كلها، وكان دخوله إياها في المحرم سنة خمس وستين، وذلك قبل مرور التوابين به بأشهر.

قال: وتشاغل مروان بمصر حتى غلب عليها، ثم وجه عبيد الله بن زياد وقال له: أنت أمير كل بلد أهله على غير طاعتي تفتتحه، فسار في ستين ألفاً فقتل من قتل من التوابين بعين الوردة، وقتل بالخازر، وأقبل عبد الملك يريد زفر بن الحارث، ثم العراق، فخلعه عمرو بن سعيد، فعاد إلى دمشق؛ ثم أتى قرقيسياء بعد قتله عمرو بن سعيد، فوضع المجانيق على قرقيسياء، فأمر زفر أن ينادى أهل عسكر عبد الملك، فيقال لهم: لم وضعتم المجانيق علينا ؟ ففعلوا فقالوا: لنثلم ثلمة نقاتلكم عليها، فقال زفر: قولوا لهم إنا لا نقاتلكم من وراء الحيطان والأبواب، ولكنا نخرج إليكم، قالوا: وثلمت المجانيق من المدينة برجا مما يلي حسان بن مالك بن بحدل، وحميد بن حريث بن بحدل، فقال زفر أو غيره:

لقد تركتني منجنيق ابن بحدل   أحيد عن العصفور حين يطير

وكان خالد بن يزيد بن معاوية يقاتل أهل قرقيسياء مع كلب، وهم أخواله لأن أم يزيد ميسون بنت بحدل، ويقال: إنه كان يقاتلهم من ناحية أخرى في موالي معاوية وغيرهم فألح عليهم بالقتال والرمي حتى

كاد يظفر فقال رجل من بني كلاب: لأسمعن خالداً قولا لا يعود بعده إلى ما يصنع، ولأكسرنه به، فلما غدا خالد للمحاربة أشرف الكلابي عليه وهو يقول:

ماذا ابتغاء خالدٍ وهمّه إذ سلب الملك ونيكت أمه

فانكسر واستحيا ولم يعد إلى الحرب حتى انقضى أمر زفر.

وقال زفر لخالد وكان يكنى أبا هاشم:

أبو هاشمٍ عطّارةٌ فارسيّةٌ مكحّلة العينين برّاقة الفم

أبو هاشمٍ يرمي فوارس قومه وأمّا العدوّ الأبعدين فما يرمي

وقال الصقعب المري:

نحن بنو مرّة نرمي زفرا يهدي إلينا حجراً فحجرا

لمّا رأينا دينه تغيّرا وأصبح المعروف منه منكرا

وقال أيضاً:

كيف ترى قيساً ترامي قيسا حمقاً ترى ذاك بها أم كيسا

تدوسهم بالمنجنيق دوسا وقيل لعبد الملك: إن قيساً تنهزم بالناس فاجعلها ترمي بالمجانيق، فقال الصقعب:

فباست من قال ألا لا ينصح وقد فتحنا حولها ما يفتح

في كل وجهٍ وخصي ترجح

وقالت كلب لعبد الملك: إنا اذا لقينا زفر انهزمت القيسية فلا تشب جمعنا بأحد من قيس ففعل، فكتبت القيسية على نبلها ليس يقاتلكم غداً مضري، ورموا بنبلهم إلى المدينة، فلما أصبح زفر دعا الهذيل ابنه- وبه كان يكنى، ويقال انه كان يكنى أبا الكوثر والأول أثبت- فقال: اخرج إليهم فشد عليهم شدةً لا تنثني عنها حتى تضرب فسطاط عبد الملك، أسمعت يا بن اللخناء، والله لئن رجعت دون أن تطأ طنب فسطاطه لأضربن الذي فيه عيناك.

فخرج عبد الملك وتقدمت اليمانية، فجمع الهذيل بن زفر خيله، ثم رماهم فصبروا قليلا، ثم انكشفوا وتبعهم الهذيل بخيله حتى وطئوا أطناب الفسطاط، وقطعوا بعضها، ثم كروا راجعين فقبل زفر رأس ابنه الهذيل، وقال: يا بني لا يزال عبد الملك يحبك بعدها أبدا. فقال الهذيل: والله لو شئت أن ادخل فسطاطه لفعلت فقال زفر:

ألا لا أبالي من أتاه حمامه إذا ما المنايا عن هذيلٍ تجلّت

تراه أمام الخيل أوّل فارسٍ ويضرب في أعجازها إن تولّت

حدثنا أحمد بن إبراهيم الدورقي، وأبو خيثمة قالا: حدثنا وهب بن جرير حدثنا محمد بن أبي عيينة قال: جعل بشر بن مروان يرسل إلى قيس أتقتلون أنفسكم مع رجل ليس منكم، وإنما هو من كندة، فبلغ ذلك زفر بن الحارث فقال:

لعلك يا بشر بن مروان لائمي على حين أبدت عن نواجذها الحرب

فتخبر قومي أنّني لست منهم وتزعم أنّا معشرٌ من بني وهب

أتجعل أجلافاً عليها عباؤها ككندة تمشي في المطارف والعصب

وقال زفر أيضاً:

أبا اللّه أمّا بحدلٌ وابن بحدلٍ فيحيا وأمّا ابن الزبير فيقتل

كذبتم وبيت اللّه لا تقتلونه ولمّا يكن يومٌ أغرّ محجّل

ولمّا يكن للمشرفيّة فيكم شعاعٌ كقرن الشمس حين ترّجل

المدائني عن أبي زياد بن يزيد بن قحيف الكلابي قال: قاتل عبد الملك زفر بن الحارث أربعين يوماً، ورمى المدينة بالمجانيق حتى ثلم عامة بروجها، فقال أبناء الكلبيات من قريش واليمانية: إنك قد هدمت مدينتهم فناهضهم غداً ساعةً، فخرج الهذيل بن زفر، ويزيد بن حمران، ومسلم العقيلي، وهو أبو اسحاق بن مسلم، وعبد الله بن يزيد الهلالي فصاروا على برج المدينة، وأقبلت قضاعة مع شروق الشمس فاقتتلوا إلى الظهر، ثم جالت قضاعة وانكشفت، ووقفت القيسية على البروج، وأقبل روح بن زنباع الجذامي عند المساء إلى برج منها فقال: من صاحب هذا البرج ؟ قيل: عبد الله بن يزيد الهلالي، فقال روح: نشدتك الله كم قتلنا منكم اليوم ؟ قال: إذ نشدتني الله، فلم يقتل منا أحد، و لم يجرح إلا الرجل الواقف صاحب الكردوس الأيمن فإنه طعن طعنة في صدره، وأرجو أن لا يكون عليه بأس، فنشدتك الله كم قتلنا منكم ؟ قال: عدة فرسان، وجرحتم ما لا يحصى، فلعن الله ابن بحدل، ورجع روح إلى عبد الملك فقال له: إن ابن بحدل يمنيك الباطل فأعرض عن هذا الرجل.

علي بن محمد المدائني وغيره: أن رجلا من كلب يقال له الذيال كان يخرج في حصار زفر بقرقيسياء فيشتم، فقال زفر للهذيل أو لبعض من معه من قيس، أما تكفيني هذا ؟ فقال: أنا اجيئك به، فدخل عسكر عبد الملك ليلا فجعل ينادي من يعرف بغلاً من صفته كذا وكذا حتى انتهى إلى خباء الرجل وقد عرفه فقال الرجل: رد الله علينا ضالتك، فقال: يا عبد الله إني قد أعييت فلو أذنت لي فاسترحت قليلا،

قال: ادخل فدخل والرجل وحده في خبائه فرمى بنفسه ونام صاحب الخباء، فقام إليه فأيقظه فقال والله لئن تكلمت لأقتلنك، ولن سكت وجئت معي إلى زفر فلك عهد الله وميثاقه أن أردك إلى عسكرك بعد أن يصلك زفر ويحسن إليك، فخرجا وهو ينادي من دل على بغل ويصف حتى أتى زفر بن الحارث والرجل معه، فأعلمه أنه قد آمنه، فوهب له زفر دنانير وحمله على راحلة، وألبسه ثياب النساء، وبعث معه رجالا حتى دنوا من عسكر عبد الملك فنادوا هذه جارية بعث بها زفر إلى عبد الملك.

وانصرفوا، فلما نظر إليه أهل العسكر عرفوه، وأخبروا عبد الملك خبره فضحك وقال: لا أبعد الله رجال مضر، والله إن قتلهم لذل، وإن تركهم لحسرة، وكف الرجل فلم يعد لشتم زفر وأصحابه، ويقال إنه هرب من العسكر.

قالوا: وقال عبد الملك وهو محاصر لزفر بن الحارث:

إنا وجدنا زفر بن الحارث في هذه الهنات والهيائث

خبيثة من أخبث الخبائث

قالوا: وكتب عبد الملك إلى زفر بن الحارث كتاباً يدعوه فيه إلى الطاعة ولزوم الجماعة ويرغبه ويرهبه، وبعث بالكتاب مع رجاء بن حيوة الكندي والحجاج بن يوسف الثقفي، فأتيا زفر بالكتاب وكلماه فأبى الصلح، وحضرت الصلاة فصلى رجاء مع زفر، وصلى الحجاج وحده، وقال: لا أصلي مع مشاق منافق، فلما انصرفا قال عبد الملك لرجاء: كيف لم تفعل ما فعل الحجاج ؟ قال: ما كنت لأدع الصلاة مع قوم يقيمونها وأصلي وحدي.

وقال الهذيل بن زفر لأبيه: لو صالحت هذا الرجل فقد أكلتك وقومك الحرب وأنت مذ سنون في هذه المدينة وقد أعطى الناس الرجل طاعتهم، واجتمعوا عليه، وهو خير لك من ابن الزبير، وأمر عبد الملك محمد بن مروان أن يعرض على زفر وابنه الهذيل الأمان على أنفسهما ومن معهما، وأن يعطيا ما أحبا، ففعل محمد ذلك فأجاب الهذيل، وكلم أباه فأجاب على أن له الخيار عليه، فبينا الرسل تختلف في ذلك، إذ جاء رجل من كلب إلى عبد الملك فقال: يا أمير المؤمنين قد هدمت أربعة أبرجة، فقال عبد الملك: لا أصالحهم وناهضهم فهزموا أصحابه حتى دخلوا عسكره، وأزالوه عن موقعه، فقال: أعطوهم ما أرادوا، فقال زفر: كان هذا قبل هذه الحال أمثل؛ قال: واستقر صلح زفر على أن آمنه عبد الملك وابنه وكل من كان مع زفر وعلى وضع الدماء والأموال، وأن لا يقاتل زفر مع عبد الملك، ولا يقاتل له حتى يموت عبد الله بن الزبير لبيعته له، وأن يعطى مالاً يقسمه في أصحابه، وخاف زفر أن يغدر به عبد الملك كما غدر بعمرو بن سعيد الأشدق، فتوقف عن إتيانه حتى بعث إليه بقضيب النبي صلى الله عليه وسلم أماناً له.

وحدثني حفص بن عمر العمري عن الهيثم بن عدي عن يعقوب بن داود قال: لما تم الصلح بين عبد الملك وزفر خرج إليه فرأى قلة أصحابه فقال عبد الملك: لو علمت أنه في هذه القلة لحاصرته أبداً حتى يترل على حكمي فبلغ زفر قوله فقال: إن شئت رجعت ورجعنا إلى أمرنا فقال: بل نفي لك يا أبا الهذيل.

قال: ودخل زفر على عبد الملك فأجلسه معه على سريره فقال ابن عضاة الأشعري: أنا كنت يا أمير المؤمنين أحق بهذا المجلس، فقال زفر: كذبت لست هناك إني عاديت فضررت، وواليت فنفعت.

ودخل الأخطل غياث بن غوث على عبد الملك، فرأى زفر بن الحارث معه على سريره، فقال: يا أمير المؤمنين أيقعد زفر هذا المقعد وقد قاتلك وحاول زوال نعمتك وسلبها ؟ فقال زفر: إنا كنا قاتلناك بالأمس ثم أرانا الله خيراً مما كنا فيه فواليناك ودخلنا في أمرك فنحن اليوم في طاعتك على أشد مما كنا فيه من معصيتك، فلا تسمعن ما يقول هذا الفدوكسي النصراني ولا قول قومه، فإنا أمس بك قرابةً، وأوجب عليك حقاً.

قالوا: ودخل زفر على عبد الملك وقد مد رجله، و لم يقبل عليه كما كان يقبل لكلام الناس في إجلاسه إياه على سريره، فلما دنا زفر من السرير قال: يا أمير المؤمنين اقبض رجلك عن مجلس خالك، وفه لي بما أخذت عليه صفقتي ونلت به طاعتي. فقبض رجله وجلس زفر.

وقال ابن الكلبي: قوله خالك يعني أن أم عبد شمس من بني سليم، وأم أبيه آمنة بنت أبان بن كليب بن ربيعة بن عامر.

قالوا: وكان ممن يتكلم في أمر زفر عند عبد الملك خالد بن يزيد بن معاوية فقال زفر:

أبا هاشمٍ لست الحليم فترتجى ... ولست أبياً صابراً حين تجهل
ستمنعني قيسٌ من الضيم والقنا ... وتمنعني بيضٌ تحدّ وتصقل
أبعد سعيدٍ يوم قام بخطبةٍ ... أزال بها عنك الخلافة تجذل

سعيد بن مالك بن بحدل.

قالوا: وقال عبد الملك لزفر: بلغني أنك من كندة ؟ فقال: وما خير من لا ينفى حسداً ولا يدعى رغبةً.

قالوا: وساير زفر عبد الملك يوماً، فلما كان بالمرج طعن في جنبه بمخصرته ثم قال: أبكاها الله ولا ذهبت، فغضب زفبر وخنس من موكبه، فافتقده وقال: أين أبو الهذيل ؟ فقالوا: تخلف فوقف فدعي، فقال: يا ابا الهذيل إنما مزحت معك قال: فهلا بغير هذا.

وقال الجحاف بن حكيم السلمي:

وكنت زبيريّاً فأصبحت شيعةً لمروان وأرتدّ الهوى لابن بحدل

وقال ابن الكلبي: كانت الرباب بنت زفر بن الحارث عند مسلمة بن عبد الملك، فكان يؤذن عليه لأخويها الهذيل وكوثر في أول الناس؛ فقال عاصم بن عبد الله الهلالي لمسلمة:

أمسلم قد منّيتي ووعدتني مواعيد خيرٍ إن رجعت مؤمّرا

أيدعى الهذيل ثم أدعى وراءه فيا لك مدعى ما أذلّ وأحقرا

فلست براضٍ عنك حتى تحبّني كحبّك صهريك الهذيل وكوثرا

وكيف ولم يشفع لي الليل كلّه شفيعٌ إذا ألقى قناعاً ومئزرا

فقال الهذيل وفخر على عاصم:

ما فخر ذي فخرٍ عليّ وإنّما نشأنا وأمّانا معاً أمتان

أبي كان خيراً من أبيك وأفضلت عليك قديماً جرأتي وبياني

وقال الهيثم بن عدي: لما اتى زفر قرقيساء ومات مروان، كتب عبد الملك إلى أبان بن عقبة بن أبي معيط وهو على حمص يأمره أن يسير إلى زفر، فسار وعلى مقدمته عبد الله بن زميت الطائي، فواقع زفر بن الحارث فقتل من أصحاب ابن زميت ثلاثمائة فلامه أبان على عجلته، وأقبل أبان فوقع زفر بن الحارث فقتل ابنه وكيع بن زفر، وأدركت طيءٌ ثقل زفر ونساءً له فاستوهب محمد بن حصين بن نمير النساء، فألحقهن بقرقيساء، وقال زفر:

علقنا بحبلٍ من حصينٍ لو انّه تغيّب حالت دونهنّ المصاير

أبوكم أبونا في القديم وإنّني لغابركم في آخر الدهر شاكر

وكان يقال إن زفر بن الحارث من كندة.

خبر عصبية قيس وكلب

ويوم بنات قين

قال هشام بن الكلبي وغيره: صار زفر بن الحارث إلى قرقيسياء فتحصن بها، وجعل يغير منها على بلاد كلب لأن كلباً كانوا مروانية، وكانت قيس زبيرية، فكان يقتل ويسوق الأموال، وكانت كلب تفعل مثل ذلك بقيس، وكان عمير بن الحباب السلمي يغير مع زفر أيضاً ببني تغلب وذلك بعد انصراف عمير

من جيش عبيد الله بن زياد حين قتل وقبل وقوع الحرب بين قيس وتغلب؛ وغزا زفر تدمر وعليها عامر بن الأسود الكلبي من بني عامر الأجدار بن عوف بن كنانة بن عوف بن عذرة بن زيد اللات، ومعه ابنه الهذيل بن زفر فقتلهم جميعاً ففي ذلك يقول زفر:

يا كلب قد كلب الزمان عليكم | وأصابكم منّي عذاب تنزّل
إنّ السماوة لا سماوة فالحقوا | بمنابت الأشنان وابني بحدل

فأجابه جواس بن القعطل الكلبي:

دسنا ولم نفشل هوازن دوسةً | تركت هوازن كالفريد الأعزل
من بعد ما دسنا ترائق هامها | بالمشرفيّة والوشيج الذبّل
وأذلّ معطسكم وأضرع خدّكم | قتلى فزارة إذ سما ابنا بحدل

قالوا: فلما رأت كلب المدر ما لقيته كلب البوادي من زفر بن الحارث، وعمير بن الحباب أمروا عليهم حميد بن حريث بن بحدل الكلبي، فخرج حتى نزل بتدمر، وعبد الملك يومئذ يريد أن يزحف إلى زفر بن الحارث، ثم يأتي العراق لمحاربة مصعب بن الزبير، وكان من شهد المرج من بني نمير بن عامر بناحية الشام بقرب تدمر، وبينهم وبين أهل تدمر عهد وعقد، فأرسل إليهم حميد بن حريث عن نفسه، وعن أهل تدمر: إنا قد نقضنا عهدكم فالحقوا بمأمنكم من الأرض، ثم سار إليهم فقتلهم، ويقال: إنه وجه إليهم جماعة من كلب فأتت عليهم، وإن حميداً لم يكن معهم؛ وسار حميد يريد بني تغلب لمظاهرتهم عمير بن الحباب وقيساً على كلب، فوجد عميرا قد أغار على قوم من كلب فمضى في طلبه ودليلاه العكبش بن حليطة الكلبي والمأموم بن زيد الكلبي، فلم يلحقه ولحق قوماً من قيس ممن كان مع عمر فقتلهم، و لم ينج منهم إلا رجل عريان ركب فرسه وأتى عميراً فقال عمير: ما زلت أسمع بالنذير العريان حتى رأيت، ولحق عمير بقرقيسياء وانطلق حميد إلى من قتل من أولئك القيسية الذين كانوا مع عمير، فقطع آذانهم ونظمها في خيط ومضى بها إلى الشام.

وانتهى الخبر إلى عبد الملك، وعبد الله بن الزبير يومئذ بمكة، وكان عند عبد الملك حسان بن مالك بن بحدل الكلبي، وعبد الله بن مسعدة بن حكمة بن مالك بن حذيفة بن بدر الفزاري، فأتي عبد الملك بالغداء فقال عبد الملك لعبد الله بن مسعدة: ادن فكل، فقال ابن مسعدة: والله لقد أوقع حميد بسليم وعامر وأخلاط قيس وقعةً لا ينفعني معها غداء، ولا يسوءني بعدها شراب حتى يكون لها غير، فقال حسان بن مالك: يا بن مسعدة غضبت لقيس إن قتلت، وأنسيت دخولهم قرقيسياء يغيرون على أهل البادية منا قوم ضعفاء لا ذنب لهم، فلما رأى حميد ما نزل بقومه وما نالهم طلب بثأره فأدركه، وبلغ

حميداً قول ابن مسعدة فقال: والله لأوقعن بفزارة وقعةً تشغل ابن مسعدة عن الغضب لعامر وسليم، فتجهز وخرج حتى أتى فزارة ومعه دليل من كلب يقال له العكبش بن حليطة وآخر يقال له المأموم بن زيد بن مضرس الكلبي، ومعه كتاب قد افتعله على لسان عبد الملك بتوليته صدقاتهم، فلما اجتمعت إليه وجوههم قال: يا بني فزارة هذا كتاب أمير المؤمنين وعهده، وقد كان ضرب فسطاطاً وخباءً فجعل يدعو الرجل منهم فيدخل الفسطاط، ثم يخرج من مؤخرة فيقتل، وعلم قوم من خارج الفسطاط بما يفعل بأصحابهم فامتنعوا من الدخول، فكثرهم بمن معه فقتلهم فكان جميع من قتل منهم: من بني بدر خمسين رجلاً، سوى من قتل من غيرهم، وأخذ أموالهم ثم رجع حميد إلى الشام.

فلما قتل عبد الملك مصعب بن الزبير بالعراق وقدم النخيلة بالكوفة، كلمه أسماء بن خارجة بن حصن، وبنو فزارة، وذكروا ما صنع حميد بن حريث بن بحدل، وحدثوه بأن ادعى أنه مصدقه وقالوا: يا أمير المؤمنين أقدنا منه فأبى عبد الملك ذلك وقال: كنتم في فتنة، والفتنة كالجاهلية ولا قود فيها، ولكني صانع بكم ما لا أصنعه بغيرهم أدي كل قتيل منكم بدية من أعطيه قضاعة وحمير ممن بأجناد الشام، فقبل القوم الديات؛ فقال عمرو بن المخلى، وبعضهم يقول: ابن المخلاة، وقال ابن الكلبي: هو المخلى.

خذوها يا بني ذبيان عقلاً — على الأحياء واعتقدوا الخزاما

مواعد من بني مروان ديناً — ندافعكم بها عاماً فعاما

فلما قبضوا الديات، مضى قوم منهم إلى اليمن، فاشتروا الخيل والسلاح، فلما قدموا أغارت بنو فزارة على بني عبد ود وبني عليم من كلب وهم على ماء يقال له بنات قين، وقال غير أبي مخنف: هو ماء عند جبل يقال له بنات قين، فقتلوا منهم مائة وثمانين، ويقال: نيفاً وخمسين، وكان قائداً القوم: سعيد بن عيينة بن حصن، وحلحلة بن قيس بن الأشيم بن سيار من بني العشراء من فزارة.

فقال عويف القوافي ابن معاوية:

فسائل ججبى وبني عديّ — وتيم اللاّت من عقد الحزاما

فإنّا قد جمعنا جمع صدقٍ — يفرّج عن مناكبه الزحاما

في أبيات.

وبلغ عبد الملك أن كلباً جمعت لتغير على قيس وفزارة خاصةً، فكتب إليهم يقسم لهم بالله لئن قتلوا من بني فزارة رجلاً ليقيدهم به، فكفوا وكتب عبد الملك إلى الحجاج بن يوسف، وهو عامله على الحجاز يأمره بأن يحمل إليه سعيد بن عيينة، وحلحلة بن قيس الفزاريين، فبعث بهما إليه فحبسهما، وقدم على

عبد الملك وفد كلب فعرض عليهم الديات فأبوها، فقال: إنما قتل منكم الشيخ الكبير والصبي الصغير، فقال له النعمان بن فرية: قتل منا من لو كان أخاك لاختير عليك، فغضب عبد الملك، وأراد ضرب عنقه فقيل له: إنه شيخ كبير خرف فأمسك؛ وقال أبناء القيسيات، وهم: الوليد وسليمان ابنا عبد الملك، وأبان بن مروان لعبد الملك: لا تجبهم إلا إلى الديات، وقال خالد بن يزيد بن معاوية وأبناء الكلبيات: لا إلا القتل واختصموا، وتكلم الناس في ذلك في المقصورة حتى علت أصواتهم، وكاد يكون بينهم شر، فلما رأى عبد الملك ذلك أخرج سعيد بن عيينة وحلحلة بن قيس، فدفع حلحلة إلى بني عبد ود من كلب، وحلحلة يقول:

إن أك مقتولاً أقاد برمّتي ... فمن قبل قتلي ما شفى نفسي القتل

وقد تركت حربي رفيدة كلّها ... مجاورها في داهرها الخوف والذلّ

ومن عبد ودٍّ قد أبرت قبائلاً ... فغادرتهم كلاًّ يطيف به كلّ

وقال أيضاً:

إن يقتلوني يقتلوني وقد شفى ... غليل فؤادي ما أتيت إلى كلب

فقرّت به عيني وأفنيت جمعهم ... وأثلج لمّا أن قتلتهم قلبي

شفى النفي ما لاقت رفيدة كلّها ... وأشياخ ودٍّ من طعانٍ ومن ضرب

ووقف حلحلة بين يدي عبد الملك فقال لعبد الملك: ما تنتظر بنا يا بن الزرقاء فوالله لو ملكناها منك ما أنظرناك طرفة عين، فلما قدم ليقتل قيل له: اصبر يا حلحلة فقال:

أصبر من عودٍ بجنبيه جلب ... قد أثّرت فيه الغروض والحقب

أصبر من ذي ضاغطٍ عركرك ... ألقى بوابي زوره للمبرك

ومد عنقه وهو يقول: اجعلها خير الميتتين فقتل، وكان الذي تولى قتله شعيب بن سويد، ودفع سعيد بن عيينة بن حصن إلى بني عليم من كلب فقتلوه، ويقال إن سعيداً هو الذي قال لعبد الملك: يا بن الزرقاء ما تنتظر بنا ؟.

وقال حين حبس:

فإن أقتل فقد أقررت عيني ... وقد أدركت قبل الموت ثأري

وما قتلٌ على حرّ كريمٍ ... أباد عدوّه يوماً بعار

فإن أقتل فقد أهلكت كلباً ... ولست على بني بدرٍ بزار

وقال حلحلة وهو في الحبس:

لعمري لئن شيخاً فزارة أسلما لقد حزنت قيسٌ وقد ظفرت كلب
فلا تأخذوا عقلاً وخصّوا بغارةٍ بني عبد ودٍ بين دومة والهضب
سلامٌ على حيّي هلالٍ ومالكٍ جميعاً وخصّوا بالسلام أبا وهب

أبو وهب زبان بن سيار بن عمرو، أحد بني العشراء من فزارة، ومالك بن سعد بن عدي بن فزارة؛ وقال زبان حين بلغه شعر حلحلة: رحم الله أبا ثوابة قد كفانا النار والعار، وأدرك بالثأر، ولنا في القوم فضل فلم يحرضنا عليهم؛ وقال بعض الفزاريين: لقد وفى أبو الذبان لكلب وآثرهم على بني عمه.

وقال علي بن الغدير الغنوي في قتل سعيد وحلحلة:

وحلحلة القتيل مع ابن بدرٍ وأهل دمشق أنجيةٌ عزين

فبعد اليوم أيّامٌ طوالٌ وبعد خمود فتنتكم فتون
خليفة أمّةٍ قسرت عليه تخمّط فاستخفّ بمن يدين

وقال أرطاة بن سهيّة:

ألا أبلغ بني مروان عنّا فقد أعطيتم كرماً وخيرا
أيقتل شيخنا ويرى حميدٌ رخيّ البال يستبىء الخمورا
فناكت أمّها قيس جهاراً وعضّت بعدها مضر الأيورا
ولا واللّه ما كرمت ثقيفٌ ولا كانوا على كلبٍ نصيرا

يقول حين حمل الحجاج سعيداً وحلحلة.

وقال رجل من كلب:

ونحن قتلنا سيّديهم بشيخنا سويدٍ فما كانا وفاءً به ذمّا

سويد بن زمان بن ماطل.

حرب قيس وتغلب

قالوا: لما انقضى أمر مرج راهط، وصار زفر بن الحارث إلى قرقيسياء صار معه عمير بن الحباب بن جعدة السلمي، وهو ابن الصمعاء، والصمعاء أمه أوجدته، وكانت سوداء، فجعلا يطلبان كلباً واليمانية بقتلى

مرج راهط وكان معهما قوم من بني تغلب يدلونهما ويقاتلون معهما إذا أغارا، فطلبت كلب قوماً أغاروا عليهم من بني تغلب مع زفر، ففي ذلك يقول غياث الأخطل بن غوث:

نبئت كلباً تمنّى أن تحاربنا　　وطال ما حاربونا ثم ما ظفروا

وحدثني داوود بن عبد الحميد قاضي الرقة عن مشايخ القيسيين قالوا: لما انقضى أمر المرج بايع عمير مروان بن الحكم وفي نفسه ما فيها من أمر قتلى قيس يوم المرج، فلما عقد مروان لعبيد الله بن زياد وجهه إلى الجزيرة والعراق، وشخص عمير في جيشه، فجعله على إحدى مجنبتيه وهي الميسرة، وكان معه يوم لقي ابن صرد بعين الوردة، وأتى معه قرقيسياء فكان عمير يثبطه عن المقام عليها ويشير عليه بتلقي جيش المختار بن أبي عبيد الثقفي قبل أن يدخل الجزيرة، فأغذ ابن زياد السير حتى لقي ابراهيم بن الأشتر، فمال عمير مع ابن الأشتر حتى فض عسكر عبيد الله بن زياد وقتل عند نهر يقال له الخازر بقرب الزابي، وكره عمير أن يصير إلى المختار، فأتى قرقيسياء، فأقام بها مع زفر بن الحارث، فكانا يغيران على كلب واليمانية، وشغل عبد الملك عن زفر فلم يسر إليه، ولم يوجه جيشاً، ومل عمير المقام بقرقيسياء فطلب الأمان من عبد الملك فآمنه وكان عليه في نفسه ما كان، ووشى به إليه مع ذلك واش فحبسه فاحتال حتى هرب من الحبس، فيقال: انه اتخذ سلماً من خيوط قنب وتسلق به حتى تخلص من حبسه على سلم من خيوط من كوة البيت وأنشأ يقول:

عجبت لما تظنّته الموالي　　بخرّاجٍ من الغمرات ناج

ونوّم شرطة الريّان عنّي　　كميت اللون صافية المزاج

والريان مولى عبد الملك وصاحب حرسه، وكان عمير محبوساً عنده، فسقى أعوانه نبيذاً حتى أسكرهم ونجا، ويقال: بل كلم فيه فخلاه، والأول أثبت؛ فعاد إلى الجزيرة وكان منزله على النهر المعروف بالبليخ، فاجتمعت إليه قيس فكان يغير بهم على كلب واليمانية، وكان من معه من القيسية يسيئون جوار بني تغلب ويسخرون مشايخهم من النصارى، فهاج ذلك بينهم شراً لم يبلغ الحرب وذلك قبل شخوص عبد الملك إلى زفر والمصعب بن الزبير، وكانت قيس زبيرية وتغلب مروانية.

وقال أبو عمرو الشيباني الراوية فيما أخبرني عنه ابنه عمرو بن أبي عمرو: أغار عمير بن الحباب على كلب، ثم انكفأ راجعاً فنزل ومن معه من قيس بثني من أثناء الفرات، ويقال: على الخابور، والخابور نهر يخرج من رأس العين ويصب في الفرات، وكانت منازل بني تغلب فيما بين الخابور والفرات ودجلة، وكانت بحيث نزل عمير وأصحابه امرأة من بني تميم ناكح في بني تغلب يقال لها أم دوبل ولها غنيمة،

فأخذ غلام من بني الحريش بن كعب بن ربيعة بن عامر عنزا منها فذبحها، فشكت ذلك إلى عمير فلم يشكها، وقال: هذا من مغمرة الجيش فلما رأى الحرشيون أن عميرا لم يغير على صاحبهم شدوا على باقي الغنيمة فذبحوها وأكلوها، ومانعهم قوم من بني تغلب حضروهم فقتل رجل منهم يقال له مجاشع التغلبي، وجاء دوبل وهو من بني مالك بن جشم بن بكر بن حبيب، وكان من فرسان بني تغلب، فأخبرته أمه بما أصيبت به، فسار في قومه، فشكا إليهم ما صنع بغنم أمه، وجعل يذكرهم تعالي قيس عليهم، وسوء جوابهم لهم، فاجتمعت منهم جماعة، وأمروا عليهم شعيث بن مليل التغلبي، ثم أغاروا على بني الحريش، ومع بني الحريش حينئذ قوم من إخوتهم بني قشير بن كعب، فقتلوا منهم واستاقوا ذوداً لامرأة من بني الحريش يقال لهم أم الهيثم، فلم يقدر القيسيون على تخلصه من أيديهم؛ فقال الأخطل وبلغه الخبر وهو براذان:

أتاني ودوني الزابيان كلاهما ... ودجلة أنباءٌ أمرّ من الصبر

أتاني بأنّ ابني نزارٍ تضاغنا ... وتغلب أولى بالوفاء وبالغدر

وقال الأخطل أيضاً:

فإن تسألونا بالحريش فإنّنا ... بلينا بنوكٍ منهم وفجور

غداة تحامتنا الحريش كأنّها ... كلابٌ بدت أنيابها لهرير

وجاؤوا بجمعٍ ناصري أمّ هيثمٍ ... فما رجعوا من ذودها ببعير

وقال عمرو بن الأهتم التغلبي:

وإنّا يوم سار بنا شعيثٌ ... قريناهم وأيّ قرىً قرينا

نصصنا الخيل والرايات حتى ... قضينا من هوازن ما قضينا

وما أبقين من قيسٍ شريداً ... وما غادرن للجشمي دينا

فرد عليه نفيع بن صفار المحاربي بعد مقتل شعيث بن مليل فقال:

وإنا يوم لاقينا شعيثاً ... قريناه فأيّ قرىً قرينا

في أبيات.

وقال القطامي وهو عمير بن شييم.

وإنّا يوم نازلهم شعيثٌ ... كليث الغيل أصحر ثمّ ثارا

وتغلب جدّعوا أشراف قيسٍ ... وذاقوا من تخمّطها البوارا

بضرب يقعص الأبطال منهم ويمتكر اللحى منه امتكارا

المكر المغرة.

ومن رواية أبي عبيدة فيما أخبرني عنه علي بن المغيرة الأثرم: أن غنم أم دوبل، وهي فيما ذكر تغلبية، نفشت في زرع لرجل من قيس في بعض الليالي، فشكا القيسي ذلك إليها فلم تشكه وضحكت به، ثم نفشت في زرعه ليلة أخرى، فأخذ عنزا منها فذبحها، فلما جاء ابنها دوبل اعلمته ذلك فأتى وأخ له وعدة معهما من بني تغلب الرجل القيسي فذبحوه على دم العنز، فأغار قومه على بني تغلب فقتلوا منهم اثني عشر رجلاً فيهم مجاشع التغلبي، وأغارت بنو تغلب وعليها شعيث بن مليل على قوم من بني قشير فقتلوا منهم خمسة وعشرين رجلاً، و لم يذكر أبو عبيدة بني الحريش البتة.

وقوم يزعمون: أن شعيثاً كان بآذربيجان وكان يرى رأي الخوارج، فأرسلت إليه تغلب تستنجده، فأقبل في ألفي فارس ومعه ثعلبة بن نياط فعبر دجلة إلى لبى وهي بين تكريت والموصل، وأتى الثرثار فوجد قيساً مجتمعين عليه وتغلب بإزائهم وعليهم ابن هوبر التغلبي، فكره أن يسير تحت لواء ابن هوبر، فقصد قصد قيس، وأتت عمير بن الحباب طلائعه فأخبرته بخبر شعيث، فانفرد له في جمع كبير من قيس، وخلف من يكيفه أمر ابن هوبر والتغلبيين، فلقي شعيثاً، فأقتتلا فظهر عمير على شعيث، فقتل وأصحابه فلم ينج منهم إلا عدة يسيرة لحقوا ببني تغلب، وكان ثعلبة بن نياط فارق شعيثا ولحق ببني تغلب فقاتل معهم؛ والخبر الأول أثبت، والشعر على صحته أدل.

يوم ماكسين

قالوا: استحكم الشر بين قيس وتغلب، وعلى قيس عمر بن الحباب وعلى تغلب شعيث بن مليل، فغزا عمير بن تغلب وجماعتهم بماكسين وهي قرية من قرى الخابور، بينها وبين رأس العين يوم أو يومان، فاقتتلوا قتالا شديداً، وهي أول وقعة لهم تزاحفوا فيها، فقتل من بني تغلب خمسمائة، وقتل شعيث بن مليل، وكانت الوقعة عند قنطرة هناك، فقال نفيع بن صفار المحاربي:

وأيّام القناطر قد تركتم رئيسكم لنا غلقاً رهينا

تركنا الباكيات على شعيثٍ سواجم عبرةً ما ينقضينا

وكان زفر بن الحارث قال حين أغارت تغلب على بني الحريش ومن معهم من قشير: شغلت قيس بغزل نسائها عن هؤلاء النصارى، فقال عمير بن الحباب:

ما همّنا يوم شيعثٍ بالغزل ... يوم انتضيناهنّ أمثال الشعل

وهنّ يردين كعقبان الخيل ... من بين دهماء وطرفٍ ذي خصل

وزعموا أن رجل شعيث قطعت يومئذ، فجعل يقاتل حتى قتل وهو يقول:

قد علمت قيسٌ ونحن نعلم ... أنّ الفتى يقتل وهو أجذم

وقال نفيع بن صفار:

وبشاطىء الخابور صبّحناكم ... بالمرهفات البيض يفرين الذرى

وقال جرير بن عطية:

تركوا شعيث بني مليلٍ مسنداً ... والآسيين وأقعصوا شعرورا

وقال نفيع بن صفار المحاربي:

ما بعد قتل شعيثٍ في سراتكم ... وبعد قتل أبي أفعى وشعرور

وقال تميم بن أبي بن مقبل العجلاني:

قل لابنة الأخطل المسلوب مئزرها ... يوم الفوارس لمّا راث فاديها

ولست سائلها إلاّ بواحدةٍ ... ما ردّ تغلب عنها إذ تناديها

وقال عبيد بن حصين النميري الراعي:

أبا مالكٍ لا تنطق الشعر بعدها ... وأعط القياد القائدين على كثر

ونحن تركنا تغلب ابنة وائلٍ ... كمنكشر الأنياب منقطع الظهر

يعني بما كان بينهم يوم الخابور ويوم ماكسين.

يوم الثرثار الأول

والثرثار نهر يترع من هرماس نصيبين ويفرغ في دجلة بين الكحيل ورأس الإيل.

قالوا: استمدت تغلب بعد يوم ماكسين وحشدت واجتمعت إليها النمر بن قاسط، وأتاها المجشر بن الحارث من ولد أبي ربيعة بن ذهل بن شيبان، وكان من سادات بني شيبان بالجزيرة، وأتاها زمام بن مالك الشيباني في جمع، وأتت جماعة منهم مالك بن مسمع قبل يوم الجفرة وقبل مصيره إلى ناحية اليمامة والبحرين، فشكوا إليه قيساً وما كان منهم يوم ماكسين وقبله، فقال: ما أحسبكم إلا من نبيط تكريت، ولو كنتم من بني تغلب لدافعتم عن أنفسكم وحرمكم، فقالوا: إنا حي فينا ما قد علمت من النصرانية،

ومضر مضر وأي السلطانين غلب فهو مع قيس، فقال مالك: اذهبوا فإن أمدهم السلطان بفارس فلكم علي فارسان، وإن أمدهم برجل فلكم رجلان، إن السلطان اليوم لفي شغل عنكم وعنهم، فانطلقوا وقد غضبوا وجعلوا عليهم بعد شعيث بن مليل زياد بن هوبر، ويقال يزيد بن هوبر التغلبي، وقال ابن الكلبي: هو حنظلة بن قيس بن هوبر أحد بني كنانة بن تيم بن أسامة بن مالك بن بكر بن حبيب، وكان على قيس عمير بن الحباب السلمي، فلما رأى من مع بني تغلب، استنجد تميماً وبني أسد فلم يأته منهم أحد فقال عمير:

أيا أخوينا من تميمٍ هديتما ... ومن أسدٍ هل تسمعان المناديا

ألم تعلما إذ جاء بكر بن وائلٍ ... وتغلب ألفافاً تهزّ العواليا

إلى قومكم قد تعلمون مكانهم ... وكانوا جميعاً حاضرين وباديا

وزعموا أن عبيد الله بن زياد بن ظبيان البكري ممن أنجدهم من ربيعة، فلذلك حقد عليهم المصعب بن الزبير حتى قتل أخاه النابيء و لم يقتل صاحبه، وكانت القيسية زبيرية، وأنجد بني تغلب أيضاً ركضة بن النعمان الشيباني.

قالوا: ثم إن الربعيين والقيسيين على الثرثار فاقتتلوا قتالاً شديداً وجعل بنو تغلب يقولون:

ننعى بأطراف القنا المجاشعا ... فإنّه كان كريماً فاجعا

وابن مليلٍ شيخنا المدافعا

ثم إن قيساً انهزمت وقتلت بنو تغلب وألفافهم منهم مقتلةً عظيمة، وبقروا بطون ثلاثين امرأة من بني سليم.

وقالت ليلى بنت الحمارس التغلبية، ويقال قالها الأخطل:

لما رأونا والصليب طالعا ... ومار سرجيس وسمّاً ناقعا

والخيل لا تحمل إلاّ دارعا ... والبيض في أيماننا قواطعا

خلّوا لنا الثرثار والمزارعا ... وحنطةً طيساً وكرماً يانعا

كأنّما كانوا غراباً واقعا

ويروى: زاذان والمزارعا وقال الأخطل.

عتبتم علينا آل عيلان كلّكم ... وأيّ عدوٍ لم نبته على عتب

في قصيدة له.

فأجابه جرير بن عطية في قصيدة له:

ستعلم ما يغني الصليب إذا غدت   كتائب قيسٍ كالمهنّأة الجرب

لعلّك يا خنزير تغلب فاخرٌ   إذا مضرٌ يوماً تسامت بها الحرب

وقال الأخطل في شعر طويل:

لعمري لقد لاقت سليمٌ وعامرٌ   إلى جانب الثرثار راغية البكر

وقال نفيع بن صفار المحاربي:

أبا مالكٍ لا تدّع الفخر بالمنى   فما بسفاه القول يغضب للوتر

ولكن بحدّ المشرفيّة ينتمى   بها للمعالي والمثقّفة السمر

فيقال: انه بهته بهذا الشعر، بل قاله له وقد ادعى الأخطل باطلاً في بعض أيامهم.

يوم الثرثار الثاني

قالوا: ثم إن قيساً تجمعت واستمدت واستعدت، وعليها عمير بن الحباب وهم في عسكر، فأتاهم زفر بن الحارث من قرقيسياء وعبد الملك مشغول عنه، فكان في عسكر آخر، وكان رئيس بني تغلب والنمر ومن معهما ابن هوبر، فالتقوا بالثرثار فاقتتلوا أشد قتال اقتتلته الناس، فانحازت بنو عامر وكانت في إحدى المجنبتين، وصبرت بنو سليم وأعصرت حتى انهزمت بنو تغلب، وقتل ابنا عبد يسوع بن حرب ومحكان، وعبد الحارث من بني الأوس بن تغلب؛ فقال عمير بن الحباب:

فدىً لفوارس الثرثار نفسي   وما جمّعت من أهلٍ ومال

وولّت عامرٌ عنّا فأجلت   وحولي من ربيعة كالجبال

أكاوحهم بدهمٍ من سليمٍ   وأعصر كالمصاعيب النهال

وقال زفر بن الحارث:

ألا من مبلغٌ عنّي عميراً   رسالة ناصحٍ وعليه زار

أتترك حيّ ذي يمن وكلباً   وتجعل حدّ نابك في نزار

كمعتمد على إحدى يديه   فخانته بوهنٍ وانكسار

يوم الفدين

قالوا: وأغار عمير بن الحباب على الفدين، وهي قرية على شاطىء الخابور ولها حصن، فاكتسح ما فيها وقتل عامة اهلها، ويقال: بل قاتل فيها جميع بني تغلب، وكانوا بها مزاحفةً مهزمهم؛ فقال ابن صفار:

لو تسأل الأرض الفضاء بأمركم شهد الفدين بهلككم والصوّر

كذبتك شيبان الأخوّة وانّفت أسيافكم بكم سدوس ويشكر

والعامة تسمي هذه القرية الصور، وهي قريبة من الفدين بينهما نحو من أربعة فراسخ.

يوم السكير

وهو يسمى اليوم سكير العباس؛ قال: ولقي عمير بن الحباب تغلب والنمر وعليهم ابن هوبر بالسكير. وهي قرية تشرع على الخابور، ومنها ناحية تشرع على الفرات فاقتتلوا فانهزمت تغلب والنمر، وهرب عمير بن جندل وكان من فرسان تغلب؛ وقال عمير بن الحباب:

وأفلتنا يوم السكير ابن جندلٍ على سابحٍ غوج اللبان مثابر

ونحن كررنا الخيل قبّاً شوازبا دقاق الهوادي داميات الدوائر

وقال ابن صفار:

صبحناكم بهنّ على سكيرٍ فلاقيتم هناك الأقورينا

يوم المعارك

والمعارك بين الحضر والعقيق من أرض الموصل، قال: اجتمعت تغلب يوم السكير بهذا المكان، فالتقوا وقيس به، واشتد قتالهم فانهزمت تغلب؛ فقال ابن صفار:

ولقد تركنا بالمعارك منكم والحضر والثرثار أجساداً جثّا

فيقال: إن يوم المعارك والحضر واحد، هزموهم إلى الحضر فقتلوا منهم بشراً، وقال بعضهم: هما يومان مختلفان كانا لقيس والله اعلم.

يوم لبّى

قالوا: والتقوا أيضاً بلبى عند ديرها، ولبى فوق تكريت من أرض الموصل، فتناصفوا فقيس تقول كان الفضل لنا وتغلب تقول كان الفضل لنا.

يوم بلد

وقال أبو الوليد الكلابي: كانت بين قيس وتغلب وقعة ببلد تكافأوا فيها، وقال أبو عيسى القيسي: كانت لقيس.

يوم الشرعبية

قالوا: التقوا بالشرعبية وعلى قيس عمير بن الحباب، وعلى تغلب وألفافها ابن هوبر، فكان بينهم قتل شديد وقتل يومئذ عمار بن المهزم وعاصم السليمان. وكان يوم الشرعبية لتغلب على قيس، فقال الأخطل:

ولقد بكى الجحّاف لمّا أوقعت　　　بالشرعبيّة إذ رأى الأهوالا

والشرعبية من بلاد بني تغلب، وبناحية منبج أيضاً شرعبية. فبعضهم يقول إن هذه الواقعة كانت بناحية منبج وذلك غلط.

يوم البليخ

قالوا: اجتمعت تغلب وسارت إلى البليخ وهناك عمير والقيسية، والبليخ نهر بين الرقتين، فقالوا، وعلى قيس عمير، وعلى تغلب ابن هوبر، فهزمت تغلب وقتلت وبقرت بطون نساء من نسائهم كما فعلوا يوم الثرثار، وفي ذلك يقول ابن الصفار:

زرق الرماح ووقع كلّ مهنّدٍ　　　زلزلن قلبك بالبليخ فزالا

وأنشدني أبو الوليد الكلابي لبعضهم:

تسامت جموع بني تغلبٍ　　　إلينا فكنّا عليهم وبالا

بقّرنا النساء غداة البليخ　　　إذا جئتنا وقتلنا الرجالا

يوم الحشاك

ومقتل عمير بن الحباب السلمي

قالوا: لما رأت تغلب إلحاح عمير بن الحباب عليها، جمعت حاضرتها وباديتها وصاروا إلى الحشاك، وهو نهر يأخذ من الهرماس، وعلى الحشاك تلال وقور وبقربه الشرعبية وإلى جنبه براق ويقال براق، ودلف إليهم عمير في قيس ومعه زفر بن الحارث والهذيل ابنه، وعلى تغلب ابن هوبر، فاقتتلوا عند تل الحشاك

أشد قتال وأبرحه حتى جن عليهم الليل ثم تفرقوا، فاقتتلوا من الغد إلى الليل، ثم تحاجزوا، وأصبحت تغلب في اليوم الثالث فتعاقدوا ألا يفروا، فلما رأى عمير جدهم وأن نساءهم معهم قال لقيس: يا قوم أرى لكم أن تنصرفوا عن هؤلاء فإنهم مستقتلون، فإذا اطمأنوا وصاروا إلى سرحهم وجهنا إلى كل قوم منهم من يغير عليهم، فقال له عبد العزيز بن حاتم بن النعمان الباهلي: يا بن الصمعاء قتلت فرسان قيس أمس وأول من أمس ثم مليء سحرك وجبنت، ويقال: إن عيينة بن أسماء بن خارجة الفزاري، وكان أتاه منجداً له، قال ذلك، فغضب عمير من قوله وقال كأني بك لو حمس الوغى أول فار، فنزل عمير وجعل يقاتل راجلا وهو يقول:

أنا عميرٌ وأبو المغلّس | قد أحبس القوم بضنك المحبس

وانهزم زفر يومئذ وهو اليوم الثالث فلحق بقرقيسياء، وذلك أنه بلغه أن عبد الملك قد عزم على الحركة إليه بقرقيسياء، فبادر لإحكام أمره والتأهب بما يحتاج إليه، ويقال: أنه ادعى ذاك حين فر تحسناً به؛ وركبت تغلب ومن معها أكساء القيسية وجعلوا يقولون:

أما تعلمون أنّ تغلب تغلب

وشد على عمير جميل بن قيس من بني كعب بن زهير فقتله؛ فقال الأخطل لزفر:

لعمر أبيك يا زفر ابن ليلى | لقد أنجاك جدّ بني معاز

وركضك غير منقلبٍ إلينا | كأنّك ممسكٌ بجناح بازي

ويقال: بل تعاوى على عمير غلمان من بني تغلب فرموه بالحجارة وقد أعيا حتى أثخنوه، وكر عليه ابن هوبر فقتله، وأصابت ابن هوبر يومئذ جراحة فلما انقضت الحرب أوصى بني تغلب وهو لمآبه من جراحته بأن يولوا أمرهم مرار بن علقمة الزهيري.

وروي أيضاً: أن ابن هوبر جرح في اليوم الثاني من أيامهم هذه الثلاثة، فأوصى بني تغلب بأن يؤمروا عليهم مراراً، ومات من ليلته فكان مرار رئيسهم في اليوم الثالث، فعبأهم على راياتهم، وأمر كل بني أب أن يجعلوا نساءهم خلفهم، فلما أبصرهم عمير قال لأصحابه: يا معشر قيس إن تغلب حي كثير العدد، وقد اجتمعوا لقتالكم ونساؤهم معهم فأطيعوني وانصرفوا فإذا تفرقوا شددنا عليهم حياً حياً، فقيل له القول الذي قيل له وفعل ما فعل حتى قتله جميل الزهيري، قال الشاعر:

أرقت بأثناء الفرات وشفّني | نوائح أبكاها قتيل ابن هوبر

ولم تظلمي إن نحت أمّ مغلّسٍ | قتيل النصارى في نوائح حسّر

وقال بعض الشعراء ينكر قتل ابن هوبر عميراً:

وإنّ عميراً يوم لاقته تغلب   قتيل جميلٍ لا قتيل ابن هوبر

قالوا: وكانت ابنة الحمارس تنشر شعرها وتحرض الناس وهي تقول:

إيهاً بني تغلب إيهاً إيها   نحن بنو الحرب نشأنا فيها

واستحر القتل يومئذ ببني سليم وغني خاصةً، وقد قتل من غيرهم من قيس بشر كثير.

وقال عمير في أول يوم لاقى بني تغلب فيه فصابروه فيما ذكر بعضهم:

وكنّا حسبنا كلّ بيضاء تمرةً   ليالي لاقينا جذاماً وحميرا

فلما قرعنا النبع بالنبع بعضه   ببعضٍ أبت عيداننا أن تكسّرا

وإنّا لقينا من ربيعة معشراً   يقودون خيلاً للمنيّة ضمّرا

سقيناهم كأساً سقونا بمثلها   على أنّهم كانوا على الموت أصبرا

ويقال: أنه لغيره والله أعلم.

وقال زفر:

ألا يا كلب غيرك أوجعوني   وقد ألصقت خدّك بالتراب

ألا يا كلب فانتشري ونامي   فقد أودى عمير بني الحباب

وبعثت بنو تغلب برأس عمير بن الحباب إلى عبد الملك وهو بغوطة دمشق مع وفد منهم، فأعطى الوفد وكساهم، فلما صالح عبد الملك زفر بعد ذلك واجتمع الناس عليه، قال الأخطل شعراً يقول فيه:

بني أميّة قد ناضلت دونكم   أبناء قومٍ هم آووا وهم نصروا

وقيس عيلان حتّى أقبلوا رقصاً   فبايعوا لك قسراً بعد ما قهروا

ضجّوا من الحرب إذ عضتّت غواربهم   وقيس عيلان من أخلاقها الضجر

فلا هدى اللّه قيساً من ضلالتها   ولا لعاً لبني ذكوان إن عثروا

ولم يزل لسليمٍ أمر جاهلها   حتّى تعايا بها الإيراد والصدر

فقد نصرت أمير المؤمنين بنا   لمّا أتاك بمرج الغوطة البقر

يعرّفونك رأس ابن الحباب فقد   أضحى وللسيف في خيشومه أثر

وقال الأخطل في قصيدة له:

ألا من مبلغٌ قيساً رسولاً   فكيف وجدتم طعم الشقاق

فإن يك كوكب الصماء نحساً به ولدت وبالقمر المحاق

ولاقى ابن الحباب له حميّاً كفته كلّ حازيةٍ وراق

فأضحى رأسه ببلاد عكّ وسائر خلقه بجبا براق

وإلاّ تذهب الأيّام نرفد جميلة مثلها قبل الفراق

ملأنا جانب الثرثار منهم وجهّزنا أميمة لانطلاق

أميمة امرأة عمير بن الحباب.

يوم الكحيل

من أرض الموصل في عبر دجلة المغربي

قالوا: لما قتل عمير بن الحباب تجمعت قيس بناحية حدث الرقاق وهي بناحية قيس؛ فقال الأخطل:

ضربناهم على المكروه حتّى حدوناهم إلى حدث الرقاق

قالوا: ثم إن تميم بن الحباب أتى زفر بن الحارث، فسأله أن يطلب له بثأره فامتنع من ذلك، فقال له الهذيل ابنه: والله لئن ظفر بهم إن ذلك لعار عليك، وإن ظفروا وقد خذلتهم إن ذلك لأشد، فاستخلف زفر على قرقيسياء أخاه أوس بن الحارث، وعزم على أن يغير على بني تغلب ويغزوهم، فوجه يزيد بن حمران في خيل إلى بني فدوكس، فقتل رجالهم واستباح أموالهم، حتى لم يبق امرأة واحدة يقال لها حميدة أعاذها ابن حمران وقد استعاذت به؛ وبعث الهذيل بن زفر إلى بني كعب بن زهير، فقتل فيهم قتلا ذريعاً، وبعث مسلم بن ربيعة أخا بني عقيل إلى قوم من بني تغلب مجتمعين فأكثر فيهم القتل، ثم قصد لبني تغلب وقد اجتمعوا بالعقيق من أرض الموصل، فلما أحست به بنو تغلب ارتحلت تريد عبور دجلة، فلما صارت بالكحيل، لحقهم زفر بن الحارث في القيسية فاقتتلوا قتالاً شديداً، وترجل أصحاب زفر اجمعون وبقي زفر على بغل له فقتلوهم ليلتهم وبقروا بطون نساء منهم، وغرق في دجلة أكثر ممن قتل بالسيف، وأتى فلهم لبى، فوجه زفر إليهم الهذيل بن زفر فأوقع بهم إلا من عبر فنجا، وأسر زفر منهم مائتين فقتلهم صبراً؛ فقال زفر:

ألا يا عين جودي بانسكاب وبكّي عاصماً وابن الحباب

فان تك تغلبٌ قتلت عميراً ورهطاً من غنيٍ في الحراب

فقد أفنى بني جشم بن بكرٍ ونمرهم فوارس من كلاب

قتلنا منهم مائتين صبراً وما عدلوا عمير بن الحباب

فقتلانا نعدّهم كراماً وقتلاهم تعدّ مع الكلاب

وقال أيضاً:

قتلنا من بني جشمٍ جموعاً فما عدلت جموعهم عميرا

وقال ابن صفار المحاربي:

ألم تر حربنا تركت حبيباً محالفها المذلّة والصغار

وقد كانوا أولي عزٍّ فأضحوا وليس بهم من الذلّ انتصار

حدثني عباس بن هشام الكلبي عن أبيه حدثنا ابن الجصاص قال: وقف عكرمة بن ربعي التيمي من ربيعة على أسماء بن خارجة الفزاري بالكوفة فقال: قتلت بنو تغلب عمير بن الحباب، فقال أسماء: لا بأس إنما قتل في ديار القوم مقبلا غير مدبر، ثم قال:

يدي لك رهنٌ عن سليمٍ بغارةٍ تشيب لها أصداع بكر بن وائل

وتترك أولاد الفدوكس عالةً يتامى أيامى نهزةً للقبائل

وحدثني الأثرم عن خالد بن كلثوم عن المفضل الضبي وغيره قالوا: أسر القطامى في يوم من أيامهم، وأخذ ماله، فقام زفر بأمره حتى رد عليه ماله وجميع ما أخذ منه ووصله فقال فيه:

إنّي وإن كان قومي ليس بينهم وبين قومك إلاّ ضربة الهادي

مثنٍ عليك بما أوليت من حسنٍ وقد تعرّض منّي مقتلٌ بادي

في شعر طويل.

وقال أيضاً:

فمن يكن استلام إلى ثويّ فقد أحسنت يا زفر المتاعا

أألكفر بعد دفع الموت عنّي وبعد عطائك المائة الرتاعا

وقال عوانة بن الحكم وغيره: لما ولى مصعب المهلب بن أبي صفرة الموصل والجزيرة بعث إلى بني تغلب وكانوا مروانية: إن تبايعوا أمير المؤمنين عبد الله بن الزبير وإلا أتاكم جيش ينسيكم قيساً ويلحقكم بمن قتلتم منهم وقتلوا منكم فعزل قبل أن يحدث فيهم حدثا، فلذلك قال القطامي:

أتاني من الأزد النذيرة بعد ما تناشد قولي بالحجاز المجالس

فقالوا عليك ابن الزبير فعذ به　　　أبى اللّه أن أخزى وعزٌّ خنابس

وما جعل اللّه المهلّب فارساً　　　ولكنّ أمثال الهذيل الفوارس

يوم البشر

والبشر جبل في عبر الفرات الغربي قالوا: وفد الأخطل على عبد الملك بن مروان فدخل عليه الجحاف بن حكيم بن عاصم بن قيس السلمي، والأخطل عنده فقال له عبد الملك: أتعرف هذا يا أخطل ؟ قال: نعم هذا الذي أقول فيه:

ألا سائل الجحّاف هل هو ثائرٌ　　　بقتلى أصيبت من سليم وعامر

وأنشد القصيدة حتى فرغ منها فتغالظا في الكلام، فنهض الجحاف يجر مطرفاً كان عليه حتى أتى الديوان فنظر إلى مقادير القراطيس التي تكتب فيها العهود، ثم لطف لبعض الكتاب حتى كتب له عهداً مفتعلاً على صدقات بكر وتغلب بالجزيرة وقال لأصحابه: إن أمير المؤمنين قد ولاني هذه الصدقات فمن أراد اللحاق بي فليفعل وسار حتى أتى الموضع الذي يدعى اليوم برصافة هشام، وهو بقرب الرقة فاجتمع إليه أصحابه بها، فقال لهم: إن الأخطل أتعبني وأسمعني، ولست بوال فمن كان يحب أن يرحض عني العار وعن نفسه فيّ فليصحبني فإني آليت أن لا أغسل رأسي أو أوقع ببني تغلب، فرجعوا غير ثلاثمائة قالوا له: نموت معك ونحيا، فسار ليلته حتى أصبح الرحوب وهو ماء لبني جشم بن بكر قوم الأخطل فصادف عليه جماعة عظيمة من بني تغلب فقتل منهم مقتلة عظيمة، وأخذ الأخطل وعليه عباءة وسخة فظن أخذه أنه عبد وسئل فقال: أنا عبد فخلى سبيله فرمى بنفسه في جب من جبابهم مخافة أن يراه من يعرفه من قيس فيقتل، وقتل أبوه يومئذ؛ فلما انصرفت القيسية خرج من البئر وجعلت عبلة امرأته تسله أن يعود إلى البئر خوفاً عليه من كرهم وعودهم فقال:

يا عبل أكرم حرّةٍ في قومها　　　حسباً وأرعاها لكهلٍ سيّد

قامت تتبّعنا دموعاً قرّة　　　منها بطرف غضيضةٍ لم تبرد

ثم إن الجحاف استخفى فطلبه عبد الملك بن مروان فمضى حتى دخل بلاد الروم مما يلي أرمينية.

وأرادت بنو تغلب دفن موتاهم فقال لهم الشمرذى: إنكم إن دفنتموهم، فرأى الناس كثرهم غزوكم استقلالاً لكم واجترأوا عليكم فأحرقوهم.

وقال الجحاف للأخطل:

أبا مالكٍ هل لمتني إذ حضضتني　　　على القتل أم هل لامني لك لائم

ألم أفنكم قتلاً وأجدع أنوفكم بفتيان قيسٍ والسيوف الصوارم
بكلّ فتىً ينعى عميراً بسيفه إذا اعتصمت أيمانهم بالقوائم
فإن يطردوني يطردوني وقد جرى بي الورد يوماً في دماء الأراقم
نكحت بسيفي من زهير ومالكٍ نكاح اغتصاب لا نكاح الدراهم

لقد أوقدت نار الشمرذى بأرؤسٍ عظام اللحى معرنزمات اللهازم
تحشّ بأوصالٍ من القوم بينها وبين الرجال الموقديها محارم
فلا تحمدوا إلاّ الإمام لترككم تمشّون بالخابور دسم العمائم

في أبيات.

وقال نفيع بن صفار المحاربي:

لقد رفعت نار الشرمذى لقومه شناراً وخزياً طار كلّ مطار

ولم يزل الجحاف ببلاد الروم حتى طلب له الأمان من عبد الملك فآمنه؛ وسمعت مشايخ من أهل أرمينية يذكرون: ان الجحاف أقام بطرابزندة ثم اتى كمخ ثم أتى قاليقلا وبعث إلى بطانة عبد الملك من القيسيين حتى أخذوا له أمانا.

قالوا: فلما صار إليه حمله ديات من قتل، وأخذ منه الكفلاء، وأمره بالسعي والاضطراب فقال: أسأل قومي، فأتى الحجاج بن يوسف فحجبه فلقي أسماء بن خارجة فقال له: إني لا أعصب لومها إلا بك، فدخل على الحجاج بن يوسف فكلمه فأذن له، فلما دخل عليه حمد الله وأثنى عليه ثم قال: إني أعملت المطي إليك من الشام لأنه ليس أمامك مذهب ولا وراءك مطلب وليست يد دون الله تحجزك، وأنت أمير العراق، وسيد قيس ففك رهني وتلاف أمري؛ فيقال أن الحجاج قال له: يا جحاف أعملت المطي من الشام فقلت آتي الحجاج فإن أعطاني شكرت وإن منعني بخلت وذممت، والله ما أعطيك مال الله فقال: تعطيني عمالتك، فقال: هذا نعم فتركها له؛ ويقال إن الحجاج قال له: أعهدتني خائناً ؟ فقال: لا ولكنك سيد قومك، ولك عمالة واسعة، فقال: لقد ألهمت الصدق، ونظرت بنور الله، فأمر له بمائة ألف درهم، وكانت عمالة الحجاج خمسمائة ألف درهم؛ ثم أقبل الحجاج عليه يضاحكه ويسأله عن خبره وخبر بني تغلب والأخطل، فلما ولى قال: لله رجال قيس ! وقال الجحاف:

رحلت إلى الحجّاج أطلب رفده على ثقةٍ باللّه والرهن قد غلق

فأحفى سؤالي ثم أقبل ضاحكاً إليّ وأعطاني الوفاء من الورق

فلما أدى الجحاف ما ألزمه عبد الملك أظهر التوبة وأصحابه ومضى حاجاً؛ فذكروا أن محمد بن سوقة قال: مر بي الجحاف وأنا في دكاني في السوق فاشترى مني خزاً قسمه في أصحابه، وإذا هو وأصحابه قد زموا انفسهم. قلت: ما هذا الذي أراك وأصحابك صنعتموه فقال: جعلنا ما ترى لنذكر خطيئتنا في قتل القوم الذين قتلناهم، ونحن نريد الحج فلعل الله يرحمنا ويتوب علينا؛ وقدم الجحاف مكة وأصحابه معه فتعلق بأستار الكعبة فجعل ينادي اللهم اغفر لي وما أظن أن تفعل، فسمعه محمد بن الحنفية فقال: يا شيخ القنوط شر من الذنب، ثم سأل عنه فقيل: هذا الجحاف.

وقال الأخطل:

لقد أوقع الجحّاف بالبشر وقعةً إلى اللّه منها المشتكى والمعوّل

فإلاّ تغيرها قريشٌ بملكها يكن عن قريشٍ مستمازٌ ومرحل

فإن تحملوا عنهم فما من حمالةٍ وإن ثقلت إلاّ دم القوم أثقل

وزعموا أن عبد الملك قال له لما انشده:

يكن عن قريش مستمازٌ ومرحل

قال: إلى أين ويلك ؟ قال: إلى النار.

خبر مصعب بن الزبير

بن العوام ومقتله

حدثني أحمد بن إبراهيم الدورقي حدثنا وهب بن جرير بن حازم حدثنا أبي عن صعب بن زيد: أن المصعب بن الزبير لما فرغ من قتال المختار، كان إبراهيم بن الأشتر على الموصل والجزيرة وآذربيجان وأرمينية فعزله ووجهه لقتال الأزراقة، ووجه المهلب بن أبي صفرة على عمله، ثم عزل المهلب ورد إبراهيم بن الأشتر على العمل، ووجه المهلب لقتال الأزراقة.

قال: وبلغ المصعب إقبال عبد الملك نحوه وهو يومئذ بالبصرة قد قدم من عند أخيه بعد أن وفد عليه، فسأل أهل البصرة النهوض معه وكانت الحرورية قد نزلت سوق الأهواز وعليهم قطري بن الفجاءة، فقالوا: أصلح الله الأمير كيف نسير معك فهذه الحرورية مطلة علينا وعلى ديارنا وأموالنا؛ وقال المهلب للمصعب: اعلم أن أهل البصرة والكوفة قد كاتبوا عبد الملك وكاتبهم وأنه انما اجترأ على المسير إلى العراق بكتبهم، فقال له المهلب: لا تنحني عنك واجعلني منك قريباً، فقال له المصعب: إن أهل البصرة قد

أبوا أن يسيروا حتى ابعثك لقتال الحرورية، وأنا أكره إذا أقبل عبد الملك إلي ألا أسير إليه فاكفني هذا الثغر، فقال المهلب: إني لست آمن غدر القوم بك، وإن فعلوا فأبعدهم الله.

وحدثنا أبو خيثمة زهير بن حرب وأحمد بن إبراهيم قالا: حدثنا وهب بن جرير عن أبيه عن محمد بن الزبير الحنظلي عن معاوية بن صعصعة بن معاوية وهو ابن اخي الأحنف بن قيس – قال: والله إني لواقف مع عمي بالحيرة في ظل قصر بني بقيلة، إذ أقبل زياد بن عمرو العتكي حتى وقف إلى جنب الأحنف فذكر المصعب وسوء رأيه فيما بينه وبينه وعابه، فقال له الأحنف: أظنك والله يا زياد وأصحابك ستدخلون علينا ذلاً وبلاءً عظيماً، أحسبكم والله ستدخلون علينا أهل الشام فيقتلونا ويترلون دورنا، فمهلاً يا زياد ! فقال زياد: إن حالي قد اشتدت وإن علي دينا، فقال الأحنف: وهل تكفيك عشرة آلاف أكلم المصعب فيأمر لك بها، وأيم الله إني لأعلم أنها لا تنفعه عندك، فكلمه الأحنف فأمر بها له فكان زياد عند ذلك أسوأ ما كان رأياً وأشده على المصعب.

قال أحمد بن إبراهيم: قال وهب: قال أبي: هذا حين دخل مصعب الكوفة لقتال عبد الملك، وفي تلك الأيام مات الأحنف بالكوفة، ألا ترى أن الأحنف قد كان رجع إلى البصرة بعد مقتل المختار، وكتب في حمزة بن عبد الله مع من كتب فيه من أهل البصرة.

حدثنا أبو خيثمة وأحمد بن ابراهيم قالا: حدثنا وهب بن جرير عن أبيه، قال وهب: ولا أعلمه ألا عن صعب بن زيد: إن اشراف أهل العراق كتبوا إلى عبد الملك يدعونه إلى أنفسهم، ويخبرونه أنهم مبايعوه، فلم يبق بالبصرة شريف إلا كاتبه غير المهلب.

وحدثنا أبو خيثمة وخلف بن سالم المخزومي وأحمد بن إبراهيم قالوا: حدثنا وهب بن جرير حدثنا محمد بن أبي عيينة قال: سار المصعب يريد عبد الملك حتى انتهى إلى باجميرا، ثم التقى هو وعبد الملك فغدر أهل البصرة بالمصعب فقتل، واجتمع الناس على عبد الملك.

وحدثنا خلف وأحمد بن إبراهيم قالا: حدثنا وهب حدثني أبي قال: كتبوا إلى عبد الملك يسألونه المسير إليهم ويخبرونه أنهم لو قد رأوه مالوا إليه بمن تبعهم، فأقبل عبد الملك وخرج إليه مصعب فلما صفوا للقتال مال أهل العراق إلى عبد الملك، وبقي المصعب في خف من الناس، فقال لابنه عيسى: أي بني انصرف، فأبى وقال: والله لا آتي قريشاً فأخبرهم عن مصرعك أبداً، قال: فتقدم إذاً فتقدم فقتل.

وأقبل عبيد الله بن زياد بن ظبيان فقال للمصعب كيف ترى الله صنع بك وأخزاك، قال: بل أخزاك، والمصعب راجل وابن ظبيان راكب؛ قال: فقتل ابن زياد المصعب، واحتز رأسه فأتى به عبد الملك فألقاه بين يديه وهو يقول:

نعاطي الملوك الحقّ ما قسطوا لنا وليس علينا قتلهم بمحرّم

فخر عبد الملك ساجدا، فكان ابن ظبيان يقول: ما ندمت على شيء قط ندامتي على ألا أكون ضربت رأس عبد الملك حين أتيته برأس المصعب، فأرحت الناس، وأكون قد قتلت ملكي العرب في يوم واحد.

وحدثني أحمد بن إبراهيم الدورقي حدثنا وهب بن جرير حدثنا الأسود بن شيبان عن خالد بن سمير بحديث طويل فاختصرته قال: لم يكن لأحد من الناس مثل مترلة عبد الله بن أبي فروة عند المصعب، فلما قتل المصعب رحل إلى عبد الله بن الزبير، فجعل عبد الملك لمن رده عليه مائة ألف درهم، فلم يقدر عليه حتى قدم مكة فقال له عبد الله بن الزبير: يا بن أبي فروة أخبرني عن الناس قال: يا أمير المؤمنين خرجنا حتى إذا واقفنا عبد الملك مال داود بن قحذم براية بكر بن وائل، ومال فلان براية بني فلان، فلما رأيت المصعب قد بقي في رقة من الناس أتيته بأفراس قد أضمرتها فهي مثل القداح فقلت له: اركب فالحق بأمير المؤمنين فدث في صدري دثة وقال: ليس أخوك بالعبد، وأحببت الحياة فانصرفت، فقال ابن الزبير: حسبنا الله ونعم الوكيل ثلاث مرار.

حدثني العمري عن الهيثم بن عدي عن مجالد عن الشعبي قال: قدم مصعب حين وليي العراقين فبدأ بالبصرة، وولى القباع الكوفة، وكان خليفة القباع بها عمرو بن حريث، ثم شخص إلى الكوفة فقتل المختار ومعه الأحنف بن قيس، ثم عزله أخوه عن البصرة، وولاها حمزة ابنه فغضب وأقر على خلافته القباع ومضى إلى أخيه فرده على المصرين، وأقام بالبصرة حتى شخص منها إلى الكوفة واستخلف عباد بن الحصين، ويقال: انه استخلف سنان بن سلمة، وجعل عبادا على شرطه وكان الأحنف مع مصعب، فمات الأحنف بالكوفة، ثم إن مصعبا شخص إلى مسكين فقتل بها.

وقال الهيثم: ثم خرج عبد الملك يريد العراق لمحارقة مصعب في خمسين الفا فقصد لزفر بن الحارث حتى آمنه وخرج معه إلى مصعب فشهد حربه و لم يقاتل، وقال غيره، لما صالح عبد الملك زفر بن الحارث رجع إلى دمشق ثم شخص قصداً فواقع مصعباً.

وحدثني هشام بن عمار عن الوليد بن مسلم وغيره أن عبد الملك صالح زفر بن الحارث، ثم قدم دمشق فأصلح أمر ملك الروم والجراجمة الذين خرجوا عليه، ثم استشار في المسير إلى مصعب بن الزبير فقال له بعض من معه: إنك قد واليت بين سنتين، شخصت فيهما فخسرت خيلك ورجالك، وعامك هذا عام جدب فأرج الأمر سنة أو سنتين، واسترح ثم اشخص فقال: الشام بلد قليل المال، ولا آمن نفاده، وقد كتب إلي أشراف أهل العراق يدعوني إليهم.

قال: وكان يشاور يحيى بن الحكم بن أبي العاص، ثم يخالفه ويقول: من أراد صواب الرأي فليخالف يحيى بن الحكم فيما يشير به عليه، فدعاه فاستشاره فقال: أرى أن ترضى بالشام وتقيم به، وتدع مصعباً والعراق، فلعن الله العراق، فضحك عبد الملك، ودعا بخالد بن عبد الله بن خالد بن أسيد فشاوره فقال: يا أمير المؤمنين غزوت مرة فنصرك الله، ثم ثانية فزادك الله عزا، فأقم عامك هذا، ثم قال لمحمد بن مروان أخيه: ما ترى ؟ قال: أرجو أن ينصرك الله أقمت أو غزوت فاغز عدوك وشمر في طلب حقك، فأمر الناس بالاستعداد للمسير، وقدم محمد بن مروان ومعه خالد بن عبد الله بن خالد بن أسيد، وبشر بن مروان وقال: قد استعملت عليكم سيد الناس محمد بن مروان أخي ونصيحي.

وحدثني عباس بن هشام عن أبيه عن عوانة قال: بعثت عاتكة بنت يزيد، امرأة عبد الملك، وهي أم يزيد ابنه: ما رأيت خليفة قط غزا بنفسه فوجه الناس وأقم، فقال: والله لو بعثت إلى مصعب جميع أهل الشام لفضهم وفلهم ما لم أكن معهم، وتمثل:

ومستخبر عنّا يريد بنا الردى ومستخبراتٍ والعيون سواكب

وقال ابن الكلبي والهيثم قال عوانة: لما بلغ مصعباً إقبال عبد الملك إليه وأن قد قدم مقدمته وهو بالبصرة، أراد المسير إليه بأهل البصرة، فأبوا أن يسيروا معه وقالوا: عدونا من الخوارج مطل علينا، فأرسل إلى المهلب وهو عامله على الموصل والجزيرة فولاه قتال الخوارج وخرج فقال بعض الشعراء:

أكلّ عامٍ لك باجميرا تغزو بنا ولا تفيد خيراً

وباجميرا موضع كان إذا بلغ مصعباً إقبال الملك نحوه خرج إليه من الكوفة، فيبلغه انصراف عبد الملك فينصرف.

وقال أبو مخنف: ولى عبد الله مصعباً أخاه العراقين، ثم إن مولى لبني عجل أتى عبد الله بن الزبير بعد مقتل المختار فأشار عليه باستعمال حمزة ابنه على البصرة وقال له: إن ذلك يعجب أهلها ويحبونه فولاه إياها، فأراد المصعب الامتناع من تسليمها، فقال الأحنف: إن رأيت أن لا يكون بينك وبين أخيك ما تتضاران فيه فافعل فإن ضرر ذلك ينالنا، فقدم حمزة البصرة فأقام سنة أو نحوها، فكان إذا عرض عليه ما يرتفع من الخراج قال: فأين خراج الزاوية ؟ فكان الأحنف بن قيس ومالك بن مسمع يقولان: أما الفتى فيخبرنا أنه لا يستوفي عندنا سنة حتى يعزل، وخرج مصعب مغضباً إلى أخيه فرده على المصرين، فأشخص حمزة إلى أبيه، ويقال بل قدم حمزة إلى أبيه فرد مصعباً، فكتب مصعب من الكوفة إلى المهلب وهو عامله بالموصل والجزيرة أن يقدم، فقدم عليه فضمه إلى حمزة فولاه قتال الخوارج وسار إلى الكوفة وكان خليفته بها القباع، وكان سبب خروجه إلى الكوفة أنه بلغته حركة عبد الملك فأقام بها والأحنف معه، فمات

بالكوفة قبل مصير مصعب إلى مسكن، ومشى في جنازته، وظفر مصعب بإبراهيم بن حيان فقطع يده ونفاه، فصار إلى الروم فجنى هناك جناية فقطعوا رجله.
قال عوانة: وكان إبراهيم بن الأشتر عاملاً للمختار حين قتل على الموصل ونواحيها، فكتب إليه المصعب يدعوه إلى طاعته والبيعة لعبد الله بن الزبير فسارع إلى ذلك، وقدم عليه فولى المهلب ما كان يليه من الموصل والجزيرة ثم عزله وأعاد إبراهيم بن الأشتر إلى عمله.

فلما صح عنده وصول عبد الملك يريده بعث إلى ابن الأشتر فأقدمه عليه، فجعله على مقدمته وسار حتى أتى دمما، وهي من عمل الأنبار، ثم قطع منها حتى نزل بقرب أوانا وهناك دجيل ودير الجاثليق وباجميرا فعسكره وموضع وقعته بين هذه المواضع، وكاتب عبد الملك وجوه أهل الكوفة والبصرة ورغبهم في الأموال والأعمال، وكتب إليه جماعة منهم يستجعلونه على نصرتهم إياه وانحرافهم عن المصعب ولاية أصبهان، فكان يسأل عنها ويقول: ما أصبهان هذه أتنبت الذهب والفضة، لقد كتب إلي فيها أربعون كتاباً، وكتب عبد الملك إلى إبراهيم بن الأشتر فجعل له ولاية العراقين، فأخذ كتابه فدفعه إلى المصعب وقال له: أصلح الله الأمير إن عبد الملك لم يكتب إلي بهذا الكتاب إلا وقد كتب إلى هؤلاء الوجوه بمثله وقد أفسدهم عليك، فأنا أرى أن تأخذ وجوه أهل المصرين فتشدهم بالحديد، فقال له: يا أبا النعمان أتأخذ الناس بالظنة ؟ قال: فاجمعهم في أبيض المدائن لئلا يشهدوا الحرب معك، قال: إذا أفسد قلوب عشائرهم، قال: فابعث بهم إلى أخيك بمكة، فقال: ليس هذا برأي، قال: فإن لقيت العدو فلا تمدني بأحد منهم وأتهمهم.
قالوا: وبكت عاتكة بنت يزيد بن معاوية حين أراد عبد الملك المسير نحو العراق، وبكى جواريها فقال؛ كأن كثير عزة كان يرى ما نحن فيه حين يقول:

إذا ما أراد الغزو لم تثن رأيه ... حصانٌ عليها نظم درٍّ يزينها
نهته فلمّا لم تر النهي عاقه ... بكت فبكى ممّا شجاها قطينها

فسار عبد الملك حتى نزل الأحيونية وهي بين مسكن وتكريت، ونزل مصعب دير الجاثليق وهو بمسكن، وبين العسكرين ثلاثة فراسخ، ويقال: فرسخان، وخندق مصعب خندقاً على عسكره وعسكره اليوم يعرف بخربة مصعب، وقال مصعب: رحم الله أبا بحر – يعني الأحنف بن قيس – لقد كان يقول لي: لا تلق بأهل العراق عدواً فإنهم كالمومسة تريد كل يوم بعلاً، وهم يريدون كل يوم أميراً.
وكان عكرمة بن ربعي أحد بني تيم الله بن ثعلبة، وحوشب بن يزيد بن الحارث بن يزيد بن رويم الشيباني

يتباريان في إطعام الطعام فقال مصعب: دعوهما فلينفقا من خيانتهما وفجورهما.
وأرسل عبد الملك إلى مصعب رجلاً من كلب فقال له: أقرىء ابن أختك السلام وقل له: يدع دعاءه إلى أخيه، وأدع دعائي إلى نفسي ونصير الأمر شورى، فقال مصعب: قل له: السيف بيننا.
فقدم عبد الملك محمد بن مروان ومعه بشر بن مروان وقال: اللهم انصر محمدا، اللهم انصر خيرنا لهذه الأمة، وقدم مصعب إبراهيم بن الأشتر للقائه فالتقيا وبين عسكر مصعب وبين عسكر ابن الأشتر فرسخ، فتناوش الفريقان فقتل صاحب لواء محمد، وجعل عبد الملك يمد محمدا، وجعل المصعب يمد إبراهيم، وجعل محمد يكف أصحابه عن مناجزة القوم فوجه إليه عبد الملك يشتمه، فوقف محمد رجلاً في جماعة وأمره أن يمنع من يأتيه من جهة عبد الملك من دخول عسكره، فوجه عبد الملك خالد بن عبد الله بن خالد بن أسيد فرده أشد الرد حتى إذا كان قرب المساء قال محمد للناس حركوهم فتهايج القوم.
ووجه المصعب إلى إبراهيم بن الأشتر عتاب ورقاء الرياحي، وكان قد بايع عبد الملك ووعده أن يكيد له المصعب، فلما رآه إبراهيم غمه أمره وقال: إنا لله وإنا إليه راجعون قد سألته أن لا يمدني بهذا ونظرائه، وانهزم عتاب على مواطأةٍ منه لأهل الشام، فوقعت الهزيمة وقتل ابن الأشتر وهو يقول: قد قلت: أعفني من عتاب وذوي عتاب، وكان الذي قتل ابن الأشتر مولى لبني عذرة له عبيد بن ميسرة، واحتز رأسه وأتى به عبد الملك، وأحرق جثته موالي حصين بن نمير، وقال عوانة: لما واقع محمد بن مروان ابن الأشتر قال ابن الأشتر لأصحابه: لا تنصرفوا حتى ينصرف أهل الشام عنكم، فقال عتاب بن ورقاء: و لم لا ننصرف، فانصرف وانهزم الناس حتى أتوا مصعباً، وصبر إبراهيم بن الأشتر حتى قتل، فلما أصبح محمد بن مروان وجه إلى عسكر مصعب رجلاً وقال: انظر كيف تراهم فلم يعرف الطريق، فدله عليه إبراهيم بن عربي الكناني فأتى العسكر ثم انصرف، فقال: رأيتهم منكسرين، وقاتل مع مصعب شعيث بن ربيع بن حشيش العنبري فصبر.

قالوا: وأصبح مصعب فدنا من محمد، ودنا منه حتى التقوا فنزل قوم من أصحاب مصعب، وأتوا محمدا، فدنا محمد من المصعب، وناداه: أنا ابن عمك محمد بن مروان فاقبل أمان أمير المؤمنين فقد بذله لك، قال: أمير المؤمنين بمكة، يعني عبد الله أخاه، فقال: يا بن عم إن القوم خاذلوك، فأبى ما عرض وجعل يقول:

إن الألى بالطفّ من آل هاشمٍ ... تأسّوا فسنّوا للكرام التأسيا

والشعر لابن قتة.
ودعا محمد عيسى بن مصعب، فقال له مصعب: انظر ما يريد عمك فدنا منه فقال: إني لكم ناصح، ولك

ولأبيك الأمان وناشده، فرجع إلى أبيه فأخبره بما قال له، فقال: إني أظن القوم سيفون فإن أحببت أن تأتيهم فافعل، فقال: لا تتحدث نساء قريش بأني خذلتك ورغبت بنفسي عنك، فال: فتقدم حتى احتسبك، فتقدم وناس معه فقتل وقتلوا، ونظر مصعب إلى عتاب بن ورقاء فقال: لا يبعد الله ابن الأشتر فقد كان حذرنيك، وترك الناس مصعباً وخذلوه حتى بقي في سبعة نفر، وجاء رجل من أهل الشام ليحتز رأس عيسى بن مصعب فشد عليه مصعب فقتله، وشد على الناس فانفرجوا عنه، ثم جاء إلى مرفقة ديباج فجلس عليها، ثم قام فشد على الناس فانفرجوا عنه.

وبذل له عبد الملك الأمان، وقال له: إنه يعز علي أن تقتل فاقبل أماني ولك حكمك في المال والولاية، فأبى وجعل يضارب، فقال عبد الملك: هذا والله كما قال القائل:

ومدججٍ كره الكماة نزاله   لا ممعنٍ هرباً ولا مستلئم

هذا والله الذي لا يجيبنا إلى أماننا، ولا يصدف عنا، ودخل مصعب سرادقه، فيقال: إنه تحنط، فرمى السرادق حتى سقط، وخرج فقاتل.

وأتاه عبيد الله بن زياد بن ظبيان فدعاه إلى المبارزة، فقال له: يا كلب اغرب مثلي يبارز مثلك، لعمري لقد ألجأني الدهر إلى مبارزتك، وشد عليه مصعب فضربه على البيضة فهشمها وجرحه، فرجع عبيد الله فعصب رأسه، وأتى عبد الله بن أبي فروة مصعباً، وكان كاتبه فقال له: جعلت فداك تركك الناس وهذا الرجل، يعني عبد الملك، مستديم لك لعلك تقبل أمانه وعندي خيل مقدحة فاركب أيها شئت وانج بنفسك فدث في صدره، ورجع ابن ظبيان إلى مصعب فحمل عليه، فضربه مصعب وهو مثخن لما أصابته من الجراحة، فلم تعمل ضربته فيه، وضربه عبيد الله بن ظبيان حتى مات، ويقال: ان ابن ظبيان ضربه وزرقه زائدة بن قدامة الثقفي أو رماه، ونادى يا لثارات المختار فسقط ميتاً واحتز ابن ظبيان رأسه، ويقال: بل أمر غلاماً له ديلميا فاحتز رأسه وحمله إلى عبد الملك، فوضعه بين يديه وهو ينشد.

نعاطي الملوك الحقّ ما قسطوا لنا   وليس علينا قتلهم بمحرّم

فسجد عبد الملك، فكان ابن ظبيان يقول: لقد هممت أن أضرب رأس عبد الملك وهو ساجد، فأكون قد قتلت ملكي العرب وأرحت الناس منهما، وقال عبد الملك لقد هممت أن أقتل ابن ظبيان فأكون قد قتلت أفتك الناس بأشجع الناس.

وقال الهيثم بن عدي: كتب عبد الملك إلى إبراهيم بن الأشتر، وهو مع مصعب، كتابا فأتى به المصعب قبل أن يقرأه، فلما قرأه قال له: يا أبا النعمان أتدري ما فيه ؟ قال: لا، قال يعرض عليك ما سقت دجلة أو ما سقى الفرات، فإن أبيت جمعهما لك، وإن هذا لما يرغب فيه، فقال إبراهيم: ما كنت لأتقلد الغدر

والخيانة، وما عبد الملك من أحد بأيأس منه مني، وما ترك أحداً ممن معك إلا وقد كتب إليه، فابعث إليهم فاضرب أعناقهم، وإلا فأوقرهم حديداً، ثم ألقهم في أبيض كسرى ووكل بهم حفظةً، فإن ظفرت عفوت عنهم أو عاقبت، فقال: يا أبا النعمان إني أخاف في هذا القالة، ووالله لو لم أجد إلا النمل لقاتلت به أهل الشام.

قال: فلما اصطف الناس مال عتاب بن ورقاء فذهب، وكان على خيل أهل الكوفة، وجعل ابراهيم يقول لرجل رجل: تقدم فيأبون عليه، فيتقدم هو فيقاتل فلم يزل يفعل ذلك حتى قتل، ثم تقدم مصعب فخذله الناس، فقال لحجار بن أبجر: تقدم يا أبا أسيد إلى هؤلاء الأنتان، قال: ما تتأخر إليه أنتن، ثم قال للغضبان بن القبعثرى: تقدم يا أبا السمط، فقال ما أرى ذاك، فالتفت إلى قطن بن عبد الله الحارثي، وهو على مذحج، وأسد فقال: تقدم فقال: أسفك دماء مذحج في غير شيء، فقال: أف لكم، ثم أقبل في عدة، فلما برز قال زياد بن عمرو العتكي لعبد الملك: يا أمير المؤمنين إن أبا البختري إسماعيل بن طلحة بن عبيد الله كان لي صديقا، وقد خفت أن يقتل فآمنه، قال: هو آمن.

ودنا محمد بن مروان فأعطى مصعباً الأمان، فأباه ورمي مصعب من كل جانب فأثخن، وقاتل ابنه عيسى حتى قتل، وقتل ابن ظبيان مصعباً، ويقال: ضربه غلام له على جبينه واعتوره الناس فقتل ووقف ابن ظبيان فاحتز رأسه وأتى به عبد الملك.

قالوا: وقتل يحيى بن جعدة فأتي عبد الملك برأسه فقال: ما لآل جعدة وآل الزبير، وقتل عبد الله بن شداد بن الهاد الكناني، ويقال: لم يقتل ولكنه مات في تلك السنة، وقتل يحيى بن مبشر اليربوعي، وشد رجل على مسلم بن عمرو الباهلي فطعنه فأذراه عن فرسه، فمر به رجل وهو مرتث فقال: هذا صنيعة من صنائع بني أمية يقتل تحت رايات آل الزبير، وقال عوانة: أتي به عبد الملك وقد طلب له منه الأمان وهو مثقل فقال: يا مسلم ويحك نسيت بلاء يزيد بن معاوية عندك.

قالوا: وكان قتل مصعب في سنة اثنتين وسبعين.

قال ابن الزبير الأسدي في إبراهيم بن الأشتر:

سأبكي وإن لم تبك فتيان مذحجٍ ... فتاها إذا الليل التمام تأوّبا

فتىً لم يكن في مرّة الحرب جاهلاً ... ولا بمطيعٍ في الوغى من تهيّبا

أبان أنوف الحيّ قحطان قتله ... وأنف نزارٍ قد أبان فأوعبا

فمن يك أمسى خائناً لأميره ... فما خان إبراهيم في الموت مصعبا

ولما قتل مصعب قال عبد الملك: متى تغذو النساء مثل مصعب لقد حرصنا على استبقائه ولكن الله أبى ذلك.

وقال عدي بن الرقاع العاملي، ويقال البعيث اليشكري:

ونحن قتلنا ابن الحواريّ مصعباً أخا أسدٍ والمذحجيّ اليمانيا

ومرّت عقاب الموت قصداً بمسلمٍ فأهوت له ظفراً فأصبح ثاويا

يعني مسلم بن عمرو الباهلي.

ولعدي بن الرقاع قصيدته التي يقول.

لعمري لقد أصحرت خيلنا بأكناف دجلة للمصعب

إذا شئت نازلت مستقدماً إلى الموت كالجمل الأجرب

فمن يك منّا يكن آمناً ومن يك من غيرنا يهرب

وقال عبيد الله بن قيس الرقيات:

لقد أورث المصرين خزياً وذلّةً قتيلٌ بدير الجاثليق مقيم

فما قاتلت في اللّه بكر بن وائلٍ ولا صبرت عند اللقاء تميم

في أبيات.

وقال ابن قيس أيضاً:

إنّ الرزيّة يوم مسكن والمصيبة والفجيعة

بابن الحواريّ الذي لم يعده يوم الوقيعه

يا لهفتي لو أنّ لي بالدير يوم الدير شيعه

وقال الأقيشر الأسدي:

حمى أنفه أن يقبل الضيم مصعبٌ فمات كريماً لم تذمّ خلائفه

ولو شاء أعطى الضيم من رام هضمة فعاش ملوماً في الرجال طرائقه

ولكن مضى والموت يبرق خاله يساوره مرّاً ومرّاً يعانقه

تولّى كرماً لم تنله مذلّةٌ ولم يك رغداً تطّبيه نمارقه

وقال عرفجة بن شريك أحد بني قيس بن ثعلبة

ما لابن مروان أعمى اللّه ناظره ولا أصاب رغيباتٍ ولا نفلا

يرجو الفلاح ابن مروان وقد قتلت	خيل ابن مروان خرقاً ماجداً بطلا
يا بن الحواريّ كم من نعمةٍ لكم	لو رام غيركم أمثالها شغلا
حملتم فحملتم كلّ معضلةٍ	إنّ الكريم إذا حمّلته احتملا

وقال الحارث بن خالد المخزومي:

هلا صبرتم بني السوداء أنفسكم	حتّى تموتوا كما ماتت بنو أسد

وقال سويد بن منجوف السدوسي من أهل البصرة يحذر مصعباً غدر أهل الكوفة:

ألا أبلغ مصعباً عنّي رسولاً	ولن تلقى النصيح بكلّ واد
تعلّم أنّ أكثر من تناجي	وإن أدنيتهم فهم الأعادي

وقال الأقيشر في أبيات له، ويقال: ابن الزبير:

من كان أمسى خائناً لأميره	فما خان إبراهيم في الحرب مصعباً

وقال موسى شهوات:

قد مضى مصعبٌ فولّى حميداً	وابن مروان آمنٌ حيث سارا
مصعبٌ كان منك أورى زناداً	حين تغشى القبائل الأقتارا

وقال سالم بن وابصة الأسدي:

أبلغ أمير المؤمنين رسالةً	ليس المبلّد كالجواد المسهب
لا تجعلنّ مؤنّثاً ذا سرّةٍ	ضخماً سرادقة وطيء المركب
يغدو إذا ما الحرب أطفىء نارها	ويروح مزهوّاً عظيم الموكب
كأغرّ يتّخذ السيوف سرادقاً	يمشي برايته كمشي الأنكب
ومشهّرٍ في الحرب فرّج سيفه	غمرات مخشي الردى متهيّب
فاذكر ولا تجعل بلاء محمّدٍ	والخاذليه لدى الحروب كجندب
يدعى إذا ما الحيس أحس أدمه	وإذا تكون عظيمةٌ لم يندب
وإلى ابن مروان الأغرّ محمّدٌ	بين ابن أشرتهم وبين المصعب
نفسي فداءك يوم ذلك من فتىً	يكفي بمشهده حضور الغيّب

وهي في ديوانه طويلة.

المدائني، قال: سار مصعب وحوله نفر يسير وقد خذله أهل العراق، لعدة عبد الملك إياهم، وعد حجار

بن أبجر ولاية أصبهان، ووعدها غضبان بن القبعثرى، وعتاب بن ورقاء، وقطن بن عبد الله الحارثي، ومحمد بن عمير بن عطارد.

قال: وقال عروة بن المغيرة: خرج مصعب يسير فوقعت عينه علي فقال: يا عروة كيف صنع الحسين فأخبرته بإبائه الترول على حكم ابن زياد وعزمه على الحرب فقال:

إنّ الألى بالطفّ من آل هاشمٍ تأسّوا فسنّوا للكرام التّأسّيا

والبيت لسليمان بن قتة.

قال: وقال قيس بن الهيثم لأهل البصرة ويحكم لا تدخلوا أهل الشام عليكم فوالله لئن تطعموا بعيشكم ليضيقن عليكم منازلكم ادفعوهم عن داركم، فوالله لقد رأيت سيد أهل الشام على باب الخليفة يفرح بأن أرسله في حاجة، ولقد رأيتنا في الصوائف وإن زاد أحدنا على عدة أجمال وإن أحدهم ليغزو على فرسه وزاده خلفه.

قال: والتقى القوم فقتل مسلم بن عمرو الباهلي، وقتل يحيى بن مبشر أحد بني ثعلبة بن يربوع فقال جرير:

صلّى الإله عليك يا بن مبشّرٍ إمّا ثويت بملتقى الأجناد

مأوى الضريك إذا السنون تتابعت وفتى الطعان عشيّة العصواد

والخيل ساطعة الغبار كأنّها قصبٌ تحرّق أو رعيل جراد

قالوا: ولما أخبر ابن خازم بمسير مصعب يريد عبد الملك قال: أمعه عمر بن عبيد الله بن معمر ؟ قالوا: لا استعمله على فارس، قال: أفمعه المهلب ؟ قيل: لا استعمله على الموصل، قال: أفمعه عباد بن الحصين ؟ قيل: لا استخلفه على البصرة، قال: وأنا بخراسان.

خذيني فجّريني ضباع وأبشري بلحم امريءٍ لم يشهد اليوم ناصره

وقال ابن الكلبي: لما أخبر بأن ابن معمر والمهلب غائبان عن مصعب، قال:

فلو بهما حكّت رحا الحرب بركها لقاما ولو كان القيام على رجل

وحدثني العمري عن الهيثم بن عدي عن عوانة قال: قال عبد الملك يوما لجلسائه: من أشد الناس ؟ قالوا: أمير المؤمنين، قال: اسلكوا غير هذه الطريق، قالوا: عمير بن الحباب، قال: قبح الله عميرا لص ثوب ينازع عليه أعز عنده من نفسه ودينه قالوا: فشبيب، قال: إن للحرورية طريقاً، قالوا: فمن ؟ قال: مصعب كانت عنده عقيلتا قريش: سكينة بنت الحسين، وعائشة بنت طلحة، ثم هو أكثر الناس مالاً، جعلت له

الأمان وضمنت أن أوليه العراق، وعلم أني سأفي له لصداقة كانت بيني وبينه فأبى وحمي أنفاً وقاتل حتى قتل؛ فقال رجل: كان يشرب الشراب، قال: ذاك قبل أن يطلب المروءة، فأما مذ طلبها فلو ظن أن الماء ينقص من مروءته ما ذاقه.

وقال المدائني: أتي عبد الملك بجيفة مصعب فجعل ينظر إلى جسده ويقول: متى تغذو النساء مثلك على نفاقك، وكانت على رأسه جارية تذب عنه فبدا لها ذكره، وأول ما يعظم من الميت ويتسمد جردانه فقالت يا سيدي: ما أغلظ أيور المنافقين فقال: اغربي قبحك الله.

حدثنا أبو بكر الأعين حدثنا أبو نعيم الفضل بن دكين حدثني عبد الله بن الزبير عن عبد الله بن شريك العامري قال: إني لواقف إلى جنب مصعب فأخرجت إليه كتاباً من قبائي فقلت: هذا كتاب عبد الملك، فقال: اصنع ما شئت.

وأخذ رجل من أهل الشام جارية له فصاحت: واذلاه، فنظر إليها فأعرض عنها.

قال أبو نعيم: وقتل مصعب وهو ابن ست وثلاثين سنة.

وقال الهيثم عن ابن عياش: استأمن زياد بن عمرو العتكي لإسماعيل بن طلحة، وقال: إنه كان يدفع شر المصعب عني فآمنه، فدنا فصاح به وكان زياد ضخما فأتاه وكان اسماعيل نحيفا فضرب بيده إلى منطقته، وكانت مناطقهم حواشي محشوة فاقتلعه من سرجه فقال: انشدك الله أبا المغيرة فإن هذا ليس بوفاء لمصعب، فقال زياد: هذا والله أحب إلي من أن أراك غدا مقتولا.

قال: خرج عبيد الله بن زياد بن ظبيان، وداود بن قحذم القيسي، وبسطام بن مصقلة بن هبيرة الشيباني، وعمر بن ضبيعة إلى عبد الملك برأس إبراهيم بن الأشتر.

وقال الهيثم: لما قتل عبد الملك مصعباً نزل النخيلة أربعين ليلة، فوجه الحجاج إلى عبد الله بن الزبير، وولى بشراً الكوفة، وولى خالد بن عبد الله بن خالد بن أسيد البصرة، ووجه أمية إلى أبي فديك فهزمه، فقدم البصرة في ثلاث، فوجه عبد الملك عمر بن عبيد الله بن معمر إلى أبي فديك، ووج معه ابن عضاه الأشعري وأفرشه ديوان المصرين فانتخب منه، فقتل أبا فديك، وكتب بالفتح إلى بشر بن مروان؛ فقال العجاج:

لقد شفاك عمر بن معمر — من الحروريين يوم العسكر

وقع امرىءٍ ليس كوقع الأعور

يعني عبد الله بن عمير الليثي، وكان وجه إلى نجدة فلم يصنع شيئاً. وقال غير الهيثم: وجه خالد أخاه أمية، ووجه عبد الملك إبراهيم بن عربي إلى اليمامة أميراً عليها، فخرج عليه نوح بن هبيرة، وكان معه من أهل

الشام ألف فقتلهم.

المدائني، قال عبد الملك: لله مصعب لو كان لأخيه سخاؤه، وله شجاعة أخيه، وشدة شكيمته ما طمع فيهما، على أن مصعباً كان شجاعاً أبياً لقد أعطيناه أمانا لو قبله لوفينا له به، ولكنه آثر الموت صابراً على الحياة. وحدثني الحرمازي عن أبي زيد عن أبي عمرو بن العلاء قال: ذكر رجل مصعباً عند عبد الملك، فوقع فيه وصغر شأنه فقال عبد الملك: اسكت فإن من صغر مقتولاً صغر قاتله.

حدثني عباس بن هشام الكلبي عن أبيه عن عوانة عن رجل من أهل مكة قال: لما أتى عبد الله بن الزبير مقتل مصعب أضرب عن ذكره أياماً، ثم تحدث به الإماء بمكة في الطريق، ثم صعد المنبر فجلس عليه ملياً لا يتكلم، وإذا الكآبة بادية في وجهه وجبينه يرشح عرقاً، قال: فقلت لصاحب لي: ألا تراه، أتراه يهاب المنطق والله إنه لخطيب جريء فما تظنه هميب، قال: أراه يريد ذكر مصعب سيد العرب، فهو يفظع ذكره، ثم قام فقال: الحمد لله الذي له الخلق والأمر، وملك الدنيا والآخرة، يؤتي الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء ويعز من يشاء ويذل من يشاء بيده الخير وهو على كل شيء قدير، ألا وإنه لم يذل امرؤ كان معه الحق وإن كان فرداً و لم يعز أحد من أولياء الباطل ولو كان الناس معه طراً، إنه أتانا خبر من العراق حزننا وأفرحنا، وساءنا وسرنا، أتانا قتل مصعب بن الزبير رحمه الله، فأما الذي حزننا من ذلك فأن لفراق الحميم لوعة يجدها حميمه عند المصيبة، ثم يرعوي ذا الرأي والدين والحجى والنهى إلى جميل الصبر، وكريم العزاء، وأما الذي سرنا من ذلك فإنا قد علمنا أن قتله شهادة وأن الله جاعل ذلك لنا وله خيرة، إن أهل العراق أهل الغدر والنفاق أسلموه وباعوه بأقل ثمن وأخسه فقتل. وإن قتل فمه، قد قتل أبوه وعمه وهما من الخيار الصالحين، إنا والله ما نموت حبجاً، ما نموت إلا قتلاً قعصاً بأطراف الأسنة وظباة السيوف، ليس كما يموت بنو مروان في حجالهم، فوالله ما قتل منهم رجل قط في جاهلية ولا إسلام، ولئن ابتليت بالمصيبة بمصعب، لقد ابتليت قبله بالمصيبة بإمامي عثمان بن عفان، ألا وإنما الدنيا عارية من الملك الجبار الذي لا يزول ملكه، ولا يبيد سلطانه فإن تقبل عليّ لا آخذ الأشر البطر، وإن تدبر عني لا أبك عليها بكاء الخزف الهتر؛ ثم نزل وهو يقول:

خذيني فجرّيني ضباع وأبشري   بلحم امرىءٍ لم يشهد اليوم ناصره

قالوا: وتمثل عبد الله حين قتل مصعب:

لقد عجبت وما بالدهر من عجبٍ   أنّى قتلت وأنت الحازم البطل

وقال عبد الملك: إن عبد الله بن الزبير لو كان خليفة كما يقول لخرج فآسى بنفسه، ولم يغرز ذنبه في الحرم، ثم قال: لله درك يا مصعب ما كان أسخى نفسك بنفسك.

وقال أعشى همدان، وهو عبد الرحمن بن الحارث بن نظام قصيدة طويلة أولها:

ألا من لهمٍ آخر الليل منصب ... وأمرٍ جليلٍ فادحٍ لي مشيّب

وفيها:

ألا بهلة اللّه الذي عزّ جاره ... على الغادرين الناكثين بمصعب

جزى اللّه حجّاراً هناك ملامةً ... وفرخ عمير من مناجٍ مؤلّب

وما كان عتّابٌ له بمناصحٍ ... ولا كان عن سعيٍ عليه بمغرب

ولا قطنٌ ولا ابنه لم يناصحا ... فتباً لسعي الحارثي المخبب

وضاربهم يحيى وعيسى ذمامةً ... وضارب تحت الساطع المتنصّب

وأدبر عنه المارق ابن القبعثرى ... فما كان بالحامي ولا بالمذبّب

ولا العتكّي إذ أمال لواءه ... فولّى به عنه إلى شرّ موكب

ولا ابن رويمٍ لا سقى الغيث قبره ... فباء بجدعٍ آخر الدهر موعب

وما سرّني من هيثمٍ فعل هيثمٍ ... وإن كان فينا ذا غناءٍ ومنصب

ولا فعل داود القليل وفاؤه ... فقد ظلّ محمولاً على شرّ مركب

ولكن على فيّاض بكر بن وائلٍ ... سأثني وخير القول ما لم يكذّب

يعني بفرخ عمير محمد بن عمير بن عطارد، ويعني بالهيثم الهيثم بن الأسود بن الهيثم النخعي، ويعني بفياض بكر عكرمة بن ربعي من بني تيم الله بن ثعلبة بن عكابة وكان جوادا، ويعني بعيسى عيسى بن مصعب وبيحيى يحيى بن مبشر اليربوعي من بني تميم، ويعني بحوشب حوشب بن يزيد بن رويم، ويعني بداود داود بن قحذم.

وقال أبو السفاح من ولد عميرة بن طارق اليربوعي:

صلّى على يحيى وأشياعه ... ربٌّ غفورٌ وشفيعٌ مطاع

يا سيّدا ما أنت من سيّدٍ ... موطّإِ الرحل رحيب الذراع

قوّال معروفٍ وفعّاله ... عقّار مثنى أمّهات الرباع

وقال المدائني: كان أبو العباس الأعمى يهجو آل الزبير ويمدح مصعباً من بينهم، ويمدح بني أمية، وكان عثمانياً فقال له عبد الملك: أنشدني شعرك في مصعب فإنا لا نتهمك فأنشده:

رحم اللّه مصعباً إنّه عا ... ش جواداً وكان فينا كريما

طلب الملك ثمّ مات فقيداً ... لم يعش باخلاً ولا مذموما

فقال عبد الملك: صدقت والله كذا كان.

وقال هشام ابن الكلبي: تزوج مصعب فاطمة بنت عبد الله بن السائب، أحد بني أسد بن عبد العزى، فولدت له عيسى بن مصعب وعكاشة فقتل عيسى يوم دجيل، ونجا عكاشة بنفسه فقال الشاعر:

ولو كان صلب العود أو ذا حفيظةٍ رأى ما رأى في الموت عيسى بن مصعب

والثبت أن البيت قيل في حوشب بن يزيد بعد هذه الأيام وهو:

ولو كان حرّا حوشبٌ ذا حفيظةٍ ... رأى ما رأى في الموت عيسى بن مصعب

وقالوا: قال عوانة: اشترط زفر في صلحه ألا يقاتل مع عبد الملك وابن الزبير حي، ولم يدخل الهذيل في الشرط، فلما سار عبد الملك إلى مصعب سار الهذيل بن زفر معه، ثم تحول إلى مصعب وقاتل مع ابراهيم بن الأشتر يوم دجيل، فلما قتل استخفى بالكوفة في قومه، ثم إن زفر طلب له الأمان فآمنه عبد الملك وبايعه.

ويقال: إنه قدر عليه بغير أمان فقال له عبد الملك: ما ظنك بي ؟ قال: ظني أنك قاتلي، قال: فقد أكذب الله ظنك بل قد عفوت عنك، وكان يحبه لشجاعته.

قالوا: وبويع عبد الملك بدير الجاثليق، ودفنت جثة مصعب هناك فقبره معروف بمسكن بقرب أوانا، ويعرف موضع عسكره ووقعته بخربة مصعب، وبصحراء مصعب، وزعموا انها لا تنبت شيئاً.

وبعث عبد الملك برأس مصعب إلى الكوفة، أو حمله معه، ثم بعث به إلى عبد العزيز بمصر، فلما رآه وقد حذى السيف انفه قال: رحمك الله أما والله لقد كنت من أحسنهم خلقا، وأشدهم بأسا، وأسخاهم نفسا، ثم رد رأسه إلى الشام فنصب بدمشق، وأرادوا أن يطوفوا به في نواحي الشام، فأخذته عاتكة بنت يزيد بن معاوية وهي أم يزيد بن عبد الملك فغسلته وطيبته ودفنته، وقالت: أما رضيتم بأن صنعتم ما صنعتم حتى تطوفوا وتنصبوه في المدن هذا بغي.

قالوا: وكان محمد بن مروان أخذ جارية لإبراهيم بن الأشتر كردية فواقعها فولدت على فراشه مروان بن محمد الجعدي، فلذلك قيل لمروان ابن أمة النخع.

وحدثني عباس بن هشام الكلبي عن أبيه عن جده، وأبي مخنف، أن مصعب بن الزبير قتل في سنة اثنتين وسبعين، فشخص عبد الملك إلى الكوفة وجعل على شرطه قطن عبد الله بن الحصين الحارثي، فكان قائماً بأمرها، ثم ولاها عبد الملك بشر بن مروان، وولى خالد بن عبد الله بن خالد بن أسيد البصرة، وكان قطن عثمانيا لم يمل إلى عبد الملك أحد ميله؛ ومضى عبد الملك إلى الشام، ثم إنه جمع العراقين لبشر، فأتى البصرة فأقام بها أربعة أشهر، ويقال: ستة أشهر، وهو عليل ومات؛ فولى عبد الملك الحجاج العراق ومات عبد الملك في سنة ست وثمانين؛ فكانت ولايته بعد قتل مصعب أربع عشرة سنة.

وقال أبو اليقظان: عاش عبد الملك بعد قتل المصعب أربع عشرة سنة.

المدائني عن مسلمة بن محارب وعوانة: أن عبد الملك قدم الكوفة حين قتل المصعب فقال للهيثم بن الأسود: كيف رأيت صنع الله ؟ قال: صنع يا أمير المؤمنين خيراً، فخفف الوطء وأقل التثريب، فوالله ما نيل فضل قط إلا بعفو وصبر واحتمال.

وتقدم رجل من الأنصار فأنشده:

الله أعطاك التي ما فوقها — وقد أراد الملحدون عوقها

عنك ويأبى اللّه إلاّ سوقها — إليك حتى قلّدوك طوقها

وحمّلوك ثقلها وأوقها

قالوا: وهيأ عمرو بن حريث – وكان خليفة المصعب على الكوفة حين شخص إلى مسكن، وكان مائلا إلى عبد الملك وقد كاتبه فيمن كاتبه – لعبد الملك طعاماً فدخل عبد الملك قصر الكوفة من النخيلة فقال له عمرو تأذن لخاصتك أم تجعله إذنا عاما ؟ فقال: بل اجعله إذناً عاما، فأذن للناس ووضعت الموائد فأكل عبد الملك وأكلوا؛ ويقال: ان عبد الملك اجلس عمرا معه على المائدة فقال له: أي الطعام أحب إليك وأطيب عندك ؟ فقال: عناق حمراء قد أجيد تمليحها وأحكم نضجها فقال عبد الملك: ما صنعت يا أبا سعيد رحمك الله شيئاً، فأين أنت عن عمروس راضع قد أجيد سمطه، واحكم شيه إذا اختلجت منه عضواً تبعك العضو الذي يليه؛ فلما فرغوا من طعامهم أقبل عبد الملك يدور في القصر ومعه عمرو بن حريث، وجعل يسأله عما أحدث فيه رجل رجل، ويسأله أيضاً عما أشرف عليه من قصور الكوفة فيقول: هذا لفلان، وهذا لفلان، وأحدث هذا فلان، وجعل عبد الملك ينشد:

فكلّ جديدٍ يا أميم إلى بلىً — وكلّ امرىءٍ يوماً يصير إلى كان

ثم استلقى على فراشه وأنشد

إعمل على مهلٍ فإنّك ميّتٌ واكدح لنفسك أيّها الإنسان

فكأنّ ما قد كان لم يك إذ مضى وكأن ما هو كائنٌ قد كان

وقال بعضهم: إن عبد الملك أمر فاتخذ له الطعام ووضعت الموائد فجاء عمرو بن حريث يتريل في مشيته فاستدناه وأكل معه وسأله عن أطيب الطعام فأجابه بما ذكرنا، وأن الطعام كان بالخورنق، قال: فلما أكل عبد الملك وأكل الناس أقبل يطوف ويسأل عمراً عن الخورنق، وعما أشرف عليه من الأبنية فيخبره بذلك ثم أنشد الشعر.

وولى عبد الملك الحجاج بن يوسف محاربة عبد الله بن الزبير، وأنفذه من الكوفة.

وقال ابن الكلبي والهيثم بن عدي وغيرهما: لما دخل عبد الملك الكوفة قصد إلى المسجد فخطب خطبة ذكر فيها صنع الله له، ووعد المحسن، وتوعد المسيء وقال: إن الجامعة التي وضعت في عنق عمرو بن سعيد عندي، والله لا أضعها في عنق رجل فأنزعها إلا صعدا لا أفكها عنه فكا، فلا يتقين امرؤ الا على نفسه ولا يولغني دمه.

المدائني، قال: دعا عبد الملك بالنخيلة إلى البيعة، فجاءت قضاعة فرأى قلتها فقال: يا معشر قضاعة كيف سلمتم من مضر مع قلتكم ؟ فقال عبد الله بن يعلى النهدي: نحن أعز منهم وأمنع، قال: بمن ؟ قال: بمن معك يا أمير المؤمنين، ثم جاءت مذحج وهمدان فقال: ما أرى لأحد مع هؤلاء بالكوفة شيئاً، ثم جاءت جعفي، فلما رآهم قال: يا معشر جعفي اشتملتم على ابن اختكم وورايتموه، يعني يحيى بن سعيد بن العاص ؟ قالوا: نعم قال: فأتوني به، قالوا: وهو آمن ؟ قال: وتشترطون أيضاً ؟ ! فقالوا: إنا والله ما نشترط جهلاً بحقك، ولكنا نتسحب عليك تسحب الولد على والده، قال: أما والله لنعم الحي أنتم إن كنتم لفرساناً في الجاهلية والإسلام، نعم هو آمن، فجاءوا به، فقال له – وكان يكنى أبا أيوب –: باي وجه تلقى ربك وقد خلعتني ؟ قال: بالوجه الذي خلق فسوى، فقال عبد الملك: لله دره أي ابن زوملة هو، يعني عربية.

وتقدم رجل من عدوان فقال له: ممن أنت ؟ قال: من عدوان، فقال عبد الملك:

غدير الحيّ من عدوا ن كانوا حيّة الأرض

بغى بعضهم بعضاً فلم يرعوا على بعض

ومنهم كانت السادا ت والموفون بالقرض

ثم قال للرجل: إيه ؟ فقال: لا أدري، فقال معبد بن خالد الجدلي

ومنهم حكمٌ يقضي فلا ينقض ما يقضي

ومنه من يجيز الحجّ بالسّنّة والفرض

فقال للرجل: لمن هذا ؟ قال: لا أدري، قال معبد: هو لذي الإصبع العدواني واسمه حرثان بن محرث بن الحارث بن شباب، فقال للرجل: كم عطاؤك ؟ قال: سبعمائة، وقال لمعبد: في كم أنت ؟ قال في ثلاثمائة، فأمر فحط الرجل أربعمائة، وزيدها معبد، فصار في سبعمائة، والآخر في ثلاثمائة وقال: هذا لجهلك؛ ثم أوصى به عبد الله بن اسحاق بن الأشعث، وقال لبشر: اجعله في صحابتك.

وولى عبد الملك قطن بن عبد الله الكوفة أربعين يوماً، ثم عزله وولى بشراً وقال: قد وليت عليكم بشراً وأمرته بالإحسان إلى محسنكم، واللين لأهل الطاعة والشدة على أهل المعصية والريبة منكم، فاسمعوا له وأطيعوا وأحسنوا مكانفته ومعاونته، وولى محمد بن عمير همدان وحوشب بن يزيد بن رويم الري، وبعضهم يقول: ولى يزيد بن رويم الري، وذلك وهم، لأن يزيد قتل قبل مقتل الزبير بن علي الخارجي، وخروج قطري، وذلك قبل قتل مصعب، وقال بعضهم: ولى الري وهمدان محمد بن عمير، وهو أشبه، وفرق العمال و لم يف لأحد وعده بولاية أصبهان.

وقال المدائني: لجأ عبد الله بن يزيد بن أسد إلى علي بن عبد الله بن العباس، ولجأ إليه أيضاً يحيى بن معيوف الهمداني، ولجأ الهذيل بن زفر بن الحارث وعمرو بن يزيد الحكمي إلى خالد بن يزيد بن معاوية، فآمنهم عبد الملك بن مروان.

حدثني محمد بن سعد عن أبي نعيم حدثنا يونس بن أبي اسحاق عن أبي اسحاق قال: كنت أنا والأسود بن يزيد في الشرط أيام مصعب، قالوا: ولما أراد عبد الملك الشخوص إلى الشام خطب الناس فعظم عليهم حق السلطان، وقال لهم هو ظل الله في الأرض، وحثهم على الطاعة والجماعة، وذكر ابن الزبير وخلافه وخروجه مما دخل الناس فيه من بيعة يزيد وغيره وحكم الله له عليه، وقال: إنه لو كان خليفة كما يزعم لأبدى صفحته وآسى أنصاره بنفسه و لم يغرز ذنبه في الحرم، ثم أعلمهم أنه قد ولى مصرهم أخاه بشراً وآثرهم به وأمره بالإحسان إلى محسنهم والطاعة له، وأن يحسنوا موازرته ومكانفته ويخفوا لما أهاب بهم إليه، وولى خالد بن عبد الله بن خالد بن أسيد البصرة.

وأنشدني محمد بن الأعرابي الراوية في بيعة عبد الملك لرجل من بلقين:

بدير الجاثليق على دجيلٍ ... عقدنا بيعة الملك الهمام

عقدنا بيعةً لا إثم فيها ... سيحوي فخرها أهل الشآم

بسم الله الرحمن الرحيم

أمر عبد الله بن الزبير في أيام عبد الملك ومقتله

قال الواقدي وغيره: لما بويع عبد الملك وهو بالشام بعث إلى المدينة عروة بن أنيف في سنة آلاف من أهل الشام وأمره أن لا يترل على أحد وأن لا يدخل المدينة، وأن يعسكر بالعرصة ففعل، وكان عامل عبد الله بن الزبير على المدينة الحارث بن حاطب بن الحارث بن معمر الجمحي، ولاه إياها بعد عزله مقوم الناقة لتشاؤم الناس بمقوم الناقة، وغلاء السعر في ولايته، حتى بلغ مد النبي صلى الله عليه وسلم درهمين، فهرب الحارث وكان ابن أنيف يدخل فيصلي الجمعة بالناس ثم يعود إلى معسكره، فأقام وأصحابه شهراً لا يبعث إليهم ابن الزبير أحدا، و لم يلقوا كيدا، فكتب عبد الملك إلى ابن أنيف ومن معه في القفول إلى الشام فلم يتخلف منهم أحد، وكان يصلي بالناس بعده عبد الرحمن بن سعد القرظ ثم عاد الحارث بن حاطب إلى المدينة، ووجه ابن الزبير سليمان بن خالد الزرقي من الأنصار، وكان رجلاً صالحاً، وجده ممن شهد العقبة، إلى الحارث، وأمره بتوليته خيبر وفدك، فخرج سليمان فترل في عمله.

وبعث عبد الملك عبد الواحد بن الحارث بن الحكم بن أبي العاص، ويقال عبد الملك بن الحارث بن الحكم وهو الثبت، في أربعة آلاف إلى المدينة فلما نزل أول عمل ابن الزبير مما يلي الشام، هرب عماله، وسار عبد الملك حتى نزل وادي القرى ووجه منها خيلاً عليها أبو القمقام إلى سليمان بن خالد فوجدوه قد هرب، فطلبوه حتى لحقوه فقتلوه ومن معه، فلما بلغ ذلك عبد الملك اغتم وقال: قتلوا رجلاً مسلماً محرماً صالحاً بغير ذنب، ودخل عليه قبيصة بن ذؤيب بن حلحلة بن عمرو الخزاعي، وكان يتولى خاتم عبد الملك، وروح بن زنباع الجذامي فنعاه إليهما فارتاعا لذلك، وترحما عليه.

وعزل ابن الزبير ابن حاطب الجمحي، وولى مكانه جابر بن الأسود بن عوف الزهري، فوجه جابر أبا بكر بن أبي قيس في ستمائة وأربعين فارساً إلى خيبر، فوجدوا أبا القمقام ومن معه وهم الخمسمائة الذين قتلوا سليمان الزرقي مقيمين بفدك يعسفون الناس ويأخذون أموالهم، فقاتلوهم وانهزم أصحاب أبي القمقام، وأخذ منهم ثلاثون رجلاً أسرى فقتلهم أبو بكر صبراً، ويقال: بل قتل الخمس المائة أو أكثرهم، وكان عبد الملك قد وجه طارق بن عمرو مولى عثمان بن عفان، وهو الذي يقول فيه الشاعر:

ولو تكلّمن ذممن طارقا | والدهر قد أمّر عبداً آبقا

وأمره أن يترل بين أيلة ووادي القرى، فيمنع عمال ابن الزبير من الانتشار، ويحفظ ما بينه وبين الشام، ويسد خللاً إن ظهر له، فوجه طارق إلى أبي باكر خيلاً فاقتتلوا، فأصيب أبو بكر في المعركة، وأصيب من أصحابه أكثر من مائتي رجل، وكان ابن الزبير قد كتب إلى القباع أيام كان عامله على البصرة في البعث إليه بألفي رجل ليعينوا عامله على المدينة، ويقيموا معه بها فوجه رجلاً في ألفين فكان مع جابر.

فلما قتل أبو بكر بن أبي قيس، كتب ابن الزبير إلى القادم من البصرة يأمره أن يخرج في أصحابه فيلقى طارقا، وبلغ طارقا الخبر، فصار نحو المدينة فالتقيا بموضع يعرف بشبكة الدوم، فقتل البصري وقتل أصحابه قتلاً ذريعاً، فطلب مدبرهم وأجهز على جريحهم و لم يستبق أسيرهم و لم ينج منهم إلا الشريد، فلما بلغ ابن الزبير مقتله كتب إلى عامله على المدينة يأمره أن يفرض لألفي رجل من أهل المدينة وما والاها ليكونوا ردءاً لها، ففرض الفرض و لم يأته مال فبطل فسمي ذلك الفرض فرض الريح.

قال الواقدي: ويقال إن هذا الفرض كان في ولاية ابن حاطب.

ورجع طارق إلى وادي القرى فكان سيارة فيما بين المدينة ووادي القرى وأيله، وكان عامل ابن الزبير مقيماً بالمدينة؛ قال: وعزل ابن الزبير جابر بن الأسود وولى في صفر سنة سبعين طلحة بن عبد الله بن عوف، الذي يعرف بطلحة الندى، فلم يزل على المدينة حتى أخرجه طارق بن عمرو، وقد قدمها يريد الحجاج والحجاج بمكة، وكان طارق حسن العفو والتقية له رفق.

وقال الواقدي: لما قتل عبد الملك مصعب بن الزبير وأتى الكوفة، وجه منها الحجاج بن يوسف إلى عبد الله بن الزبير في ألفين، ويقال: في ثلاثة آلاف، ويقال في خمسة آلاف من أهل الشام، وذلك في سنة اثنتين وسبعين، فلم يعرض للمدينة ولا طريقها، وسار على الربذة حتى أتى الطائف، فكان يبعث البعوث إلى عرفة، ويبعث ابن الزبير إليه أصحابه فيقتتلون هناك وكل ذلك تهزم خيل ابن الزبير، وترجع خيل الحجاج إلى الطائف.

وقال عوانة بن الحكم: دخل عبد الملك بن مروان الكوفة حين قتل مصعباً فأقام بها أياماً، ثم وجه جيشاً إلى ابن الزبير، وهو بمكة واستعمل عليه الحجاج بن يوسف الثقفي، فأقبل عليه الهيثم بن الأسود النخعي فقال له: يا أمير المؤمنين أوص هذا الغلام الثقفي بالكعبة، ومره أن لا ينفر أطيارها، ولا يهتك أستارها، ولا يرمي أحجارها، وأن يأخذ على ابن الزبير بشعابها وفجاجها وأنفاقها، حتى يموت فيها جوعاً أو يخرج عنها مخلوعا، فقال عبد الملك للحجاج: افعل ذلك واجتنب الحرم وانزل الطائف.

فسار الحجاج حتى نزل الطائف، ثم إنه كتب إلى عبد الملك إنك متى تدع ابن الزبير وتكف عنه ولا تأمر بزحمه ومصادمته يكثر عدده وعدده وسلاحه فأذن لي في قتاله ومناجزته فكتب إليه: افعل ما ترى، فأمر أصحابه أن يتجهزوا للحج، ثم أقبل من الطائف، وقدم مقدمته، فنصبوا المنجنيق على أبي قبيس، فلما هبطوا إلى منى رأى من في عسكر الحجاج المنجنيق منصوبة فقال الأقيبل بن شهاب الكلبي، وهو ينسب في القين بن جسر، فيقال القيني:

لعمر أبي الحجاج لو خفت ما أرى ... من الأمر ما ألفيت تعذلني نفسي

فلم أر جيشاً غرّ بالحجّ قبلنا ... ولم أر جيشاً مثلنا غير ما خرس

يقول لا يتكلم ولا ينكر:

خرجنا لبيت اللّه نرمي ستوره ... وأحجاره زفن الولائد في العرس

دلفنا له يوم الثلاثاء من منىً ... بجيشٍ كصدر الفيل ليس بذي رأس

فإلاّ ترحنا من ثقيفٍ وملكها ... نصلّ لأيّام السباسب والنحس

فبلغ الحجاج الشعر، فطلبه ليقتله، فهرب حتى لحق بدمشق، فضرب على قبر مروان بن الحكم خيمة مستجيراً به، فدعا به عبد الملك، فلما صار بين يديه أنشده:

إنّي أعوذ بقبرٍ لست مخفره ... ولا أعوذ بقبرٍ بعد مروانا

فقال عبد الملك: وأنا لا أعوذ به أحداً بعدك، وأمر كاتبه أن يكتب له إلى الحجاج بأن يمسك عنه، ويعلمه أنه قد آمنه، فقال له الكاتب: عد إلي، فلما خرج أمره عبد الملك أن يكتب إليه إني قد صرفت إليك الأقيبل فاعمل فيه بما ترى فإنك محمود الرأي موفق للصواب فكتبه وختمه، فلما أخذه وانطلق به متوجهاً يريد مكة فكر في أمره، فقال لعل الكتاب مثل صحيفة المتلمس ففتحه ودفعه إلى من قرأه له فأنشأ يقول:

لأطلبنّ حمولاً قد علت شرفاً ... كأنّها في الضحى نخلٌ مواقير

فقد علمت وعلم المرء ينفعه ... أنّ انطلاقي إلى الحجّاج تغرير

مستحقباً صحفا تدمى طوابعها ... وفي الصحائف حيّاتٌ مناكير

لئن أتيتك يا حجّاج معتذراً ... إذاً فلا قبلت تلك المعاذير

وإن ظهرت لحجّاجٍ ليقتلني ... إنّي لأحمق من تحدى به عير

ثم لحق بقومه في باديتهم، فلم يزل معهم حتى هلك.

وحصر الحجاج ابن الزبير في المسجد، وألح عليه بالمنجنيق، وصير على رماتها رجلاً من خثعم فجعل يرمي البيت وهو يقول:

خطّارةٌ مثل الفنيق المزبد ... نرمي بها عوّاذ هذا المسجد

وقد كان رماة المنجنيق يقولون مثل هذا في حصار حصين بن نمير أيام يزيد بن معاوية.

وقال الواقدي: كتب الحجاج من الطائف إلى عبد الملك يسأله المدد ويستأذنه في حصار ابن الزبير

ودخول الحرم ويعلمه أنه قد روخي له في خناقه، وأنه في فسحة من أمره، فأذن له في ذلك وكتب إلى طارق بن عمره يأمره باللحاق به، فقدم المدينة في ذي القعدة سنة اثنتين وسبعين، فخرج عامل ابن الزبير عنها، وصير عليها طارق بن عمرو رجلاً من أهل الشام يقال له ثعلبة، فكان ثعلبة ينكت المخ على منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ويأكله، ويأكل التمر على المنبر ليغيظ بذلك أهل المدينة، وكان مع ذلك شديداً على أهل الريبة، فأمنت الطرق وكان أصحابه يتعبثون فيضربهم بالسياط، وأخذ قوماً تناولوا من شعير لرجل قد دق شعيره فضرب كل امرىء منهم خمسمائة سوط، وأتي برجل اغتصب امرأة نفسها فضربه بالسياط حتى مات، ثم صلبه على باب المرأة، وقال جابر بن عبد الله لما رأى صنيعه على منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم: رحم الله عثمان أنكروا من أمره ما قد رأوا أعظم منه أضعافاً، وإن كانت سيرة طارق صالحة.

قال: وكانت العير تحمل إلى أهل الشام من عند عبد الملك السويق والكعك والدقيق، لا تفتر حتى أخصبوا.

قال: ونحر ابن الزبير ونفر معه البدن عند المروة إذ لم يقدروا على إتيان منى وعرفة، وسأل الحجاج ابن الزبير أن يطوف بالبيت فلم يأذن له في ذلك إذ لم يأذن له الحجاج في حضور عرفة.

وكان عبد الملك ينكر رمي البيت في أيام يزيد بن معاوية، ثم أمر بذلك، فكان الناس يتعجبون منه ويقولون خذل في دينه، وحج عبد الله بن عمر في تلك السنة، فأرسل إلى الحجاج أن اتق الله واكفف هذه الحجارة عن الناس، فإنك في شهر حرام، وبلد حرام، وقد قدمت وفود الله من أقطار الأرض يضربون آباط الإبل ويمشون على أقدامهم ليودوا فريضة أو يزدادوا مزداد خير، فإن المنجنيق قد منعتهم من الطواف، فكف عن الرمي حتى قضوا ما يجب عليهم بمكة.

وخرجوا إلى مني وعرفة فوقف بالناس بها وشهد معهم المشاهد ولم يعرض ابن الزبير للحجاج في الزيارة وغيرها، ونادى منادي الحجاج في الناس أن انصرفوا إلى بلادكم، فإنا نعود بالمنجنيق على الملحد ابن الزبير، وتحلب الناس إلى ابن الزبير ليقاتلوا معه إعظاماً للبيت وحرمته، وقدم عليه قوم من الأعراب تقعقع وفاضهم، وقالوا: قدمنا لنقاتل معك فأعنا على قتال أعدائك، فإذا مع كل امرىءٍ منهم سيف كأنه شفرة قد خرج من غمده فقال: يا معشر الأعراب لا قربكم الله، فوالله إن سلاحكم لرث، وإن حديثكم لغث، وإنكم لعيال في الجدب، وأعداء في الخصب فتفرقوا عنه.

وقال الواقدي في روايته: قدم على ابن الزبير حبشان من الحبشة فقاتلوا معه، فكانوا يرمون بمزاريقهم فلا يقع لهم مزراق إلا في رجل، فقتلوا من الشاميين جماعة ونهكوا، فحمل عليهم أهل الشام فانكشفوا

وجعلوا يعتذرون إلى ابن الزبير ويقولون: لسنا بأصحاب مواجهة، ولكنا أصحاب اتباع بالمزاريق إذا ولوا، فلم يزل بعد ذلك يواجه الشاميين بأصحاب السيوف ويتقدم، وإذا ولى القوم أمر أصحاب المزاريق فرموهم، ثم إنهم فارقوه لضيق الأمر عليهم.

قال: وكان مع ابن الزبير قوم قدموا مع ابن عديس من مصر، ثم صاروا خوارج ذوو شجاعة وبأس فقاتلوا معه دافعين عن البيت معظمين لحرمته وكانت لهم نكاية في أهل الشام، فبلغه عنهم ما يقولون في عثمان رضي الله تعالى عنه فقال: والله ما أحب أن أستظهر على عدوي بمن يبغض عثمان، ولا بأن ألقي الله إلا ناصراً له، وجعل يماكرهم، فقالوا: والله ما نرى أن نقاتل مع رجل يكفر أسلافنا، وما قاتلنا إلا لحرمة هذا البيت، وأن نردها شورى فتفرقوا عنه فاختل عسكره وعريت مصافه ودنا منه عدوه حتى قاتلوه في جوف المسجد، فقال عبيد بن عمير: عجباً لك ولما صنعت لهؤلاء القوم، وهم أهل البلاء الحسن والأثر الجميل هلا سكت عنهم واحتملتهم إلى أن يصنع الله وتضع الحرب أوزارها، وقد قلت: لو أن الشياطين أعانتني على هؤلاء القوم لقبلتهم وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يستعين في حربه بالمنافقين واليهود.

قال: وأصابت الناس مجاعة شديدة حتى ذبح ابن الزبير فرساً له وقسم لحمه في أصحابه.

وقال الواقدي: حدثني ابن جريج عن عطاء قال: رأيت العباد من أصحاب ابن الزبير يأكلون لحوم البراذين في حصر ابن الزبير.

وقال الواقدي في روايته: وبيعت الدجاجة بعشرة دراهم، ومد الذرة بعشرين درهماً، وإن بيوت ابن الزبير لمملوءة قمحاً وشعيراً وذرة وتمراً.

وقال ابن الكلبي وغيره: كان أهل الشام ينتظرون فناء ما كان عند ابن الزبير من الطعام، فكان يحوط ذلك ولا ينفق منه إلا ما يمسك الرمق ويقول: أنفسهم قوية ما لم يفن، يعني أنفس أصحابه.

قالوا: ولما صدر الناس عن الحج أعاد الحجاج الرمي بالمنجنيق، فلقد كان الحجر يقع بين يدي عبد الله بن الزبير وهو يصلي فلا يبرح.

وحدثني أحمد بن ابراهيم الدورقي حدثنا محمد بن كثير حدثنا حماد بن سلمة عن قتادة قال: كان حجر المنجنيق يجيء عبد الله بن الزبير فيقال له تنح فيقول:

سهّل عليك فإنّ الأمور	بكفّ الإله مقاديرها
فليس بآتيك منهيّها	ولا قاصرٌ عنك مأمورها

وحدثني محمد بن سعد عن الواقدي عن ابن أبي الزناد عن هشام بن عروة عن أبيه قال: رأيت حجارة المنجنيق يرمى بها الكعبة حتى كأنها جيوب النساء، ولقد رميت بكلب فكفأ قدراً لنا فيها جشيشة فأخذناه فوجدناه كثير الشحم، فكان أشد إشباعاً لنا من الجشيشة.

وقال عوانة: رميت الكعبة حتى ارتجت ووهت فارتفعت سحابة ذات برق ورعد فسقطت صاعقة على المنجنيق فأحرقتها وقتلت من أصحابها اثني عشر رجلاً، فذعر أهل الشام من ذلك، وكفوا عن القتال، فقال الحجاج إنها تهامة، وهي بلاد كثيرة الصواعق فلا يروعنكم ما ترون فإن من قبلكم كانوا إذا قربوا قرباناً بعثت نار فأكلته، فيكون ذلك علامة تقبل ذلك القربان، فأتي بمنجنيق أخرى وعاود الرمي.

المدائني عن مسلمة عن أشياخ له قال: رمى الحجاج البيت، فسقطت على المنجنيق صاعقة في يوم مطير فقال: لا يروعنكم فإنها صواعق تهامة.

قال: وجعل أهل الشام يقولون وهم يرمون:

يا بن الزبير طال ما عصيكا — وطال ما عنيتنا اليكا

لتجزينّ بالذي أتيكا — لنضربن بسيفنا قفيكا

وجعلوا يقولون كقولهم في أيام حصار حصين بن نمير:

كيف ترى صنيع أمّ فروه — تقتلهم بين الصفا والمروه

وكان مع الحجاج ممن مع الحصين.

حدثني محمد بن سعد والوليد بن صالح قالا: حدثنا الواقدي حدثني اسحاق بن يحيى بن يوسف قال: رمي بالمنجنيق فرعدت السماء وبرقت فتهيب ذلك أهل الشام فرفع الحجاج بيده حجراً ووضعه في كفة المنجنيق ورمى بعضهم، فلما أصبحوا جاءت صاعقة فقتلت من أصحاب المنجنيق اثني عشر رجلا فانكسر أهل الشام، فقال الحجاج، يا أهل الشام لا تنكروا ما ترون فإنما هي صواعق تهامة، وعظم عندهم أمر الخلافة، وطاعة الخلفاء.

وقال ابن الكلبي: اصابت الناس مجاعة في أيام ابن الزبير وكان عامله على وادي القرى الجراح بن الحصين بن الحارث الجعفي، وكان لابن الزبير بها تمر كثير من تمر الصدقة، فأنهبه فلما قدم عليه جعل يضربه بدرته ويقول: أكلت تمري وعصيت أمري، فلما كان حصار الحجاج إياه، دعا الحجاج الجراح بن الحصين فقال له حدثني حديث الملحد وحديثك فدعا وجوه من معه فقال: اسمعوا أهذا ممن يرجى لخير ؟ ! قال: وقدم عبد الله بن دراج، مولى معاوية مكة، فاتهمه ابن الزبير فقتله، فقال ابن الزبير الأسدي:

أيها العائذ في مكّة كم من دمٍ أجريته في غير دم

أيدٌ عائذة معصمةٌ ويدٌ تقتل من جاء الحرم

قالوا: ولما كان قبل مقتل عبد الله بن الزبير بيوم، خطب الحجاج أصحابه وحضهم وقال: هذا الفتح قد حضر، وقد ترون خفة من مع الملحد ابن الزبير من الرجال وقلتهم وما فيه أصحابه من الضيق والجهد، ففرحوا واستبشروا وملأوا ما بين الحجون إلى الأبواب.

وقالت أسماء بنت أبي بكر، أم عبد الله بن الزبير رضي الله تعالى عنهم: والله ما أنتظر إلا أن تقتل فأحتسبك، أو تظفر فأسر بظفرك فإن كنت على حق وبصيرة في أمرك فما أولاك بالجد ومنازلة هؤلاء القوم، وإلا فالسلم منهم أولى بك، فقال: يا أمه إني أخاف إن قتلني أهل الشام أن يمثلوا بي ويصلبوني، فقالت: يا بني إن الشاة إذا ذبحت لم تألم السلخ، فامض على بصيرتك فاستعن بالله ربك فخرج ابن الزبير، فدفع أهل الشام دفعة منكرة، وقتل منهم ثم انكشف وأصحابه فرجع، وبلغ أمه الخبر فقالت: خذلوه وأحبوا الحياة و لم ينظروا لدنياهم ولا آخرتهم، ثم قامت تصلي وتدعو فتقول: اللهم إن عبد الله بن الزبير كان معظماً لحرمتك، وقد جاهد فيك أعدائك وبذل مهجة نفسه لرجاء ثوبك فلا تخيبه، اللهم أظهره وانصره، اللهم ارحم طول ذلك السجود والنحيب، وذلك الظمأ في الهواجر، وما أقول هذا القول تزكية له، ولكنه الذي أعلمه منه وأنت أعلم بسريرته وعلانيته، اللهم إنه كان براً بوالديه فاشكر ذلك له، فلما كان يوم الثلاثاء، وهو اليوم الذي قتل فيه، جاء إلى أمه وعليه درعه ومغفره فودعها وقبل يدها فقالت: لا تبعد إلا من النار، وقال يا أمه خذلني الناس إلا ولدي وأهل بيتي، وكان الحجاج قد بسط الأمان للناس، فاستأمن إليه خلق واعتزلوا ابن الزبير.

قالوا: وخرج ابن الزبير من عند أمه فقاتل أشد قتال وضرب رجلاً من أهل الشام فقال: خذها وأنا ابن الحواري، فقتله، وضرب آخر وكان حبشياً فقطع يده وقال: اصبر أبا حممه، اصبر ابن حام.

وقال أبو مخنف: جعل يقاتل يومئذ قتالاً لم ير مثله وهو يقول:

صبراً عفاق إنّه شرٌ باق

قبلك سنّ الناس ضرب الأعناق

قد قامت الحرب بنا على ساق

المدائني عن يزيد بن عياض عن صالح بن كيسان قال: برز عبد الله بن الزبير في اليوم الذي قتل فيه فدمي وهو يقول:

لسنا على الأعقاب تدمى كلومنا ولك على أقدامنا يقطر الدما

وهذا البيت لخالد بن الأعلم. حليف بني مخزوم، وهو عقيلي، وكان أسر يوم بدر، فقدم في فدائه عكرمة بن أبي جهل، وقال بعضهم: هو لأبي عزة الجمحي.

قالوا: ورأى الحجاج الناس يخيمون عن ابن الزبير، فغضب وترجل، وأقبل يسوق الناس ويصمد بهم صمد صاحب علم ابن الزبير، وهو بين يديه فتقدم ابن الزبير صاحب علمه، وضاربهم فانكشفوا، وعرج فصلى ركعتين عند المقام فحملوا على صاحب علمه فقتلوه عند باب بني شيبة، وصار العلم في أيدي أصحاب الحجاج فلما فرغ من صلاته تقدم فقاتل بغير علم، والحجاج يذمر الناس، وقد شحنت الأبواب و لم يتخلف من أهل عسكر الحجاج أحد من أصحابه وأصحاب طارق، فأصابت ابن الزبير رمية فسقط، وصاحت امرأة: واأمير المؤمنيناه، وتعاووا عليه فقتلوه.

وقال أبو مخنف وغيره: أتى عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب ابن الزبير ليلة الثلاثاء فعرض عليه أن يخرج إلى الحجاج على أن يأخذ له أمانا، وقال: خرجت منكراً للظلم، متبعا لهدي الصالحين، وقد قتل على ذلك قوم معي مستبصرين، فإن قتلت فإني سأجتمع وقاتلي بين يدي الحكم العدل، فلما أصبح سمع الحجاج يقول: خذوا الأبواب لا يهرب، فقال: لقد ظن ابن الخبيثة بي ظنه بأبيه ونفسه يوم فر من الحنتف بن السجف.

وقال أبو مخنف في روايته: دخل ابن الزبير على أمه فقبل يدها وعانقها، وكانت عمياء، فلما مست الدرع قالت: هذه تثقلك فترعها وشمر ثيابه وأدرج كمه، فقالت: والله ما أحب أن أموت يومي هذا حتى أعلم إلى ما يصير أمرك إليه من الظفر الذي أرجوه، أو الأخرى، فأحتسبك وتمض لسبيلك على بصيرتك ونيتك.

وجعل أهل الشام ينادونه: يا بن العمياء يا بن ذات النطاقين فأنشد:

وعيّرها الواشون أنّي أحبّها   وتلك شكاةٌ ظاهرٌ عنك عارها

وقاتل وهو يقول:

شيخٌ كبيرٌ علّ   قد عاش حتّى ملّ

وقال ابن الزبير – وأخبر أن بني سهم قد مالوا برايتهم إلى الحجاج فدخلوا في أمانه، وأنه قال: من دخل دار الحارث بن خالد ودار شيبة الجحبي فهو آمن – فقال:

فرّت سلامان وفرّت النمر   وقد تلاقى معهم فلا تفر

وفي رواية الواقدي: أن أسماء كانت تقول: وابن الزبير يقاتل الحجاج: لمن كانت الدولة اليوم، فيقال: للحجاج، فتقول: ربما أمر بالباطل، فإذا قيل هي لعبد الله قالت: اللهم انصر أهل طاعتك، ومن غضب لك.

وفي روايته أيضاً: أن إسحاق بن عبيد الله الأسلمي قال: شهدت حصار ابن الزبير الآخر، فكان يباشر القتال بنفسه، ولقد رأيته يقتل بيده مثل جميع من يقتله أصحابه، ورأيته اليوم الذي قتل فيه وهو يوم الثلاثاء، وإنه لبين الركن والمقام يقاتلهم أشد القتال حتى إنهم ليغشونه من كل ناحية حتى قتل، وكان يدعى إلى تبييت الحجاج، فيقول: البيات لا يصلح ولا نستحله.

قالوا: وعرض على ابن الزبير أن يدخل الكعبة، فقال: والله إني لأكره أن أدخلها فأوخذ كما تؤخذ الضبع من وجارها، ولكني أقاتل بسيفي هذا حتى أقتل، والله ما باطن الكعبة عند الحجاج إلا كظاهرها، وكان يحمل على رجليه حتى يبلغ الأبطح كأنه أسد في أجمة، ثم يرجع إلى المسجد، وقد جعل الحجاج يومئذ على كل باب أهل جند من أجناد الشام، وجعل ابن الزبير يقول:

إنّي إذا أعرف يوم أصبر ... والصبر أولى بالفتى وأعذر

وبعضهم يعرف ثم ينكر

وقال أبو مخنف وعوانة في روايتهما: قال حمزة بن الزبير لعبد الله: لو رقيت فوق الكعبة يا أمير المؤمنين قاتلنا حولك حتى نقتل جميعاً قبلك، فقال ابن الزبير:

أبّى لابن سلمى أنّه غير خالدٍ ... حذار المنايا أيّ وجهٍ تيمّما

فلست بمبتاع الحياة بسبّةٍ ... ولا مرتقٍ من خيفة الموت سلّما

ثم قال لأصحابه: أيكم طلبني، فإني في الرعيل الأول.

وقيل له لو لحقت بموضع كذا ؟ فقال: لبئس الشيخ أنا في الإسلام لئن أوقعت قوماً فقتلوا، ثم فررت عن مثل مصارعهم، وقال لمن بقي معه: غضوا أبصاركم عن البارقة، وعضوا على النواجذ، ولينظر رجل كيف يضرب، ولا تخطئوا مضاربها فتكسروها، فإن الرجل إذا كان أعضب لا سيف معه أخذ أخذاً كما تؤخذ المرأة وكان يقول:

لا عهد لي بغارةٍ مثل السيل ... لا ينقضي غبارها حتّى الليل

قالوا: وقاتل ابن مطيع حتى قتل وهو يقول:

أنا الذي فررت يوم الحرّة ... والحرّ لا يفرّ إلاّ مرّة

فاليوم أجزي فرّةً بكرّة

ويقال: إنه أصابته جراح فمات منها بعد أيام، وذلك أثبت.
قالوا: وشرب ابن الزبير الصبر أياماً، ثم المسك مخافة أن يصلب فيشم نتنه وقال طارق، ورأى ابن الزبير: ما ولدت النساء أذكر من هذا، فقال الحجاج اتقرظ مخالفا لأمير المؤمنين وطاعته ؟ قال: ذلك أعذر لنا في محاصرته سبعة أشهر ونصفا، أو قال: ستة أشهر ونصفا، وهو في غير حصن ولا منعة، فبلغ ذلك عبد الملك ذلك فصوب طارقا.

وقال الواقدي: حصر ابن الزبير في غرة ذي القعدة سنة اثنتين وسبعين، وقتل يوم الثلاثاء في جمادى الآخرة سنة ثلاث وسبعين، وكان الحصار ستة أشهر وسبع عشرة ليلة، وحج الحجاج بالناس في سنة ثلاث وسبعين حجاً تاماً، وقتل ابن الزبير وهو ابن ثلاث وسبعين سنة.
حدثني محمد بن سعد عن الواقدي عن عبد الرحمن بن أبي الزناد عن هشام بن عروة قال: رمى عبد الله بن الزبير رجل من السكون بآجرة فأثبته فوقع، وتولى قتله رجل من مراد وحمل رأسه إلى الحجاج، فسجد الحجاج وأوفد السكوني والمرادي إلى عبد الملك فأعطى كل واحد منهما خمسمائة دينار، وفرض لكل واحد منهما في مائتي دينار، ونصب عبد الملك رأس ابن الزبير، وأمر فبعث به إلى النواحي.
وحدثني محمد بن سعد عن محمد بن عمر الواقدي عن خالد بن إلياس عن أبي سلمة الحضرمي قال: دخلت على أسماء بنت أبي بكر يوم الثلاثاء، وبين يديها كفن قد أعدته ونشرته ودخنته، وأمرت جواري لها أن يقمن على أبواب المسجد فإذا قتل عبد الله صحن، فلما قتل سمعت صياحهن فأرسلت لتحمله، فوجدت الحجاج قد حز رأسه فبعث به إلى عبد الملك وصلبه منكساً، وإذا هي تقول: قاتل الله المبير يحول بيني وبين جثته أن أواريها.
وحدثني روح بن عبد المؤمن حدثنا عارم بن الفضل حدثنا حماد بن زيد عن أيوب عن نافع: ان ابن عمر مر بجذع ابن الزبير، فقال: أهو هو، قلت: نعم، قال: لقد كان عن هذا غنياً.
وحدثني محمد بن سعد عن الواقدي عن شرحبيل بن أبي عون عن أبيه قال: لما أحس ابن الزبير بالقتل تمسك، وكانت له سجادة كركبة العنز، فلما قتله الحجاج صلبه على الثنية اليمنى بالحجون، فأرسلت أسماء إليه قاتلك الله على ماذا صلبته ؟ فقال: إني استبقت أنا وهو إلى هذه الخشبة، فكانت اللبجة به، فسبقني إليها، فاستأذنته في تكفينه، ودفنه فأبى ووكل بجثته من يحرسها، وكتب إلى عبد الملك بصلبه إياه، فكتب إليه عبد الملك يلومه على صلبه، ويقول: ألا خليت بينه وبين أمه فأذن لها الحجاج فوارته بمقبرة الحجون، وصلى عليه عروة بن الزبير، ويقال غيره.
وقال عوانة بن الحكم: مر عبد الله بن عمر حين أخبر بصلب ابن الزبير فجعلت ناقته تحتك بخشبته، أو

قال: بجذعه، ورائحة المسك تسطع منه فقال: رحمك الله أبا خبيب، رحمك الله أبا خبيب، والله لقد كنت صواماً قواماً، ولكنك رفعت الدنيا فوق قدرها وأعظمتها، و لم تكن لذلك بأهل، وإن قوماً أنت من شرارهم لقوم صدق أخيار.

وقال عوانة: بلغني أن الحجاج ربط إلى ابن الزبير هرة ميته، ويقال: كلبة ميتة، فكانت رائحة المسك تغلب على ريحها، قال: وتوفيت أمه بعده بقليل.

قال: ولما قتل ابن الزبير كبر أهل الشام، فقال ابن عمر: لمن كبر من الأخيار لمولده أكثر ممن كبر من الأشرار لقتله، وكان أول مولود ولد بالمدينة من أبناء المهاجرين.

وقال عوانة وغيره: لما قتل الحجاج ابن الزبير وصلبه بعث إلى أمه أسماء بنت أبي بكر ذات النطاقين لتأتيه، فأبت أن تفعل، فبعث إليها لتقبلن أو لأبعثن إليك من يجرك بقرونك فقالت لرسوله: قل لابن أبي رغال: لست أفعل أو تبعث إلي من يجرني بقروني، فلبس سبته وجعل يتوذف في مشيته حتى دخل عليها فقال: كيف رأيت ما صنعت بطاغيتك ؟ قالت: من عنيت ؟ قال: عبد الله، قالت: رأيتك أفسدت عليه دنياه، وأفسد عليك آخرتك، وإن أعجب مما فعلت تعييرك إياي بالنطاقين، فليت شعري بأي نطاقي عيرتني، أبالذي كنت أحمل به الطعام إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو في الغار، أم بنطاقي الذي تنتطق الحرة بمثله في بيتها، أما إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: يكون في ثقيف مبير وكذاب، فأما الكذاب فقد رأيناه، وأما المبير فأنت هو، فانصرف وهو يقول: مبير المنافقين، مبير المنافقين، قالت: بل عمودهم.

قالوا: وكتب الحجاج إلى عبد الملك يسأله أن يبعث إليه بعروة بن الزبير، وكان عروة بن الزبير قد شخص إلى عبد الملك حين قتل أخوه وذكر أن أموال عبد الله عنده، فلما وصل الكتاب إليه قال للحرسي: خذ بيده، وكان عروة في مجلسه، وقد آمنه فقال عروة: ما على هذا أتيتك ؟ ! فقال: لا بد من الحجاج فنهض عروة وهو يقول: ليس الذليل من قتلتموه، ولكن الذليل من ملكتموه، فاستحيا عبد الملك وقال للحرسي: خل عنه، وكتب إلى الحجاج ينهاه عن الكتاب فيه فكف عنه، وكانت أم عروة أيضاً أسماء.

المدائني عبد الله بن فائد، قال: ركب عروة ناقة لم يدرك مثلها، فقدم الشام قبل قدوم رسل الحجاج بقتل عبد الله بن الزبير على عبد الملك، فأتى رباب عبد الملك فاستؤذن له، فلما دخل سلم عليه بالخلافة فرد عليه عبد الملك ورحب به وعانقه وأجلسه على السرير، ثم قال عروة:

نمتّ بأرحامٍ إليك قريبةٍ ولا قرب للأرحام ما لم تقرّب

ثم تحدث حتى جرى ذكر عبد الله، فقال عروة: إن أبا بكر بان، فقال عبد الملك: وما فعل ؟ قال: قتل رحمه الله، فخر عبد الملك ساجداً، فقال عروة: فإن الحجاج صلبه فهب جثته لأمه، قال: نعم، وكتب إلى الحجاج يعظم ما بلغه من صلبه، وكتب إليه إياك وعروة فقد آمنته فكان مسيره من الشام راجعاً إلى مكة ثلاثين يوماً، فأنزل الحجاج جثة عبد اله عن خشبته، وبعث بها إلى أمه فغسلته فلما أصابه الماء تقطع، فقال: قيل لي في المنام يا أم المقطع، فكنت أظنه المنذر لأنه جدع بالسيوف، و لم أظنه ابني فغسلته عضواً عضواً فاستمسك ودفنته، وصلى عليه عروة.

المدائني عن عامر بن حفص، قال: صلب الحجاج ابن الزبير وقرن به كلباً ميتاً.

قال: وكتب الحجاج في عروة إن عروة كان مع أخيه، فلما قتل عدو الله أخذ مالاً من مال الله، وهرب فكتب إليه عبد الملك: إنه لم يهرب ولكنه أتاني مبايعاً، وقد آمنته وحللته مما كان، وهو قادم عليك فإياك وعروة فعاوده، فكتب إليه أعرض عنه ولا ترادني فيه.

المدائني، قال: قال عوانة: أكثر الحجاج الكتب في عروة حتى هم عبد الملك أن يشخصه إليه، فقال عروة: ليس الذليل من قتلتموه، ولكنه من ملكتموه.

قال أبو الحسن المدائني: ويقال إن عروة قال: ليس بملوم من صبر حتى مات كريماً، ولكن الملوم من خاف من الموت، وسمع مثل هذا الكلام فقال: لن تسمع أبا عبد الله منا شيئاً تكرهه.

قال عامر بن حفص: ووفد عروة مع الحجاج فقال يوماً: قال أبو بكر، فقال الحجاج: لا أم لك أتكني منافقاً عند أمير المؤمنين، فقال له: ألي تقول لا أم لك، وأنا ابن عجائز الجنة، أمي أسماء بنت أبي بكر الصديق، وجدتي صفية بنت عبد المطلب، وخالتي عائشة وعمتي خديجة بنت خويلد؟! وقال الواقدي في بعض روايته: ركبت أسماء دابتها ووقفت على ابنها مصلوباً، فقالت: لأثنين عليك بعلمي لقد قتلوك مسلماً محرماً ظمآن الهواجر، مصلياً في ليلك ونهارك، ودعت له طويلاً وما تقطر من عينها قطرة، ثم انصرفت وهي تقول: من قتل على باطل، فلقد قتلت على حق، وأنت منيع بسيفك فلا تبعد.

وفي بعض رواية الواقدي: أن الحجاج وقف على أسماء فقال: كيف رأيت نصر الله الحق ؟ قالت: إنه ربما أديل الباطل على الحق ليجعل الله ذلك فتنةً للقوم الظالمين، قال: إن ابنك ألحد في البيت، وقال الله: "وَمَنْ يُرَدْ فِيهِ بالحاد بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ" وقد أذاقه الله ذلك العذاب، قالت: كذبت لقد كان أول مولود في الإسلام بالمدينة، فسر به المسلمون، وكبروا يوم ولد، ولقد سررت أنت وأصحابك بقتله، فلمن فرح به يومئذ خير منك ومن أصحابك، ولقد كان صواماً قواماً تعوذ بالبيت فما أعذتموه وانتهكتم حرمته، يا

بن أم الحجاج إن الله للظالمين بمرصاد، وبلغ عبد الملك ما جرى بينه وبين أسماء فكتب إليه: ما لك ولابنة الرجل الصالح.

وقال الواقدي: شخص عروة مستأمناً إلى عبد الملك، وكان له صديقاً ومجالساً في مسجد المدينة أيام تنسك عبد الملك، فآمنه عبد الملك وطلبه الحجاج منه، فأراد أن يبعث به إليه، ثم تذمم فتركه وأرسل مع رسولاً إلى الحجاج في ترك التعرض له، وأن لا يراجعه فيه بكتاب وأن يترل عبد الله من خشبته، ويخلي بين أهله وبين دفنه، فأنزل وصلى عليه عروة.

قال الواقدي: وقد سمعت أنه أنزل وعروة غائب، فصلى عليه غيره، والأول أثبت.

قال الواقدي: وأما أبو الزناد فكان يقول: حال الحجاج بينهم وبين الصلاة عليه وقال: إنما أمر أمير المؤمنين بإنزاله ودفنه.

وحدثني هشام بن عمار قال: حدثت عن الزبيري عن الزهري أنه قال: كان من أعظم ما أنكر على عبد الله بن الزبير تركه ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم في خطبته، وقوله حين كلم في ذلك: إن له أهيل سوء إذا ذكر استطالوا ومدوا أعناقهم لذكره.

وقال الواقدي: قتل مع عبد الله بن الزبير عروة بن عبد الله بن الزبير، ومعاوية بن المنذر بن الزبير، وحمزة بن الزبير، مات من جراح أصابته، وعبد الله بن صفوان بن أمية الجمحي، وعبد الله بن مطيع العدوي، مات من جراح بعد المعركة، وصلى الحجاج عليه، فقيل أتصلي عليه وأنت قتلته ؟ فقال: أتدرون ما قلت، إنما قلت: اللهم إنه كان يعادي أولياءك ويوالي أعداءك فأصله النار، وعمارة بن عمرو بن حزم الأنصاري، وبعث الحجاج برؤوس: عبد الله بن الزبير، وعبد الله بن صفوان، وعمارة بن عمرو بن حزم إلى المدينة، فنصبت بها، ثم أنفذت إلى عبد الملك، فلما رأى رأس ابن صفوان قال: ألم يكن أعرج حائنا ؟.

وقال جابر بن عبد الله الأنصاري لعبد الله بن عمير بعد مقتل ابن الزبير: كيف أنت يا أبا عاصم؟ فقال: بخير من رجل قتل إمامه وظهر عليه عدوه، فقال جابر: اللهم "لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين".

المدائني في اسناده، قال: نظر ثابت بن عبد الله بن الزبير إلى أهل الشام فشتمهم، فقال له سعيد بن خالد بن عمرو بن عثمان بن عفان: إنما تبغضهم لأنهم قتلوا أباك، قال: صدقت لقد قتلوا أبي، ولكن المهاجرين والأنصار قتلوا أباك.

وقال الواقدي: لما فرغ الحجاج من أمر ابن الزبير، كنس المسجد الحرام من الحجارة والدم، وأتته ولاية مكة والمدينة، وكان عبد الملك حين بعثه لقتال عبد الله بن الزبير عقد له على مكة، ولكنه أحب تجديد

ولايته إياها، فشخص الحجاج إلى المدينة واستخلف على مكة عبد الرحمن بن نافع بن عبد الحارث الخزاعي، فلما قدم المدينة أقام بها شهراً أو شهرين فأساء إلى أهلها واستخف بهم، وقال: أنتم قتلة أمير المؤمنين عثمان، وختم يد جابر بن عبد الله برصاص وأيدي قوم آخرين كما يفعل بالذمة، ثم عاد فبنى الكعبة على ما هي عليه اليوم وذلك لورود كتاب من عبد الملك عليه في ذلك، وغير بناءها الذي بناها عليه عبد الله بن الزبير بعد حصاره الأول، فكان عبد الملك يقول بعد ذلك: لوددت أني قلدت ابن الزبير من أمر الكعبة ما تقلد، وكان المتولي لبنائها والنفقة عليها عبد الرحمن بن نافع، ويقال: إنه كتب إلى عبد الرحمن من المدينة أن يأخذ في بنائها، فابتدأه ثم قدم الحجاج مكة فاستتم بحضرته.

وقال الواقدي: استخلف نافع بن علقمة الكناني، خال مروان، ولما رجع إلى مكة استخلف على المدينة عبد الله بن قيس بن مخرمة بن المطلب بن عبد مناف، وكان إليه القضاء.

وروي: أن الحجاج لما فرغ من أمر ابن الزبير وبناء الكعبة شخص إلى عبد الملك واستخلف على مكة عبد الرحمن بن نافع، وعلى المدينة عبد الله بن قيس، وأشخص معه محمد ابن الحنفية بأمر عبد الملك، فأمره أن لا يكون له عليه أمر ورده مكرماً، وسأله عمن استخلف بالمدينة فقال: عبد الله بن قيس، فقال عبد الملك: استخلفته من أحمق أهل بيت من قريش، ثم رجع الحجاج بعد ذلك فلم يزل والياً على الحجاز حتى أتته ولايته على العراق حين مات بشر بن مروان بالبصرة.

وقال قوم: كان الحجاج قد وفد إلى عبد الملك، فأتاه نعي أخيه وهو عنده، فولاه العراق، فشخص من الشام إلى الكوفة، وذلك في سنة خمس وسبعين، وولى عبد الملك مكة عبد الرحمن بن نافع أقره عليها، وولى المدينة يحيى بن الحكم بن أبي العاص، ثم بعده أبان بن عثمان بن عفان.

وحدثني محمد بن سعد عن الواقدي في اسناده قال: لما خرج الحجاج من المدينة قال: الحمد لله الذي أخرجني من أم نتن، أهلها أخبث أهل، أغشه لأمير المؤمنين وأحسده له على نعمته، والله لولا ما كان يأتيني من كتب أمير المؤمنين فيهم لجعلتها مثل جوف الحمار أعواد يعوذون بها، ورمة قد بليت، يقولون منبر رسول الله وقبر رسول الله، فبلغ جابر بن عبد الله قوله فقال: إن أمامه ما يسوءه، قد قال فرعون ما قال، ثم أخذه الله بعد أن أنظره.

وقال المدائني: لما قتل الحجاج ابن الزبير دخل المسجد فصلى ركعتين، ثم وقف على ابن الزبير فرآه صريعاً فأمر به فصلب منكساً، قال: وكان الحجاج رأى كأنه أخذ ابن الزبير فسلخه، ويقال: بل رأى أنه نكحه، فذلك كان سبب تولية عبد الملك الحجاج حربه.

قال: وقال ابن الزبير يوم قتل انا ابن اثنتين وسبعين سنة وأشهر، ثم قاتل وهو يقول:

أنا ابن أنصار النبيّ أحمد | عبد الإله والرسول المهتدي
أضرب منهم كلّ وغدٍ قعدد

قال: وقاتل عروة يوماً فقال:

أبى الحواريّون إلاّ مجدا | من يقتل اليوم يلاق رشدا

وقال ابن الزبير:

فما ميتةٌ إن متّها غير عاجزٍ | بعارٍ إذا ما غالت النّفس غولها
أرى الموت يغشاني عيانا وإنّما | رأيت منايا الناس يشقى ذليلها

قالوا: وأخر الحجاج الصلاة يوماً فقال ابن عمر: إن الشمس لا تنتظرك. ووطىء ابن عمر زج رمح، فكان ذلك سبب موته فقال الحجاج: من بك ؟ قال: أنت قتلتني وأصحابك.

وقال النهشلي

نحن وفينا مقتل الإمام | بابن الزبير وبني هشام
حتى جعلناهم مع الحمام | بين مصلّى الناس والمقام

المدائني عن عامر بن حفص وغيره، قالوا: قاتل عطاء بن أبي رباح مع ابن الزبير.

قالوا: وقال عروة لعبد الله: قد دعاك هؤلاء القوم إلى الأمان وخيروك نزول أي بلد شئت من البلدان، وخيروك من الولاية ما أحببت، وقد صالح الحسن فكن مثله، قال: أفلا أكون مثل الحسين مات كريما.

قالوا: وكتب ابن الزبير بعد مقتل مصعب إلى أهل العراق يدعوهم إلى طاعته وبعث بكتابه إليهم مع رجل من الأنصار، فرفع ذلك إلى بشر بن مروان فأخذ الأنصاري فقتله، وكان هذا الأنصاري نازلاً على نعيم بن القعقاع بن معبد بن زرارة بن عدس وكان نعيم يذم بشرا وينسبه إلى الفسق والأفن، ويقرظ ابن الزبير، ويدعو إلى طاعته سراً؛ ويقال: إنه كان مع الأنصاري كتاب من ابن الزبير إليه في معاونته على أمره، فسعى بالأنصاري وبنعيم إلى بشر بن مروان حوشب بن يزيد بن الحارث بن يزيد بن رويم الشيباني فقتله وقتل الأنصاري.

وقال بعض الرواة: سعى بهما يزيد بن الحارث نفسه، وذلك غلط، لأن يزيد قتل بالري في أيام مصعب، قتله الزبير بن علي الحارثي.

وبعث بشر بالكتاب الذي كتبه ابن الزبير إلى عبد الملك، فكتب إلى الحجاج، والحجاج بالطائف أن سر

إلى ابن الزبير فانزل معه وأشغله، فقدم مكة وحصره ورماه بالمنجنيق.

وقال جواس بن القعطل الكلبي:

إنّ الخلافة يا أميّة لم تكن أبداً تدرّ لغيركم ثدياها

فخذوا خلافتكم بأمرٍ حازمٍ لا يحلبنّ الملحدون صراها

سيروا إلى البلد الحرام وشمّروا لا تصلحوا وسواكم مولاها

لا تتركنّ منافقين ببلدةٍ إلاّ أملتم بالسيوف طلاها

قالوا: ووجد الحجاج في بيت مال ابن الزبير عشرة آلاف ألف درهم فأخذها.

وقال عبد الله بن زهير بن أبي أمية لابن الزبير: إن الناس قد خذلوك فإن أحببت أن نأخذ لك أماناً أخذناه ؟ فقال: خذ لنفسك أمانا إن أردت، فأما أنا فلا حاجة لي في أمانهم، وقال له الحارث بن عبد الله بن أبي ربيعة، وهو القباع: أما والله لو قبلت أمان القوم كان خيراً لك مما أنت فيه، فقال: يا ابن آكلة حمام مكة ألي تقول هذا، ويحك إن موتاً في عز خير من حياة في ذل، وطلب عبد الله بن عمرو بن عثمان الأمان من الحجاج فأومن، وأتى حمزة بن عبد الله وخبيب بن عبد الله الحجاج، فقال عبد الله لابنه الزبير: إن أردت أن تذهب فاذهب فلأن تحيوا أحب إلي من أن تقتلوا، فقال: لبئس الولد أنا لك إن لم أواسك بنفسي حتى يصيبني ما أصابك، فقتل مع أبيه.

المدائني، قال: قاتل غلام لابن الزبير، أو مولى له، وهو يقول:

العبد يحمي ربّه ويحتمي

وقتل ابن صفوان، وحمزة بن الزبير، وابناه عروة، والزبير، وأم عطاء بن أبي رباح من ضربة ضربتها.

المدائني، قال: لما بلغ عبد الملك مقتل ابن الزبير سجد ودعا بمقص فأخذ من ناصيته، وأخذ من نواصي صغار أولاده، وأخذ من ناصية روح بن زنباع، وقال أنت منا.

المدائني عن أبي طالب بن ميمون عن ابن أبي عتيق، قال: كان ابن الزبير مضطجعاً في المسجد وولده وأهل مكة يخرجون إلى الحجاج، وأنا عند رجله فقال: ما هذه الأصوات، أين يذهبون ؟ قلت: إلى الحجاج، قال: فما يمنعهم أن يكفوا أصواتهم فقد منعونا النوم، فقلت في نفسي: أتراه جاداً، ثم سمعت غطيطه؛ قال: ووقف الحجاج على جثة ابن الزبير ومعه نافع بن جبير بن مطعم، فقيل لنافع: ما قال لك ؟ قال: أريد صلبه، فنهيته.

وقال أبو دهبل

أتاركةٌ عليا قريشٍ سراتها وساداتها عند المقام تذبّح

وهم عوّذٌ باللّه جيران بيته به معصمون أن يباحوا ويفضحوا

المدائني، قال: كتب عبد الملك إلى ابن عمر أن بايع الحجاج فإن فيك خصالاً لا تصلح لك معها الخلافة، منها: البخل، والعي، فقال ابن عمر: "سَمِعْنَا وأَطَعْنَا غفرانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِير" يعيرني ابن مروان بالبخل والعي، فوالله لو وليت فأعطيت الناس حقوقهم ما كان ذلك من مالي، وما من قرأ كتاب الله وترك القول فيما لا يعنيه بعيي.

وقال جرير بن عطية في ابن الزبير

دعوت الملحدين أبا خبيبٍ جماحاً هل شفيت من الجماح

وقال الراعي:

ما إن أتيت أبا خبيبٍ راغباً أبداً أريد لبيعتي تحويلا

ولا أتيت نجيدة بن عويمرٍ أبغي الهدى فيزيدني تضليلاً

وقال سليمان بن سلام الحنفي:

إنّا دعونا سميعاً فاستجاب لنا وما به حين يدعو العبد من صمم

أراحنا من بني العوّام إذ قسطوا واستخلف اللّه عدلاً من بني الحكمِ

مجرّب الوقع لا تنبو مضاربه يمسي العدوّ له لحماً على وضمٍ

بابن الزبير جنونٌ لا شفاء له إلاّ سريجيةٌ تشفي من اللممِ

رام الأمور فأعيته مطالعها حتّى أحلّ بركن البيت والحرمِ

وغرّنا بكتاب اللّه يدرسه ولم يدع بطنه تمراً لمجترمِ

وغال أعطية المصرين يأكلها ولم يخف نقمة الرحمن ذي النقّمِ

في أبيات.

المدائني، قال: قال ابن عمر: أهل الحجاز أسرع الناس إلى فتنة، وأهل الشام أطوع الناس لمخلوق في معصية الخالق، وأهل العراق أسأل الناس عن صغيرة، وأركبهم للكبيرة، يسألون عن قتل جرادة وقد قتلوا ابن بنت نبيهم.

وتزوج عبد الله بن الزبير أم الحسن بنت الحسن بن علي وعائشة بنت عثمان بن عفان، فولدت بكرا؛ وتزوج قهطم بنت منظور فولدت حمزة، وخبيباً، والزبير، ومنذرا، وثابتا، وعبادا؛ ثم خلف على أختها أم

هاشم؛ وتزوج ريطة بنت عبد الرحمن بن الحارث بن هشام، فولدت له عبد الرحمن؛ وتزوج حنتمة بنت عبد الرحمن بن الحارث بن هشام، فولدت له موسى، وعامرا. وسودت أم الحسن وجواريها على عبد الله حين قتل.

أمر الخوارج

فيما بين موت يزيد بن معاوية وولاية عبد الملك بن مروان

الأزارقة ومقتل نافع

قالوا: كان نافع بن الأزرق من بني حنيفة، ويقال: إنه كان مقيما معهم فنسب إليهم، وكان يكنى أبا راشد، وكان مع نجدة بن عامر ففارقه.

حدثني حفص بن عمر عن الهيثم بن عدي قال: كان نافع مع نجدة بن عامر، فأحدث المحنة، وقتل في السر، فعابت ذلك الخوارج وقالوا: أحدثت ما لم يكن عليه السلف من أهل النهروان وأهل القبلة، فقال: هذه حجة قامت علي لم تقم عليهم، ففارقه الخوارج، فسموا أهل الوقوف، لأنهم وقفوا عند الشبهة.

وكان ابن الأزرق ممن حبس من الخوارج، فدل ابن زياد علي رجل اهم برأي الخوارج فحبسه، فقال له نافع: لم حبسك ابن زياد ؟ قال حبسني في ظنة الحرورية لعنهم الله ولعن من كان على دينهم، فقال له نافع أنت والله ظالم مظلوم و لم يزل نافع محبوسا حتى مات يزيد بن معاوية وهرب ابن زياد.

وقال أبو الحسن علي بن محمد المدائني: بايع أهل البصرة ابن زياد بعد موت يزيد، وفي السجن أربعمائة من الخوارج، فكلم فيهم ابن زياد فأخرجهم فأفسدوا الناس حتى نكثوا بيعته، فتحول عبيد الله بن زياد إلى الأزد، وأقبل الخوارج يأتون المربد كل يوم فيقفون به فيعيبون الظلم ويدعون إلي قتال السلطان والجبابرة وليس لهم رأس منهم، حتى قتل مسعود الأزدي، وحاربت الأزد وبكر تميما، ثم أمروا عليهم نافع بن الأزرق، وأمر الناس يومئذ بالبصرة إلي عبد الله بن الحارث بن نوفل بن الحارث بن عبد المطلب، الذي يعرف ببة، وخرجوا إلى الأهواز في آخر شوال سنة أربع وستين، فتوافوا بالأهواز وهم ثلاثمائة وخمسون فيهم نجدة بن عامر بن عبد الله بن سيار بن المطرح بن ربيعة من بني حنيفة وبنو الماحوز التميميون ثم السليطيون فأخرجوا عمال الأهواز، وأقاموا شهرا لا يهيجون أحدا، وليس بينهم اختلاف، ثم إن مولى لبني هاشم كلمهم فقال: إن الإستعراض وقتل الأطفال لنا حلال، فمال نافع بن الأزرق إلى مقالته فقال: "اقتلوا المشركين حيث وجدتموهم" ورأى قتل الأطفال وقال بالاستعراض وتأول قول الله

تعالى: "إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا" وضيق التقية لقول الله عز وجل "فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس" وقوله "يجاهدون في سبيل اللّه ولا يخافون لومة لائم" وبريء من القعد واستحل قتلهم تأولا لقول الله جل وعز: "وجاء المعذرون من الأعراب ليؤذن لهم وقعد الذين كانوا اللّه ورسوله". وامتحن المهاجر وقال لا يحل لنا مناكحة قومنا ولا موارثتهم ولا أكل ذبائحهم، والدار دار كفر.

فخالف نجدة نافعا، فقال نجدة: البقية واسعة، والمقام في دار الكفر حلال، وليس لنا أن نمتحن من جاء مقرا بالإيمان، فبايع نجدة قوم فصار نجدة إلي اليمامة، وبريء وأصحابه من نافع بن الأزرق ونزل بإباض، وكان أبو طالوت سالم بن مطر بالخضارم وقد بايعه قوم فخلعوه وبايعوا نجدة.

وأبو طالوت في قول ابن الكلبي مطر بن عقبة بن زيد بن جهينة بن الفند، وهو سهل بن شيبان. قال: ويقال سالم بن مطر، وقد قال غيره: هو سالم بن مطر مولى بني زمان.

وقال الهيثم: هو حنفي.

وكتب نجدة إلي نافع كتابا يدعوه فيه إلي معاودة ما كان من قوله الأول وترك ما أحدث وقال: إنه قد قعد على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم قوم فلم يكفروا، وأنزل الله جل وعز: "لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر والمجاهدون في سبيل اللّه" إلى قوله "وكُلاً وعد اللّه الحسنى" فكتب نافع إلى نجدة كتابا يقول فيه إن المؤمنين من أهل مكة كانوا يومئذ مقهورين لا يستطيعون أن يعلنوا دينهم، وقد أظهر الله الدين، وقمع النفاق، وقد قعد قوم على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فسماهم كفارا فقال جل وعز: "وجاء المعذرون من الأعراب ليؤذن لهم وقعد الذين كذبوا اللّه ورسوله" وقال حين شكوا الضعف فقالوا: كنا مستضعفين في الأرض: "ألم تكن أرض اللّه واسعة فتهاجروا فيها".

وكتب نافع إلى عبد الله بن الزبير يدعوه إلى أمره ويقول له: إنك تتولى عثمان، وكان أبوك وعلي وطلحة أشد الناس عليه حتى قتل، وأنت تتولى أباك وطلحة فكيف تجتمع ولاية قاتل ومقتول في دين الله، وقد بايع أبوك وطلحة عليا، ثم نكثا بيعته وحارباه فاتق الله الذي إليه المصير ولا تتول الظالمين.

وكتب نافع إلى من بالبصرة من الحرورية يدعوهم إلي الجهاد، ويرغبهم فيه، ويحذرهم الدنيا وغرورها، وينهاهم عن القعود، فلما أتاهم الكتاب قال أبو بيهس هيصم بن جابر الضبعي بقوله: في أن الدار دار كفر والإستعراض مباح وإن أصيب الأطفال فلا حرج على من أصابهم.

وقالت الصفوية وهم أصحاب عبيد الله بن قبيص، ويقال إنهم أصحاب عبيد الله بن صفار التميمي، وإنما سموا صفرية لصفرة وجوههم: لا يحل قتل الأطفال تعمدا، ولا الإستعراض، وقال نصر بن عاصم الليثي:

فارقت نجدة والذين تزرقوا — وابن الزبير وشعية الكذاب

والصفر الآذان حين تخيروا — دينا بلا علم ولا بكتاب

وقال عبد الله بن إباض: القوم كفار بالنعم، وليسوا بمشركين، فقال له ابن بيهس أما نافع فغلا في الدين فكفر بغلوه، وأما أنت فقصرت فكفرت بتقصيرك، إن آخر هذا الأمر كأوله وعدونا كعدو رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد تحل لنا التقية ومناكحة قومنا وموراثتهم لما تمسكوا به من الدعوة وكفروا بما أنزل من الأعمال.

قال: فأقا نافع بالأهواز، ونجدة باليمامة، وكتب ابن إباض والصفرية إلى نافع ينكرون عليه شهادته على القعد بالكفر، واستحلاله المال قبل المحاربة، وقتل الأطفال، وما كان عنده من أمانة، وقالوا: إنما أحل لرسول الله صلى الله عليه وسلم دماء عدوه وأموالهم إذا ناصبوا القتال، فأما على وجه الأمانة وقبل الحرب فلا، قد قتل رسول صلى الله عليه وسلم كعب بن الأشرف في داره فلم يغنم ماله والأمانة مؤداة إلى البر والفاجر.

وحدثني أحمد بن إبراهيم الدورقي قال: حدثنا وهب بن جرير عن أبيه ان أصحاب نافع بن الأزرق ونافعا خرجوا بعد مقتل مسعود بن عمرو الأزدي إلى الأهواز فغلبوا عليها، فبعث إليهم عبيد الله بن عبيد الله بن معمر، وكان خليفة أخيه عمر بن عبيد الله بن معمر، أخاه عثمان بن عبيد الله في جيش، فلقيهم بدولاب، وهي قرية دون سوق الأهواز، فقتل عثمان، وهزم جيشه وقتل منهم ناس كثير.

وحدثني أبو خيثمة وأحمد بن إبراهيم قالا: حدثنا وهب بن جرير عن محمد بن أبي عيينة عن سبرة بن نخف ان ابن الأزرق خرج في أربعين وصار إلى دولاب، فبعث إليهم عبيد الله أخاه عثمان في سبعة آلاف من أهل البصرة فهزموا جنده وقتلوه فقال ابن سهم التميمي.

فلو شهدتنا يوم دولاب أبصرت — طعان امريء في الحرب غير سؤوم

غداة طفت في الماء بك بن وائل — وعجنا صدور الخيل نحو تميم

وحدثني أبو خيثمة وأحمد قالا: حدثنا وهب عن أبيه إن أهل البصرة بعثوا إليهم جيشا بعده عليهم حارثة بن بدر الغداني فلما نظر إليهم عرف أنه لا طاقة له بهم فقال لأصحابه:

كرنبوا ودولبوا — وحيث شئتم فأذهبوا

وانتدب في الجيش القراء، والفقهاء والأغنياء، والفقراء، وأنفقوا أموالهم، واستعملوا عليهم مسلم بن عبيس الكريزي.

وقال المدائني: لما بلغ أهل البصرة قول نافع بن الأزرق، وما دان به من القتل والإستعراض فزعوا إلى الأحنف بن قيس فقالوا: ليس بيننا وبين هذا العدو إلا ثلاث ليال، وقد جرد السيف، وعاث في الأرض، فقال الأحنف: حكمهم في مصركم كحكمهم في سوادكم، فاستعدوا لجهادهم وحض الأحنف الناس فتسارعوا إليه، واجتمع عشرة آلاف فكلم وجوه أهل البصرة عبد الله بن الحارث ببة، فأمر عليهم مسلم بن عبيس بن كريز بن ربيعة بن حبيب بن عبد شمس فخرجوا ف جمادي الآخرة سنة خمس وستين، فلما كانوا بجسر البصرة قال لهم مسلم: أيها الناس إنا لسنا نخرج بالذهب ولا بالفضة، إنما نسير إلى قوم إن ظهرنا عليهم كانت غنائمهم أطراف الأسنة، وإنما يقدمون على الموت ويلقون المنايا، فمن أحب المضي فليمض ومن كرهه فلينصرف من قريب، فتفرقت عنه جماعة، وخرج فيمن بقي معه، فلقي نافعاً
بالأهواز، ونافع في ستمائة، فاقتتلوا فقتل مسلم بن عبيس، وقد كان قال لأصحابه: إن قتلت فأميركم ربيع بن عمرو الغداني، وهو الأجذم جذمت يده بكابل مع عبد الرحمن بن سمرة، فقاتل نافعا وأصحابه بدولاب فكانت بينهم قتلى، وقتل رجال من بني تميم قدموا على الخوارج، وقتل رجال من بني سدوس فزمرهم رجل من بني سدوس وقال: يا بني سدوس ما بال هؤلاء أجد في باطلهم منكم في حقكم، أراهم سراعاً إلى النار وأنتم بطاء إلى الجنة، وحمل وكسر الناس، فقتل نافع بن الأزرق وقام بأمر الخوارج حين قتل ابن الأزرق عبيد الله بن بشير بن الماحوز السليطي، فقاتلهم ربيع بن عمرو عشرين يوما، ثم قتل وأخذ الراية الحجاج بن ناب بعد أن طلب إليه في أخذها فلم يفعل، وقال: إنها مشؤومة، فقاتل الحجاج بن ناب حتى قتل، وأخذ الراية بعده حارثة بن بدر الغداني.
وقال هشام بن محمد الكلبي: قول من قال حارثة بن بدر غلط، إنما هو حارثة بن بدر بن ربيعة بن بدر بن سيف بن جارية بن سليط بن الحارث بن يربوع، وهو الذي قال:

كرنبوا ودولبوا … وحيث شئتم فأذهبوا

وجاءت خيل المحكمة من ناحية اليمامة، تكون أربعين، ويقال مائتين، فمشي ابن بدر برايته القهقرى، وعدل نحو دجيل فغرق يومئذ دغفل بن حنظلة أحد بني شيبان، وصار ابن بدر بناحية نهر تيري، و لم يتبعه الخوارج لما بهم من الجراح، وأقام عبيد الله بن بشير بن الماحوز بالأهواز ثلاثة أشهر، فقال صالح بن عبد الله العبشمي:

لعمرك إني في الحياة لزاهد … وفي العيش ما لم ألق أم حكيم
لعمرك إني يوم ألطم وجهها … لمستنرع في الغي غير حليم

رأت فتية باعوا من الله عهدهم بجنات عدن عنده ونعيم

فلو شهدتني يوم دولاب أبصرت طعان امرىءٍ في الحرب غير مليم

غداة طفت في الماء بكر بن وائل وألفافها من يحمدٍ وسليم

ومال الحجازيون نحو بلادهم وعجنا صدور الخيل نحو تميم

وكان بعبد القيس أول حدها وولّت شيوخ الأزد ثم تعوم

فلم أر يوما كان أكثر مقعصا يمج دما من كاظم وكليم

قالوا: وكان على الأزد يوم ابن عبيس قبيصة بن أبي صفرة، جد هزار مرد، وقال بعض الشعراء:

يرى من جاء ينظر في دجيل شيوخ الأزد طافية لحاها

وقال الشاعر يرثي مسلم بن عبيس والحجاج بن ناب الحميري:

ألا يا عين ويحك أسعديني بدمعك ليس ذا حين الجمود

على النفر الألى قتلوا جميعا بدولاب علي دين المجيد

هم صبروا على حر المنايا ولما يرهبوا جمع الجنود

ثوى ابن عبيس الماضي حميداً إله الناس صلّ على الشهيد

إذا نسبت قريش كان فرعا قديم العز في البيت المشيد

وما ألفوا ربيعا ثمّ نكسا ولا رعديدة عند الورود

غلام من غدانة في ذراها بحيث الناس في الحسب التليد

وحجاج بن ناب غادرته رماح القوم ملقى بالصعيد

غلام حميري لم يخنه قراف الأمهات ولا الجدود

وقال بعض الخوارج في مقتل نافع بن الأزرق:

شمت ابن بدر والحوادث جمة والجائرون بنافع بن الأزرق

قد مات غير مداهن في دينه ومتى يمرّ بذكر نار يصعق

والموت حتم لا محالة واقع من لا يصحبه نهارا يطرق

فلئن أمير المؤمنين أصابه ريب المنون فمن يصبه يعلق

وقالت عمرة أم عمران بن الحارث الراسبي وكان عمران بن الحارث الراسبي مع ابن الأزرق فقتل:

اللّه أيد عمراناً وأسعده	وكان عمران يدعو اللّه في السحر
يدعوه جهرا وإسرارا ليرزقه	شهادة بيدي ملحادة غدر
ولى صحابته التسعون إذ دهموا	وشد عمران كالضرغامة الهصر
أعني ابن عمرة إذ لاقى منيته	يوم ابن ناب يحامي عورة الدبر

في أبيات قالوا: وقتل مع ابن الأزرق عوف بن أحمر الضبعي فبكاه الحارث بن كعب الشني فقال:

أجيهان قد أبلى عظامي وشفها	وأسهر ليلي ذكر عون بن أحمر
فتى كان لا يخشى سوى اللّه وحده	ويطمع في معروفه كل معتر
يجاهد في اللّه ابن أحمر صادقا	إذا ما ارتضى بالجور كل مقصّر

في أبيات: وكان عوف ممن شهد النهر فاعتزل، ثم شهد النخيلة فنجا، فقتل مع نافع، وكان الحارث بن كعب الشني مع نافع فنجا، ثم أخذه الحجاج بن يوسف بعد فقطع يديه ورجليه وصلبه، فطرق حرسه الخوارج ليلا فاستنزلوه، ولم يعرضوا للحرس حتى مضوا به فدفنوه.

حدثني أحمد بن إبراهيم الدورقي قال: حدثنا وهب بن جرير عن محمد ابن أبي عيينة قال: حدثني معاوية بن قرة قال: خرجنا مع ابن عبيس ونحن نحو من عشرين ألفاً، فقام ابن عبيس خطيباً، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أيها الناس إنا إنما خرجنا حسبة، فمن كان منكم على مثل رأينا فلينهض معنا، ومن لايك على مثل رأينا فليرجع عنا، فحصلنا في ألفين فسرنا حتى لقيناهم بدستوا فاقتتلنا، فقتل منا خمسة أمراء، وكانت الحرورية خمسمائة، فلما أمسينا بقيت شرذمة نحو من ستين، وقتل ابن الأزرق وابن عبيس، قال: فقمنا وقاموا ينظرون إلينا وننظر إليهم ما منا رجل يبسط يده للقتال من اللغوب، فقال الناس: أمسكوا عنهم حتى يسود عليهم الليل، وقال بعضهم: لا نقتلهم على غرة، فاستقام رأيهم على تركهم حتى يصبحوا.

قال: وطرقهم مدد من اليمامة، وكان نافع يبقر النساء، ويقتل الصبيان.

وقال الهيثم بن عدي عن ابن عياش والمجالد ويونس بن أبي إسحق قالوا: قال الشعبي: خاف أهل البصرة نافع بن الأزرق وأصحابه حين جاؤوهم، فقربوا الإبل ليرتحلوا عنها، والمتولي لأمر البصرة إذ ذاك عبد الله بن الحارث ببة، وذلك عند هرب ابن زياد، وكان أهل البصرة كتبوا إلى عبد الله بن الزبير بارتضائهم إياه، فأقره سنة ثم عزله، وكان يكنى أبا محمد، فعقد ببة لمسلم بن عبيس، ووجه معه القراء والمستبصرين في قتال الحرورية، فأتوا دولاب، فاقتتلوا فقتل مسلم وقتل نافع أيضاً، فرأس أهل البصرة عليهم ربيعا

الأجذم، أحد بني سليط ورأست الأزارقة عليهم عبيد الله بن الماحوز التميمي، فقتل الأجذم، فرأسوا عليهم الحجاج بن ناب الحميري حليف قريش فقتلا جميعا، فرأس أهل البصرة عليهم حارثة بن بدر، ورأست الحرورية الزبير بن الماحوز فقال حارثة بن بدر: كرنبوا ودولبوا يا أهل البصرة وحيث شئتم فاذهبوا.

فلست لكم بصاحب، وقتل من أهل البصرة بشر كثيرا فقال عبيد بن هلال:

لعمرك إني في الحياة لزاهد

الشعر الذي قد كتبناه وقال المدائني: الأزارقة لا يكفرون من أهل الكبائر في دار هجرقمم إلا القاتل، فيقولون: القاتل قصد قطع الحجة لأن المسلم حجة.

وقال المدائني: حدث أبو عمران الجوني واسمه عبد الملك بن حبيب عن أبي الجلد جيلان بن فروة الجوني قال: أتاني نافع بن الأزرق قبل أن يخرج، فقال: أريد الخروج، فقلت: لا تفعل فقال: قد طال مقامنا بين هؤلاء الذين أماتوا السنة، وأحيوا البدعة، قال: فقلت له: أما إذ أبيت إلا الخروج، فإني رويت أن لجهنم سبعة أبواب باب منها للحرورية فاخرج إن شئت أو دع، فخرج إلى الأهواز.

المدائني عن عامر بن عبد الملك قال: جاء نافع بن الأزرق إلى مالك بن مسمع وعليه سيف عريض قصير، فقام إليه ابن مسمع فأخذ بحمائل سيفه فقال له: يا مالك خل عن سيف ابن عمك، فقال مالك: يا نافع ألا تعيننا على أمرنا هذا ؟ فقال: إني لا أرى القتال معكم.

وروي عن الجارود بن أبي سبرة قال: خرج نافع إلى الأهواز فأقام وأصحابه سبعة أشهر لا يستعرضون الناس وسيرقمم حسنة، ثم استعرضوا وبسطوا، فقتل نافع في جمادي الآخرة سنة خمس وستين، فقام بأمر الخوراج عبيد الله بن بشير بن الماحوز، وعلى أهل البصرة ربيع الأجذم.

المدائني عن هشام بن قحذم قال: خرج قوم من الأزارقة بموقوع، فقيل لببة: إن بموقوع خوارج، فقال: دعونا نمسي ونرى رأينا، فأرسل إليهم خيلا ليلا فالتقطوا.

قال: ومات الأزرق أبو نافع، وكان رجلا سنياً صالحاً، فقدم نافع من سفر له وقد مات أبوه فلم يصل عليه وقال: دونكم صاحبكم، فلما بلغ ابن زيا ذلك أخذه فحبسه، فقال لرجل محبوس معه: لأي شيء حبسك ابن زياد ؟ فقال أخذني بظنة الخوارج لعنهم الله، قال نافع: هذا الظالم المظلوم يحبسه ابن زياد ويشتم الخوارج.

قال: ولقي نافع امرأة على حمار لها، وذلك في أيام الطاعون فقال لها: أين تريدين ؟ قالت: أفر من الطاعون قال: ويلك أتفرين من الله على حمار ؟ !.

وقال سلامة الباهلي: قتلت نافعا فطالبتني بثأره امرأة كانت تدعوني إلى البراز ونحن نقاتل عبيد الله بن الماحوز.

أمر عثمان بن عبيد الله بن معمر في قتال ابن بشير بن الماحوز

قالوا: أقام عبيد الله بن بشير بن الماحوز بالإهواز بعد مقتل مسلم وأصحابه ثلاثة أشهر، وهاب الناس بالخوارج وكره بية القتال، فلزم منزله فكتب أهل البصرة إلى ابن الزبير في ذلك، فكتب إلى أنس بن مالك في تولي الصلاة، فصلي أربعين يوما، ثم ولى ابن الزبير البصرة عمر بن عبيد الله بن معمر، وكتب إليه بعهده عليها وكان يريد العمرة، فقلد خلافته عبيد الله بن عبيد الله أخاه، وندب عمر بن عبيد الله لقتال الأزارقة وهم بالأهواز، أخاه عثمان، ويقال إن عبيد الله ندبه وبلغ الخوارج ذلك فأقبلوا من الأهواز يريدون البصرة، فقال حارثة بن بدر: ما عذرنا عند أهل مصرنا وصل إليهم الخوارج ونحن دونهم إليهم، فأقبل من نهر تيرى، وكان بها، فعبر دجيلا، وأقبل الخوارج فقاتلهم حتى رجعوا إلى دولاب، وقدم عثمان بن عبيد الله بن معمر في عشرة آلاف من أهل البصرة، فسار ومعه ابن بدر إلى ابن بشير بن الماحوز. فلما التقى العسكران قال عثمان لحارثة بن بدر: أما الخوارج إلا من أتاني ؟ فقال حارثة: حسبك هؤلاء، فقال: لا جرم لا أطعم طعاما حتى أناجزهم، فقال حارثة: أذكرك الله إن هؤلاء لا يقاتلون بالتعسف، فاستبق نفسك وجندك فقال: أبيتم يا أهل العراق إلا جبنا وما هؤلاء الأكلب، فقال حارثة: أنا أعلم بهؤلاء منك، فقال عثمان: أنت بغير الحرب أعلم، فغضب حارثة واعتزل، وناهضهم عثمان بعد الظهر فاقتتلوا حتى غابت الشمس، وقد قتل عثمان قتله ابن برز مولى عبد القيس، ويقال إنهم: تحاجزوا عند المساء، ثم بيتهم الخوارج فقتل عثمان، وقال حارثة: أيها الناس أنا حارثة بن بدر، فقاتل الخوارج ومنعهم من اتباع الناس، وبلغ قتل عثمان أهل البصرة وذلك في ذي القعدة سنة خمس وستين، ورجع الخوارج إلى الأهواز، ورجع حارثة إلى نهر تيرى فقال رجل يرثي عثمان بن عبيد الله، وكان مقتله بدولاب أيضاً:

ونال الشهادة منهم فتى	بدولاب كالقمر الأزهر
طويل النجاد رفيع العماد	كهمّك من فارس مسعر
أطاع الكتاب رجاء الثواب	وقاتل عن دبر المدبر
ليعذره اللّه والمسلمون	ومعذرة اللّه للمعذر

في أبيات: وقال رجل من بني تميم:

مضى ابن عبيس صابراً غير عاجز وأعقبنا هذا الحجازي عثمان
فأرعد من قبل اللقاء ابن معمر وأبرق والبرق اليمانيّ خوّان
فلم ينك عثمان جناح بعوضة فأضحى عداة الدين حربا كما كانوا
فلولا ابن بدر للعراقين لم يقم بما قام فيه للعراقين إنسان
إذا قيل من حامي الحقيقة أومأت إليه معد بالأكف وقحطان

قالوا: ثم عزل عبد الله بن الزبير عمر بن عبيد الله بن معمر، وولى البصرة الحارث بن عبد الله بن أبي ربيعة المخزومي، وهو القباع، سنة ست وستين وحارثة بن بدر بنهر تيرى، فكتب إلى القباع يسأله توليته قتال الخوارج، وأن يمده بجيش فهم أن يفعل ثم أنشد فيه:

ألم تر أن حارثة بن بدر يصلي وهو أكفر من حمار
وإن المال يعرف من وعاه ويعرفك البغايا والغفار

فكتب إليه القباع: أن اشخص إلى مصرك فإني مول هذا الأمر غيرك، فقال: لا أبرح حتى يقدم من يقوم مقامي، فرفضه أصحابه، وقفوا حتى بقي في عصيبة من قومه فقال: لا صحبكم الله:

كرنبوا ودولبوا وحيث شئتم فاذهبوا

وقال حارثة:

أير الحمار فريضة لنسائكم والخصيتان فرضة الأعراب
ولدى الموالي جلد اير أبيهم والأنثيان قلادة وسخاب

ولما علم الخوارج خفة من مع حارثة قطعوا إليه دجيلا فبيتوه، وأتى دجيلا فركب سفينة ولحق به قوم من بني تميم فرسبت السفينة فغرقوا جميعا.

وقال المدائني: قال أبو أمية بن يعلى: ركب حارثة سفينة فجاء شكيم التميمي وقد دفع الملاح فناداه يا حارثة إن مثلي لا يضيع، فقال للملاح: أدن سفينتك فقربها إلى جرف فرمى بنفسه من الجرف وعليه سلاحه، فمالت السفينة ودخلها الماء فرسبت وغرقت، وغرق حارثة ومن معه.

قالوا: وأقام عبيد الله بن بشير بن الماحوز بع غرق حارثة بنهر تيرى يجبي ما حوله، وبعث الزبير بن علي، وهو ابن عمه، إلى الفرات فجباه، وكان في جماعة، ثم إنه أتي الجسر الأكبر بالبصرة، فقطع الناس الجسر

الأكبر فعقده، وعبر فصار بين الجسرين، وخرج الناس إليه في السفن وعلى الدواب، فلما انتهوا إليه خرج الناس من السفن فاسودت الأرض، فلما رأى كثرة الناس قال: أبى قومكم إلا كفرا، ورجع حتى عبر الجسر.

وفزع الناس إلى الأحنف بن قيس فأتى الأحنف القباع، فشكا إليه ما الناس فيه، فقال: أشيروا علي بمن أولي ؟ فأشار قوم بمالك بن مسمع الجحدري، وأشار قوم بزياد بن عمرو العتكي، فقال الأحنف: لا أرى لهم غير المهلب، فكلم القباع المهلب وقال له: إن أهل مصرك قد ارتضوك ورجوك وأملوا أن يقمع الله هذا العدو بك، فقال المهلب: لا حول ولا قوة إلا بالله إني عند نفسي لدون ما قالوا، وقد ولاني أمير المؤمنين عبد الله بن الزبير خراسان، وأمرني بأمر فأنا أكره ترك أمره، فقال الأحنف: يا أبا سعيد لو أتيت عملك لم تنتفع به مع هؤلاء لاطلاهم على مصرك ومن تخلف من أهلك، ونحن نكتب إلى أمير المؤمنين فيعفيك مما ولاك، وتكتب إليه فتستعفيه وتعلمه ما رغبنا فيه إليك، فكتبوا وكتب فأجابهم ابن الزبير إلى ما سألوا، ويقال إنهم زوروا كتابا، واشترط المهلب أن ينتخب من أحب من المقاتلة فقالوا له: ذاك لك، وأن يكون والي كل بلد تغلب عليه، فقال له القباع: ذاك لك، ويقال: إنه سأل أيضاً خراج ما غلب عليه فقال له القباع: ذاك للمسلمين، فإن أخذته كنت وعدوهم سواء، ولكن لك ما فضل من أعطيات أصحابك، فكتب له بما سأل كتاب وضع على يد الصلت بن حريث الثقفي، فانتخب المهلب اثني عشر ألفا من جميع الأخماس، وعسكر بالجسر، وأعان المهلب الناس، واتخذ ألوية ورايات، وقاتل الخوارج فهزمهم، وعقد الجسر، وأمر أن لا يتبعوا، فصاروا إلى نهر تيرى وانضموا إلى عبيد الله بن بشير بن الماحوز فقال رجل من الأزد:

أبا سعيد جزاك اللّه صالحة ... عن العراق ليالي الحرب تلتهب
والناس في فتنة عمياء مظلمة ... والدين مهتضم والمال منتهب
لولا دفاعك إذ حل البلاء بهم ... لأصبحوا عن جديد الأرض قد ذهبوا

وجبى المهلب خراج الفرات وغيره، وأعطى الناس وانضم إليه محمد بن واسع الأزدي الناسك، وأبو عمران الجوني، وعبد الله بن رياح الأنصاري، وكان معه معاوية بن قرة المري، ووعظ المهلب الناس فقال: هذا عدوكم الذي لا ريبة في أمره، ولا توقف عنه، وقد لقيهم قبلكم مسلم بن عبيس الصابر المحتسب، وعثمان بن عبيد الله بن معمر العجلي المفرط، وحارثة بن بدر العاصي المخالف فالقوهم رحمكم الله بصبر وعزم، وجعل المهلب على تميم الحريش بن هلال، وسار حتى نزل بنهر تيرى، وقد صار الخوارج إلى الأهواز، فجبى خراج السوس ومناذر، واستخلف أخاه المعارك، فبعث عبيد الله بن بشير إلى

المعارك مولى لأبي صفرة يقال له فايد من سبي الجاهلية في خمسين من الخوارج، فيهم صالح بن مخراق، فقتلوا المعارك وصلبوه، فبعث المهلب ابنه المغيرة فأنزل عمه ودفنه، وسار المهلب فأتى سولاف من مناذر، وقد صار الخوارج إليها، فقاتلهم فكشف المهلب، وقتل عبد الرحمن الإسكاف مولى الأزد، ويقال من أنفسها، وكان فارسا رامياً، رمى طائرين فشكهما، فقيل خرزهما فسمي إسكافا فقال الشاعر:

بسولاف أضعت دماء قوم — وطرت على مواشلة درور

ثم إن بعض المنهزمة رجعوا، وأتى المهلب سلى وسلبرى وهما من مناذر الصغرى وقد ثاب الناس إليه، فأقام المهلب ثلاثا بسلى وسلبرى فقال عبيد الله بن بشير للخوارج: ما تنتظرون بعدوكم، فحاربهم المهلب ثلاثة أيام، وقاتل بيديه أشد قتال، وقدم ابنه المغيرة فقاتل ومر على القبائل يحضهم على القتال ويحرضهم، وأمر أصحابه أن يكثروا الرمي بالحجارة، فجعلت تصرع الراجل، وترد الفارس، فقتل عبيد الله بن بشير بن الماحوز، وكان أمره ستة عشر شهرا، وكان مقتله في شوال سنة ست وستين، وقتل من أصحاب المهلب أكثر ممن قتل من الخوارج وقام بأمر الخوارج الزبير بن علي بن الماحوز، وكان المهلب ربما افتعل الحديث ينشط به الناس إلى القتال فقال الشاعر:

أنت الفتى كل الفتى — لو كنت تصدق ما تقول

وسماه بعضهم الكذاب وقال بعض الخوارج:

كم من قتيل تنقر الطير عينه — بسولاف غرته المنى والجعائل

وقال مجاهد المنقري:

تبعنا الأعور الكذاب نمشي — نزجي كل أربعة حمارا

فيا لهفي علي تركي عطائي — معاينة وأخذيه ضمارا

كأن دموع عينك يا بن عصم — خرير المنجنوق سقي الديارا

وقال ابن قيس الرقيات:

ألمت وعرض السوس بيني وبينها — ورستاق سولاف حمته الأزارقه

إذا نحن شئنا قارعتنا كتيبة — حرورية فيها من الموت بارقة

وقال بيهس بن صهيب:

بسلّى وسلّبرى مصارع فتية — كرام وعقرى من كميت ومن ورد

وقال آخر:

قل للأزارقة الذين تمزقوا بسلى وسلبرى لقيت نحوسا
قتل المهلب جمعكم وأخذتم من رسله بعد المساء رؤوسا

وكان المهلب بعث برأس عبيد الله بن بشير بن الماحوز ورؤوس قوم من أصحابه إلى القباع مع رسول له من الأزد، فلقيه بنو بشير فقالوا: هل من خبر ؟ فقال: نعم قتل هذا المارق، وهذا رأسه معي، فأخذوا الأزدي فقتلوه ومن معه وهربوا، فلما كان الحجاج أخذ ابناً لعبيد الله بن بشير فقتله، وقد أتاه مسلما عليه، ودفع ابنين له آخرين إلى ورثة الأزدي.

وكتب المهلب إلى القباع مع الرقاد بن عبد الله والصعب بن زيد عم جرير بن حازم: إنا لقينا الأزارقة بسلى وسلبرى فكانت في الناس جولة، ثم ثاب أهل الدين والعزم والحفاظ، فرزقنا الله النصر عليهم، ونزل القضاء بأمر الله فجازت النعمة فيه الأمل فصاروا دريئة رماحنا، وضرائب سيوفنا، وقتل الله صاحبهم عبيد الله بن بشير بن الماحوز في رجال من فرسانهم وحماتهم، وبقيت منهم بقية شذوا عن عسكرهم ليلاً، وأرجو أن يكون آخر هذه النعمة كأولها. فكتب إليه القباع: هنيئا لك يا أخا الأزد، شرف الدنيا وعزها، وثواب الآخرة وفضلها. قال المهلب: ما أجفا أهل الحجاز أما تراه عرف اسمي.

وقال بعض الخوارج في المهلب:

أتانا بأحجار ليقتلنا بها وهل تقتل الأقران ويحك بالحجر

وكان المهلب قال: ارموهم بالحجارة فإنها تنفر الخيل، وتصرف وجوهها، وتحير الرجالة وتعقرهم، وكان الخوراج أكثر سلاحا من البصريين وطعن رجل من الخوارج رجلا من أهل البصرة فذكر أمه فقال الخارجي:

أمك خير لك مني صاحبا تسقيك محضا وتعل رائبا

وقال بعضهم في قتل عبيد الله بن بشير بن الماحوز:

ويوم سلى وسلبرى أحاط بهم منا صواعق لا تبقي ولا تذر
حتى تركنا عبيد اللّه منجدلا كما تجدل جذعٌ مال منعقر

قال أبو الحسن المدائني: عبيد الله بن بشير بن يزيد – وهو الماحوز طعن رجلا فقيل: محزه محزاً كما يمحز الحمار – ابن مساحق بن زبيد بن ضباب بن سليط – والزبير بن علي بن يزيد بن مساحق ويزيد أخو الحارث بن مساحق.

أمر الزبير بن علي

من آل الماحوز

قالوا: لما قتل عبيد الله بن بشير، استخلف من الخوارج الزبير بن علي، فرأى جزع أصحابه على ابن بشير ومن قتل منهم فقال: لا تجزعوا على من صار إلى الجنة وأذكروا أيامكم: قتلتم ابن عبيس. وربيع الأجذم والحجاج بن ناب. وحارثة بن بدر. والمعارك والحرب سجال "والعاقبة للمتقين" وخرج فترل في تخوم أصبهان فأقام شهرا ثم أتى السوس فقاتله المهلب، ثم أتى تستر فقاتله المهلب وصار إلى أرجان من فارس، وقدم مصعب بن الزبير على البصرة والكوفة من قبل عبد الله أخيه في أول سنة سبع وستين، والزبير بن علي بأرجان، فكتب مصعب إلى المهلب في القدوم عليه، ووجه بكتابه مع محمد بن الأشعث فقدم واستخلف ابنه المغيرة بن المهلب، وقال لأصحابه: إنكم لا تفقدوني ما كان المغيرة عليكم، فإنه أبو صغيركم في الشفقة، وابن كبيركم في البر والطاعة، فلتحسن طاعتكم له، فما أردت صواباً قط إلا سبقني إليه. وقدم المهلب البصرة وكتب مصعب إلى المغيرة: إنك إلا تكن كأبيك، فإنك بحمد الله كاف لما وليت، وعليك بالجد في أمرك والحذر لعدوك، وسار مصعب ومعه المهلب وعمر بن عبيد الله بن معمر إلى المذار، فقتل أحمر بن شميط، ثم أتى الكوفة وهما معه، فقتل المختار بن أبي عبيد، ثم وجه عمر بن عبيد الله إلى البصرة فشهد الحيرة. وولى المهلب بن أبي صفرة الموصل والجزيرة وأرمينية. وأتى البصرة فتلافى أمر أصحاب الجفرة، وولى البصرة عباد بن زياد. ويقال ولاها سنان بن سلمة بن المحبق الهذلي، وجعل عباداً على شرطه، وولى عمر بن عبيد الله فارس، فالفى الزبير بن علي بإصطخر فعسكر على أربعة فراسخ من معسكره، فبيته الزبير والخوارج فقاتلهم فرجعوا و لم يظفروا، وأصاب منهم طرفا، ثم إنه قدم إليهم عبيد الله ابنه، وأمه من ولد قيس بن عدي السهمي من قريش في خيل فقتلوه، وأبوه لا يعلم، لأنه كان مشغولا بإصلاح قنطرة هناك هدمت، ثم سال عن ابنه فقيل قتل والله كريما صابراً، فاحتسبه فاسترجع، وترحم عليه وقال: عند الله أحتسبه.

وقال قطري بن الفجاءة للزبير بن علي: لا تقاتل عمر اليوم فإنه موتور، فأبى وقاتله فقتل من فرسان الخوارج تسعون وطعن عمر بن عبيد الله صالح بن مخراق فشتر عينه، وضرب قطريا على جبينه ففلقه، وانهزم الخوارج، واستشهد يومئذ رجل من ولد معبد بن العباس بن عبد المطلب، يقال له عباس بن عبد الله، وستة من ولد الحارث بن عبد المطلب، وكتب عمر إلى مصعب إني لقيت هذه العصابة المارقة، فاستشهد عبيد الله بن عمر، ورجال صالحون، ثم إن الله منحنا أكتافهم فقتلنا من كان يومه حان وكل

إلى حين وخسران.

وصار الزبير بن علي إلى سابور، فلقيه عمر بكازرون، وكان معه مجاعة بن سعر، فقتل مجاعة بعمود كان بيده من الخوارج أربعة عشر رجلاً، ودافع عن عمر يومئذ، فوهب له تسعمائة ألف درهم، وكان مجاعة اجتباها من خراج إصطخر، ويقال أكثر من ذلك فقال يزيد بن الحكم:

ودعاك دعوة مرهق فأجبته عمر وقد نسي الحياة وضاعا

فرجعت حين دعاك غير معتم تحمي وكنت لمثلها رجاعا

فرددت عادية الكتيبة عن فتى قد كاد يترك لحمه أقطاعا

وولى عبد الله بن الزبير ابنه حمزة البصرة، وكتب إلى المصعب أن يلحق به من معه من رجال أهل البصرة، فألحق به المهلب، وولى مكانه إبراهيم بن الأشتر، فوجه حمزة المهلب لقتال الخوارج لمسألة أهل البصرة إياه ذلك.

وقال قوم: عزل حمزة المهلب عن الموصل ووجهه لقتال الخوارج وهذا قول من زعم أن حمزة ولي البصرة والكوفة، وذلك غلط.

وأتى الخوارج رامهرمز في أيام حمزة، فقاتلهم المهلب، فأتوا أرجان ومضوا إلى أصبهان، وغضب مصعب، فمضى إلى أخيه وعامله على الكوفة القباع، وعلى الموصل ابن الأشتر، فرده أخوه على البصرة والكوفة وعزل حمزة ابنه فقدم مصعب البصرة و لم يعزل حمزة عمر بن عبيد الله عن فارس، وأقبل الزبير بن علي من أصبهان إلى الأهواز، فقال مصعب: العجب لعمر بن عبيد الله، قطع هذا العدو أرض فارس فلم يقاتلهم، ولو قاتلهم لكان أعذر له وكتب إليه: يا بن معمر ما أنصفتني، تجبي الفيء وتحيد عن العدو، فاكفني أمرهم، فأقبل عمر من فارس، وخرج مصعب من البصرة ومعه الملهب يريدان جميعا الزبير وأصحابه، فبلغهم ذلك، وانحازوا إلى السوس ثم أتوا الكلتانية وخرجوا إلى كسكر، وأتوا المدائن وعليها كردم بن مزيد الفزاري، فتحصن في القصر فأتوا ساباط فقتلوا أحمر طيء، وكان من فرسان عبيد الله بن الحر فقال الشاعر:

تركتم فتي الفتيان أحمر طيءٍ بساباط لم يعطف عليه خليل

فلو كنت من خلانه لحميته ولكن خلان الصفاء قليل

وقتل يومئذ كاتب الزبير بن علي ومولاه، وبسط الخوارج في القتل، فقتلوا النساء، والصبيان، والأطفال، وقتلوا أم ولد ربيعة بن ناجذ الأزدي وغيرهما، وقالت لهم أم ولد ربيعة: أتقتلون "أو من يُنَشَّؤوا في الحلية

وهو في الخصام غير مبين" فقال لهم رجل منهم: استحيوها، فقالوا: لقد أعجبتك وفتنتك، فأمسك.

وسرحوا صالح بن مخراق إلى بكر بن مخنف، وكان عامل مصعب على إستان العال وهو بادوريا والأنبار، وقطربل ومسكن، فلقوه بكرخ بغداد فقتلوه، فقال سراقة يرثيه:

ألا ياالقوم للهموم الطوارق — وللحدث الجاري بإحدى البوائق

لحى اللّه قوما عردوا عنك بكرة — ولم يصبروا للاّمعات البوارق

تولوا فأجلوا بالضحى عن عميدهم — وسيدهم بالمأزق المتضايق

وكان مع الأزارقة رجل من بني العم يقال له راشد، شديد البأس، فقاتلهم راشد، وانحاز الخوارج فحماهم فقال الشاعر:

وعبأ راشد العمي خيلا — إلي خيل فقاتلهم جهارا

وحامى راشد العمي عنا — وقد جازت فوارسنا المذارا

في أبيات.

وأقبل الزبير وأصحابه يريدون الكوفة، وعليهما من قبل مصعب القباع، فخرج إلى النخيلة متثاقلاً، فكلمه شبث بن ربعي، وإبراهيم بن الأشتر وغيرهما – ويقال إن ابن الأشتر كان بالموصل– في أمر العدو، وقالوا: قد أظلنا، فخرج تجرجراً، فصار إلى دير عبد الرحمن بن محمد، وكان عبد الرحمن يومئذ على الموصل وقال الشاعر:

إن القباع سار سيراً نكرا — يسير يوما ويقيم شهرا

وجعل يتردد بين دباها ودبيرا.

فقال الشاعر:

إن القباع سار سيرا ملسا — يسير يوماً ويقيم خمسا

ثم سار إلى الصراة وقال: إذا لقيتم عدوكم فاحسنوا القتال، فإن أول الحرب المشاتمة، ثم الرمي بالنبل، ثم إشراع الرماح والطعان، ثم السلة، فقالوا: لقد أحسن الأمير الصفة.

وأتى الخوارج الصراة فقتلوا سماك بن يزيد السبيعي وابنيه، والقباع معسكر في ستة آلاف، فقطع الجسر، ورجع الخوارج، وانصرف القباع إلى الكوفة، وأتى الخوارج المدائن، ومضوا إلى جوخى فأغاروا ببراز الروز فقتلوا وأصابوا أموالاً، وأتوى البندنيجين، ثم حلوان، ومضوا إلى أصبهان، فترل الزبير بن علي بعقوة عتاب بن ورقاء الرياحي، وكان مصعب ولاه إياها، ويقال كان الذي ولاه إياها أبو يزيد الخطمي وابن مطيع، فأقره مصعب، ثم عزله ليحضر معه حرب عبد الملك، فحقد عليه ذلك، وكاتب عبد الملك، فبعث

إليه عتاب ما أغرك بي وأنا ابن عمك ؟ فقال: إن البعيد والقريب من المشركين عندنا سواء.

فحصره الخوارج أشهراً، ثم إن الخوارج أتوا الري وعليها يزيد بن الحارث بن يزيد بن رويم الشيباني، وكان المصعب ولاه إياها، وأقره عليها، فحصره شهراً، ثم قاتله، فقتله الزبير بن علي، ونادي يزيد ابنه حوشب بن يزيد، فهرب و لم يلو على أحد، وقتل الخوارج لطيفة أم حوشب، وكان علي بن أبي طالب صلوات الله عليه دخل على يزيد يعوده، فقال له علي: إن عندي جارية لطيفة الخدمة فبعث بها إليه فسماها لطيفة، وقال بعض الشعراء بعد قتل مصعب:

مواطننا في كل يوم كريهةٍ ... أسر وأسنى من مواطن حوشب

دعاه يزيد والأسنة شرع ... فلم يستجب إن الفتى غير محرب

ولو كان حراً حوشب ذا حفيظةٍ ... رأى ما رأى في الموت عيسى بن مصعب

وقال بشر بن مروان ذات يوم، ومعه حوشب بن يزيد، وعكرمة بن ربعي: من يدلني على فرس جواد ؟ فقال عكرمة: فرس حوشب فإنه نجا عليه يوم الري فضحك بشر، وقال: بشر يوما: من يدلني على بغلة قوية ظهيرة ؟ فقال حوشب: بغلة واصل بن مساور بن رياب حملت مساورا وواصلاً، وكان عكرمة يتهم بامرأة واصل، وإنما عناها بقوله بغلة واصل فضحك بشر، وقال: لقد انتصف.

وقيل في حوشب بن يزيد:

نجى حليلته وأسلم شيخه ... تحت الأسنة حوشب بن يزيد

وقيل أيضاً:

نجى حليلته وأسلم شيخه ... لمّا رأى وقع الأسنة حوشب

وأتى الزبير أصبهان منحطاً من الري، فحارب عتاب بن ورقاء أشهراً.

وقال رجل من أصحاب عتاب يكنى أبا هريرة:

قل لابن ماحوز وللأشرار ... كيف ترون يا كلاب النار

شد أبي هريرة الهرار

فكمن له عبيدة بن هلال فضربه فصرعه، ثم حامى عليه أصحابه، فسلم فكان الخوارج ينادونهم: ما فعل الهرار ؟ فيقولون: ما عليه بأس وخرج إليهم فقال:

أنا أبو هريرة الهرار

ثم إن عتاب بن ورقاء عقد لواءً لياسمين جاريته، وقال: من أراد الهوينا فليأت لواء ياسمين، ومن أراد الصبر فإلي، وخرج إلى الخوراج فقاتلهم وهو في ألفين، ويقال ألفين وسبعمائة، فاقتتلوا أشد قتال وقتل الزبير بن

علي وبشر معه وفشت فيهم الجراح، ومضى فله، فلم يتبعوا، وقال الأعشى في قتل الزبير – وذكر أن الحارث بن عميرة الهمداني قتله – في قصيدة أولها:

إن المكارم أكملت أسبابها ... لابن القيول الزّهر من قحطان

حتى تداركهم أغر سميدع ... فحماهم إن الكريم يمان

الحارث بن عميرة الليث الذي ... يحمي العراق إلى قرى نجران

وقال رجل من ضبة:

خرجت من الكتيبة مستميتاً ... ولم أك في كتيبة ياسمينا

وآثرت الحياء على حياتي ... ولم أترك لها حسباً ودينا

ولم أك في المدينة ديدباناً ... أرجّم في نواحيها الظنونا

أعاذ اللّه قومي أن يكونوا ... مع السمك الذي بالفارقينا

وقال ابن حسان يزيد:

صبحنا بزار الروز منا بغارةٍ ... كورد القطا فيها الوشيج المقوم

وملنا على جابي المدينة كردم ... فأفلتنا فوت الأسنة كردم

ونجى ابن ورقاء الرياحي سابح ... شديد مناط القصرتين عثمثم

ونحن شفينا من يزيد صدورنا ... ومن خيله وصاحب الحرب مغشم

وقال رجل من أصحاب عتاب:

نحن قتلنا الزبير مارقكم ... فأصبح الفل منكم مزقا

وذلك الفعل فعلنا أبداً ... إذا جهول من قومنا مرقا

وولى الخوارج بعد قتل الزبير بن علي قطري بن الفجاءة، واسم الفجاءة مازن بن زياد بن يزيد بن حنثر بن كابية بن حرقوص بن مازن بن مالك بن عمرو بن بن تميم، ويقال مازن بن زياد بن يزيد بن حنثر بن حارثة بن صعير بن خزاعي بن مازن.

وقال الشرقي بن القطامي: اسم الفجاءة جعونة.

وكانوا قد أرادوا تولية أمرهم عبيدة بن هلال، فقال لهم: أنا أدلكم على من هو خير مني، قطري، فبايعوه سنة إحدى وسبعين. فسار قطري، ويكنى أبا نعامة من أصبهان حتى أتى الأهواز، ثم رفع إلى كرمان فقال بعض أصحابه:

هربنا نريد الخفض من غير كلةٍ وللحرب ناب لا يفل ومخلب

فلما بلغه البيت انحط إلي إيذج من كور الأهواز.

وبلغ مصعباً أن عبد الملك مجد في الحركة إليه، فكتب إلى عماله في النواحي من الوجوه فجمعهم إليه غير المهلب، وعمر بن عبيد الله، ويقال إن المهلب كتب إليه يسأله أن يكون بقربه، وقال له: قد بلغني أن وجوه المصرين قد كاتبوا عبد الملك، فقال له: إن أهل المصر سألوني أن لا أصرفك عن وجهك، وأبوا أن يخرجوا معي إن أخيلت هذا الوجه منك.

وواقع المهلب قطرياً فنحاه عن إيذج وعن الأهواز كلها وقال الأحنف وهو بالبصرة، قبل أن يدخل مصعب الكوفة للتوجه إلى مسكن وقد ذكر قطري أنه أبو نعامة: إن ركب بنات سجاح وقاد بنات صهال وأمسي بأرض وأصبح بأخرى، وجبى المال، طال أمره فأبلغ قطرياً ذلك رسول كان له بالبصرة، فنادى في عسكره: ألا لا يصحبنا إلا رجل معه بغل، فكان ذلك مما ينكر على الأحنف، وقاتل قطري عمر بن عبيد الله بن معمر بفارس، ثم أتى أصبهان، ثم الأهواز، وقتل مصعب في سنة اثنتين وسبعين والخوارج برامهرمز، والمهلب بإزائهم.

وقال الهيثم بن عدي والمدائني: برز المصعب لحرب عبد الملك، والمهلب في وجوه الخوارج وهو يحمي البصرة والأهواز منهم، وعمر بن عبيد الله بفارس، وعباد بن الحصين بالبصرة، فبلغ ذلك عبد الله بن خازم فاسترجع، وقال: أنا بخراسان، وفي إبراهيم ابن الأشتر ماسد بعض المسد وأنشد:

خذيني فجريني ضباع وأبشري بلحم امرىء لم يشهد العام ناصره

وكان مقتل قطري في أيام الحجاج، وسأذكر ذلك في موضعه إن شاء الله.

قال: وكان الخوارج يسألون أصحاب المهلب عن ابن الزبير فيقولون إمام هدىً، فلما قام عبد الملك سألوهم عنه فقالوا: إمام هدىً، فقالوا لهم: يا كفرة قلتم بالأمس قولاً تقولون اليوم خلافه، لعنكم الله يا عبيد الدنيا.

أمر نجدة ابن عامر الحنفي

قال ابن الكلبي: هو نجدة بن عامر بن عبد الله بن سيار بن المطرح بن ربيعة بن الحارث بن عبد الحارث بن عدي بن حذيفة، وسمي المطرح لأن بني كلاب أصابوه وهو غلام فأخذوه، وكان شهاب بن حبيب بن الحارث بن عبد الحارث يغير على القبائل فقال له ربيعة بن الحارث: أنت تغير، وابني في بني كلاب

مطرح.

وكان نجدة مع نافع بن الأزرق ففارقه مع قوم فارقوه لتبرئه من القعد، وامتحانه المهاجر إليه، وتحريمه التقية في دار قومه، وصار نجدة إلى اليمامة فترل بإباض، ودعا أبا طالوت، وهو في قول الكلبي مطر بن عقبة بن زيد بن جهينة بن الفند، وهو شهل بن شيبان بن ربيعة بن زمان بن مالك بن صعب ودعا سالم بن مطر مولى بني مازن بن مالك بن صعب بن علي بن بكر بن بن وائل إلى نفسه، فبايعه خمسون على أنهم إن وجدوا من هو خير لهم منه بايعوه وبايعه معهم.

ثم إن أبا طالوت صار إلى الخضارم وكانت لبني حنيفة، فأخذها معاوية بن أبي سفيان، فصير فيها رقيقاً مبلغهم ومبلغ أولادهم ونسائهم أربعة آلاف، ويقال كانوا أربعة آلاف بيت، فأخذ سالم ذلك الرقيق فقسمه في أصحابه وأقام أشهراً، وذلك في سنة خمس وستين، وأتاه الناس، وكثر أصحابه، وخرجت عير من البحرين أربعين راحلة تحمل مالاً وغير ذلك يراد بها ابن الزبير، فخرج نجدة في عشرة آلاف فلحقهم بجبلة من أرض بين تميم، وهي على خمس ليال من هجر فأخذ العير بما فيها؛ وقال بعضهم: خرجت العير من البصرة يراد بها عبد الله بن الزبير، وفيها ثلاثون رجلاً من شيعته وأكرياؤهم من بني تميم، فخرج إليهم نجدة في ستين راكباً، ومعهم ثور بن حليلة بن ثور الحنفي، فساق العير حتى أتى بها أبا طالوت بالخضارم، فقال نجدة: اقتسموا هذا المال واجعلوا غلة هذه الشيوخ لكم ولمن لحق بكم، وردوا هذا الرقيق فدعوهم كما كانوا يعتملون الأرض ويعمرونها، فإن ذلك أرد وأنفع، فاقتسموا المال، وقالوا لأبي طالوت: إنا كنا بايعناك على أنا إن وجدنا خيراً منك بايعناه وبايعته، ونجدة خير لنا منك، فبايعوه على ما يبايع عليه الخلفاء أن لا يخلع إلا عن جور ظاهر، ولم يبايعوه على ما بايعوا عليه أبا طالوت، وبايعه أبو طالوت أيضاً وذلك في سنة ست وستين ونجدة يومئذ ابن ثلاثين سنةً.

وخرج سراج بن مجاعة الحنفي إلى عبد الله بن الزبير ليأخذ لقومه أماناً، فقال له ابن الزبير: يا سراج ألم تر ما صنع قومك والله لأوجهن إليهم جيشاً، فقال: والله ما صنع هذا إلا حرورية.

قالوا وأقام نجدة أشهراً، وكثر أصحابه فقالوا: لو غزونا، فسرح نصر بن مبارك الحنفي في ثلاثمائة إلى البحرين، وقال: إن قتل فأميركم أبو سعدة العجلي، وعلى البحرين يومئذ سعيد بن الحارث الأنصاري، وكان من قبل يزيد بن معاوية فبقي بها، فمنعهم سعيد بن الحارث من دخولها، فوجه نجدة قدامة بن المنذر بن النعمان في ثلاثمائة وقال: إن قتل فأميركم أبو سعدة، فإن قتل فأميركم إساف اليشكري، فإن قتل فأميركم المطرح بن نجدة، فإن قتل فأميركم أبو سنان حيي بن وائل اليشكري.

وقال بنو كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة، لكلاب بن قرة بن هبيرة القشيري: إنها فتنة فلو أتينا سوق

المجاز فأغرنا، فإن بها بزا منشورا، وتمرا منثوراً، فأجابهم كلاب ومعه أخوه غطيف، فكتب نجدة إلى ابن المنذر، وأبي سعدة والذين وجههم إلى البحرين فردهم، ووجه حر بن وائل إلى ابن كعب وهم بالمجاز، وقدامة بن النعمان في ثلاثمائة، واتبعهم نجدة في أربعمائة، ويقال خمسمائة، فالتقوا بذي المجاز، فهزمهم نجدة، وقتلهم قتلاً ذريعاً، وصبر كلاب وغطيف ابنا قرة، وجعل كلاب يقول لأخيه:

صبراً غطيف إنها الشهادة كل امرىءٍ مفارق أولاده

وصبرا حتى قتلا وانهزم قيس بن الرقاد الجعدي، فلحقه أخوه لأمه معاوية بن قرة، فسأله أن يحمله ردفا فلم يفعل، وقدم جفينة بن قرة على أهله خفيةً، فأتته امرأته بزبد وتمر - فجعل يأكل وهي تسأله عن إخوة لها وإخوته فلم يجبها فقالت: اجتحف وأخبر فقال:

لا يستوي الجحفان جحف بزبدةٍ وجحف حروري بأبيض صارم

فلما فرغ قال: سلي، فلم تسأله عن أحد من إخوته وإخوتها إلا نعاه، فشقت جيبها وقالت: ويحك ألا صبرت حتى تقتل معهم، وقال معاوية:

يا قاتل اللّه قيس الجعد كيف دعا كعباً لأسباب أمر غير ميمون

حتى إذا التقت الأبطال واطعنوا فعل الديافية المطلية الجون

طرّح رايتنا قيس وبرّزه عن الطعان طويل الشخص ملبون

في أبيات وقال قيس:

أسأل معاوية بن قرة إذ دنت منه الأسنة أي فعلٍ يفعل

فإذا أتيت أباك فاشتر مثله إن الرداف عن الأحبة يشغل

يريد مثل فرسه.

وقال جفينة - وهو جفنة - يحرض ابن الزبير:

على أي شيء أنت بالركن واقفٌ مقيم وقد سارت بهن الركائب

ولا شيء إلا الموت إذ برزت لنا حنيفة أرباب السيوف القواضب

في أبيات قالوا: ورجع نجدة إلى اليمامة وكثر أصحابه، فصاروا ثلاثة آلاف، فخاف أن يطأ الجنود اليمامة، وأن يغزى أهلها، فاستخلف باليمامة عمارة بن سلمى من ولد الدول بن حنيفة، وهو عمارة الطويل وأتى البحرين في سنة سبع وستين، فقالت الأزد: نجدة أحب إلينا من ولاتنا، لأنه منكر للجور، وولاتنا يجورون، فعزموا على مسالمته، واجتمعت عبد القيس ومن بالبحرين غير الأزد على محاربته، فقال

بعضهم: نجدة أقرب إليكم منه إلى الأزد فلا تحاربوه، وقال بعضهم: أندع نجدة وهو حروري مارق تجري أحكامه علينا، فالتقوا بالقطيف، وأقبل وكيع أحد بني جذيمة من عبد القيس يرتجز ويقول:

يا أم يعقوب تجنبيني — لا تحذري علي واحذريني

إن عليّ واقياً يقيني — أنا وكيع لست بالهجين

اليوم أحمي حسبي وديني — ما ملكت قائمه يميني

فقتل وكيع وجماعة من العبديين، وسبى نجدة من قدر عليه من أهل القطيف.

قال الشاعر:

نصحت لعبد القيس يوم قطيفها — وما نفع نصحٍ قيل لا يتقبل

وأقام نجدة بالقطيف، ووجه ابنه المطرح إلى فل أهل القطيف من عبد القيس، فقاتلوه بالثوير فقتل المطرح وجماعة من النجدية، فقال جمال بن سلمة الشاعر:

إن تقتلونا بالقطيف فإننا — قتلناكم يوم الثوير وصحصحا

وإن تقتلوا منا وكيعا وعاصما — فإنا قتلنا طارقا والمطرحا

ووجه نجدة رجلا من عكل يقال له ذواد إلى الخط فطفر بهم، فقال سويد بن كراع العكلي:

صبحت الخط بنا صباحا — تحمل من عكلٍ فتى وضاحا

مهرية ترى بها مراحا

وأقام نجدة بالبحرين، فلما قدم مصعب بن الزبير البصرة سنة تسع وستين، بعث إليه عبد الله بن عمير الليثي الأعور في أربعة عشر ألفا، ويقال في عشرين ألفاً، ويقال إن حمزة بن عبد الله بن الزبير الموجه له حين ولي البصرة، فجعل ابن عمير يقول: اثبت يا أبا المطرح فإنا لا نفر، فقدم ونجدة بالقطيف فنزل على ميل من عسكره، وصير البحر خلفه، والأثقال أمامه، وأناخ الإبل أمام الأثقال، وقال لآخذن نجدة أخذاً، وحض نجدة أصحابه، فرغبهم في الشهادة والجنة، وزهدهم في الدنيا، واعتزل قوم من أصحابه منهم ذواد العكلي فلم ينهض معه، فقال نجدة: إن إخوانكم هؤلاء أحبوا البقاء وثبت نجدة فيمن بقي معه وأتى ابن عمير في عسكره وهو غار فقاتلهم طويلاً، وأصبح ابن عمير فهاله أمر من رأى في عسكره من القتلى والقطعى والجرحى، وتشاغل ومن في عسكره بموتاهم وجرحاهم، فأتاهم نجدة فحمل عليهم فلم يلبثوا أن انهزموا فلم يلو أحد منهم على أحد، وحوا نجدة العسكر، وأصاب جواري لابن عمير وفيهن أم ولد له،

فعرض نجدة عليها أن يردها عليه، فقالت: لا حاجة لي فيمن فر عني، وورد ابن عمير البصرة فاراً، فقال الفرزدق:

ما فر من جيش أمير برايةٍ فيدعى طوال الدهر إلا منافقا

تمنيتهم حتى إذا ما لقيتهم تركت لهم دون النساء السرادقا

وأعطيت ما تعطي الحليلة بعلها وكنت حبارى إذ رأيت البوارقا

وقال العجاج حين قتل عمر بن عبيد الله بن معمر، أبا فديك:

لقد شفاك عمر بن معمر من الحروريين يوم العسكر

وقع امرىءٍ ليس كوقع الأعور

يعني عبد الله بن عمير في حرب نجدة.

وبعث نجدة بعد هزيمة ابن عمير عطية بن الأسود الحنفي إلى عمان وقد غلب عليها عياذ بن عبد الله وهو شيخ كبير، وابناه سعيد وسليمان يعشران السفن ويجبيان البلاد، فمانعوه وقاتلوه فقتل عياذ وغلب عطية على عمان فأقام بها أشهراً، ثم خرج منها واستخلف رجلا يكنى أبا القاسم فقتله سعيد وسليمان ابنا عياذ وأهل عمان، وخالف عطية نجدة فعاد إلى عمان فلم يقدر عليها فركب البحر وأتى كرمان، وضرب دراهم كان يقال لها العطوية، وأقام بكرمان، فيقال إن المهلب بعث إليه جيشاً فلحق بسجستان، ثم صار إلى السند فقتلته خيل المهلب بقندابيل، ويقال إن الخوارج قالوا له: هاجر فقال أنا مهاجر على ديني فقتلوه.

وسمع أبو حزابة امرأةً كانت مع عطية تقول وهو بكرمان: هل من سيف هل من رمح، فقال: أتريدين نيزكاً فرفعته إلى عطية فضربه أسواطاً، وقال الفرزدق لبني حنيفة:

وهم من بعيدٍ في الحروب تناولوا عياذ بن عبد اللّه والخيل شحب

قالوا ووجه نجدة بعد هزيمة ابن عمير إلى البوادي من يأخذ من أهلها الصدقة، فكانوا يدعون القوم فإذا أجابوهم أخذوا الصدقة منهم، فقاتل أصحابه بنو تميم بكاظمة وأعانهم أهل طويلع، وقتلوا رجلاً من الخوارج، فوجه نجدة إلى أهل طويلع من أغار عليهم وقتل منهم نيفاً وثلاثين رجلاً وسبى، ثم إنه دعاهم بعد ذلك فأجابوه وأخذ منهم الصدقة، وقال الفرزدق:

لسنا بأقوامٍ يبيعون دينهم إذا علموا أن لا سبيل إلى التمر

وما كانت مذ شدت على السيف قبضتي لا نقض بيعاً بين زمزم والحجر

يعني بيعة ابن الزبير.

قال علي بن محمد المدائني: وخرج نجدة إلى صنعاء في خف فبايعه أهلها، وخافوا أن يكون وراءه جمع كثير، فلما أقام اباماً و لم يروا مدداً يأتيه ندموا على بيعته، وبلغه ذلك فقال: إن شئتم أقلتكم بيعتكم وجعلتكم في حل منها وقاتلتكم، فقالوا: ما كنا لنستقيل بيعتنا، فبعث إلى مخاليفها، فأخذ منهم الصدقة، ووجه نجدة أبا فديك إلى حضرموت فجبى صدقات أهلها، وحج نجدة في سنة ثمان وستين، ويقال في سنة سبعين، وهو الثبت، وقد كان في أيام يزيد بن معاوية قاتل مع ابن الزبير غضباً للبيت، وما انتهك من حرمته، فلما حج مرته هذه كان في ثمانمائة وستين رجلاً، ويقال في ألفين وستمائة، فصالح ابن الزبير على أن يصلي كل واحد بأصحابه ويقف بهم ويكف بعضهم عن بعض على مثال ما كانت الأزارقة عليه أيام مقاتلتها معه.

فلما صدر نجدة عن الحج توجه إلى المدينة، فتأهب أهلها لقتاله، وتقلد عبد الله بن عمر السيف، فلما كان نجدة بنخل، وأخبر بلبس ابن عمر السلاح رجع نجدة إلى الطائف وأصاب ابن بحذج ابنة لعبد الله بن عمرو بن عثمان كانت عن ظئر لها، فضمها نجدة إليه، فقال بعضهم: إن نجدة ليتعصب لهذه الجارية، فامتحنوه بأن سأله بعضهم بيعها منه، فقال: قد أعتقت نصيبي منها فهي حرة، قال: فزوجني إياها، قال: هي بالغ، وهي أملك بنفسها، فأنا أستأمرها، فقام من مجلسه ثم قال قد استأذنتها فكرهت الزوج، وقيل إن عبد الله بن الزبير كتب إليه: والله لئن أحدثت فيها حدثاً لأطأن بلادك وطأة لا يبقي بها معها بكري، وكتب نجدة إلى ابن عمر يسأله هل ساروا بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم بالحربة واللواء، وعن الرجل يغشى المرأة في الحيض، فقال: سلوا ابن عباس، فقال: يرحم الله أبا عبد الرحمن أين كان يوم حنين قد سير بذلك بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم مرجعه من حنين، وأما الذي يغشى المرأة في الحيض في أوله فدينار والذي يغشى في الكدرة فنصف دينار، فبعث إليه نجدة: فإن لم يجد ؟ قال: يقوم الذي يلزمه طعاما، ويصوم لكل مد يوماً، وقال ابن عباس: قاتله الله يقتل المسلمين، ويسأل عن المحقرات.

ولما رجع نجدة من نخل وقرب من الطائف أتاه عاصم بن عروة بن مسعود فبايعه عن قومه، فلم يدخل نجدة الطائف، فلما قدم الحجاج الطائف لمحاربة ابن الزبير قال لعاصم: يا ذا الوجهين بايعت نجدة ؟ ! فقال: اي والله وذو عشرة أوجه أعطيت نجدة الرضا، ودفعته عن قومي وبلدي.

قالوا: وأتى نجدة تبالة ثم شخص عنها واستعمل الحازوق الحنفي وهو - حزاق - على الطائف وتبالة والسراة، واستعمل سعد الطلائع على ما يلي نجران، ووجه إلى بعض أصحابه يقال إنه عمرو بن همام العقيلي، ووجه حاجب بن حميصة لقبض صدقات بين هلال ونمير، فمنعوه إياها، فقاتلهم فقتل منهم

رجلان، وتولى قتلهما رجلان من بني كلاب، فطالبوا بدمهما فهرب الكلابيان، ورجع نجدة إلى البحرين فقطع الميرة عن أهل الحرمين من اليمامة والبحرين، فكتب إليه ابن عباس: إن ثمامة بن أثال لما أسلم قطع الميرة عن أهل مكة وهم مشركون حتى أكلوا العلهز، فكتب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى ثمامة: إن أهل مكة أهل الله فلا تمنعهم الميرة فخلهم وإياها وإنك قطعتها عنا ونحن مسلمون، فخلى لهم نجدة الميرة، وأقام عمال نجدة في النواحي حتى وقع الاختلاف بينه وبين أصحابه، فاجترأ الناس عليهم، فأما الحازوق فطلبوه بالطائف فهرب، فلما كان في عقبة في طريقه إذا قوم يطلبونه فرموه حتى قتلوه وهو يقول: أتقتلوني قتلة الزناة، ليبارزني منكم من شاء، وأخذوا فرسه فقالت أخته، أو ابنته تبكيه:

أعيني جودا بالدموع على الصدر — على الفارس المقتول بالجبل الوعر

فإن تقتلوا الحازوق وابن مطرفٍ — فإنا قتلنا حوشبا وأبا جسر

أقلب عيني في الركاب فلا أرى — حزاقا فعيني كالحجاة من القطر

ومن يغنم العام الوشيك ولاحقاً — وقتل حزاقٍ لا يزل عالي الذكر

في أبيات وقال هشام ابن الكلبي: كان عبد الله بن النعمان الدوسي سيد الأزد بالسراة، وهو قتل الحازوق الحنفي أيام نجدة، وكان أوغل في بلاد الأزد، وقال عبد الله بن الزبير حين بلغه قتل الحازوق: إن الازد هم الأسد قتلوا الحازوق وإن من خثعم سلمى، أوتدرون من هي ؟ هي امرأة في الجاهلية كانت.

وقالوا: قتل سعد الطلائع ناجية الجرمي، وأراده على الصدقة، فمنعه إياها وقاتله فقتله ناجية.

وقال الكلبي: لقيت رسل نجدة لطلب الصدقة بهدل بن مالك بن الطفيل بن حبيب بن منيف الطائي، ومعه رجال من طيءٍ فاقتتلوا، فقتل نويرة بن بحير الطائي منهم بالأجفر سبعة خوارج، وكانت راية طيء يومئذ مع زيد بن حبال بن بشر الطائي، فقتل يومئذ عبس بن سمي بن الأغر الطائي، ونافذ بن زهير بن ثعلبة الطائي، وله يقول المعنى الطائي:

يا عين بكي نافذاً وعبسا

يوما إذا كان البراء نحسا

قال: وكان أميرهم في الحرب زياد بن جد بن وبرة قتل من الخوارج اثني عشر، وكانوا يقتلون أياما.

قالوا: وخالف نجدة أو سنان حي بن وائل، وذلك لأنه اشار عليه بالبسط على من كان أجابه وتابعه تقية فنهره وشتمه نجدة، فهم بالفتك به وحي هو القائل:

أما أقاتل عن ديني على فرس — ولا كذا رجلاً إلا بأصحاب

لقد لقيت إذاً شراً وأدركني　　　　ما كنت أزعم في قومي من العاب

ويروي في خصمي من العاب.

فبعث إليه نجدة من ناظره فقال: أكلف الله أحداً علم الغيب ؟ قال: لا، قال: فإنما عليه أن يحكم بما ظهر، فقبل منهم ورجع إلى نجدة. وحدثني الكردي وغيره قالوا: كان سبب خلاف عطية بن الأسود على نجدة لأن نجدة وجه سرية برا وسرية بحراً، فأعطى سرية البر أكثر مما أعطى سرية البحر، فنازعه حتى أغضبه فشتمه نجدة فغضب وألب الناس عليه، وقد كان كلم نجدة في رجل فأعطاه فرساً فقال: ألا ترونه يعطي على الشفاعة ؟ !.

وأعطى نجدة مالك بن مسمع حين هرب إلى ثأج مالاً. وكلم في رجل شرب الخمر في عسكره، فقال هو شديد النكاية، وقد استنصر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمشركين.

قالوا: وكتب عبد الملك إلى نجدة يدعوه إلى طاعته وبيعته، على ان يهدر له ما أصاب من الدماء والأموال، وأن يوليه اليمامة وما حولها، فطعن عليه عطية وقال: ما كاتبه عبد الملك حتى علم منه إدهاناً في الدين، فخرج عطية إلى عمان مفارقا له، وخالف نجدة أيضاً قوم استتابوه فحلف أن لا يعود ثم ندموا على استتابته وتفرقوا، وخالف عليه عامة من كان معه وانحازوا عنه وولوا أمرهم أبا فديك عبد الله بن ثور، أحد بني قيس بن ثعلبة، وكانوا حين فارقوا نجدة بايعوا ثابتاً التمار، ثم قالوا: لا يقوم بأمرنا إلا رجل من العرب، وجعلوا الاختيار إليه، فاختار لهم أبا فديك عبد الله بن ثور، واستخفى نجدة، وأرسل أبو فديك في طلبه جماعة من أصحابه وقال: إن ظفرتم به فجيئوني به، وأتى أبو فديك إباض وبرىء وأصحابه من نجدة وقيل لأبي فديك أنك إن لم تقتل نجدة تفرق الناس عنك، فألح في طلبه، وكان نجدة مستخفيا في قرية من قرى حجر، ويقال بين حجر وجو، وكان للقوم الذين أخفوه جارية يخالف إليها راع لهم، فأتاها ليلاً وقد غسل نجدة رأسه ودعا بطيب فأخذت الجارية من الطيب شيئا فمسته، فسألها الراعي عن أمر الطيب فأخبرته خبر نجدة، وغدا الراعي إلى أصحاب أبي فديك فدلهم على مكانه فطرقوه، فنذر بهم، فأتى أخواله من بني تميم فاستخفى عندهم، وقال أتي عبد الملك فأضع يدي في يده، فقالوا: لك عندنا زاد وحملان قال: فأعهد إلى أم المطرح عهداً فأتاها فنذروا به، فأذنوا أصحاب أبي فديك بموضعه، فسبق إليه رجل من بني عقيل من الفديكية فخرج نجدة مصلتا بالسيف فضن به العقيلي عن القتل، فنزل عن فرسه ومشى معه، وقال: إن فرسي هذا فرس لا يدركه شيء، فلعلك تنجو عليه، فإن الخيل طالعة عليك، فقال: ما أحب البقاء وقد تعرضت للشهادة في مواطن ما هذا الموط بأخسها، وغشيه الوازع أخو أبي فديك لأمه، وأبو طالوت وأبو هاشم مولى بني مازن، واسمه راشد في ثمانية عشر رجلاً فيهم ثابت التمار

وجههم أبو فديك لقتل نجدة، فطعنه أبو هاشم، ويقال طعنه رجل من بني عدي بن حنيفة، وضربه القوم فقتلوه، وبقي الحنفي الذي يقال إنه طعن نجدة، فلقيه حصين بن نجدة بدمشق فقتله، فوجدوه مقتولا فأتهموا حصينا بقتله فحبسوه، ثم أخرج، وقال رجل من جرم يرثي نجدة:

أبعد أبي المطرّح يوم حجرٍ ... يقوم بسوقها أبدا مجير

فليت سيوفكم يا أهل حجر ... أتاها يوم نجدة مستعير

فأصبحت اليمامة بعد عز ... أذل رقابها الأسد العقير

فلم يستبدلوا منه ابن ثور ... فقد ضاعت بكاظمة الثغور

في أبيات.

وكان الجرمي وقوم معه من بني جرم، نزلوا قريباً من ذي المجاز، فأغار عليهم بنو قشير فأصابوا لهم أموالاً، فلما ظفر نجدة ببني كعب، رد على الجرميين ما أخذ منهم، فلذلك رثاه الجرمي، وكان نجدة ذا شجاعة وسخاء، فقال نصر بن سيار يوماً لرجل من بني حنيفة: من كان سيدكم ؟ قال: مجاعة، قال: ما أدري ما مجاعتكم من عصيدكم، والله ما كان فيكم قط أكرم كرماً ولا أعظم سؤدداً من نجدة وهو الذي يقول:

وإن جرّ مولانا علينا جريرةً ... صبرنا لها إن الكرام الدعائم

وقال أبو الحسن: كان نجدة استخلف على البحرين هميان بن عدي السدوسي، فلما وافى مالك بن مسمع ثأج بعد الجفرة، كتب هميان إلى نجدة إنه قد ورد علينا قوم لهم شرف وقديم، لو قدموا على أبي بكر وعمر لعرفا مكانهم، فإن رأيت أن أعطيهم من سهم المؤلفة فعلت، فكتب نجدة: ليس في عطية المؤلفة وقت معلوم، فأعطهم ما ترى أنه يحل ان يعطى مثلهم، فأعطاهم هميان كل ما كان في بيت المال ثم لحق بهم، وحمل نجدة مالكاً على ناقة وحمل ابنه على فرس، فكان ذلك مما أنكروه عليه.

قالوا: وفارق أبا فديك قوم حين قتل نجدة، فقتل به مسلم بن جبير، وهو من أهل الحجاز فوجأه اثنتي عشرة وجأة، وقال:

وخالفت قومي في دينهم ... خلاف صبا حين جاءت جنوبا

أرجي الإله وغفرانه ... ويرجون درهمهم والجريبا

قالوا: فقتل مسلم، وحمل أبو فديك جريحا فبرأ. وسنكتب خبر أبي فديك ومقتله في موضعه إن شاء الله.

وكان أبو فديك من الجرميين من ولد قيس بن ثعلبة بن عكابة.

خبر عبد الرحمن ابن بحدج

بن ربيعة بن سمير بن عاتك ابن قيس من بني عامر بن حنيفة

قالوا: فارق عبد الرحمن بن بحدج نجدة ناقماً عليه، فأتى فارس فقال الأعلم – وهو نعمان بن عبادة بن فياض بن شارحيل النكري من عبد القيس – لعمر بن عبيد الله بن معمر، وهو على فارس: إن دخول هؤلاء بلداً أنت فيه وهن، فندب ابن معمر قوماً مع النعمان ووجهه إلى ابن بحدج، فصير النعمان على مقدمته أبا المنازل، وسار الأعلم، وكتب إلى عمر بن عبيد الله:

فلا أعرفنكم بعدما تقرع العصا ترومون أمراً منكم متفاقما

فلما قرأ عمر البيت قال: أما النعمان فلا يرجع حتى يظفر أو يموت.

قالوا: وأصاب النعمان كسر في فخذه فأبطأ في السير، وتقدم أبو المنازل فلقي الخوارج فقاتلهم وصبروا جميعاً، ثم تحاجزوا وانحاز الخوارج، ولزموا الطريق، فلقوا النعمان بذي القاف، فقاتلهم النعمان، فانكشف أصحابه وصبر فحمل عليه حسان بن بحدج فضربه فلم يصنع شيئا، وعانقه النعمان فصارا إلى الأرض، فضغطه النعمان إلى الأرض بصلبه حتى قتله النعمان، وحمل عبد الرحمن بن بن بحدج على النعمان فقتل كل واحد منهما صاحبه ويقال بل حمل عبد الرحمن على النعمان فقتل النعمان وأتاهم أبو المنازل فقاتلهم وهو يقول:

إصبر على حظك فيما مضى فإنما النصر مع الصابر

فقتل عبد الرحمن بن بحدج، وانهزم الخوارج وتفرقوا.

قال المدائني: ذو القاف بين فارس والبحرين، وبعمان أيضاً موضع يقال له ذو القاف، وقوم يقولون: إن أبا فديك وجه ابن بحدج، والخبر الأول أثبت.

وقال المدائني: و لم يزل النعمان النكري مقيما بفارس، و لم يكن هاجر إلى البصرة، فلما قدم عمر بن عبيد الله بن معمر فارس واليا للمصعب تلقاه النعمان، وكان جسيماً طويلاً، فقال عمر: إن هذا لخليق للبأس والنجدة، فقال: من أنت ؟ قال: النعمان بن عبادة النكري، قال: أصحبني، فأكرمه وولاه شرطته، فلما وجهه إلى ابن بحدج ولى مجاعة شرطته، وتزوجت امرأة النعمان بعده رجلاً من قريش، فقال لها رجل من عبد القيس:

إنك لن تستبدلي أم أيمن طوال الليالي فانكحي أو تأيمي

فكان يمر زوجها في الطريق فينشدون هذا البيت.

وقال الهيثم: ولى عبد الملك حين قتل مصعباً يزيد بن هبيرة المحاربي اليمامة، فخرج عليه خارجي يقال له

سوار بن عبيد، فخرج إليه بأهل اليمامة فقتله، وتزوج يزيد امرأة من آل قيس بن عاصم، فأدخلت عليه وقد ألبست العصب والثياب الرقاق فقال:

للبس عباءة وتقر عيني أحب إلى من لبس الشفوف
وبكر يتبع الأظعان صعب أحب إلى من بغلٍ زفوف
وبيت تخفق الأرواح فيه أحب إلى من قصرٍ منيف

وولى بعده أدهم بن عربي.

أمر عبد الملك بن مروان

وأما عبد الملك بن مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمة بن عبد شمس بن عبد مناف، فأمه عائشة بنت معاوية بن المغيرة بن أبي العاص بن أمية، وهو الذي جدع أنف حمزة بن عبد المطلب يوم أحد، فقتل على أحد بعد انصراف قريش بثلاث، قتله علي بن أبي طالب بأمر النبي صلى الله عليه وسلم. وأمها فاطمة بنت عامر بن حزيم من بني جمح، وأمها سكينة بنت أبي معيط.

بويع له في شهر ربيع من سنة خمس وستين بدمشق، ولعبد العزيز أخيه، واستخلف في شهر رمضان سنة خمس وستين وكانت ولايته بعد مقتل عبد الله بن الزبير ثلاث عشرة سنةً سنةً وثمانية أشهر، وقتل ابن الزبير في سنة ثلاث وسبعين، وكانت فتنته تسع سنين، ومات عبد الملك وله اثنتان وستون سنة، وصلى عليه الوليد بن عبد الملك، ودفن بمقبرة الباب الصغير وذلك في سنة ست وثمانين، وكنيته عبد الملك أبو الوليد.

وقال الواقدي: مات وله ثلاث وخمسون سنة، وكان عبد الملك يلقب رشح الحجر لبخله، وأبا الذبان لنتن فمه وفساد عمور أسنانه، واجتماع الذبان عليها وعلى شفتيه، ولم يزل يتنسك قبل الخلافة، وقد روى الحديث عن عثمان وأبي هريرة وأبي سعيد الخدري، وكان معاوية ولاه ديوان المدينة بعد زيد بن ثابت الأنصاري، ولما ولى عثمان مروان البحرين، ولاه هجر فقال فيه الشاعر:

وبدارين من قريشٍ أميرٌ عبشمي نفاعه ضرّار

ويقال إنه ولد لسبعة أشهر، وقال فيه ابن قيس الرقيات:

أنت ابن عائشة التي فضلت أروم نسائها
لم تلتفت للداتها ومضت على غلوائها

وقال أبو اليقظان: العرب تسمي الأبخر أبا الذبان، فلذلك قيل لعبد الملك أبو الذبان.

وقال المدائني: كان عبد الملك آدم جميلاً أقنى كأنه من رجال يهوذ في تمامه.

وقال فيه ابن قيس الرقيات:

يعتدل التاج فوق مفرقه ... علي جبين كأنه ذهب

فسمعه رجل فقال: يعلم والله أنه قد رآه.

فولد عبد الملك: الوليد، وسليمان، ومروان الأكبر، وداود، درجا. وعائشة تزوجها خالد بن يزيد بن معاوية، وأمهم ولادة بنت العباس بن جزء بن بن الحارث بن زهير بن جذيمة بن رواحة بن ربيعة بن مازن بن الحارث بن قطيعة بن عبس، ولها يقول العجاج:

من بين مروان قريع الإنس ... وابنة عباس قريع عبس

وقال بعض الشعراء:

لقد أنجبت له إمامي بلاده ... فإنهما مستخلف ومؤمل

ويزيد ومروان الأصغر ومعاوية أمهم عاتكة بنت يزيد بن معاوية.

وهشاماً أمه أم هشام واسمها عائشة بنت هشام بن إسماعيل بن هشام بن الوليد بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم.

وأبا بكر أمه عائشة بنت موسى بن طلحة بن عبيد الله.

والحكم وأمه أم أيوب بنت عمرو بن عثمان بن عفان.

وعبد الله، ومسلمة، والمنذر، وعنبسة، ومحمداً، وسعيد الخير، وكان حين استنزل بنهر سعيد حفر النهر وعمر غيضته فلقب به وكان يزيد يقول: إن سعيد الخير لأهل لأن أستخلفه.

والحجاج وقبيصة لأمهات أولاد شتى.

وفاطمة أمها أم المغيرة بنت المغيرة بن خالد بن العاص بن هشام بن المغيرة تزوجها عمر بن عبد العزيز.

وقال أبو اليقظان: سمى عبد الملك المنذر باسم رجل من أهل الشام كان ناسكاً، وقد شهد المنذر هذا قتال حبيش بن دلجة الحنتف بالربذة، ولا أعلم له عقباً، قال وسمى قبيصة باسم قبيصة بن ذؤيب الخزاعي، وكان قبيصة على خاتم عبد الملك وبيت ماله، وولد له الوليد بن قبيصة، فدرج ولا عقب له، قال: وسمى الحجاج باسم الحجاج بن يوسف، وقال عبد الملك:

سميته الحجّاج بالحجّاج

بالناصح المعاون الدماج

نصحا لعمري غير ذي مزاج

فوهب الحجاج بن يوسف للحجاج بن عبد الملك داراً بدمشق تعرف بدار الحجاج، وكان أبو بكر ضعيفاً، فكان يسمي بكارا، حج من المدينة حين وردها ماشيا على اللبود، وقتله بعد عبد الله بن علي، وولد لعنبسه بن عبد الملك الفيض بن عنبسة لا عقب له. ووجه عبد الملك عبد الله بن عبد الملك إلى الحجاج أيام ابن الأشعث، وإلى أهل العراق، فعرض عليهم عزل الحجاج فلم يقبلوا، فأمر الحجاج بقتالهم، وولاه أخوه الوليد بن عبد الملك حمص، وغزا الصائفة وولاه مصر فمرض، فكتب إليه الوليد أن أكتب لي أموالك فقال: اكتبوها له فليتني لم أعرف الوليد ولا أباه، ومات فقال الوليد: رحم الله عبد الله خاف التبعة في الآخرة وتحرج مما أصاب وقد جعلته من ذلك في حل، فبكاه الشاعر وقال:

فهلا على قبر الوليد أخي الندى وقبر سليمان الذي عند دابق

وقبر أبي عمرو أخي وأخيهم بكيت لحزنٍ في الجوانح لاحق

وفيه يقول الشاعر:

فإن بمصر عبد اللّه يأسو ويجبر عظم ذي الكسر المهيض

وأوفد مسلمة بن عبد الملك مروان بن عبد الملك إلى يزيد بن عبد الملك بقتل يزيد بن المهلب، وأوصى عبد الملك الوليد وسليمان أن يستخلفا أحد ابني عاتكة يزيد أو مروان وهو الأصغر فمات مروان وكان ضعيفا وله يقول كثير:

أبا خالدٍ فارقت مروان عن رضا وكان يزين الأرض أن تنزلا معا

وولد لمروان هذا: معاوية بن مروان، فولد معاوية الوليد بن معاوية، وكان من رجالهم ولي دمشق وله عقب.

وللحكم بن عبد الملك بن مروان يقول رؤبة:

يا حكم الوارث عن عبد الملك

ميراث أحساب وجود منسلك

إليك أشكو عض دهرٍ منتهك

بالمنكبين والجران مبترك

وقد علمنا ذاك علماً غير شك

أنك بعد اللّه إن لم تدّرك

مفتاح حاجاتٍ أنخناهن بك

ما بعدها من طلبٍ ولا درك

وقال عبد الملك في بنيه:

يزيد زيادة الرحمن فينا ... وصاحب عزوة الأمر الشديد

ومروان الصفي صفي نفسي ... شبيه النفس مني والجدود

وعبد اللّه صاحب كل حربٍ ... وغزو تحت أبدان الحديد

فقد علقت حبّهم جميعاً ... على أنّ الخلافة للوليد

سليمان الشعار شعار قلبي ... أحبّ إلى من ذوب الشهود

ورأيي في هشام أنّ فيه ... حياةً للجنود وللوفود

وقالوا: تزوج عبد الملك شقراء بنت مسلمة بن حنظلة الطائي، وصفت له ، وكان الواصف لها ابن معرض الطائي، فقال: والله لوددت أن الله جعل حظ طيء كلها من نار جهنم في حر شقراء ليلتها هذه وكانت عظيمة الركب، ويقال بل خرج عبد الملك متنزهاً، فرأى خباءً حريداً فوقف عليه، فخرج إليه أبو شقراء فقال له عبد الملك: ما أنزلك متنحياً ؟ فقال إن لي ابنةً لها بهاء قرشية، وحسن غطفانية، وفم طائية، وجسم عامرية، فتزوجها فماتت عنده فصالحهم من ميراثها على ألف ألف درهم.

وكتب عبد الملك إلى هشام بن إسماعيل وهو بالمدينة اخطب عليّ امرأة من قريش من كمالها ومن طولها ومن بياضها فكتب إليه: إني لا أعلم هذه الصفة إلا في بنات المغيرة بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام، وكان المغيرة جميلاً، وكن بناته ذوات جمال وكمال، وللمغيرة يقول الشاعر:

ألا يا أيها الأعراب سيروا ... فما بعد المغيرة من مقام

المدائني عن إبراهيم بن سعد أن عبد الملك رأى في منامه كأن امرأته المخزومية قلعت رأسه، ثم لطعت منه عشرين لطعةً، فبعث إلى سعيد بن المسيب من سأله عن الرؤيا، فقال: تلد منه ولداً يملك عشرين سنةً، فولدت هشاماً فملك عشرين سنةً، ويقال إنه رأى أيضاً كأنه وتدت في ظهره أوتاد، فقصت رؤياه على سعيد، فقال: يخرج من صلبه أولاد يلون الخلافة.

وتزوج عبد الملك ابنةً لعلي بن أبي طالب، وتزوج أم أبيها بنت عبد الله بن جعفر فطلقها، وقد ذكرنا قصتها فيما تقدم من أخبار آل أبي طالب.

وتزوج أم الحكم بنت ذؤيب بن حلحلة بن عمرو الخزاعي، وهي أخت قبيصة بن ذؤيب صاحبه.

وأما مسلمة بن عبد الملك فسنذكره بعد هذا الموضع إن شاء الله، وكان صاحب رأيهم، وفتح الطوانة وغزا الصوائف غير مرة ومات بالحانوتة من مضر سنة إحدى وعشرين ومائة وكان مولده عام أخرج ابن الزبير بني أمية من المدينة.

ما قيل في عبد الملك وأخباره

بعد مقتل ابن الزبير

المدائني عن مسلمة قال: رأى معاوية عبد الملك فقال: هذا أبو الملوك.

المدائني عن عبد الله بن بكر السهمي قال: قال عمرو بن العاص: كنت عند معاوية وعنده عبد الملك، فلما قام أتبعه بصره، ثم قال لله در هذا الفتى ما أعظم مروءته.

المدائني عن المنهال بن عبد الملك قال نظر رجل إلى عبد الملك، وكانت في رأسه شامة مدورة، فقال: أما ليملكن فقال: ليت لنا من عرفج خوصةً.

المدائني وغيره قالوا دخل عبد الملك على يزيد بن معاوية فقال يا أمير المؤمنين إن لك أرضاً بوادي القرى ليست لها غلة فإن رأيت أن تأمر لي بها فقال يزيد: إنا لا نخدع عن صغير ولا نبخل بكبير، قال: فإن فيها كذا وكذا، قال: هي لك، قال: فلما ولى قال يزيد: هذا الذي يقال إنه يلي بعدنا، فإن كان ذلك باطلاً فقد وصلناه، وإن كان حقاً فقد صانعناه.

المدائني قال: قال عبد الله بن صفوان رأى عثمان عبد الملك فضمه إليه وقال: رأيتني أخذت برنسي فوضعته على رأسه، وقد ولده أبو العاص مرتين، ولئن خرجت مني إليه ما ذاك بكبير.

المدائني والحرمازي عن العتبي قالا: قال سعيد بن العاصر، وبعضهم يقول عمرو بن العاص: لله در عبد الملك ما زلت أعرفه آخذاً بأربع تاركاً لثلاث، آخذاً بقلوب الرجال إذا حدث، وبحسن الإستماع إذا حدث، وبترك الجدال إذا حولف، وبإظهار البشر إذا لقي، تاركاً لخلة الظنين في دينه، وملاحاة الغلق خوفاً لشذاته، وللدخول فيما لا يعنيه هذا مع حلم وعلم.

المدائني قال: وصف رجل عبد الملك، فقال: إنه ليترك مخالفة الجليس توقياً لسوء المجالسة، ويدع مماراة اللجوج كراهةً لعداوته.

المدائني عن أبي هاشم الحراني، كاتب بشر بن مروان قال: قال عبد الملك للشعبي، حين وفد عليه وحدثه:

لقد حدثتني بأحاديث قد مرت بمسامعي، ولكني أنصت حتى تظن أني لم أسمعها، وإن ذلك لطرفا من الأدب.

حدثني الحسين بن الأسود عن يحيى بن آدم، عن وكيع قال: حدثنا الأعمش عن ذكوان قال: كان فقهاء المدينة يعدون أربعةً، منهم عبد الملك بن مروان.

حدثني روح بن عبد المؤمن قال: حدثنا وهب بن جرير عن أبيه عن نافع قال: لقد رأيت المدينة وما بها شاب أشد تشميراً، ولا أملك لنفسه، ولا أظهر مروءة من عبد الملك بن مروان.

قال: وكان يقال لعبد الملك بالمدينة حمامة المسجد لعبادته.

قال: وشكي بعض العمال إلى ابن عمر، وعبد الملك يصلي إلى سارية، فقال ابن عمر: لو وليهم عبد الملك هذا ما رضوا به، يضرب به المثل في الفضل والصلاح.

المدائني وغيره إن عبد الملك قال حين وجه يزيد بن معاوية الجيش إلى ابن الزبير: ليت السماء وقعت على الأرض، إعظاماً لذلك، ثم إنه ابتلي بعد ذلك بأن وجه الحجاج فقتله بمكة ورمى البيت.

وحدثني العمري عن الهيثم بن عدي عن مجالد عن الشعبي قال: دخلت على عبد الملك فقلت: أنا الشعبي يا أمير المؤمنين. فقال: لو لم نعرفك لم نأذن لك، فلم أدر ما أقول، فقال: علم بني الشعر، فإنه ينجدهم ويمجدهم.

وحدثني هشام بن عمار عن أبيه قال. مر ابن زمل العذري بسعيد بن المسيب فدعاه فجاءه، وهو في المسجد، فقال: بلغني إنك مدحت عبد الملك فأنشدني ما قلت فيه فأنشده:

فما عابتك في خلقٍ قريش ... بيثرب حين أنت بها غلام

فقال: صدقت كذا كان وهو عندنا.

وقال المدائني عن الأشياخ: بايع مروان بن الحكم لأبنيه: عبد الملك، وعبد العزيز حين رجع من مصر بالصنبرة، أو بدمشق وولى عبد الملك فلسطين، فلما مات مروان أتاه عبد الرحمن بن أم الحكم، فسلم عليه بالخلافة. وقال المدائني: لما قتل عبد الملك عمرو بن سعيد قال ابن الزبير: إن أبا الذبان قتل لطيم الشيطان "وكذلك نولي بعض الظالمين بعضاً بما كانوا يكسبون" وبلغ ذلك ابن الحنفية فقال: "فمن نكث فإنما ينكث على نفسه" يرفع له يوم القيامة لواء بغدرته، ويلعنه الله والملائكة.

وقال الواقدي: كان عبد الملك يكنى أبا الوليد عابداً ناسكاً قبل الخلافة، وسمع من عثمان، وأبي سعيد الخدري، وأبي هريرة، ومات بالشام سنة ست وثمانين، وقبض له ثمان وخمسون سنةً.

وروى مروان عن عمر وعثمان وهاجر النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة وله ثمان سنين، ومات سنة

خمس وستين وله ثلاث وسبعون سنةً.

وقالوا: كتب عبد الله بن عمر حين قتل ابن الزبير إلى عبد الملك بن مروان: من عبد الله بن عمر، سلام عليك، فإني مقر لك بالسمع والطاعة على سنة الله عز وجل وسنة رسوله ما استطعت.

المدائني عن محمد بن صالح عن إسماعيل بن أبي خالد عن الشعبي قال: كتب ابن عمر إلى عبد الملك بالبيعة، فقيل لعبد الملك: أترضى بأن يكتب إليك بمثل هذا ؟ فقال: هذا من أبي عبد الرحمن كثير.

وكتب ابن الحنفية ببيعته، وقد كتبنا خبره وخبر عبد الملك والحجاج فيما تقدم من خبر ابن الحنفية.

قالوا: ووفد الحجاج إلى عبد الملك بعد قتل ابن الزبير، وأوفد معه ابن الحنفية، وعبد الله بن عمرو بن عثمان، وعمر بن عبد الرحمن بن عوف، وعيسى بن طلحة، ومحمد بن سعد بن أبي وقاص في رجال آخرين، قالوا: فدخل عيسى بن طلحة على عبد الملك في هذه الوفادة، ويقال في غيرها، فسأله أن يخليه، فقال: إنه ليس دون الحجاج سر، فقال: والله لئن لم تخلني لاقبلت صلتك ولأرجعن ساخطاً، قد قطعت رحمي فأخلاه، فقال: يا أمير المؤمنين سلطت علينا هذا الغلام من ثقيف، لا يعرف لقومك حقاً، فقال: إنكم ما تعرفون منه شيئاً إلا وأنا عارف به، وأنا عازله عنكم عزلا جميلاً، فلا يسمعن هذا منك أحد فإني أخبره أنك أثنيت عليه، وخرج فأخبر عبد الملك الحجاج أن عيسى أثنى عليه، فأتى الحجاج عيسى فوقف عيسى على بابه ووصله. وقال بعضهم: ان المتكلم بهذا الكلام والذي أخلاه عبد الملك عمر بن عبد الرحمن بن عوف.

حدثني حفص بن عمر العمري عن الهيثم بن عدي عن يونس بن يزيد الأيلي عن الزهري قال: سمع عبد الملك بعض أهل الشام ممن توجه إلى ابن الزبير أيام يزيد بن معاوية يقول: والله لنرمين البيت بالحجارة والنار إن أقام الملحد ابن الزبير على ما هو عليه، على رغم أنف من رغم، فقال عبد الملك: فإني أشهد الله أن أنفي إن كان ذلك، وأعوذ بالله، أول راغم، قال: فلم يلبث أن رماه الحجاج وهو عامله وصاحبه بأمره.

وحدثني أبو مسعود الكوفي عن عوانة عن أبيه قال: كان عبد الملك أول خليفة بخل، وكان يقول: إعطاء الشعراء من السرف، ولكنهم قوم يتأتى لهم من الذم السائر مالا يتأتى لغيرهم فأنا أتقيهم ببعض النوال ولا أتجاوز القصد.

وحدثني المدائني عن مسلمة بن محارب قال: لما مات مروان صلى عليه عبد الملك ودفنه، ثم صعد المنبر فقال: إني والله ما أنا بالخليفة المصانع، ولا الخليفة المستضعف، ولا الخليفة المطعون عليه، إنكم تأمرونا بتقوى الله وتنسون ذلك من أنفسكم، والله لا يأمرني أحد بعد يومي هذا بتقوى الله عز وجل إلا ضربت

عنقه ثم نزل.

المدائني عن عوانة قال: قال عبد الملك: زينة الكهل العلم، وجنته الحلم.

المدائني قال: تزوج عبد الملك ولادة بنت العباس العبسي فولدت له الوليد وسليمان، فقال عثمان بن مسعود العبسي يوماً للحضين بن المنذر: يا حضين أنت عجوز بكر بن وائل، فقال: لا ولكني كبيرها وسيدها، وأنت من قوم سادهم في الجاهلية عبد يعني عنترة وتقدمهم في الإسلام بحر إن ندى نديتم، وإن جف جففتم.

حدثني الحسين بن علي بن الأسود عن أبي بكر بن عياش عن حصين قال: قال الشعبي: وفدت على عبد الملك، فما أخذت في حديث أرى انه لم يسمعه إلا سبقني إليه، وربما غلطت في الشيء وقد علمه فيتغافل عني تكرما.

المدائني قال: أتى رجل عبد الملك فقال له: إن لك عندي يا أمير المؤمنين نصيحة في فلان، فقال له: نسمعها منك على أنك إن كنت صادقاً مقتناك، وإن كنت كاذباً عاقبناك، وإن أحببت أن نقيلك أقلناك ؟ قال: فأقلني، قال: قد فعلت.

الحرمازي عن جهم السليطي قال: دخل أعرابي على عبد الملك فسأله فقال: إن علينا في مالنا حقوقاً هي أوجب من حقك، فقال: والله لو كنت مثلك ما منعت راغباً، فقال: أعطوه، فأبى قبول عطيته وخرج، فقيل له: لم امتنعت من قبول صلته ؟ فقال: إن يد البخيل ثقيلة.

وحدثني عباس بن هشام عن أبيه عن عوانة قال: دعا عبد الملك بمؤدب ولده فقال: إني قد اخترتك لتأديب ولدي وجعلتك عيني عليهم وأميني، فاجتهد في تأديبهم ونصيحتي فيما استنصحتك فيه من أمرهم، علمهم كتاب الله عز وجل حتى يحفظوه وقفهم على ما بين الله فيه من حلال وحرام حتى يعقلوه، وخذهم من الأخلاق بأحسنها، ومن الآداب بأجمعها، وروهم من الشعر أعفه، ومن الحديث أصدقه، وجنبهم محادثة النساء، ومجالسة الأظناء، ومخالطة السفهاء، وخوفهم بي، وأدبهم دوني، ولا تخرجهم من علم إلى علم حتى يفهموه، فإن ازدحام الكلام في السمع مضلة للفهم، وأنا أسأل الله توفيقك وتسديدك، ثم أسمى له الرزق، وبدأه بصلة حسنة.

حدثني أبو أيوب الرقي المؤدب عن أبيه قال: دعا عبد الملك مؤدب ولده فقال له: رو ولدي ما في هذا القرطاس، وإذا فيه وصية معاوية فكانت:

بسم الله الرحمن الرحيم يا بني أمية إنه لما قرب مني ما كان بعيداً، وخفت أن يسبق الموت إلي، ويسبقكم بي سبقته إليكم بالموعظة، لأبلغ عذراً، وإن لم أرد قدراً، إن الذي أخلفه لكم من دنياي أمر تشاركون فيه، أو تقبلون عليه، وإن الذي أخلف لكم من رأيي مقصور عليكم نفعه إن فعلتموه، مخوف عليكم

ضرره إن ضيعتموه فاجعلوا مكافأتي قبول نصيحتي، وإن قريشاً شاركتكم في أنسابكم وتفردتم دونها بأفعالكم، فقدمكم ما تقدمتم فيه إذ أخر غيركم ما تأخروا له، ولقد جهر لي فعلمت، ونعم لي ففهمت حتى كأني أنظر إلى أولادكم بعدكم كنظري إلى آبائهم قبلهم، إن دولتكم ستطول وكل طويل مملول، وكل مملول مخذول، فإذا انقضت مدتكم كان أول ذلك اختلافكم بينكم، واتفاق المختلفين عليكم، فيدبر الأمر بضد ما أقبل به، فلست أذكر عظيماً ينال منكم ولا حرمةً تنتهك لكم إلا وما أكف عن ذكره أعظم منه، فلا معول عليه عند ذلك أفضل من الصبر واحتساب الأجر، فيا لها دولة أنست أهلها الدول في الدنيا، والعقوبة في الآخرة، فيمادكم القوم دولتكم تماد العنانين في عنق الجواد، فإذا بلغ الله بالأمر مداه، وجاء الوقت الذي حده رسول الله صلى الله عليه وسلم، ضعفت الحيلة، وعزب الرأي وصارت الأمور إلى مصائرها فأوصيكم عندها بتقوى الله عز وجل الذي يجعل لكم العاقبة إن كنتم متقين.

حدثني هشام بن عمار عن الوليد عن روح بن جناح عن الزهري أن عبد الملك رأى عند بعض ولده حديث المغازي، فأمر به فأحرق، وقال: عليك بكتاب الله فاقرأه، والسنة فاعرفها واعمل بها.

وكان المنصور أمير المؤمنين يقول الخلفاء ثلاثة: معاوية وكفاه زياد، وعبد الملك وكفاه الحجاج، وأنا ولا كافي لي.

وقال المنصور أيضاً وذكر ملوك بني أمية: كان عبد الملك أشدهم شكيمة، وأمضاهم عزيمة، وكان هشام رجلهم.

حدثني الحرمازي عن أبي عبيدة قال: كانت عبس تستطيل بتزويج عبد الملك ولادة بنت العباس العبسي، فقال الوليد بن القعقاع العبسي ليزيد بن عمر بن هبيرة: يا بن الفرار، فقال يا بن الضراط، قال الوليد: يا بن اللخناء، قال:

بل أنت نزوة خوّارٍ على أمةٍ ... لا يدرك الحلبات اللؤم والخور

قال ابن هبيرة: يا بن الفجواء لقد قدمتك أعجاز النساء وقدمني صدور الخيل والقنا.

وحدثني هشام بن عمار قال: حدثني الوليد بن مسلم قال: سمعت شيخا من أهل دمشق مسنا يحدث عن أبي الزعيزعة قال: قال عبد الملك للهذيل بن زفر، وحاتم بن النعمان الباهلي: إني أريد اختصاصكما ومجالستكما، فلا تمدحاني في وجهي، فإني اعلم بنفسي منكما، ولا تطريا عندي ظنيناً فأستغشكما، ولا تكذباني فليس لمكذوب رأي، ولا تغتابا عندي أحداً، وقولا ما شئتما.

وحدثني عمر بن بكير عن الهيثم بن عدي عن ابن عياش الهمذاني قال: دعا عبد الملك الهذيل بن زفر بن الحارث الكلابي، وحاتم بن النعمان الباهلي، فقال: إني قد عزمت على ان تجالساني وتسامراني، فلا

تمدحاني في وجهي فإني أعلم بنفسي منكما، ولا تطريا عندي فاسقاً فأمقتكما، ولا ظنيناً فأستغشكما، ولا تكذباني فإنه لا رأي لمكذوب، ولا تغتابا عندي أحداً، وقولا بعد ذلك ما شئتما.

قال: فكان الهذيل يتبع هواه فيما له وعليه مما يشينه ويزينه، وكان حاتم بن النعمان يخالفه فيما خاف عليه عاقبته وضرره، فقال له الهذيل: يا أمير المؤمنين إنما يخالفك حاتم ليري الناس جرأته عليك، فوقع ذلك في نفس عبد الملك فجفاه وحجبه، فبينا عبد الملك يسير في مسير له: إذ بصر بحاتم في الموكب فدعا به، وقال له: مالي لا أراك في مسير إذا سرت، ونزولي إذا نزلت ؟ فقال: ما أبرح من عسكر أمير المؤمنين أصلحه الله، ولا أخرج عنه، وقال:

إن مسيري في المسير ومنزلي	لبالمنزل الأقصى إذا لم أقرّب
ولست وإن أدنيت يوماً بقائل	مقالة ذي غش لكم لتحبب
وقد عدها قوم كثير تجارةً	ويمنعني من ذاك ديني ومنصبي
وإني أرى حق الإمام ونصحه	وطاعته فرضاً كما هي للأب

فدعاه وأدناه وسمع منه.

حدثني محمد بن مصفى الحمصي عن الوليد عن بعض ولد عمر بن عبد العزيز قال: قدم عبد العزيز بن مروان علي أخيه عبد الملك من مصر في بعض الأمور، فلما أراد الشخوص إليها قال له: انظر ما أوصيك به فاجعله لك إماماً: ابسط بشرك، وألن كنفك، وآثر الرفق في الأمور فهو ابلغ بك، وانظر حاجبك فليكن من خير أهلك، فإنه وجهك ولسانك، ولا يقفن أحد ببابك إلا أعلمك مكانه لتكون أنت الذي تأذن له أو ترده، وإذا خرجت إلى مجلسك فابدأ جلساءك بالكلام يأنسوا بك، وتثبت في قلوبهم محبتك، وإذا انتهى إليك أمر مشكل فاستظهر عليه بالمشاورة فإنها تفتح مغاليق الأمور المبهمة، واعلم أن لك نصف الرأي، ولأخيك نصفه، ولن يهلك أمرؤ عن مشورة، وإذا سخطت على أحد فأخر عقوبته فإنك على العقوبة بعد التوقف عنها أقدر منك على ردها بعد إمضائها.

حدثني عباس بن هشام عن أبيه عن عوانة قال: كان عبد الملك جالساً وعنده قوم من الأشراف، فقال لعبيد الله بن زياد بن ظبيان البكري: يا عبيد الله بلغني أنك لا تشبه أباك ؟ فقال: بلى والله إني لأشبه به من الماء بالماء، والقتة بالقتة، والتمرة، بالتمرة، والغراب بالغراب، ولكن إن شئت أخبرتك بمن لم تنضجه الأرحام، و لم يولد لتمام، و لم يشبه الأخوال والأعمام. قال: ومن هو ؟ قال: سويد بن منجوف فلما خرج عبيد الله وسويد، قال سويد: والله ما يسرني بمقالتك له حمر النعم، قال عبيد الله: وما يسرني والله

باحتمالك إياي وسكوتك عني سودها، وإنما عرض بعبد الملك، وكان ولد لسبعة أشهر.

قالوا: ودخل أبو العباس الكناني الأعمى على عبد الملك فقال له: أخبرني عن مصعب فأنشده قوله فيه:

يرحم اللّه مصعباً إنه ما	ت كريماً ورام أمراً عظيما
طلب الملك ثمّ مات حفاظاً	لم يعش باخلاً ولا مذموما
ليت من عاش بعده من قريش	موتوا قبل وعاش سليما

فقال عبد الملك: صدقت كان مصعب نابا من أنياب قريش، وصنديداً من صناديدها.

حدثني أبو هشام الرفاعي عن عمه كثير بن محمد عن ابن عياش المنتوف قال: قال عبد الملك: شممت الطيب حتى ما أبالي رائحة ما وجدت، وأتيت النساء حتى ما أبالي رأيت امرأةً أم حائطاً، وأكلت الطعام حتى ما أبالي ما أكلت، وما بقيت لي لذة إلا في محادثة رجل ألقي التحفظ بيني وبينه.

وحدثني أبو أيوب الرقي عن الحجاج بن أبي منيع الرصافي قال: أوصى عبد الملك ولده، وأهل بيته، فقال: يا بني مروان ابذلوا معروفكم، وكفوا أذاكم، واعفوا إذا قدرتم ولا تبخلوا إذا سئلتم، ولا تلحفوا إذا سألتم، فإنه من ضيق ضيق عليه، ومن وسع وسع عليه.

المدائني قال: قيل لعبد الملك: قد شبت يا أمير المؤمنين ؟ فقال: وكيف لا أشيب وأنا أعرض عقلي على الناس في كل جمعة - يعني الخطبة -.

حدثني أبو صالح الأنطاكي عن الحجاج بن محمد عن ابن جريج عن إسماعيل بن محمد قال: قدم علينا عبد الملك حاجاً في سنة خمس وسبعين، فصعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أما بعد ذلكم أيها الناس فلست بالخليفة المستضعف - يعني عثمان - ولا بالخليفة المداهن - يعني معاوية - ولا بالخليفة المأفون - يعني يزيد - ألا وإن من قبلي من الولاة كانوا يأكلون ويؤكلون، وإني والله لا أداويكم إلا بالسيف، فمن أحب أن يبدي صفحته فليفعل، فلا تكلفونا أعمال المهاجرين، ولستم تعملون أعمالهم، فوالله ما زلتم تزدادون استجراحاً ونزداد لكم عقوبةً، حتى التقينا نحن وأنتم عند السيوف، هذا عمرو بن سعيد قال براسه كذا، فقلنا بسيفنا كذا، ألا فليبلغ الشاهد الغائب إنه ليست من لعبة إلا ونحن نحتملها، ما لم تبلغ أن تكون صعود منبر أو نصب راية، ألا وإن جامعة عمرو بن سعيد التي جعلناها في عنقه عندنا، وإني أعطي الله عهداً أن لا أجعلها في عنق أحد فأخرجها منه إلا صعداً، أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم.

المدائني عن مسلمة قال: قال عبد الملك: إن الخلفاء قبلي كانوا يداوونكم بأدوائكم، فيأكلون ويؤكلون، وإني والله لا أداويكم، إلا بالسيف، إن الله عز وجل فرض فرائض وحد حدوداً، فما زلتم تزدادون في الذنوب ونزداد في العقوبة حتى اجتمعنا نحن وأنتم عند السيف، فليبق امرؤ على نفسه.

المدائني عن ابن جعدبة قال: هدم ابن الزبير الدور التي كانت حول الكعبة، وقال: أنتم حللتم على الكعبة و لم تحل عليكم، و لم يعطهم أثمان دورهم، فلما قتل تظلموا إلى عبد الملك فقال: إن كان أخذ حقاً فليس لكم عليه سبيل، وإن كان ظلمكم، فإني لا أحب إخراجه من الظلم.

قالوا: دخل حميد بن ثور الهلالي على عبد الملك فقال له: ما الذي أقدمك يا حميد ؟ فقال:

أتاك بنا اللّه الذي فوق من ترى

قال عبد الملك: وماذا ؟ قال:

وفضل معروف عليك دليل

قال: وماذا ؟ قال:

ومطوية الأقراب أما نهارها فسير وأمّا ليلها فذميل

فوصله وأعطاه.

المدائني قال: خطب عبد الملك أهل المدينة. وقد قدمها يريد الحج فقال: إني لأعلم أني لا أحبكم ما ذكرت قتل عثمان، وأنكم لا تحبوني ما ذكرتم الحرة وحبيش بن دلجة، فأنا وأنتم كما قال الشاعر:

أبى لي قبرٌ لا يزال مواجهي وضربة فأسٍ فوق رأسي فاقره

قال: وكان عبد الملك يتهدد أهل بيته بمثل ما صنع بعمرو بن سعيد، فكتب إليه عبد الله بن عمرو بن عثمان: إنك قد عرفت بلاء عثمان عندك، وعند أهل بيتك، ورفعه أقداركم، وما أوصاك به مروان من قضاء دين عمرو بن عثمان، وتأخيرك ذلك، فإن تؤثر ما أوصاك به أبوك فأهله نحن، وإلا تفعل فسيغني الله عنك والسلام.

وكان مروان أوصى عبد الملك بقضاء دين عمرو، فكتب إليه عبد الملك: قد أتاني كتابك، وعمرو بن سعيد كان أقرب منك رحماً، وأوجب علي حقاً، فأخطأ موضع قدمه، ففرقت بين رأسه وجسده، وقد هممت بأن الحقك به.

فكتب إليه عبد الله بن عمرو: أتاني كتابك بما ذكرت مما هممت، فإن تفعل فإني رجل معرق لي في الشهادة، أنا ابن أمير المؤمنين عثمان، وابن أمير المؤمنين، عمر، وكانت أمه حفصة بنت عبد الله بن عمر.

المدائني عن علي بن حماد قال: قال عبد الملك السياسة هيبة الخاصة، مع صدق مودتها، وإفساد قلوب العامة بالإنصاف لها، واحتمال هفوات الصنائع، فإن شكرها لأقرب الأيادي إليها.

حدثني عباس بن هشام الكلبي عن أبيه عن أبي مخنف وغيره أن عبد الملك كان فاسد الفم، فوقعت فيه

الإكلة، فكان ينادي يا أهل العافية لا تستقلوها، فيسمع صوته بذلك من عدة منازل، فلما اشتدت به العلة دعا بنيه فقال لهم حين حضروا: يا بني أوصيكم بتقوى الله فإنها عصمة باقية وجنة واقية، وقروا كبيركم وأرحموا صغيركم، وابذلوا للناس معروفكم، وجنبوهم أذاكم، وأكرموا مسلمة بن عبد الملك فإنه سنكم الذي به تتزينون، ونابكم الذي عنه تفترون، وسيفكم الذي به تصولون، فاقبلوا قوله، واصدروا عن رأيه، وأسندوا جسيم أمركم إليه، وأكرموا الحجاج بن يوسف، فإنه وطأ لكم المنابر ودوخ لكم البلاد، قد عرفتم بلاءه في الملحد ابن الزبير، وفي طغاة أهل العراق، واجتهاده في طاعتنا، ومحاماته علينا ولم يلبث أن مات، فصلى عليه الوليد.

المدائني عن عامر بن حفص قال: مرض صديق لعبد الملك بن مروان من جرح كان به، فقال لروح بن زنباع الجذامي: أتيت فلاناً ؟ قال: نعم، قال: فأين جرحه ؟ قال في عجانه، قال: مه، ثم قال لشبة بن عقال: اذهب فانظر أين جرحه، فمضى ثم أتاه فقال: جرحه بين الثنة والصفنة، وهي جلدة الخصيتين، فقال عبد الملك لروح: قل كذا.

المدائني عن خالد بن يزيد بن بشر عن أبيه: إن عبد الملك أتي برجل من قيس فقال له: زبيري عميري يعني عمير بن الحباب، فقال له: والله لا يحبك قلبي أبداً، قال: يا أمير المؤمنين إنما يبكي على الحب المرأة، ولكن عدلاً وإنصافاً.

حدثني حفص بن عمر بن الهيثم بن عدي عن عوانة وابن عياش قالا: دخل الهيثم بن الأسود النخعي على عبد الملك، وقد أتي بخارجي من النخع، وعبد الملك يحلف ليقتلنه فقال للهيثم: هذا رجل من قومك، قال: يا أمير المؤمنين فهب جاني قوم لوافدهم، قال: هو لك، فخرج الهيثم والخارجي معه وهو يقول: تألى على الله فكذبه، وغالب الله عز وجل فغلبه. وقوم يزعمون أن الهيثم قال هذا لمعاوية، وقوله إياه لعبد الملك أثبت.

المدائني عن شبيب بن شبة قال: قال أمير المؤمنين المنصور – وذكر بني أمية – أما عبد الملك فكان جباراً لا يبالي ما أقدم عليه، وأما الوليد فكان مجنوناً، وأما سليمان فكان همه بطنه، وأما عمر بن عبد العزيز فكان أعور بين عميان، وأما يزيد بن عبد الملك فكان ركيكا ماجناً، ورجل القوم هشام.

المدائني عن مسلمة قال: وفد الحجاج بن يوسف على عبد الملك، فدخل عليه وعنده خالد بن يزيد بن معاوية فقال له خالد: إلى كم هذا البسط، إلى كم هذا القتل ؟ فقال الحجاج: ما دام بالعراق رجل يزعم أن أباك كان يشرب الخمر، فأسكته.

حدثني أبو مسعود الكوفي عن ابن الكلبي عن عوانة قال: دخل ولد مسلم بن عقبة المري على عبد الملك،

فقال لهم: إن أباكم كان جلداً لئيماً، فمضى بجلده وخلف فيكم لؤمه فلا حاجة لنا بكم.

المدائني عن عوانة إن حسان بن مالك بن بحدل الكلبي، ومنظور بن زيان بن سيار مرضا، فعادهما عبد الملك، وهو خليفة فبدأ بحسان، ثم بمنظور، ثم خرج وهو يقول:

فما لي في دمشق ولا قراها مبيت إن عرضت ولا مقيل

وما لي بعد حسّانٍ سميرٌ وما لي بعد منظورٍ خليل

وحدثني عباس بن هشام الكلبي عن أبيه عن عوانة قال: مرض حسان بن مالك بن بحدل، ومنظور بن زيد بن أفعى الكلبي أحد بني حارثة بن عبد ود، فعادهما عبد الملك وقال:

فما لي في دمشق ولا قراها مبيت إن عرضت ولا مقيل

وما لي بعد حسّان سميرٌ وما لي بعد منظورٍ خليل

وهذا أثبت وأصح.

المدائني عن زيد بن عياض بن جعدبة قال: حج عبد الملك، فلقيه عمر بن عبد الله بن أبي ربيعة بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم الشاعر، فلما سلم عليه قال: ويحك أما ترعوي من فتونك، لقد علمت قريش أنك من أطولها صبوةً، وأبطأها توبةً، وجفاه فقال عمر: يا أمير المؤمنين بئست التحية من ابن العم لابن عمه على طول النوى. وقيل له: يا أمير المؤمنين سلم عليك ابن أبي ربيعة، وهو فتى قريش وشاعرها فلقيته بالغلظة والجفوة، فلو دعوته فآنست وحشته، وبسطته، فدعاه، فدخل عليه، وجارية تغمز رجله، وأخرى تغمز رأسه، فقال له: إني كنت ضجراً فأسمعتك ما لم أكن أحب أن أقول مثله لكن فسلني حوائجك، فقال: يا أمير المؤمنين قد علمت قريش أني من أكثرها مالاً وأحسنها حالاً، وأنضها عيناً، وأقلها ديناً، وأعظم حوائجي بقاؤك. ثم انصرف، فقيل له: يا أبا الخطاب دعاك أمير المؤمنين، فعرض عليك الحوائج فلم تسأله شيئاً ؟ فقال: إنه أجلس القمر عند رجله، والشمس عند رأسه، ثم قال: تصدق، وما كان ذاك ليكون أبداً.

قال القاسم بن سلام: يقال أن معاوية أو عبد الملك قال: ما غضبي على من أملك فأنا أقدر عليه وما غضبي على من لا أملك ويدي لا تناله.

وحدثني عمر بن بكير عن هشام ابن الكلبي عن ابن مسكين المديني عن أبيه قال: حج عبد الملك فمر بمترل حبى المدينية بالمدينة، وكان فتيان قريش يجلسون إليها فيتحدثون عندها، فأشرفت عليه ونظر إليها وهي تدعو له، فوقف وقال: يا حبى أنا عبد الملك، فقالت: قد علمت فبأبي أنت وأمي، الحمد لله الذي أراني وجهك قبل موتي، كيف أنت يا سيدي ؟ قال: بخير يا حبى كيف ماؤك المبرد، ومن كان يغشاك

من فتيان قريش ؟ قالت: بخير يا أمير المؤمنين، أقتلت أخاك عمرو بن سعيد ؟ قال: نعم والله ويعز علي، ولكنه أراد قتلي، قالت: فلا أحاله، فأمر لها بخمسمائة دينار وأهدت له أشياء فقبلها.

حدثني العمري عن الهيثم بن عدي عن ابن عياش عن الشعبي قال: دخل محمد بن أسامة بن زيد على عبد الملك فقال له: ابن كم كان أبوك حين عقد له النبي صلى الله عليه وسلم على الجيش ؟ قال ابن سبع عشرة سنةً، قال: فهؤلاء يعيبوننا حين عقدنا للوليد وهو ابن بضع وعشرين سنةً.

المدائني قال: قال عبد الملك: ظلم الناس عروة بن الورد حين قدموا عليه حاتم طيء في السخاء، لقد كان سخياً حازماً.

حدثني أبو محمد النحوي المعروف بالتوزي عن الأصمعي عن أبي عمرو بن العلاء قال: نازع رجل من قريش رجلاً من بني تميم، فقال التميمي: أما قريش فلها فضلها ولكن منا الأحنف بن قيس أحلم الناس، وإياس بن قتادة أحمل الناس، حمل دماء الأزد، وفارس العرب الحريش بن هلال، فبلغ ذلك عبد الملك بن مروان، فقال: قد كان الأحنف حليماً، وكان إياس حمولاً، وأما الحريش فإن عباد بن الحصين أولى بما وصفه به منه.

المدائني إن عبد الملك حج فنزل بالمدينة درا مروان، فمر الحجاج بخالد بن يزيد بن معاوية وهو قاعد في المسجد وعلى الحجاج سيف محلحل وهو يخطر، فقال رجل لخالد: من هذا الخطار ؟ قال خالد: بخ بخ هذا عمرو بن العاص، فقال الحجاج: أقلت هذا عمرو بن العاص ؟ ما يسرني أن العاص ولدني ولكني إلى الأشياخ من ثقيف والعقائل من قريش، وأنا الذي جمعت مائة ألف سيف بسيفي هذا وكلهم يشهد أن أباك كان يشرب الخمر، ويضمر الكفر. ثم ولى وهو يقول: بخ بخ هذا عمرو بن العاص.

حدثني محمد بن حبيب مولى بني هاشم عن أبي فراس السلمي عن هشام ابن الكلبي عن عوانة قال: ولى عبد الملك الحجاج مكة سنتين ثم ضم إليه المدينة وكان يتولاها قبله طارق ثم ولاه العراق، فاستخلف على مكة عبد الرحمن بن نافع بن الحارث بن جبالة بن عمير الخزاعي، وكان نافع قد ولي مكة لعمر بن الخطاب، وولى المدينة عبد الله بن قيس بن مخرمة بن عبد المطلب بن عبد مناف، فأما عبد الله بن قيس فعزله عبد الملك، وقال للحجاج: وليته وهو من أحمق أهل بيت من قريش ؟ وولى المدينة يحيى بن الحكم بن أبي العاص وأقر عبد الرحمن بن نافع على مكة ما شاء الله عز وجل.

وقال أبو الحسن المدائني: كان الحجاج على مكة سنتين، وكان طارق على المدينة ثم ضمها عبد الملك إلى الحجاج فاستخلف عليها عبد الله بن قيس بن مخرمة، ثم ولى الحجاج العراق فاستخلف على مكة والمدينة عبد الله بن قيس بن مخرمة، فبعث عبد الملك على مكة نافع بن علقمة بن صفوان الكناني، وولى المدينة

يحيى بن الحكم، ثم ولى عبد الملك المدينة أبان بن عثمان، وولى عبد الملك اليمامة يزيد بن هبيرة المحاربي، ثم إبراهيم بن عربي، وولى الموصل يوسف بن الحكم بن أبي العاص، ولما مات عبد العزيز بمصر ولاها عبد الملك ابنه عبد الله بن عبد الملك.

وقال المدائني: بلغ عبد الملك أن بعض عماله يقبل الهدايا فأشخصه إليه، فقال له: أقبلت هديةً مذ وليت ؟ قال: يا أمير المؤمنين بلادك عامرة، وخراجك زاج وافر، ورعيتك على أفضل حال، قال: أجب عما سألتك عنه ؟ قال: نعم قد قبلت، فقال لئن كنت قبلت هدية و لم تعرض عليها إنك للئيم ولئن كنت أنلت مهديها ما كافأته به من مال المسلمين، أو قلدته من عملك ما لم تكن لتقلده إياه قبل هديته إنك لخائن جائر، ولئن كنت عوضت المهدي إليك من مالك ما اقمك عند من ائتمنك، وأطمع فيك أهل عملك إنك لأحمق، وإن من أتى أمراً لم يخل فيه من لؤم أو حمق لحقيق أن لا يصطنع ثم عزله.

المدائني قال: وفد إلى عبد الملك رجل من أهل المدينة كان يألفه أيام تنسكه فأذن له وأدخل إليه أسراء فأمر بضرب أعناقهم قبل أن يناظرهم فقال له الرجل: يا أمير المؤمنين لقد أقست الخلافة قلبك بعد أن كنت رؤوفاً، قال: كلا إن الخلافة لم تقس قلبي، ولكنه أقساه احتمال الضغن بعد الضغن.

المدائني قال: خاض جلساء عبد الملك في قتل عثمان فقال رجل منهم: يا أمير المؤمنين في أي سنك كنت يوم قتل عثمان ؟ قال: دون المحتلم، قال: فما بلغ من حزنك عليه ؟ قال: شغلني الغضب له عن الحزن عليه.

وقال: قدم على عبد الملك عقيل بن علفة المري فقال له عبد الملك: ما أحسن اموالكم عندكم ؟ قال: ما ناله أحدثنا عن صاحبه تفضلاً، قال: ثم أيها ؟ قال: مواريثنا، قال: فما أسرها لكم ؟ قال ما استفدناه فأكسبنا نعماً، وأفادنا عزاً، قال: فما مبلغ عزكم ؟ قال: لم يطمع فينا و لم تؤمن بوادرنا، قال: فما مبلغ جودكم ؟ قال: أحب أموالنا إلينا ما اعتقدنا به منةً وأبقي لنا ذكراً، قال: فما بلغ من حفاظكم ؟ قال: يدافع الرجل منا عن جاره كدفاعه عن نفسه، قال: عبد الملك مثلك فليصف قومه.

المدائني قال: قدم المساور بن هند بن قيس بن زهير بن جذيمة العبسي على الوليد بن عبد الملك، وأمه ولادة بنت العباس بن جزي بن الحارث بن زهير بن جذيمة، فترل على رجل من قومه يدعى برزاً فأقام أشهراً فلم يصنع الوليد به خيراً، فارتحل وقال:

ثلاثة أشهرٍ في دار برزٍ ... أرجي نائلاً عند الوليد
فلا تشكي الكلال بدار برزٍ ... ولكن إن نجوت فلا تعودي

وإن ضنّ الوليد كما زعمتم		فما نال الضنانة من بعيد

فبلغت أبياته عبد الملك، فبعث في أثره فرده وقال له: أمن قبلنا جاءته الضنانة، أم من قبلكم ؟ قال: لا بل من قبلنا، فقال له عبد الملك: هات حاجتك، قال: علي ثلاثة عشر ألف درهم للتجار فقضاها عنه وقال للوليد: أكانت هذه تفقرك لو دفعتها إليه قبل أن تسمع ما سمعت ؟ !.

حدثني العمري عن الهيثم بن عدي عن ابن عياش قال: كان على شرط عبد الملك ابن أبي كبشة السكسكي، ثم أبو نائل رياح الغساني، ثم عبد الله بن زيد الحكمي، ثم كعب بن حامد العبسي، فمات وهو على شرطه، وكان على حرسه الريان فمات، فصير مكانه خالد بن الريان، وكان كاتبه على الخراج والجند سرجون الرومي، وعلى رسائله أبو الزعيزعة مولاه، وعلى الخاتم قبيصة بن ذؤيب فمات قبيصة سنة ست وثمانين، ويكنى أبا إسحق فصير مكانه عمرو بن الحارث مولى بني عامر بن لؤي.

قالوا: وكتب عبد الملك إلى الحجاج بعد يوم دير الجماجم أن يعطي الناس عطاءهم، فكتب إليه: إنهم نكثوا العهد، ونقضوا البيعة، وفارقوا الجماعة، وطعنوا على الأئمة، فكتب إليه: إنما تجب طاعتنا عليهم، بأن نعطيهم حقوقهم.

المدائني قال: أتي عبد الملك بأسارى، فهم بقتلهم فقال له رجاء بن حيوة: يا أمير المؤمنين أذكرك ألاء الله عندك بالعفو، فعفا عنهم، وأمر بتخليتهم.

المدائني قال: أراد الحجاج قتل من بقي في ديوان ابن الأشعث من أصحابه حين ظفر بهم، فقال له قتيبة بن مسلم: أصلح الله الأمير إن الله قد أعطاك ما تحب من الظفر، فأعطه ما يحب من العفو، فبلغ ذلك عبد الملك، فقال: لله در قتيبة لقد أبلغ في الموعظة، ولقد أحسن الحجاج في القبول.

المدائني عن مسلمة قال: كتب الحجاج إلى عبد الملك إنه بلغني أن أمير المؤمنين عطس فشمته من حضر، فأجابهم أن يهديكم الله ويصلح بالكم، فيا ليتني كنت معهم فأفوز فوزاً عظيماً.

المدائني عن أبي اليقظان عن جويرية بن أسماء قال: قام رجل من أهل اليمن إلى عبد الملك وهو يخطب، فقال: إن محمد بن يوسف - يعني أخا الحجاج، وكان على اليمن - يسفك الدم الحرام، ويأخذ المال الحرام، فقال: اجلس فجلس، ثم قام فقال مثل مقالته، فقال له: ويحك اجلس فجلس، ثم قام فقال مثل مقالته فقال له عبد الملك: لقد هممت أن أقتلك، قال: ما قمت هذا المقام إلا وبطن الأرض أحب إلي من ظهرها إني سمعت أنه تكون نبوة، ثم خلافة ورحمة، ثم ملك وجبرية، فقد ذهبت النبوة والخلافة، وهذه الجبرية.

المدائني قال: قال عبد الملك بن مروان لأمية بن عبد الله بن خالد بن أسيد: مالك ولابن حرثان ؟ قال: إنه

أتى حداً فأقمته عليه، قال: أفلا درأت عنه بالشبهة ؟ قال: كان الأمر أظهر من ذلك، قال: أما والله لقد أوجعك ولوددت أنك كنت سلمت منه، وما سرني أني هجيت، وأن لي مثل كل شيء أصبحت أملكه، وكان الذي قال فيه ابن حرثان:

أضاع أمير المؤمنين ثغورنا ... وأطمع فينا المشركين ابن خالد

وبات على حور الحشايا ممهداً ... يعانق أمثال المها في المجاسد

وبتنا قياماً في الحديد وتارةً ... سجوداً نناجي ربّنا في المساجد

إذا هتف العصفور ريع فؤاده ... وليث حديد الضرس عند الثرائد

وقال أبو اليقظان: حدثنا جويرية بن أسماء قال: كان لعبد الملك بيت مال لا يدخله إلا مال طيب لم يظلم فيه مسلم ولا معاهد وقد عرف وجوهه، فكان يشتري منه الإماء اللاتي يتخذهن أمهات أولاد ويتزوج منه، ويقول لا أستحل إلا طيباً فإن ذلك في الأولاد.

المدائني قال: كان عبد الملك يلبس جبةً ورداء ، ويجلس للناس، وينظر في أمورهم، ويقف على بنيه في الكتاب فيقول للمعلم: أحسن تأديبهم ويكلمهم، قال: وقال عبد الملك لإسماعيل بن مهاجر، مؤدب مسلمة، ويزيد، وعنبسة: علم بني القرآن، وخذهم بمكارم الأخلاق، وحثهم على صلة الأرحام، ووقرهم في الملأ، وأخفهم في السر، فإن الأدب أملك بالغلام من الحسب، وتهددهم بي، وأدبهم دوني ولا تخرجهم من علم إلى علم حتى يفهموه فإن ازدحام الكلام في السمع مضلة للفهم.

المدائني عن بكر بن عبد العزيز قال: قال عبد الملك لإسماعيل مؤدب بنيه: علم بني الصدق حتى إن قتل أحدهم قتيلاً اعترف به على نفسه، والصق بابن عاتكة – يعني – يزيد فإن مهر أمه من عرق جبيني. قال: وكان مع سعيد بن عبد الملك معبد الجهني.

المدائني عن علي بن حماد قال: قام رجل إلى عبد الملك فقال له: يا أمير المؤمنين قطعت إليك القفر لأمر ضاق به الصدر، قال: وما هو ؟ قال: ابني بثغر كذا، وقد اشتد إليه شوقي، وطال توقي، قال: فكتب في رده فأقفل.

المدائني عن عبد الحميد الأشج عن أبي قرة أن عبد الملك خطب زينب بنت عبد الرحمن بن الحاث بن هشام فقالت: والله لا يتزوجني أبو الذبان، فتزوجها يحيى بن الحكم، فقال عبد الملك: لقد تزوجته أسود أفوه، فقال يحيى أما إنها أحبت مني ما كرهت منه.

حدثني عمر بن بكير عن الهيثم بن عدي عن عبد الله بن عياش وأبي جناب قال: رأى الغضبان بن

القبعثرى صبياً يلعب عند عبد الملك بن مروان، فقال: من هذا الصبي يا أمير المؤمنين ؟ قال: ابني من عائشة بنت موسى بن طلحة، قال: سيناله السخاء بولادة طلحة له، فقال له: ويحك أو بخيل أنا ؟ قال: أي والله الذي لا إله إلا هو لا أستثني، فضحك. وقال ابن عياش: كان عبد الملك أول خليفة بخل.

المدائني عن محمد بن عيسى قال: سأل رجل عبد الملك فألح عليه، وألحف في المسألة، فقال عبد الملك: قد ألحفت في المسألة ؟ فقال إنك والله يا أمير المؤمنين لترد السائل الملح بالمنع المصرح.

أراد عبد الملك أن يتزوج زينب بنت عبد الرحمن بن الحارث بن هشام فتزوجها يحيى بن الحكم فغضب، واصطفى كل شيء له فقال يحيى: كعكة وزينب، فلما رأى عمر بن عبد الرحمن بن عوف أسف عبد الملك عليها، قال له: أدلك على أجمل منها بنت إسماعيل بن هشام، وهو عندك، فخطبها فتزوجها.

الكلبي عن عوانة قال: دخل مسلمة بن زيد بن وهب الفهمي على عبد الملك فقال له: أي الزمان أدركت أفضل وأي من أدركت من الملوك أكمل ؟ قال: أما الملوك فلم أر منهم أحداً إلا وله ذام ومادح، وأما الزمان فرأيته يرفع أقواماً ويضع آخرين، وكل الناس إذا صدق نفسه ذم الزمان، لأنه يبلي الجديد ويهرم الصغير، وكل ما فيه منقطع إلا الأمل، فإنه أبداً جديد، قال: فأخبرني عن فهم، قال: هم كما قال القائل:

درج الليل والنهار على فه	م بن عمرو فاصبحوا كالرّميم
وخلت دارهم فصارت يباباً	بعد عزٍ وثروةٍ ونعيم
وكذاك الزمان يذهب بالنّا	س وتبقي ديارهم كالرسوم

قال فمن الذي يقول:

رأيت النّاس قد خلقوا جميعاً	يحبون الغني من الرجال
وإن كان الغني قليل خيرٍ	بخيلاً بالقليل من النّوال
فما أدري علام وفيم هذا	وماذا يرتجون من البخال

قال الكلبي: فهم بن عمرو بن قيس بن عيلان، وكان الحارث أخو فهم عدا عليه فقتله فسمي عدوان.

المدائني عن سفيان الثوري قال: قدم الحجاج على عبد الملك وافداً، ومعه معاوية بن قرة أبو إياس، فسأله عبد الملك عن الحجاج فقال: إن صدقناكم قتلتمونا، وإن كذبناكم خشينا الله عز وجل، فنظر إليه الحجاج فقال له عبد الملك: لا تعرض له يا حجاج فغربه إلى السند.

المدائني عن سحيم بن حفص قال: كان الحجاج يقول سألت قبل أن أقدم العراق عن وجوه رجاله،

فذكروا زياد بن عمرو العتكي، فما كان أحد أثقل علي منه، فقدمت على عبد الملك وهو مع في ناس من الأشراف، فأثنوا علي فما كان أحد منهم أحسن صفة لي منه، ولا قام أحد منهم مثل مقامه. قال: يا أمير المؤمنين إن الحجاج سيفك الذي لا ينبو، وسهمك الذي لا يطيش، وخادمك الذي لا تأخذه في أمرك لومة لائم، فلقد رأيتني وما أحد من الخلق بعد ذلك اليوم يعدله عندي.

هشام بن عمار والمدائني عن أشياخهم قالوا: كان عبد الملك يشتو بالصنبرة من الأردن، فإذا انسلخ الشتاء نزل الجابية، وأمر لأصحابه بأنزال ويفرق أغناماً على قدر منازلهم، فإذا مضت أيام من آذار دخل دمشق فنزل دير مران، حتى إذا جاءت حمارة القيظ أتى بعلبك فأقام بها حتى تهيج رياح الشتاء، فيرجع إلى دمشق فإذا اشتد البرد خرج إلى الصنبرة.

قال المدائني: وبها مات يوم مات.

المدائني قال تغدي شبة بن عقال يوماً عند عبد الملك فأتي بخزيرة، فضحك شبة، فغضب عبد الملك وقال: ما أضحكك ؟ قال: تعيير جرير مجاشعاً بالخزيرة، وهي مائدة أمير المؤمنين، وإنما ضحك من السخينة التي تعير بها قريش.

المدائني قال: دعا عبد الملك عبيد الله بن زياد بن ظبيان أو غيره إلى الغداء فأكل معه، فجعل يتناول مما بين يديه فقال له عبد الملك – ويقال بعض من كان على رأسه: كل مما بين يديك، فقال: أو في مائدة أمير المؤمنين حمى ؟ فقال عبد الملك: لا كل من أيها شئت.

حدثني بعض الشاميين قال: خطب عبد الملك بن مروان وأعرابي يسمع خطبته، فقال له رجل من قريش: كيف ما تسمع ؟ فقال لو كان كلام يؤتدم به لكان هذا.

وقال الهيثم بن عدي: تكلم عبد الملك بن عمير عند عبد الملك وأعرابي حاضر فقال: لو أن كلاماً يؤتدم به لكان هذا الكلام.

المدائني وغيره قالوا: كتب عبيد الله بن زياد بن ظبيان إلى عبد الملك: إنه قد كان من بلائي ما قد رأيت و لم يكن من جزائك لي إلا ما علمت فأنا كما قال الجعدي:

كفينا بني كعبٍ فلم نر عندهم | لما كان إلا ما جزى اللّه جازيا

قالوا: وبلغ عبد الملك قول عبيد الله بن زياد بن ظبيان، حين قال لما خر عبد الملك ساجداً، حين أتاه برأس مصعب: هممت بضرب راسه، فأكون قد قتلت ملكي العرب، فحجبه، ثم أذن له، فقال: يا أمير المؤمنين إنا والله ما نكره سخط من رضاه الجور، فإن يكن لك علينا طاعة فيما أحببت، فإن لنا عليك العدل فيا وليت، فلست مستكملاً طاعتنا إلا بعدلك، فآثر طاعة الله عز وجل فينا تسلم لك نصائحنا،

وتخلص نياتنا، ولا تبغ الفساد في الأرض، إن الله بصير بعملك وإليه مصيرك، فغضب عبد الملك غضباً شديداً وقال: لولا أن خير الأمور مغبةً، وأكرمها عاقبةً، كريم العفو بعد القدرة لأعلمت هذا الجلف أي مورد تورده الجهالة والاستطالة، فقال الوليد بن عبد الملك: يا أمير المؤمنين، و لم تستبقي مثله، و لم ير لك هيبة الخلافة، وجلالة السلطان، وواجب الطاعة وإن كان ذا غناء ودالة و لم يوقرك توقير المسلمين إياك، فقال عبد الملك: ما كل شيء تعلمه، وأنشد عبد الملك:

ترى الناس أخلاطاً جميعاً وإنهم ... على ذاك شتى والهوى يتفرق
ترى المرء إن جالسته ذا صناعةٍ ... وسائر ما فيه سوى ذاك أخرق
وتلقى أصيل اللب ليس لسانه ... بمخرج ما في قلبه حين ينطق

أبو الحسن المدائني عن عبد الله بن سلم الفهري: أن عبد الله بن يزيد بن أسد بن كرز القشيري من بجيلة، دخل على عبد الملك ومعه ابنه خالد بن عبد الله، فقال له عبد الملك: هذا ابنك ؟ قال: نعم، قال ما أشبهه بك. قال: ذاك أحب إلي، وأبرأ لساحة أمه.

المدائني قال: قدم الحارث بن خالد بن العاص بن هشام بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم الشاعر على عبد الملك فلم يصله ويقال إنه أقام ببابه شهراً لا يأذن له فانصرف وهو يقول:

تبعتك إذ عيني عليها غشاوةٌ ... فلما انجلت قطعت نفسي ألومها
فما بي إن أقصيتني من ضراعةٍ ... ولا افتقرت نفسي إلى من يسومها
عطفت عليك النفس حتى كأنما ... بكفيك بؤسي أو لديك نعيمها

فبلغه ذلك، فأرسل إليه فرده، فقال: يا حارث أترى على نفسك غضاضةً في وقوفك ببابي ؟ فقال: لا والله، ولكن طالت غيبتي، وانكسرت ضيعتي، ووجدت فضلاً من قول فقلت، وعلي دين فقال: وكم دينك ؟ قال: ثلاثون ألفاً، قال: أقضاء دينك أحب إليك، أم ولاية مكة ؟ قال: ولاية مكة، فولاه إياها فبعثت عائشة بنت طلحة بن عبيد الله بن الحارث، وهي بمكة، وقد أقيمت ذات يوم الصلاة، وهي تطوف: إني لم أقض طوافي، فتوقف بالناس حتى فرغت من طوافها، ثم صلى، فبلغ ذلك عبد الملك فعزله، وقال: إني لم استعملك لتنتظر بالناس في صلاتهم طواف عائشة.

قالوا: وكان الحارث يحب عائشة، وكانت تحبه، فخطبها فلم تتزوجه، فقيل لها أحبك رجل وأحببتيه عشرين سنةً، ثم خطبك فلم تتزوجيه ؟ فقالت: كان في عيب ما يسرني أن لي طلاع الأرض، وأنه اطلع عليه، فكان يظن أنه سوء الخلق.

حدثني الحرمازي عن الحسن بن علي العتبي عن أبيه عن أبي المقدام عن رجل من أهل مكة قال: قدمت المدينة فإذا غلمان بيض، عليهم ثياب بياض يدعون الناس إلى الغداء، وكانت بي إليه حاجة فدخلت، فإذ عائشة بنت طلحة على السرير، وإذا الناس يطعمون، قال: فلما أكلت، قالت لي: كأنك غريب ؟ قلت: نعم، قالت: فمن أين بك ؟ قلت: من مكة، قالت: كيف تركت الأعرابي قلت بخير، فلما خرجت قلت: عن من سألتني ؟ قالوا: عن الحارث بن خالد، فلما قدمت مكة أخبرته فأنشأ يقول:

من كان يسأل عنا أين منزلنا فالأقحوانة منا منزل قمن

إذ نجعل العيش صفواً ما يكدره طول الحياة ولا ينبو بنا الزمن

قال الحرمازي: وبناحية من الشام موضع يعرف بالأقحوانة أيضاً.

المدائني عن عبد الله بن سلم وغيره قالوا: قدم عمر بن علي بن أبي طالب على عبد الملك، فسأله أن يصير إليه صدقة علي بن أبي طالب، فتمثل عبد الملك قول ابن الحقيق اليهودي:

إنا إذا مالت دواعي الهوى وأنصت السامع للقائل

واعتلج القوم بأرائهم نقضي بحكم عادل فاصل

ولا نجعل الباطل حقاً ولا نلظ دون الحق بالباطل

نخاف أن تسفه أحلامنا فنخمل الدهر مع الخامل

لا لعمري لا أخرجها من ولد الحسين إليك، ووصله عبد الملك ورجع من عنده.

المدائني قال: قال عبد الملك للهيثم بن الأسود: ما مالك ؟ قال: قوام من عيش وغنى عن الناس، فقيل له: لو أخبرته، فقال لو أعلمته مالي لحسدني إن كان كثيراً، أو حقرني إن كان قليلاً، وقوم يقولون أن الهيثم قال هذا لمعاوية، والثبت أنه قاله لعبد الملك.

وقال الهيثم: كان يقال لا تخبروا قريشاً بمالكم، فإن كان كثيراً حسدوكم، وإن كان قليلاً حقروكم.

المدائني عن أبي محمد المقرىء قال: قال عبد الملك لرجل من ثقيف: ما المروءة فيكم ؟ قال: إصلاح المال والمعاش والفقه في الدين، وسخاء النفس، وصلة الرحم، فقال: كذلك هي فينا.

قالوا: وتزوج بكر بن حصين من بني عامر بن لؤي رقية بنت سعيد بن نوفل بن الحارث بن عبد المطلب، فتقدمت إلى عبد الملك بن مروان حين حج وهو بالمدينة، فتكلمت في أمر زوجها، فقال ومن زوجك ؟ قالت: بكر بن حصين، قال: انسبي لي أباً آخر فإن عهدي بالقوم بعيد، قالت: ابن أويس، قال: ويحك أو تنكح المرأة عبدها ؟ فقالت: يا أمير المؤمنين:

إن القبور تنكح الأيامى

النسوة الأرامل اليتامى

المرء لا تبقى له السلامى

المدائني قال: قال عبد الملك: رأيت الفجور في بني الروميات، ورأيت الفارسيات أذلق النساء، وأمنح جانباً؛ ورأيت بني الهنديات أصبر لصدور العوالي.

ودخل جرير علي عبد الملك وعنده عدي بن الرقاع العاملي، و لم يكن جرير رآه قبلها، فقال له عبد الملك: يا جرير أتعرف هذا ؟ قال: يا أمير المؤمنين، فمن هو ؟ قال: رجل من عامله، قال: يا أمير المؤمنين، هذا من الذين قال الله عز وجل: "عاملة ناصبة" ؟ قال: لا ويلك، فأنشأ جرير يقول:

ويقصر باع العاملي عن العلى ... ولكن أير العاملي طويل

فقال ابن الرقاع:

ألمك يا ذا أخبرتك بطوله ... أم أنت امرؤ لم تدر كيف تقول

فقال: بل لم أدر كيف أقول.

حدثني محمد بن سعد عن الواقدي عن ابن جعدبة عن صالح بن كيسان أن عبد الملك كتب إلى الحجاج جنبني دماء آل أبي طالب فإن بني حرب لما قتلوا حسيناً نزع الملك منهم.

المدائني عن يزيد بن عياض قال: أراد عبد الله بن جعفر أن يفد إلى عبد الملك بن مروان، وعلى المدينة أبان بن عثمان بن عفان، فأرسل إليه بديحاً يستأذنه، فقال أبان: قل له: فليبعث إلي جاريته فلانة، فرجع فأخبره يقوله فقال ابن جعفر: لا، ولا كرامة، وقال له: ارجع إلى بقيع – وكان أبان أبرص أبقع – فقل له: أما الجارية فلا، قال: فليبعث إلي بغلامه الزامر، فبعث به إليه، وقال: هو شبيهه، ثم أذن له، فوفد على عبد الملك.

المدائني عن محمد بن إبراهيم قال: دخل عبد الله بن جعفر على عبد الملك فحثه علي صلة ابن أبي عتيق، وهو محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق وذكر له خلته، فدخل ابن أبي عتيق على عبد الملك فقال له: يا بن أبي عتيق، أخبرني عنك عبد الله بضيق من الحال ؟ قال: كذب يا أمير المؤمنين، ما بي من حاجة وما أنا في ضيقة، فدخل ابن جعفر على عبد الملك فأخبره بقول ابن أبي عتيق، فلقيه ابن أبي عتيق، فقال له ابن جعفر: ويحك اتركت حظك من أمير المؤمنين وقد عطفته عليك، وحثثته علي برك ؟ فقال: إني دخلت عليه وعنده جارية له، ما رأيت شيئاً قط أحسن منها، فأخبرني بقولك وهي

تسمع وتنطر إلي، أفكنت ترى لي يا بن أم أن أقر بالفقر بين يديها ؟ ! المدائني وغيره قالوا: نذر عبد الملك دم ابن قيس الرقيات لقوله:

إنما مصعب شهاب من الل ... ه تجلت عن وجهه الظلماء

قال ابن قيس: فسألت عن من أستعين به عليه، فقيل لي روح بن زنباع، فأتيت روحاً فقال: ما ذاك عندي؛ فأتيت عبد الله بن جعفر، فاستجرت به، فقال: لي أقم؛ فإن لي في كل ليلة رجلاً أدخله معي إلى أمير المؤمنين فكن ذلك الرجل، فلما كان الليل أدخلني، وأمرني أن أجيد الأكل وآخذ ما بين يديه، وبين يدي عبد الملك، فنظر إلي، فقال: من هذا ؟ قال ابن جعفر هذا القائل

ما نقموا من بني أمية إلا ... أنهم يحلمون إن غضبوا

وإنهم سادة الملوك فما ... تصلح إلا عليهم العرب

فقال عبد الملك: ابن قيس ؟ قال: نعم: فقال أما دمه فقد حقنه الله عز وجل، وأما العطاء فلا عطاء له عندي؛ فقال ابن جعفر لابن قيس: اللهم غفراً، إذا خرج العطاء فلك عندي عطاؤك.

وقال كثير يمدح عبد الملك:

يحيّون بسامين طوراً، وتارة ... يحيون عباسين شوس الحواجب

من النفر البيض الذين إذا انتجوا ... أقرت لنجواهم لؤي بن غالب

كريم يؤول الراغبون ببابه ... إلى واسع المعروف جزل المواهب

إمام هدىً قد سدد اللّه رأيه ... وقد أحكمته ماضيات التجارب

وقال فيه أيضاً:

قضى نحبه مروان ثم وليتنا ... فكن يا بن مروان تجود وتدفع

وقال كعب بن جعيل:

أمير المؤمنين هدى ونور ... كا جلى دجى الظلم النهار

قريع بني أمية من قريش ... هم السر المهذب والنضار

وقال أبو قطيفة عمرو بن الوليد بن عقبة بن أبي معيط:

نبئت أن ابن القلمس عباني ... ومن ذا من الناس الصحيح المسلم

فأبصر سبل الرشيد سيد قومه ... وقد يبصر الرشد الرئيس المعمم

فمن أنتم ها خبرّونا من أنتم ... فقد جعلت أشياء تبدو وتكتم

فقال له عبد الملك: ما كنت أرى أن مثلنا يقال لهم من أنتم ؟ أما والله لولا ما تعلم، لقتل قولاً يلحقكم بأصلبكم الجلائب، ولضربتك حتى تموت.

وقال أعشى بني شيبان:

عرفت أُمية كلها — لبني أبي العاص الإمارة

لأبرّها وأحقها — عند المشورة بالإشارة

المانعين لما ولوا — والنافعين ذوي الضرارة

وهم أحقهم بها — عند الحلاوة والمرارة

وقال المدائني: قال قبيصة بن ذؤيب ووشى به قوم إلى عبد الملك، فجفاه وكانت له مترلة عنده:

إن مسيري في المسير ومنزلي — لبالمنزل الأقصى إذا لم أقرب

وما أنا إن قربت يوماً ببائع — خلاقي وديني لابتغاء التحبب

ولكن أرى حق الإمام ونصحه — وطاعته حقاً كما هي للأب

وهذا باطل وقد نسبنا الشعر إلى صاحبه الذي قاله، وذكرنا حديثه فيما مضى من أحاديث عبد الملك.

المدائني قال: أمر عبد الملك مسلم بن ربيعة أبا إسحق بن مسلم أن يقتل رجلاً من قيس فأبى فحبسه فقال:

ألا أبلغ سراة الحي قيساً — شآميهم ومن هو بالعراق

بأني بالرهاء بها مقيم — قصير الخطو مشدود الوثاق

وما كانت عقوبتهم بسجني — لمعصية وما خافوا شقاقي

ولكني كرهت دماء قومي — وما لي بعد قومي من تلاق

ويقال أن محمد بن مروان أمره بذلك.

المدائني عن علي بن حماد قال: قال الأخطل لعبد الملك بن مروان: يا أمير المؤمنين زعم ابن المراغة أنه يبلغ مدحك في ثلاثة أيام وقد أفنيت في مدحك حولاً بقصيدة قلتها فما بلغت كل الذي أردته، فقال عبد الملك: فأنشدني قصيدتك فأنشده:

خف القطين فراحوا عنك أو بكروا — وأزعجتهم نوى في صرفها غير

فجعل عبد الملك يتطاول، ثم قال: ويحك يا أخطل أتريد أن أكتب إلى الآفاق بأنك أشعر العرب ؟ قال: أنا أكتفي بقولك يا أمير المؤمنين، فأمر له بقصعة مملوءة دنانير ودراهم، وألقى عليه خلعته وخرج به مولى لعبد الملك وهو يقول: هذا شاعر أمير المؤمنين.

المدائني عن عبد الله بن فائد قال: قال سعيد بن المسيب لعبد الملك: بلغني يا أمير المؤمنين أنك شربت الطلاء ؟ قال: والدماء يا أبا محمد فنستغفر الله.

المدائني عن عبد الله بن مسلم الفهري قال: دخل الأخطل على عبد الملك وهو سكران فقال له: يا أبا مالك مالك ؟ قال: إن أبا نسطور وضع في جمجمتي ثلاثاً وأنشد:

إذا شرب الفتى منها ثلاثاً ... بغير الماء حاول أن يطولا

مشي قرشية لا عيب فيها ... وأرخى من مآزره ذيولا

المدائني قال: دخل على عبد الملك رجل فتكلم فأحسن حتى سكت، فأراد أن يسبر عقله ليعرف ما عنده، فإذا هو مضعوف فقال: زيادة منطق على عقل خدعة، وزياد عقل على منطق هجنة، وأحسن ذلك ما زين بعضه بعضاً، وبعضهم يروي هذا عن سليمان بن عبد الملك، وهو عن عبد الملك أثبت.

وقال: وذكر تشقيق الخطب والإسهاب عند عبد الملك فقال: من أكثر فأحسن قدر على أن يقل فيحسن.

حدثني أبو مسعود الكوفي عن عوانة قال: كتب عبد الملك إلى الحجاج: أما بعد فإنه بلغ أمير المؤمنين أنك تنفق في اليوم ما ينفق أمير المؤمنين في الجمعة، وتنفق في الجمعة ما ينفق أمير المؤمنين في الشهر، وتنفق في الشهر ما ينفق أمير المؤمنين في السنة، وهذا ما لا قوام معه يا حجاج.

عليك بتقوى اللّه في كل حالة ... وكن لوعيد اللّه ربك تخشع

ووفر خراج المسلمين وفيئهم ... وكن لهم حصناً يذود ويمنع

فكتب إليه الحجاج:

أتتني كتبٌ للخليفة ضمنت ... قراطيس تطوى كي تصان وتطبع

ومنها كتاب فيه لين وشدة ... وذكر وفي الذكرى لذي اللب منفع

وكانت بلاداً جئتها ذات فتنة ... بها كل نيران الحوادث تلمع

فما زلت فيها أعمل الحزم جاهداً ... فاعطي على حين العطاء وأمنع

فلا تتهمني إنني لك ناصح ... ولست مع النصح المبين أضيع

فرد عبد الملك عليه كتابه، وكتب في حاشيته: صدقت يا أبا محمد وبررت.

المدائني قال: قال عبد الملك: أي الشعراء أشجع شعراً ؟ قالوا: عمرو بن معد يكرب، قال وكيف وهو يقول:

وجاشت إلي النفس أوّل مرةٍ فردت على مكروهها فاستقرت

فقيل ابن الإطنابة ؟ فقال وكيف وهو القائل:

أقول لها وقد جشأت وجاشت مكانك تحمدي أو تستريحي

فقالوا عنترة ؟ فقال: وكيف هو يقول:

إذ يتقون بي الأسنة لم أخم عنها ولكني تضايق مقدمي

قيل: فعامر بن الطفيل ؟ فقال: وكيف وقد قال:

أقول لنفسٍ لا يجاد بمثلها أقلي مراحاً إنني غير مدبر

ولكن أشجع الناس شعراً المزني الذي يقول:

وإني لدى الحرب العوان موكل بتقديم نفس لا أحب بقاءها

وعباس بن مرداس حين يقول:

أقاتل في الكتيبة لا أبالي أحتفي كان فيها أم سواها

المدائني عن عوانة قال: كتب عبد الملك إلى الحجاج في أمر استشاره فيه واستكتمه إياه فانتشر وبلغ عبد الملك ذلك، فكتب إليه كتاباً عاتبه فيه، وتمثل بهذين البيتين في كتابه:

ألم تر أن وشاة الرجا ل لا يتركون أديماً صحيحاً

فلا تفش سرك إلا إليك فإن لكل نصيحٍ نصيحا

العمري عن الهيثم عن ابن عياش قال: قال عبد الملك للشعبي: لله در ابن قميئة حيث يقول:

كأني وقد خلفت تسعين حجة خلعت بها عني عذار لجام

رمتني بنات الدهر من حيث لا أرى فكيف بمن يرمى وليس برام

فلو أنها نبل إذاً لا تقيتها ولكنني أرمى بغير سهام

فقال الشعبي: وقد أحسن لبيد أيضاً حين يقول:

كأني وقد خلفت تسعين حجة خلعت بها عن منكبي ردائيا

قال: ففكر عبد الملك ثم أنشد:

إذا ما سلخت الشهر أهللت مثله كفى قاتلا سلخي للشهور واهلالي

قال: ولما قتل مصعب واستقام الأمر لعبد الملك دخل عليه عمر بن عبيد الله بن معمر، وسويد بن منجوف، ونعيم بن مسعود التميمي، وقيس بن الهيثم السلمي بعد أن حبسهم على بابه حيناً، فقال عبد الملك: إنكم سعيتم مع الشيطان فكنتم حزبه، فلما نكص نكصتم، و لم يبق أحد ممن شب نار الفتنة وسعى في الفرقة، وشتت الألفة إلا أحدث من جرمه توبةً، وظهرت منه إنابة غير قتادة فكففنا عنه العقوبة أفما ترضون أن تكونوا إسوة من أبصر بعد العمى، وعرف بعد الجهل واستحق بالإنابة العفو ؟ فتكلم سويد بن منجوف فقال: إنا كنا وزراء فأصبحنا أعجازاً، فخذ بالتي هي أحسن ذكراً، وأبقى جمالاً.

ثم قال عمر بن عبيد الله: والله ما نعتذر إليك من معصية، ولا نتوسل إليك بطاعة، ولقد ولينا لعدوك الأعمال، وكسبنا الأموال، وقتلنا الرجال ولأن نكون كنا على ضلال، فأصبحنا على هدى، خير من أن نكون على هدى ثم نصبح على ضلال فإن تصطنعنا نكن لك كما كنا لمن كان قبلك.

ثم تكلم نعيم بن مسعود فقال يا أمير المؤمنين إنا كنا أمس زبيريين فقد أصبحنا مروانيين، فأقلل العتاب، وأكرم الغلبة، وأقل بعفوك العثرة.

ثم تكلم قيس بن الهيثم فقال: إنا لسنا بالحلو المأكول، ولا بالمر الملفوظ، ولا عفوك بمنكر، ولا عقابك بحتم، قد والله يا أمير المؤمنين قارعناك عن الدين والدنيا جميعاً، فليسعنا ما لم يضق عن غيرنا من عفوك، فمثلنا أسديت إليه العارفة فشكرها، واتخذت عنده الصنيعة فعرفها قال: فرضى عنهم وأسني جوائزهم.

المدائني قال: أنشد عبد الله بن الزبير قول أنس بن زنيم في مصعب حين تزوج عائشة:

بضع الفتاة بألف ألف كاملٍ ويبيت أرباب الجيوش جياعا

لو أنني عمراً أقول مقالتي وأبثه ما قد أرى لارتاعا

فقال عبد الله: صدق إن مصعب قدم أيره وأخر خيره، فبلغ عبد الملك قوله فقال: لكنه أخر أيره وخيره.

المدائني عن علي بن حماد قال: أجرى عبد الملك الخيل فحمل مسلمة على فرس، وكانت أمه أم ولد فجاء سابقاً، فقال لمصقلة بن رقبة العبدي: إن صاحبكم لقليل المعرفة بأولاد أمهات الأولاد حين يقول:

نهيتكم أن تحملوا هجناءكم على خيلكم يوم الرهان فتدركوا

وما يستوي المرآن هذا ابن حرة وهذا ابن أخرى بطنها متشرك

ترعد كفاه ويسقط سوطه وتفتر فخذاه فلا يتحرك

وتدركه أعراق سوءٍ ذميمة ألا إن عرق السوء لا بد مدرك

قال يا أمير المؤمنين: إن من الإماء ذوات شرف فيمن هن منه، وليس أولئك عنى، وقد يشتري الرجل الجارية فيعتقها ويحصنها فتكون كالحرة، وإنما عنى جمهور الإماء اللواتي لا مواضع لهن ولا هيئآت.
أخبرني عباس بن هشام الكلبي عن أبيه قال: سقى عبد الملك رجلاً من كلب شراباً يزيد في الباه، ثم انصرف من عنده فأصابه شبق شديد، فلم يصل إلى مترله حتى أتبعه بجارية وقال لرسوله: قل له: إنا سقيناك شراباً تحتاج معه إلى ما بعثنا به إليك، وقد كفيت أشتراءها فدونكما.

المدائني عن بكر بن حبيب السهمي قال: ولد لعبد الملك ابن فقال له روح بن زنباع: يا أمير المؤمنين اسقه لبن الإبل، فاشترى عبد الملك لظئر الصبي لقحةً، فكانت تحلب وتشرب الظئر لبنها وقال الحالب: كيف أحلبها أخنفاً، أم مصراً، أم فطراً، والخنف ضم اليد على الضرع، والفطر أن يحلب كما يعقد ثلاثين والمصر بأطراف الأصابع ؟ فقال بل أحلبها مصراً، ويقال الخنف باليد كلها والفطر أن يحلب يعقد ثلاثين، والمصر أن لا يقبض على الضرع.
حدثني عباس بن هشام الكلبي عن عوانة قال: توفي أمية بن عبد الله بن خالد بن أسيد بالصنبرة من الأردن، ومات خالد بن يزيد بن معاوية، وروح بن زنباع في عام واحد، فكان يسمى عام الملوك، فأرسل عبد الملك فأحصى أضياف أمية، فوجدهم خمسمائة فوصلهم عبد الملك.
وكان أمية لما قدم الشام قال الناس: قدم أمية أخو خالد فقال عبد الملك: أراك ببلد لا تعرف فيه إلا بخالد، وأنت أعز من بها، فجعل له حاجتين في كل يوم، فأصبح الناس على بابه يسألونه الحوائج إلى عبد الملك ولما مات هؤلاء الثلاثة رثاهم عبد الملك:

لعمرك لا أنسى أمية أظلمت	عليّ به أرضي معاً وسمائيا
ومن يوم روح قد علتني كآبة	وبل دموعي بالرشاش ردائيا
وقد كاد ينسينيهما يوم خالد	أبي هاشم إذ كدت أنسى حيائيا
أُلاك الأخلاء المصافون ما بقوا	وكنت لهم ما صاحبوني مصافيا
فقد أوحشت أوطانهم وبلادهم	وأوحش منهم مجلسي وفنائيا
أشد بهم ركني سريري وموكبي	فكيف بصبري بعدهم وعزائيا

المدائني قال: مر عبد الملك على قبر معاوية، ومعه عمر بن عبيد الله بن معمر، وابن بحدل الكلبي فقال: هذا قبر رجل كان يسكته الحلم، وينطقه العلم، هذا قبر أمير المؤمنين معاوية ثم أنشد:

وما الدهر والأيام إلا كما أرى	رزية مال أو فراق حبيب

المدائني عن مسلمة بن محارب قال: دخل علي بن عبد الله بن عباس على عبد الملك في يوم شديد البرد وقد حال بينه وبينه دخان العود فقال: يا أمير المؤمنين أحمد الله على ما أنت فيه من الدفء، مع ما الناس فيه من البرد، ودعا له بالبقاء، فقال له: يا أبا محمد أبعد ابن هند- وكان أميراً عشرين سنة وخليفة مثلها- أصبحت تهز على قبره ينبوته ما هو إلا كما قال الشاعر:

وما الدهر والأيام إلا كما أرى	رزية مال أو فراق حبيب
وإن امرءاً قد جرب الدهر لم يخف	تقلب عصريه لغير أريب

المدائني عن أبي بكر الهذلي قال: ركب عبد الملك فتلقاه محمد بن جبير بن مطعم بن عدي بن نوفل بن عبد مناف، فمرا يتسايران حتى إذا بلغا المقابر، عدل عبد الملك فوقف، ومحمد بن جبير معه على قبر معاوية، وإذا عليه ثمامة أبو عوسجة تهتز، فقال عبد الملك يرحمك الله أبا عبد الرحمن والتفت إلى محمد بن جير فقال: يا أبا سعيد ما كان علمك به قال: كان علمي به والله أنه كان ممن ينطقه العلم، ويسكته الحلم، قال عبد الملك: كذلك والله كان ثم ولى وهو يقول:

وما الدهر والأيام إلا كما أرى	رزية مال أو فراق حبيب

ابن الكلبي عن عوانة قال: لما أنشد عبد الملك قول خريم بن فاتك الأسدي:

لقيت من الغانيات العجابا	ليالي أدركن مني شبابا
علام يكحلن حول العيون	ويحدثن بعد خضاب خضابا
ويبرقن إلا لما تعلمون	فلا تحرمون الغانيات الضرابا

فقال عبد الملك: نعم الشفيع لهن خريم.

المدائني عن سحيم بن حفص، وعلي بن مجاهد قالا: مات عمر بن عبيد الله بن معمر بضمير وهي قرية من قرى دمشق، فخرج عبد الملك فصلى عليه وقعد على قبره، فقالت امرأة: يا سيد العرب، تعني عمر، فقال لها رجل من أهل الشام: اسكتي تقولين هذا وأمير المؤمنين حاضر ؟ فقال عبد الملك: مه دعها فقد صدقت وقال:

ألا ذهب العرف والنائل	ومن كان يعتمد السائل
ومن كان يطعم في سيبه	غني العشيرة والعائل

ثم قام عبد الملك على قبر عمر فقال: رحمك الله أبا حفص، فقد كنت لا تحسد غنينا ولا تحقر فقيرنا.

المدائني عن سحيم بن حفص قال: أخذ ابراهيم بن عربي إبلا للبعيث المجاشعي، فخرج إلى عبد الملك

فقال: من تحب أن نأمره بجمع إبلك وردها عليك ؟ فقال: حصين بن خليد العبسي، وكان بادية قيس، فأمره بجمعها، وردها فقال البعيث:

إني لأبواب الملوك قروع

وقال أبو الحسن المدائني: ويقال ان البعيث أتى شبة بن عقال، فأدخله على عبد الملك، فدخل رجل أحمر أزرق فسلم سلاماً جافياً، فقال عبد الملك: أهو هو ؟ فقال: إي والله لأنا هو، قد قلت وقيل لي وأنا الذي أقول:

إذا شئت عاطتني الزلال خريدة   من البيض شنباء اللثاث شموع
سمت بجدود في العرانين وانتمت   بحيث تنمى حاجب ووكيع

قال: فما فرغ من كلامه حتى سرني، وإني لأستحيي من رثاثة هيئته ومحمد بن عمير جالس، فقال عبد الملك: يا أبا عمرو زوجتموه ؟ قال: نعم امرأة شبيهة به وهي ابنة خاله.

المدائني عن محمد بن عدي بن النهاس بن قهم قال أصابت الناس قحمة، أو قال حطمة، فخرجوا إلى الشام يطلبون الريف، فصارت جارية من العرب إلى بيت من يهود تخدمهم، فوقع عليها رجل منهم غصبها نفسها، فضربت عبد الملك عنق اليهودي، وأخذ ماله فأعطاه أهل الجارية، ويقال إنه صلب اليهودي حين قتله.

المدائني عن عبد الرحمن بن معاوية الزيادي قال: حج عبد الملك فجعل يطوف بالبيت ومعه الحارث بن عبد الله بن أبي ربيعة المخزومي، فلما كان في الطواف السابع دنا من البيت ليلتزمه فجذبه الحارث فقال: مالك يا حار ؟ قال: أتدري أول من فعل هذا ؟ قال: لا، قال: عجوز من قومك على غير سنة، فمضى ولم يلتزمه.

المدائني عن محمد بن صالح عن موسى بن عقبة أن عبد الملك حج فلقيه رجل من ولد عمر، قد نالته ولادة من أبي بكر، فسأله فحرمه، وقال متمثلاً:

ومن لا يذد عن حوضه بسلاحه يهدم

فقال الرجل: إذا ذدت عن حوضك ابن الفاروق، وابن الصديق فمن تورده ؟ قال: بني عبد مناف.

المدائني عن حباب بن موسى عن الشعبي قال: سمعت عبد الملك يدعو: اللهم إن ذنوبي قد عظمت وجلت، وهي صغيرة يسيرة في جنب عفوك فاغفرها لي برحمتك، فحسدته.

المدائني عن أبي اسحق بن ربيعة قال: قال عبد الملك لموسى بن طلحة: يا أبا عيسى ما بقي من ظنك ؟ قال: يا أمير المؤمنين ما زالت قريش تزنني وإياك بذلك ونحن غلمان، فضحك عبد الملك.

المدائني عن بشر بن أبي عيسى قال: قال عبد الملك للأبرش الكلبي– واسمه سعيد بن الوليد بن عبد عمرو– وهو يتغدى معه: يا أبرش إن أكلك لأكل معدي. قال: تأبى ذلك قضاعة.

حدثني العباس بن هشام الكلبي عن أبيه قال: أصحب عبد الملك بن مروان ذبيان بن نعيم بن حصين بن سعدانة الكلبي، أخاه عبد العزيز، حين شخص إلى مصر، فرأى منه جفوة فكتب إلى عبد الملك:

أبلغ أمير المؤمنين ودونه — فراسخ تطوي الطرف وهو حديد

بأني أرى عبد العزيز مؤخرا — يقدم قبلي راسب وسعيد

وقد كنت أدنى في القرابة منهما — وأشرف إن كنت الشريف تريد

فكتب إليه عبد الملك في أمره، فبره وسهل أذنه وأدنى مجلسه.

الهيثم عن ابن عياش عن أبيه قال: سمعت عبد الملك يقول لعبد الله بن مسعدة الفزاري: إن أفضل النساء السواحر اللاتي يقول أهل الرجل: قد سحرنه، وغلبن على عقله.

المدائني قال: بينا بنو عبد الملك عنده إذ مد الوليد رجله في حجر أخيه عبد الله بن عبد الملك، فنبذها وقال: اقبض رجلك، فقال الوليد: يا أمير المؤمنين ألا ترى إلى ابن البربرية ؟ فقال عبد الله: أجل والله، إني لابن البربرية، وإنها لابنة أملاك كرام، وليست كأمك ابنة الأعرابي الجلف البائل على عقبيه، فقال الوليد: يا أمير المؤمنين ألا تسمع ؟ فقال عبد الملك: إيها الآن اعرضا عن هذا، فكفا.

وعبد الله القائل حين احتضر وجاءه مال من مصر: ما لي وله، ليته والله كان بعراً حائلاً بنجد.

المدائني قال: رأى عبد الملك كأنه بال في الكعبة، فبعث إلى سعيد بن المسيب من سأله عن ذلك، وقال له: لا تخبره من صاحب الرؤيا، فقال له الرجل: رأيت كذا، فقال له سعيد مثلك لا يرى هذه الرؤيا، فرجع إلى عبد الملك فأخبره فقال: ارجع إليه فأخبره أني رأيتها فرجع إليه فأخبره فقال: يخرج من صلبه من يلي الخلافة.

وحدثني محمد بن سعد عن الواقدي عن عبد الله بن جعفر عن حبيب بن قنيع قال: جلست إلى سعيد بن المسيب يوماً والمسجد خال، فجاءه رجل فقال: يا أبا محمد رأيت في النوم كأني أخذت عبد الملك بن مروان فوتدت في ظهره أربعة أوتاد، وتدا بعد وتد، فقال: ما أنت رأيت هذه الرؤيا فأخبرني من رآها ؟ قال: أرسلني إليك ابن الزبير بهذه الرؤيا لتعبرها، فقال: إن صدقت الرؤيا قتل عبد الملك عبد الله بن الزبير، وخرج من صلب عبد الملك أربعة كلهم يكون خليفة، قال: فرحلت إلى عبد الملك فدخلت عليه وهو في الخضراء بدمشق فأخبرته الخبر، فسره وسألني عن سعيد وحاله، وسألني عن ديني فقلت: أربعمائة

دينار، فأمر لي بها من ساعته ومائة دينار أخرى، وحملني طعاماً وزيتاً وكسيا، فانصرفت راجعاً إلى المدينة.

المدائني عن أبي عبد الرحمن الطائي قال: قال عبد الملك لعمرو بن حريث: إني أراك ظاهر الدم لين البشرة، فليت شعري مم ذاك ؟ فقال طعامي لباب البر، وصغار العز، ولباسي الكتان، ودهني البنفسج.

المدائني عن عبد الله بن سلم عن أبيه قال: قال عبد الملك للعجاج: أتحسن الهجاء ؟ فقال يا أمير المؤمنين هل رأيت صانعاً إلا وهو على الإفساد أقدر منه على الإصلاح، قال فما يمنعك من الهجاء ؟ قال إن الله عز وجل أعطانا عزا منعنا من الظلم وحلما منعنا من أن نظلم، فقال عبد الملك: الهجاء أشد من المديح وحرك رأسه.

هشام ابن الكلبي عن عوانة قال: قال عبد الملك: أي النساء يا بن مسعدة أفضل ؟ قال: الساحرة، يعني قول الرجل: قد سحرتني فقال صدقت.

المدائني عن سحيم بن حفص قال: قال عبد الملك بن مروان: إن من وثائق الحزم أن تحمل الناس بالمال فإنهم أتباعه.

قال: وقال عبد الملك: الحلم يحيا بحياة السؤدد.

حدثني أبو مسعود الكوفي قال: دخل كثير بن الرحمن على عبد الملك، فقال: أنشدك يا أمير المؤمنين ؟ قال بكم ؟ قال كثير:

بطرف ومذعان وألف وحلة وسيف عتيق من جياد الصفائح

فقال: يا غلام عجل بجميع ما قال الساعة، فأتي بفرس رائع، وناقة مذعان، وحلة وسيف، ثم أنشده شعره الذي مدحه به فأمر له بمال.

المدائني عن سحيم بن حفص قال: قال عبد الملك لأسيلم بن الأخيف، أبي اليقظان، وكان مضموماً إلى الوليد: أخبرني عن الوليد ؟ قال: أعفني يا أمير المؤمنين، قال: لتقولن قال يلحن لحنا فاحشاً يعرفه من لا يبصر العربية، ويظن ظناً سيئاً أخاف أن يوبقه ويوثقه ويستحيي أن يسأل فيعلم، فقال عبد الملك للوليد: بلغني أنك تلحن لحنا فاحشاً وتسيء الظن وتستحيي أن تسأل فتعلم، فقال: أما السؤال فما أدعه للحياء منه، ولكني لا أرى أحداً أهلاً لأن أسأله عن شيء، وأما سوء الظن فمن ذا ينبغي له أن يحسن الظن بالناس بعد قتل مروان، وأما اللحن فمر الفصحاء بتقويم لساني.

المدائني قال: قال عبد الملك لربيعة بن الغاز: إني أحب الوليد، وأريد توليته ؟ فقال: يا أمير المؤمنين إن وليته الجباية فاستقصى ذم، وإن قصر عجز، ولكن وله الصوائف فيكون ذلك له شرفاً وذكراً.

قالوا: وقال عبد الملك لأسيلم بن الأخيف: كيف ترى الوليد: فقال: إنه ليلحن لحناً قبيحاً، قال: إنه كان

أحب ولدي إلي، فلم تطب نفسي بمفارقته فأسترضع له بالبادية، كما استرضعت لسليمان.

المدائني قال: قال عبد الملك لخالد بن يزيد بن معاوية: ألا تقيمون لسان عبد الله بن يزيد ؟ فقال: يا أمير المؤمنين صعب علينا من تقويم لسانه ما صعب عليكم من تقويم لسان الوليد، قال: وكان الوليد رديء اللسان، قال يوماً: يا غلام رد الفرسان الصادان عن الميدان.

المدائني عن أبي معاوية بن عامر قال: تكلم عبد الله بن يزيد بن معاوية عند عبد الملك فلحن، فقال عبد الملك: اللحن من الشريف أقبح من الجدري في الوجه الحسن.

المدائني قال: قال عبد الملك بن مروان: إن المغيرة بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام ليفخم اللحن كما يفخم نافع بن جبير الإعراب.

وكان المغيرة يلحن ويتشدق.

المدائني عن علي بن إبراهيم قال: قال عبد الملك: اللحن هجنة في الشريف والعجب آفة للرأي والخرس خير من البيان بالكذب، لأن الكذب فساد كل شيء.

المدائني عن سحيم بن حفص قال: صحف عبد الملك بن مروان فقال لقوم من كندة: من كان الميل منكم ؟ فقالوا: يا أمي المؤمنين هو المثل بن معاوية الأكرمين.

وقال المدائني: لما أنشد الأخطل عبد الملك قوله:

فإلا تغيرها قريش بملكها ... يكن عن قريش مستمال ومرحل

فقال له عبد الملك: إلى أين يا بن اللخناء ؟ قال: إلى النار. قال: لو قلت غيرها قطعت لسانك.

المدائني عن الوليد بن مسلم قال: كان الحارث الأشعري قاضي عبد الملك، فأخبر عبد الملك أن امرأته كلمته في رجل فقضى له بقضية وأن الرجل أهدى إلى امرأة الأشعري هدية، فقال عبد الملك:

إذا رشوة من باب بيت تقحمت ... لتسكن فيه والأمانة فيه

سعت هربا منه وولت كأنها ... حليم تولى عن جوار سفيه

بيعة الوليد وسليمان

قالوا: كان مروان بايع لعبد الملك ولعبد العزيز من بعده، وولى عبد العزيز مصر، فأراد عبد الملك أن يخلع عبد العزيز ويبايع لابنه الوليد، فكتب إلى عبد العزيز: إن رأيت أن تصير هذا الأمر لابن أخيك وولدك، فأبى فكتب إليه يسأله أن يجعلها للوليد من بعده ويقول له: لولا أن الوليد أعز الخلق علي أمير المؤمنين لم

يسألك هذا له، فكتب إليه: إني أرى في أبي بكر بن عبد العزيز، مثل الذي ترى في الوليد. فقال عبد الملك: اللهم إنه قد قطعني فاقطعه، وكتب إليه: احمل إلي خراج مصر، فكتب إليه عبد العزيز: يا أمير المؤمنين إنا قد بلغنا سناً لم يبلغها أحد من أهل بيتك، إلا كان بقاؤه بعدها قليلاً، وإنا لا ندري أينا يأتيه الموت أولاً، فإن رأيت أن لا تغثث علي بقية عمري فافعل، فرق له عبد الملك وقال: لعمري لا فعلت ذاك ولا سؤت أخي، وقال لبنيه إن يرد الله أن يعطيكم إياها لا يقدر أحد من العباد على ردها عنكم، وقال لابنيه الوليد وسليمان: هل قارفتما حراماً قط ؟ قالا: لا والله، قال: الله أكبر وليتماها ورب الكعبة.
قالوا: وشاور عبد الملك قبيصة بن ذؤيب الخزاعي، فقال: لا تعجل، فلعل الله سيكفيك، ولم تظهر غدراً ولم يسؤ عنك السماع، وكان يلي السكة والخاتم، فلم يشعر ذات يوم إلا وقد كتب بنعي عبد العزيز، فأدخل الكتاب علي عبد الملك فقال: يا أمير المؤمنين، قد جاءك ما كنت أردت، ولم تقطع رحم عبد العزيز ولم تأت أمراً يعاب.

وقال أعشى بني أبي ربيعة شعراً يحث فيه عبد الملك على بيعة الوليد وخلع أخيه عبد العزيز:

ابنك أولى بملك والده	وعمه إن عصاك مطرح
ورثت عثمان وابن حرب ومر	وان وكل للّه قد نصحوا
فعش حميداً واعمل بسنتهم	تكن بخير وأكدح كما كدحوا

في قصيدة.

وأراك عبد الملك البيعة للوليد قبل أمر عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث، وكتب الحجاج إلى عبد الملك يزين له بيعة الوليد، وأوفد وفداً فيهم عمران بن عصام العتري من بني هميم بن عبد العزى بن ربيعة بن تيم بن يقدم بن عترة بن أسد بن ربيعة الشاعر، وقد قتله الحجاج بدير الجماجم بعد، فقال عمران:

أمير المؤمنين إليك نهدي	على النأي التحية والسلاما
أجبني في بنيك يكن جوابي	لهم أكرومة ولنا قواما
فلو أن الوليد أطاع فيه	جعلت له الخلافة والزماما
شبيهك حول قبّته قريش	به يستمطر الناس الغماما
ومثلك في التقى لم يصب يوما	لدن خلع القلائد والخداما
فإن تؤثر أخاك بها فإنا	وجدك ما نطيق لها اتهاما
ولكنا نحاذر من بنيه	بني العلات إن نسقى السّماما

ونخشى إن جعلت الملك فيهم سحاباً أن يكون لها جهاما

في أبيات.

فقال عبد الملك: إنه عبد العزيز يا عمران، فقال احتل له يا أمير المؤمنين.

قالوا: وكان الحجاج كتب إلى عبد الملك يشير عليه باستكتاب محمد بن يزيد الأنصاري، وكتب إليه: إن أردت رجلاً عاقلاً فاضلاً وديعاً مأموناً مسلماً كتوماً للسر، تتخذه لنفسك، وتضع عنده سرك، وما لا تحب أن يظهر من أمرك، فاستكتب محمد بن يزيد، فكتب عبد الملك: أن احمله إلي، فحمله إليه فاستكتبه.

قال محمد: فلم يكن يأتيه كتاب إلا دفعه إلي، فإني لجالس يوما نصف النهار إذا أنا ببريد قد قدم من مصر، فقال: الإذن، قلت: ليست هذه ساعة إذن فأعلمني ما الذي قدمت له، فأبى فقلت: هل معك كتاب ؟ فقال: لا، فدخل بعض من حضرني على عبد الملك فأخبره، فأذن للرجل، وصرت إليه فقال حين دخل: آجرك الله يا أمير المؤمنين في عبد العزيز، فاسترجع وبكى، ووجم ساعة وقال: رحم الله عبد العزيز، فقد مضى لسبيله، ولا بد للناس من علم يسكنون إليه، وقائم يقوم بالأمر من بعدي، فما ترى ؟ قلت: يا أمير المؤمنين سيد الناس، وأرضاهم عندهم، وأفضلهم الوليد بن أمير المؤمنين، قال: صدقت وفقك الله، فمن ترى أن يكون بعده ؟ قلت: يا أمير المؤمنين أين تعدل عن سليمان فتى العرب ؟ ! قال: صدقت والله ووفقت، أما إنا لو تركنا الوليد وإياها جعلها لبنيه، اكتب عهداً للوليد ولسليمان من بعده، قال: فغضب الوليد علي حين أشرت بسليمان بعده، وكان أول من تجبر من الخلفاء، قال وصير عبد الملك مع ابنيه حين بايع لهما عبيدة بن قيس العقيلي.

المدائني عن ابن جعدبة قال: كتب عبد الملك إلى هشام بن إسماعيل المخزومي، وهو بالمدينة، يأمره أن يدعو الناس إلى بيعة الوليد وسليمان، فبايعوا غير سعيد بن المسيب، فإنه قال: لا أبايع لأحد وعبد الملك حي، فضربه هشام ضرباً مبرحاً، وألبسه المسوح، وحمله إلى ثنية بالمدينة كانوا يقتلون عندها ويصلبون، فظن أنهم يريدون قتله، فلما انتهوا إليها ردوه، فقال: لو ظننت أنهم لا يصلبوني ما لبست سراويل مسوح، ولكن قلت يسترني. وبلغ عبد الملك خبر سعيد فقال: قبح الله هشاماً، إنما كان ينبغي له إذ أبى أن يضرب عنقه، وكتب إلى هشام يلومه ويقول: إن سعيداً لم يكن ممن تخافه، وقد كان ينبغي لك أن تدعه.

المدائني قال أبو المقدام: مروا بسعيد بن المسيب علينا، وإنا في الكتاب، وعليه تبان شعر.

حدثني محمد بن سعد عن الواقدي قال: ضرب هشام بن اسماعيل في سنة ست وثمانين سعيد بن المسيب ستين سوطاً، وطاف به في ثياب من شعر حتى بلغ به رأس الثنية، فلما كروا به قال: إلى أين تكرون بي ؟

قالوا: إلى السجن، قال: والله لولا إني ظننته الصلب ما لبست هذا التبان أبداً، فرده إلى السجن، وحبسه، وكتب إلى عبد الملك بخلافه وتركه البيعة للوليد وسليمان من بعده وذلك حين مات عبد العزيز بن مروان بمصر، فكتب عبد الملك إليه يلومه فيما صنع ويقول: كان سعيد والله أحوج إلى أن تصل رحمه من أن تضربه، وإنا لنعلم أنه ما عند سعيد شقاق ولا خلاف.

قال الواقدي: وكان الذي دخل بالكتاب إلى عبد الملك في ضرب سعيد قبيصة بن ذؤيب، وكان على السكة والخاتم، فقال: يا أمير المؤمنين كيف يفتات عليك هشام بمثل هذا، ويضرب ابن المسيب، ويطوف به والله لا يكون أبداً أمحك ولا ألج منه حين فعل به ما فعل، أو سعيد ممن يخاف فتقه وغوائله ؟ قال عبد الملك: قد كتبت إليه أعلمه بكراهتي لما صنع به، وكتبت إلى سعيد أعتذر إليه، فلما قرأ سعيد كتاب عبد الملك قال: حكم الله بيني وبين من ظلمني، قال: وصنعت لسعيد ابنته طعاماً كثيراً حين حبس، وبعثت به إليه، فأرسل إليها لا تعودي لمثل هذا، فإني لا أدري ما قدر حبسي، وإنما غاية هشام بن إسماعيل أن يذهب بمالي فلا تزيديني علي القوت الذي كنت آكله في بيتي، وكان يصوم الدهر، وكان الوليد سيء الرأي في هشام، فلما ولي عزله عن المدينة، وأمر أن يوقف للناس، فدعا سعيد ولده ومواليه فقال: إن هذا الرجل قد كان أساء إلينا، فلا يذكرنه أحد منكم بسوء، ولا يعرضن له ولا يؤذينه بكلمة، فقد تركنا مجازاته لله والرحم، وإن كان ما علمته سيء النظر لنفسه، فأما كلامه فلا أكلمه أبداً.

قال: وأرسل هشام إلى أبي بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام: أكفني أمر ابن المسيب فإنه رجل عند الناس كما علمت، فقال: لا بأس عليك منه، فقال: إنه حقود قال: أما ما صنعت به فلن يخرج من قلبه، ولكنك لن ترى منه سوءاً.

وقال محمد بن سعيد لأبيه: خل بيننا وبينه، فقال سعيد: لا يعرض له، فإنك إن فعلت لم أكلمك بكلمة أبداً، وحج الوليد، فدخل مسجد المدينة، فأخرج الناس ولم يجترىء أحد على إخراج سعيد، وقيل له هذا أمير المؤمنين، فقال: لا والله لا قمت إلا في الوقت الذي كنت أقوم فيه، وجعل عمر بن عبد العزيز يعدل بالوليد عنه، وإن عليه لريطتين ما تساويان خمسة دراهم، وذلك لكراهة عمر أن يراه فينكر جلوسه، وحانت من الوليد التفاتة، فقال: من الجالس ؟ قيل: سعيد بن المسيب، ولو علم بمكان أمير المؤمنين لقام إليه، فقال الوليد: قد عرفت حاله، ونحن نأتيه، فنسلم عليه، فجاء الوليد حتى وقف على رأسه وقال: : كيف أنت أيها الشيخ وهو جالس فقال: بخير والحمد لله، فكيف أمير المؤمنين، وكيف حاله ؟ فقال الوليد: خير حال والحمد لله، فانصرف وهو يقول لعمر: هذا بقية الناس، فكان عمر إذا حلف يقول: لا والذي صرف عن سعيد شر الوليد ما كان كذا، ولأفعلن كذا، وحدثني عباس بن هشام عن أبيه عن

جده قال: لما ضرب سعيد بن المسيب لامتناعه من بيعة الوليد، أقيم للناس، فمرت به أمة لبعض أهل المدينة فقالت له: يا شيخ لقد أقمت مقام خزي فقال لها: من مقام الخزي فررت.

ولما مات عبد العزيز قال الشاميون: رد على أمير المؤمنين أمره، فدعا عليه فاستجيب له، لقول عبد الملك: إنه قطعني فاقطعه.

المدائني وغيره أن عبد الملك قال لأسماء بن خارجة الفزاري: بلغني عنك خصال كريمة، فأخبرني بها، فقال وصفها من غيري أحسن، فقال: لتقولن، قال: أما إذ أبيت يا أمير المؤمنين إلا أن أخبرك فإني لم أمد رجلي بين يدي جليس لي قط كراهة أن يظن أني أرى أن لي عليه طولاً، ولا دعوت رجلاً قط إلى طعام فأجابني إلا لم أزل أعرف له الفضل علي، ولا سألني رجل حاجةً قط فرأيت أن شيئاً من الدنيا عوض من بذل وجهه إلي فيها واختياره إياي لها، فقال عبد الملك: يحق لك أن تكون سيداً.

وقال الوليد: يا أمير المؤمنين بلغني أنه أتاه الأخطل في ناس من قومه يسألونه ديةً، فلقيهم ببشر وطلاقة، وأمر لهم بثلاث بدر فقال: بدرة لمشاكم، وبدرة لإيثاركم إياي على غيري، وبدرة لصاحبكم، ثم قال لابنيه: مرا للقوم من مالكما بما أحببتما فأمرا لهم بعشرين ألف درهم فقال الأخطل:

إذا مات ابن خارجة بن حصن ... فلا مطرت على الأرض السماء

ولا رجع البشير بغنم جيشٍ ... ولا حملت على الطهر النساء

فيوم منك خيرٌ من رجالٍ ... كثير حولهم نعم وشاء

فبورك في بنيك وفي أبيهم ... إذا ذكروا ونحن لك الفداء

فأعجب عبد الملك حديث الوليد له، وروايته ما روى من شعر الأخطب وقال له: معرفتك بفضل أهل الفضل فضيلة يا بني.

حدثني ابن أبي شيخ الكوفي عن عبيد الله بن موسى قال: بلغني أن عبد الملك بن مروان قال للحجاج: إنه ليس أحد إلا وهو يعرف عيبه، فعزمت عليك لما خبرتني بما فيك من العيوب، فقال: أنا حسود حقود لجوج قال: حسبك فما في الشيطان إلا دون هذه الخلال.

المدائني عن علي بن مجاهد قال: حبس عبد الملك يحيى بن سعيد بن أبي العاص بعد قتل أخيه أربعين يوماً، ثم دعا به فاستشار من حضره في أمره، فقال بعضهم: أقتله، وقال بعضهم من عليه، وقال له عبد الله بن مسعدة بن حكمة الفزاري: يا أمير المؤمنين إن له رحماً وقرابةً والعفو أقرب للتقوى، فمن عليه وسيره إلى عدوك فلعل الله يكفيك إياه بخيل من خيلك، فلحق بعبد الله بن الزبير، فقال له: إن أخاك كان سيء البلاء عندي فالحق بمصعب، فلحق بالعراق فولده بالكوفة وواسط.

حدثني علي بن حماد عن الحزامي عن عبد الله بن نافع قال: وفد عبد الله بن جعفر على عبد الملك بن مروان، وأهدى إليه من ألطاف المدينة فبعث إليه عبد الملك بألطاف وكسي وفرس عبد الله بن الزبير الذي يقال له اليعسوب، وكان قتل عنه، فقبل الهدايا، ورد الفرس، فبعث إليه عبد الملك يعزم عليه ليخبرنه لم رد الفرس، فقال عبد الله: ما كنت لاقدم على قومي بأسلابهم.

قالوا: وقال عبد الملك لأسماء بن خارجة: زدني من صفة مذاهبك وأخلاقك، قال: ما شتمت رجلاً قط، ولا شتمني إلا حلمت عنه إن كان كريماً، فأنا أولى من غفر زلته، وإن كان لئيماً لم أجعل عرضي خطراً له، فقال: أحسنت والله ما شئت.

المدائني قال: دخل تميم بن الحباب السلمي أخو عمير بن الحباب على عبد الملك فقال: أنشدني بعض ما رثيت به أخاك عميراً، فأنشده:

وذي ميعةٍ لا يستطاع قياده ... مع الخيل إلا ممسكاً بلجام

وزعت به الغارات حتى تركته ... حزوز الضحى من نهكةٍ وسآم

فكم من دمٍ يوماً هرقت ومن دمٍ ... حقنت ومن وفدٍ حبوت كرام

فقال عبد الملك: ما كان كما وصفت يا بن الحباب، فقال: بلى والله، وإن رغم الراغمون.

المدائني عن عوانة قال: قدم على عبد الملك قادم من العراق، فقال له: كيف تركت بشراً- يعني أخاه- ؟ قال: تركته ليناً في غير ضعف، قوياً في غير عنف، يعرف موضع العقوبة فيعاقب على قدر الذنب، قال: ذاك ابن حنتمة- يعني عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

وقال عبد الملك لأعرابي: إنك لحسن الكدنة، فقال: ذاك عنوان نعمة الله علي، إني أدفيء رجلي في الشتاء، وآكل عند الشهوة وأذود غاشية الهم يعني بالشراب.

قالوا: وبعث عبد الملك روح بن زنباع إلى أم البنين، وهي عاتكة بنت يزيد يسألها أن تجعل مالها لابنيها يزيد ومروان الأصغر، فقد أدركا، فقالت: علي بشهود عدول فلما دخلوا عليها قالت: اشهدوا أني قد تصدقت بمالي علي فقراء آل أبي سفيان صدقةً بتةً بتلةً، وقالت لروح: يا أبا زرعة أتراني أخاف على ولدي العيلة وهما ابنا أمير المؤمنين ؟ ! فأتى عبد الملك فأخبره، فغضب فقال له روح: لا تغضب يا أمير المؤمنين فإنها لم تخط فيما صنعت، ولا في الإتكال على من اتكلت عليه.

وقال الواقدي: كان الناس يصلون ركعات بعد الظهر، وكان عبد الملك أول من مد الصلاة من الظهر إلى العصر، وكان أول خليفة بخل.

المدائني عن عامر بن أبي محمد قال: تنبأ رجل يقال له خالد أيام عبد الملك، فأمر به فصلب حياً، فقال: "أتقتلون رجلاً أن يقول ربي اللّه" فطعنه رجل فانثنت الحربة، فسجد أصحابه، فنكت عبد الملك في الأرض، ثم تلا: "ما كان محمدٌ أبا أحدٍ من رجالكم ولكن رسول اللّه وخاتم النبيين" يا أبا زرعة اطعن في الجانب الأيسر فإن الشيطان يدفع عن الجانب الأيمن، فطعنه تحت الخاصرة فأخرج السنان من ظهره، فقال عبد الملك: "جاء الحق وزهق الباطل".

المدائني قال: قال عبد الملك: السياسة هيبة الخاصة مع صدق مودتها، واقتياد قلوب العامة وانصافها، والاحسان إليها.

المدائني عن عمر بن الحباب قال دخل زفر بن الحارث على عبد الملك بعد الصلح، فقال له: يا أبا الهذيل ما بقي من حبك الضحاك بن قيس ؟ قال: ما لا ينفعه، ولا يضرك، قال: لشد ما أحببتموه معاشر قيس، قال: أحببناه، و لم نواسه ولو كنا فعلنا لأدركنا ما فاتنا منه، قال: ما منعك من مواساته يوم المرج ؟ قال: ما منعك من مواساة عثمان يوم الدار.

وقال عبد الملك لزفر: بلغني أنك من كندة قال: وما خير من لا ينفى حسداً ولا يدعى رغبةً.

المدائني قال: دخل علي بن عبد الله بن عباس على عبد الملك فتغديا جميعا ثم دعا بشراب فأتي به في عس، فبدا بعلي فسقاه ثم شرب، وقال عبد الملك اللحن هجنة الشريف والعجب آفة، والكذب فساد كل شيء والخرس خير من الكذب.

المدائني عن أبي خالد التميمي عن أبي لؤلؤة المازني أن عياش بن الزبرقان دخل على عبد الملك، وعنده روح بن زنباع، وأبو الزعيزعة مولى بني مروان فقال عبد الملك: يا عياش أما ترى هذا اليماني- يعني روحاً- يفخر بملوك اليمن ؟ فقال عياش: يا أمير المؤمنين نحن بنو إسماعيل بن ابراهيم فملك إخوتنا بني اسحق بن ابراهيم أعظم من ملكهم، ملك سليمان بن داود مع النبوة، ونحن بنو إسماعيل ففينا النبوة والملك، فملكنا وملك إخوتنا أعظم من ملكهم، والله يا أمير المؤمنين لو مت و لم أدع وارثاً، لكان أبو الزعيزعة أولى بي من روح فقام أبو الزعيزعة فقبل رأس عياش وألقى عليه مطرفه فأسكت روح.

قالوا: وقاد عياش بن الزبرقان إلى عبد الملك خمسة وعشرين فرساً، فلما نظر إلى الخيل نسب كل فرس منها إلى أبيه، وحلف على كل فرس منها بيمين غير اليمين التي حلف بها على الفرس الآخر، فقال عبد الملك: ما أعجب من نسبته للخيل ولكن أعجب من حلفه على كل فرس بيمين غير الأخرى.

المدائني قال: دخل أسيلم بن الأخيف الأسدي على عبد الملك فأدناه، ثم قال له: أنشدني بعض ما قيل فيك، فامتنع فعزم عليه فأنشده شعراً:

ألا أيها الركب المجدون هل لكم بسيد أهل الشام تحبوا وترجعوا

أسيلم ذاكم ليس يخفى مكانه على مقلةٍ ترنو وأذن تسمع

جلا المسك والحمام والبيض كالدمى وفرق المذاري رأسه فهو أنزع

فضحك عبد الملك، ثم قال: ما قال قيس بن الأسلت خير مما قلته، قال: وقد حصبت البيضة رأسي فما أطعم نوماً غير تهجاع.

وزعموا أن رجلاً من الأعراب أهدى إلى عبد الملك شيئاً، فقال: كيف أقبل هديتك وأنا أظنك لا تحسن أن تطاف، فقال: مهلاً يا أمير المؤمنين، فوالله لأطيل المشي حتى أتوارى كراهة أن أرى، وأستقبل الريح، واشتم النسيم، وأقدم رجلاً وأؤخر أخرى، وأخوي تخوية الظليم، وأمسح بالحجر، وأجتنب المدر، فضحك منه وقبل هديته، ووهب له.

حدثني مصعب بن عبد الله الزبيري عن مالك بن أنس قال: قال عبد الملك بن مروان لسعيد بن المسيب: يا أبا محمد صرت أعمل الخير فلا أسر به، وأفعل الشر فلا أسله، قال: الآن تكامل فيك موت القلب.

حدثني محمد بن سعد عن الواقدي عن مسلم بن حماد عن عمر بن حفص عن الزهري عن قبيصة بن ذؤيب بن حلحلة قال: كنا في خلافة معاوية في آخرها نجتمع في حلقة في مسجد بالليل أنا ومصعب بن الزبير، وعروة بن الزبير، وأبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام، وعبد الملك بن مروان، وعبد الرحمن بن المسور بن مخرمة وإبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف، وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة، وكنت أنا آتي زيد بن ثابت حتى مات، وكان عروة يغلبنا بدخوله على عائشة رضي الله عنها، وكانت أعلم الناس.

المدائني قال: قال عبد الله بن الزبير وسمع رجلاً يشتم الحكم بن أبي العاص: لا تسب الحكم فإنه كان رجلاً وديعاً، ولكن سب مروان وابن مروان، ثم قال: أيخوفني عبد الملك بالحرب، وأنا ابن الحرب وأخوها، فيها ولدت، وفيها غذيت.

حدثني عبد الله بن صالح بن مسلم العجلي أخبرني الثقة عن مجالد عن الشعبي قال: دخلت على عبد الملك فصعد في بصره وصوبه ثم قال: يا شعبي إنك لضئيل، فقلت: زوحمت في الرحم يا أمير المؤمنين، وكان توأما، قال: ثم أنشأت أقول متمثلاً:

لسان الفتى نصف ونصف فؤاده فلم يبق إلا صورة اللحم والدم

وكأين ترى من صامت لك معجب زيادته أو نقصه في التكلم

قال وكان الأخطل حاضراً فقال:

لا يعجبنك من جليس خطبة حتى يكون مع المقال أصيلا

إن الكلام من الفؤاد وإنما جعل الكلام على العقول دليلا

قال الشعبي: فأنشدته في هذا المعنى غير شعر، فقال الأخطل: أنا أفرغ من وعاء واحد وأنت تفرغ من أوعية كثيرة.

المدائني عن ثور بن يزيد قال: ذكرت خطباء أهل الشام الخلافة فعظموها، ثم أطروا عبد الملك، فالتفت إلى عبد الرحمن بن زرعة الحميري فقال: يا بن زرعة ما مترلتي عند الله عز وجل ؟ قال: أما ترضى أن تكون مترلتك مترلة داود النبي صلى الله عليه وسلم قال الله عز وجل: "يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى" الآية قال: فهذا قول الله عز وجل لنبيه، فكيف بك، فأطرق عبد الملك فلم يتكلم.

المدائني قال: دخل رجل من بني تميم على عبد الملك فقال: يا أمير المؤمنين إن لي بلاء، أصيبت عيني يوم الدار فوصله.

وكان لرجل من جلساء عبد الملك وأحبائه ابن أعور فقال له: إني مدخلك على أمير المؤمنين فقل له كما قال فلان التميمي وأراد أن يضحك عبد الملك منه، فأدخله عليه فقال كما قال الرجل الأول، فقال: ومن يعلم صدقك ؟ قال: هذا– يعني ابن عمه . قال: كذب والله يا أمير المؤمنين ما أصيبت عينه إلا يوم المرج مع الضحاك بن قيس فطرده عبد الملك، فقال الرجل الذي أدخله: يا أمير المؤمنين هذه ورطة قد وقعت فيها، قال عبد الملك: وكيف ؟ قال: إن له أربع بنين كالأسود ما آمنهم أن يفتكروا بي فأمر له عبد الملك بمال، وقال كفهم عن نفسك بهذا، فلما خرج من عند عبد الملك تلقاه بنو الرجل فقالوا: غررت أبانا وغررت به، قال: لا تعجلوا فالذي صنعت خير هذه صلة أمير المؤمنين، فدفعها إلى أبيهم فكفوا عنه.

المدائني قال: قال عبد الملك لأبي الزعيزية مولاهم: هل اتخمت قط ؟ قال: لا، قال: وكيف ذاك ؟ قال: لأنا إذا طبخنا أنضجنا، وإذا مضغنا أدققنا، ولا نكد المعد ولا نخيلها.

المدائني قال: لما بلغ عبد الملك خروج ابن الأشعث، قال لمحمد بن عمير بن عطارد، وهو عنده: من بالعراق ممن إن دعا أجيب ؟ قال: لا أعلمه إلا أن يكون عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث.

المدائني قال عبد الملك: اللحن في الرجل الشريف كالجدري في الوجه الحسن.

وقال عبد الملك لابن له لحن بين يديه: اخز من اللحن كما تخزى من الفاحشة يعلمها الناس. قال: وقال عبد الملك لعبد العزيز أخيه حين أمره بقتل عمرو بن سعيد الأشدق، فلم يفعل: لقد أشبهت أمك

الأعرابية البائلة على عقبيها، فحلف عبد العزيز أن لا يعطي شاعراً يمدحه حتى يذكر أمه في مديحه، فقال ابن قيس الرقيات:

أمك بيضاء من قضاعة في ال بيت الذي يستظل في طنبه

وأنت في الجوهر المهذب من عبد مناف يداك في سببه

المدائني عن عبد الله بن فائد قال: كان يقال: معاوية أحلم وعبد الملك أحزم.

المدائني عن جويرية بن أسماء قال: كتب مروان إلى معاوية يسأله أن يصير إلى عبد الملك ديوان المدينة فصيره، فلم يزل عليه حتى كانت الفتنة.

المدائني قال عبد الملك: ما رأيت هذا البربط الأقنى الذي يذكرونه قط، فقال بعضهم: صدق لم يرتفع إلي البربط إنما رأى الطنبور وقال آخر: كذب والله إني لأراه يضرب به.

المدائني عن عبد الله بن سلم قال: فرش لعبد الملك على سطح وهو يشتكي فمه، فلما استلقى على فراشه قال: يا دنيا ما أطيبك مع العافية، وكان يصيح حتى يسمع صياحه من خارج القصر: يا أهل العافية لا تستقلوها.

المدائني قال: ركب عبد الملك في يوم شديد البرد، وعليه جباب خز مظاهرة، فلقيه علي بن عبد الله بن عباس فقال: يا أبا محمد تدق أم دفر دقا، يعني الدنيا، فما أتت عليه جمعة حتى مات.

المدائني عن سحيم بن حفص قال: أوصى عبد الملك بنيه في مرضه الذي مات فيه فقال: أوصيكم بتقوى الله فإنها أزين حلية، وأحصن كهف، ليعطف الكبير منكم على الصغير، وليعرف الصغير حق الكبير، وانظروا مسلمة فاصدروا عن رأيه فإنه نابكم الذي عنه تفترون، ومجنكم الذي عنه ترمون، وأكرموا الحجاج فإنه الذي وطأ لكم المنابر، ودوخ لكم البلاد، وأذل الأعداء، وكونوا بني أم بررة لا تدب بينكم العقارب، وكونوا في الحرب أحراراً، فإن القتال لا يقرب منيه قبل وقتها، وكونوا للمعروف منازل فإن المعروف شيء يبقى آخره وذخره وذكره، وضعوا معروفكم عند ذوي الأحساب، فإنهم أصون له، وأشكر لما يؤتى إليهم منه، وتغمدوا ذنوب أهل الذنوب، فإن استقالوا فأقيلوا، وإن عادوا فانتقموا.

المدائني عن أبي إسحق الزيادي قال: قال بعض أطباء عبد الملك: إن شرب الماء مات، فاشتد عطشه فقال: يا وليد اسقني قال: لا أعين عليك، فقال: يا فاطمة اسقيني، فقامت لتسقيه فمنعها الوليد فقال له عبد الملك لتدعنها أو لأخلعنك، فقال: لم يبق بعد هذا شيء فسقته فخمد.

المدائني قال: جعل عبد الملك يقول حين احتضر

إن بني صبية صيفيون

أفلح من كان له ربعيون

إن بني صبية صغار

أفلح من كان له كبار

فقال عمر بن عبد العزيز وهو عنده: "قد أَفلح من تزكى وذكر اسم ربه فصلى" قالوا: ودخل الوليد على عبد الملك وعند رأسه فاطمة ابنته وهي تبكي، فقال: كيف أمير المؤمنين ؟ قالوا: هو صالح، فلما خرج قال عبد الملك:

ومستخبر عنا يريد أخا الردى — ومستخبرات والدموع سواجم

قالوا: وكان عبد الملك يقول: أخاف الموت في شهر رمضان، فيه ولدت، وفيه فطمت، وفيه جمعت القرآن، وفيه بايع لي الناس، فمات للنصف من شوال حين أمن الموت في نفسه، وكان موته في سنة ست وثمانين، وهو ابن ثلاث وستين، بدمشق، وكانت ولايته بعد مقتل ابن الزبير ثلاث عشرة سنة وثلاثة أشهر، وخمسة عشر يوما، ودفن خارج باب الجابية بدمشق، وصلى عليه الوليد فتمثل هشام أو سليمان:

فما كان قيس هلكه هلك واحد — ولكنه بنيان قوم تهدما

فقال له الوليد: اسكت فإنك تتكل بلسان شيطان ألا قلت كما قال أوس بن حجر:

إذا مقرم منّا ذرا حدّ نابه — تمخط منا ناب آخر مقرم

وقيل إن سليمان المتمثل بالبيت الأول، لأن هشاما كان يوم مات أبوه ابن أربع عشرة سنة، ولد عام قتل مصعب.

قالوا: ولما أخرج عبد الملك احتزم الوليد ومشى بين يدي سريرة، وكان في طريقهم إلى المقابر دار إذا هدمت كان الطريق أقرب إلى المقابر، فأمر الوليد بهدم الدار قبل أن تخرج الجنازة، فهدمت.

وخطب الوليد حين رجع من الجنازة، فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه: لم أر مثلها مصيبة، و لم أر مثله ثوابا، فإن لله وإنا إليه راجعون لعظم المصيبة، والحمد لله على حسن العطية، إني قد كفيت ما كانت الخلفاء قبلي تتكلم به، فمن كان في قلبه شك فليمت بدائه، من أمال أذنه أملنا أذنيه.

قال الشاعر يرثى عبد الملك:

سقاك ابن مروان من الغيث مسيل — أحشّ شمالي يجود ويهطل

فما في حياة بعد موتك رغبة — لحرّ وإن كنا الوليد نؤمل

ورثاه كثير وغيره.

خبر رستقاباذ في أيام عبد الملك

وولاية الحجاج ابن يوسف بن الحكم بن أبي عقيل العراق

حدثني عباس بن هشام، عن أبيه، عن لوط بن يحيى، وعن عوانة: أن بشر بن مروان هلك بالبصرة وهو على الكوفة والبصرة واستخلف خالد بن عبد الله بن خالد بن أسيد بن أبي العاص على البصرة، فمكث نحواً من شهرين، ثم ولى عبد الملك الحجاج بن يوسف العراق كله، غير خراسان وسجستان، فإنه كان عليهما أمية بن عبد الله بن خالد بن أسيد، فأقره عبد الملك سنتين بعد قدوم الحجاج من الحجاز، وأبى عبد الملك أن يقر خالداً على عمله، وكلم في ذلك فلم يجب إليه، وقال: أساء التدبير، وعجز عن العراق، وضعف عن أهل المصر، فقدم الحجاج من الحجاز، وكان واليا عليه، فاقبل حتى دخل الكوفة متلثما فقصد إلى المنبر، فصعده، ثم جلس ساعة لا يتكلم، فقال محمد بن عمير بن عطارد للهيثم بن الأسود: ما له- ترحه الله- لا يتكلم ؟ ما أعياه وأشناه وأدمه ! والله إني لأظن خبره أسوأ من مرآته، ثم أخذ كفا من حصى ليحصبه، فلم يفعل حتى قام الحجاج، فحسر نقابه ثم قال:

أنا ابن جلا وطلاع الثنايا متى أضع العمامة تعرفوني

إني لأرى رؤوسا قد أينعت وحان قطافها.

قد شمرت عن ساقها فشمري ليس هذا أوان عشّك فادرجي

هذا أوان الشد فاشتدي زيم

قد لفها الليل بسواق حطم

ليس براعي إبل ولا غنم

ولا بجزار على ظهر وضم

قد لفها الليل بعصلبي

مهاجر ليس بأعرابي

إني والله يا أهل العراق لا أحلق إلا فريت ولا أعد إلا وفيت، والله إني لأحمل الشر بثقله وأحذوه بنعله، وأجزيه بمثله. إن الله ضرب "مثلاً قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان فكفرت بأنعم اللّه فأذاقها اللّه لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون". فأنتم أولئك، أو أشباه أولئك، فاستوسقوا واستقيموا ولا تميلوا، فقد بين الصبح الذي عينين، والله لأمرينكم بالهوان حتى تدوروا، ولأعصبنكم عصب السلمة حتى تذلوا، ولأقرعنكم قرع المروة حتى تلينوا، ولأضربنكم، ضرب غريبات الإبل حتى

تنقادوا؛ إنه والله ما يقعقع لي بالشنان، ولا أغمز تغماز التين، ولا أجلس على الدبر؛ إني أمرؤ فررت عن ذكاء، وجريت إلى الغاية وانتضيت عن تجربة، إن أمير المؤمنين عبد الملك نكت كنانته، ونثلها بين يديه، وعجم عيدانها، فوجدني أمرها معجماً، وأشدها مكسراً، فوجهني إليكم، ورمى بي في نحوركم، فأنتم أهل بغي وخلاف، وشقاق ونفاق، طالما أوضعتم في الضلال، وسننتم سنن الغي تسائلون ماذا قال أميركم ؟ وماذا يقول ؟ وها، وها. وإياي وهذه الزرافات والجماعات، وكان ويكون، وما أنتم وذاك ؟ إني أرى الدماء بين العمائم واللحى، والذي نفس الحجاج بيده لتسلكن طريق الحق، ولتستقيمن عليه، أو لأجعلن لكل امرىء منكم شغلاً في جسده، فاقبلوا الإنصاف، ودعوا الإرجاف، وقول القائل منكم: أخبرني فلان عن فلان، قبل أن أوقع بكم إيقاعاً يترك النساء أيامى، والولدان يتامى، فتقلعوا وقد جنيتم العافية، وغنمتم حظوظكم من السلامة، الا ولا يركبن رجل إلا وحده، ولا يحفظن إلا نفسه. فقال محمد بن عمير: لله أبوه ! لقد كدنا نقع منه في شر، وجعل الحصا يتناثر من بين أصابعه.

وقال المدائني في إسناده: قدم الحجاج في سنة خمس وسبعين في رجب، فبدأ بالكوفة، فخطب أهلها وتوعدهم، وأرسل إلى وجوههم، وإلى كثير من العامة، فقال: أخبروني عن الولاة قبلي، ما كانوا يعاقبون به العصاة ؟ قالوا: الضرب والحبس، قال: لكني لا أعاقبهم إلا بالسيف؛ إن المعصية لو ساغت لأهلها ما قتل عدو، ولا جبي فيء، ولا عز دين، ولو لم يغز المسلمون المشركين، لغزاهم المشركون. وقد أجلتكم ثلاثاً، فمن وجدته بعد ثالثة من جيش ابن مخنف، فبرئت منه الذمة.
وقال ليزيد بن علاقة السكسكي صاحب شرطه: اجعل سيفك سوطاً، فمن وجدته بعد ثالثة عاصياً فاقتله.
وقيل إن الحجاج قال في خطبته:

جاءت به والقلص الأعلاط تهوي هوي سائق الغطاط

ليس هذا أوان عشك فادرجي.
وحدثني عبد الله بن صالح العجلي عن ابن كناسة الأسدي، قال: حدثنا أشياخنا قالوا: قدم الحجاج الكوفة، فخطب خطبته التي توعد الناس فيها، ثم قال: إياي وهذه الجماعات والزرافات والإخبار والاستخبار وسوء الأراجيف، لا يركبن أحد منكم إلا وحده ولا يخافن إلا ذنبه، إنه لو ساغت لأهل المعصية معصيتهم، ما جبي فيء، ولا قوتل عدو، ولعطلت الثغور، وأهملت الأمور، ولو لا أنكم تغزون كرهاً ما غزوتم طوعاً، وقد بلغني رفضكم المهلب، وإقبالكم إلى مصركم، عصاة مخالفين، وأقسم بالله: لا

أجد أحداً بعد ثالثة ممن أخل بمركزه، إلا ضربت عنقه، ثم دعا بالعرفاء فقال لهم: ألحقوا الناس بالمهلب، وأتوني بكتبه بموافاتهم ولا أستبطئكم فأضرب أعناقكم.

فلما كان اليوم الثالث من مقدمه، سمع في السوق تكبيراً عالياً، فصعد المنبر، فقال: يا أهل العراق يا أهل الشقاق والنفاق، ومساوىء الأخلاق، إني سمعت تكبيراً الذي يراد به الله في الترغيب، ولكنه تكبير يراد به الترهيب، وقد عرفت أنها عجاجة تحتها قاصف، أيا بني اللكيعة، وعبيد العصا، وأبنا الأيامى، إلا يربع أحدكم على ظلعه، ويحسن حمل رأسه ويحقن دمه، ويبصر موضع قدمه، فأقسم بالله ليوشك أن أوقع بكم، وقعة تكونون بها نكالاً لم قبلها، وأدباً لمن بعدها. فقام عمير بن ضابىء التميمي ثم البرجمي، فسأله أن يقبل منه بديلاً، وكان وطىء على بطن عثمان وهو مقتول فضرب عنقه. قالوا: ولقي رجل أعرابياً من بني تميم، فقال ما الخبر ؟ قال: قدم الكوفة رجل من شر أحياء العرب، من هذا الحي من ثمود، حمش الساقين، ممسوح الجاعرتين، أخفش العينين، فقدم سيد هذا الحي، فضرب عنقه.

وقال ابن الزبير لإبراهيم بن عامر الأسدي:

أقول لإبراهيم لما لقيته ... أرى الأمر أمسى منهباً متشعبا

تحرز فأسرع والحق الجيش لا أرى ... سوى الجيش إلا في المهالك مذهبا

تخير فإما أن تزور ابن ضابىء ... عميراً، وإما أن تزور المهلبا

هما خطتا سوء، نجاؤك منهما ... ركوبك حوليا من الثلج أشهبا

فأمسى ولو كانت خراسان دونه ... رآها مكان السوق أو هي أقربا

قالوا: وأتي الحجاج بعاص من بني سعد، فقال أما سمعت جريراً يقول:

إذا ظفرت يداه بحبل عاص ... رأى العاصي من الأجل اقترابا

ثم أمر به فضربت عنقه.

وقال أبو عبيدة معمر بن المثنى: كان الحجاج يفرض في ثلاثمائة، ففرض للحرنفش- أحد بني ثعلبة بن سلامان- وكان يأخذ من فرض له بفرس جواد، وسلاح شاك فقال الحرنفش:

يكلفني الحجاج درعا ومغفراً ... وطرفا كميتا رائعاً بثلاث

وستين سهماً صنعةً يثربية ... وقوساً طروح النبل غير لباث

ففي أي هذا أجعلن دراهمي ... فربي من هذا الحديث غياثي

المدائني عن سحيم بن حفص قال: كان قدوم الحجاج الكوفة يوم جمعة فخطب ونزل فصلى، وقرأ: "سأل سائل بعذاب واقع". وقال في خطبته: أقسم بالله لتقبلن الإنصاف ولتتركن الإرجاف، وكان

وكان، وأخبرني فلان عن فلان، والهبر والهبر لأهبرنكم بالسيف هبراً يدع النساء أيامى، والولدان يتامى، وحتى تمشوا السهمى، وتقلعوا عن ها، وها، وأياي وهذه الزرافات والجماعات.
وقال أبو مخنف: لما خطب الحجاج خطبته، أمر مناديه فنادى: أن برئت الذمة من عاص مخل بمركزه، وجدناه بالكوفة بعد ثلاث، فألحقوا ببعث المهلب، وبمكاتبكم من الثغور، ومغازيكم للخوارج.

وجاءه عمير بن ضابىء بن الحارث بن أرطاة البرجمي، من بني تميم، فقال: أصلح الله الأمير إني شيخ كبير عليل، وهذا ابني حنظلة وليس في بني تميم رجل أشد منه ظهراً وبطشاً، فإن رأيت أن تخرجه مكاني بديلاً فافعل. فقال الحجاج: والله لهذا خير لنا من أبيه، فقال له عنبسة بن سعيد، أخو عمرو بن سعيد الأشدق، وكان أليف الحجاج وجليسه: إن هذا الذي فعل بعثمان كذا، وقال كذا، وحدثه حديث ضابىء، وأنشده شعره، وقد كتبناه في مقتل عثمان، فقال الحجاج: أفهلا بعثت حين أردت غزو عثمان بديلاً. أضربوا عنقه. فضربوا عنقه، فلما ضربت عنق عمير، تطايرت عصاة الجيوش إلى مكاتبهم التي رفضوها، ولم يبق من أصحاب المهلب أحد إلا لحق به، وكان بإزاء الخوراج برامهرمز من الأهواز، فركب العراض حين عرفوا حضورهم وعرضوهم، ولحق كل مخل بثغره ومركزه، فقال عبد الله بن الزبير الأسدي شعره المقدم ذكره وهو:

تخير فإما أن تزور ابن ضابىء عميراً وإما أن تزور المهلبا
هما خطتا سوء نجاؤك منهما ركوبك حوليا من الثلج أشهبا
فجاء ولو كانت خراسان دونه رآها مكان السوق أو هي أقربا

وكان الحجاج أول من ضرب أعناق العصاة.
ثم خرج إلى البصرة فولاها الحكم بن أيوب بن الحكم بن أبي عقيل، وخطب فقال: إن العوان لا تعلم الخمرة، فالزموا الطاعة، تحسن لكم بها العائدة، ومن كان بالبصرة من جيش المهلب، فليلحق به فإني إن وجدت منهم أحداً بعد ثالثة ضربت عنقه، فأتاه شريك بن عمرو اليشكري، وكان به فتق، وكان أعور يضع علي عينه قطنة، فسمي ذا الكرسف، فقال له: أصلح الله الأمير إني عرضت على بشر بن مروان، فأمر العراض أن يوقعوا على اسمي زمنا وأعطوني، فهذا عطائي قد جئتك به، لترده الي بيت المال، فقال الحجاج:

إن لها لسائقاً عشنزرا
على نواحيها مزخا مزجرا

إذا ونين ونية تغشمرا

ثم أمر به فضربت عنقه لاستعفائه، وكان عريفاً، فلم يبق بالبصرة عاص إلا لحق بالمهلب وبمكتبه، وقيل أن الحجاج أنشد هذه الأبيات:

إن لها لسائقاً

بالكوفة في خطبته بها. وقال الفرزدق ويقال كعب الأشعري:

لقد ضرب الحجاج بالمصر ضربة تقرقر منها بطن كل عريف

وبلغ المهلب خبر الحجاج، فقال: لقد أتى القوم وال ذكر.

المدائني قال: كان الحجاج يغدي الناس، إذ أتى قوم من بني سليم برجل فقالوا: هذا عاص فقال: والله ما شهدت عسكراً قط، ولا أثبت لي اسم قط في ديوان، وإنما نساج، فضرب عنقه فأمسك الناس عن الطعام، فقال الحجاج ما لي أراكم قد اصفرت وجوهكم، وخلت أيديكم من قتل رجل واحد ؟ كلا والله، إن الذئب يكنى أبا جعدة، وإنه من لا يذد عن حوضه يهدم.

وخرج الحجاج إلى رستقاباذ ومعه أهل الكوفة وأهل البصرة وبين رستقاباذ والأهواز ثمانية فراسخ، وبينها وبين المهلب يومئذ ثمانية عشر فرسخاً، وإنما أراد أن يشد ظهره وظهور أصحابه بمكانه وأن لا يبرح حتى يهلك الله الخوارج. وبعث بالعراض إلى المهلب برامهرمز، فقال الشاعر:

قل للمهلب قد أتتك معاشر حشروا إليك كحشر أهل البرزخ
طاروا إليك برأس كل طمرّةٍ جرداء تحمل كل قرم أبلخ
إني أرى الحجاج يقطع أذرعاً بأكفها ورؤوس قومٍ تشدخ
أخذ البريء بما جناه غيره إن السعيد هناك من لم يلطخ
أودى عمير والقتال سبيله قل للعصاة تحرزي أو دربخي

وقال سوار بن المضرب أحد بني ربيعة بن كعب بن سعد، وكان عاصياً:

أقاتلي الحجاج إن لم أزر له دراب وأترك عند هند فؤاديا

يرد درأبجرد

إذا جاوزت قصر المجيزين ناقتي فباست أبي الحجاج لما ثنائيا
فإن كنت لا يرضيك حتى تردني إلى قطري ما إن خالك راضيا
أترجو بنو مروان سمعي وطاعتي ودوني تميم والفلاة أماميا

قال: المجيزون كانوا يحفظون الطريق ويجيزون السابلة، ولهم قصر بسفوان البصرة، يعرف بهم، كانوا يترلونه.

قالوا: وقام الحجاج برستقاباذ حين نزلها خطيباً، فحمد الله عز وجل وأثنى عليه، ثم قال: يا أهل المصرين، هذا المكان والله مكانكم، جمعة بعد جمعة، وشهراً بعد شهر، وسنة بعد سنة، حتى يهلك الله عز وجل هؤلاء الخوارج المطلين عليكم. فقال له الناس: و لم تحبسنا أصلح الله الأمير بهذا المكان، سر بنا إلى هؤلاء الكلاب فما هم إذا اجتمع أهل المصرين عليهم بشيء. ودخل عليه الوجوه ذات يوم فرأى الهذيل بن عمران بن الفضيل البرجمي، وكان من أشراف أهل البصرة، وكان ينادم بشر بن مروان، وكانت له منه مترله، وهو يجر ثوبه، فقال: يا هذيل ارفع ثوبك، فقال: إن مثلي أيها الأمير لا يقال له هذا القول فقال الحجاج: بلى والله، وتضرب عنقه، فخرج الهذيل وهو يقول: قاتله الله جذياً ما أتيهه في نفسه وفي الهذيل يقول الشاعر:

يا أيها السائل في الرفاق

إن الهذيل سيد العراق

ثم إن الحجاج خطب يوماً فقال: إن الزيادة التي زادكم إياها ابن الزبير، إنما هي زيادة ملحد منافق فاسق، ولسنا نجيزها. وكان مصعب قد زاد الناس مائةً مائةً في العطاء، فقال له عبد الله بن الجارود، واسم الجارود بشر بن عمرو بن حنش بن المعلى العبدي: أيها الأمير، ليست بزيادة ابن الزبير، إنما هي زيادة أمير المؤمنين عبد الملك، إذ أنفذها وأجازها، وجرت لنا على يد بشر بن مروان. فقال له الحجاج: ما أنت والكلام لتحسن حمل رأسك أو لأسلبنك إياه. فقال: و لم ؟ والله إني لك لناصح، وإن قولي هذا لقول من ورائي فترل الحجاج، ومكث أشهراً لا يذكر الزيادة، ثم أعاد القول فيها، فرد عليه ابن الجارود مثل رده الأول، فقام مصقله بن كرب بن رقبة بن خوتعة العبدي، وهو أبو رقبة بن مصقلة، الذي يتحدث عنه، فقال: إنه ليس للرعية أن ترد على راعيها، وقد سمعنا ما قال الأمير، فسمعاً وطاعةً، فيما أحببنا وكرهنا، فقال له عبد الله بن الجارود: يا بن الجرمقانية، وما أنت وما هاهنا ؟ ومتى كان مثلك يتكلم وينطق في مثل هذا ؟ وأتى الوجوه عبد الله بن الجارود، فصوبوا قوله ورأيه، في رده على الحجاج، وإبائه ما أتى به، وقال له الهذيل بن عمران البرجمي، وعبد الله بن حكيم بن زياد المجاشعي، وغيرهم: نحن معك ويدك وأعوانك، إن هذا الرجل غير كاف أو ينقصنا هذه الزيادة، فهلم نبايعك على إخراجه من العراق، ثم نكتب إلى عبد الملك نسأله أن يولي علينا غيره، فإن أبى خلعناه، فإنه هائب لنا ما دامت

الخوارج، فبايعه الناس سراً، وأعطوه المواثيق على الوفاء، وأخذ بعضهم على بعض العهود، وبلغ الحجاج ما هم فيه، ففرق بين أخماس أهل البصرة، وأرباع أهل الكوفة، وجعل بينهم طرقاً، وصير فيها حرساً، وأحرز بيت المال، والناس في أمرهم، فلما أستتب لهم أمرهم أظهروه، وذلك في شهر ربيع الآخر سنة ست وسبعين، وأتى عبد الله بن الجارود عبد القيس، فأخرجهم على راياتهم، وخرج الناس معه حتى بقي الحجاج وليس معه إلا خاصته وأهل بيته.

وقال المدائني: كان خروجهم قبل الظهر فقال رجل من بني عجل لعبد الله بن الجارود:

أخلق بعبد اللّه ان يسوسا

وأن يقود جحفلا خميسا

أهل العراقين الكرام الشوسا

ويخلعوا الخليفة المتعوسا

إذ قلدوا أمرهم الرئيسا

أكرم به من قائد قدموسا

نحن قتلنا مصعبا وعيسى

وكم قتلنا منهم بئيسا

وقطع ابن الجارود ومن معه الجسر، وكانت خزائن الحجاج من ورائه، وغلبوا على السلاح، وأرسل الحجاج أعين صاحب حمام أعين وهو في قول الكلبي مولى بشر بن مروان، وفي قول أبي اليقظان مولى سعد بن أبي وقاص. إلى عبد الله بن الجارود، فأتى الصف، فرد، فقال: إنما أنا رسول، فأذن له، فقال: أجب الأمير، فقال ابن الجارود: ومن الأمير ولا نعمة عين لابن أبي رغال؟ ولكن ليخرج عنا مذموماً مدحوراً، وإلا قاتلناه. فقال أعين: أما إذ لم تجبه فأنه أمرني أن أقول لك: أتطيب نفساً بقتلك وقتل أهل بيتك وعشيرتك، والذي نفس الحجاج بيده لئن لم تأتني لأدعن قومك عامة، وأهل بيتك خاصة كأمة قد بادت، وحديثاً للغابرين. وكان الحجاج قد حمل أعين هذه الرسالة، وقال له: إن لم يأتني فأوردها إليه، فقال ابن الجارود لأعين: والله يا بن الخبيثة لولا أنك رسول لضربت عنقك، وأمر فوجيء في عنقه، وأخرجوه.

قالوا: واجتمع الناس لابن الجارود، فأقبل بهم زحفاً نحو الحجاج، وكان رأيهم أن يخرجوه عنهم ولا يقاتلوه، فلما صاروا إليه انتهبوا ما في فسطاطه وأخذوا ما قدروا عليه من متاعه ودوابه، وجاء أهل اليمن

حتى احتملوا امرأته، ابنة النعمان بن بشير الأنصاري، وجاءت مضر فاحتملوا امرأته الأخرى أم سلمة بنت عبد الرحمن بن سهل بن عمرو القرشي أخي سهيل فحصنوها مخافة السفهاء.

وقال ابن الكلبي وأبو اليقظان: هي أم سلمة بنت عبد الرحمن بن سهل بن سهيل بن عمرو، وكانت عند الحجاج، ثم خلف عليها الوليد بن عبد الملك، ثم سليمان بن عبد الملك، ثم هشام بن عبد الملك.

ثم إن القوم انصرفوا عن الحجاج وتركوه، وأتاه قوم من أهل المصرين، فصاروا معه، مستوحشين من محاربة السلطان ومخالفته، فجعل الغضبان بن القبعثرى الشيباني يقول لعبد الله بن الجارود: تعش بالجدي قبل أن يتغدى بك أما ترى من قد أتاه منكم ؟ ولئن أصبح ليكثرن ناصره وليضعفن مدتكم. فقال: قد قرب المساء، ولكنا نعالجه بالغداة. وكان مع الحجاج عثمان بن قطن بن عبد الله الحارثي، وزياد بن عمرو العتكي، وكان زياد على شرطه بالبصرة، فقال لهما: ما تريان ؟ فقال زياد: أرى أن آخذ لك من القوم أماناً، وتخرج حتى تلحق بأمير المؤمنين، فقد أرفض جمهور الناس عنك، ولا أرى لك أن تقاتل بمن معك، ولا أحب لك أن تضيع نفسك وتهلكها، فقال عثمان بن قطن: لكني لا أرى ذلك، إن أمير المؤمنين قد أشركك في أمره، وخلطك بنفسه، واستنصحك وسلطك وملكك، فسرت إلى ابن الزبير، وهو أعظم الناس خطراً فقتلته، فولاك الله عز وجل شرف ذلك، وسناه وذخره وأجره، وولاك أمير المؤمنين الحجاز، ثم رفعك إلى ولاية العراقين. أفالآن حين جريت إلى المدى، وأصبت الغرض الأقصى وهابتك العرب، تخرج على قعود تدأدى يوجف بك إلى الشام والله لئن فعلتها لا نلت من عبد الملك مثل الذي أنت فيه من السلطان أبداً، وليتضعن شأنك، ولتسقطن عنده، ولتهونن على كل عدو، ولكني أرى أن نمشي بسيوفنا معك، فنضارب هؤلاء القوم، حتى نلقى ظفراً أو نموت كراماً، فقال له الحجاج: قرعتني بما في قلبي قرعاً، الرأي ما رأيت. فحفظ هذه لعثمان بن قطن، واحتمل تلك على زياد بن عمرو.

وقال المدائني عن أبي اليقظان: إن عثمان أشار عليه بالقتال، وان عبد الرحمن بن عبيد بن طارق العبشمي، وكان على شرطه، قال له: إنما نحن في عصبة وقد حيل بيننا وبين السلاح. فقال له: إن القليل الطيب خير من الكثير الخبيث وكثيراً ما ينصر الله عز وجل القليل على الكثير.

قالوا: وأتى الحجاج مالك بن مسمع فقال إني قد أخذت لك من الناس أماناً فجعل الحجاج يرفع صوته ليسمع الناس فيقول: والله لا أؤمنهم أبداً حتى يأتوا بالهذيل وعبد الله بن حكيم فإنهما سعرا هذه الفتنة، ودعا الحجاج ابن الغرق مولاه فقال له: ائت عبيد بن كعب النميري فقل له وكان على خمس أهل العالية: هلم إلي فامنعني فقال: قل له: إن أتيتني منعتك، فقال: لا والله ولا كرامة. وبعثه إلى محمد بن عمير بن عطارد بن حاجب بن زرارة بن عدس فقال له مثل ذلك، فقال ابن عمير: إن أتاني منعته، فقال: إنه لا يأتيك ولكنك تأتيه في قومك، فقال: لا ناقة لي في هذا الأمر ولا جمل، ثم أرسل إلى عبد الله بن حكيم

المجاشعي، وهو رأس تميم، يسأله النصر فقال مثل قول أصحابه: يأتيني. وقال له سحيم بن شعيب الحنفي: إن شئت أخذت لك أماناً ولحقت بصاحبك فلم يجبه الحجاج بشيء، وقال: إن تكلم أو تحرك فاضربوا عنقه، ثم تكلم الحجاج رافعاً صوته فقال: إن هؤلاء القوم أرسلوا إلي يطلبون مني الأمان، ولا والله لا أؤمنهم فلم ينطق الحنفي وجلس.

قالوا: ومر عباد بن الحصين الحبطي بابن الجارود والهذيل بن عمران وعبد الله بن حكيم وهو يتناجون فقال: أشركونا في نجواكم، فقالوا: هيهات أن يدخل في نجوانا أحد من بني الحبط، فغضب وصار إلى الحجاج في مائة، فقال له الحجاج: أعلي أم لي ؟ فقال: لك أيها الأمير، فقال الحجاج: ما أبالي من تخلف بعدك، وتخاذل الناس وسعى قتيبة بن مسلم في أعصر وقال: والله لا أدع قيسياً على الحجاج يقتل وينتهب ماله وأظاهر ابن الجارود عليه، فأقبل في نحو من ثلاثين فسلم على الحجاج بالإمرة، فقال: أقتيبة بن مسلم ؟ فقال: نعم، قال: تقدم، وكان الحجاج قد يئس من الحياة فلما جاءه هؤلاء اطمأن وقد كان هم باللحاق بعبد الملك على كل حال، ثم أتاه سبرة بن علي الكلابي فسلم وانتسب، فقال له خيراً، ثم جاء سعيد بن أسلم بن زرعة الكلابي فسلم عليه، فقال: ها هنا ادن مني، وأتاه جعفر بن عبد الرحمن الأزدي فسلم ثم انتسب، فقال له: قف مكانك أما والله لنعم القوم قومك، وأرسل إليه مسمع بن مالك بن مسمع إن شئت أتيتك، وإن شئت أقمت فثبطت الناس عنك، فبعث إليه: أن أقم فثبطهم.
فلما رأى الحجاج إنه قد اجتمع إليه عدد يمتنع بمثله خرج إليهم، فكتبهم وعبأهم، وجعل لهم حرساً، وتحارس الآخرون أيضاً، وتلاحق الناس بالحجاج فلما أصبح وطلعت الشمس نظر فإذا حوله نحو من ستة آلاف وذلك الثبت، وقوم يقولون ألف وستمائة، وقال عبد الله بن الجارود لعبيد الله بن زياد بن ظبيان: ما الرأي ؟ قال: تركت الرأي أمس حين قال لك الغضبان تعش بالجدي قبل أن يتغدى بك وقد ذهب الرأي وبقي الصبر فدعا ابن الجارود بدرع فلبسها مقلوبة فتطير، وحرض الحجاج أصحابه وقال: لا يهولنكم ما ترون من كثرة عدد عدوكم فإنه ليس بكم بحمد الله قلة ولا ذلة، فشدوا عليهم يتطايروا تطاير الأجم المنفر، إنهم أخور من اليراع وإن صدقتموهم الضرب سألوكم الأمان، فتزاحف القوم وعلى ميمنة ابن الجارود الهذيل بن عمران، وعلى ميسرته عبيد الله بن زياد بن ظبيان وعلى ميمنة الحجاج قتيبة بن مسلم ويقال عباد بن الحصين وعلى ميسرته سعيد بن أسلم بن زرعة الكلابي، وحمل ابن الجارود وأقدم أصحابه حتى جاز أصحاب الحجاج، وعطف عليه الحجاج بأصحابه فاقتتلوا ساعة، ثم إن سهم غرب جاء يهوي حتى أصاب عبيد الله بن الجارود وإنه لكالظاهر على الحجاج فوقع ميتاً، ويقال إنه لما خرج دخل ديراً قريباً منه ومعه قوم من الهجريين، فأحرق الدير عليهم، فخرجوا فقتل ابن الجارود

والهجريون، ونادى منادي الحجاج بإيمان الناس إلا الهذيل وعبد الله بن حكيم، وأمر أن لا يتبعوا، وقال الأتباع لهم من سوء الغلبة.

ولما هلك ابن الجارود قال عبد الله بن فضالة الأزدي لعكرمة بن ربعي من بني تيم الله بن ثعلبة، ولابن ظبيان: قد هلك هذا الرجل، وما أرى لي إلا اللحاق بخراسان، فقال عكرمة: أما أنا فلاحق بالشام فقد كان لي عند عبد الملك بلاء هو راع له، وقال ابن ظبيان: وأنا سأمضي إلى بعض النواحي، فحملوا حتى إذا اختلط الناس وثار الغبار أخذ كل واحد منهم نحو الوجه الذي أراده، فأتى عكرمة يزيد بن أبي النمس الغساني واستجار به فكلم فيه عبد الملك وذكر له بلاءه، وقال: هفا وزل، فآمنه عبد الملك، وكان ابن أبي النمس أثيراً عند عبد الملك سمعه يوماً يقول هممت أن أقطع كل حبلة بالشام، فقال: يا أمير المؤمنين من أحب أن يعطي عصي فضحك عبد الملك.

وأتى ابن ظبيان سعيد بن عباد بن زيد بن عبد بن الجلندى الأزدي بعمان، فقيل لسعيد: إنه رجل فاتك فأحذره، فلما جاء البطيخ بعث إليه بنصف بطيخة قد سمها وقال لرسوله: قل له: هذا أول شيء رأيناه من البطيخ العام، فأكلت نصف بطيخة، وبعثت إليك بنصفها فأكل عبيد الله بن زياد بن ظبيان نصف البطيخة فقتلته، ولما أحس بالسم قال: أردت أن أقتله فقتلني.

وخرج عبد الله بن فضالة بن أمية بن عبد الله بن خالد بن أسيد إلى خراسان، فكان عنده، ثم أخذه حبيب بن المهلب فبعث به إلى الحجاج فخرجت امرأته فكلمت امرأة عبد الملك فيه، فكلمته فكتب إلى الحجاج في أمره فآمنه، وكلم عكرمة بن ربعي روح بن زنباع في الغضبان بن القبعثرى، فسأل عبد الملك أن يؤمنه فآمنه.

وأتي الحجاج برأس عبد الله بن الجارود فقال اغسلوه ثم عمموه، ففعلوا ذلك به فقال: هو هو.

وقال عباد بن الحصين، وسعيد بن أسلم بن زرعة، وقتيبة بن مسلم للهذيل بن عمران، وعبد الله بن حكيم: نحن نكلم الحجاج فيكما فعجلا إلى الحجاج فأتياه وهما يجران مطرفيهما فلما نظر إليهما قال: اضربوا عدوي الله، اقتلوهما، فمشى عبيدة مولى الحجاج إلى عبد الله بن حكيم، فقال عبد الله بن حكيم:

علي عهد ذي القرنين كانت مجاشع حتوفاً على الأعداء لداً خصومها

فضربه بالسيف فعثر في مطرفه وقال: إن الراحة منكم لراحة، "وكان أمر اللّه قدراً مقدوراً"، وقتل سريع مولى الحجاج الهذيل بن عمران، ثم أمر الحجاج بصلبهم فصلب ابن الجارود بين ابن حكيم والهذيل، وبعث برأس ابن الجارود ورؤوس هذين ورؤوس سواها إلى عسكر المهلب، مع حاتم بن سويد بن

منجوف لييأس الخوارج مما بلغهم من فساد أمر الحجاج، ويقوى متن المهلب وأصحابه.

ونادى الحجاج في الناس أن يلحقوا بأمصارهم ففرقهم، وأقبل حتى دخل البصرة، فقتل أشيم بن شقيق بن ثور الهذلي، ويقال إنه دخل في أمانه من آمن، فرآه في مجلسه فقال له: يا أشيم أخرجت مع ابن الجارود ؟ قال: نعم وقد أتى عفوك على ذلك، وكان مع الحجاج كراز بن كراز العبدي، وهو صاحب لواء ابن الجارود، وراشد بن عوف العبدي، ومسلم مولى مالك بن مسمع، وعبيد الله بن كعب النميري، والغضبان بن القبعثرى الشيباني، أخذهم برستقاباذ، فحبسهم عنده، ثم حبسهم بالبصرة أيضاً، ثم قال لعبيد بن كعب: أنت القائل قل للحجاج يأتيني فإني لا آتيه ؟ ومن أنت يا بن اللخناء، هل أنت إلا عبد من أهل هجر وحبسه وعذبه حتى مات، وقال لمحمد بن عمير بن عطارد بن دهمان: أنت القائل لا ناقتي في هذا ولا جملي ؟ لا كانت لك في مثلها ناقة ولا جمل ولا رحل وأنشد:

ثعالب في السنين إذا أحصّت … وأسد حين تمتلىء الوطاب

وكان يقال: أن عميراً أباه كان صدر عن عكاظ، فمر ببني دهمان فعرضوا لامرأته فأخذوها، ثم ردوها حاملاً.

وحدثني المدائني عن سحيم وغيره قالوا: رأى أبو جابر العبدي وكان جسيماً ابن الجارود مصلوباً بين الهذيل وبين حكيم وكان عبد الله بن الجارود قصيراً يسمى لقصره بظير العناق فقال: ليتني بينهما فقد فضحنا هذا بقصره.

قالوا: وكتب الحجاج إلى عبد الملك: أما بعد فالحمد لله الذي حفظ أمير المؤمنين، إني لما نزلت منزلي من رستقاباذ وثب علي أهل العراق فخالفوني ونابذوني، ودخل فسطاطي، وانتهبت أموالي، وقالوا اخرج من بلادنا إلى من بعثك إلينا، ففارقني البعيد، وأسلمني القريب، ويئس مني الشفيق، فشددت عليهم بسيفي، ولقيتهم بشيعتي، وقلت الموت قبل البراح، فوالله ما رمت العرصة حتى جعل الله لأمير المؤمنين منهم أنصاراً، فضربت بمقبلهم مدبرهم وبمطيعهم عاصيهم، فقتل الله عز وجل طاغية القوم عدو الله ابن الجارود، وثمانية عشر من رؤوسهم، وضرب الله عز وجل وجوههم، فأخذوا شرقاً وغرباً، ثم إني آمنت الناس غائبهم وشاهدهم، فتراجعوا واجتمعوا وألحقت الناس بأمصارهم، ولله الحمد كثيراً، والسلام.

فكتب إليه عبد الملك: أما بعد فقد بلغني كتابك، وأنت الناصح النجيب الأمين بالغيب القليل العيب، فإذا رابك من أهل العراق ريب فاقتل أدناهم، يرعب منك أقصاهم والسلام.

وقال المدائني: أتي الحجاج بخليفة بن خالد بن الهرماس وقد ضرب على وجهه، فقال له الحجاج: من أنت ؟ قال: أحد الكفرة الفجوة، قال: خلوا سبيله، فقال له سويد بن صامت العجلي هذا الذي يقول:

فلله حجاج بن يوسف حاكماً أراق دماء المسلمين بلا جرم

فأمر بخليفة فقتل.

قالوا: وبعث عبد الملك عبد الرحمن بن مسعود الفزاري إلى الحجاج، وأهل العراق لينظر في مظالمهم، وما يشكون من الحجاج، وأمر بإطلاق كراز وقد كلم فيه، فبلغ الحجاج ذلك فعجل على كراز وراشد بن عوف، ومسلم مولى مالك بن مسمع فقطع أيديهم وأرجلهم، فدخل ابن مسعود ودماؤهم تشخب، ولما قدم ابن مسعود على الحجاج صعد الحجاج المنبر، وصعد ابن مسعود درجتين أو ثلاثاً، ثم قال: ألا من كان يطلب الحجاج بمظلمة فليقم، فقال الحجاج: مه، فقال: لا والله ما من مه، ثم قال: يا أهل العراق جمع الله لكم خير الدنيا والآخرة فإياكم والشقاق والفتنة، إني قد تركت ورائي خيلاً من حديد وقوماً لهم دين وليست لهم دنيا، فإياكم أن تجمعوا دنياكم إلى دينهم، ثم إنه انصرف إلى عبد الملك فأخبره بسوء سيرة الحجاج وظلمه وعذابه الناس، فبلغ ذلك الحجاج فكتب إلى عبد الملك: إن ابن مسعود امرؤ ظنين علي، قد بلغني أنه أساء علي الثناء، وإن شيعة ابن الزبير لن تحبني أبداً، وهو من شرارها وفجارها، وليس مثله قرب ولا صدق، والسلام، فكتب إليه عبد الملك: أما بعد فقد بلغني كتابك في ابن مسعود، وليس مثله اتهم، ولا ظن به ظن السوء، والسلام.

وكان ابن مسعود صديقاً لحضين بن المنذر، فلقيه فسلم عليه فقال الحضين: ومن أنت عافاك الله ؟ فأعلم الحجاج ذلك، فقال الحجاج: يا حضين أتعرف هذا، قال: لا، قال: كذبت ولكنك خفت أن يبلغني أنك سلمت عليه فأظن بك أنك تبلغه الأخبار قال: صدق الأمير وبر، قال: فلا تخف، فسلم عليه حضين وكلمه.

وقال الحكم بن المنذر بن الجارود:

أبا مطر أقررت عين عدونا وكل إلى ما صرت سوف يصير

أبا مطر لو يدفع الموت بالفدا لكان رجال مشفقون كثير

أبا مطر لو يدفع الموت بالرشا لقد كان مال سارح وبدور

وقال الشاعر:

بكر النّعيّ بسيد الأمصار حامي الذمار وناقص الأوتار

بابن المعلى ذي السماحة والندى كهف الضعيف وطالب الآثار

عثرت به بعض الجدود وهدّنا يا للرجال لجدنا العثار

قالوا: وكان غضبان بن القبعثرى محبوسا عند الحجاج فكلم عكرمة بن ربعي روح بن زنباع في أمره فكلم عبد الملك في إيمانه بذلك إلى الحجاج فدعا به الحجاج فقال له: قد سمنت يا غضبان وصفا لونك ؟ قال: القيد والرتعة، ومن يكن ضيف الأمير يسمن، قال: أنت القائل لابن الجارود: تعش بالجدي قبل أن يتغدى بك ؟ قال: ما نفعت من قالها ولا ضرت من قيلت له قال: أتحبني قال: أوفرق خير من حب، قال: و لم لا تحبني ؟ قال: لأنك أخذت مالي ووضعت شرفي قال: فإن رددت مالك ورفعت قدرك ؟ قال: الرضا مع الاحسان والسخط مع الغضب قال: لأحملنك على الأدهم قال: مثل الأمير حمل على الأدهم والكميت، قال: إنه حديد، قال: يكون حديداً خير من أن يكون تليداً فحمل من بين يديه ليطلق من حديده، فلما استقل به من حمله قال: الحمد لله "الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين" فضحك الحجاج.

قالوا: وقتل مع ابن الجارود عبد الله بن أنس بن مالك الأنصاري، وكان شجاعاً شديد البطش، حمل بخراسان بدرة بفمه فعبر بها نهراً، فلما بلغ الحجاج خبر مقتله قال: لا أرى أنسا يعين علي، فلما دخل البصرة استصفى مال أنس، فأتاه فلما دخل عليه قال: لا مرحبا ولا أهلا إيها يا خبيث، شيخ ضلالة جوال في الفتن، مرة مع أبي تراب، ومرة مع ابن الزبير، ومرة مع ابن الجارود أما والله لأجردنك جرد القضيب، ولأعصبنك عصب السلمة، ولأقلعنك قلع الصمغة، فقال أنس: من يعني الأمير ؟ قال إياك أصم الله صداك فرجع أنس فأخبر ولده بما لقيه الحجاج به فأشاروا عليه بأن يكتب بذلك إلى عبد الملك، فكتب إليه كتاباً شكا فيه الحجاج وما صنع به وما قال له، فأجابه جواباً لطيفاً، وكتب إلى الحجاج: أما بعد يا ابن أم الحجاج فإنك عبد طمت بك الأمور فعلوت فيها حتى عدوت طورك وتجاوزت قدرك، وأيم الله يا ابن المستفرمة بعجم الزبيب لأغمزنك غمزة كبعض غمزات الليوث الثعالب، ولأخبطنك خبطة تود لها أنك رجعت في مخرجك من بطن أمك، أما تذكر حال آبائك بالطائف حيث كانوا ينقلون الحجارة على ظهورهم، ويحتفرون الآبار بأيديهم في أوديتهم ومناهلهم، أم نسيت حال آبائك في اللؤم والدناءة في المروءة والخلق، وقد بلغ المؤمنين الذي كان منك إلى أنس بن مالك جرأة وإقداماً، وأظن أنك أردت أن تسبر ما عند أمير المؤمنين في أمره، فتعلم إنكاره ذلك أو إغضاءه عنه، فإن سوغك ما كان منك مضيت عليه قدما، فعليك لعنة الله من عبد أخفش العينين أصك الرجلين، ممسوح الجاعرتين ولو لا أن أمير المؤمنين يظن أن الكاتب كثر في الكتاب من الشيخ إلى أمير المؤمنين فيك لأتاك من يسحبك على ظهرك وبطنك حتى يأتي بك أنسا، فيحكم فيك، فأكرم أنسا وأهل بيته، وأعرف له حقه وخدمته رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا تقصر في شيء من حوائجه، ولا يبلغن أمير المؤمنين عنك خلاف ما تقدم

فيه إليك من أمر أنس وبره وإكرامه، فيبعث إليك من يضرب ظهرك ويهتك سترك، ويشمت بك عدوك، والقه في مترله متنصلاً إليه، وليكتب إلى أمير المؤمنين برضاه عنك إن شاء الله، والسلام. وبعث بالكتابين مع إسماعيل بن عبد الله مولى بني مخزوم، فأتى إسماعيل أنسا بكتاب عبد الملك إليه فقرأه، ثم أتى الحجاج بالكتاب إليه، فجعل يقرأه ووجهه يتغير ويتمعر وجبينه يرشح عرقاً وهو يقول: يغفر الله لأمير المؤمنين، فما كنت أظنه يبلغ مني هذا كله، ثم قال لإسماعيل: انطلق بنا إلى أنس، قال إسماعيل: فقلت: بل يأتيك، قال: فنعم، فأتى أنسا فاقبلا جميعاً حتى دخلا على الحجاج فرحب به الحجاج وأدناه وقال يا أبا حمزة عجلت يرحمك الله باللائمة والشكية إلى أمير المؤمنين قبل أن تعلم كل الذي لك عندي، إن الذي فرط مني إليك عن غير نية ولا رضا بما قلت، ولكني أردت أن يعلم أهل العراق إذ كان من ابنك ما كان أني إذا بلغت منك ما بلغت، كنت إليهم بالغلظة والعقوبة أسرع، فقال أنس: ما شكوت حتى بلغ مني الجهد، وحتى زعمت أننا الأشرار، وقد سمانا الله جل وعز الأنصار، وزعمت أننا أهل النفاق ونحن الذين تبوأوا الدار والإيمان وسيحكم الله عز وجل بيننا وبينك، فهو أقدر علي الغير لا يشبه الحق عنده الباطل، ولا الصدق الكذب، وزعمت أنك اتخذتني ذريعة وسلما إلي مساءة أهل العراق باستحلال ما حرم الله عز وجل عليك مني، و لم يكن بك عليك قوة، فوكلتك إلى الله عز وجل، وإلى أمير المؤمنين فحفظ من حقي ما لم تحفظه، فوالله لو أن النصارى على كفرهم رأوا رجلاً خدم المسيح عيسى بن مريم يوماً واحداً لعرفوا من حقه ما لم تعرفه من حقي، وقد خدمت رسول الله صلى الله عليه وسلم عشر سنين، وبعد، فإن رأينا خيراً حمدنا الله عز وجل وأثنينا به، وإن رأينا غير ذلك صبرنا والله المستعان، فرد الحجاج عليه ما كان قبض من أموالهم.

قالوا: وأتي الحجاج بدينار صاحب حفرة، وكان هدم قصر الحجاج فأخذه ببنائه، فلما بناه ضرب عنقه بين شرفتين منه، ويقال ذبحه بينهما، وقتل زياد بن مقاتل بن مسمع في المعركة، ويقال قتل مع ابن الأشعث فبكته أخته فقالت:

أعيني جودي ولا تجمدي ... وبكي زعيم بني جحدر

وقتل الحريش بن هلال، ويقال قتل يوم دير الجماجم، وقتل عبد الله بن رزام فقالت فيه امرأة:

على ابن رزام تبكي العيون ... ومثل الحريش الفتى الأزهر

وقال بعضهم: قتل أبو رهم بن شقيق بن ثور، والثبت أنه خرج مع ابن الأشعث، فرآه الحجاج في مجلسه، فقال له: أخرجت علي ؟ فقال: أتى عفوك علي ذنوبنا، فقال لبعض من معه: ضع هذا المنديل في عنقه وأخرجه فاضرب عنقه.

قال ابن الكلبي دخل البراء بن قبيصة الثقفي علي عبد الملك، وكان الحجاج يطلبه لخروجه مع ابن الأشعث فأنشده قوله:

أرى كل جار قد وفى بجواره | وجار أمين اللّه في الأرض يخذل

ويروى: وجار أمير المؤمنين المؤمل.

وفى ابن أبي النمس اليماني بجاره | وروح بن زنباع، وجارك يؤكل
وراح الفتى البكري ينفض عطفه | وذا ابن عمير آمنا ما يزلزل
فما هكذا كنتم إذا ما أجرتم | وما هكذا كانت أمية تفعل

فقال له: صدقت وآمنه، وأمر الحجاج أن يمسك عنه.

أمر شارزنجي والزنج
الذين خرجوا بفرات البصرة

حدثني روح بن عبد المؤمن المقرىء قال: سمعت علي بن نصير الجهضمي يحدث عن جرير بن حازم عن عمه الصعب قال: تجمع الزنج بفرات البصرة في آخر أيام مصعب بن الزبير، و لم يكونوا بالكثير فأفسدوا، وتناولوا الثمار، وولي خالد بن عبد الله بن أسيد البصرة وقد كثروا فشكا الناس ما نالهم منهم، فجمع لهم جيشاً كثيفاً، فلما بلغهم ذلك تفرقوا، وقدر على بعضهم فقتلوا وصلبوا، فلما كان من أمر عبد الله بن الجارود وخروجه على الحجاج مع وجوه أهل العراق ما كان، وهو برستقاباذ، خرج الزنج أيضاً، فاجتمع منهم خلق من الخلق بالفرات وصيروا عليهم رجلاً منهم يقال رياح شيرزنجي، ومعنى شارزنجي أسد الزنج فلما فرغ الحجاج من أمر من خرج عليه برستقاباذ وعاد إلى البصرة وجه إليهم فقتلوا؛

وحدثني روح بن عبد المؤمن عن عمه- يعني أبي هشام- قال حدثني سحيم بن حفص وغيره أن الزنج خرجوا أيام الحجاج بالفرات وعلى شرطة البصرة زياد بن عمرو العتكي، فوجه إليهم زياد حفصا ابنه في جيش من مقاتلة البصرة، وذلك بأمر الحجاج فواقعهم فقتلوه وهزموا أصحابه، وكان على الأبلة كراز بن مالك السلمي ثم البهزي.

وحدثني روح بن الوليد بن هشام بن قحذم قال: خرج شيرزنجي بالفرات واتبعه خلق من الزنج ومعهم لفيف من أهل الكلاء وغيرهم بيضان، فغلب على كورة الفرات، وكان على الأبلة والفرات يومئذ كراز السلمي وذلك في أيام خروج الحجاج إلى رستقاباذ، فكتب شيرزنجي إلى كراز السلمي: من أمير المؤمنين رياح شيرزنجي إلى كراز السلمي، أما بعد: فقد حضرت ولادة سكة أم المؤمنين، فابعث إليها امرأتك

لتقبلها، والسلام. فهرب كراز وأخلى عمله ودخله البصرة، ثم إن زياد بن عمرو العتكي وجه إليه وهو على شرطة البصرة، وخلافة الحجاج بها جيشا عليه ابنه حفص بن زياد، فقاتله أشد قتال، فقتل حفصا وهزم أصحابه، وقوي أمر شيرزنجي، فلما قدم الحجاج البصرة قال: يا أهل البصرة إن عبيدكم وكساحيكم رأوا معصيتكم فتأسوا بكم، وأيم الله لئن لم تخرجوا إلى هؤلاء الكلاب فتكفوني أمرهم لأعقرن نخلكم، ولأنزلن بكم ما أنتم له أهل باستخراجكم وفسادكم، فانتدب الناس من كل خمس من أخماس البصرة، ووجه عليهم وعلى جماعة من المقاتلة كراز بن مالك السلمي فلم يزل يقاتل الزنج حتى صاروا إلى صحارى دورق، فواقعهم هناك فقتل شيرزنجي والزنج، فقل من أفلت منهم، قال فلما قال جرير للأخطل:

لا تطلبن خؤولة في تغلب ... فالزنج أكرم منهم أخوالا

إنبرى له سنيح بن رياح مولى بني سامة بن لؤي فقال:

إن الفرزدق صخرة عادية ... طالت فليس ينالها الأوعالا

ورميت تغلب وائل في دارهم ... فأصبت عند التغلبي نضالا

والزنج لو لاقيتهم في حربهم ... لاقيت ثم حجاجاً أبطالا

قتلوا ابن عمرو حين رام رماحهم ... ورأى رماح الزنج ثم طوالا

هذا ابن عجل قد علمتم منهم ... غلب الرجال سماحة وفعالا

وبنو الحباب مطاعم ومطاعن ... عند الشتاء إذا تهب شمالا

وبنو زبيبة عنتر وهراسة ... وسليك المتحمل الأثقالا

والزنج قد شهد النبي بجودهم ... وببأسهم إن حاربوا الأقتالا

يعني بابن عمرو زياد بن عمرو، وبان عجل عبد الله بن خازم السلمي كانت أمه سوداء يقال له عجل، وكانت أم عمير بن الحباب سوداء، وكانت أم سليك سلكه سوداء، وقوله شهد ابني بجودهم ذهب إلى الحديث الذي روي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال في السودان: إن فيهم لخلتي صدق: السماحة والنجدة، وروى سفيان بن عيينة وعمرو بن عوسجة مولى ابن عباس قال: ذكر الحبش عند النبي صلى الله عليه وسلم فقال: لا خير في الحبش وإن فيهم لخلتين إطعام الطعام، وبأس عند البأس.

وحدثني حفص بن عمر عن الهيثم ابن عدس وهشام بن الكلبي قالا: دخل الوليد بن يزيد بن عبد الملك على هشام وعنده ولده، وفيهم مسلمة بن هشام المكني أبا شاكر، فقال الوليد لمسلمة، وكان ظريفاً: ما

اسمك ؟ قال: شيرزنجي يعرض بأنه يكثر شرب النبيذ إكثار الزنج، ويطرب طربهم، وكان شيرزنجي خرج بفرات البصرة في خلق من الزنج فقتل، فلما قام الوليد ليخرج قام معه أبو شاكر فوثب الوليد على فرسه و لم يمس السرج ولا المعرفة، فأعجبه فعله، فقال لأبي شاكر: أيصنع أبوك مثل هذا ؟ فقال أبو شاكر: لأبي مائة عبد يصنعون مثل هذا وأكثر منه، فبلغ هشاماً ذلك، فقال: ما له قاتله الله وما أظرفه، على أنه قد غلبني مجوناً.

بسم الله الرحمن الرحيم

أمر عبد الرحمن بن محمد ابن الأشعث بن قيس الكندي

حدثني روح بن عبد المؤمن المقرىء، مولى باهلة قال: حدثني عمي عن سحيم بن حفص عن شيخ من كندة قال: كان عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث بن قيس معجباً عظيم الكبر وكان شخص إلى سجستان مع خال له في طلب ميراث، فجعل يختلف إلى بغي يقال لها ماهنوس فأخذ معها، فشهد عليه كردم الفزاري الذي يقول الناس فيه: كل الناس بارك فيه، وكردم لا يبارك فيه، وكان أبو كردم مرثد بن نجبة مع خالد بن الوليد فقتل على سور دمشق، وشهد عليه معه زفر بن عمرو الفزاري، ومحمد بن قرظة، ويزيد بن زهير، فضرب حداً، و لم تذهب الأيام حتى صار هؤلاء النفر في جنده، وقد ولي سجستان فأساء بهم ودس إليهم قوماً شهدوا عليهم بالزنا، فحدهم فقال قائلهم:

شهدنا بحق وانتقمت بباطل فأبنا بأجر واشتملت على وزر

فلما كانوا بدير الجماجم خرج عيينة بن أسماء الفزاري إلى الحجاج وفارق ابن الأشعث، ثم إنه رفع على هؤلاء النفر أنهم كانوا موافقين لابن الأشعث، وعلى رأيه، فحبسهم الحجاج وقال: لا تقتلوهم فيقول عدونا أنا نقتل أصحابنا، فأتاهم بعض أصحابه ليلاً فقتلهم.

حدثني أحمد بن إبراهيم الدورقي قال: حدثنا وهب بن جرير بن حازم عن أبيه عن عمه، أن المهلب بن أبي صفرة لما فرغ من قتال الأزارقة قدم على الحجاج فأكرمه وأجلسه على سريره ووصله وأهل الغناء ممن كان في جيشه، وقال: هؤلاء أهل الفعال والإستحقاق للأموال، هؤلاء غياظ الأعداء وحماة الثغور وولاه خراسان وسجستان، فقال: ألا أدلك على من هو أعلم بسجستان مني ؟ قال: بلى قال: عبيد الله بن أبي بكرة، فقد كان وطىء هذا الثغر وعرف أموره، فولى ابن أبي بكرة سجستان.

وحدثني عباس بن هشام الكلبي عن أبيه، وحفص بن عمر عن الهيثم بن عدي عن المجالد بن سعيد قال: بعث الحجاج عبيد الله بن أبي بكرة إلى عبد الملك، ليطلب له ولاية خراسان وسجستان، وكان على الثغرين أمية بن عبد الله بن خالد بن أسيد، فقال عبد الملك: لست بنازع أمية عن الثغرين للحجاج،

وكان له محباً، ولكن إن شئت وليتك إياهما، فقال: ما كنت لأخون الحجاج وقد أرسلني ووثق بي، ثم إن عبد الملك استقصر أمية بن خالد وأمره، واستبطأه في جباية الأموال وأتته جبايات الحجاج كثيرة موفرة، فكتب إلى الحجاج بولاية الثغرين، وبعث إليه بعهده عليهما في سنة ثمان وسبعين، فولى الحجاج المهلب خراسان، وعبيد الله بن أبي بكرة سجستان.

وقال المدائني وغيره لما قدم عبيد الله بن أبي بكرة سجستان منعه رتبيل الإتاوة التي كان يؤتيها، فكتب عبيد الله بذلك إلى الحجاج فكتب الحجاج إليه يأمره بغزوه وأن لا يبرح حتي يستبيح أرضه، ويهدم قلاعه، ويقتل مقاتلته، ويسبي حريمه، فغزاه بمن معه من أهل الكوفة والبصرة، وكان على أهل الكوفة شريح بن هانىء الحارثي، فسار ابن أبي بكرة متوغلاً في بلاد العدو، فأصاب من الغنيمة ما شاء الله عز وجل، فقال له شريح: إن الله عز وجل قد غنمنا وسلمنا وأذل عدونا، فارجع بنا من مكاننا ونحن وافرون معافون، فإني أتخوف إن كاثرت رتبيل وأهل بلده، والتمست فتح مدائنهم وقلاعهم في غزوة واحدة أن لا تطيق ذلك فقال له: اصبر أيها الرجل ودع هذا، فقال ابن هانىء: إنه ليس لقصير أمر، والله إنك لتعمل في هلاك نفسك وجندك، وسار حتى قرب من كابل، وجعل لا يظهر له أحد، وتفرق أصحابه يطلبون العلف وانتهى بهم إلى شعب فأخده عليهم الترك ولحقه رتبيل، وليس بالقوم قتال، فبعث ابن أبي بكرة إلى شريح إني مرسل إلى هؤلاء فمصالحهم ومعطيهم مالاً على أن يخلوا بيننا وبين الخروج، فقال شريح: إنك لا تصالحهم على شيء إلا حسبه الحجاج عليكم من أعطياتكم فقال ابن أبي بكرة: حرمان العطاء أيسر علينا من الهلاك، وبعث إلي رتبيل يطلب منه الصلح على أن يعطيه خمسمائة ألف درهم، ويقال سبعمائة ألف درهم، وعدة من وجوه من معه وثلاثة من ولده يكونون عنده، وأن لا يغزوهم ما كان والياً، وكان الثلاثة من ولده: نهار، والحجاج، وأبو بكرة، ومعهم العاقب بن سعيد فقال له شريح: اتق الله عز وجل وقاتل هؤلاء القوم، ولا تشتر الكفر بالإيمان، وزيادة خمسمائة ألف درهم، ويقال سبعمائة ألف، وتدفع قوماً من المسلمين إلى المشركين، ثم تشترط لهم أن لا تقاتلهم ولا تجبيهم خراجاً هرباً من الموت الذي أنت إليه صائر، هذا وأنت لا تدري ما يكون من سخط الحجاج، ثم قال شريح: والله لقد فني عمري وذهب، ولقد تعرضت للشهادة في غير موطن، فأبى الله عز وجل أن يبلغني إرادتي منها ثم قاتل وقاتلت معه جماعة مطوعة من مذحج وهمدان فقتل، وقتل معه من أهل المصرين ومن أهل الشام جماعة، وبعث ابن أبي بكرة إلى رتبيل حين استعد شريح لقتال العدو وزحف لذلك: إني على صلحك وما فارقتك عليه، وهذا رجل واحد من أصحابي عصاني ولست أنصره عليك، فخذله وجرأ رتبيل عليه، وقال شريح وهو يمشي إلى الكفار:

أصبحت ذا بث أقاسي الكبرا

قد عشت بين المشركين أعصرا

ثمت أدركت النبي المنذرا

وبعده صدّيقه وعمرا

ويوم مهران ويوم تسترا

والجمع في صفينهم والنهرا

هيهات ما أطول هذا عمرا

وكان شريح من شيعة علي.

قالوا: واجتنب بنو عبيد الله بن أبي بكرة ما كان رتبيل يعرضه عليهم من النساء والخمر، فعظموا في عينه وأعين أصحابه.

وخرج ابن أبي بكرة من بلاد العدو، وجعل جنده يؤتون بالطعام فإذا أكلوه ماتوا، ثم إنهم أطعموا السمن فلانت أمعاؤهم، فلم يصلوا إلى بست إلا وهم خمسة آلاف.

وكان ابن أبي بكرة حين رأى ما الناس فيه من القحط وهم يأكلون دوابهم في بلاد العدو يشتري الطعام ثم يبيعه جيشه حساب القفيز بدرهم، حتى أصاب الناس ضر شديد ومرض، وكان يبعث إلى الحصرم فيضعه في أسواقهم ويبيعهم إياه يقول: هذا صالح لمرضاكم، وباعهم التبن غربالاً بدرهم، ففي ذلك يقول عبد الرحمن بن الحارث، وهو أعشى همدان في قصيدة له أولها:

ما بال حزن في الفؤاد مولج ... ولدمعك المتحدر المتهيج

أسمعت بالجيش الذين تمزقوا ... وأصابهم ريب الزمان الأعوج

حبسوا بكابل يأكلون جيادهم ... بأضر منزلة وشر معوج

لم يلق جيش في البلاد كما لقوا ... فلمثلهم قل للنوائح تنشج

واسأل عبيد اللّه كيف رأيتهم ... عشرين ألف مجفف ومدجج

بعثا تخيره الأمير جلادة ... بعثاً من المصرين غير مزلج

وليت شأنهم وكنت أميرهم ... فأضعتهم والحرب ذات توهج

ما زلت نازلهم كما زعموا لنا ... وتفلهم وتسير سير الأهوج

وتبيعهم فيها القفيز بدرهم ... فيظل جيشك بالملامة ينتجي

ومنعتهم أتبانهم وشعيرهم وتجرت بالعنب الذي لم ينضج

ونهكت ضربا بالسياط جلودهم ظلماً وعدواناً ولم تتحرج

والأرض كافرة تضرم حولكم حرباً بها لقحت ولما تنتج

فتساقطوا جوعاً وأنت صفندد شبعان تصبح كالايد الأفحج

رخو النّسا والحالبين ملثما في مثل جحفلة الحمار الديزج

وظننت أنك لم تعاقب فيهم واللّه يصبح من أمام المدلج

حتى إذا هلكوا وباد كراعهم رمت الخروج وأي ساعة مخرج

وأبى شريح أن يسام دنيةً حرجاً وصحف كتابهم لم تدرج

وبقيت في عدد يسير بعدهم لو سار وسط مراغةٍ لم يرهج

لا تخبر الأقوام شأنك كله وإذا سئلت عن الحديث فلجلج

في أبيات.

قالوا: فمات ابن أبي بكرة كمداً، ويقال اشتكى أذنيه فمات، وبلغ الحجاج خبر ابن أبي بكرة وأنه قد استخلف ابنه أبا برذعة، فكتب إلى المهلب أن يوجه إلى سجستان من قبله رجلاً فوجه وكيع بن بكر، فقال كعب الأشعري:

ما زال أمرك يا مهلب صالحاً حتى ضربت سرادقاً لوكيع

وجعلته ربّاً على أربابه ورفعت منه غير جدّ رفيع

فلما قدم على أبي برذعة أهدى إليه أبو برذعة ثلاثمائة ألف درهم، وهدايا سوى ذلك، وأقام أبو برذعة بسجستان حتى قدم عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث من وجه الخوارج فولاه الحجاج كرمان.

وقال أبو مخنف وعوانه: لما هلك عبيد الله بن أبي بكرة بسجستان، غم الحجاج مهلكه غماً شديداً، وكتب إلى عبد الملك يعلمه ذلك ويستطلع رأيه في تولية هذا الفرج رجلاً فكتب إليه: بلغني كتابك بما ذكرت من مصاب المسلمين بسجستان حتى لم ينج منهم إلا الشريد، وجرأة العدو لذلك وقوتهم على أهل الإسلام، فأولئك قوم كتب القتل عليهم فبرزوا إلى مضاجعهم وعلى الله عز وجل ثوابهم، فأما ما استطلعت فيه الرأي، فإن رأيي أن تمضي ولاية من رأيت توليته موفقاً رشيداً.

قالوا: وكان الحجاج مبغضاً لعبد الرحمن بن محمد بن الأشعث، وكان عبد الرحمن رجلاً معجباً، ذا نخوة

وأبهة، وكان الحجاج يقول: ما بالعراق رجل أبغض إلي منه وما رأيته قط ماشياً أو راكباً إلا أحببت قتله، وكان عبد الرحمن يقول: ما رأيت قط أميراً فوقي إلا ظننت أني أحق بإمرته منه، وكان أيضاً يقول: لو قد رأيت البياض، وقرأت القرآن، وماتت أم عمران- يعني أمه- لطلبت الغاية التي لا مذهب بعدها.

حدثني حفص بن عمر عن الهيثم عن مجالد عن الشعبي قال: إني لعند الحجاج إذ دخل عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث يتمشى فقال: انظروا إلى مشية المقيت والله لهممت أن أضرب عنقه، فلما سلم عليه قال: إنك لمنظراني، قال: ومخبراني أصلح الله الأمير، ثم جعل يقول: أنا منظراني أنا منظراني.

قال الشعبي: فحدثت عبد الرحمن بما قال الحجاج حين رآه يتمشى، فقال: اكتم علي والله لأحاولن إزالة سلطانه إن طال بي وبه عمر.

قالوا: ثم إن الحجاج انتخب اثني عشر ألفاً ويقال عشرة آلاف من أهل الجلد والقوة والهيئة، فأعطاهم وجهزهم وقواهم واستعمل عليهم عطارد بن عمير بن عطارد بن حاجب، ويقال بعض ولد ذي الجوشن الضبابي، وسار بهم إلى البصرة وانتخب من أهل البصرة مثلهم، وجعل عليهم عطية بن عمرو العنبري الذي يقول فيه أعشى همدان:

فابعث عطية في الخيول	تكبّهنّ عليه كباً
فإذا جعلت دروب فا	رس خلفنا درباً فدربا

فلما تتاموا واجتمعوا سمي ذلك الجيش جيش الطواويس، ويقال ان الناس سموهم بذلك لتكامل أهبتهم وعدتهم ونبلهم وشجاعتهم، وأمر فأمضى ذلك الحيش إلى الأهواز وكتب إلى عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث بولاية سجستان وضم إليه ذلك الجيش، وكان الحجاج قد وجه عبد الرحمن لقتال الخوارج، فشخص بهم عبد الرحمن حتى قدم سجستان ثم نزل بست، فأتته رسل رتبيل، وأتى اسماعيل بن الأشعث الحجاج فأشار عليه أن لا يولي عبد الرحمن وقال: إني والله أخاف خلافه، والله ما جاز جسر الفرات قط فرأى أن لأحد عليه سلطاناً، فقال: ليس هناك إني لست كأولئك هو لي أهيب، وفيما لدي أرغب من أن يخالفني أو يخرج يداً من طاعتي فقدم سجستان في آخر سنة تسع وسبعين.

وقال أبو عبيدة: كان الحجاج وجه هميان بن عدي السدوسي إلى كرمان، وجعله مسلحةً بها ليمد عامل سجستان إن احتاج إلى ذلك، فعصى بمن معه، فوجه عبد الرحمن بن الأشعث لمحاربته فحاربه فهزمه، وأقام بموضعه، فلما مات ابن أبي بكرة ضم إليه جيشاً أنفق عليه ألفي ألف درهم، وكتب إليه في محاربة رتبيل بمن معه وبذلك الجيش.

وقال أبو مخنف: خطب ابن الأشعث الناس حين دخل سجستان فقال: إن الأمير الحجاج ولاني ثغركم، وأمرني بجهاد عدوكم الذي استباح بلادكم، وأباد خياركم، ثم عسكروا وأخرجت له الأسواق، وبلغ ذلك رتبيل فكتب إليه: إنه ليست أمة من الأمم أعظم في أنفسنا، ولا أحق بالإجلال والإكرام والتبجيل عندنا منكم، وقد كان من مصاب إخوانكم ما علمتم وما كان ذلك عن هوى مني، ولا إرادة وقد كنا صالحناكم على صلح فيما مضى، ولولا أن ابن أبي بكرة نقض وبدل لجرينا في أمره مجرانا في أمر غيره، ونحن نسألك أن تصالحنا وتقبل منا ما كان غيرك ممن قبلك يقبله، وأهدى إليه خاله العاقب بن سعيد، وكان ابن أبي بكرة رهنه مع ولده، ثم اتبعه جميع الرهن الذين كانوا قبله، فلم يجبه حتى أعد له القاسم بن محمد بن الأشعث أخاه، وكان ورد عليه من طبرستان في خيل عظيمة، وأمره أن يغير عليه بمكانه الذي هو به، وكان مع رتبيل رجل من بني تميم يقال له عبيد بن سبع بن أبي سبع، ويقال عبيد الله بن سبع، وكان يرى رأي الخوارج فيما يقال، وكان مقيماً بسجستان في ولاية زياد بن أبي سفيان وبعد ذلك، فقال له: قد جاءك أغدر العرب وأشهدهم أبهةً وكبراً، فتحول من مكانك فإني لا آمن عليك أن يأتيك وأنت غار، فخرج من مكانه مسرعاً، وورد القاسم فلم يجد إلا عجائز وشيوخاً وقتلى من المسلمين فكفنهم وصلى عليهم ودفنهم ثم لم ينشب أن سار إليه في الجنود.

أبو الحسن المدائني عن أشياخه قالوا: قدم عبد الرحمن سجستان، فأقام حتى استمر الناس وأراحوا، وحضر الغزو فخرج من بابشير، فعرض الناس وخطبهم، وحرضهم، ثم لما كان في أول المفازة عرضهم فلم يتخلف عنه أحد منهم، وقطع المفازة ونزل بست، فتلقاه رتبيل واعتذر إليه من مصاب المسلمين وقال كان ذلك على كره مني، وعرض عليه الفدية وسأله أن يقبل منه ما كان يقبله من قبله، وبعث بالرهن وفيهم خاله العاقب بن سعيد، فأخذ الرهن و لم يجبه إلى شيء مما يريد، وقدم القاسم أخاه أمامه ثم سار، وجعل رتبيل يدع البلاد حصناً حصناً طمعاً في أن ينال منه ما نال من غيره، وحذر ابن الأشعث فكان لا يأتي حصناً ولا يجاوز عمراناً إلا خلف فيه قائداً في كثف المسلمين، ورتب الرجال فأنزل القاسم أخاه الرخج ونزل هو بست وكره التوغل في البلاد وكتب إلى الحجاج بذلك، فكتب إليه: يا بن الحائك الغادر، كتابك إلي كتاب رجل يحب الهدنة والموادعة لعدو قليل ذليل، ولعمري يا بن أم عبد الرحمن إنك حين تكف عن ذلك العدو ومعك جندي وحدي لسخي النفس عمن أصيب من المسلمين، إني لم أعدد رأيك مكيدةً، ولكني عددته ضعفاً وجبناً، والتياث رأي، فأمض لما أمرتك به من الوغول في أرضهم والهدم لحصونهم، فإنها داركم حتى يفتحها الله عز وجل عليكم.

فأغضب عبد الرحمن بن محمد ذلك، وقال: يكتب إلي ابن أبي رغال بمثل هذا الكتاب، وهو والله الجبان،

وأبوه من قبله، وعزم على خلع الحجاج، وكان معه سوى جند الكوفة والبصرة الذين جعله الحجاج عليهم بالأهواز، جند قدموا مع الصباح بن محمد، والقاسم بن محمد أخويه، كانوا بطبرستان، فكتب الحجاج في إشخاصهم إليه معهما، وبعث الحجاج أيضاً إلى عبد الرحمن: اسحق بن محمد بن الأشعث، في جند آخر، وكتب إليه: إن توقفت عن المسير في بلاد العدو، وليت إسحق بن محمد بن الأشعث جندك، وصيرتك من تحت يده كبعض أهل المصر.

فأظهر خلع الحجاج وقال أيها الناس إني والله لكم ناصح، ولصلاحكم محب، وفيما يعمكم نفعه ناظر، وقد استشرت ذوي أحلامكم والتجربة منكم، فأشاروا علي بما علمتم من ترك التوغل في بلاد العدو، وإن الحجاج كتب إلي بإنكار ذلك وكراهته إياه، وأمرني أن أتوغل بكم تغريراً لجماعتكم، كما غرر بإخوانكم بالأمس، فقالوا: لا بل نأبى على عدو الله عز وجل أمره ولا نسمع له ولا نطيع، فإن ابن أبي رغال لا يريد بنا خيراً، وعقد لمن وثق به، وحل ألوية من أبى منهم، وافتعل كتاباً من الحجاج في تولية قوم، وعزل آخرين، ليفسد قلوبهم، وكانوا وجوهاً أشرافاً.

قالوا: وكان أول من تكلم عامر بن واثلة الكناني، وكان خطيباً شاعراً: فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه: أما بعد، فإن الحجاج والله ما يرى لكم إلا ما يرى القائل الأول: احمل عبدك على الفرس فإن هلك هلك، وإن نجا فهو لك، والله ما يبالي أن يخاطر بكم فيقحمكم بلاداً كثيرة اللهوب والعقارب والأشب، فإن ظفرتم وغنمتم جبى وحاز الأموال، وإن ظفر بكم كنتم الأعداء البغضاء، فاخلعوه وبايعوا أميركم فأني والله أول خالع للحجاج عدو الله.

ثم قال عبد المؤمن بن شبث بن ربعي: إنكم إن أطعتم الحجاج جعلها بلادكم ما بقيتم وجمركم تجمير فرعون لجنده، والله ما يبالي أن تهلكوا أو تقتلوا، فنادى الناس من كل جانب: خلعنا الحجاج عدو الله ووثبوا إلى عبد الرحمن يبايعونه فيقول لهم: تبايعون على خلع عدو الله الحجاج، وعلى نصرتي، وعلى جهاد عدو الله وعدوي معي حتى ينفيه الله عز وجل من أرض العراق، فبايعه الناس، و لم يذكروا خلع عبد الملك.

وقال أبو مخنف: كانت بيعته على كتاب الله، وخلع أئمة الضلال، وجهاد المحلين.

قال: فلما بايعوا ابن الأشعث قالوا: ننصرف إلى العراق فنخرج الحجاج عدو الله من العراق فإن جهاده أولى.

وقال الهيثم بن عدي: أخبرني عمر بن ذر الهمداني أن أباه ذر بن عبد الله بن زرارة كان مع ابن الأشعث، وأنه ضربه وحبسه لانقطاعه إلى أخويه القاسم وإسحق ابني محمد، وضرب، وحبس معه عدة منهم: عمران بن عبد الرحمن، وقتادة بن قيس، فلما خلع دعا بهم فحملهم وكساهم وأعطاهم، وأقبلوا معه

فيمن أقبل، فأما ذر بن عبد الله فكان قاصاً خطيباً، فثبت معه وناصحه وأما عمران بن عبد الرحمن فناصحه وثبت معه وأما قتادة ففارقه ولحق بالحجاج.

قالوا: ولما خلع الحجاج عبد الرحمن وأصحابه، وادع رتبيل وكتب بينه وبينه كتاباً وعاهده أن لا يرزأ منه شيئاً، فإن ظفر بالحجاج لم يسأله خراجاً أبداً ما بقي، وإن قوي عليه الحجاج لجأ ومن معه إليه فمنعهم، ثم انصرف ابن الأشعث إلى بست فاستعمل عليها عياض بن عمرو السدوسي، وهو الثبت، ويقال عياض بن همام، وكان عياض قاتل عبد الرحمن حين قدم سجستان فقتل من أصحابه مقتلة عظيمة. وبعث إلى الحجاج برؤوس من قتل وهرب حتى لحق برتبيل فلما بلغه خلعه الحجاج أتاه فبايعه، وولى عبد الله بن عامر التميمي ثم المجاشعي ولقبه البعارزرنج، وقال ابن الكلبي البعار علقمة بن حوي بن سفيان بن مجاشع.

وأقبل عبد الرحمن بن محمد يريد العراق، فهرب منه إسحق بن محمد، والقاسم، والصباح، والمنذر إخوته، فأما القاسم فانه رأى إسحق يناجي الصباح دونه، فغضب فعاد إلى أخيه، وأما الآخرون فلحقوا بالحجاج، وجعل أعشى همدان يجري على فرس له، وقد خرج عبد الرحمن عن سجستان مقبلاً إلى الحجاج وهو يقول:

شطت نوى من داره بالإيوان — إيوان كسرى ذي القرى والريحان

فالبندنيجين إلى طرازاستان — فالجسر فالكوفة فالغريان

من عاشق أمسي بزابلستان — إن ثقيفاً منهم الكذابان

كذابها الماضي وكذاب ثان — إنا سمونا للكفور الخوان

حين طغى في الكفر بعد الإيمان — بالسيد الغطريف عبد الرحمن

سار بجمع كالدبا من قحطان — ومن معد قد أتى ابن عدنان

بجحفل جم كثير الأركان — فقل لحجاج ولي الشيطان

أثبت لجمع مذحج وهمدان — والحي من بكر وقيس عيلان

فإنهم ساقوك كاس ذيفان — أو ملحقوك بقرى ابن مروان

وقال أبو جلدة اليشكري وكان مع ابن الأشعث:

نحن جلبنا الخيل من زرنجا — ما لك يا حجاج منا منجى

لتبعجن بالرّماح بعجا — أو لتفرن وذاك أنجى

حدثني خلف بن سالم وأحمد بن إبراهيم قالا: حدثنا وهب بن جرير عن ابن عيينة أن عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث لما خلع كتب إلى المهلب يسأله الخلع معه، فقال المهلب: ما كنت لأغدر بعد سبعين سنة، ثم قال: ما أعجب هذا يدعوني إلى الغدر من بعض ولدي أكبر منه، وقال لرسوله: قل له: اتق الله في دماء المسلمين و لم يجبه عن كتابه، وبعث به إلى الحجاج.

وحدثني عباس بن هشام الكلبي عن أبيه عن جده قال: لما عاهد عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث رتبيل وكتب بينه وبينه كتاب الوثيقة، وثب رجل من همدان يقال له فندش بن حيان الهمداني على رجل من الكفار من أصحاب رتبيل جرى بينه وبينه خلاف في شيء فضربه فندش بعود معه فشجه شجة خفيفة فبعث رتبيل إلى عبد الرحمن بفندش و لم يقتله، فأمر عبد الرحمن بقتله، فقال أعشى همدان، وكان فندش صديقاً ونديماً له:

تعوذ إذ ما بت من بعد هجعة	من المرء في سلطانه المتفحش
ومن رجل لا تعطف الرحم قلبه	جريء على أخواله متحمش
لجوج شديد بطشه وعقابه	متى يأته ساع بعمياء يبطش
أفي خدشة بالعود لم يدم كلمها	ضربت بمصقول علاوة فندش
وأزهقت في يوم العروبة نفسه	بغير قتيل صاحياً غير منتش
أبي رتبيل قتله فقتلته	وأنت على خوارة وسط مفرش
وباكية تبكي على قبر فندش	فقلت لها أذري دموعك واخمشي
وإنا لنجزي الذحل بالذحل مثله	ونضرب خيشوم الأيلّ الغطمش
فتى كان مقداماً إذا الخيل أجحمت	ضروباً بنصل السيف ليس بمرعش

ويقال أن فندشاً والأعشى ورجلاً آخر، كانوا على شراب لهم، وهم في عسكر ابن الأشعث فنودي يوماً بالسلاح، فمر بهم المنادي فأمرهم باللحاق بالناس، فقال فندش: لا نريم حتى نفرغ من شرابنا، فعلاه المنادي بالسوط، فوثب فندش عليه فضربه بعصاً على رأسه فانطلق إلى ابن الأشعث فأعلمه، فأمر بقتل فندش، فقتل، والأول أثبت.

قالوا: وكان مع ابن الأشعث أبو جوالق أحد بني غسل بن عمرو اليربوعي، وقوم يقولون عسل، والأول قول ابن الكلبي، وكان أبو جوالق شجاعاً وفيه يقول الشاعر:

سبعون ألفاً كلهم مفارق	مثل الحريش وأبي جوالق

يعني الحريش بن هلال القريعي.

قالوا: وأقبل عبد الرحمن يسير بالناس، وسأل عن أبي إسحق السبيعي، فقيل له: ألا تأتيه فقد سأل عنك، فكره أن يأتيه ونزل أبو إسحق بفارس، و لم يدخل في الفتنة حتى انقضت، وأتى عبد الرحمن كرمان فولاها عمرو بن لقيط العبدي ثم أتى فارس فولاها خرشة بن عمرو التميمي.

وحدثني علي بن المغيرة عن أبي عبيدة قال: كتب المهلب إلى ابن الأشعث من خراسان: يا بن أخي إنك قد وضعت رجليك في ركابين طويل غيهما على أمة محمد صلى الله عليه وسلم، تركت قتال المشركين، وأقبلت لقتال المسلمين، أما تذكر بلاء الحجاج عندك حين جمع لك الجندين جميعاً.

قالوا: وقال أعشى همدان:

من مبلغ الحجاج أ ... ني قد نبذت إليه حربا

حربا مذكرة عوا ... نا تترك الشبان شهبا

وصفقت في كف امرىءٍ ... جلد إذا الأمر عبا

لابن الأشج قريع كن ... دة لا أبين فيه عتبا

أنت الرئيس بن الرئيس ... وأنت أعلى القوم كعبا

في قصيدة.

قال: وتمثل ابن الأشعث حين أقبل يريد الحجاج بشعر مغفر بن حماد البارقي:

سائل مجاور جرم هل جنيت لهم ... حرباً تزيّل بين الجيرة الخلط

وهل تركت نساء الحي ضاحية ... في باحة الدار يستوقدن بالغبط

وتمثل أيضاً:

خلع الملوك وسار تحت لوائه ... شجر العرى وعراعر الأقوام

قال: وأخرج ابن الأشعث لأي بن شقيق بن ثور عامل الحجاج عن كرمان، وأخذ ما في بيت مالها وقدم لأي بن شقيق بن ثور على الحجاج فأخبره خبره، فكتب معه إلى عبد الملك يستمده قال: وقالت ابنة سهم بن غالب الهجيمي:

يا أيها السائل عما قد كان ... أبشر أتاك الغوث من سجستان

إبنا نزار وسراة قحطان ... وفيهم المنصور عبد الرحمن

يقود جيشاً جحفلاً ذا أركان سبعين ألفاً لابسين الأبدان

قد ذهب الملك عن آل مروان والثقفي زال عنه السلطان

قالوا: فلما صار ابن الأشعث ومن معه بفارس قال بعضهم لبعض: إذا خلعنا الحجاج، فقد خلعنا عبد الملك، فاجتمعوا إلى ابن الأشعث فكان أول الناس قال خلعت عبد الملك: تيحان بن أبجر أحد ولد ربيعة بن نزار، ثم أحد بني بكر بن وائل، قام فقال: يا أيها الناس إني قد خلعت أبا ذبان كخلعي قميصي هذا، فخلعه الناس، وكان أبو حزابة وهو الوليد بن حنيفة بن سفيان بن مجاشع بن ربيعة بن وهب بن عبدة بن ربيعة بن حنظلة بن مالك بكرمان، فلما وردها ابن الأشعث تعرض له فقال:

يا بن قريع كندة الأشج أما تراني فرسي في المرج

وما هنوش ذهبت بسرجي في فتنة الناس وهذا الهرج

فضحك وقال: افتكوا سرجه قبحه الله، وكان قد رهنه على خمسين درهماً عند بغي يقال لها ماهنوش وبات ليلته عندها. والأشج قيس بن معد يكرب، شج في بعض أيامهم.

وحدثني عبد الله بن صالح العجلي قال: حدثني القاسم بن سهل النوشجاني قال: حدثني عدة من آل المهلب أن المهلب كتب إلى ابن الأشعث حين بلغه خلعه: إنك يا بن محمد قد وضعت رجلك في غرز طويل الغي، فالله الله يا بن أخي انظر لنفسك ولا تهلكها، واتق الله عز وجل في دماء المسلمين أن تسفكها، والبيعة فلا تنكثها، والجماعة فلا تفارقها، فإن قلت أخاف الناس على نفسي فالله أحق أن تخافه والسلام.

قال: وقالوا: كتب المهلب إلى الحجاج: أما بعد فإن أهل العراق قد أقبلوا إليك وهم مثل السيل المنحط من عل ليس يرده شيء حتى ينتهي إلى قراره، ولأهل العراق شرة في أول مخرجهم، وبهم صبابه إلى أبنائهم ونسائهم فليس يبلى بردهم دون أهليهم فلا تستقبلهم وخل لهم الطريق حتى يأتوا البصرة فيواقعوا نساءهم ويتنسموا أولادهم، فترق قلوبهم، ويخلدوا إلى المقام في منازلهم، فيتفرقوا عن ابن الأشعث، ثم واقع من حاربك منهم فإن الله عز وجل ناصرك عليهم، فلما قرأ الحجاج كتابه قال: ويلي على المزوني والله ما لي نظر ولكن لابن عمه نصح، ثم إنه نظر بعد ذلك في كتابه فقال: رحم الله المهلب، فقد كان ناصحا للإسلام وأهله.

وحدثن عمر بن شبة عن هارون بن معروف عن ضمرة بن ربيعة عن ابن شوذب قال: كتب عمال الحجاج إليه: إن الخراج قد انكسر، وإن أهل الذمة قد أسلموا ولحقوا بالأمصار.

فكتب إلى أهل البصرة وغيرها: إن من كان له أصل في قرية فليخرج إليها فخرج الناس فعسكروا وجعلوا

يكون ويقولون: وامحمداه، وجعلوا لا يدرون أين يذهبون، فجعل قراء أهل البصرة يخرجون إليهم متقنعين فيبكون معهم، وقدم ابن الأشعث على بغتة ذلك فاستبصر أهل البصرة في قتال الحجاج مع ابن الأشعث: وقال أبو مخنف وعوانة: ورد على الحجاج أمر ابن الأشعث وهو نازل بلعلع فقال إنها لغليقة من الأمر، وكتب إلي عبد الملك يخبره وسأله إمداده بالجنود، وأتى الحجاج موضع واسط حين فصل من لعلع فابتنى به مسجداً، وقال: هذا مكان واسط، فسميت واسط القصب، ثم بناها بعد ذلك.

قالوا: ولما ورد الكتاب على عبد الملك في أمر ابن الأشعث، نزل عن سريره، وبعث إلى أبي هاشم خالد بن يزيد بن معاوية فأقراه الكتاب، فلما رأى خالد ما به من الجزع والإرتياع قال: إنما يخاف الحدث من خراسان، وهذا الحدث من سجستان فلا تخفه، ثم خرج عبد الملك على الناس فحمد الله عز وجل وأثنى عليه ثم قال: إن أهل العراق قد استطالوا عمري فاستعجلوا قدري فسلط اللهم عليهم سيوف أهل الشام حتى تبلغ رضاك.

وصار الحجاج إلى البصرة فأقام بها، وعزم على لقاء ابن الأشعث، وكان المهلب كتب إليه يشير عليه أن لا يقاتله حتى يرد الناس منازلهم، فيركنوا إلي الدعة وتمنعهم الرقة على أولادهم وعيالاتهم من المحاربة، وتحدث لهم آراء غير أرآئهم وينتقصوا عند التفرق عن أمرهم، ويعظ الرجل أخوه، والرجل قومه، فينفسح عزمه، فلم يلتفت إلى كتابه ومشورته، وكان الحجاج أقدم سفيان بن الأبرد الكلبي من طبرستان، وأخذه فيه، فرأى له أن يستقبل ابن الأشعث ويجعله على خيله، وأحب بذلك التخلص من الغرم، فقبل قوله لموافقته هواه، ورفض رأى المهلب، وجعل فرسان أهل الشام يأتونه من قبل عبد الملك أرسالاً، يأتيه في اليوم المائة والعشرة، وأكثر من ذلك وأقل، فبعضهم يأتي على البريد، وبعضهم على الخيل العتاق المقدحة، وبعضهم على الإبل الناجية، وكانت أخبار ابن الأشعث تأتيه بتروله مكاناً مكاناً وسار الحجاج بأهل الشام حتى نزل تستر الأهواز، وقدم بين يديه عبد الله بن زميت الطائي ومظهر بن حيي العكي وجعل ابن زميت من تحت يده.

يوم دجيل وهو يوم تستر

قالوا: وقدم عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث محمد بن أبان بن عبد الله الحارثي في ثلاثمائة فوجه إليه مظهر بن حيي العكي عبد الله بن زميت، فهزم ابن أبان وأصحابه حتى اضطرهم إلي دجيل الأهواز، فوجه مظهر مولى له يقال له منقذ إلى الحجاج بالفتح وعظم الأمر، وأخبر أنه لقي مقدمة ابن الأشعث فهزمهم وقتل أكثرهم، ولما رأى ابن الأشعث ما فعل بأصحابه جمع الناس وعبأهم، ثم قال: اعبروا إلى

أصحاب الحجاج، فأقحم الناس خيولهم في دجيل حتي صاروا إلي موضع الوقعة ومظهر في سبعة آلاف من أهل الشام، وذلك في يوم ضباب لا يكاد الرجل يتبين فيه صاحبه، فحمل عليهم عطية بن عمرو العنبري فضعضعهم، ثم حمل عليهم جرير بن هاشم بن سعد بن قيس الهمداني، فاقتتلوا قتالاً شديداً، ثم أتاهم الحريش بن هلال القريعي من خلفهم، وحمل الناس عليهم من بين أيديهم، فهزموا هزيمة قبيحة، وقتلوا قتلاً ذريعاً، وركب أصحاب الخيول في طلبهم فقتلوهم وأسروهم أنى شاؤوا، وكان في الأسرى رجل من همدان فقال لابن الأشعث: أصلح الله الأمير أنا أحد أخوالك، فقال: ابدأوا بخالي فقدم وقتل وذلك يوم النحر سنة إحدى وثمانين يوم الجمعة، ويقال عشية عرفة، واستباحوا عسكرهم، وكان الحجاج حين جاءه رسول مظهر صعد المنبر فخطب وقال: أحمدوا الله على هلاك عدوكم، فما نزل حتى جاءه بخبر هذه الوقعة عبيد بن سرجس مولاه، فقال: أيها الناس ارتحلوا بنا إلى البصرة، فإن هذا مكان لا يحتمل الجند، وانصرف حتى نزل الزاوية، وبعث إلى طعام التجار بالكلاء فأخذه فحمله إليه، فقال: من كان منهم وليا لنا رددنا عليه، ومن كان عدواً فماله ودمه حلال لنا، وخلى البصرة لأهل العراق وكان عامله عليهم الحكم بن أيوب الثقفي الذي يقول فيه الشاعر:

قد كان عندك صيد لو قنعت به — فيه غنى لك عن دراجة الحكم

وفي عوارض ما تنفكّ تأكلها — لو كان يشفيك أكل اللحم من قرم

وكان الحكم بن أيوب بن الحكم بن أبي عقيل هذا أبخل الخلق، وكانت له دراجة يؤتى بها بعد الطعام، وكان استعمل رجلاً من بني تميم يقال له العظرت علي بعض الفروض فقدم عليه والدراجة بين يديه، فدعاه إلى الأكل فأكل معه من دراجته، فعزله وقال له الحق بأهلك، والعوارض ما أنكسر فنحر، يقال: أهذا لحم عبيط، أم لحم عارضة ؟ وقال الهيثم بن عدي: هزم ابن الأشعث صاحب الحجاج يوم دجيل وقتل من أصحابه ثمانية آلاف، وقال غيره: قتل ألفين.

قال وجاء ابن الأشعث وأهل العراق حتى دخلوا البصرة فبايعه أهلها على حرب الحجاج وخلع عبد الملك، وسارع إليه القراء والكهول، وكان الحجاج أمر سفيان بن الأبرد الكلبي حين أقبل إلى البصرة أن يكون في أخريات الناس فيهدم القناطر، ويقطع الجسور، وضم إليه جماعة ففعل سفيان ذلك، وكان نزول الحجاج الزاوية يوم الخميس لسبع ليال بقين من ذي الحجة سنة إحدى وثمانين، وكان عياش بن الأسود بن عوف الزهري حين بلغه أمر ابن الأشعث جمع بسوق الأهواز رجالاً ثم أتاه ومحمد بن الأسود فكانا معه، وكان أول من دخل البصرة هميان بن عدي السدوسي، وكان شجاعاً، وكان الحجاج قد حبس

امرأته في قصر المجيزين، وهي أم بكر من ولد شقيق بن ثور السدوسي، وكان معه قوم نصروه فأخرجوها وقوماً كانوا محبوسين معها، فقال الشاعر:

فمن للمرهقين إذا استجاروا ... ونادى المحصنات أبا جرير

وهي كنية هميان، وعارض سفيان بن الأبرد هميان حين أخرج امرأته من محبسها فقاتله حتى دخل ابن الأشعث والناس.

وقد زادا نفروخ بن تيرى المجوسي كاتب الحجاج: إنك إن منعتهم من دخول البصرة حاربوك بجد واجتهاد لطول غيبتهم عن أوطانهم، وإن أنت تنحيت وتركتهم فرجعوا إلى أهليهم قل من يحاربك منهم.

يوم الزاوية

قالوا: ودعا ابن الأشعث بعباد بن الحصين وقد كبر وفلج فقال: أشر علي الرأي فقال:

يا ليتني فيها جذع

أخب فيها وأضع

أرى أن تخندق على المربد وما يليه، ثم تدعهم حتى يخرجوا من معسكرهم بالزاوية فيأتوك معيين كالين، ويخرج الناس إليهم نشاطى جامين، فقال عبد الله بن عامر بن مسمع، وكان قد صار إليه وكان قبل قدومه على شرطة البصرة، وبشر بن محمد بن الجارود وعبد الحميد بن منذر بن الجارود: أنخندق على تميم ونترك دورنا ودور الأزد، فخندق ناس من الناس على ما يليهم، وخندق ابن الأشعث، ولم يبلغ في الحفر وخندق الحجاج على عسكره، وخرج سورة بن أبجر إلى الحجاج فصار معه، وخرج إلى ابن الأشعث رجل من أهل الشام يقال له نويرة الحميري، وكان شجاعاً، فصار معه، وكان قوم من أصحاب الحجاج يخرجون فيناوشون قوماً من أصحاب ابن الأشعث، ثم إن الحجاج ضم إليه خيله، وجعلت الرجال تأتيه من عند عبد الملك على البريد والإبل والدواب، وكتب كل واحد منهما ترد على صاحبه في كل يوم، وقال الحريش بن هلال السعدي لعبد الرحمن: علام تدع الحجاج يأتيه كل يوم مدد من أهل الشام، عاجله قبل أن يكثر جمعه، فقال ابن الأشعث: إن لله جل وعز قد جمع كلمتكم، وأعز دعوتكم فاخرجوا إليهم فجاهدوهم على اسم الله عز وجل، فخرج وخرج الناس، فجعل على الميمنة عبد الرحمن بن عوسجة الهمداني وعلى الميسرة الحريش بن هلال السعدي وعلى مجففته طفيل بن عامر بن واثلة وتيحان البكري ثم التميمي، وعلى الرجالة زياد بن مقاتل بن مسمع، وخرج الحجاج إليهم وعلى ميمنته سفيان بن الأبرد الكلبي وعلى ميسرته أيوب بن الحكم بن أبي عقيل الثقفي، فقال الحجاج لأصحابه: يا

أهل الشام إنكم على الحق، فاصبروا صبر المحق، فإن الله عز وجل مع الحق، والناكث المبطل أولى بالفرار، ثم إنهم اقتتلوا قتالاً شديداً، فجعل الشاميون يقولون للحجاج: لو صبرت حتى يجيء مدد أمير المؤمنين، فيقول: لو كنت مبطلاً انصرفت، وجعل العراقيون يدخلون عسكر الحجاج حتى بلغوا بيت ماله وسجنه، وانهزم عنه أهل بيته ثم رجعوا إليه، وجاء مولى لقيس بن الهيثم السلمي يقال له توبة إلى الحجاج وهو يظنه ابن الأشعث لكثرة من رأى في عسكره من العراقيين. فقال: أقر الله عينك أيها الأمير، الحمد لله الذي أخزى الحجاج، فقال الحجاج: اقتلوه لعنه الله فقتل، ثم إن الحجاج جثا على ركبتيه، وثاب أصحابه إليه، وحمل سفيان على الناس فهزمهم، فقال: زباد بن عمرو العتكي للحجاج: قد هزموا والحمد لله على عونه، وكان معه.

وقتل في المعركة يوم الزاوية على ما ذكر هشام ابن الكلبي: عياش بن الأسود بن عوف الزهري، ويقال بل أسر بهراة من خراسان وأتي به الحجاج فقتله وقتل محمد بن الأسود أخوه، وقتل عقبة بن عبد الغافر الأزدي، وقتل عبد الرحمن بن عوسجة أبو سفيان، وقتل عبد الله بن عامر بن مسمع، وقد كان على شرط الحجاج بعد زياد بن عمرو، حين غضب على زياد، فلما أتي الحجاج برأسه قال: والله ما كنت أرى هذا فارقني، وقتل الطفيل بن عامر بن واثلة الكناني، وكان قد قال:

ألا أبلغ الحجاج أن قد أظله — عذاب بأيدي المؤمنين مصيب

فمر به الحجاج، وهو في القتلى، وقد كان بلغه شعره، فقال: تمنيت لنا أمراً كان في العلم أنك أولى به، فعجل الله عز وجل ذلك لك في الدنيا، وهو معذبك في الآخرة وكان قتالهم يوم الأحد، وكان البراء بن قبيصة بن أبي عقيل مع الحجاج فانهزم مع من انهزم من أهل بيته، وفارقوه في صدر يوم الأحد فرجعوا إليه جميعاً، إلا البراء فإنه مضى إلى عبد الملك فعاذ به، فقال الحجاج: والله لا آمنته إلا أن أضربه ضربةً بالسيف أخذت ما أخذت، وأبقت ما أبقت، فقال البراء في أبيات:

أخوف بالحجاج يوماً ومن يكن — طريدة ليث بالعراقين يفرق
كأن فؤادي بين أظفار طائر — من الخوف في جو السماء محلق
وكان أمرءاً قد كنت أعلم أنه — متى ما يعد من نفس الشر يصدق

وصبر آل سعيد بن العاص مع الحجاج، فقال ابن موهب، كاتب الحجاج ومولاه، واسمه عبيد:

لعمري لقد فر البرا وابن عمه — وفرّت قريش غير آل سعيد

يعني مصعب بن عبد الله بن أبي عقيل، وكان عنبسة بن سعيد أيضاً جال جولة، ثم رجع إلى الحجاج من ساعته فلم يفقده، وظفر الحجاج بأهل الزاوية حين فاء الفيء يوم الأحد، وأقبل إلى البصرة فقاتله الناس قتالاً شديداً على أفواه السكك، فقال الحجاج: دعوهم فإنهم منهزمون والآن يتفرقون، وانصرف عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث، واستخلف عبد الرحمن بن العباس بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب وقال له: قاتل بالناس فإن عندهم قتالاً شديداً، ولهم نشاط، فإني منصرف إلى الكوفة وممدك بالرجال ووثب أهل البصرة إلى عبد الرحمن بن العباس فبايعوه على الصبر، فقاتل بهم الحجاج، ثم انصرف وكانت تلك الفعلة من ابن الأشعث هزيمةً، وكان يقول: إنما انصرفت وفي الناس فضل، وعندهم قتال لأنه بلغني أن مطر بن ناجية الرياحي وثب بالكوفة، فغظاني أن أكون فتحت باباً دخل مطر منه، وأن يكون إنما قدر على الوثوب بي فيكون له صوت معي، فأريد أن ألحقه فأحول بينه وبين إرادته، فأقبل عبد الرحمن نحو الكوفة في ألف من أهلها، وقاتل ابن العباس آخر يوم الأحد، ويوم الاثنين، ويوم الثلاثاء ويوم الأربعاء، وليلة الخميس وهي ليلة الهرير، وصبر أهل البصرة على قتال الحجاج على أفواه السكك، وفقد ابن الأشعث فأمر الحجاج فرفعت راية أمان وناداهم أصحاب الحجاج بأمره: ثكلتكم أمهاتكم علام تقاتلون وقد ترك صاحبكم القتال ومضى، فدخلوا في الأمان وتفرقوا، وخرج ابن العباس ومن معه من أهل الكوفة والأقوياء من أهل البصرة حتى لحق بابن الأشعث، وجاء الحجاج حتى دخل البصرة، فنادى مناديه: يا أهل الشام لا تنزلوا البصرة، ونزل هو دار المهلب فرأى عندها جماعة نسوة، فقال: إن هؤلاء النسوة لجأن الي وخشين أن يدخل عليهن، فليرجعن فنحن أغير عليهن من أزواجهن وقال حميد الأرقط في ابن عبد الرحمن بن سمرة، وكان أعور، وذلك في أيام الزاوية.

يا أعور العين فديت العورا

لا تحسبن الخندق المحفورا

يدفع عنك القدر المقدورا

ودائرات الدهر أن تدورا

وصعد الحجاج المنبر فذكر الله عز وجل بما هو أهله، ثم قال: إن الله عز وجل لم ينصركم يا أهل الشام على عدوكم، لأنكم أكثر منهم عدداً، وأظهر قوةً، ولقد كانوا أثرى منكم وأقوى وهم في بلادهم، ومادتهم تأتيهم من مصرهم وبيوتهم، فهم يستندون إلى ذلك ويعتصمون به، ولكنكم كنتم أهل الطاعة، وكانوا أهل المعصية، فنصركم الله عز وجل بغير حول منكم ولا قوة فاحمدوا الله عز وجل على نعمه ولا

تبغوا ولا تظلموا، وإياكم أن يبلغني أن رجلاً منكم دخل بيت امرأة فلا يكون له عندي عقوبة إلا السيف، أنا الغيور ابن الغيور لا أداهن في الريبة، ولا أصبر على الفاحشة.

قالوا: وأصابت الحريش يومئذ جراحة، وكان يقاتل قتالاً شديداً ويقول:

أنا الحريش وأبو قدامه

أضرب بالسيف مقيل الهامة

أشجع من ذي لبدٍ ضرغامه

وأتى سفوان فمات من جراحته.

وقالت حميدة ابنة مقاتل ترثي أخاها زياد بن مقاتل بن مسمع:

يا عين جودي ولا تفتري — وبكي رئيس بني جحدر

ولما تولت جموع العراق — وأسلم من كان في العسكر

وحامى زياد على قومه — وفر محامي بني العنبر

فسمعها البلتع وكان يبيع سمناً له عند بعض بني العنبر فأتزر بكسائه، وجاء حتى قام عندها وهو يقول:

علام تلومين من لم يلم — تطاول ليلك من مقصر

فقد تبطح الخيل تحت العجاج — غير الشهيد ولا المعذر

ونحن منعنا لواء الحريش — وطاح لواء بني جحدر

ورجع إلى أصحابه فقال: قد شفيتكم منها.

وقال عامر بن واثلة، أبو الطفيل يرثي ابنه:

خلى طفيل على الهم فانشعبا — فهد ذلك ركني هدّةٍ عجبا

وابني سهيمة لا أنساهما أبداً — فيمن نسيت وكل كان لي نصبا

وأخطأتني المنايا لا تطالعني — حتى كبرت فلم يتركن لي شذبا

في أبيات.

وولى الحجاج الحكم بن أيوب البصرة في صفر، واتبع ابن الأشعث، وسلك طرق البر وكان زادا نفروخ بن تيرى مستخفياً بالبصرة، فخرج من دار إلى دار فقتله بعض من رآه من أصحاب ابن الأشعث، فاستكتب الحجاج مكانه ابنه مردانشاه.

أمر مطر بن ناجية الرياحي

قالوا: وكان مطر عامل الحجاج على المدائن وناحيتها، فأتى الكوفة فقال حين نزل من المنبر: ان ابن الأشعث قد هزم أهل الشام، فهلموا نخرج من عندنا منهم، فكثرت تابعته، وجاء حتى أحاط بالقصر، وفيه عبد الرحمن بن عبد الله بن عامر الحضرمي، عامل الحجاج على الكوفة، وهو في أربعة آلاف من أهل الشام، ويقال في ألفين، فأشرفوا عليه وصالحوه على أن يجلوا ويخلوا القصر والمصر، وكان يونس بن أبي إسحق يحدث أن مطراً لما أراد دخول القصر زحمه بغل فضربه بسيفه فقطع جحفلته، ثم قال: اللهم أخزه زحمني وقد آمنت صاحبه، فأعطاه بغلاً مكانه، وأسلف الناس مائتي درهم مائتي درهم، وصحت عنده هزيمة ابن الأشعث، فخطب الناس فقال: إن ابن محمد قد هزم، وأنا لكم مكانه، أقوم مقامه، فبايعه نفر من قومه قليل، وأمسك الناس، فلم يبايعوه، فلما رأى ذلك دخل القصر، ثم خرج بالعشي فقال: أيها الناس إن ابن محمد لقي الحجاج بالزاوية إلى جانب البصرة، فاقتتلوا قتالاً شديداً، ثم تحاجزوا فنظروا فإذا ابن محمد مفقود، لا يدرى أفي الأحياء هو أم في الأموات، فثار الناس عند ذلك إلى عبد الرحمن بن العباس بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب فبايعوه، فعهد العاهد به وقد حصر الحجاج وظهر عليه، فقوموا فبايعوا له، فإنه رجل من قريش ثم من بني هاشم من أهل بيت نبيكم صلى الله عليه وسلم، فقال إليه عبد الرحمن بن أبي ليلى فبايعه، ثم بايعه حمزة بن المغيرة بن شعبة، ثم إنه دخل وأمر مطر بن أبي ليلى أن يبايع الناس ففعل، فقال صدقة وتوبة ابنا عبيد الله بن الحر الجعفي: ما هذه البيعة ؟ نحن على بيعتنا الأولى، ويقال إنهما ضربا وجه ابن أبي ليلى بحصى كان معهما وقالا: نحن على بيعتنا التي بايعنا عليها صاحبنا حتى ننظر ما صنع، وقام ناس كثير فقالوا مثل ذلك وصاحوا بابن أبي ليلى أنزل فترل، وسمع ابن ناجية الصوت فقال: ما هذا ؟ قالوا له: قد اختلف الناس، فرجع إليهم فقال: أيها الناس أنا رجل منكم فمن استقمتم له ورضيتم به وبايعتموه بايعته، فسكن الناس، وأقبل ابن الأشعث وسمع الناس بمجيئه، فخرجوا إليه يستقبلونه.

وقال الهيثم بن عدي: أقبل ابن الأشعث من سجستان وقد خلع فترل الخريبة بالبصرة، فخندق على عمسكره، واقتتل هو والحجاج بالزاوية، وبلغ ابن الأشعث أن مطر بن ناجية قد أخذ الكوفة، فدعا خاصته فأعلمهم أنه يريد الكوفة، واستخلف عبد الرحمن بن العباس بن ربيعة، وسار في نحو من ألف ففقد وقاتل عبد الرحمن بن عباس بالبصرة خمسة أيام، ثم انهزم وقدم ابن الأشعث الكوفة.

وقال ابن الكلبي عن أبي مخنف وغيره: لما خرج الناس لتلقي ابن الأشعث فرأى كثرة من استقبله عدل عن الطريق كراهة أن يروا من معه من الجرحى، وجعل أصحابه يقولون: إن الله عز وجل قد أخزى الحجاج وهزمه وفرق جمعه، وأقبل حتى نزل عند دار فرات بن معاوية وقال: لا والله لا أبرح ولا أدخل مترلي

حتى أستنزل مطراً، ثم جلس في أصحاب الخلقان، فرآه رجل من بني أسد يقال له عبد الله فقال: ما أخلق هذا الرجل لأن يخلق امره، وجاء الناس إليه من كل مكان، وسبقت إليه همدان بالناس، وكانوا أخواله وتفرق الناس عن ابن ناجية، وأراد قوم من بني تميم أن يقاتلوا عنه، فلم يطيقوا ذلك، فأمسكوا، وقال ابن الأشعث: كفوا عنه ولا تقتلوه واتوني به سليماً، فدعا الناس بالسلاليم، فوضعت على القصر، وصعدوا فأخذ فأتي به ابن الأشعث، فقال له: استبقني فإني أفضل فرسانك وأعظمهم غناءً عنك، فأمر به إلى الحبس ثم دعا به بعد ذلك فبايعه: فقال الأقيشر الأسدي:

ابني تميم ما لمنبر ملككم لا يستقر فعوده يتمرمر

يبكي إذا مطر علا أعواده شم الكرام وقال ما قد ينكر

إن المنابر أنكرت أشباهكم فادعوا خزيمة يستقر المنبر

قوم رأيت اللّه ينصر دينهم عند اللقاء ودينكم لا ينصر

خلعوا أمير المؤمنين وبايعوا أحواك كندة بيعةً لا تظفر

بايعتم مطراً وكانت هفوةً خلف لعمرك من أمية أعور

قالوا: ودخل عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث القصر، وجاءه الناس من كل أوب، وأتاه أهل البصرة، وتقوضت إليه المسالح، وجاءه قوم من الثغور، ولحق به عبد الرحمن بن العباس بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب في جماعة من فرسان أهل البصرة ووجوههم ممن لم يأمن الحجاج، ولم يثق بأمانه، وتلاحق به أصحابه، وقام الحجاج بالبصرة خطيباً فقال: إنكم خالفتم وعصيتم وأحللتم بأنفسكم، فعفوت عنكم، وقد قدرت، وأنا أقسم لكم بالله لئن عدتم لمثل فعلكم لأقتلن مقاتلتكم ولأحربنكم بأموالكم.
وأقام فيما يقال بالبصرة نحواً من شهر، ثم خرج منها إلى الكوفة ومعه زياد بن عمرو العتكي، فرفع إلى الحجاج أن عند زياد ثقل عبد الله بن يزيد بن المغفل ونجائبه وإبله، فسأله الحجاج عن ذلك فأقر به، وقال: أصلح الله الأمير كان رجلاً من قومي، فوالله ما شعرت بشيء حتى رأيته في داري وثقله، فاستحييت منه، وخرج هارباً، وكانت مليكة بنت يزيد بن المغفل أخته امرأة عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث، قال: أفتؤوي ثقله، وقد عرفت عداوته لي وللمسلمين، فأين ثقله الآن؟ قال: ألحقته به، إلا ما لا بال به، فشده في الحديد، وخرج به معه، فبعث زياد ابنه الحواري بن زياد إلى عبد الملك فأعلمه علمه، فكتب إلى الحجاج: أما بعد فإنه بلغني أنك حبست زياد بن عمرو العتكي، وليس مثل زياد حبس، ولا

ظن به سوء، فخل سبيله حين يأتيك كتابي، فإنه من أهل السمع والطاعة والمناصحة قديماً، والسلام.
فخلى سبيله وهو بدير الجماجم.

خبر دير الجماجم

قالوا: سار الحجاج من البصرة في البر فمر بين القادسية والعذيب، فبعث ابن الاشعث إليه عبد الرحمن بن العباس في خيل أهل الكوفة والبصرة. وكان ابن الأشعث جمع بالبصرة سلاحاً كثيراً وتجافيف، فسار ابن العباس إليه في خلق من المجففة فمنعوه من نزول القادسية، وبلغه كثرة من مع ابن الأشعث واجتماعهم على قتاله فارتفع عنهم، وسايروه حتى نزل دير قرة. وكان قد عزم على الارتفاع نحو الجزيرة ليقرب من عبد الملك ولا يكون بينه وبينه أحد يتخوفه، فلما صار إلى دير قرة قال: والله ما بهذا المترل بين أمير المؤمنين وأهل الشام بعد، ولا أحد يحول بيني وبينهم ولا أتخوف أن يأتيني من ورائي أحد، وإني لفي رساتيق من الفلوجة وبالقرب من عين التمر، وأرجو أن تحملنا هذه الرساتيق، ولترولي معهم في بلادهم أشد عليهم من نزولي نائياً عنهم.

فترل بدير قرة، ونزل عبد الرحمن بن العباس بدير الجماجم، وخرج ابن الأشعث حتى صار إلى دير الجماجم فعسكر فقال الحجاج: نزلنا بدير قرة ونزل عدو الله بدير الجماجم أفما أتفاءل بهذا، وخندق الحجاج على نفسه، وخندق ابن الأشعث أيضاً على نفسه.

واجتمع قراء أهل الكوفة إلى جبلة بن زحر الجعفي فجعلوه رئيساً عليهم، وكان الحجاج كتب إلى عبد الملك حين قدم من البصرة فخبره بكثرة أهل العراق وجدهم واجتماعهم على حربه، فسرح إليه عبد الله بن عبد الملك ابنه في عشرين ألفاً من أهل الشام، ومحمد بن مروان أخاه في عشرين ألفاً من أهل الجزيرة، فوافوا الحجاج بدير قرة بعد تضييق أهل العراق عليه، فلما قدموا عليه قوي أمره وروخي من خناقه.

و لم يكن بين الفريقين قتال قبل قدوم عبد الله ومحمد، إلا أن أهل العراق كانوا يأتون عسكر الحجاج فيكون بينهم تناوش على خندقه عند أبوابه في غير تزاحف.

وكان من قبل عبد الملك من وجوه الناس من قريش وغيرها قالوا له: إذا كان رضا أهل العراق بعزل الحجاج فاعزله عنهم تخلص لك طاعتهم وتحقن دماءهم ودماء أهل الشام. فقال لابنه: إذا اجتمعت ومحمداً عمك فاعرض على أهل العراق أن تعزل الحجاج عنهم، وتجري عليهم أعطياتهم كما تجري على أهل الشام، وتجري على ذريتهم كما تجري على ذرية أهل الشام، وأن يترل ابن الأشعث أي بلد شاء ويكون عليه والياً ما دام حياً، فإن قبلوا ذلك كان محمد بن مروان الأمير عليهم، وإن أبوا فالحجاج أمير عليك وعلى محمد والناس.

وكان عبد الملك كتب إلى محمد بن مروان في المسير إلى العراق من الجزيرة لأنه كان عامله عليها، وكتب إليه بمثل ما أوصى به ابنه عبد الله، وقوم يزعمون أن محمداً كان حاضراً فأوصاه مشافهة، والأول أثبت.

قالوا: فلما قدم عبد الله ومحمد على الحجاج، وقد أوصيا بما أوصيا به، اشتد ذلك على الحجاج فكتب إلى عبد الملك: والله لئن أعطيت أهل العراق ما يحبون من نزعي، وعرفوا أنك تحب مداراقم لم يلبثوا إلا قليلاً حتى يخالفوك ويسيروا إليك، ألم تسمع بوثوب أهل الكوفة على عثمان، فلما سألهم عما يريدون قالوا: نزع سعيد بن العاص، فلما نزعه لم تتم لهم السنة حتى ساروا إليه فقتلوه، وإن بعض الشدة أبلغ في السياسة وأحزم في الرأي فإن الحديد بالحديد يفلح، خار الله لك فيما ارتأيت.
وأبى عبد الله إلا عرض هذه الخلال على أهل العراق طلباً للعافية، فخرج عبد الله ومحمد حتى وقفا على عسكر أهل العراق فقال لهم: أنا عبد الله ابن أمير المؤمنين، وهذا عمي محمد بن مروان، وإن أمير المؤمنين يعطيكم كذا وكذا، وأدى رسالة أبيه، فقالوا: ترجع العشية لنعرفك رأينا.
ثم اجتمعوا إلى عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث، فقال لهم: إنكم قد أعطيتم ما سمعتم فاقبلوا ما عرض عليكم وأنتم أعزاء أقوياء، إن كانوا قد نالوا منكم يوم الزاوية قبلا فقد نلتم منهم يوم تستر مثله، وهذه فرصة لكم فانتهزوها.
فوثب الناس من كل جانب فقالوا: إن الله قد أهلكهم فأصبحوا في الأزل والضنك والمجاعة والقلة والذلة، ونحن ذوي العدد الكثير والمادة القريبة، لا والله لا نقبل، وأعادوا حلفاً ثانياً.
وكان إجماعهم على خلع عبد الملك بدير الجماجم أكثر من اجتماعهم على خلعه قبل ذلك، فرجع عبد الله ومحمد إلى الحجاج فقالا: شأنك بعسكرك وجندك فاعمل برأيك فإنا قد أمرنا أن نسمع ونطيع لك، فكانا يسلمان عليه بالإمرة ويسلم عليهما بالإمرة أيضاً، وخلياه والحرب، فعبأ جنده، وعبأ ابن الأشعث جنده فجعل على خيله عبد الرحمن بن العباس الهاشمي، وعلى القراء جبلة بن زحر الجعفي، وكان في القراء عامر الشعبي وسعيد بن جبير مولى بني أسد وقوم يقولون أنه مولى سعيد بن العاص وذلك باطل.
وكان الحجاج وجهه على نفقات جيش الطواويس، فصار مع ابن الأشعث بعد، وأبو البختري الطائي واسمه سعيد بن فيروز مولى بني نبهان.
وقال الهيثم بن عدي: اسمه سعيد بن جبير، وقال علي بن المديني: اسمه سعيد بن عمران. وعبد الرحمن بن أبي ليلى الأنصاري، ومسلم بن يسار مولى طلحة بن عبيد الله من بني تيم من قريش، وعبد الله بن غالب الجهضمي من الأزد، وعقبة بن وساج البرساني من الأزد، وأبو صالح ماهان الحنفي، ومحمد بن سعد بن أبي وقاص، فجعلوا يتزاحفون فمرة ينتصفون ومرة يكون لهؤلاء ومرة لهؤلاء، وكان أهل العراق في

خصب وأهل الشام في غلاء من السعر وضر، وكان ابن الأشعث قد بعث عبد الله بن إسحاق بن الأشعث، لحشر الناس من الكوفة، فأخرج جعفر بن عمرو بن حريث، وبعض آل أبي معيط إلى عسكر ابن الأشعث، وأمر كميل بن زياد أن يحرض الناس فأخرج وهو شيخ كبير فحمل حتى أقعد على المنبر دون عبد الله بن إسحاق بدرجتين فخطب خطبة طويلة يقول فيها: إنكم قد غلبتم على فيئكم وبلادكم، ولقد فتح الله عليكم الموصل وأداني الجزيرة وجميع آذربيجان وأرمينية ثم انتزعها منكم معاوية، فجعل عليكم غزوها وجعل لأهل الشام خراجها، إنه والله لا ينفي عنكم الظلم والعدوان إلا التناصح والتأسي، واجتماع الكلمة، وصلاح ذات البين، والصبر على الطعان بالرماح والضرب بالسيوف، إنكم يا أهل العراق منيتم بشر أهل بيتين في العرب: بآل الحكم بن أبي العاص بن أمية وآل أبي عقيل، فتباذلوا وتناصحوا وتواسوا بالأنفس والأبدان.

قالوا: و لم تكن كتيبة أشد على أصحاب الحجاج من كتيبة القراء، لأنهم كانوا يحملون فلا يكذبون، ويحمل عليهم فلا يبرحون.

ثم إن الفريقين تعبوا فعبأ الحجاج لكتيبة القراء ثلاث كتائب وبعث عليها الجراح بن عبد الله الحكمي، فحمل أهل الشام عليهم ثلاث حملات، ثم قال ابن أبي ليلى: إن الفرار قبيح، وليس هو بأحد من الناس أقبح به منكم فإني سمعت علياً رفع الله درجته في الصالحين وأثابه أحسن ثواب الشهداء الصديقين يقول: من أنكر منكراً بقلبه فقد برىء منه، ومن أنكره بلسانه أجر، ومن أنكره بالسيف فقد أصاب سبيل الهدى، ونور قلبه باليقين، قاتلوا هؤلاء المحلين المبتدعين الذين جهلوا الحق فليس يعرفونه، وعملوا بالعدوان فليس ينكرونه.

وقال أبو البختري الطائي: قاتلوهم فوالله لئن ظهروا عليكم ليفسدن دينكم وليغلبنكم على دنياكم.

وقال الشعبي: قاتلوهم فوالله ما أعلم أحداً على بسيط الأرض أجور منهم في حكم، ولا إغلاء في ظلم لا تركاً ولا ديلماً.

وقال سعيد بن جبير: قاتلوهم بنية ويقين ولا تتأثموا في قتالهم، فعلي كل إثم يدخل عليكم في ذلك، قاتلوهم على جورهم في الحكم وتجبرهم في الدين واستذلالهم الضعفاء، وإماتتهم الصلاة.

قال: ثم تهيأوا للحملة، فقال جبلة بن زحر: احملوا حملة صادقة. فحملوا فضربوا الكتائب الثلاث حتى أزالوهم، فوجد جبلة بن زحر صريعاً لا يدرى من قتله فهدهم ذلك، فقال أبو البختري: إنما كان بن زحر رجلاً منكم فاعتصموا بالصبر وارجعوا إلى الله في الأمر. ويقال إن الحارث بن جعونة العامري طعن جبلة فقتله.

وحمل الحجاج رأس جبلة على رمحين وقال: ما كانت فتنة قط فخبت حتى يقتل فيها رجل من أهل اليمن، وقتلت جماعة من القراء.

وقال ابن الكلبي عن أبي مخنف وعوانة: كان قتالهم بالدير مائة يوم، ثم اقتتلوا فهزموا، وضعف أمر ابن الأشعث، وقتل أبو عيسى عبد الرحمن بن أبي ليلى، ويقال إنه قتل يوم دجيل الأهواز، وأبو البختري وابن شداد بن الهاد، ويقال يوم دجيل أيضاً، ويقال إن أبا البختري قتل يوم دجيل أيضاً.

قالوا: وكان بسطام بن مصقلة بن ميسرة الشيباني بالري فلما بلغه خلع الناس وابن الأشعث، قام ابن مصقلة خطيباً فقال: إن عبد الرحمن بن الأشعث قد خلع الحجاج وعبد الملك وأخرج الحجاج من العراق فانصرفوا إلى نسائكم وأولادكم، فتصدع الناس وتركوا قتيبة، ووثبت ربيعة إلى بسطام، وصار أهل اليمن إلى جعفر بن عبد الرحمن بن مخنف فبقي قتيبة ليس معه أحد، وخاف أن يحارب فلما انصرفوا عنه وتركوه و لم يقاتلوه سر بذلك.

وأقبل بسطام مسرعاً حتى أتى عبد الرحمن بن محمد بالجماجم، فيقال إن قتيبة استخلف على عمله وسار يستقري الجبال ويسكن الناس والدهاقين حتى صار إلى عكبرا، وكتب إلى الحجاج يعرفه خبره فكتب إليه؛ قد وفيت وسمعت وأطعت ونصحت فأقبل إلي، فصار إليه، ثم رده كثرت عنده الأمداد.

ويقال: إنه لم يبرح من الري، وكان بسطام بدير الجماجم على ربيعة، فاقتتلوا فحمل حتى دخل عسكر الحجاج فسبى نحواً من ثلاثين امرأة من بين أمة وسرية، فلما دنا من عسكر ابن الأشعث خلاهن، فقال الحجاج: أولى له، أما والله لو لم يفعلها لسبيت غداً نساءهم إذا ظهرت عليهم.

وكان أبو البختري وسعيد بن جبير يقولان: "وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن اللّه كتاباً مؤجلاً ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها ومن يرد ثواب الآخرة نؤتة منها وسنجري الشاكرين" ثم يحملان.

حدثني يوسف بن موسى، ثنا جرير بن عبد الحميد عن معين عن البزيغ بن جبلة وخالد الضبي قال: سمعت الحجاج خطب على المنبر فقال: أخليفة أحدكم في أهله أكرم عليه أم رسوله في حاجته ؟ فقال: قلت: علي لله ألا أصلي خلفك أبداً، وإن رأيت قوماً يجاهدونك أن أجاهدك. فخرج في الجماجم فقتل.

وقال أبو المخارق الراسبي: قاتلناهم مائة يوم أعدها، نزلنا دير الجماجم مع ابن الأشعث غداة يوم الثلاثاء في شهر ربيع الأول سنة ثلاث وثمانين، وهزمنا يوم الأربعاء لأربع عشرة مضت من جمادى الآخرة عند ارتفاع الضحى، وما كنا قط عليهم أجرأ منا في ذلك اليوم، خرجوا إلينا فاقتتلنا قتالاً شديداً ونحن للهزيمة آمنون، وعليهم ظاهرون، ثم خرج علينا سفيان بن الأبرد الكلبي من قبل ميمنة أصحابه، فانحط على ميسرتنا وفيها الأبرد بن قرة التميمي فانكشف، فظن الناس أنه كوتب واستميل لأن الفرار لم يكن من عادته فتقوضت الصفوف لفعله، وركب الناس رؤوسهم به وصعد عبد الرحمن بن محمد منبره وجعل

ينادي: عباد الله، أنا عبد الرحمن بن محمد. وجاءه قوم فأحاطوا به فيهم بسطام بن مصقلة وهو فارس الناس، وأتاه عبد الله بن يزيد بن المغفل أخو امرأته فقال له: انزل فإن الناس قد ذهبوا، وإن أهل الشام قد كثروا، وأنا أخاف إن لم تنزل أن تؤسر، ولعلك إن انصرفت عنهم أن تجمع لهم جمعاً يهلككهم الله به.

وقال الحجاج حين انهزموا: لا تتبعوهم، فنزل ابن الأشعث فخلى أهل العراق والعسكر ومضى مع بني جعدة حتى جاؤوا به قرية بني جعدة بالفلوجة، فعبروا وانتهى إليهم بسطام بن مصقلة فقال: أفيكم ابن محمد ؟ أفيكم الأمير ؟ فلم يكلموه، فأتى أهله فأوصاهم ثم خرج من الكوفة فأتى المدائن ثم أتى مأمنه.
واستقبل مطر بن ناجية الناس فحمل على أصحاب الحجاج في خيل لبني حنظلة فخرقهم حتى جازهم، ثم حمل عليهم راجعاً فقال الحجاج: دعوهم لا تتبعوهم.
ثم إن الناس مضوا منهزمين، وجال أصحاب الخيل في متونها، واسودت الأرض من الرجالة، وتنحى عبد الرحمن بن عباس بن ربيعة في ناس، ناس كثير فقاتلوا معه قتالاً شديداً بعدما ذهب أكثر الناس، وشغل الحجاج وأهل الشام عن الناس حين انهزموا وكثرت عليهم الأسراء فقتل بعضهم وعفا عن بعض كراهة أن يفنيهم، وقال من لثغورهم إذا ذهبوا ؟ وأمر الحجاج فنودي: إن من رجع فهو آمن، ومضى حتى نزل دير النساء، وكان على الكوفة من قبل عبد الرحمن بن محمد: عبد الله بن اسحاق بن الأشعث فهرب حتى لحق بعبد الرحمن بن محمد، ومضى عبد الرحمن إلى المدائن، ثم أتى مسكن الأهواز وهي بقرب تستر، واجتمعت إليه فلوله من أهل الكوفة وغيرهم وتلاوموا في الفرار.
وقال الهيثم بن عدي وغيره: أتى ابن الأشعث بعد الجماجم الكوفة فحمل ولده ونساءه وماله، ثم أتى المدائن فزحف إليه الحجاج فمضى نحو البصرة فقاتله الحجاج بفج دجيل.

مقتل بسطام

وقد كان بسطام بن مصقلة لحق به، ثم إن بسطاماً حلق رأسه وقال: حتى متى تكون الحياة، وقاتل وخلق معه تبايعوا على الموت حتى قتلوا جميعاً، فهد ذلك ابن الأشعث.
قالوا: وفصل ابن الأشعث من مسكن فأمر بقنطرة وشاذروان هناك فهدما فلم تصلح القنطرة إلى هذه الغاية.
قالوا: ورجع محمد بن مروان إلى الجزيرة وعبد الله بن عبد الملك إلى الشام، وخلوا الحجاج والعراق، فجاء حتى نزل الكوفة فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: يا أهل العراق، إن الشيطان قد استبطنكم، فخالط اللحم منكم والعصب والأعضاء والأطراف، وجرى مجرى الدم ومضى إلى الأمخاخ والأصماخ فحشاها

شقاقاً ونفاقاً وسوء رعة، ثم عشش فيها وباض وفرخ ودب ودرج، اتخذتموه دليلاً تتابعونه وقائداً تطاوعونه فلن ينفعكم معه تجربة ولا تعظكم وقعة ولا يحجزكم إسلام ولا يكفكم بيان، ألستم أصحابي بالأهواز حين رمتم النكر وسعيتم بالغدر واجتمعتم على الكفر، فأقسم بالله إني لأرميكم بطرفي وإنكم لتسللون متفرقين كل امرىء منكم ناكس رأسه على عنقه حذار السيف رعباً وجبناً وذلاً مكنه الله في قلوبكم، ويوم الزاوية وما يوم الزاوية بما كان فشلكم وتخاذلكم وبراءة الله منكم ونكوص وليكم بعد أن غركم فوليتم أستاهكم السيوف هاربين لا يسأل الشيخ عن بنيه، ولا يلوي امرؤ على أخيه حتى عضكم السلاح وأقعصتكم الرماح، ويوم دير الجماجم وما دير الجماجم، كانت الملاحم والمعارك العظام بضرب يزيل الهام عن مقيله ويذهل عن خليله، فما الذي اذكر منكم يا أهل العراق وما الذي أتوقع وما الذي استبقيكم له، إن بعثتكم إلى الثغور جبنتم، وإن أمنتم رجعتم، وإن خفتم نافقتم، لا تجزون بحسنة ولا تشكرون نعمة، هل استنبحكم نابح واستغواكم غاو واستخفكم ناكث واستفزكم عاص إلا بايعتموه وتابعتموه وكيفتموه وأجلبتهم حوله ؟ ! وهل شغب شاغب، ونعب ناعب، وظهر كاذب إلا كنتم أشياعه وأنصاره، يا أهل العراق لم تنفعكم التحارب وتحكمكم المواعظ عن سوء ما أتيتم واجتنيتم، ولا انتفعتم بالعبر في الوقائع، ولا وزعتكم موارد الأمور ومصادرها، ثم يا أهل الشام أنا لكم كالظليم المحافظ على فراخه ينفي عنهن القذر، ويباعد المدر، ويكنفهن عند المطر، ويحرسهن من الذباب. أنتم العدة والجنة إن حارب محارب وجانب مجانب، وما أنتم إلا كما قال نابغة بني جعدة:

تحين المنايا بأيديكم ومن يك ذا أمل يكذب

قالوا: ولم يدخل في الأمان إلا نحو من ألف، فأمر الحجاج مصقلة بن كرب رقبة العبدي بتوبيخهم وتصغير أنفسهم إليهم فجلس على كرسي يبايعهم ويوبخهم ويشتمهم، حتى جاء زهير بن مسلم الأزدي، وكان قد ولاه قبل ذلك ميسان، فقال الحجاج: يا هؤلاء ألا أعجبكم هذا الذي عهدي في يده ولم يجف خاتمه، ثم خرج علي.

وركب الناس وجوههم إلى المدائن حتى اجتمعوا إلى ابن الأشعث بمسكن وهو من الأهواز.

وقال الهيثم: صار الحجاج إلى البصرة فوجه جيشاً لمحاربة ابن الأشعث وضمه إلى ابنه محمد بن الحجاج فواقعه بمسكن فقتل بسطام بن مصقلة وجماعة بايعوه على الموت ثم بعد مسكن بالسوس ساعة من نهار، ثم إن ابن الأشعث انهزم وأصحابه حتى صاروا إلى سابور من فارس. فاجتمعت إليه مع أصحابه الأكراد فقاتلهم عمارة قتالاً شديداً ثم إن ابن الأشعث انهزم ومن معه. وقاتلت الأكراد بعد مضي ابن الأشعث

عمارة قتالاً شديداً على العقبة.

وأتى ابن الأشعث كرمان فتلقاه عمرو بن لقيط العبدي، وكان خلفه عليها، فهيأ له نزلاً، وقال رجل من عبد القيس لابن الأشعث: والله لقد بلغنا أنك كنت جباناً ؟ فقال: والله ما جبنت، ولقد دلفت بالرجال إلى الرجال ولففت الخيل بالخيل، وقاتلت فارساً وراجلاً وما تركت العرصة للقوم حتى لم أجد مقاتلاً، ولكن زاولت ملكاً مؤجلاً له مدة.

وأمد الحجاج عمارة بن تميم بخيل كثيفة، وأمر محمداً ابنه بالانصراف إليه، وولى عمارة بن تميم سجستان، ثم إن ابن الأشعث فوز بمن معه في مفازة كرمان، وأهل الشام يتبعونه، فدخل بعض الشاميين فضل في المفازة، فإذا فيه شعر كتبه بعض أصحاب ابن الأشعث في صحيفة، ويقال في حائط:

أيا لهفي ويا حزني جميعاً	ويا حرّ الفؤاد لما لقينا
تركنا الدين والدنيا جميعاً	وأسلمنا الحلائل والبنينا
ألا كنا أناساً أهل دين	فنصبر للبلاء إذا ابتلينا
ألا كنا أناساً أهل دنيا	فنمنعها وإن لم نرج دينا
تركنا دورنا لطغام عك	وأنباط القرى والأشعرينا

ثم إن ابن الأشعث سار إلى مدينة زرنج بسجستان وفيها رجل من بني تميم كان خلفه عليها يعرف بالبعار، فلما علم أن ابن الأشعث منهزم، أغلق باب المدينة دونه ومنعه من دخولها التماساً للتقرب بذلك إلى الحجاج وتلافي أمره عنده، فأقام عنده، فأقام ابن الأشعث عليها أياماً فلما لم يصل إليها أتى بست فاستقبله عياض بن عمرو السدوسي صاحبه بها وقال له: انزل، فجاء حتى نزل، فلما تفرق أصحابه في المنازل وأغفلوه وثب عليه فأوثقه ليأمن بها عند الحجاج ويتخذ لديه مكانة.

وعلم رتبيل بمقدم ابن الأشعث فاستقبله في جنوده، فلما أوثق ابن الأشعث ذهب رجال من أصحابه يركضون حتى استقبلوا رتبيل فأخبروه بما ركب عياض صاحبه منه، فجاء رتبيل حتى أحاط ببست، ثم نزل وبعث إلى عياض فقال: والله لئن أقذيت عينه أو ضررته أدنى مضرة أو رزأته حبلاً من شعر، لا أبرح حتى أقتلك وجميع من معك، ثم أسبي ذراريكم.

فأرسل إليه: أعطنا أماناً على أنفسنا وأموالنا، ونحن ندفعه إليك سالماً موفوراً، فأمنهم ففتحوا الباب لابن الأشعث وخلوا سبيله.

واستأذن ابن الأشعث رتبيل في قتل عياض فقال: قد أمنته، قال: فأذن لي في الإستخفاف به فأذن له في ذلك، فأمر أن يوجأ عنقه ثم تركه، ويقال إن رتبيل وجه من يخلص ابن الأشعث وقدم إليه بعياض، و لم

يتول أمره.

ولما صار ابن الأشعث إلى رتبيل أعظمه وأكرمه وقام له الأتراك ولمن معه، ووفى بما كان بينه وبينه قبل شخوصه عن سجستان.

وقدم فلال ابن الأشعث عليه من كل وجه، فاجتمع إليه منهم عشرون ألفاً فأمروا عليهم عبد الرحمن بن العباس الهاشمي، وحاولوا فتح زرنج، وكتبوا إلى ابن الأشعث فأتاهم فلما صار بزرنج وفتحها أخذ البعار فضربه وحبسه.

وقال أصحاب ابن الأشعث حين قرب منهم عمارة بن تميم بن فروة اللخمي: أخرج بنا من سجستان ودعها لأصحاب الحجاج وائت خراسان، فقال: إن بخراسان يزيد بن المهلب وهو رجل شاب شجاع ولن يترك لكم سلطانه لو دخلتموها، ولن يدع أهل الشام أيضاً اتباعكم فأكره أن يجتمع عليكم أهل الشام وجند خراسان.

فقالوا: إنما أهل خراسان منا، نرجو إن دخلتها أن يكون من يتبعك منهم أكثر ممن يقاتلك. وهي أرض طويلة عريضة نتنحى منها إلى حيث شئنا إن أردنا التنحي، ونقيم بها إلى أن يهلك الله عبد الملك والحجاج ونرى من رأينا.

فقال: سيروا على اسم الله، فسار ابن الأشعث بأصحابه حتى قرب من هراة فلم يشعر حتى فارقه عبيد الله بن عبد الرحمن بن سمرة القرشي في ألفين، وأخذ طريقاً غير طريقهم، وجعل يفسد الناس على ابن الأشعث.

وقال بعضهم: أتى البصرة بعد ذلك فغلب عليها ثم هرب.

وقال ابن الأشعث لأصحابه إني قد شهدت بكم هذه المواطن فليس منها مشهد إلا وأنا أصبر لكم فيه نفسي حتى لا يبقى معي منكم أحد، فلما رأيت أنكم لا تقاتلون ولا تصبرون أتيت ملجأ ومأمناً، فكنت به فجاءتني كتبكم بأن أقبل إلينا فقد اجتمعنا بزرنج، وأمرنا واحد، وكلمتنا مجتمعة، فأبيتم قتال عدوكم ورأيتم أن نمضي إلى خراسان، وزعمتم أنكم مجتمعون لي وأنكم لن تتفرقوا عني، وهذا عبيد الله بن عبد الرحمن بن سمرة قد صنع ما رأيتم فحسبي منكم فاصنعوا ما بدا لكم فإني منصرف إلى صاحبي الذي أتيتكم من عنده، فمن أحب منكم أن يتبعني فليفعل، ومن كره ذلك فليذهب إلى حيث أحب في خيار من الله.

فتفرقت منهم طائفة، وخرجت معه منهم طائفة حتى أتوا معه رتبيل، وبقي عظم العسكر فوثبوا إلى عبد الرحمن بن العباس الهاشمي فبايعوه. وانتهوا إلى هراة فلقوا بها الرقاد الأزدي فقتلوه.

وسار إليهم يزيد بن المهلب فلقي عبد الرحمن بن العباس ومعه خلق كثير فقاتلهم بهراة فهزمهم يزيد وفلهم وقتل خلقاً منهم فما أحصوا إلا بالقصب، وأخذ رؤوس من معهم أسرى فكان فيهم محمد بن سعد بن أبي وقاص وعمر بن موسى بن عبد الله بن معمر التيمي، وكان على شرطته بعد الجماجم، وعتبة بن عبيد الله بن عبد الرحمن بن سمرة بن حبيب بن عبد شمس، وعاصم بن قيس التميمي.

وأسر يومئذ الهلقام بن نعيم بن القعقاع بن معبد بن زرارة بن عدس، وعياض بن الأسود بن عوف الزهري، ويقال إنه قتل بالزاوية. وعبد الرحمن بن طلحة الطلحات الخزاعي، ويقال يزيد بن طلحة الطلحات. وفيروز حصين المنسوب إلى حصين العنبري، وكان مولاه فحبس ابن طلحة الطلحات عنده وأمنه، وبعث بالباقين إلى الحجاج، ويقال إنه صفح عن جميع الأسراء اليمانية وبعث بمن سواهم فقال الحجاج لمحمد بن سعد حين رآه، وكان أحول أسود: هذا ظل الشيطان، وثاب في كل فتنة، ألست صاحب يوم الحرة تقتل أصحابك كما تقتل عدوك، قال: أو ليس ذاك كان أحب إليك، قال: أما والله لا تقاتل بعدها في فتنة أبداً ثم ليصلينك الله ناراً كلما خبت زيدت سعيرا. فقال: إن الله قد أعدها لك ولقومك أكباد الحمر، وأما أنا فقد والله حشدت عليك فيمن حشد وجهدت مع من جهد، وايم الله ما أعطيت بيدي طائعاً، ولكني ضربت بسيفي حتى انقطع. فأمر به الحجاج فقتل.

ويقال إنه قال: يا ظل الشيطان أنت أعظم الناس كبراً وتيهاً، تأبى بيعة يزيد بن معاوية تشبهاً بابن عمر والحسين ثم تتابع حواك كندة ؟ فقال له: ملكت فأسجح، فضرب عنقه.

ثم دعا بعمر بن موسى بن عبد الله فقال: أنت صاحب شرطة عبد الرحمن بن عباس ؟ فقال: أصلح الله الأمير، كانت فتنة شملت البر والفاجر، فدخلنا فيها وقد أمكنك الله منا فإن عفوت فبحلمك وفضلك، وإن عاقبت عاقبت ظلمة مذنبين.

فقال: أما قولك: شملت البر والفاجر فقد كذبت فيه، ما شملت إلا الفجار ولقد عوفي منها الأبرار، أما اعترافك بذنبك فعسى أن ينفعك، فعزل ناحية ورجا له الناس السلامة.

وقال للهلقام: ما رجوت من اتباع ابن الأشعث ؟ أظننت أنه يكون خليفة ؟ قال: نعم قد رجوت أن يكون خليفة وطعمت في ذلك، وأن ينزلني منه بمنزلتك من عبد الملك، فغضب وقال: اضربوا عنقه.

ونظر إلى عمر بن موسى وقد نحي، فقال: اضربوا عنقه فقتل، ويقال إنه قال لعمر بن موسى: أتقوم بالعمود على رأس ابن الأشعث الحائك، وتشرب معه الشراب، يا فرزدق أنشده ما قلت فيه فانشده.

أخضبت أيرك للزناء ولم تكن ... يوم الهياج لتخضب الأبطالا

قال: فوالله لقد أكرمته عن عقائل نسائكم.

وقتل عتبة بن عبيد الله بن عبد الرحمن بن سمرة وجميع الأسراء.

وكان يزيد بن المهلب أمر حين انهزم عبد الرحمن بن عباس بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب ومن معه أن لا يتبعوا، فهرب عبد الرحمن إلى السند فمات بها.

وكان ممن خرج مع ابن الأشعث: ببة، وهو عبد الله بن الحارث بن نوفل بن الحارث بن عبد المطلب، فلحق بعمان وهو شيخ كبير فمات بها.

وقال المدائني في إسناده: لما خرج ابن الأشعث من هراة، أشار عليه مودود بن بشر العنبري ألا يأتي رتبيل وأن يتحصن ويقاتل حتى يظفر أو يؤمن أو يموت كريماً فأبى، وأتى رتبيل وأقام مودود متحصناً في مدينة زرنج، فأتاه عمارة بن تميم اللخمي في أهل الشام فحصره حيناً ثم أمنه وأصحابه فوفى لهم الحجاج وقال لمودود: أي الأرض أحب إليك ؟ قال: البصرة. قال: فأيها أبغض إليك قال: عمان. فسيره إلى عمان.

وفي مودود يقول بعض همدان ممن كان مع عمارة:

للّه عيناً من رأى من فوارس	أكر على المكروه منهم وأصبرا
فما برحوا حتى أعضوا سيوفهم	بذي الهام منا والحديد المسمرا
فلو أنهم لاقوا قواماً مقارباً	ولكن لقوا موجاً من البحر أخضرا

مقتل عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث

قالوا: ولما صار عبد الرحمن إلى رتبيل منصرفه من خراسان وأقام عنده. كتب الحجاج إلى رتبيل: أما بعد فإن الكذاب الشرود عدو الرحمن بن محمد بن الأشعث بن قيس بن معدي كرب، فأما معدي كرب فإنه عاهد مهرة فغدر بهم فظفروا به فجدعوا أنفه وأذنيه، وشقوا بطنه وملأوه حصىً، وأما قيس فإنه عاهد مذحج ثم غدر بهم فقتلوه، وأما الأشعث فإنه كفر بعد إيمانه وغدر بقومه فأسلمهم لينجو، وأما محمد فغدر بأهل طبرستان وهذا رجل غدار فاجر مائق معرق له في الغدر والفجور، فلا تثق به ولا تمنعه ولا تؤوه.

وتتابعت كتب الحجاج إلى رتبيل في ابن الأشعث بالوعيد والترغيب والترهيب، حتى كان خوفه أكثر من رجائه، وقال في بعض كتبه: لئن لم تسلمه وتبعث به إلي أو تخرجه من بلادك إلى غير حرز لأبعثن إليك مائة ألف ومائة ألف من أهل الشام والجزيرة وأرمينية وأهل خراسان، ولئن أسلمته أو أخرجته لأضعن

عنك الأتاوة سبع سنين.

وكان عند رتبيل رجل من بني يربوع يقال له عبيد بن سبع بن أبي سبع، فقال لرتبيل: أنا آخذ لك من الحجاج أماناً وكتاباً بوضع الخراج عن أرضك سبع سنين، ولا تغزى، على أن تدفع عبد الرحمن بن محمد إليه.

فسفر بينه وبينه عمارة بن تميم، ويقال إنه أتى الحجاج فتوثق منه لرتبيل.

وبعث رتبيل إلى الحجاج برأس ابن الأشعث، فوفى له الحجاج بالصلح، فيقال أن ابن الأشعث مات حتف أنفه، فلما أرادوا دفنه احتز رتبيل رأسه وبعث به إلى الحجاج، ويقال بل دس له شربة أضنته وقتلته، فأخذ رأسه حين مات وبعث به إلى الحجاج فكانت امرأته مليكة- كما زعموا- تقول: مات ورأسه على فخذي، فلما أرادوا دفنه أمر رتبيل فاحتز رأسه، وكان قد أصابه السل.

وقال الهيثم بن عدي عن أشياخه: كان عبيد بن سبع مولى بني تميم تاجراً يدخل بلدان رتبيل وكان عاقلاً، وهو كان الداخل بين ابن الأشعث ورتبيل في الصلح، فبلغ ابن الأشعث عنه شيء فأراد قتله، فصار عليه، فلم يزل يحذر رتبيل الحجاج ووفاءه بما كان يتوعده به، ويخوفه أهل الشام، وقال: ابعثني أتوثق لك وعمارة ففعل، واشترط له عمارة ألا تؤخذ الجزية منه عشر سنين ولا يغزى.

فكتب عمارة بذلك إلى الحجاج فأنفذه الحجاج وأجازه، فلما هم رتبيل بالغدر بابن الأشعث قال له: فرق أصحابك فإن البلاد لا تحملهم، ففعل، ثم صنع طعاماً فحضره وجعل يعظمه، وأمر أساورته فكفروا له، وأقبل على طعامه، ثم أشار إلى أساورته بأن يأخذوه ومن معه في البيت من آل الأشعث.

وتسامع أصحاب ابن الأشعث بذلك فهربوا على وجوههم، وأخذ من أهل بيته جماعة يقال ثمانية عشر، ويقال سبعة وعشرين فبعث بهم إلى عمارة فقتلهم جميعاً، وبعث بابن الأشعث إلى الحجاج فرمى بنفسه من قصر أنزله في طريقه فمات فأخذ رأسه.

وقال أبو الحسن علي بن محمد المدائني في إسناده: أتى عبيد بن سبع عمارة وهو ببست فقال: ما تجعلون لي ولرتبيل إن دفع إليكم ابن الأشعث ؟ فجعل له ثلاثمائة ألف درهم وجعل لرتبيل ألا يؤخذ منه الخراج سبع سنين ولا يغزى.

وكتب إلى الحجاج أن عبيد بن سبع أحد بني يربوع ذكر كذا وسأل كذا. فكتب إليه: أعطه ما سأل لنفسه، وأعط رتبيل ما سأل له.

ثم قدم على رتبيل فقال له: ما كنت صانعاً فاصنعه فقد توثقت لك وإلا أتاك ما لا قبل لك به من جنود أهل الشام والمصرين والجزيرة وخراسان، وهيبه الحجاج، وأخبره بغدر ابن الأشعث، فأجابه إلى إسلام ابن الأشعث.

وجاء ابن الأشعث فدخل على رتبيل فلما جلس قام رتبيل فقال: قد جاشت نفسي: وترك ابن الأشعث في المجلس فقام إليه النعار، وقد كان أخرج من محبسه فضرب رأسه بعمود حديد كان معه فشجه وأثخنه، فقال: ويلك أخذت لها جعلاً.

ثم أخذوا ابن الأشعث فأوثقوه وناساً من آل ابن الأشعث، وقيل لأصحابه إنكم آمنون فاذهبوا حيث شئتم، وبعث بابن الأشعث ومن معه من حرمه إلى عمارة بن تميم اللخمي لينفذهم إلى الحجاج ووكل بهم جماعة من جند رتبيل فسلموهم إلى عمارة بن تميم.

وصير عليهم عمارة رجلاً من بني تميم وسير معه رجلاً من بني ربيعة بن حنظلة كان أتى عتزاً فلقب أبا العتز، فجعل مع ابن الأشعث في سلسلة واحدة. فلما صار بالرخج رمى ابن الأشعث نفسه من جبل، ويقال من فوق سطح عال كان إلى الطريق وأبو العتز فوقه فتدهدى وأبو العتز يقول له: أنشدك الله والصحبة، فلما وافيا الأرض مات أبو العتز، ثم لم يلبث ابن الأشعث أن مات.

واحتز رأسه وحمل إلى الحجاج، وقدم بالقاسم بن محمد وأهل بيته ومليكة بنت يزيد الأزدي امرأة عبد الرحمن وأمه على عمارة فحملهم، فقال الحجاج: يا مليكة: أسلطاننا خير أم سلطان رتبيل ؟ فظنت أنه عرض بها فقالت: ما كنت فحاشاً. فقال: إني لم أذهب إلى حيث ذهبت. فقالت: سلطانك خير لنا.

وقال الحجاج لأم عبد الرحمن: ويقال لأمرأته: أخذت مال الله فوضعته تحت ذيلك، فقال عنبسه بن سعيد بن العاص: لقد أعففت المنطق، قال: أفكنت تراني أقول الأخرى ؟ ولما رأى الحجاج رأس ابن الأشعث قال: لقد كنت عالماً بتيهه وموقه وسخافة عقله، ولكن الله أراد أن يهلك به جيلاً من خلقه كانت له فيهم نقم. وتمثل:

أبى حينه والموت إلا تهورا	فلاقاه عبل الساعدين شتيم
كريه المحيا باسل ذو عرامة	فروس لأعناق الكماة أزوم

فقال ناعصة بن يزيد القيني. ويقال إنه من غير القين: لا يبعد الله إلا من عصاك. قالوا: وبعث برأسه إلى عبد الملك، فبعث به عبد الملك، إلى عبد العزيز بمصر، فقال الشاعر:

هيهات موقع جثة من رأسها	رأس بمصر وجثة بالرّخج
فتلوه قسراً ثم قالوا بايعوا	وجرى البريد برأس قرم أبلج

وقدم بالقاسم بن محمد ومن معه من أهله على الحجاج فاستبقى القاسم و لم يقتله.

قال: و لم يقتل من آل ابن الأشعث أحداً يعرف غير عبد الرحمن وعبد الله بن اسحاق بن الأشعث. وكان

عبد الرحمن بن محمد ولى عبد الله بن اسحاق الكوفة فلما هزم عبد الرحمن خرج وهو يريد عبد العزيز بمصر وكان ابن خالته، فأخذ طريق السماوة فانتهى إلى ماء من مياه كلب. فنزله فوجد الأعراب منه ريح الطيب فقالوا: إن لهذا شأناً، و لم يعلمهم من هو فأخذوه فأتوا به عبد الملك فضرب عنقه.

وكانت أم عبد الله بن إسحاق الشعثاء بنت زبان بن الأصبغ الكلبي، وأم عبد العزيز ليلي بنت زبان.

وقال هشام ابن الكلبي: خرج الحجاج في أيامه تلك ومعه حميد الأريقط وهو يقول:

ما زال يبني خندقاً ويهدمه   هيهات من مصعده منهزمه

إن أخا الكظاظ من لا يسأمه .

فقال الحجاج: هذا أصدق من قول الفاسق أعشى همدان: إن بني يوسف للزل انزلق، وقد تبين من زال وتب. ومن دحض فانكب.

ورفع صوته ففرغ الأريقط فقال له: مالك ؟ قال: إن سلطان الله عزيز، ورأيتك قد غضبت فأرعدت خصائلي واسترخت مفاصلي وأظلم بصري. فقال: صدقت. إن سلطان الله عزيز فعد إلى ما كنت فيه.

وقال أبو الحسن علي بن محمد المدائني: كان صلح رتبيل سنة ثلاث وثمانين والمدة سبع سنين ويقال تسع، ويقال عشر سنين.

قالوا: وكان مع ابن الأشعث عبد الرحمن اليحصبي، وكان أطول الناس صلاة، فهرب إلى خراسان ودخل حائطاً ليصلي وبعث غلامه إلى السوق ليبتاع له ما يصلحه فجاء ناس فجلسوا إلى جنبه وظنوا أن معه مالاً فوثبوا عليه وهو قائم يصلي فقتلوه ثم نظروا فإذا ليس معه شيء.

وقال المدائني: كان عباد بن الحصين الحبطي مع ابن الأشعث وأشار عليه بأشياء بلغت الحجاج، فهرب إلى سجستان وصار إلى ناحية كابل، واعتزل في قرية هناك، وكان صاحب القرية شاباً فكان يراسل أمة له، فسقى عباداً يوماً شيئاً فقتله فوثب ابنه جهضم، وبه كان يكنى. على العلج فقتله فاجتمع أهل تلك القرية على بنيه ومن معه فقاتلوهم فقتلوا بعضهم، فيقال إن جهضماً قتل يومئذ، ويقال أن الحجاج ظفر به فقتله لخروجه مع ابن الأشعث.

وقال عوانة وغيره: بدأت فتنة ابن الأشعث في سنة اثنتين وثمانين وانقضت سنة ثلاث وثمانين، ومات عبد الملك سنة ست وثمانين.

قالوا: وكتب عبد الملك إلى الحجاج: أن حمر أهل العراق وتابع عليهم البعوث واستعن عليهم بالفقر فإنه جند الله الأكبر. ففعل ذلك بهم سنتين. ثم إنه كتب إلى عبد الملك كتاباً يقول فيه: إن الله إنما نصرنا

بطاعته والوفاء ببيعة خليفته، وإنما هلك أهل العراق. بمعصيتهم وخلافهم ونكثهم. وإن لهم في هذا الفيء حقاً ونصيباً، وإني أخاف إن حبسناه عليهم أن ينصروا علينا، فإن رأى أمير المؤمنين أن يأمر لهم بحقوقهم فليفعل. وإلا فلا يحرمن أمير المؤمنين الذرية الذين لا ذنوب لهم.

فكتب إليه أن: آمر للناس جميعاً من أهل المصرين مقاتلتهم وذريتهم بحقوقهم، فوض للحجاج سريره في المسجد، ثم دعا الناس بعد الجماجم بسنتين فأعطاهم عطاءين للسنة الأولى والثانية.

وعزل الحجاج عمارة بن تميم اللخمي وولى عبد الرحمن بن سليم الكلبي ثغر سجستان فظفر عبد الرحمن بعطية بن عمرو العنبري وخرشة، وكانا متحصنين في القلعة وبعث بهما إلى الحجاج، فقتلهما وصلبهما على بابي مترليهما.

قالوا: وكان منادي الحجاج حين هزم أهل دير الجماجم نادى: من لحن بقتيبة بن مسلم فهو آمن، فلحقت به جماعة.

أمر الشعبي

وكان منهم عامر بن شراحيل الشعبي وكان قتيبة بالري، وسأل الحجاج عن الشعبي فأخبره يزيد بن أبي مسلم، مولى الحجاج، بمصيره إلى قتيبة، فكتب إلى قتيبة باشخاصه فلما قدم به استشار ابن أبي مسلم في أمره فقال: ما أدري ما أشير به، غير ان اعتذر ما استطعت، فلما دخل على الحجاج سلم بالإمرة ثم قال: أيها الأمير إن الناس أمروني أن اعتذر إليك بغير الحق، وايم الله لا قلت في مقامي هذا إلا حقاً، قد والله سعرنا عليك الحرب واجتهدنا كل الجهد فما ألونا، ولقد نصرك اله علينا وظفرك بنا، فإن سطوت علينا فبذنوبنا وما كسبت أيدينا، وإن عفوت فبحلمك عنا وبعد الحجة علينا.

فقال: أنت والله أحب إلي قولا ممن يدخل علينا وسيفه يقطر من دمائنا فيقول والله ما فعلت ولا شهدت، فقد أمنت عندنا يا شعبي فانصرف، قال الشعبي: ثم دعاني فارتعت حتى ذكرت قوله أنت آمن عندنا فاطمأننت، فلما دخلت عليه قال: هيه يا شعبي. فقلت: أصلح الله الأمير، أوحش الجناب وأحزن المترل ونبا بنا، واستشعرنا الخوف، واكتحلنا السهر، واستحلسنا البلاء، وفقدنا الصالحين من الإخوان- أو قال صالحي الإخوان- وشملتنا فتنة لم نكن فيها بررة أتقياء ولا فجرة أقوياء، وما أعتذر إلى الأمير ألا أكون شيعت عليه، وقد كنت أكتب إلى يزيد بن أبي مسلم بعذري وأعلمه حالي فصدقه يزيد. فقال الحجاج: قد قبلت عذرك يا شعبي، وأمر بعطائه فرد عليه وقال: انصرف مصاحباً.

حدثنا يوسف بن موسى القطان عن جرير عن مغيرة قال: دخل الشعبي على الحجاج فقال له: ما الذي نقمت ؟. قال: لا يسألني الأمير ما نقمت ولكن ليسلني لم بطرت.

حدثني عمر بن شبه، ثنا حفص بن اسماعيل عن عيسى الحناط قال: لما ظهر الحجاج على ابن الأشعث، جعل يؤتى بالناس فأتي بالشعبي فقال: هيه يا شعبي. قال: أصلح الله الأمير، أجدب الجناب واعترانا السهر، وامتلأنا رعباً، وأتينا فتنةً لم نكن فيها أبراراً أتقياء ولا فجاراً أقوياء. قال: صدق الشعبي، خلو سبيله.

وروي عن مخلد بن الحسن عن أسماء بن عبيد عن الشعبي قال: هربت من الحجاج فأتيت المدينة.

حدثني حفص بن عمر عن الهيثم بن عدي عن مجالد عن الشعبي قال: لما انهزم ابن الأشعث ضاقت بي الأرض وكرهت ترك عيالي وولدي، فأتيت يزيد بن أبي مسلم، وكان لي صديقاً، وكانت الصداقة تنفع عنده، فقلت: قد صرت إلى ما ترى ؟ قال: إن الحجاج لا يكذب ولا يخدع ولكن قم بين يديه وأقر بذنبك واستشهدني على ما شئت، قال: فوالله ما شعر الحجاج إلا وأنا قائم بين يديه فقال: أعامر ؟ قلت: نعم أصح الله الأمير. قال: ألم أقدم العراق فأحسنت إليك ووفدتك إلى أمير المؤمنين واستشرتك ؟ قلت: بلى. قال: فأين كنت في هذه الفتنة ؟ قال: استشعرنا الخوف، واكتحلنا السهر، وأحزن بنا المترل وأوحش الجناب وفقدنا صالحي الإخوان وشملتنا فتنة لم نكن فيها بررة أتقياء ولا فجرةً أقوياء، وقد كنت أكتب إلى يزيد بن أبي مسلم بعذري. فصدقه يزيد، فقال الحجاج: هذا، لا من ضربنا بسيفه ثم جاءنا بالأحاديث كان وكان.

حدثنا أبو أيوب سليمان بن المعلم الرقي عن عيسى بن يونس، عن عباد بن موسى عن الشعبي قال: أتي بي الحجاج، فلما انتهيت إلى الباب لقيني يزيد بن أبي مسلم، فقال: إنا لله يا شعبي لما بين كفيك من العلم، وليس بيوم شفاعة، بؤ الأمير بالشرك والنفاق على نفسك فبالحري أن تنجو، ثم لقيني محمد بن الحجاج فقال مثل مقالة يزيد. فقال لي الحجاج: وأنت يا شعبي فيمن خرج علينا ؟. فقلت: أصلح الله الأمير، أحزن بنا المترل، وأجدب الجناب، وضاق المسلك، واكتحلنا السهر واحتلسنا الخوف ووقعنا في خزية لم نكن فيها بررة أتقياء ولا فجرة أقوياء.

فقال: صدق والله، ما بروا بخروجهم ولا قووا بحمد الله علينا إذ فجروا، أطلق عنه.

ثم قال: ما تقول في أم وأخت وجد ؟. قلت: اختلف فيها خمسة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم: عثمان بن عفان، وعلي وعبد الله بن عباس، وابن مسعود، وزيد بن ثابت. قال: ما قال فيها ابن عباس إن كان لمتقناً ؟. قلت: جعل الجد أباً فأعطى الام الثلث و لم يعط الاخت شيئاً. قال: فابن مسعود ؟ قلت: جعلها من ستة فأعطى الأخت النصف ثلاثة، والجد الثلث اثنين، والأم سدساً. قال: فأمير المؤمنين عثمان ؟ قلت: جعلها أثلاثاً. قال: فزيد بن ثابت ؟ قلت: جعلها من تسعة، أعطى الأم الثلث

ثلاثة والجد أربعة، والأخت اثنين. قال: فأبو تراب ؟ قلت: جعلها من ستة، أعطى الأخت النصف ثلاثة، والأم الثلث، والجد السدس. فقال: مروا القاضي أن يمضيها على قول أمير المؤمنين عثمان.
وقال الهيثم بن عدي: فارق ابن الأشعث عبيد الله بن عبد الرحمن بن سمرة فأتى زابلستان فأقام بها برهةً من دهره، ثم صار إلى خراسان فحبسه قتيبة بن مسلم، وخرج ابنه أبو بكر بن عبيد الله إلى عبد الملك فطلب له الأمان فأمنه وكتب بذلك إلى الحجاج، فرتب الحجاج أمره، وبعث إلى قتيبة رسولاً ودفع إليه زبيبة وقال: ضعها في يد قتيبة ثم اغمز عليها، ففعل، فبعث قتيبة إلى عبيد الله من غمه حتى قتله- وكتب الحجاج إلى عبد الملك أن رسوله وافاه وقد مات.
وقال المدائني: لما هزم ابن الأشعث من مسكن هرب عبيد الله بن عبد الرحمن بن سمرة إلى خراسان فاستخفى بها فعلم به يزيد بن المهلب فأخذه وحبسه، وكان قد فارق ابن الأشعث. فلما عزل يزيد وولي المفضل بن المهلب كتب إليه الحجاج في قتله، فكتب إليه: إنه لما به، وستكفاه بغير قتله، فلا ولي قتيبة خراسان ومات عبد الملك خرج أبو بكر بن عبيد الله بن عبد الرحمن إلى الوليد فكلمه في أبيه فكتب إلى الحجاج بأمانه، وبلغ الحجاج الخبر فسبق بتوجيه رجل إلى قتيبة فقتله ودفنه.

أمر سعيد بن جبير

حدثني عدة من المشاريخ قالوا: سمعنا أبا نعيم الفضل بن دكين يقول: خرج مع ابن الأشعث من أهل الكوفة: سعيد بن جبير، وعبد الرحمن بن أبي ليلى، وعبد الرحمن بن عوسجة، والشعبي، وذر، وطلحة بن مصرف، وعبد الله بن شداد، وأبو البختري الطائي، والحكم بن عتيبة، وعون بن عبد الله فيما يقال، ومن أهل البصرة: مسلم بن يسار، وجابر بن زيد أبو الشعثاء الأزدي، وعقبة بن عبد الغافر، وقتل معه، وأبو الجوزاء قتل معه، وعبد الله بن غالب وقتل معه، عقبة بن وساج، وطلق بن حبيب، وأبو شيخ الهنائي، من الأزد، واسمه خيوان بن خالد.

وقال أبو نعيم: كان مع ابن الأشعث ثمانون ألف فارس ومائة واثنان وعشرون ألف راجل. قالوا: وكان خالد بن عبد الله القسري عامل الوليد بن عبد الملك بمكة، وكان سعيد بن جبير هرب إلى مكة فاستخفى بها حتى مات عبد الملك ثم ظهر، فكتب الحجاج إلى خالد في إشخاصه وإشخاص طلق بن حبيب العنزي، فأشخصهما إليه فقتلهما.
وقال المدائني: أخذ سعيد بن جبير خباد بن عبد الله القسري بمكة فحمله إلى الحجاج مع اسماعيل بن أوسط البجلي، فقال له: ألم أقدم العراق فأكرمتك ؟ وذكر له أشياء فعلها به، فقال: بلى، قال: فما

أخرجك علي ؟. قال: كانت لابن الأشعث بيعة في عنقي وعزم علي، فغضب وقال: رأيت لعدو الله الحائك عزمةً لم ترها لله ولخليفته ولي ؟ والله لا أرفع قدمي حتى أقتلك وأعجل بك إلى النار، قال: إذاً أخاصمك بيني يدي الله، قال: أنا أخصمك، قال: ان الحاكم يومئذ غيرك. فأمر بقتله، فقام إليه مسلم الأعور ومعه سيف عريض حنفي، فضرب به عنقه.

حدثني محمد بن أبان الواسطي عن جرير بن حازم، وحدثني أحمد بن ابراهيم الدورقي عن وهب بن جرير عن أبيه عن محمد بن الزبير الحنظلي أن الحجاج وجه سعيد بن جبير في جيش الطواويس وأعطاه ألفي ألف درهم، وولاه نفقات الجيش وقال له: إذا رأيت خللاً فسده، ومن كان من ضعيف فاحمله، ومن جريح فانفق عليه، وولاه أمر الغنائم إذا غنم الجيش، فخرج عليه مع ابن الأشعث، وكان يقول: ما خرجنا عليه حتى كفر بالله.

المدائني عن جرير بن حازم قال: قال سعيد بن جبير: أليس كافر بالله من زعم أن عبد الملك أكرم على الله من محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم.

المدائني عن يحيى بن زكرياء عن سالم الأفطس قال: لما قتل الحجاج سعيد بن جبير عرفوا تغير عقله لأنه قتله، ثم قال: قيود، ثم دعا بها ليقيده.

حدثني روح بن عبد المؤمن المقرىء، حدثني علي بن نصر الجهضمي قال: كان خالد بن خليفة يحدث عن بواب الحجاج قال: ضربت عنق سعيد بن جبير فبدر رأسه وهو يقول: لا إله إلا الله.

المدائني عن عبد الله بن مروان قال: لما أمر الحجاج بقتل سعيد بن جبير جاءت خالة له فدفع إليها يده فقبلتها، وقال له الحجاج حين أدخل عليه: أنت شقي بن كسير. قال: لا بل سعيد بن جبير. قال: ألم أصنع بك ؟ ألم أكرمك، ألم أولك ألم أأتمنك ؟. قال: بلى. قال: فواله لاقتلنك. قال: إذا أخاصمك غداً. قال: إذا أخصمك يا عدو الله. فضحك سعيد، فقال: ما يضحكك ؟. قال: التعجب من جرأتك على الله.

المدائني عن أبي مريم صاحب الدستوائي قال: رأيت سعيد بن جبير مقيداً بمكة، واستأذن خالد بن عبد الله في توديع البيت، فأذن له فطاف أسبوعاً وهو مقيد، وقد اتكأ علي، أو قال على رجل، فقال: اللهم إن كنت قضيت للحجاج قتلي فاجعل ذلك كفارة لذنوبي.

المدائني عن محمد بن ذكوان قال: أخذ سعيدا عبد الله بن أسد ابن أخي خالد فقال له: قد كنت أكره أن يجري أمرك على يدي. قال: فهلا إذ كرهت ذلك قلت كما قال العبد الصالح: "إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك".

وكان الكرى الذي حمل سعيد بن جبير زيد بن مسروق اليربوعي، والذي أدخله إلى الحجاج اسماعيل بن

أوسط البجلي.

المدائني عن رجل عن عمرو بن أبي وحشية قال: رأيت رأس سعيد بن جبير في فم كلب يعدو به بين الأطناب.

المدائني عن عمرو بن هشام قال: قيل لسعيد بن جبير: إن الحجاج إذا أخذ رجلاً كان مع ابن الأشعث فأقر له بالكفر، خلى سبيله، وإن الحسن قال يدفع عن نفسه، فقال سعيد بن جبير: يرحم الله أبا سعيد، لاتقية في الإسلام.

المدائني عن جرير بن حازم عن واصل عن عبد الله بن سعيد بن جبير قال: قتل أبي وله تسع وأربعون سنة.

وحدثنا عفان بن مسلم، ثنا هشيم، أنبأنا أبو بشر عن سعيد بن جبير قال: أنا ممن أنعم الله عليه ببني أسد.

المدائني عن محمد بن إسحاق عن عبد الملك بن أبي سليمان قال: رأى خالد بن عبد الله سعيد بن جبير وطلق بن حبيب العنزي ورجالاً يطوفون بقيودهم فقال: ما هؤلاء ؟ قال: الأسراء الذين أمرت بحملهم قال: امنعوهم من الطواف.

حدثني عمر بن شبه، ثنا أبو عاصم النبيل عن رجل عن جرير عن مغيرة أن الحجاج كان يعرف سعيد بن جبير فسأله مالخبر، فقال سعيد: تركت الخمر تباع بالكوفة ظاهرة، ويباع الحكم بالرشا، فقال الحجاج: والله لئن وليت لاغيرن، فلما قدم رد شريحاً على القضاء، ومنع أن تباع الخمر.

المدائني عن جرير بن حبيب بن أبي عمرة أن الحجاج أمر سعيد بن جبير أن يصلي بالناس في شهر رمضان، فصلى بهم فكساه الحجاج برنوس خز أسود فلبسه.

حدثني عمر بن شبه، ثنا أبو عاصم النبيل، أنبأنا عمرو بن قيس قال: كتب الحجاج إلى الوليد: إن قوماً من أهل الشقاق والنفاق قد لجأوا إلى مكة، فإن رأى أمير المؤمنين أن يأذن لي فيهم، فكتب الوليد إلى خالد بن عبد الله القسري فيهم، فأخذ عطاء، وسعيد بن جبير، ومجاهدا، وطلق بن حبيب، وعمرو بن دينار، فأما عطاء وعمرو فخليا، وأما الآخرون فبعث بهم إلى الحجاج، فمات طلق في الطريق، وحبس مجاهد حتى مات الحجاج، وقتل الحجاج سعيد بن جبير.

حدثني عمرو بن محمد الناقد عن عبد الله بن نمير عن عبد الملك بن أبي سليمان قال: أخذ خالد القسري سعيد بن جبير، وطلق بن حبيب، وحبيب بن أبي ثابت، وأصحابهم فقيدوا، فكانوا يطوفون بالبيت في قيودهم.

قالوا: وبعث إبراهيم إلى سعيد في السر: إن القوم لن يستحويك فاصلب لهم.

حدثني العباس بن الوليد النرسي، ثنا عبد الواحد بن زياد عن الربيع بن أبي صالح قال: دخلت على سعيد بن جبير حين جيء به فبكيت فقال: ما يبكيك ؟ قلت: الذي أرى بك، قال: فلا تبك فإن هذا كان في علم الله، وقرأ: "ما أصاب من مصيبة" إلى قوله: "نبرأها".

المدائني عن أبي بكر بن عياش، عن عاصم بن بهدلة قال: ما تكلم سعيد بشيء وذلك أنه كره المثلة.

حدثني الحسين بن علي بن الأسود عن أبي بكر بن عياش عن يزيد بن أبي زياد قال: لما جيء بسعيد جعل يحدثنا لا ننكر منه شيئا، حتى جاءت ابنته فتحرك فانكشفت قيوده، فبكت الجارية فقال سعيد: اسكتي يا بنية، لا تغمي أباك. فهذا أكثر ما رأينا منه.

حدثني حفص عن الهيثم بن عدي عن ابن عياش قال: قال الحجاج لسعيد: أكفرت بخروجك ؟ قال: ما كفرت مذ آمنت. قال: اختر أي قتلة أقتلك. قال: اختر أنت لنفسك أي القصاص شئت فإن القصاص أمامك، فقتله، فما قتل أحداً بعده.

حدثني أحمد بن ابراهيم الدورقي، ثنا وهب بن جرير عن أبيه عن المفضل بن سويد قال: جيء بسعيد بن جبير فقمت على رأس الحجاج، فقال له الحجاج: ألم أشركك في أمانتي، ألم استعملك، ألم أفعل ألم أفعل ؟.

قال: بلى. قال: فما حملك على خروجك علي ؟ قال: عزم علي الرجل. فقال: رأيت لعزمة عبد الرحمن حقاً و لم تر لله ولا لأمير المؤمنين ولا لي عليك حقاً ؟!! اضرب عنقه، فضربت عنقه فندر رأسه وعليه كمة بيضاء لا طية صغيرة.

المدائني قال: قال سلم بن قتيبة: كنت عند الحجاج فقال لسعيد: أخرجت علي ؟ قال: كانت للرجل في عنقي بيعة. قال: أتفي لعدو الله ولا تفي لأمير المؤمنين ؟. اضرب عنقه، فضربت عنقه فسال منه دم كثير.

حدثني عمرو بن محمد الناقد، ثنا سفيان بن عيينة عن سالم بن أبي حفص قال: لما أدخل سعيد بن جبير على الحجاج قال: أنت شقي بن كسير ؟. قال: لا بل أنا سعيد بن جبير. قال: أما والله لأقتلنك، قال: إني إذا لما سمتني أمي سعيد، دعوني أصلي ركعتين. فقال: وجهوه إلى قبلة النصارى. قال: اينما "تولوا فثم وجه الله".

وحدثني علي بن الحسين بن عرفة عن أبيه عن الحارث بن أبي الزبير المدني عن عبد العزيز بن زمعة العامري حديثا طويلا اختصرته، أن الحجاج أرسل إلى سعيد بن جبير فأتي به فلما دخل عليه قال: أنت شقي بن كسير ؟ قال: أنا سعيد بن جبير. قال: أنت شقي بن كسير. قال: أمي كانت أعلم باسمي منك، فقال لصاحب عذابه: اسمعني صوته فعذبه صاحب العذاب فلم يسمع له الحجاج صوتاً فقال له: ألم آمرك ان تصب عليه العذاب حتى تسمعني صوته ؟ قال: قد عذبته بألوان العذاب فلم أر أصبر منه قط. فدعت

به الحجاج فقال: أو تصبر على عذابي ؟. قال: إن من ذكر عذاب الله هان عليه عذابك. فقال: لألحقنك بأمك الهاوية، فقال سعيد: لو علمت أن ذلك إليك لاتخذتك إلهاً دون الله. ثم أمر به أن يقتل فتبسم، فقال له: ألم تقل لي أنك لم تضحك قط ؟. قال: ضحكت للتعجب من جرأتك على الله واغترارك بحلمه. وانحرف إلى القبلة فعدل به عنها فقال: أينما "تولوا فثم وجه اللّه".

وقال سعيد: اللهم لا تمهله، فقدم فضربت عنقه، ويقال ذبح ذبحاً، فأخذ الحجاج الزمهرير، وقرح جوفه حتى كانت القديدة تدلى في حلقه ثم تجبذ فيخرج فيها الدود وهو يصيح: ما لي ولسعيد بن جبير، فلم يزل كذلك حتى مات.

حدثني عبد الله بن صالح العجلي عن أبي بكر بن عياش عن يزيد بن أبي زياد قال: لما دخل سعيد بن جبير على الحجاج أمر به أن يقتل فنهض رجل من أهل الشام فقال له: ألصق بالمنكبين.

حدثني أبو محمد النحوي المعروف بالتوزي عن أبي عبيدة عن يونس النحوي قال: لما أتي بسعيد بن جبير قال الحجاج: لعن الله ابن النصرانية- يعني خالد بن عبد الله- والله لقد كنت أعرف مكانه ولوددت أنه بعث بغيره و لم يبعث به، ثم قال له: ما أخرجك علي ؟. فقال: أنا رجل من الناس أخطيء وأصيب. قال: ألم أكرمك ؟. قال: بلى. قال: فما حملك على ما فعلت ؟ قال: كانت للرجل في عنقي بيعة. فاستشاط الحجاج غضباً وقال: أفلم لتكن لأمير المؤمنين في عنقك بيعة ثم، أخذها عليك بالكوفة ؟. قال: بلى. قال: فنكثت بيعة أمير المؤمنين ووفيت ببيعة ابن الحائك. اضربا عنقه. فذلك قول جرير بن عطية:

يا ربّ ناكث بيعتين تركته ... وخضاب لحيته دم الأوداج

وقال أبو عبيدة: أتي الحجاج بسعيد بن جبير وهو يريد الركوب، فقال: والله لا أركب حتى تتبوأ مقعدك من النار، اضربوا عنقه. فضربت عنقه، فخولط والتبس عقله مكانه فجعل يقول: قيودنا قيودنا. فظنوا أنه يقول: القيود التي على سعيد، فقطعوا رجليه من أنصاف ساقيه وأخذوا القيود.

حدثني شجاع بن مخلد الفلاس، ثنا جرير بن عبد الحميد عن المغيرة قال: كان الحجاج يقول حين قتل سعيد بن جبير: ولع يالك من ولع.

حدثني عمر بن شبه، ثنا عبيد بن جناد عن عطاء بن سالم قال: لما قتل سعيد بن جبير قال ميمون بن مهران: ما أدري بما أكافيء أخي إلا بأن أتزوج ابنته، فأقدم على سيف الحجاج. وانطلق فتزوج ابنة سعيد بالكوفة، وقدم بها الرقة. قال عطاء: فمضيت حتى رأيتها فإذا امرأة مسنة جليلة عابدة قاعدة في مسجدها، فالتمست عندها حديثا فلم أجده.

وقال عبيد بن جناد: وكان في الطريق أهل مسلحة يمنعون النساء فجلس إليهم ميمون فألقى تحت مصلى لهم ثلاثمائة درهم ثم قال: معي امرأة، فقالوا: وهل يمنع مثلك، امض راشداً.

حدثنا أبو أيوب المؤدب الرقي، حدثني محمد بن مصفى عن الوليد بن مسلم، ثنا عبد الملك بن محمد قال: سمعت ثابت بن محمد يقول: هرب سعيد بن جبير من الحجاج فكان عندي سنين أو قال سنتين.

حدثنا عمر بن شبه عن أبي عاصم النبيل، حدثني شيخ من أهل مكة قال: كان رجل من أهل مكة ضعيفا فمازحه سعيد وهو يطوف، أو قال: زحمه. فقال: أنت تفر من الحجاج وتجيء إلى ههنا. فضربه عكرمة بن خالد وناس من قريش حتى كاد ينبسط.

حدثني الحسين بن علي عن أبي بكر بن عياش قال: قيل ليزيد بن زياد: هل كان سعيد يحدث ؟ قال: نعم ويضحك غير أني رأيت ابنته جاءت فجلست في حجره فسمعت حركة القيود فبكت فقال: مه، قال: وأخذ بكفلاء لئلا يلقي نفسه في الفرات إذا مر به فكنت من كفل به في آخرين.

حدثني عمر بن شبه عن محمد بن حاتم: عن القاسم بن مالك، ثنا أبو الجهم قال: دخل علينا سعيد بن جبير الديماس و لم يكن لكل واحد منا فيه مقعد إلا قدر ما يمد رجله، فأوسعت له إلى جنبي فلما كان يوم أخرج ليقتل قال لي: شد علي ثيابي، قال: فشددت عليه بركتي قباء كان عليه من خلفه وخرج به فقتل.

حدثني عمر بن شبه عن عبد الملك بن عبد الله القطان عن هلال بن جناب قال: جيء بسعيد إلى الحجاج فقال له: والله لأقتلنك. قال: إني إذاً لسعيد كما سمتني أمي. قال: فقتله فلم يلبث بعده إلا نحواً من أربعين يوماً فكان إذا نام يراه في منامه يأخذ بمجامع ثوبه ويقول: يا عدو الله فيم قتلتني؟ فيقول: ما لي ولسعيد بن جبير.

وحدثني عمر عن محمد بن حاتم عن القاسم بن مالك عن رجل من أهل هجر عن عبد الملك بن سعيد بن جبير قال: لما قدم سعيد بن جبير على الحجاج قال: أنت شقي بن كسير ؟ قال: أنا سعيد بن جبير. قال: والله لأقتلنك. قال: إذاً ألقى الله بعملي وتلقاه بدمي، لقد أصابت أمي إذاً إذ سمتني سعيداً، فقال الحجاج: يا حرسي اضربه ضربة على حبل عاتقه تخالط رئته، قال: فأذن لي أصلي ركعتين، قال: صل. فلما توجه إلى القبلة فقال الله أكبر كبيرا والحمد لله كثيرا، قال الحجاج: لا، إلا إلى قبلة النصارى، فقال سعيد: أينما "تُوَلّوا فَثَمَّ وجه اللّه" فصلى، ثم ضربه الحرسي ضربة خالطت رئته.

وقال الفضل بن دكين أبو نعيم: قتل سعيد في سنة خمس وتسعين وهو ابن تسع وأربعين سنة.

وحدثني أبو مسعود الكوفي عن عوانة قال: لما أخذ الأعراب عبد الله بن إسحاق بن الأشعث فأتوا به عبد الملك قال له عبد الملك وقد أدخل عليه بحمص: ألم أقدم الكوفة حين قتلت مصعباً فوجدتك في ستمائة

من العطاء فبلغت بك ألفين، ووليت بشراً أخي الكوفة فأمرته أن يجعلك في صحابته، وحملتك على دابة من دواب رجلي وخلعت عليك ثياباً من ثياب بدني ؟. قال: بلى. قال: ثم بلغني أن بشراً غضب عليك في حمقة من حمقاتك، فإنك من أهل بيت حمق ولؤم، فأغزاك أصبهان فكتبت إليه أعزم عليه أن يقفلك ويعيدك إلى حالك ففعل ؟ قال: بلى، قال: فلعنتني على منبر البصرة وشتمتني على منبر الكوفة وأخذت رسولي فقطعت يديه ورجليه وصلبته منكوساً ؟ قال: بلى. قال: فأنت ترجو الهوادة عندي لا أم لك. وتمثل:

أبعد الذي بالنعف نعف كويكبٍ رهينة رمس من تراب وجندل

أذكّر بالبقيا على من أصابه وبقياي أني جاهد غير مؤتل

أنختم علينا كلكل الحرب مرة فنحن منيخوها عليكم بكلكل

قم يا عتاب بن مسروق فاضرب عنقه، ودع عليه من ثيابه ما يواري عورته. فقال: قد أمنني عبد العزيز، فقال عبد الملك: ما يقول ؟ فأخبر به، فقال: كذب ولو أمنه لم أجز أمانه، فضربت عنقه.

قال ابن شبه في روايته: وأتي عبد الملك بالمسور بن مخرمة بن عوف الكلبي فقال: ألم يأتني بك الأصبغ يدعيك عبداً، فقلت أرى جلدة عربية ولأني يكون لك ابن عمر خير من أن يكون لك عبداً، فأثبت نسبك وفرضت لك في أربعمائة، ثم أصحبتك للوليد بن عبد الملك حين أغزيته وأمرته أن يجعلك من البشراء ؟. قال: بلى. قال: قم يا أبا العباس فاضرب عنقه. ففعل.

ثم أتي بابن عبد الله بن يزيد الخطمي، من الأنصار، فقال له: من أنت ؟ قال: أنا ابن عبد الله بن يزيد الخطمي. قال: من أهل بيت سبابة ؟ قال: اقبل فيّ وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم بالأنصار أن يقبل من محسنهم ويعفى عن مسيئهم. فقال: خلوا سبيله.

وأتي بغطيس الجهني ومعه ابن له يتعلق به وهو يقول: يا أمير المؤمنين، أبي يا أمير المؤمنين أبي، فرحمه وقال: قد وهبتك لابنك.

من أخبار عبد الملك

المدائني عن سحيم قال: دخل عروة بن الزبير على عبد الملك وعنده الحجاج، فكلم عروة عبد الملك بكلام فيه بعض الغلظة، فقال له الحجاج: يا بن العمياء، أتقول هذا لأمير المؤمنين ؟ فقال عروة: وما أنت وهذا يا بن المتمنية، يعني أن الفارعة بنت همام بن عروة بن مسعود، وهي أم الحجاج تمنت أنها على سطح فياح وعندها نصر بن حجاج فقالت:

هل من سبيل إلى خمر فأشربها   أم هل سبيل إلى نصر بن حجاج

المدائني عن علي بن سليم عن محمد بن علي الكناني قال: حج عبد الملك فأتى الطائف فسايره أبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام، وعبد الرحمن بن أم الحكم أخت معاوية، فذكر ابن أم الحكم الطائف ففضلها وفضل أهلها، وقال: يا أمير المؤمنين، جاء الإسلام وفينا من قريش عدة نساء فكثر، فقال عبد الملك لأبي بكر: ما تقول ؟ فقال: إذا لا تجد فيهن مغيرية، فقال ابن أم الحكم: نحن أعلم بقومنا، إنا نعتام الكرام لمناكحنا، ونأتي الأودية من ذروتها ولا نأتيها من أذنابها. فقال عبد الملك: قاتلك الله فما أسبك.

المدائني قال: جرت بين عبد الملك وبين عمرو بن سعيد منازعة في شيء، فأغلظ له عمرو بن سعيد، فقال خالد بن يزيد بن معاوية: إن أمير المؤمنين لا يكلم مثل هذا الكلام، فقال: اسكت، فوالله لقد سلبوك ملكك وغلبوك على أمرك فما كان عندك نكير فما هذه النصيحة له، أنت والله كما قال الشاعر:

ومرضعة أولاد أخرى وضيعت   بنيها فلم ترفع بذلك مرفعا

وقال الهيثم بن عدي: لما أمر عبد الملك بقتل عمرو بن سعيد شاور خالد بن يزيد فيه فقال له: اقتله، فقال عمرو: اسكت فوالله لقد سلبت ملكك ونيكت أمك فما عندك نكير، فما هذه النصيحة ؟ فقال: أما أنت فقد وقعت في الأنشوطة فانظر كيف تخلص، وإنما أنت كما قال الأول:

أهم بأمر الحزم لو أستطيعه   وقد حيل بين العير والنزوان

قال المدائني: وقال عبد الملك لثابت بن عبد الله بن الزبير: أبوك كان أعلم بكم حيث كان يشتمكم. فقال: يا أمير المؤمنين أتدري لم كان يشتمني ؟، إني نهيته أن يقاتل بأهل مكة وأهل المدينة، لأن أهل مكة أخرجوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخلفوه، ثم جاؤوا إلى المدينة فأخرجهم رسول الله صلى الله عليه وسلم منها وسيرهم، يعرض بالحكم بن أبي العاص. وأما أهل المدينة فخذلوا عثمان حتى قتل بينهم لم يروا أن يدفعوا عنه.

المدائني عن مسلمة بن محارب عن بشير بن عبيد الله أن عمر بن عبيد الله بن معمر دخل على عبد الملك وعليه جبة حبرة مصدأة، عليها أثر الحمائل فقال له أمية بن عبد الله بن خالد بن أسيد: يا أبا حفص أي رجل أنت لو كنت من غير من أنت منه من قريش ؟ قال: ما أحب أني من غير من أنا منه، إن منا لسيد الناس في الجاهلية عبد الله بن جدعان، ومنا سيد الناس في الإسلام بعد رسول الله أبو بكر الصديق، وما هذه يدي عندك، إني استنقذت أمهات أولادك من عدوك وهن حبالى فولدن في حجالك، يعني استنقاذه

إياهن من أبي فديك بالبحرين.

وقال أمية لعبد الملك: يا أمير المؤمنين إن هذا دهره الامتنان علي، وهو كما قال الشاعر:

فوكنت كذئب السوء لما رأى دماً   بصاحبه يوما أحال على الدم

وأنشد عمر:

ولو كنت صلب العود أو كابن معمر   لخضت حياض الموت والليل مظلم

فتبسم عبد الملك وقال: قل له كما قال لك.

المدائني قال: أجرى عبد الملك الخيل فسبق عباد بن زياد فقال الشاعر:

سبق عباد وصلى وثلث   بخيله تلك الخفيفات الجثث

فقال عبد الملك:

سبق عباد وصلت لحيته   وكان خرازا يجوّد قربته

قال: ويقال ! إن عباداً كان خرازاً ثم ادعاه زياد بعد، وكان باع أمه وهي حامل به ثم أقر بعد أنه ولده، فشكا عباد قول عبد الملك إلى خالد بن يزيد بن معاوية فقال خالد: والله لأضعنك منه بحيث يكره، فزوجه أخته، فكتب الحجاج إلى عبد الملك: إن مناكح آل أبي سفيان قد ضاعت، فأخبر عبد الملك خالداً بكتاب الحجاج فقال خالد: يا أمير المؤمنين ما أعلم امرأة منا ضاعت ولا اغتربت إلا عاتكة بنت يزيد بن معاوية فإنها عندك، وما عنى الحجاج غيرك، فقال عبد الملك: بل عنى الدعي بن الدعي عباداً. فقال خالد: يا أمير المؤمنين أفأدعي رجلاً لا أزوجه، إنما كنت ملوما لو زوجت دعي غيري.

قالوا: واستعمل عبد الملك نافع بن علقمة بن صفوان بن محرث على مكة فخطب ذات يوم وأبان بن عثمان تحت المنبر فشتم طلحة والزبير، فلما نزل قال لأبان: أأرضيتك في المدهنين في أمير المؤمنين ؟ قال: لا ولكن سؤتني فحسبي أن يكونا شركاء في أمره، فبلغ ذلك عبد الملك فقال: صدق أبان، وكتب إلى نافع ينهاه عن مثل ما كان منه.

المدائني عن عبد الحكيم الأشج عن أبي قذة أن عبد الملك خطب زينب بنت عبد الرحمن بن الحارث بن هشام فأبت أن تتزوجه وقالت: والله لا يتزوجني أبو الذبان، فتزوجها يحيى بن الحكم بن أبي العاص، فقال عبد الملك: والله لقد تزوجته أسود أفوه، فقال يحيى: أما إنها إذاً أحبت مني ما كرهت منه.

وكان عبد الملك رديء الفم، كان يدمى فيقع عليه الذباب.

المدائني أن ليلى الأخيلية استأذنت على عبد الملك فأمر حاجبه أبا يوسف أن يدخلها، ويقال بل كانت بثينة صاحبة جميل، فدخلت امرأة طويلة يعلم أنها قد كانت جميلة، فقال عبد الملك: يا أبا يوسف ألق لها

كرسياً. ففعل، فقال لها عبد الملك: ويحك ما رجا ثوبة– أو قال جميل– منك ؟ فقالت: رجا مني الذي رجته منك الأمة حين ولتك أمرها.

وروى الأصمعي عن نافع بن عبد الرحمن بن أبي نعيم المقرئ قال: قال عبد الملك للحارث بن عبد الله بن أبي ربيعة وهو القباع: ما كان الكذاب– يعني ابن الزبير– يقول في كذا ؟ قال: ما كان كذاباً. فقال له يحيى بن الحكم: من أمك يا حار ؟ فقال: هي من تعلم. فقال عبد الملك: اسكت فإنها أنجب من أمك.

وكانت أم الحارث نصرانية فلما ماتت أتاه قوم من المسلمين يحشدون له ويجلسون معه فقال: رحمكم الله انصرفوا فإن لها ولاة غيركم، وكانت سبية سباها أبوه من اليمن.

المدائني عن مسلمة بن علقمة المازني أن عبد الملك قال: العجب لخالد بن عبد الله بن خالد بن أسيد، وليته البصرة وأمرته أن يجرد السيف ويمنع المال، فبذل المال وأغمد السيف. فقال عبد الله بن فضالة الزهراني: يا أمير المؤمنين، لو جرد السيف لوجد سيوفاً مجردة، ولو منع المال لوجد أيدياً تنازعه.

المدائني عن الفضل بن سليمان أن عبد الله بن خالد بن أسيد تزوج امرأة من مراد فولدت له جارية تزوجها عبد الله بن مطيع العدوي، فدخلت المرادية على عبد الملك فقال لها: خدعتم الشيخ حتى زوج ابن مطيع فما رجا ابن مطيع وما رجوتم منه ؟ فقالت: ما رجا أبوك من بني حنطب وقالت:

وما لي لا أبكي وتبكي قرابتي	وقد نكح البيض الأوانس حنطب
بنيّ لسوداء المغابن جعدة	لها نسب في آل دومة مطنب

المدائني عن إسحاق بن ابراهيم، عن عجلان مولى عباد قال: كنت عند عبد الملك فأتاه أبو يوسف حاجبه فقال: يا أمير المؤمنين هذه بثينة جميل بالباب. فقال: أدخلها، فدخلت امرأة أدماء طويلة يعلم أنها كانت جميلة، فقال عبد الملك: يا أبا يوسف ألق لها كرسياً. فألقاه لها، فقال لها عبد الملك: ويحك ما رجا جميل منك ؟ قالت: الذي رجت منك الأمة حين ولتك أمرها.

المدائني قال: اصطرع محمد وهشام ابنا عبد الملك بين يديه فصرع هشام محمداً وقعد على صدره فقال هشام: أنا ابن الوحيد. وكانت أمه مخزومية. فغاظ ذلك عبد الملك فقال: عودا، فصرع محمد هشاماً فقعد على صدر هشام وقال: سأرهقه صعوداً، فضحك عبد الملك وضم محمداً إليه.

المدائني قال: ضرب يحيى سعيد بن العاص يوم قتل عبد الملك عمرو بن سعيد الوليد بن عبد الملك على إليته، فحبسه عبد الملك أربعين يوماً ثم قال له: يا أبا قبيح، لو قتلت الوليد بأي وجه كنت تلقى ربك ؟ قال: بالوجه الذي خلق، وكان يكنى أبا قبيح لقبح وجهه. وقال عبد الملك: لله دره أي ابن زوملة هو،

يعني عربية، وكانت كنيته أبا أيوب.

المدائني قال: حرم الحجاج أهل العراق أعطيتهم لمظاهرتهم ابن الأشعث، وكتب إلى عبد الملك يعلمه ذلك فكتب إليه عبد الملك: إنا إنما نستوجب طاعتهم بإدرار أرزاقهم، فأعطهم إياها فإن في ذلك أعظم الحجة لنا عليهم، وهبك حرمت المقاتلة لسوء الطاعة فما بال الذراري ؟! قالوا: وأتي الحجاج بحطيط الحرامي الزيات. وحرام بن كعب بن سعد بن زيد مناة بن تميم، فسأل الحجاج حطيطاً عن أبي بكر فقال خيراً، ثم عن عمر فقال خيراً، ثم سأله عن عثمان فقال: لم أولد إذ ذاك. قال الحجاج: يا بن اللخناء، أولدت زمان أبي بكر وعمر و لم تولد زمان عثمان ؟ فقال: يا بن اللخناء لا تعجل علي، إن الناس أجمعوا على أبي بكر وعمر، واختلفوا في عثمان، فوسعني أن أكله إلى الله.

قال: أما والله لألحقنك بالنار. قال: أما ترضى أن تكون ماكاً في الدنيا حتى تكون مالكاً في الآخرة، فقال الحجاج: علي بصاحب العذاب، فدفعه إليه وقال: أسمعني اليوم صوته. قال: نعم. فقال حطيط: كذب. فجعل يعذبه حتى وضع الدهق على ساقيه وكان ثقيلا فكسر إحدى ساقيه وقال: أنا فلان، فقال حطيط: لعنك الله تتكنى علي لئن كسرت ساقي. فجعل يعذبه هو ساكت لا يتكلم فأخبر الحجاج بأمره، فدعا به فحمل حتى وضع بين يديه فقال له الحجاج. أتقرأ من القرآن شيئاً ؟ فقال حطيط: بل أنت تقرأ. فقرأ الحجاج: "هل أتى على الإنسان" حتى بلغ "ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيماً وأسيرا" فقال حطيط: وأنت تقتلهم.

قال: فبينا هو يحاوره إذ وقع ذباب على بعض جراحاته فقال: حس، فقال الحجاج: يا بن اللخناء أتجزع من ذباب ولا تجزع من العذاب ؟ قال: يا بن اللخناء إني عاهدت الله عليك و لم أعاهده على الذباب. عاهدت الله لأجاهدنك بيدي ولساني وقلبي، فأما يدي فما أجد عليك أعوانا، وأما لساني فقد تسمع، وأما قلبي فالله أعلم بما فيه.

فقال الحجاج: علي بمسال الحديد فجعلت تدخل فيما بين الظفر واللحم وهو ساكت، فقال بعض جلساء الحجاج: ما أصبره، فقال حطيط: أو ما علمت أن الله عز وجل يفرغ الصبر إفراغاً، فأمر به فأدرج في عباء وضرب بالخشب حتى قتل.

حدثني عبد الله بن صالح العجلي عن محمد بن فضيل بن غزون عن ابراهيم المؤذن قال: لما صلب ماهان الحنفي طعن وهو يسبح وفي يده أربع وعشرون، فرأيته على الخشبة والعقد في يده، وكنا نرى السرج بالليل عند خشبته.

وروى أبو بكر بن عياش عن عمار الدهني قال: لما صلب ماهان أبو صالح، اجتمع الناس فنظر إلي فقال:

يا عمار، وأنت ههنا أيضاً.

قالوا: وكان الحجاج بعث إلى عبد الرحمن بن أبي ليلى فقال: بلغني أنك تشتم أمير المؤمنين عثمان، فقال: إنه ليمنعني من ذلك ثلاث آيات في كتاب الله، قوله: "للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم" إلى قوله: " الصادقون". وقوله: "والذين تبوأوا الدار والإيمان من قبلهم" إلى قوله: "رؤوف رحيم" وأنا منهم. فأعجب الحجاج قوله.

ثم إن ابن أبي ليلى أدخل على الحجاج بعد ذلك فقال: يا أهل الشام إن أردتم رجلا يشتم أمير المؤمنين عثمان فدونكم هذا. فقال عبد الرحمن مثل قوله الأول، فقال الحجاج: صدق.

حدثنا عمرو بن محمد الناقد عن هشيم، ثنا الأعمش قال: رأيت عبد الرحمن بن أبي ليلى وقد ضربه الحجاج ووقفه على باب المسجد. فجعلوا يقولون له: إلعن الكذابين، فيقول، لعن الله الكذابين ويسكت، ثم يبتدىء فيقول: علي بن أبي طالب وعبد الله بن الزبير والمختار بن أبي عبيد. فجعلت أعرف حين سكت ثم ابتدأ أنه لا يريدهم.

وحدثت عن أبي بكر بن عياش، وحفص بن غياث عن الأعمش قال: رأيت عبد الرحمن بن أبي ليلى على المصطبة. وكأن ظهره مسح أسود لضرب الحجاج إياه، وهم يقولون له: العن الكذابين، فيقول: لعن الله الكذابين ثم يسكت، فيقول: علي بن أبي طالب وعبد الله بن الزبير والمختار بن أبي عبيد، وأهل الشام حوله كأنهم حمير ما يعقلون ما يقول.

وقوم يقولون: غرق ابن أبي ليلى بدجيل، وآخرون يقولون: قتل يوم الجماجم، وكان الحجاج أقامه قبل ذلك.

قالوا: وأتي الحجاج بالفضيل بن بزوان العدواني فقال له: فضيل ؟ قال: فضيل ! قال: ألم أكرمك ؟ قال: بل أهنتني. وكان قد ولاه حين قدم العراق عملاً فهرب.

قال: ألم أقربك ؟ قال: بل باعدتني. قال: والله لأقتلنك. قال: بغير جرم ولا فساد في الأرض ؟ قال: كل ذلك قد أتيت بمعصيتي، فقتله.

ويقال إنه قال له: إذاً أخاصمك في دمي. قال: إذاً أخصمك. قال: إن الحاكم يومئذ غيرك.

قالوا: ودخل الحسن بن أبي الحسن على الحجاج بعد قتل ابن الأشعث فقال: حملت علي السلاح ؟ قال: والله ما فعلت، فأخرج الحجاج إليه كفه فمسح عليها ثم لم يأمنه فتوارى، فيقال انه توارى تسع سنين، وكان يتنقل في منازل الناس ثم لزم منزله فتوارى فيه.

حدثني خلف بن هشام وعفان قالا، ثنا هشيم بن بشر: أنبأنا العوام بن حوشب أنه لما انطلق بابراهيم التيمي إلى السجن قال له أصحابه: هل توصي إلى إخوانك بشيء تحب أن نبلغهم إياه عنك، ألك حاجة

؟. قال: نعم تذكروني عند غير الرب الذي عناه يوسف.
قال خلف: يقول تدعون الله لي ولا تشفعون لي إلى السلطان. وإن ابراهيم لم يسأل العافية مما هو فيه حتى مات في محبسه، وكان يقول: اللهم هذا بعينك، اللهم قد ترى.
وحدثنا عمرو الناقد عن سفيان بن عيينة عن أبي سعد قال: دخل علينا ابراهيم التيمي السجن فتكلم، فقال أهل السجن: ما يسرنا أنا خارجون منه.
حدثني عمر بن شبه عن الأصمعي قال: قال يزيد بن أبي مسلم: هاتوا ابراهيم: فقيل: إنهما ابراهيمان التيمي والنخعي. قال: هاتوهما جميعاً. فمات التيمي في الحبس واستخفى النخعي.
حدثنا خلف البزار، ثنا أبو شهاب عن الحسن بن عمرو قال: كان ابراهيم النخعي ليالي الحجاج متوارياُ وكان المسجد على بابه، فكان لا يخرج فيصلي فيه.
المدائني عن عامر بن حفص قال: حبس الحجاج ابراهيم التيمي فجاءت ابنته فلم تعرفه حتى كلمها، وكان الحجاج يطعم أهل السجن دقيق الشعر والرماد مخلوطين.
ومات ابراهيم التيمي في السجن فرأى الحجاج في الليلة التي مات فيها قائلاً يقول: مات في هذه الليلة رجل من أهل الجنة، فلما أصبح قال: من مات الليلة بواسط ؟. قالوا: ابراهيم التيمي قال: نزغة من نزغات الشيطان، وأمر به فألقي.
وقال الأصمعي: مات الحجاج وأبو عمرو بن العلاء مستخف فسمع أعرابياً يقول: مات الحجاج. وأنشد:

ربما تشفق النفوس من الأم ... ر فرجة كحلّ العقال

فقال أبو عمرو: ما أدري أبموت الحجاج كنت أسر أم بقوله فرجة، إنما كنا نرويها فرجة. وأتي الحجاج برجل من ثقيف كان في الأسرى فشهق فمات.
قالوا: وأتي الحجاج بأعشى همدان فقال له: يا بن اللخناء ألست القائل:

أمكن ربي من ثقيف همدان ... يوماً إلى الليل تخلي ما كان

فقد أمكن الله ثقيفاً من همدان، أو لست القائل:

وسألتني بالمجد أين محله ... فالمجد بين محمد وسعيد
بين الأشج وبين قيسٍ في الذرا ... بخ بخ لوالده وللمولود

والله لا تبخبخ لاحد بعد اليوم أبداً، ثم أمر بضرب عنقه.

قالوا: وأتي بابن القرية فقال: أئذن لي في الكلام. فقال: لا تكلمني. قال: ائذن لي جعلت فداك في ثلاث كلمات كالدهم الواقفات، فأمر به فضربت عنقه.

وقال ابن الكلبي: قتل الحجاج أيوب بن السائب بن النمر بن قاسط وأمه القرية.

وقال المدائني: أمره أن يكتب كتاباً إلى ابن الأشعث فكتبه، وقال: انطلق به إليه، فأتاه بالكتاب، فقال: أنت كتبته ؟ قال: لا. قال: بلى والله لا جرم لتكتبن جوابه فكتبه، وأتى الحجاج فلما قرأه قال: هذا كتابك. قال: أكرهني عليه. فقتله.

وقال علي بن محمد أبو الحسن المدائني عن أشياخه: قتل زياد بن مقاتل بن مسمع مع ابن الأشعث فقالت امرأته بنت شقيق بن ثور:

وما كنت أخشى أن أقوم سويةً ... لأبغي زياداً لا أموت وأكمد

وحبس الحجاج مسمع بن مالك، فكتب عبد الملك إلى الحجاج: قد كان من بلاء مالك بن مسمع عندنا ما يعفي عن ذنب مسمع ابنه، فخل عنه ووله سجستان. فولاه إياها فظهر أبو جلدة اليشكري في ولايته، وكان مستخفياً من الحجاج، فكتب إليه الحجاج في حمله، فكتب إليه: إنه قد مات، فكتب إليه: لا رحمه الله، ابعث إلي بشعره. فأراد أبو جلدة أن يشخص إليه، فقال له: أتكذبني ويلك، أقم ولا تظهر. وبعث إلى الحجاج بشعره، ثم عتب أبو جلدة على مسمع فقال:

إذا كان خيرٌ قلت قيسٌ عشيرتي ... تميل علينا جائراً في قضائكا

وإن كانت الأخرى فبكر بن وائلٍ ... تخاف عليها ردها من ورائكا

قضية سوءٍ ما قضيت ابن مالك ... أما إن ستجزى فاعلمنّ بذلكا

فأعطاه عشرة آلاف درهم فقال:

يا مسمع بن مالك بن مسمع ... أنت الجواد والخطيب المصقع

فاصنع كما كان أبوك يصنع

فقال: لعنه الله أمرني أن أفعل بأمي ما كان يفعل أبي، ويقال أن الفرزدق قال ذلك.

وقال المدائني: أتي الحجاج بطفيل بن حكيم بمسكن، فقال له: ألم أجعلك عريفاً، ألم أفعل، ألم أفعل؟ قال: بلى. قال: فما أخرجك علي ؟ قال: يا أبا محمد، إن رأيت أن تأذن لي فألحق بأهلي ؟ قال: نعم، الحق بهم. فلما ولى قال الحجاج: ما كنت أرى أن به البائس من الضعف كل هذا.

قال المدائني: قدم إلى الحجاج قيس بن مسعود فقال: ما كنت أظنك إلا عند أبي حفص، يعني عمر بن

محمد بن أبي عقيل، وكان بالبلقاء، فقال يزيد بن أبي كبشة: "أكفاركم خير من أولئكم" قال الحجاج: كأنك ترى أن ما قلت له ينجيه، وأمر به فقتل، وكانت ابنته عند عمر بن محمد بن أبي عقيل فلذلك قال له ما قال.

وقال المدائني: قتل مع ابن الأشعث عبد الله بن رزام، والحريش بن هلال، وعمر بن عتبة بن أبي سفيان، ويزيد بن كعب العدوي الشاعر، ونويرة الحميري وكان له هوىً في أهل العراق فأعلمهم بمكانهم فقتل وطفيل بن عامر بن واثلة، وغرق ابن أبي ليلى بدجيل الأهواز، ويقال قتل يوم الجماجم.

وقتل مرة بن شراحيل الهمداني الذي يقال له مرة الطيب. وقال له الحجاج: أما في الفتنة فأنت صحيح تحض وتأمر، وأما في الجماعة فأنت مريض سقيم ثم تسعى على أمير المؤمنين عثمان.

قال: وقتل بالكوفة رجالٌ من أهل الشام رأوا رأي ابن الأشعث فأعانوه ويقال تعصبوا له باليمانية.

وغرق عبد الله بن شداد بن الهاد الليثي يوم مسكن في دجيل الأهواز. ويقال قتل يوم دير الجماجم.

وأتي الحجاج بعمران بن عصام العتري الشاعر أحد بني هميم، فقال: يا عمران ألم أوفدك إلى أمير المؤمنين فوصلك، ثم قدمت فوصلتك ؟ قال: بلى ولكن باذام مولى ابن الأشعث أخرجني. قال: أما كان في حجلة امرأتك مقعد لك ؟ قال: قد فعلت فأخرجني باذام بالسيف. فهم بالعفو عنه فنظر إلى رأسه فإذا هو محلوق فقتله.

ويقال إن الحجاج أتي بعمران بن عصام فقال له: أقررت بالكفر ؟. قال: ما كفرت مذا آمنت، فقتله.

قال: وأخذ ماهان الحنفي بمكة فحمل إلى الحجاج فشد عليه قصباً قد شق ثم أمر به فجذب فقطع جلده فكان يقول أخذت في حرم الله، وأنا بعين الله، ونعم القادر الله، فألقي وقد ذهب ما على عظامه من اللحم، فرق له أصحابه وبكوا فقال: لا تجزعوا فإن كانت النار فما أيسر هذا فيما يراد بي، وإن كانت الجنة فهذا محتمل.

قال: وقتل الحجاج فيروز حصين في العذاب وكان مع ابن الأشعث، وكان الحجاج جعل في رأسه عشرة آلاف درهم وجعل هو في رأس الحجاج مائة ألف. فلما قدموا به في الأسرى من خراسان قال: احبسوا أبا عثمان، فحبس واستأداه فقال: إن أمنني على دمي لم أكتمه شيئاً. فلم يؤمنه وعذبه فقال: أخرجوني فإن لي عند الناس ودائع فأخرج وكثر الناس فقال: أيها الناس. أنا فيروز حصين فليبلغ الحاضر الغائب، إن من كان لي عنده مال فهو له. فقال لصاحب العذاب: اقتله. فوضع الدهق على صدره حتى قتله. قال: ويقال إن فيروز كتب ماله و لم يسم من هو عنده وقال: لا أسميهم أو تؤمنني على دمي، فلم يؤمنه وقتله.

وقتل الحجاج عمر بن موسى بن عبيد الله بن معمر وقال له: ألست صاحب ليلة سابور مع ابن الأشعث

وقد خضبت أيرك ؟ فقال: لقد كنت أرغب به عن عقائل نساء قومك. فقتله.

وقتل الحجاج عتبة بن عبيد الله بن عبد الرحمن بن سمرة حين حمل إليه.

وقال ابن الكلبي: أتي بعمران بن عصام فقال له: ألم أقدم العراق وأنت خامل فنوهت باسمك وزوجتك مولاتك ابنة مقاتل بن مسمع ولست لها بكفء، وأوفدتك إلى أمير المؤمنين ؟ قال: بلى. قال: فخرجت علي تضربني بسيفك مع ابن الحائك ؟. قال: قد فعلت. قال: أكفرت بخروجك علي ؟. قال: ما كفرت مذ أسلمت. فأمر به فضربت عنقه، فقال عبد الملك: أقتل عمران بن عصام بعد قوله:

وبعثت من ولد الأغر معتب صقراً يلوذ حمامه بالعوسج

مهما طبخت بناره أنضجته وإذا طبخت بغيرها لم ينضج

قال: وكان ممن خرج مع ابن الأشعث: يوسف بن عبد الله بن عثمان بن أبي العاص الثقفي فهرب، ثم مثل بين يدي الحجاج فلما رآه قال: ثكلتك أمك. قال: وأبي مع أمي. قال: أين ألقتك الأرض بعدي ؟ قال: ما قمت مقاماً أوسع من مقامي، إن الله استعملك علينا فأبينا فأبى علينا. فأمنه.

وقتل الحجاج آدم بن عبد الرحمن أخا صالح بن عبد الرحمن. ويقال بل قتله لأنه كان يرى رأي الخوارج.

المدائني عن سعيد بن عبد الرحمن عن مالك بن دينار قال: حبس الحكم بن أيوب الثقفي علي بن زيد بن عبد الله بن أبي مليكة بن عبد الله بن جدعان التيمي، والحسن يومئذ مستخف ونحن معه مستخفون فأتاه الحسن ليلاً وأتيناه فأجلسه معه على السرير، فما كنا عنده ليلتنا إلا مثل الفراريج. فذكر يوسف وإخوته فقال: باعوا أخاهم وحزنوا أباهم، ومكانه من أبيه مكانه، ثم لقي يوسف عليه السلام ما لقي من الحبس وكيد النساء ثم أداله الله منهم وأعلى كعبه. فلما أكمل أمره وجمع أهله وأقر عينه بأبويه "قالوا تالله لقد آثرك الله علينا وان كنا لخاطئين قال لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين" قال الحكم: وأنا أقول: لا تثريب عليكم، لو لم أجد إلا ثوبي هذا لسترتكم به، وأطلق علياً.

وقال المدائني: وأخذ الحجاج عبد الله بن شريك الأعور وكان خرج مع ابن الأشعث فقتله، ويقال: كان هرب إلى سجستان فبعث به إلى الحجاج.

وأتي بالمساور بن رئاب السليطي فقتله، وقال: ادفعوه إلى أهله فأهل القتيل يلون القتيلا. ويقال: قتل يوم الزاوية في المعركة.

قال المدائني: وكان الحجاج إذا قتل رجلاً فتزوجت امرأته كف عنها، وإذا لم تتزوج حبسها في قصر المسيرين، فحبس من قدر عليه من نساء أصحاب الأشعث.

وقال المدائني: لما أتي الحجاج برأس ابن الأشعث سجد وقال: كنت أحب أن أوتي به أسيرا فأقيمه

فيخطب على حزبه خطبة إبليس على أهل النار: "ان اللّه وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لي عليكم من سلطان" الآية.

المدائني عن عبد الله بن فائد، وسحيم بن حفص قالا: عرض الحجاج أهل البصرة بعد هزيمة ابن الأشعث على الإقرار بالكفر والنفاق فمن أقر ختم في يده، ومن أبى قتله فما أبى ذلك إلا ثلاثة قتلهم، فكان ابن سيرين يلبس رداءً وإزاراً و لم يكن ختم فيمن ختم، فقيل له: لو لبست قميصاً ليكون أستر ليدك فمن رآك ظن أنك قد ختمت فأبى ذلك.

حدثني عمر بن شبه عن أبي داود عن شعبة عن عمرو بن مرة قال: لما كان يوم الجماجم أراد القراء أن يؤمروا عليهم أبا البختري الطائي فقال: إني مولى فأمروا رجلاً من العرب.

وروى سفيان بن عيينة عن العلاء بن عبد الكريم قال: رآني طلحة بن مصرف وأنا أضحك، فقال: أما هذا فلم يشهد الجماجم.

حدثنا عمرو الناقد عن أبي أحمد عن عبد الجبار الهمداني عن عطاء بن السائب قال: قال لي أبو البختري الطائي يوم الجماجم: أين تفر ؟. النار أشد حراً من السيف، فقاتل حتى قتل.

أخبرنا عمرو عن أبي نعيم عن اسرائيل بن الحكم قال: سمعت ذراً بالجماجم يقول: هل هي إلا حديدة في يد كافر مفتون. قال: وقال زادان: وددت أن دماء أهل الجماجم في كسائي هذا وأنا خصمهم عند الله.

حدثني الحسين بن علي، حدثني يحيى بن آدم عن أبي بكر بن عياش عن الأعمش قال: قلت لابراهيم: مالك لا تخرج، قد خرج ابن أبي ليلى، وسعيد بن جبير، وأبو البختري. وعددت عليه، فقال: إني رجل جبان- يقول عما أقدموا عليه .

قالوا: وأتي الحجاج بكميل بن زياد، أتى به قومه، فقال له: يا عبد النخع كنت ممن سار إلى أمير المؤمنين عثمان فعفا عنك معاوية، ثم عفا عنك أمير المؤمنين عبد الملك، فأقمت في بيتك مقعداً لا تشهد للمسلمين جمعة ولا جماعة حتى إذا خلع حواك كندة خرجت فقعدت على المنبر ثم قلت: إن شر بيتين تحت أديم السماء الحكمين: الحكم بن أبي العاص، والحكم بن أبي عقيل، ثم أمر به فضربت عنقه، وهو شيخ كبير.

وقال الهيثم بن عدي: التقى الحجاج وابن الأشعث بمسكن من أبرقباذ فقتل عبد الله بن شداد بن الهاد في عسكر ابن الأشعث، وقتل معه بسطام بن مصقلة بن ميسرة الشيباني، وعمير بن ضبيعة الرقاشي، وبشر بن المنذر بن الجارود، والحكم بن مخربة العبدي، فجعل الحجاج ينظر إلى رأس بسطام بن مصقلة ويقول:

إذا مررت بوادى حيةٍ ذكرٍ فاذهب ودعني أمارس حية الوادي

قال: وبكى مسمع بن مالك بن مسمع فقال الحجاج: أجزعاً عليهم ؟ قال: لا ولكن جزعاً لهم من النار.

قال الهيثم: وكان قبل مولى زياد عاملاً لابن الأشعث على الأبلة، فأعد سفينة بحرية، فلما صار ابن الأشعث إلى الأبلة حمله في السفينة، وركب معه فمر بعباد بن الحصين وهو في ضيعته بعبادان فناداه: يا أبا مالك احملني معك فإني أخاف الحجاج، فقال ابن الأشعث: إياك أن تدنو منه فإنما يريد أن يتقرب بك إلى الحجاج، فلما لم يطمع فيه نادى: ويلك لا يغلبنك ابن الأشعث، تقرب به إلى الحجاج تأمن على نفسك وولدك، فأتوا جنابا ثم ركبوا الدواب إلى سابور، ثم مضى إلى سجستان.

قال الهيثم: وكان ممن تبع ابن الأشعث: سوار بن مرواريذ.

وقال المدائني: قال ابن عون: رأيت ابن الأشعث يخطب على منبر البصرة متربعاً ما رأيت متربعاً قط على منبر غيره، فجعل يوعد الذين ينهون عن اتباعه، فقيل: إنما يعني الحسن. قال: فأتيت الحسن فما دخل عليه أحد إلا نهاه عن اتباعه.

حدثنا عبيد الله بن معاذ عن أبيه، ثنا أبو معدان عن مالك بن دينار قال: شهدت الحسن بن أبي الحسن، ومسلم بن يسار وسعيداً ومسلماً يأمرون بقتال الحجاج مع ابن الأشعث فقال الحسن: إن الحجاج عقوبة جاءت من السماء، أفتستقبل عقوبة الله بالسيف ؟. ولكن استغفروا وادعوا وتضرعوا.

المدائني قال: قيل لابن الأشعث: إن أردت أن يقاتل معك أهل البصرة جميعاً فأخرج الحسن. فيقال إنه أخرجه كرهاً.

حدثنا أبو الربيع الزهراني عن حماد بن زيد قال: حدثني أيوب أنه أخرج كرها وكان ينهى عنه.

المدائني قال: حمل عياش بن الأسود بن عوف الزهري إلى الحجاج أسيراً، حمله يزيد بن المهلب، وكان شيخاً فقال الحجاج: هذا والله الأشمط الغمت الغفل، أتى بالعراق مذ كذا لم أوله وجهاً قط، و لم أسمع له بذكر، حتى إذا كانت الفتنة خرج فيها تابعاً لابن الحائك. ثم أمر به فقتل.

قال: وقتل محمد بن الأسود أخوه يوم الزاوية. قال: وحمل إليه أيضاً ابن لعبد الله بن عبد الرحمن بن رستم فإذا غلام حدث فقال: أصلح الله الأمير مالي ذنب. كنت غلاماً صغيراً مع أبي وأمي لا أمر لي ولا نهي. قال: وكانت أمك مع أبيك في هذه الفتن كلها ؟. قال: نعم. قال: على أبيك لعنة الله.

وروى عبد الله بن المبارك قال: كان مطرف بن المغيرة بن شعبة مع ابن الأشعث، ثم اعتزله فأتي به الحجاج بعد ذلك فقال: يا مطرف: أكفرت ؟ فقال: لم نبلغ ذلك، ولو نصرنا الحق وأهله كان خيراً لنا.

حدثنا الحرمازي، أخبرني أبو عبيدة معمر بن المثنى أن الهلقام بن نعيم التميمي قال للحجاج حين أدخل عليه، وقد حمله إليه يزيد بن المهلب: لعنك الله يا حجاج إن فاتك هذا المزوني وقد قدم قومك وأخر قومه، فوقر ذلك في قلب الحجاج وقال: أتخذني ابن المهلب جزاراً أجزر مضر وترك قومه اليمانية، وكان قد أمسك عن حمل اليمانية، وحمل غيرهم من خراسان.

المدائني قال: لما قتل عبد الملك عبد الله بن إسحاق بن الأشعث أصابوا في ثقله جارية فقالت: أنا لنافع كاتب الحجاج استودعني قوماً بالبصرة، فلما خرج الحجاج عن البصرة دلوا ابن الأشعث علي فأخذني فصرت إلى عبد الله بن إسحاق. فبعث بها إلى الحجاج فقال الحجاج لنافع: هذه جاريتك وقد وطئها ابن اسحاق المنافق فلا تقربها، فأعتقها ابن نافع وعوضه الحجاج منها خمسة آلاف درهم فتتبعتها نفسه فتزوجها وأحبلها، وغضب الحجاج عليه في سر أفشاه إلى صالح بن عبد الرحمن في كتاب أقرأه إياه وفي مائة ألف درهم ارتشاها. وبلغه أن الجارية حبلى فأرسل إلي فقطع يديه ورجليه، وسأله عن كتب كانت عنده، فقال: أين تلك الكتب ؟ فقال: في حر امك. فقطع لسانه وقال: قطعت لسانك لأفشائك سري، وقطعت يديك ورجليك للرشوة، وزعمت انك تزوجت هذه الجارية و لم تقم البينة على تزويجك فأنا ارجمك. فرجمه، وقيل: مات قبل ان يرجم.

وكان أيضاً تزوج أم ولد للحجاج بغير علمه، وكان نافع مولى لمصعب، فانضم إلى الحجاج حين ولي العراق فاستكتبه.

خبر مطرف بن المغيرة

بن شعبة الثقفي وخروجه على الحجاج

حدثني على بن المغيرة الأثرم عن أبي عبيدة قال: سمع مطرف الحجاج يقول: أرسول أحدكم أكرم أم خليفته ؟ فوجم وقال: كافر والله، والله إن قتله لحلال.

وحدثني العمري عن الهيثم بن عدي عن ابن عياش الهمداني قال: قدم الحجاج الكوفة فاستعان بولد المغيرة، فولى عروة الكوفة وأمه أمة كانت لمصقلة بن هبيرة، فلم يزل على الكوفة حتى رجع إليها الحجاج بعد رستقباذ.

وولى حمزة بن المغيرة المدائن، وأرسل إلى مطرف بن المغيرة وكان يتأله فقال له يوماً: إن عبد الملك خليفة الله وهو أكرم على الله من رسله. فوقرت في نفس مطرف. وكان يعتقد إنكار المنكر ولا يبلغ قول الخوراج، فمر شبيب بن يزيد الخارجي بالمدائن ومطرف بها فناظره فخالفه في رأيه ووافقه على الخروج.

وقال هشام ابن الكلبي عن أبي مخنف وغيره: كان بنو المغيرة صلحاء نبلاء، فاستعمل الحجاج عروة بن المغيرة على الكوفة فكتب إلى عبد الملك كتاباً ذم فيه الحجاج ونسبه إلى العجلة والتسرع إلى القتل. فبعث عبد الملك كتابه إلى الحجاج فضربه بالسياط حتى مات وذلك بالكوفة.

وقال أبو عبيدة: كتب عبد الملك إلى عروة وإلى محمد بن عمير بن عطارد يسألهما عن سيرة الحجاج. فأما محمد بن عمير فأتى الحجاج بكتابه فأقراه إياه وكتب جوابه برضاء الحجاج وإرادته. وأما عروة فكتب ينسب الحجاج إلى التجبر والعجلة في الأمور، والتسرع إلى العذاب، والإقدام على الدماء، فضربه حتى قتله بالتجني عليه.

وقال هشام ابن الكلبي: استعمل الحجاج حمزة بن المغيرة على همذان واستعمل مطرفاً على المدائن ونواحيها.

وخرج شبيب بن يزيد الخارج على الحجاج، فجاء حتى نزل مدينة بهرسير، فقال بشر بن الأجدع الهمداني لمطرف:

إني أعيذك بالرحمن من نفر	حمر السبال كأسد الغابة السود
فرسان شيبان لم يسمع بمثلهم	أبناء كل كريم النجر صنديد
شدوا على ابن حصين في كتيبته	وغادروه صريعاً ليلة العيد
وابن المجالد إذ أودت رماحهم	كأنما زلّ عن خلفاء منجود

سعيد بن المجالد بن عمير بن ذي مرار الهمداني يعني أصحاب شبيب الخارجي. فقطع مطرف الجسر بينه وبين شبيب، وبعث إلى شبيب أن ابعث إلي رجالاً من صلحاء أصحابك لأناظرهم فيما تدعو إليه، فبعث إليه قعنباً وسويد بن سليمان في آخرين.

واحتبس شبيب رسل مطرف ليكونوا رهناء عنده بأصحابه، فما دخلوا على مطرف قال سويد: السلام على من خاف مقام ربه وعرف الهدى وأهله. قال مطرف: أجل فسلم الله أولئك فقصوا علينا أمركم وخبرونا إلى ما تدعون.

فحمد الله سويد وأثنى عليه ثم قال: الذي ندعو إليه كتاب الله وسنة نبيه، وقد نقمنا على قومنا الاستئثار بالفيء، وتعطيل الحدود، والتسلط بالجبرية. فقال مطرف: ما دعوتم إلا إلى حق، ولا أنكرتم إلا منكراً، ولا نقمتم إلا جوراً ظاهراً، وأنا لكم على مثل هذا متابع فأجيبوني إلى ما أدعوكم إليه يجتمع أمري وأمركم، وتكن يدي وأيديكم واحدة.

قالوا: هات اذكر ما تريد أن تذكر، قال مطرف: أدعوكم إلى أن نقاتل هؤلاء الظلمة الغاصبين على ما أحدثوا وندعوهم إلى الكتاب والسنة، وأن يكون هذا الأمر شورى بين المسلمين يولون من ارتضوه على مثل الحال التي تركهم عليها عمر بن الخطاب، فإن العرب إذا علمت أنه إنما يراد الرضا من قريش رضوا وقنعوا، فإنما الأئمة من قريش. فقالوا: هذا ما لا نجيبك إليه يا بن المغيرة، ولو كان القوم يريدون غدراً كنت قد أمكنتهم من نفسك ففزع لها وقال: صدقت وإله موسى.

ومضى القوم فأخبروا شبيباً بقول مطرف، فطمع فيه، وبعث إليه من الغد سويداً، فانطلق ومعه رجل آخر، فقال له مطرف: من هذا الذي ليس لك دونه سر ؟ قال: هذا الشريف الحسيب، هذا ابن مالك بن زهير بن جذيمة العبسي. قال مطرف: بخ بخ استكرمت، فاربط، إن كان دينه على قدر حسبه فهو الكامل.

ثم أقبل سويد على مطرف فقال له: قد ألقينا إلى أمير المؤمنين ما قلت، وهو يقول لك: إنا لا نرى قريشاً أحق بهذا الأمر منا، فكما اختارت قريش أفضلها بعد وفاة رسول الله فكذلك لنا أن نختار أفضلنا.

وانصرف الرجلان، ثم إن مطرفاً دعا رجالاً من ثقاته ونصحائه فيهم الربيع بن يزيد الأسدي فقال لهم: إنكم نصحائي وأهل مودتي ومن أثق بصلاحه وحسن رأيه، و لم أزل لأعمال هؤلاء الظلمة كارهاً أنكرها بقلبي، فلما عظمت خطيئتهم، ورأيت هؤلاء يجاهدونهم لم أرهم أولى بمجاهدتهم مني، و لم يسعني إلا مخالفتهم ومحاربتهم إن وجدت أعواناً عليهم، ولو كان هؤلاء الخوارج أجابوني إلى الشورى، و لم يركبوا أهواءهم لقاتلت معهم، وخلعت عبد الملك بن مروان والحجاج.

فقال له يزيد بن أبي زياد مولاه: إني لا آمن أن يؤدى ما كان منكم إلى الحجاج، ويزاد على كل كلمة مما تتكلم به عشرة أمثالها، وأرى لك أن تطلب داراً غير المدائن فإن أصحاب شبيب سيتحدثون بما دار بينك وبينهم حتى يفشوو خبرك وخبرهم، ونحن مجيبون لك إلى دعوتك. فقال: إني أشهدكم أني قد خلعت عبد الملك بن مروان والحجاج بن يوسف، فمن أحب صحبتي فليصحبني ومن أباها فليذهب حيث شاء فإني لا أحب أن يتبعني من لا نية له في جهاد أهل الجور، وأني أدعوكم إلى قتالهم، فإذا جمع الله لنا أمرنا كان هذا الأمر شورى بين المسلمين يرتضون من قريش من أحبوا. فوثب إليه أصحابه فبايعوه، وأتاه قوم من أهل المدائن فبايعوه أيضاً، وارتحل حتى أتى الدسكرة، ثم خرج منها متوجهاً نحو حلوان وقد صارت معه جماعة يرون رأيه.

وبلغ الحجاج بن حارثة خروج مطرف فاتبعه وصار معه في ثلاثين، ودخل مطرف حلوان فقاتله عامل حلون قتالاً خفيفاً عذر فيه، ثم بعث إليه العامل أن اخرج من حلوان فإني أكره أن ينالك وأصحابك مني مكروه، فمضى وعرض له الأكراد فأوقع بهم، فلما دنا من همذان كره أن يدخلها فيتهم أخوه حمزة عند

الحجاج، فبعث إليه يسأله إعانته بمال وسلاح، وكان رسوله يزيد بن أبي زياد، فصرفه إليه بما سأله.
وبلغ الحجاج ذلك فعزل حمزة، وكتب إلى قيس بن سعد العجلي، وهو على شرطة حمزة بن المغيرة، بولايته همذان، وأمره أن يحبس حمزة فحبسه، فيقال إنه مات في الحبس.
وسار مطرف حتى نزل بقرب أصبهان، ثم صار إلى ناحية قم وقاشان وعلى أصبهان البراء بن قبيصة بن أبي عقيل الثقفي، وهو الذي يقول فيه الشاعر.

حوى الملك حجاج عليك كما حوى   عليك الندى والمكرمات براء

فبعث الحجاج نحواً من ألف رجل من موالي الإمارة عليهم عبيد مولاه إلى البراء، وأمره أن ينهض إلى مطرف، فأنهضهم وعدة معهم ممن قبله إليه، فقاتلوه فهزمهم حتى لحقوا بالبراء وهو بجي.
وكان مطرف قد كتب كتبه بالدعاء، وبث دعاته في النواحي فأجابه خلق من الناس، فكتب البراء إلى الحجاج: إن كانت لك في أصبهان وغير أصبهان حاجة فابعث إلى مطرف جيشاً كثيفاً يستأصله، فإنه لا تزال العصابة بعد العصابة تأتيه فقد كثرت تابعته، واستفحل أمره، واشتدت شوكته، فكتب إليه الحجاج: إذا أتاك كتابي فاخرج بمن معك، ومن بعثت به إليك من الموالي، فعسكر حتى يصير إليك عدي بن وتاد الإيادي من الري فقد كتبت إليه أن ينهض إليك ثلاثة أرباع أهل الري، فإذا صار إلى ما قبلك كان أمير الجيش كله فسمعت له وأطعت.
فوافاه عدي فيمن نهض معه، واجتمعا على قتال مطرف، والأمير: عدي بن وتاد ومعه عمرو بن هبيرة الفزاري على إحدى مجنبتيه، وهو في حد دستبى. فلما تدانوا وعظهم مطرف ودعاهم إلى مجاهدة الظلمة، ثم أمر بعض أصحابه فنادى: يا أهل قبلتنا أسألكم بالله الذي لا إله غيره لما انصفتمونا وصدقتمونا فإن الله شهيد على نياتكم أخبرونا عن عبد الملك بن مروان والحجاج بن يوسف، ألا تعلمونهما جبارين يتبعان الهوى ويزيغان عن الحق ويأخذان بالظنة ويقتلان على الغضب ؟. فقالوا من كل جانب: كذبت يا عدو الله، فقال مطرف: قل لهم: "وَيْلَكُم لا تَفْتَروا على اللّه كذباً فيسحتكم بعذاب وقد خاب من افترى" قد استشهدتكم فكتمتم الشهادة، وقال الله عز وجل: "ولا تكتموا الشهادة ومن يكتمها فإنه آثِمٌ قلبهُ".
وكان الرجل بكير بن هارون البجلي، فخرج إليه صارم مولى عدي بن وتاد فقتله بكير وجعل يقول:

صارم قد لاقيت سيفي صارما   غير كهامٍ يختلي الجماجما

ثم لقي القوم فاقتتلوا قتالاً شديداً، فانكشفت ميسرة مطرف حتى انتهت إليه، فجعل يقول: "يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سَواءٌ بيننا وبينكم ألاّ نعبد إلا اللّه ولا نُشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً

من دون اللّه فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون".

وقاتل أشد قتال حتى قتل واحتز رأسه عمرو بن هبيرة الفزاري، وذكروا أنه هو قتله، وقيل إن الذي قتله غير ابن هبيرة، وإن ابن هبيرة احتز رأسه فأوفده به عدي بن وتاد إلى الحجاج وبذلك حظي وذكر.

وقتل يزيد بن أبي زياد مولى المغيرة، وكان صاحب راية مطرف.

ثم انصرف عدي وأصحابه إلى الري، وطلبت بجيلة الأمان لبكير بن هارون فأمنه عدي، وكان رجال من أصحاب مطرف لما أحيط بهم في عسكره نادوا: يا براء خذ لنا الأمان، يا براء اشفع لنا. فشفع لهم، فنزلوا.

وأسر عدي خلقاً فخلى سبيلهم وبسط للناس الأمان فسلموا.

وأتى الحجاج بن حارثة الري فطلب إلى عدي بن وتاد فيه وهو مستخف، فقال: هذا رجل مشهور مع صاحبه، وهذا كتاب الحجاج فيه أن أحمله إليه إن كان حياً، ولا بد من السمع والطاعة له، ولولا كتابه لم أعرض له و لم أطلبه ولآمنته. فلم يظهر الحجاج و لم يزل خائفاً حتى عزل عدي بن وتاد عن الري، وقدم خالد بن عتاب بن ورقاء الرياحي والياً على الري، فكلم فيه فأمنه وظهر.

وقال بعضهم: كان مطرف يرى رأي الخوارج، وذلك باطل، إنما كان رأيه كرأي من خرج مع ابن الأشعث من القراء. قال الشاعر:

فيا فرحه ما يغرمنّ عدونا ... إذا لم يكن في دستبى مطرّف

فنعم الفتى تعشو إلى ضوء ناره ... ونعم الفتى عند القنا المتقصف

وقال بعضهم: وجه الحجاج إلى مطرف أولاً علقمة بن عبد الرحمن، ويقال خريم بن عمرو المري. وكان عمر بن هبيرة في جنده، ثم كتب إلى ابن وتاد أن يلقاه وولاه الجيش الذي بعثه إليه وقال قوم: تولى حرب مطرف خريم، وهو أوفد ابن هبيرة إلى الحجاج، وأمر ابن وتاد أثبت.

حدثني عبد الله بن صالح العجلي قال: كتب عبد الملك إلى أبي يعقوب عروة بن المغيرة، وإلى محمد بن عمير بن عطارد: إنكما من سراة أهل العراق فاكتبا إلي بسيرة الحجاج وأمره وأصدقاني عنه. فأما محمد بن عمير فأتى الحجاج بالكتاب وقال: آمرني بأمرك فكتب إليه بما أملاه الحجاج. وأما عروة فكتب: إن في الحجاج عجلة، وإن في لسانه ذرباً. فبعث عبد الملك بالكتاب إلى الحجاج، فدعا بعروة فضربه بالسياط حتى مات وذلك بالكوفة.

وقال المدائني: كتب عروة: إن فيه غربا وتسرعاً وإقداماً على الدماء. فضربه الحجاج حتى قتله.

وحدثني عباس بن هشام عن أبيه عن عوانة قال: كانت الفارعة بنت همام بن عروة بن مسعود بن معتب أم الحجاج بن يوسف عند المغيرة بن شعبة، فولدت له ابنة فماتت فخاصم الحجاج في ميراثها عروة بن المغيرة إلى ابن زياد، فأغلظ له عروة بن المغيرة وقال: مالأختك عندنا ميراث. فكان يحقد ذلك على عروة. فلما كتب فيه إلى عبد الملك بما كتب به قدم رسول عبد الملك إلى الحجاج بكتابه وعروة عنده فقال له: ما هذا الكتاب ؟ فلم يجبه. فضربه الحجاج وهو شيخ فمات تحت السياط. وقال قوم: أخرج من الكوفة فمات بظهر الكوفة من ذلك الضرب.

حدثني عمر بن بكير عن الهيثم بن عدي قال: ابتاع المغيرة بن شعبة من مصقلة بن هبيرة جارية له، وكان بها حبل، فولدت له مطرف بن المغيرة فتنازعا فيه، واختصما إلى معاوية، فقضي بالولد للمغيرة، وقذف مصقلة المغيرة فقال له: يا زان. فيقال إن معاوية أراد أن يحد مصقلة. وقال قوم إنه حده وولاه بعد ذلك طبرستان.

وقال ابن الكلبي: قدم مصقلة يريد طبرستان فرأى قبر المغيرة فقال:

إن تحت الأحجار حزماً وعزماً	وخصيماً ألد ذا مصداق
حية في الوجار أربد لا ين	فع منه النفوس رقي الراقي

وقال أبو عبيدة: هلك مصقلة بطبرستان فقدم بثقله إلى الكوفة وفيه جارية له حامل، وكانت وضيئة، فأخذها المغيرة بمال كان له عليه، فولدت له مطرفاً فكان الحجاج يقول: لو كان مطرف من ولد المغيرة ما خرج على السلطان ولكان ذا سمع وطاعة واستقامة وسلامة كما سمع حمزة أخوه وأطاع، ولكنه ابن مصقلة كما قيل وهذا الدين معروف لبني شيبان وليس فينا شيء منه بحمد الله ونعمته. وكان يقول أيضاً: ما لثقيف وهذا الرأي، إنما هذا الرأي لبني شيبان.

أمر الخوارج

في أيام عبد الملك بن مروان

أمر قطري بن الفجاءة

قالوا: لما قتل الزبير بن علي بأصبهان أراد الخوارج ان يولوا أمرهم عبيدة بن هلال، فقال عبيدة: أنا أدلكم على من هو خير مني. قطري بن الفجاءة. فبايعوه، وكان قطري يكنى أبا نعامة. فلما بلغ الأحنف خبره ومسيره من أصبهان قال: إيه أبا نعامة، ان ركب بنات سجاح وقاد بنات صهال، وأمسى بأرض وأصبح بأخرى وجبى المال، وأعطى الرجال طال أمره، فبلغ ذلك قطرياً فنادى في عسكره: ألا لا يصحبنا

إلا رجل معه بغل فكان ذلك مما ينكر على الأحنف. واسم الفجاءة فيما ذكر الكلبي عن شرقي القطامي جعونة.

وقال غيره أن اسمه مازن بن زياد بن يزيد بن حنثر بن حارثة بن صعير بن خزاعي بن مازن بن مالك بن عمرو بن تميم.

وقال الكلبي: غاب مازن بن زياد باليمن دهراً ثم أتاه فجاءة فسمي الفجاءة، وكان اعتقاد قطري وبيعته في سنة إحدى وسبعين.

وأتى قطري فارس وعليها عمر بن عبيد الله بن معمر فاقتتلا، ثم صار قطري والخوارج إلى رام هرمز وكان المهلب بن أبي صفرة بالبصرة، وقد أراد المصعب بن الزبير المصير إلى باجميرى للقاء عبد الملك فسأله المهلب أن يكون معه أو بقربه فأبى وقال: ان أهل مصرك محتاجون أن تدفع عنهم هذا العدو المطل عليهم فأنا أؤثرهم بك لأني خائف أن تسبيهم الحرورية. فسار المهلب لقتال الخوارج فلما بلغ ذلك قطرياً صار إلى كرمان فقال بعض أصحاب قطري:

هربنا نريد الخفض من غير علةٍ	وللحرب ناب لا يفل ومخلب
فقولا لأصحاب القرآن نصيحة	دعو الظن إن الظن بالناس يكذب
عسى أن تقولوا أن فينا منافقاً	يعيب أمير المؤمنين ويقصب
فلا والذي أرسى ثبيراً مكانه	ورضوى بأكناف الحجاز وكبكب
لقد قلت هذا غير طالب عيبه	وفي عيبه لو عبت جذع موعب

فلما بلغ قطرياً الشعر رجع إلى رامهرمز، فسار إليه المهلب فقاتله ثلاثة أشهر أو أكثر، وقتل مصعب بن الزبير فبلغ خبر قتله قطرياً قبل أن يبلغ المهلب، فناداهم الخوارج: ما تقولون في مصعب ؟ قالوا: إمام هدى. قالوا: فما تقولون في عبد الملك ؟ قالوا: ضال مضل. فمكثوا يومين أو ثلاثة ثم أتى المهلب قتل مصعب واجتماع الناس على عبد الملك، وورد على المهلب كتاب عبد الملك بتوليته قتال الخوارج فضجوا في عسكره، وأقبل الخوارج فوقفوا على الخندق فقالوا: ما تقولون في مصعب بن الزبير ؟ قالوا: لا نخبركم، قالوا: فعبد الملك ؟ قالوا: إمام هدى. قالوا: يا أعداء الله كان بالأمس عندكم ضالاً وهو اليوم إمام هدى. لعنكم الله يا فساق يا عبيد الدنيا. وهذا أثبت الأخبار و لم يأت قطري فارس لمكان عمر بن عبيد الله، فقتل مصعب وقطري برامهرمز.

ولاية خالد بن عبد الله

قالوا: قدم خالد البصرة والياً من قبل عبد الملك بن مروان، وجهه من الكوفة وقال له: أكرم جفريتك- يعني من نصره يوم الجفرة- فعزل خالد المهلب عن قتال الأزارقة: قطري وأصحابه، وولاه الأهواز وكور دجلة، وولى فارس ابنيه، فجعل أحدهما في بعض كورها، والآخر على باقيها، وبعث أخاه عبد العزيز بن عبد الله على قتال قطري وأصحابه، فسار إلى قطري ومعه فرسان أهل البصرة، ومعه مقاتل بن مسمع، وكان مع ابن قيس الرقيات.

وقال أبو الحسن المدائني: لما قدم خالد وذكر عزل المهلب عن قتال الأزارقة قال له ابن النعمان بن صبهان الراسبي: إن أهل البصرة قد كانوا أمنوا العدو والمهلب بالأهواز وابن معمر بفارس، وقد عزلت معمراً عن فارس فإن عزلت المهلب لم تأمن العدو.

فقال خالد: ذهب المهلب بحظ هذا المصر فأعزله وأوجه عبد العزيز إلى هذه المارقة، فقال له أمية أخوه: لا تعزل المهلب فإن ظفره لك وهزيمته عليه. فأبى إلا عزله. وكتب إلى المهلب فقدم عليه.

وتجهز خالد وشخص إلى الأهواز، وأقبل قطري والخوارج إلى الأهواز فخرج إليهم خالد ومعهم المهلب فالتقوا بكريج دينار، فقاتلوا خالداً ومنعوه من حظ أثقاله وصبر لهم يومه كله فقتل الربيع بن زياد اليشكري، وهو يومئذ على شرطته.

وتحاجزوا عند المساء فقال له المهلب: إنك لا تدري أتطول حربك أم تقصر وما ههنا لا يحمل متعلقك وسرحك، فاقطع دجيلاً فتصير بين مناذر والسوس وجنديسابور ونهرتيرى. ففعل وارتحل قطري فنزل مدينة نهرتيرى، وكان الخوارج قد بنوها وخندقوا وعقدوا جسراً وجعلوا كرسيه في الخندق.

ونزل خالد رستاقاً من مناذر يقال له برتا، فقال المهلب: ان قطرياً قد تحصن وأنت أولى بهذا منه فخندق وفرغ سفنك وأدخلها الزايذان فإني لا آمن البيات، قال: يا أبا سعيد الأمر أعجل من ذلك، فقال المهلب لبعض أصحابه: أخرجوا ما كان لكم من متاع في هذه السفن فإني أرى أمراً ضائعاً، وقال لزياد بن عمرو: خندق فخندق.

ودعا المهلب فيروز حصين إلى التحول إليه فقال: يا أبا سعيد الرأي رأيك ولكني أكره مفارقة أصحابي. قال: فكن يا أبا عثمان قريباً منا إذا رأيتك مفارقة أصحابك، فقال: أما هذا فنعم. وكان زياد يومئذ على شرطة خالد بن عبد الله، وقاتلهم الخوراج أربعين يوماً لا ينفسونهم.

وكتب عبد الملك إلى بشر بن مروان أن يمد خالداً بجيش عليه عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث الكندي ففعل، وقال بشر لعبد الرحمن: إذا فرغتم من الحرب فسر إلى الري. فقدم عبد الرحمن على خالد، وقال

المهلب لخالد: أصلح الله الأمير إنك قد أبيت أن تخندق وأن تدخل سفنك الزايذان فحول ما في سفنك فأبى.

وأقبل الخوارج يريدون أن يبيتوا خالداً، فأخذوا سفناً فيها قصب فألهبوا فيها النيران وحدروها على سفن خالد، وأقبلوا هم على خيولهم، وأحرقت النيران سفن خالد، وأقبل الخوارج حتى خالطوا عسكر خالد لا يلقون أحداً إلا قاتلوه ولا دابة إلا عقروها ولا فسطاطاً إلا هتكوه وألهبوا فيه النار، فبعث المهلب يزيد ابنه في مائة فارس فخرج من الخندق، وجاء الصلت بن الغضبان الجذعي في مائة، وجاء فيروز حصين في مائة من مواليه، وجاء عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث في مائة، فحمل الخوارج عليهم فصرع يزيد بن المهلب فقاتلوا عنه حتى ركب، وأبلى عبد الرحمن بن الأشعث فصرع، وحامى عليه قوم من همدان، وأبلى الصلت، ورماهم فيروز بالنشاب حتى أخرجوهم من العسكر، فانصرفوا على حاميتهم إلى عسكرهم، ونادى ملاحو قطري ملاحي خالد: تعالوا إلى خير الناس وأوفاهم فقال أعشى همدان لعبد الرحمن بن الأشعث في قصيدة.

ويوم أهوازك لا تنسه ليس الثنا والمدح بالبائد

وأصبح عسكر خالد كأنه حرة سوداء من الرماد، فنادى الخوارج خالداً: ذهبت سفنك لولا هذا الساحر المزوني لأهلكك الله وأخزاك.

وقال خالد للمهلب لما رأى ما بعسكره من القتلى والجرحى: كدنا نفتضح. فقال: إن لم تخندق عادوا إليك. فقال: اكفني أمر الخندق فقام المهلب بالخندق حتى أحكمه فقاتل قطري خالداً بعد أن خندق ثلاث مرات ثم ارتحل إلى كرمان. ورجع خالد إلى البصرة وخلف أخاه على الأهواز عاملاً عليها.

وقال قطري لما بلغه انصراف خالد: إن أتاكم عتاب بن ورقاء أتاكم شجاع يلقاكم في سرعان الخيل، وإن أتاكم حجازي فهو ما تريدون، وإن أتاكم ابن معمر فليست ثم مناظرة، هي دفعة إما له وإما عليه وفيها الموت. وإن جاءكم المهلب فإن ناجزتموه ناجزكم وإن طاولتموه طاولكم وهو البلاء.

قال أبو الحسن المدائني: أقام قطري وأصحابه بكرمان خمسة أشهر ثم أتوا فارس فقال له مقاتل بن مسمع: ول عبد العزيز قتال الأزارقة وانتخب له، ففعل.

وشخص عبد العزيز في ثلاثين ألفاً ويقال في خمسة وعشرين ألفاً وعلى شرطة هراسة بن الحكم، أحد بني ضبيعة بن قيس بن ثعلبة، وعلى بكر بن وائل مقاتل بن مسمع، وعلى بني تميم عبس بن طلق، وحمل عبد العزيز معه امرأته ابنة المنذر بن الجارود، واستعمل خالد المهلب على الأهواز، فأقام بها في ثلاثمائة.

وقال عبد العزيز حين سار للقاء الخوارج: زعم البصريون أن هذا الأمر لا يقوم له إلا المهلب، وسيعلمون.

وكان الخوارج بأزدشيرخره، فلما قرب عبد العزيز منهم قيل له: إن الخوارج منك قريب فانزل الناس على غير تعبئة، فما حطوا الأثقال حتى طلع عليهم سعد الطلائع في سبعمائة وهم على غير تعبئة فناوشوهم ثم ولى الخوارج منهزمين مكيدة منهم، وقال سعد: استطردوا لهم، واتبعهم عبد العزيز والناس فقيل له: ارجع واتركهم حتى يحط الناس أثقالهم. فقال: لا حتى أخرجهم من هذا الرستاق.

فانتهوا إلى عقبة فصعدوا فيها ولهم بها كمين، ثم انحدروا من العقبة واتبعهم عبد العزيز وأصحابه، وخرج الكمين عليهم فحكموا، وعطف قطري والخوارج فقاتلوهم فقال عبد العزيز لعبس بن طلق: انزل. فنزل وهو أعرج فقتل، وصبر الناس فقتل مقاتل بن مسمع وهراسة بن الحكم وسليم بن سلمة الليثي وجعفر بن داود بن قحذم أحد بني قيس بن ثعلبة، وانحاز عبد العزيز والناس واتبعوهم فقتلوهم حتى فرسخين وأسروا منهم أسرى فشدوهم وثاقاً وألقوهم في غار، وسدوا عليهم بابه فماتوا فيه.

وحوى قطري عسكر عبد العزيز وأخذوا امرأته أم حفص بن المنذر بن الجارود. وأخذوا امرأة سليم بن سلمة وغيرها. وساقوا النساء إلى عسكرهم، وضربت امرأة منهن الرجل الذي أخذها بسوارها فشجته فقتلها وكان يقال لها ريمة، ونادوا على أم حفص فتزايد عليها قوم أسلموا من المجوس وصاروا خوراد ففرض لهم الخوارج في خمسمائة خمسمائة فسموا البنجكية حتى بلغوا بها سبعين ألفاً، فغم ذلك قطري بن الفجاءة وقال: ما ينبغي لرجل من المسلمين المهاجرين أن يكون له سبعون ألف درهم، وإن هذه لفتنة، فضربها أبو الحديد العبدي فقتلها فأخذوه فقال قطري: مهيم يا أبا الحديد. قال: يا أمير المؤمنين خشيت الفتنة عليهم في هذه المشركة، قال: أحسنت، وقال آل الجارود: ما ندري أنذم أبا الحديد أم نشكره ؟ فقال رجل من الخوارج:

كفانا فتنة عظمت وجلت	بحمد اللّه سيف أبي حديد
تغالى المسلمون بها وقالوا	على فرط الهوى هل من مزيد
فزاد أبو الحديد بنصل سيف	رقيق الحد فعل فتى رشيد

وجاء يومئذ العلاء بن مطرف بن شهاب التميمي من بني عبشمس ومعه امرأتان له إحداهما عبشمية من بني ملادس والأخرى ضبية يقال لها أم جميل وهي مطلقة، وقال:

ألست كريماً إذ أقول لفتيتي	قفوا فاحملوها قبل بنت عقيل

بنت عقيل يعني العبشمية المطلقة

ولم لم يكن عودي نضارا لغودرت   بخسف غداة الروع أم جميل

فقلت لبئس الفحل فحلك إن نجا   وآل ولما يذعروا بقتيل

وما سر لي من والد ترك عرسه   فكيف إذا غب الحديث أقول

وحممتها عند الفراق ببكرة   حفاظاً وإخوان الحفاظ قليل

العلاء ابن عم عمرو القنا الخارجي، وكان قطري يقدمه أمامه، وكان العلاء يتمنى أن يلقاه عمرو فلقيه فتمثل عمرو:

تمناني ليلقاني لقيط   وذاك عليه لو يدري بلاء

ثم قال له: النجاء يا أبا الصدي.

وقال الهيثم بن عدي: كان على عبد العزيز سلاح مظاهر، فضرب ثلاثين ضربة فلم تحكم فيه، وفر فقال بعضهم: قبح الله ابن السوداء، فر وإن الدولة له.

قال: وقال ابن قيس الرقيات:

عاهد اللّه إن عدته المنايا   ليعودن بعدها حرميا

مرة يسكن الصفاح ونعما   ن ومراً ومرة في حديا

حيث لا يشهد الصفوف ولا يسم   ع يوماً لركز خيل دويا

حدثني خلف بن سالم عن وهب بن جرير عن أبيه عن عمه صعب بن زيد قال: لما توجه عبد العزيز بن عبد الله بن خالد بن أسيد إلى قطري أتاني كردوس حاجب المهلب وأنا بالأهواز فقال: أجب. فأتيته فقال: يا صعب كأني انظر إلى هزيمة عبد العزيز ولا أدري من يفجأنا وليس معي جند فأعلم أين مستقر عبد العزيز، فخرجت حتى علمت مكانه وما بينه وبين الخوارج، ثم خلفت عمران بن عزيز البرساني ليكتب بخبرهم، وإذا كردوس قد دعاني بعد مقدمي بثلاث، فأتيت المهلب وأقرأني كتاب عمران بن عزيز بهزيمة عبد العزيز، فقال: اخرج حتى تلقى الفل وتعلم العلم، فخرجت على فرسي فسمعت بالليل كلام عبد الله بن قيس الجهضمي فناديته فعرفني فقلت: ما وراءك ؟ قال: الشر. قلت: أين عبد العزيز ؟ قال: أمامك. فانتهيت إلى ماهزويان فإذا خمسون فارساً معهم لواء فجاءني رجل يركض فقلت: لمن هذا اللواء ؟ فقال: لعبد العزيز. فدنوت منه فسلمت عليه ثم قلت: أيها الأمير لا يعظم عندك ما لقيت فإنك كنت في شر جند كلهم متأمر مقاتل وهراسة والهذيل بن عمران وأشباههم، ثم تركتهم وأقبلت إلى المهلب فقلت: الخبر ما يسرك، هزم الرجل وافتضح. فقال: ويحك، وما يسرني في فضيحة رجل من قريش وفل جيش المسلمين، فوجهني إلى خالد فامتنعت وقلت أهديك إذاً إلى بيت الله، فوجه عمران بن عزيز وقال:

أنا بينه وبين أخيه فلا أجد بداً من أن أبعث إليه بخبره قال: فلما أتى خالداً فأخبره قال: كذبت وكذب من بعث بك والله لهممت أن أضرب عنقك.

قال عمران: ورد علي رجل من قريش وقال: كذبت فقلت: أصلح الله الأمير إن كنت كاذباً فاقتلني وإن كنت صادقاً فأعطني مطرف هذا المتكلم. قال: لهان ما أخطرت به دمك.

قال صعب: وقدم عبد العزيز على المهلب فوصله وكساه وبره وشخص معه إلى البصرة، واستخلف بالأهواز ابنه حبيب بن المهلب وقال: لا تبرح موضعك حتى ترى الخيل فإن رأيتها فصر إلى مناذر ثم اقطع الجسر وخذ على نهرى تيرى حتى تقدم إلى البصرة، ففعل حبيب ذلك حين رأى الخوارج وقدم البصرة فغضب خالد فتوارى حبيب حتى كلمه فيه المهلب فرضي. وتزوج حبيب في تواريه أم عباد بن حبيب وهي من بني هلال.

قال صعب: وكتب خالد إلى عبد الملك يعتذر لعبد العزيز وقال للمهلب: ما تراه صانعاً فيّ ؟ قال: يعزلك. قال: تراه قاطعاً رحمي ؟. قال: نعم قد علم أمر أمية وانهزامه عن أبي فديك، وعلم أمر عبد العزيز وأخذ خالد ما كان في بيت المال.

وقال الهيثم: لما أمد المهلب بعبد الرحمن بن محمد بن الأشعث قال له: يا بن أخي خندق على أصحابك. قال: يا أبا سعيد أنا أعلم بهم منك، والله لهم أهون علي من ضرطة جمل. فقتل من أصحابه ولقوا شراً ولقب ضرطة الجمل. فقال الشاعر:

تركت فرساننا تدمى نحورهم وجئت منهزما يا ضرطة الجمل

وقال أبو عبيدة معمر بن المثنى: أخذ خالد بن عبد الله ما كان في بيت المال بالبصرة وهو خمسة عشر ألف ألف درهم.

وقال أبو الحسن المدائني وغيره: كتب عبد الملك إلى خالد: إني عهدت إليك أن تولي المهلب قتال الخوارج، فلما ملكت أمرك آثرت هواك على طاعتي فعزلت المهلب ووليته الجباية، ووليت أخاك عبد العزيز قتال الأزارقة فقبح الله هذا الرأي، أتبعث أخاك وهو رجل من أهل مكة وتدع المهلب وقد مارسهم وقد قال الأول: يا عجبا من ضأن يطأن الرحض ولعمري لو عاقبتك على قدر جرمك لأتاك مالا بقية بعده، ولكني ذكرت الرحم فحجزني ذلك فجعلت عقوبتك عزلك.

وانتشر الخوارج وقال بعض الشعراء:

بعثت غلاماً من قريشٍ فروقةً وأخرت ذا الرأي الأصيل المهلبا

أبى الذم واختار الوفاء وجربت مكيدته عند الأمور وجرّبا

وقال أبو الحديد:

عبد العزيز فضحت جيشك كلهم وتركتهم صرعى بكل سبيل

من بين ذي رمقٍ يجود بنفسه وملحبٍ وسط الغبار قتيل

هلا صبرت مع الشهيد مقاتلٌ إذ رحت منتكث القوى بأصيل

وتركت جيشك لا أمير عليهم فارجع بعارٍ في الحياة طويل

ونسيت عرسك إذ تقاد سبيّة تبكي العيون برقةٍ وعويل

وقال أيضاً:

عبد العزيز فضحت جيشك كلهم وتركتهم صرعى بكل مكان

لم رأيت أبا نعامة مقبلاً نجيت نفسك والرماح دوان

ورأيت سعداً في الطلائع معلماً ولصالح شغباً على الأقران

أسلمت عرسك والبلاء موكلٌ بالقول عند تشاجر المران

وقال آخر:

ألا ليت شعري ما يقولن خالدٌ إذا الخيل جالت والقنا يتشاجر

أتصبر إنّ الصبر ليس سجيةً لآل أسيدٍ يوم تسبى الحرائر

وقال الفرزدق:

فرّ اللئيم عن اللقاء مبادراً وثوى بمنزله الكريم مقاتل

وقال عبد الملك: نكس خالد الرماح على عواليها، وترك المهلب المعروف بالنجدة والعلم بمكيدة الخوارج فجعله جابياً، وولى أخاه قتال الخوراج.

قالوا: ولما عزل عبد الملك خالداً جمع لبشر بن مروان الكوفة والبصرة وكتب إلى بشر: إنك أخو أمير المؤمنين يجمعك وإياه مروان، وإن خالداً يجمعني وإياه أمية فانظر لنفسك وانظر المهلب فإنه حازم صارم فوجهه إلى هذه المارقة، وأمده من أهل الكوفة بثمانية آلاف.

فغم بشراً كتابه في المهلب وقال: والله لأقتلنه فإنه زبيري. فقال له موسى بن نصير: أصلح الله الأمير. إن للمهلب بلاءً وطاعةً ووفاءً. فسار بشر من الكوفة إلى البصرة في آخر سنة أربع وسبعين وأول سنة خمس وسبعين، فكتب موسى بن نصير وعكرمة بن ربعي، وكان عكرمة واداً للمهلب، إلى المهلب: أن الق

الأمير متذللاً. فلقيه على بغل أو حمار وسلم مع العامة ثم انصرف.
ودخل بشر البصرة وعن يمينه الهذيل بن عمران البرجمي وعن يساره الحكم بن المنذر بن الجارود. فقال المهلب: أميركم يشرب. قد كنا نكتفي بشاهد واحد وهذان شاهدان، وكانا يشربان.
ولما نزل بشر دار الإمارة سأل عن المهلب وقال: لم أره. فقيل: بلى، قد أتاك وهو شاك. فأراد أن يوجه إلى قطري وأصحابه عمر بن عبيد الله بن معمر أو غيره فشاور، فقال له أسماء بن خارجة: ما ولاك أمير المؤمنين إلا لتعمل بما ترى. فقال له عكرمة: لا تفعل ولكن راجع أمير المؤمنين وأعلمه شكاة المهلب.
فأوفد بشر إلى عبد الملك وفداً يخبرونه بوجع المهلب وأن قوماً من أهل البصرة يغنون أكثر من غنائه.
فخلا بعبد الله بن حكيم المجاشعي فقال له: إن لك عقلاً ورأياً فمن ترى لمحاربة هذه المارقة ؟ قال: المهلب. قال: إنه وجع. قال: ليس وجعه مما يمنعه النهوض. فقال عبد الملك: أرى بشراً يريد أن يعمل بما عمل به خالد.

فكتب إليه يعزم عليه أن يوجه المهلب، فأرسل بشر إلى المهلب أن انتخب من أحببت. فقال: أنا عليل لا أقدر على الاختلاف، فأمر فحمل إليه الديوان فانتخب فلم يجز له بشر عامة من انتخب، وكلمه في قوم فخلفهم.
واستقرض الملهب مالاً من التجار وغيرهم وبلغت الجعالة بين الناس أربعة آلاف، وسار إليهم المهلب فلقوه فأبلى يزيد بن المهلب وهو ابن احدى وعشرين سنة فنفاهم عن الأهواز، فأتوا فارس، فوجه إليهم المهلب ابنه المغيرة فقيل هل: طاول هؤلاء الكلاب وإلا فإنك ستلزم بيتك إن فرغت من أمرهم. فقال: ليس هذا من الوفاء.
ثم رجع الخوارج إلى رامهرمز فكتب بشر بن مروان إلى خليفته بالكوفة أن اعقد لعبد الرحمن بن مخنف على ثمانية آلاف، فلما قدم عليه قال له: قد علمت حالك عندي فكن عند ظني بك، انظر هذا المزوني فخالفه وأوعده، فخرج ابن مخنف وهو يقول: سبحان الله، ما طمع فيه هذا الغلام مني ؟ يأمرني بتصغير شيخ من شيوخ قومي وساداتهم ؟.
ونزل ابن مخنف رامهرمز، ومات بشر واستخلف خالد بن عبد الله بن أسيد فرفض أهل الكوفة وقدموا إلى بلدهم، وأراد أهل البصرة أن يفعلوا مثل ذلك فقال لهم المهلب: لستم تقاتلون لبشر ولا لخالد إنما تقاتلون عن بلادكم فلا تصنعوا كما صنع أهل الكوفة فتحربوا عدوكم عليكم. فأقام بعضهم ورجع بعض عصاة إلى البصرة، وأقام المهلب في البصريين وأقام عبد الرحمن في ناس من أهل بيته لم يكن بقي معه أحد غيرهم.

فلما قدم الحجاج العراق والياً في سنة خمسة وسبعين بدأ بأهل الكوفة فخطبهم وهددهم وتوعد العصاة بالقتل وقتل بعضهم، وخطب أيضاً بالبصرة وألحق الناس بالمهلب.

وكتب الحجاج إلى المهلب: إن بشراً رحمه الله بعثك مستكرهاً لنفسه عليك وأراك غناءه عنك، وإني أعرفك حاجتي إليك فناهض عدوك ودع العلل، فوالله لأحشرن الناس اليك حشراً، فإني آخذ السمي بالسمي، والولي بالولي، حتى يكون قليل من يأتيك ككثير من فارقك، واقتل من خفته على المعصية فإني قاتل من قبلي من أهل الطبقة، فإن المعاصي يجمع خلتين: إنه أخل بمركزه ووعر المسلمين من نفسه، وهو أجير لهم ليس له أن يأخذ إلا بقدر ما عمل.

فكتب إليه المهلب: ليس معي إلا مطيع، وإن الناس إذا أمنوا العقوبة صغروا الذنوب، وإذا يئسوا من العفو كفرهم ذلك، فهب لي الذين سميتهم عصاة، وإنهم فرسان أرجوا أن يقتل الله بهم هذا العدو، إن شاء الله.

وقال المهلب لجنده: لقد جاءكم وال ذكر، ولولا هو كنا بمضيعة، فعليكم بالجد والحزم فإني رأيت البقاء مع الحزم، واستشعروا الصبر واعلموا أنه ليس كل غاز يؤوب إلى أهله، ولا كل سلامة تدوم لأهلها، وهؤلاء القوم يقاتلونكم عن دينكم ودنياكم، فأكرموا الخيل تنفعكم عند اللقاء، وأطيلوا الرماح فإنها قرون الخيل، وعيروا الجبان يأنف، فلقد رأيتني مع الحكم بن عمرو بخراسان وإنا لنعد في سرعان الناس رجالا ما يعابون إلا بالجبن وإن خلفهم لرجالاً ما يحتملون إلا على الناس، فما رجع مستقدم، ولا تقدم مستأخر، والرجال يحمل غثها سمينها، والشجاعة ضراوة.

فلما كثر الناس قال قطري وهو برامهرمز: من يأتي سردن فإنه حصينة. قال عبيدة: بل نأتي سابور، ونخرج إلى كرمان، فنمضي منها إلى حيث نشاء.

فأتى قطري سابور، ونزل المهلب أرجان، وبعث خيلاً إلى سردن، وخاف أن يأتيها الخوراج فيتحصنون بها، وليست بمدينة، ولكنها جبال وعقاب منيعة.

وأتى المهلب كازرون فخندق، وأقبل عبد الرحمن بن مخنف في جند أهل الكوفة فترل ناحيةً، وذلك أن الكوفيين أبوا أن يخالطوا البصريين، فأرسل إليه المهلب: إما أن تترل معنا وإما أن تخندق على نفسك، فأرسل إليه: خنادقنا سيوفنا.

وكتب الحجاج إلى المهلب وهو بكازرون: إنك أقبلت على جباة الخراج وأبطأت عن قتال العدو، وقد هممت أن أولي عباد بن حصين أو عبيد الله بن حكيم المجاشعي ما وليتك قبل خروج الناس عليك.

وقال الهيثم بن عدي: استبطأ الحجاج المهلب فكتب إليه: إنك مزوني وابن مزوني، وللعجب منك حين تهاب قتال الأزارقة، كأنك ترى أنك ترث الأرض، وايم الله لئن لم تناجزهم لأبعثن إليك من يحملك على مكروه أمرك والسلام.

فكتب إليه: أما بعد فقد جاءني كتابك وإني لمزوني وابن مزوني ما أنكر ذلك، وإنما مزون عمان سمتها العجم بذلك ولكن الأمير أصلحه الله من قبيلة قد ادعت إلى حمير وعدة قبائل وما استقر قرارها بعد، كانوا بقية ثمود ثم انتموا إلى وحاظة من حمير، ثم إلى أياد، ثم إلى عدوان، ثم إلى قسي بن منبه.

فلما قرأ الحجاج الكتاب تبسم ثم قال: أفحشنا للرجل فأفحش.

وقال المدائني: كتب إليه الحجاج: إنك تشاغلت بالجباية عن الحرب. فكتب إليه: إن من ضعف عن الجباية فهو عن القتال أضعف، ولو وليت غيري ممن سميت لرجوت أن يكونا للولاية أهلاً في فضلهما وجرأهما، وذكرت أني رجل في الأزد من أهل عمان وإن شراً من الأزد قبيلة تنازعتها ثلاث قبائل، ثم لم يستقر لها بيت في واحدة منهن.

وناهض المهلب قطرياً وأصحابه بكازرون في شهر رمضان سنة خمس وسبعين، وقاتل معه جعفر بن عبد الرحمن بن مخنف في رجال من أهل الكوفة، وجعل عبيدة يقاتل وهو يرتجز.

إني لمذك للشراة نارها ... ومانع مما أتاها دارها

وغاسل بالطعن عنها عارها

ثم تراجعوا، وأبلى يومئذ عياش الكندي، وكان من الفرسان، فلما هلك قال المهلب: لا وألت أنفس الجبناء بعد عياش، وكان من رجال المهلب.

وقتل مرة الكنان فبكى قطري حين أتي برأسه. فقيل له: أتبكي على رجل من أهل النار ؟ فقال: إنما يبكى على أهل النار. وكان من قومه.

وأبلى أهل الكوفة يوم كازرون حتى عرف مكانهم، وحذر المهلب الحريش ومن معه من بني تميم البيات فقال الحريش للمغيرة بن المهلب: يا أبا خداش، لا تخافن البيات من قبلنا. وأراد الخوارج أن يبيتوهم فلم يقدروا. وقال الحريش:

وجدتمونا وقّراً أنجادا ... لا كشفاً ميلاً ولا أوغادا

وترجل أبو الأحوص صاحب مسعود وخزيمة بن نصر العبسي وغيره وقاتلوا فقتل ابن مخنف وارتث جعفر ابنه.

وكان عبد الرحمن بن مخنف يلقب في قول بعضهم ضرطة الجمل، ويقولون إنه القائل ما حكي عن ابن الأشعث من قوله: هم علي أهون من ضرطة جمل.

وقال حميد بن مسلم يرثي ابن مخنف:

إن يقتلوك أبا حكيم غرة فيما يشد ويقتل الأبطالا
ولمثل قتلك هد قومك كلهم من كان يحمل عنهم الأثقالا

في أبيات.

وقال سراقة بن مرداس البارقي:

أعيني جودا بالدموع السواكب وكيفاً كراس شنة مع راكب
وكونا بخير قبل قتل ابن مخنف وكل فتى يوماً لبعض المذاهب
أمات دموع الشيب من أهل مصره وعجل في الشبان شيب الرواسب

وقال أيضاً:

ثوى سيد الأزدين أزد شنوءة وأزد عمان وهو رمس بكازر
وصابر حتى مات أكرم ميتة بأبيض من بيض الحديد البواتر

في أبيات.

وواقع المهلب الخوارج مرات صابرهم فيها وصابروه، وكان الحجاج يوجه إليه من يأخذه بالقتال والمناجزة، ووجه إليه أميناً فكتب بخبره، فقال الشاعر في أبيات له:

فمن مبلغ الحجاج أن أمينه زياداً أصابته رماح الأزارق

وكتب الحجاج إلى عتاب بن ورقاء، فصار إلى المهلب، فكان على جيش عبد الرحمن بن مخنف.

وقال المدائني: بعث الحجاج الجراح بن عبد الله إلى المهلب مستحثاً بالمناجزة، فقال المهلب: يا أبا عقبة ما تركت حيلة أبلغ بها مكيدة إلا وقد أعملتها، وقد انتهيت في قتال هذا العدو إلى العذر، ولكن البلاء أن يكون الرأي لمن يملكه دون من يعمله.

وكتب الحجاج إلى المهلب: إنك أقمت في خندق احتجاراً من قتال هؤلاء المارقة، فكتب إليه المهلب: أتاني كتابك تعتب فيه علي على الخندقة، والخندقة حرز وحصن، وقد خندق رسول الله صلى الله عليه وسلم بأمر الله، وذكرت أنك لا تظن في جبناً وعاتبني معاتبة الجبناء، وأوعدتني كما يوعد العاصي، فسل الجراح عما رأى. فلما سأل الجراح قال: لم أر كما رأيت، اقتتلوا ثلاثة أيام ضرباً بالسيوف وطعناً بالرماح وخبطاً بالعمد، فقال: لشد ما مدحته أبا عقبة، فقال: كلا ولكنه يحتمل المصيبة ويلقى كثيراً بقليل.

ولم يزل عتاب بن ورقاء مع المهلب حتى بعث إليه الحجاج في القدوم للقاء شبيب، فأعطي المهلب أهل

البصرة و لم يعط أهل الكوفة، فسأله عتاب إعطاءهم فلم يفعل فقال له: حدثت إنك شجاع فرأيتك جباناً، وحدثت أنك جواد فرأيتك بخيلاً. فقال المهلب: يا بن اللخناء. فقال: إنها لمعمة مخولة، فغضبت بكر بن وائل للمهلب فشتم بسطام بن نعيم بن هبيرة أخو مصقلة عتاباً للحلف، وكان المهلب كارهاً لحلف بكر والأزد، فلما رأى أن بكراً قد نصرته سره ذلك الحلف، فلم يزل بعد ذلك يشدده ويقويه.
وغضبت تميم البصرة لعتاب، وأزد الكوفة للمهلب. فمشى المغيرة فيما بين أبيه وعتاب حتى أصلحه وكلم أباه فأعطى الكوفيين، فقال رجل من أهل هجر:

ألا أبلغ أبا ورقاء عنا	فلولا أننا كنا غضاباً
على الشيخ المهلب إذ جفانا	للاقت خيله منا ضرابا

وكان عتاب وبنو تميم يحمدون المغيرة، وقال عتاب: إني لأعرف فضله على أبيه.
وكان مقام عتاب مع المهلب ثمانية أشهر يقاتل معه الخوارج بفارس وكرمان، واتخذ المهلب ركب الحديد، وكانت ركب الناس الخشب. فكان الفارس يضرب ركابه فيقطع الركاب وقدمه، فقال عمران بن عصام العنزي من عنزة:

ضربوا الدراهم في إمارتهم	وضربت للحدثان والحرب
حلقاً ترى منه مراكلها	كمناكب الحمالة الحرب

وقالوا: كان قتال المهلب قطرياً وأصحابه بسابور وما حولها ثمانية عشر شهراً. ووجه المهلب بشر بن مالك إلى الحجاج وأمر له بجائزة فردها وقال: إنما الثواب بعد الإستحقاق، فلما ورد على الحجاج قال له: كيف تركت المهلب ؟ قال: أدرك ما أمل وأمن ما خاف. فقال: كيف هو لجنده ؟ قال: والد رؤوف. قال: كيف جنده له: قال: ولد بررة. قال: هذه السياسة.
وكان مع قطري رجل حداد يقال له أبزي يتخذ نصالاً مسمومة. فذكر ذلك للمهلب فقال: أكفيكموه. فكتب المهلب إلى أبزي: إنه قد أتتنا نصالك، وقد بعثت إليك بألف درهم فزدنا نصالاً. وبعث بالكتاب فألقي في عسكر قطري فأخذ الكتاب فدفع إلى قطري، فسأل أبزي عن الخبر فقال: لا أدري ولا أعلم ما هذا الكتاب. فأمر به فقتل. فقال له عبد ربه: قتلت رجلاً بغير ثقة ولا بيان يحل به دمه ؟ فقال: يمكن هذا أن يكون حقاً، ويمكن أن يكون باطلاً. فرأيت في قتله صلاح الدين أمثل، وللإمام أن يحكم بما يرى في الصلاح، وليس للرعية أن ترد عليه. فتنكر له عبد ربه وجماعة وخالفوه في القول و لم يفارقوه.
وأرسل المهلب رجلاً نصرانياً وقال له: إذا رأيت قطرياً فاسجد له فإن نهاك فقل إنما سجدت لك، ففعل النصراني ذلك فقال لها قطري: مه. إنما السجود لله. قال: ما سجدت إلا لك، فقال رجل من أصحابه:

قد عبدك من دون الله، وقرأ: "إنكم وما تعبدون من دون اللّه حصب جهنم". فقال قطري: قد عبد النصارى المسيح ابن مريم، وإنما عنى الله الأصنام، فقام رجل فقتل النصراني فقالوا: قتلت ذمياً، فاختلفوا.
ودس المهلب أيضاً إلى عسكر قطري رجلاً فقال: أرأيتم إن خرج إليكم رجلان مهاجران فمات أحدهما قبل أن يصل إليكم، وأتاكم الآخر فامتحنتموه فلم يجز المحنة فما تقولون في الميت ؟ فقال بعضهم: الذي مات مؤمن وهذا كافر حتى يجيز المحنة. وقال آخر: هما كافران. واختلفوا فارتحل قطري إلى اصطخر في سنة سبع وسبعين في صفر.

وقال المهلب: الاختلاف أشد عليهم وأسرع في هلاكهم فلا تشغلوهم بالقتال عن الجدال، فتركهم شهرين، ثم أتاهم باصطخر، فتركهم شهراً وهم يخوضون في اختلافهم. فقال لهم صالح بن مخراق مولى قريش، ويقال مولى آل مصقلة الشيباني: إن المسلم يغضي عينه على ما يقذيها، ويدع حسناً لقبيح، وصغيراً لمخافة كبير، والله إن الأمر الذي أتيتموه لقبيح، وفي الفتنة المحق، فاتقوا الله وراجعوا سلامة صدوركم فقد أطمع اختلافكم عدوكم فيكم.

وخرج عمرو القنا فنادى: يا معشر المحلين، هل لكم في الطراد فلا عهد لنا به منذ حين. وقال:
ألم تر أنا مذ ثلاثون ليلةًقريبٌ واعلاء الكتاب على خفض فتصايحوا، وأبلى المغيرة بن المهلب وصرع فاستنقذه فرسان من الأزد، واستاق الخوارج سرح المهلب فقال الرجل الذي كان يسوق السرح:

نحن خدعناكم بسوق السرح وقد نكأنا القرح بعد القرح

فلحق ذلك الرجل بنو المهلب فردوا السرح.

وأراد الخوارج هدم فسا، فاشتراها أزادمرد بن الهربذ منه بمائة ألف درهم، وارتحل الخوارج يريدون كرمان فنزلوا صاهك الصغرى وهي من اصطخر، فاتبعهم المهلب فقاتلهم، فقال غلام لأكتل بن منجب السدوسي: اليوم آتيك بجارية من جواريهم. فقال أكتل:

أخلاج إنك لن تعانق طفلةً سرحاً بها الحادي كالتمثال
حتى تلاقي في الكتيبة مقدماً عمرو القنا وعبيدة بن هلال
وترى المقعطر في الكتيبة معلماً في عصبةٍ قسطوا مع الضلال

والمقعطر عبدي.

قالوا: ومضى قطري إلى السيرجان، ورجع المهلب إلى فارس، وبعث الحجاج كردماً على فارس فسأل المهلب الحجاج أن يجعل له كوراً سماها ففعل، فكان المغيرة والرقاد يجبيان ولا يعطيان الجند فقال رجل من بني ضبة:

ولو علم ابن يوسف ما نلاقي — من البلوى بمنزلة الطراد
بكت عيناه من شفقٍ علينا — وأصلح ما استطاع من الفساد
قرونا أرض فارس في جمادى — إلى شعبان نقطع كل واد
ترى الشيخ البجال على حمارٍ — يسوق به فتىً رخو النجاد
ألا قل للامير جزيت خيراً — أرحنا من مغيرة والرقاد

وفي كردم يقال:

لو رآها كردم لكردما — كردمة العير أحسّ الضيغما

قال ابن الكلبي: وهو كردم بن مرثد الفزاري.

وأتى المهلب السيرجان فقاتل قطريا بها فصعد قطري المنبر فخطب فقال: أما بعد فإني أحذركم الدنيا فإنها حلوة نضرة، حفت بالشهوات ورامت بالقليل، وتحببت بالعاجلة، وتحلت بالآمال، وتزينت بالغرور، لا يدوم خيرها، ولا تؤمن فجيعتها، غرارة ضرارة، وحائلة زائلة، ونافذة بائدة، أكالة غوالة، لا تعدو إذا هي تناهت إلى أمنية أهل الرغبة فيها، والرضى عنها أن تكون كما قال الله تبارك وتعالى: "كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيماً تذروه الريا وكان اللّه على كل شيء مقتدرا". مع أن امرءاً لم يكن منها في حيرة إلا أعقبته بعدها عبرةً، ولم يلق من سرائها بطناً إلا منحته من ضرائها ظهراً، ولم يطله فيها رخاء إلا هطلت عليه مزنة بلاء، وحري إذا أصبحت له منتصرة أن تمسي له خاذلة متنكرة. وإن جانب منها اعذوذب وحلا، أمر عنها جانب وأوبأ، وإن أتت امرءاً من غضارتها ورقاً أردفته من نوائبها تعباً، ولم يمس امرؤ منها في جناح أمن إلا أصبح منها في قوادم خوف. غرارة غرورها فيها، فانية فان من عليها، لا خير في شيء من زادها إلا التقوى. من أقل منهما استكثر مما يؤمنه، ومن استكثر منها استكثر مما يوبقه ويطيل حزنه ويبكي عينه، كم من واثق بها قد فجعته، وذي طمأنينة قد صرعته، وذي احتيال قد خدعته، وكم ذي أبهة فيها قد صيرته حقيراً، وذي نخوة قد ردته ذليلاً، ومن ذي تاج قد أكبته لليدين والفم. سلطانها ذل وعيشها رنق، وعذبها أجاج، وحلوها صبر، وغذاؤها سمام، وأسبابها رمام، حيها بعرض موت، وصحيحها بعض سقم، ومنيعها بعض اهتضام، ملكها مسلوب وعزيزها مغلوب، وسليمها منكوب وجارها محروب، مع أن وراء ذلك سكرات الموت وهول المطلع، والوقوف بين يدي الحكم العدل "ليجزي الذين أساؤوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى" ألستم في مساكن من كان أطول منمكم أعماراً وأوضح منكم آثاراً وأعد عديداً وأكثف جنوداً، وأشد عنودا، تعبدوا للدنيا أي تعبد، وآثروها أي إيثار، فظعنوا عنها بالكره والصغار، فهل يعلم أن الدنيا سمحت لهم نفسا بفدية، أو

أغنت عنهم فيما أهلكتهم بخطب، بل قد أرهقتهم وضعضعتهم بالنوائب، وقد رأيتم شكرها لمن دان لها وآثرها وأخلد إليها حين ظعنوا عنها لفراق الأبد إلى آخر المسند، هل زودقم إلا الشغب أو احلتهم إلا الضنك أو توردت بهم إلا الظلمة أو أعقبتهم إلا الندامة ؟. فهذه تؤثرون ؟ أم على هذه تحرصون أم إليها تطمئنون ؟

يقول الله تبارك وتعالى: "من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون". فبئست الدار لمن أقام فيها، فاعملوا وأنتم تعلمون أنكم تاركوها لا بد، فإنما هي كما وصفها الله عز اسمه باللعب واللهو، وقد قال: "أتبنون بكل ريعٍ آية تعبثون وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون وإذا بطشتم بطشتم جبارين". وقد "قالوا من أشد منا قوة" ثم حملوا إلى قبورهم فلا يدعون ركبانا، وأنزلوا فلا يتركون ضيفاناً. وجعل لهم من الضريح أجنانا ومن التراب أكفاناً. ومن الرفات جيراناً. وهم جيرة لا يجيبون داعياً ولا يمنعون ضيماً. إن أخصبوا لم يفرحوا وإن قحطوا لم يقنطوا جميع وهم آحاد، جيرة وهم أبعاد متناؤون لا يتزاورون. حلماء قد ذهبت أضغانهم. وجهلاء قد ماتت أحقادهم. لا يخشى فجعهم ولا يرجى دفعهم. وكما قال الله عز اسمه: "فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلا وكنا نحن الوارثين" استبدلوا بظهر الأرض بطناً، وبالسعة ضيقاً، وبالأهل غربة، وبالنور ظلمة، فجاؤوها كما فارقوها حفاة عراة فرادى غير أن ظعنوا بأعمالهم إلى الحياة الدائمة وإلى خلود الأبد. يقول الله عز وجل: "كما بدأنا أول خلق نعيده وعداً علينا إنّا كنا فاعلين" فاحذروا ما حذركم الله، واشفعوا بمواعظه، واعتصموا بحبله، عصمنا الله وإياكم بطاعته، ورزقنا وإياكم أداء حقه.

ثم ارتحل قطري إلى جيرفت واتبعه المهلب فنزل على ليلتين منه، واختلفوا فقال المهلب: الاختلاف خير لنا وشر لهم، وإنما اختلفوا لأنهم اتهموا عبيدة بن هلال بامرأة رجل قصار رأوه يدخل إليها بغير إذن متفضلاً فأخبروا قطريا فقال لهم: إنه عبيدة وموضعه من الدين والعسكر ما علمتم، فقالوا: لا نصالح على الفاحشة. فقال قطري لعبيدة: إني على أن أجمع بينك وبينهم فلا تكاشف مكاشفة البذيء ولا تخضع خضوع المريب.

ثم جمع قطري بينهم وبينه فقرأ عبيدة: "إنّ الذين جاؤوا بالإفك عصبة منكم" الآية. فبكوا وقاموا إليه فعانقوه وقالوا: استغفر لنا. فقال عبد ربه الصغير مولى بني قيس بن ثعلبة: والله لقد خدعكم، وإنه لكما ظننتم. فبايع عبد ربه منهم قوم وتنكروا لقطري وخالفوه في أمور فعلها نقموها عليه، فصار مع عبد ربه نصف عسكر قطري، فحارب عبد ربه قطرياً فقتل من أصحابه قوم، وقتل صالح بن مخراق مع عبد ربه، فكره قطري أن يقيم بين عسكرين يقاتلانه، فخرج يلتمس منزلاً، فجاء المهلب حتى نزل في معسكره، وقاتل عبد ربه وكتب إلى الحجاج بالخبر وأشار عليه أن يوجه إلى قطري من يتبعه ويحاربه.

وألصق المهلب بعبد ربه، وقال عبد ربه: يا معشر المهاجرين إن قطرياً وعبيدة هربا رجاء البقاء ولا سبيل إليه فالقوا عدوكم غداً فإن غلبكم على الحياة فلا يغلبنكم على الموت.

فقاتلوا المهلب فقتل عبد ربه، وطلب بعض أصحابه الأمان، ومضى عمرو القنا إلى خراسان فمات بها، ومضى بعضهم إلى سجستان.

وحوى المهلب عسكر الخوارج وأصاب به جرحى فدفع كل جريح إلى قومه، ورجع المهلب إلى جيرفت فقال: الحمد لله الذي ردنا إلى الخفض والدعة فما كان عيشنا بعيش.

قالوا: ونظر المهلب في مجلسه إلى قوم لا يعرفهم فقال: ما أشد عادة السلاح. قالوا: فقام في الحين فلبس سلاحه وقال: خذوا هؤلاء فأخذوا فقال: من أنتم ؟ قالوا: أردنا غرتك لنقتلك. فقتلهم.

وقال الهيثم بن عدي: اعتزل عبد ربه الصغير في أربعة آلاف، والصغير مولى بني قيس، واعتزل عبد ربه الكبير في سبعة آلاف، والكبير مولى بني يشكر. فقاتل المهلب الصغير فقتله وأصحابه، ومضى قطري وبقي الكبير فقاتله المهلب فقتله أيضاً.

قالوا: وكتب المهلب إلى الحجاج: أما بعد فالحمد لله الكافي بالإسلام فقد ما سواه، الذي أوجب المزيد بالشكر، وقد كان من أمرنا وأمر عدونا ما قد انتهى إليك خبره بعد مطاولة نلنا فيها منهم ما لم ينالوه منا، وأدنيت السواد من السواد حتى تعارفوا بالوجوه وقاتلت الأغمار، وكان ما يسوءهم منا دون ما يسرهم، وما يسرنا منهم فوق الذي يسوءنا حتى وقع بينهم الإختلاف ففرق الله أهواءهم وألقى بأسهم بينهم، ولم يزل الله يمحصنا ويمحقهم، وينصرنا ويخذلهم حتى بلغ بنا وبهم الكتاب أجله، فقطع دابر الكافرين والحمد لله رب العالمين.

فكتب إليه الحجاج: إن الله صنع بالمسلمين خيراً، وقد فرغتم من عدوكم وأراحكم من كثير مما كنت فيه، فاقسم ما أفاء الله عليك فيمن معك. فأما قطري وعبيدة فنحن كافوك إياهم بعون الله وتوفيقه، فأقبل وليكن معك بنوك وفرسانك ولا تطمعن أحداً في اللحاق بأهله دون قدومك علي، واستخلف على كرمان.

فاستخلف ابنه يزيد وأوصاه بالقصد والمبالغة في الأمور، وكان قد بعث بكتاب الفتح مع كعب الأشقري، ومرة بن تليد الأزدي، أزد شنوءة، فأنشد كعب الحجاج قوله:

يا حفص إني عداني منكم السفر ..

فقال الحجاج: أخطيب أنت أم شاعر ؟ فقال: خطيب شاعر.
قال: فأخبرني عن بني المهلب. قال: المغيرة سيدهم وأشجعهم وحسبك بيزيد فارساً وما يستحي شجاع أن يصد عن مدرك، وما لقي الأبطال مثل حبيب، وعبد الملك موت ناقع، وكفاك ببأس مفضل ونجدته، وأسخاهم قبيصة، ومحمد ليث عاد. ثم قال لابن تليد: أخبرني كيف كانت حالكم. قال: كنا إذا لقيناهم بعفونا وعفوهم يئسنا منهم وإذا لقيناهم بجدنا طمعنا فيهم، قال: فكيف كان بنو المهلب ؟ قال: حماة السرح نهاراً وفرسان البيات. قال: فأين السماع من العيان ؟ قال: السماع دون العيان. قال: فأيهم أفضل ؟ قال: هم الحلقة المفرغة لا يعرف طرفاها. فوصل بني المهلب وأهل البلاء والغناء ممن كان معه وزادهم في الأعطية.
وولى الحجاج المهلب خراسان، وكان المهلب يقول: ما أُحب أن لي مكان بيهس بن صهيب ألف فارس. فقيل إنه ليس بشجاع ؟ قال: لكنه سديد الرأي عاقل حذر فهو لا يدع الإحتراس والسؤال، ولو وجد مكانه ألف فارس شجاع لناموا حتى يحتاج إليهم.
قالوا: وعقد الحجاج لسفيان بن الأبرد الكلبي على خمسة آلاف، وضرب على أهل الكوفة بعثاً فخرجوا في عشرة آلاف عليهم الصباح بن محمد بن الأشعث، ويقال إسحاق بن عبد الله بن الأشعث. وجعل على جماعة الناس سفيان بن الأبرد وقال له الحجاج: أتدري إلى أين تسير ؟ قال: نعم إلى كلاب النار. قال: إعلم أنك تسير إلى أُسد الشرى وسباع العرب، يرون الموت قربةً إلى الله ويعدون الفرار كفراً فعليك بالصبر والعزم، والقوم أصحاب مناجزة فإياك والعجلة.
فصار سفيان وجعل على ساقته البختري بن عامر العاملي، فمر بالأخضر بن ورقاء الكلبي ومصاد بن زياد القيني والوازع بن دوالة الكلبي وهم سكارى فشتموا البختري، فقال له سفيان: هلا ضربت أعناقهم. وبلغ الحجاج أمرهم فحلق على أسمائهم فكتب فيهم فردها.
قالوا: ومضى قطري وأصحابه نحو مكران وما وراءها، فأوقع ببعض من كان بأطراف بلاد السند، ومضى بعض أصحابه إلى سجستان، وأتى عبيدة بن هلال قومس فصار بها، ومضى قطري في طريق خراسان ثم عدل يريد الإصبهبذ بطبرستان.
وبلغ الإصبهبذ ذلك فبعث إلى قطري والخوارج يسألهم عن أمرهم فقال قطري: نحن قوم أنكرنا جور سلطاننا فتنحينا عنه، ونحن قوم لا نظلم أحداً ولا نغصبه ولا نترل عليه إلا برضاه. فأذن له الإصبهبذ في دخول بلاده، فدخل قطري طبرستان في أصحابه، فلما استقر بعث إلى الإصبهبذ يدعوه إلى الإسلام أو الجزية فقال الإصبهبذ لرسله: قولوا له أنت رجل دخلت بلادنا طريداً فآويناك وأحسنا إليك فتبعث إلي بمثل هذه الرسالة. فأرسل إليه: إنه لا يسعني في ديني غير هذا. فصار الإصبهبذ إليه ليخرجه عن بلده

فأوقع به قطري وهزمه وقتل ابنه وأخوه، فخرج حتى أتى الري.

وغلب قطري على طبرستان وأى الطبري سفيان بن الأبرد وقد وافى الري فوضع يده في يده، وحدثه بما صنع قطري وقال له: أنا أُدخلك عليه في طريق مختصرة حتى توافيه وهو لا يشعر بك ففعل، فقاتل سفيان ومن معه قطرياً وأعانه الإصبهبذ وأساورته، وجعل قطري يقول: أنا أبو نعامة اليخ الهبل. أنا الذي ولدت في أُخرى الإبل.

فطعنه رجل من أهل الشام في صدغه وانهزم أصحابه، فاتبعهم أهل الشام فقتلوا منهم خلقاً.

وعثر بقطري فرسه فاندقت فخذه ووقع بين صخرتين، وانتهى إليه باذام مولى عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث فقال باذام: الساقط بين الصخرتين والله قطري. فقال قطري: يا فاسق أنا غزيلكم، أو قال: أرينبكم الذي تطلبون، فاختلف وباذام ضربتين فكانت ضربه قطري ضعيفة. وضربه باذام فأبان يده ثم احتز رأسه، وادعى سورة بن الحر التيمي أنه قتله معه.

وقال المدائني: انهزم قطري فإذا هو قد دفع إلى غيضة، فنزل عن فرسه فقاده حتى انتهى إلى موضع فيه ماء فأقام عنده وذلك في الصبح. وأقبل سورة بن الحر، وباذام مولى الأشعث بن قيس وشنطيز الثعلبي أحد بني ثعلبة بن يربوع يطلبون قطرياً فأخبروا بأن رجلاً دخل الغيضة فطلبوه فيها فوجدوه قائماً يصلي وقد نزف دمه وضعف. فقال لهم: أنا غزيلكم الذي تطلبون، فقال سورة لباذام إن شئت أتيته أنا من بين يديه وأتيته أنت من خلفه، وإن شئت فأنا آتيه من خلفه وأنت من بين يديه. فتلقاه سورة من بين يديه وأتاه باذام من خلفه فقتلاه واحتزا رأسه فاختصما فيه، ووافاهم أبو الجهم الكلبي فأخذ الرأس وأتى به سفيان فبعث به إلى الحجاج.

ويقال إن سورة كان يقول: رأيت قطرياً وهو على فرس وخلفه امرأة على بغل فاتبعته أنا وباذام ونحن لا نعرفه فحملت على المرأة فلما غشيتها نادت: يا أمير المؤمنين. فعطف علي وشددت عليه فعانقته فسقطنا إلى الأرض فصار تحتي، وندر سيفه من يده فزحف يريد السيف وصارت إبهامه في يد فرضضتها حتى فتر، وجاء باذام فضرب بالسيف بطنه واقتتلت أنا وباذام على رأسه.

ويقال إن الذي قتل قطرياً عثمان بن أبي الصلت.

المدائني قال: قال معاوية بن محصن الكندي: رأيت قطرياً وقد صرع في الشعب وهو يهوي ولا أعرفه، وحوله نسوة وفيهن عجوز، فحملت عليهن فانتضت العجوز السيف فضربتني فجرحتني في عنقي فضربتها فقتلتها.

وأتى علج قطرياً وهو لا يعرفه فقال له: اسقني ولك سلاحي، فمضى العلج فحدر عليه صخرة فأوهنت

فخذه، وأتاه سورة فقتله، واختصم في رأسه سورة وباذام وشنطيز الثعلبي، وعثمان بن أبي الصلت، وجعفر بن عبد الرحمن بن مخنف، والصباح بن محمد بن الأشعث.

وقال جعفر بن عبد الرحمن: إني لما عرفته لم تكن لي همة إلا قتله لأنه قتل أبي.

قالوا: ولما قتل قطري وبعث سفيان برأسه، أتى قومس وبها عبيدة بن هلال فحصره ثلاثة أشهر، ويقال خمسة أشهر، ووضع عليه المنجنيق، فضاقوا وضجروا وصاروا إلى ذبح دوابهم وأكل لحومها، وأكلوا الجيف، فذلك حين قال عبيدة:

إلى الله أشكو ما نرى بجيادنا ... بقومس هزل مخهن قليل
فإن يك أفناها الحصار فربما ... تشحط فيما بينهن قتيل

وأشرف عبيدة عليهم فقال: أقرأ عليكم أو أنشدكم ؟ فقالوا: أنشد. فقال: يا فسقة. قد علمت أنكم تؤثرون الشعر على القرآن.

ونادى سفيان: من خرج فهو آمن. فهم قوم بالخروج كثير.

وقال الهيثم: نادى سفيان: يا معشر الأزارقة لا أمان عندي إلا لمن جاء برأس صاحبه فكان الرجل منهم يخاف ابنه وأخاه على قتله لما هم فيه من الجهد.

وخرج عبيدة فاقتتلوا في يوم الجمعة إلى المساء، ثم دخل عبيدة القصر، وانهزم قوم من أصحابه فلم يدخلوا فاتبعهم سفيان، فأخذ منهم أسرى فقتلهم. وقال عبيدة:

وما زالت الأقدار حتى قذفنني ... بقومس بين الفرخان وصول
إلى الله أشكو لا إلى الناس أشتكي ... بقومس إذ فيها الشراة حلول

ووعظ أصحابه فقال: إنما هي ساعة حتى تظفروا أو تستشهدوا، فخرجوا وشدوا على سفيان وأصحابه وقالوا الحصن لمن غلب، فكشف أصحاب سفيان، ثم بقي في جماعة من أهل الشام ليسوا بالكثير فقال سفيان: يا أهل الشام، يا أهل الصبر والحفاظ، يا حماة الأدبار أعن هؤلاء الأكلب تفرون، فتراجع الناس فقال سفيان: الأرض، فنزلوا جميعاً وصبروا فقال عبيدة: يا إخوتي روحوا إلى الجنة، وقاتل فقتل عبيدة وعامة أصحابه واستأمن الباقون، فأمنهم سفيان، وكان من المستأمنة حطان الأعسر فقال شعراً:

بليت وأبلاني الجهاد وساقني ... إلى الموت، إخوان لنا وأقارب
شريت فلم أقتل وما زلت لم أصب ... كذاك صروف الدهر فينا عجائب

واستأمن قيس الأصم وهو قيس بن عسعس ويلقب الخشبي، ثم كف بصره فمر بقوس فقال لقائده: أي موضع هذا ؟ فأخبره. فقال: قف بي أبكي إخواني. وقال:

ذكرت الشراة الصادقين بقومس وذكري لهم مما يهيج شجوني

وكان الحجاج كتب إلى سفيان يستبطئه في أمر عبيدة ويصغر ما عمل فقال: أن أبا محمد لا يرضي حتى جعل المحسن مسيئاً والمطيع عاصياً.

قالوا: وكانت عند قطري العيوف بنت يزيد بن حبناء التميمي فولدت ابنتين: مزنة والفجاءة فأخذ سفيان الفجاءة فبعث بها إلى عبد الملك، فصارت إلى العباس بن الوليد فولدت له الحارث والمؤمل فلما ولي عمر بن عبد العزيز وأمر برد سبايا الأزارقة قال للعباس: خل سبيلها أو تزوجها إن رضيت، فتزوجها برضى منها، ويقال: إنه كانت عند العباس نعامة بنت قطري.

قال المدائني: وفد على عمر بن عبد العزيز قوم من بني مازن في أمر بنت قطري، فقال شاعرهم:

أتيناك زواراً ووفداً إلى التي أضاءت فما يخفى على الناس نورها

أبوها عميد الحيّ عمرو وأمها من الحنفيات الكرام قبورها

فإن تك كانت حيث كانت فإنها لها أسرة منا كرام نفيرها

فقال عمر: قد تزوجها برضاها. وقال رجل للحارث بن العباس؛ أنت ابن الخلائف الأربعة. قال: ويحك من الرابع ؟ قال: قطري.

وقال الهيثم: بعث سفيان برأس قطري ورؤوس أعلام من معه إلى الحجاج مع الوليد بن بخيت الكلبي.

أمر أبي فديك عبد الله بن ثور

أحد بني قيس بن ثعلبة بن عكابة

قالوا: ولما خالف نجدة بن عامر من خالفه من اصحابه، ولوا أمرهم أبا فديك عبد الله بن ثور، وكانوا بايعوا قبله ثابتاً التمار، وكانت أخته عند أبي فديك، ثم قالوا: لا يقوم بأمرنا إلا رجل من العرب، وجعلوا الاختيار إليه فاختار لهم أبا فديك.

فلما ولي خابد بن عبد الله بن خالد بن أسيد البصرة، وجه أخاه أمية بن عبد الله إلى أبي فديك وهو بالبحرين فهزمه أبو فديك وفضحه فقال الفرزدق:

جاؤوا على الريح أو طاروا بأجنحة ساروا ثلاثاً إلى الجلحاء من هجرا

حدثنا أبو خلف بن سالم المخزومي، ثنا وهب بن جرير بن حازم عن أبيه عن عمه صعب بن زيد ومحمد بن أبي عيينة قالا: خرج أبو فديك بالبحرين فلقيه أمية بن عبد الله فهزمه، فركب أمية فرساً له جواداً

كان يقال له المهرجان فدخل البصرة عليه في ليلتين أو ثلاث. فقال يوماً وهو بالبصرة: لقد سرت على المهرجان إلى البصرة فدخلتها في ليلتين أو قال ثلاث، فقال له بعضهم: هذا المهرجان، فلو ركبت النوروز لم تسر ليلة حتى تدخلها.

حدثنا خلف بن سالم وأحمد بن إبراهيم الدورقي قالا، ثنا وهب بن جرير عن أبيه عن صعب بن زيد وغيره قالوا: خرج أبو فديك بالبحرين فبعث إليه خالد أخاه أمية فهزم، فبعث إليه عمر بن عبد الله بن معمر فقتله، وقالوا: هزم أبو فديك أمية، وهزم قطري عبد العزيز بن عبد الله بالأهواز بعد ذلك وفضحه، فقال الفرزدق:

كل بني السوداء قد فرّ فرّةً ... فلم تبق إلا فرة عند خالد

فضحتم قريشاً بالفرار وأنتم ... لدى الحرب أنكاس قصار السواعد

قال الهيثم: هزم أبو فديك أمية بن عبد الله، فندب عبد الملك عمر بن عبيد الله بن معمر وضم إليه عبد الرحمن بن عضاه الأشعري، ومعه وجوه أهل الشام، وقدم الكوفة فأجلسه بشر على سريره وأكرمه، فسار فواقع أبا فديك فانهزم أهل البصرة، وقاتل في أهل الشام والكوفة فقتل أبا فديك.

وكان لقاؤه إياه بالبحرين، وكان أبو فديك في اثني عشر ألفاً. وكان على جند البصرة عباد بن الحصين، ونصب رأس أبي فديك في رحبة البصرة.

قال ودعا عمر أعشى همدان فقال له: يا أبا المصفح سر إلى بشر بالفتح، وقل فيه شعراً.

وقال ابن الكلبي: كان محمد بن موسى بن طلحة بن عبد الله التيمي، وعمر بن موسى بن عبيد الله بن معمر يتباريان في فعلهما وكانا في جيش عمر بن عبيد الله. فقال عبد الله بن شبل البجلي يفضل عمر بن موسى بن عبيد الله بن مع، وهو الذي خرج مع ابن الأشعث بعد، فقتله الحجاج:

تباري ابن موسى يا بن موسى ولم تكن ... يداك جميعاً تعدلان له يدا

تباري امرءاً احدى يديه مفيدة ... وإحداهما تبني بناء مشيدا

ووجه محمد بن موسى بعد إلى شبيب فقتله شبيب.

وقال أبو اليقظان: كان على جيش أهل البصرة مع عمر بن عبيد الله حين توجه إلى أبي فديك: عمر بن موسى بن عبيد الله بن معمر، وكان أخا عبد الله بن عامر لأمه، أمهما: دجاجة بنت الصلت، وعلى جيش أهل الكوفة: محمد بن موسى بن طلحة بن عبيد الله.

وقال العجاج:

لقد شفاك عمرو بن معمر ... من الحروريين يوم العسكر

وقع امرئ ليس كوقع الأعور

يعني عبد الله بن عمير الليثي، وكان قد وجه إلى بعض الخوارج نجدةً أو غيره فهزم.

وقال العجاج في أرجوزته في عمرو أولها:

قد جبر الدين الإله فجبر هذا أوان الجد إذ جد عمر

وصرح ابن معمر لمن ذمر

المدائني عن أشياخه قالوا: بويع عبد الله بن ثور أبو فديك أحد الحرقيين، والحرقيان: تيم وسعد ابنا قيس بن ثعلبة بن عكابة سنة إحدى وسبعين، فأقام باليمامة ستة أشهر، ثم فتك به مسلم بن جبير وهو من أهل الحجاز لمخالفته إياه في رأيه، وقوله بقول نجدة فوجأه اثني عشرة وجأة، وقال:

خالفت قومي في دينهم خلاف صبا الريح جاءت جنوبا

أرجي الإله وغفرانه ويرجون درهمهم والجريبا

فقتل مسلم، وحمل أبو فديك فبرئ من جراحاته، وقيل لأبي فديك: لا خير لك في المقام باليمامة مع بني حنيفة لأنا لا نأمنهم عليك، فخرج أبو فديك إلى البحرين فأقام بجواثا، فوجه إليه مصعب بن الزبير محمد بن عبد الرحمن الإسكاف، فقال أبو فديك: يا معشر المسلمين ان الله قد أذهب عنكم نزغ الشيطان وأنقذكم من فتنة نجدة وصيركم إلى أنصاركم فأنتم تناضلون عن دين الله، أو ما سمعتم ما أعد الله للمجاهدين في سبيله حين قال: "والذين جَاهَدوا فِيْنَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وإنَّ الله لَمَعَ المُحْسِنينْ" فمن كان الله معه فهو المفلح المنجح. وقال: "ولا تَحْسَبَنَّ الذين قُتلوا في سَبيل الله أمواتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُون". فاشروا أنفسكم تنالوا الفوز كما وعدكم واصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون، وإياكم والفرار من الزحف فتبوؤا بسخط من الله ويحل عليكم غضبه، ثم ناهضهم.

وكان البصريون يرون أن ابن الإسكاف إذا عاين أبا فديك قتله. فلم ينتصف النهار حتى انهزم البصريون، ومضى ابن الإسكاف منهزماً.

وأقام أبو فديك بالبحرين، وسار مصعب إلى الكوفة، وتشاغل بأمر عبد الملك ولقائه، فجمع زياد بن القرشي جمعاً من أهل البحرين ومن أهل البصرة، ولقي أبا فديك محتسباً فقال له السائب بن الأخرس من ولد اللبوء بن عبد القيس: ويحك يا بن القرشي لا تخرج إليهم، فأبى وسار إليهم، فلقيه عمارة الطويل، وهو عمارة بن عقبة بن مليل، وعمير بن سلمى من ولد زيد بن يربوع بن ثعلبة بن الدؤل بن حنيفة، فقتل ابن القرشي، وتفرق أصحابه فقال الشاعر:

تمتع قبل جيش أبي فديكٍ وقبل عمارة الرجل الطويل

أغر صميدع يمشي إذا ما | تتابع مشية الجمل الصؤول
وقبل الطير ينهش لحم قوم | بمعترك البياذق والخيول
وقبل معرس لا شك فيه | سينأى بالخليل عن الخليل
فما لك حين تقطع صرّتاج | إلى البيض العباهر من سبيل
لقاء الأُسد أهون من لقاء | به التحكيم يشهر بالأصيل

قالوا: وقتل مصعب في سنة اثنتين وسبعين، وقدم خالد بن عبد الله بن خالد بن أسيد بن أبي العيص والياً على البصرة من قبل عبد الملك، فوجه أخاه أمية بن عبد الله في سنة ثلاث وسبعين إلى أبي فديك في اثني عشر ألفاً، وأبو فديك في سبعمائة. فلما تواقف الجمعان وتراءيا قال أبو فديك: قد ترون عدوكم والقليل المنصور خير من الكثير المخذول فاستنصروا ربكم واصبروا لعدوكم.

فاقتتلوا ثم تحاجزوا على السواء، ثم عاودوا القتال فقاتلوهم حتى زالت الشمس، فكمن لهم ثابت التمار في مائة واستطرد الخوارج، واتبعهم أمية فلما جاوز موضع الكمين خرجوا عليهم وهم يحامون من خلفهم، وكر أبو فديك وأصحابه فصبر البصريون ساعة ثم انهزموا، وصرع أُمية فحماه عون بن عبد الرحمن بن سلامة التيمي، وحوى أبو فديك عسكرهم.

ومضى أُمية والناس منهزمين إلى البصرة، وأصاب أمية في طريقه ضر، ولم يجد طعاماً، فلقي أعرابياً فقال له عون: ما معنا دراهم ولكني أعطيك درعي هذه وتبيعني ناقتك ؟ قال: لا أب لك، أتراها تساوي ناقتي ؟ قال: والله لهي خير منك ومن أبيك ومن ناقتك، فأخذ الدرع ونحروا الناقة فأصابوا منها، فأكثر أمية الأكل فقال عون: ألم ينهك الطبيب عن لحم الجزور ؟ قال: ويحك اسكت فليس هذا بموضع مزاح.

فلما قدموا البصرة لزم أمية بيته استحياء من الناس حين هزم وفر، فأتاه خالد بن صفوان بن عبد الله بن الأهتم التميمي فقال: الحمد لله الذي خار لنا عليك ولم يخر لك علينا، أما والله لقد كنت حريصاً على الشهادة طالباً لها، ولكن الله أبى إلا أن يزين بك مصرنا ويؤنس بك وحشتنا، ويجلو بك غمنا.

وقال الفرزدق يذم أُمية:

أُميّ هلا صبرت النفس إذ جزعت | فتبلي الله عذراً مثل من صبرا
طاروا سراعاً وما سلوا سيوفهم | وخلفوا في جواثا سيدي مضرا
ساروا على الريح أو طاروا بأجنحة | ساروا ثلاثاً إلى الجلحاء من هجرا
لو كنت إذ جشأت ربّطت جرونها | ولم تولّهم يوم الوغى الدبرا

يعني بسيدي مضر: عبد الله بن الحشرج الجعدي، والحارث بن عباس بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب، ارتث بجواثا فحمل إلى البصرة فمات بها ودفن، ويقال بل مات هناك فحمل في صندوق إلى البصرة.

وقال بعض الشعراء:

يوما بني خالد يومان قد فضحا   يوم بفسّا ويوم كان في هجرا

وقال آخر لأمية:

أما القتال فلا أراك مقاتلاً   ولئن فررت ليعرفن الأبلق

وقال أبو الحسن علي بن محمد المدائني وغيره: بلغ عبد الملك أمر أمية بن عبد الله فقال لعمر بن عبيد الله بن معمر بن عثمان بن عمرو بن كعب بن تيم بن مرة، وهو عنده: اكفني أبا فديك. فقال: لا يمكني. فقال عبد الملك: والله لتسيرن إليه. قال: والله لا أفعل. قال: فارفع حسابك لفارس وصححه. قال: نعم. وقام فاتبعه روح بن زنباع الجذامي فقال: يا أبا حفص. ترد على أمير المؤمنين ويقسم فتقسم. قال: يا أبا زرعة إن أخاه بشراً بالكوفة وابن عمه خالد بن عبد الله بالبصرة وهما حائلان بيني وبين ما أريد من النخبة، وأن يندبا معي إلا ضعفة الناس من لا يحامي على دين ولا حسب، فإن صبرت قتلت ضيعة وإن أنحزت افتضحت.

فرجع روح إلى عبد الملك بقول عمر، فأرسل إليه عبد الملك فرده وقال: يا أبا حفص، لو رأيت بين عيني أمير المؤمنين وتداً أما كنت نازعه وواقياً أمير المؤمنين مكروهه ؟ قال: بلى والله يا أمير المؤمنين بنفسي وأهلي ومالي. قال: فإن أبا فديك وتد بين عيني فاكفني أمره. قال: نعم إن أعفيتني من عنت بشر وخالد قال: فليس لأحد عليك سلطان في بلد تتزله وليس لك أن تصلي بالناس ولا تجبي الخراج وأنت مسلط على الدواوين فانتخب من شئت وكم شئت، وكتب له بذلك إلى بشر، فسار حتى قدم الكوفة على بشر، فأكرمه وأقعده معه على السرير وقال: والله لو لم يكتب إلي أمير المؤمنين بما كتب فيك، لقويت، فهذه الدواوين فانتخب من شئت، وهذا المال فأعطهم، فانتخب من كل ربع ألفين وأعطاهم أعطياتهم، فلم يكلمه بشر في تخليف أحد، وقال لهم: سيروا إلى البصرة، واستعمل عليهم محمد بن موسى بن طلحة بن عبيد الله.

وساروا وتزوج عمر بالكوفة عائشة بنت طلحة فأقام عندها أياماً، ثم اتبع محمد بن موسى وحمل معه عائشة فقدم البصرة وأوصل كتاب عبد الملك إلى خالد، وانتخب من أهل البصرة ثلاثة عشر ألفاً، فكلمه خالد في قوم ليخلفهم فأبى ذلك فمنعه خالد الديوان، فقال بيهس بن صهيب الجرمي: إن بشر بن مروان

لم يكلمه في تخليف أحد، وهو أخو أمير المؤمنين، و لم يطمع في ذلك. فقال: إنه لم يدع لي محدثاً ولا سميراً.

فكف خالد حتى استكمل ما أراد فقال العجاج:

لقد سما ابن معمر لما اعتمر | مغزى بعيداً من بعيد وصبر

في نخبة الناس الذي كان افتخر

ثلاثة وستة واثني عشر | ألفاً يجرون من الخيل العكر

فقال عمر بن عبيد الله: لا حول ولا قوة إلا بالله.

وكان المهلب بالبصرة قد عزله خالد عن قتال الأزارقة وولى قتالهم عبد العزيز أخاه، فأثبته عمر فيمن يخرج معه، وأثبت عباد بن الحصين، فقال له المهلب: إني رمد العين فاختر أي بني شئت ليخرج معك واعفني. قال: لا.

وعسكر عمر، وأخذ الناس في الجهاز، وأعطاهم أعطياتهم ورأى المهلب فقال له: مر ابنك المغيرة بالتجهز والخروج مكانك فإن أهل مصرك محتاجون إليك يا أبا سعيد.

وبعث خالد إلى عمر بمال فقال: اقسمه في فرسانك، فقسمه فيهم وفضل المغيرة بن المهلب، وقال: أما والله لأربحن عليه ربحاً رغيباً.

فتجهز الناس بجهاز حسن وأداة كاملة، وخرجوا إلى المعسكر بالنحيت، وخرج المغيرة في ثلاثين مجففاً فعرضهم عمر، فجاءه الصلتان العبدي فقال: حاجتك ؟. قال: أنشدك. قال: إياك أن تكلمني في أن أعفي أحداً من وجهه هذا. قال: ما كنت لأرغب بأحد عنك. قال: هات. فأنشده:

لن يعدم الخابط المؤمل إن | حل بدار ابن معمر ورقا

لا يخلف الوعد حين تسأله | ولا يرى عابساً ولا غلقا

في أبيات.

فقال: حاجتك ؟ قال: ما تركت لي حاجة غير صحبتك. قال: ما أرغبني في أن تصحبني ولكني أكره أن أعرضك فقال الصلتان:

رأيت صروف الدهر ليس يفوتها | صغير ولا ذو حنكة يتفكر

فكم من شجاع طاول قد نجا | ومن حائد عن عمره لم يعمر

قال: صدقت، وأمر له بأربعة آلاف درهم وحمله على فرس وأعطاه سلاحاً، وصير عمر بن عبيد الله على أهل الكوفة جميعاً وهم ثمانية آلاف محمد بن موسى بن طلحة، وعلى ربع أهل المدينة: بشر بن جرير بن عبد الله البجلي، وعلى ربع كندة وربيعة: إسحاق بن الأشعث وعلى ربع تميم وهمدان: محمد بن عمير بن عطارد ويقال مطر بن ناجية ويقال عبد الرحمن بن سعيد بن قيس الهمداني، وعلى ربع مذحج وأسد: زياد بن النضر الحارثي وابنه، ويقال زحر بن قيس الجعفي، وكان على جماعة أهل البصرة: عمر بن موسى بن عبيد الله بن معمر، وعلى خمس أهل العالية: سنان بن سلمة بن المحبق الهذلي، ويقال سعيد بن أسلم بن زرعة الكلابي. وعلى بكر بن وائل: أبو رهم بن شقيق بن ثور السدوسي. وعلى تميم: عباد بن الحصين، وإليه الخيل كلها. وعلى عبد القيس: الحكم بن مخربة. وعلى الأزد: المغيرة بن المهلب.

وحمل عمر بن عبيد الله معه عائشة بنت طلحة، وخلف رملة بنت عبد الله بن خلف فلم يحملها معه، فقال الشاعر:

أنعم بعائش في عيش له أنق ... وانبذ برملة نبذ الجورب الخلق

ويروى: عيش بعائش عيشاً غير ذي رنق.

وقال أيضاً:

من يجعل الديباج عدلاً للزيق ... بين الحواري وبين الصديق

كبكرة مما تباع في النوق

قالوا: وسار بالناس فلما نزل الوفراء- وجه خمسمائة فارس وبعث معهم الفعلة وقال: احفروا لي خندقاً فإذا فرغتم فأعلموني.

فتقدموا فحفروا له خندقاً وأعلموه فارتحل فنزل الخندق وقدمهم ليحفروا في المنزل الآخر خندقاً، فلم يزل يصنع ذلك وتحفر له الخنادق وينزلها حتى أتى هجر ونزل جواثا في خندق وأبو فديك بالمشقر في جمع كثير من الأعراب كانوا ضووا إليه بعد هزيمة أمية، فقال أبو فديك لأصحابه: قد أتاكم هؤلاء القوم فمن أحب لقاء الله فليقم ومن أراد الدنيا فليذهب حيث شاء فهو في حل.

فتفرقوا عنه، وبقي فيما بين التسعمائة إلى الألف، وعمر في أحد وعشرين ألفاً. وقال رجل لأبي فديك: إن عطية بن الأسود بريء من نجدة فإن كنا مخطئين فنجدة محق، وإن كنا محقين فعطية لنا ولي فما تقول ؟. قال: ليس هذا يوم نظر. عدونا قد نزل فنجتمع على حربه حتى يحكم الله بيننا، ثم ننظر فيما سألت عنه، قال: فعلام أسفك دمي ؟ ولحق باليمامة.

وجعل عمر على الحرس: عباد بن الحصين الحبطي فخرج ليلة فتلقاه المغيرة بن المهلب فقال عباد: من هذا

؟ وقال المغيرة: من هذا ؟ فضربه عباد فشجه. فقيل له: هذا المغيرة فكف عنه، فغضبت الأزد للمغيرة ولبسوا السلاح فجاء رجل من هناءة من الأزد وكان متألها فقال له رجل من قومه: اتق الله. فقال: اغرب، تقول لي اتق الله وقد ضرب ابن المهلب ؟.

وبلغ عباداً فقال: أعلى هذه الحال ونحن بإزاء العدو، ولئن كانت بيننا صيحة ليهلكن هذا الجيش. فمشى إلى المغيرة فاعتذر إليه، ويقال إنه إنما كان هذا أيام ما يرنا بنهر تيرى وهم يقاتلون الأزارقة، وضرب عباد المهلب فغضبت الأزد، والأول أثبت.

وأقام عمر بن عبيد الله ثلاثة أيام ثم أتاهم أبو فديك فترل بإزائهم وخندق خندقاً دون خندق وخرج عمر من معسكره ينظر ومعه رجلان من بني حنيفة فلقوا رجلاً من أصحاب أبي فديك فحملوا عليه فقال: سبحان الله أما تستحيون ؟ ثلاثة على فارس واحد ؟ ليبرز إلى رجل رجل. فبرز إليه أحد الحنفيين فلم يصنع شيئاً، وطعنه الخارجي فقتله.

وخرج إليه عمر بن عبيد الله بنفسه فوقف له الخارجي فلما دنا منه وحش بالرمح ثم ضربه بالعمود على رأسه فصرعه ونزل إليه فأجهز عليه.

ورجع عمر إلي أصحابه فقال: ما يئست من الحياة قط إلا يومي هذا فدفع الله، رأيت الحنفيين جميعاً قد أحسنا القتال وطعناه فلم يصنعا شيئاً فعلمت أن على جسده شيئاً يقيه الطعن فقلت لا يقتله إلا العمود، فلما قتله نظرت فإذا عليه سنون.

فلما كان اليوم الرابع من مقام عمر قال أبو ماعز الحارثي: لو خرج منا إلى هؤلاء القوم فوارس فذاقوهم، فخرج أبو ماعز في ثلاثمائة فارس حتى أتى خندق أبي فديك فأشرفوا عليهم فخرج اليهم فوارس من الخوارج فاستطرد لهم أبو ماعز وأصحابه حتى إذا انقطعوا عليهم فصرعوا من الخوارج أربعة أو خمسة.

وبلغ ذلك عمر فأقبل في الناس وقد تحاجزوا وانصرف الخوارج فلام عمر أبا ماعز وقال: كدتم تفضحونا، لو قتل منكم رجل واحد لهد العسكر، فقال مجاعة بن عبد الرحمن العتكي: قد وقى الله ما حذرت.

ورجع عمر إلى عسكره فلما كان الغد نهض عمر للقتال وصف الناس وقدم الرجالة، وخرج الخوارج من عسكرهم فركزوا رماحهم واستتروا بالبراذع فقال أهل البصرة للرجالة: حركوهم. فقال عباد: إن خلف هذه البراذع أذرعا شداداً وأسيافاً حداداً وأنفساً سخية بالموت، وهم شادون عليكم شدة لا يقوم لها شيء، فإن كانت فيكم جولة فليكن انصرافكم على حامية يمنع بعضكم بعضاً فإنهم يتبعونكم وأكثرهم رجالة فإذا لغبوا فكروا عليهم.

قال: وقال رجل من الخوارج: شدوا عليهم واحذروا تخطئة الحمار. يقول احذروا قول عباد حين قال

ليكن انصرافكم على حامية فإذا لغبوا فكروا عليهم فنحو البراذع وأصلحوا رماحهم وسيوفهم وشدوا على الميسرة وفيها أهل البصرة فكشفوهم فذهبوا في الأرض.

وصرع المغيرة فحماه الكوثر بن عبيد، ويقال عبد بن معمر، واعتزل المغيرة بن المهلب ومجاعة بن عبد الرحمن الأزدي في فوارس فقاتلوهم، وتراجع الناس فردوا الخوارج وحازوهم إلى موقعهم، ومر أصحاب عمر بن عبيد الله بعمر بن موسى جريحاً فاحتملوه وشدوا على الخوارج حتى أدخلوهم عسكرهم وأحرقوا فيه تبناً، وهاجت الريح فأمالت الدخان في وجوههم فقتلوا منهم ثلاثة ويقال ثمانية وذلك الثبت، وأسروا ثلاثة نفر فقتلهم عمر صبراً.

فلما كان اليوم الثالث من هذا اليوم باكرهم أبو فديك بالقتال، فقال لأصحابه: إن قتلت فأميركم أبو طالوت. وزحفوا جميعاً مستميتين، فشدوا على الناس شدة أزالت الميمنة والميسرة والقلب من أهل العراق، فبقي عباد بن الحصين وسنان بن سلمة والمغيرة بن المهلب، فأمر عباد غلمانه: مهيراً ووازعاً، وميسرة فجثوا وأشرعوا رماحهم، ونادى عباد: أيها الناس أنا عباد. فقال له غلامه الوازع: يا سيدي لا تنوه باسمك فيقصدوا إليك، قال: ويحك، إني إن ثبت و لم أنوه باسمي أقدموا علي فإذا عرفوني لم يقدم علي منهم أحد.

فرجع مجاهد بن بلعاء في الخيل، وكان عباد صيره خليفته على الخيل، فرجع في عدة من البصريين وجماعة من أهل الكوفة من بني تميم، ومضى الباقون فلم يكن لهم ناهية دون البصرة، فقال عباد لمجاهد: احمل عليهم، فقال: إني عليك لهين حين تأمرني بالإقدام بالخيل وليس معي رجالة تقيها.

فقال عباد: فليترجل بعضهم، فترجلوا، وقال عمر لعباد: ما ترى ؟ فقد ذهب الناس. قال: الصبر. فقال: ما شاورتك إلا وأنا أريد أن أسألك أي موتة ترى أن أموت قال: انزل، فترل عن برذون له أشهب أبيض وأقدموا عليهم، فكان عباد يحمل عليهم فيطاعنهم ثم يرجع فيقول: إنا لله.

وصبروا ملياً فسمعوا صارخاً يقول: صرع أمير المؤمنين– يعني أبا فديك– وأطافوا به فأقبل عمر كأنه جمل هائج قاصداً لمصرع أبي فديك وحماه أصحابه حوله، فشدوا عليه بأسيافهم فما انثنى حتى أخذ برجل أبي فديك فسحبه والدم يسيل من كمه والسيوف تأخذه، فذب عنه عباد بن الحصين والمغيرة بن المهلب وسنان بن سلمة ومحمد بن موسى ومجاهد بن بلعاء حتى أفرجوا عنه وانحازوا وإن رجل أبي فديك لفي يده، فقال: احتزوا رأسه فاحتزوه وبعث به من ساعته إلى البصرة.

واتبع ابن بلعاء الخوارج، ثم رجع ومضى الخوارج إلى المشقر، فوجه عمر بن عبيد الله إليهم مجاهد بن بلعاء وبيهس بن صهيب الجرمي وعرفطة بن رجاء اليشكري، فحصروا الخوارج حتى نزلوا على حكم

عمر فقتل الموالي واستحيى العرب.

وكان على خيل أبي فديك عبد الله بن صباح الزماني، فلما طلب الأمان كلم قوم من بني حنيفة عمر وقالوا إنا قد آمناه. فقال: لا ولا نعمة عين، وأرسل إليه فحبسه فهرب من السجن فلقي أعرابياً معه بعيران فقال: أتكريني إلى اليمامة ؟ فقال: نعم بكذا وكذا. فقال عبد الله: بل أضعفه لك على أن ترفق بي في السير. قال: ذاك إليك، فحمله.

وطلبه عمر بن عبيد الله بن معمر، وبلغ الأعرابي أن عمر يطلب ابن صباح الزماني، فلما سار بقية يومه قال للأعرابي: أتدري من أنا ؟. قال: لا. قال: أنا عبد الله بن صباح الزماني هربت من السجن وعمر يطلبني وإن يأخذني هلكت وذهب بعيرك فأنت أعلم.

قال: غررتني. قال: أتراني أضعفت لك كراءك وأنا آمن. فطرد به شلا حتى قدم اليمامة، ثم أتى البصرة فاستجار بعامر بن مسمع فأخذ له عامر بن مسمع الأمان من خالد، فكان يغدو إلى خالد.

وتزوج ابن ضباح ابنة عطية بن الأسود، فأقام بالبصرة حتى قدم الحجاج بن يوسف فدخل عليه فقال له: من أنت ؟. فقال: رجل من ربيعة. قال: هات نسباً أقرب من هذا. قال: من بني بكر بن وائل. قال: من أيهم ؟. قال: من بني مازن. قال: فمن أنت ؟ قال: عبد الله بن صباح. قال: صاحب خيل أبي فديك ؟. قال: نعم. قال: لئن تغيبت عني لأقطعن يدك ورجلك، ولأضربن عنقك.

فخاف وهرب إلى اليمامة فكان في أصحاب ابراهيم بن عربي، وأظهر التوبة من رأي الخوارج، فرأى يوماً رؤوساً تشيط فغشي عليه، فعلم أنه على رأيهم.

قالوا: وقدم المنهزمة من أصحاب أبي فديك إلى البصرة، فكان أول من دخلها منهم عبد الله بن عثمان بن أبي العاص الثقفي، ثم تتابعوا فسر ذلك خالد بن عبد الله، ودعا بسرير له فجلس عليه وأعلم الناس أن عمر قد انهزم، وأرسل إلى عبد الله بن عمير الليثي وكان قد انهزم عن بعض الخوارج فبشره بانهزام عمر، فأعتق كل مملوك له.

وبعث خالد يوم جاء خبر هزيمتهم رسولاً إلى عبد الله بن عبيد الله بن معمر فأخبره بأن أخاه قد انهزم فقال: إنا لله وإنا إليه راجعون، إني لأنتظر من الله إحدى الحسنيين الشهادة أو الظفر، فأما الهزيمة فلا أخافها عليه لا سيما ومعه ابنة عمه.

ودخل المهلب على خالد فقال له: يا أبا سعيد ما عندك من خبر أبي حفص ؟. فقال: عندي أن أبا فديك قد قتل ورأسه يأتيك. قال: وما علمك ؟ قال: وجهت مع المغيرة ابني غلامين فقلت: إن ظفر عمر فوجه إلي فلاناً، وإن ظفر أبو فديك فوجه فلاناً، ولا ترسل واحداً منهما حتى يتبين لك الظفر. فبعث بالذي أمرته أن يرسله إذا ظفر عمر. قال: ما أتاك الغلام إلا منهزماً. قال: ما بذلك أخبرني.

قالوا: فإنه ليحدث إذ دخل رسول عمر بن عبيد الله برأس أبي فديك فألقاه بين يديه فقال: ويحك كيف كان الأمر ؟ قال: انهزم الناس وصبر عمر وعباد ونفير يسير معهما ساعة ثم كر أهل الحفاظ فقاتلوا الخوارج فقتل أبو فديك، وأخذ الرسول بأذنيه ثم هزه وقال: يا أبا فديك كيف رأيت ضرب بني عثمان بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة بن كعب بن لؤي ؟ وذلك أن عمر بن عبيد الله من ولده. فتناول خالد نعليه فانتعل وقال: أف، ودخل مغموماً. فكان عباد بن الحصين يقول: ما رأيت أحداً يقاتل يوم أبي فديك غير المغيرة بن المهلب وسنان بن سلمة بن المحبق.

وقالت عائشة بنت طلحة يومئذ: من الرجل الذي كان إذا صاح كادت الأرض تتصدع من صوته ؟ فقال لها عمر: ذاك عباد بن الحصين.

وقال خير بن حبيب بن عطية، أحد بني مالك بن سعد: استأذنت على عمر بن عبيد الله بن معمر بالبحرين فقال آذنه: من أنت ؟ قلت: خير. فدخل ثم رجع إلي فقال: أي خير ؟ قلت: خير بن حبيب. وعلمت أنه قد عرفني وتفاءل باسمي، فدخل ثم رجع فأذن لي فدخلت عليه وجاريته تشد عليه جيب الدرع وهي تبكي. فكلمته بحاجتي ثم خرجت وخرج، فقتل يومئذ أبو فديك.

قال: ثم أرسل إلي بعد ذلك بأيام فدخلت عليه وعائشة إلى جنبه فلم أر زوجاً قط أحسن منهما. فقال: ما قلت في عائشة ؟ قلت: من يجعل الديباج عدلاً للزيق. وبين يديه لؤلؤ منثور، فقال: تناول من هذا اللؤلؤ. وحفن لي حفنات منه. فبعت ذلك اللؤلؤ واشتريت بثمنه أرضاً وكانت عائشة بنت طلحة تقول لعمر: أي اليومين كان أشد عليك ؟ يوم أبي فديك أو يوم فارقت رملة ؟ فيضحك.

ويقال إنها قالت: أو يوم كنت تزور فيه رملة فترى خلقتها وعظم أنفها ؟ وكان مقتل أبي فديك في سنة أربع وسبعين.

وقال المدائني: كانت هزيمة عبد العزيز بن عبد الله بعد مقتل أبي فديك، وأوفد عمر إلى عبد الملك ببشارة الفتح وفدا فيهم الصلتان وهو قثم بن خبية بن قثم العبدي، ويقال هو تميم بن خبية بن قثم. فقال له عبد الملك: يا صلتان لعمر ثناؤك وعليه جزاؤك. فقال: يا أمير المؤمنين إني لأعيش من جدواه وأتقلب في نعماه، وإن خيره علي لكثير وقد أدرك في عدوك ما أدرك وهو محمود. فقال: صدقت، وأمر له بألفي درهم.

وقال بعض الشعراء:

ضجت جواثا ولم تفرح بمقدمنا　　　لما قدمنا وماذا ينفع الضجر

كانت لنا هجر أرضاً نعيش بها فأرسل النار في حافاتها عمر

وقال أعشى همدان في قصيدة له طويلة يذكر فيها قتالهم بجواثا ويفخر بصبر الكوفيين، ويذم البصريين في هزيمتهم، فمنها قوله:

ألم يأت بشراً ما أفاءت رماحنا وبشر بن مروان بذلك أسعد

فإنك قد جهزت جيشاً مباركاً ومثل أبي مروان بالخير يحمد

أطعت أمير المؤمنين وإنما جعلت غياثاً كل خير تغمد

وأعطيتنا منك العطاء مضاعفاً وزودتنا حتى جعلنا نحسد

ولما رأينا القوم ليس لديهم لمن زار إلا المشرفي المهند

مشينا إليهم في الحديد كأننا سحاب يضيء البرق فيه ويخمد

ولما رأى أهل البصيرة حزمهم تولّوا سراعاً خيلهم ثمّ تطرد

وما قاتلت فرسانهم عن رجالهم وما منعوا قتلاهم أن يجردوا

ولكنهم حاصوا من الموت حيصة فهم في أصول النخل شتى وموحد

وأهلك جمع المارقين فأصبحوا أحاديث إذ جاروا عن الحق واعتدوا

حدثني العمري عن الهيثم بن عدي أن سعيد بن خالد من ولد عثمان بن عفان قال لبيهس بن صهيب الجرمي: يا أبا المقدام، أمية أفضل أم عمر بن عبيد الله ؟. فقال: أو كلما نشأ ناشئ من بني أمية أردتم أن تجعلوه مثل عمر ؟ لا والله لعمر أجود منه جوداً، وأكرم منه نفساً وأشد منه بأساً، فغضب سعيد وقال: ما أنت وذاك يا أخا جرم. فقال: اسكت فما أنت بالأول ولا الثاني ولا الثالث، ولقد كنت الرابع فربحت.

الجزء الثامن أمر صالح بن مسرح

أحد بني امرئ القيس بن زيد بن مناة بن تميم:

قال الهيثم بن عدي: خرج صالح بن مسرح أحد بني امرئ القيس بن زيد مناة وكان من مخابيث الخوارج، وكان لا يرفع رأسه خشوعاً، وكان يكنى أبا مالك، فخرج ومعه فرسان من فرسانهم منهم ثور بن بطين بن سويد، ومرة، وخطامة، وشوذب، وشبيب، وهم من بني شيبان، فخرج بجوخى، ثم أتى النهروان فصلى في مصارع أصحابه وقال: اللهم ألحقنا بهم فإنهم مضوا على طاعتك، ثم أتى قرية بين الموصل والعراق وفيها قصر فنزله، فبعث إليه بشر بن مروان زفر بن عمرو الفزاري فنكص عنه، وبعث إليه الحارث بن عميرة بن ذي المشعار الهمداني فواقعه فقتله، وقتل للحارث ابنان، وكان الذي طعن صالحاً فقتله: الأشعث ين الحارث بن عميرة.

وقال هشام بن محمد الكلبي عن أبي مخنف: كان صالح بن مسرح أحد بني امرئ القيس بن زيد مناة بن تميم ويكنى أبا مالك متخشعاً، فأتاه شبيب بن يزيد الشيباني فقال له صالح: إن الحكيم السعيد إذا سمع الحق نور الله قلبه وجلا العمى عن بصره.

ثم إن شبيباً أتى الموصل وهو يريد الشام في أمر من أموره، فقدم صالح بن مسرح الموصل وهو بها، وصالح يريد نصيبين للقاء قوم من أصحابه بها، فصار صالح إلى نصيبين، ومضى شبيب إلى عبد الملك بن مروان بالشام، ثم أتى دار صالح بن مسرح بها فقال لصالح: يا أبا مالك رحمك الله، أخرج بنا فوالله ما تزداد السنة إلا دروسا ولا يزداد المجرمون إلا طغياناً واستخراجاً.

فبعث صالح الرسل إلى أصحابه فتواعدوا للخروج في صفر سنة ست وسبعين ليلة أربعاء، فاجتمعوا جميعاً للميعاد، فقال شبيب بن صالح: أرى أن نستعرض الناس فإن الكفر قد علا وإن الظلم قد فشا. فقال صالح: بل ندعوهم فإن الدعاء أقطع للحجة، ولا نريد أن نعيب على قوم أعمالاً ندخل فيها، وكان رأي صالح البسط بعد الدعاء، فأقاموا بأرض دارا بضع عشرة ليلة، فتحصن منهم أهل دارا ونصيبين وسنجار. وكان خروج صالح في مائة وعشرين فأخذوا دواب من دواب محمد بن مروان كانت بقربهم، وقد كان أمرهم محمداً فاستخف به وهو على الجزيرة ونواحيها من قبل أخيه عبد الملك بن مروان، فوجه محمد إليهم عدي بن عدي بن عميرة الكندي في خمسمائة، ثم أمده بخمسمائة فصار في ألف، فأتى الخوارج وهم بدوغان من حران، وقد جعل صالح على ميمنته شبيباً وعلى ميسرته سويد بن سليم .

وكان عدي متنسكاً متوقياً للدماء، فأرسل إلى صالح: إني لست على رأيك ولكني أكره سفك الدماء. فواقعه، فكب عدي رايته وهرب فحوى صالح عسكره فغضب محمد بن مروان، وبعث مكانه الحارث بن جعونة العامري في ألف وخمسمائة، وبعث أيضاً خالد بن جزي السلمي في ألف وخمسمائة وقال: أيكما سبق فهو الأمير، فتوافيا جميعاً، فوجه صالح شبيب إلى الحارث ين جعونة العامري في شطر أصحابه، وتوجه هو إلى خالد بن جزي في النصف الثاني، فاقتتلوا بآمد حتى حجز المساء بينهم وقد قتل من الخوارج ثلاثون ومن أصحاب محمد بن مروان سبعون، وسار صالح فيمن بقي معه حتى أتى الموصل ثم أتى إلى الدسكرة.

ووجه بشر بن مروان الحارث بن عميرة بن مالك بن حمزة بن أنفع بن زبيب بن شراحيل، وكان يقال لحمزة: ذو المسعار الهمداني في ثلاثة آلاف من أهل الكوفة، وصالح في تسعين، ويقال بل وافاه في أربعة آلاف من مقاتلة أهل الكوفة وستة آلاف من الفرض.

وكان على ميمنة الحارث بن عميرة أبو الرواع الشاكري من همدان، وعلى ميسرته الزبير بن الأروج التميمي، فثبت صالح فقتل، وضارب شبيب حتى صرع عن فرسه فوقع في الرجالة، فلما رأى صالحاً قتيلاً قال: إلي يا معشر المسلمين. فلاثوا به واجتمعوا إليه وحامى بعضهم على بعض حتى دخلوا حصناً بجواثا فقال لهم شبيب: بايعوني أو من شئتم منكم ثم أخرجوا بنا حتى نبيتهم فإن الليل أخفى للويل، وهم آمنون لكم. فبايعوا شبيباً وأتوا باللبود فبلوها بالماء ثم ألقوها على الجمر وخرجوا فلم يشعر ابن عميرة وأصحابه إلى والخوارج يضربونهم بالسيوف في جوف عسكرهم، وضارب الحارث بن عميرة حتى صرع فاحتمله أصحابه وانهزموا وخلوا لهم العسكر وما فيه ومضوا إلى المدائن.

ومات ابن عميرة، ويقال إن صالحاً جرح جراحات مات منها في ليلته، وأمر أن يبايع شبيب بعده واستخلفه والأول أثبت.

وكان قتل صالح بن مسرح في أيام بشر بن مروان، وقال قوم: كان قتله في سنة ست وسبعين يوم الثلاثاء لثلاث عشرة ليلة خلت من رجب، ويقال يوم الثلاثاء لثلاث عشرة ليلة بقيت من جمادى الآخرة.

وقال الجعد بن ضمام:

أبا عين فابكي صالحاً إن صالحاً	شرى نفسه لله يبغي بها الخلدا
وقد كان ذا رأي ثخين ورأفة	صفوحاً عن العوراء يدفعها عمدا
وقد كان في الحرب العوان يشبها	ويسعرها بالخيل محبوكة جردا

في أبيات.

وقال أعشى همدان، وكان وهو عبد الرحمن بن بسطام، أحد بني مالك بن حاشد بن جعشم بن خيران بن نوف بن همدان:

إلى ابن عميرة تحدي بنا — على أينها القلص الضمر

ولابن المسرح في جحفل — دلفت وفرسانه حضر

شبيب وقعنبهم والبطين — وعمرو وفارسهم أبجر

ليوث عرين هم ما هم — إذا حكموا وإذا كبروا

فلم ير تحت ظلال السيو — ف مثلك محتسباً أصبر

ولا مثل أشبالك الضاريا — ت ولا مثل معشركم معشر

وقال رجل من بني تميم يرثي صالحاً، واسمه المنهال:

أمنهال إن الموت غاد ورائح — ولا خير في الدنيا وقد مات صالح

إذا قلت أنسى صالحاً عاد ذكره — جديداً لما انضمت عليه الجوانح

لئن كان أمسى صالحاً ثل عرشه — لقد كان لا تخشى عليه الفضائح

في أبيات.

وقال الحويرث الراسبي:

أقول لنفسي في الخلاء ألومها — هبلت دعيني قد مللت من العمر

ومن عيشة لا خير فيها دنية — مذممة عند الكرام ذوي الصبر

سأركب حدباء الأمور لعلني — ألاقي التي لاقى المحرق في القصر

وما كان غمراً صالح غير أنه — رمته صروف الدهر من حيث لا يدري

أمر يزيد بن بعثر

قال الهيثم: خرج يزيد بن بعثر السعدي من تميم بجوخى، فوجه إليه بشر بن مروان خيلاً فقتل. فقال عمران بن حطان:

لقد كان في الدنيا يزيد بن بعثر — حريصاً على الخيرات حلواً شمائله

في أبيات.

وقال الهيثم بن عدي: خرج في أيام ابن عربي وولايته اليمامة خوارج من السجن، وكانوا مقيدين فحكموا، فقال لهم رجل منهم: أطلقوا قيودكم. قالوا: و لم؟ لسنا نريد الفرار. فلم يخرج إليهم إبراهيم بن عربي وأخرج رجلاً يقال له عطية بن جناب من أصحابه، ومعه رجل من موالي آل أبي مرثد الغنوي فقاتلاهم فقتل الخوارج.

أمر هدبة الطائي بن عمر

من بني جدعان، وأمه شيبانية وكان فيهم.

وقال: وخرج هدبة الطائي بجوخى على بشر بن مروان في جماعة فقتله سيف بن هانئ، وكان على مسالح جوخى والطريق، وكان موكلاً بقتال الخوارج في نواحيه، فقال أيوب بن سعفة:

إن يك خلي هدبة اليوم قد مضى	فإني بآلاء الفتى أنا ناديه
فيا هدب للهيجا وللسيف والقنا	ويا هدب يوماً للخصيم يجاذبه

في أبيات.

ويقال: إن هدبة شيباني وهو هدبة بن عبد عمرو من ولد قيس بن خالد الشيباني، وقال المدائني: قتل هدبة سيف في أيام الحج.

أمر شبيب بن يزيد الشيباني

قال ابن الكلبي عن لوط وغيره: غزا يزيد بن نعيم بن قيس بن عمرو بن قيس ين شراحيل بن همام بن مرة بن ذهل بن شيبان بن ثعلبة بن عكابة الروم فابتاع جارية من السبي ووقع عليها فولدت له شبيب بن يزيد في سنة خمسة وعشرين في يوم النحر، فقال أبوه: ولد في اليوم الذي تهراق فيه الدماء وأحسبه سيكون صاحب دماء، وكان اسم أم شبيب جميرة.

وقال الهيثم بن عدي: كان اسم أمه غزالة واسم امرأته جهيزة بنت عمرو.

قال الكلبي: وانتقل يزيد من الكوفة إلى الموصل وكان شبيب صاحب فتك وغارات وكان يبيت الأكراد، فقال الشاعر:

لم أر أياماً كأيام مالكٍ	ولم أرَ ليلاً مثل ليل شبيب

وكان مالك رجلاً يغير بالنهار فيأخذ ما استطف له، وكان شبيب في الديوان فرض له حين أدرك. ثم أنه تنسك وارتدع، وذلك أنه سمع رجلاً يقرأ "وماذا عليهم لو آمنوا بالله واليوم الآخر وأنفقوا مما رزقهم الله وكان الله بهم عليما، إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيما، فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد" إلى قوله: "ولا يكتمون الله حديثاً"، فقال: ما أغفل شبيب عما خلق له وعما يراد به، فأعجب أباه ما رأى من حاله.

ثم إن شبيباً حج فأتى الكوفة فنزل على القعقاع بن شور الذهلي في بدأته فبره وأكرمه، ثم سار فلما قضى حجته وصار بالربذة أيدع به وانقطع بقوم معه أيضاً فمرت بهم هند بنت أسماء بن خارجة الفزاري فقاموا إليها فسألوها فأمرت لهم بزاد وحملان. ثم أن شبيباً قدم الكوفة فجعل يسأل عن أهل العبادة والصيام فدل على صالح بن مسرح، فسمع منه وقبل قوله.

ومضى شبيب بعد أن لقي صالحاً إلى الموصل، وسار صالح يريد نصيبين للقاء أصحاب له هناك، ثم أتى دارا ومضى شبيب إلى عبد الملك بن مروان وقد كان اسمه سقط من الديوان لكثرة غيبته وتخلفه عن الاعتراض من العراض فحلق على اسمه فكلم الناس عبد الملك في الفك عن اسمه وإدرار أرزاقه عليه فأبى وقال إن بكر بن وائل وبني تميم حيان كثير شرهما وما أحب أن يكثروا بهذه البلاد. فأخبر شبيب بقول عبد الملك فقال: والله لأسوءنه، فأبلغوه عني فله مني يوم أرونان.

ثم قدم على صالح بن مسرح هو بدارا فكان منه ما ذكرنا، وقتل صالح فبايعه أصحابه.

وقال الهيثم بن عدي: كان بنو مروان لا يفرضون لبكر ولا تميم بالشام فخرج شبيب يطلب الفريضة وقد سبقه صالح بن مسرح بالخروج والخوارج يرون من خرج منهم، ثم خرج بعده آخران الثاني تبع للأول فكان شبيب معه حتى قتل فبويع بعده فوجه إليه بشر بن مروان خيولاً فهزمها شبيب.

وأقام على ذلك نحواً من سنة حتى مات بشر بن مروان، وقدم الحجاج العراق، فأقام سنة لا يعرض لشبيب حتى كثف أمره واشتدت شوكته.

وبلغ قطري بن الفجاءة خروج شبيب في أيام الحج فقال: إن الله قد فيض للفاسق أخي ثمود رجلاً من الصفرية سيشجيه ويخزيه، والله ما نبالي في أي الفريقين كان الفتح.

وقال ابن الكلبي: لما اعتقد شبيب ارتفع إلى أرض الموصل، فدعا سلامة بن سيار الشيباني إلى الخروج معه، وكان فضالة بن سيار أخوه يقول: الفضل بن سيار قد خرج قبل خروج صالح بن مسرح فقتلته عنزة، ففرض لهم عبد الملك وأنزلهم بانقايا من حرة الموصل - فاختار سلامة من أصحابه ثلاثين فأغار بهم على عنزة فقتل منهم بشراً، وقال شعراً يقول فيه:

فصحبتهم قبل الشروق بفتيةٍ مساعير لا كشف اللقاء ولا عزل
وليست دماء اليقدميين بالتي توازي دماء الحي شيبان في القتل
لعل جيادي أن تعود عليهم فتنزلهم دار الصغار مع الذل

فيقال: إن سلامة كان معه، ويقال إنه اعتذر بشغل له.

وأقبل شبيب في أصحابه نحو زاذان ومعه أمه في مظلة من مظال الأعراب، وكان حملها من الموصل معه، وانضم إليه قوم، منهم أبو الصقر إبراهيم المحلمي وكان نازلاً في بني تميم بن شيبان، وكان الحجاج قد ولى سفيان بن أبي العالية الخثعمي طبرستان فكتب إليه أن ينكفئ راجعاً لمواقعة شبيب، ونادى في جيش الحارث بن عميرة الهمداني بالكوفة والمدائن فساروا عليهم سورة بني أبجر بن نافع بن العرباض أحد بني أبان بن دارم فلم يتخلف منهم كثير أحد.

وعجل سفيان بن أبي العالية إلى محاربة شبيب بخانقين قبل مصير سورة إليه، وأكمن شبيب لابن أبي العالية مصاد بن يزيد أخاه، واستطرد لهم حتى ظنوا أنهم قد هزموه، ثم خرج عليهم الكمين فقاتلوهم من ورائهم، وكر شبيب فواجههم فانهزموا، وثبت سفيان بن أبي العالية في نحو من مائتين فقاتلهم فأحاط به أصحاب شبيب فقاتل دونه غلام له يقال له غزون.

وأقبل سفيان إلى مهروذ فترل بها وكتب إلى الحجاج بخبره ومواقعته شبيباً بخانقين، وكتب الحجاج إلى سورة يعنفه ويأمره أن يأتي شبيباً، فبعث سورة إلى المدائن فانتخب له منها خمسمائة رجل من جندها فتوافوا إليه مع من معه وخرج لطلب شبيب وهو يجول بجوخى وأتى شبيب المدائن فقتل من ظهر له وأخذ دواب من دواب الجند و لم يدخل البيوت.

ثم أن شبيباً أتى النهروان فوقف أصحابه على قبور من قتله علي بن أبي طالب فاستغفر لهم وكان في مائة، فلقيه سورة في نخبة من معه فقاتله شبيب وهو يقول: "من ينك العير ينك نياكا". فهزمه شبيب واتبعه حتى بلغ المدائن ودنا من بيوتها، فرمي وأصحابه من فوق البيوت.

ثم أتى شبيب كلوذاى، ثم أقبل يسير إلى أرض جوخى وصار إلى جبال تكريت ولحق الجند بالكوفة فغضب الحجاج على سورة بن أبجر وقال: والله لأسوءنه، ووجه الجزل وهو سعيد بن شرحبيل بن عمرو بن الأرقم الكندي، وبعضهم يقول سعيد بن عمرو. والأول أثبت.

وضم إليه أربعة آلاف مقاتل، وأقبل الجزل يطلب شبيباً في أرض جوخى وشبيب يري الهيبة فيخرج من طسوجٍ إلى طسوج، وكان يومئذ في ستين ومائة.

واستبطأ الحجاج الجزل فولى سعيد بن المجالد بن عمير بن ذي مران الهمداني – جد المجالد بن سعيد المحدث – جيشه وضمه إليه فصار من تحت يده وقال له: لا تفعل كما فعل الكندي يطلب طلب السبع ويحيد حياد الضبع.

وأتى شبيب براز الروز فالتقوا وعلى ميمنة ابن المجالد عياض بن أبي لينة وعلى ميسرته عبد الرحمن بن عوف الرؤاسي أبو حميد بن عبد الرحمن، فهزمهم شبيب وحمل على سعيد بن المجالد فضربه ضربة خالطت دماغه فقتله شبيب. وقاتل الجزل قتالاً شديداً حتى صرع فسقط بين القتلى، فحمل إلى المدائن ولحق الجيش بالكوفة، وكتب الجزلُ إلى الحجاج بالخبر فأجابه بجواب لطيف، وفيه يقول بعض الكنديين:

جاؤوا بشيخهم وجئنا بالجزل شيخ إذا ما لقي القوم نزل

و لم يلبث الجزل أن مات، وقال المحل بن وائل:

كيف رأيت يا بن ذي مران جِلادنا عند قُرى الهروان

أذاقك العلقم والذيفان والموت أسياف بني شيبان

وبعث الحجاج إلى الجزل ابن أبجر الطبيب ليعالجه وبألف درهم، وأقبل شبيب إلى كرخ بغداد و لم يعرض لأهل سوقها العتيق، ثم سار شبيب جواداً حتى أتى الكوفة فنزل عند دار الرزق وقد أمر الحجاج أهل الكوفة فعسكروا بالسبخة وعليهم عثمان بن قطن الحارثي.

ووجه الحجاج بن سويد بن عبد الرحمن السعدي للقائه فحمل عليه شبيب حملة منكرة، ومضى حتى قطع بيوت الحيرة، ثم مضى شبيب إلى الأنبار ثم أتى دقوقا، ثم مضى إلى أذربيجان وناحية أرمينية، فتركه الحجاج وخرج إلى البصرة واستخلف على الكوفة عروة بن المغيرة.

ثم إن شبيباً أقبل يريد الكوفة وبلغ الحجاج ذلك فأقبل من البصرة جواداً إلى الكوفة وأتى شبيب حربي وهي دجلة فعبر منها، وقال لأصحابه: ليس الحجاج بالكوفة فما دون دخولها بإذن الله شيء.

فخرج مبادراً ونزل الحجاج الكوفة العصر، ونزل شبيب السبخة المغرب، فلما صلى المغرب والعشاء الآخرة جاء حتى ضرب باب القصر بعمود وتمثل:

عاري الجواعر من ثمود أصله عبدٌ ويزعم أنه من يقدم

ثم إنه اقتحم المسجد الأعظم وعلا المنبر وأقعد غزالة وهي امرأته وهي من سبي أصبهان على المنبر لئلا يصيبها الرمي، ويقال بل كانت نذرت أن تصعد المنبر فصعدته.

وقال بعضهم: لم تكن امرأته ولا أمه ولكنها كانت من الخوارج ثم خرج.

ونادى الحجاج في الناس فكان أول من أتاه: عثمان بن قطن بن عبد الله، ثم وجه الحجاج بشر بن غالب

الأسدي في ألفين وزائدة بن قدامة الثقفي وأبا الضريس مولى بني ثعلبة بن يربوع تميم في ألف، وأعين مولى بشر بن مروان – ويقال مولى سعد بن أبي وقاص – في ألف، ووجه محمد بن موسى بن طلحة التيمي، وزياد بن عمرو العتكي فترل هؤلاء الأمراء أسفل الفرات فتجنبهم شبيب وأخذ نحو القادسية.
وبعث الحجاج زحر بن قيس الجعفي في ألف وثمانمائة جريدةً وقال: اتبعهُ فإن لم يعطف إليك فلا تقاتله. وبلغ شبيباً خبره فأقبل إليه والتقيا فهُزم أصحاب زحر ونزل فقاتل حتى صُرِع، فلما أمسى تحامل حتى دخل الكوفة وبه بضع عشرة ضربةً، فأكرمه الحجاج وبَرَّه وقال: من أراد أن يرى شهيداً يمشي على الأرض وهو من أهل الجنة فلينظر إلى هذا.
ويقال إن زائدة لقيهم وعلى ميمنته بشر بن غالب وعلى ميسرته زياد بن عمر العتكي، فصير شبيب سويد بن سليم في كردوس حيال الميمنة، وصير أخاه حيال الميسرة، ووقف بحيال القلب، فشد سويد على زياد فصابره ساعة ثم انهزم زياد وقد أحاط به ثلاثون سيفاً، وقُتل زائدة، وبلغ شبيباً مكان الأمراء بأسفل الفرات فسار إليهم ودافعهم وأفرد بإزاء كل أمير منهم جماعة من أصحابه وعليهم رجل يسوسهم، فقلت زائدة بن قدامة، وقاتل زياد بن عمر العتكي من يليه فصابرهم ثم هزموه.
وقاتل محمد بن موسى بن طلحة بن عبيد الله فقتل، ودخل أبو الضريس جوسقاً هناك فقال شبيب لأصحابه: ارفعوا السيف، فبايعه قوم منهم عبد الرحمن بن جندب وأبو بردة بن أبي موسى، ثم خرج شبيب بأصحابه إلى نفر ثم أتى خانيجار فأقام بها، فوجه إليه الحجاج عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث في كثف ومعه من كندة خمسمائة فارس فدخل على الجزل وهو يعالج الموت فقال له: إنك تقاتل قوماً كأنهم قد خلقوا من أضلاع الخيل وبنوا على ظهورها أسود غاب يستطعمون الموت، إن هجهجوا أقدموا وإن كف عنهم لم يكفوا.

فأقبل شبيب حتى نزل جولايا ونزل ابن الأشعث بقربه وذلك في أيام العشر، فبعث إليه شبيب: إن هذه الأيام عيد فإن رأيت أن توادعنا حتى تمضي. وكان يحب المطاولة فوادعه فكتب عثمان بن قطن بذلك إلى الحجاج وبإقبال عبد الرحمن على الجباية واستيكاله الرعية، فولاه جيش عبد الرحمن، وولى المدائن مطرف بن المغيرة بن شعبه مكانه.
وكان ابن أبي عصيفير الثقفي على المدائن فعزله الحجاج وولى المدائن عبد الرحمن، وخرج ابن أبي قطن فتسلم عسكر عبد الرحمن بن الأشعث، وواقع شبيباً، وهو في مائة وأحد وثمانين، فترجل عثمان وكان على ميسرته عقيل بن شداد السلولي فجعل يقول:

لأضربن بالحسام الباترِ ضَرْبَ شجاعٍ بطلٍ معاور

فحمل عليه شبيب فقتله، ووقع عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث في نهر جولايا، فدفع إليه رمح فتعلق به، وقال له محمد بن عبد الرحمن بن أبي سبرة الحنفي: اركب. فقال: أينا الردفُ؟. فبلغ الحجاج فقال: أنخوةٌ وهو منهزم؟ وظهر شبيب عليهم، فأمر برفع السيف، ودعا إلى البيعة فبايعه قوم من الرجالة، وقتل من كندة يومئذ مائة وعشرون ومن سائر الناس ألف، وقتل عثمان بن قطن، قتله مصاد أخو شبيب ثم أتى شبيب سفح ساتيدما فقتل قوماً من بكر بن وائل لم يتبعوه، ثم أتى المدائن فناظر حذيفة بن اليمان فقال الحجاج لمن قبله: والله لتقاتلن عن فيئكم أو لأبعثن إلى قوم هم أسمع وأطوع وأصبر على اللأواء منكم، فليقاتلن عدوكم وليأكلن فيئكم.

فقام زهرة بن حوية التميمي فقال: إني كبير السن ضعيف، ولكن أبعث رجلاً، وأكون معه وأشير عليه، فقال الحجاج: جزاك الله خيراً عن أول أمرك وآخره.

وكان زهرة ممن شهد القادسية، فكتب إلى عبد الملك يخبره أن أهل الكوفة قد عجزوا وضعفوا عن شبيب، ويسأله أن يبعث إليه رجلاً ذا شجاعة ونصيحة، فوجه إليه سفيان بن الأبرد الكلبي في أربعة آلاف، وحبيب بن عبد الرحمن الحكمي في ألفين، ويزيد بن هبيرة المحاربي معهما، وبعث الحجاج قبل قدومهم إلى عتاب بن ورقاء الرياحي وهو مع المهلب، فقد إليه فجعله على أهل الكوفة وضم إليه زهرة بن حوية.

وكان بشر بن مروان وجه عتاباً إلى المهلب وهو بالأهواز فحارب قطري بن الفجاءة، وأتى شبيب بهرسير فنزل مدينتها، وبعث إليه مطرف بن المغيرة أن ابعث إلي من أناظره فكان من أمره ما كان مما قد ذكرناه في كتابنا هذا.

ووجه الحجاج عتاب بن ورقاء، وشبيب يومئذٍ في ستمائة فواقعه عتاب فقاتل وصبر فقتل عتاب، قتله رجل يقال له عمرو بن عبد عمرو من بني تغلب ويقال الفضل بن عامر الشيباني ويقال عامر بن عمرو، ووطئ زهرة بن حوية فجعل يذب بسيفه وهو شيخ ضعيف البصر لا يستطيع القيام، فجاء الفضل بن عامر الشيباني فقتله وذلك بسوق حكمة على ستة فراسخ من المدائن، فلما رأى شبيب زُهرة قال: لئن كنت قُتلت ضالاً لرُبَّ يوم من أيام المسلمين قد حسن فيه بلاؤك وعظم فيه غناؤك، ولرب خيل للمشركين قد هزمتها، وسرية لهم قد ذعرتها.

واستمكن شبيب من أهل العسكر فقال: ارفعوا عنهم السيف، ودعاهم إلى البيعة فبايعوه ثم هربوا من تحت ليلتهم، ودخل سفيان بن الأبرد الكلبي وحبيب بن عبد الرحمن الكوفة فيمن معهما.

وخطب الحجاج أهل الكوفة فقال: لا أعز الله من أراد العز بكم، لا تشهدوا معنا قتال عدونا والحقوا بالنصارى واليهود.

وأقبل شبيب إلى الكوفة فقتل عامل سوراء، وأخذ ما كان عنده من المال، وزحف إليه الحجاج نفسه ومعه سفيان بن الأبرد، فجعل أهل الكوفة يقولون:

دبوا دبيبا   واحذروا شبيباً

وسار شبيب إلى السبخة فوجه إليه الحجاج غلماناً له فقتلهم، وجه إليه عمارة الطويل فاستعلى عليه، فقال شبيب: قاتلني رجل ما أحسبه ولا أراه إلا طويل بني المجنون.

وأخذ أهل الكوفة السكك وأشرعوا الرماح في وجوههم، وقاتل خالد بن عتاب بن ورقاء الخوارج فقتل مصاد أخا شبيب وجهيزة أم شبيب وكانت قد قاتلت قتالاً شديداً، وقال الناس:

أم شبيب ولَدتْ شبيباً   هل تلد الذيبة إلا ذيباً

وقتلت غزالة واحتز رأسها فقال الحجاج: والله ما قوتل شبيب قبل يومه هذا ومرته هذه.

وهرب شبيب فبعث الحجاج في إثره حبيب بن عبد الرحمن الحكمي في ثلاثة آلاف من أهل الشام فقاتل بالأنبار حتى كره بعضهم بعضاً.

وأتى شبيب واسطاً من ناحية أرض جوخى، ثم أتى الأهواز وتجاوزها إلى فارس حتى إذا قوي واستراش عاد إلى الأهواز فلقيه سفيان بن الأبرد وحبيب والشاميون عند جسر دجيل بالأهواز، فاقتتلوا قتالاً شديداً حتى اضطر الخوارج إلى الجسر فلم يجدوا عنه محيصاً، فلما انتهى شبيب إلى الجسر نزل ونزل معه مائة فقاتل أشد قتال، فلما رأى سفيان صعوبة أمرهم أمر الرماة فرشقوهم بالنبل، وكرّ شبيب على الرماة فصرع منهم أكثر من ثلاثين، ثم قال لأصحابه: اعبروا رحمكم الله.وقدمهم وبقي في أخريات الناس.

ورأى فرسه رمكة بعض أصحابه فتحصن فزلت رجل فرسه فسقط في الماء وهو يقول: "ليقضي الله أمراً كان مفعولاً".

ويقال إنه لما قاتلهم قال لأصحابه في المساء: قد انصرف عنكم عدوكم فاعبروا بنا فإذا أصبحنا قاتلناهم، ومر وهو يركض فما سار في وسط الجسر قطعه قوم من بني شيبان كانوا حقدوا عليه قتل من قتل في ساتيدما، فغرق.

ويقال إنه لما حجز بينهم الليل عبر شبيب الجسر، وبصر بهم قوم من أصحاب سفيان فقطعوا الجسر فماج بهم فغرق شبيب وجماعة معه، قالوا: فأمر سفيان فاستخرج شبيب بالشباك وشُق بطنه فوجد قلبه كأنه

صخرة يُضرب به الأرض فلا يثبت وينبو عنها نبو الحجر، وكان غرقه ليلاً. والشراة يقولون كان على قبله شعر وذلك باطل.

وقال معمر بن المثنى: خرج شبيب في أيام بشر بن مروان حين قُتل صالح بن مسرح، وكان معه فلم يزل يتنقل في جوخى حتى ولي الحجاج فبعث إليه عبيد بن المخارق القيني من أهل الشام، فهزمه شبيب، ثم بعث إليه زحر بن قيس فهزم أصحابه وارتث وبه ثلاثون طعنة، وضربه حتى حمل في القطن، ثم بعث إليه عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث فهزمه، ثم عتاباً فقتله، ثم الجزل الكندي فقتله، ثم بعث إليه زياد بن عمرو العتكي فانهزم، ثم بعث محمد بن موسى بن طلحة بن عبيد الله فقتله، فقال قطري حين بلغه أمر شبيب: إن الله قد قيض للفاسق أخي ثمود رجلاً من الصُّفرية قد أشجاه، والله ما نُبالي بأي الفريقين كان الفتح.

ووجه الحجاج إلى شبيب يزيد ين هبيرة المحاربي فهزمه.

وحدثني العمري عن الهيثم بن عدي عن عوانة وابن عياش وغيرهما قالوا: لما قتل صالح بن مسرح وبويع شبيب بعده في ولاية بشر، بعث إليه بشر خيلاً ففضها، ومكث شبيب ينتقل بجوخى والسواد سنة، ثم وجه الحجاج إليه عُبيد بن أبي المخارق القيني فهزمه شبيب، ثم وجه إليه يزيد بن هبيرة المحاربي فهزمه، ثم بعث إليه زحر بن قيس الجُعفي فهزمه وارتث وبه ضربات وطعنات وكان يحمل في القطن وكانت ضربة منها قد فلقت عينه، فقال الحجاج: من أحب أن ينظر إلى الشهيد الحي فلينظر إلى زحر بن قيس.

ثم بعث عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث فهزمه، ثم بعث عتاب بن ورقاء فلقيه بالفلوجة فقتله شبيب، ثم بعث إليه الجزل الكندي فوده إليه شبيب المهذب السكوني والبطين الشيباني فقال شاعر أهل العراق:

جاؤوا بشيخهم وجئنا بالجزل ... شيخاً إذا ما عاين الموت نزل

فقُتل الجزل، ثم بعث إليه عثمان بن قطن الحارثي فقتله شبيب، ثم بعث إليه طهمان مولى آل عُقبةُ بن أبي معيط بن أبي عمرو بن أمية.

وقال غير الهيثم: هو مولى عثمان وكان على فرس للحجاج فشد عليه شبيب وهو يظنه الحجاج فقتله.

ثم بعث إليه أبا الورد مولاه فقتله ثم بعث إليه زياد بن عمرو العتكي فصابره يوماً وليلة ثم انهزم زياد، ومع زياد يومئذٍ النضر بن القعقاع بن شور الذهلي. فلما رآه شبيب منهزماً كف عن جري فرسه ليدٍ كانت لأبيه عنده، ثم قال: أيا نضر، لا حكم إلا الله، قلها لتنجو، فقال الخوارج: أتعصباً في دين الله؟ قال: لا، ثم حمل على النضر فقتله.

ثم بعث إليه محمد بن موسى بن طلحة بن عبيد الله فقتله شبيب، ثم بعث إليه أبا الضريس مولى تميم فقتله.

ومكث شبيب أربع سنين، ثم ضرب الحجاج البعث على أهل الكوفة، وخرج حتى عسكر بالسبخة، وجعل شبيب يتنقل فيما بين السواد والجبل، وبعث إليه الحجاج عبد الله بن زُميت فما شعر الحجاج وهو في عسكره بالسبخة إلا وقد أقبل شبيب، وقد سبق أصحابه في ثلاثين فارساً، ففرقهم في نواحي عسكر الحجاج ثم حكموا، فانذعر الناس ودخل عامتهم الكوفة، وقُتل من أصحاب الحجاج نحو من مائة وثلاثين، و لم يُقتل من أصحاب شبيب إلا رجلان.

ثم انصرف شبيب فلقي أصحابه على الطريق فردهم، ثم أقبل فأتى الفلوجة فأقام بها خمس عشرة ليلة، ثم أتى كُوثى، فبعث إليه الحجاج علقمة، بن عبد الرحمن الحكمي فكسره ثم انحاز إلى الأنبار وكتب الحجاج إلى عبد الملك: الغوث الغوث يا أمير المؤمنين، وجه إلي أهل الشام فإنه لا غناء عند أهل الكوفة. فبعث إليه أربعة آلاف رجل فقدموا عليه وشبيب بالأنبار، فقال شبيب: لنذعرن ابن أبي رغال. فأقبل وقد قرط فرسه عنانه، وقرط الخوارج خيلهم أعنتها حتى دخلوا الكوفة ليلاً بعدما صُليت العشاء الأخيرة ومعه مائة وخمسون رجلاً، ومعه جهيزة امرأته وغزالة أمه وكانت من سبي أصبهان، وفي المسجد أصحاب الأساطين والبرانس يصلون والأحراس في السكك، فقال شبيب لأصحابه: ليقم على كل باب رجلان فلا يمر بهما أحد إلا قتلاه، وقال لأمه وامرأته: اقعدا على المنبر لا تصبكما معرة.
ثم اعترض من في المسجد فقتلوا، وقتل أصحابه من شد فأراد الخروج وقتل أبو سليم، وهو أبو ليث بن أبي سليم المحدث في عدة من النساك.
وطلب حوشب بن يزيد فاستخفى، واخذ ميمون مولى حوشب بن يزيد بن رويم الشيباني، وكان حوشب يومئذٍ على الشرطة والاستخراج، وميمون خليفته على الاستخراج وطلب حوشباً فلزم مترله و لم يبرح، وجعل أصحاب شبيب يضربون باب القصر ويقولون: يا عدو الله، يا ابن أبي رغال، يا أخا ثمود، أخرج. ففي ذلك يقول وصيلة بن عتبان الشيباني:

لعمري لقد نادى شبيب وصحبه	على الباب لو أن الأمير يجيبُ
فأبلغْ أمير المؤمنين رسالة	وذو النصح لو تصغي إليه قريبُ
أتذكُرُ إذ دارت عليك رماحنا	بمسكن والكلبي ثم غريبُ
فلا صلح ما دامت منابر أرضنا	يقوم عليها من ثقيف خطيب
فإنك إلا ترض بكر بن وائل	يكن لك يوم بالعراق عصيبُ
فلا ضير إن كانت قريش عديً لنا	يصيبون منا مرة ونصيب

فإن يك منهم كان مروان وابنه وعمروٌ، ومنهم هاشم، وحبيب

فمنا سويد والبطين وقعنبٌ ومنا أمير المؤمنين شبيب

غزالة ذات النذر منا حميدةٌ لها في سهام المسلمين نصيبُ

يقال إنها نذرت أن تصعد منبر الكوفة.

ومنا سنان الموت وابن عويمر ومرة فانظر أي ذاك تعيب

فقال عبد الملك: كلهم والله عيب.

فلما طلع الفجر قال شبيب لبعض أصحابه: أذن، فأذن وأقام، وتقدم شبيب فصلى بهم الغداة وقرأ بهم بسورة البقرة وآل عمران حتى كادت الشمس تطلع، ثم جلس وسط المسجد ساعة وأقبلت الخيول فقال لأصحابه: اركبوا. ونادى منادي الحجاج: يا خيل الله اركبي. وأقبل الناس فجالدهم شبيب وأصحابه في المسجد ثم خرج شبيب وأصحابه واتبعه الناس واضطربوا في موضع السوق ساعة ثم زاحفهم الحجاج في أربعة آلاف من أهل الشام وقال: لا يخرجن من أهل الكوفة أحد إلا خالد بن عتاب بن ورقاء فإنه ثائر بأبيه، وغير جهم بن زحر بن قيس.

وكان الحجاج أشد الناس انقطاعاً في الحرب إنما كان مولاه أبو كعب هو الذي يأمر وينهى، فصابرهم شبيب وأصحابه يومهم الأطول في السبخة، وكان قتيبة يومئذٍ مع الحجاج، وأحجم الناس عن شبيب، وعلا شبيب مزبلة كانت هناك يشرف منها على الكوفة فجالدوه حتى أزالوه عنها، وصاروا جميعاً بالأرض فتقاتلوا حتى كثرت الجراح في الفريقين، وولى شبيب وأصحابه منهزمين واتبعهم علقمة بن عبد الرحمن الحكمي وأصحابه حتى انتهوا إلى القرب من دار الرزق، وخرج شبيب من وجهه إلى الأنبار، فقال عبد الواحد الأزدي من الخوارج:

يا ليتني في الخيل وهي تدوسهم في السوق يوم الظفر بالحجاجِ

بأخي ثمود وقرب ما أخطانه ولقد بلغن العذر في الإدلاجِ

أصبحن بالأنبار ثم أتينه مثل السعالي تحت ليل داج

فبطحن ميمون العذاب لوجهه وتركنه متقطع الأوداج

ولقد تخطأت المنايا حوشباً فنجا إلى أجلٍ وليس بناج

وقال أسامة بن زيد الأحمسي: وقال بعضهم الأبيات لعمران بن حطان. فطلبه الحجاج فهرب إلى الشام:

صدعت غزالة قلبه بكتيبةٍ تركت شراسته كأمس الدابر

أسد علي وفي الحروب نعامة	خرجاء تنفُرُ من صفير الصافر
هلا خرجت إلى غزالة في الوغى	بل كان قلبك في جوانح طائرِ
ألق السلاح وخذ وشاحي معصرٍ	واعمدْ لمنزلة الجبان الكافر

فقال الحجاج: لا أمان له عندي.

وكان شبيب أصاب بجوخى رمكة عليها رجلاً من أصحابه وقال: اركبها حتى يُقسم ثمنها، فبلغ ذلك خوارج الكوفة فركب إليه مسلم بن أبي الجعد، أخو سالم بن أبي الجعد الاشجعي، ودجاجة الحنفي، وكانا من رؤوس الخوارج حتى أتياه وهو بالأنبار فقالا: أعطيت مسلماً الغلول، ما كان هذا من سيرة من مضى من المسلمين. فقال: إنما أعطيته إياها ليركبها ثم نقسم قيمتها. قالا: فلو نفقت، فتب فكره أن يتوب فيخلع. فبرئ منه مسلم ودجاجة.

وبعث الحجاج إلى شبيب علقمة بن عبد الرحمن الحكمي وأمره بطلبه، فلحقه واقتتلا يوماً وليلة ثم ولى شبيب منهزماً فكان وجهه بادرايا وباكسايا، ثم توجه منها إلى الأهواز.

ووجه الحجاج في طلبه سفيان بن الأبرد الكلبي فطلبه حتى بلغ إلى دجيل الأهواز، فأقبل شبيب نحوه وسفيان في ألفي رجل، فلما ذهب ليجوز إلى سفيان أمر سفيان بقطع جسر دجيل فاستدارت به السفن فغرق، فاستخرجه سفيان بالشباك فاحتز رأسه، وقتلت أمه وامرأته وعدةٌ من أصحابه، وانصرفت فرقة منهم إلى الجزيرة وتفرقت فرقة في السواد.

قال الهيثم: فأخبرني مخبر عن ابن عياش أنه حارب سفيان حتى حجز المساء بينهما، فلما عاد سفيان إلى معسكره قال شبيب لأصحابه: اعبروا بنا، فعبر فتحصن فرسه فسقط في دجيل فقال أصحابه: غرق أمير المؤمنين.

ويقال: بل قطع الجسر قوم من بني بكر بن وائل وكانوا قد تبرأوا منه لما فعل بالرمكة التي حمل عليها صاحبه.

ويقال إنه لم يكن لهم هزيمة إلا على الجسر، فقطعه سفيان، فغرق شبيب ومن كان على الجسر. وقال أيمن بن خريم في قصيدة له:

رأيت غزالة إذ طرحت	بمكة هودجها والغبيطا
سَمَتْ للعراقين في سومها	فلاقى العراقان منها أطيطا
أبى الجبناء من أهل العراق	على الله في الحرب إلا قسوطا

أيهزمهم مائتا فارس ... من السافكين الدماء العبيطا

وخمسون من مارقات النساء ... يجررن للمبديات المروطا

في قصيدة طويلة.

وقال أعشى بن أبي ربيعة:

صب أبو يحيى على كل مارقٍ ... كما صب بزيار على صيده صقرا

ألا انظر هداك الله في شأن حاجتي ... فمثلك أعطى الخير واحتسب الأجر

وقال المدائني: دخل شبي الكوفة ثلاث مرات، واجتمع له ستمائة رجل فأتى منبج وذعر أهل الشام، وأتى أرمينية.

ورثى الفرزدق محمد بن موسى بن طلحة فقال:

وإذا ذكرتك يا بن موسى أسبلت ... عيني بدمع دائمِ الهملانِ

ما كنت أبكي الهالكين لفقدهم ... ولقد بكيت وعز ما أبكاني

وقال أعشى همدان:

أعيني ما بعد ابن موسى ذخيرةً ... فجودوا إذا أبعدتما الدمع بالدم

قال: وولى الخوارج بعد شبيب: البُطين، فغلب على سوق الأهواز فسار سفيان إلى البطين فقاتله أياماً فطلب أصحابه الأمان فأمنهم وتفرقوا، وهرب البطين فظفر به الحجاج بعد ذلك فقتله في دار قومه فقال جرير:

قد نُصر الحجاج والله نصر ... أخزى شبيباً والبطين إذ كفر

وقال أبو عبيدة معمر بن المثنى: لما صعدت غزالة منبر الكوفة قال أيمن بن خريم بن فاتك الأسدي:

أبى الجبناء من أهل العراق ... على الله والناس إلا قسوطا

أيهزمهم مئتا فارسٍ ... من السافكين الدماء العبيطا

وخمسون من مارقات النساء ... يجررن للمبديات المروطا

وهم مائتا ألف ذي قونسٍ ... يئط العراقان منها أطيطا

رأيت غزالة إذ طَرَّحتْ ... بمكة هودجها والغبيطا

سمت للعراقين في سومها ... فلاقى العراقان منها البطيطا

ألا يتقي الله أهل العراق ... إذا قلدوا الغانيات السموطا

وخيلُ غزالة تعتامهم فتقتل من كان منهم وسيطا

وخيلُ غزالة تحوي النهاب وتسبي السبايا وتجبي النبيطا

وتحجرهم في حجال النساء كما تحجر الحية العضر فوطا

وقد قال أهل الوفاء اهبطوا نقاتل فلم يستطيعوا هبوطا

من الغش إما شقاق الأمير وإما نفاقاً وإما قنوطا

ولكنهم يمنعون الفرار إذا ما غزالةُ غطت غطيطا

كأنهم في الصعود الكؤود نعامٌ نوافر لاقت حطوطا

أقامت غزالة سوق الضراب لأهل العراقين حولاً قميطا

وأنتم دبا الأرض عند العطاء وفي الحرب تأبون إلا شطوطا

أهابوا غزالة أم قد رضوا غزالة إذ خالطوها خليطا

في أبيات.

وقال عبيدة: قال حبيب بن حدرة في قتل عتاب بن ورقاء:

ألوتْ لعتاب شوزابُ خيلنا ثم انثنت لكتائب الحجاج

لأخي ثمود فربما أخطأنه ولقد بلغن العذر في الإدلاج

حتى تركن أخا الضلال مسهداً متمنعاً بحوائطٍ ورتاج

ولعمر أم العبد لو أدركنهُ لسقينهُ صرفاً بغير مزاج

ولقد تخطأت المنايا حوشباً فنجا إلى أجلٍ وليس بناجِ

قال أبو عبيدة: وجه عبد الملك بن مروان محمد بن موسى بن طلحة بن عبيد الله أميراً على سجستان، فمر بالكوفة فقال له الحجاج: إن هذا المارق قد افسد البلاد وأخاف السبل وهو بالأهواز، فقاتله لعل الله يظفرك به فيكون أجر ذلك وذُخْرُهُ لك، ثم تسير إلى عملك.

فمضى محمد إلى الأهواز وسار إلى شبيب فقال له شبيب: لا يغرنك هذا العبد من نفسك، فامض لشأنك وما بعثت له، فأبى إلا مباركته بالقتال فقال شبيب: لا يدعه صلفة وعجبه حتى يحارب.

فأمر البطين بالخروج إليه فخرج، فقال له: قل لشبيب فليبارزني، فبرز له شبيب فتجاولا ساعة لا يقدر

أحدهما على صاحبه، ثم إن محمداً غفل غفلة فضربه شبيب بعمود على بيضته فهشم رأسه في البيضة، وانهزم عسكر محمد، وأمر شبيب بالكف عنهم. فقال الفرزدق يرثي محمد بن موسى:

نام الخلي وما أُغمِّضُ ساعةً ... أرقاً وهاج الشوق لي أحزاني

فإذا ذكرتك يا بن موسى أسبلت ... عيني بدمع دائم الهملانِ

ما كنت أبكي الهالكين لفقدهم ... ولقد بكيت وعز ما أبكاني

لا حي بعدك يا بن موسى فيهم ... يرجونه لنوائب الحدثانِ

أودى ابن موسى والمكارم والندى ... والعز عند تحفظ السلطان

جُمع ابن موسى والمكارم والندى ... في القبر بين سبائب الكتانِ

ما كان فيهم بعد طلحة مثله ... للسائلين ولا ليومِ طعان

ولئن جيادك يا بن موسى أصبحت ... ملس الظهور يجعلن في الأشطانِ

لبما تقاد إلى العدو ضوامراً ... جرداً مجنبة مع الركبان

وقال الفرزدق:

أعيني ما بعد ابن موسى ذخيرةً ... فجودا إذا أنفدتما الدمع بالدمِ

وهيجا إذا نام الخلي وأسعدا ... عليه بنوحٍ منكما كل مأتمِ

كريم رأى أن الحياة قليلةٌ ... وأن المنايا ترتقي كل سلمِ

في أبيات.

وقال رجل من بجيلة:

قتلنا شبيباً واستلبنا عقابه ... وأفلتنا فوت الرماح بطين

وقال بعض بني عذرة:

لاقيت منا يا شبيب خادراً ... وفتية يهدرن موتاً حاضراً

يجزى إليك رائحاً وباكراً ... ضرباً هذاذيك وموتاً فاقرا

حدثني أبو مسعود القتات عن ابن كناسة عن أبيه، أن قوماً من الخوارج تجمعوا والحجاج بواسط، وعلى شرطة الكوفة حوشب بن يزيد بن رويم الشيباني، ودخلوا الكوفة فأخذوا على أهلها بأفواه السكك مما يلي الحيرة، فقال إياس بن حصين بن زياد بن عُقفان بن سويد بن خالد بن أسامة بن العنبر بن يربوع بن

حنظلة، لبنيه وقومه: ليخرج إلى هؤلاء الخوارج عدهم منكم. فخرجوا فقتلوا الخوارج إلا من هرب منهم، وبلغ الخبر الحجاج ففرض لهم في ثلاثمائة. فقال:

ما في ثلاثٍ ما يُجَهِّزْنَ غازياً ... ولا في ثلاث متعة لفقير

فقال الحجاج: افرضوا له في شرف العطاء، ففرضوا له في ألفين.

أمر أبي زياد المرادي

قال الهيثم: لما قتل شبيب خرج أبو زياد، وهو رجل من مراد، وكان بنهر الملك من السواد فخرج بجوخى، وكان الجراح بن عبد الله الحكمي يومئذ ببابل والفلوجتين، فبعثه الحجاج على محاربته في ثمانمائة فلما تواقفا قال الجراح لأصحابه: الأرض. فقال أبو زياد: نحن والله أولى بالأرض والصبر منكم يا فسقة، فعرقبت الخوارج دوابهم، فلما رأى الجراح ذلك قال لأصحابه: موتوا يا بني الحرائر، ثم شدوا عليهم فقتلوهم جميعاً. وتمثل الجراح:

قالوا الركوب فقلنا تلك عادتُنا ... أوِ النزولُ فإنا معشر نُزُلُ

أمر أبي معبد الشني من عبد القيس

قالوا: ثم خرج بعد أبي زياد المرادي رجل من عبد القيس يقال له أبو معبد، قدم من ناحية البحرين، وكان خروجه بموقوع، فبعث إليه الحكم بن أيوب خليفة الحجاج على البصرة الشرط فقتل هو وأصحابه.

قال أبو الحسن المدائني: يقال كان خروج أبي معبد في أيام عبد الملك، ويقال في أيام الوليد بن عبد الملك.

وقال أبو الحسن المدائني: قال بعض الشرط: ما لنا والخوارج؟ فقال له بعضهم: وما لنا لا نقاتلهم؟ أليست أعطياتنا دارة علينا؟ فقال عمران بن حطان:

فلو بعثت بعضُ اليهود عليهم ... يؤمهم أو بعض من تنصرا

لقالوا رضينا إن أقمت عطاءنا ... وأجريت ذاك الفرض من بر كسكرا

خبر المصل الطائي

قال الهيثم بن عدي: لما هرب الناس من الحجاج أيام الجماجم، تجمع ناس من الخوارج بالفلوجة، فقال رجل من جديلة طيء يقال له المصل: لولا مكان ابنتي هذه لسريت إلى سيف بن هانئ وكان سيف على

جوخى وجولايا في رابطه أعدوا للخوارج تدفعهم عن الناس، فقال له رجل من الخوارج: هي مع بناتي لا يسعني بيتي ويعجز عنها.

قال: فاشترى حماراً، وأعطي نفقته، فخرج إلى راذان فرآه سيف في الصف الأول وعليه أطمار فاستراب به فقال لأصحابه: خذوه حتى أصلي. وفُتش فوُجد معه خنجر فضرب سيف عنقه وصلبه. ولما قُدم للقتل قال: الحمد لله لا حُكم إلا لله ثم أنشد:

يا لهف نفسي على سيف وشيعته	لو كنت ألحقت سيفاً بالخبيثينا
أبرا إلى الله من سيف وشيعته	ومن علي ومن أصحاب صفينا
ومن معاوية الغاوي وشيعته	أخزى إله الورى تلك العتانينا

خبر خارجي من عبد القيس بالبحرين

قال علي بن محمد أبو الحسن المدائني: خرج رجل من بني محارب ن عمرو بن وديعة بن لكيز بن أفصى بن عبد القيس بالبحرين على محمد بن صعصعة، في سنة ثمان وسبعين، قبل أن يُقتل قطري، فكتب الحجاج إلى عبد الملك: إن قطرياً قد شغل من قبلي من المقاتلة، فإن رأى أمير المؤمنين أن يكتب إلى إبراهيم بن عربي في أمر هذا الخارجي، فكتب إلى إبراهيم وهو باليمامة: أنْ سرْ إلى البحرين، فإن ظفرت بالمحاربي فلا تقتله وأحسن إليه، واحفظ له بلاءه، عند أمير المؤمنين مروان، فإنه لجأ إليهم يوم الجمل، ثم تحول إلى بني هميم.

فخرج إبراهيم إلى البحرين في ألفين فهزم الخوارج وتفرقوا، ورجع إبراهيم إلى اليمامة.

أمر الريان النكري

قال أبو الحسن: وخرج بعد هذا المحاربي على محمد بن صعصعة الكلابي: ريان النكري، نكرة بني لُكيز بن أفصى سنة سبع وسبعين على فراسخ من سوق الخط. وقدم ميمون الخارجي من عمان في أصحابه فنزلوا دارين، فكتب إليه الريان أن أقبل إلي. فصار ميمون إلى الزارة، وأتاه الريان، فندب محمد بن صعصعة الناس، فأبطأ عنه العبديون، وأتاه قوم من أهل الخط فوجه إلى الخوارج رجلاً من الأزد. ويقال وجه إليهم عبد الله بن عبد الملك العوذي، فهزمهم الخوارج وقتلوا أميرهم، ورجع الفل إلى محمد بن صعصعة، فخافهم محمد و لم يكن معهم جند سواهم.

وخذله العبديون فخرج من البحرين، وأقام ميمون بالبحرين أربعين يوماً، ثم انصرف إلى عُمان، وأقام الريان بالزارة.

وبلغ الحجاج الخبر فبعث يزيد بن أبي كبشة السكسكي وهو يزيد بن حيويل بن يسار بن حي بن قرط بن شبل بن المقلد، مدداً لمحمد بن صعصعة، فسار يزيد وقدم محمد على الحجاج فهم بقتله فقال: إن الناس خذلوني و لم يكن معي أحد من أهل الشام، وانهزم من وجهت إلى الخوارج وفروا عن أميرهم حتى قتل، فحبسه في السجن حتى مات.

وقدم يزيد بن أبي كبشة البحرين في اثني عشر ألفاً، وكان الريان في ألف وخمسمائة فالتقوا، وقتل الريان وهزم أصحابه، وأسر منهم أسرى فقتلهم يزيد وصلبهم، وصلب الريان، وكتب إلى الحجاج زياد بن الربيع بن زياد على البحرين، وقدم ابن أبي كبشة والشاميون على الحجاج.

أمر داود بن محرز العبقسي

قال أبو الحسن: وخرج داود بن محرز أحد بني عبد القيس ومعه جماعة، فأنزلوا الريان وأصحابه ودفنوهم وأعانهم أهل البحرين على إنزالهم ودفنهم، ثم أقام داود بالقطيف فلقيه أبو الفضل خليفة أبي البهاء صاحب الشرطة فهزم داود أبو الفضل خليفة أبي البهاء صاحب الشرطة فهزم داود أبا الفضل، فخرج إليهم أبو الحر عبد الرحمن بن النعمان العوذي، من الأزد ثم من بني عوذ بن مسود بن الحجر بن عمران، أخوة زهران بن الحجر، فقاتلهم في سوق القطيف في موقف الإبل وهو يرعى المراغة، فعقر بعبد الرحمن فحماه ابن عمه عنبسة بن عبد الرحمن، وتحاجزوا فلما أصبحوا اجتمع الناس وكثروا فقُتل الخوارج.

وكان أهل بيت عبد الرحمن قوم لهم نية في قتل الخوارج فقد لقوهم مراراً، فقال أبو البهاء في فرار خليفته:

لولا أبو الحُر ولولا عنبسة | أودى أبو الفضل وخلى الطنفسه
ولي حثيثاً وهو يغزو الكعنشه | إذ كثرت تحت السيوف الوسوسة

وغضب الحجاج على أهل البحرين، وأخذ عم عبد الله بن سوار العبدي وكان يقال له عميرة بن حصين، وقال: لعن الله عبد القيس قبيلتك فإنما أنت لص أو خارجي أو نصراني فمر به زاني فقطع يده، وأخذ يزيد بن الفضل فحبسه في قصر المسيرين.

وذكر بشر بن عاصم الليثي الخوارج فشتمهم، فسمعه رجل منهم، فمكث أياماً ثم أتاه فقال له: أصب لي سيفاً قاطعاً.

وكان لبشر غلام صيقلي، ويقال عدة غلمان صياقلة، فاشترى له من بعضهم سيفاً فتناوله الخارجي وهزه

ثم قال لبشر: كيف ترى هذا في هامة الشيخ الكافر؟ فوقع في نفس بشر إنه أراده لعيبه الخوارج وشتمه إياهم. فقال: أرى فيه شيئاً يحتاج إلى إصلاحه فناولنيه. فلما أخذه أدخله في غمده ودخل البيت هارباً من الخارجي، ثم ألقى إليه بسيفه فأخذه الخارجي وقال: أولى لك، وحكم على الناس وهو يقول:

وأبيض من سر الحديدة صارمٌ يخبره الليثي بشر بن عاصم
أقود جياد الخيل قباً بطونها أرجي ثواب الله يوم التخاصم
إلى ابن زياد خيب الله سعيه إلى شر والٍ من معدٍ وحاكمِ

خبر الخطار النمري

من النمر بن قاسط

قالوا: وخرج الخطار النمري، وكان نصرانياً فأسلم، ودعته الخوارج فأجابها، وخرج على سفيان بن هانئ الهمداني، فحاربه سفيان فقتله وأصحابه، فقال سلامة بن عامر القشيري:

ألا خبراني بارك الله فيكما متى العهد بالخطار يا فتيانِ
يُذكرني الخطار كل مُنطقٍ يجول به عند اللقاء حصان
فيا حزني ألا أكون شهدته بزاذان والخيلان تصطفقانِ
فتى لا يرى نوم العشاء غنيمة ولا ينثني من رهبة الحدثانِ
فما طمعت عيناي نوماً للذةٍ وما زالتا من ذكره تكفان

خبر داود بن النعمان العبدي

قالوا: كان داود بن النعمان أحد بني أنمار بن وديعة بن لكيز بن أفصى بن عبد القيس بن أفصى بن دُعمى بن جديلة بن أسد بن ربيعة، عابداً مجتهداً، وكان يقول لأصحابه: إني مللتُ الدنيا والمقام في دار الكفر مع الظلمة الكفرة، وقد انقطع العذر. فقال له أصحابه: فما يمنعك من الخروج؟ قال: مكان أبي بهذه البلاد.

ثم حج ورجع فقال لأصحابه: اخرجوا بنا إلى البصرة فإن لنا بها إخواناً، فأجابه أربعون رجلاً. وبلغ أباه أمره فقال: يا بني إني أخاف أن يشفي بك أمرك هذا على أمرٍ يُفسد دينك ودنياك فاتق الله وانظر لنفسك فإن الناس قد اختلفوا، فقال: يا أبت فإن الله أكرم من أن يضل طالبه. فقال: يا بني إن لي مالاً كثيراً عيناً

قد ذخرته لك، قال: لا حاجة لي فيه، إن الله يقول: "واللذين يكترون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله" الآية.

فقال: يا بني. إني أصرم نخل أربعة آلاف جريب. فقال: يا أبت إن في حائطك بعوضاً وأنا أريد حائطاً لا بعوض فيه.

ثم خرج ومعه أخته، وخرج معه أربعون رجلاً، فودعه أبوه وهو يبكي، فقدم البصرة فأقام بها حتى فرغ من جهازه، ولقي من أراد، ثم خرج إلى موقوع سنة ست وثمانين فوجه إليه الحكم بن أيوب عبد الملك بن المهلب.

وقال قوم: كان الحكم غائباً عن البصرة وخليفته عبد الملك بن المهلب، فوجه إليهم عبد الملك: عبد الله بن كرمان الجهضمي، فالتقوا فقال داود لأخته: تقدمي فإني أخاف أن تبقي بعدي فتسبين وتسرقين، فتقدمت فقاتلت فقتلت، وقتل أصحابه وبقي وحده وأحاطوا به قرب البلد وألجأوه إلى حائط ثم رموه بالنبل وطعنه رجل وقال: ذُقْ بما قدمت يداك فقال: ويحك، حر النار أشد من هذا، ومات فقال زياد الأعسم:

سقى الله أجساداً تلوح عظامها	بفرضة موقوع سحاباً غواديا
فإن يك داود مضى لسبيله	فقد كان ذا شوقٍ إلى الله تاليا
وقد كان ذا أهلٍ ومالٍ وغبطةٍ	وكان لما يغني من العيش قاليا
كأن الفتى داود لم يكن فيكم	ولم نره يوماً من الصوم باليا
أقيم على الدنيا كأني لا أرى	زوالاً لها أو أحسب العيش باقيا

وقال سعيد المرادي:

ألا يا في سبيل الله شالت	بداودٍ وإخوته الجذوع
مضوا قتلاً وتشريداً وصلباً	تظل عليهم طير وقوع
إذا ما الليل أظلم كابدوه	فأسفر عنهم وهم ركوعُ
يُعالون النحيب إليه شوقاً	وإن خفضوا فربهم سميع

قال أبو الحسن: يقال أن داود قُتل في أول سنة ست وثمانين قبل موت عبد الملك، ويقال إنه قُتل في أيام الوليد بن عبد الملك في سنة سبع وثمانين.

وقال أبو الحسن: كان داود بالبصرة فكان يأتي سوق الإبل فينادي: لو تعلمون ما أعلم لبكيتم كثيراً، إنكم لفي أمر مريج. ثم يقول: مكذبين ورب الكعبة.

وطلب فرساً فقيل له: لا تشتره فإن بظهر شامة و لم يكن بظهر الفرس شامة إلا قتل فارسه: فقال: وكيف لي بالقتل؟ لقد رغبتموني فيه، فاشتراه.

أمر مطر بن عمران بن شور

وهو ابن أخي القعقاع بن شور الذهلي.

قال الهيثم بن عدي : خرج على محمد بن مروان، وهو والي الجزيرة والموصل مطر بن عمران بالموصل، فقتله خيل الموصل، وعليها ثوبان الحضرمي، وقد انحاز إلى باجرمى، فقتل بباجرمى وبعث ثوبان بأسراء من أصحابه إلى الحجاج فقتلهم، وكانوا يكرهون أن يقتلوا خارجياً بالجزيرة والشام مخافة أن تتخذ الخوارج ما هناك دار هجرة.

وقال المدائني: خرج مطر قبل خروج صالح بن مسرح، فقتلته خيل محمد بن مروان بناحية باجرمى أو بدقوقا من أرض الموصل، فبلغ امرأته خبرُهُ وكان أهلها منعوها من الخروج فماتت أسفاً، فقال الجعد بن أبي ضمام الدوسي:

أرى مطراً قد باع لله نفسه ... بما ظل يُعطى للشراة ويوعدُ

فأصبح قد نال الكرامة كلها ... بما كان يسعى في بغاها ويجهد

فإن يكُ قد لاقى مقادير قومه ... فقد بان منا الخاشع المتعبد

في قصيدة.

وقال محمد بن دثار:

على حميد صلوات الأبرار ... ومطراً فاغفر له يا غفار

قد كان صواماً طويل الأسحار

قال: وخرج على محمد في أيام عبد الملك خارجي يقال له: سُكين المحملي، فوجه إليه قائداً من أهل الجزيرة فحاربه فاسره وأتى به محمداً، فبعث به إلى الحجاج ليقتله. فقال له: أجمعت القرآن؟ فقال: أو كان متفرقاً فأجمعه ولكني أقرأه وأحفظه. قال: ما تقول في أمير المؤمنين؟

قال: ومن أمير المؤمنين؟ قال: عبد الملك! قال: لعنة الله عليه وعليك معه. قال: إنك مقتول. قال: إذاً ألقى الله بعملي وتلقاه بدمي. فأمر الحجاج به فقتله وصلبه.

قال الهيثم: وكان باليمامة رجل يكنى أبا الحريرة من بني حنيفة، وكان متعبداً، فرأى قوماً يكلمون امرأة فقال: ما هذا؟ قالوا: إنا اكتريناها نهاراً وليلاً. فقال: هِبْكُمُ اكتريتموها نهاراً لخدمة فما بال الليلة؟ قالوا:

ننكحها. ثم عمد إلى سيف له ثم هجم على القوم وهم سبعة عشر رجلاً وقال: "إما تخافن من قوم خيانةً فانْبِذْ إليهم على سواء إن الله لا يحب الخائنين".
فأخذوا سلاحهم وقاتلهم فقتلهم ثم حكَّم بسوق حجر فقتل عدةً، ثم قُتِلْ.

أمر جواز الضبي

قال الهيثم: أتى جواز الضبي الشام، وكان رؤساء الخوارج، مع من شهد حصار ابن الزبير وكان هارباً من الحجاج، فترل بالشام على عبد الله بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان، وكانوا يضيفون من يعرفون ومن لا يعرفون، وكان عبد الله بن يزيد، وروح بن زنباع، أكرم من بالشام إضافة، وكانا يتعديان مع عبد الملك ويتعشيان، فإذا انصرفا دعوا بطرف ما عندهما فأكلاه مع أضيافهما.
وكتب الحجاج إلى عبد الملك يُعظم فيه أمر الخلافة، ويذكر أن الخليفة أعظم مترلة عند الله من الملائكة المقربين لأنه جعل آدم خليفته، ثم أمر الملائكة بالسجود له، وجعله رسلاً عليه.
فَحَسُنَ موقع ذلك من عبد الملك وأعجبه وازدهاه، فقال: وددت أن عندي بعض الخوارج فأخاصمه بكتاب الحجاج، فلما انصرف عبد الله بن يزيد حدث أضيافه بما كان، فقال له جواز: توثق لي منه ثم أعلمني. فراح إليه فتوثق له ثم أعلمه ذلك، فلما أصبح جواز اغتسل وتحنط ولبس ثوبين أبيضيين، وأدخله إلى عبد الملك فدعا بكتاب الحجاج فقال: اقرأهُ. فقال جواز: جعلك: مرة ملكاً، ومرة نبياً، ومرة خليفة، فإن كنت ملكاً فخبرنا متى نزلت، وإن كنت نبياً فأعلمنا متى نبئت، وإن كنت خليفةً فأعلمنا أعنْ ملأ من المسلمين استخلفتُ أم عن ابتزاز لأمورهم؟ وكان أمية بن عبد الله بن خالد بن أسيد حاضراً فقال: هو الله منهم. فقال جواز: يا أمية لو كنت منهم عرفتني يوم أبي فديك حين هزمك.
فقال عبد الملك: قد أعطيناك عهداً وموثقاً فلا سبيل لنا إلى قتلك، ولكنك والله لا تساكني في بلد، إلحق بحيث شئت. قال: فإني أختار مصر، فترل مصر وأتى المغرب فأفسد أهله، وكان يرى رأي الصفرية.
فلما مات عبد الملك كتب الحجاج إلى الوليد: إن ذمة أمير المؤمنين عبد الملك قد وفت ولا أمان لعدو الله جواز الضبي، فإن رأى أمير المؤمنين أن يبعث إلي به، وكانت بنو أمية لا تقتل خارجياً بالشام والجزيرة لئلا يتخذ دار هجرة.
فكتب الوليد إلى قرة بن شريك: أن ابعث إلي بجواز الضبي فبعث به إليه، فلما دخل عليه قال: انطلقا به إلى الحجاج، فقال: إني في أمان أبيك وذمته. قال: لا بد من الحجاج، فقال: مثلك والله أخفر أباهُ، واستخف بذمته وأخفرها.
فلما قُدم به على الحجاج قال: بلغ من أمرك يا جواز أن ترد على أمير المؤمنين؟ قال: "اقضِ ما أنت قاضٍ

غنما تقضي هذه الحياة الدنيا".

وكان صالح بن عبد الرحمن الكاتب السجستاني عدواً ليزيد بن أبي مسلم كاتب الحجاج، وكان جبلة أخو صالح خارجياً، فدعا صالحاً فأدخله في رأيه، فأشار على الحجاج أن يأمر صالحاً بقتل جواز، فقال له: يا صالح قُمْ فاقتله، قال صالح: فأردت أن أطرح السيف ثم خفتُ الحجاج أن يسبي بناتي فقتلته، ثم لم يزل خائفاً من الخوارج.

فلما عذبه عمر بن هبيرة أيام يزيد بن عبد الملك وطُرح على مزبلةٍ على باب دار العذاب وبه رمقٌ، كان وهو على المزبلة يقول: لا حكم إلا الله، استغفر الله من قتل جوازٍ، اللهم اغفر لي ولا أراك فاعلاً.

وقال بعض الخوارج:

لا بارك الله في قوم أجاز لهم حكامهم أن أصابوا المرء جوازاً

إن يقتلوه فما فازوا بمقتله وقد أصاب الذي رجى وقد فازا

وقال ابن الكلبي: خرج سكين أحد بني محلم بن ذهل بن شيبان بدارا، فأصابته خيل محمد بن مروان، وهو يلي الجزيرة، فبعث به إلى الحجاج، فكلمه كلاماً شديداً، فضرب الحجاج عنقه.

وقال سليمان بن عبد الملك لأبي حازم الأعرج وهو بالمدينة يريد الحج: ما بالنا نكره الموت؟ قال: لأنكم أخربتم آخرتكم، وعمرتم دنياكم، فكرهتم أن تنقلوا من العمران إلى الخراب.

وقال أبو حازم لسليمان – وقال له لم لا تأتينا؟ – : إن الأمراء كانت تأتي العلماء رغبة فيما عندهم، فقد صار العلماء يأتون الأمراء فسقطوا من أعين الناس. فقال الزهري: إياي تعني يا أبا حازم – وذلك أنه كان عند سليمان – فقال: ما تعمدتك ولكنه ما تسمع.

وقال سليمان: يا أبا حازم، أي الناس أكرم على الله؟ فقال: أهل المروءة والنهى، قال: فأيهم أكيس؟ قال: رجل عمل بطاعة الله ودل الناس عليها. قال: فكيف نحن يا ليت شعري؟ قال: اعرض عملك على كتاب الله تعلم ذلك. فبعث سليمان إليه بصلة فلم يقبلها.

أمر الوليد بن عبد الملك بن مروان

أم الوليد: ولادة بنت العباس بن جزي بن الحارث بن زهير بن جذيمة بن رواحة بن ربيعة بن مازن بن الحارث بن قطيعة بن عبس بن بغيض بن ريث بن غطفان بن سعد بن قيس، وأم ولادة سوداء.

قال القعقعاع بن خُليد بن جزي للعباس: غششت أمير المؤمنين يا عدو الله حين زوجته ابنة السوداء.

وكانت عند الوليد نفيسة بنت زيد بن الحسين بن علي بن أبي طالب، وأمها لبابة بنت عبد الله بن العباس بن عبد المطلب، فتوفيت وهو حامل فجعل ولدها يركض في بطنها. فهم الوليد أن يبقر بطنها، حرصاً على أن يكون له منها ولد يبقى بعده، فلم يفعل.

وكانت عند الوليد: آمنة بنت سعيد بن العاص، ثم تزوجها خالد بن عبد الله بن خالد بن أسيد بن أبي العيص. وأم البنين بنت عبد العزيز بن مروان، وأمها ليلى بنت سهيل بن عامر من بني جعفر بن كلاب. وأم عبد الله بنت عبد الله بن عمرو بن عثمان، وهي أم عبد الرحمن. وامرأة من بني فزارة وهو أم أبي عبيدة. وعاتكة بنت عبد الله بن مطيع.

قال المدائني: كان الوليد تزوج في خلافته ثلاثاً وستين امرأة، فكان يطلق الثلاث والاثنتين والواحدة، فقالت عاتكة بنت عبد الله بن مطيع لما تزوجها: إنا اشترطنا على الحمالين الرجعة فما رأيك؟ قال: أقيمي.فصبر عليها أربعة أشهر ثم طلقها، فولد الوليد بن عبد الملك: عبد العزيز، ومروان، وعنبسة، ومحمد، أمهم أم البنين بنت عبد العزيز، وأمها ليلى بنت سهيل بن حنظلة بن طفل بن مالك بن جعفر بن كلاب. وعبد الرحمن أمه أم عبد الله بنت عبد الله بن عمر بن عثمان بن عفان.

والعباس كان أكبرهم وبه كان يكنى الوليد.

ويزيد، وإبراهيم، ورَوحا، وبشر، ومبشر، وصدقة، ومسروراً، وعمر، ومسلمة، وخالداً، وتماماً، وجزي، ويحيى، ومنصور لأمهات أولاد شتى.

وأبا عبيدة أمه من ولد سيار الفزاري. وأبا بكر.

قال المدائني: كان أبو عبيدة ضعيفاً، وكان يقول الشعر، فأرسل إليه هشام بن عبد الملك: لأئن بلغني أنك قلت بيتاً لأزحمنك زحمة سوء، ويقال إنه قال لأحلقن جمتك جمة السوء. وفيه يقول الشاعر:

أبو عبيدة سارق الفراريج

وكان أجمل ولد الوليد، فلما كانت أيام أبي العباس لجأ إلى أخواله من فزارة فأخذ فقتل.

وأما إبراهيم بن الوليد فولي شهراً أو شهرين ثم خُلع وسنذكر خبره إن شاء الله.

وأما يزيد بن الوليد فإنه ولي أشهراً ثم مات وسنذكر خبره أيضاً.

قال المدائني: وأما يحيى بن الوليد فقتل حاجب بن حميضة الكلابي من ولد ملاعب الأسنة، وكان يشرب عنده، فقال له: لم جلد الوليد أباك؟ فسكت، فأعاد عليه فقال له: في أمك، فأمر به فألقي من فوق البيت. فاستعدى بنو كلاب هشاماً، فكتب هشام إلى عامل دمشق: أحلف خمسين رجلاً من بني الوليد

بالله ما قتلوا ولا علموا قاتلاً، فلم يحلفوا وحملوا الدية.
قال أبو الحسين: و لم يُعقب تمام، وقال فيه الشاعر:

بنوا الوليد كرام في أرومتهم ... نالوا المكارم قدماً غير تمام

وكان مسروراً ناسكاً، كتب إلى قتادة بن دعامة، فجعل قتادة يقول: كتب إلي ابن أمير المؤمنين. وكانت عنده ابنة الحجاج.
وكان بشر من فتيانهم، وكان روح من غلمانهم، وكان عمر بن الوليد من رجالهم، كتب إلى عمر بن عبد العزيز فأغلظ له، فكتب إليه عمر، فوضع ذلك منه، فقال الفرزدق يمدح عمر بن الوليد:

إليك سمت يا بن الوليد ركابنا ... وركبانها كانوا أجد وأجهدا

إلى عمر أقبلت معتمداً به ... فنعم مناخ الركب حين تعمدا

فلم تجر إلا كنت في الخير سابقاً ... ولا عدت إلا كنت في العود أحمدا

وقال الفرزدق:

كفى عمر ما كان يُخشى انعتاقهُ ... إذا نزلت بالدين إحدى البوائق

يلين لأهل الدين من لين قلبه ... لهم وغليظ قلبه للمنافق

وكان لعمر بن الوليد ستون ابناً يركبون معه إذا ركب، وكان يقال له: فحل بني مروان.
وقال المدائني: كان أبو بكر بن الوليد مائقاً، قال يوماً لرجل من كلب: ما أحسن الغرة التي في يد فرسك.
وكان العباس بن الوليد فارسهم، وله يقول الفرزدق:

إن أبا الحارث العباس نأمله ... مثل السماك الذي لا يخلف المطرا

وله يقول جرير بن عطية:

إن الندى حالف العباس إن له ... بيت المكارم ينمي جده صعدا

يعطي الجزيل بلا من ولا نكدٍ ... يكفي العيون إذا شؤبوبها وقدا

إن العدو إذا راموا قناتكم ... لم يلق من رامها وصماً ولا أودا

فولد العباس: المؤمل، والحارث، وأمهما ابنة قطري بن الفجاءة، فلما ولي عمر بن عبد العزيز الخلافة قال: خل سبيلها وإلا رجمتك أو تزوجها. فتزوجها، وقد ذكرنا أمرها في خبر قطري.

قال: وكان محمد بن الوليد سخياً يقول: إني لا أحب أن أسأل. وله عقب.

وقال المدائني: كان لبني الوليد غاشية يأتونهم فيعطونهم.

قالوا: وكان عبد العزيز سيد ولد الوليد بن عبد الملك، وأراد الوليد أن يبايع لعبد العزيز بعد سليمان، وزوجه أم أيوب بنت سليمان، وزوج بعض بني سليمان بعض بناته وقال له: اهدِ ابنتك إلى عبد العزيز في داري لتكون عندي، وحول بيتك إلي لتضم إليهم بناتي استعطافاً له، فأبى سليمان عليه إرادته.

وقال الراجز: وهو من عذرة للوليد:

يا ليتها قد خرجت من فمه	إن ولي عهده ابن أمهِ
ثم ابنه وليٌّ عهد عمه	قد رضي الناس به فسمهِ
خليفة الله ولا تعمه	أبرز لنا يمينه من كمه
أصبح فيضاً يستقى بجمه	به استقام الأمر في أسطمهِ

فرد عليه رجل من الأزد يقال له المثنى:

عذريهم عض ببظر أمه	إذ جعل الدرص إلى خضمِّهِ

فلما وُلي سليمان تلقاه عبد العزيز فقال: دفنت أم أيوب بنت سليمان ثم جئتني؟ فقال: يا أمير المؤمنين إن المصيبة بها علي أعظم. قال: ونازعت الحارث ابن أمير المؤمنين الصلاة عليها؟ قال: لم يبلغ من سفهي هذا كله.

وقال سليمان لعبد العزيز بن الوليد: والله لو كنت بايعتُ لك لقطعت يدك، فلم يزل عبد العزيز طامعاً في الخلافة، فلما مات سليمان وهو بالشام عقد ألويةً وشخص إلى طبرية ودعا إلى نفسه فقيل له: إن خالك قد استخلف، فحل ألويتهُ ورجع، فقال له عمر حين بايعه: أيا عبد العزيز أردت أن تشق عصا المسلمين. وتضرب بعضهم ببعض، لقد كنت أربأُ بك عن هذا الرأي.

فقال: يا أمير المؤمنين الحمد لله الذي استنقذني بك، لولا مكانك ما ملكها علي أحد.

وكان يقال: لو وضع بنو الوليد في كفة ميزان وعبد العزيز في كفة لرجح بهم عبد العزيز، وكان سخياً وكان يقول لخاصته: والله لا يرمقني رجل ببصره ولا يبسط إلي لسانه إلا أعطيته فامنعوني أو دعوا. وله يقول الشاعر:

وأنت ابن ليلى الخير خير ظعينةٍ	وليلى عدي لم تلدك الزعانفُ

وليلى عدي، أم عبد العزيز بن مروان: ليلى بنت زبان بن الأصبغ، وليلى الأخرى: أم أم البنين.

وقال المدائني: قال الجرمي عن أبيه: كنا مع عبد العزيز بن الوليد: وهو مريض، فخرج إلى منزل كان ينزله، ومعنا حجر بن عقيل الرياحي، فأنشده:

فما أخرجتنا رغبةٌ عن بلادنا ولكن ما قد قدر الله كائن

لحينٍ نفوس لم تجد متأخراً فلا تبعدن تلك النفوس الحوائنُ

فقلت: قطع الله لسانك. فهلك عبد العزيز في وجهه ذلك في خلافة هشام بن عبد الملك.

وكان الوليد بن عبد الملك ضم إلى عبد العزيز أبا عبيدة محمد بن عمار بن ياسر، وكان لعبد العزيز بن الوليد من الولد، عتيق، وعبد الملك، أمهما من ولد أبي بكر الصديق، وكان له قدرٌ. وكان لعبد الملك قدرٌ وكان يكنى أبا مروان. وقال الشاعر:

إني رأيت بني أم البنين لهم مجد طويل وفي أعمارهم قِصَرُ

مات الهمام أبو مروان فاختشعت كلب وأي بلاء يبتلى مضرُ

فقال الوليد ليزيد بن الحصين بن نمير السكوني: بايع لعبد العزيز، فقال: أما يميني فبايعتُ بها لسليمان وإن شئت بايعتُ لعبد العزيز بشمالي.

قالوا: وكان الوليد بن عبد الملك يقول: إذا احتلم الصبي من ولدي فضموا إليه مؤدباً له صلاح وفضل وشرف، وضموا إليه عشرة يجالسونه ويكونون عيوناً عليه يحولون بينه وبين من يجالسه من أهل الدناءة والسخف.

وكان يقول: سيدنا عبد العزيز، وفتانا بشر، وعالمنا روح، وفارسنا العباس، وفحلنا عمر.

وقال الوليد: من رأى مثل ولديّ: عبد العزيز على دمشق، والعباس على حمص، وبشر على قنسرين، وعمر على الأردن. فقال له عباد بن زياد: كان عبيد الله بن زياد على العراق، وأخوه عثمان خليفته على أحد المصرين، وعباد على سجستان، وعبد الرحمن على خراسان. فسكت.

قالوا: وكان بنو الوليد ثمانية عشر سراةً، فكانوا يركبون، فإذا رجعوا مضوا مع أكبرهم إلى منزله، فإذا دخل انصرفوا مع الذي يليه آخرهم.

قالوا: وكان على شرط الوليد كعب بن حامد ثم عزله وولى أبا ناتل رياح بن عبدة الغساني، ثم عزله وأعاد كعباً.

واستقضى سليمان بن حبيب المحاربي، وولى عمر بن عبد العزيز المدينة وأمره أن يبني مسجدها ويجعله مائتي ذراع في مائتي ذراع، وبعث من الفعلة من الشام، وكتب إلى ملك الروم يعلمه أنه قد أمر بهدم

مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ويسأله أن يعينه في بنائه، فبعث إليه بمائة ألف مثقال ذهباً وبمائة فاعل، وبأربعين حملاً فسافسا، فبنى عمر المسجد وبنى الوليد مسجد دمشق فقال لأصحابه: أقسمتُ عليكم لَمّا أتاني كل واحد منكم بلبنةٍ. فجعل رجل من أهل العراق يأتيه بلبنتين، فقال له: ممن أنت؟ قال: من أهل العراق. فقال: يا أهل العراق تفرطون في كل شيء حتى في الطاعة.

قالوا: وأعطى الوليد المجذمين، وقال: لا تسألوا الناس، وأعطى كل مُقعد خادماً، وكل ضرير قائداً.

وكان الوليد صاحب بناء واتخاذ للمصانع، وكان عند أهل الشام أفضل خلفائهم، فلما ولي سليمان كان صاحب نكاح وطعام، فكان الناس يتلاقون في زمن الوليد فيسألون عن البناء والمصانع وما أشبه، ويسألون في زمن سليمان عن التزويج والجواري والطعام.

وولي عمر بن العزيز فكان الناس يسألون عن الفقه والقرآن، فيقول هذا: متى ختمت، ويقول هذا: كم تصوم من الشهر.

المدائني قال: كتب الوليد إلى بعض عمال أبيه: أما بعد فقد أتاني كتابك تذكر ما اختص الله به أمير المؤمنين من خلافته، وأنك بايعت من قبلك فحسنت إجابتهم وسارعوا إلى الطاعة، وأمير المؤمنين يحمد الله على ما أكرمه به واصطنع، ويسأله العون على ذلك، وذكرت أنك بعثت إلى أمير المؤمنين ببيعة من قبلك مع أبان بن سُويد وهو في صالحي أهل بلاده، وقد قدم إلى أمير المؤمنين بكتابك، فأحسن صلته، والسلام.

وكتب جناح مولى أمير المؤمنين. وكان جناح على رسائله وهو مولاه.

المدائني قال: خطب الوليد يوم جمعة فأتت الصلاة فناداه رجل: الصلاة، وجلس فلم يُعرف، فقال الوليد: أيها الناس والله ما نعاتبكم على العلانية وإنما نعاتبكم على أن تسروا لنا العداوة.

وقال الوليد: أنا أنفق على الكعبة وأكسوها وأطيبها فعلام يأخذ بنو شيبة هداياها، لأمنعنهم إياها العام، فبلغهم ذلك فأرمضهم، وخرج الوليد حاجاً فخرجوا يتلقونه فوجدوا الحجاج معه فقالوا له: أنت وإن كنت معزولاً عنا، فأنت محمود عندنا ورحمنا وحرمتنا ما لا تُنكر، وقد بلغنا كذا وفزعنا إليك، قال: إذا دخلتم على أمير المؤمنين فتحيَّنوني عنده، ثم سلموا عليه خالي الوجه ودعوني أكفيكموه ففعلوا، فلما خرجوا قال الحجاج: علام تدع هؤلاء وهدايا الكعبة؟ قال: قد أجمعت على أخذها، قال، إفعل فإني كنت أشرتُ بهذا على أمير المؤمنين عبد الملك فلم يفعل، فقال: أنا أبرأ إلى الله مما برئ منه أمير المؤمنين عبد الملك. وتركها لهم.

المدائني قال: قام رجل من أهل حمص إلى الوليد فقال: يا أمير المؤمنين إني أتيت ذنباً فاستغفر لي غفر الله لك. فقال بعضهم: مُقادي يقوم أمير المؤمنين بنفسه.

وقال المدائني: قدم ذبيان بن نعيم بن حصين العليمي من كلب على الوليد فقال: يا أمير المؤمنين: إني قد فرضت لنفسي فسلم ذلك لي. قال: وفي كم؟. قال: في ستين دينارا. قال: قد أجزناها لك، ثم بعثه إلى عبد العزيز بن الوليد، وهو على قنسرين وأوصاه به، فكان يأذن لرجلين من قيس يقال لهما راسب وسعيد قبله فغضب وكتب إلى الوليد فقال:

أبلغ أمير المؤمنين ودونه — فراسخ تطوي الطرف وهو حديد
بأني لدى عبد العزيز مؤخرٌ — يقدم قبلي راسب وسعيد

فكتب إلى عبد العزيز إن يقدمه.

وقال هشام ابن الكلبي عن أبيه: إنما ضمه عبد الملك إلى عبد العزيز بن مروان فجفاه، فكتب إلى عبد الملك، فكتب عبد الملك إلى عبد العزيز ببره وصلته وتقديمه.

المدائني أن الوليد قال لعباد بن زياد: أين كان زياد من الحجاج؟. فقال: إن الحجاج لمقدام. قال: أين تدبيره قال: قدم زياد على العراق على راحلته فضبطه بمداراة ورفق وحسن سياسة، وقدم الحجاج فكسر الخراج وأفسد قلوب الناس و لم يضبطهم بأهل الشام وأهل العراق، ولو رام منهم ما رام زياد لم يفجأك شيء دون قدومه عليك يوجف على قعوده.

وقالوا: استعمل الوليد عبد العزيز على بعض الشام فأتاه رجل فقال: نصيحةً. قال: إن كانت لك رددناها عليك، وأن كانت لنا فلا حاجة لنا فيها. قال: جارٌ لي أخل بمركزه، قال: بئس الجارُ أنت نحن ناظرون فيما ذكرت فإن كنت صادقاً مقتناك وإن كنت كاذباً عاقبناك، وإن أحببت أن نعفيك أعفيناك. قال: اعفني. قال: قد فعلت.

وقال المدائني: كان عبد الملك استعمل أخاه محمداً على قنسرين والجزيرة وأرمينية وأذربيجان، فلما ظهر محمد على أرمينية وأذربيجان عزله عبد الملك عن قنسرين فلما مات عبد الملك استعمل الوليد على عمل محمد: مسلمة بن عبد الملك، فأضر مسلمة بمحمد، فدخل محمد على الوليد ومعه ابنه مروان يتوكأ عليه، فقال: إن أخي عبد الملك كان يصلني ويشركني في سلطانه حتى ذهب لسبيله، وقد بلغتُ من السن ما ترى وأنا لك بمنزلة الوالد، فطأطأ الوليد ثم تمثل:

إن تصبرا فالصبر خير مغبةٍ — وإن تجزعا فالأمرُ ما تريانِ

فقام محمد وهو يتمثل:

فإن جزعنا فمثل الشر أجزعنا — وإن صبرنا فإنا معشر صُبُرُ

ثم انصرف إلى الرها، فأقام بها حتى مات.

المدائني عن أسامة بن زيد عن سعيد بن إبراهيم قال: قيل لسعيد بن المسيب: إن ابن شهاب حدث الوليد عن قبيصة بن ذؤيب عن المغيرة بن شعبة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "لا ينبغي للخليفة أن يُنَاشَد"، فقال ابن المسيب: لعنة الله على ابن شهاب، إن كان حدث بهذا، لقد أعظم الدنيا. أيحدّث الوليد بمثل هذا وهو يعرف الوليد؟ ويحهُ أما سمع قول أخي بني كعب حين قال:

لا هُمَّ إني ناشدٌ محمدا حِلفَ أبينا وأبيه الأتلدا

أفيُنَاشَدُ رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا يُناشَدُ الخليفة؟ المدائني قال: قال أُسيلمُ بن الأخيفِ للوليد قبل أن يلي: إذا ظننت ظناً فلا تحققه، وإذا سألت الرجال فاسألهم عما تعلم، فإنهم إذا رأوا سرعة فهمك ظنوا أنك فيما لا تعلم على حسب ذلك، وأَقِلَّ الكلام يقل لحنك. وكان الوليد لحاناً.

المدائني عن عامر بن عبد الأعلى قال: حدث الوليد أنه جمع بين هند بنت الحسن الإيادي، ويقال العمليقي وبين جمعة بنت عابس الإيادي، فقيل لجمعة: أي الرجال أحب إليك؟. قالت: الغليظ الكبد، الظاهر الجلد، الشديد الجذب بالمسد.

ثم قيل لهند: أي الرجال أحب إليك؟ قالت: القريب الأمدْ، الواسع البلد، الذي يوفد إليه ولا يَفِدْ، فقال الوليد: من هذا الرجل فقال له هاشم بن عبد الأعلى الفزاري: أنت يا أمير المؤمنين.

قالوا: وكتب الوليد بن عبد الملك – ويقال سليمان – إلى عثمان بن حيان المري، وهو عامله على المدينة يأمره أن يحصي المخنثين قبله، فصحف الكاتب فقرأ: إخص المخنثين فخصى عدة منهم فيهم الدلال، فقال الآن تم لي الخنث.

المدائني عن شراحيل بن علي قال: أمر الوليد وهو على المنبر بقراءة كتاب جاءه من الحجاج يذكر فيه طاعته ونصيحته ويقول: إني أرجو بصدق نيتي وخلوصها لأمير المؤمنين شفاعته لي. فقال أبو معتمر الحمصي: مقادي أمير المؤمنين ينجو بنفسه.

قالوا: خرج الحجاج من العراق حاجاً أو معتمراً، فمر بالمدينة وعليها عمر بن عبد العزيز فقال: كيف أميركم؟ فأثنوا عليه خيراً. فقال: كيف هيبتكم له مع ما تذكرون من حسن سيرته؟ قالوا: ما نقدر أن نملأ عيوننا منه إذا جالسناه. قال: فما عقوبته؟. قال: ما بين الخمس عشرة ضربة إلى الثلاثين، فقال: أهذه الهيبة مع هذه العقوبة؟ قالوا: نعم. قال: الأمر إلى الله، لقد حذرتُ أمير المؤمنين إياه، وإن الوليد لأهلٌ للنصيحة.

فكتب الحجاج إلى الوليد: إن أهل المدينة اتخذوا عمر بن عبد العزيز كهفاً، وقد تحبب إلى أهل المدينة، فما يتقدمه عندهم أحد. فعزل الوليد عمر عن المدينة، وولى عليه عثمان بن حيان المري. وأخبر عمر بن عبد العزيز بلحن الوليد فقال: إنه وإن كن لأجد وكان الجدين وقرأ الوليد في الحاقة: "يا ليتها كانت القاضية"، فقال سليمان: وأنا والله وددها، وكان سليمان وكانس يسمع الوليد يلحنُ في خطبته فيقول: الله المستعان.

المدائني قال: مرض الوليد بن عبد الملك فرهقته غشية، فمكث عامة يومه عندهم ميتاً، فبُكي عليه وحرجت البرد بموته، فقدم رسول على الحجاج بمثل ذلك، فاسترجع ثم أمر بحبلٍ فشد في يده ثم أوثق إلى أسطوانة وقال: اللهم لا تسلط علي من لا رحمة له. فطالما سألتك أن تميتني قبل أمير المؤمنين، فبينا هو كذلك إذا قدم عليه بريد بإقامته فخر ساجداً وأعتق كل مملوك له.

ويقال إنه قال: اللهم إني لم أدعك في موطن أصابني فيه سوء إلا استجبت لي، وقد سألتك أن تقدم يومي قبل يوم الوليد، فلما جاءه البريد بعافيته خر ساجداً، وأعتق كل مملوك له، وتصدق بصدقة كثيرة.

قالوا : ولما أفاق الوليد قال: ما أحد أسر بعافية أمير المؤمنين من الحجاج، فورد كتابه بعد أيام بتهنية الوليد بالعافية، وبعث إليه بأنبجات من انبجات الهند.

ثم لم يمت الحجاج حتى ثقل على الوليد، فقال خادم للوليد: إني لأوضئه يوماً لصلاة الغداة إذ مد يده فجعلت أصب عليها الماء وهو ساه والماء يسيل ولا أقدر أن أتكلم، ثم نضح الماء في وجهي وقال: أناعس أنت؟ ثم رفع رأسه إلي فقال: ويلك أتدري ما جاء الليلة؟ قلت: لا. قال: ويلك مات الحجاج.

فاسترجعت فقال: اسكت فما يسر مولاك أن في يده تفاحة يشمها وأنه لم يمت.

المدائني قال: قال الماجشون: لما مات الحجاج أتيت عمر بن عبد العزيز فأخبرته فقال: رغم أنفي لرب لم يقطع مدتي حتى أراني موت الحجاج، فأتى الوليد فأخبره فترحم عليه، ثم قال لعمر: أما لقد كان حسن القول فيك يا أبا حفص، وهل كان إلا منا أهل البيت.

وحدثني الحرمازي عن أبي عمرو المديني قال: لما مات الحجاج والوليد بن عبد الملك جعل الإماء والصبيان بالمدينة يقولون: يا مهلك الاثنين أهلك ذاك الإنسان – يعنون عثمان بن حيان – وكان الوليد عزل عمر بن عبد العزيز وولاه المدينة، فلما عزل عثمان قالوا: يا مهلك الاثنين أهلك ذاك الإنسان، ومن ذاك الإنسان، عثمان بن حيان.

المدائني قال: قال سليمان بن يسار للوليد: إن عمر بن الخطاب قال: وددت أني أنجو من الخلافة كفافاً لا علي ولا لي، فقال: كذبت أو قال: كذبت.

المدائني عن علي بن إبراهيم قال: قال الوليد: لا تحدثونا عن عمر بن الخطاب فإن حديثه طعن علينا.

قال: وحج الوليد وحج محمد بن يوسف أخو الحجاج من اليمن، وحمل هدايا للوليد، فقالت أم البنين بنت عبد العزيز امرأة الوليد: اجعل لي هدية محمد بن يوسف، فأمر بصرفها إليها، فجاءت رسل أم البنين إلى محمد بن يوسف لقبض الهدايا فأبى وقال: لا أسلمها حتى يراها أمير المؤمنين، فغضبت ودخلت على الوليد فقالت: لا حاجة لي في هدايا محمد فإنه بلغني أنه أخذها من الناس ظلماً وغصباً وسخرهم لعملها. فلما حملها إلى الوليد قال له: بلغني أنك اغتصبتها الناس وكلفتهم عملها وظلمتهم. فقال معاذ الله. فأحلفه خمسين يميناً بين الركن والمقام أنه ما ظلم أحداً ولا أصابها إلا من طيب فحلف. فقبلها الوليد، وبعث بها إلى أم البنين. ومات محمد بن يوسف في اليمن، أصابه داء تقطع منه.

قالوا: وقدم على الوليد أبو بكر بن محمد بن عمرو بن حزم في رجال من الأنصار، وكان له فضل ودين ورأي، وكان عظيم اللحية طويلها، فقال له الوليد: أما تعمل طول لحيتك فقد غمتني لك، اقبض قبضة ثم أخرى، وأمر أن يجز منها بعد قبضتين، ففعل وكأنه لم يجز شيئاً، فاغتمت الأنصار لذلك، وبلغ الوليد اغتمامهم فاعتذر إليهم وقال: ما فعلت هذا استخفافاً، وأجازه ووصله.

وكان قد أهدى إلى الوليد رطباً كثيراً، يقال أنه بأربعين ألف درهم، فقبله ثم رده عليه وقال: إن في لحيتك له موضعاً فاقسم منه ما شئت في أصحابك.

قالوا: وأتى الوليد رجل من بني مخزوم يسأله في دية، فقال: نعم إن كنت مستحقاً لذلك. قال: يا أمير المؤمنين وكيف لا أكون مستحقاً لذلك مع قرابتي؟ قال: أقرأت القرآن؟ قال: لا. قال: ادن، فدنا منه فنزع عمامته بقضيب كان في يده وقرعه بالقضيب قرعات ثم قال لرجل: ضم إليك هذا فلا يفارقك حتى يقرأ القرآن.

ثم قام إليه بعض ولد خالد بن عبد الله بن خالد بن أسيد فقال: يا أمير المؤمنين إن علي ديناً، فقال: أقرأت القرآن؟ قال: نعم. فاستقرأه عشر آيات من الأنفال، وعشراً من براءة، فقال: نعم نقضي دينكم، ونصل أرحامكم على هذا.

وحدثني هشام بن عمار عن الوليد قال: مر الوليد يوماً بكتاب فيه وصيفة فقال للمعلم: ما هذه؟ قال: أعلمها الكتاب والقرآن، قال: ويحك، ليكن الذي يعلمها من الغلمان أصغر سناً منها.

المدائني قال: كان الوليد يمر بالبقال فيقف عليه فيتناول حزمة من البقل فيقول: بكم هذه؟ فيقال: بفلسين. فيقول: زد فيها فإنك تربح.

قال المدائني: أتى رجل الوليد فقال: يا أمير المؤمنين إنك تعيش أربعين سنة خليفة، فقال الوليد: إن أمير المؤمنين لا يرضى بضعف ذلك.

المدائني عن عقبة بن رؤبة قال: قال رؤبة: أوفد إبراهيم بن عربي وفداً من اليمامة أنا وأبي وجرير فيهم إلى الوليد، فلما كنا بحوارين قال أبي: يا بني إنا قد أتينا هذا الرجل وقد ولدته كريمة من كرائم العرب و لم تذكرها بشيء، فقلت:

إلى ابن مروان قريع الإنس وبنت عباس قريع عبس

وقلت أبياتاً. فضرب خيشوم راحلتي وقال: أنا أحق بها منك، قال فدعي بنا قبل جرير، ثم خرجنا ومالنا عند جرير ذنب فقال: أما والله يا بني أم العجاج لئن وضعت كلكلي عليكما لأطحننكما طحناً لا يغني معه مقطعاتكما هذه شيئاً. ويقال إن هذه الوفادة كانت إلى عبد الملك.

المدائني قال: كان عند الوليد رجل من أخواله بني عبس فجعل يقع في بني أسد، فثقل ذلك على الوليد، فقال لحاجبه: ابغني رجلاً من بني أسد ظريفاً يكفيني هذا العبسي فأتاه برجل منهم شاعر، وأخبره بأمر العبسي والذي يريده، فقال العبسي: ممن الرجل؟ قال: من بني أسد، فانبرى العبسي يقع في بني أسد، ثم قال: من أيهم أنت؟ قال: من بني الصيداء، قال: أتعرفون قول الشاعر:

إذا ما اللؤم حل بدار قوم هداه إلى بني الصيداء غاد

فقال الأسدي: ممن أنت؟ قال: من بني رواحة من عبس، فقال الأسدي: ما أدري ما قال الشاعر ولكني أقول:

فإن اللؤم لم يضلل ولكن أذاعته رواحة في البلاد
إذا عبسية ولدت غلاماً فبشرها بلؤم مستعاد

حدثنا أبو عدنان البصري عن الهيثم بن عدي أن الوليد قال لعبد الله بن جعفر بن أبي طالب: أزوجت الحجاج ابنتك؟ قال: أبوك زوجها، لم يقض ديني فزوجتها، وتمثل:

من يك نائباً ويكن أخوه أبا الضحاك ينتشج الشمالا

فكتب الوليد إلى الحجاج يأمره بطلاقها، فقال لها الحجاج: إن أمير المؤمنين قد كتب يأمرني بطلاقك، فقالت: هو والله أبر بي ممن زوجنيك، فطلقها الحجاج فكان يجري عليها في كل شهر ألفي درهم، وبعث إليها بأحمال كسى وعطر.

وقال المدائني وغيره: إن الوليد خطب يوماً وتحت سريره أعرابي فسمعه يقول: "إن علي بن أبو طالب كان لصاً من لصوص صب عليه شؤبوب" فقال الأعرابي: يا يقول صاحبكم هذا؟ وقال الحرمازي: قال الوليد: "إن الزبير كان لص من لصوص، وكان علي بن أبو طالب من حمر" فقال أعرابي: ما يقول؟ فقال له صاحبه: يذكر أضغاناً كانت بينه وبينهم.

أبو الحسن المدائني عن عبد الله بن عبد الملك، مولى قريش، قال: أجرى الوليد يوماً الخيل فقال: رد الفرسان الصادان عن الميدان، فقال عباد بن زياد: الفرسين الصادين.

قال: وقال رجل لعبد الملك: أفسدت لسان الوليد فقال: ما ذاك إلا من حبي له، أشفقت عليه فلم أسترضع له في البادية.

وقال الوليد لسالم بن عبد الله بن عمر: ما أدمك؟ قال: الخل والزيت. قال: أفما تأجمهما؟ قال: بلى ولكني إذ ا أجمتهما تركتهما وأكلت خبزاً قفاراً حتى أشتهيهما.

وقال المدائني: أغزى الوليد جيشاً في الشتاء فسلموا وغنموا فقال لعباد بن زياد: كيف ترى؟ وكأنه عرض بقول زياد: جنبوني عدوين لا يقاتلان. الشتاء وبطون الأودية. فقال: يا أمير المؤمنين قد سلموا وأخطأت، وما كل ما عورة تصاب.

وقال المدائني: ركب الوليد فحدا به الحادي وهو من عذرة

يا أيها البكر لقد أراكا	تحل سهل الأرض في ممشاكا
ويحك هل تعلم من علاكا	خليفة الله الذي امتطاكا

فقدم الوليد مكة وطاف بالبيت ثم استند إلى الحائط يلي زمزم، والفضل بن العباس بن أبي لهب يستقي من زمزم ويقول:

أيها السائل عن عليّ	تسأل عن بدر لنا بدري
مردد في المجد أبطحي	زمزم يا بوركت من طوي
بوركت للساقي وللمسقي	إسقي على مأثرة النبيّ

ثم أتي الوليد بماء فشربه ومسح منه على وجهه.

حدثنا محمد بن الأعرابي قال: قال الأخطل للوليد بن عبد الملك: يا أمير المؤمنين أصلح بين ابني نزار، فقال بيهس بن صهيب الجرمي: لا أصلح الله بينهم. فقال الأخطل: والله ما أدري ما تكره من ذاك؟ فقال: بهيس: وأنا والله ما أدري ما ينفعك من ذاك.

وقال كعب بن جعيل يمدح الوليد:

أرجو الخليفة إذ رحلت أريده	والنفس تبلغ بالرحيل مناها
وإذا علقت عن الوليد بذمة	سكنت إلي جوانحي وحشاها
أنت الإمام ابن الإمام لأمة	أضحى بكفك فقرها وغناها

وقال رجل من غطفان في الوليد يمدحه:

إني وإن قال أقوام تكلفني — نفسي لأذكر منه فوق ما ذكروا

قالوا الفرات وما أرضى به شبهاً — ولن يوازي جاري سيبه البحر

في أبيات، فلم يعطه شيئاً فقال:

أتيت الوليد فألفيته — كما علمت غبياً بخيلا

بطئ العطاء عسير القض — اء لا يفعل الخير إلا قليلا

وقال أيضاً:

أتيت الوليد فألفيته — كما يعلم الناس وخماً وبيلا

فليت لنا خالداً بالوليد — وعبد العزيز بيحيى بديلا

يعني خالد بن يزيد بن معاوية، وعبد العزيز بن مروان، ويحيى بن الحكم.

وقال أبو قطيفة للوليد:

ألا بلغ أمير المؤمنين رسالةً — فغير التي تأتي من الأمر أصوب

أفي الله أن ندنى إذا ما فزعتم — ونقصى إذا ما تأمنون ونحجب

ويجعل دوني من تود لو أنكم — ضرام بكفي قابس يتضرم

فها أنتم داويتم الكلم ظاهراً — فمن لقروح في الصدور تخرب

ومدحه الأخطل بشعر يقول فيه:

لقد ولدت جذيمة من قريش — فتاها حين تحزبها الأمور

وأسرعها إلى الأعداء سيراً — إذا ما استبطئ الفرس الجرور

وقال خالد بن خيار:

وعند الوليد إن أردنا عطاءه — نوال كثير دونه الباب يقفل

إذا ما رجونا أن يجود سحابه — بخير أبت كف تضن وتبخل

المدائني أن أخا الأحوص شهر على أخيه السيف بالمدينة، فكتب عمر بن عبد العزيز إلى الوليد، فكتب إليه الوليد أن اقطع يده، فقطع عمر يده فتعلق على عمر بذلك.

قال وكتب الوليد إلى عمر أن اضرب خبيباً لأنه كان يقول ملك بني مروان زائل عن قريب، وكانت عنده أحاديث، فضربه عمر لذلك فمرض وبرئ، ثم مرض فمات، فظن أنه مات من ضربه، فأعتق ثلاثين

رقبة. ويقال أنه ضربه أربعين سوطاً، وصب عليه جرة ماء، فمات فأعتق ثلاثين رقبة.

قال: وقال بعضهم: لما قتل عبد الله بن الزبير بايع عبد الله بن خازم السلمي صاحب خراسان لخبيب بن عبد الله بن الزبير، فكان ذلك في نفس عبد الملك والوليد، فلما ولي الوليد أراد فضيحة خبيب، فكتب إلى عمر بن عبد العزيز بضرب خبيب فضربه.

قال المدائني: وهذا غلط لأن ابن خازم قُتل قبل مقتل ابن الزبير.

المدائني قال: أُدخل بعض الخوارج على الوليد بن عبد الملك فكلمه فشتمه الخارجي وشتم أباه، فقال الوليد لعمر بن عبد العزيز: ما ترى؟ قال أظنه مغلوباً على عقله فإن فعلت بما يشبهك ويشبه من أنت منه خليته. فقال الوليد لعمر: حروري والله. قال عمر: مجنون والله.

فاخترط خالد بن الريان سيفه وهو يرى أن الوليد يأمره بقتل عمر، فقام الوليد مغضباً فدخل على أم البنين أخت عمر فقال: ألا ترين إلى ما قال لي أخوكِ الحروري الأحمق، قالت: أنت أولى بما قلت له، ما أسقط عمر سقطة مذ كان غلاماً. وقال لعبد العزيز ابنها: اخرج إلى خالد بن الريان فاصرفه.

وقال عمر لخالد: أكنت قاتلي لو أمرك الوليد؟ قال: أي والله. قال: إنك لجريء على طاعة المخلوق في معصية الخالق.

وأرسلت أم البنين إلى خالد أن اخرج من العسكر، فخرج فكان مع سليمان في عسكره.

المدائني قال: خطب الوليد يوم جمعة وكان لحاناً فقال أعرابي: لقد خلط بين وبر وصوف – أو أخطأ وأصاب –.

وقال الكلبي: كان الوليد وسليمان وليي عهد عبد الملك، فأراد الوليد حين ولي أن يبايع لابنه عبد العزيز ويخلع سليمان، فأبى سليمان، فأراده على أن يجعله بعده، فأبى سليمان أيضاً، فبذل له الوليد أموالاً عظيمة كثيرة على أن يفعل ذلك.

وكتب الوليد إلى عماله أن يبايعوا لعبد العزيز، ودعا الناس إلى لك فلم يجيبوا إلا الحجاج وقتيبة بن مُسلم، وخواص من أصحابه، فقال له عباد بن زياد: إن الناس لا يجيبونك إلى هذا ولو أجابوك لم تأمنهم على الغدر بابنك، فاكتب إلى سليمان فمره بالقدوم عليك فإن لك عليه طاعة فإذا قدم فأرده على البيعة لعبد العزيز من بعده، فإنه لن يقدم على الامتناع عليك وهو عندك، فإن أبى كان الناس عليه.

فكتب الوليد إلى سليمان يأمره بالقدوم عليه، فأبطأ وتثاقل، فعزم الوليد على المسير إليه وخلعه فأمر الناس بالتأهب، وأمر بحجره فأخرجت، ومرض الوليد فمات قبل أن يسير.

وقال الوليد ليزيد بن حصين بن نمير السكوني: بايع لعبد العزيز، فقال: أما يميني فقد بايعت لسليمان، فإن

شئت بايعتُ لعبد العزيز بشمالي.

وقال جرير بن عطية للوليد:

إذا قيل مَنْ أهل الخلافة بعدهُ أشارتْ إلى عبد العزيز الأصابعُ

فوصله عبد العزيز وأمه، فلما قام سليمان خافه فأتاه ممتدحاً لأيوب فعفا عنه سليمان وقال كثير:

جمعت هوانا يا بن بيضاء حرة رجا ملكه لما استهل القوابلُ

المدائني عن أبي اليقظان عن هشام بن حسان قال: أرسل الوليد إلى رجل من أهل الشام كان ذا فضل وعقل فقال له: ما عطاؤك؟ قال: كذا. فأضعفه له وأمر أن يلحق عياله بشرف العطاء، وقضى دينه ثم قال له: إن أمير المؤمنين قد أحب أن يضمك إلى ولده ليأخذوا بهديك وينتفعوا بأدبك، فامتنع عليه وقال: لست أفرغ لهم. قال: فيصيرون إليك في الجمعة يوماً. قال: لا يمكني. فاسقط رزقه فلقيه رجل من أصحاب الوليد فقال: يا عبد الله ما دعاك إلى الامتناع مما سألك أمير المؤمنين؟ فقال: ونظر إلى دابة ميتة: والله لأن آتي هذه الجيفة غدوة وعشية فأتمعك عليها أحب إلي من أن أجيبه إلى ما سأل. قال: وكم يكفيك في كل شهر؟ قال: خمسون درهماً. قال: فهي لك ما بقيت.

قال المدائني: وقال في الوليد أبو عدي عبد الله بن عدي بن حارثة بن ربيعة بن عبد العزى بن عبد شمس:

عبدُ شمسٍ أبوك وهو أبونا لا نناديك من مكان بعيدِ

والقرابات بيننا واشجاتٍ محكمات القوى بعقدٍ شديدِ

فأنبني ثواب مثلك مثلي تلقني للثواب غير جحود

حدثني الحرمازي عن أبي زبالة وغيره قال: كانت أم البنين بنت عبد العزيز بن مروان أخت عمر بن عبد العزيز عند الوليد، وكان معجباً بها محباً لها، وكانت امرأة برزة عفيفة تحب الشعر فبعثت إلى كثير أن صفني وامدحني فكره ذلك، فقالت له: قل الشعر في غاضر جاريتي فذلك حين يقول:

أغاضرُ لو ترين غداة بنتم جنود العائدات على وسادي

قصة وضاح اليمن مع أم البنين بنت عبد العزيز زوج الوليد بن عبد الملك.

أو أم البنين بنت المخترم، والأول أصح.

وحجت مع الوليد فرأت وضاح اليمن الشاعر، أحد الأبناء، وهو ينشد، فأعجبها فأرسلت إليه أن اصحبنا، وأمرته فقال فيها شعراً، فبعثت إليه بكسوة وجائزة، فلما صارت إلى الشام وهو معهم جعلت ترسل إليه فيدخل عليها سراً وهي من وراء الستر فيشدها ويحادثها.

وبلغ ذلك الوليد فغمه فأمر خادماً أن يدخل عليها فإن وجد وضاحاً عندها قتله، فلما أحست أم البنين

بالخادم أدخلت وضاحاً صندوقاً وأقفلته، فأخذ الخادم الصندوق وحفر حفرة ثم دفن الصندوق فيها.

وحدثني الأثرم عن أبي عبيدة عن ابن جعدبة قال: كان وضاح من أبناء اليمن وكان جميلاً وهو الذي يقول:

مالك وضاح دائم الغزلِ ألست تخشى تقارب الأجل

وكانت أم البنين بنت المخترم امرأة جميلة فعشقها وأحبته وكان زوجها من حير فسمعها تقول:

يا وجع وضاح لقد أورثت قلبي حزنا

وكان وضاح لنفسِ ي ويح قلبي شجنا

فطلقها. ولها يقول وضاح:

وأنت التي كلفتني البرد شاتياً وأوردتنيه فانظري أي موردِ

وحجت أم البنين، فبلغ الوليد أمرها وهو حاج، فبعث فتزوجها وحملها فاتبعها وضاح.

قال أبو عبيدة: وحدثني جماعة من أهل العلم أن التي قتل وضاج بسببها أم البنين بنت عبد العزيز بن مروان.

قال: وقال ابن ذئب: أم البنين بنت المخترم امرأة كانت للوليد بن عبد الملك، تزوجها من أهل البادية، وكان وضاح اليمن قدم على الوليد قدوم الشعراء فعلقته أم البنين، وبلغ الوليد أمره ففعل به خادمه ما فعل بأمره. والأول أثبت.

ووضاح الذي يقول:

مالك وضاح دائم الغزل ألست تخشى تقارب الأجل

وحدثني الحرمازي قال: أم البنين التي قتل الوضاح بسببها ابنة عبد العزيز بن مروان وابنة المخترم غيرها، وهي التي قال فيها عمر بن أبي ربيعة:

فلو كنت إذ عبتني في الجمال كأم البنين ابنة المخترم

المدائني قال: حج الوليد فنظر إلى عمر بن أبي ربيعة فقال له: من أنت؟ قال: عمر بن أبي ربيعة قال: الشاعر: قال: مثلي يا أمير المؤمنين لا ينسب إلى الشعر وإنما إلى بيته وآبائه. قال: فأنشدنا فأنشده، فبره.

المدائني قال: ناضل الوليد نوفل بن عبد الله فنضله نوفل، فقال الوليد: رمية من غير رام، قال: إنها من رام أكثر.

قال: وقدم الوليد بن عبد الملك بيت المقدس فنزل على قوم من غسان فذبحوا له الغنم، والبقر، والدجاج، والفراخ، والأوز، والحجل، ونحروا الجزور، فجعلوا يلقون في قدور لهم عظام من كل ما ذبحوا ونحروا

ويخلطون ذلك – فسمي ذلك الطبخ: الغسانية مذ ذاك.

وقوم يقولون أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه لما قدم الشام أتي بطعام فجعل يخلط بعض الألوان ببعض فسمي ما خلط الغسانية. والأول أثبت.

المدائني عن علي بن سليم قال: كانت ابنة سعيد بن العاص عند الوليد، فمات عبد الملك فلم تبك عليه، فقال لها: ما منعك من البكاء على أمير المؤمنين؟ فقالت: ما أقول له إلا أن أدعو الله أن يحييه ويزيد في سلطانه حتى يقتل أخاً لي آخر؟ فقال: أي والله لقد قتلناه وكسرنا ثناياه. قالت: قد علمت من شقت أسته، فقال: الحقي بأهلك. قالت: ألذ من الرفاء والبنين.

قالوا: وقال الوليد لبديح غلام عبد الله بن جعفر: بابديح خذ بنا في التمني فوالله لأغلبنك، قال: ستعلم. فقال الوليد: ابدأ أنت فتمنى فإني سأتمنى ضعف ما تتمنى. فقال بديح: فإني أتمنى سبعين كفلاً من العذاب، وأن يلعنني الله لعناً كثيراً، فقال: غلبتني قبحك الله.

قالوا: ودخل على الوليد رجل من العرب يشكو ختنه فقال: إن ختني أخذ مالي وظلمتني، قال: ومن ختنك فظن أن يسأله عمن أعذره، فلم فظن أنه يسأله عمن أعذره، فلم يجبه. فقال عمر بن عبد العزيز: من ختنك؟ قال: فلان بن فلان.

وقال الوليد لرجل دنا منه: قبلك قبلك، يريد: مكانك.

حدثني هشام بن عمار الدمشقي عن مدرك بن حجوة أن قوماً دخلوا على الوليد وعنده أخوه مسلمة فشكوا أمراً من أمرهم، فلم يبينوا ولا أحسنوا العبارة عما في أنفسهم، فتكلم رجل منهم فأفصح وأوضح وعبر عن نفسه وعن القوم، فقال مسلمة: ما شبهت كلام هذا الرجل في إثر كلام القوم إلا بسحابة لبدت عجاجاً.

قالوا: ومرض الوليد فذكر له موسى بن نصير طبيباً قدم به من المغرب رومياً فأدخله إليه، وعنده ابن رأس البغل، ويقال ابن رأس الحمار، وكان يعالجه، وكان طبيب عبد العزيز بن مروانِ، وكان من أهل الإسكندرية، فتراطنا بالرومية فقال أحدهما لصاحبه: ما داؤه؟ قال: السل قال: صدقت.

ودعا له صاحب موسى بفرخ فطبخ وألقي على مرقه دواء وحساه منه جرعاً فلم يلبث في جوفه وقاءه، فقال: لا أرى هذا وافقك وعندي ما هو أسهل منه وأنا آتيك به في غد، فخرج من عنده وقال: والله لا يصبح حياً، فمات في السحر.

وتوفي الوليد ويكنى أبا العباس في سنة ست وتسعين وهو ابن تسع وأربعين، وملك تسع سنين، ودفن خارج الباب الصغير بدمشق، وصلى عليه عمر بن عبد العزيز، فرثاه جرير فقال:

إن الخليفة قد وارت شمائله | غبراء ملحدة في حالها زور
أضحى بنوه وقد جلت مصيبتهم | مثل النجوم هوى من بينها القمر
كانوا جميعاً فلم يدفع منيته | عبد العزيز ولا روح ولا عمر

وقال المدائني: لما قدم ابن حيان المدينة والياً دخل دار مروان فقال: هذه المحلال المظعان، ثم قال:

مجرب قد حلبت الدهر أشطره | مجرس سد رأي منه تعليم

فقيل له: إن الوليد ثقيل فقال: إن كان أمير المؤمنين ثقيلاً، فإن سليمان لأخوه لأبيه وأمه وولي عهده، ولقد هد ما ذكرتم ركني.

وقال هشام ابن الكلبي: ولي الوليد بن عبد الملك في شوال لعشر خلون منه سنة ست وثمانين وولي تسع سنين وتسعة أشهر، وتوفي يوم السبت لأربع عشرة ليلة خلت من جمادى الآخرة سنة ست وتسعين، وهو ابن ثلاث وأربعين سنة.

المدائني قال: كان القعقاع بن خليد عند الوليد بن عبد الملك، وعنده ابن رأس الجالوت، فقال الوليد: إنكم تزعمون إن في ولد داود علامة يعرفون بها فما هي؟ قال: تنال يد أحدنا ركبته وهو قائم، فقال القعقاع: فيدي تنال ركبتي. فقال الوليد: فافعل، فذهب يفعل فضرط فعير بذلك شيبة بن الوليد بن القعقاع فقال الشاعر:

يا شيب هل لك في ألف مدرهمة | بضرطة ليس في إرسالها حرج
كذاك شيخك إذ هوى بركبته | فحاز فقحته من ضعفها الشرج

الخوارج في أيام الوليد بن عبد الملك بن مروان

أمر زياد الأعسم

قال أبو الحسن المدائني عن أصحابه: كان زياد الأعسم من بني عصر بن عمر بن عبد القيس من أنفسهم، ويقال كان مولى لهم يرى رأي الأزارقة، وكان يبيع بسوق الزيادي، فلما قدم داود بن النعمان البصرة للتجهز قال لأصحابه: أريد أن أشترى غلالة تكون تحت درعي أجعلها كفناً، فأتى سوق الزيادي فقال: من عنده غلالة تكون رقيقة؟ فقال له زياد الأعسم وهو لا يعرفه، وظن أنه بعض فتيان أهل البصرة، وكان داود جميلاً: يا فتى عندي غلالة فإن شئت أن أبيعك إياها أرق من دينك فعلت. فلم يكلمه داود ومضى، فقال رجل لزياد: أتعرف هذا؟ قال: لا. قال: هذا داود فاتبعه زياد فاعتذر إليه وواعده مكاناً يلقاه فيه، فاتعدا قصر أوس، فالتقيا من غد فكلمه داود فأجاب داود ورجع عن رأيه، وأتى المسجد الذي

كان يصلي فيه بالأزارقة من أصحابه فأخذوه، ويقال إنه كان أباضياً.

وخرج الأعسم في جماعة، فيقال إن ابن رباط خرج إليهم فقتلهم، وقال زياد بن الأعسم حين خرج:

تعاتبني عرسي على أن أطيعها وقبل سليمى ما عصيت الغوانيا

فكفي سليمى واتركي اللوم إنني أرى فتنة صماء تبدي المخازيا

وكيف قعودي والشراة كما أرى عزين يلاقون البلايا الدواهيا

في قصيدة.

خبر الهيصم بن جابر

وهو أبو بيهس أحد بني سعد بن ضبيعة بن قيس بن ثعلبة. وقال أبو الحسن علي بن محمد عن أصحابه: طلب الحجاج أبا بيهس الهيصم بن جابر فهرب إلى المدينة، فطول شعره، ولعب بالحمام واختضب، فلم يعرفه بها أحد.

وطلبه الحجاج وسأل عنه فأعياه وجوده، وبلغ الوليد بن عبد الملك أنه بالمدينة فكتب إلى عثمان بن حيان المري في ووصف له صفته وحلاه. فقرأ عثمان الكتاب على الناس والهيصم جالس فنظر إليه رجل إلى جنبه فقال: إنك لصاحب الصفة وما أنا بمخليك. قال: إنك إن فعلت أثمت، واقترفت ذنباً عظيماً، فأخذه وأتى به عثمان فأقر أنه الهيصم فأعجبه ما رأى منه فحبسه، وكتب إلى الوليد بأخذه إياه.

وكان عثمان بن حيان يرسل إليه في كل ليلة فيسامره ويحدثه، وكان معجباً به، فأتاه كتاب الوليد أن اقطع يديه ورجليه واقتله، فقال له عثمان: اعهد عهدك فقد كتب أمير المؤمنين يأمر بقتلك. فقال: أجميعاً أم متفرقاً؟ قال: إنا لله وإنا إليه راجعون، فقال له عثمان: هل لك حاجة؟ فأوصى ببنية له بالمدينة أن ترد إلى أهله.

وأنفذ فيه أمر الوليد، فمر به رجل حين قطعوا يديه ورجليه فشتمه، فقال له أبو بيهس: إن كنت عربياً فإنك من هذيل، فإنهم أسوأ قوم أخلاقاً، وإن كنت من العجم فإنك بربري.

ومر به عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان فقال: اصبر أبا بيهس، فقال: أما إن أمرت بالصبر أنك الجميل المزداة عظيم، حسن القدم في الإسلام.

وقتله عثمان بن حيان، فقال عويف القوافي أو غيره:

إن أبن حيان شفى الصدورا أصبح في يثرب مستنيرا

قد أدرك الله به الثؤورا أتبع رأس هيصم مثجوراً

لصين كانا عليا فجورا

وقال الهيثم: هرب نبراس بن مالك العتري من الحجاج، وقد طلبه فبينا الحجاج يخطب إذ مثل بين يديه فأنشد شعراً له يظهر فيه التوبة، فقال له الحجاج: الزم بابي ودع الطعن على الولاة، فكان يضرب أعناق الخوارج بين يدي الحجاج.

بسم الله الرحمن الرحيم

أمر سليمان بن عبد الملك

و سليمان بن عبد الملك وأمه وأم الوليد ولادة بنت العباس بن جزي، ويكنى أبا أيوب، وكان فصيحاً، نشأ في أخوله بني عبس، وكان أبيض جعداً، ولي سنة ست وتسعين، وكان جميل المذهب، حسن السيرة، أخرج المحبسين، ورد المسيرين، وأنصف المظالم.

وكان الوليد أخوه ولاه فلسطين، فأحدث مدينة الرملة وبنى مسجدها، وأتاه نعي الوليد، وكان ولي العهد بعده فخرج من فلسطين إلى دمشق، فكانت ولايته سنتين وثمانية أشهر، ومات بدابق، ودفن بها، وصلى عليه عمر بن عبد العزيز، وذلك سنة تسع وتسعين، وكان يوم مات ابن خمس وأربعين.

فولد سليمان بن عبد الملك: أيوب وأمه أم أبان بنت خالد بن الحكم بن العاص، وأمها أم عثمان بنت خالد بن عقبة بن أبي معيط ويحيى، وعبد الله، أمهما عائشة بنت عبد الله بن عمرو بن عثمان.

ويزيد، والقاسم، وسعيدا، أمهم أم يزيد بن عبد الله بن يزيد بن معاوية.

وعبد الواحد، وعبد العزيز، أمهما عمرو بنت عبد الله بن خالد بن أسيد.

وداود، ومحمداً، وعمراً، وعبد الرحمن، لأمهات أولاد شتى، والحارث لأم ولد.

وأم أيوب كانت عند عبد العزيز بن الوليد فهلكت، فجاء عبد العزيز إلى سليمان أبيها، فقال له سليمان: أدفنت أم أيوب ثم تأتيني؟ فقال: يا أمير المؤمنين أنا بها أعظم مصيبة منك. قال: وبلغني أنك نازعت الحارث ابن أمير المؤمنين في الصلاة عليها، فقال: ما بلغ بي الجهل أن أفعل ذلك. فأما أيوب بن سليمان، فكان من فتيان قريش عفافاً وأدباً، وكان أبوه قد بايع له بالعهد، وكان مؤدبه وحاضنه عبد الله بن عبد الأعلى الشاعر، وقال فيه جرير:

إن الإمام الذي ترجى فواضله بعد الإمام ولي العهد أيوب

وهلك في حياة أبيه.

وقال الفلتان أخو بني عبد الله بن دارم:

من يك جار لقوم لا وفاء لهم فإن جاري ولي العهد أيوب

ورثاه عبد الله بن عبد الأعلى بقصيدة يقول فيها:

ولقد عجبت لذي الشماتة إن أري جزعي ومن يذق الفجيعة يجزع

فاشمت فقد قرع الحوادث مروتي واجذل بمروتك التي لم تقرع

إن تبق تفجع بالأحبة كلهم أو تردك الأحداث إن لم تفجع

من لا تخرمه المنية لا يرى منها على خوف لها وتوقع

قد بان أيوب الذي لفراقه سر العدو غضاضتي وتخشعي

أيوب كنت تجود عند سؤالهم وتظل منخدعاً وإن لم تخدع

ولا عقب لأيوب.

وحدثني هشام بن عمار الدمشقي، أبو الوليد، عن مسلم بن أبي سليم الحمصي قال: خرج سليمان إلى دابق ليغزي الناس، فأغزاهم وعليهم ابنه أيوب بن سليمان، ومعه مسلمة بن عبد الملك.

وكان أيوب ولي عهده، فلما احتضر سليمان قال: أن ابني أيوب بإزاء عدو ولا أدري ما يحدث به فإن أهمل الأمر إلى قدومه ضاع وانتشر ولم تؤمن الفتنة على الناس في جميع الأقطار، ولعل الحدثان أن يكون قد غاله، على أني وليته العهد وأنا أظن عمري يطول. وهو حدث.

فولى عمر بن عبد العزيز، ويزيد بن عبد الملك من بعده، وأيوب إن كان بعد يزيد، وكره أن يخرجها من ولد عبد الملك فيختلفوا ويحدثوا أحداثاً تدعو إلى الفتنة.

وصوب رجاء بن حيوة رأيه في ذلك، وقوى عزمه. وتوفي أيوب في غزاته وقد أقبل، وذلك حين شارف الثغر خارجاً أو داخلاً.

وقال هشام: وقد تقول قوم أن نعي أيوب أتى سليمان يوم مرض ففعل ما فعل.

وقال المدائني، وأبو اليقظان: مات بالشام.

وأما محمد بن سليمان فكان صاحب فتوة وباطل، وقد أدرك الوليد بن يزيد. وأما عبد الواحد فولاه مروان بن محمد بن مروان مكة والمدينة فصلى بالناس بالموسم، ثم هرب من الإباضية حيث خرجوا عليه، فقال الشاعر:

جاء الذين يخالفون بدينهم ... دين النبي ففر عبد الواحد

ترك القتال وما به من علة ... إلا الوهون وعرقة من خالد

وقتله صالح بن علي بن عبد الله، وأخذ ماله بالشام. وله عقب. ومدحه ابن هرمة فقال:

إذا قيل من خير من يرتجى ... لمعتر فهر ومحتاجها

ومن يعجل الخيل عند الوغى ... بألجامها قبل إسراجها

أشارت نساء بني مالك ... إليه به قبل أزواجها

وأما عبد الرحمن بن سليمان فهلك وهو شاب.

وأما الحارث بن سليمان فكان من رجالاتهم جلداً وذكراً، وأدرك قتل الوليد بن يزيد، وقال فيه الشاعر:

كأنك برد ذو حواش مسهم ... به حرق قد شابه وهو واسعُ

بلوناكم حتى عرفنا خياركم ... فخيركم رث المروءة واضعُ

فقال هشام بن عبد الملك لهذا الشاعر: ويلك عممت بني مروان. فقال: لا ولكني عنيت بني سليمان.

وأما يزيد بن سليمان فمات قبل المسودة، وقتل ابنه عبد الله بن علي.

وأما داود بن سليمان فهو الذي قال له رجل: هلك أبوك بشماً، وهلكت أمك بغراً، وكانت أم داود عطشت في طريق مكة، فشربت فأكثرت فماتت.

قالوا: وكان الحجاج بن يوسف وقتيبة بن مسلم أشارا على الوليد بتولية ابنه عبد العزيز العهد مكان سليمان أو بعده، فحقد على قتيبة سليمان، فلما استخلف سليمان قال قتيبة وهو بخراسان: أيها الناس قد وليكم هبنقة القيسي، وذلك أن سليمان كان يعطي أهل الشرف واليسار والنباهة ولا يرفع خسيسة ولا يصطنع خاملاً، وذلك أن هبنقة كان يخص سِمَانَ إبله بالمرعى والعلف ويضرب المهازيل، ويقول: أنا لا اصلح ما أفسد الله، ولا أفسد ما أصلح، فنسب إلى الحمق، وكان ذلك سبب مخالفة قتيبة حين قتل بخراسان: وفي سليمان يقول الفرزدق:

وإلى سليمان الذي سكنتْ ... أروى الهضاب له من الذعر

وتراجع الطرداء إذ وثقوا ... بالأمن من رتبيل والشحر

كنا نناجي الله نسأله ... في الصبح والأسحار والعصر

ألا يُميتك أو يكون لنا ... أنت الإمام وولي الأمرِ

فأجاب دعوتنا وأنقذنا ... بخلافة المهدي من ضرُ

إني لأرجو أن يقيم لنا سنن الخلائف من بني فهر

والقصيدة طويلة. وقال فيه أيضاً:

وكم أطلقت كفاك من قيد بائسٍ ومن عقدةٍ ما كان يرجى انحلالها

المدائني عن عوانه قال: خرج سليمان بن عبد الملك يستسقي فسمع أعرابياً يقول:

يا ربنا رب العباد مالكا قد كنت تسقينا فما بدا لكا

أنزل علينا الغيث لا أبا لكا

فقال سليمان: صدق والله فما لله أب ولا صاحبة ولا ولد.

المدائني عن أبي اليمان القرشي قال: خطب سليمان بن عبد الملك فقال: اتخذوا كتاب الله إماماً، وارضوا به حكما، واجعلوه لكم قائدا، فإنه ناسخ لما قبله، ولن ينسخه كتاب بعده. فما سمعت خطبة أوجز منها.

حدثني العمري عن الهيثم بن عدي عن ابن عياش قال: قال سليمان بن عبد الملك يوماً: يا غلام ادعُ صالحاً، فقال بعض الحرس: يا صالحا. فقال سليمان: انقص من صالحك ألف، فقال عمر بن عبد العزيز: وأنت يا أمير المؤمنين فزد في ألفك ألفاً.

المدائني عن الفضل بن تميم قال: دخل رجل على سليمان فتكلم فأراد أن يسبر عقله فإذا هو مضعوف، فقال سليمان: زيادة منطق على عقله خدعة، وزيادة عقل على منطق هجنة، وأحسن من ذلك ما زان بعضه بعضاً.

وحدثني حفص بن عمر عن الهيثم عن ابن عياش قال: تقدم أبو السمال إلى سليمان بن عبد الملك فقال: إن أبينا هلك، فوثب أخانا على مالنا فأخذه، فانظر في أمرنا. فقال سليمان: لا رحم الله أباك ولا عافى أخاك، ولا رد عليك مالك. نحُّوه عني.

وقال المدائني: دخل أبو السربال الكلبي على سليمان قبل الخلافة، وهو يتغدى، فدعاه للغداء فقال سليمان: ادنُ يا أبا السربال. فقال: لا والله أو أعرف من أكلائي، قال: هذا. قال: ومن هذا؟ قال: رَوْحُ بن زنباع. قال رجل: والله ما اعتركت الأضياف على باب أبيه قط. قال: فمن هذا؟ قال: فلان. قال: إنه لصغير القمة، ونظر إلى رجل من قريش أحمر أقشر، فقال أبو السربال: أما هذا فلا أسأل عنه، هذا قيصر. فضحك سليمان.

وجلس أبو السربال يأكل، وجاؤوا بفالوذجة، فجعل سليمان يأكل بأصابعه كلها فقال: يا أبا السربال دونك فإن هذا يزيد في الدماغ، فقال: أصلح الله الأمير، لو كان هذا كما قلت لكان رأسك مثل رأس

البغل.

حدثني العمري ن الهيثم عن ابن عياش قال: تقدم رجل إلى سليمان وهو بدابق فقال: يا أمير المؤمنين، هلك أبينا، وظلمنا أخينا، فانظر في أمرنا، نظر الله إليك، فقال سليمان: نحُّوه لعنه الله. فَنُحي.

حدثني هشام بن عمار عن الوليد عن أشياخ لهم أن سليمان قال: الحسود لا يسود.

المدائني عن عامر بن حفص ومسلمة: أن سليمان بن عبد الملك قال ليزيد بن أبي مسلم: لعن الله رجلاً ولاك فأجرى رسنك واختارك لأمر من أمور المسلمين، فقال: يا أمير المؤمنين! إنك رأيتني والأمر عني مدبر ولو رأيتني وهو علي مقبل عَظُم عندك ما استصغرت، وحسن ما استقبحت من أمري. فقال: ما تقول في الحجاج؟. فقال: يأتي يوم القيامة بين أبيك وأخيك فضعه حيث شئت.

حدثنا عباس بن هشام الكلبي عن أبيه عن الجريري قال: شكا سعيد بن خالد بن عمرو بن عثمان موسى شهوات إلى سليمان بن عبد الملك، وأمه آمنة بنت سعيد بن العاص بن سعيد بن أبي أحيحة، وقال: هجاني، فقال لا أم لك بم هجوته؟ قال: يا أمير المؤمنين إنما فضلت عليه سعيد بن خالد بن عبد الله بن خالد بن أسيد، وذلك أني عشقت جارية بدمشق فسألته أن يبتاعها لي بمائتي دينار فقال لي: بورك فيك، فقال سليمان: ليس هذا موضع بورك فيك. قال: وأتيت سعيد بن خالد بن عبد الله فدعا بمطرف خزّ وأمر جاريته فصرّت في كل زاوية منه مائتي دينار فمدحتُه. فقال: قل ما شئت بعد هذا واستنشده ما قال فأنشده:

عقيل الندى ما عاش يرضى به الندى فإن مات لم يرض الندى بعقيدِ

سعيد الندى أعني سعيد بن خالد أخا العرف لا أعني ابن بنت سعيد

ولكنني أعني ابن عائشة الذي كلا أبويه خالد بن أسيد

عائشة بنت عبد الله بن خلف أخت طلحة الطلحات، فقال سعيد بن خالد:

إذا كان الأمير عليك خصماً فلا تكثر فقد غلب الأمير

وأنشد:

ونستعدي الأمير إذا ظلمنا فمن يعدي إذا ظلم الأمير

وحدثني عبد الله بن صالح العجلي عن ابن كناسة قال: بعث يزيد بن المهلب سريعاً مولى عمرو بن حُريث إلى سليمان. قال سريع: فعلمتُ أنه سيسألني عن المطر، و لم أكن أرتق بين كلمتين، فأعطيت أعرابياً درهماً وقلت: كيف أقول إن سئلتُ عن المطر؟ فقال: قل جاء مطر غزير درير، فعمد الثرى واخضر العمير، واستأصل العرق، و لم أر وادياً إلا داريا.

فلما دخلت على سليمان سألني عن المطر فقلت هذا الكلام. فقال: هذا كلام لست بأبي عُذره فاصدقني. فحدثته فضحك، وضرب برجليه، وقال: لقد أصبت ابن بجدهما.

المدائني عن مسلمة قال: زحل أيوب بن سليمان وهو عند أبيه فقال له مالك يا بني؟ قال: خدرت رجلي. فقال سليمان: يا بني اذكر أحب الناس اليك فقال: صلى الله على محمد فقال سليمان: ابني سيد، وإني عنه لفي غفلة، وولاه عهده.

المدائني قال: كان محمد بن يزيد الأنصاري مع سليمان فوجهه إلى العراق حين ولي، فأطلق أهل السجون، وقسم الأموال، وضيق على يزيد بن أبي مسلم، وحمله إلى سليمان فظفر به يزيد بإفريقية عند المغرب في شهر رمضان، فجعل محمد يقول: اللهم احفظ لي إطلاقي الأسرى وإعطائي الفقراء، فقال له يزيد: أمحمد طال والله ما سألت الله أن يمكنني منك بلا عهد لا عقد، قال: وأنا والله قد سألته أن يجبرني منك، قال يزيد: فوالله ما أجارك ولا أعاذك ولا أجابك. والله لا أريم مكاني حتى أقتلك.

وأقيمت الصلاة فبادر إليها، وكان أهل إفريقية قد أجمعوا على قتله، فضربه رجل منهم بعمود على رأسه فقتله، وقال لمحمد: اذهب حيث شئت.

قالوا: وكان سليمان نهماً بخيلاً على الطعام فمد رجل يده إلى دجاجة كانت بين يديه، فقال له: كل مما بين يديك. فقال: أو ههنا حِمَىً؟! فرمى إليه بالدجاجة وقال: كُلها لا بارك الله لك فيها.

المدائني قال: قال سليمان ليزيد بن المهلب: أكره منك ثلاثاً، خفك أبيض مثل ثوبك، وطيبك يُرى وطيب الرجل يوارى، وأنك تُكثر مس لحيتك. فغير الخف والطيب، و لم يدع مس لحيته.

كان يزيد يقول: ما رأيت عاقلاً قط إلا ومعوله إذا فكر على لحيته.

المدائني قال: ضم سليمان بن عبد الملك عون بن عبد الله بن عتبة بن مسعود إلى ابنه أيوب، فأتاه فحجبه، فجلس في بيته فتعتب أيوب عليه فعاتبه فغضب فشكاه إلى أبيه فلامه فقال: ضممتني إلى رجل إن أتيته حجب، وإن جلست عنه عتب، وإن عاتبته غضب.

حدثني أبو مسعود القتات عن ابن الكلبي أن قوماً وفدوا إلى سليمان فقال متكلمهم: إنا والله ما أتيناك رغبةً ولا رهبةً، أما الرغبة فدخلت علينا منازلنا، وأما الرهبة فآمنناها فضلك وعدلك، ولقد حببت إلينا الحياة، وهونت علينا الموت، لأنا نثق بإحسانك لأنفسنا، ونرجوك لمن تخلف بعدنا من أعقابنا، فأحسن صلتهم والنظر لهم.

قالوا: وكان سليمان أكولاً يؤتى في كل يوم من صلاة الغداء بعشر رقاقات وخروفين عظميين، ودجاجتين سمينتين، فيأكل ذلك كله بِخلٍّ فيه الجذان ومرى.

وقال الواقدي: غزا سليمان الصائفة مسلمة بن عبد الملك وعلى الصائقة أيوب ابنه فلما جاوزوا الدرب مات، ومات سليمان، وقد نفذ مسلمة، فأقفله عمر بن عبد العزيز.

المدائني قال: حج سليمان فقال لقيِّمه على طعامه: أطعمني من خرفان المدينة، أو قال من جداء المدينة، دخل الحمام ثم خرج وقد شُو له أربعة وثمانون خروفاً أو جدياً، فجعل القيم يأتيه بواحد فيتناول جرمازجة ويضرب بها شحم كليته، فأكل أربعة وثمانين جرمازجة بشحم أربعة وثمانين كلية، ثم قال: ادع يا غلام عمر بن عبد العزيز، وأذن الناس. ووضع الغداء فأكل معهم كما أكلوا.

وقال المدائني: حج سليمان وأتى الطائف فلقيه ابن أبي زهير الثقفي رجل من أهلها فسأله أن يترل عليه فقال: إني أخاف أن أبهظك. فقال: قد رزق الله خيراً كثيراً، فترل عليه فجعل يأتيه من حائطه، وهو فيه، بخمس رمانات خمس رمانات حتى أكل مائة وسبعين رمانة.

ثم أتى بخروف، وست دجاجات فأكل ذلك، ثم أتى بمكوك زبيب فأكله، ثم وضع الطعام فأكل وأكل الناس. وفتح ابن أبي زهير أبواب الحيطان فأكل الناس من الفاكهة، فقال سليمان: قد أضررنا بالرجل. وأقام بالطائف سبعاً ثم صار إلى مكة وقال لابن أبي زهير: الحقني. فلم يفعل فقيل له: لو لحقته، قال: أقول ماذا؟ أعطني ثمن طعامي؟! وقال المدائني: خرج سليمان من مترله يريد مترل يزيد بن المهلب فقال يزيد: الغداء يا أمير المؤمنين؟ قال: نعم. فأكل أربعين دجاجة جردناج سوى ما أكل سوى ذلك من الطعام.

وقال المدائني: أكل سليمان اثنين وثمانين ناهضاً وفخارة فيها هريسة. قال: وأتاه وهو بدابق رجل من النصارى كان منقطعاً إليه من قبل الولاية فقال له: هل أهديت لي شيئاً؟ قال: نعم أهديتُ تيناً وبيضاً، فأتاه بزبيل مملوء بيضاً مطبوخاً، وبزبيل مملوء تيناً فجعل يقشر البيض ويأكل بيضةً بتينة حتى أتى على الزبيلين، ثم أتوه بقصعة مملوءة مخاً مخلوطاً بسكر فأكل ذلك فأتخم ومرض فمات.

المدائني قال: كان حنظلة بن عقال أكولاً فأكل عن سليمان وهو يرتجز:

أعددتُ للفم عظيم الفلق   تكاد أطراف الرغيف تلتقي

حدثني العمري عن الهيثم بن عدي عن الضحاك بن زمل أن سليمان أتى بطبق عليه ثلاثمائة عيون البقر، وهو الساهلوج، فأكل جميع ما في الطبق، ثم دعا بالغداء فأمعن كأنه لم يأكل شيئاً.

وقال الضحاك بن زمل: قال سليمان حين نزل من عقبة أفيق: هل عندكم شيء؟ فأُتي بست دجاجات وفرخين وعشرة أرغفة، في كل رغيف رطل فأكل وهو على بعير، إذا رجل يصيح: يا أمير المؤمنين إن

عاملك على كذا ظلمني، وهو يقول: كذبت لا أم لك ويأكل، فلما فرغ فهم عنه، فأمر فكتب بإنصافه.

قال: وقال الضحاك: قال سليمان وذكر عنده تشقيق الخطب والإسهاب في الكلام: من أكثر القول فأحسن، قدر على أن يقل فيحسن، وليس من قصر فأحسن بقادر على أن يطيل فيحسن.

وحدثني العمري عن الهيثم بن عدي عن مولى لسليمان قال: كان سليمان يأكل بخمس أصابع، ويُجعل له منديل على صدره ومنديل على فخذيه، وكان لا يرفع رأسه إذا أكل حتى يشرب عُساً ضخماً فيه عسل، تعترى ربما استعان عليه بركبتيه أحياناً، فإذا شربه تكلم.

فقام إليه رجل وهو يأكل فقال: يا أمير المؤمنين إني زوجت ابني وليس عندي ما أجمع به أهله إليه فأسلفني عطائي من بيت المال، فقال: ما يزال عاض لبظر أمه يقوم إلينا فيسد علينا طعامنا، فتنحى الشيخ وجلس، فلما فرغ من طعامه قال: قلت ماذا لله أبوك؟. فرد عليه مسألته فقال: وكم عطاؤك لله أبوك؟.

قال: مائتا دينار. قال: يا قسامة أعطه مائتي دينار ومائتي دينار ومائتي دينار. وطول نفسه حتى انقطع فإذا جميع ذلك قيمة اثنتين وسبعين ألف درهم.

ثم قال: أبا زُجي رضيت؟ قال: نعم فرضي الله عنك يا أمير المؤمنين. قال: يا قسامة فأضعفها له، فأخذ مائة وأربعة وأربعين ألف درهم.

حدثني الحرمازي وأبو مسعود الكوفي قال: قال سليمان بن عبد الملك لسالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب: يا أبا عمر اذكر لي حوائجك، فقال: إني لا أسأل في بيت الله غيره.

وحدثني محمد بن سعد عن الواقدي قال: انصرف سليمان من صلاة الجمعة فأكل شحم كلى أربعين جدياً وصحفة مملوءة مخاً وغير ذلك، ثم جامع وقام عن الجارية موعوكاً فمات بدابق، وكان جميل الوجه حسن الخلق، يقول: أنا الملك الشاب.

قال الحزين:

فيا قوم ما بالي وبال ابن نوفلٍ	وبال بكائي نوفل بن مساحقِ
ولكنا كانت سوابق عبرةٍ	على نوفلٍ من كاذب غير صادقِ
فهلا على قبر الوليد سفحتها	وقبر سليمان الذي عند دابق

وحدثني عباس بن هشام الكلبي عن أبيه عن جده وعوانه قالا: لما مات الحجاج، وكان قد استخلف على حرب العراق يزيد بن أبي كبشة، وعلى خراجها يزيد بن أبي مسلم مولاه فأقرهما الوليد حتى مات، وأقر عمال الحجاج، وكان الوليد يقول: الحجاج جلدة ما بين عيني، لا بل جلدة وجهي كله.

وكان موت الوليد للنصف من جمادى الآخرة سنة ست وتسعين، فلما ولي سليمان بن عبد الملك، وهو

بالرملة، ولى يزيد بن أبي كبشة صلاة العراق وحربها، وصالح بن عبد الرحمن السجستاني مولى بني مرة بن عبيد خراج العراق، وولى سليمان بعد أربعين يوماً من خلافته يزيد بن المهلب حرب العراق وخراجه فاستعفاه من الخراج، فأراد تولية يزيد بن أبي مسلم الخراج، وقد كان ابن المهلب وصفه له بالعفاف، فقال عمر بن عبد العزيز: أتولي ابن أبي مسلم؟ فقال: نعم إنه عفيف عن الدرهم، فقال عمر: إن الشيطان أيضاً عفيف عن الدرهم لم يأخذ درهماً قط. فاستشار يزيد بن المهلب فيمن يوليه خراج العراق فأشار عليه بصالح بن عبد الرحمن، وكان صالح كاتباً للحجاج بعد زاذا نفروخ بن بيزي كاتبه المجوسي.

وشخص يزيد بن المهلب إلى العراق وخراسان مضمومة إليه، فلما قدم واسطاً وجد الجراح بن عبد الله الحكمي على البصرة من قبل ابن أبي كبشة، فكتب إليه في القدوم عليه، وولى البصرة رجلاً من أصحابه، وكتب سليمان إلى يزيد بن المهلب في الشخوص إلى خراسان لإصلاحها، وتسكين الناس بها بعد أن كان من أمر قتيبة ما كان، فاستخلف يزيد بواسط: الجراح بن عبد الله.

المدائني: أن يزيد بن المهلب كان عامل سليمان على العراق، فولى البصرة سفيان بن عمير الكندي فجاءته امرأة بزوجها تطالبه بصداقها فقال: ما لها عندي شيء، قال: فأين صداقها؟ قال: أكله الذئب. قال: فأنت والله ذلك الذئب، أعطها صداقها.

المدائني أن سليمان بن عبد الملك قال لعمر بن عبد العزيز: يا أبا حفص أيكون المؤمن في حال يعتدل فيها سروره ومكروهه؟ فقال: يا أمير المؤمنين لا يستوي عند أحد السراء والضراء ولكن معول المؤمن الصبر.

المدائني قال: قال سليمان بن عبد الملك لمحمد بن مالك الهمداني: قد رأيت ولد المهلب فكلهم جزلُ، فأخبرني أن المهلب، فقال: كان لا يستنهض عن عجز ولا يكفكف عن جهل، و لم أر بالعراق مثله.

حدثني أبو مسعود الكوفي عن عوانة قال: قال سليمان بن عبد الملك: لله كلمة ما قالها إلا حكيم وهي: لا ينفعك رأي من لم ينفعك ظنه.

حدثني أبو الحسن المدائني قال: قال أبو جعفر المنصور: أما الوليد فكان مجنوناً، وأما سليمان فكان همّاً همه بطنه وفرجه، ورجل القوم هشام.

المدائني عن خالد بن يزيد قال: جزع سليمان بن عبد الملك على ابنه أيوب فقال رجل: يا أمير المؤمنين إن من حدث نفسه بطول البقاء لعازب الرأي، فكأن ذلك عرف في سليمان.

المدائني قال: وقع بين سليمان بن عبد الملك وبين أخيه مروان بن عبد الملك في حياة عبد الملك شر، فقال سليمان لمروان: يا بن اللخناء. ففتح فمه ليجيبه وإلى جانبه عمر بن عبد العزيز فأمسك على فمه وقال:

أخوك يا أبا عبد الملك، وله السن عليك، فقال: يا أبا حفص رددت في جوفي أحر من الجمر ومال لجنبه فمات، وكان أخا يزيد بن عبد الملك لأمه عاتكة بنت يزيد، وفيه يقول جرير:

أبا خالد فارقت مروان عن رضىً وكان يزين الأرض أن ينزلا معا

فسيروا فلا مروان للحي غذ شتوا ولا الركب إن أمسوا مخيفين جوعا

ونظر إليه عبد الملك وهو يكفن فقال: الحمد لله الذي رضانا بموت أبنائنا ودفنهم.

وكتب إلى عبد الملك بعض ولد الحكم يعزيه بمروان فكتب إليه عبد الملك:

كتبت تسأل عن صبري لتعلمه على الرزية بالمأمول مروانِ

فقد صبرتُ بعون الله محتسباً لموعد الله من فوزٍ ورضوانِ

المدائني قال: الثبت أن أيوب بن سليمان توفي بالشام و لم يكن غازياً، وإنما كان الغازي مسلمة بن عبد الملك، وكان سليمان أراد أن يُغزيه على الجيش فمرض. قال: فلما احتضر أيوب دخل عليه وهو يجود بنفسه، ومعه عمر بن عبد العزيز، ورجاء بن حيوة، فجعل ينظر في وجهه فتخنقه العبرة فيردها، ثم نظر إلى عمر فقال: إنه والله ما يملك أحد أن يستبق إلى قلبه الوجد عند المصيبة والناس في ذلك أصناف: فمنهم من يغلب صبره جزعه، فذلك الجلد الحازم المحتسب، ومنهم من يغلب جزعه صبره، فذلك المغلوب الضعيف، وإني أجد في قلبي لوعةً إن أنا لم أبردها بعبرة خفت تتصدع كبدي كمداً وأسفاً. فأما عمر فنهاه عن البكاء وأمره بالصبر، وأما رجاء فقال: افعل ولا تفرط فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما هلك إبراهيم ابنه قال: تدمع العين ويفجع القلب، ولا نقول ما يسخط الرب، وإنا عليك يا إبراهيم لمحزونون. فلما دُفن أيوب وقف سليمان على قبره وقال:

وقفت على قبر مقيم بقفرةٍ متاع قليل من حبيب مفارق

ثم قال: عليك السلام يا أيوب. كنت لنا أُنساً ففارقتنا، فالعيش من بعدك مر المذاق. ثم ركب دابته وقال:

فإن صبرت فلم ألفظك من جزعٍ وإن جزعت فعلق منفس ذهباً

فقال عمر: الصبر يا أمير المؤمنين فإنه أقرب الوسائل إلى الله.

قال: وعزى رجل سليمان عن أيوب فقال له: إن رأيت يا أمير المؤمنين أن تجعل آخر أمرك أوله فافعل.

فقال سليمان: لقد أوجزت في التعزية وسكنت من اللوعة، عند الله أحتسب أيوب.

حدثني الحرمازي الحسن بن علي عن العتبي قال: دخل سليمان بن عبد الملك على طاووس يعوده فلم يعظمه و لم يجبه بما يجاب به الخلفاء، فعوتب طاووس على ذلك فقال: أحببت أن يعلم أن الناس من يستصغر ما يستعظمه المغرون مما هو فيه.

قالوا: بينا سليمان يمشي في بستان ومعه جماعة يمشون حوله من أهل بيته وغيرهم، ومعهم يزيد بن المهلب فنظر فقال: يا يزيد ارتدف فأنا أكرم ردافة من النعمان. قال: يا أمير المؤمنين بل أمشي. فقيل ليزيد: ما منعك من الإرداف خلف أمير المؤمنين فتسيران والناس جميعاً يمشون؟ فقال: ما غبيت عن ذلك ولكني خشيت أن أثب فأقصر عن الركوب، وكرهت أن أدعو من يرفعني، وأن تنال أمير المؤمنين يدي.

قالوا: وكان عمير الهجري راوية لخطب الحجاج، فقدم فلسطين ويزيد بها عند سليمان وذلك بعد موت الحجاج، فجلس إليه عمير فذكر شيئاً منها فأمر به يزيد فأقيم قال: احبسوه، ثم قال: خلّوه. فقيل لعمير: ماذا دعاك إلى ما قلت؟ ألم تعلم ما بين يزيد والحجاج؟ قال: لم أعلم أن ههنا أميرين.

وحج سليمان فقدم الطائف فارتفعت سحابة فرعدت وبرقت وهو مشرف على عقبة، ثم أمطرت وانجلت فقال سليمان لعمر: يا أبا حفص كاد قلبي ينصدع. فقال: يا أمير المؤمنين كان ما رأيت من قدرة الله مع رحمته، لو كانت مع عذاب؟!

الخوارج في أيام سليمان بن عبد الملك

أمر داود بن عُقبةٌ العبدي

قال أبو الحسن المدائني: كان داود بن عقبة العبدي من عُباد الخوارج والمجتهدين، فطلب بالبصرة، وكان كبيراً فتوارى عند رجل من بني تميم على رأيه، فأمر امرأته أن تتعهده، وخرج لبعض شأنه فغاب أربعين ليلة، وكان داود منخفض الطرف لا ينظر إلى شيء، فقدم التميمي بعد أربعين ليلة فقال لداود : كيف رأيت خدمة الزرقاء؟ فقال داود: والله ما أدري أزرقاء هي أم كحلاء. ثم خرج داود بالبصرة في سنة تسعين ومروان بن المهلب على البصرة خليفة يزيد، فوجه إليه خيلاً فقتل وأصحابه بموقوع. وداود الذي يقول:

إلى الله أشكو فقد فتيان غارةٍ	شهدتهم يوم النخيلة والنهرِ
شهدتهمُ أُسداً إذا الحرب شمرت	مساميح منهم بالمهندة البُتْرِ
أولئك إخواني مُنيت بفقدهم	فلهفي عليهم أن يروا آخر الدهر
مضوا سلفاً قبلي وأخرت بعدهم	وحيداً لأقوام تنابلة خُزْرْ

ويقال إن الذي قتله وأصحابه: زاذوية الأسواري.

وقال أبو عبيدة: وجه إليهم وهم بموقوع: دبيق الأزدي، ثم أتبعه زاذويه الأسواري في أساورة فرماهم

بالبنجكان، وقال للأزدي بالفارسية: أظننت أن القتال أكل الزبد؟ قال: وخرج أيام سليمان خمسة من الخوارج بعسفان التي بناحية البصرة، فوجه إليهم خمسمائة من الشرط فهزمهم الخوارج، فوجه إليهم مروان بن المهلب زاذويه، ويقال أزذويه الأسواري. فلما رآهم خمسة قال: لأصحابه: قفوا، وقال لغلامه: ناولني خمس نشابات، ودنا منهم فحملوا عليه فاستطرد لهم ثم عطف فرمى رجلاً فصرعه، ثم استطرد، ورمى آخر فصرعه فلم يزل يصنع مثل ذلك حتى قتله جميعاً، وأمر فاحتُزت رؤوسهم.

وخرج خوارج فوجه إليهم مسلم بن الشمردل الباهلي في خيل، فلما التقوا كسورا جفون سيوفهم ونثروا دقيقاً كان معهم فقال الباهلي، قد نثرتم الدقيق خار الله لكم. وترك قتالهم وانصرف. فوجه إليهم غيره فقتلهم.

المدائني قال: دخل سليمان المدينة، فرأى عبد الله بن عوف بن أبي عوف من آل أبي وداعة السهمي، فتوهم أنه من قريش فأشار إليه فتقدم، فقال: ممن أنت؟ فأخبره، فجعل يسأله عن دارٍ دارٍ حتى صار إلى دار ابن بديل بن ورقاء الخزاعي فقال: لمن هذه الدار؟ قال: لابن بديل. قال: ما أعرفك بدور قتله عثمان، ثم مضى وتركه، فبعث إليه بعد ثالثة فقال: يا بن أبي عوف، أبطأ عليك رسولنا حتى ساء ظنك. فقال: القلوب إلى حسن الظن بك أميل منها إلى سوء الظن فيك. وإذا رزمة وخريطة فيها خمسمائة دينار ووصيف عليه ثياب بياض. فقال للوصيف: احمل هذه الخريطة والرزمة وانطلق مع سيدك فأنت له وما حملت.

بسم الله الرحمن الرحيم

أمر عبد العزيز بن مروان بن الحكم وولده

ومن ولد مروان بن الحكم: عبد العزيز بن مروان ويكنى أبا الأصبغ وأمه ليلى بنت زبان بن الأصبغ بن عمرو بن ثعلبة بن الحارث بن حصن بن ضمضم بن عدي بن جناب الكلبي، ولاه مروان أبوه العهد بعد عبد الملك.

وكان عبد الملك قد هم بخلعه وتولية الوليد ابنه العهد، فقال له قبيصة بن ذؤيب الخزاعي: لا تفعل فلعل الله سيكفيكه. فلم يلبث إلا يسيراً حتى أتاه خبر موت عبد العزيز، فقال له قبيصة: سلمت من الغدر والنكث وبلغت إرادتك وفي الصبر خير كثير. فولى حينئذٍ عهده الوليد وسليمان. وكان قبيصة الخزاعي على خاتم عبد الملك وبريده وكان أنساً به قابلاً لقوله.

وكان عبد العزيز جواداً كريماً، وفيه يقول أيمن بن خريم بن فاتك الأسدي حين ولاه أخوه عبد الملك مصر:

بشر أهل مصر فقد أتاهُمُ	مع النيلِ الذي في مصر نيلُ
فتى لا يرزأ الخلان إلا	مودتهم ويرزؤه الخليل

وقال فيه كثير:

قليل الألايا حافظ ليمينه	إذا سبقت منه الألية برت

وقال ابن قيس الرقيات:

أعني ابن ليلى عبد العزي	ز بباب اليون تأتي جفانه رذما
الواهب البخت الوصائف كالغُ	زلانِ والخيل تألك اللجما

وقال عبد العزيز: أنا أخبركم عن نفسي بغير تزكية لها. ما رجل رغب إلي فوضعت معروفي عنده إلا رأيتُ أن يده عندي مثل يدي عنده. وما رجل استجار بي من خوف فلم أبذل دمي دون دمه إلا رأيتني مقصراً بحبسي ولو لم يدخل على البخلاء من بخلهم إلا سوء ظنهم بربهم في الخلف لكان ذلك عظيماً.

وقال رجل من خثعم يهجوه:

أرى عبد العزيز يصد عني	بأنفٍ مثل فيشلة الحمار
فما عبد العزيز لنا برب	ولا دار الهوان لنا بدار

وقال كثير يرثيه:

أبعد ابن ليلى يأمل الخلد واحدٌ	من الناس أم يرجو الثراء مثمرُ.

وقال أبو بكر بن أبي جهم بن حذيفة العدوي:

أبعدك يا عبد العزيز لحاجة	وبعد أبي الزبان يستعتب الدهرُ
فلا صلحت مصر لحي سواكما	ولا سقيت بالنيل بعدكما مصرُ
ولا زال مجرى النيل بعدك يابساً	يموت به العصفورُ واستبطئ القطرُ

أبو زبان: الأصبغ بن عبد العزيز.

فمن ولد عبد العزيز بن مروان:

عمر بن عبد العزيز

ويكنى أبا حفص، وأمه أم عاصم بنت عاصم بن عمر بن الخطاب، خطبها عبد العزيز من أبويها وحملت إليه، فولدت له أبا بكر، وعمر ابني عبد العزيز. وتوفيت عنده، فتزوج حفصة بنت عاصم وكانت عند إبراهيم بن نعيم بن عبد الله النحام من بني عدي بن كعب بن لؤي، فقتل عنها يوم الحرة، وحملت أيضاً إلى عبد العزيز.

وكانت أم عاصم حين حملت مرت بأيلة فأهدى إليها مجنون هناك يقال له شرشير هدية فأثابته وكستهُ. ومرت حفصة فأهدى لها فأغفلته فقال: ليس حفصة من رجال أم عاصم. وحكى بعض البصريين أن حفصة لم تحظ عنده كحظوة أم عاصم فقال: ليس حفصة من رجال أم عاصم، والأول أثبت.

وقال الكلبي: كان ولد عبد العزيز: عمر، وأبا بكر، وعاصماً، ومحمداً أمهم أمت عاصم بنت عاصم بن عمر. والأصبغُ وهو أبو زبان لأم ولد.

وسهلاً وسهيلاً وأم الحكم أمهم أم عبد الله بنت عبد الله بن عمرو بن العاص السهمي.

وزبان وأم البنين أمهما ليلى بنت سهلُ بن حنظلة بن الطفيل الجعفري.

وقالوا: ولى سليمان بن عبد الملك عمر بن عبد العزيز الخلافة، وكتب كتاباً سماه فيه، ويزيد بن عبد الملك إن كان بعده. فلما مات سليمان بن عبد الملك أخرج رجاء بن حيوة الكتاب وأظهر اسمه وبايعه الناس، فقال لرجاء: ذبحتموني بغير سكين.

وكان عمر بن عبد العزيز أشجّ، ضربه حمار وهو بمصر، فلما رآه أخوه الأصبغ قال: هذا والله أشج بني أمية، يملأ الأرض عدلاً.

وكانت خلافته ثلاثين شهراً، ووفاته وهو ابن تسع وثلاثين سنة. وتوفي في سنة إحدى ومائة، ودُفن بدير سمعان، وكان نزوله بخناصرة من عمل جند قنسرين، وصلى عليه رجاء بن حيوة. ويقال مسلمة بن عبد الملك.

حدثني الحسين بن علي بن الأسود العجلي، ثنا إسماعيل بن أبان عن أبي الأحوص عن ضرار بن مرة الشيباني قال: لما ولي عمر بن عبد العزيز صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أيها الناس من صحبنا فليصحبنا بخمس: يبلغنا حاجة من لا يستطيع إبلاغها، ويدلنا من العدل على ما لم نهتد له، ويؤدي الأمانة إذا حملها، ويعيننا على الخير، ويدع ما لا يعنيه. فمن كان كذلك فحي هلابه، ومن لم يكن كذلك فلا يقربنا. قال أبو سنان: فحجبوا والله دونه، قال: وهذا أول كلام تكلم به حين استُخلف.

حدثني هشام بن عمار عن أشياخه قالوا: لما ترعرع عمر بن عبد العزيز استأذن أباه في إتيان المدينة وقال: أحب أن أكتب العلم، وأحضر قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويقرب علي الحج، فأذن له في ذلك،

فأتى المدينة.

حدثني عبد الله بن صالح عن عبثر أبي زبيد قال: أراد عمر بن عبد العزيز تولية ابن شهاب الزهري الصدقة، فبلغه عنه ما كان تمنه حين ولي السعاية على الصدقة من قبل رجل كان ضربه، فكرة توليته.وولى الكوفة عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب.

وقال الواقدي: أذن له أبوه في إتيان المدينة وقال له: اجتنب آل عبد الرحمن بن عوف، وآل سعيد بن العاص فإن ثم شرارة وشراسة وسوء أخلاق، فكان يجالس أهل العفة والورع.

المدائني عن أبي اليقظان قال: أوصى عبد العزيز لعمر بأربعين ألف دينار، ودفعها إلى رجل من أهل المدينة يقال له ابن رمانة، وكان مولى لبعضهم، فلما توفي عبد العزيز أتاه بالمال فقبضه ثم ذهب ابن رمانة فحدث بذلك أبا بكر بن عبد العزيز، فغضب وكتب إلى عمر: إنك أخذت هذا المال دوننا.

ثم شخص عمر من المدينة فقدم الشام، فلما استخلف الوليد بن عبد الملك – وهو صهره، كانت أم البنين بنت عبد العزيز عنده، فولدت له عبد العزيز بن الوليد، ومروان بن الوليد، وعنبسة، ومحمداً – ولاه الوليد المدينة فأحسن السيرة، إلا أنه كان لباساً عطراً، وإنما تقشف بعد ذلك، فكان يُعمل له ثوب الخز بمائة دينار فيستخشنه، ثم إنه كان يؤتى بالثوب الخشن بأقل من دينار أو بدينار فيقول: ما اصنع بهذا ائتوني بأخشن منه وأقل ثمناً.

وكان ابن رمانة لمغاضبته إياه يرفع على عماله، ويقع فيهم حين عُزل عن المدينة، فقال عمر: لو أشاء أن آخذ كتاب الوليد إلى عامل المدينة في ضرب ابن رمانة مائة سوط، وحلق رأسه ولحيته فعلتُ، ولكني رأيت متقى الله منجى.

وفي ولاية عمر بن عبد العزيز يقول الأحوص بن محمد الأنصاري:

وأرى المدينة حين كنت أميرها	أمن البريءُ بها ونام الأعزلُ
وأراك تفعل ما تقول وبعضهم	مذق اللسان يقول ما لا يفعلُ

الكلبي عن عوانة قال: أنشد رجلٌ عمر:

أعوذ برب الناس من كل نعمةٍ	تقرُّ بها عيناي فيها إذا هُما

فقال عمر: أعاذك الله ورحمك، ما أحسن ما قلت.

حدثني هشام بن عمار قال: بلغنا أن عمر بن عبد العزيز كان يساير سليمان بن عبد الملك، فرعدت السماء وبرقت، فقال عمر: يا أمير المؤمنين، هذه قدرة الله عند الرحمة، فكيف بها عند العذاب.

المدائني قال: قال عمر بن عبد العزيز لرجل: من سيد قومكَ؟ قال: أنا. لو كنت كذلك ما قلته.

قال: وقال سليمان بن عبد الملك ليزيد بن المهلب: من أعز أهل البصرة؟. فقال: نحن وحلفاؤنا من ربيعة، فقال عمر بن عبد العزيز: من تحالفتم عليه أَعزُّ.

المدائني وغيره قالوا: كان جل من هرب من الحجاج لجأ إلى عمر بن عبد العزيز، فكتب الحجاج إلى الوليد إن عمر بن عبد العزيز قد صار كهفاً لمنافقي أهل العراق، فما أحد يهرب منهم إلا لجأ إليه. فكان ذلك سبب عزل عمر.

وحدثني عباس بن هشام الكلبي عن أبيه عن جده قال: كان عون بن عبد الله بن عتبة بن مسعود الهُذلي من القراء، وكان عمر بن عبد العزيز يكرمه، فدخل عليه يوماً، وجرير بن عطية الخطفى بالباب فسأله أن يستأذن على عمر، وكان عون معتماً فأذن له فسلم وخرج و لم يقبل عليه عمر، ويقال إنه لم يُؤذن له فقال جرير:

يا أيها القارئ المرخي عمامته	هذا زمانك إني قد مضى زمني
أبلغ خليفتنا إن كنت لاقيهُ	إني لدى الباب كالمصفود في قرن

المدائني عن أبي اليقظان قال: جمع عمر بني مروان فقال لهم: يا بني مروان إني أظن نصف جميع مال الأمة عندكم فأدوا بعض ما عندكم إلى بيت مال المسلمين. فقال هشام: لا يكون والله ذاك حتى تذهب أرواحنا.

فغضب عمر وقال: أما والله يا بني مروان إن لله فيكم ذبحاً ولولا أن تستعينوا علي بمن أطلب هذا المال له لأضرعت خدودكم.

حدثني هشام بن عمار بن الوليد بن مسلم، وقال أبو اليقظان أيضاً: كتب بعض عمال عمر بن عبد العزيز إليه: إن مدينتنا تحتاج إلى مرمة فكتب إليه: أما بعد فقد بلغني كتابك وفهمت ما ذكرت فيه فحصن مدينتك بالعدل ونقها من الظلم، والسلام.

المدائني قال: كتب عمر إلى عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب عامله على الكوفة: اجتنب الحاجات عند حضور الصلوات، والسلام.

وحدثني منصور بن أبي مزاحم عن شعيب بن صفوان: ولى عمر رجلاً من قريش من أخواله القضاء فأتاه خصمان فلم يتجه له الحكم بينهما، فغرم للمدعي ما ادعى، فكتب إليه: يا خل إنا لم نولك لتغرم، وعزله، وولى غيره.

المدائني قال: ولى عمر رجلاً من أخواله عملاً فتحاكم إليه رجلان في دينار فلم يحسن القضاء بينهما،

وغرم ديناراً أصلح به بينهما، فكتب إليه عمر: إني لم أولك لتغرم، وولى غيره.

حدثني هشام بن عمار. أنبأنا الوليد عن سعيد بن واقد قال: قيل لعمر بن عبد العزيز: أي الجهاد أفضل؟ قال: جهاد المرء هواه.

المدائني عن أبي بكر عن رجل عن رجاء بن حيوة قال: كنت عند عمر بن عبد العزيز فكاد المصباح يطفأ فقمت لأصلحه فقال: مه، إن جهلاً بالرجل أن يستخدم ضيفه، ثم قام فوجد غلامه نائماً فلم يوقظه وتولى إصلاح المصباح ثم عاد فقال: قمت وأنا عمر بن عبد العزيز وقعدتُ وأنا عمر بن عبد العزيز.

قالوا: وكان عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز زاهداً خيراً فقال له: يا بني لأن تكون في ميزاني أحب إلي من أن أكون في ميزانك. فقال: ولأن يكون ما تحب أحب إلي من أن يكون ما أحب.

فلما مات عبد الملك خرج عمر إلى الناس وقد اكتحل فسئل عنه فقال: قد سكن علزه ورجاه أهله، وما كان في حال أحب إلي من حاله، ثم علم بموته فقيل له: قد فعلت ما فعلت وقد مات، فقال: أحببت أن أرغم الشيطان.

وانصرف من جنازته فرأى قوماً ينتضلون فقال لبعضهم أخطأت فافعل كذا. فقيل له في ذلك فقال: ليس في موت عبد الملك ما يشغل عن نصيحة المسلم.

وقال أبو اليقظان: كتب إلى عمر عامله على عُمان وهو عامر بن عبد الله بن أبي طلحة، يعلمه أن من كان قبله كانوا يستعينون بالجند، وأن قد اختار ثلاثين رجلاً من أهل عمان فولاهم الصدقات. ويسأله أن يقفل من قبله من الجند. فكتب إليه: قد فهمت ما ذكرت فاقفل من قبلك من الجند بعد أن تخيرهم بين ركوب البحر وسلوك البر، فمن اختار البحر فأكثر له وزوده من بيت مال المسلمين، ومن اختار البر فأكثر له ظهراً وزوده ما يقيمه أيضاً والسلام.

وقال سحيم بن حفص أبو اليقظان: استعمل عدي بن سعيد مسعود المازني على عُمان فأخذ رجلاً من الأزد يقال له خليد بن سعوة، فضربه مائة سوط في باقة أرادها ابن مسعود، فأتى عمر فشكا ذلك إليه، وأنشده قول كعب الأشعري:

إن كنت تحفظ ما يليك فإنما	عمال أرضك بالعراق ذئابُ
لم يستقيموا للذي تدعو له	حتى تضرب بالسيوف رقابُ
بأكف منصلتين أهل بصائر	في رفعهن مواعظ وعقابُ
لولا قريش نصرها ودفاعها	أمسيت منقطعاً بي الأسباب

فقال عمر: لمن هذا الشعر؟ قال: لرجل من الأزد من أهل عُمان يقال له كعب. فقال له: ما كنت أرى أهل عمان يقولون مثل هذا الشعر، وكتب عمر إلى عدي بن أرطاة: إن استعمالك سعيد بن مسعود قدر من الله قدره عليك، وبلية ابتلاك بها، فإذا أتاك كتابي فابعث إليه من يعزله، وابعث به إلي مشدوداً موثقاً. فعزله واستعمل عبد الرحمن بن قيس، وحمل سعيداً إلى عمر فجعل سعيد يرتجز ويقول:

كيف ترى الشيخ أبا الزبير   يُدلّ بعد خطب الأمير

سوق الروايا وحدا البعير

فلما دخل عليه كلمه عمر فقال: أصلحك الله أتكلمني وأنا موثق؟ أطلق عني حتى أتكلم بحجتي، فأطلق عنه وقال للأزدي: اضربه، فقال قمير بن سعيد: أنا الذي ضربته و لم يضربه أبي، قال: فأعطي الأزدي سوطاً، وقال عمر: قم فاجلده كما جلدك. فجلد قميراً مائة سوط، فقال له أبوه: يا قمير اصرر أذنيك إصرار الفرس الجموح، وعض على نواجذك، واذكر أحاديث غدٍ، وإياك وذكر الله فإنه معجزة.

وقال أبو اليقظان: قام رجل من بني كلاب إلى عمر وهو على المنبر فأنشد:

إن الذين بعثت في أقطارها   نبذوا كتابك واستحل المحرمُ

جلس الذئاب على منابر أرضنا   كل بنقص نصيبنا يتكلمُ

وأردت أن يلي الأمانة منهم   عدل وهيهات الأمين المسلمُ

فقال عمر: صدقني والله.

حدثني عبد الله بن صالح العجلي قال: سمعت حموة الزيات يحدث أن عمر بن عبد العزيز غضب على رجل غضباً شديداً فأتي به وأمر بالسياط فأحضرت، فقال: لولا شدة غضبي عليك لأوجعتك.

المدائني أن عمر بن عبد العزيز تقال: ما قُرن شيء إلى شيء أحسنُ من حلم إلى علم، وعفو إلى مقدرة.

قال: وقال عمر بن عبد العزيز: تعلموا العلم فإنه زين للغني، وعونٌ للفقير، لا أقول أنه يكسب به ولكنه يدعوه إلى القناعة.

حدثني بكر بن الهيثم عن سفيان بن عيينة قال: قدم وفد على عمر بن عبد العزيز من العراق، فنظر عمر إلى شاب منهم يتهيأ للكلام فقال عمر: ليتكلم أكبركم سناً، فقال الفتى: يا أمير المؤمنين، ليس الأمر بالسن ولو كان كذلك كان في المسلمين من هو أسنن منك، قال: صدقت. فتكلم فقال: إنا لم نأتك رغبة ولا رهبة، أما الرغبة فأتتنا في بلادنا ودخلت علينا منازلنا، وأما الرهبة فإنا أمناها بعدلك.

قال: فما أنتم؟ قال: نحن وفد الشكر. فنظر محمد بن كعب القرظي إلى وجه عمر يتهلل، فقال: يا أمير

المؤمنين لا يغلبن جهالة القوم بك معرفتك بنفسك، فإن من الناس ناساً غرهم الستر وخدعهم حسن الثناء وأنا أعيذك بالله من أن تكون منهم. فبكى عمر.

حدثني عبد الرحمن بن حزرة أحد ولد جرير بن عطية الخطفي قال: وفد جرير على عمر بن عبد العزيز فغبر حيناً لا يصل إليه، ثم رأى ذات يوم عون بن عبد الله المسعودي يريد الدخول عليه وكان قارئاً فقام إليه جرير فقال له:

يا أيها القارئ المرخي عمامته — هذا زمانك إني قد مضى زمني

أبلغ خليفتنا إن كنت لاقيه — إني لدى الباب كالمصفود في قرن

فقاله له عون: إن أمكنني ذلك فعلت إن شاء الله.

فلما دخل عون على عمر سلم وجلس حتى فرغ من حوائج الناس، ثم أقبل عليه فقال: يا أمير المؤمنين إن ببابك جرير بن عطية وهو يطلب الإذن، فقال عمر: أو يمنع أحد من الدخول؟ قال: لا يا أمير المؤمنين لكنه يطلب إذناً خاصاً ينشدك فيه. قال: يا غلام أدخل جريراً. فأدخل إليه وعون جالس فأنشد جرير عمر:

أأذكر الجهد والبلوى التي شملت — أم أكتفي بالذي نبئت من خبر

كم بالمواسم من شعثاء أرملة — ومن يتيم ضعيف الصوت والنظر

ممن ترجى له من بعد والده — كالفرخ في العش لم ينهض ولم يطر

فبكى عمر حتى بلت دموعه لحيته، وأمر بصدقات تفرق على الفقراء في النواحي فقال جرير:

هذي الأرامل قد قضيت حاجتها — فمن لحاجة هذا الأرمل الذكر

فقال له: يا جرير أنت من أبناء المهاجرين الأولين؟ قال: لا. قال: أفمن أبناء الأنصار؟ قال: لا. أفمن أبناء التابعين بإحسان؟ قال: لا. قال: أفمن فقراء المسلمين أنت فنجريك على ما نجري عليه الفقراء؟ قال: قدرتي فوق ذلك. قال: أفأنت ابن سبيل فنعينك على سفرك؟ قال: قدرتي فوق ذلك. فقال: يا جرير ما أرى لك بين الدفتين حقاً.

فولى جرير فقال عون: يا أمير المؤمنين إن الخلفاء كانت تعوده على الإحسان، وإن مثل لسانه يتقى، فقال عمر: ردوه فقال له عمر: يا جرير إن عندي من مالي عشرين ديناراً وأربعة أثواب فأقاسمك ذلك. فقال: بل توفر يا أمير المؤمنين وتحمد.

فلما خرج تلقاه الناس فقالوا له: ما وراءك؟ قال: خرجت من عند رجل يعطي الفقراء ويمنع الشعراء، وإني له لحامد. و لم يذكره بسوء. وقال فيه حين مات:

فالشمس كاسفة ليست بطالعة تبكي عليك نجوم الليل والقمرا

المدائني عن عوانة قال: كتب صالح بن عبد الرحمن وصاحب له إلى عمر بن عبد العزيز وكان يلي الخراج بالعراق: "إنه لا يصلح الناس إلا السيف" فغضب عمر وقال: أما تعجبون لربذتين من الربذ خبيثين من الخبث يعرضان لي بدماء المسلمين، ما من الناس أحدا إلا ودماؤكما أهون علي من دمه.

المدائني قال: كتب عمر إلى أهل البصرة كتاباً ذكر فيه يزيد بن المهلب فقال: "إنه لم يكن من أئمة الهدى، ولا الأعوان على التقوى".

المدائني قال: أتى رجل من آل قتيبة عمر بن عبد العزيز فوقع في يزيد بن المهلب عنده وتظلم وهو ساكت، ثم قذفه فقال عمر: أخرج مما قلت فلم يخرج، فأمر سليمان بن حبيب فحده.

المدائني قال: حبس عمر يزيد بن المهلب فقيل له: إنه شريف له موضع، فقال: إنه صاحب فتك، وليس له خير من السجن.

حدثني داود بن عبد الحميد قاضي الرقة عن مروان بن معاوية عن عيسى بن المغيرة عن مزاحم بن زفر قال: كنا بسمرقند وعليها محمد بن المهلب فخرج علينا شار يوم جمعة وضرب رجلا من بني عجل بالسيف فأخذ. ودعا محمد بن الضحاك ابن مزاحم صاحب التفسير فسأله عن أمره فقال: أرى أن تحبسه حتى تنظر ما حال المضروب. فحبسه وكتب إلى يزيد بن المهلب، فكتب به إلى سليمان بن عبد الملك فوافاه الكتاب وقد مات سليمان، وولي عمر بن عبد العزيز، فكتب عمر: "أما بعد فانظر فإن كان المضروب مات من ضربة الحروري فادفعه إلى أوليائه ليقتلوه، وإن كان قد برئ فأقصه منه ثم احبسه في محبس قريب من أهله حتى يتوب من هواه الخبيث الذي خرج عليه أو يموت.

قالوا: وأشرف سليمان في حجته من عقبة قديد، فنظر إلى عسكره، فأعجبه ما رأى من كثرة سواده، فقال: كيف ترى يا أبا حفص؟ فقال: أرى دنيا يأكل بعضها بعضاً، أنت المبتلى بها والمسؤول عنها. ونعب غراب فقال: ما تراه يا أبا حفص يقول: قال: لا أدري وإن شئت قلت لك.

المدائني قال: مرض عمر بن عبد العزيز فقال مسلمة: آتيك بمائة ألف درهم تتصدق بها؟ قال: أفلا تصنع خيراً من ذلك؟ قال: وما هو يا أمير المؤمنين؟ قال: تردها إلى حيث أخذتها منه فإنه خير لك.

المدائني قال: قال مسلمة لعمر بن عبد العزيز: يا أمير المؤمنين أما تمل الخل والزيت؟ قال: إذا مللتها تركتهما حتى اشتهيهما.

حدثنا هشام بن عمار عن الوليد قال: دخل بعضهم على عمر بن عبد العزيز حين ولي الخلافة فقال: من تكن الخلافة زينته فإنك زينتها، وإنك لكما قال الشاعر:

وتزيدين طيب الطيب طيباً إن تمسيه أين مثلك أينا

فإذا الدر زان حسن وجوه كان للدر حسن وجهك زينا

قال: دعني فأنا أعلم بنفسي وذنوبي، إني إلى عفو الله عني أحوج مني إلى تقريظك أياي.

قال وقال الوليد: أثنى قوم على عمر فقال لهم: يا هؤلاء دعونا من ثنائكم وأمدونا بدعائكم.

حدثني أبو بكر الأعين عن السهمي عن أبيه وغيره أن عدي بن أرطاة كتب إلى عمر بن عبد العزيز يستأذنه في عذاب قوم من عمال الخراج بلحوا في يديه وامتنعوا من أداء ما عليهم، فكتب إليه "أما بعد فالعجب كل العجب من استئذانك إياي في عذاب البشر، كأني جنة لك من عذاب الله، أو كأن رضائي ينجيك من سخط الله، فمن أعطاك ما قبله عفواً فاقبله، ومن قامت عليه البينة فخذه بما ثبت بالبينة عليه، ومن أنكر فاستحلفه، فوالله لأن يلقوا الله بجناياتهم أحب إلي من أن ألقاه بعذابهم، والسلام.

وحدثني أحمد بن إبراهيم الدورقي، ثنا سعيد بن عامر عن عون بن المعمر قال: كتب الحسن البصري إلى عمر بن عبد العزيز: "أما بعد فكأنك بآخر من كتب عليه الموت قد مات" فكتب إله عمر: "أما بعد فكأنك بالدنيا وكأنها لم تكن، وكأنك بالآخرة وكأنها لم تزل، والسلام." حدثني أبو أيوب الرقي المعلم عن النفيلي قال: كتب عمر بن عبد العزيز إلى الجراح بن عبد الله الحكمي: "أما بعد فكأنك بالدنيا وكأنها لم تكن، وكأنك بالآخرة وكأنها لم تزل، واعلم أن من علم أن كلامه من عمله أقل كلامه إلا فيما يعنيه وينفعه" حدثني عبد الله بن صالح العجلي عن المبارك بن سعيد عن أبي حمزة الثمالي قال: أطرى ابن الأهتم بني أمية، وأفرط في مدحهم فقال عمر: من سره أن ينظر إلى الأفاك الأثيم فلينظر إلى ابن الأهتم.

فلما استخلف قال: لا يدخل علي ابن الأهتم ولا خالد بن عبد الله القسري فإنها مقولان، وإن من البيان ما فيه سحر.

حدثني عبد الله بن صالح عن زهير بن معاوية أن عمر بن عبد العزيز عزل بعض قضاته، فلما قدم عليه قال: يا أمير المؤمنين لم عزلتني؟ قال: لأن كلامك أكثر من كلام الخصمين إذا تحاكما إليك.

وقال هشام بن عمار: قال همام بن مصاد: دخلت على عمر، وهو يبكي، فقلت: ما يبكيك يا أمير المؤمنين؟ فقال: يا بن مصاد إن في الجسد مضغة إليها يأوي خيره وشره فأصلحوا قلوبكم تصلح

أعمالكم.

حدثني داود بن عبد الحميد قاضي الرقة عن أبيه أن عمر بن عبد العزيز كتب إلى بعض عماله: "أنزل رعيتك بمترل ولدك، فوقر كبيرهم، وارحم صغيرهم، وقوم ناشئهم" حدثني بكر بن الهيثم: ثنا عبد الله بن صالح عن الليث بن سعد قال: كتب عمر بن عبد العزيز إلى الجراح بن عبد الله الحكمي: "أما بعد: فدع من الحلال ما يكون حاجزاً بينك وبين الحرام، فإن من استوعب الحلال كله تاقت إلى الحرام نفسه، وعليك بالقصد فإن الإسراف من عمل الشيطان، والسلام.

حدثني محمد بن الأعرابي عن الأباني قال: لما ولي عمر بن عبد العزيز بعث إلى سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب، ومحمد بن كعب القرظي،ورجاء بن حيوة الكندي، فقال: قد وليت هذا الأمر وابتليت به فأشيروا علي، فقال سالم: اجعل الناس ثلاثة أصناف أباً، وأخاً، وابناً، فبر أباك، وصل أخاك، وارحم ابنك. وقال محمد بن كعب: اجعل الدنيا يوماً صمته عن لذاتك، فكأن فطرك عليه الموت. وقال رجاء بن حيوة: أحب للناس ما تحبه لنفسك، واكره ما تكرهه لنفسك، واعلم أنك أول خليفة يموت.

وحدثني عبد الله بن صالح بن مسلم العجلي عن يحيى بن يمان عن سفيان قال: بلغنا أن محمد بن يوسف أخا الحجاج ضرب على أهل اليمن خرجاً جعله وظيفة أخصبوا أو أجدبوا، فلما ولي عمر بن عبد العزيز كتب إليه عامله يعلمه ذلك فكتب : "ألغ تلك الوظيفة، واقتصر بالناس على عشر ما سقي سيحاً أو سقته السماء ونصف عشر ما سقي بالغرب والسواني، فوالله لأن لا يأتيني من اليمن حفنة كتم أحب إلي من إقرار هذه الوظيفة" فلما ولي يزيد بن عبد الملك أمر بردها.

المدائني عن مسلمة بن محارب قال: لما ولي محمد بن يوسف اليمن أساء السيرة، وظلم الرعية وضرب على أهل اليمن خراجاً جعله وظيفة عليهم، فلما ولي عمر بن عبد العزيز كتب إلى عامله يأمره بإلغاء تلك الوظيفة والاقتصار على العشر والصدقة، وقال: "والله لأن يأتيني من اليمن حفنة كتم أحب إلي من إقرار هذه الضريبة" فلما ولي يزيد أمر بردها وكتب إلى عروة بن محمد: إن ابن عبد العزيز كان مغروراً منك ومن أشباهك فأعد على أهل اليمن الضريبة التي كان عمر أمر بإسقاطها، ولو صار أهلها حرضاَ.

المدائني قال: دخل على عمر بن عبد العزيز سالم السندي، وكان من خاصته، فقال له: أسرك ما وليت أم ساءك؟ قال: سرني للناس وساءني لك. قال: إني أتخوف أن أكون قد أوبقت نفسي، قال: ما أحسن حالك إن كنت تخاف، إنما أخاف عليك ألا تخاف. قال: عظني. قال: إن آدم أخرج من الجنة بخطيئة، فتدبر أمرك،واحفظ نفسك.

قال: وقال عمر لمحمد بن كعب: عظني. فقال: لا أرضى نفسي لموعظتك لأني لأصلي بين الفقير والغني فأميل إلى الغني، ويدخل الفقير والغني علي فأوسع للغني. فقال عمر: فاستغفر الله. وبكى.

المدائني عن سحيم بن سفيان قال: ولى عمر بن عبد العزيز أيام توليته المدينة للوليد بن عبد الملك رجلاً يقال له راشد، ويكنى أبا علي، الربذة فضرب رجلاً من بني أسد يقال له بعثر، فركب إلى عمر وأنشأ يقول:

أقول لراشد أمسك كتابي	وخل لناقتي عنك السبيلا
ستجمع بالمدينة وابن ليلى	وحكمته التي تشفي الغليلا

وأتى عمر فشكا إليه فبعث إلى راشد ثم قال لبعثر: اضربه كما ضربك، فضربه ثم أتى راشد بإهاب فلبسه فقال بعثر:

رأيت أخا الصفاء أبا علي	يعاتبني ويدرع الإهابا
يقول ظلمتني وأقول كل	أصاب إلى أخيه ما أصابا

وحدثني هشام بن عمار عن الوليد بن مسلم عمن سمع عمر بن عبد العزيز يقول: ما كذبت مذ عرفت أن الكذب يضر بأهله.

وقال أبو اليقظان: ثنا جويرية بن أسماء عن إسماعيل بن أبي حكيم كاتب عمر بن عبد العزيز، وهو مولى لآل الزبير قال: ما كتبت له قط في أكثر من شبر حتى خرج من الدنيا؟ وقال أبو اليقظان: لما قدم عمر المدينة والياً عليها، دخلت عليه قريش، فقال أبان بن عثمان بن عفان: قد أتاكم أمير مضطلع بأمره.
وقال أبو اليقظان: ثنا جويرية بن أسماء بن إسماعيل قال: قال عمر: ما تركت من الدنيا شيئاً تتوق إليه نفسي إلا البراذين فإني كنت أجد لها تحت ذي وطاء لا أجده لغيرها من المراكب.
حدثنا محمد بن مصفى الحمصي عن أبيه قال: لما ولي عمر بن عبد العزيز كتب إليه سابق البربري أو أنشده:

باسم الذي أنزلت من عنده السور	والحمد لله أما بعد يا عمر
إن كنت تعلم ما تأتي وما تذر	فكن على حذر قد ينفع الحذر
واصبر على القدر المجلوب وارض به	وإن أتاك بما لا تشتهي القدر
فما صفا لامرئ عيش يسر به	إلا سيتبع يوماً صفوه كدر

قالوا: وكتب عمر بن عبد العزيز إلى عدي: إياك والمزاح، فإنه يذهب المروءة، وينبت الضغائن، وقال عمر بن عبد العزيز: قال عمر بن الخطاب: الرأي كثير والحزم قليل.

وقال أبو اليقظان عن جويرية: غضب عمر بن عبد العزيز فقال ابنه عبد الملك: أتغضب في قدرك وموضعك الذي وضعك الله به؟ فقال:أو ما تغضب أنت يا عبد الملك؟ فقال: فما ينفعني سعة جوفي إذا أنا لم أردد الغضب فيه حتى يسكن. فتبسم عمر.

فلما حضرت عبد الملك بن عمر الوفاة فال له عمر: كيف تجدك يا بني؟ قال: أجدني في الموت فاتق الله يا أبه واصبر.فقال: يا بني ما خلق الله عيناً تطرف أحب ولا أعز علي منك، ولأن تكون في ميزاني أحب إلي من أن أكون في ميزانك.

فقال: يا أبه. ولأن أكون ما تحب أحب إلي من أن يكون ما أحب. فمات يوم خميس، فخرج عمر في جنازته وقد اكتحل وسرح لحيته وقال: أحببت أن أرغم الشيطان. وقال: الذي نزل بعبد الملك أمر كنا نتوقعه، فلما أتى لم ننكره.

وقال كثير:

وحض الذي ولى على البر والتقى	ولم يهمم الباقي بأن يتخشعا
ولو نزلت مثل الذي نزلت به	بركن شديد من أجأ لتصدعا
فأصبحت كالمبقي له بعض نفسه	عياضاً وبعض قد تولى فودعا

فلما كان يوم الجمعة صعد المنبر فقال: الحمد لله على ما أعطى والحمد لله على ما بقى، والحمد لله على ما أخذ. ثم كتب إلى جميع عماله: عدي بن أرطاة الفزاري وغيره: "إن الله وهب عبد الملك بن عمر فمتعني به ما شاء أن يمتعني به، ثم قبضه إليه، فأعوذ بالله أن تكون لي مشيئة في غير ما أحب الله، فإذا جاءك كتابي هذا فلا أعلمن ما بكي عليه قبلك، وأكثر من الاستغفار له إن شاء الله، والسلام" وقال سحيم بن حفص: قام عمر على قبر ابنه حين دفنه فقال: رحمك الله إن كنت لتسرني حياً فأنا بك اليوم أسر، فرحم الله من قال: رحمك الله يا عبد الملك.

المدائني عن سحيم أن عبد الملك قال لعمر أبيه: يا أبه لعله يمنعك أن تقوم بالحق مخافة هؤلاء – يعني بني مروان – فوالله لوددت أن القدور تغلي بنا وبهم. فقال: يا بني صبراً فإن الخمر كانت محرمة عند الله، فأنزل فيها آيتين قبل أن يترل تحريمها.

وقال أبو اليقظان: بلغ عمر عن ابنه عبد الملك أمر كرهه فكتب إليه: "بلغني عنك بعض ما أكره، ولو كنت تقدمت إليك فيه لأتاك مني ما تكرهه، واذكر أن أباك كان عند أبيه مطرحاً يفضل عليه الكبير ويؤثر عليه الصغير، واذكر أن أمك كانت أمة من الأعاجم وليست من خيارهم، فلئن عدت ليأتينك مني ما لا تحب إن شاء الله" وقال عمر بن عبد العزيز: إنه لا عمل لمن لا نية له، ولا أجر لمن لا خشية له، وإن

أيمن أحدكم وأشأمه لسانه، فمن حفظ لسانه أراح نفسه وسلم المسلمون منه، وإن قوماً صحبوا سلاطينهم بغير ما يحق عليهم فعاشوا بخلافهم وأكلوا بألسنتهم وخلبوا الأمة بالمكر والخيانة والخديعة، ألا إن كل ذلك في النار، ألا فلا يقربنا من أولئك أحد لا سيما خالد بن صفوان وخالد بن عبد الله.

المدائني قال: قال عمر بن عبد العزيز لمعلمه: كيف كانت طاعتي لك وأنت تعلمني؟ قال: أحسن طاعة. قال: فقد ينبغي أن تطيعني كما كنت أطيعك، خذ من شاربك حتى تبدو شفتاك، وخذ من قميصك حتى يبدو عقباك.

حدثني عبد الواحد بن غياث البصري عن جويرية بن أسماء قال: كتب أبو بكر بن محمد بن عمرو بن حزم إلى عمر ثلاثة كتب فأجابه عنها في كتاب واحد إليه: "إن من كان قبلي من أمراء المدينة كانت تجري عليهم أرزاق للشمع، فإن رأى أمير المؤمنين أن يجريها لي فليفعل.

وكتب إليه: "إن مسجد بني عدي بن النجار، أخوال رسول الله صلى الله عليه وسلم قد استهدم فإن رأى أمير المؤمنين أن يأمر ببنائه فليفعل" وكتب إليه أن قوماً من الأنصار قد بلغوا أسناناً و لم يبلغ عطاؤهم الشرف فإن رأى أمير المؤمنين أن يأمر بإثباتهم في شرف العطاء فليفعل" فافتض عمر كتبه ثم كبت: أما ما ذكرت من أمر الشمع فطالما مشيت في طرق المدينة في الليلة الظلماء، وأنت لا يمشي بين يديك بشمع، ولا يمشي خلفك رجال قريش والأنصار.

وأما مسجد بني عدي فقد كنت أحب أن أخرج من الدنيا و لم أضع لبنة على لبنة ولا آجرة على آجرة، فابنه واقتصد في النفقة. وأما ما ذكرت من أمر الرجال الذين بلغوا سناً و لم يبلغ عطاؤهم الشرف، فإنما الشرف شرف الآخرة، والسلام.

المدائني عن مسلمة أن عدي بن أرطاة كتب إلى عمر: إن قوماً من أهل الذمة تعوذوا بالإسلام مخافة الجزية، فليكتب إلي أمير المؤمنين فيهم برأيه؟ فكتب إليه: إن الله بعث نبيه صلى الله عليه وسلم داعياً و لم يبعثه جابياً فمن دخل في المسلمين فله مالهم وعليه ما عليهم، فانظر من كان من أهل الذمة فأظهر الإسلام واختتن وقرأ سوراً من القرآن، فأسقط الجزية عنه إن شاء الله والسلام.

المدائني وغيره قالوا: كتب عمر إلى عدي: أما بعد فما بقاء الدين مع وسوسة الشيطان، وجفوة السلطان، فأعط كل ذي حق حقه والسلام.

حدثني إسماعيل بن أبي زيد الأنطاكي، أخو ثمامة الكاتب، قال: حدثني شيخ لنا قال: أصابت الناس زلزلة، فكتب عمر: أما بعد فإن الله ذو قدرة غالبة وعز قاهر، يعفو عمن يشاء، ويؤاخذ من أراد، وإن هذه الرجفة عتاب من الله لخلقه، فاعتبوه بطاعته، وخافوا عقابه، فإنه يقول: "أفأمن أهل القرى أن يأتيهم

بأسنا بياتاً وهم نائمون، أو من أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحى وهم يلعبون، أفأمنوا مكر الله فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون" وحدثنا الحسن بن علي الأسود العجلي عن يحيى بن آدم عن فضيل بن عياض قال: كتب عمر بن عبد العزيز إلى عدي بن أرطاة أما بعد فإن الله سبحانه وتعالى وبحمده إنما جعل الجزية على من رغب عن الإسلام غياً وخسرانا، فانظر من كان قبلك من أهل الذمة ممن كبرت سنه، وضعفت قوته، وولت محاسنه فأجر عليه قوته من بيت المال المسلمين والسلام.

حدثني الحسين عن يحيى بن آدم عن عبد الله بن المبارك عن سعيد بن أبي عروبة عن قتادة قال: كتب عمر بن عبد العزيز: من غلب الماء على شيء فهو له.

حدثني الحسين بن علي الأسود، ثنا محمد بن يزيد العقدي عن محمد بن طلحة عن داود بن سليمان أن عمر بن عبد العزيز كتب إلى عبد الحميد بن عبد الرحمن: أما بعد فإن أهل الكوفة قد أصابهم بلاء وشدة، وجور في الأحكام، وسنن سنها عليهم عمال السوء، وإن قوام الدين، وصلاح الرعية العدل والإحسان، فلا يكونن شيء أهم إليك من نفسك وصلاح الرعية والعدل والإحسان، فلا يكونن شيء أهم إليك من نفسك حتى توطنها بطاعة الله، وأنا آمرك أن توظف عليهم خراجهم ولا تحمل خراباً على عامر، ولا عامر على خراب، وخذ من الخراب ما أطاق وأصلحه حتى يعمر، ولا تأخذ من العامر إلا وظيفة الخراج في رفق وتسهيل من غير عنف وإرهاق لأهل الأرض ولا تأخذ في الخراج إلا وزن سبعة ليس فيها آيين، ولا أجور الصرافين، ولا هدايا النوروز والمهرجان، ولا دراهم النكاح، ولا ثمن الصحف، ولا أجر البيوت، ولا أجور الفيوج، ولا خراج من أسلم من أهل الذمة، ولا تعجل دوني بقتل ولا قطع، والسلام.

قالوا: وكتب عمر إلى العمال: أما بعد: فإنه كان في الناس من أهل هذا الشراب أمر ساءت فيه رعيتهم حتى بلغت بهم إصابة الدم الحرام، والمال الحرام، والفرج الحرام، وهم يقولون: شربنا شراباً لا بأس به، وإن شراباً حمل إلى هذه المحارم لعظيم البلاء كثير الإثم، وقد جعل الله المندوحة والسعة في أشربة ليس في الأنفس منها حاكة، ولا ريب الماء الفرات واللبن العذب والعسل الماذي والسويق، وفي أشربة كثيرة من نبيذ التمر والزبيب المنبوذ في أسقية الأدم التي لازفت فيها، فإنه بلغني عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه نهى عن نبيذ الظروف لمزقته وعن الدباء والحنتم، وقيل كل مسكر حرام، فاستغنوا بما أحل الله عما حرم، فإنه من شرب بعد تقدمنا إليه من هذه الأشربة المكروهة أوجعناه عقوبة، ومن استخفى عنا فالله أشد بأساً وأشد تنكيلاً، وقد أردت بكتابي إليكم اتخاذ الحجة عليكم في اليوم وما بعده، نسأل الله أن يزيد المهتدي منا ومنكم هدى وأن يقبل بالمسيء منا ومنكم إلى التوبة في يسر منه وعافية، والسلام.

المدائني عن خالد بن يزيد عن أبيه قال: أغلظ رجل لعمر بن عبد العزيز فأمر بتجريده ثم قال:

"والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس". خلوا سبيله.

المدائني قال: أبلغ رجل عمر كلاماً عن رجل غاظه فهم بعقوبته ثم قال: أردت أن يستفزني الشيطان بعز السلطان فأنال منه اليوم ما ينال مني في مثله غداً، خلوا سبيله.

المدائني عن المبارك بن فضاله قال: كتب عمر بن عبد العزيز إلى عدي بن أرطاة: أما بعد فإني كنت كتبت إلى عمرو بن عبد الله أن يقسم ما وجد بعمان من عشور الحب والتمر في فقراء أهلها، ومن سقط إليها من أهل البادية وإضافته إليها أهل الحاجة والمسكنة وانقطاع السبل، فكتب إلي أنه سأل عاملك قبله عن ذلك الطعام والتمر فذكر أنه قد باعه وحمل إليك ثمنه، فاردد إلى عمرو ما كان عاملك حمل إليك من ثمن التمر والحب ليضعه في المواضع التي أمرته بوضعه فيها، ويصرفه إليها إن شاء الله. والسلام.

المدائني قال: قدم يزيد بن المهلب إلى خراسان فحبس وكيع بن أبي سود، فبكى فقيل له: أتبكي يا أبا مطرف جزعاً من الحبس؟ فقال: وددت أني ويزيد بن المهلب، وسليمان بن عبد الملك في النار فلعن الله أجزعنا، ولكني أبكي لأني قتلت قتيبة ثم يعزلني ابن العبسية، ويولي يزيد.

فلما ولي عمر بن عبد العزيز بلغه ذلك فقال: لوكيع على جفائه خير من يزيد بن المهلب، على أنه لا خير في واحد منهما.

قال المدائني: لما ولي عمر بن عبد العزيز الخلافة وولى عدي بن أرطاة الفزاري البصرة أراد أن ينشئ غرفاً فوق دار الإمارة، فكتب إليه عمر: هبلتك أمك يا بن أم عدي، أيعجز عنك مترل وسع زياداً وأهل زياد؟ فأمسك عدي.

حدثنا بسام الجمال عن حماد بن سلمة عن أيوب أن قتيلاً وجد بالبصرة في بني نمير فكتب فيه إلى سليمان بن عبد الملك، فكتب إلى عامله أن استحلف خمسين رجلاً على قاتله، فإن حلفوا فأقده. فلم يفعل حتى ولي عمر بن عبد العزيز، فكتب عمر في أمره فكتب: إن شهد على قاتله عدلان فاقتله، وإلا فلا تقتله.

المدائني عن عبيس بن بيهس قال: جاء رجل من بني عزيز بن ثعلبة بن يربوع إلى عمر بن عبد العزيز فقال:يا أمير المؤمنين اسقني سقاك الله. قال: أين؟ قال: بالخرنق فإنه طريق لا يطؤه الناس ولا يتطرقونه. فكتب عمر إلى عدي بن أرطاة: أما بعد: فإن رجلاً من بني ثعلبة بن يربوع يقال له فلان استحفرني بالخرنق فاحفره، ومن جاءك من أسود الناس وأبيضهم يستحفرك فأحفره، واشترط أن ابن السبيل أول ريان، وإن حريم البئر طول رشائها، والسلام.

قالوا: وكتب عمر إلى عدي: أما بعد فاستوص بمن في سجون أرضك خيراً، ولا تصيبهم ضيعة، وأقم لهم ما يصلحهم من الطعام والأدام من مال الصدقة إن شاء الله.

وكتب إلى عدي: أما بعد فما كان عندك من لقطة فحال عليها الحول فأخرج ما يجب فيها من الصدقة

فضعه في أهل المسكنة والحاجة، ما كانت عندك، حتى يجيء لها طالب، وليكن ذلك شأنك وشأنها حتى يبقى منها ما لا تجب فيه الصدقة إن شاء الله والسلام.

وكتب عمر إلى بعض عماله: أما بعد فقد بلغني أن كثيراً ممن قبلك من أهل الذمة قد لبسوا العمائم وتشبهوا بالمسلمين في زيهم، فامنعهم من ذلك أشد المنع، وخذهم بأن يحلقوا أوساط رؤوسهم، إن شاء الله، والسلام.

المدائني قال: وعظ عمر بن عبد العزيز قوماً من أهل بيته، فقال مسلمة: جزاك الله يا أمير المؤمنين خيراً، فلقد ألنت منا قلوباً قاسية، وأبكيت عيوناً جامدة، وأحييت لنا في الصالحين شرفاً وذكراً.

المدائني قال: خطب عمر فقال: أيها الناس أصلحوا من سرائركم تصلح علانيتكم، واعملوا لآخرتكم تكفوا أمر دنياكم، فإن امرءاً ليس بينه وبين آدم أب حي لمعرق في الموت.

شريح عن إسماعيل بن علية أن صالح بن عبد الرحمن بعث توبة العنبري إلى سليمان في أمر فقال: إذا فرغت من أمر سليمان فائت عمر بن عبد العزيز فاعرض عليه الحوائج، فلما أتى قال: عليك بتقوى الله وما يبقى لك عند الله فإن الذي يبقى لك عنده باق عند الناس والذي لا يبقى لك عند الله غير باق لك عند الناس، فأبلغ ذلك صالحاً فقال: أسمعتم قط بكلام أحسن من هذا؟ المدائني عن موسى بن يزيد عن عمه قال: قال هشام لرجاء بن حيوة: ألست صاحب عمر يوم ناجيته في الدار وقد توفي سليمان؟ فقال: يا أمير المؤمنين، والله ما دعاني ولا ناجاني إلا في صرف الخلافة عنه. فقال هشام: رحم الله أبا حفص كان في أمر وكنا في غيره.

المدائني عن مسلمة بن محارب قال: قال مسلمة بن عبد الملك لعمر: ألا توصي ببنيك؟ قال: أوصي بهم الذي نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين.

المدائني قال: قال عبد الملك بن مروان يوم احتضر:

إن بني صبية صغار أفلح من كان له كبار

إن بني صفية صيفيون أفلح من كان له ربعيون

فقال عمر بن عبد العزيز وكان عنده: "أفلح من تزكى، وذكر اسم ربه فصلى" قال: وكتب عمر إلى الناس: "أما بعد فإن صدقة الفطر سنة مؤكدة، فأدوا صدقة الفطر عن أهليكم: حرهم ومملوكهم، صغيرهم، وكبيرهم، وليكن ما تؤدون عن كل رأس صاعاً من شعير أو تمر، أو نصف صاع من بر ليقسم عاملكم ذلك في أهل المسكنة والحاجة من الحاضرة دون أهل البادية إن شاء الله، والسلام.

قالوا: وكتب عبد الحميد بن عبد الرحمن إلى عمر بن عبد العزيز: إن قوماً من أهل الخراج كانوا إذا أرادوا كسر خراجهم جلوا من أرض إلى أرض أخرى، وإني أمرت أن تجعل أرض من جلا صافيةً، وأرجوا أن يتركوا بذلك عادتهم إن شاء الله.

فكتب إليه عمر: أما بعد فقد بلغني كتابك، ولعمري لئن لم تدع رجلاً خرج من أرض إلى أرض ومن قرية إلى قرية إلا أخذت أرضه ثم عزلت أم مت لينقطعن صاحب الأرض عنها وتبوء بإثمه، وما يجلو رجل عن أرضه إلا بأن يحمل فوق طاقته، فإياك أن تعمل وعمالك بعمل ابن يوسف وعماله، فإنهم كانوا مفسدين وقد قضى الله بأنه لا يصلح عمل المفسدين، وتألف أهل الأرض فإن أرضيهم وبلادهم أحب إليهم من الجلاء إذا عدل عليهم ورفق بهم إن شاء الله والسلام.

المدائني عن بقية بن عبد الرحمن عن أبيه قال: كتب عمر بن عبد العزيز إلى بعض إخوانه: أوصيك بتقوى الله الذي ابتدأك بإحسانه واحتج عليك بأنبيائه وبرهانه، فإنك مختبر بما كلفت، ومرتهن بما عملت، وكأن قد وافيت مضجعك، وطالعت مرجعك، واضمحلت عند الدنيا، ثم بعثت يوم النشور، ووقفت بين يدي الملك القدير ليجزيك بما كدحت، ويسألك عما اجترحت. فاعمل بدنك فيما ينجيك، ودع عنك ما لا يعنيك، فإن الدنيا قد أدبرت، وإن أمورها قد تكدرت، وقد رأيت من تقلب أحوالها وتصرف أمورها ما فيه معتبر وموعظة لمن أبصر، أعاننا الله وإياك على تقواه، وألهمنا وإياك رضاه، تعاهدني يا أخي بكتابك فإن الكتب من الإخوان تديم الود والعهد، وتدعو إلى التواصل والتناصح، ومن أخرى: لا قوة إلا بالله.

وقال بعضهم: إن الرجل كتب إلى عمر بهذا الكتاب.

وقال محمد بن مصفى الحمصي: كتب عمر إلى الجراح الحكمي أو غيره من عماله: ما بعد، فإذا قدرت على عقوبة العباد، فأذكر قدرة الله عليك، فاعف له ما لم يكن في العفو مفسدة في الدين واستخراج من القوم المذنبين، فإنك بالله تعز، وإليه ترجع.

المدائني قال: كتب عمر إلى أبي أمامة الحمصي يعزيه بابن له استشهد: أما بعد: فالحمد لله على آلائه وقضائه، وقد بلغني الذي ساق الله إلى عبد الله بن أبي أمامة من الشهادة، فقد عاش في الدنيا مأموناً وأفضى إلى الآخرة شهيداً، فقد فاز بما خص الله به الشهداء من الفضيلة والكرامة، فليس شيء نعلمه وإن عظم خطره وجل ثوابه أعظم عند الله تبارك وتعالى وعند عباده الذين أتوا العلم والفهم من الشهادة، فمن خصه الله بها فقد أفلح وأنجح وربح، ووسمه الله سمة الأبرار، فهو في جوار الله وتحت عرش قد انقطعت عنه مرارة الدنيا وعلاجها، وصار إلى عيش الآخرة وحبورها، نسأل الله الذي بيده نواصي العباد أن يرزقنا وإياكم الشهادة والسعادة بقدرته والسلام.

حدثنا عمرو الناقد وأبو عبيد القاسم بن سلام قالا: ثنا محمد بن يزيد الواسطي، أنبأنا سفيان بن حسين أن عاملاً لعمر بن عبد العزيز كتب إليه فترك نقط سين بسم الله وتبيينها، فأشخصه إليه فقال الناس: فيم أشخص فلان؟ فقيل: أشخص في سين، فعلقها الناس.

المدائني عن مسلمة قال: كتب عمر بن عبد العزيز إلى عماله: أما بعد فإن الصلاة أحق ما تعهده المرء من نفسه، ومن ولاه الله أمره. فأقيموا الصلاة في بيوتكم ومساجدكم لأوقاها بإتمام ركوعها وسجودها، وترتيل ما تقرأون من القرآن فيها، فإن الله جعلها "على المؤمنين كتاباً موقوتاً" وتعهدوا الناس في الزكاة وحضوهم عليها، فإن من أداها أجر، ومن استخف بحقها وبذر كانت حجة عليه، نسأل الله أن يجعلنا مطيعين له مجتهدين في مرضاته، والسلام.

وكتب عمر إلى عدي بن أرطاة: أما بعد فقد أتاني كتابك تسأل عن القضاء بين الناس، والقضاء بين الناس باتباع ما في كتاب الله، ثم ما جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم ما حكم به أئمة الهدى، ثم استشاره ذوي الرأي والعلم، فما أتاك من الحكم فلم تجده في الكتاب نصاً، ولا في السنة رواية، ولا أخبرك به مخبر عن الأئمة الأبرار، فسل عنه أهل العفة والمعرفة، ثم احكم بالعدل، ولا تؤثر أحداً على أحد، إن شاء الله. وسألت عن ميراث رجل وهب ولاءه أو باعه غير مستكره فإن الولاء لمت أعتق، لا يباع ولا يوهب، وقد أوصى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الولاء لمن أعتق.

وسألت عن الكافر يعتقه المسلم فهو مولى للمسلم، وميراثه راجع إلى بيت المال، لأنه لا يتوارث أهل ملتين، ويعقل عنه إذا جنى من مال الله. وسألت عن المرأة ترمي الرجل بنفسها أو يوجد معها وليس معهما أحد سواهما، والرجل جاحد وقد اهم وأظن، وإن الحدود لا تقوم بالبينات أو الاعتراف، فاجلد من أخذته على ذلك جلد النكال على غير حد، ولا تقم الحدود بالتهم فإنها تدرأ بالشبهات، وما ستر الله عباده فاسترهم به واعلم أنك متمسك بالعدل ما أزلت الشك بالبينة، والشهود والعدول، والسلام.

قالوا: وكتب عمر إلى عدي بن أرطاة: أما بعد: فاحص أهل المسكنة بالبصرة، واكتب إلي بعدهم إن شاء الله. فأحصاهم فبلغوا ثلاثين ألفاً وتسعمائة عشر إنساناً، فكتب إلى عدي يأمره أن يعطي كل إنسان جريباً في كل شهر من طعام كسكر والسواد إذا قدم عليه بالطعام.

قال: وجه عمر جيشاً إلى الروم فمشى معهم ثم ودعهم وقال: اتقوا الله وقاتلوا أعداءه ابتغاء ثواب الآخرة، فإن الأجر للصابرين "في البأساء والضراء وحين البأس" وحدثني أبو عبيد القاسم بن سلام قال: بلغنا عن عمر بن عبد العزيز أنه قال: التقى مفحم ملجم.

حدثنا سعيد بن سليمان عن المبارك بن فضالة قال: كتب عمر بن عبد العزيز إلى عامل له: أمت كل بدعة، وأحي كل سنة من سنن الإسلام، وشريعة من شرائعه، ولا تأخذنك في الله لومة لائم.

المدائني عن المبارك بن سلام عن مجالد أن عاملاً لعمر بن عبد العزيز كتب إليه يستأذنه في عذاب العمال، والبسط عليهم، ويذكر مقاسمة عمر بن الخطاب عماله، فكتب إليه: قد فهمت كتابك و لم تعلمني عن مقاسمة عمر عماله شيئاً إلا وقد علمته، ولعمري لغير ما استأمرتني فيه من أمر العمال أجمل في عاجل الأمر، وأسرع في درك البغية مما كان ابن يوسف وابن أبي مسلم، وصالح بن عبد الرحمن يفعلونه من العذاب بالجوامع، والمحبس الضنك، وسوء المطعم والمشرب، وغلظ الملبس، وفر من ذلك أشد الفرار، وانظر من كان في السجون في وثاق أو في مطعم سوء ومشرب سوء، فنفس عنهم وأطلقهم، وأحسن أسار من أسرت، وليس رأيي في العمال إلا محاسبتهم فيما ولوا فمن أدركنا عليه حقاً أخذناه به، ومن لم ندركه عليه خلينا سبيله حتى يحكم الله فينا وفيهم بما شاء والسلام.

وقالوا: كتب عمر بن عبد العزيز إلى بعض عماله: كتبت تسأل عن الرجل من الموالي يكون له ذوو رحم لهم عدد، وله مال يرثونه دون مواليه فيحدث حدثاً، أيكون عقله عليهم دون مواليه، وإن الموالي لا يحملون العقل، والموالي ثلاثة: مولى رحم، ومولى عتاقة يورث ولا يرث ومولى عقل لا يرث ولا يورث وميراثه لعصبة رحمه.

حدثنا عفان بن مسلم، ثنا جرير بن حازم قال: قرأت كتاب عمر إلى عدي: أما بعد فقد بلغني كتابك تسأل عن شهادة الأربع نسوة المرضيات أتجيزها أم لا، وكتبت تسأل عن العبد يقذف الحر، وذكرت أنه بلغك أني كنت أضربه في عملي على المدينة أربعين جلدة، ثم جلدته في آخر عملي ثمانين، وإن جلدي الأول كان رأياً رأيته، وإن جلدي الآخر وافق ما في كتاب الله لأن الله يقول: "والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة" لم يسم فيها حراً ولا مملوكاً، فأجلده ثمانين.

فأما شهادة النسوة الأربع فإني لم أسمع في الكتاب بشهادة خلصت فيها نساء إلا ومعهن رجل فانته من الأمر إلى ما تعرف، ودع ما تنكر، واعلم أن أحداً لا يستطيع إنفاذ حقوق الناس بينهم حتى لا يبقى منها شيء، ولا بد من أن تستأخر قضايا كثيرة إلى يوم الحساب، والسلام.

حدثني عمر بن شبه، ثنا عمرو بن عاصم عن حماد بن سلمة عن حميد أن رجلاً اختلس طوقاً من عنق جارية فارتفعوا إلى عدي بن أرطاة، فسأل عدي الحسن فقال: لا تقطعه، وقال إياس بن معاوية بن قرة: اقطعه، فكتب عدي بذلك إلى عمر بن عبد العزيز، فكتب عمر: إن العرب كانت تسمي هذا: العادي، فاجلده، واستودعته الحبس.

حدثني خلف بن هشام البزاز، ثنا أبو بكر عياش عن عاصم بن أبي النجود أن عدي بن أرطاة كتب إلى عمر: إني أخذت رجلاً يسبك فهممت بقتله، ورفع إلي رجل قتل في السوق فاتهم به فساق من فساق

أهل البصرة، و لم تقم عليهم البينة.
فكتب إليه: انظر القتيل فده من بيت مال المسلين، وانظر الفساق فاحبسهم عن المسليمن، وأنفق عليهم من بيت المال، وانظر الذي سبني فسبه، وإلا فخل سبيله، فوالله لو كنت قتلته لقتلتك به.
حدثني منصور بن مزاحم عن شعيب بن صفوان قال: استبطأ عمر بن عبد العزيز عدياً في بعض الأمر، فكتب إليه: إنك غررتني يا ابن أم عدي بعمامتك السوداء.
المدائني عن عبد الله بن سلم أن عدي بن أرطاة خطب فشتم علياً ولعنه فكتب الحسن بذلك إلى عمر فكتب عمر إلى عدي: بلغني عنك أنك شتمت علياً ولعنته، ولبئس الرجل أنت، إن فعلت ذلك، وأقدمت عليه، فقبحك الله وترحك، وأنا أقسم لئن عدت لمثلها لأنهكنك عقوبة، ثم لأسيئن عزلك. فأمسك عدي.
فقال الشاعر:

وليت فلم تشتم علياً ولم تخف — بريئاً ولم تقبل مقالة مجرم

حدثني أبو بكر الأعين عن سعيد بن سليمان عن خلف بن خليفة عن أبي هاشم الرماني قال: كتب عدي بن أرطاة إلى عمر: إن الناس أصابوا خصباً وخيراً كادوا يبطرون له، فكتب إليه عمر: إن الله رضي من أهل الجنة حين دخلوها بأن قالوا: الحمد لله رب العالمين، فمر من قبلك أن يحمدوا الله على ما آتاهم إن شاء الله والسلام.
المدائني قال: كتب عمر إلى عدي: أن سل الحسن: ما بال نصارى العرب لا يؤاخذ منهم الجزية؟ فسأله فقال: اكتب إليه: إنك متبع ولست بمبتدع، إن عمر رأى في ذلك صلاحاً.

حدثني عمرو الناقد، ثنا إسحاق الأزرق عن عوف قال: كتب عمر إلى عدي: أن سل الحسن: ما منع من مضي من الأئمة أن يحولوا بين المجوس وبين ما يجمعون من النساء؟ فسأله فأخبره: إن النبي صلى الله عليه وسلم قبل الجزية من مجوس هجر، وأقرهم على مجوسيتهم ومناكحهم، وأقرهم أبو بكر، وعمر، وعثمان، رضي الله عنهم.
حدثني محمد بن أبان الطحان، ثنا أبو هلال الراسبي، ثنا شهر بن حوشب أنه أستأذن على عدي بن أرطاة فقال الآذن: إن الأمير يقول: لا تأذن له فإنه سبني. فقال له قتادة: إن خادم البيت يخبرك بما في أنفس أهلها، وإن عدياً قد أخبرك بما في نفس صاحبه عمر، فلا غفر الله لمن لا يستغفر لهما – يعني علياً وعثمان –.
المدائني عن الفضل بن سويد الضبي قال: كتب عمر إلى عدي: أما بعد فإنه بلغني أن قوماً قبلك إذا

توضأوا رفعوا الطساس من بين أيديهم واحداً واحداً، وذلك من زي العجم، فلا يرفعن طس قبلك حتى يمتلئ أو يفرغ من آخر القوم.

المدائني عن يزيد بن إبراهيم، عن أيوب قال: كتب إلينا عمر بن عبد العزيز: مروا أهل الصلاح يتذاكروا السنن في مجالسهم، ومساجدهم، وأسواقهم.

المدائني قال: كتب عدي إلى عمر: إنه قد ذكرت لي امرأة من أهل البصرة أعجبني دينها وموضعها وجمالها، وقد أحببت يا أمير المؤمنين أن تزوجنيها.

فكتب إليه: أن كنت أصبت بعدي مالاً، فأهلك الذي صبروا على فقرك أحق بك، وإلا تكن أصبته فإن أجمل بك ألا يكون كما قال ابن دارة: إن الفزاري لا ينفعك. استغفر الله.

المدائني عن إسحاق المالكي قال: كتب عدي إلى عمر يستأذنه في تزوج هند بنت أسماء فكتب إليه عمر: إن الفزاري لا ينفعك، والسلام. يريد قول ابن دارة-:

لا تأمنن فزارياً خلوت به	على قلوصك واكننها بأسيار
إن الفزاري لا ينفعك مغتلما	يواصل الدهر تهداراً بتهدار

عباس بن هشام الكلبي عن أبي مخنف قال: كانت الولاة من بني أميه قبل عمر يشتمون علياً ويلعنونه - فلما ولي عمر بن عبد العزيز أمسك عن ذلك. فقال كثير:

وليت فلم تشتم علياً ولم تخف	بريئاً ولم تتبع مقالة مجرم
تكلمت بالحق المبين وإنما	تبين آيات الهدى بالتكلم
فصدقت معروف الذي قلت بالذي	فعلت فأضحى راضياً كل مسلم
ألا إنما يكفي القنا بعد زيغه	من الأود البادي ثقاف المقوم

فقال عمر حين أنشده هذا الشعر: أفلحنا إذاً.

المدائني عن أبي هلال الراسبي عن قتادة قال: كتب عمر بن عبد العزيز إلى عدي: أما بعد فإذا أبردت إليّ بريداً فأبرده حسن الاسم حسن المنطق، خفيف اللحية يفهم عني ويفهمني مثل عذام الضبي.

حدَّثنا عمر بن شبه، ثنا أبو عاصم النبيل عن سفيان عن جعفر بن برقان قال: كتب عمر إلى عدي: أنظر كل قرية ليسوا بأهل عمود، فمرهم أن يجمعوا.

حدَّثنا هشام بن عمار عن الوليد بن خليد بن دعلج قال: كتب عمر بن عبد العزيز إلى عماله أن اجعلوا أثمان كبول من تسجنونه من بيت المال، وإياكم أن تغرموهم أثمانها.

المدائني عن أبي هلال قال: كتب عمر إلى عدي: إذا أشكل عليك أمر فسل عنه الحسن بن أبي الحسن.

المدائني قال: كتب عمر إلى عماله: إن الله يقول: "وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين" أي لا تقاتل من لا يقاتلك من النساء والصبيان والرهبان.

حدَّثنا أحمد بن إبراهيم الدورقي، ثنا أبو داود الطيالسي، ثنا أبان بن جمعة، ثنا بكر بن عبد الله قال: كتب عدي بن أرطاة إلى عمر بن عبد العزيز يسأله عن أم الولد إذا زنت وقد ولدت من سيدها، هل تباع؟ قال: لا تباع وإن بغت.

حدثنا شيبان بن فروخ، ثنا حماد بن سلمة، ثنا قتادة أن عمر بن عبد العزيز كتب إلى عدي بن أرطاة: إن امرأة المفقود تعتد أربع سنين.

حدَّثنا عفان، ثنا حماد بن سلمة، أنبانا حميد أن رجلاً كاتب عبده واشترط عليه أن له سهماً في ميراثه. فسأل عدي إلى عمر بن عبد العزيز بذلك، فكتب إليه: إن قضاء الله قبل شرطه، ليس له شيء.

حدَّثنا عمر بن شبه عن عفان عن حماد بن سلمة عن حميد أن رجلاً أسلم على يد عبيدة بن أبي عاصم السلمي وترك عشرين ألفاً فكتب عدي إلى عمر في ذلك، فكتب: إن عبيدة أحق بميراثه.

حدَّثنا عبد الله بن صالح عن حماد بن سلمة عن حميد أن رجلاً من موالي بني جشم قتل رجلاً خطأ، فسأل عدي الحسن عن ذلك، فقال: لا تعقل العرب عن الموالي، فكتب إلى عمر بذلك فكتب إليه عمر: إن مولى القوم من أنفسهم، وهم أحق بميراثه، فليعطوا عنه، فجعل الدية عليهم.

حدثني هدبة بن خالد، ثنا حماد بن سلمة عن حميد أن قتيلاً وجد بين بني عبس وبني قشير بالبصرة، فكتب فيه عدي إلى عمر، فكتب فيه عمر: إن من القضايا قضايا لا يقضى فيها إلى يوم القيامة، وإن هذا منها.

حدَّثنا عفان عن حماد بن سلمة عن قتادة أن رجلاً باع امرأة حرة من رجل بأربعمائة درهم، وهربا فوجدا، وإذا ثمنها في هميان في حقوها، فكتب فيها عدي إلى عمر، فكتب عمر: أن عزرهما، واستودعهما السجن، ولا تقطعهما.

المدائني عن العباس بن محمد عن أبيه أن عمر كتب إلى بعض عماله: أما بعد فإن الله أكرم بالإسلام أهله، ورفع به عنهم الصغار والذلة، فانظر من ادعى الإسلام فشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسوله، وأنه يؤمن بالله وملائكة ورسله، وأن عيسى عبد الله وكلمته ورسوله، إذا كان نصرانياً، وإن كان عزيراً عبد الله إن كان يهودياً، وحفظ عدد الصلاة وأوقاها، وقرأ من القرآن فاتحة الكتاب فما زاد، وأحسن الوضوء، ووجدته مختتناً فضع عنه الجزية.

المدائني عن مسلمة وغيره قالوا: كتب عمر بن عبد العزيز إلى عامل له: أما بعد فإن الله أكرم الإسلام أهله

وشرفهم وأعزهم، وضرب الذلة والصغار على من خالفهم، وجعلهم خير أمة أخرجت للناس، فلا تولين أمور واحد من المسلمين أحداً من أهل ذمتهم وخراجهم فتنبسط عليهم أيديهم وألسنتهم فتذلهم بعد أن أعزهم الله، وتهينهم بعد أن أكرمهم الله، وتعرضهم لكيدهم والاستطالة عليهم مع مالا يؤمن من غشهم إياهم، فإن الله يقول: "لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالاً ودوا ما عنتم".
ويقول: "لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض" والسلام.
المدائني عن مسلمة قال: كتب عمر بن عبد العزيز إلى عدي في عزل من كان من العمال من أهل الذمة وأن لا يستعين بهم، فعزل ابن رأس البغل، وابن زاذا نفروخ بن بيزي، وأقر زاد مرد بن الهربذ، فكتب إليه في عزله فعزله.
قال: وكتب عمر في إباحة الأحماء ليرعى الناس فيها، وكتب إلى بعض عماله: كتبت تسأل عن الأسير أيكتب إلى أهله بوصيته وفيها عتق ووصايا، فأجز وصيته وعتقه إذا علم أنه على دينه لم يغيره، وشهد العدول من المسلمين على وصيته.
المدائني قال: كتب عمر بن عبد العزيز إلى عدي: أما بعد فإنه ذكر لي أن رجالاً من أهل الجفاء وقلة الفقه يشترون الطعام ثم يبيعونه قبل أن يقبضوه، ولعمري أن ذلك من الربا الذي لا شك فيه ولا مرية، فإذا جاءك كتابي هذا فامنع من قبلك منه أشد المنع وحذرهم العقوبة عليه أبلغ التحذير، ومن كان عنده من ذلك شيء اشتراه من مسلم فليرده إلى صاحبه، ومن كان منهم على بيع شيء منه فليرفضه، وإن قدرت على أحد منهم فعل ذلك بعد نهيك عنه فأوجعه عقوبة واجعله نكالاً لمن رآه وسمع به، إن شاء الله، والسلام.
حدثني عبد الله بن صالح عن سلام بن مسكين قال: كتب عمر بن عبد العزيز إلى عدي وأهل البصرة فنهاهم عن القبالة والصرف دراهم بدراهم إلا مثل بمثل، ولبس الحرير والتماثيل وعن الأوعية الأربعة: الدباء النقير والحنتم والمزفت.
المدائني عن عمرو بن ميمون أن عمر كتب إلى عدي – وكان عدي كتب إليه في الرجل يفلس بالمال العظيم، إنه قد كان بعض الفقهاء يرى بيعه –: قد فهمت كتابك في أمر المفلس فلا يباعن حر، وإن فلس.
المدائني قال: كتب عمر إلى عدي: إن رجالاً يولون نساءهم الطلاق: فيجعلون أمر نسائهم في أيديهن، وإن الله لم يجعل للنساء من الطلاق شيئاً، فأيما رجل جعل أمر امرأته بيدها فاختارت نفسها فواحدة وهو أملك بها، وإن ردت الأمر إليه فليس بشيء حدثني عمر شبه هارون بن معروف عن ضمرة بن ربيعة عن علي بن أبي حملة قال: رأيت يزيد بن المهلب يطاف به في عسكر عمر بن عبد العزيز في محمل وإلى جنبه

رجل من الحرس، وهو يقول: ارفع رأسك يا فاسق.
وقال المدائني: حبس عمر يزيد بن المهلب بما كتب به إلى سليمان بن عبد الملك، وحبس عدي إخوة يزيد بالبصرة.

المدائني عن أبي جزي عن داود بن أبي هند قال: كتب بعض عمال عمر إليه في غلام ابن احدى عشرة سنة افتض جارية ابنة تسع، فكتب عمر إليه: إن الحدود والنكال لا يكون إلا لمن بلغ الحلم وعلم ما ذا له في الإسلام، وماذا عليه. والسلام.
وكتب عمر في مسلم أسر فتنصر: أن تزوج امرأته، وتكون في عدهّا من حين يبلغها تنصره، ولا يتوارثان، وإن مات هي في عدهّا. وكتب عمر إنه لا قطع على المختلس ولكنه لا يرثي له من طول حبس.
وكتب عمر إلى بعض عماله: اجلد القاذف حراً كان أو عبداً ثمانين إذا افتريا، فان الله يقول: "فاجلدوهم ثمانين جلدة" و لم يسم عبداً ولا حراً.
وكتب عمر إلى عدي بن أرطاة: إنه بلغنا عن رسول صلى الله عليه وسلم أنه قال: ما نكحت عليه امرأة من صداق فهو لها أو عدة لأهلها قبل أن تنكح فهو لها، وما كان من حباء لأهلها بعد أن تنكح فهو لهم.
المدائني عن شيخ من أهل الجزيرة قال: كتب عمر إلى بعض عماله: أما بعد فلا يغلبنك جهل الجاهل بك على علمك بنفسك، فإن من الناس ناساً غرهم الستر وفتنهم حسن الثناء، فأعادنا الله وإياك من أن تكون مغرورين بستر الله مفتونين بمدح الناس، والسلام.
حدثني عبد الله بن صالح العجلي عن عبد الله بن المبارك عن الأوزاعي عن سليمان بن حبيب قال: شتم رجل رجلاً فادعى شهادة قوم غيب أن ما قال كما قال، فلم يشهدوا له، فقال عمر لسليمان، يا سليمان اضرب وفرق فلا يقع سوط على سوط.
المدائني قال: كتب عمر إلى عبد الحميد بن عبد الرحمن: إنه لا يقتل رجل شتم رجلاً إلا أن يكون نبياً.
المدائني قال: دخل أبو مجلز لا حق بن حميد على عمر بن عبد العزيز فلما أخبر بمكانه قال: إني لم أعرفك. قال: فهلا يا أمير المؤمنين إذ لم تعرفني أنكرتني فسألت عني.
حدثني هشام بن عمار قال: قال عمر بن عبد العزيز: إن من الغرة بالله أن يصر العبد على المعصية، ويتمنى على الله المغفرة.
المدائني عن أبي عبد الرحمن التميمي عن عبد الله بن يزيد بن جابر قال: قال رجاء بن حيوة: قال لي سليمان بن عبد الملك في مرضه: إلى من ترى أن أعهد، وله بنون رجال قد بلغوا، أمهاهّم أمهات أولاد،

فهم لا يطمعون في الخلافة، وأولاد من المهائر صغار، قلت: يا أمير المؤمنين قد سمعتك تقول ما ورث خليفة ميراثاً أفضل من ولي عهد صالح يعمل في الرعية بالعدل بعده.

وخرجت فقام إلي عبد الملك بن أرطاة فقال لي: إلى من عهد أمير المؤمنين؟ قلت: لم يعهد بعد وقد شاورني. قال: هل لك في رجل إن ولي الناس لم ير منه خلل ولا زيغ إن شاء الله؟ قلت: من هو؟ قال: عمر بن عبد العزيز المرضي المأمون. قلت: كنت أريده وقد قوي رأيي وعزمي قولك فيه، فدخلت فأشرت به على سليمان فعهد إليه.

فلما مات واستخلف عمر، خطب الناس فقال: أيها الناس. والله ما سألت الله هذا الأمر في سر ولا علانية، ولا دسست فيه بكلمة، ولا خطوت فيه خطوة فإن شئتم فبيعكم مردودة عليكم.

فقال هشام بعد ذلك: لقد ندمت يوم قال بيعتكم مردودة عليكم إذ لم أقل: نعم فأقلناها. فبلغ قوله عمر فقال: لو أن الأحول فعل لفعلت، فكان أول ما قضى به رده فدك إلى ما كانت عليه على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم.

حدثني العمري عن الهيثم بن عدي قال: حدثني عوانة قال: مات سليمان واستخلف عمر بن عبد العزيز فخطب الناس فقال: والله ما أردتها ولا تمنيتها، ولا سعيت لها فاتقوا الله وأعطوا الحق من أنفسكم وردوا المظالم فإني والله ما أصبحت وبي موجدة على أحد من أهل القبلة، إلا على ذي سرف حتى يرده الله إلى قصد، ثم نزل وقد فرشوا له، فترك الفرش وجلس ناحية.

وكتب إلى مسلمة وهو بأرض الروم يأمره بالقفول، وأذن للناس بالقفول.

المدائني: قالوا: كتب عمر إلى سالم بن عبد الله بن عمر أن يكتب إليه بسيرة عمر بن الخطاب، فكتب إليه: إن عمر كان في غير زمانك ورجالك فإن قدرت أن تعمل في زمانك عمل عمر كنت أفضل منه.

المدائني عن غياث بن إبراهيم قال: قاد الناس الخيل إلى سليمان بن عبد الملك فمات قبل أن يجريها فاستحيا عمر من الناس فأجرى الخيل التي جمعت، ثم أعطى الناس و لم يخيب أحداً، ثم لم يجر فرساً حتى مات.

المدائني عن ابن جعدبة قال: ارتد ابن وابصة وأتى الروم، فبعث عمر في فداء من بأيدي الروم من المسلمين رجلاً، فمر في طريق من طرقهم فسمع رجلاً يغني بشعر ابن داره:

وكائن بالبلاط إلى المصلى	إلى أحد إلى ما حاز ريم
إلى الجماء من خد أسيل	نقي اللون ليس به كلوم

يلومك في تذكرها رجال ولو بهم كما بك لم يلوموا

فدخل عليه ودعاه إلى الإسلام فأبى. ويقال بل أسلم ورجع إلى المدينة. فروى جويرية بن أسماء عن بعض أصحابه أنه رأى جنازة ابن وابصة بالمدينة.

المدائني قال: قال أبو عاصم: خناصرة من قنسرين، وبها مرض عمر ومات بدير سمعان من أرض حمص. وبين خناصرة ودير سمعان ثلاثون أو أربعون ميلاً وهو على تخوم قنسرين.

قالوا: واشترى عمر موضع قبره من نصراني بدير سمعان بأربعين درهماً وهو مريض، فقال النصراني: وتعطيني قميصك، فأعطاه إياه. وعند قبر عمر زيتون.

المدائني عن ابن جعدبة قال: كان ليث بن أبي رقية، وإسماعيل بن أبي حكيم مولى الزبير كاتبين لعمر بن عبد العزيز فدخلا عليه يوماً فقال: يا معشر العلوج أما يستطيع أحدكم إذا غدا أن يسرح لحيته؟ المدائني عن خالد بن يزيد بن بشر عن أبيه قال: كان من خاصة عمر: ميمون بن مهران، ورجاء بن حيوة، ورياح الباهلي. وكان دون هؤلاء عنده: عون بن عبد الله بن عتبة، ومحمد بن الزبير الحنظلي.

المدائني عن مسلمة بن محارب قال: خرج بلال بن أبي بردة، وأخو عبد الله إلى عمر، يختصمان إليه في الأذان في مسجدهم فارتاب بهما فدس إليهما من عرض عليهما ولاية العراق على أن يجعلا له جعلاً فقال له بلال: أعطيك مائة ألف درهم، وقال أخوه: أعطيك أكثر من مائة ألق درهم. فأخبر عمر بما بذلا، فقال لهما: الحقا بمصركما.

وكتب إلى عبد الحميد: لا تول بلالاً الشر، ولا أحداً من ولد أبي موسى شيئاً.

ويقال إنه كتب: بليل الشر - صغره -.

المدائني عن عبد الله بن أبي بكر قال: لما دفن عمر بن عبد العزيز قام غليم أو جويرية من أهله وقد سود ذراعيه فقرأ: "إذا الشمس كورت" فما بقي أحد حضر إلا بكى.

المدائني عن علي بن مجاهد قال: كتب عمر بن عبد العزيز: اقطعوا رؤوس التصاوير، ولا تدعون المعلمين يحملون الصبيان إذا حذقوا.

حدثني عباس بن هشام الكلبي عن أبيه عن أبي مخنف قال: قال المنصور أمير المؤمنين: ما رد أحد علينا حقنا إلا عمر بن عبد العزيز: المدائني عن مسلمة بن محارب قال: دخل عنبسة ين سعيد على عمر فقال: يا أمير المؤمنين كان من قبلك من الخلفاء يصلون أرحامنا ويعرفون حقنا، وإنك قد أمسكت عنا فإما أن تصنع بنا ما كانوا يصنعون وإما أن تأذن لنا في اللحاق بأهلنا فنشاهدهم ونصلح من شأنهم. فقال عمر: أما من كان من قبلنا فقد كانوا يفعلون ما ذكرت، وما كان ذلك لهم، وأما ما سألت من الانصراف فهو

إليك.

فولى عنبسة فدعاه فظن أنه قد بدا لعمر فيما كلمه به فقال: اذكر الموت فإن لا تذكره في حال سعة إلا ضاقت عليك ولا تذكره في حال ضيق إلا اتسعت لك.

المدائني قال: قال عمر لابنه: لا تحقرن أحداً، فلعل بعض من تزدريه عينك أقرب من الله وسيلة منك.

أبو الحسن المدائني عن أبي بحر الأصبهاني عن أبي سيار قال: اشتريت لعمر بن عبد العزيز ثوبين من خز السوس، ذكر أهل السوس أنهم لم يعملوا مثلها لأحد، فقال لي: ما أخشنهما فلما استخلف اشتريت له ثوب كتان بستة عشر درهماً فقال: ما ألينه، فقلت في ذلك فقال: قلت ما قلت يومئذ وأنا في نفسي صادق، وقلت هذا وأنا في نفسي صادق.

وروي أن بلال بن أبي بردة قدم وعليه عمامة سوداء وكان من أطول الناس صلاة فقيل لعمر: ما رأينا أطول من صلاة بلال فلو استعنت به فإنه من أهل بيت لهم قدم في الإسلام، فقال لكاتبه: اعلم لي علمه، فأتاه فقال: أن أمير المؤمنين ذكرك للعراق فما تجعل لي؟ قال: مثلي لا يكلم بهذا. قال: والله لأصرفن عنك الولاية إن لم ترضني. قال: فلك مائة ألف درهم، قال: فاكتب لي رقعة بخطك فإني لا آمن الغدر، فكتب له رقعة وأشهد عليها خاصته. ثم أتى الكاتب عمر بالرقعة فنخس به عمر من الشام، وكتب إلي عبد الحميد بن عبد الرحمن: لا تولين أحداً من آل أبي موسى الأشعري شيئاً من العمل، ولا سيما بليل.

وحدثني عبد الله بن غياث عن أبي المقدام القرشي عن محمد بن كعب القرظي قال: دخلت على عمر بن عبد العزيز فجعلت أنظر إليه فقال: ما نظرك إلي؟ قلت: أعجب لما حال من لونك ونحل من جسمك. فقال: فكيف لو رأيتني يا محمد بعد ثالثة في قبري وقد سالت حدقتاي على وجنتي – أو قال خدي – ورأيت جلدي قد امتلأ صديداً ودوداً وقد انشق بطني فبدا ما فيه كنت لي أشد إنكاراً، حدثني حديثاً سمعتك تحدثه عن ابن عباس عن رسول لله صلى الله عليه وسلم. قال: قلت قال ابن عباس: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن أشرف المجالس ما استقبل به القبلة. اقتلوا الحية والعقرب، ولو كنتم في صلاتكم. ومن نظر في كتاب أخيه المسلم بغير إذنه فكأنما ينظر في النار، وإنما تتجالسون بالأمانة، ومن سره أن يكون أكرم الناس فليتق الله، ومن سره أن يكون أغنى الناس فليكن بما عند الله أوثق منه بما في يديه، ألا أنبئكم بشر الناس: من أكل وحده وجلد عبده، ومنع رفده، ألا أنبئكم بشر من ذلك: من يبغض الناس ويبغضونه، ألا أنبئكم بشر من ذلك: الذي يخاف شره ولا يرجى خيره، إن عيسى بن مريم قال لبني إسرائيل: يا بني إسرائيل لا تعلموا الحكمة غير أهلها فتظلموها، ولا تمنعوها أهلها فتظلموهم.

قالوا: وأتى رجل نصراني عمر بن عبد العزيز فتظلم من هشام وادعى أن في يده ضيعة، فقال: يا هشام قم

مع خصمك. قال: بل أوكل وكيلاً بخصومته، قال: لا. فقام فجلس بين يديه، فجعل هشام ينتهر خصمه فقال له عمر: يا أحول عندي تنتهره؟ إن عدت عاقبتك. فادعى النصراني فقال هشام: ضيعتي وقطيعة أقطعنيها عبد الملك ومعي سجل من الوليد وسليمان. فقال عمر لابنه عبد الملك: يا بني انظر في سجلاته وأمره. فنظر فقال: أرى أمر النصراني قوياً، وحجته عالية، وحق الله أولى ما أوثر. فقال عمر: أحرق سجلاته. فأحرقها، ورد على الرجل ضيعته. فلما ولي هشام استؤذن في أخذ الضيعة من يد النصراني فقال: لا تردوا حكماً حكم به عمر.

المدائني عن أبي يعقوب قال: أجاز عمر بن عبد العزيز عبد الحميد بن عبد الرحمن بعشرة آلاف درهم.

قالوا: وكتب عمر إلى سليمان بن أبي كريمة: إن أحق العباد بإجلال الله وخشيته من ابتلاه بمثل ما ابتلاني به، ولا أحد أشد حساباً ولا أهون على الله مني إن عصيته، فقد ضاق بما أنا فيه ذرعي، فادع الله في غزاتك، فإنك بعرض خير وإجابة حدثني روح بن عبد المؤمن: ثنا وهب بن جرير بن حازم عن أبيه عن محمد بن الزبير الحنظلي قال: نظر عمر إلى رجل يكتب على الأرض: بسم الله الرحمن الرحيم فنهاه وقال: لا تعد.

المدائني عن إدريس بن قادم بن ميمون بن مهران قال: قال لي عمر: إني وضعت الوليد بن عبد الملك في حفرته ثم نظرت فإذا وجهه أسود، فإذا مت فاكشف عن وجهي. ففعلت فرأيت وجهه أحسن مما كان في أيام تنعمه رضي الله عنه.

المدائني عن عبد الله بن سلم وغيره قال: دخل ناس من بني أمية على عمة لعمر فكلموها في أن تأتي عمر فتسأله أن يجري عليهم ما كان جارياً لهم من الأرزاق، ويقال أرادت كلامه في أرزاقها، فلما صارت إليه ظن ما جاءت له فقال لها: إني قد ظننت ظناً فاسمعي ما أصف لك من حالي. إن الله بعث محمداً صلى الله عليه وسلم بشيراً ونذيراً، فبلغ رسالات ربه، ثم اختار له ما عنده، فقبضه إليه والناس على منهاج واضح مستقيم، فولي ولاة بعده سلكوا سبيله واهتدوا بهديه، وكان الطريق واحداً، ثم ولي بعد ذلك أقوام اشتقوا من تلك الطريق طرقاً مختلفة وانتهى الأمر إلي وقد كادت أعلام تلك الطريق النهجة تدرس فأردت إقامة تلك الأعلام، فضج من ذلك من أخذ يميناً وشمالاً، وثقل عليهم أن يرجعوا عن طريقهم التي سلكوها وسألوني اتباعهم، وفي اتباعهم النار، فما ترين؟ قالت: أرى أنهم أحق أن يتبعوك. ثم قال: حاجتك؟ قالت ما أنا بذاكرة بعدما ما سمعت شيئاً.

المدائني عن مسلمة أن عمر بن عبد العزيز قال لعبد الملك ابنه: يا بني إن الشباب عون على مساوئ الأخلاق، فاذكر فضل الله علينا واغتنم فراغ نفسك، وإياك والغفلة عن أمر معادك، فإن الله قد أحسن إلينا في اللطيف والجليل من أمرنا.

المدائني عن عمر بن مجاشع أن مسلمة بن عبد الملك دخل على عمر فدعا عمر بالغداء فأتي بخل وزيت فأكلا، ثم قال: يا أبا سعيد هل تشتهي شيئاً أو كنت تأكل شيئاً لو أتيت به؟ قال: لا. فأرى ما في يديك من الدنيا لا تقدر على أن تصيب منه من المطعم والمشرب إلا بقدر ما يطيق بدنك فعلام يهلك من أهلك نفسه؟ أبو الحسن المدائني: أن عمر بن عبد العزيز قال: ما أحب أن يهون علي الموت لأنه آخر ما أؤجر عليه.

قال: وقال عمر: لا يكون الرجل تقياً حتى يسلم الناس من لسانه ويده.

المدائني عن مسلمة بن محارب قال: قال عمر: ما كان الحجاج صاحب دين ولا دنيا، لأن صاحب الدين من لم يسفك الدماء و لم ينتهك المحارم. ثم قدم العراق والخراج كثير دار فما زال بالخرق والاعتداء حتى صار إلى خمسة وعشرين ألف ألف درهم.

حدثني هشام بن عمار عن سعيد المري قال: وعظ عمر بن عبد العزيز رجل فقال: إنك أدركت من الحق رسماً قد عفا، وأمراً قد أدبر، فأنت لا ترى شيئاً واضحاً فتتبعه، فكأنك في بحر تضطرب أمواجه، فاعتصم بحبل الله، واستعن بالله، وعليك بالعدل الذي به تدمغ الباطل وتزهقه.

المدائني قال: أتي عمر بقوم على شراب وفسق، ومعهم شيخ مسن، فلما رآه عمر حسبه شاهداً فدعاه فقال له: هات بماذا تشهد؟ فقال: إني أصلحك الله مبتلي. فاسترجع عمر وأجلسه مع القوم.

قال: وجاؤوا إلى عمر برجل شتم عثمان فقال له: لم شتمته؟ قال: لأني أبغضه. قال: أو كلما أبغضت رجلاً شتمته؟ قال: نعم. فضربه عشرين سوطاً.

المدائني قال: دخل محمد بن الزبير الحنظلي على عمر بن عبد العزيز فدعا له بغداء فلما وضعت المائدة بين يديه قال عمر:

إذا ما مات ميت من تميم فسرك أن يعيش فجئ بزاد

المدائني عن خالد بن يزيد بن بشر عن أبيه قال: سئل عمر بن عبد العزيز عن علي، وعثمان وأمر الجمل وصفين فقال: تلك دماء كف الله عنها يدي، فأنا أكره أن أغمس بها لساني.

حدثني هشام بن عمار عن ابن واقد قال: بلغ صاحب الروم موت عمر بن عبد العزيز فقال: ليس العجب من الرهبان والعباد الذين تعذرت الدنيا عليهم إنما العجب ممن رفض الدنيا وهو يملكها.

المدائني عن جويرية بن أسماء قال: قال عبد الملك بن عمر لعمر: ما يمنعك من إنفاذ رأيك في رد المظالم؟ قال: إني أروض الناس رياضة الصعب، فإن أبقاني الله أنفذت رأيي، وإن عجلت بي منيتي، فقد علم الله

أني أخاف إن بادهت الناس بما أريد أن يلجوا ويلجئوني إلى السيف، ولا خير في أمر لا يأتي إلا بالسيف.
حدثني هشام بن عمار قال: عزم عمر بن عبد العزيز على أخذ ما في أيدي بني أمية من حقوق الناس، ورده إلى أهله، فاجتمعوا إليه فكلموه، فقال: إنكم أعطيتم في هذه الدنيا حظاً فلا تنسوا حظكم من الله، وإني لأحسب شطر أموال أمة محمد في أيديكم ظلماً، والله ما تركت في يد واحد منكم حقاً لمسلم ولا معاهد إلا رددته.
المدائني عن المقدمي أن عمر قال لابنه حين استحثه في رد المظالم: أي بني إن نفسي مطيتي، فإن لم أرفق بها لم تبلغني، إن الحقحقة في السير قلما تورد إلى خير.
وقال هشام: بلغني أن عمر بن عبد العزيز قال لمسلمة بن عبد الملك – ورأى عليه حلة يمنية: يا أبا سعيد إن أفضل الإقتصاد ما كان بعده الجدة، وأفضل اللين من كان في الولاية، وأفضل العفو ما كان بعد القدرة.
المدائني أن رجلاً أتى عمر من مصر فقال له: يا أمير المؤمنين إن عبد العزيز أخذ أراضي ظلماً، فقال: وأين أرضك يا عبد الله؟ قال: حلوان. قال: أعرفها ولي شركاء، وهذا الحاكم بيننا. فمشى عمر إلى القاضي فقضى عليه، فقال عمر: قد أنفقنا عليها. قال القاضي: ذلك بما نلتم من غلتها، فقد نلتم منها بمثل نفقتكم. فقال: لو حكمت بغير ذلك ما وليت لي أمر أبداً، وأمر بردها.
المدائني عن إدريس بن قادم قال: قال عمر لميمون بن مهران – ويكنى أبا أيوب، وكان مهران مكاتباً لبين نصر بن معاوية، وكان ميمون مملوكاً لامرأة من الأزد من ثمالة يقال لها أم أيمن فأعتقه بالكوفة، ثم تحول إلى الجزيرة في أيام الجماجم– : يا أبا أيوب كيف لي بأعوان أثق بهم وآمنهم؟! قال: يا أمير المؤمنين لا تشغل قلبك بهذا فإنك سوق، وإنما يحمل إلى كل سوق ما ينفق فيه، فإذا عرف الناس إنه لا ينفق عندك إلا الصحيح لم يأتك إلا الصحيح.

المدائني قال: قال عمر بن عبد العزيز: لا تعدم من الأحمق خلتين: كثرة التلفت وسرعة الإجابة.
وكتب عمر إلى عدي: أما بعد فلا تسر سيرة الحجاج، فإنه بلاء وافق من قوم خطايا.
قالوا: وكان عمر بن عبد العزيز يتحدث أول الليل، ويسل عن أمور الناس، ويصلي آخره ويقول: إن محادثة الرجال تلقيح لألبابها.
وحدثني أبو عبد الرحمن الجعفي مشدانة عن عبد الله بن المبارك قال: قال زياد بن أبي زياد مولى بن أبي ربيعة: دخلت على عمر بن عبد العزيز فترجل لي عن صدر المجلس ثم قال: إذا دخل عليك من لا ترى لك عليه فضلاً، فلا تأخذ عليه شرف المجلس.

حدثني محمد بن مصفى قال: بلغنا أن عمر بن عبد العزيز خطر بيده خطرة ثم بكى فقيل له: ما أبكاك؟ قال: ذكرت النار فأشفقت من أن تغل يدي في الآخرة.

المدائني قال: حمل إلى عمر مسك فأمر ببيعه، فلما أخرج أخذ عمر بأنفه وقال: هذا للمسلمين وإنما ينتفع بريحه، ولا حاجة لي في الانتفاع بشيء من حق المسلمين.

قالوا: وسابق عمر الخيل بالمدينة، وكان فيها فرس لمحمد بن طلحة بن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي بكر، وفرس لرجل جعدي فتقدم فرس الجعدي، فجعل يرتجز ويقول:

غاية مجد نصبت يا من لها نحن حويناها وكنا أهلها

لو ترسل الطير لجئنا قبلها

فلم ينشب أن سبقه فرس ابن طلحة فقال عمر: سبقك والله ابن السباق إلى الخيرات.

المدائني عن مسلمة بن محارب وغيره قالوا: بعث عدي بن أرطاة إلى عمر رسولاً من بني تميم بقتل الخوارج الذين خرجوا في مسجد الحرورية فقتلوا، وبهم سمي مسجد الحرورية، فقال التميمي: ممن أنت؟ قال: من بني تميم. قال: جفاء كثير. قال: وخير كثير، فقال عمر: وخير لعمري كثير. ثم قال عمر: من أين خرج هؤلاء؟ قالوا: قدموا من البحرين. قال: إن لهم هناك لسنخاً.

قال: ودخل عبد الملك بن أرطاة على عمر فقال: يا أبا خالد جزاك الله عني جزاءك، فقد جعلتني غرضاً للحتوف، ودريئة للبلايا. فقال: يا أمير المؤمنين لا تجزع فإن الله إن علم منك الاجتهاد في النية، والقسم بالسوية، والعدل في الرعية، شكر سعيك، وولي أمرك.

وحدثني العمري عن الهيثم بن عدي عن عوانة قال: دخل ميمون بن مهران على عمر وهو محزون فقال: ما بك يا أمير المؤمنين؟ قال: إني قلدت أمراً عظيماً و لم أشاور فيه قبل وقوعه، و لم أطلبه، فقد تفرق علي أمري حتى وددت أن أمي لم تلدني.

المدائني عن ابن جعدبة قال: قال عمر بن عبد العزيز لزياد، وكان عبداً لآل عياش بن أبي ربيعة، فطلبه عمر فأعتقوه، فقدم عليه فقال له: يا زياد: "إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم" قال: يا أمير المؤمنين إني لأخاف عليك أن تخاف، إنما أخاف عليك ألا تخاف، إن آدم أخرج من الجنة بذنب واحد فصيح به في الأمم وذكر في الكتب، فقال الله: "وعصي آدم ربه فغوى" فالنجاء النجاء يا عمر، وقد روي هذا عن غيره.

قالوا: وأتى عمر رجل فقال: يا أمير المؤمنين جاءت بي الحاجة، ونزعت بي إليك الفاقة، فانتهيت منك إلى الغاية، والله سائلك عن مقامي على عيال قد أعييتهم وأعيوني.

فقال: كيف أعييتهم؟ قال: أعييتهم أن أكسبهم غنىً، وأعيوني أن يموتوا. فألحق له عياله وأعطاه نفقته. ويقال ألحق له شطر عياله.

المدائني عن رجل عن الشرقي قال: قدم رجل من البصرة على عمر فشكا إليه عدي بن أرطاة فقال: غرني بعمامته السوداء، قد كتبت إليه: من جاءك ببينة على حق هو له فسلمه إليه وقد عناك إلي. فكتب إليه بما سأله، وأعطاه نفقة من بيت المال وأعطاه دريهمات من ماله فقال: اشتر بها لحماً.

المدائني عن فرات بن السائب عن ميمون قال: قال عمر لمسلمة: كفني إذا مت بدينار من عطائي فإن ربي إن كان راضياً عني فسيبدلني خيراً منه.

قال: وسأل عمر بن عبد العزيز إسماعيل بن عبد الله بن أبي طلحة الأنصاري حوائج فقال: ألم آمركم أن تلحقوا بأمصاركم، لست قاضياً لك حاجة حتى تلحق بمصرك ودفع عنه، فقال: والله ما كنا ندفع هذا المدفع عن محمد صلى الله عليه وسلم. فوجم عمر ساعة وتغرغرت عينه، ثم قضى حوائجه.

المدائني عن أبي بكر الهذلي قال: قال عمر بن عبد العزيز لابنه عبد الملك: يا بني التمس الرفعة بالتواضع، والشرف بالتقوى وإياك والخيلاء، ولا تحقرن أحداً فإنك لا تدري لعل بعض من تزدريه عينك أكرم على الله منك، ولا تنس نصيبك من الله ونصيب الناس منك.

قال: ومات عبد الملك هو ابن تسع عشرة سنة.

حدثني هشام بن عمار قال: بكى عمر بن عبد العزيز فقيل له: ما يبكيك؟ قال: ذكرت انصراف أقوام كانوا يتقلبون في النعم السابغة، والفضل العظيم في الدنيا إلى النار لا ينالهم الله برحمته منه أبداً.

المدائني عن أيوب عن خالد عجلان قال: كان عند فاطمة بنت عبد الملك جوهر فقال لها: من أين صار إليك؟ قالت: أعطانيه أمير المؤمنين – تعني أباها – فقال: إما ترديه إلى بيت المال، وإما أن تأذني في فراقك – وكانت امرأته – فإني أكره أن أكون أنا وأنت في بيت وهو عندك.

قالت: لا بل أختارك على أضعافه، قال: فضعيه في بيت المال. فلما ولي يزيد بن عبد الملك قال لها: إن شئت رددته عليك، وإن شئت أعطيتك قيمته.

قالت: أطيب به نفساً في حياته ثم أرجع فيه بعد وفاته، لا حاجة لي فيه، فقسمه يزيد في ولده، وأهله.

قالوا: وكان عمر بن عبد العزيز يتلو كثيراً وهو جالس للناس: "أفرأيت إن متعناهم سنين، ثم جاءهم ما كانوا يوعدون، ما أغنى عنهم ما كانوا يمتعون" يبكي.

المدائني عن يزيد بن قحيف قال: بلغني أن عمر بن عبد العزيز كان يتمثل كثيراً قول الشاعر:

تسر بما يبلى وتشغل بالهوى	كما غر باللذات في النوم حالم
نهارك يا مغرور سهوٌ وغفلة	وليلك نوم والردى لك لازم
ولست إلى الأمر الرشيد بمرعو	كذلك في الدنيا تعيش البهائم

المدائني عن مسلمة بن عثمان القرشي قال: بلغني أن عمر لما ولي الخلافة نظر إلى ما كان له من عبيد وإماء، ورقيق، ومتاع، ولباس، وعطر، وغير ذلك فأمر به فبيع فبلغ ثمنه ثلاثة وعشرين ألف دينار، فجعل ذلك في السبيل.

المدائني عن أبي إسماعيل عن أبيه قال: رأيت عمر بن عبد العزيز وقد ركب يوماً وقد بدت ساقه أو ركبته من ضيق أسفل قميصه.

المدائني عن بشر بن عبد الله قال: مشى رجال من بني مروان إلى عمر بن عبد العزيز حين أسرع في بيت المال بما رد من المظالم فقالوا: يا أمير المؤمنين إنك ترد أمراً وليه غيرك فأمضاه فدعهم وما عملوا، واستقبل أمرك. فقال: والله لوددت أنه لم يبق مظلمة إلا رددتها ثم خرجت نفسي.

المدائني عن عمر بن مجاشع قال: دخل عنبسة بن سعيد بن العاص بن أبي أحيحة على عمر بن عبد العزيز فسأله حوائجه، وبين يديه سراج، يكاد يطفأ مرة ثم يضيء مرة، وفي ناحية الدار كتاب يكتبون وبين أيديهم شمع، فقال: يا أمير المؤمنين لو أمرت بشمعة فوضعت بين يديك. قال: ذاك للمسلمين تكتب به حوائجهم، وهذا لي وهو يجزيني. ثم قال لعنبسة: يا أبا خالد ألك حاجة؟ فسأله معونة وزيادة في عطائه فقال: يا عنبسة إن كنت غارماً قضينا عنك، وإن كنت محتاجاً أعطيناك ما يقيمك ويصلحك، انظر من أين جمعت مالك فإن كان حراماً فارفضه وانظر لنفسك قبل يوم يتمنى فيه المفرط الرجعة.

المدائني عن شيخ من قريش قال: كان حميد الأمجي يشرب الخمر وكان منزله أمج فقيل فيه:

حميد الذي أمج داره	أخو الخمر ذي الشيبة الأصلع
أتاه المشيب على شربها	وكان كريماً فلم ينزع

فقدم على عمر فلما رآه قال:

حميد الذي أمج داره	....

قال: يا أمير المؤمنين كذب علي. قال: فاستغفر الله.

حدَّثنا القاسم بن سلام عن مروان بن معاوية عن توبة بن سالم قال: كتب عمر بن عبد العزيز إلى عبد الحميد بن عبد الرحمن: أما بعد: فارفع سوطك عن الناس، وكفى بثلاثين سوطاً تضربها الرجل نكالاً، إلا في حده.

حدثني داود بن عبد الحميد عن أبيه قال: اشتهى عمر بن عبد العزيز أو احتاج إلى عسل، فقيل له ابعث رجلاً على البريد إلى قرية كذا ليأتيك به فقال: ما كان الله ليراني اشغل جناح المسلمين أو قال جناحاً من أجنحة المسلمين في شهوة اشتهيتها.

حدثني عباس بن هشام عن أبيه عن جده قال: كتب عمر إلى عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب عامله على الكوفة: أما بعد فقد بلغني أن من قبلك يسبون الحجاج، فأنههم عن ذلك، فإنه بلغني أن المظلوم يدعو على الظالم، فيكون المظلوم ظالماً والظالم مظلوماً.

حدثني بكر بن الهيثم، ثنا أبو حذيفة، ثنا سفيان عن طلحة بن يحيى قال: كان عمر بن عبد العزيز ولى الكوفة الزهري، فبلغه عنه شيء فنخس به وتثقله حتى رده إلى المدينة، ولم يستعمله وولى عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب الكوفة.

حدثني عمر بن شبة عن عفان، ثنا عمر بن علي قال: سمعت أبا سعيد مولى ثقيف قال: أل كتاب قرأه عبد الحميد من عمر كتاب فيه سطران.

قالوا: وكتب عمر إلى عبد الحميد: أما بعد فلا أعلمن ما جعلت على أهل السجون قيوداً ثقالاً تمنعهم من الصلاة قياماً، وذكرت أن قبلك قوماً فساقاً إن تركوا أفسدوا البلاد، وإن حبسوا استراح الناس من معرتهم وبوائقهم، فإن كان أمر هؤلاء القوم ظاهراً فاحبسهم في السجون، وأجر على كل امرئ منهم في كل شهر خمسة دراهم وكساء وقميصاً في الشتاء وإزاراً ورداءً في الصيف.

المدائني عن أبي المليح الرقي عن ميمون بن مهران قال: دخلت على عمر وهو متغيظ على عبد الحميد فقلت: ما له أمير المؤمنين؟ قال: بلغني إنه قال: لا أظفر بشاهد زور إلا قطعت لسانه، قلت: يا أمير المؤمنين إنه لا يتم على ذلك إنما يهيب الناس، فقال: انظروا إلى هذا الشيخ إن خصلتين خيرهما الكذب لخصلتا سوء.

حدثني عمرو بن محمد الناقد، ثنا عبد الله بن وهب عن ابن لهيعة عن عبد الأعلى بن عبد الحميد عن أبي الزناد قال: كتب عبد الحميد بن عبد الرحمن إلى عمر بن عبد العزيز إنه فضل عندنا من المال شيء كثير بعد العطاء. فكتب إليه عمر: انظر من كان عليه دين في غير سرف فاقض عنه، ومن تزوج فلم يجد ما ينقد فانقد عنه. ففعل، ثم كتب إليه يخبره أن قد فضل بعد ذلك مال كثير أيضاً، فكتب عمر إليه، أن قو به ضعفة أهل الذمة، فإنا لا نريدهم لسنة ولا لسنتين.

المدائني قال: كتب عمر إلى بعض عماله إن البريد جناح المسلمين، وبه نفاذ أمور السلطان، وتعجل ما يحتاجون إلى معرفته من الأخبار، فأحسن تعهده والقيام عليه وإدرار أرزاق قوامه وأعوانه ولتجد له علوفته

وينظر في مصلحته إن شاء الله، والسلام.

حدثني العباس النرسي، ثنا يزيد بن زريع، ثنا فضيل أبو معاذ أن أهل بيت من أهل الري من أهل العهد لحقوا بالديلم، فأغارت خيل المسلمين على الديلم فأصابت أهل ذلك البيت، فكتب الحارث بن عباد إلى عبد الحميد في أمورهم إلى عمر فكتب إليه: اجمع من قبلك من أهل الري فإذا اتفقوا على شيء فامضه. فجاء عبد الله بن ذكوان أبو الزناد إلى حلقة في المسجد فيها الشعبي والحكم بن عتيبة فقال: إنكم ستدعون إلى كذا، فاتفق رأيهم على أن الأبوين وما استفادا من ولد ومال بالديلم في سهام المسلمين، وما أدخلا الديلم من ولد صغير فليس عليه شيء، فأمضى عمر رأيهم على ما اتفقوا عليه.

حدثني أبو عبد الرحمن الجعفي عن عبد الله بن المبارك، ثنا يوسف بن المهاجر أن الأصبهبذ صاحب طبرستان أهدى إلى عبد الحميد حين قدم الكوفة هدية من زعفران وطيالسه وورق وأشباه ذلك فقبلها وعزلها وكتب فيها إلى عمر بن عبد العزيز فكتب إليه عمر: إن كان الأصبهبذ عودك الهدية بالجزيرة فاقبل هديته، وإلا فإنها هديته لولايتك عليه فارددها، فإن أبى قبولها فبعها وأدخل قيمتها بيت المال، واحتسبها من خراجه، إن شاء الله.

حدَّثنا عفان، أنبأنا عن حماد قال: سألني عبد الحميد عن دية النصراني واليهودي والمجوسي فقلت: قال إبراهيم مثل دية المسلم، فكتب إلى عمر فقال: النصف من دية المسلم. وقال حماد: قول عمر أحب إلي.

حدثني عمر بن شبه عن أبي نعيم، ثنا سفيان عن حماد قال: سألني عبد الحميد عن بيع الاجام فقلت: كان إبراهيم يكرهه. فكتب إلى عمر فقال عمر: لا بأس به كنا نسميها الحبس. قال سفيان يعني السمك.

حدثني عبد الله بن معاذ بن معاذ عن أبيه عن شعبة عن حماد قال: سألني عبد الحميد عن النصراني تسلم امرأته فقلت: قال إبراهيم: هما على نكاحهما، فكتب إلى عمر، فكتب عمر: يفرق بينهما. فقال حماد: وقول عمر أحب إلي.

وروى عن خصيف قال: كتب عبد الحميد إلى عمر بن عبد العزيز في نصرانية أسلمت وزوجها نصراني كيف يصنع بالولد؟ فكتب أن فرق بينها وبين زوجها وألحق الولد بها.

حدَّثنا عبد الواحد بن غياث عن أبي عوانة عن بيان عن عامر قال: سألني عبد الحميد عن الخيار فقلت: قال عبد الله بن مسعود: إن اختارت نفسها فواحدة، وإن اختارت زوجها فلا شيء. وقال علي عليه السلام: إن اختارت نفسها فواحدة بائنة، وإن اختارت زوجها فواحدة وهو أحق بها، وقال زيد بن ثابت: إن اختارت زوجها فواحدة وإن اختارت نفسها فثلاث لا تحل له حتى تنكح زوجاً غيره، فكتب

إلى عمر بذلك، فاختار قول عبد الله بن مسعود.

قالوا: وسير الوليد بن عبد الملك الأحوص الشاعر إلى دهلك فلما استخلف عمر كتب إليه:

كيف ترى للنوم طعماً ولذة وخالك أمسى موثقاً بالحبائل

فمن يك أمسى سائلاً عن شماتة ليشمت بي أو شامتاً غير سائل

فقد عجمت مني الحوادث ماجداً صبوراً على عضات تلك البلابل

فبعث عمر إلى عراك الغفاري، وكان الذي شهد عليه، فقال: ما ترى في هذا البائس فقد كتب تما ترى؟ فقال عراك: مكانه خير له، فلما ولي يزيد أقدم الأحوص وسير عراكاً، فقال الأحوص:

الآن استقر الملك في مستقره وعاد لعرف أمره المتنكر

طريد تلافاه يزيد برحمة فلم يمس من نعمائه يتعذر

أي يعتذر – يعني يزيد –.

قالوا: وكتب عبد الحميد إلى عمر: إني وجدت الموالي يتزوجون إلى العرب، والعرب إلى الموالي، فكتب إليه: إني نظرت فيما ذكرت فلم أجد أحداً من العرب يتزوج إلى الموالي إلا الطمع الطبع، ولم أجد أحداً من الموالي يتزوج العرب إلا الأشر البطر، ولا أحرم حلالاً، ولا أحل حراماً، والسلام. وروي إنه كتب، أمض فإن الله قد أحله.

المدائني: إن محمد بن الوليد بن عتبة بن أبي شعبان خطب إلى عمر فقال عمر راداً عليه: الحمد لله ذي العز والكبرياء، وصلى الله على محمد خاتم الأنبياء، أما بعد: فقد أحسن بك ظناً من أودعك كريمته، واختارك ولم يختر عليك. قد زوجتك على ما جاء في كتاب الله "إمساك بمعروف أو تسريح بإحسان".

عمر شبه عن يحيى بن سعيد عن ابن عجلان عن أبي الزناد قال: كنت مع عبد الحميد بالكوفة فقضى باليمين مع الشاهد، فأنكر ذلك ناس من أهل الكوفة، فكتب إلى عمر بن عبد العزيز في ذلك فكتب إليه أن أقض بها، وقال: وقد شهد عندي رجل من كبرائهم أنه شهد شريحاً قضى بها.

قالوا: وكتب عمر بن عبد العزيز: لا يحملن الخمر من رستاق إلى رستاق.

قالوا: وكتب عبد الحميد إلى عمر بن عبد العزيز: إن يزيد بن المهلب دعا موسى بن الوجيه، ودعا بالسياط، وقال: إن طلقت امرأتك وإلا قتلتك، فكتب: إن يزيد ظلم نفسه، وأما موسى فقد جاز طلاقه.

وروي عن أبي هلال الرسبي قال، ثنا يونس: أن مرتداً ارتد بالكوفة في أيام عمر بن عبد العزيز فشاور عامله عبد الحميد الناس فقالوا: اقتله فكتب إلى عمر فيه، فكتب إليه: إن اضرب عليه بالجزية، ثم خل عنه.

قالوا: وكتب عمر بن عبد العزيز إلى عبد الحميد: لا تقض بالجوار، ولا تدع صورة على باب إلا كسرتها.

حدثني عمر بن شبه عن سريج بن النعمان عن ابن أبي الزناد عن أبيه قال: خرجت حرورية في العراق في خلافة عمر بن عبد العزيز وأنا مع عبد الحميد بن عبد الرحمن بن يزيد، فكتب عمر إلى عبد الحميد: أن ادعهم مرتين أو ثلاثاً، فإن رجعوا، وإلا فقاتلهم، فإن الله لم يجعل لهم سلفاً يحتجون بهم علينا.

فبعث إليهم عبد الحميد جيشاً فهزمهم الخوارج، فلما بلغ ذلك عمر بعث مسلمة بن عبد الملك في جيش من أهل الشام، وكتب إلى عبد الحميد: قد بلغني فعل جيشك جيش السوء – قال ابن أبي الزناد فسموا جيش السوء إلى اليوم – وقد بعثت مسلمة بن عبد الملك فخل بينه وبينهم. فلم ينشب أن أظفره الله بهم.

وحدثت عن سويد بن سعيد عن بقية بن الوليد عن محمد بن زياد عن ميمون بن مهران أن حرورية دخلوا على عمر فقالوا: السلام عليك يا إنسان فقال: وعليكم السلام، فقالوا: لا حكم إلا الله. قال: نعم لا حكم إلا الله.

حدَّثنا عمر بن شبه، ثنا أبو عاصم النبيل، ثنا إسحاق أبو النصر قال: أخذ معي فلس بهرج زمن الحجاج فضربني ابن أبي مسلم وحبسني، فتكلم في الحواري بن زياد فأخذوا مني ألفاً وتركوني، فلما استخلف عمر أتيته فأخبرته فبكى وقال: ألف درهم في فلس بهرج، وكتب إلى عبد الحميد: إن كان الأمر كما ذكر فاعطه ألف درهم، قال فأتيته فإذا سياط موضوعة فقلت في نفسي أتيت أمير المؤمنين فلم أر سياطاً. قال: فأعطاني ألفاً وكتب لي عملاً وأعطاني نفقة.

وروي عن الصلت بن بهرام قال: سمعت عمر بن عبد العزيز يقول حين شكونا إليه عبد الحميد عامله: لقد عجلتم علي، لعلكم ترون أنكم ترون عدلاً. والله لا ترون عدلاً أبداً.

قالوا: وقع بين امرأة من أهل المدائن وبين عريفها مشاجرة فأسقط اسمها من الديوان، فأتت عمر بن عبد العزيز فكتب بيده إلى عبد الحميد بأن يفك اسمها ويعيده، ويخدمها خادماً، وأمر لها بخمسمائة درهم وكراها، فقدمت على عبد الحميد وقد مات عمر فأوصلت الكتاب فعرف خطه، فبكى ثم قال: والله لأنفذن ما فيه.

ولما مات عمر رضي الله عنه أحب عبد الحميد أن يتقرب إلى يزيد بن عبد الملك فكتب إلى محمد بن جرير يأمره بمحاربة شوذب الخارجي. فقال الخوارج: ما فعل هذا إلا وقد مات الرجل الصالح، وأقر يزيد بن عبد الملك عبد الحميد على الكوفة، حتى خلع يزيد بن المهلب ووجه إليه يزيد مسلمة.

المدائني عن عيسى بن يزيد قال: كتب أبو بكر بن محمد بن عمرو بن حزم إلى سليمان بن عبد الملك: إن

الشمع الذي كنت اخرج به إلى الصلاة في وقت العشاء والصبح قد نفد، وكذلك القراطيس التي كنت أكتب فيها، فإن رأى أمير المؤمنين أن يأمر لي بشمع وقراطيس، وأن يلحقني بشرف العطاء بالحجاز.

فوصل الكتاب إلى عمر وقد مات سليمان فكتب إليه: أما بعد فقد قرأت كتابك إلى سليمان في الشمع وقد عهدتك تخرج في الليلة المطيرة الشديدة الظلمة إلى المسجد بلا شمع، وأنت يومئذ خير منك اليوم، وكتبت تسأل إلحاقك بشرف العطاء بالحجاز، وقد عهدتك وأنت لا تحب الأثرة، وأنت يومئذ خير منك اليوم، وقد كتبت إلى صاحب مصر آمره أن يحمل إليك القراطيس على ما كان يحمل، فألطف القلم، واجمع الحوائج العدة في كتاب واحد، ولا تطنب في الإملاء، فلا حاجة لنا في كثرة الكلام والسلام.

قالوا: تزوج رجل من بني فراص – كانت أخته عند عدي – امرأة من الحدان كان لها موضع عند قومها، فطلقها وهو يشرب، ثم جحد فأتت إياس بن معاوية بشاهد فعدله، وجاءت بعبد لها وقد أعتقته فعدل، فانتزعها إياس من الفراصي، فأمر عدي بها فردت على الفراصي. وأراد عدي أن يقدم على إياس بمشورة وكيع بن أبي أسود، فقال له داود بن أبي هند: "إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك" فهرب إياس إلى عمر بن عبد العزيز، وولى عدي الحسن بن أبي الحسن القضاء، وكتب عدي إلى عمر يعلمه ذلك فكتب إليه عمر: الحسن أهل لما وليته، ولكن ما أنت والقضاء؟ فرق بين الرجل والمرأة، فرق الله بين أعضائك.

المدائني قال: كتب عمر إلى عماله: إن بلغني أن نساء ذوات سعة يخرجن عند موت الميت ناشرات شعورهن ينحن، وهذا فعل أهل الجاهلية، وإن الله لم يرخص للنساء في وضع خمرهن مذ أمرهن بضربها على جيوبهن، فتقدم في هذه النياحة تقدماً شديداً، وقد كان الأعاجم تلهو بأشياء زينها الشيطان لهم، فأزجر من قبلك المسلمين عن ذلك، واللهو من الغناء وما أشبهه، فمن لم ينته فنكل به غير معتد ولا مسرف، إن شاء الله، والسلام.

المدائني قال: كتب عمر إلى عدي في كتابه: إن الله جعل لأهل الخير أعواناً عليه، ولأهل الشر أصحاباً مزينين له، وقد نهيتك عن كاتبك فلم أرك متحاشياً لذلك ولا زاجراً له عن ظلم الرعية وانتقاص حقوقهم، وإنك حين تفعل ذلك يا عدي لمغتر بي تارك حظك من الله، فاطرد عنك هذا الشائن، ولا تشركه في أمانتك، وأخرجه عن المصر، فإني لو أشركت أحداً من حزب الشيطان في أمانتي لا ستعنت بابن أبي مسلم،فاكفني نفسك يا عدي، ولا تحملني على مكروهك، إن شاء الله، والسلام.

قالوا: وكتب عمر إلى عماله: إن انظروا من كان في أسواقكم من باعة اللحم من أهل الذمة فليؤاخذوا بأن لا يذبحوا ذبيحة إلا ذكروا اسم الله عليها، وأن لا تكسر ولا تنخع حتى تموت، ولتترك متشحطة مذبوحة ومنحورة، ولا ينفخوا في اللحم فإنه من الغش، والسلام.

المدائني عن ابن جعدبة قال: كتب عمر إلى أبي بكر بن حزم: أما بعد فإن الطالبين الذين نجحوا، والتجار الذين ربحوا، هم الذين اشتروا الباقي الذين يدوم بالفاني المذموم، فاغتبطوا ببيعتهم، وأحمدوا عاقبة أمرهم، فاعمل لنفسك وبدنك صحيح، وأنت مريح، قبل أن تنقضي أيامك ويترل بك حمامك فإن العيش الذي أنت فيه ظل يتقلص ويزول.

وكتب إلى عبد الحميد: أما بعد فإنه من ابتلى بأمر الناس فقد عظمت بليته، نسأل الله عافيته وحسن معونته، فكن لمن وليت أمره ناصحاً وعليهم شفيقاً حدباً، واملك نفسك عند الهوى والغضب واكفف يدك ولسانك عن الأموال والأعراض والأبشار، واستر ما استطعت من عورات الناس إلا شيئاً أبداه الله لا يصلح ستره، فإن سبق منك هوى أو غضب فاستغفر ربك وراجع أمرك، نسأل الله تعالى أن يصلح لنا أعمالنا ويكفينا أمورنا، وما نرجع إليه بعد الموت، والسلام.

المدائني عن فرات بن السائب عن ميمون بن مهران قال: كتب عمر إلى الجراح بن عبد الله: إن ولاة السلطان بعرض مكاره وبلاء إلا من وقى الله وأعان، فاتق الله حق تقاته، واذكر موقفك بين يديه، وإذا حضرك خصم جاهل فرأيت منه رعة سيئة فارفق به وسدده وبصره، وخذ له الحق غير متجانف على خصمه، وإن أتى رجل ذنباً يستحق به العقوبة فلا تعاقبه بغضب تجده في نفسك، ولكن لما أتى وجنى، جعلنا الله وإياك ممن "لا يريدون علواً في الأرض ولا فسادا" ، أو من المتقين الذين لهم العاقبة، والسلام.

المدائني قال: كتب عمر إلى عدي بن أرطاة، بلغني أن عمالك بفارس يخرصون الثمار ثم يقومونها على أهلها بسعر فوق سعر الناس الذي يبتاعون به، ثم يأخذون ذلك ورقاً، وإن طوائف من الأكراد يأخذون العشر من السابلة والمارة في الطرق. ولو علمت أنك أمرت بذلك أو رضيته ما ناظرتك ولأتاك من ما تكره. وقد بعثت بشر بن صفوان وعبد الله بن عجلان للنظر في ذلك، ورد الثمن الذي أخذ من الناس إلى ما باع أهل الأرض في غلاقم، فلا تعرض لهم فيما وجهتهم له من ذلك، وأحسن معونتهم عليه، إن شاء الله، والسلام.

حدثني هدبة بن خالد، ثنا حماد بن سلمة عن يونس بن عبيد الله أن رجلاً من الأنصار أتى عمر بن عبد العزيز فقال: أنا فلان بن فلان، قتل جدي فلان يوم أحد، وجعل يذكر مناقب سلفه، فنظر عمر إلى عنبسة بن سعيد فقال: هذه والله المناقب لا يوم مسكن، ويوم الجماجم، ويوم مرج راهط.

تلك المكارم لا قعبان من لبن شيباً بماء فعادا بعد أبوالا

المدائني قال: كتب عمر إلى أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم: أما بعد فليكن سعيك في الدنيا للآخرة فليس لك إلا ما قدمت، واعلم أن مقطعات الأمور أمامك، وأن الله غير مدخل جنته إلا من رضي عنه،

وإنك لا تزداد من حسنة ولا تستعتب من سيئة بعد الموت.

قالوا: وكتب عمر إلى عمال الثغور: أما بعد: فلا تشتروا للأمراء من حظ العامة من المغنم شيئاً، وأمروا القسام أن يجزئوا ما أفاء الله عليكم من السبي والغنيمة خمسة أخماس ثم ليقرعوا عليها بخمسة أسهم، لله الخمس وأربعة للعامة الذي قاتلوا عليها،فحيث وقع سهم الخمس فليحرر ثم يخلى بين الناس وأنصبائهم، والسلام.

المدائني عن حباب بن موسى قال: قال عمر بن عبد العزيز: نشأت علي بغض علي لا أعرف غيره، وكان أبي يخطب فإذا ذكر علياً نال منه فلجلج، فقلت: يا أبه إنك تمضي في خطبتك فإذا أتيت ذكر عليّ عرفت منك تقصيراً، قال: أفطنت ذلك؟ قلت: نعم. قال: يا بني إن الذين من حولنا لو نعلمهم من حال علي ما نعلم تفرقوا عنا.

حدثني منصور بن أبي مزاحم عن شعيب بن صفوان قال: كتب عمر بن عبد العزيز: أما بعد فإنه يجب إلى المسلمين أن يضعوا من أهل الشرك والكفر ما وضع الله منهم، وأن يترلوهم بمترلتهم التي أنزلها الله بها من الذل والصغار، ولا يشركوهم في أمانتهم ولا يسلطوهم على أهل الإسلام فتجري عليهم أحكامهم ويستخدموهم بالطمع فيما عندهم، ويترلوا بهم حاجاتهم فيغشوهم ويحرموهم، فلا يبق أحد ممن قبلك على غير الإسلام على شيء إلا عزلته واستبدلت به رجلاً من المسلمين ترضى دينه وأمانته وعفافه، وخذهم بشد المناطق، وركوب الأكف، وحلق أوساط رؤوسهم، وأطع الله واتقه، فإنه لا حرز لك ولا منعة إن عصيته والسلام.

وكتب عمر إلى عدي بن أرطاة: أما بعد: فقد أتاني كتابك تذكر أنك لما قدمت البصرة جعلت سفيان بن فرقد حاجباً وتقدمت إليه ألا يرزأ أحداً شيئاً، فبلغك عنه أمر تكرهه فأتاك بخمسين ديناراً ذكر أنه أعطاه إياها رجل، فقبضتها وعزلتها في بيت المال أن يأتيك أمري، وليس بيت المال بموضع للرشاء فاردد ذلك الذهب إلى صاحبه الذي أخذ منه فإن ابن فرقد يعرفه، إن شاء الله، والسلام.

وكتب عمر إلى عدي: إن بعض من ورد علينا أخبرني عن ناحية من نواحي فارس خراباً، فأسهرني ذلك وغمني، فتعهد أهل عملك بالكتب والرسل، واجتهد في عمارة البلاد بالعدل والرفق وترك الاستقصاء، واعلم إنما يلتمس إصلاح قوم آثروا سيئاً واجتهدوا في فساد ما تحت أيدهم حتى بلغ الأمر ما بلغ، وليس بكثير على الله جل ثناؤه أن يجعل في عمارة سنة ما يعدل خراب سنين قبلها فيجبره بها، فإن الله يبلغ من تضعيفه لمن يشاء أكثر من ذلك، "والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم" والسلام.

قال: وكتب عمر إلى أبي بكر بن محمد: ذكرت أن ناساً من بني أسد وفزارة تلاحوا: فرمي فراس

الأسدي بحجر فأصاب ركبته، ثم تفرقوا، ومكث سنة وجعاً من رميته فاصطلحوا على مائتين من الإبل وإنه لا صلح إلا ما يجوز في الإسلام، فأنفذ الصلح بينهم على مائة من الإبل فليس بدم صاحبهم عن ذلك مذهب، ولو لا السنة لم أبال ما أعطاهم بنو فزارة من أموالهم، والسلام.

المدائني عن مسلمة بن محارب قال: قال عمر بن عبد العزيز: لم أر رجلاً كان أعلم بأمر الدنيا من عبد الملك، ولا رجلاً كان أغضب للدنيا ولا اشتدت غلبة الدنيا عليه مثل الوليد، ولا رجلاً آكل للدنيا من سليمان، وهذه الدنيا تريد أن آكلها وتأكلني، والله لا أفعل.

المدائني عن خالد بن يزيد بن بشر عن أبيه قال: شتم رجل معاوية عند عمر بن عبد العزيز، فأمر بضربه ثلاثة أسواط.

المدائني عن بشر بن عبد الله قال: دخل عبد الملك بن عمر على أبيه فقال: يا أبه ما يؤمنك أن يأتيك أمر الله بياتاً وأنت نائم، فقال: يا بني إن نفسي مطيتي وإن لم أرحها لم تحملني، وإني لأحتسب من الأجر في العدل ما أرجو أن لا يقصر بي عن الأجر في ترك النوم.

قال عمر لميمون: لأن أبقى لهذا المال حتى أسلكه سبيله أحب إلي من أن أتركه لولدي ميراثاً، ولا أحاسب بشيء منه.

المدائني عن المبارك بن فضالة قال: كتب عمر بن عبد العزيز: إن من كان عليه دين له وفاء به فليقض من ماله، ومن لم يكن عنده فلينظره غرماؤه، فإنما وضعوا أموالهم عنده على أن يصادفوا مالاً أو عدماً.

وروى الهيثم بن عدي عن عدي قال: كتب عمر إلى عبد الحميد: كتبت تذكر أنك وجدت في بيت المال سبعة آلاف درهم مما أخذ ممن كان يختلف بالخمور، ولا حاجة لي في خبيث، فإن وجدت له أهلاً فاردده عليهم، والسلام.

المدائني قال: كتب عمر إلى صديق له من النساك: إلى العبد المبتلى بأمور المسلمين من أخيه فلان، أما بعد: فإنك ممتحن بما وليت ومجزى بما عملت، فأصلح نيتك وتوق على دينك فإنك بعرض خير وشر، فإن اتبعت الخير سعدت، وإن ملت إلى الشر غويت، وكان يقال من تقلد شيئاً من أمور المسلمين فإنما يفتح له باب إلى الجنة، وباب إلى النار، فأيهما اختار فهو والجه، عصم الله دينك ووفر من الأجر حظك ووفقك للخير ووفقه لك.

فكتب إليه عمر: فهمت كتابك يا أخي، وقد عظمت علي البلية، فاسأل الله العون والكفاية، لا تخلني رحمك الله من كتبك بالنصيحة، فإنك تقضي بها حق المودة، والسلام.

المدائني عن المسيب بن شريك قال: قدم على عمر بشير من الصائفة فقال له: إن شئت زدناك في عطائك، وإن شئت ألحقنا لك عيلاً. فقال: كلاهما وتمراً، فقال عمر: إنك لبطال وليس لبطال عندنا شيء.

المدائني: أن عمر كتب إلى محمد بن عروة السعدي عامله على اليمن: أن أخرج من بيت المال قبلك مائة ألف درهم للغارمين ولا تعط منها من كان دينه في سرف وتبذير، واعط من تزوج أو ابتاع ذا رحم فأعتقه أو تاجراً أتى على ما في يديه، وأخرج مائة ألف درهم لأبناء السبيل، ومر رهطاً من ذوي الدين والحسبة والنية الحسنة أن يقعدوا بها على طريق الحاج فلا يدعو منقطعاً به منهم ولا محسوراً إلا أعانوه، ولا مرملاً إلا زودوه، ولا راجلاً إلا حملوه، ولا عارياً إلا كسوه إن شاء الله، فإن سبيل الحاج خير السبل.

وقال كثير يرثي عمر بن عبد العزيز رحمه الله:

أقول لما أتاني ثم مهلكة ... لا يبعدن قوام الأهل والدين

قد غادروا في ضريح اللحد منجدلاً ... بدير سمعان قسطاس الموازين

وقال الجمحي:

ثلاثة ما رأت عيني لهم شبها ... يضم أعظمهم في المسجد الحجر

وأنت تتبعهم لم تأل مجتهداً ... سقياً لها سبلاً بالعدل تفتقر

فإن قصرت عن العليا التي بلغوا ... وأنت تطلبها واغتالك القدر

فما بلغت التي من دون ما بلغوا ... ففت في ذاك من تثنى له السير

لو كنت أملك للأقدار تروية ... تأتي رواحاً وتبيتا وتبتكر

دفعت عن عمر الخيرات مصرعه ... بدير سمعان لكن تغلب المرر

قالوا: وكان عمر بن عبد العزيز أمر أن يخرج الفرزدق من مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة، وذلك إنه كان ينشد فيه الهجاء، ويتبذى فقال فيه الشاعر:

نفاك الأغر ابن عبد العزيز ... ومثلك ينفى عن المسجد

فلقي الفرزدق مخنثاً فقال له: ما فعلت عمتنا؟ قال: نفاها الأغر ابن عبد العزيز.

المدائني قال: تزوج عبد الرحمن بن عمرو بن سهل بن عمرو بن بني عامر بن لؤي بنتاً لعبد الله بن عمر بن الخطاب، فكانا أحسن زوج في المدينة، فكلمته يوماً وقد مرض فأعرض عنها فقالت: يا حبيبي مالك أعرضت عني؟ قال: أموت وتتزوجين بعدي. قالت: فإن لا أفعل إن - وأعوذ بالله - حدث بك حدث بل أنا المتقدمة قبلك، فخطبها عمر بن عبد العزيز فتزوجته، فدخل عليها ابن قارظ الكناني فقال لها: مثلك ما قال القائل:

ما كنت إلا والهاً ذات عولة　　　على شجوها بعد الحنين المرجع

متى لم تجده تنصرف لطياتها　　　من الأرض أو ترجع لأنف ومرجع

فأفحمته. وكانت ابنتها من عبد الرحمن عند الحجاج بن يوسف فقال لها: مات أبوك فجزعت، فقال: لم تجزعين وقد تزوجت أمك عمر بن عبد العزيز؟ وحدثني الحسين بن علي الحرمازي، ثنا العتبي قال: سمع عمر بن عبد العزيز رجلاً يمدح فاطمة بنت الحسين، ويقال فاطمة بنت عبد الملك امرأته فقال: ما تعرف من الشر شيئاً. فقال عمر: معرفتها بالشر جنبتها إياه.

وقال سليمان بن عبد الملك لعمر بن عبد العزيز وهما بطريق مكة، وأراد أن يذكر له شيئاً، فسأله: هل علينا من عين؟ قال: نعم عليك من الله عين بصيرة وأذن سميعة.

قال العتبي: قرأ قارئ عند عمر بن عبد العزيز آية فلحن، فقال مسلمة: لحن والله يا أمير المؤمنين، فقال عمر: أوما شغلك معناها عن لحنه.

حدثني عمر بن شبة، ثنا أبو عاصم، أنبأ عثمان بن خالد بن دينار عن أبيه عن ميمون بن مهران قال: قال لي عمر بن عبد العزيز: لا تأتين سلطاناً وإن أمرته بمعروف، ولا تخلون بامرأة وإن قرأت عليها القرآن، ولا تصحبن عاقاً فإنه لن يصلك، وقد عق والديه.

المدائني عن عيسى بن يزيد قال: لما احتضر عمر بن عبد العزيز قيل له: اكتب إلى يزيد وأوصه بالأمة فقال: وبماذا أوصيه، إني لأعلم أنه من بني مروان.

ثم كتب إليه: أما بعد: فاتق الله يا يزيد الصرعة بعد الغفلة حين لا تقال العثرة، ولا تقدر الرجعة، إنك تترك ما تترك لمن لا يحمدك، وتصير إلى من لا يعذرك، والسلام.

حدثني عباس عن أبيه عن عوانة قال: أنشد عمر بن عبد العزيز قول الأحوص بن محمد الأنصاري:

سيبقى لها في مضمر القلب والحشا　　　سريرة حب يوم تبلى السرائر

فبكى عمر وقال: ويحه ما أغفله عن قول الله "يوم تبلى السرائر، فما له من قوة ولا ناصر" وقالوا: كان على شرطة عمر روح بن يزيد بن يستر السكسكي.

حدثني عمرو بن محمد عن الحجاج الرصافي عن أشياخهم قال: عزى رجل عمر بن عبد العزيز عن ابنه عبد الملك فقال:

تعز أمير المؤمنين فإنه　　　لما قد ترى يغذى الصغير ويولد

هل ابنك إلا من سلالة آدم　　　وكل له حوض المنية مورد

قالوا: ومرض عمر بن عبد العزيز، فقيل له: لو تداويت. فقال: لو كان دوائي في مسح أذني ما مسحتها، نعم المذهوب إليه ربي.

وحدثني محمد بن خالد الطحان عن يزيد بن هارون عن يحيى بن سعيد قال: كتب عمر بن عبد العزيز إلى أبي بكر بن عمرو بن حزم: أن انظر ما كان من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلمن وحديث عمرة بنت عبد الرحمن فاكتبه، فإني قد خفت دروس العلم، وذهاب أهله.

قال الواقدي: قال عمر بن عبد العزيز: ما بقي أحد أعلم بحديث عائشة من عمرة.

وحدثني عمرو بن محمد عن الحجاج قال: اشتهى عمر بن عبد العزيز في صحته عسلا يؤتى به من قرية على فراسخ، فقيل له: توجه رسولاً على دابة من دواب البريد ليأتيك به، فقال معاذ الله، لا يراني الله شاغلاً جناحاً من أجنحة المسلمين في شهوة اشتهيتها.

حدثني هشام بن عمار عن الوليد بن مسلم عن مولى لعمر بن عبد العزيز عن عمر أنه قال لمحمد بن كعب: عظني. فقال: يا أمير المؤمنين إن فيك جرأة، وجبناً، وكيساً، وعجزاً، فداو بعض ما فيك ببعض، وعليك بأهل الدين والعقل فإنهم يكفونك أنفسهم ويعينوك على غيرهم، وإياك ومن مودته لك بقدر حاجته إليك فإذا انقطعت حاجته ذهبت مودته. وإذا اصطنعت صنيعة فأحسن ربها وغذاءها. فقال عمر: أحسن الله جزاءك.

وحدثني هشام بن عمار قال: بلغني أن رجلاً تكلم عند عمر بن عبد العزيز فرفع صوته فقال عمر: بحسب هذا الرجل أن يسمع جليسه، لو أدرك شيء خيراً بشدة صوت لأدركته الحمير.

حدثني عبد الله بن صالح العجلي عن حماد بن عمرو قال: سمع عمر بن عبد العزيز باكيةً في جنازة أبيها وهي تقول: يا أبتاه، كان يقصر المجلس إذا أتاه. فقال: ما أحسن ما وصفت أباها.

هشام عن بقية قال: تزوج رجل يقال له سليمان بن عثمة امرأتين فقال بعض الشعراء:

ليهن ابن عثمان ما عنده ... فلست وإن حسدوا حاسد

مهاتان لونهما واحد ... يذيقانه ثغباً باردا

فبورك فيه وفي أهله ... وفي ماله ونما صاعدا

فشكاه إلى عمر فقال: ما أرى هجاء، ولكنه شهره، فأدبه.

وكتب عمر إلى عبد الحميد بن عبد الرحمن: إعلم أن كل ذي عادة مقتض ما سننت له.

حدثني محمد بن سعد عن محمد بن عمر الواقدي عن مالك بن أنس قال: كان عمر بن عبد العزيز إذا

أراد أن يقوم قال: إذا شئتم. وكان مالك يفعل ذلك، وكان قبيصة إذا أراد أن يقوم يتناول نعله.
حدثني داود بن عبد الحميد قال: كان مشايخنا يحدثون أن عمر بن عبد العزيز كان صديقاً لعدي بن أرطاة قبل الخلافة، وكان يقول: ما رأيت أشبه بمن مضى في مذهبه وعفافه من عدي. فلما استخلف ولاه البصرة.
حدَّثنا عفان، ثنا أبو هلال قال: كان عدي يخطب فإذا خطب جلس في الخطبة الأولى، ثم يقوم فيخطب الثانية حتى إذا فرغ مد يده يدعو.
قالوا: وحفر عدي نهره، وخرج الناس ينظرون إليه، والحسن يمشي خلف حمار عدي، فالتفت عدي فرآه فنزل عن الحمار، وحمل عليه الحسن، وجعل يمشي بحيث كان الحسن يمشي من الحمار، والحسن راكب.
قالوا: وكتب عمر إلى عدي: أن يجري على من كبرت سنه، وضعفت قوته، وذهبت مكاسبه من أهل الذمة، من بيت مال المسلمين، وقال إن عمر بن الخطاب رأى شيخاً من أهل الذمة يقوم على أبواب الناس يسألهم فقال: ما أنصفناك. أخذنا منك الخراج شاباً. فلما كبرت سنك خذلناك. فأجرى عليه قوته من بيت المال المدائني قال: عاد عدي وكيع بن أبي أسود فقال له عدي: كيف تجدك؟ قال: وثاباً على العتب، أكالاً للعصب، قال: فما بلغ عدي منزله حتى نعي له.
قال أبو عبيدة: وبعث عدي إليه رجلاً يعوده فقال له: الأمير يقرئك السلام. فقال: أنا واله الأمير ولكني مظلوم، ثم قال: يقول لك كيف تجدك؟ قال: أجدني قفازاً على العتب فلم يبلغ الرسول حتى سمع الواعية عليه.
وروى عن أبي شور القليبي قال: أشرف عدي على وكيع من دار الإمارة وهو مريض في داره فقال وكيع لبنيه: ارفعوا صدري. فقال له عدي: أبا مطرف كيف تجدك؟ قال: صالحاً من رجل يجد أرواح طعامك ولا يأتيه منه شيء. قال: وكيف تراك لو رأيت منه شيئاً؟ قال: أكون قفازاً على العتب غشوماً. فقال عدي: أطيلوا الحائط بيني وبينه فلا أراه ولا يراني.
وأتى وكيع الحسن فقام فناوله نعليه فقيل له: أتقوم إلى وكيع مع جفائه؟ فقال: بلغني أن في جسده كذا وكذا طعنه وضربة في سبيل الله، وأنا أكرمه لذلك.

وقالوا: أرسل عدي إلى محمد بن سيرين رجلاً وقال له: قل له عن نفسك إني رأيت أني حلبت ناقة فامتككتها حتى حلبتها دماً. فقال ابن سيرين: لم تر أنت هذه الرؤيا، وإنما رآها عدي فارجع إليه فقل له: اتق الله فإنك قد جاوزت في حلبك وجبايتك ما أحل الله لك إلى ما حرمه عليك.
قالوا: ولما قدم عدي البصرة قال لإياس بن معاوية بن قرة المزني: أنت من أهل البلد وأعلم به مني فدلني

على قوم من القراء استعملهم فقال: إن القراء ضربان: ضرب يقرأون لله فلا حاجة لهم في عملك، وضرب يقرأون للدنيا، فإذا استعملتهم أمكنتهم مما أرادوا.

قال: فأشر علي بقوم من أهل البيوتات، فإنهم عسى أن يستحيوا لأحسابهم ويرعوا على أنفسهم ويتصنعوا لطول الولاية.

ثم شاور مالك بن دينار فقال له: أما أهل الدين فقد استغنوا عنك بما عندهم، وأما أهل الدنيا فمنهم هرب. قال: فمن بقي؟ قال: عليك بأهل الشرف فإنهم يحامون عن قديمهم، ويربون حديثهم.

قال أبو داود الطيالسي: حدثني من سمع عدياً يخطب على منبر البصرة وهو يقول: ما أنا وهذه الشهادات، ما أنا وهذه الخصومات. فتحت لكم بابي وأجلست فيكم إياساً ولا أراكم تزدادون إلا كثرة، لقد كنت أرى القاضي من قضاة المسلمين وما عنده أحد، ولقد أتيت شريحاً فقلت: يا أبا أمية أين أنت؟ قال: بينك وبين الحائط. قلت: إني تزوجت امرأة، قال: بالرفاء والبنين، قلت: ولدت غلاماً، قال: ليهنك الفارس. قلت: وشرطت لها دارها ثم بدا لي أن أحولها إلى الشام. قال: أنت أحق بأهلك. قلت: فاقض. قال: قد فعلت.

حدثني محمد بن سعد الواقدي عن ابن أبي سبرة عن صالح بن حسان قال: سمعت عمر بن عبد العزيز يقول في خلافته وذكر أبا بكر بن عبد الرحمن فقال: إن هناك شرفاً وفضلاً ونسكاً واحتمالاً.

الواقدي قال: كان من سراة الوالي أبو كثير مولى أسلم، هو من سبي فارس، وكان يقال له زاد الركب. فبعث معه عبد العزيز بن مروان بألف دينار إلى عمر بن عبد العزيز فنسيها في دار عبد العزيز ومضى فأتى عبد العزيز بالألف، فلما قدم أبو كثر المدينة دفع إلى عمر ألف دينار من ماله، واكتتب منه البراءة، فلما قدم مصر أتى به عبد العزيز وكان تاجراً يتجر إلى مصر فقال له: ما فعلت الألف دينار؟ قال: دفعتها إلى عمر وأحضر البراءة، فقال: كيف دفعتها وهي عندنا؟ قال: نسيتها و لم أدر أين هي فكرهت أن أسر عدواً فأشتمه، أو أكب صديقاً فأغمه، وخفت أن لا أصدق، وعلي فضل من الله فاحتملتها. فقال عبد العزيز: ألك حاجة؟ قال: نعم، توضع عني العشور إذا دخلت مصر بتجارتي. فقال: نعم. ووضعها عنه، وكان عبد العزيز يقول: من آمن من ابن أبي كثر؟ ودفع إليه الألف دينار.

حدثني ابن القتات عن شيخ من الشاميين قال: سمعت عمر بن عبد العزيز يقول: قيدوا العلم بالكتاب وقيدوا النعم بالشكر.

حدثني داود بن عبد الحميد حدثني أبي عن جدي أن عمر بن عبد العزيز أتي بسكران فقال: ألقوا رداءه في أردية فألقي. وقال: انظروا فإن لم يعرفه و لم يخلصه من الأردية فحدوه.

الخوارج في أيام عمر بن عبد العزيز

رضي الله عنه

خبر بسطام بن مري اليشكري

ولقبه شوذب

قال أبو الحسن المدائني: خرج بسطام بن مري أيام عمر بن عبد العزيز بن مروان، فقال لأصحابه: يا أخلائي إنكم قد باينتم قومكم في ولاية هذا الرجل، وهو يأمر بالعدل ويظهره ويعمل به فاعذورا فيما بينكم وبينه، وادعوه إلى أمركم، فكتبوا إليه فعظموه طاعة الله وأمره، وعابوا الظلم وأهله، واكفروا أهل الكبائر، وبرئوا منهم، ودعوه إلى رأيهم وإلى البراءة من علي وعثمان ورد أحكام عثمان، وما حكم به علي بعد الحكمين، واستأذنوه في أن يوجهوا من يناظره ويحاجه على أن يؤمنه، فكتب عمر إليهم: إلى العصابة الذين خرجوا بزعمهم التماس الحق، أما بعد ذلك: فإن الله لم يلبس على العباد أمورهم، و لم يتركهم سدى، و لم يجعلهم في عمياء، فبعث إليهم النذر وأنزل عليهم الكتب، فبعث محمداً صلى الله عليه وسلم رحمة للعالمين بشيراً منذراً ونذيراً، وأنزل عليه كتاباً حفيظاً "لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد" فيه علم ما يأتون وما يتقون، فأوصيكم بتقوى الله، وشكر نعمته، والاعتصام بحبله، والتوكل عليه، فإنه "من يتق الله يجعل له مخرجاً" ، وقد بلغني كتابكم، وما دعوتم إليه، "ومن أظلم ممن افترى على الله الكذب وهو يدعي إلى الإسلام" وقد خاب من دعي إلى الحق و لم يجب. وذكرتم ما اعتقد الله في عباده، وأمرهم به من الطاعة "فلله الحجة البالغة". وسألتموني أن أحكم بالعدل، وأقوم بالقسط، وفي الحق مقنع وفوز ونجاة لمن عمل به، "ولكل نبأ مستقر" فلكم التي سألتهم وبالله التوفيق.

وسألتموني رد ما حكم به من كان في صدر هذه الأمة من الأئمة إلا ما كان من حكم أبي بكر وعمر وعلي قبل الحكمين، وهم ومن كان بعدهم من الأئمة كانوا أقرب عهداً برسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه، والله يشهد على أحكامهم ويعلمها.

وسألتموني الإذن لكم في قدوم طائفة منكم عليّ، فمن أحب ذلك منكم فليقدم آمناً لا أحجبه ولا أبسط إليه أبداً، وإني أدعوكم إلى الله ورسوله، وإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، والإنابة إلى أمر الله، وأذكركم الله أن تخالفوا كتاب الله وسنة نبيه، فقد بين لكم الهدى وأراكم البينات، فاقبلوا أمر الله، وإياكم والبدع والغلو في الدين، والسؤال عما قد كفيتموه، فقد سبق فيه من الله ما قد سمعتم من قوله: "يا أيها الناس

آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم" ف"هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة" فإن تقبلوا يقبل الله منكم، وإن تعرضوا فإن الله أمامكم ومن ورائكم، فمن ذا يعجز الله و" شر الدواب عند الله الصم البكم" وقلتم لا حكم إلا لله العلي القدير، "ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون".

وبعث بكتابه إليهم مع عون بن عبد الله بن عتبة بن مسعود، ومحمد بن الزبير الحنظلي وقال لهما: إن هؤلاء القوم قد خرجوا علينا بأسيافهم، فإذا قدمتم عليهم فادعوهم إلى الحق والجماعة فإن دعونا من كتاب الله إلى ما لم أعمل به فاضمنا عني العمل به، وإن دعونا من كتاب الله إلى ما قد علمناه وجهلوه فحاجوهم به حتى يرجعوا إليه.

قال: فقدما عليهم، فقال عون: أيتها العصابة إنا قد أقمنا من كتاب الله ما قد حفظنا وعملنا فهل عندكم من علم فتخرجوه لنا، أم أمنتم على أنفسكم ما خفتم على قومكم، أم رجوتم شيئاً لأنفسكم يئستم منه لقومكم، أم تقولون ذنوب قومكم شرك وذنوبكم ذنوب؟ قالوا: نترك الذنوب كفراً لقول الله: "ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون" قال: أخطأتم التأويل، من لم يحكم بما أنزل الله جاحداً فهو كافر فأما حاكم وقع حداً قد رآه عن صاحبه وهو مقر بالآية فلا يكون كافراً لأن الله تبارك وتعالى قال: "وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن وألغوا فيه" وقال الله: "زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا" وهؤلاء يؤمنون بالبعث، وأمير المؤمنين مجتهد لنفسه في الحكم بالعدل، وإحياء ما قد أميت منه، فاتقوا الله وانظروا لأنفسكم.

قالوا: فإن عمال صاحبك يظلمون. قال: فتولوا أعماله. قالوا: لا نعمل له. قال: فكونوا أمناء على أعماله، فأي عامل منهم عمل بغير الحق فاعزلوه. قالوا: ولا هذا، وقرأوا كتاب عمر فقالوا: نوجه رجلين يكلمانه فإن أجابنا فذاك، وإن أبى كان الله من ورائه، فأرسلوا مولى لبني شيبان يقال له عاصم، ورجلا من بني يشكر من أنفسهم، فقدموا جميعاً على عمر وهو بخناصرة، فصعد إليه عون، ومحمد بن الزبير، وهو في غرفة، وعنده ابنه عبد الملك بن عمر، وكاتبه مزاحم فأخبراه بمكان الرجلين فقال: فتشوهما لعل معهما حديداً، ثم أدخلوهما ففعلا، فلما دخلا قالا: السلام عليكم. وجلسا فقال عمر: ما أخرجكم هذا المخرج، وما الذي نقمتم؟ فقال عاصم وكان حبشياً: ما نقمنا سيرتك لتحري العدل والإحسان فأخبرنا عن قيامك بهذا الأمر أعن رضى من المسلمين كان أم ابتززتهم إمرتهم؟ قال: ما سألتهم الولاية عليهم ولا غلبتهم على مشيئتهم، وعهد إلي رجل عهداً لم أسأله الله قط لا في سر ولا في علانية، فقمت به و لم ينكره عليّ أحد، و لم يكرهه غيركم، وأنتم ترون الرضا بكل من عدل وأنصف من كان من الناس فأنزلوني ذلك الرجل، فإن خالفت الحق، وزغت عنه فلا طاعة لي عليكم.

قالا: بيننا وبينك أمر واحد: قال: وما هو؟ قالوا: رأيناك خالفت أعمال أهل بيتك وسميتها مظالم وسلكت غير طريقهم فإن كنت على هدى وهم على ضلالة فالعنهم وابرأ منهم، فقال عمر: قد علمت أنكم لم تخرجوا طلباً للدنيا ولكنكم أردتم الآخرة فأخطأتم طريقها، إن الله لم يبعث رسوله صلى الله عليه وسلم لعاناً، وقال إبراهيم: "فمن اتبعني فإنه مني ومن عصاني فإنك غفور رحيم" وقال الله: "أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده" وقد سميتم أعمالهم ظلماً وكفى بذلك لهم ذماً ونقصاً، فابلوا الله حسناً فيما آتاكم ودعوا ما فاتكم، فليس لعن أهل الذنوب فريضة لا بد منها، فإن قلتم إنها فريضة فاخبرني أيها المتكلم متى لعنت فرعون؟ قال: ما أذكر متى لعنته، قال: أفيسعك ألا تلعن فرعون وهو أخبث الخلق وشرهم، ولا يسعني إلا لعن أهل بيتي وهم مصلون؟ قال: أو ما هم كفار بظلمهم؟ قال: لا لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا الناس فكان من أقر بالإيمان وشرائعه قبل منه، فإن أحدث حدثاً أقيم عليه الحد فقال الخارجي: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا الناس إلى التوحيد بالله والإقرار بما نزل من عنده والعمل بما سن من سنته، ولو قالوا نؤمن بما جاء من عند الله ونخالف سنتك ما قبل ذلك منهم. فقال عمر: فليس أحد يقول لا أعمل بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولكن القوم أسرفوا عل أنفسهم على علم منهم بأن الذي أتوا محرم عليهم، ولكن غلب عليهم الشقاء.

قال: فابرأ مما خالف عمالك ورد أحكامهم. قال: أخبرني عن أبي بكر وعمر أليسا من أسلافكم؟ قال: بلى. فهل تعلمون أن أبا بكر حين قبض النبي صلى الله عليه وسلم، وارتدت العرب قاتلهم وسبى الذراري وأخذ الأموال؟ قالا: نعم. قال: أفتعلمون أن عمر رد السبايا بعده إلى عشائرهم بفدية فدوهم بها؟. قالا: نعم. قال: فهل برئ عمر من أبي بكر؟ قالا: لا. قال: أفتبرؤن أنتم من واحد منهما؟ قالا: لا. قال: فأخبروني عن أهل النهر وهم من أسلافكم، هل تعلمون أن أهل الكوفة خرجوا فلم يسفكوا دماً ولم يأخذوا مالاً، وأن من خرج إليهم من أهل البصرة اعترضوه، وقتلوا عبد الله بن خباب وجاريته؟ قالا: نعم. قال: فهل برئ من لم يقتل ممن قتل واستعرض؟ قالا: لا. قال أفتبرؤن أنتم من إحدى الطائفتين؟ قالا: لا. قال: أفوسعكم أن توليتم أبا بكر وعمر وأهل البصرة وأهل الكوفة وقد علمتم اختلاف أعمالهم في الفروج والأعمال، ولا يسعني إلا البراءة من أهل بيتي والدين واحد، فاتقوا الله فإنكم جهال تقبلون من الناس ما رد عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتردون عليهم ما قبل، ويأمن عندكم من خاف عنده، ويخاف عندكم من أمن عنده، ويخاف عندكم من شهد أن لا إليه إلا الله وإن محمداً عبده ورسوله، وكان من فعل ذلك عند رسول الله صلى الله عليه وسلم آمناً، وحقن دمه، وأحرز ماله وجبت حرمتهن وأنتم تقتلونه ولا تقتلون سائر أهل الأديان فتحرمون دماءهم ويأمنون عندكم.

قال اليشكري: أرأيت رجلاً ولي قوماً وأموالهم فعدل فيها، ثم صيرها بعده إلى رجل غير مأمون، أتراه أدى الحق الذي يلزمه، أو تراه قد سلم؟ قال: لا. قال: أفتسلم هذا ليزيد من بعدك وأنت تعرق أنه لا يقوم فيه بالحق؟ قال: إنما ولاه غيري والمسلمين أولى بما يكون منهم فيه بعدي. قال: أفترى ما صنع من ولاه حقاً؟ فبكى عمر، ثم خرجا فقال مولى بني شيبان: لقد رأيت رجلاً يتحرى الخير، وما سمعت حجة أبين ولا مأخذ أقرب إلى قوله فارجع بنا إليه، فرجعا فقال عاصم الحبشي: أما أنا فأشهد أنك على الحق. فقال عمر لصاحبه اليشكري: ما تقول أنت؟ قال: ما أحسن ما قلت وما وصفت ولكني لا أفتات على المسلمين بأمر حتى أعرض عليهم ما قلت وأعلم ما حجتهم.

فمضى الرجلان وسرح عمر معهما رجلاً يعلم خبر القوم فأخبرهم اليشكري بما جرى بينه وبين عمر، فأقاموا وقالوا: كفوا عنه ما تركَكم. فقال لهم رسول عمر: فهو يكف عنكم ما لم تفسدوا، فرجع إلى عمر، ونزل بسطام وأصحابه حزة من الموصل، وأقام عاصم الحبشي عند عمر فأمر له بعطاء، فمات بعد خمسة عشر يوماً. وكان عمر يقول: أهلكني أمر يزيد وخصموني فيه فاستغفر الله.

وكتب عمر إلى عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب بما كان بينه وبين الخوارج من القول والكتاب، ويأمره أن يكف عنهم ما كفوا وأن يجاهدهم إن قاتلوه، فبعث عبد الحميد إليهم: محمد بن جرير بن عبد الله البجلي في ألفين، وبعث عمر: هلال بن أحوز في ألف، وكان بسطام في ثلاثمائة ويقال في ستمائة، فكان ابن جرير وهلال بإزائهم لم يقاتلوهم حتى مات عمر، فقال رجل من الخوارج لهلال:

خرجت إلى الشراة وأنت حرب	لقد غررت يا بن أبي هلال
وإنا معشر قتلوا علياً	وعباد بن أخضر في الضلال
وإن بصيرتي لما تبدل	وإن الدين دين أبي بلال

وانصرف هلال وأصحابه بعد موت عمر وولاية يزيد بن عبد الملك، وتوجه بسطام إلى الموصل فقتل عاملها، فقاتله محمد بن جرير، فهزمه بسطام، وهرب أصحابه، وكان بمحمد طعنة و لم تكن له ولمن معه ناهية دون الكوفة.

وتشاغلوا بخروج يزيد بن المهلب على بسطام، فأرسل يزيد بن المهلب حبيب بن خدرة أو غيره ممن هو على رأيه يدعو إلى نصره، فضرب بسطام رسوله عشرين سوطاً، وقال: ولا مكانك من الدين لقتلتك. فلما قتل يزيد بن المهلب، وجه مسلمة، أو عامل الجزيرة، إلى بسطام وهو بالموصل السحاح بن وداع الأزدي فقتل وانهزم أصحابه، ومضى بسطام يريد الجزيرة، فانتدب له تميم بن الحباب أخو عمير بن الحباب السلمي وقال: إن قتلنا بسطاماً أغرنا على ربيعة، فعقد له عامل الجزيرة على ثلاثة آلاف فواقع

بسطاماً، فقتل تميم ومالك بن عمير وهو ابن أخيه، وكانت الحرب بينهما بتامر وقتل من الخوارج عدة فقال الشاعر:

لقد أسلمت قيس تميماً ومالكاً كم أسلم السحاح قبلك تائبه

تركنا تميم بن الحباب ملحباً تبكي عليه عرسه وقرائبه

وأقبل من حران يحمل رايةً يغالب أمر الله والله غالبه

في قصيدة.

وقال آخر:

تركنا تميم بن الحباب مجدلاً بغيضة تامراً قليلاً عوائده

ينادي سليماً وهي صم سموعها وقد أسلمته إذ دعاها حواشده

وأتى بسطام جوخى فوجه إليه مسلمة بن عبد الملك من الكوفة سعيد بن عمرو الحرشي وقال بعضهم: وجه يزيد بن عبد الملك نفسه في أربعة آلاف فلقيه بسطام بجوخى فانهزم سعيد ثم كر فقتل بسطام وأصحابه وانهزم من بقي وقتل أكثر أصحاب سعيد، وقتل مع بسطام الريان بن عبد الله اليشكري، فقال حسان وهو أحد الخوارج:

يا عين أذري دموعاً منك تسجاما وابكي صحابة بسطام وبسطاما

في أبيات.

وقد قال قوم: إن عمر وجه مسلمة إلى الحرورية فظفر بهم، وكان عبد الحميد وجه إليهم من واقعهم تقرباً إلى يزيد، فهزمه الخوارج، قالوا: ولما مات سليمان بدابق، وبلغ عبد العزيز بن الوليد موته، عقد ألوية وصار إلى طبريه وهو لا يعلم من ولي بعده، ودعا إلى نفسه، فلما بلغه أن عمر الوالي وصح ذلك عنده حل ألويته، وأتاه فبايعه، فقال له عمر: أردت أن تشق عصا المسلمين وتفتنهم؟ فقال: يا أمير المؤمنين الحمد لله الذي استنقذني بك، والله لو يليها غيرك ما ملكها علي.

فولد عمر بن عبد العزيز

رضي الله عنه.

عبد الله الأكبر، وأم عمار، أمهما لميس بنت علي من بني الحارث بن كعب. وإبراهيم، ومروان، أمهما أم شعيب بن زبان الكلبية: وإسحاق، ويعقوب، وموسى، أمهم فاطمة بنت عبد الملك بن مروان. وعبد

الملك الناسك، وعبد الله الأصغر، وعاصم، والوليد، وعبد العزيز، وزبان، ومحمد الأصغر، لأمهات أولاد شتى.

فأما عبد الله الأكبر، فكان شجاعاً، جواداً ولي العراقين ليزيد بن الوليد بن عبد الملك خلافته كلها، وهي ستة أشهر، فلما مات يزيد أقام والياً على العراق فأراد أهل العراق أن يبايعوا له بالخلافة لمكان أبيه وقالوا: هذا ابن الرجل الصالح عمر بن عبد العزيز، فقال في ذلك يحيى بن منصور الذهلي

خلافتكم حلوة عذبة ... وتدعى على اسمك أحلى لها

فدونكها يا بن عبد العزي ... ز سربلك الله سربالها

وقال بعض الشعراء:

لعبد الله عبد الله تجري ... صحائفنا أمير المؤمنينا

لمن زادته إمرته اتضاعا ... فذلك سنة المتخشعينا

وهو احتفر نهر ابن عمر، ونسب إليه، وساوم عبد الله بن عمر رجلاً بشيء فقال له الرجل: ما أشد مكابتك. فوجم عبد الله ثم قال: ويحك إياك أن تغضب قريشاً فإن القرشي إذا غضب لم يكن له بقية.

وخرج في أيام ولا يته عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب وقد كتبنا خبره.

حدثني جماعة من أهل العلم منهم عباس بن هشام الكلبي عن أبيه، وقد ذكر ذلك المدائني، قالوا: لما ولي يزيد الناقص، بعد قتل الوليد بن يزيد بن عبد الملك، وجه منصور بن جمهور إلى العراق في خمسة آلاف ويقال إنه لم يوله العراق، ولكنه أمره بحمل يوسف بن عمر، فوافى منصور العراق، وقد هرب يوسف منه إلى منزل له بالبلقاء من عمل دمشق، وأقام منصور بالعراق أشهراً ثم ولي يزيد بن الوليد بن عبد الملك، وهو الناقص، عبد الله بن عمر بن عبد العزيز وقال له: أن أهل العراق يحبونك فأحسن السيرة فيهم، فلما قدمها قال لمنصور بن جمهور: أنت أحد أخوالي، والخال والد فلا يتلعبن بك فتيان قريش وأقم معي.

وقال الهيثم بن علي: دخل منصور بن جمهور الكوفة، لأيام خلت من رجب، فأخذ بيوت الأموال، وأخرج العطاء والأرزاق، وأطلق من في السجون التي ليوسف من العمال وأهل الخراج، وأقام بالكوفة نحواً من شهرين وخليفته عبيد الله بن العباس بن يزيد الكندي. واستعمل على البصرة جرير بن يزيد بن جرير بن عبد الله البجلي.

فلما قوي أمر يزيد بن الوليد وجاءته البيعة من الآفاق، ولى عبد الله بن عمر بن عبد العزيز، فقدم على منصور فسمع له منصور وأطاع، وكذلك جميع قواد الشام، وقد كان خاف ألا يسلم له منصور.

قالوا: وأجرى عبد الله بن عمر على منصور في الشهر مع نزلة ثمانية آلاف درهم، وكان يقاتل معه، وولى

عبد الله: المسيح بن الحواري بن زياد بن عمرو العتكي أزدشير خرة من كور فارس،وسليمان بن حبيب بن المهلب الأهواز، وأقر نصر بن سيار الليثي على خراسان، وأعطى الناس أعطياتهم وأرزاقهم، فنازعه قواد أهل الشام وقالوا: تقسم على هؤلاء فيئنا وهم عدونا؟ فقال عبد الله لأهل العراق: إني قد أرد فيئكم فيكم، وعلمت أنكم أحق فنازعني هؤلاء وأنكروا علي، فخرج أهل الكوفة إلى الجبانة وتجمعوا: فأرسل إليهم قواد أهل الشام يعتذرون ويحلفون أنهم لم يقولوا شيئاً مما بلغهم.

وثار غوغاء الناس وسرعانهم من الفريقين فتناوشوا، وأصيب منهم رهط لم يعرفوا، وعبد الله بن عمر حينئذ بالحيرة، وعبيد الله بن العباس الكندي بالكوفة، وكان منصور استخلفه عليها فأراد أهل الكوفة إخراجه من القصر، فأرسل عبيد الله بن العباس إلى عمر بن الغضبان بن القبعثري فأتاه فنحى الناس عنه، وزجر السفهاء، حتى تحاجزوا من بعضهم بعضاً، فبلغ ذلك ابن عمر فأرسل إلى الغضبان وكساه وحمله وأعظم جائزته، وولاه شرطه وخراج السواد، وأمر ن يفرض لقومه من بني شيبان، ففرض لهم في ستين وفي سبعين.

وولى عبد الله بن عمر صلاة الكوفة: عاصم بن عمر أخاه، وقدم عبد الله والحسن ويزيد بنو معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب على عبد الله بن عمر، فنزلوا في النخع في دار مولاهم الوليد بن سعيد، فأكرمهم ابن عمر وأجازهم وأجرى عليهم في كل يوم ثلاثمائة درهم، فكانوا كذلك حتى هلك يزيد بن الوليد، وبايع الناس أخاه إبراهيم بن الوليد، ومن بعده عبد العزيز بن الحجاج بن عبد الملك فقدمت بيعتهما على ابن عمر وهو بالكوفة، فبايع الناس لهما وزادهما في العطاء مائة مائة، وكتب بيعتهما إلى الآفاق فجاءته البيعة، فبينا هو كذلك إذ أتاه الخبر بأن مروان بن محمد قد سار في أهل الجزيرة إلى إبراهيم، وأنه امتنع عن البيعة له، فاحبس عبد الله بن عمر عبد الله بن معاوية عندهن وزاج في البر، وفي ما كان يجري عليه، وأعده ليبايع له إن ظفر مروان بإبراهيم، ويقاتل مروان معه.

فماج الناس في أمرهم وقرب مروان من الشام، وخرج إليه إبراهيم فقاتله فهزمه مروان وظفر بعساكره، ومضى إبراهيم هارباً، وثبت عبد العزيز بن الحجاج، فقاتل حتى قتل.

وأقبل إسماعيل بن عبد الله القسري أخو خالد هارباً حتى قدم الكوفة، وكان في عسكر إبراهيم فقتل معه، فافتعل إسماعيل كتاباً على لسان إبراهيم بولاية الكوفة، وأرسل إلى اليمانية فأعلمهم أن إبراهيم ولاه العراق، ووعدهم الإحسان والتفضيل، وقال: إن لا آمن أن يتعرض علي ابن عمر. فتقبلوا ذلك منه. وبلغ الخبر ابن عمر فباكره مع صلاة الغداة فقاتله ومع عمر بن الغضبان، فلما رأى إسماعيل ذلك، ولا عهد معه، وأن صاحبه الذي افتعل العهد على لسانه وقد هزم هرب، وخاف أن يظهر أمره فيفتضح

ويقتل، قال لأصحابه: إني كاره لسفك الدماء، و لم أظن أن الأمر يبلغ هذا، فكفوا أيديكم. فتفرقوا عنه، ثم قال لأهل بيته، واشتهر الخبر، واشرأبت الفتنة، ووقعت العصبية بين الناس.

وكان سبب الفتنة أن عبد الله بن عمر أعطى مضر وربيعة عطايا عظاماً، و لم يعط جعفر بن نافع بن القعقاع بن شور الذهلي، وعثمان بن الخيبري أحد بني تيم اللات بن ثعلبه شيئاً، و لم يسوهما بنظرائهما، فدخلا عليه فكلماه كلاماً غليظاً، فغضب ابن عمر وأمر بهما أن ينحيا فدفعهما عبد الملك الطائي، وكان يقوم على رأسه فخرجا مغضبين.

وكان ثمامة بن حوشب بن يزيد بن رويم الشيباني حاضراً، فغضب لصاحبيه، فخرجوا جميعاً إلى الكوفة وابن عمر حينئذ بالحيرة، فلما دخلوا الكوفة نادوا: يا ربيعة، فاجتمعت إليهم ربيعة واجتمعوا وائتمروا وبلغ الخبر ابن عمر، فبعث إليهم أخاه عاصماً، فأتهم وهم بدير هند، فاجتمعوا وحشدوا، فألقى نفسه بينهم وقال: هذه يدي لكم فاحكموا، فاستحيوا منه وتشكروا له، وأقبلوا على صاحبيهم فسكنوهما فسكنا وكفا.

فلما أمسى ابن عمر بعث من تحت ليلته إلى عمر بن الغضبان بمائة ألف فقسمها في قومه، وأرسل إلى جعفر بن القعقاع بعشرة آلاف درهم، وإلى عثمان بن الخيبري بعشرين ألفاً، فلما رأت الشيعة ضعف ابن عمر أغمزوا فيه واجترأوا عليه وطمعوا فيه، ودعوا إلى عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر، وكان الذي ولي ذلك هلال بن أبي الورد مولى بني عجل، فثاروا في غوغاء الناس حتى أتوا المسجد فاجتمعوا فيه، وهلال القائم بالأمر فبايعه ناس من الشيعة لعبد الله بن معاوية، ثم مضوا من فورهم إلى عبد الله بن معاوية فأخرجوه من دار الوليد بن سعيد حتى أدخلوه القصر، وحالوا بين عاصم بن عمر وبين القصر، فلحق بأخيه عبد الله بالحيرة.

وجاء ابن معاوية الكوفيون فبايعوه وفيهم عمر بن الغضبان بن القبعثري ومنصور بن جمهور، وإسماعيل بن عبد الله القسري، ومن كان من أهل الشام له بالكوفة أصل وأهل.

وأقام ابن معاوية بالكوفة أياماً، فبايعه الناس، وأتته الشيعة من المدائن، وفم النيل، واجتمع له الناس، فخرج يزيد بن عبد الله بن عمر بالحيرة.

وبرز له ابن عمر بمن كان معه من أهل الشام، فخرج رجل من أهل الشام يسأل البراز فبرز له القاسم بن عبد الغفار العجلي، فقال له الشامي: لقد دعوت حين دعوت وما أظن أنه يخرج إلي إلا رجل مكره، إني والله ما أريد قتالك ولكني أحببت أن ألقي إليك ما انتهى إلي. أخبرك أنه ليس معكم رجل من أهل اليمن: منصور، ولا إسماعيل، ولا غيرهما إلا وقد كاتب ابن عمر، وقد كاتبته مضر وندموا على ما كان

منهم، و لم أر لكم معشر ربيعة كتاباً ولا رسولاً، وليسوا مواقعيكم يومكم حتى تصبحوا فيواقعوكم، فإن استطعتم ألا تكون بكم الحرة دون اليمن ومضر فافعلوا، فإني رجل من قيس، وسنكون غدا بإزائكم فإن أردتم الكتاب إلى صاحبنا أبلغته إياه، وإن أردتم الوفاء لمن خرجتم معه فقد أعلمتكم حال الناس، فدعا القاسم بن عبد الغفار رجالاً من قومه فأعلمهم ما قال له القيسي وأن من مع ابن عمر من مضر وربيعة سيقفوا بإزاء ميسرته وفيها ربيعة، فقال ابن معاوية: إن هذه علامة ستظهر لنا إذا أصبحنا فإن أحب عمر بن الغضبان فليأتني الليلة، وإن منعه شغل بما فيه فهو في عذر، وإني لأظن القيسي قد كذب. وأرسل إليه بذلك فأتى الرسول عمر بن الغضبان فرده إليه بكتاب يقول فيه: إن رسولي هذا بمترلتي عنده فتأمره أن يتوثق من منصور وإسماعيل، فأبى ابن معاوية أن يفعل، وأصبح الناس غادين على القتال وقد جعل ابن معاوية أهل اليمن في الميمنة ومضر وربيعة في الميسرة، ونادى مناديه: من جاء برأس فله كذا، ومن جاء بأسير فله كذا، والمال عند عمر بن الغضبان.

والتقى فاقتتلوا، وحمل عمر بن الغضبان على ميمنة ابن عمر فانكشفوا، ومضى إسماعيل ومنصور من فورهما إلى الحيرة، وزحمت غوغاء الناس أهل اليمن فقتلوا منهم أكثر من ثلاثين رجلاً، وقتل الهاشمي وهو العباس بن عبيد الله بن عبد الله زوج بنت لملاءة، أصابه سهم. وقتل مكبر بن الحواري بن زياد في غيرهم، ثم انكشفوا وفيهم عبد الله بن معاوية حتى دخلوا القصر بالكوفة، وبقيت الميسرة من مضر وربيعة ومن بإزائهم من أهل الشام، وحمل أهل القلب من أهل الشام على الزيدية فانكشفوا حتى دخلوا الكوفة وبقيت المسيرة وهم نحو من خمسمائة.

قالوا: كانت عاتكة بنت الملاءة تزوجت أزواجاً منهم: العباس بن عبيد الله بن عبد الله – ببة – بن الحارث بن نوفل بن الحارث بن عبد المطلب، فقتل أيام عبد الله بن عمر بن عبد العزيز في العصبية بالعراق، قالوا: وهو أخو عبد الله بن معاوية بن معاوية لأمه أمهما بنت عون بن العباس بن ربيعة بن الحارث.

وأقبل عامر بن ضبارة: ونباتة بن حنظلة، وعطية بن عبد الرحمن التغلبي، والنضر بن سعيد بن عمر الحرشي، حتى وقفوا على ربيعة فقالوا لعمر بن الغضبان: أما نحن يا معشر ربيعة فما كنا نأمن عليكم ما صنع الناس بأهل اليمن، ونتخوف عليكم مثلها فانصرفوا، فقال عمر: ما كنت ببارح أبداً حتى أموت. فقال: إن هذا غير مغن عنك ولا عن أصحابك شيئاً. فأخذوا بعنان دابته حتى أدخلوا بيوت الكوفة.

قال أبو عبيدة: دخل ابن معاوية وأخاه القصر، فلما أمسوا قال لعمر بن الغضبان وأصحابه: يا معشر ربيعة: قد رأيتم ما صنع الناس بنا، فإن كنتم مقاتلين معنا قاتلنا معكم، وإن كنتم ترون الناس خاذلينا وإياكم، فخذوا لنا ولكم أماناً، فقد رضينا لأنفسنا ما رضيتم به لأنفسكم، فقال عمر: ما نحن بتاركيكم

من إحدى الخلتين. إما أن نقاتل معكم، أو نأخذ لكم أماناً. كما نأخذه لأنفسنا فطيبوا نفساً. فأقاموا في القصر والزيدية على أفواه السكك يغدوا عليهم أهل الشام ويروحون يقاتلونهم أياماً، ثم إن ربيعة أخذت لأنفسها وللزيدية ولعبد الله بن معاوية أماناً ألا يتبعوهم، وأن يذهبوا حيث شاؤوا.
وأرسل ابن عمر إلى عمر بن الغضبان يأمره بنزول القصر، وإخراج عبد الله بن معاوية، فأرسل إليه ابن الغضبان فرحله ومن معه من شيعته ومن تبعه من: أهل المدائن، وأهل السواد، وأهل الكوفة، فسارت بهم رسل ابن عمر حتى أخرجوهم من الجسر، ونزل ابن عمر القصر.

وكانت أم عبد الله بن معاوية ابنة عون العباس بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب، فقال الفضل بن عبد الرحمن بن العباس بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب:

لقد أنكرت أن تأتي بخير وأمك أخت يعقوب بن عون

قال أبو عبيدة: وكان وفاة يزيد بن الوليد بدمشق لإنسلاخ ذي الحجة سنة ست وعشرين ومائة، وهو ابن ست وأربعين سنة، فكانت ولايته ستة أشهر وليلتين، وبويع إبراهيم، وأمه أم ولد، بدمشق فلم يلبث إلا شهراً أو نحوه حتى أقبل مروان من الجزيرة، فدخل دمشق لثلاث خلون من صفر، فهرب إبراهيم وخلع، وبايع الناس مروان بن محمد، وأمه أم ولد، ويكنى أبا عبد الملك.
قال أبو عبيدة: فلما ظهر مروان، واستقام أمره، كتب إلى النضر بن سعيد بن عمرو الحرشي بولاية العراق، وإلى من معه من النزارية يأمرهم بالسمع والطاعة له، والنضر يومئذ مع عبد الله بن عمر مقيم بالحيرة، فقال من مع النضر من المضرية الشاميين: إنه لنا بمن مع ابن عمر من اليمانية إلا أن يأتيك مدد من قبل مروان يعلم به هؤلاء صحة أمرك وتولية مروان إياك، وغلبة مروان على الشام، واتساق الأمر له، فكتب النضر بذلك إلى مروان، وبلغ ذلك ابن عمر فبادر فأخرج النضر من الحيرة، فأتى الكوفة، فانطوت عليه ربيعة، وأنزلوه دار مصقلة بن هبيرة الشيباني، وتقوضت إليه مضر الشام فأتوه بالكوفة فأنزل عامر بن ضبارة دار المسور بن عطاء في بني شيبان، وأنزل أبان النميري إخوته دار حوشب بن يزيد بن رويم، وأنزل نباتة ومن معه دار عتبة بن النهاس العجلي، وفرق بقية أصحابه في دور بكر بن وائل.
ولما بلغ كتاب النضر مروان وجه إليه خالد بن الغزيل الكلابي، أحد بني خويلد بن نفيل، في ثلاثمائة فارس، وأبان بن معاوية النميري ثلاثمائة، وبلغ ابن عمر مسيرها فبادر إلى النضر ليقتله أو يخرجه من العراق قبل قدوم المدد، ووجه رجلاً من بني تميم إلى الغزيل وقد قرب من الكوفة فقال له: أنا رسول النضر بن سعيد إليك وهو يقول لك: إنا قد تواعدنا هذين اليومين لننظر في أمرنا، فأقم في مكانك وأجم

خيلك، فإذا مضى اليومان فأقبل فإن ابن عمر قد وعدنا أن يصير إلى طاعة أمير المؤمنين مروان.

وأراد ابن عمر أن يربثه ليخلو به فيقتله، أو يخرجه من الكوفة، فظن ابن الغزيل أن الخبر حق، فاستراح إلى المقام، فأقام، وأقبل ابن عمر إلى النضر فيمن معه من اليمانية النزارية، وأتاه النضر في النزارية من أهل العراق والشام، وكانوا قليلاً، فلم يقم لهم النضر، وأقبل منهزماً حتى دخل الكوفة، وبقي أخوه مسلمة بن سعيد، وأبو أمية بن المغيرة الثقفي يحمون الناس على أفواه السكك.

وحلف ابن عمر ليحرقن دور بكر بن وائل، وبلغ ابن الغزيل الخبر وهو بموضعه، فعلم أنه مكر به فأقبل مغذاً في سرعان خيله حتى دخل الكوفة، فحمل ابن عمر وأصحابه، وحمل مسلمة بن سعيد عليهم أيضاً فهزموهم حتى أدخلوهم الحيرة، ثم إن حنظلة ين نباتة، وعامر بن ضبارة، والريان بن سلمة اجتمعوا فقالوا: إنما نطلب هذا الأمر لأهله من بني مروان، وأي رجل منهم ظفر بالملك فغير خارج منهم، فعلام تقتلون أنفسكم؟ فانصرفوا إلى عساكرهم، وبعث ابن عمر في جوف الليل إلى ابن الغزيل مائة ألف، ووعده إن غلب عدات أرغب له فيها، فتثاقل عن نصرة الحرشي، وخرج أيوب بن حوشب بن يزيد في رهط من أصحابه في طلب الحرشي، وكان قد صار إلى دير الأعور، فرده من ليلته، وأصبح في متزله. ثم تغادوا للقتال وجعلوا يغدون ويروحون للقتال حتى بلغهم إقبال الضحاك بن قيس الخارجي في ثلاثة آلاف من الحرورية إلى العراق.

وقال الهيثم بن عدي: كتب مروان إلى النضر بن سعيد بولايته على العراق، فامتنع عليه ابن عمر، فصار الناس فرقتين: أهل اليمن، وخصائص من قريش مع ابن عمر، ومضر كلها من أهل العراق وأهل الشام مع النضر بن سعيد في طاعة مروان.

وتحول النضر: إلى دار مصقلة بن هبيرة الشيباني، وتحولت إليه المضرية كلها، وابن بشر بن عبد الملك بن بشر بن مروان، والحكم بن عبد الملك، وآل بشر بن مروان، فنهض إليهم ابن عمر يوم جمعة فهزمهم حتى دخلوا البيوت، ثم انصرف، فلما كانت ليلة السبت قدم ابن الغزيل من قبل مروان في أربعة آلاف من أهل الجزيرة وقنسرين، فدخلوا الكوفة ليلة السبت، ثم غدوا بغلس فأخذوا في أطراف الكوفة حتى انتهوا إلى الغريين.

وخرج ابن عمر في اليمانية إلى غربي الحيرة وكردس الكراديس، وكان منصور بن جمهور معه، وكان يومئذ على الميمنة، وأقبل الحرشي في القيسية حتى حمل على ابن عمر في اليمانية، فانكشفوا حتى بلغوا أدنى بيوت الحيرة، وانحدر منصور إلى غربي بيوت الحيرة، ثم أخذ على النجف حتى ظهر على الطريق الغربية من حيث تجري الخيل فصار من وراء القيسية، ثم حمل عليهم وهو في نحو من أربعمائة وهيأ له

الحرشي جلد أصحابه: ابن الغزيل ومن معه.

قال الهيثم: فأزالهم منصور قدر غلوة، ثم ثبتوا له في الخصاصات، ثم حمل عليهم منصور مرة أخرى فقتل منهم نحواً من سبعين فانكفأوا حتى لجأوا إلى مصلى خالد بن عبد الله، ثم حمل عليهم فأدخلهم البيوت، ثم غدوا يوم الأحد فسألهم الحرشي الموادعة إلى أجل سماه.

وأقبل الضحاك بن قيس الحروري، فلما بلغ ابن عمر والنضر بن عمرو الحرشي إقباله اجتمعت كلمة ابن عمرو والنضر على قتاله، ودخل ابن عمر قصر الكوفة، وتحولت اليمانية، فترلت في عشائرها بالكوفة، وذلك في رجب سنة سبع وعشرين ومائة، وأقبل الضحاك حتى نزل النخيلة، وخندق ابن عمر خندقاً في أطراف الكوفة، وسنكتب أخبار فيما بعد إن شاء الله.

وقال ابن الكلبي: لما ظهر مروان دعا عبد الله بن عمر إلى نفسه، وقال: أنا عين بن عين بن عين، أقتل ميم بن ميم بن ميم، فأظهر أهل العراق الرغبة إذا كان عمر بن عبد العزيز، وقالوا: هذا ابن الرجل الصالح، وهو أولى بالأمر من الجعدي، فقال في يحيى بن منصور الذهلي:

عليك بها يا بن عبد العزي ... ز سر بلك الله سربالها

وولى عبد الله بن عمر: عمرو بن سهيل عبد العزيز البصرة، وهو كيلجة.

ثم إن الضحاك بن قيس الشيباني الحروري أقبل من ناحية الموصل مما يلي شهرزور فيمن معه من الخوارج، فلما بلغ ابن عمر إقباله إليه وهو بالحيرة استعد له وتحول إلى قصر الكوفة، فترل الضحاك بإزائه فواقعه فهزمه الضحاك، وقتل ممن معه: عاصم بن عمر أخوه، قتله البرذون بن مورق الشيباني أو غيره وجعفر بن العباس الكندي أخو عبيد الله بن العباس، قتله عبد الملك بن علقمة العبدي. وكان جعفر على شرطة ابن عمر، وكانت المعركة بين الكوفة والحيرة، ومضى عبد الله بن عمر نحو واسط، وسار النضر بن سعيد الحرشي يريد مدينة واسط، فلم يدخلها لمنع عامل ابن إياه من دخولها ودفعه له عنها، وهو شبيب بن مالك الغساني، وكان شبيب لما بلغه قرب النضر من واسط أغلق أبواب المدينة وتحصن، وبدر ابن عمر فدخلها وتحصن بها، واتبعه الضحاك فحصره بها أشهراً حتى أظهر الجنوح إليه وصالحه على أربعة آلاف ألف درهم، وعلى أن يسير الضحاك إلى مروان، وسار مروان يريد العراق لقتال الضحاك، فلما بلغه وهو بقرب قرقسياء أن سليمان بن هشام بن عبد الملك قد خرج عليه انصرف إليه فلقيه بخساف أو قربها، فاستباح عسكره، وكان سليمان خليفة إبراهيم على عسكره، ثم أمنه مروان، ثم خرج أيضاً عليه، وانصرف مروان إلى الرقة وأتى حران وكان سليمان في موال لهشام، فلقي الضحاك فصار معه وصلى خلفه، فقال بعض الخوارج:

ألم تر أن الله أنزل نصره وصلت قريش خلف بكر بن وائل

ويقال إن ذلك قيل في ابن عمر، حين جنح إلى السلم. وبلغ مروان انتقاض أهل حمص عليه، فأتاها وأقام عليها حتى فتحها، وهدم حائطها، ثم إن الضحاك أتى الجزيرة فحاصر نصيبين فلم يظفر بها، فأتى حران ومنزل مروان بها فواقعه مروان ثلاثة أيام ثم قتل.

وولى مروان يزيد بن عمر بن هبيرة العراق فسار إلى واسط وعبد الله بن عمر بها وقد تهيأ للحصار، وانضم إليه قوم من الخوارج من قبل الضحاك، وعزم على قتال ابن هبيرة، ثم تفرقت الخوارج عنه، فتجمعت مضر ممن كان بواسط فردموا باب القصر على ابن عمر، وبعثوا العلاء بن مزروع إلى ابن هبيرة يخبرونه أنهم قد حصروه فأقبل على شيء وحصره ثم أعطاه الأمان على حكم مروان، وكتب إلى مروان بذلك فكتب إليه مروان اقتله ولا تناظره. فراجعه في أمره فكتب إليه أن احمله إلي فقال: أنا ابن عمر بن عبد العزيز وأرجو ألا يقدم علي مروان.

فحمله ابن هبيرة فحبسه مروان، ثم بعث إليه من اغتاله بشربة سقيها، ويقال ديس بطنه، ويقال غم حتى مات.

وقتل ابن عمر وكان لابن عمر ابن يقال له بشر كان في صحابة المهدي أمير المؤمنين.

وأما منصور بن جمهور الذي قيل له: منصور بن جمهور أمير غير مأمور، فإنه خلع مروان وأقام بالجبل يجبي خراجه، ومال إلى شيبان خليفة الضحاك وولي عهده.

ثم مضي إلى السند فغلب عليها حتى قدم عليه مغلس العبدي والياً على السند من قبل أبي مسلم فحاربه حتى وهزم جنده، فلما بلغ أبا مسلم قتل عامله عقد لموسى بن كعب التميمي على السند فقدمها وواقع منصوراً فهزمه وجيشه وقتل أخاه منظور بن جمهور، وخرج منصور مفلولاً هارباً حتى ورد الهل فمات عطشاً.

وحدثني عباس بن هشام الكلبي عن أبيه عن جده قال: قتل مع ابن عمر: عاصم أخوه فدفنه إلى جانب الأشعث، قال: وقتل جعفر بن العباس بن يزيد الكندي مع ابن عمر حين قاتل الضحاك والخوارج بين الكوفة والحيرة، وكان عبيد الله بن العباس بن يزيد يقاتل مع أخيه، ثم جنح إلى الخوارج. فقال أبو عطاء السندي.

فقل لعبيد الله لو كان جعفر هو الحي لم يجنح وأنت قتيل

جنحت وقد ردوا أخاك وأكفروا أباك فماذا بعد ذاك تقول

فقال: أقول أعضك الله ببظر أمك.
وولي عبيد الله لأبي العباس أمير المؤمنين قنسرين، وللمنصور أرمينية. وبها مات.
وقال امرأة من الصفرية:

نحن قتلنا عاصماً وجعفرا والفارس الضبي حين أصحرا
ونحن جبنا الخندق المقعرا

ومن ولد عبد العزيز بن مروان

أبو بكر، وكان من خيار ولده وكان يقدر فيه إذا أفضت الخلافة إليه أن يوليه عهده، وله عقب. وعاصم بن عبد العزيز.
وكان من ولده: الأصبغ بن سفيان بن عاصم، وكان الأصبغ مخنثاً وأمه ابنة عمر بن عبد العزيز.
ومن ولد عبد العزيز: الأصبغ بن عبد العزيز، وأمه أم ولد. وكان من ولده: دحية بن مصعب بن الأصبغ بن عبد العزيز، خرج أيام موسى أمير المؤمنين بمصر، فقتله عامله عليها بعد قتال، وهو الفضل بن صالح بن علي بن عبد الله بن العباس، وبعث برأسه، فنصب ببغداد على الجسر، ويقال إن الذي جاره وبعث برأسه علي بن سليمان بن علي.

فتنة ابن سهيل:

ومن ولد عبد العزيز بن مروان:

سهيل بن عبد العزيز

وكان ابنه عمرو بن سهيل بن عبد العزيز يدعى كيلجة لقصره، من رجال قريش، ولاه عبد الله بن عمر بن عبد العزيز البصرة. وكان الذي يلي شرط البصرة قبله المسور بن عباد بن عمرو بن الحصين الحبطي من بني تميم، فاستعمل عمرو بن سهيل رجلاً من بني سدوس، فحقد ذلك المسور عليه وجانبته تميم غضباً للمسور. وقتل عبد الله بن علي عمرو بن سهيل فيمن قتل وصلبه فيمن صلب من بني أمية.
المدائني وغيره قالوا: اجتمع الناس على يزيد بن الوليد بن عبد الملك، فاستعمل على العراق عبد الله بن عمر بن عبد العزيز، فكتب عبد الله إلى عبد الله بن أبي عثمان بن عبد الله بن أميه بن عبد الله بن خالد بن أسيد بولاية البصرة، و لم يكن معه جند فضعف أمره، وكان أهل البصرة قد تراضوا به حتى قتل الوليد، وهرب عامل يوسف بن عمر عنها.

وقدم سعيد بن عمرو بن جعدة بن هبيرة المخزومي داعية لمروان بن محمد، فترل عند أبي العسكر المسمعي مستخفياً، ودس إلى وجوه أهل البصرة يدعوعم إلى الدخول في طاعة مروان، وجعل يعدهم الأموال ويمنيهم أن تأتيهم من قبل مروان. فلما تأخر ذلك و لم يروا لقوله مصداقاً جعل الصبيان يقولون في السككك: من يبايع بنسية ابن جعدة الشقية. ظنوا أن جعدة امرأة. وبلغ ابن عمر بن عبد العزيز وهن أمر عبد الله بن أبي عثمان، فولى البصرة عمرو بن سهيل، ووجه معه جنداً من النجارية من أهل الشام فيهم أبو بحر الجذامي، فهرب ابن جعدة، واستعمل عمرو على شرطة محمد بن وكيع بن أبي سود.
ومات يزيد بن الوليد الناقص في آخر ذي الحجة سنة ست وعشرين ومائة، وكتب مروان إلى المسور بن عمر بن عباد، ووجوه بني تميم، يدعوهم إلى طاعته والوثوب بابن سهيل، ويقال بل كتب المسور إلى مروان مبتدئاً ببيعته وطاعته واستأذنه في الوثوب بابن سهيل، وجعل المسور يبايع الناس لمروان ويدعوهم إليه حتى فشا ذلك والمسور في داره بالحبطات.

وبلغ ابن سهيل خبره فناهضه، ومع الأزد، وربيعة، وقريش والنجارية ومن معه من أهل الشام، وكان مع ابن سهيل سفيان بن معاوية، وداود بن حاتم، وكان المسور في: بني تميم، وباهلة، وبني عامر بن صعصعة، فكان يتقاتلان ثم يتحاجزان، ويصير المسور إلى جاره فلامه حرب بن قطن الهلالي على مصيره إلى مترله وحذره أن يطرقه ابن سهيل ليلاً، وقال: أخاف ألا يأتيك غياثك حتى يقضي القوم أربهم منك. فتحول إلى بني العنبر، وتحول من كان مترله نائياً عن بني تميم مثل: الحكم بن يزيد الأسيدي، والترجمان بن هريم بن أبي طحمة المجاشعي، والمغيرة ين الفزع، فكان يقاتلهم.
واقم ابن سهيل محمد بن وكيع فعزله عن شرطته، وولاها المنهال بن حاتم بن سويد بن منجوف.
وخندق المسور على أبواب السكك لما رأى من احتفال الأزد، وربيعة مت ابن سهيل واحتذال نجاريته ومن معه من الشاميين. وكان مع المسور عمرو بن قتيبة، فكانوا يقتتلون خلف الخنادق ويخرجون فيقتتلون.
ثم أن بني سعد بن زيد مناة بن تميم قالوا: قد كتب مروان إلى وجوهنا، كما كتب إلى المسور فلا نرضى أن تكون رئيساً. ففارقوه ورأسوا عليهم القاسم بن محمد الثقفي، وتابعهم على ذلك: ضبة، وعدي، والرباب.
وبلغ ذلك ابن سهيل فوجه إليهم أبا بحر الجذامي في الخيول فلما ناوشهم استطرد لهم حتى باعدهم عن أفواه السكك، ثم كر عليهم فهزمهم وقتل منهم.
وكان رؤبة بن العجاج يركب فرسه ويجول في هذه الفتنة ويقول:

صبراً بني الكرام يا حماة الأدبار إن الفرار يا بني تميم عار

ثم أنهم حكموا عبد الكريم بن سليط الحنفي في أن يجعل الرئاسة لمن يرى فحكم للمسور لبأسه، وكثرة ولده، ومواليه، وفرسانه، وكان الحكم مائلاً إلى المسور، فاقتتلوا فهزم ابن سهيل وأصحابه وكشفوا ووقعت العصبية، فنزل أبو الفيض الشامي وأصحابه فصار مع قيس ، وكان أحد بني عبد الله بن غطفان، وجعل يرمي أصحاب ابن سهيل وهو يقول: اللهم اخز عدوك. و لم يزالوا يقتتلون حيناً.

وقال أبو عبيدة معمر بن المثنى: اقتتلوا سبعة أشهر.

قالوا: وألقى القاسم الحنفي ناراً في قصب وأتبان كانت على نهر بني جشم بن سعد فقال حرب بن قطن الهلالي للمسور: وجه إلى بني حنيفة من يحرقهم. فقال: فيهم قوم براء لا نؤاخذهم بفعلة فاسق سفيه.

ثم مضى حرب مخالفاً له فحرق على بني حنيفة ليلته حتى أصبح، قالوا: فبينا هم على أمرهم هذا إذا أقبل مروان يريد العراق، والضحاك الشاري قد حصر عبد الله بن عمر في مدينة واسط، ومعه منصور بن جمهور فجنح منصور إلى الضحاك وهذا الثبت، وكلب تقول: لم يجنح إليه، وبايعه ابن عمر وسلم الأمر إليه على شريطة اشترطها.

قال أبو عبيدة: ولحق النضر بن عمرو بمروان، ووجه الضحاك إلى البصرة عماراً الحروري في أربعين رجلاً فنزلوا ببلاباذ ونادى مناديهم: أيما رجل علق على بابه صوفة حمراء فقد جنح للسلم، وبايعته الأزد، وربيعة، وكانوا شيعة ابن سهيل، وثبتت مضر في مواضعها، فلما رأى ابن سهيل أن ابن عمر قد غلب، وأن مروان قد أقبل هرب ليلاً فأصبحت دار الإمارة وليس فيها أحد، وهرب عمار لهرب ابن سهيل، وإنما كان مجيئه للعقد بين ابن عمر والضحاك.

وغدا المسور، وكان قد اختضب، فسرح الحناء و لم يغسله، وكان شعره كأنه الليف طويلاً سبطاً وهو على بغلة، فمنعه بنو سعد أن يدخل دار الإمارة حسداً له، فلما رأى ذلك عدل إلى بيضاء ابن زياد فنزلها. وجاءت بنو سعد بعباد بن منصور الناجي فأنزلوه دار الإمارة. فكان يصلي بالناس، واصطلحوا عليه، ثم إن بني قيس بن ثعلبة أحدثوا أحداثاً، فسار إليهم المسور فقاتلهم، ثم حرق دورهم وسوقهم التي بالمربد، و لم يزل المسور على هذه الحال حتى قدم سلم بن قتيبة عاملاً ليزيد بن هبيرة على البصرة، ومات المسور بعد ذلك بقليل، وكان المسور خرب دور آل المهلب لما بلغه قدوم سلم، فلما قدم سلم حال بينه وبين ما بقي من دورهم. وكان عمرو بن سهيل حياً حتى قتله عبد الله بن علي فيمن قتل من بني أمية في الشام.

حدَّثني الحرمازي عن أبي عبيدة قال: قال عمر لابنه عبد الله: ما على خاتمك؟ قال: لكل عمل ثواب. فاستتب رب الأرباب.

قالوا: وكان عبد الله بن عمر بن عبد العزيز كتب إلى ابن سهيل يأمره أن يوفد إليه وفداً فأرسل إليه جماعة يأمرهم بذلك، وأرسل إلى عمرة بن عبيد فامتنع عليه، فأعاد إليه شبيب بن شيبة فقال عمرو لشبيب: قل له أن أول ما يسألني عنه عن سيرتك فما تراني قائلاً فيك؟ فكف عن عمرو، فخرج في الوفد: شبيب بن شيبة، وإسماعيل المكي، وواصل بن عطاء.

قال خالد بن صفوان: فدخلوا على عبد الله بن عمر وأنا عنده فتكلموا رجلاً رجلاً فما بقي فن من فنون الكلام إلا تكلموا فيه، وبقي واصل آخرهم وقد سبق إلى أبواب الفنون، فتكلم رجل ضئيل الصوت، خفي المنطق فلم يزل يعلو صوته ويرتفع، وكأنما جمعت له محاسن الأقوال فهو يتخيرها على بصيرة، فأمر لهم بألفين ألفين فقبلوا إلا واصلاً، فقال لهم واصل: والله لئن كنتم شخصتم لله فما فيما أعطيتم عوض مما شخصتم له، ولئن كنتم شخصتم للدنيا فما أعطيتم ما تستحقون.

وجعل يعطي واصلاً ويزيده حتى بلغ مائة ألف درهم، فقال واصل: إني لم آب ما أمرت به، ولا استقلالاً له، ولا استزادة لك، ولو كنت إنما أتيت لذلك لقد بذلت ما مثله كفى وأقنع، ولكني شخصت لغير ما أعطيت.

وقال الأصمعي: قدم ابن هبيرة فأقر المسور على الأحداث، وعباد بن منصور على القضاء والصلاة، قال غيلان بن حريث الربعي:

أما ورب الكعبة المفضلة ... على البيوت كلها المؤثله

إن بني الأعز أعني حنظلة ... وآل عمرو ألحموا في المنزله

بمأزق يخاف فيه المقتله ... ضنك ترى أبطاله مجدله

تميميون حول الترجمان قنبله ... حول أغر لم يكن يزمله

من آل سفيان كريم المعدله ... مرتفع الطرف طويل المحمله

يضرب في الغما ليوث الغيطله

في أبيات. وقال أيضاً.

يا مسور يا بن عمر بن عباد ... يا سيد المصرين وابن الأسياد

وخير من غاب وخير الشهاد ... كم فيكم أبيض واري الأزناد

مقابل العم كريم الأجداد ... إنك يوم السبت غير حياد

بالسيف ضراب رؤوس الصداد

وقال رؤبة بن العجاج:

إن تميماً تبتلى بأقوام	ليسوا بأخوال ولا بأعمام
لا يتقون لحدود الإسلام	من رقة الدين وبعد الأرحام
منهم لكيز وهي شر الأصرام	والأزد صغار الأحلام
وقد رأوا في مستهل زمزام	في لجب بحر كأركان الرام
كتيبة للترجمان المقدام	والمسور السامي بغير إحجام
منازل تملأ عين المغتام	إذا الكماة استمسكوا بالاعصام

في أبيات.

وقال أبو عبيدة: لما قام مروان، وقدم يزيد بن عمر العراق شذب قتادة الخوارج ومن لحق بهم من يزيد بن الوليد، وطار آل المهلب تحت كل كوكب، وولى يزيد: سلماً لبصرة.

ومن ولد عبد العزيز بن مروان: أبو زبان، واسمه الأصبغ بن عبد العزيز، وكان عالماً ينظر في النجوم والطب، وكان ذا قدر في بني أمية، وهلك بمصر قبل أبيه بخمس عشرة ليلة.

أمر يزيد بن عبد الملك بن مروان

يكنى يزيد أبا خالد، وأمه عاتكة بنت يزيد بن معاوية بن أبي سفيان وإليها ينسب، بويع له بالخلافة سنة إحدى ومائة، وكان سليمان بن عبد الملك ولى عمر بن عبد العزيز في مرضه ويزيد بعده.

وقال سليمان: لولا أني أخاف اختلاف بني مروان بعدي ووقوع الفتنة ما وليت يزيد ولاقتصرت على عمر بن عبد العزيز.

وقال عمر بن عبد العزيز حين احتضر: لو أني اخترت الإمامة غير يزيد كان أولى، ولكني أخاف إن أخرجتها من بني عبد الملك أن تقع في ذلك فتنة وفرقة، وأنا أولي سليمان ما تولى، والمسلمون أولى بالنظر في أمرهم، فكانت ولاية يزيد بن عبد الملك أربع سنين وشهراً، ودفن بالجولان من سواد الأردن وذلك خمس ومائة، ويقال في أول سنة ست ومائة، وله سبع وثلاثون سنة وأشهر، ويقال ابن اثنتين وأربعين سنة، ويقال مات بالبلقاء من عمل دمشق.

قالوا: وكان يزيد جميلاً، حسن الشعر أهدل، وكان صاحب لهو وطرب وهزل، وهو أول من غالى بالقيان.

حدَّثني عبد الله بن صالح العجلي عن الهيثم بن عدي عن ابن عياش الهمداني قال: كان يزيد صاحب طرب وفتوة، وهو أول من اشترى حلة بخمسة آلاف دينار.

قالوا: وكان نديمه الأحوص بن عبد الله بن محمد بن عاصم بن ثابت بن أبي الأقلح، واسمه قيس بن عصمة بن أمية بن ضبيعة بن زيد بن مالك بن عوف بن عمرة بن عوف ين مالك بن الأوس، وكان يرمى بالأبنة، وكان منفياً، نفاه الوليد بن عبد الملك بشهادة عراك الغفاري إلى دهلك، فلما ولي يزيد بن عبد الملك أقدمه، ونفى عراكاً فقال الأحوص:

الآن استقر الملك في مستقره وعاد لعرف أمره المتنكر

طريد تلافاه يزيد برحمةٍ فلم يمس من نعمائه يتعذر

حدَّثني أبو حسن المدائني عن أبي جزي قال: عمد يزيد بن عبد الملك إلى كل ما صنعه عمر بن العزيز مما لم يوافقه فرده، ولم يرهب فيه شنعة عاجلة، ولا إثماً آجلاً.

المدائني قال: وظف محمد بن يوسف أخو الحجاج على أهل اليمن وظيفة جعلها عليهم خراجاً، فكتب عمر بن عبد العزيز إلى عامله يأمره بإلغاء تلك الوظيفة والاقتصار على العشر، وقال: لأن لا يأتيني من اليمن حفنة كتم أحب ألي من أن تقر هذه الوظيفة.

فلما ولي يزيد بن عبد الملك بعد عمر أمر بردها، وكتب إلى عروة بن محمد عامله إن ابن عبد العزيز كان مغروراً منك ومن أشباهك، فأعد على أهل اليمن الضريبة التي كان عمر أسقطها ولو صاروا حرضاَ.

حدَّثني أبو مسعود عن عوانة قال: أقر يزيد عدي بن أرطاة الفزاري عامل عمر بن عبد العزيز على البصرة، وولى عبد الرحمن الضحاك بن قيس الفهري المدينة، فشكته فاطمة بنت الحسين بن علي، وهي أم عبد الله بن حسن بن حسن بن علي وإخوته وكتبت كتاباً وأرسلت رسولاً وقالت إنه يدعوني إلى تزوجه وأنا امرأة لا حاجة لي في التزوج لأني مشبلة على ولدي ولا آمن من أن يتكذب على ولدي حتى يوقعهم فيما أكره ليغيظني بذلك، وأمير المؤمنين أحق من نظر في ودافع عني، فإني ابنة عمه وإحدى نسائه. فكان ذلك سبب غضبه عليه وعزله ومطالبته بمال أخرج عليه، فلما أراد الخروج من المدينة بكى ثم قال: والله ما أبكي جزعاً من العزل ولا أسفاً على الولاية، ولكني أربأ بهذه الوجوه أن يهينها من لا يعرف لها مثل الذي أعرف، ولا يوجب من حقها ما أوجب. ثم أنشد:

فما السجن أضناني ولا القيد شفني ولكنني من خشية النار أجزع

على أن أقواماً أخاف عليهم إذا غبت أن يعطوا الذي كنت أمنع

المدائني عن محمد بن خالد قال: كان لسعيد بن خالد بن أسيد قصر بحيال قصر يزيد بن عبد الملك، فكان يزيد إذا ركب إلى الجمعة توافيا في موضع واحد، فقال له يزيد في بعض الجمع: أما تخل بجمعة واحدة؟ فقال سعيد: إن قصري بحيال قصرك فإذا ركبت فالتقينا في هذا الموضع، فقال يزيد: فإن لي إليك حاجة. قال: إذاً لا ترد عنها يا أمير المؤمنين. قال: قصرك. قال: هو لك. قال: فلك به خمس حوائج فاذكرها. قال: أولاهن أن ترد القصر علي. قال: قد فعلت فاذكر الأربع فذكرها فقضاها له.

حدثني أبو مسعود الكوفي عن عوانة قال: قال يزيد: لذة الدنيا في أربع: الغناء، والطلاء، ومجالسة من تحب، وإعطاء السائل.

حدثني محمد بن سعد كاتب الواقدي عن الواقدي عن يزيد بن عياض قال: لما ولى يزيد بن عبد الملك عبد الرحمن بن الضحاك بن قيس المدينة خطب فاطمة بنت علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب فأبت وقالت: ما النكاح من حاجتي أنا مشبلة مقيمة على ولدي، فألح عليها الخطبة فقال: والله لئن لم تفعلي لأخذن منك أكبر ولدك، يعني عبد الله بن حسن بن حسن بن علي بن أبي طالب في شراب، ثم لأضربنه على رؤوس الناس، ولأفعلن بعد هذا، ولأفعلن حتى أفضحك، فبعثت إلى يزيد بن عبد الملك رسولاً، وكتبت معه كتاباً، فذكرت قرابتها ورحمها، وشكت عبد الرحمن وذكرت ما أرادها عليه، وبعثت به إليه وسألته أن يجيرها منه، وقالت: إنما أنا حرمتك واحدى نسائك، والله لو كان التزويج من شأني ما كان لي بكفء، وإن عمر بن الخطاب كان يقول على منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم: لأمنعن ذوات الأحساب إلا من الأكفاء.

قال وكان ابن هرمز على الديوان بالمدينة، وأراد الخروج، فأرسلت إليه وأخبرته بما تلقى من ابن الضحاك، وسألته أن ينمي ذلك إلى يزيد، فلما دخل على يزيد سأله عن المدينة وأهلها فبينا هو يخبره، إذ أتى حاجب يزيد فأخبره بمكان رسول فاطمة، فذكر ابن هرموز ما حملته وأعلمه أنها أرسلت إليه، فألقت إليه أمرها وأمر ابن الضحاك، فدعا يزيد برسولها وقرأ كتابها فغضب غضباً شديداً، ونزل عن سريره إلى الأرض، وضرب بقضيب كان معه على الأرض حتى أثار الغبار، وقال: ابن الضحاك يتزوج امرأة من بني عبد مناف؟ ثم قال: من يسمعني صوت ابن الضحاك بعذابه إياه وأنا على فراشي؟ قال ابن هرمز: أنا أدلك عليه. عبد الواحد بن عبد الله النصري، وهو بالطائف، فكتب يزيد كتاباً يأمره فيه بالمسير إلى المدينة وولايتها، وأن يغرم عبد الرحمن بن الضحاك أربعين ألف دينار، ويقفه للناس، وأمر لرسول فاطمة بجائزة وصرفه.

فمر الرسول الموجه إلى الطائف بابن الضحاك فوقع في نفسه خوف من العزل، فأعطاه ألف دينار فأخبره

الخبر وأحلفه أن لا يبرح المدينة. وجلس ابن الضحاك على رواحله حتى لحق بمسلمة بن عبد الملك فقال له: يا أبا سعيد كن لي جاراً من أمير المؤمنين فإن لي رحماً وقرابة، وإن خليتني من يديك افتضحت.

فلقي مسلمة يزيد في غبش الليل فكلمه فيه فقال يزيد: لا أرين وجهه ولا يخرج إلى عسكري حتى يرجع من حيث جاء فينفذ فيه أمري. فرجع من دمشق حتى وافى المدينة فوجد النصري بها فأغرمه أربعين ألف دينار، فلم يصل إليها حتى سأل الناس فيها، وكان أخذ هذه الأربعين الألف الدينار من بيت المال ففرقها على نفر من قريش وغيرهم.

قال الواقدي: وحدثني عقبة بن سنان قال: لما رجع ابن الضحاك إلى المدينة اتبع الناس فأخذ ذلك المال منهم، فمنهم من وجد عنده ما أعطاه، ومنهم من لم يوجد عنده لأنه فرقه في غرمائه، فكان يطاف به في جبة صوف يسأل فيها.

وقال الواقدي: حدثني زفر بن محمد الفهري عن أشياخه قال: لما أحس عبد الرحمن بالعزل فرق هذا المال في قومه فكتب يزيد أن يحتسب ذلك ويغرمه.

قالوا: فتنازع محمد بن علي بن الحسين، وعبد الله بن حسن بن حسن، وزيد بن علي فقال عبد الله بن حسن بن حسن لزيد: يا بن السندية الساحرة، فيقال إنه قال له: يا بن الهندكانية، فانصرف زيد إلى عمته فاطمة بنت علي بن الحسين، وهي أم عبد الله بن حسن فقالت: إن سب أمك فسبني فعاد للخصومة فشتمه فقال له زيد: أتذكر ابن الضحاك حين كانت تبعث إليه أمك بالعلك الأخضر والأحمر والأصفر فتقول له: فمك فمك فتطرح ذلك في فمه. فأتاه بنوها فأخبروها فغضبت وقالت: كنتم فتياناً فكنت أداريه فيكم وأمنيه أن أتزوجه حتى كتبت فيه إلى يزيد فعزله.

حدثني محمد بن سعد، والوليد بن صالح قالا: ثنا الواقدي قال: وقد خالد بن المطرف، والمطرف بن عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان على يزيد بن عبد الملك، فخطب إليه أخته فقال له: إن عبد الله بن عمرو بن عثمان أبي قد سن لنسائه عشرين ألف دينار فإن اعطيتنيها وإلا لم أزوجك.

فقال له يزيد: أو ما ترانا أكفاء إلا بالمال؟ قال: بلى والله أنكم لبنو عمنا وأشراف قومنا، فقال يزيد: إني لأظنك لو خطب إليك رجل من قريش لزوجته بأقل ما ذكرت من المال؟ قال: أي لعمري لأنها تكون عنده مالكة مملكة، وهي عندك مملوكة مقهورة. وأبى أن يزوجه، فأمر أن يحمل على بعير صعب وينخس به إلى المدينة، وكتب إلى عبد الرحمن بن الضحاك بن قيس الفهري وهو عامله على المدينة أن وكل بخالد بن عبد الله المطرف من يأخذه بيده كل يوم وينطلق به إلي شيبة بن نصاح المقرئ: ليقرأ عليه القرآن فإنه من الجاهلين.

فلما قرأ على شيبة قال حين قرأ: ما رأيت أحداً أقرأ للقرآن منه، وإن الذي جهله لأجهل منه. ثم كتب

يزيد إلى عامله: بلغني أن خالداً يذهب ويجيء في سكك المدينة، فمر بعض من معك أن يبطش به، فضربه حتى مرض ومات وله عقب في المدينة.
وحدثني أبو مسعود عن عوانة قال: قال يزيد بن عبد الملك، وهو ابن عاتكة بنت يزيد بن معاوية: كان عمر بن عبد العزيز خيراً لنفسه، وأنا خير للناس.

حدثني محمد بن سعد عن الواقدي عن عبد الله بن جعفر الزهري عن عبد الواحد بن أبي عون قال: لما ولي الوليد بن عبد الملك، استعمل عمر بن عبد العزيز على المدينة، ثم عزله وولى عثمان بن حيان المري على المدينة، فاستقضى أبا بكر بن محمد بن عمرو بن حزم، وكانت ولاة البلدان تستقضي القضاة من أهل الفضل والمروءة والهيئة والعلم، وكان القاضي لا يركب مركباً ولا يذهب لحاجة إلا استأذن أمير البلاد لأن يطيب له الرزق، فقال أبو بكر بن محمد بن عمرو بن حزم لابن حيان بعد العصر مساء عشرين يوماً من رمضان، وعند عثمان أيوب بن سلمة المخزومي، فقال أبو بكر: إن رأى الأمير أن يأذن لي غداً فأنام بعد الصبح ولا أجلس للناس لأن أقوى على قيام ليلة إحدى وعشرين، فإنه يذكر أنها ليلة القدر. فقال له ابن حيان: نعم. فلما ولى قال أيوب: ألا ترى إلى هذا الذي استأذنك فيما استأذنك فيه؟ فقال ابن حيان: والله ما هو إلا رياء، ولست لحيان إن لم أسأل عنه غدوة فإن وجدته نائماً ضربته مائة، وحلقت رأسه ولحيته.
قال أيوب: فقال أمراً سرني، فلما انصرفنا رجعت إلى مترلي مسروراً، فلما كان في السحر خرجت فإذا سراج في دار مروان فقلت: عجل والله المري فأدخل الدار فإذا أنا بأبي بكر بن حزم وقد جاءته ولايته من قبل سليمان بن عبد الملك وهو جالس على المنبر والشمع بين يديه، وابن حيان جالس بين يديه وابن حزم يقول: صيروا هذا الكبول في رجل ابن حيان، قال أيوب: فنظرت إلى ابن حيان ونظر إلي فقال:

جاؤوا على أدبارهم كشفاً   والأمر يحدث بعده الأمر

فلما صلى وحضر الناس دعا بقوارير كانت في مترل ابن حيان، فقال: ما هذا الشراب؟ قال: شراب أشربه من الطلا. فقال أبو بكر لمن حضره: أنشدكم الله ما تقولون في هذا الشراب؟ قال: نعم فأمر بتلك القوارير فكسرت وضربه الحد، وجاء عبد الله بن عمرو بن عثمان بالبينة أنه قال له: يا مخنث أو يا منكوح فضربه له حداً أخر. فلما ولي يزيد بن عبد الملك ولى على المدينة عبد الرحمن بن الضحاك بن قيس الفهري، وخرج عثمان بن حيان مع مسلمة بن عبد الملك حين خرج يريد يزيد بن المهلب فحمل رأسه حين قتل يزيد إلى يزيد بن عاتكة فقال له يزيد: ما تحب أن أصنع بك يا بن حيان؟ قال: تقيدني من

ابن حزم، قال: كيف أقيدك من رجل اصطنعه أهل بيتي وله فضل، ولكني أوليك المدينة فتفعل ما رأيت. قال: إن ضربته في سلطاني قال الناس إنما ضربه في سلطانه. قال: فاكتب إلى عبد الرحمن بن الضحاك كتاباً تنتفع به، فكتب إليه يزيد: "أما بعد فإذا جاءك كتابي فانظر فيما ضرب ابن حزم ابن حيان فيه، فإن كان ضربه في أمر بين فلا تلتفت إليه، وأمض الحد - يعني على ابن حيان - وإن كان في أمر منكر مشكل يختلف فيه فأمض الحد أيضاً، وإن كان الأمر لا يختلف فيه فأقده منه".

فلما قرأ ابن الضحاك الكتاب رمى به من يده وقال: ما ضربك إلا في أمر بين وما لك في هذا الكتاب منفعة. فقال له عثمان: إنك إن أردت أن تحسن أحسنت. قال: الآن أصبت المطلب. قالوا: فأرسل إلى أبي بكر فلم يسأله عن حرف حتى ضربه حدين في مقام واحد، وانصرف أبو المغري عثمان بن حيان وهو يقول: والله ما قربت النساء منذ ضربني ابن حزم فاليوم أقربهن.

وكان ابن حزم قال:

نحن ضرباً الفاسق ابن حيان ... حدين لما يخلطا ببهتان

فقال ابن حيان:

نحن ضربنا الفاسق ابن حزم ... حدين لما يخلطا بإثم

قال الواقدي: ولما أغرم عبد الرحمن بن الضحاك أربعين ألف دينار نهى ابن حزم حاشيته ومن معه أن يعرضوا له بشيء يكرهه، وأمر له بجميع ما احتاج إليه، فكان ابن الضحاك يذكر ما صنع به، وما صنع ابن حزم فيعجب ويقول: كان والله خيراً مني.

حدثني عباس بن هشام الكلبي عن أبيه عن رجل من آل الأهتم قال: كتب يزيد بن عبد الملك إلى عمر بن هبيرة، وهو عامله بالعراق: إنه ليست لأمير المؤمنين بأرض العرب خوصة تمر على القطائع، فحز فضولها لأمير المؤمنين، فجعل عمر يأتي القطيعة فيسأل عنها ثم يمسحها حتى وقف على أرض فقال: لمن هذه؟ قال صاحبها: لي. قال: ومن أين صارت لك؟ فقال:

ورثناهن عن آباء صدقٍ ... ونورثها إذا متنا بنينا

ثم أن الناس ضجوا من ذلك فأمسك عمر بن هبيرة.

قالوا وبعث يزيد بن عبد الملك رسولاً في حمل ابن سريج فلما انتهى إلى أداني مكة سمع رجلاً يغني:

فلم أر كالتجمير منظر ناظرٍ ... ولا كليالي الحج أفتن ذا هوى

وإذا الرجل ابن سريج، فقال الرسول: ما أجهل هؤلاء، بعثوا إلى غير هذا وتركوه، فأتى الوالي فبعث ابن سريج فإذا هو الذي رآه الرسول، فقال: لقد أنكرت أن يكون ابن سريج غيرك.

وقال الهيثم بن عدي وغيره: كان المغنون يأتون يزيد فيصلهم، وكان معبد وابن سريج يزورانه فيقيمان عنده زماناً فيجيزهما، وكان الأحوص يزوره من المدينة فيجزل عطيته ويحسن جائزته، وكان ممن يتغنى بين يدي يزيد الغزيل الشامي، وقد غنى يزيد لنفسه ومن غنائه:

أضحى لسلامة الزرقاء في كبدي صدع مقيم طوال الدهر والأبد

وقال ابن الكلبي: هذا الغناء ليزيد والناس ينحلون معبد والغزيل الشامي.

وحدثني حفص بن عمر العمري عن الهيثم بن عدي عن ابن عياش قال: قدم عمر بن هبيرة على يزيد وهو عامله على العراق، وأهدى له هدايا كثيرة، وأتاه بغنائم وفيها مسك فأخذ ابن له ذلك المسك وولى، فقال يزيد: أي بني إن هذا غلول، فقال ابن هبيرة: إن رجلاً من قراء أهل العراق كان بخراسان كان ينهى عن الغلول، ويغل المسك، فقيل له في ذلك فقال: إن الله يقول: "ومن يغلل يأت بما غل يوم القيامة" أما والله لآتين طيب الريح خفيف المحمل. قال يزيد: يا بني أما إذا رخص القراء فيه فخذه.

وكان يزيد صاحب سلامة وحبابة اللتين ذكرهما أبو حمزة المختار بن عوف الأزدي الخارجي فقال، وذكره: اقعد سلامة عن يمنيه، وحبابة عن يساره، ثم قال: أطير، ألا فطر إلى لعنه الله وحرقه.

وكان من قصة سلامة أنها كنت لرجل من أهل مكة فاشتراها منه سهيل بن عبد الرحمن بن عوف الزهري، ويقال أن سهيلاً هو رباها وعلمها، و لم يشتريها مغنية. والأول أثبت.

وكان عبد الرحمن بن عبد الله بن أبي عمار – أحد بني جشم بن معاوية بن بكر بن هوازن، وقد أصابته منة من صفوان بن أميه الجمحي – يترل مكة، وكان فقيها عابداً يسمى القس لعبادته واجتهاده، فمر يوماً بمترل مولى سلامة فسمع غناءها فتوقف يسمعه فرآه مولاها فقال له: هل لك أن تدخل فتسمع فأبى ذلك فقال له: هل لك في أن أخرجها إليك؟ فأبى ذلك، فلم يزل حتى أخرجها، فلما رآها وسمع غناءها ظاهرة شغف بها، وهويته أيضاَ، وكان جميلاً فكان يأتي مولاها ويغشاه ليسمع غناءها ويراها، فزعموا أنها قالت له يوماً على خلوة: أنا والله أحبك. قال: وأنا والله. قالت: وأحب أن أضع بطني على بطنك. قال: وأنا والله أحب ذلك. قالت: فما يمنعك؟ إن موضعنا خالٍ. قال: إني سمعت الله يقول: "الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين".

وأنا أكره أن تؤول خلتنا إلى عداوة. ثم قام فانصرف وعاد إلى عبادته، وقد كان قال فيها شعراً منه:

ألم ترها لا يبعد الله دارها إذا طربت في صوتها كيف تصنع

تمد نظام القول ثم ترده		إلى صلصل من صوتها يترجع

ومنه أيضاً

ما بال قلبك لا يزال يهيجه		ذكر عواقب غيهن سقام

باتت تعللنا وتحسب أننا		في ذاك أيقاظ ونحن نيام

حتى إذا سطع الصباح لناظر		فإذا وذلك بيننا أحلام

قد كنت أعذل في السفاهة أهلها		فاعجب لما تأتي به الأيام

فاليوم اعذرهم وأعلم إنما		سبل الضلالة والهدى أقسام

ومنه:

ألا قل لهذا القلب هل أنت مبصر		وهل أنت عن سلامة اليوم مقصر

ألا ليت أني حيث صارت بها النوى		جليس لسلمى كلما عج مزهر

إذا أخذت في الصوت كاد جليسها		يطير إليها قلبه حين ينظر

كأن حماماً راعبياً معلماً		إذا نطقت من صدرها يتغشمر

ومنه:

على سلامة القلب السلام		تحية من زيارته لمام

أحب لقاءها وألوم نفسي		كأن لقاءها مني حرام

إذا ما عج مزهرها وعجت		أصاخ إلى مقالتها الكرام

وأصغوا نحوها الآذان حتىكأنهم وما ناموا نيام

ومنه قوله:

سلام ويحك هل تحيين من ماتا		أو ترجعين على المحزون ما فاتا

ادعي بمزهرك المحنو فاحتفلي		ثم امنحي السمع مني منك أصواتاً

قال فشهر أمر عبد الرحمن القس حتى نسبها الناس إليه فقالوا: سلامة القس، وفي سلامة يقول عبد الله بن قيس الرقيات:

لقد فتنت ريا وسلامة القسا		فلم تتركا للقس عقلاً ولا نفسا

فتاتان أما منهما فشبيهة		هلالاً وأخرى منهما تشبه الشمسا

يكنان أبشاراً رقاقاً وأوجها عتاقاً وأطرافاً مخضبة ملسا

وغنى في الشعر مالك بن أبي السمح. وفيها يقول ابن قيس أيضاً:

أختان إحداهما كالشمس طالعة في يوم دجن وأخرى تشبه القمرا

أبو الحسن علي بن محمد المدائني عن ابن جعدبة قال: قدم يزيد بن عبد الملك المدينة في خلافة سليمان أخيه، فتزوج سعدة بنت عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان على عشرين ألف دينار وربيحة بنت محمد بن عبد الله بن جعفر على مثل ذلك، فلما ولي الخلافة اشترى لنفسه سلامة القس من سهيل بن عبد الرحمن بن عوف بأربعة آلاف دينار، ويقال إن التي تزوج: رقية بنت عبد الله بن عمرو بن عثمان، وتزوجه سعدة أثبت.

وقال المدائني: كانت حبابة تسمى الغالية، وكانت لرجل من الموالي بالمدينة، فلما قدم يزيد وتزوج ابنة عبد الله بن عمرو وربيحة بنت محمد، اشترى الغالية من مولاها بأربعة آلاف دينار. وبلغ ذلك سليمان فقال: لأحجزن على هذا المائق السفيه، فلما بلغه قول سليمان استقال مولى الغالية فأقاله وشخص بها مولاها إلى إفريقية فباع الغالية هناك.

فلما استخلف يزيد واشترى سلامة من مولاها، قالت له ابنة عبد الله بن عمرو بن عثمان امرأته: هل بقي لك من الدنيا شيء مما تحبه لم تنله؟ قال: نعم الغالية، وقد بلغني أنها بيعت في أفريقية.

فبعثت بعض مواليها إلى إفريقية فاشتراها بأربعة آلاف دينار، وقدم بها فهيأتها ابنة عبد الله بن عمرو وأجلستها في البيت، وقالت ليزيد: إن رأيت الغالية تعرفها؟ قال: نعم لقد رأيتها فما أنساها، فرفعت الستر فرآها فقال: هي هذه. قالت: فهي لك، وأخلتها فسماها حبابة، وحظيت ابنة عبد الله بن عمرو عنده.

وخطب يزيد إلى خالد بن عبد الله بن عمرو أخي مسعدة، ابنة أخ له فقال: أما يكفيه أن أختي عنده حتى يخطب إلي بنات أخي؟ فغضب يزيد من ذلك، فقدم خالد يسترضيه فبينا هو في فسطاطه أتته جارية لحبابة في خدمها فقالت: مولاتي تقرأ عليك السلام وتقول: قد كلمت أمير المؤمنين فيك فرضي عنك فارفع إلي حوائجك، فرفع رأسه إلى من حضر فقال: ومن مولاتها؟ فقالوا: حبابة وحدثوه حديثها فقال للجارية: ارجعي إلى مولاتك فقولي لها إن للرضى عني سبباً لست به.

فشكت حبابة ذلك إلى يزيد فغضب، وأرسل إلى خالد، أعواناً، ومعهم خدم حبابة فاقتلعوا فسطاطة وقطعوا أطنابه حتى سقط عليه وعلى من معه، فقال ويلكم ما هذا؟ قالوا: رسل حبابة. فقال: ما لها

أخزاها الله؟ ما أشبه رضاها بغضبها.

وذكروا أن يزيداً أقبل يوماً يريد البيت الذي فيه حبابة، فقام من وراء الستر فسمعها ترنم وتقول:

كان لي يا يزيد حبك حيناً كاد يقضي علي يوم التقينا

فرفع الستر فوجدها مضطجعة محولة وجهها إلى الحائط، فعلم أنها لم تعلم به و لم ترده بما قالت في ذلك الوقت ليسمعه فألقى نفسه عليه يقبلها وحركت منه.

قالوا: وجلس يزيد يوماً وحبابة على يمينه، وسلامة عن يساره، فغنتا فطرب، ثم قال لحبابة: غني صوتاً. فغنت:

وبين التراقي واللهاة حرارةٌ مكان الشجا ما تطمئن فتبرد

فقال: أطير. ومد يديه. فقالت: كما أنت. إن لنا فيك حاجة. فقال: والله لأطيرن. قالت: فعلى من تخلف الخلافة والملك؟ قال: عليك والله.

المدائني قال: غنت حبابة يوماً، فطرب يزيد طرباً شديداً، فقال: يا حبيبتي هل رأيت أطرب مني قط، قالت: نعم معاوية بن عبد الله بن جعفر الطيار، فكتب إلى عبد الرحمن بن الضحاك بن قيس عامله على المدينة في إشخاصه إليه، فأشخصه مكرماً، فلما بلغه ما أراده له قال: سوءة أعلى كبر السن يستدعي طربي.

فلما قدم على يزيد، دعا يزيد لنفسه بطنفسه خز ودعا له بمثلها، وأمر فأتي بجامين مملوئين مسكاً فوضعت بين يديه واحدة، وبين يدي معاوية واحدةً، ثم دعا بحبابة فغنت، فأخذ معاوية وسادة فوضعها على رأسه وجعل يدور في البيت ويصيح: الدجر بالنوى، الدجر بالنوى، فأعجب به يزيد، فضحك وأمر له بثمانية آلاف دينار.

وحدثني صاحب لي عن الزبير بن بكار الزبيري أن يزيد بن عبد الملك قال لحبابة وسلامة: أيتكما غنتني ما في نفسي فلها حكمها، فغنته سلامة، فلم تصب إرادته، ثم غنته حبابة:

خلق من بني كنانة حولي بفلسطين يسرعون الركوبا

فأصابت ما في نفسه، فقال: احتكمي. قالت: تهب لي سلامة ومالها. قال: اطلبي غيرها، فأبت، فقال: خذيها ومالها ففعلت، فتداخل سلامة من ذلك أمر جليل، فقالت له حبابة: لن ترى مني خيراً، فسألها يزيد أن تبيعها منه بحكمها فقالت: أشهد أنها حرة فاخطبها إلي حتى أزوجك إياها فأكون قد زوجتك

مولاتي، فضحك.

وذكر إسحاق ابن إبراهيم الموصلي أن ابن كناسة أخبره أن حبابة وسلامة اختلفتا في صوت لمعبد وهو:

ألا حي الديار بسعد إني أحب لحب فاطمة الديارا

فبعث يزيد إلى معبد، فأتي به فسأله عما بعث له إليه فأخبر، فقال: لأيتهما المترلة؟ فقيل: لحبابة. فلما عرضتا الصوت عليه قضى لحبابة فقالت: سلامة والله ما قضى لها إلا لحظوتها، وإنه ليعلم أني المصيبة ولكن ائذن لي يا أمير المؤمنين في صلته فإن له حقاً. قال معبد: فكانت أوصل لي من حبابة.

قالوا: ودخلت حبابة يوماً على يزيد، وعلى يدها دف وهي تغني:

ما أحسن الجيد من مليكة واللب ات إذ زانها ترائبها

يا ليتني والإله إذا هجع الناس س ونام الكلاب صاحبها

في ليلة لا نرى بها أح د يخبر عنا إلا كواكبها

والغناء لابن سريج، فقام يزيد فقبل يدها، فخرج بعض خدمه وهو يقول: سخنت عينك فما أسخفك.

وقال أبو الحسن المدائني: مرضت حبابة فقعد يزيد عند رأسها، وقال: كيف أنت بأبي؟ فلم تجبه، فبكى.

ويقال كان يزيد وحبابة في بستان فضاحكها ومازحها فأخذ حبة من عنب فحذفها بها فدخلت في فمها فأصابها شرق، وكان ذلك سبب مرضها الذي ماتت منه.

وقال هشام ابن الكلبي عن عوانة قال: قال مسلمة بن عبد الملك: خرجت مع يزيد في جنازة حبابة فجعلت أعزيه وأسليه وهو ضارب بذقنه على صدره ما يجيبني بكلمة، فلما انصرفنا ودنا من باب القصر قال:

فإن تسل عنك النفس أو تدع الصبا فباليأس تسلو عنك لا بالتجلد

ثم دخل قصره فوالله ما خرج منه إلا ميتاً لحزنه وكمده عليها.

وقال أبو الحسن المدائني: لما دفن يزيد حبابة مرض فمات بعد أربعين ليلة، ويقال بعد خمس عشرة ليلة.

وقال رجل من أهل الشام: أتى يزيد من ناحية الأردن، وحبابة معه، فماتت فمكث ثلاثاً لا يدفنها حتى أنتنت، وهو يشمها ويقبلها وينظر إليها ويبكي، فلكم في أمرها حتى أمر بدفنها، فحملت في نطع وخرج بها وهو معهم حتى أجنها، ثم أنشد قول كثير:

فإن تسل عنك النفس أو تدع الصبا فباليأس تسلو عنك لا بالتجلد

فما مكث إلا أياماً حتى دفن إلى جانبها.

وروى الهيثم بن عدي عن ابن عياش أن يزيد أراد الصلاة على حبابة، فسأله مسلمة بن عبد الملك ألا

يفعل وقال: أنا أكفيك الصلاة عليها، فتخلف يزيد، ومضى مسلمة فأمر بعض أصحابه فصلى عليها.

وقال بعضهم: نبئت أن يزيد ضعف حين ماتت حبابة، فلم يستطع الركوب من الجزع، وعجز عن المشي فأمر مسلمة فصلى عليها، ثم قال يزيد: إني لم أصل عليها فانبشوا عنها وأخرجوها حتى أصلي عليها، فقال له مسلمة: أنشدك الله أن تفعل فأمسك، و لم يزل كئيباً، و لم يأذن للناس عليه إلا مرة واحدة حتى مات، وصلى عليه مسلمة.

وقال المدائني: جعل يزيد يطوف في داره فيقف على المواضع التي كانت تقعد فيها، فبينا هو كذلك إذ سمع وصيفة كانت لها تنشد:

كفى حزناً للهائم الصب أن يرى ... منازل من يهوى معطلة قفرا

فبكى. وكان يجلس تلك الوصيفة عنده فيحدثها ويذاكرها أمر حبابة، ويأنس بها حتى مات.

وحدثني عباس بن هشام الكلبي عن أبيه قال: أراد يزيد أن يتشبه بعمر بن عبد العزيز في بعض أيامه، فبدا لحبابة هجران منه فأرسلت إلى الأحوص وكان مقيماً عنده: أنشد أمير المؤمنين شيئاً يدعوه إلى ترك ما أخذ فيه فأنشده:

ألا لا تلمه اليوم إن يتبلدا ... فقد غلب المحزون أن يتجلدا

بكيت الصبا جهدي فمن شاء لامني ... ومن شاء آسى في البكاء وأسعدا

إذا كنت معزافاً عن اللهو والهوى ... فكن حجراً من يابس الصخر جلمدا

هل العيش إلا ما تلذ وتشتهي ... وإن لام فيه ذو الشنآن وفندا

فقال يزيد وهو يقول: "هل العيش إلا ما تلذ وتشتهي" حتى دخل على حباب، وعاد إلى أمره الأول، ثم مات فجزع عليها، وخرج حاملاً جنازتها حتى كلمه مسلمة في ذلك، فرجع إلى قصره، ومات بعدها بخمسة عشر يوماً.

وقال المدائني: لم يعلم بموت يزيد بن عبد الملك حتى سمعوا صوت سلامة من فوق القصر وهي تقول:

قد لعمري بت ليلي ... كأخي الداء الوجيع

ويبيت الحزن مني ... دون من لي من ضجيع

كلما أبصرت ربعاً ... خالياً فاضت دموعي

موحشاً من س ... يد كان لنا غير مضيع

وا أمير المؤمنيناه قال: والشعر لبعض الأنصار إلا البيت الأخير.
وقال بعض الرواة: اشترى يزيد حبابة وسلامة بمائتي ألف دينار، والأول أثبت.

أمر عمر بن هبيرة

في أيام يزيد بن عبد الملك

حدَّثني جماعة من أهل العلم سقت حديثهم ورددت من بعضه على بعض قالوا: قدم عمر بن هبيرة بن معية بن سكين بن حديج بن بغيض بن مالك بن سعد بن عدي بن فزارة بن ذبيان بن بغيض بن ريث بن غطفان بن سعد بن قيس من البادية فافترض مع مدد أمد به بعض ولاة الحرب. وكان يقول: إني لأرجو أن لا تنقضي الأيام حتى ألي إلى العراق.

وكان شخص مع عمرو بن معاوية العقيلي في غزو الروم فأتي عمرو بفرس رائع إلا أنه كان إذا دنا منه خلفه دان رمح، وإن دنا من بين يديه كدم، فكان لا يستطاع ركوبه، فقال عمرو بن معاوية: من ركبه فهو له، فقام ابن هبيره فشد عليه ثوبه ثم تنحى عن الفرس وأقبل يحضر حتى إذا كان بحيث تناله رجلاً ذلك الفرس إن رمحه وثب فصار في سرجه، وطعنه في بعض حروبه طاعن فأذراه عن فرسه فسقط إلى الأرض، ثم إنه وثب فاستوى على ظهر فرسه.

ولما خلع مطرف بن المغيرة بن شعبة الحجاج، وأمر الحجاج عدي بن وتاد الإيادي بالمصير إليه من الري لمحاربته، كان عمر بن هبيرة بالري معه وهو مغمور يومئذ، فسار في جنده، فلما التقى عدي ومطرف، جنح ابن هبيرة إلى صف مطرف فحكم وتشبه بمن معه فآمنه مطرف وأمنه، فلما جال الناس ودخل بعضهم في بعض وثب ابن هبيرة على مطرف فضربه فقتله واحتز رأسه، ويقال قبله غيره واحتز رأسه ودفنه في خيمته، فلما أجلت الحرب وانهزم من بقي من أصحاب مطرف أتى عدياً بالرأس فأعطاه مالاً وأوقده بالرأس إلى الحجاج، فأوفده الحجاج إلى عبد الملك، فأجاز له عبد الملك ابن هبيرة وأقطعه قطيعة ببرزة.

ورجع إلى الحجاج فحركه في أمور: وجهه إلى كردم بن مرثد الفزاري وهو على جازر والمدائن في حمل مال فحمله وكان مبلغه ثمانين ألف درهم، ثم هرب فلحق بعبد الملك فقال: أنا عائذ بالله يا أمير المؤمنين من رجل يطلبني بترة وإحنة، قتلت ابن عمه مطرفاً وأتيت أمير المؤمنين برأسه ثم رجعت فأراد قتلي، ولست آمن أن ينسبني إلى أمر يكون فيه هلاكي. فقال: أنت في جواري فأقام.

وكتب فيه الحجاج يحكي أمره وهربه بالمال ويسأل رده إليه، فكتب عبد الملك: أمسك عن ذكره وأله

عنه.

وزوج عبد الملك ابناً له ابنة للحجاج، فكان عمر بن هبيرة يلطفها بما يلطف به مثلها، ويشير عليها بالرأي، فكتبت إلى أبيها تثني عليه، فكتب إليه الحجاج كتاباً لطيفاً وأمره أن يترل به حاجاته.

وروي أيضاَ أن ابن هبيرة قدم الشام في أيام الأشعث يطلب الفريضة، وهو أعرابي، ففرض له مع خريم بن عمرو المري في ثلاثين درهماً، ثم زيد عشرة مع من شهد الجماجم فكان في أربعين.

وكان يأتي كردماً، وصار إليه بفارس، فلم يلق منه خيراً، فمر بالمهلب بن أبي صفرة فلما سلم عليه وكلمه قال: أرآك الحجاج؟ قال: لا. قال: أما لو رآك لاستغنيت عن كردم وأشباهه، وأمره له بعشرة آلاف درهم. فكان يشكر المهلب على ذلك.

وقدم بأسراء آل المهلب على يزيد بن عبد الملك حين قدم بهم، فشفع فيهم، وقيل إن الحجاج وجه إلى مطرف قبل عدي بن وتاد ة بن عبد الرحمن أو خريم بن عمرو، وكان عمر بن هبيرة معه، وقال بعضهم: قاتل خريم مطرفاً فقتله، وبعث برأسه إلى الحجاج مع ابن هبيرة والله أعلم.

حدثني علي بن المغيرة عن الأصمعي قال: بعث الحجاج خريماً فقتل مطرفاً وبعث برأسه مع ابن هبيرة فزاده الحجاج على رزقه عشرة فصار رزقه خمسين درهماً، ثم أوفده الحجاج بالرأس إلى عبد الملك، فزاده في رزقه عشرة تتمة ستين، وأقام بالعراق حتى وليه يزيد بن المهلب فوصله بثلاثة آلاف درهم، دفعها إليه مروان بن المهلب.

ثم أتى كردماً وهو على خراج فارس من قبل الحجاج، والمهلب بإزاء الخوارج بشيراز، فلم يصنع به كردم خيراً فأتى المهلب فلما كلمه قال: أنت والله أحق بالعمل من ابن عمك، وأمر له بعشرة آلاف درهم وذلك قبل صلة يزيد إياه بالثلاثة الآلاف بحين.

قال: وهم ابن عاتكة بسبي آل المهلب، فطلب إليه ابن هبيرة فيهن، فكتب كتباً كثيرة حتى كف، فكان ذلك مما يعد من شكر ابن هبيرة للمهلب ويزيد ابنه.

المدائني قال: غلبت حبابة على يزيد بن عبد الملك، وانقطع إليها عمر بن هبيرة، وكان يهدي إليها، فلطف مترلته من يزيد حتى كان يدخل عليه في أي الأوقات شاء.

قال: وحسد قوم من بني أميه مسلمة بن عبد الملك وقدحوا فيه عند يزيد، وقالوا: وليته العراق فإن اقتطع من خراجه شيئاً أجللته عن تكشيفه لسنه وبلائه وحقه، وقد علمت أن أمير المؤمنين عبد الملك لم يطمع أحداً من أهل بيته في ولاية الخراج، فوقع ذلك في نفس يزيد وعزم على عزله.

وعمل ابن هبيرة في ولاية العراق من قبل حبابة، فكانت تعمل له في ذلك حتى ولاه إياها يزيد.

وقال المدائني والهيثم بن عدي: كان الذي بين عمر بن هبيرة وبين القعقاع بن خليد العبسي سيئاً وكانا يتحاسدان فقيل للقعقاع: إن ابن هبيرة قد أشرف على ولاية العراق. قال: ومن يطيق ابن هبيرة. حبابة بالليل وهداياه بالنهار، فلم تزل حبابة تعمل لابن هبيرة حتى ولي العراق. وماتت حبابة فقال القعقاع:

هلم فقد ماتت حبابة سامني … بنفسك تقدمك الذرا والكواهل

أغرك أن كانت حبابة مرة … تميحك فانظر كيف ما أنت فاعل

فأقسم لولا أن فيك نغالة … وبخلاً وغدراً سودتك القبائل

المدائني قال: قاول ابن هبيرة القعقاع فقال لابن هبيرة: يا بن اللخناء. فقال عمر: يا بن الفحواء قدمتك أعجاز النساء وقدمتني صدور القنا.

وأراد مسلمة أن يفد إلى يزيد فقال له الأصم عبد العزيز بن حاتم بن النعمان الباهلي: إنك لذو عهد به قريب فأقم، فأبى فقال له عبد العزيز: إن لم تقم فأول من يلقاك عامل على عملك، فلقيه ابن هبيرة مقبلاً إلى العراق فأعظم مسلمة وترجل له، فقال له: إلي أين يا بن هبيرة؟ قال بعثني أمير المؤمنين لاصطفاء أموال بني المهلب. فقال: في حفظ الله، فلما خرج قال له الأصم: والله ما هو إلا وال مكانك.

وولي العراق وخراسان فقال الفرزدق:

راحت بمسلمة البغال مودعاً … فارعى فزارة لا هناك المرتع

ولقد علمت إذا فزارة أمرت … أن سيوف تطمع في الإمارة أشجع

وأرى البلاد تنكرت أعلامها … حتى أمية عن فزارة تنزع

نزع ابن بشر وابن عمرو قبله … وأخو هراة لمثلها يتوقع

عبد الملك بن بشر، ومحمد بن عمرو بن الوليد بن عقبة، وأخو هراة: سعيد بن عبد العزيز خدينة، فعارضه خليفة بن براز الأقطع مولى بني قيس بن ثعلبة فقال:

قل للفرزدق إن فزارة ارتعوا … فانهوا قيون مجاشع أن يجزعوا

في أبيات. فعرض لخليفة حكم القرد مولى بني الهجيم فقال:

إلي هلم دون أبي فراس … فقد لاقيت أشوس ذا مراس

قالوا: ولما قدم ابن هبيرة شخص عبد الملك بن بشر، واستخلف على البصرة شريك بن معاوية الباهلي أحد بني قتيبة بن معن، فأقره ابن هبيرة يسيراً ثم عزله، وولى سعيد بن عمرو الحرشي البصرة، فولى شرطه

شريك بن معاوية، وكان شريك يلقب: مقابل الريح، وكان أدلم طوالاً يقابل الريح فيقول: شمال جنوب، صبا دبور. فقيل مقابل الريح.

ثم عزل ابن هبيرة سعيد الحرشي، وولاه خراسان، واستعمل على البصرة حسان بن مسعود زوج أم ابن هبيرة، وكان ابن هبيرة زوج أم حسان بن مسعود، ثم عزل حسان وولى البصرة فراس بن سمي الفزاري فولى شرطته محمد بن رباط الفقيمي، فهجا الفرزدق ابن رباط فقال:

بكى المنبر الشرقي والناس إذ رأوا | عليه فقيمياً قصير القوائم

أليس عجيباً أن يسود محمد | ألا تلك من إحدى الدواهي العظائم

وأرسل فراس بن سمي يطلب الفرزدق فحذره فهرب، فأرسل إلى النوار امرأته فحبسها، ولحق الفرزدق بالبادية، ثم لحق بيزيد بن عبد الملك، وقال ليزيد:

سبقت إليك الطالبين وإنهم | لخلفي وقدامي على كل مرصد

فأجاره ووصله وأحسن الأحوص محضره عنده.

قالوا وعزل ابن هبيرة سعيد بن عمرو الحرشي عن خراسان، وولاها مسلم بن سعيد بن أسلم بن زرعة الكلابي، فلما قدم على سعيد قيده وحمله إلى ابن هبرة، وكان ابن هبيرة أمره بذلك، فلما أدخل إليه قال له ابن هبيرة: يا بن نسعة فعلت وفعلت. قال: يا بن بسرة لم أفعل، فغضب ابن هبيرة فأمر به فضرب مائة سوط وعذب ثم نفخ في دبره بكير وأمر به فحبس.

بسرة بنت الحارث بن عمرو بن حرجة الفزاري.

وقال لمعقل بن عروة القشيري: قدمت العراق فوجدت سعيداً صعلوكاً خاملاً فوليته خراسان، فبعث إلي ببرذونين أعرجين ودعوته لأعاتبه وقلت له: يا بن نسعة فقال لي: يا بن بسرة، فقال معقل: أو فعل ابن الزانية؟ قال: نعم، فأتاه معقل وهو في السجن فقال له: يا بن نسعة التي اشتريت بثمن عترة جرباء فكانت رافعة رجلها للصادر والوارد، أجعلتها إلى ابنة الحارث بن عمرو بن حرجة! فلما قدم خالد بن عبد الله والياً على العراق استعداه سعيد على معقل، فضربه له الحد، فقال رجل من بني كلاب لمعقل: يا بن عروة كيف رأيت عاقبة الظلم، ظلمت ابن عمك فضربك حداً، وتركك لا تقبل لك شهادة أبداً، فقال معقل: فهل لك أن ألتحك بمثلها وتحدني؟. قال: لا والله وما حاجتي إلى ذلك.

وقال سعيد لمعقل: والله لولا ما أوهى مني ابن هبيرة لثقبت عن جوفك بخمسة أسواط. وكان يقول: أوفي ابن هبيرة فعل الله به وفعل مني بصراً حديداً، وساعد شديداً.

وقال عمر بن هبيرة لجلسائه: من رجل قيس الذي يقوم بأمرها إن اضطرب الحبل؟ قالوا: الأمير، قال: ما

صنعتم شيئاً. أما الذي تلقي إليه قيس مقاليدها فالأحمر الذي لو تورى ناره أتاه عشرون ألفاً لا يسألونه لم دعوتنا، الهذيل بن زفر بن الحارث.

وأما فارسها فهذا الحمار المحبوس – يعني سعيد بن عمرو الحرشي، لقد هممت بقتله، وأما لسانها فالأصم عبد العزيز بن حاتم بن النعمان الباهلي، وأما داهيتها فعثمان بن حيان المري، وأما أعطف قيس عليها وأبرها بها، فعسيت أن أكونه.

فقال له أعرابي من بني فزارة: ما أنت أيها الأمير كما وصفت. قال: وكيف ويحك؟ قال: لأنك لو كنت أبرها لم تحبس فارسها، ثم تهم بقتله.

قالوا: وولى ابن هبيرة مسلم بن سعيد بن أسلم بن زرعة ثم عزله فقال له: أعزلتني عن خيانة أو تقصير في جباية؟ . فقال: لا، فارجع إلى عملك. فقال: ما كنت لألي إلا أجل منه. فولاه أصبهان، ثم فعل به مثل ذلك فقال له هذا القول حتى ولاه خراسان وقال له: لا تتخذن في عملك ضيعة فيصغر قدرك عند أهله، ولا تتجرن في عملك فتغش رعيتك، وإن اشتكي إليك عامل فاعزله.

قال المدائني: لقي رجل رجلاً من فزارة فقال له: من أين أقبلت؟ فقال: من عند ابن عمنا عمر بن هبيرة، فوالله لقد كلمته في سيد قيس سعيد بن عمرو، وكلمته في سيد الموالي جبلة بن عبد الرحمن فوالله ما شفعني، ولقد حملني ووصلني بعشرة آلاف درهم، وأني لذام له.

المدائني قال: سأل رجل من عبس ابن هبيرة فمنعه، فلما كان الغد أتاه فسأله وقال: أنا العبسي الذي سألك أمس. قال: وأنا الفزاري الذي منعك أمس، فقال: والله ما ظننتك إلا ابن هبيرة المحاربي. قال: فقال: والله أهون لك علي يموت من قومك فلا تعلم بموته، وينشأ مثلي في قومك فلا تعرفه.

وولى عمر بن هبيرة أعرابياً من فزارة عملاً فلما رأى الناس يهدون في يوم النوروز أهدى إلى ابن هبيرة ضباً وقال:

حبا الجام عمال الخراج وحبوتي	محذفة الأذناب صفر الشواكل
رعين الربا والهجل حتى كأنما	كساهن سلطان ثياب المراجل
سيحل بمهديه لعمري فضيلة	على كل حاف من معد وناعل

وولى ابن هبيرة رجلاً من همذان فآتى ما سبذان، فأخذ عاملها فقيده، فقال له العامل ووجوه أهل البلد: انظر في عهدك فنظر فإذا هو همذان فقال: خذوا عاملكم لا بارك الله لكم فيه.

وأتى همدان، فعمد إلى رجل عليه خراج فنصبه ثم رماه بسهم فقتله، فأعطوه خراجهم مبادرين، و لم

يلتووا عليه في درهم فما فوقه.

المدائني قال: ألقى ابن هبيرة إلى مثجور بن غيلان بن خرشه الضبي فصاً أزرق، فقال له: اجعله في خاتمك فإنه حسن – يريد قول الشاعر:

لقد زرقت عيناك يا بن مكعبر	كما كل ضبي من اللؤم أزرق

فشد مثجور على الفص سيراً ثم رده عليه – يريد قول سالم بن دارة:

لا تأمنن فزارياً خلوت به	على قلوصك وأكننها بأسيار

فقال ابن هبيرة: خرج منها.

قالوا: وتنبى في ولاية ابن هبيرة رجلان: ضبي يقال له الأخطل، ورجل من الموالي يقال له سعيد، فكتب إلى يزيد في أمرهما، فكتب: اقتلهما، فقتلهما.

العمري عن الهيثم بن عدي عن عطاء قال: دخلت امرأة جميلة على عمر بن هبيرة، فشكت زوجها وهو شيخ كبير فقال الشيخ: والله إنهم ليعلمون أني أقضي حقوقها وأقوم بنوائبها. فقال للمرأة: يا عدوة الله أحين أدبر غزيره وأقبل هزيره، إن دخل ذل وإن خرج ظن نشزت عنه تريدين البدل منه؟ خذ عدوة الله فأدخلها أضيق بيوتك ثم أوجعها ضرباً.

المدائني عن المفضل بن فضالة قال: بعث ابن هبيرة إلى الحسن والشعبي ، فاجتمعا عنده، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أما بعد فإن أمير المؤمنين يزيد بن عبد الملك عبد من عباد الله أخذ عهده لهم وأعطوه عهودهم أن يسمعوا له ويطيعوا، وأنه يأتيني منه أمور لا أجد من إنفاذها بداً، والحسن ساكت، فقال له: ما تقول يا أبا سعيد؟ قال: إن الله مانعك من يزيد، وإن يزيداً غير مانعك من الله، وإنه يوشك أن يترل به أمر من السماء فيخرجك من سعة قصرك إلى ضيق قبرك، فلا يوسعه إلا عملك، يا بن هبيرة إني أنهاك عن الله أن تتعرض له، فإن الله إنما جعل السلطان ناصراً لدين الله وعباده، فلا تركبوا عباد الله بسلطان الله فتذلوهم، وإنه لا طاعة لمخلوق في معصية خالق.

المدائني قال: أتي ابن هبيرة بقوم فأراد ضربهم فقال له عامر الشعبي: أصلح الله الأمير إن أول من وضع الحبس كان حليماً فمر بحبسهم إلى أن تنظر في أمرهم، فقال: صدقت، وحبسهم.

المدائني: لما ولي عمر بن هبيرة العراق أراد الخيانة فخاف وكان صالح بن عبد الرحمن عند يزيد بن عبد الملك، فقال لكاتبه ابن عبدة العنبري: هل إلى صالح سبيل؟ قال: لا والله وكيف وهو أعف الناس إلا أن تظلمه، قال: فكيف لي بظلمه؟ قال: إنه كان دفع إلى يزيد بن المهلب ستمائة ألف درهم و لم يأخذ بها منه براءة، فكتب ابن هبيرة إلى يزيد بن عبد الملك، إن لي إلى صالح حاجة فإن رأى أمير المؤمنين أن

يوجهه إلي فعل، قال: فدعا يزيد صالحاً فأخبره فقال: والله ما به إلي حاجة ولقد تركت العراق ولو أتاه أكمه أبكم عرف ما فيه، فكتب ابن هبيرة يذكر ما قبله من المال، فدعاه يزيد فأعلمه ذلك فانتفى منه وقال: والله ما بقي علي درهم، قال: فانطلق إليه ليحاسبك ثم تعود.

فانحدر إلى العراق فأمر به ابن هبيرة فعذب، فكان كلما عذب بنوع من العذاب قال: هذا القصاص قد كنت أعذب الناس بمثل هذا. حتى عذب بنوع من العذاب يدعى الفزاري فقال: هذا مما لم أعذب به.

وكان إياس بن معاوية المري دل ابن هبيرة على ذلك، فلما ألح ابن هبيرة على صالح العذاب جاء جبلة بن عبد الرحمن أخو صالح، وجيهان بن محرز، والنعمان الكسكري فضمنوا صالحاً وما عليه فقال للكاتب: أحضروا المال، قالوا: أقبل الليل، فأعلم الكاتب ابن هبيرة ذلك فلم يخرج إليهم حتى أمسوا وانصرفوا، وأصبح صالح ميتاً على مزبلة ألقي عليها ليلاً وبه رمق حتى مات.

وقال أبو عبيدة: كان محمد بن سعد، كاتب يزيد بن عبد الملك، هو الذي عمل في حدر صالح إلى ابن هبيرة، وذلك أن يزيد بن عبد الملك كان ولى صالحاً خراج العراق، وخاف مسلمة على إقطاعه، فقال ابن سعد لصالح: احمل إلي مائتي ألف درهم. فقال: ومن أين أحملها فوالله ما في مالي سعة لها، وما كنت لأخون أمير المؤمنين.

فلما أفضى ابن سعد إلى صالح بذلك وجل منه، فعمل فيه حتى حدره إلى ابن هبيرة، وكان ابن سعد هذا مولى لبعض اليمانية وكان قد ولي قسمة أرزاق أهل اليمامة فأتاه جرير فحرمه، فقال جرير:

تظل عيالي لا فواكه عندهم	وعند ابن سعد سكر وزبيب
وقد كان ظني بابن سعد سعادةً	وما الظن إلا مخطئ ومصيب
فإن ترجعوا رزقي إلي فإنه	متاع ليال والأداء قريب

قالوا: وكان ابن هبيرة أول عمال العراق اختان، فقال يوماً لإياس بن معاوية: ما يقول الناس في؟ قال: خيراً أيها الأمير، قال: أسألك بالله لما صدقني. قال إياس: فقلت في نفسي: والله لأوثرن الله عليك، فقلت له: يزعم الناس أن ثم أمير يصانع بالمال، فإذا أتي به جاءت فلانه جاريته فاحتملته. فقال ابن هبيرة: ما يخفي على الناس شيء. ولم يعزل يزيد ابن هبيرة حتى عزله هشام حين استخلف، وولى العراق خالد بن عبد الله القسري.

المدائني قال: أتى ابن سيرين واسطاً فسأله ابن هبيرة عن البصرة فقال: تركت العلم بها فاشياً. فغضب ابن هبيرة، وأبو الزناد عنده فجعل يقول أنه شيخ، ثم عرض شيء تكلم فيه فضحك ابن هبيرة، وأمر لابن

سيرين بمال فلم يقبله، فقال إياس بن معاوية: ألا تقبل صلة الأمير؟ فقال: إن كان صدقة فلا حاجة لي فيها وإن كان لما علمني الله فلست آخذ عليه أجراً، فأعجب به ابن هبيرة.

المدائني قال: التقى عمرو بن مسلم وجبلة بن عبد الرحمن في طريق ضيقة من طرق واسط، لا يجوز فيها فارسان، فقال عمرو لجبلة: ارجع، فقال: بل ارجع أنت فإنك أقرب إلى السعة مني، فقال: ارجع وإلا وضعت السوط بين أذنيك، ثم ضرب رأس بغلة عمرو حتى رجعت، وتحدث أهل واسط بذلك وأرادوا الإيقاع به، فاستجار بالقصابين فحموه، وقدم ابن هبيرة فحبسه، ثم دعا له فلما كلمه اعجب له وقال: قبح الله من ضيع مثلك، وأنشد:

أكمثرى يزيد الحلق ليناً ... أحب إلي أم تين نضيج

يعرض له بولاية نهاوند أو كرمان. فقال: تين نضيج، فأطلقه وعقد له على كرمان، وعقد له يومئذ لمسلم بن سعيد بن أسلم بن زرعة الكلابي على خراسان، فقال جبلة: كان هذا يتبعني طمعاً في أن أولى عملاً أوليه بعضه قرية أو قريتين، ثم هو اليوم يعقد له على خراسان، ويعقد لي على كرمان.

وقال أبو عبيدة: أخرج جبلة إلى ابن هبيرة مقيداً فقال ابن هبيرة:

ولقد جريت لما ترى من غاية ... فاصبر لما جرمت يمينك حار

فقال جبلة:

لعمرك ما جنيت على سليم ... بأشعاري فيهجوني الشريد

وأودع ابن هبيرة قوماً أموالاً، فأخذ سيراً فلواه على عود ثم كتب عليه: عند فلان كذا وعند فلان كذا، فما نشره ورمى بالعود جاء الكتاب مفرق الحروف لا تجتمع لقارئها، فكان يلوي ذلك السير على عود فتجتمع.

أمر يزيد بن المهلب وقصته

قبل ولاية يزيد بن عبد الملك وفي أيامه.

حدثني عباس بن هشام الكلبي عن أبيه عن أبي مخنف، وقال المدائني عن أشياخه وغيرهما قالوا: ولى الحجاج المهلب خراسان.

قال المدائني: وبعض ولد المهلب يقول: ولاه إياها عبد الملك بن مروان.

فمات المهلب بزاعول وهي قرية بمرو الروذ، وأوصى حبيب بن المهلب أن يسير بجيشه حتى يسلمه إلى يزيد ابنه وكان بمرو. وقال: يزيد خليفتي على خراسان، فتولى يزيد بن المهلب أمر خراسان بعد أبيه،

وكان متجبراً متكبراً فبلغ الحجاج عنه ما يكرهه.

ويكتب المفضل بن المهلب وهو أخوه لأمه بهلة بخبره فيلقيه إليه، فكتب الحجاج إلى حبيب بن المهلب بعد سنة من ولاية يزيد يأمره بالقدوم عليه، فقدم فولاه كرمان، وكتب إلى يزيد أن ابعث إلي أوثق من قبلك في نفسك، فبعث إليه الخيار بن سبرة المجاشعي، وكان من رجال المهلب وخاصته، فقال له الحجاج: أخبرني عن يزيد، فقال: أخبر سراً أم أخبر علانية؟ قال: بل أخبر سراً، واستدناه فقال: لقد رأيت رجلاً إن أقررته و لم تهجه فبالحري أن يفي لك، وإن رمت عزله فلا أحسبه والله يعطيك طاعة أبداً، فقال الحجاج: صدقت، فاحتبسه الحجاج عنده و لم يزعجه للرجوع وولاه عمان وأوصاه بإذلال من بها من أهل بيت المهلب وقال: إن الخيار قدم علي فرأيت رجلاً جزلاً ذا عقل فاحتجت إليه لولاية عمان فوليته إياها. ثم إنه كتب إلى يزيد بعد أشهر يعلمه حاجته إلى مشافهته بأمر لا يحتمله الكتاب، ولا تحمله الرسل، فكتب إليه يعتل بالعدو وبشدة شوكته وانتشاره، فكتب إليه إنه لا بد لك من القدوم، فاستخلف المفضل أخاك على عملك واقدم علي منبسط الأمل، واثقاً برأي أمير المؤمنين فيك.

فأشار عليه حضين بن المنذر الرقاشي بالمقام والمدافعة، وأشار عليه المفضل بالقدوم على الحجاج وقال له: إن شيخنا أوصانا بالطاعة التي هي عزنا وبها كان نباتنا، وإليها تؤول أمورنا. فقال له: ويحك، لئن طمعك في ولاية خراسان فولاك إياها لم يقرك بعدي إلا يسيراً.

وفكر يزيد فقال: إنا قوم شرفنا بالطاعة وبورك لنا فيها، فإن خلعنا أيدينا منها غيرنا ما بنا، والله يقول: "إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم" وأرجو أن لا يقدم الحجاج علي بسوء مع رأي أمير المؤمنين عبد الملك في المهلب وولده وحفظه ما كان من آثاره وبلائه، فاستخلف يزيد المفضل، وسار إلى الحجاج حتى إذا صار إلى اصطخر لقيه موت عبد الملك وقيام الوليد بن عبد الملك، فقال: الآن هلكنا.

فلما قدم على الحجاج أظهر إكرامه وإعظامه وجعل يسايره إذا ركب ولا يحجب عنه.

ثم كتب إلى حبيب بن المهلب، وهو الحرون، وكان قتيبة بن مسلم على الري ودستبى فكتب إليه بولاية خراسان، وأن يحمل المفضل بن المهلب إلى ما قبله، فقدم قتيبة عبد الرحمن بن مسلم أخاه خليفة له، وأمره بأخذ المفضل وعماله وكتابه والاستيثاق منهم إلى قدومه، فلم يشعر المفضل به حتى ورد عليه، فاستوثق منه ومن أصحابه، وقدم قتيبة خراسان فحمله إلى الحجاج فلما توافى عنده: يزيد، وحبيب، والمفضل، وعبد الملك وكان على شرطة البصرة حبسهم أربعتهم، وحبس أبا عيينة بن المهلب، وكان اتهمه بأن لهم أموالاً عنده، وكان أبو عيينة هو الذي زوجه هند بنت المهلب فلم يعبأ بذلك.

وذكروا أن يزيد بن المهلب كان يهوى امرأة رجل كان معه من عبد القيس يقال لها عليب، فدعاه إلى

الشخوص إلى الحجاج فاعتل عليه، فدس إليه من سقاه شربة فقتله، وحول أهله وولده إليه، فكان يأتي المرأة، وبلغ الحجاج ذلك، فلما أراد حبسه بدأ بضربه حداً وقال له: أتزني وأنت والي خراسان؟ فقال الشاعر:

أيور الناس من عصب ولحم وأيرك يا بن دحمة من عظام

وأيرك يا يزيد على المخازي جريء حين يختلط اللطام

وقال أيضاً:

أباح يزيد أيره عرس جاره وكان يزيد لا يخاف المخازيا

قالوا: وتحركت الأكراد بجبال الأهواز، فسار الحجاج حتى نزل رستقاباذ، وبنو المهلب معه، فعسكر بها وخندق على عسكره، وحبس بني المهلب في حظيرة من قصب بالقرب منه، وأمر فحفر حولها خندق وضربت عليهم فساطيط ووكل بهم حرس من أهل الشام، وأمر بعذابهم والبسط عليهم.

وكانت مع الحجاج امرأته عند بنت المهلب فسمعت أصواتهم فصرخت وولولت، فقال الحجاج: يا عدوة الله أتصيحين بحضرتي؟ فقالت له: لا حاجة لي فيك، فطلقها وبعث إليها بمائة ألف درهم فلم تقبلها.

ثم إن يزيد بن المهلب بعث إلى يزيد بن أبي مسلم، وكان على خراجه واستخراجه بمال فلم يقبله، وكان صحيحاً، وقال: لقد لجأت إلي فوالله لأعملن في أمرك عملاً، لو كنت قبلت هذا المال منك ما زدت عليه، فكلم الحجاج في أن يكفل ولد المهلب ويوظف عليهم وظيفة جرماً يؤدونها، فأجابه إلى ذلك، وسأل يزيد بأن يخرج عبد الملك بن المهلب ليسعى في أمرهم ويبيع خيلهم وغيرها، وأن يوجه حبيباً إلى البصرة ليلقى قوماً من صنائعهم وأهل ودائعهم في إعداد ما لهم عندهم وليبيع عقدهم، وجعل يكتب إلى عرفاء الأزد ليأتوه ويجتمعوا عنده فكان كالمناظر لهم في أمر كفالته، وكان يهيئ لهم وللحراس الموكلين بهم طعاماً فيعشيهم، فتعشوا ذات ليلة وقد أظلموا، وأمر فاتخذت له لحية بيضاء مثل لحية طباخه، وللمفضل لحية صفراء كبعض لحى عرفاء الأزد، فلما تعشى الناس وأزعج الحرس من عند يزيد للانصراف لبس ثياباً مثل ثياب طباخه وربط اللحية، ووضع على رأسه قدراً أو طنجيراً فلم يؤبه لذلك، وخرج المفضل وقد اعتم ولحيته صفراء فبادر مع الناس، فخرجا، واحتال عبد الملك بحيلة حتى تخلص من أيدي الموكلين به الذي كانوا يدورون معه فاجتمعوا في موضع اتعدوا للاجتماع فيه، وواعدوا من يقوم بأمرهم وخدمتهم أن يعدوا لهم خيلاً من الخيل التي كان يظهرون أنهم يريدون بيعها وأداء قيمتها فيما ألزمهم الحجاج إياه، وكان الذي ألزمهم ستة آلاف ألف درهم فساروا ليلتهم حتى صاروا إلى زورق قد أعد لهم

بجوخى الأهواز، وانتهوا إلى مفتح دجيل الأهواز فركبوا سفينة أعدت لهم أخرى، ثم خرجوا إلى البطيحة، وتوجهوا إلى موضع كان فيه مروان بن المهلب وقد أعد لهم نجائب فركبوها وساروا إلى الشام، ودليلهم رجل من كلب يقال له عمارة، واستخفى حبيب بن المهلب بالبصرة في بني راسب، وانغمس مروان وبقي أبو عبيدة في يد الحجاج وطلب فلم يقدر عليهم.

وكان المتوجهون إلى الشام: يزيد، والمفضل، وعبد الملك، وقيل إن مروان كان معهم. وصار هؤلاء إلى فلسطين، وبها سليمان بن عبد الملك بن مروان، وكان والياً عليها من قبل أخيه الوليد بن عبد الملك بن مروان، وكان ولي العهد بعده، فكتبوا إلى رجاء بن حيوة الكندي بخبرهم، وشرحوا له أمرهم، وكان أثيراً عند سليمان جريئاً عليه آنساً به، فقال له: إن يزيدا بن المهلب قد أتاك مستجيراً بك، فامتعض من ذلك، فقال له رجاء بن حيوة: من ذا يرجوك وأنت ولي عهد وقد استجار بك مثله فلم تجره، و لم يزل به حتى أجاره، ودعا به وبأخويه فأمنهم، وكتب إلى الوليد يعلمه ذلك، فكتب الوليد إليه فيه كتاباً غليظاً يعجزه فيه في أمرهم ويقول: لهممت أن ألزمك ما يطالب به يزيد، وكان كتاب الحجاج قد سبق إليه يخبرهم.

وكتب الوليد إلى سليمان يعزم عليه أن يحملهم إليه مستوثقاً منهم فوجه بيزيد ومعه ابنه أيوب، وقال له: إذ دخلت على أمير المؤمنين فكن أنت وهو في سلسلة. فلما رآه الوليد قال: إنا لله، لقد شققنا على سليمان. فحط عن آل المهلب ثلاثة آلاف درهم من الستة الآلاف الألف وألزمهم دمشق، فيقال إن سليمان غرمها عنهم، ثم كتب يسأل ردهم إليه ففعل الوليد ذلك.

ويقال إن الوليد نجمها عليهم، فجمع لهم زمل بن عمرو السكسكي من أهل دمشق نجماً، وجمع لهم يزيد بن حصين بن نمير السكوني نجماً آخر، وسار عبد الملك إلى الشام فجمع لهم مالاً عظيماً فأدوا الأنجم.

ثم كتب سليمان إلى الوليد يسأله رد يزيد بن المهلب وأخويه إليه فردهم، فأقام يزيد عند سليمان مكرماً يؤنسه ويخصه حتى مات الوليد، وولي سليمان الخلافة.

وقال حضين بن المنذر في مخالفة يزيد إياه حين أمره بترك القدوم على الحجاج:

أمرتك أمراً حازماً فعصيتني ... فأصبحت مسلوب الإمارة نادماً

وخاف أن يبلغ الحجاج بيته هذا فزاد فيه:

فما أنا بالباكي عليك صبابة ... وما أنا بالداعي لترجع سالماً

وقال نهار بن توسعة التيمي من ربيعة، ويقال ابن سحبان الباهلي حين شخص يزيد من خراسان ثم حبس ومعه المفضل:

أبني بهلة إنما أخزاكما ربي غداة غدا الهمام الأزهر

أغدرتما بأخيكما فوقعتما في قعر مظلمة أخوها المغور

عوذا بتوبة مخلصين فإنما يأبى ويأنف أن يتوب الأخسر

لله در الغافلين لقد عدا فيهم ندى جم وملك قسور

وتبدلت مرو به لخرابها والدهر يتعس بالجدود ويعثر

عوران باهلة الألى في ملكهم مات الندى فمضى وعاش المنكر

شتان من بالصنج أدرك والذي بالسيف أدرك والحروب تسعر

كان مسلم بن عمرو يضرب عند يزيد بن معاوية بالصنج، وقال الفرزدق:

أبا خالد ضاعت خراسان بعدكم وقال ذوو الحاجات أين يزيد

فلا أمطر المروان بعدك قطرة ولا أخضر بالمروين بعدك عود

وقال الفرزدق حين هرب يزيد وإخوته من حبس الحجاج وأجارهم سليمان بن عبد الملك:

لم أر كالقوم الذي تتابعوا على الجسر والحراس غير نيام

مضوا وهم مستيقنون بأنهم إلى أجل يلقونه وحمام

فساروا إلى أوفى قريش لجاره وخيرهم من أيمن وشآم

وقال عمارة الكلبي دليلهم:

وناس من أبناء الملوك هديتهم بلا علم باد ولا ضوء كوكب

ولا قمر إلا ضئيل كأنه سوار حناه صانع السور مذهب

ألا جعل الله الخلائق كلهم فداء على ما كان لابن المهلب

حدثني عباس بن هشام الكلبي عن أبيه عن لوط بن يحيى وعوانة بن الحكم أن سليمان كتب إلى الوليد في أمر يزيد بن المهلب: "أما بعد يا أمير المؤمنين فقد كنت أظن أني لو أجرت عدواً منابذاً لأجرته و لم تخفر ذمتي، فكيف وإنما أجرت سامعاً مطيعاً له شرف وسلف، ولأبيه بلاؤه وآثاره، وله نصيحته ومكانفته، وقد بعثت به إليك، وأنا أعيذك بالله يا أمير المؤمنين من اجترار قطيعتي، وترك بري وصلتي بإخفار ذمتي وحل عقدي، فوالله ما تدري ما بقاؤنا، ومتى يفرق الموت بيننا، فإن رأى أمير المؤمنين أن لا يأتي علينا أجل الوفاة إلا وهو لي واصل، ولحقي راع، وعن مساءتي نازع، فليفعل وليصفح لي عن يزيد، وكل ما

طالبه به الحجاج فإنه علي، فعل إن شاء الله، والسلام" وقال يزيد حين دخل على الوليد فقال: يا أمير المؤمنين إن بلاءكم عندنا أهل البيت أحسن البلاء، فمن ينس ذلك فلسنا بناسيه، ومن يكفر فلسنا بكافريه، وقد كان من آثارنا في طاعتكم والطعن في أعين أعدائكم ما المنة علينا فيه عظيمة. فقال الوليد: اجلس يا يزيد اجلس، وأمنه وكتب إلى الحجاج: "إني لم أصل يزيد بن المهلب وإخوته مع أخي سليمان فاكفف عن آل المهلب جميعاً، ولا أعلمن ما راجعتني فيهم". فكف الحجاج عنهم وخلى سبيل أبي عيينة، وظهر مستخفوهم فلحقوا بالشام.

وحج المفضل وعبد الملك، فولى الوليد يزيد بن أبي كبشة السكسكي – وكان صديق الحجاج – حرب العراق، وأقر يزيد بن أبي مسلم على الخراج.

قالوا: ولما استخلف سليمان بن عبد الملك تتبع من كان بالشام وغير الشام من آل أبي عقيل فدفعهم إلى يزيد، وكان يزيد أول من عزاه بالوليد وسلم عليه بالخلافة، وأمره أن يستأديهم ويبسط عليهم، فولى أمرهم أخاه عبد الملك بن المهلب، فعذب الحكم بن أيوب بن الحكم بن أبي عقيل بن مسعود بن عامر بن معتب بن مالك بن كعب بن عمرو بن سعد بن عوف بن ثقيف حتى قتله بأمر سليمان.

وألح عبد الملك على يوسف بن عمر بن محمد بن الحكم بن أبي عقيل بن مسعود وغضب عليه يوماً فرماه بسفرجلة فشتر عينه، وكان عبد الملك يوكل به من يحفظه ويطوف في غرمه، فدفعه يوماً إلى الحارث بن الجهضمي، فخرج يطوف به، وكان الحارث مغفلاً فقال له يوسف: أريد دخول هذه الدار فإن فيها عمة لي أسألها في غرمي شيئاً، فتركه فدخل الدار ولها بابان فخرج من الباب الآخر فهرب.

وبعث يزيد بن المهلب إلى البلقاء من عمل دمشق، وبها خزائن الحجاج بن يوسف وعياله فنقلهم وما معهم إليه، وكان فيمن أتى به أم الحجاج بن محمد بن يوسف بن الحكم بن أبي عقيل، وهي بنت أخي الحجاج بن يوسف وكانت امرأة يزيد بن عبد الملك بن مروان، وأم الوليد بن يزيد بن عبد الملك المقتول، فكان عبد الملك يعذبها بأمر أخيه يزيد بن المهلب في منزله، فكلمه فيها فأبى أن يشفعه فيها، فقال: الذي وظفتم عليها علي، فأبى قبول ذلك فقال ليزيد: أما والله لئن وليت من الأمر شيئاً لأقطعن منك طابقاً، فقال يزيد بن المهلب: وأنا والله – فلئن كان ذلك – لأرمينك بمائة ألف عنان.

وقال قوم: لم يفعل ذلك بأم الحجاج بنت محمد، وإنما فعله بأختها، فجرى هذا القول بينه وبين يزيد بسببها.

وقال أبو الحسن المدائني: زعم قوم يزيد بن عبد الملك حمل المال عنها، وكان مائة ألف، ويقال أكثر من ذلك.

قال: ولما مضت لسليمان بن عبد الملك أربعون ليلة من خلافته، ولى يزيد بن المهلب حرب العراق وخراجه فاستقال من الخراج، فأراد أن يولي الخراج يزيد بن أبي مسلم، وكان يزيد بن المهلب وصفه بالعفاف لتسهيله أمره، فقال عمر بن عبد العزيز: أتولي يزيد بن أبي مسلم؟ فقال يزيد: هو عفيف عن الدراهم، فقال عمر: إن الشيطان أيضاً عفيف عن الدراهم لم يأخذ درهماً قط.

واستشار سليمان يزيد بن المهلب فيمن يوليه الخراج غير ابن أبي مسلم، فأشار عليه بصالح بن عبد الرحمن وكان صالح مع زاذانفروخ بن بيزي كاتب الحجاج، فلما قتل في أيام بن الأشعث استكتب ابن زاذانفروخ، ثم استكتب صالحاً وهو من سبي سجستان، مولى لبني تميم، وقوم يزعمون أنه مولى لباهلة.

وأمر يزيد وهو على العراق باتخاذ ألف خوان ليطعم عليها، فقال له صالح: بيت المال لا يقوم لهذا، ومنعه أياه.

وشخص يزيد بن المهلب إلى العراق وخراسان مضمومة إليه، وتخلف المفضل وعبد الملك عند سليمان، وكان بهما معجباً، فلما قدم يزيد واسطاً وجد الجراح بن عبد الله الحكمي على البصرة من قبل يزيد بن أبي كبشة، فكتب إليه في المصير إليه، وولى البصرة رجلاً يقال له مروان بن المهلب، وولى سجستان مدرك بن المهلب، وولى عمان زياد بن المهلب، وأمره بقتل الخيار بن سبرة المجاشعي، فقتله فقال الفرزدق:

فلو كنت مثلي يا خيار تعسفت   بك البيد ضرب العوهجي وداعر

ترى إبلاً ما لم تحرك رؤوسها   وهن إذا حركن غير الأباعر

في أبيات. وولى السند حبيب بن المهلب، وكان قتيبة بن مسلم مبايناً لسليمان فخافه حين مات الوليد فخلعه، وذكر عمال خراسان وقبائل من قبائل العرب فعابهم وذمهم، فاجتمعوا عليه فقتلوه، وقلدوا أمرهم وكيع بن أبي سود التميمي.

وحدثني علي الأثرم عن أبي عبيدة قال: أمر سليمان يزيد أن كان قتيبة لم يخلع أن يقتل وكيعاً، وإن كان خلع فلا. وبلغت قتيبة ولاية يزيد بن المهلب العراق وخراسان فقال:

رماني سليمان بأمر أظنه   سيحمله مني على شر مركب

رماني بجبار العراق ومن له   على كل حي حد ناب ومخلب

فأصبحت للعبد المزوني خائفاً   وكان أبي قدماً على دين مصعب

فقال حضين بن المنذر يرد عليه:

أقتيب قد كسبت يداك خطيئةً   فاهرب قتيبة أين منه المهرب

فلأنت أحقر والذي أنا عنده   في فينه من بقة تتذبذب

وكتب سليمان إلى يزيد بن المهلب في الشخوص إلى خراسان لإصلاحها، وتسكين الناس بها، و لم ما انتشر من أمرها، فاستخلف الجراح على العراق، وأتى جرجان ففتحها، وفتح دهستان، وكتب إلى سليمان بفتحهما، وأن قد غنم غنائم عظيمة، فأدى إلى كل ذي حق حقه وبقي بعد ذلك عنده ستة آلاف ألف درهم، ويقال أربعة آلاف ألف درهم، فلم يصل الكتاب إلى سليمان حتى مات، وكان وروده على عمر بن عبد العزيز، وقد استخلف بعد سليمان، فكتب إليه عمر: "أما بعد فإن سليمان كان عبداً من عبيد الله قبضه إليه بعد نفاذ أكله وانقضاء أجله، ثم وليت الأمر بتصييره إليّ، ويزيد بن عبد الملك إن كان بعدي، وليس الذي ولاني الله من ذلك بهين علي، ولو كانت رغبتي في اتخاذ الأزواج واعتقاد الأموال كنت قد بلغت من ذلك أفضل ما يبلغه أحد، وقد بايع من قبلنا، فبايع من قبلك، إن شاء الله".

فلما قرأ يزيد الكتاب قال: الرجل عازلنا لا محالة، وكان عمر رأى يزيد يوماً، وقد دخل على سليمان مختالاً، فقال: إني لأحسب في رأسه غدرة. فقال سليمان: لا تقل هذا يا أبا حفص، وإن يزيد رجل منا، فأغلظ له يزيد، فلما أتى مترله قال: ماذا لقينا من لطيم الحمار.
ثم أتاه يزيد فاعتذر إليه، و لم يلبث يزيد أن كتب إليه عمر يأمره أن يستخلف رجلاً يقدم إلى ما قبله، فاستخلف ابنه مخلد بن يزيد وخرج ومعه وجوه أهل خراسان، وفيهم وكيع بن أبي سود وكان محبوساً قبله فحمله، وكان معه عبد الله بن هلال الهجري الذي يعرف بصديق إبليس، فيزعمون أنه قال له: والله لا تدخل البصرة أميراً أبداً، فانتهى إلى واسط وهو أمير.
وقال معمر بن المثنى أبو عبيدة: قدم يزيد واسطاً قبل موت سليمان، وكان مسيره على طريق الري وحلوان، فكتب إلى سليمان يسأله أن يأذن له في دخول البصرة فأذن له فانحدر وهو لا يعلم بموت سليمان، وقدم عدي بن أرطاة حين قدم واسطاً بعد موت سليمان وهو أمير، ثم شخص إلى البصرة فلما دخل نهر معقل وأشرفت له البصرة ورأى الجنيدة التي تسمى الشهارطاق قال: أين ابن هلال قبحه الله وقبح علمه الذي يدعيه، ثم نظر فإذا سفينة كثيرة الجذافين ليس فيها وطاء، وفيها عدي بن أرطاة الفزاري، وقد ولاه عمر بن عبد العزيز العراق، فقدم واسطاً بعد خروج يزيد منها ببعض يوم فاستعجل ليلحقه، فلما لحقه عدي خرج إليه فصار معه في السفينة، ودفع إليه كتاب عمر فقال: سمعاً وطاعة، ثم خرجا عند الجسر، وقدمت إلى يزيد الدواب فركب، وأمر فقدمت لعدي ومن معه دواب فركبها.
وحشدت الأزد ليزيد وضربوا قبات الآس، وهم يرون أنه الأمير وصار عدي إلى دار الإمارة ويزيد معه إلى أن دخلها، ثم دعا بيزيد فدخل، وكان صالح بن عبد الرحمن مع عدي فقال: قيده أصلح الله الأمير،

فقيده عدي، فلم يزل محبوساً عنده حتى كتب عمر إليه بحمله.

وقال أبو عبيدة: بل كان في عهده أن يقيده ويحمله، فقالوا: فحمله عدي إلى عمر مع موسى بن الوجيه الحميري، وكان يزيد أخذ موسى بتطليق امرأته، وهي أخت أم الفضل بنت غيلان بن خرشة الضبي، امرأة يزيد بن المهلب، وقال: لا أرضى بمسالفتك، وضربه حتى طلقها تحت السياط، وذلك في أيام سليمان بن عبد الملك، فكان موسى يشتمه في طريقه ويزيد يقول له: يا دعي فقال له: يا بن المزونية، وأي دعي أبين دعوة منك، ألست مولى عثمان بن العاص الثقفي، أو لم يقل الشاعر:

نحن قطعنا من أبي صفرة	قلفة من قد خالف الفطرة
لما رأى عثمان غرموله	أنحى له عثمان بالشفرة
ألم يكن أبو صفرة مجوسياً اس	مه بسفروخ فقتلتم أبو صفرة

وحدثني عمر بن شبه، ثنا أبو عاصم النبيل قال: لما احتبس سليمان بن عبد الملك يزيد بن المهلب عنده، ثم ولاه العراق، عزل خراسان عنه، فلم يوله إياها، وولى خراسان قتيبة بن مسلم، وكتب عهده عليها وبعث به إليه، فلما خلع وقتل ولاها يزيد بن المهلب.

قالوا: ولما وافى يزيد بن المهلب عمر بن عبد العزيز قال له: هذا كتابك وهذا خاتمك؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين، كتبته استعطافاً لسليمان علي، وعلمت أنه لا يأخذني مع رأيه في المال، قال: فنحن آخذوك بإقراراك.

وولى عمر الجراح بن عبد الله خراسان، وحبس يزيد بن المهلب، فزعموا أنه مرض في محبسه فأمر عمر بقيوده ففكت عنه، وقدم بمخلد بن يزيد فأتي به عمر فلما دخل عليه وعليه كمة لاطية، وقد شمر ثيابه، قال عمر: ما هذا الزي؟ قال: شمرتم فشمرنا، ثم قال: يا أمير المؤمنين ليسعنا ما وسع الناس من عدلك، ولا نكن أشقى هذه الأمة بك، فقال: إن أباك قد أقر بهذا الكتاب. قال: فأنا أضمن المال الذي فيه، قال: أنت وذاك. قال: فصالحني على بعضه قال: لا، لا. أنا أرى أن آخذه به كله أو أعلم أنه لا شيء عنده فأنظره إلى الميسرة.

فقال: يا أمير المؤمنين، إنما أراد استعطاف سلمان بما كتب إليه به، وهو يحلف، ثم أتى أباه فقال: أتحلف على ما قلت وادعيت؟ فقال: لا والله لا تتحدث العرب بأني صيرت يميني على مال أبداً، فلم يزل محبوساً حتى مرض عمر، فخاف أن يلي يزيد بن عبد الملك فيناله بمعرة لما في نفسه عليه.

وكان يزيد بن المهلب في غرفة أسفلها بيت فاحتيل له - وقد تشاغلت الأحراس عنه - ويقال رشوا

وصونعوا فملئ البيت تبناً، ثم نقب السقف وألقى نفسه ونكر لحيته ولباسه، وأعد له إخوته إبلا ناجية، فركب وركبوا معه، ومضى يؤم العراق، وكان عمر كلهم في يزيد فقال: هو رجل سوء قتال، والحبس خير له.

وقال علي بن محمد المدائني: حلم الجراح بن عبد الله الحكمي مخلد بن يزيد من خراسان على البريد في سلسلة، فقدم به الكوفة ليحمل منها على البريد إلى عمر، فسأله قوم فوصلهم، فقال الناس: ما رأينا أسيراً أكرم من هذا، ما فعل كرام الأمراء إلا دون ما فعل.

وأتاه حمزة بن بيض الحنفي في حمالة فأمر له بها، وله يقول:

أتيناك في حاجة فاقضها	وقل مرحباً تجب المرحب
ولا تكلنا إلى معشر	متى يعدوا عدة يكذبوا
وهمك فيها جسام الأم	ور وهم لداتك أن يلعبوا
بلغت لعشر مضت من سني	ك ما يبلغ السيد الأشيب

ثم حمل على البريد من الكوفة حتى ورد على عمر فدخل عليه فجرى بينهما ما ذكرناه، وشخص حمزة بن بيض إلى يزيد بن المهلب فمدحه فقال:

أصبح في قيدك السماحة والج	ود وحمل الديات والحسب
لا فرح إن تظاهرت نعمٌ	وصابر في البلاء محتسب
برزت سبق الجواد في مهل	وقصرت دون شأوك العرب

فكتب له بخمسمائة دينار، وكتب له إلى وكيله بمال.

وقال الهيثم بن عدي: حبس عمر بن عبد العزيز يزيد بن المهلب في حصن حلب، فلما مرض عمر وهو بدير سمعان، وبلغ ذلك يزيد بن المهلب، دس إلى عامل حلب مالاً وإلى الأحراس، وقال: قد ثقل عمر فليس يرجى فلا تشيطوا بدمي، فإن يزيد إن ولي لم ينظرني فواقاً، فأخرجوه فهرب وهم معه قد أعدوا له الدواب فركبها وأم البصرة، وكتب إلى عمر كتاباً وقال: إن بريء فليدفع إليه. وكان فيه: "إني والله لو وثقت بحياتك ولم أخف وفاتك لم أخرج من محبسك، ولكني لم آمن أن تهلك ويلي يزيد فيقتلني شر قتلة" فورد الكتاب وبه رمق فقال: "اللهم إن كان يريد بالمسلمين سوءاً فاحقه به وهضه، فقد هاضني" قالوا: وتوفي عمر بن عبد العزيز بدير سمعان يوم الجمعة لخمس ليال بقين من رجب سنة إحدى ومائة وهو ابن تسع وثلاثين سنة وأشهر، وذلك قول الواقدي.

وقال أبو نعيم الفضل بن دكين عن سفيان الثوري: كان عمر حين توفي ابن أربعين سنة، ويقال ابن تسع

وثلاثين.

وقال سفيان بن عيينة: قال عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز: مات عمر ابن تسع وثلاثين سنة، قلت: ابن تسع وثلاثين؟ قال: "أم يحسدون الناس على ما أتاهم الله من فضله".

وولي يزيد بن عبد الملك، فلم يكن له همة إلا يزيد بن المهلب، فأخبر بهربه، وقد كان أشير عليه أن يأتي مسلمة وكان بالناعورة وهي من عمل حلب فيستجير به فلفته عن ذلك معاوية ابنه، وكان دليلهم يعدل بهم حتى كادوا يموتون عطشاً.

ووجه يزيد في طلب يزيد بن المهلب الكوثر بن زفر بن الحارث، ويقال الهذيل بن زفر، ويقال الوثيق بن زفر، ويقال تميم بن عمير بن الحباب، ويقال عبد الرحمن بن سليم الكلبي في جماعة، ويقال إنه وجه كل واحد من هؤلاء في وجه، فلم يلحق، و لم يوقع له على أثر.

وكتب يزيد إلى عدي بن أرطاة وهو مقر على البصرة، وإلى عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب وهو مقر على الكوفة، يخبرهما بموت عمر، وبهرب يزيد، ويحذرهما إياه، ويأمرهما بطلبه ويأمر عدياً بحبس من قبله من آل المهلب والاستيثاق منهم، ففعل عدي ذلك، وأشار عليه وكيع بن أبي أسود بقتلهم جميعاً للذي كان في نفسه على يزيد بن المهلب، فقال عدي: ما كنت لأفعل ذلك و لم يجلوا بأنفسهم، قال: فأهدم دورهم فلا يجد يزيد ما يأوي، فأبى، قال: فافتح بين المال واعط الناس يقاتلوا عنك، قال: لم يؤذن لي في ذلك، قال: كأني بك وقد أخذت برقبتك. وكان وكيع في أيامه.

وقال بعضهم: كان الوثيق بن زفر قد كاد يظفر بيزيد فقيل له: إنك أمسكت عنه و لم تجاده، فقال: أجل، قلت إن أدركته فقتلته قتلت رجلاً واحداً، وإن بلغ أهله انقادوا له، ورجوت أن يخلع، فيقتله الله وأهل بيته، فإن في رأسه نزوة.

وقال أبو مخنف: أقبل يزيد بن المهلب حتى ارتفع فوق القطقطانية، فبعث عبد الحميد بن عبد الرحمن: هشام بن مساحق بن عبد الله بن مخرمة - أحد بني عامر بن لؤي - في شرطة الكوفة وأهل القوة منهم فقال هشام: أصلح الله الأمير أآتيك به أسيراً، أم آتيك برأسه؟ فضحك عبد الحميد ثم قال: ذاك إليك، فسار ابن مخرمة حتى نزل العذيب، ومر يزيد قريباً منه فأخبر هشام بذلك فركب فحاد عنه متعمداً، ومضى نحو البصرة.

وقال أبو عبيدة: بعث عبد الحميد: سليمان بن سليم بن كيسان الكلبي لتلقي يزيد وأخذه، فلم يقدر عليه، وقيل إنه غيب عنه.

وقال الهيثم بن عدي: أدرك يزيد بن المهلب الطلب، ورأسه في حجر جاريته فهابته أن توقظه، فرمت

غلاماً له بحصاة وأومأت إليه أن نواصي الخيل قد طلعت فأيقظه غلامه، فقال: اطرد بغلتي في وجوههم فإذا سألوك: لمن هذه؟ فقل ليزيد، فإن قالوا: فأين هو؟ فقل هو ذا فإنهم إذا علموا بموضعي أحجموا، وإن هجموا علي استقلوا من معي فلم يرجعوا. ففعل الغلام ذلك وسألوه فأخبرهم: فأقاموا و لم يقدموا عليه، وجاءه وصيف بالمصلى، والإبريق فتوضأ وما معه إلا برذون أدهم أبيض الأذنين، وعجلان وأبو فديك ومولى له آخر ومن على ثقله.

وقال المدائني: مر يزيد يحدث الرفاق، وهناك مترل الهذيل بن زفر، وكان يزيد خائفاً من الهذيل، فلم يشعر إلا وقد دخل يزيد عليه، ثم دعا بلبن فشربه فاستحيا منه الهذيل وعرض عليه خيله وغيرها فلم يأخذ منه شيئاً، ثم أتى الرصافة وسار في البر حتى أتى القادسية، فوجه عبد الحميد في طلبه فأعجزه حتى دخل البصرة.

المدائني عن بشر بن عيسى أن يزيد بن المهلب دخل البصرة ليلة البدر من شهر رمضان سنة إحدى ومائة، وعليه درع وهو معتم، فمر بالحرس الذي في الأزد ليلاً وعليهم بدل بن نعيم من بني ثعلبة بن يربوع، وكان عدي بن أرطاة صيره هناك في جماعة من بني تميم، فقالوا: من هذا؟ قالوا: الأمير أبو خالد، قالوا: قدمتم خير مقدم ادخلوا بسلام.

فأتى يزيد دار المهلب فاستفتح، فقالوا: حتى يأتي المنهال بن أبي عيينة، وكان عدي صير أمر الدار إليه ليعلمه قدوم يزيد، فبسط له في الرحبة فجلس، وجاء المنهال فقال: افتحوا للأمير، ففتحوا له الباب فلم يدخل، وبعثت إليه هند بنت المهلب بطعام فلم يأكله و لم يقبله، ثم دخل الدار بعده، وجاء بدل بن نعيم إلى عدي فقال له: قدم يزيد الساعة فسرح معي خيلاً حتى آخذه قبل أن يقوى أمره، فأبى عدي ذلك وتفرقت المسالح التي في الأزد.

وكتب يزيد من ليلته إلى يزيد بن عبد الملك يسأله الأمان وبعث إليه بكتابه مع خالد ابنه، وحميد بن عبد الملك بن المهلب، والمثنى بن عبد الملك بن الربعة. ويقال بعث به مع حميد ويزيد بن جديع والمثنى بن عبد الله، ويقال بعثه مع حميد، ويزيد بن جديع، والمثنى بن عبد الله.

وبعث إلى عدي بن أرطاة: القاسم بن عبد الرحمن الهلالي، وأمه فاطمة بنت أبي صفرة، يسأله أن يخلي سبيل إخوته، وقال: أقره السلام وقل له: إني لم أخلع و لم أرد شقاقاً، وقد كتبت إلى أمير المؤمنين أسأله أن يؤمنا، فخل سبيل إخوتي لنخرج عن المصر، فإن أتى كتاب أمير المؤمنين بما نحب فذاك وإلا كنت قد سلمت منا وسلمنا منك.

فأبلغ القاسم بن عبد الرحمن عدياً رسالته، فقال عدي للقاسم: ما ترى؟ قال: أرى أن تشد يدك بهم حتى يضع يزيد يده في يدك، ثم ترى من رأيك. ورجع القاسم إلى يزيد فقال: قد أبى إلا أن تضع يدك في يده،

فبعث يزيد إلى الأزد وربيعة فجاءت الأزد وأبطأت ربيعة، ثم جاؤوا فقال يزيد: لو كنا ندعوكم إلى معصية إن كان ليجب عليكم أن تجيبونا وأنتم إخواننا، فكيف وإنما ندعوكم إلى حق، علام يحبس هذا الرجل إخوتي بغير جرم. وأمر يزيد العرفاء أن يفرضوا للناس ففرضوا، وجعل يعطيهم الفضة يقطعها لهم غلمان رجل من الصيارفة يقال له حريث، وأتى يزيد قوم من القراء والقصاص، وأرسل يزيد إلى الأسواق فحولها أو أكثرها إلى الأزد، واشترى السلاح واعتزل فترل مقبرة بني يشكر. وكانت اليمانية والربعية تختلف إليه، وكانت مضر تأتي عدياً، وكان سبرة بن نخف بن أبي صفرة يختلف إلى عدي معتصماً بالطاعة، فبعث إليه يزيد: يا أبا عمرو إنك تأتي هذا الرجل ولا آمن أن يغتالك بعض المضرية فيذهب دمك، فترك عدياً ولزم بيته.

وكان البختري بن معن بن المغيرة بن أبي صفرة يرى الطاعة أيضاً ويكره ما صنع يزيد فخرج إلى الشام وأتى يزيد بن عبد الملك فقيل له: إنه عين ليزيد بن المهلب. فحبسه، فقال قصيدته التي يقول فيها:

فإن أكن مفرداً بالشام مغترباً ... دوني رتاج له قفل وإقليد

وأصبحت بعد قرب الدار نازحة ... أم الخليل بأرض دونها البيد

وحدثني روح بن عبد المؤمن عن وهب بن جرير بن حازم عن أبيه أن عدياً حبس من بني المهلب: حبيباً الحرون، ومروان، والمفضل، وعبد الملك، واستخفى محمد بن المهلب في الحدان، وتغيب بقية ولد المهلب في قبائل الأزد، فلم يقدر عدي عليهم، وكانوا امتنعوا من المصير إليه، فبعث إليهم من وجوه أهل المصر قوم ناشدهم وقالوا: لا تخافوا أميركم فقالوا: قد مات عمر بن عبد العزيز ولا ندري ما فعله بنا، فلم يزالوا بهم حتى أتوا عدياً فلما أتوه حبسهم.

وحدثني روح بن عبد المؤمن، حدثني علي بن نصر الجهضمي عن مشايخهم أن عدياً بعث الحسن بن أبي الحسن إلى ولد المهلب في عدة منهم: عبد الله، وخالد ابنا عثمان بن عبد الله بن خالد بن أسيد فناشدوهم أن يأتوا أميرهم ولا يؤثروا على الطاعة شيئاً، فقال عبد الملك بن المهلب: إنكم واطأتم عدياً على هلاكنا وليست طاعته بواجبة علينا، فقال له الحسن: كذبت. فغضب عبد الملك وقال للحسن: أتكذبني يا بن اللخناء، وأخذ بقائم سيفه قوال: والله لولا أن أعير بقتلك وأنت في مترلي لضربت عنقك، فأنك عبد تريد استذلال أهل المصر بتخاشعك، وقد حمقت نفسك وعدوت طورك وقدرك، فلم يزل المفضل أخوه يقسم عليه ويسكنه حتى سكن، و لم يجبه الحسن بشيء.

ثم قال له: يا حسن ألم تطمر نفسك من الحجاج حيناً، وليس هذا سلطان بني أميه، وذلك سلطانهم،

ولسنا نأتي عدياً على هذه الحالة لأنا لا نأمنه على دمائنا كما لم تأمن الحجاج على دمك. قال الحسن: فإن عدياً أمنكم من كل ما تكرهون، وأمرني أن أعقد لكم أماناً، وأضمن لكم عنه الوفاء.
فوثق المفضل بقوله و لم يزل بعبد الملك حتى مضى معه إلى عدي، وتخلف الآخرون، فلما دخلا على عدي أخفر الحسن وحبسهما مع حبيب ومروان، ثم بعث بأبي عيينة ومدرك فحبسهما فصاروا ستة فقيدهم جميعا.
فلما حبس بني المهلب صعد المنبر فنعى عمر وأخبر بقيام يزيد بن عاتكة، وكان المغيرة بن عبد الله الباهلي في خمسمائة فارس بالطف، قد جعلهم عدي هناك ليمنع يزيد من دخول البصرة، فلما دنا منه انهزم وأصحابه من غير قتال، فلما انتهى إلى محرس بني تميم قالوا: من هذا؟ قيل الأمير يزيد، فسلموا عليه بالإمرة ودعوا له وانصرفوا إلى عدي فأخبروه بمقدم يزيد، فغضب عليهم وشتمهم وقال: تركتموه حتى دخل، ثم جئتموني تخبروني عنه. قالوا: فعاجله الساعة قبل أن يغلظ أمره وتشتد شوكته فإنه إن أصبح لم تصل إليه.
وسأل يزيد عن إخوته الذي حبسهم عدي مع حبيب ومدرك فقال: هب هذين وليا، فما بال الآخرين؟ وكان مدرك ولي ليزيد على سجستان وولي حبيب السند، فلما عزلهما عدي حبسهما.
و لم يعط عدي الناس من بيت المال شيئاً، وجعل يعطيهم في اليوم درهمين درهمين سلفاً من مال يقترضه ويقول: خذوا هذا حتى يأتيني أمر أمير المؤمنين يزيد، فقد كتبت إليه أن يطلق لي إعطاءكم من بيت المال، وإن أقدمت على إعطائكم من بيت المال لم آمن لائمته وأن لا يحسب ما تأخذونه لي، فقال الفرزدق:

أظن رجال الدرهمين تقودهم — إلى الموت آجال لهم ومصارع
أحزمهم من كان في قعر بيته — وأيقن أن الغرم لا بد واقع

حدثني أحمد بن إبراهيم، ثنا أبو عاصم النبيل عن أبي عامر الخزاز قال: فرض عدي لأصحابه درهمين درهمين، فرأيت رجلاً من أصحاب الحرس وقد طعن فخرج تربه وإنه ليقال له: قل لا إله إلا الله فيقول هاتوا الدرهمين. حتى خرجت نفسه.

حدثني عمر بن شبه عن أبي عاصم عن أبي عامر الخزاز بمثله. وحدثني عباس بن هشام عن أبيه عن أبي مخنف قال: جمع عدي لقدوم يزيد، أهل البصرة وخندق عليها، فبعث على خمس الأزد المغيرة بن زياد بن عمرو العتكي، وعلى خمس تميم محرز بن حمران السعدي أو جيهان ابنه، ويقال عبيد الله بن مضارب الدارمي، وعلى بكر بن وائل عمران بن عامر بن مسمع ويقال نوح بن شيبان المسمعي. والثبت أن رجلاً

من بني قيس بن ثعلبة يقال له أبو منقذ قال: إن الراية لا تصلح إلا في بني مالك بن مسمع، فدعا عدي بن شيبان بن مالك بن مسمع فعقد له على بكر بن وائل، وعقد لمالك بن المنذر بن الجارود على عبد القيس، وعقد لعبد الأعلى بن عبد الله بن عبد الله بن عامر بن كريز على أهل العالية. وقال غير أبي مخنف: عقد لعبد الأعلى بن الفرات الأسدي على أهل العالية.

وأقبل يزيد لا يمر بخيل من خيلهم ولا قبيل من قبائلهم إلا تنحوا له عن الطريق حتى يمضي.

وحدثني روح بن عبد المؤمن عن علي بن نصر الجهضمي عن محمد بن أبي عيينة قال: غضب عمران بن عامر بن مسمع فمال إلى يزيد. وقال أبو الحسن المدائني وأبو عبيدة: كان بالأهواز رجل من أهل الشام من السكاسك يكنى أبا الحسن، واسمه عبد الله بن هارون، فلما بلغه أمر يزيد أقبل لينصر عدي بن أرطاة، فخاف عدي أن يعرض له يزيد، فبعث المسور بن عمر بن عباد بن الحصين والزرد بن عبد الله السعدي ليمنعاه ممن أراده، فبعث يزيد إليه محمد بن المهلب - أخاه - والمهلب بن العلاء بن أبي صفرة، فالتقوا عند الجسر، ففر الزرد والتقى محمد والمسور فضرب محمد المسور فأصاب أنف البيضة، فجرحه على أنفه، وضرب المسور محمداً فتناول محمد السيف من المسور وجذبه فحز في أصابع محمد، والتقى ابن العلاء وأبو السكن فطعنه ابن العلاء ففقأ عينه وتحاجز القوم، فقال الشاعر:

وأفلت في يوم الخميس بنفسه	وكاد يلاقي الموت زرد بني سعد
حززنا بحد السيف كف محمد	ولم نبتئس إن فر زرد بني سعد

وقال قوم من الأزد: كانت ليزيد رمكة بالأهواز فوجه المهلب بن العلاء ليقدم بها، وبلغ ذلك عدياً فسرح المسور لذلك، وأرسل يزيد أخاه ليمنع منه فالتقوا بصهرتاج ووافاهم أبو السكن على تلك الحال فقاتل مع مسور ففقئت عين أبي السكن وجرح مسور على أنفه، وانهزموا.

وقال المدائني: ولى يزيد بكير الفراهيدي من الأزد الجسر، فأقام هناك، ونظم عدي ما بين دار الإمارة والمربد بالخيل والرجال.

قالوا: وسار يزيد لمحاربة عدي، وعدي في دار الإمارة، فأمر بظلال السوق فأحرقت وهدمت الدكاكين، فقال هريم بن أبي طحمة، واسمه عدي بن حارثة بن الشريد بن مرة بن سفيان بن مجاشع بن دارم، وهو أبو الترجمان بن هريم، والمسور بن عمر بن عباد بن الحصين الحبطي، من بني تميم لعدي: ما تناظر من هذا المزوني وأنت أعز منه وأعد، فأمرهما أن يسيرا إلى المربد، وبث خيله في النواحي واستعد للحرب، وكتب إلى يزيد بن عبد الملك يعلمه خلع يزيد بن المهلب، وخرج هريم بن أبي طحمة في جمع كثيف من بني تميم ومن قيس إلى المربد، ووقف هو في القلب في حنظلة وسعد، فوجه يزيد إليهم محمد بن المهلب والمشمعل

الشيباني، ودارس مولى حبيب بن المهلب فقاتل دارس وأصحابه بني تميم من أصحاب عدي، وكانوا في إحدى المجنبتين وهو يقول:

أنا غلام الأزد واسمي دارس إن تميماً ساء ما تمارس

إذا دعونا فارساً لفارس وقال الفرزدق:

تفرقت الجعراء أن صاح دارس ولم يصبروا عند السيوف الصوارم

جزى الله قيساً عن عدي ملامة ألا صبروا حتى تكون ملاحم

وقاتل محمد بن المهلب قيساً وهم في المجنبة الأخرى فهزمهم، وانكشف أصحاب عدي جميعاً، وأعان بشر بن حاتم بن سويد بن منجوف أصحاب يزيد، وقاتل فأبلى، وأتاه محمد بن المهلب شاكراً له، وبعث إليه يزيد بصلة سنية مع عثمان بن المفضل بن المهلب، فزعموا أنه قيل لابن سيرين: أن بكراً أعانت الأزد فتمثل:

إذا كانت الأنصار بكر بن وائل فذلك دين ناقص غير زائد

وكان فيمن قاتل يومئذ سالم المنتوف فقال بعضهم:

إن تميماً ساء ما تمارس ويل لها من سالم ودارس

وقال الفرزدق:

والأزد قد نظمت بالمربدين وقد حلوا بأرعن مثل الطود جرار

وإنما كره محمد ودارس أن يصير أصحاب عدي إليه فيقوى بهم، وكره أصحاب عدي أن يولوا فيكب محمد ودارس عليهم.

قالوا: ولما كان من الغد بعث عدي هريم بن أبي حطمة المجاشعي إلى المسجد المعروف بمسجد الأنصار في خيل، فأرسل يزيد أخاه محمداً وهو ابن الطالقانية، فشد على هريم فاحتضنه وأخذ بمنطقته فقال هريم: عمك يا بن أخي، فتركه.

وقال أبو مخنف في بعض روايته: التقوا عند مسجد الأنصار ليلاً، فأهوى محمد لمنطقه هريم ليحمله فيقتلعه من السرج، فانقطعت منطقته فتركه، وأقبل مسور بن بربذ فضربه محمد على أنفه وانهزم أصحاب عدي.

وقال أبو عبيدة: ضرب محمد بن المهلب مسوراً، ضربه على أنفه، فقال خلف بن خليفة الأقطع:

كسروا راية ابن أم هريم وحذوا مسوراً على الخرطوم

ووجه يزيد عثمان بن المفضل بن المهلب نحو عدي، وقد برز عدي إلى رحبة القصابين، فلقي عثمان خيل عدي فهزمهم وأسر منهم رجلين أطلقهما يزيد. وأبلى عثمان يومئذ بلاء مذكوراً فزوجه يزيد ابنته

الفاضلة بنت يزيد.

وهزم أصحاب عدي في كل ناحية، وقتل خالد بن واقد العقيلي وغيره، وهرب عدي فدخل الدار.

وأخذ دينار السجستاني مولى آل المهلب في العطارين، ثم صار إلى الوزانين، فرمي بصخرة من سطح فأصابت ظهره فمات واحتز رأسه رجل من بني تميم فأتى به عدياً، وقال: هذا رأس بعض بني المهلب، فبعث به عدي إلى المحبسين الذين من ولد المهلب، فقالوا هذا رأس دينار مولانا.

وكان محمد بن المهلب ودارس ومن معهما مواقفين لهريم ومسور وأصحابها لا يقدم بعضهم على بعض، وذلك عند مسجد الأنصار حيث كانت وقعتهم، فلم يزالوا على تلك الحال حتى ظهر يزيد على عدي.

قالوا: والتقى عثمان بن المفضل وأصحاب عدي في الرحبة التي عند دار الإمارة فاقتتلوا، فصرع جيهان بن محرز السعدي، فحماه معاوية بن أبي سفيان بن زياد، فقال الفرزدق:

دعا ابن أبي سفيان والخيل دونه تثير عجاجاً بالسنابك ساطع

فكر عليه مثل ماكر مخدر من الأسد يحمي واردات المشارع

وأم معاوية هذا أم أبان بنت حكيم بن قيس بن عاصم التميمي.

ودنا الناس إلى عدي وهو في دار الإمارة، وألصقوا بالدار، فجعلت نبالهم تقع في الدار، فقال عدي لحبيب بن المهلب: أجرني. قال: لا، ولا كرامة، فقال لأبي عيينة وعبد الملك: أجيراني. فقالا: نعم. وكانت الأصوات إذا خفيت دنا بنو المهلب إلى عدي كأنهم يتعوذون به، وإذا علت دنا عدي منهم متعوذاً بهم.

وجاء عبد الله بن دينار مولى بني عامر وكان على حرس عدي منهزماً، فدق الباب، وقال: افتحوا فقد أخزى الله ابن المهلب فلم يفتح له حتى أسر، ودعا عثمان بن المفضل بسلم فوضعه على بيت المال أو دار الديوان فصعد الناس ثم انحازوا وخرجوا إلى دار الإمارة فأخذوا عدياً، وفتحوا الباب، وأرسل عثمان إلى يزيد رجلاً أعلمه الخبر، فأقبل يزيد حتى وقف على باب الدار وأخرج إليه إخوته، فأمر بإطلاق قيودهم فأطلقت، و لم يدخل الدار ليكون الأمر – زعم – شورى ونادى مناديه: الناس آمنون إلا عدياً وموسى بن وجيه الحميري، فقتل موسى، قتله رجل عطار، وقام أخو جرير بن حازم واسمه مخلد فاعتنق ابن وجيه وقال: اقتلوني وموسى فأصابه السيف، فحمل وهو مثقل فمات بعد أيام.

ويقال إن شقران مولى العتيك شد على موسى فعانقه،وقال: اقتلوني وموسى. وارتث شقران فحمل إلى العتيك فعاش أياماً ثم مات.

وأمر يزيد فحول إليه عدي بن أرطاة وابنه، وحاضر بن أبي حاضر الأسدي ويقال أبو حاضر نفسه، وابن السمط بن شرحبيل بن السمط فقيدوا جميعاً فقال له عدي: لا تغرنك نفسك يا يزيد فقد رأيت جنود

الله من أهل الشام وبلاءه عندهم فتدارك أمرك قبل أن يشخصوا إليك، واعلم أن بقائي أبقى لك، ولئن طلبت الإقالة فهو خير لك.

وقال الفرزدق:

أعطي عدي باسته واست أمه أبا خالد والخيل تدمى نحورها

وأجمع قوم على الخروج من البصرة منهم: هريم بن أبي طحمة، والمسور، وعمرو بن يزيد بن عمير الأسدي، ومحمد بن رباط الفقيمي، وهداب بن مسعود المازني، ومالك بن المنذر ين الجارود، والحواري بن زياد بن عمرو العتكي، فمضوا إلى الكوفة، فأكرمهم عبد الحميد بن عبد الرحمن الأعرج عامل الكوفة من قبل يزيد بن عبد الملك، وكان عاملاً لعمر بن عبد العزيز، فأقره يزيد على الكوفة وأدنى مالك بن المنذر، فحسده عمر بن يزيد فسعى به وقال: هو عين ليزيد عليك. وقال السرادق الباهلي:

غاب العرانين من قيس ولو شهدوا يوم ابن أرطاة ما سبت به مضر

قالوا: ولما ظهر يزيد على عدي أقام يومه ذاك في دار بحيال المسجد الجامع، فلما أصبح أمر فنودي في الناس فحضروا المسجد وحشدوا، فخطبهم، فحمد الله وأثنى عليه وقال: "يا أيها الناس إنا غضبنا لكم فانظروا لأنفسكم رجلاً يحكم فيكم بالعدل، ويقسم فيكم بالسوية، ويقيم فيكم الكتاب والسنة، ويسير بسيرة الخلفاء الراشدين".

فقال الحسن بن أبي الحسن البصري: يا عجباً من يزيد إنه بالأمس يضرب أعناق هؤلاء الذين اتبعوه تقرباً على بني مروان، حتى إذا منعوه شيئاً من دنياهم، وأخذوا بحق الله عليه غضب فعقد خرقاً على قصب ثم نعق بأعلاج فاتبعوه، وقال: إني قد خالفت هؤلاء فخالفوهم، ثم يدعوهم إلى كتاب الله وسيرة الخلفاء الراشدين، ألا وإن من سيرة الخلفاء الراشدين أن يوضع في رجله قيد ويرد إلى محبس عمر، فقال رجل للحسن: كأنك راض عن أهل الشام؟ فقال: قبح الله أهل الشام وترحهم. أليسوا الذي أحلوا ما حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثة أيام. وأباحوا أنباطهم وأقباطهم، لا يتناهون عن سيئة ولا انتهاك حرمة، ثم نصبوا المجانيق يرمون بيت الله، فلم يهج يزيد الحسن وكف عنه.

وحدثني أحمد بن إبراهيم الدورقي: ثنا أبو داود الطيالسي، ثنا شعبة عن الحسن أنه قال في فتنة يزيد بن المهلب: كلما نعر لهم ناعر اتبعوه، هذا عدوا الله ابن المهلب.

وحدثني عبد الواحد بن غياث عن جويرية بن أسماء قال: ذكر ابن المهلب عند الحسن فقال: فاسق قاتل الناس مع هؤلاء على غير هدى، ثم غضب غضبة، فعقد خرقاً على قضيب، ثم نعق بأعلاج وطغام

فاتبعوه، فهو يزعم أنه يدعوهم إلى كتاب الله، وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، وسيرة الخلفاء الراشدين إلا وإن من سيرة الخلفاء الراشدين أن يوضع في رجله قيد ويرد إلى محبس عمر.

وحدثني أحمد بن إبراهيم الدورقي، ثنا وهب بن جرير بن حازم، ثنا عمر بن يزيد قال: سمعت الحسن أيام ابن المهلب يقول: والله لو أن الناس إذا ابتلوا من قبل سلطانهم صبروا لم يلبثوا أن يفرج الله عنهم، ولكنهم يفزعون إلى السيف فيكلهم الله إليه، فوالله ما جاء الجازع إلى السيف بيوم خير قط.

قالوا: وبايع الناس يزيد بن المهلب على كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وتحول إلى دار الإمارة، ووجد في بيت المال عشرة آلاف درهم، وخندق على البصرة، وولى شرطته عثمان بن أبي الحكم الهنائي من الأزد، واستعمل محمد بن المهلب على فارس، وهلال بن عياض الهنائي على الأهواز، وزياد بن المهلب على عمان، والمهلب بن أبي عيينة على جزيرة ابن كاوان، والأشعث بن عبد الله بن الجارود أو مهزم بن القرن العبدي على البحرين، وولى مدرك بن المهلب خراسان، وولى وداع بن حميد اليحمدي من الأزد قندابيل، فقال له حبيب بن المهلب: لا توله فإن في رأسه وعينيه غدرة، فكان من أمره أنه أغلقها دونهم، فقال المفضل: رحم الله أبا بسطام – يعني حبيباً – لأنه كان يرى أمر وداع، ويقال إن وداعاً كان قتل قبل هربهم إلى قندابيل.

قالوا: ولما كان يوم الفطر خرج يزيد بن المهلب إلى المصلى فخلع يزيد بن عبد الملك، وشتم بني مروان، ودعا إلى الرضا من بني هاشم، وذكر عبد الحميد بن عبد الرحمن فقال: وهذه الضبعة العرجاء مضطجعاً بالكوفة، فأخذ الناس عليه قوله: الضبعة، وإنما هي الضبع والذكر ضبعان.

وأصاب الناس يومئذ مطر شديد، فانصرفوا وانصرف يزيد عن المصلى إلى الأزد وصحبه ناس قليل فغداهم وكساهم وأعطاهم مالاً قسم بينهم، ثم رجع إلى دار الإمارة.

ووجه يزيد بن المهلب إلى بسطام بن مري المعروف بشوذب الشاري السميدع، ويقال حبيب بن خدرة يدعوه إلى نصرته، فقال شوذب للذي أرسله يزيد يريد من هذين الرجلين: لولا مكانك من الدين لقتلتك. أتدعوني إلى نصر يزيد؟ وضربه عشرين سوطاً. وكان السميدع وحبيب صفريين.

قالوا: وقدم عبد الملك ومالك ابنا مسمع بن مالك بن مسمع من السند، فكرها أن يقاتلا يزيد، فدعوا بني بكر إلى نصرة عدي، وكتبا إلى يزيد بن عبد الملك كتاباً في أمر يزيد بن المهلب، فصار الكتاب إلى ابن المهلب فقال: أراهما يعينان علي ويبغياني الغوائل فحبسهما مع عدي وأصحابه.

قالوا: وكان قتادة بن دعامة السدوسي الفقيه ينتقص يزيد بن المهلب وينال منه، فبلغ ذلك يزيداً فأرسل يزيد إليه، وهو في الأزد، فلما دخل عليه شتمه، فأغلظ له قتادة فقال السميدع: دعني أبعج بطن هذا

الأعمى، أعمى الله قلبه كما أنه أعمى البصر والقلب، فقال يزيد: أنا أراقب قومه، وأمر به فوجئ في عنقه ووضع فيها حبل وبعث به إلى الأهواز فحبس فيها. وخرج قتادة وهو يبكي فقال له رجل: أتبكي يا أبا الخطاب؟ قال: نعم مما أرى. فلم يزل محبوساً حتى قتل يزيد فأخرجه صاحب السجن وكان من بني عجل. وكتب ابن المهلب إلى زياد بن المهلب، وهو بعمان، أن يفرض ففرض لثلاثة آلاف رجل من أهل عمان، واستعمل عليهم المشماس بن عمرو الأزدي ثم الجديدي، فقدموا على يزيد، قالوا: وكان بالبصرة قاض يقال له زيدل، فشاور الحسن في صحبة يزيد فنهاه فصحبه، فأخبر يزيد بقول الحسن فقال: يا قوم مالي وللحسن يخذل الناس عني، إني لأخاف والله نفسي عليه، فكان الحسن يقول: يأتينا أقوام فينتصحونا فننتصح لهم فيسيئون بنا، زيدل، وما زيدل، لعن الله زيدلاً.

وقال يزيد وذكر الحسن: والله ما أدري ما استبقاني إياه فإنه شيخ جاهل، لهممت أن أضربه حتى يموت، فقال المفضل: أصلح الله الأمير، إن له قدماً وفضلاً وقدراً بالمصر، فكفه ذلك عنه.

وقال الشاعر:

لبئس ما أبلت تميم أمس   عند ابن أرطاة وعند البأس
لم يصلحوا إلا للقم دحس   وفلق البرني والتحسي
ولت تميم بظهور قعس   وأسلمت أدبارها للنخس

وقال يحيى بن أبي حفصة:

لو نال عقداً عدي من حبالهم   ما حل بالسجن في قيد وأصفاد
إن يقتلوك فإن الله قاتلهم   ودون قتلك يوم شره باد
آل المهلب قوم خانه غدر   لن يهدي الله كيد الخائن العادي

وحدثت عن مرحوم العطار عن أبيه قال: لما كانت فتنة يزيد اختلق الناس في أمره، فانطلقت ورجل آخر إلى محمد بن سيرين فقلنا: ما ترى يا أبا بكر؟ قال: انظروا حين قتل عثمان ما صنع ابن عمر فاقتدوا به، فإن عبد الله بن عمر كف يده.

حدثني أبو الربيع الزهراني، ثنا حماد بن زيد عن كلثوم بن جبر قال: قلت للحسن: إن أكرهني يزيد بن المهلب على الخروج معه فحمل علي رجل؟ قال: تناشده. قلت: فإن أبى؟ قال: فكن عبد الله المقتول.

قال: فخرجت إلى مكة فسألت مجاهداً فقال لي مثل قول الحسن.

ودعا يزيد للفضل بن عبد الرحمن بن العباس بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب بن هاشم وبايعه فتوارى، وهرب عبد الواحد من ولد ابن عامر بن كريز، وخالد بن صفوان بن عبد الله بن الأهتم المنقري

الخطيب وجماعة من بني تميم وغيرهم. قالوا: ولما ورد حميد بن عبد الملك المهلب، وخالد بن يزيد بن المهلب على يزيد بن عبد الملك بكتاب ابن المهلب إليه في طلب الأمان استشار الناس في أمانه، فقالت المضرية: لا تؤمنه فإنه أحمق غدار، وقالت اليمانية تؤمنه فتحقن الدماء ويستصلحه قومه. فأمر فكتب له أمان على أن يقي ببلده، وأنفذه مع خالد بن عبد الله القسري، وعمر بن يزيد الحكمي، وصرف حميداً وخالداً معه، فتقدم خالد بن يزيد إلى أبيه بالبشارة.

وكان يزيد بن عبد الملك قد ولى عبد الرحمن بن سليم الكلبي خراسان، فلما كان ببعض الطريق مما يلي الكوفة بلغه ما صنع يزيد بن المهلب بعده، فأقام مكانه، وورد خالد بن عبد الله القسري، وعمر بن يزيد الحكمي ومعهما حميد بن عبد الملك بن المهلب فلقيهم الحواري بن زياد بن عمرو العتكي، وكان قد صار إلى عبد الحميد فحمله من الكوفة على البريد إلى يزيد بن عبد الملك فأخبرهم بما فعل يزيد بن المهلب وقال: تركت عدياً محبوساً مقيداً فقال حميد: إن هذا عدو لنا فهو يشنع علينا.
وساروا حتى بلغوا الموضع الذي به عبد الرحمن بن سليم بقرب الكوفة فشد عبد الرحمن على حميد بن عبد الملك فاستوثق منه، وأخبر عبد الرحمن بن خالد بن عبد الله والحكمي بما فعل يزيد بن المهلب وقال: لا تنفذا إليه.
وقال أبو مخنف: ولى يزيد بن عبد الملك عبد الرحمن بن سليم الكلبي خراسان، فلما كان بقرب الكوفة، بلغه ما كان من ابن المهلب، فأقام وكتب إلى يزيد بن عبد الملك: إن جهاد من خالفك أحب إلي من ولاية خراسان فاجعلني ممن تنهضه لقتال ابن المهلب، فقد عصا وخلع وحبس عدياً.
وورد عليه خالد بن عبد الله، وعمر بن يزيد بالموضع الذي أقام به، ومعهما حميد فقال لهما: لا تنفذا، وشد عبد الرحمن على حميد فبعث به إلى يزيد بن عبد الملك فحبسه.
ووثب عبد الحميد بن عبد الرحمن على خالد بن يزيد بن المهلب حين قدم الكوفة يريد أباه ليبشره – زعم – بالأمان، فبعث به إلى يزيد أيضاً فحبسه، فلم يفارق حميد وخالد الحبس حتى هلكا فيه بالطاعون ويقال بل قتلا فيه، ويقال إن ابن جهم بن زحر كان معه فحبسه عبد الحميد.
وورد الحواري على يزيد بن عبد الملك فصدقه عن خبر ابن المهلب فعندها أمر بتوجيه الجنود إليه، وبعث يزيد إلى أهل الكوفة رجالاً من أهل الشام يسكنوهم ويثنون عليهم بطاعتهم، ويعدونهم الزيادة في أعطياتهم، وفيهم القطامي بن جمل الكلبي واسم القطامي حصين.
وكان القطامي في حين بلغه أمر يزيد بن المهلب قال:

لعل عيني أن ترى يزيدا تقود جيشاً جحفلاً رشيداً

نسمع للأرض به وئيدا لا برما جبساً ولا حيودا

ولا جباناً في الوغى رعديدا

ثم أنه بعد ذلك سار مع مسلمة بن عبد الملك فحارب يزيد بن المهلب، فقال يزيد: ما أبعد شعر القطامي بن جمال عن فعله.

وحدثني عمر بن بكير عن الهيثم بن عدي عن عوانة قال: مر يزيد بن المهلب بفرقد السبخي، ومع يزيد إخوته: عبد الملك، والمفضل، وأبو عيينة، فوقف على فرقد وعليه جبة صوف وعلى عاتقه منجل، فقال له: يا أبا يعقوب إن بني أمية ابتزوا الناس أمورهم فلو خرجت سارع الناس إليك، فقال: هيه، اذهب عنا. فقال إخوته: من هذا؟ قال: فرقد السبخي. فقال المفضل: إنا لله وإنا إليه راجعون، بعد الأحنف بن قيس والمهلب، ومالك بن مسمع صرنا إلى فرقد السبخي؟ هلكنا ورب الكعبة.

قالوا: ووجه يزيد بن عبد الملك – وهو يزيد بن عاتكة – مسلمة بن عبد الملك، والعباس بن يزيد بن عبد الملك في جمع عظيم من أهل الشام والجزيرة يقال إن مبلغه سبعون ألفاً، ويقال ثمانون ألفاً.

وكان يزيد حين خلع قال: إني لأرجو أن أهدم مدينة دمشق حجراً حجراً. فقال الفرزدق:

تخبرك الكهان أنك ناقص دمشق التي قد كانت الجن جزت

لها من جبال الثلج صخراً كأنه قناعيس حتى أشرفت واشمخرت

أتتك خيول الشام تخطر بالقنا لها خرق كالطير لما استعلت

يقود نواصيها إليك مبارك إذا ما تصدى للكتيبة ولت

من آل أبي العاص حوالي لوائه ثمانون ألفاً كلها قد أظلت

حدثني العمري عن الهيثم بن عدي عن أشياخه قال: نزل مسلمة والعباس النخيلة بالكوفة، فقال مسلمة: ليت هذا المزوني لا يكلفنا اتباعه في هذا البرد، فقال حسان النبطي: أنا أضمن لك أن يزيد لا يبره الأرصة – يريد أنا أضمن لك أن يزيد لا يبرح العرصة– فقال العباس: لا أم لك أنت بالنبطية أبصر منك بهذا، فقال حسان له: نبط الله وجهك أشقر أحمر أزرق ليس إليه طابئ الخلافة – يريد أشقر أحمر ليس عليه طابع الخلافة، فقال مسلمة: يا أبا سفيان، لا يهولنك قول العباس. قال: إنه أهمق لا يأرف – يريد أحمق لا يعرف – .

قالوا: وقد كان جرى بين العباس ومسلمة اختلاف، فبلغ ذلك يزيد بن عاتكة، فوجه عثمان بن حيان

المري ليصلح بينهما، وضمن له يزيد بن عاتكة إن فعل أن يفك عنه حدين كان حده إياهما أبو بكر بن محمد بن عمرو بن حزم الأنصاري، وهو يومئذ عامل على سليمان بن عبد الملك على المدينة، أحدهما لرجل من قريش قال له: يا مخنث، أو يا منكوح، والآخر في شراب.

فلما أصلح بينهما واستقام أمرهما عزل يزيد ابن حزم، وكان عامله بعد سليمان وعمر أيضاً، فاقتص عثمان منه الحدين، وكان شاعر الأنصار قال:

نحن ضربنا الفاسق ابن حيان حدين لم نخلطهما ببهتان

فقال شاعر قيس:

نحن ضربنا الفاسق ابن حزم حدين لم نخلطهما بإثم

قالوا: لما بلغ يزيد بن المهلب إقبال مسلمة والعباس في جند من أهل الشام والجزيرة، كتب إلى محمد بن المهلب في القدوم من فارس، فقدم عليه وقيل له: ائت فارس فإن بها قلاعاً منيعة فإن أعطيت ما تريد، وإلا أتيت خراسان، فقال: أمع الوعول بفارس؟ فقال محمد: أقم فقاتل بأهل مصرك. فقال حبيب: لا تخدعن فإن أهل مصرك غير مقاتلين معك، ولكن احمل هذا المال واخرج إلى الموصل فادع عشيرتك بها، فقال: يا أبا بسطام أردت تقريبي من عدوي فيقتلني في بلاده؟ لا ولكني آت واسطاً ثم أقرب إلى الكوفة وأرتاد مكاناً فيه مجالاً للخيل، وأرجو أن ينضم إلي أهل الكوفة مثل من معي من أهل البصرة.

فعسكر بالبصرة عند الجسر، وأمر مروان بن المهلب أن يستنفر الناس، وكان الحسن البصري يثبط الناس عنه ويحذرهم الفتنة، فأخذ مروان ناساً من أصحاب الحسن فحبسهم فكف عند ذلك فخلاهم مروان.

ثم وجه يزيد بن عبد الملك بن المهلب في أربعة آلاف إلى واسط فأتاها وخرج يزيد من البصرة يؤم واسطاً، واستخلف على البصرة مروان بن المهلب، فأتي مروان بمرتد فاستشار فيه الحسن فقال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من بدل دينه فاقتلوه" فقتله.

وقدم يزيد واسطاً في ستة عشر ألفاً، وشخص معه بعدي بن أرطاة ومن حبسه معه، وتكلم الناس فعظموا أمر أهل الشام، فخطبهم فقال: رأيت ارتجاس هذا العسكر بقولهم جاء مسلمة، وجاء العباس، وجاء أهل الشام. وما أهل الشام هل هم إلا تسعة أسياف سبعة منها لي وسفيان علي؟ وما مسلمة؟ جرداء صفراء. وما العباس؟ نسطوس بن نسطوس أتاكم في برابرة وجرامقة وجراجمة وأنباط وأبناء فلاحين وأوباش أخلاط كاسلاء اللحم وأقباط. أليس لكم جنن كجننهم، أو ليسوا بشراً يألمون كما تألمون، وترجون من الله ملا يرجون، فأعيروني سواعدكم ساعة تصفعون بها خراطيمهم. وكان خالد بن صفوان هرب من البصرة فلقيه يزيد بواسط وكانت بوجهه بثرة عليها دواء فاستأذنه وقال إنه وصف لي شرب التيادر

بطوس، فأذن له، فتنحى.

وقال يزيد بن الحكم بن أبي العاص أو غيره.

أبا خالد قد هجت حرباً فلا تقم — وقد شمرت حرب عوان فشمر

فقال يزيد حين بلغه هذا البيت: قد كان ذاك.

وإن بني مروان قد زال ملكهم — فإن كنت لم تشعر بذلك فاشعر

فعش ملكاً أو مت كريماً وإن تمت — وسيفك مشهور بكفك تعذر

فقال يزيد: أما هذا فنعم.

وقال عطية بن السائب الشني:

أبا خالد إن المنايا مطلة — فمت صابراً قدماً كما مات مصعب

ولا تقبلن خسفاً فما من سعادة — لمن عاش مذموماً يلام ويقضب

فلما سمع يزيد قوله: كما مات مصعب. قال: صدق فوك ووجه يزيد إخوته يرتادون له موضعاً للمعسكر بالعقر، فخلف على واسط ابنه معاوية بن يزيد، وخلف عدي بن أرطاة ومن حبس معه عنده، وسار يزيد حتى نزل معسكره بالعقر بين المدائن والكوفة وهو من سوراء، وأتاه ناس من أهل الكوفة يعينونه.

ونزل عبد الحميد بن عبد الرحمن النخيلة وبثق الأنهار لئلا يصل أحد إلى الكوفة، وبعث مع سند بن هانئ الهمداني جيشاً على مسلمة ليقاتلوا ابن المهلب معه، وقال الفرزدق:

هلا زجرت الطير إن كنت زاجراً — غداة نزلت العقر إنك تعقر

ولما قرب أهل الشام منه وجه أخاه محمداً، وكان يسمى المشؤوم، وابنه المعارك، في جمع كثيف فلقوا العباس بن الوليد بسوراء وهو في أربعة آلاف سوى من صار إليه من أهل البصرة مخالفين ليزيد، فالتقوا فانكشف أهل الشام، وصبر هريم ب أبي طحمة وأهل البصرة، فناداهم هريم: يا أهل الشام لا تسلمونا فعطفوا، وأقدم هريم وهو يقول:

لما رأوني في الكتيبة معلماً — أغشى الكريهة مثل ضوء كوكب

فاستيقنوا مني بضرب صادق — ليست عداوتنا كبرق خلب

فهزموا أصحاب يزيد حين بلغوا إليه، فقال الفرزدق:

أحل هريم يوم سوراء بالقنا — نذور نساء من تميم فحلت

وقالت محمد بن المهلب ليزيد: لو وجهت إليهم خيلاً فحركتهم. فعقد يزيد لعبد الله بن حيان العبدي على أربعة آلاف، وضم إليه فضيل بن هناد الأزدي ثم الفراصي في خيل، وضم إليه سالماً المنتوف في خيل، وصيره على خيل بكر بن وائل فعبروا الصراة، ووجه إليهم مسلمة سعيد بن عمرو بن أسود بن مالك بن كعب بن وقدان بن الحريش بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة في أربعة آلاف، وكان لأهل الشام كمين فاقتتلوا فقتل عبد الله بن حيان، وفارس من أصحاب فضيل بن هناد، وجال أهل العراق وخرج كمين أهل الشام عليهم عند جولتهم فكانت الهزيمة فلم يلووا على أحد حتى أتوا يزيد، وعثر بسالم المنتوف فرسه فصرع فأخذوه أسيراً فقال لمسلمة: استبقني لقتال الروم، فقال: يا بن اللخناء طالما كفيناك قتال الروم وكفاناهم الله قبلك، وأمر به فقتل فقال موسى بن حكيم السعدي:

وبالمنتوف عبدكم فخرتم فهلا بالصراة حمى الذمارا

ثم عبر مسلمة الصراة، وخلف الأثقال، وخندق خندقين، فقال المهلب بن العلاء بن أبي صفرة: إن هؤلاء قد خندقوا خندقاً بعد خندق ولا آمن من يصلوا بخندقهم إلى خندقنا فعاجلهم، فضحك يزيد وقال: إن وصلوا فمه. فما أظن العسكرين ضما رجلاً أضعف قلباً منك، فقال حبيب بن المهلب: أما والله إنك لتعرفه بغير الجبن وقد أشار عليك بالرأي ورماك به فبيتهم وعاجلهم.

فهم يزيد بذلك فقال بعض من معه من القراء: لا يحل لنا أن نبيتهم حتى ندعوهم، فأقاموا أياماً ثم التقوا.

قالوا: ولما كان اليوم الذي قتل فيه يزيد، وهو يوم الجمعة لأربع عشرة ليلة خلت من صفر، سنة اثنتين ومائة، خرج لأهل الشام ومنسر لأهل العراق فتهايجوا، فسمع يزيد ضجة فقال: ما هذا؟ فقيل: الناس يقتتلون. فدعا يزيد بدرعه وثيابه فلبسها وخرج ووضع له كرسي على باب خندقه، ووضع لمحمد كرسي آخر وجعلا يتحدثان، وقد كانت أصابت يزيد خلفة قبل ذلك فضعف، فأمر الناس فتقدموا وعلى ميمنته حبيب بن المهلب، وعلى الميسرة المفضل بن المهلب، والراية مع المهلب بن العلاء، وركب محمد فرسه فلحق بهم فصار ومن معه على حاميتهم.

وزحف أهل الشام، وفي ميمنتهم الهذيل بن زفر بن الحارث الكلابي، وفي الميسرة القعقاع بن خليل بن جزي العبسي، ويقال الوليد بن تليد العبسي، والوضاح البربري مولى عبد الملك في الوضاحية. ولوضاح هذا يقول جرير بن عطية:

لقد جاهد الوضاح بالحق معلماً فأورث مجداً باقياً أهل بربرا

فاقتتلوا وصبر الناس، فقال مسلمة للوضاح: انطلق إلى جسر الصراة فأحرقه وأحرق السفن التي في الصراة. فأحرق الجسر وبعض السفن فلما رأوا النار اضطرب عسكر يزيد فقال يزيد ما للناس؟ قيل:

انهزموا. قال: و لم؟ قيل: أحرق الجسر. فقال: لعنهم الله رعاج نفخ فطار، بئس حشو الكتيبة والعسكر، كأنهم غنم شد في ناحيتها ذئب.

وصبر أهل الحفاظ، وفقئت عين المفضل، وجاء محمد وقد ضرب على جبهته بعمود فقال له يزيد: من ضربك؟ قال: لا أدري إلا أنه قال حين ضربني: أنا الغلام الحرشي فظننته سعيد بن عمرو الحرشي.

وكان يزيد جالساً على كرسيه ينقل من مكان إلى مكان، ووضع على نشز من الأرض فنظر فإذا فرس حبيب بن المهلب قد جاء غائراً. فقال: هذا والله فرس أبي بسطام ولا أحسبه إلا قد قتل، وقال له بعض من معه: إني لأظنه كما قلت وأنت تشم التفاح، وكان معه تفاحة يشمها لضعفه.

فدعا يزيد بفرسه الأشقر ثم ذكر قولا القائل في الأشقر: إن تقدم نحر وإن تأخر عقر، فتطير وقال: ائتوني بفرسي الأشهب فأتي به فركبه وحمل فلما توسط المعركة لقيه القحل بن عياش بن حسان بن سمير بن شراحيل بن عزين من ولد زهير بن جناب الكلبي، فاختلفا ضربتين فقتل كل واحد منهما صاحبه، وله يقول في المسيب بن رفل بن حارثة بن جناب بن قيس بن أبي جابر بن زهير بن جناب الكلبي:

قتلنا يزيد بن المهلب بعدما	تمنيتم أن يغلب الحق باطله
وما كان في أهل العراق منافقاً	عن الدين إلا من قضاعة قاتله
تخلله فحل بأبيض صارم	حسام جلا عن شفريته صياقلة

وقال أبو مخنف: جلس مسلمة على تل وحوله حماة أهل الشام، وقصد أصحاب يزيد التل فلما رآهم مقبلين انحدر، وركب يزيد فرساً له أشهب وقاتل فصدم أهل الشام أهل العراق صدمة منكرة واختلط الناس، وفقد يزيد فقال المهلب بن العلاء: ويحكم اطلبوا محمد بن المهلب فإن فيه خلفاً من يزيد إن كان يزيد قتل، فطلب يزيد فلم يوجد فألقى ابن العلاء اللواء وخنس الناس.

ودخل أهل الشام عسكر يزيد فأسروا ثلاثمائة فسمي ذلك اليوم يوم التل، ويوم العقر لأن مسلمة كان على تل، فلما أقبل الناس نحوه نزل عنه.

وقتل في المعركة يزيد بن المهلب، وحبيب، ومحمد بن المهلب، وعبد ربه، والحجاج بنو يزيد بن المهلب، وحرب بن محمد.

وقال قوم من قيس: قتل يزيد الهذيل بن زفر بن الحارث الكلابي، وقيل للهذيل: انزل فاحتز رأسه فأنف وقال: أنا أنزل فأحتز رأسه؟ – استنكافاً–.

وقدم فل يزيد بن المهلب واسطاً على معاوية بن يزيد بن المهلب، فقدم عدي بن أرطاة ومن في الحبس

معه فقتلهم، وأراد قتل نساء آل بن المهلب لئلا يؤسرن فأغلقن الباب دونه، فقال: أولى، أما والله لو ظفرت بكن ما أبقيت منكن واحدة، والله أولى بالعذر. ومضى معاوية إلى البصرة، وتحمل منها ففي ذلك يقول ثابت قطنة.

وما سرني قتل الفزاري وابنه عدي ولا أحببت قتل ابن مسمع

ولكنها كانت معاوي زلة وضعت بها أمراً على غير موضع

وكان الذين قتل معاوية بن يزيد بن المهلب: عدي بن أرطاة، وعبد الله بن عروة النصري، وابني مسمع.

وقال أبو الحسن المدائني: لما قتل يزيد جاء قوم يقولون: جاء الفتح، ثم جاءت حقيقة الخبر، فقتل معاوية بن يزيد وهو على واسط عدياً، وجميع من كان معه، وكان عدي قال ليزيد: استبقني فهو خير لك، فقال له: أني لخليق أن أشدك بالحديد وأضعك بيني وبين أهل الشام. فقال: إذاً لا يمنعهم ذلك من الإغراق في النزع.

قال: وأسر من أصحاب يزيد في المعركة ألفان وثمانمائة، فبعث بهم مسلمة بن عبد الملك من العقر إلى ذي الشامة محمد بن عمرو بن الوليد بن عقبة بن أبي معيط بن أبي عمرو بن أمية وكان عامله على الكوفة.

وحدثني حفص بن عمر المعروف بالعمري عن الهيثم بن عدي عن ابن عياش، وأخبرني الأثرم عن أبي عبيدة وقرأت على المدائني قالوا: علما قتل يزيد وأتى برأسه ورؤوس أصحابه إلى مسلمة أرسل بها مسلمة والعباس بن الوليد مع عذام بن شتير الضبي إلى يزيد بن عبد الملك وافداً وبشيراً.وبعث برأس يزيد خاصة مع محمد بن عمر المخزومي، فلما وردت الرؤوس على يزيد بن عبد الملك سجد ودعا بحجام فأخذ من ناصيته ونواصي من حضره، وكان ابن شهاب الزهري فيمن حضره، وكان أصلع شديد الصلع، فأخذ الحجام شعرات من قفاه.

واقطع يزيد بن عبد الملك محمد بن عمر المخزومي مهلبان، وأقطع عذام بن شتير أرض زياد بن المهلب.

وقال الفرزدق:

لولا دفاعك يوم العقر ضاحية عن العراق وناء الحرب تلتهب

لولا دفاعك عنهم عارضاً لجباً لأصبحوا عن جديد الأرض قد ذهبوا

لما التقوا وجنود الشام فاجتلدوا بالمشرفية فيها الموت والحرب

خلو يزيد فتى المصرين مجندلاً بالعقر منهم ومن ساداتهم عصب

حامى سنان عليه في كتيبته وأسلمته هناك العجم والعرب

سنان مولى بني مسمع، كان صبر في أربعمائة من القراء.

قالوا: وكان سعيد بن عمرو الحرشي قال قبل القتال لمسلمة بن عبد الملك: إن محمداً كان لي وداً، فلو أذنت لي فلقيته فأعطيته أماناً، لعله يصرف يزيد عن رأيه، قال: فسر إليه فأعطهم جميعاً الأمان، فدنا سعيد بن عمرو من عسكرهم ونوه بمحمد فأتاه فقال: يا أبا حرب أعن رأي ملئكم كان هذا؟ قال: إن يزيد خاف على نفسه، ففعل ما ترى، فأمنه، فأبى يزيد قبول الأمان.

وقال أبو الحسن المدائني: نظر الحسن بن أبي الحسن إلى النضر بن أنس بن مالك، أو موسى بن أنس، وهو يقول: أيها ما تنقمون من أن يقام لكم كتاب الله، فقال الحسن: وهذا ابن أنس قد شمر، قاتل الله ابن المهلب، اطرقي وميشي، خرقاء وجدت صوفاً.

الطرق: الضرب ومنه قيل مطرقة الصانع، ومطرقة النجار وهي عوده. والميش: خلط الشعر بالصوف، ميشت، أميش، ميشاً، وهذا مثل سائر.

ومن رواية أبي مخنف أن يزيد قام فحرض الناس على القتال فقال: إن هؤلاء قوم لن يردعهم عن غيهم إلا الطعن في أعينهم، والضرب على هامهم، إنه ذكر لي أن هذه الجرادة الصفراء – يعني مسلمة – وعاقر الناقة نسطوس بن نسطوس – يعني العباس – الذي كان سليمان بن عبد الملك عزم على نفيه فكلمته فيه حتى أقره على نسبه، ليس يهمهما إلا تشريدي في الأرض ولو جاؤوا بأهل الأرض جميعاً ما برحت العرصة حتى تكون لي أو لهم. فقيل له: إنا نخاف أن تصنع كما صنع ابن الأشعث. قال: أن ابن الأشعث فضح الذمار وفضح حسبه، هل كان يخاف أن يفوت أجله.

المدائني عن رجل عن ابن عياش عن جعفر بن سليمان الأزدي قال: لما انتهى يزيد إلى سوراء من أرض بابل نزل العقر فقال: ما اسم هذا المترل. قيل: العقر. قال: إنا لله وإنا إليه راجعون. وتطير ثم دعا بدرعه فصبها عليه وتقلد بسيفه، ثم عاد بقباء محشو فلبسه ثم دعا إسماعيل بن عطارد فقال: حدثني عن ابن الأشعث. قال: هزم من الزاوية، فأتى مسكن وهي عند دجيل الأهواز فهزم، فأتى جنديسابور فهزم، فأتى سابور فقال يزيد: سوءة له، أما استطاع أن ينغمس في الموت ثم يغمض إغماضه، فوالله ما هي إلا رقدة إلى يوم القيامة، فعلم أنه وطن نفسه على أنه لا يبرح حتى يموت – وتمثل بقول الشاعر:

بأست امرئ لم يطب نفساً بميتته   إن الكرام على ما نابهم صبر

فلما التقوا أغمض كما قال حتى قتل.

قال: ولما لبس سلاحه، دخلت عليه جاريته بسامة، وكانت أحب الناس إليه، وقد تهيأت ولبست فقالت: السلام عليك يا أمير المؤمنين. فكره ذلك كراهة شديدة، وتبسم وقال:

رويدك حتى تنظري عم تنجلي　　　غمامة هذا العارض المتألق

ثم خرج فقال لدارس: كن قريباً، ثم أطاف على رايات أهل الشام يسأل عن راية راية منها، فقال: أوه، يقاتلني بقومي من لا قوم له. وقال أبو مخنف: لما قتل يزيد وانهزم الناس كان المفضل يقاتل أهل الشام، وهو لا يعرف خبر يزيد، ولا أنه قد قتل وأن الناس انهزموا، وإنه لعلى برذون له سمند قريب من الأرض، وأمامه مجففة كلما حمل عليهم انكشفوا فيحمل ثم يرجع، حتى يكون من وراء أصحابه، وكان لا يلتفت من أصحابه أحد إلا قال له: لا تلتفت وأقبل بوجهك على عدوك. وجعل عامر بن العميثل الأزدي يضرب بسيفه ويقول:

قد علمت أم الصبي المولود　　　أني بنصل السيف غير رعديد

وانكشف جل ربيعة، فناداهم المفضل: الكرة، الكرة يا معشر ربيعة، نفسي لكم الفداء، اصبروا ساعة فما كنتم بكشف ولا لئام وما الفرار لكم بعادة ولا يؤتين أهل العراق من قبلكم.

فبينا هو كذلك إذ قيل له: ما تصنع ههنا وقد قتل يزيد، وحبيب، ومحمد، وانهزم الناس؟. فتفرق من مع المفضل، وأخذ المفضل الطريق إلى واسط، وجاء أهل الشام إلى عسكر يزيد بن المهلب.

وقال أبو الحسن المدائني: قال أبو اليقظان: لما قتل يزيد أقبل عبد الملك إلى المفضل فكره أن يخبره بقتل يزيد فيستقتل، وقال: إن الأمير قد انحدر إلى واسط، فانحدر المفضل بمن بقي من ولد المهلب إلى واسط، فلما علم بقتل يزيد حلف ألا يكلم عبد الملك أبداً، فما كلمه حتى قتل بقندابيل.

قال: وكانت عين المفضل فقئت في الحرب فقال: فضحني عبد الملك آخر الزمن، وما عذري عند الناس إذا نظروا إلى شيخ أعور مهزوم، ألا صدقتني فقتلت كريماً؟ وقال المفضل:

لا خير في طعن الصناديد بالقنا　　　ولا في لقاء الحرب بعد يزيد

وقال هشام بن محمد الكلبي عن أبيه محمد بن السائب: قتل يزيد بن المهلب يوم التل القحل بن عياش، واسم القحل عمرو، وقتله يزيد أيضاَ ضرب كل واحد منهما صاحبه.

وقال المدائني: يقال إن الهذيل بن زفر قتل يزيد، وأن القحل احتز رأسه، وجاء به إلى مسلمة. والخبر الأول أثبت.

المدائني عن سحيم بن حفص: أن يزيد بن عبد الملك لما قدم عليه برأس يزيد بن المهلب، ورؤوس من قتل

معه من أهل بيته أمر أن يطاف بها في أجناد الشام، وكان الذي عرفهم الرؤوس: الحواري بن زياد بن عمرو العتكي.

وبادر العباس بن الوليد فوجه بالبشارة إلى يزيد بن عاتكة عذام بن شتير، قبل أن يوجه بها مسلمة أحداً.

وقال الهيثم بن عدي: قال ابن عياش وعوانة: نزل يزيد العقر من سوراء ومعه ثلاثة آلاف من الاباضية عليهم جعفر بن شيمان الأزدي فقال يزيد: يا دارس كن مني قريباً.

وتقدم محمد بن المهلب فأنشب الحرب، وكان مشؤوماً فقتل أهل الشام من الاباضية نحواً من ألفين، وعطفوا على يزيد فقاتل فقتل، وطلبه أصحابه فلم يقدروا عليه، وأصيب دارس مقتولاً، ونظروا فإذا في وجه يزيد وصدره نحو من عشرين ضربة وطعنة، واحتزوا رأسه.

وعمد معاوية بن يزيد بن المهلب، وهو على واسط، فقتل عدياً، ومن حبس معه من الأسارى فقال ثابت بن قطنة الأزدي:

ما سرني قتل الفزاري وابنه عدي ولا أحببت قتل ابن مسمع
ولكنها كانت معاوي زلة وضعت بها أمراً على غير موضع

وأسر من أصحاب يزيد في المعركة، وممن كان في عسكره، ألفان وثمانمائة رجل، فبعث بهم مسلمة من العقر إلى ذي الشامة محمد بن عمرو بن الوليد بن عقبة بن أبي معيط، وكان عامله على الكوفة، وعلى شرطه بالكوفة العريان بن الهيثم، فقال ذو الشامة للعريان: لست من هؤلاء في شيء فشأنك بهم. فميزهم فقال: يا أهل اليمن أنتم الشعار دون الدثار، وأنتم ربيعة الإخوة والحلفاء، وأما هؤلاء – يعني بني تميم – فأعدى الأعداء. فكان يخرج في كل يوم عشرين من بني تميم فيضرب أعناقهم حتى قتل منهم ثمانين ومائة، ويقال قتل منهم خمسين ومائة ويقال قتل عشرين ومائة. فقال حاجب بن ذبيان المازني:

رأيت المعيطيين خاضوا دماءنا بغير دم حتى انتهى بهم الوحل
فما حمل الأقوام أثقل من دم حرام ولا ذحل إذا اتبع الذحل
حقنتم دماء المصلتين علكم وحر على فرسان غيرهم القتل
وفي بهم العريان فتيان قومه فيا عجباً أين الأمانة والعدل

في أبيات.

وكان قتل يزيد في سنة اثنتين ومائة.

وقال أبو مخنف: أسر من عسكر يزيد بن المهلب ثلاثمائة رجل، فسرح بهم مسلمة إلى محمد بن عمرو في الكوفة، وجاء كتاب يزيد بن عاتكة إلى مسلمة بقتل الأسارى، فأمر محمد بن عمرو بذلك، فقال

للعريان: أخرجهم عشرين عشري، فقام قوم من بني تميم فقالوا: نحن انهزمنا بالناس فابدأوا بنا قبل الناس، فما هو إلا أن فرغ من قتلهم حتى جاء كتاب مسلمة بالكف عن قتلهم، فكان العريان يقول: والله ما أردهم حتى قالوا: ابدأوا بنا.

وقال المدائني: كانت هزيمة أصحاب يزيد من قبل الوضاحية، والوضاح مولى عبد الملك بن مروان، كانت معه خيل مفردة.

قالوا: ولما وصل رأس يزيد بن المهلب إلى يزيد بن عبد الملك بعث به إلى امرأته أم الحجاج بنت محمد بن يوسف التي عذبها، وكلمه يزيد بن عبد الملك فيها فلم يجبه إلى ما سأله في أمرها، فبصقت في وجهه وقالت أراك شيخاً أحمق تطلب الباطل، فقال يزيد بن عبد الملك، والله ما أشبهت أم الحجاج أمي عاتكة بنت يزيد حين أتيت برأس الحسين بن علي فأراد الرسول أن يضعه على الأرض فشتمته ودعت بوسادة فوضع عليها، ثم غسلته وطيبته.

وقال المدائني وغيره: خرج مروان بن المهلب من البصرة هارباً وخلاها فوثب عليها شبيب بن الحارث المازني فأخذها، ودعا ليزيد بن عبد الملك، وصلى بالناس حتى قدم عبد الرحمن بن سليم الكلبي من قبل مسلمة.

وكان جيهان بن محرز نازع شبيباً فيها فقهره شبيب ببني مازن، وكان جيهان قاتل مع عدي بن أرطاة.

وقام عطاء مولى بني شقرة – واسم شقرة معاوية بن الحارث بن تميم – وكان عطاء أعور فجعل يقول: جاءكم الأمان. فقال الشاعر:

أليس عجيباً بحق الإل ... ه قيام عطاء على المنبر

يخبر عنهم بأخبارهم ... وما خبر الكاذب الأعور

المدائني عن الربيع بن صبيح قال: جاءتنا هزيمة يزيد بن المهلب ومقتله فلما كان نصف النهار قال أبو نضرة: من يصلي بالناس؟ وخرج شبيب بن الحارث إلى الأبلة، وأمر الحسن أن يصلي بالناس فقال أنس: إني عليل. فغضب أبو نضرة وقال: يا سبحان الله تأتي يوم جمعة لا يصلى فيها بمصر من أمصار المسلمين، ودخل على الحسن فقال له: إن الناس لا يصلون حتى تخرج، فإذا الحسن قد جاء متعمداً على رجل، فقام على الأرض فخطب وقرأ في خطبته: "يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله" ولم يقعد في الخطبة ثم أقام المؤذنون فقرأ: الجمعة، وسبح اسم ربك الأعلى.

قالوا: وصلب مسلمة بن عبد الملك جثة يزيد بن المهلب، وعلق معه خنزيراً ومردياً، وزق خمر وسمكة.

حدثني أحمد بن إبراهيم الدورقي، ثنا أبو داود الطيالسي، ثنا الحكم بن عطية قال: سمعت الحسن سئل عن قول الله: "زخرف القول غروراً" فقال: ألم تروا إلى عدو الله ابن المهلب يدعو إلى كتاب الله وسنة نبيه وقد نبذهما وراء ظهره.

حدثني العمري عن الهيثم بن عدي عن أبي بكر الهذلي قال: كنا عند الحسن فذكر يزيد فقال: عجباً لهذا الحمار النهاق يدعو – زعم – إلى كتاب الله وسنة نبيه وقد نبذهما وراء ظهره، اللهم اصرع ابن المهلب صرعة تجعله بها نكالا لما بين يديه وما خلفه وموعظة للمتقين. واعجباً لهذا الحمار النهاق بينا هو يضرب أعناقنا بالأمس تقرباً إلى بني أمية، إذ رأى منهم نبوة وأصابته جفوة فنصب قصباً عليها خرق، ثم قال: أدعوكم إلى السنة، ألا وإن من السنة أن تجعل رجلاه في قيد، ويجعل حيث جعله عمر بالأمس.

خبر آل المهلب بقندابيل

قالوا: وهرب آل المهلب بعيالاتهم إلى قندابيل، فحرقت منازلهم بالبصرة وهدمت، وأراد مسلمة أن يوجه إليهم تميم بن زيد القيني ليتبع فل يزيد وولد المهلب ثم قال له: لو جهت رجلاً من بني تميم كان أبلغ فيما تريد، فوجه هلال بن أحوز المازني، هو هلال بن أحوز بن أربد بن محرز بن لأي بن سمير بن صباري بن حجية بن كابية بن حرقوص بن مازن بن مالك بن عمرو بن غنم من بني تميم. فعقد له إلى اثني عشر ألفاً من أهل الشام وأهل العراق، فسار وعلى مقدمته الحارث بن سليمان التجيبي فأتى قندابيل، فنصب هلال رايته ونادى مناديه: من هرب فهو آمن، ومن أتى هذه الراية فهو آمن إلا أن يكون من ولد المهلب، فتسارع الناس إليه.

المدائني عن جهم بن حسان السليطي قال: التقى هلال بن أحوز وبنو المهلب بقندابيل وقد عبأ هلال ميمنة وميسرة، فخرج مدرك بن المهلب يطلب المبارزة، فخرج إليه سلم بن أحوز فقيل له: أنت أخو الأمير وليس ينبغي أن تبارزه فرجع، فلامه أخوه هلال وشتمه فخرج فبارز مدركاً فقتله سلم.

وكان لمدرك سيف قاطع فجعل ينبو فقال: إن هذا لأمر يراد، الله المستعان، خذلتنا سيوفنا أيضاً.

ويقال إن هلالاً آمن الناس إلا معاوية بن يزيد لقتله عدياً وأبا حاضر الأسيدي، أو حاضر بن أبي حاضر، وإنما قتلهم وهم أسراء في يده، فانتدب معاوية بن يزيد فقال: أنا قاتل أبي حاضر الأسيدي، أو قال: قاتل حاضر بن أبي حاضر، وعدي ابنه، فحمل عليه رجل من أهل الشام فقتله، ويقال قتله رجل من بني كعب بن عمرو بن تميم كأنه سفود من شدة سواده.

وكان أمير آل المهلب بقندابيل المفضل بن المهلب وهو أعور، أصيبت عينه يوم العقر، وكان لواؤهم مع عمرو بن قبيصة بن المهلب.

ونادى هلال: من جاء برأس فله ألف درهم حتى أتى برأس المفضل فقيل له: هذا رأس المفضل رئيس القوم، فقال: ما عهدي به أعور، فقالوا: فقئت عينه يوم العقر، فنزل حتى جلس على بساط، وأسر عثمان بن المفضل وأتى به هلال فكان الذي يخبره عن رؤوس آل المهلب فحبسه وسهل عليه فهرب من الحبس.
ولما قتل ولد المهلب وكل هلال بالحرم من يحفظهم، وفر عثمان بن المفضل، وأبو عيينة بن المهلب، وعمر بن يزيد بن المهلب، ونادى منادي هلال: ألا برئت الذمة ممن اتبع مولياً، وأمر أن لا يعرض أحد للنساء وما في أيديهن وقال: من رفع ستراً أو دخل على امرأة فلا ذمة له.

وشكت امرأة من آل المهلب أن رجلاً دخل منزلها فضرب عنقه، وكان نساء آل المهلب يقلن: لو أن المهلب ولينا ما فعل بنا إلا دون ما فعل هلال بن أحوز. وأتته ميسون بنت المغيرة فسألته أن يأذن لها في دفن جثث رجالها فأذن لها.
وقال المدائني عن بشر بن عيسى عن أبي صفوان قال: أخذت امرأة من آل المهلب صحيفة فأعطتها مولى لها فكتب قتل فلان، ثم فلان، ثم فلان. للميراث.
وحدثني خلف بن سالم المخزومي وأبو خيثمة عن وهب بن جرير بن حازم عن أبيه، ومحمد بن أبي عيينة قالا: وجه مسلمة: عبد الرحمن بن سليم الكلبي فهدم دور آل المهلب، وولى على شرطته عمر بن يزيد لأسيدي.
قالوا: وفي عبد الرحمن بن سليم يقول الفرزدق:

أرى ابن سليم يعصم الله دينه ... به وأثافي الحرب تغلي قدروها
هو الحجر الرامي به الله من بغى ... إذا الحرب بالناس اقشعرت ظهورها

وفي قصيدة: ثم عزل مسلمة: الكلبي عن البصرة، وولاه عمان، واستعمل على البصرة عبد الملك بن بشر بن مروان، ووجه مسلمة: مدرك بن ضب في اتباع فل آل المهلب، فلما انتهى إلى كرمان لقي بها مدرك بن المهلب مقبلاً من خراسان وقد انضم إليه بعض فل يزيد من أهل الكوفة وغيرهم فاقتتلوا.
وقال أبو مخنف وغيره: لقي مدرك بن ضب: مدرك بن المهلب، ومعه النعمان، ومالك ابنا إبراهيم بن الأشتر، ومحمد ، وعثمان ابنا إسحاق بن محمد بن الأشعث، وصول مولى يزيد بن المهلب، فاقتتلوا فقتل يومئذ النعمان بن إبراهيم ومحمد بن إسحاق، وجرح عثمان بن إسحاق جراحة فمضى متحاملاً حتى انتهى إلى حلوان، فدل عليه فقتل، وبعث برأسه إلى مسلمة.
ومضى مالك بن إبراهيم بن الأشتر إلى الكوفة فطلب الأمان من مسلمة فأمنه، وأسر صول فبعث به ابن

ضب إلى مسلمة فقال: أنت الذي كتبت على سهمك: صول يدعو إلى كتاب الله وسنة نبيه؟ وأمر به فضربت عنقه، وتخلص مدرك فقتل بقندابيل.

حدثني علي الأثرم عن أبي عبيدة عن يونس النحوي عن أم ولد معاوية بن يزيد بن المهلب قالت: كنا بقندابيل فما راعنا إلا خيل هلال بن أحوز، وإن معاوية لجالس يأكل شهدانج وسمسماً، فقام متعجلاً فلبس سلاحه، ثم خرج فقتل هو وأهل بيته، وقتل المفضل وهو أميرهم، وعبد الملك أخوه لأمه بهلة، وزياد وكان – قيل – على عمان، ومروان وكان على البصرة، والمنهال بن أبي عيينة وعمرو والمغيرة ابنا قبيصة بن المهلب، وحملت رؤوسهم وفي آذانهم الرقاع بأسمائهم.

وقال الهيثم بن عدي: أسر من آل المهلب ثلاثة عشر رجلاً، فقدم بهم على مسلمة، وهو بواسط فوجههم إلى يزيد بن عاتكة وعنده كثير بن عزة فأنشده:

حليم إذا ما نال عاقب مجملاً	أشد عقاب أو عفا لم يثرب
فعفو أمير المؤمنين وحسبة	فما تأته من صالح لك يكتب
اساؤوا فإن تعفو فإنك قادر	وأفضل حلم حسبة حلم مغضب

فقال يزيد: يا أبا صخر هيهات، أطت بك الرحم. لا سبيل إلى ذاك، إن الله أقاد منهم بأعمالهم الخبيثة. ثم قال: من يطلب آل المهلب بدم فليقم، فقام يزيد بن أرطاة فقال: يا أمير المؤمنين قتلوا أخي، وابن أخي. فقال خذ منهم رجلين فاقتلهما ففعل.

وقام ابن لعبد الله بن عروة البصري فقال: يا أمير المؤمنين قتلوا أبي، فقال اقتل منهم رجلاً. ثم أمر ببقيتهم فقتلوا حتى كان آخرهم غلام، فقالوا: هذا غلام صغير. فقال: اقتلوني فما أنا بصغير، فقيل: انظروا أنبت؟ فقال: أنا أعلم بنفسي قد شوكت ووطئت النساء فقال يزيد: اضربوا عنقه، فقتل.

وقال يزيد لرجل من اليمانية: كيف كانت غزاتكم بالعراق؟ قال: قتلنا أشرافنا وجئناك فقال: أما يزيد فقد طلب عظيماً ومات كريماً.

وكتب يزيد في قبض آل المهلب وهدم دورهم و لم يكن ليزيد دار، إنما كان يترل دار المهلب، وكان يزيد يقول: داري السجن أو دار الإمارة.

قالوا: وبعث هلال بن أحوز إلى أم الفضل بنت غيلان بن خرشة، وهي أم مخلد بن يزيد أن اختاري من يخرج معك فاختارت قوماً من مواليهم يخرجون معها ومع نساء آل المهلب، وبعث معهم بمشيخة من أهل الشام، وبعث بالرؤوس إلى مسلمة بن عبد الملك فورد العراق وقد عزل مسلمة بن عبد الملك، وولي عمر

بن هبيرة، فأخذ ما كان في أثقالهن وبسط عليهن حتى استنطف ما كان عندهن فأخذ الرقيق لنفسه، وخاف أن يخرج النساء إلى الشام فيخبرن بما صار إليه فكتب إلى يزيد يستعفيه لهن من الشخوص فأعفاهن.

وقال أبو عبيدة: لما طيف برأس يزيد والرؤوس التي كانت مع رأسه بالشام، ردت إلى البصرة فنصبت بها.

قالوا: وأقام مسلمة بعد يزيد على العراق ثمانية أشهر، ويقال ستة أشهر، فقدح فيه عند يزيد بن عبد الملك، وقيل أنه غير مأمون على الخراج، وليس هو ممن يكشف عنه. فعزله وولى العراق عمر بن هبيرة.

قالوا: وجعلت طوائف من الأزد تقول بعد قتل يزيد أنه حي. فلما تزوج عمر بن يزيد امرأته عاتكة بنت الملاءة قال الفرزدق:

لقد بينت بنت الملاءة من نعى   لأزد عمان جيفة ابن المهلب

قال المدائني: و لم يزل هلال على السند وقندابيل حتى قدم ابن هبيرة العراق، وقدم نساء المهلب فقال لأم مالك بنت زياد بن المهلب: قد علمت أني الوالي وأني أقدر على مضرتكم ونفعكم، وقد قتل هلال رجالكم فلم يبق، وأنا كاتب في هلال أذكر خيانته فصدقيني. وكتب إلى يزيد بن عبد الملك بذلك، وبعث بأم مالك وقرظها في كتابه إلى يزيد فكذبته، وأثنت على هلال وقالت: أحسن ولايتنا بعد أن بالغ في أمرك و لم يبق غاية في طاعتك، فكتب يزيد إلى ابن هبيرة يعنفه.

وقد قيل إن النساء أشخصن إلى يزيد أشخصهن ابن هبيرة فخلى سبيلهن.

قالوا: وبقي عيينة بن المهلب، وعثمان بن المفضل بن المهلب، وعمر بن يزيد بن المهلب، عند رتبيل بسجستان، فبعثت هند بنت المهلب إلى يزيد في طلب الأمان لأبي عيينة فأمنه فقدم العراق وبقي عمر بن يزيد، وعثمان بن المفضل عنده حتى قدم أسد بن عبد الله القسري أميراً على خراسان، فكتب إليهما بأمانهما فقدما خراسان.

وقال بعض الرواة: كان الأسراء الذي قدم بهم على يزيد بن عبد الملك فأمر بقتلهم: المعارك، وعبد الله، والمغيرة، بني يزيد بن المهلب، ودريد، والحجاج ابني حبيب بن المهلب، وغسان، وشبيب والفضل بني المفضل بن المهلب، والمفضل بن قبيصة بن المهلب، والفضل، والمنجاب ابني يزيد بن المهلب.

وقال الفرزدق حين قتل يزيد بن المهلب:

إذا ما المزونيات أصبحن حسراً   يبكين أشلاء على عقر بابل

فكن طالباً بنت الملاءة إنها   تذكر ريعان الشباب المزايل

المدائني قال: أتى الحسن يزيد بن المهلب في حاجة قبل محاربته عدياً، فقام يزيد فأخذ بركابه فحدث بذلك سوار بن عبد الله، فقال: إن هذا الخبر صدق. في يزيد إعظامه أهل الدين والعلم.

وقال أبو الحسن المدائني: وجه يزيد بن عبد الملك على البصرة رجلاً من أهل الشام يقال له سفيان بن عمير الكندي، وهو الذي خطب فقال: إن المرأة لا تجوز ذبيحتها، وقال: العارية ترد والمنحة ترد والعمرى لمن أعمرها.

حدثني هدبة بن خالد عن أبي هلال الراسبي عن قتادة قال: قلت لسفيان بن عمير وقال لي: ما تقول في امرأة زعمت أن زوجها لا يأتيها. قلت: تستحلف بالله. فقال الحسن: ما تقول أنت: قال: يجرب بغيرها. فقال: أما إن قتادة قال بقول أهل الشام.

وقالوا: أتى سعيد بن عمرو الحرشي يزيد بن المهلب وهو محبوس، فأمر له بخمسين ألفاً فقال عدي بن الرقاع العاملي:

لم أر محبوساً من الناس واحداً حبا زائراً في السجن غير يزيد

سعيد بن عمرو إذ أتاه أجازه بخمسين ألفاً عجلت لسعيد

وقال أبو الحسن المدائني عن مسلمة بن محارب: مات هلال بن أحوز عند هشام فصلى عليه فقال له جميري أخوه: يا أمير المؤمنين لو دعوت له بالمغفرة. فقال رجل من أهل الشام: أو لم يغفر الله له وقد صلى عليه أمير المؤمنين؟ وقال الفرزدق:

لعمرك ما أنسى ابن أحوز ما جرى الرياح وما ناح الحمام وغردا

وقال معن بن عمرو:

وباكية هبت بليل فراعني تحوبها تبكي على ابن المهلب

فقلت لها لما سمعت نحيبها لا فاندبي البهلول غير المجدب

اعف وأحيا من فتاة حيية وأجرأ من ليث بخفان أغلب

الهيثم عن الضحاك بن زمل قال: لما قدم على يزيد بأسرى آل المهلب الذين بعث بعم مسلمة، شاور من حضره فقال: ما تقولون في هؤلاء؟ قال: بعض من حضر: قد قدرت يا أمير المؤمنين فاعف، فقام عثمان بن حيان المري فقال: والله "لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً، إنك تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كفارا" فقال رجاء بن حيوة: بل نقول كما قال الله: "ولا تزر وازرة وزر أخرى" وكان يلعن يزيد بعد خلعه.

وقال رجاء لعثمان: ما دعاك إلى ما قلت؟ قال: أبا المقدام. إن الله خلق للنار أهلاً فجعلني منهم، وخلق للجنة أهلاً فجعلك منهم، فقال رجاء: ما أنا عند نفسي من أهل الجنة. ثم دفعهم يزيد إلى زيد بن أرطاة وإلى ابن النصري وغيرهما فقتلوا.

قالت الحوراء بنت عروة النصري:

أيزيد حاربت الملوك ولم تكن	تلقى المحارب للملوك رشيدا
لما وجدت عصابة أوردتها	حوضاً سيورث ورده التفنيدا
فالبيت ذا الحرمات لست بنائل	والأكرمين شمائلاً وجدودا
رهط النبي بني الإله عليهم	سقف الهدى ومن القران عهودا
قوم هم منوا عليك وأفضلوا	حتى لبست من الطراز برودا
فكفرت نعمتهم هناك وإنما	تلد العبيد المقرفون عبيدا
طلب الخلافة في هجان فلم يجد	بهجان من شجر الخلافة عودا

حدثني هدبة بن المبارك بن فضالة قال: سمعت الحسن يقول: واعجباً من يزيد علج أهل هجان، وطائر من أطيار الماء، اتخذ سيفه برهة مخراقاً في طاعة بني أمية حتى إذا منع لماظه من عيش نصب خرقاً على قصب وقال: إني غضبت، فاغضبوا فاتبعه فراش نار، وذئبان طمع، يدعو إلى سنة العمرين، يا فاسق إن من سنتهما أن ترد إلى محبس عمر بن عبد العزيز.

وقال أبو النجم:

إن الذي مد علينا نقمه	وقد ظلمنا أنفساً مظلمه
حين أحاطت بالعراق الدمدمة	فالله نجانا بكفي مسلمة
من بعدما وبعدما وبعدمه	كانت نفوس القوم عند الغلصمة

وكادت الحرة أن تدعى أمه وقال الأحوص بن محمد في شعر مدح به يزيد بن عاتكة وذكر ابن المهلب:

ما زال ينوي الغدر والنكث راكباً	لعمياء حتى استك منه المسامع
فاضحوا بنهري بابل ورؤوسهم	تخب بها فيما هناك الخوامع

وقال الفرزدق:

لقد عجبت من الأزدي جاء به	يقوده للمنايا حين مغرور
حتى رآه عباد الله في دقل	منكس الرأس مقروناً بخنزير

القلس أهون بأساً أن تعود به — في الماء مطلية الألواح بالقير

وقال الأسدي:

عجبت لهذي العلوج اللئام — تمنى الخلافة في كل عام

تمنى الخلافة غلفانها — ولما تناطح طول العلام

وقال جرير:

آل المهلب جذ الله دابرهم — أضحوا رماداً فلا أصل ولا طرف

إن الخلافة لم تجعل ليملكها — عبد لأزدية في بطنها عقف

ما نالت الأزد من دعوى مضلهم — إلا المعاصم والأعناق تقتطف

والأزد قد جعلوا المنتوف قائدهم — فقتلهم جنود الله وانتتفوا

وقال الفرزدق:

أحل هريم يوم سوراء بالقنا — نذور نساء من تميم فحلت

عشية لا يدري يزيد اينتحي — على السيف أم يعطي يداً حين شلت

وماكر إلا كان أول طاعن — ولا أبصرته الخيل إلا اقشعرت

كأن روؤس الأزد خطبان حنظل — تحرز عن أكنافها حين ولت

وقال أيضاً:

كيف ترى بطشة الله التي بطشت — يا بن المهلب إن الله ذو نقم

قاد الجياد من البلقاء منصلتاً — شهراً تقلقل بالأرسان واللجم

حتى أتت أرض هاروت لعاشرة — فيها بنو دحمة الحمراء كالحمم

فأصبحوا لا ترى إلا مساكنهم — كأنهم من ثمود الحمر أو إرم

وقال الطرماح ليزيد:

لحى الله قوماً أسلموك ببابل — أبا خالد تحت السيوف البوارق

فتى كان عند الموت أكرم منهم — حفاظاً وأعطى للجياد السوابق

وقائلة تنعى يزيد وقائل — سقى الله جزل السيب عف الخلائق

ولما نعى الناعي يزيد تزلزت ... بنا الأرض وارتجت بمثل الصواعق

في أبيات. وقال ذو الرمة:

لودت الأزد إذ رثت حبائلهم ... أن المهلب لم يولد ولم يلد

كانوا ذوي عدد ثر وعائرة ... من السلاح وأبطالاً ذوي نجد

فما ترى منهم من بعد كثرتهم ... إلا الأرامل والأيتام من أحد

وقال الفرزدق من قصيدة له:

ونحن أرينا الباهلية ما شفت ... به نفسها من كل رأس معلق

ونجن أزحنا عن خويلة جحدر ... شجى كان منها في مكان المخنق

الباهلية أم عباد بن عطية، وكانت امرأة عدي بن أرطاة.

ونحن قتلنا بابن أرطاة منهم ... ثمانين تحت العارض المتألق

وكائن بقنابيل من جسد لهم ... وبالعقر من رأس تدهدى ومرفق

وذات حليل أنكحتها رماحنا ... حلالاً لمن يبني بها ولم يطلق

جعلنا أثافي قدرنا رأس زوجها ... وكفيه في أيد سقطن وأسوق

وقال الفرزدق:

تبكي على المنتوف بكر بن وائل ... وينهى ابني مسمع من بكاهما

غلامان شابا في الحروب وأدركا ... كريم المساعي قبل وصل لحاها

فلو كان حياً مالك وابن مالك ... إذاً أوقدا نارين يعلو سناهما

وقال الفرزدق في هلال بن أحوز في أبيات:

جدعت عرانين المزون فلا أرى ... أذل وأخزى منهم حين صرعوا

وحملت أعجاز البغال رؤوسهم ... محذفة في كل بيداء تلمع

جماجم أشياخ كأن لحاهم ... ثعالب موتى أو ثعام مترع

وقال رؤبة:

والأزد سوء صنيعها موصوف ... قد أزحفتها الفتية الزحوف

لو زادها يزيد والمنتوف ... عقلاً وطير بابل العكوف

يقول: لو كان يزيد قتيل هؤلاء عكوف الطير عليهم عقلا.

وقال حاجب بن ذبيان المازني:

لقد قرت بقنابيل عيني وساغ لي الشراب على الغليل

غداة بنو المهلب من أسير يقاد به ومصلوب قتيل

خلا سيف ابن أحوز عن نزار وشدات ابن أحوز كل قيل

بكل مقلص يمشي العرضنا ظماء اللحم مشرفة التليل

أبزن بني المهلب في فواق وكل مهند عضب صقيل

تقطعت الأمور بهم وكانت عليه مثل راعية الفصيل

أضلهم ابن دحمة وازدهتهم مشبهة تضل ذوي العقول

أليس من العظائم أن يروموا وراثات الخلائف والرسول

وقال ثابت قطنة:

وليوم قنابيل أورث ذلة قومي ويوم العقر شيب مفرقي

يا هند إن أخاك صادف حتفه بحبائل الأجل الذي لم يسبق

وتغيبت عنه الكماة وغاله زمنٌ كظل السرجة المتصفق

والدهر لا يبقي على حدثانه عصم موقنة برأس محلق

كيف العزاء وقد أصيب ذوو الحجا منا وأهل النائل المتدفق

وقال أبو الحمراء المنقري:

أبا خالد لو خلد الجود واحداً أبا خالد كنت الجواد المخلدا

سقى الله أجساداً ببابل غودرت غداة رأينا الراعبي مقصدا

حبيباً وعباداً وذا الباع والندى يزيداً وأسقى الله ربي محمداً

أقول لهم لما أتاني نعيهم جزى الله خيراً ما أعف وأمجدا

قالوا: وكان رجاء بن حيوة يلعن يزيد بن المهلب حين أتاه خبره، وقد قيل في آل المهلب شعر كثير جداً.

حدثني علي بن المغيرة الأثرم عن أبي عبيدة قال: لما كتب يزيد بن المهلب إلى ابن عاتكة يطلب الأمان كتب له أماناً ووجه به خالد بن عبد الله، وأتاه كتاب عدي بخلع يزيد فبعث فرد رسل يزيد بن المهلب

وقال: كذبتم أمير المؤمنين وأوطأتموه العشوة، فقالوا: أما عهدنا به فإنه لم يخلع و لم يسفك دماً. فأمر بهم إلى السجن فلم يخرجوا منه حتى قدم بآل المهلب من قندابيل.

ومن رواية أبي عبيدة معمر بن المثنى أن الأسرى لما حملوا إلى يزيد بن عبد الملك قام خالد بن عبد الله القسري فذكر العفو والصلح، وكان مفوهاً، وقال: أنهم أحداث لا جرائم لهم ورققه عليهم بجهده حتى هم بالعفو عنهم، فقام عثمان بن حيان المري فقال: كلا يا أمير المؤمنين لا تعف عنهم واحصدهم بمعصيتك كما انبتهم بطاعتك، فلعمري ما ترضى عشيرة منا أذنبت ذنباً وقد صفحت عن هؤلاء إلا أن تصفح عن ذنوبهم، فمن هؤلاء الأعلاج الذين لا أصل لهم ولا فرع. نكل بهم يرتدع غيرهم يا أمير المؤمنين.

وأشار عليه رجاء بن حيوة بالعفو عنهم وقال: إن الله يقول: "ولا تزر وازرة وزر أخرى" فأبى يزيد بن عاتكة أن يعفو عنهم، ودفع بكل رجل ممن قتل مع عدي بن أرطاة رجلاً إلى وليه، ثم خلى الباقين ويقال قتلهم.

وقال أبو عبيدة: وجه مسلمة في إثر معاوية بن يزيد بن المهلب عبد الرحمن بن سليم الكندي، وكان معاوية قد أعد له سفينة في الزردات، فركبها حتى وافى الأهواز، فلم يلحقه عبد الرحمن وأقام بالبصرة فولاه مسلمة إياها، ثم عزله وولاه عمان، وولى البصرة ابن بشر بن مروان.

وقال أبو عبيدة: استأذنت باهله في صلب يزيد بن المهلب، فأذن لها فصلبوه منكساً وشدوا على بطنه سمكة، ثم نزعوها وشدوا مكانها زقاً من خمر، ثم نزعوه وشدوا إليه خنزيرة بيضاء كان يرونها عند موضع الوقعة.

وقال أبو عبيدة: أراد مسلمة ألا يواقع يزيد حتى يعرض عليه الأمان، فقال العباس بن الوليد: لا تؤمنه فلا يبقى أحد إلا خلع وأفسد وسفك الدماء ثم ركن إلى الأمان، فأبى وأمنه فلم يقبل يزيد أمانه.

وقال أبو عبيدة في روايته: كان يزيد حين شهد الحرب في رجالة قد أطاقت به فأصاب برذونه سهم فشب به وضرب بيده ورجله حتى عقر عدة ممن كان حوله، ثم صرعه أو نزل يزيد عنه فغار البرذون فعرفه بعضهم فقال: هذه دابة يزيد، فثاروا يطلبونه وجعلت العمانية تقول: التل التل، لتلٍ كان هناك عظيم عال قد وقف مسلمة عليه حين قصدت الأزد وربيعة له فتزل عنه، وكان يزيد بن المهلب أخرج قوماً مستكرهين فخذلوه، ومالوا إلى مسلمة.

وقال أبو عبيدة: بعث مسلمة برأس يزيد مع سالم بن وابصة الأسدي، وكان سالم في الوفد الذي أوفدهم برأسه ورؤوس من حملت رؤوسهم معه، فقال سالم وقد وضع الرأس بين يدي يزيد بن عاتكة:

أتينا به ما نسمع الصوت في السرى ولا نشتكي شكوى أبين ولا قبر
نعرف أهل الحق بالشام رأسه من الذل مخطوم الخياشم والثغر

وقال أبو عبيدة: قال يزيد بن المهلب لدهقان برس: أتدلني على أرض طيبة أغرس فيها النخل والشجر، فقال: يبقيك الله ويسلمك ثم تنظر في هذا فما أكثر الأرضين. ثم قال: أرأيتم أعجب من هذا، قد غشيه البلاء وهو يسأل عن الأرضين.

وكانت بيزيد خلفة من داء أو هيضة، فكان ضعيف البدن، ومعه ريحان يشمه فقال له بعض أهله: قد قرب القوم منا وأنت تشم الريحان؟ فعندها ركب فقاتل.

وقال أبو عبيدة: بعث يزيد إلى الخيار بن سبرة بن ذؤيب بن ناجية بن عقال بن محمد بن سفيان بن مجاشع بن دارم، وهو على عمان من قبل عدي بن أرطاة، ولاه إياها بعد عامل كان له عليها، فنهاه عمر بن عبد العزيز عن توليته، والخيار لا يعلم بأمر يزيد حتى دخلت عليه رسله، وعليهم زياد بن المهلب فضربوا عنقه، وكان متحاملاً على الأزد بعمان، فقال الفرزدق:

لو كنت مثلي يا خيار حزمتها بكل علاقي من الميس فاتر
فقد كنت في أرض المهاري مسلطاً على كل بادٍ من عمان وحاضر
ترى إبلاً ما لم تحرك رؤوسها فإن حركت أبصرت عين الأباعر

قال أبو عبيدة: وكان على السند من قبل عدي: عمرو بن مسلم، فبعث إليه يزيد بن المهلب: وداع بن حميد وهو رجل من أهل اليمن في ستة نفر ويقال في أربعة نفر فقيل له: رسل الأمير على الباب. فظن أنهم رسل عدي فأذن لهم، فلما قرأ الكتاب الذي مع وداع قال: أتحبون أن أعطيكم حياتي؟ وراطن غلاماً له طخارياً بالطخارية أن انطلق إلى بني وأهل بيتي فمرهم أن يلبسوا السلاح ويسرعوا فإن القوم أعداء، فدخلوا البيت مصلتين، وثار وداع وأصحابه نحو عمرو فاقتتلوا، فقتل وداع ومن معه، وأمر عمرو فاحتزت رؤوسهم وألقيت في السوق.

وكان ليزيد بن عبد الملك بن مروان من الولد: الوليد بن يزيد المقتول، ويحيى، وعاتكة، أمهم أم الحجاج بنت محمد بن يوسف أخي الحجاج بن يوسف الثقفي.

وعبد الله، وعائشة، أمهما سعدة بنت عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان.

والغمر لأم ولد، وعبد الجبار وسليم لأم ولد. وهاشم وأبو سفيان لأم ولد.

فأما الوليد فسنكتب خبره إن شاء الله، وأما عبد الجبار فإن ابنة محمد بن عبد الملك كانت عند روح بن

الوليد بن عبد الملك، فأغضبها ففرق الوليد بن يزيد بينهما وزوجها عبد الجبار أخاه، فحقد ذلك بنو الوليد بن عبد الملك على الوليد بن يزيد.

وأما سليمان بن يزيد فكان ممن أعان على قتل أخيه الوليد بن يزيد، وأما الغمر فهو صاحب سيح الغمر باليمامة، وكان جلد عاقلاً عفيفاً، وكان أعرج وولي الصائفة غير مرة فغنم ما لم يغنمه أحد قط، وكانت إحدى صوائفه في سنة ست وعشرين ومائة، وولي اليمامة وكانت له ضياع بالسواد، فقبضها بنو هاشم.

وقال إسماعيل بن يسار مولى بني تميم بن مرة:

إذا عدد الناس المكارم والعلى ... فلا يفخرن منهم على الغمر فاخر

فما مر من يوم من الدهر واحد ... على الغمر إلا وهو للناس غامر

أغر بطاحي كأن جبينه ... إذا ما بدا بدر على النجم باهر

تراهم خشوعاً إن رأوه مهابة ... كما خشعت يوماً لكسرى الأساور

نماه إلى فرعي لؤي بن غالب ... أبوه أبو العاصي وحرب وعامر

فأضحى بإعطاء الجزيل كأنما ... رماه بوتر ماله فهو ثائر

قوله: حرب يعني حرب بن أميه، لأن أم أبيه عاتكة بنت يزيد بن معاوية بن صخر بن حرب، وأم عاتكة ابنة عبد الله بن عامر بن كريز.

وقتل الغمر عبد الله بن علي بن عبد الله بن عباس بالشام مع من قتل من بين أميه، فقال حين قدم ليقتل: لسعني في عدلكم ما وسعكم في جورنا. فقال عبد الله: اقتلوه. فقال: إني شيخ مسن وإن تركتني كفتك إياي منيتي. فقال له: قد كان الحسين بن علي شيخاً فقتلتموه.

وأما عبد الله بن يزيد فولدته سبعة خلفاء: أبوه يزيد، وجده عبد الملك، وجد أبيه مروان وأم أبيه عاتكة بنت يزيد بن معاوية، وأم عبد الله بن عمرو بن عثمان بنت عبد الله بن عمر بن الخطاب. وكان لعبد الله هذا ابن يقال له عبد المطلب عظيم القدر عند المهدي والرشيد.

الخوارج في أيام يزيد بن عبد الملك

خبر عقفان: قال أبو الحسن المدائني: خرج رجل يقال له عقفان بناحية دمشق في ثلاثين، فأراد يزيد بن عبد الملك أن يبعث إليه جنداً فقيل له: إن قتل بهذه البلاد اتخذوها دار هجرة. قال: فما الرأي؟ قالوا: تبعث إلى كل رجل رجلاً من أهل بيته يكلمه ويرده. فكان يبعث إلى كل رجل أخاه وابنه وابن عمه وأباه، فكلموهم وقالوا: إنا نخاف أن نؤخذ بكم وأومنوا فرجعوا، وبقي عقفان وحده فبعث يزيد إليه

أخاه وكان أعرج يقال له ربيعة، فقال له: يا أخي إنا لا نأمن أن يجتاحنا الخليفة ويصطلمنا.فرجع وأمنه يزيد بن عبد الملك.

فلما ولي هشام بن عبد الملك ولاه أمر العصاة فقدم ابنه تمة بن عقفان من خراسان عاصياً فشده وثاقاً، وبعث به إلى هشام، فقال هشام: لو خاننا عقفان لكتم أمر ابنه ثم قال لتمه: قد وهبتك لأبيك فالحق بمكتبك، وولاه هشام الصدقة.

وكان لأخيه أربعون شاة فذبح شاة منها، ثم سأل أخاه الصدقة فقال له: قد كانت لي أربعون شاة فذبحتم شاة منها، وبقي لي تسع وثلاثون شاة فلا صدقة عليها، فلم يفارقه حتى أخذ منه الصدقة شاة. ومكث عقفان عشرين سنة والياً لهشام.

أمر مسعود بن أبي زينب العبدي

قالوا: خرج مسعود بن أبي زينب أحد ولد محارب بن عبد القيس بالبحرين على الأشعث بن عبد الله بن الجارود، فخرج الأشعث عن البحرين وأخذ مسعود عبد الرحمن بن النعمان العوذي، ومنصور بن أبي رجاء العوذي فقتلهما، ثم خرج إلى اليمامة وعليها سفيان بن عمرو العقيلي، ولاه إياها عمر بن هبيرة الفزاري في أيام يزيد بن عبد الملك، فخرج سفيان بن عمرو العقيلي بأهل اليمامة فلقي مسعوداً بالخضرمة فقاتله فانكشف أهل اليمامة عن سفيان، ثم كروا والتقى عضاض بن تميم بن محلم العدوي – عدي الرباب – ومسعود فاختلفا ضربتين فقتل عضاض مسعوداً.

وقام بأمر الخوارج هلال بن مدلج فقاتلهم يومه كله فقتل ناس من الخوارج، وقتلت زينب أخت مسعود، فلما أمسى هلال تفرق عنه أصحابه، وبقي في عصبة، فدخل قصراً فتحصن فيه، فقال عبيد الله بن مالك عم تميم بن محلم: علام تدع هذا وقد حبس لكم نفسه، وقد نفرق أصحابه ولعل طائفة منهم تعود إليه. فطلبوا سلماً فلما وجده أحجم الناس عنه وهابوا الإقدام، فرقى عبيد الله إلى حائط القصر وتلقاه هلال بن مدلج الخارجي على الحائط فاختلفا ضربتين فقتل عبيد الله هلالاً، وجرحه هلال فبرئ من جراحاته، واستأمن من بقي في القصر فأمنهم.

وقال الهيثم بن عدي: قتل مسعوداً رقيب بن عبد الرحمن، مولى بني شيبان، واحتز رأسه رجل من بني سعد. والأول أثبت.

وقال الفرزدق:

لقد عض عضاض على السيف عضة   بأنيابه قد أثكلت أم زينبا

كفت ضربة العضاض إذ سل سيفه | رجالاً شهوداً من تميم وغيبا

وقال أيضاً:

لعمري لقد سلت حنيفة سلةً | سيوفاً أبت يوم الوغى أن تعيرا

تركن لمسعود وزينب أخته | رداء وسربالاً من الموت أحمرا

أرين الحرورين يوم لقائهم | ببرقان يوماً يجعل الجو أشقرا

وقال الهيثم بن عدي: غلب مسعود على البحرين وناحية اليمامة تسع عشرة سنة، حتى قتله سفيان بن عمرو العقيلي، سار إليه ببني حنيفة.

أمر سعيد بن أبي زينب
أخي مسعود، وعون بن بشر

قالوا: لما قتل مسعود قام سعيد أخوه بالبحرين، فقال سعيد: قال الله: "لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون" فلا تحل الصلاة للسكران، وما حرم السكر، ففارقه عون بن بشر أحد بني الحارث بن عامر بن حنيفة وأكفره، فصار أصحاب سعيد فرقتين فرقة معه وفرقة مع عون، فخرج عون عن هجر فأتى القطيف فجاءه ناس كثير، وبقي سعيد يهجر، فدس سعيد رجلين ليفتكا بعون أحدهما حبشي يقال له بكير، فقدما القطيف فوجأه بكير بخنجر في خاصرته، وأخذ بكير فدفع إلى الوالي فقيل له: من أمرك بهذا؟ قال: أنت. فدفعه إلى عون فقتله، ومات عون بشر، وأقام سعيد بن أبي زينب بهجر و لم يقتعد.

أمر مصعب بن محمد الوالبي

قالوا: طلب عمر بن هبيرة مصعب بن محمد، ومالك بن الصعب، وجابر بن سعد، وهم من رؤساء الخوارج، فتراسلوا والتقوا بالخورنق، فخرجوا وأمروا عليهم مصعباً ومعه أخته آمنة، فلما هلك يزيد عبد الملك وولي هشام بن عبد الملك وولى خالدين عبد الله القسري، وجه خالد إليهم سيف بن هانئ الهمداني فواقعهم فقتلوا بحزة.

وقال بعض الرواة: قتلوا في آخر أيام يزيد، بعث ابن هبيرة إليهم سيفاً فقال فيهم بعض الشراة:

فتية تعرف التخشع فيهم | كلهم حكم القران غلاما

قد برى لحمه التهجد حتى | عاد جلداً مصفراً وعظاما

غادروهم بقاع حزة صرعى فسقى الغيث أرضهم يا إماما

قال الهيثم: لما أجمعوا على الخروج قال مصعب: إن شئتم كنت أميراً، وإن شئتم كنت وزيراً، قالوا: قد رضيناك أميراً.

قال: وقال أيوب بن خولي البجلي يرثي جابراً بقصيدة أولها:

كفى حزناً أني تذكرت جابراً على جابر صلت خيار الملائك

قتيل قضى إذ عاهد الله نحبه ولم ينتظر إذ قيل إنك هالك

أمر سعيد بن بهدل

قال الهيثم بن عدي: كان سعيد بن بهدل من أصحاب مروان الضعيف، وكان رأس الخوارج، وسمى الضعيف لأنه قيل له: ألا تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر؟ فقال: والله ما بي ضعف عن ذلك، ولكني ضعيف البدن وإني لا أجد أعواناً، ثم جلس سعيد بن بهدل في أصحابه فقال: لقد خفت أن يأتيني الموت بغتة قبل أن أقضي حق الله علي، فكيف طيب أنفسكم بالموت؟ قالوا: ما أطيبها به.

وكان عنده البهلول الشيباني، والضحاك بن قيس، فأقام خمساً ثم اعتقد وبايعوه فمات بعد أيام، و لم يلق أحداً، فقال فيه الضحاك بن قيس:

سقى الله يا خوصاء قبراً وحشوه إذا رحل الشارون لم يترحل

فيا ملحق الأرواح هل أنت ملحقي بموتي مضى سعيد بن بهدل

ثم بويع البهلول بن بشر.

وقال أبو الهيثم: هو أبو عمرو الشيباني، ويكنى أبا بشر، ويقال إن خروج ابن بهدل كان في أيام هشام بعد خروج البهلول.

قال: وزوج عمر بن هبيرة في أيام يزيد خارجية أتي بها من رجل من أصحابه، فقالت لزوجها: ممن أنت؟ قال: من قيس. فقالت: فقال:

خلوت بها ليل التمام فأصبحت من الدين إلا دين قيس تخلت .

"بسم الله الرحمن الرحيم"

أمر مسلمة بن عبد الملك

ومسلمة بن عبد الملك يكنى أبا سعيد، وأمه أم ولد، ولقبه الجرادة لصفرة كانت تعلوه، وكان شجاعاً، وقال عبد الملك في وصيته: أكرموا مسلمة فإنه نابكم الذي عنه تفترون، وله مغاز كثيرة بالروم وأرمينية، وافتتح طوانة من بلاد الروم، وولاه يزيد بن عبد الملك العراق فقتل يزيد بن المهلب، وقال لهشام في إمرته: كيف ترجو الخلافة وأنت بخيل جبان، قال: أني عفيف حليم.

وقال مسلمة: عجبت لمن قدر كيف لا يغفر، ولمن وسع عليه كيف لا يجود.

المدائني قال: قدم أعرابي الشام فلاحى رجل فقال له: يا ذا الذي يبول ابنه بول الحمار، فرفع إلى القاضي فلم يعرف ما قال الأعرابي فسأل مسلمة بن عبد الملك عنه فقال مسلمة: البول يعني سفاد الحمار، فجلده القاضي حداً فقال: واعجبا أأضرب هكذا فلاطاً، قال القاضي: والله ما أدري ما يقول وسأل عنها مسلمة فقال: الفلاط المفاجأة. فهجاه شاعر لهم فقال:

كيف وجدت ضربة فلاطا ينحط منه جلدك انحطاطا

لما رأيت فوقك السياطا خضعت خضعاً أفزع الأشراطا

فقال الأعرابي: يا رابع الشعراء ما أغراك بي أظننت أني مفحم لا أنطق؟: الشعراء أربعة: شاعر مفلق، وشاعر مجيد، وشاعر متكلف، وشويعر ماص لبظر أمه.

فقال مسلمة: ويحك يا أعرابي ما أطرفك، ما سقط إلينا مثلك. ووصله وماره.

المدائني قال: كان لمسلمة صديق وأليف يقال له شراحيل فمات فجزع عليه مسلمة جزعاً شديداً، وخرج فصلى عليه، فأتاه عبد الله بن عبد الأعلى الشيباني فعزاه فبكى وقال:

وهون وجدي على شراحيل أنني إذا شئت لاقيت امرأً مات صاحبه

حدثني العمري عن الهيثم بن عدي عن هشام التنوخي قال: كنا مسلمة بأرمينية أيام هشام فعرض الناس فمر به رجل ضخم، فأبلغ عنه أمراً وجب عليه عقوبته فقال له: ما اسمك: قال: عبد الله بن عبد الرحمن. قال: ممن أنت؟ قال: من بنو تغلب. قال: ارجع، وأمر بضربه. فلما ضرب سوطاً قال: بسم الله. قال مسلمة: خلوا عنه قبحه الله فلو ترك اللحن في حال لتركه تحت السياط.

هشام ابن الكلبي عن عوانة قال: تكلم قوم فأكثروا الخطأ والخطل، ثم أتاهم رجل بليغ فجعل لا يخرج من لفظ حسن إلا إلى أحسن منه، فقال مسلمة: ما شبهت كلام هذا في اثر كلام القوم إلا بسحابة لبدت عجاجاً.

وحدثني أبو مسعود الكوفي أن ابن كناسة الأسدي قال: قال مسلمة بن عبد الملك إنه لا عفة مع الشح، ولا مروءة مع الكذب.

المدائني قال: أن مسلمة بن عبد الملك كان ينتقص العباس بن الوليد بن عبد الملك حيث بعث يزيد بن عبد الملك لمحاربة يزيد بن المهلب بالعراق، ويحمقه فبلغ العباس ذلك فكتب إليه كتاباً فيه هذه الأبيات، يقال أنها له، يقال إنها لابن سيار، وإنما تمثل بها:

إلا تقني الحياء أبا سعيد وتقصر عن ملاحاتي وعذلي

فلولا أن أصلك حين تنمى وفرعك منتهى فرعي وأصلي

وإني إن رميتك هضت عظمي ونالتني إذا نالتك نبلي

لقد أنكرتني إنكار خوف يقصر منك عن شتمي وأكلي

لقول المرء عمرو في القوافي أريد حياته ويريد قتلي

قالوا: وشتم رجل من أهل الشام يزيد بن المهلب، فقال له مسلمة: اسكت أتقول هذا لرجل سار قريعاً قريش؟ إن يزيد حاول أمراً جسيماً ومات كريماً.

المدائني قال: قيل لمسلمة بن عبد الملك: ما يمنعك من العمل لو أردته لتوليت أجسمه؟ فقال: يمنعني ذل الطلب، ومرارة العزل، وهول الخطب، وقرع حلق البريد.

المدائني قال: قال مسلمة بن عبد الملك: ما فرحت قط بفتح كان على غير تقدير.

المدائني: أن مسلمة قال لعمر بن عبد العزيز: أوص. فقال: مالي مال أوصي به، قال: فأنا آتيك بمائة ألف درهم توصي فيها بما أحببت. قال: أفلا تفعل خيراً من ذلك، تردها إلى موضعها الذي أخذت منه، قال: رحمك الله يا أمير المؤمنين فقد لينت منا قلوباً قاسية، وزرعت لنا في قلوب الناس المحبة، وأبقيت لنا في الصالحين ذكراً.

المدائني عن خالد بن بشر قال: بلغ مسلمة بن عبد الملك أن رجلاً شتمه وعلم الرجل بذلك فانقبض في أتيانه، وسأل مسلمة عنه فأتاه وأجاد الاعتذار إليه، فقال مسلمة: اللهم عفواً كف عن هذا رحمك الله ، و لم ير منه تغيراً له.

قال: وشتم مسلمة قوم من أهل الأردن، وبلغه ذلك فبعثه إليهم وأعطاهم وكساهم وكتب إلى الوالي عليهم يأمره بالإحسان إليهم.

المدائني عن عامر بن حفص قال: قال أبو نخيلة السعدي: دخلت على مسلمة بن عبد الملك فقلت:

أمسلم يا منسوب كل خليفة ويا فارس الهيجا ويا جبل الأرض

تلافيتني لما أتيتك عارياً بخير لحاف سابغ الطول والعرض

وأنبهت لي ذكري وما كان خاملاً ولكن بعض الذكر أنبه من بعض

فقال: أين أنت من الرجز يا أخا بني سعد؟ فقلت: أنا أرجز الناس، قال: فأنشدني بعض رجزك، فأذهب الله عني كل ما كنت أحفظه مما قلت، فأنشدته أرجوزة للعجاج، فلما أمعنت فيها قال: حسبك، أنا أعلم بها منك، وأعرض عني فظننت أنه مقتني على كذبي إياه.

وحدثني هشام بن عمار قال: سمعت الوليد يقول: أخبرني من سمع مسلمة بن عبد الملك وذكر رجل فقيل هو قنوع فقال: إن القناعة أحد اليسارين، أو قال أحد المالين.

وقال هشام بن محمد الكلبي: كانت عند مسلمة بن عبد الملك الرباب بنت زفر بن الحارث الكلابي، فكان يأذن لأخويها الهذيل وكوثر أول الناس، فقال عاصم بن عبد الملك، وهو أبو زفر بن عاصم الهلالي:

أمسلم قد منيتني ووعدتني مواعيد صدق إن رجعت مؤمرا

أيدعى الهذيل ثم أدعى وراءه فيا لك مدعاً ما أذل وأحقرا

وكيف ولم يشفع لي الليل كله شفيع إذا ألقى قناعاً ومئزرا

فلست براض عنك حتى تحبني كحبك صهريك الهذيل وكوثرا

فقال الهذيل:

ما فخر الفخار علي وإنما نشأنا وأمانا معاً أمتان

أبي كان خير من أبيك وأفضلت عليك قديماً جرأتي ولساني

ورثى عبد الله بن عبد الأعلى مسلمة فقال:

أبا سعيد أراك الله عافية فيها لروحك عند العسر تيسير

فقد أقمت قناة الحق فاعتدلت إذ أنت للدين مما نابه سور

فولد مسلمة بن عبد الملك: سعد الأكبر وأمه أم ولد، وسعيداً الأصغر أمه الزعوم بنت قيس بن محمد بن الأشعث بن قيس الكندي.

قالوا: ولما قتل مسلمة يزيد بن المهلب، جمع له يزيد بن عبد الملك العراقين، فولى ذا الشامة محمد بن الوليد بن عقبة بن أبي معيط الكوفة.

وقال المدائني: أخذ مسلمة من عسكر بني المهلب ألفين وثمانمائة: فبعث بهم إلى ذي الشامة وكان على الكوفة، وصاحب شرطة العريان بن الهيثم، فقال ذو الشامة: يا أبا الحكم لست من هؤلاء في شيء فشأنك بهم، فقتل منهم من كان من بني تميم، و لم يقتل اليمانية والربعية. فقال حاجب بن ذبيان المازني:

لعمري لقد خاضت معيط دماءنا بأسيافهم حتى انتهى بهم الوحل

وما حمل الأقوام أثقل من دم حرام ولا ذحل إذا اتبع الذحل

وقال أبو نعيم الفضل بن دكين عن موسى بن قيس: أقبل مسلمة حتى نزل الحيرة فأتاه مسلمة بن كهيل، وزبيد اليامي فأعطاهما خمسمائة خمسمائة.

حدثني عمر بن محمد عن أبي نعيم عن زهير بن معاوية قال: رأيت مسلمة يأكل هكذا بأربع أصابع.
وحدثني عمرو عن أبي نعيم قال: سمعت سفيان يقول: قال عمر بن عبد العزيز لمسلمة: إذا مت فارفع لبنة من قبري، فانظر ما خرجت به من الدنيا. قال: ففعل فلم يزل ذلك يعرف فيه.
وقال المدائني عن رجل عن ابن عياش قال: لم يرفع مسلمة بن عبد الملك من الخراج كبير شيء فأراد يزيد بن عبد الملك عزله فاستحيا منه فكتب إليه: استخلف على عملك وأقدم، ويقال: بل شاور مسلمة عبد العزيز بن حاتم بن النعمان الباهلي في الشخوص إلى يزيد زائراً، فقال: أمن شوق بك إليه، إنك لطروب، وإن عهدك به لقريب. قال: لا بد من ذلك. قال: فإنك لا تخرج من عملك حتى يلقاك وال مكانك.
فلما بلغ دورين لقيه عمر بن هبيرة على خمس من دواب البريد وجهني أمير المؤمنين لحيازة أموال ال المهلب فقال: فلما فارقه أتاه عبد العزيز بن حاتم فقال له: قد أنبأتك أن سيلقاك وال مكانك، قال: فإنه قال لي كذا. فقال: واعجبا يصرف عن الجزيرة ويوجه لحيازة أموال آل المهلب وليس معه إليك كتاب .بمعاونته على ما وجه له.
فلم يلبث أن جاءه عزل ابن هبيرة عماله وعلظته عليهم.
وقال ذو الشامة يرثي مسلمة:

ضاق صدري وعيل صبري ف لا صبر دون ما أراه أتاكا

كل ميت قد اعتفرت فلم أج زع عليه إذا جاور الهلاكا

قبل ميت وقبل قبر على الخاب ور ولم استطع عليه اتراكا

قالوا: ودخل أعرابي على مسلمة فقال: يا بن الخليفة زرتك وأنت غرة مضر وحسيبها حين تذكر، قد تعطفت عليك الأملاك فليس يخاف ضيفك الهلاك، وأنت في فرع نضار، ورثته عن ذوي الأخطار، ولك يد تمطر الندى، وأخرى تقتل العدى، وقد رزقت من الناس الحمد، فدل عليك فضلك، فقال مسلمة: يا أعرابي إنك لفصيح، قال: أجل وإني لصريح، فقال مسلمة: قلما تجد أعرابياً عاقلاً قال: وما يذهب عقله إذا كان كاملاً؟ قال: قلة مخالطته الناس. فقال: ذلك أكيد له عند الناس، قال مسلمة: وأنى له بذلك وهو

لا يرى القتال؟ قال: يكون غمراً فيجترئ على الأبطال، قال مسلمة: احتكم يا أعرابي. قال: عشر جلال تمر، وعشر أعتز، وقطيعة للعيال، وجملاً نحمل عليه متاعاً وثلاثين درهماً ، فأمر له بضعف ما طلب.
"بسم الله الرحمن الرحيم"

أمر هشام بن عبد الملك بن مروان

هشام بن عبد الملك بن مروان، ويكنى أبا الوليد، وكان أحول بخيلاً، وأمه أن هشام واسمها فاطمة بنت هشام بن إسماعيل بن هشام بن الوليد بن المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم، ويقال عائشة بنت هشام، ويقال مريم بنت هشام، وكانت أمه حمقاء أمرها أهلها ألا تكلم عبد الملك حتى تلد، وكانت تثني الوسادة ثم تركبها وتزجرها، وتشتري الكندر فتمضغه وتجعل منه تماثيل، وتضع التماثيل على الوسائد، وقد سمت كل تمثال باسم وتنادي: يا فلانة يا فلانة، فطلقها عبد الملك، وسار إلى مصعب وهي حامل فلما قتله بلغه مولد هشام فسماه منصوراً تفاؤلاً بذلك، وسمته أمه هشام باسم أبيها.
وولد هشام بن عبد الملك عام قتل مصعب سنة اثنتين وسبعين، وولد هشام: مسلمة أبا شاكر، وأمه أم حكيم بنت يحيى بن الحكم، ويقال هي أم حكيم بنت الحارث ين الحكم.
وسعيداً، أمه أم ولد، ويقال أمه أم عثمان بنت سعيد بن خالد بن عمرو بن عثمان بن عفان.
ومعاوية، وأمه عبدة بنت عبد الله بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان.
وعبد الملك، وأمه مخزومية. ومحمداً، أمه الطلحية، ويقال أم ولد.
ومروان: درج صغيراً وأمه أم ولد.
وتزوج هشام من النساء: أم حكيم بنت يحيى بن الحكم، وحفصة بنت عمران بن محمد بن طلحة بن عبيد الله، وعبدة بنت عبد الله الأسوار بن يزيد بن معاوية. ورقية بنت عبد الله بن عمرو بن عثمان وأمها أم عمر بنت مروان، ولدت له عائشة بنت هشام، تزوجها عبيد الله بن مروان بن محمد، ويقال عبد الله، وعبيد الله أصح.
وأم سلمة بنت عبد الرحمن بن سهيل بن عمرو. وأم عبد الملك المخزومية.

وأتت هشاماً الخلافة وهو بالزيتونة، ومات هشام بالرصافة التي بقرب الرقة في شهر ربيع الآخر لست خلون منه سنة خمس وعشرين ومائة، وصلى عليه ابنه مسلمة، ويقال بعض ولده غير مسلمة، وكان خلافته عشرين سنة إلا خمسة أشهر. ويقال إنه مات ليلة الأربعاء لسبع خلون من شهر ربيع الأول سنة خمس وعشرين ومائة، وهو ابن ثلاث وخمسين سنة.

ويقال كانت خلافته تسع عشرة سنة وسبعة أشهر وأحداً وعشرين يوماً، ومات وله أربع وخمسون سنة.

قال المدائني: كان على شرطة هشام كعب بن حامد العبسي ثلاث عشرة سنة ثم عزله وولاه أرمينية بعد الجراح بن عبد الله الحكمي، وولى الشرط يزيد بن يعلى بن الضخم العبسي.

وولى الرسائل سالم بن عبد الرحمن مولى سعيد بن عبد الملك بن مروان، أو المنذر بن عبد الملك.

وولى الحرس نصراً مولاه ثلاث سنين، ثم ولى الحرس الربيع مولى بني الحريش وهو الربيع بن شابور، وولاه أيضاً خاتم الخلافة.

وولى ديوان الخراج والجند أسامة بن زيد، ثم عزله، وولى ابن الحبحاب، ثم ولى ابن الحبحاب مصر وصير مكانه على ديوان الخراج والجند سعيد بن عقبة مولى بني الحارث بن كعب.

وكان قاضي هشام نمير بن أوس الأشعري، ثم يزيد بن أبي مالك الهمداني.

قال أبو الحسن علي بن محمد المدائني: لما خلع يزيد بن المهلب وجه إليه يزيد بن عبد الملك مسلمة بن عبد الملك والعباس بن الوليد بن عبد الملك، وقال: أمير الجيش مسلمة فإن حدث به حدث فالعباس بن الوليد، فقال العباس بن الوليد ليزيد: يا أمير المؤمنين، إن أهل العراق قوم غدر كثير إرجافهم وأنت توجهني محارباً والأحداث تحدث ولا آمن أن يرجف أهل العراق ويقولوا: مات أمير المؤمنين، و لم يعهد فيفت ذلك في أعضاد أهل الشام ويدخلهم له الوهن والفشل، فلو بايعت لعبد العزيز بن الوليد، قال: غدا إن شاء الله.

وبلغ مسلمة بن عبد الملك ذلك فدخل على يزيد فقال: يا أمير المؤمنين، أولد عبد الملك أحب إليك أم ولد الوليد؟ قال: ولد عبد الملك إخوتي وأحب إلي، قال: فابن أخيك أحق بالخلافة من أخيك؟ قال: لا. قال: أفتبايع لعبد العزيز؟ قال: لا. غداً أبايع لهشام أخي وبعده للوليد ابني.

وبلغ عبد العزيز قوله، وأتاه مولى له لا يعرف بالخبر فقال له: يا أبا الأصبغ غداً نبايع لك. قال عبد العزيز: هيهات، أفسد ذلك علينا مسلمة ونقضه.

فلما كان الغد بايع يزيد لهشام، ومن بعده لابنه الوليد بن يزيد، فكان إذا نظر إلى الوليد قال: الله بيني وبين من جعل هشام بيني وبينك.

المدائني أن عبد الملك بن عياش قال لهشام قبل الخلافة، وكان يسحب ثيابه: قد أطلت قميصك يا أبا الوليد، قال: وما يضرك؟ قال: إنك تجره في الطين فارفعه. قال: وما ينفعك؟ المدائني عن الحارث بن يزيد قال: حدثني مولى لهشام قال: بعث معي مولى لهشام كان على بعض ضياعه بطائرين ظريفين فدخلت عليه وهو جالس على سرير في عرصة الدار، فجعل ينظر إليهما، فقلت: يا أخبرنا جائزتي. فقال: ويلك وما جائزة طيرين؟ فقلت: ما كان. فقال: خذ أحدهما، فعدوت في الدار لآخذ أحدهما فقال: مالك؟

قلت: أختار أحدهما. فقال: أو تختار أيضاً وتدع شرهما؟ قلت: نعم. قال: دعهما ونعطيك خمسين درهماً.

قال: وكتب سليمان بن هشام إلى أبيه: إن بغلتي قد عجزت فإن رأى أمير المؤمنين أن يأمر لي بدابة فعل، فكتب إليه: قد فهم أمير المؤمنين كتابك، وقد ظن أمير المؤمنين أن عجز بغلتك عنك من قلة تعهدك بها، فإن علفها يضيع، فتعهد دابتك وقم عليها وسيرى أمير المؤمنين رأيه في حملانك إن شاء الله، والسلام.

قال: وكتب بعض عمال هشام إليه: إني قد بعثت إلى أمير المؤمنين بسلة فيها دراقن فليكتب إلي بوصولها. فكتب إليه: قد بلغ أمير المؤمنين كتابك ووصل الدراقن وأعجبه، فزد أمير المؤمنين منه، واستوثق من الوعاء الذي توعيه إياه، والسلام.

وكتب إلى بعضهم: قد أتت أمير المؤمنين الكمأة التي بعثت بها وهي خمسون وقد تغير بعضها و لم يؤت ذلك إلا من قبل حشوها، فإذا بعثت إلى أمير المؤمنين بشيء من الكمأة فأجد الحشو في طرفه بالرمل حتى لا يضطرب ولا يصيب بعضه إن شاء الله، والسلام.

قال: وكان سالم بن عبد الرحمن كاتباً لهشام، ثم أنه صير ابنه كاتباً له يخلفه عنده، فقال له: إن ابنك يا سالم لبيب فقال: يا أمير المؤمنين أخا يرك به أي بنيك شئت.

المدائني قال: قال هشام لأبي أيوب: أخرج فأنظر كيف ترى السحاب، فخرج فنظر فقال: قد تفرق وإن اجتمع فعسى.

المدائني قال: قال هشام: إن لأهل العراق رائدين لا يكذبان دجلة والفرات.

المدائني قال: قدم علباء بن منظور الليثي على هشام فأنشده:

إنا أناس ميت ديواننا ... ومتى يصبه ندى الخليفة ينشر

فقال: ما أحسن ما قلت وسألت، وأمر له بخمسمائة درهم أن يلحق له عيل، فقدم البصرة فقال الفرزدق: الحذيا، فأعطاه مائة درهم، فقال: اجعلها يا أمير المؤمنين لابنتي، قال: إنما حاولت الجريبين، وكان لكل واحد من الذرية في كل عام مائة درهم، وفي كل شهر جريبان، وإنما ذلك لعيال أهل الديوان.

وقال هشام للأبرش – وهو سعيد بن الوليد بن عمرو بن جبلة بن وائل بن قيس بن بكر بن عامر، وهو الجلاح بن عوف بن بكر بن بكر بن عامر الأكبر بن عوف بن بكر بن عوف بن عذرة بن زيد اللات بن رفيدة بن كلب بن وبرة بن تغلب بن حلوان، وكان الأبرش جليسه وأنيسه –: كيف تكون أخص الناس بي وأنت أخص الناس بمسلمة أخي؟ فتمثل الأبرش:

أؤأخي رجالاً لست أخبر بعضهم بأسرار بعض إن قلبي واسع

قال: وقال الأبرش لهشام: يا أمير المؤمنين، لو ينادى في عرض الناس يا مفلس فسمع رجل من جلسائك نداءه ما ظن أنه عني غيره.

المدائني عن عمر بن يزيد عن الوليد بن خليد قال: رآني هشام على برذون طخاري فقال: ما هذا البرذون؟ قلت: حملني عليه الجنيد بن عبد الرحمن المري. فحسدني وقال: لقد كثرت الطخارية، ولقد مات عبد الملك وما في دوابه إلا برذون طخاري، فتنافسه ولده أيهم يأخذه وما منهم أحد إلا وهو يري أنه إن لم يأخذه لم يرث من أبيه شيئاً، فصار لي فما ورثت من عبد الملك شيئاً كان أحب لي منه.

المدائني عن يزيد بن الحارث قال: كان هشام وبنو مروان كلهم لا يسكون الناس الخز الأحمر والأصفر ويكسونهم ما رواء ذلك من الألوان، ويدخرون الأحمر والأصفر لكسوتهم.

قال: وقسم هشام تمراً وجبناً، فقال إبراهيم بن يزيد بن هبيرة السكوني، أخي مالك بن هبيرة السكوني لمولى له: انطلق فجئنا بشيء من تمر العراق وجبنه، فأعطي قوصرة وجبنة، قال مولى إبراهيم: فألفيت القوصرة وما فيها تمر قد سوس وفسد، وإذا الجبنة قد قشرها الفأر وأكل جانبها وثقبها.

ودخل أبو النجم العجلي على هشام فقال له: كيف رأيك بالنساء فقال: ما لي عندهن خير ولا لهن عندي مير. قال: ما ظنك بأمير المؤمنين؟ قال: مثل ظني بنفسي، فبعث هشام إلى جواريه فأخبرهن بما قال أبو النجم، فقلن: كذب عدو الله ما منا جارية تصلي صلاة حتى تغتسل، فوهب لأبي النجم جارية، ثم سأله عما صنع فأنشده

نظرت فأعجبها الذي في درعها من حسنه ونظرت في سرباليا

ورأت لها كفلاً ينوء بخصرها ثقلاً وأجثم في المجسة رابيا

ورأيت منتشر العجان مقلصاً رخواً حمائله وجلداً باليا

أدني له الركب الحليق كأنما أدنى إليه عقاربا وأفاعيا

المدائني قال: كان سهيل أبيض أو البيضاء من أهل المدينة، وكان مضحكاً، وكان هشام والوليد يستملحان حديثه وشعره، فقال له هشام: كيف قلت لداود وامرأته؟: قلت:

إنما دل عليه مركنٌ كان استعاره

فله ما شاء عندي إن تخطى العود فاره

أو رآه المرء غضبي اء فلم يوجع قفاره

وقال غير المدائني: كان داود هذا استعار مركنا يزرع فيه شيئاً: أو يستعمله في بعض الأمر، فرأته امرأته فأعجبها فضمها إليه بغير ولي ولا شهود، فلذلك قال إنما دل عليه هذا المركن، يقول: فله ما شاء إن لم يأخذه غضياء بن عياش بن الزبرقان بن بدر، وكان على شرطة المدينة، فيضربه، وقوله: تخطى العود، يعني بالعود العصا، والفار العضل. وكان غضياء يكثر ضرب عضل الرجلين. والعرب تقول: أشبع جارك، وأوجع فارك، أين أوجع عضلك حتى يهزل. وقال لامرأة داود:

وجدوا جونة سوء   بين هرشى والأصافر

وجدوا فيها متاعاً   ليس من زاد المسافر

وجدوا كارين فيها   من أديم غير ظاهر

وجدوا فيها خطايا   عجزت عنها الأباعر

قال أبو اليقظان: ولد عياش بن الزبرقان – واسم الزبرقان حصين بن يزيد بن امرئ القيس بن خلف بن بهدلة بن عوف بن كعب بن سعد: غضياء، وكان على شرطة المدينة لخالد بن عبد الملك بن الحارث بن أبي الحكم بن أبي العاص في أول أيام هشام، وكانت أم عبد الملك بن الحارث ابنة الزبرقان بن بدر، وغضياء القائل:

غريب في ديار بني تميم   ولا يخزي عشيرتي اغترابي

وعياش الذي قال له جرير بن عطية:

أعياش قد ذاق القيون مياسمي   وأوقدت ناري فادن عياش فاصطلي

فقال: إني إذاً لمقرور وحدثني العمري عن الهيثم بن عدي قال: دخلت جارية لهشام عليه، وعنده الأبرش فقال: يا أبرش أهبها لك؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين وهو يضحك ويغمز هشاماً، فقالت وفطنت: أنت والله أبرش أطمع من أشعب. فقال هشام: ومن أشعب؟ فقيل: مضحك مليح يكون بالمدينة، وحدث حديثه، فقال: اكتبوا في إشخاصه، فقال له الأبرش: أيتحدث الناس بأنك كتبت إلى عاملك على مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم فأشخصت منها ضحكاً لتلهو به؟ فقال: أمسكوا فإنها وصمة عظيمة، ثم قال شيئاً زعموا أنه لم يقل شيئاً قط غيره، ويقال إنه إنما تمثل به:

إذا أنت لم تعص الهوى قادك الهوى   إلى بعض ما فيه عليك مقال

المدائني عن إبراهيم بن سعيد القرشي قال: رأى عبد الملك بن مروان بن الحكم في منامه كأن ابنه هشام بن إسماعيل فلقت رأسه فلطعت منه عشرين لطعة، فغمه ذلك، فأرسل إلى سعيد بن المسيب من قصها

عليه، فقال سعيد: تلد غلاماً يملك عشرين سنة، فولدت هشاماً.

قالوا: وأقطع هشام الضيعة التي تدعى دورين فأرسل في قبضها فإذا هي خراب، فقال لدويد وهو كاتب كان بالشام: ويحك كيف الحيلة؟ قال: وما تجعل لي؟ قال: أربعمائة دينار. قال: فكتب دويد: وقراها. ثم أمضاها في الدواوين فاتسعت الضيعة وفشت، فلما ولي هشام دخل عليه دويد كالمتقرب بما كان فعل، فلما وقعت عين هشام عليه قال: وقراها، لا يلي لي والله ولاية أبداً، فأخرجه.

قال: وكان هشام يوماً على باب يزيد بن عبد الملك، فنظر إلى بغال تعرض عليه وفيها بغل لم ير مثله حسناً وطهارة خلق، ولين سير فقال: ما يصنع أمير المؤمنين بهذه الدواب كلها لو أن رجلاً اجتزأ بهذا البغل وحده كفاه، فلما ولي هشام اتخذ البراذين الطخارية والبغال فقال له الرجل الذي حضره على باب يزيد: أتذكر يوم قلت في البغل كذا وكذا؟ قال: نعم. وأنا عليه، ولكنا نرى شيئاً نحسد الناس عليه فنحب أن نحويه دونهم.

قالوا: ولما أخرج دويد ثقله أخبر هشام أنه على أربعين جملاً، فأرسل فأخذه. وطلب هشام عسلاً من الخزانة التي هي بالهني والمري والخزانة قرية، فقيل له إن الفقراء والمرضى كانوا يلعقونه فمنع الناس من تلك الكواير، وكتب بجمع العسل وطين الأبواب.

المدائني قال: كان هشام يتكلم بكلمات في العيدين في خطبته لا يقولهن في غير هذين اليومين، ثم يخطب بعد ذلك: الحمد لله ما شاء صنع، وما شاء أعطى، وما شاء منع، ومن شاء خفض، ومن شاء رفع، ومن شاء ضر، ومن شاء نفع.

المدائني عن عبد الله بن سلم القرشي عن خليد بن عجلان قال: خرج هشام وليس بخليفة يريد بيت المقدس، وأتى دمشق، فدخل على محمد بن الضحاك بن قيس الفهري ودخلنا معه، فقال له محمد وراءه يسحب ثيابه: يا أبا الوليد أدركت أمير المؤمنين عبد الملك؟ فقال نعم وكان والله مشمراً مهجراً، قال: فما يمنعك من ذلك؟ قال: يمنعني قول الشاعر لأبيك:

قصير الثياب فاحش عند بابه وشر قريش في قريش مركبا

حدثني العمري عن الهيثم بن عدي قال: كان هشام يلاعب الأبرش بالشطرنج، وقد أشرف هشام على أن يغلب الأبرش، فاستأذن الحاجب لرجل من بني مخزوم من أخواله فأمر بإدخاله، وغطيت الشطرنج بمنديل، فلما دخل المخزومي سلم وجلس، فقال له هشام: يا خال أتقرأ كتاب الله؟ قال: ما أقرأ منه إلا ما أقيم به صلاتي. قال: أفتروي من الآثار شيئاً؟ قال: لا. قال: أفتعرف من أحاديث العرب وأشعارها وأيامها ما يعرفه مثلك؟ قال: لا. قال: أفتنسب قريش سائر نزار؟ قال: لا أحسن من النسب شيئاً. قال:

يا غلام! إرفع المنديل فليس من خالنا حشمة، وأخذ في لعبه.

وقال الهيثم: عرض هشام الجند يوماً فنفر رجل من أهل حمص فرسه وقد دنا من هشام، فقال له: ويلك أتركب مثل هذه الفرس فإن نفر بك في حرب صرعك فهلكت، قال: والرحمن ما هذه عادته ولكنه شبهك بأبي جبرون البيطار، فقال له هشام: أغرب لعنك الله، وضحك.

المدائني وغيره قالوا: قال مسلمة بن عبد الملك لهشام – وتلاحيا في شيء: كيف ترجو الخلافة وأنت جبان بخيل؟ قال: لأني عفيف حليم.

وقال هشام ابن الكلبي: قال هشام لمن حضره: من أنعم الناس عيشاً؟ فقال بعضهم: ولد أمير المؤمنين. فقال رجل من الحرس: أنعم الناس عيشاً ابن كفيته أمر دنياه، وليس يهتم بأمر آخرته.

المدائني قال: كان المنصور يذكر هشاماً فيقول: كان رجل القوم.

أبو الحسن المدائني عن محمد بن الفضل قال: بعث هشام إلى أبي حازم الأعرج فأبطأ عليه، ثم أتاه فقال: ما منعك من إتياني؟ فقال: والله لولا مخافة شرك ما أتيتك. قال: ما ترى في إنفاق هذا المال؟ قال: إن أخذته من حله ووضعته في حقه سلمت، وإلا فهو ما تعلم.

المدائني عن مسلمة بن محارب قال: كان هشام إذا أحدث قال: القوا عني مؤونة التحفظ. قال: ودخل سليمان ين سعيد الخشني، أو ابنه على هشام، ومعه كتب يريد عرضها، فقال هشام: أخرها فإني محموم، وناوله يده فمس عرقه ثم قال: ما أرى بك حمى، ثم قال: يا بن اللخناء تكذبني. لا تقربني، وأمر بعزله عن الديوان.

المدائني عن شبيب بن شيبة قال: كان المنصور إذا ذكر بني مروان يقول: أما عبد الملك فكان جباراً لا يبالي ما أقدم عليه، وأما الوليد فكان مجنوناً، وأما سليمان فكان همه بطنه وفرجه، وأما عمر بن عبد العزيز فكان أعور بين عميان، ورجل القوم هشام.

قالوا: وكان الجعد بن ردهم مؤدب مروان ومعلمه، وكان دهرياً، ويقال كان معتزلياً شهد عليه ميمون بن مهران أنه قال له ووعظه: لشاة قياد أحب إلي مما تدين به. فقال له: قتلك الله وهو قاتلك، ويقال إن ميمون بن مهران وعدة شهدوا عند هشام على الجعد بن درهم بالكفر، فطلبه هشام فهرب إلى حران، ثم إنه ظفر به فحمل إلى هشام فأخرجه من الشام إلى العراق، وكتب إلى خالد بن عبد الله القسري وهو عامله على العراق بأن يحبسه فلم يزل محبوساً حيناً، ثم إن امرأته رفعت إلى هشام في أمره تعلمه طول حبسه وسوء حاله وحال عياله، فقال: أو حي هو؟ وكتب إلى خالد في قتله، فقال خالد يوم أضحى: أيها الناس انصرفوا إلى أضاحيكم فإني مضح بعدو الله الجعد بن درهم، وكان الجعد مولى سويد بن غفلة

الجعفي.

قالوا: وكان غيلان يقول: كلمت الجعد فوجدته معطلاً. المدائني عن ريسان الأعرجي عن عقال بن شبة قال: دخلت على هشام، وعليه قباء أخضر، فجعلت أتأمله، فقال: مالك تتأمل قبائي؟ قلت: رأيت عليك قبل الخلافة قباء أخضر شبهته بهذا القباء، قال: هو هو، والذي لا إله غيره، ومالي قباء سواه، وما ترون من جمعي المال وصونه إلا لكم.

وقال المدائني: كان عقال بن شبة مع هشام، وكان شبه أبو عقال مع عبد الملك، وكان عقال يقول: دخلت على هشام فدخلت على رجل محشو عقلاً.

قالوا: وقال هشام لنسطاس أبي الزبير: أترى الناس يرضون بعدي بالوليد بن يزيد؟ قال: قلت: يطيل الله عمرك يا أمير المؤمنين ويبقيك بعده، قال: لا بد من الموت. أفترى الناس يرضون به؟ قلت: يا أمير المؤمنين البيعة له في أعناق الناس، قال: لئن رضي الناس بالوليد إن الحديث الذي روي: "إن من ولي الخلافة ثلاثة أيام لم يدخل النار"، باطل.

قال الهيثم بن عدي: بعث يوسف بن عمر إلى هشام ياقوتة حمراء يخرج طرفاها من الكف، وحبة لؤلؤ أعظم ما يكون الحب، قال الرسول: فدخلت على هشام فدنوت منه فلم أر وجهه من طول السرير وكثرة الفراش. فما تناول الحجر والحبة قال: أكتب معك بوزنهما؟ قلت: يا أمير المؤمنين هما أجل من أن يكتب بوزنهما، ومن أين يوجد مثلهما؟ قال: صدقت.

وكانت الياقوتة للرائقة جارية خالد بن عبد الله القسري اشترتها بثلاثة وسبعين ألف دينار.

المدائني وغيره أن هشاماً أنشد بيت حسان بن ثابت الأنصاري:

أتانا رسول الله لما تجهمت ... له الأرض إذ يرميه كل مفوق

وهو يروي حين تنكرت له الأرض إذ يرميه كل مفوق وأنشد أيضاً شعر قيس:

ثوى في قريش بضع عشرة حجة ... يذكر لو يلقى صديقاً مؤاتياً

فقال: ما رأيت أحد أشد امتناناً على الله ورسوله من هؤلاء اليهود - يعني الأنصار -.

ومات هشام بالذبحة فروي عن سالم أبي العلاء أنه قال: خرج علينا هشام يوماً وهو كئيب، يعرف ذلك فيه، مسترخي الثياب، وقد أرخى عنان دابته فقال: ادعو الأبرش، فدعي فسار بين الأبرش وبيني، فقال الأبرش: يا أمير المؤمنين لقد رأيت منك ما غمني، قال: ويحك كيف لا أغتم وقد زعم أهل العلم أني ميت إلى ثلاثة وثلاثين يوماً، قال الأبرش: فلما انصرفت إلى متزلي كتبت: زعم أمير المؤمنين أنه يسافر

يوم كذا، فلما كانت ليلة اليوم الذي كمل الثلاثة والثلاثين أتاني رسول هشام فقال: أجب واحمل معك دواء الذبحة، وقد كانت الذبحة عرضت له مرة فتداوى بذلك الدواء فانتفع به فأتيته ومعي الدواء فتغرغر به، فازداد الوجع شدة، ثم سكن، فقال: قد سكن بعض السكون فانصرف إلى أهلك وخلف الدواء عندي، ففعلت، فما استقررت في مترلي حتى سمعت الصراخ فقالوا: مات أمير المؤمنين، فلما مات أغلف الخزان الأبواب، فطلبوا قمقماً يسخن فيه الماء لغسله فما وجدوه، حتى استعاروا قمقماً.

وكان الوليد شخص عن الرصافة لكثرة عبث هشام به، وخلق عياض بن مسلم مولى عبد الملك بن مروان، وهو كاتبه، بالرصافة، وأمره أن يكتب إليه بالأخبار، فعتب عليه هشام فضربه وحبسه وألبسه المسوح، فلما صار هشام إلى الحد الذي لا ترجى له فيه الحياة، أرسل عياض إلى الخزان أن احتفظوا بما في أيدكم فلا يصلن أحد منه إلى شيء.

وأفاق هشام إفاقة فطلب شيئاً فمنعه، فقال: أرانا كنا خزاناً للوليد.

ثم مات هشام من ساعته، فخرج عياض من الحبس، وختم أبواب الخزائن، وأمر بهشام فأنزل عن فرشه وحازها، فما وجد له كفن، حتى كفنه غالب مولى هشام.

وقال مروان بن شجاع مولى مروان: كنت مع محمد بن هشام، فأرسل يوماً إلي فدخلت عليه وقد غضب وهو يتلهف، فقلت: مالك؟ قال: رجل نصراني شج غلامي، وجعل يسبه، فقلت: على رسلك. قال: ما أصنع؟ قلت: نرفعه إلى القاضي، قال: أما غير هذا؟ قلت: لا. فقال خصي له: أنا أكفيك. فذهب فضربه.

وبلغ ذلك هشاماً فطلب الخصي فعاذ بمحمد، فقال محمد بن هشام: لم آمرك، وقال الخصي: قد والله أمرني، فضرب هشام الخصي، وشتم ابنه وهجره أياماً ثم رضي عنه.

قالوا: وكان في موكب هشام ثمانمائة فارس: أربعمائة من الشرط، وأربعمائة من الحرس، ولم يكن أحد يسير في موكب إلا مسلمة بن عبد الملك.

ورأى هشام ذات يوم سالماً كاتبه في موكب فزجره، وقال: لا أعلمن ما سرت في موكب، فكان يقدم الرجل الغريب فيسير معه، فيقف سالم ويقول: ما حاجتك، ويمنعه أن يسير معه.

وكان سالم عظيم القدر عند هشام، وكان يتمثل بشعر النعمان بن بشير في غلام له، كان يقال له سالم وهو:

يذودني عن سالم وأذودهم ... وجلدة بين العين والأنف سالم

وكان حاجب هشام يسير وحده، ولم يكن أحد من بني مروان يأخذ عطاء إلا وعليه الغزو، فمنهم من كان يغزو بنفسه، ومنهم من كان يخرج بديلاً، وكان لهشام مولى يقال له يعقوب فكان يأخذ عطاء

هشام، وهو مائتا دينار ودينار، يفضل بدينار، فيأخذ يعقوب ذلك ويغزو عنه.
وكانوا يصيرون أنفسهم في أعوان الديوان، وفي بعض ما يجوز لهم معه المقام، فيوضع عنهم الغزو، فكان داود بن علي بن عبد الله بن عباس، وعيسى بن علي، وهما لأم في أعوان السوق بالعراق لخالد بن عبد الله القسري، فأقاما عنده ووصلهما، ولولا ذلك لم يقدر على تصييرهما عنده، ولأخذا بالغزو فجعلهما في الأعوان، وكانا يسامرانه ويحدثانه.
قالوا: وكان هشام أراد أن يصير ابنه مسلمة ولي عهده بعد الوليد بن يزيد، فقال الكميت بن يزيد الأسدي:

إن الخلافة كائن أوتادها ... بعد الوليد إلى ابن أم حكيم

قالوا: فأضر هشام بالوليد بن يزيد، فدخل عليه يوماً فقال له العباس بن الوليد بن عبد الملك، يا أبا العباس كيف حبك للروميات؟ قال: إني لأحبهن، وكيف لا نحب من لا يزال يأتيك بمثلك. فترك الوليد الرصافة وخرج، فكان بالأزرق من أرض بلقين وفزارة، فكان يزيد بن الوليد بن عبد الملك يكتب إلى الوليد بما أجمعوا عليه من خلعه.

قالوا: وضم هشام إلى ولده: سعيد بن عمرو بن جعدة بن هبيرة المخزومي، وقالوا: ولى هشام مولى له ضيعة فعمرها حتى جاءت بغلة كثيرة، وعمرها أيضاً فأضعفت غلتها وحمل ما ارتفع من مالها مع ابنه، فقدم به هشام فجزى أباه خيراً، فلما سمع ذلك انبسط فقال: يا أمير المؤمنين إن لي إليك حاجة. قال: وما هي؟ قال: زيادة عشرة دنانير في عطائي. قال: ما يظن أحدكم إن زيادة عشرة دنانير في العطاء إلا نقد الجوز، لا لعمري لا أفعل.
حدثني أبو محمد النحوي عن أبي عبيدة قال: حج هشام بن عبد الملك سنة ست ومائة، فأتى الكوفة فحج منها، فقال يزيد بن المرقال: كنت في اكرياته، فلم يأمر لنا بشيء، فقلت لأصحابه: أنا أكلمه. فوضعت غرائر وقمت عليها فقلت: يا أمير المؤمنين نحن أكرياؤك وخدامك. فأمر لنا بصلة.
قالوا: وقال إبراهيم بن هشام المخزومي: ما كان هشام في حجة شيء أنكرناه، إلا حادياً حدا بين يديه وهو يسير فقال:

إن عليك أيها البختي ... أكرم من تحمله المطي

فقال: صدق فوك لعمر الله، وزوج ابناً له بالكوفة.
حدثني التوزي النحوي عن أبي عبيدة عن الزعبل بن الكلب العنبري قال: خازمت – يقول: عارضت –

إلى هشام حين قدم يريد الحج فأهديت له ناقة فلم يقبلها، فلما قوضت سرادقاته ورفعت حجره واستوى غرز ناقته ناديت فقلت: يا أمير المؤمنين جعلت فداءك إنها مرباع هلواع مقراع حلباة ركباة. فضحك وأمر لي بصلة.

قال: المرباع: التي تربع إلى الصوت، مرباع: سريعة الحمل، هلواع: حديدة القلب من الهلع، مقراع: تقر للفحل حتى يقرعها، ويقال: ناقة حلباء ركباة وحلبانة ركبانة وحلبوت ركبوت.

حدثني عباس بن هشام عن أبيه عن جده قال: قال هشام بن عبد الملك: اثنان يتعجلان النصب ولعلهما لا يظفرا بالبغية: الحريص في حرصه ومعلم البليد ما لا يبلغه فهمه.

المدائني قال: قال هشام لرجل متصل به سرقت له عشرة آلاف درهم: هل حدثت نفسك أن تنفقها في شيء تتمتع به في الدنيا؟ قال: لا. قال: فخذ إذن حجراً يزن عشرة آلاف درهم فضعه موضعها، فإن الحجر وتلك العشرة الآلاف سواء.

قالوا: وخطب هشام بنت القاسم بن عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان ، وأم القاسم فاطمة بنت الحسين، وكان القاسم جلداً من رجال قريش فقال لرسوله: لا أزوجه حتى يقضي بديني ويأمر لي بعشرة آلاف درهم، ويعطي أخي عبد العزيز عشرة آلاف درهم، وآمنة أختي عشرة آلاف درهم.

فأدى الرسول قوله إلى هشام، فغضب هشام وشتمه، ثم بعث القاسم ورسوله إلى هشام في حوائج له فقال: لا ولا نعمة عين لا تقضى له حاجة، فوالذي أكرمني بخلافته ما هممت بظلم مسلم ولا معاهد مذ وليتها ولا ظلم القاسم، ولم يقض حاجته.

فلما مات القاسم تزوج هشام امرأته، وزوج ابنه ابنة القاسم، وحملهما إلى الشام، فبكى أهل المدينة جزعاً على القاسم.

قالوا: وأهدى حسان النبطي لهشام بن عبد الملك هدايا كثيرة من ثياب وجواهر وغير ذلك فاستكثرها هشام، وقال: بيت المال أحق بهذه الهدايا، فأمر ببيعها فبلغ ثمنها خمسمائة ألف درهم فابتاعها حسن ممن اشتراها وحملها إلى هشام وقال: قد طابت لك فمر بقبضها. فأمر هشام فنودي: إلا إن حسان سيد موالي أمير المؤمنين.

قالوا: ودخل هشام الكوفة فترل الحيرة فسمع أصوات المؤذنين بالكوفة للغداة فقال لخليفة خالد بن عبد الله القسري – وكان خالد عامل هشام على العراق، وخليفته بالكوفة العريان بن الهيثم –: ما هذا الأصوات؟ أتراهم فعلوها؟ قال: يا أمير المؤمنين هذه أصوات المؤذنين، فقال هشام: إن بلداً تبلغ أصوات مؤذنيه ما أسمع لبلد يجب حفظه وحفظ أهله. وكان جباناً.

وحج هشام فدخل على سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب وهو مريض فقال له: يا أبا عمر ألك

حاجة؟ قال: اتق الله. قال: أوصني بأهلك. قال: هم في سعة من فضل الله. فمات في سنة ست ومائة وصلى عليه هشام.

حدَّثنا العمري عن الهيثم عن ابن عياش قال: لما حج هشام فدخل المدينة قال لرجل من أصحابه: انظر من ترى في المسجد، قال: أرى رجلاً طوالاً أدلم. قال: هذا سالم بن عبد الله بن عمر، ادعه. فأتاه فقال: أجب أمير المؤمنين. فأرسل من يأتيك بثيابك. قال: ويحك يزور بيت الله زائره في ثوبين ولا أدخل على هشام فيهما. فلما دخل على هشام وصله بعشرة آلاف درهم.

ثم قدم المدينة منصرفاً من الحج فقيل له إن سالماً شديد الوجع، فدخل عليه فسأله عن حاله، ومات سالم فصلى عليه هشام وقال: ما أدري أي الأمرين أنا أشد به سروراً، إتمام حجي أم صلاتي على أبي عمر.

حدثني عمر بن بكير عن هشام بن محمد الكلبي عن أبيه قال: حج هشام فلما قدم المدينة دعا سالم بن عبد الله فآنسه، ودعا له بصلة وقال: هذا بقية الناس وابن الفاروق وخير أهل زمانكم، ثم انصرف وقد حم فقال: أترون الأحوال لعقني بعينه، فكان هشام يقول: سروري بالصلاة على أبي عمر كسروري بتمام حجي أو كما قال.

قالوا: وكان مما أنكر هشام قوله لأشكون سليمان أخي يوم القيامة لاختياره يزيد بن عبد الملك علي.

قالوا: وأراد هشام أن يبايع لمسلمة بن هشام، ويخلع الوليد بن يزيد، فكاتب أهل الشام في ذلك فأجابه إلى إرادته خلف كثير، فكان ممن أجابه: سعيد بن عبد الملك، ومحمد، وإبراهيم ابنا هشام المخزومي، والوليد وعبد الملك ابنا القعقاع بن خليد العبسي، وغيرهم من بني أمية، فأضر بالوليد وأقصاه وكان يشتمه ويسفهه ويعيره بالشراب، وولى مسلمة بن هشام الموسم وأعطاه مالاً عظيماً أمره أن يقسمه فقسمه مولى من أهل المدينة:

يا أيها السائل عن ديننا	نحن على دين أبي شاكر
الواهب الجرد بأرسانها	ليس بزنديق ولا فاجر

يعرض بالوليد، وقال قوم أن هشاماً عاب الوليد ووبخه في الشراب فقال:

يا أيها الباحث عن ديننا	نحن على دين أبي شاكر
نشربها صرفاً وممزوجة	بالسخن أحياناً والفاتر

فقال هشام لمسلمة: يعيرنا الوليد بشربك، فالزم الأدب، واحضر الصلوات، والزم مجلسي غدوة وعشية.

ويقال إن الذي قال هذا الشعر عبد الصمد بن عبد الأعلى أخو عبد الله بن عبد الأعلى الشاعر.

قالوا: وكان الخلفاء وأبناء الخلفاء من بني أميه يتبدون ويهربون من الطاعون، فيترلون البرية خارجاً عن الناس، فلما أراد هشام أن يترك الرصافة قيل له: لا تخرجن فإن الخلفاء لا يطعنون و لم نر خليفة قط طعن، فقال: أبي تريدون أن تجربوا، الرصافة – وهي قرية – وابتنى قصرين وأقام بها، والرصافة رومية بناها بعض ملوك الروم، وهي تنسب إلى هشام، ويقال إنه أراد أن يخرج من الرصافة إلى البادية فراراً من الطاعون، فقيل إنه لم يطعن بها أحد فقال: أبي تجربون.

قالوا: وأنشد أبو النجم هشاماً أرجوزته اللامية حتى بلغ:

والشمس قد همت ولما تفعل   فهي على الأفق كعين الأحول

فغضب هشام وأمر به فأخرج، وروي أيضاً أن خالداً بعث إلى هشام بحادٍ فحدا بهذين البيتين فغضب هشام وطرده.

المدائني عن مسلمة أن الفرزدق حج عام حج هشام فوصله إبراهيم بن إسماعيل المخزومي بخمسمائة درهم فقال:

أميركم شر الولاة علمته   وشر ولاة المؤمنين هشام

فأراد إبراهيم أن يضربه فقيل: تضربه ثم تخلي عنه فيهجونا.

المدائني عن أبي عاصم عن رجل من بني ضبة قال: مر بي معاوية بن هشام وأنا في مزرعة لي قد اختبزت خبزة، فوقف علي فقلت: الغداء. فترل فأخرجتها ووضعتها في لبن فأكل، ثم جاء الناس فركب وثار بين يديه ثعلب فركب في أثره، وعثر فرسه فسقط فاحتملوه ميتاً، فقال هشام: أرشحه للخلافة ويتبع كلباً.

وكانت عند معاوية امرأتان: إحداهما ابنة إسماعيل بن حربي فأخرج كل واحدة منها من نصف الثمن بأربعين ألف درهم. ورثى الكميت معاوية بقصيدة قال فيها:

سأبكيك للدنيا وللدين إنني   رأيت يد المعروف بعدك شلت

المدائني قال: قال هشام لغيلان أبي مروان: ويحك يا غيلان قد أكثر الناس فيك، فتنازعنا في أمرك، فإن كان حقاً اتبعناك، وإن كان باطلاً نزعت عنه.

وكان غيلان كاتباً من كتابهم، وهو مولاهم، فترك خدمتهم وبسط لسانه فيهم بسوء القول، فدعا هشام ميمون بن مهران ليكلمه فقال له: يا ميمون سل فأقوى ما تكونون إذا سألتم، فقال ميمون: أشاء الله أن يعصى؟ قال: لا. فعصي كارهاً؟ قال: هو كاره للعصيان الذي نهى عنه وليس هو بالمحمول على أمر يكرهه، ويقال إنه لم يجب بشيء وقال: أقلني. فقال هشام: لا أقالني الله إن أقلتك، وأمر بقطع يديه ورجليه وسل لسانه، وألقي على مزبلة يراه الناس.

وكان من أصحاب الربيع: خطبان، والوضين بن عطاء، وهما من أهل اليمن، فأما الربيع فرآه المنصور أمير المؤمنين بالبصرة عند عمرو بن عبيد قبيل الخلافة، فذكر محمد بن عبد الله بن حسن بن حسن فقال الربيع: ما ندري ما محمد لم نره، وأما أنت فرجل منها نقول بما تقول به من الحق والتتريه لله، قد عرفنا مذهبك وما أحد أحق بالخلافة منك.

فشكر له أبو جعفر ذاك فولاه دار الضرب بدمشق.

وكان عمر بن عبد العزيز ولاه بيع خزائن بني مروان، فباع متاع عبد الملك، والوليد فنودي على جورب فبلغ مائة دينار، فقال غيلان: ما لهؤلاء لعنهم الله، جورب بمائة دينار؟ فحقد ذلك عليه هشام.

وقال جعفر بن سليمان بن علي: قال لي عبد الله بن علي: جمعت بين دواوين بني مروان فلم أر ديواناً أصح ولا أصلح من ديوان هشام في أمر الخاصة والعامة والسلطان.

المدائني عن غسان بن عبد الحميد قال: لم يكن أحد من بني مروان أسد نظراً في أمر أصحابه ودواوينه، ولا أشد مبالغة في الفحص عن أموره. من هشام.

قال: ودخل نسطاس على هشام، وعلى نسطاس جبة يسحبها، فقال له: من أين هذه الجبة لك؟ قال: بعث بها إلي فلان. قال: ولم بعث بها إليك؟ فما زال يبحثه ويفتشه عنها حتى علم أنها مصانعة، فحجبه أياماً ثم كلم فيه فأذن له.

وقال الهيثم: خرج الفرزدق مع هشام حين حج في سنة ست ومائة، فأمر له هشام بخمسمائة درهم فقال:

تحسبني بين المدينة والتي | إليها قلوب الناس يهوى منيبها
فقلت كفاكم لم تكن كف سيد | وعيناً له خوصاء جماً عيوبها

قالوا: وكان مع هشام حجر جوهر فقال: ما شاء فليسبني ويأخذه، فقال له الأبرش الكلبي: هاته يا أحول. فقال: خذه لا بارك الله لك فيه.

وقال هشام: أنعم الناس عيشاً رجل له امرأة صالحة قد غضت بصره عن سواها، وسداد من عيش يقيمه، فهو مقبل على أمر ميعاده، ولا يعرفنا ولا نعرفه.

وقال هشام بن عمار: كان هشام بناحية من الشام، فوقع الطاعون هناك فقيل: يا أمير المؤمنين إنه لم يمت ههنا خليفة قط، قال: أفبي تجربون.

حدَّثنا محمد بن الأعرابي عن المفضل الضبي قال: دخل قرواش بن حبيب على هشام في غمار الناس فقال: إن أنضاء سفر، وفل سنة، وعندكم أموال فإن تكن فبثوها في عباد الله، وإن تكن لهم فعلام تمنعونهم

إياها، وإن تكن بينكم وبينهم فقد أسأتم الأثرة وتركتم النصفة. فقال هشام: نحن أقفال عند الله مفاتيحها، فإذا أذن في شيء فتحنا له.

المدائني عن عبد الله بن محمد القرشي قال: أتى إبراهيم بن محمد بن طلحة بن عبيد الله هشام بن عبد الملك حين حج فمر بالمدينة فقال له: اعدني يا أمير المؤمنين على نافع بن علقمة فإنه أخذ داري، قال: أفلا رفعت ذلك إلى أمير المؤمنين عبد الملك؟ قال: قد فعلت فسلك غير طريق الحق. قال: أفلا رفعت إلى الوليد. قال: فعلت فسلك بي طريق أبيه. قال: فعمر بن عبد العزيز. قال: عوجل رحمه الله. فغضب هشام وقال: لا يزال أحدكم يتكلم بما يستحق به أن يدق أنفه ويسحب برجله. فقال: إذاً يسبق خيرك شرك، وتقطع رحمك، وتكون يد الله فوق يدك، أما والله إن القضاء ليتعقب. فقال هشام: لو كان فيك مضرب لضربتك، قال: في والله مضرب. فقال هشام: اكتمها علي.

وحدثني أبو عدنان عن الأصمعي قال: دخل أعرابي على هشام فقال: يا أمير المؤمنين أن يكن المال الذي في أيديكم لله فبثوه في عباد الله، وإن كان بينكم وبينهم فلقد أسأتم الأثرة عليهم، وأثمتم في حرمانكم إياهم، وإن كان لكم دونهم فتصدقوا فإن الله يحب المتصدقين. فقال: والله ما ترك واحدة من ثلاث، فأعطاه فخرج وهو يقول: ما أكز يده بالمعروف.

حدَّثني أبو عدنان عن هشام بن محمد، والهيثم بن عدي عن عوانة قال: أتى خالد بن صفوان باب هشام، فطلب الإذن فقيل: قد ركب أمير المؤمنين متنزهاً، قال خالد: وكان العام عاماً قد بكر وسميه وتتابع وليه، فكأن الأرض زرابي مبثوثة من نورها ووشيها، فأشار إلي مسلمة أن تكلم، فنظرت إلى الثمار والشجر فوالله ما دريت ما أقول، فقلت: قاتل الله عدي بن زيد حين يقول:

أين كسرى كسرى الملوك أنوشر ... وان أم أين قبله سابور

وبنو الأصفر الكرام ملو ... ك الروم لم يبق منهم مذكور

وأخو الخضر إذ بناه وإذ ... دجلة تجبي إليه والخابور

لم يهبه ريب المنون فب ... اد الملك عنه فبابه مهجور

قال هشام: قبح الله رأيك يا مسلمة فليس هذا بأول يوم غممتني فيه وقال مغضباً وتفرقوا، قال خالد: فأتاني بعض الشاميين فقال: أين هذا العراقي الذي أغضب أمير المؤمنين؟ قلت: خرج فخرجوا يسعون فأخذت في ناحية أخرى، وكان هشام لا يكاد يذكر في مجلسه الموت تطيراً منه.

وحدثني أبو عدنان عن الهيثم بن عدي هشام ابن الكلبي عن عوانة قال: وفد على هشام بن عبد الملك

وقد كلهم من قريش، وكلهم خطيب، فتكلموا ثم قال إسماعيل بن محمد بن أبي الجهم بن حذيفة العدوي أو غيره من ولد أبي الجهم: يا أمير المؤمنين هذه خطباء قريش قد نطقت فأطنبت وتكلمت فأسهبت، فوالله ما بلغ متكلمهم قدرك، ولا جاوز أبلغهم فضلك أفأوجز أم أطيل؟ قال: بل أوجز. قال: تولاك الله يا أمير المؤمنين بالحسنى، وزينك بالتقوى، ويسرك لليسرى، وجمع لك خير الآخرة والأولى، إن لي يا أمير المؤمنين حوائج أفأذكرها؟ قال: نعم. قال: كبرت سني، وكثر عيالي فإن رأى أمير المؤمنين أن يصلني بصلة يجبر بها كسري، وينفي فيها فقري فعل. قال: وما وصلتك التي تفعل بك هذا الذي ذكرت؟ قال: ألف دينار، وألف دينار، وألف دينار. قال: هيهات، وهيهات، رمت مراماً صعباً، هذا والله ما لا يحتمله بيت مال المسلمين.

ثم نكس هشام وإسماعيل ماثل بين يديه، فرفع رأسه ثم قال: هيه. قال: وما هيه يا أمير المؤمنين كأنك آليت إلا تقضي لي حاجة في مقدمي هذا، أما والله إن الأمر لواحد، لا أن الله آثرك بهذا المجلس، فإن تعطني فحقي أعطيت، وإن تمنعني فإني أسل الله الذي بيده ما حويت، فإن الله جعل العطية محبة والمنع مبغضة، وواله لأن أحبك أحب إلي من أن أبغضك. قال: فألف دينار لماذا؟ قال: أقضي بها ديناً، فدحني حمله، وأضر بي أهله. قال: نعم المسلك أسلكتها تؤدي حقاً وتضع عنك ثقلاً، أو قال تؤدي عن أمانتك، وتحط حملاً ثقيلاُ عن ظهرك. وألف لماذا؟ قال: أزوج بها من أدرك من ولدي. قال: تغض بصراً، وتعف فرجاً، وترجوا نسلاً، نعم المسلك أسلكتها، وألف لماذا؟ قال: اشتري بها أرضاً يكون فضلها لنفقتي في حياتي ويبقى عقدة لعقبي. قال: فإنا قد أمرنا لك بما سألت، قال: المحمود على ذلك الله، فلما ولى قال هشام: إذا كان القرشي فليكن مثل هذا، ثم قال هشام: أما والله ما نعطي تبذيراً، ولا نمنع تقتيراً، وإنما نحن خزان الله على بلاده، وأمناؤه على عباده، فإذا شاء أعطينا، وإذا منع أبينا، ولو كان كل قائل يصدق، وكل سائل يستحق ما جبهنا قائلاً، ولا رددنا سائلاً.

حدثني عبد الله بن صالح عن الهيثم: أخبرني الضحاك بن زمل قال: بلغ هشام قول الحسن البصري: لا يعدل أحد عن قصد، ولا يبقى كثير على إسراف، فقال هشام: صدق والله أبوه.

حدَّثني محمد بن أنس الأسدي عن ابن كناسة الأسدي قال: قدم رصافة هشام رجل من بني أسد، ثم من بني فقعس على هشام، فدخل عليه حين جلس للعامة، فقال: يا أمير المؤمنين أتت علينا سنون ثلاث أجحفت الأموال ونحبت قلوب الرجال، فأما الأولى منهن فأذابت الشحم، وأما الثانية فنحضت اللحم، وأما الثالثة فهاضت العظم، وفي أيديكم فضول أموال، فإن تكن لله فبثوها عباده، وإن تكن لهم فعلام تحظرونها عنهم وتمنعوها ذوي خلتهم، وإن تكن لكم فتصدقوا ف "إن الله يجزي المتصدقين" قال هشام: هذه حاجتك في خاصتك، فما حاجتك في عامتك؟ قال: مالي حاجة في خاصة دون عامة، فكتب هشام

إلى خالد بن عبد الله أن أنفق على من أقحمته السنة حتى يأتي الله بالحيا والخصب. وكتب بمثل ذلك إلى إبراهيم بن هشام عامله بالمدينة فأنفقا، فاحتسب بألفي ألف درهم، واحتسب إبراهيم بسبعين ألف دينار فسميت السنة سنة خالد.

ويروى عن الأصمعي أن عراقياً قال لبعضهم – هشام أو غيره – : إن كان هذا المال لكم فقد بخلتم به، وإن كان بينكم وبين رعيتكم فقد أسأتم الأثرة ومنعتم الحق، وإن كان لكم أن تعطوا ولكن أن تمنعوا فأنتم كما قال الله: "هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب"

المدائني عن أبي محمد القرشي قال: كان يفطر عند هشام قوم في شهر رمضان فسأله رجل منهم حاجة فقال هشام: ألم أنهكم عن أن يكلمني أحد في حاجة هذا الشهر؟ فقال له رجل يكنى أبا نوح من بني تميم، ممن كان يفطر معه: والله لقد أمر لي أمير المؤمنين بخصي فما منعني من تنجز ذلك إلا هذا الشهر. قال هشام: ما أعلمني أمرت لك بشيء، قال: بلى يا أمير المؤمنين قد أمرت لي به ولكنك نسيت. قال: فمن يعلم ذلك؟ قال: إبراهيم بن هشام خالك، فقال: أكذلك يا إبراهيم؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين وما كن أرى نسيانك يبلغ هذا، فأمر له هشام بالخصي. فلما خرج أبو نوح وقف لإبراهيم، فلما خرج إبراهيم قال: جزاك الله خيراً، قال: لكن لا جزاك الله خيراً، ويحك ألا أعلمتني أنك تريد هذا قبل أن تقوله، ثم قال: إياك أن تعود لمثلها.

المدائني قال: استأذن المهاجر بن عبد الله هشاماً في الحج فأذن له، وحج هشام فشكاه الناس، فراح إلى رواق هشام، فقال هشام لجارية له: انظري من في الرواق، فخرجت ثم رجعت فقالت: فيه أجمل الناس وآدب الناس، فقال: انطلقي إلى هذا الذي زعمت أنه أجمل الناس فادعيه فخرجت إلى المهاجر فقالت: أجب أمير المؤمنين، قال: انطلقي فإن للأمير حاجباً غيرك، فأرسل إليه خصياً فدعاه فقال: دونك هذه الجارية فاطلب ولدها فإنها نعمت أم الولد.

قالوا: وكان المهاجر بن عبد الله يمر في مسجد دمشق فيعدل عن القناديل لئلا يكسرها بطوله، وقد مدحه جرير فقال:

إن المهاجر حين يبسط كفه	سبط البنان طويل عظم الساعد
ولقد حكمت وكان حكمك مقنعاً	وجعلت بين منابر ومساجد

وقالوا: قدم عمرو بن أمية بن عمرو بن سعيد بن العاص على هشام فجفاه فقال:

لعمرك للربيع أقل ديناً	وأكثر صامتاً مني مرار
وأكثر زائراً من كثيراً	وأجدر بالرصافة أن يزار

قالوا: وكان هشام يقف على باب القصاب فيسأله عن سعر اللحم، ورأى رجلاً من خاصته يبتاع لحماً فغمزه فأتاه فقال: بكم تشتري؟ قال: بدرهم، قال: أحسنت، وأكثر من هذا سرف، وقال هشام: لا يلام المرء على إصلاح ماله والقصد فيه.

قال المدائني: دخل هشام بستاناً له فأقبل من معه يأكلون من ثمرته ويقولون: اللهم بارك لأمير المؤمنين، فقال: كيف يبارك الله في شيء يأكلون منه هذا الأكل، فقلع شجر ذلك البستان وجعل مكانه زيتوناً.

حدثني العمري عن الهيثم بن عدي قال: قال هشام: ما ندمت على شيء ندامتي على ما أهب. إن الخلافة تحتاج إلى الأموال كما يحتاج المريض إلى الدواء.

حدثني داود بن عبد الحميد قاضي الرقة، حدثني أبي أن رجلاً من قريش دخل على هشام فقال له: ما أقدمك؟ قال: حاجة جليلة، وفضل أمير المؤمنين أجل منها. قال: وما هي؟ قال: تصلني بألف دينار وألف دينار وألف دينار. قال: ألف لماذا؟ قال: أصرفها في قضاء ديني. قال: حسن جميل، تقضي حقاً، وتحط ثقلاً، وتؤدي أمانة. وألف دينار لماذا؟ قال: أزوج بها ولدي. قال: حسن جميل. تعف فرجاً، وتصل سبباً، وترجو عقباً، وألف لماذا؟ قال: استعين بها على نوائب الزمان وجفوة الإخوان، قال: حسن جميل، تستر بها نفسك، وتصون وجهك، وتصلح بها معاشك. ثم سكت فخرج من عنده.

ثم عاد في اليوم الثاني فقال له: قد أمرنا لك بثلاثة آلاف دينار، وإنما نحن في خزان الله، فإن أذن لنا في عطاء شيء أمضيناه، وإذا لم يأذن فيه منعناه.

قالوا: وكتب هشام بخطه: من عبد الله هشام أمير المؤمنين إلى رياح مولى مسلمة ابن أمير المؤمنين، أما بعد: فقد قرئ على أمير المؤمنين كتابك بما ذكرت من تكليفك من المؤونة في القراطيس، وسيرى أمير المؤمنين في أمر القراطيس لك ولغيرك رأيه، إن شاء الله.

وكتب هشام إلى يوسف بن عمر: أما بعد فقد وليت عبد الله بن نافع ما كان سعيد يليه من عمل بعلبك، وأمرته بقبض العهد الذي كان لسعيد والأخذ فيه، فاعلم ذلك من رأي أمير المؤمنين، وأحسن جوار عبد الله، وأعنه على مما استعانك عليه فيما وافق الحق، وما هو له، ولما تحت يده صلاح، ولا تجعل له إلى شكيتك سبيلاً إن شاء الله.

قالوا: بعث خالد بن عبد الله القسري إلى هشام بمال، وأرسل قوماً يشهدون أنه طيب أخذ من حله، فصانع رجل بألفي درهم حتى جعل مع الشهود، وصير آخرهم، فقدموا على هشام فقال: أين المزكون، فدعا رجلاً رجلاً فحلفوا بالله أنه ما أخذ شيئاً من ذلك المال إلا من حلال، ولا حمل إليه خالد إلا الفضل بعد أن أعطى كل ذي حق حقه، حتى قام ذلك الرجل المصانع بالألفين فحلف بالله لقد شهدوا بزور

وفجور. فقال هشام: أراك مستأجراً؟ فقال: والله لقد صانعت بألفي درهم حتى ألحقت بالشهود، قال: أفأنت خارجي؟ قال: لا والله ما أنا بخارجي، ولكني نظرت لك فاتق الله. فقال هشام لمن حضره: ما ترون؟ فقالوا: نرى أن تقتله فإن له مذهب سوء، وإلا فلم صانع ليخبث بنفس أمير المؤمنين، ويجرح شهادات مثل هؤلاء فقتله وصلبه، ويقال بعث به إلى خالج فقتله وصلبه بواسط.

وقال بعضهم كان خالد بن عبد الله أبلغ عن الكميت بن زيد تنقصاً له، وكان متهماً بالرفض عندهم، وأنشد قصيدته الهاشمية التي يقول فيها.

إلى النفر الغر الذي بحبهم	إلى الله فيما نابني أتقرب
وقالوا ترابي هواه ورأيه	بذلك أدعى فيهم وألقب

فحبسه خالد فلبس ثياب النساء وخرج فعاذ مسلمة بن هشام وقال:

خرجت خروج القدح قدح ابن مقبل	على الرغم من تلك النوابح والمشلي
علي ثياب الغانيات وتحتها	عزيمة رأي شبهت سلة النصل
فأصبحت مغبوطاً ومحسود أمة	بأبيض محسود على مثله مثلي
من النفر البيض الذي أكفهم	سمام العدى والشافيات من النبل

وأخبرني عباس بن هشام عن أبيه عن جده قال: بلغ هشام بن عبد الملك أمره عابه، وأنشد قصيدته البائية، فكتب الى خالد في حبسه، فحبسه فكان أبان بن الوليد بعده ويمينه ويضمن له عن خالد ما يحب، وخالد يومئذ بواسط، وكان المستهل بن الكميت بعمل في أمره من قبل عبد الرحمن بن عنبسة، فجاء كتاب هشام بقطع يدي الكميت ورجليه ولسانه، فأخبر خالد بن عنبسة بذلك، ليعلمه إياه فيوصي ويعهد، فأخبر المستهل أمه فلبست درعين وخمارين ونطاقين، ثم أتت الكميت فأخبرته فلبس أحد درعيها، وأحد خماريها، وأحد نطاقيها، ثم خرج على البوابين فلم ينكروه ومضى من فوره إلى مسلمة بن هشام فأجار مسلمة وأخواه. وقال في أبان بن الوليد:

أخلق وابل أبا الولي	د فقد لبست ثياب غادر

وكتب خالد إلى هشام بخبره، فكتب إليه هشام: أما امرأته فخاطرت بنفسها لزوجها فلا سبيل عليها فأطلقها. وأما أنت فقد ضيعت. وقال الكميت: خرجت خروج القدح قدح ابن مقبل .....
الأبيات.

وقال الكميت يحذر هشاماً غدر خالد – ويذكر ما تدعى اليمانية من مصير الأمر إليهم، فإن ابن الأشعث

كان ادعى ذلك لنفسه، ثم يزيد بن المهلب بعده، وأن خالداً أطمع نفسه في ذلك – قصيدة، وقال في ذلك

أنواماً يقول بني لؤي — عن الأمر المرشح ذي البزول

أرى أمراً سيعظم أصغراه — لتم لقاح مبسقة حفول

دفوع للفصال بمنكبيها — خبوط عند درتها ركول

كما لقيت ثمود ولا يكونوا — لكم مثلاً براغية الفصيل

فيقال إن مسلمة بن هشام دخل على هشام فلم يفارقه حتى عزل خالداً، وأمسك عن الكميت لأنه كذب ما قيل فيه: وقال الكميت في مسلمة أبي شاكر بن هشام:

إن الخلافة كائن أوتادها — بعد الوليد إلى ابن أم حكيم

فقال خالد: أنا اكفر بخليفة يكنى أبا شاكر، فكأن مسلمة قد حقد عليه لذلك.

وقال الكميت في هشام قصيدة يقول فيها:

وكنا متى ما ندع مروان للتي — نخاف نذد عن حوضنا أن يفجرا

وأنتم أناس يجمع الله دينه — بكم ويقيم الله من كان أصورا

وجدنا أبا العاصي أبا أبويكم — ومجدكم المستقدم المتأخرا

كساه من المجد الهشامان حلة — مغيرية منها ارتدى وتأزرا

وقال الكميت:

أبني أمية إنكم — أهل الوسائل والأياصر

أنتم معادن للخلا — فة كابراً عن كل كابر

Binary file 1147_1 matches

حدثني العمري قال: ولى هشام ابنه سعيداً حمص، فكان يرسل إلى تاجة بنت عمرو الغنوي، وهي امرأة عمرو بن سليل من بني تميم الرباب، فشهد بذلك عند أبيه، فجده أبوه وقال: يا بن الخبيثة أتزني وأنت ابن أمير المؤمنين، لا جرم. لا وليتك عملاً أبداً، إنما فجور قريش منع هذا ما يستحق، وإعطاء ذاك لا يستحق، فيقال إن سعيد مات من ذلك من الضرب، والثبت أنه بقي بعد موت أبيه.

قالوا: وقدم محمد بن علي بن عبد الله بن العباس على هشام فكره ذلك وأمر بفسطاطه فقوض وقال: قولوا له إلحق بمنزلك، وانتظر دولتكم التي تتوقعونها. فقال له الأبرش الكلبي: يا أمير المؤمنين إن كان الذي

يقال حقاً فقد ينبغي أن تصانعهم، وإن كان باطلاً فعلام تقطع رحم هذا وقد قصد إليك.

حدثني حفص بن عمر عن الهيثم قال: كتب هشام لابنه محمد بن هشام، وأراد أن يبعثه على الصائفة كتاباً نسخته: إني رأيت أن أعهد إليك في أشياء من أمر خاصتك، أحب أن أحملك فيها على أدبي، ليكون حجة عليك وتأدية لحق الله علي لك، وأنا أرجو أن يتولى الله حفظك بالتتريه عن كل قبيح، والعصمة من كل مكروه، والتحصن من كل آفة أخشاها عليك في دينك وبدنك ورأيك وعرضك، وإن يليني في جميع ذلك أجمل ما عودتني فيك، فحميد هو على ما يولي، مشكور على ما يبلي، وليس امرؤ وإن ظوهرت له العظة ونخلت له النصيحة بمنتفع بشيء من ذلك حتى يكون له من توفيق الله داع، ومن نفسه عليه معين يبصره فضل ما يوعظ به على ما يوعظ عليه، فإن لا يوفق للخير ويعين عليه إلا الله وحده لا شريك له.

وقد كان مما أحدث الله فيك من النعمة، ما أسال الله تمامه، وحسن المزيد فيه، والعون على أداء شكره عليه، فإنه قد أرني فيك من معالم الفضل وأمارات الخير ما قذف به في نفسي توجيهك لما وجهتك له من الأمر الذي أرجو أن يجعله الله لك إلى قصوى غايات الفضل سبباً وسبيلاً، فيما يعرفنا من بصرك بالأمور واستقلالك بالقيام لله بالنصيحة، وحسن السياسة، الرفق في مستقبل أمرك، ومفتاح عملك، فليكن أول ما تبدأ به إيثار تقوى الله ربك بالاجتهاد في طاعته، والحيطة لدينه وعباده ليجزيك بذلك جزاء كريم سلفك الماضين وصلحاء أهلك الباقين، فإن به تمام كل نعمة، وإليه منتهى كل رغبة.

حدثني الأثرم عن أبي عبيدة قال: دخل أعرابي على هشام في غمار الناس، فقال هشام لحاجبه: أكل من شاء أن يدخل دخل؟ فقال الأعرابي: يا أمير المؤمنين إن دخولي عليك لا ينقص من قدرك، وهو يزيد في قدري. فقال لا بأس إذاً، أذكر حاجتك، فتظلم من واليهم، فكتب بإنصافه.

ويقال إن هشاماً – أو الوليد بن عبد الملك – كان يقف على البقال قبل الخلافة فيقول: ناولني تلك الحزمة، فيناوله حزمة من البقل فيقول: بكم هذه؟ فيقول: بفلسين، فيقول: زد فيها.

وفي هشام يقول الشاعر:

باتصال دعوت يا عبد شمس	بعدما نابهن أو يا مغيراً
قمري مكة المضيء دجاها	يجلوان الدجنة الديجورا

وقال الواقدي: خرج عشرون ألفاً من الروم في سنة ثلاث وعشرين ومائة فترلوا على ملطية، فأغلق أهلها أبوابها، وخرج رسولهم مستغيثاً فلحق بهشام وهو بالرصافة، فندب هشام الناس إلى ملطية، وتقلد سيفاً ثغرياً، وركب يطوف على الناس بالرقة، وأتاه الخبر بأن الروم قد قفلوا فأخبر الرسول بذلك، وبعث معه

بشراً ليرابطوا بملطية حدثني أبو الوليد هشام بن عمار قال: سمعت من يحدث أن هشاماً قال: لسان المرء من خدم عقله وأول واحد يخبر ما عنده.

قال: وبلغني أن هشام بن عبد الملك قال: إن اللسان في حكايته صادق عن عقل صاحبه.

قال المدائني: كان عبد الأعلى بن عبد الله بن عبد الله بن عامر بن كريز يفد إلى هشام فيتكلم عنده، فيعجب مسلمة بن عبد الملك كلامه ويقول: والله إني لأرفع كور العمامة عن أذني لاستفرغ كلام ابن عامر، وكان مسلمة يقول: إن الرجل ليكلمني في الحاجة يستوجبها فيلحن فكأنه يقضمني حب الرمان الحامض حتى يسكت فأرده عنها، ويكلمني الرجل في الحاجة ما يستوجبها فيعرب فأجيبه إليها.

قالوا: وحضر الوليد بن يزيد مجلس هشام: ثم خرج فوثب على فرسه وقال لأبي شاكر بن هشام: أيحسن أبوك أن يركب كذا؟ فقال: لأبي مائة عبد يفعلون أكثر من هذا. فقال هشام: لله مسلمة ابني ما أظرفه لو لا مجونه.

المدائني قال: حج هشام: فأخذ الأبرش قوماً معهم برابط، فقال: احبسوهم وبيعوا متاعهم هذا وصيروا ثمنه في بيت المال، فإذا صلحوا فردوا الثمن عليهم.

وقال بشر مولى هشام: أتي هشام برجل عنده قيان وخمر وبربط، فقال: اكسروا الطنبور على رأسه، وضربه فجعل الشيخ يبكي. قال بشر: فقلت له عليك بالصبر، فقال: أتراني أبكي لضرب أمير المؤمنين إياي، إنما أبكي لاحتقاره العود حين سماه طنبوراً.

وقال هشام بن محمد الكلبي: دخل الوليد بن يزيد المقتول على هشام بن عبد الملك وعنده ولده، وفيهم مسلمة بن هشام، المكنى أبا شاكر، فقال الوليد لمسلمة، وكان ظريفاً: ما اسمك؟ – كأنه لا يعرفه – فقال: شارزنجي. يعرض بأنه يكثر شرب النبيذ إكثار الزنج ويطرب طربهم، وقد كتبنا خبر شارزنجي مع أخبار عبد الملك بن مروان.

وقال المدائني: استأذن محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان، وأخوه عبد العزيز على هشام، فأذن لمحمد قبل عبد العزيز، فقال عبد العزيز: يرحم الله حسيناً – من غير أن يجري للحسين ذكر – فأنكر هشام ذلك وقلب عينه وقال: ما ذاك؟ قال: ذاك لأني ومحمداً أبناء عبد الله، وأمي أموية بنت خالد بن عبد الله بن خالد بن أسيد، وأم محمد فاطمة بنت حسين، وقد قدم علي وأنا أسن منه لأن فاطمة ولدته، فقال هشام لآذنه: قدمه بعد مرته هذه.

وحضر محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان، وعبد الله بن الحسن ين الحسن باب هشام فخرج الآذن فقال: محمد بن عبد الله، فلم يقم. فدنا الآذن فقال: ادخل، فقال عبد الله بن الحسن ههنا. فرجع إلى

هشام فأخبره بقوله: فقال: محمد بن عبد الله، فلم يقم، ففعل ذلك مرات، فقال هشام: ائذن لعبد الله، فخرج الآذن فقال: عبد الله بن حسن. فقال وقام معه محمد بن عبد الله.

المدائني: أن هشاماً قال لمسلمة بن عبد الله: يا أبا سعيد هل دخلك ذعر الحرب شهدتها، أو لعدو كادك؟ قال: ما سلمت من ذعر لا يذهلني عن حيلة لم يغشني ذعر يسلبني رأيي، فقال هشام: هذه البسالة.

قال المدائني: قال إبراهيم بن هشام لهشام بن عبد الملك: يا أمير المؤمنين أقبل عبد الرحمن بن عنبسة بن سعيد بن العاص يوماً، وعندي إبراهيم بن عبد الله بن مطيع، وعلى عبد الرحمن بن عنبسة ثياب خضر: الجبة والمطرف والعمامة، فقال إبراهيم: قد أقبل ابن عنبسة في زينة قارون. فضحكت، فقال عبد الرحمن: ما أضحكك أيها الأمير؟ قلت: قال إبراهيم حين أقبلت كذا وكذا. فقال عبد الرحمن: لو لا أني أخافه علي وعليك وعلى المسلمين إن هو غضب لأجبته. قلت: وما تخاف من غضبه؟ قال: بلغني إن الدجال يخرج لغضبة يغضبها، وإبراهيم أعور وأنا أظنه الدجال، فقال إبراهيم: لو لا أن له عندي يداً عظيمة لأجبته، قلت: وما يده؟ قال: سعى عليه غلام بمدية فأصابه فأشواه، فلما نظر إلى الدم جعل لا يدخل عليه مملوك إلا قال له: أنت حر، ودخلت عليه عائداً له فقلت له: كيف تجدك؟ قال: أنت حر، قلت: أنا إبراهيم بن عبد الله، قال: أنت حر، فأعتقني في ظنه فهذا يده.

قالوا: وهرب هشام من الطاعون، فانتهى إلى دير فأدخله الراهب بستاناً على أربعة أجربة، وجعل يأتيه بأطايب الفاكهة والبالغ منها، فقال هشام: أتبيعني بستانك؟ فسكت. فأعاد عليه القول وهو ساكت فقال: ما لك لا تتكلم يا راهب؟ قال: وددت أن الناس ماتوا غيرك. قال: ولم؟ قال: حتى تشبع إذا ما بقي كل شيء في الدنيا لك. فضحك وقال: أما تسمع يا أبرش. قال: ما لقيك حر غيره.

المدائني قال: دخل جديع الكرماني على هشام فقال له: من أنت؟ قال: جديع قال: الكرماني؟ فكأنه كرهها، فقال هشام: لا تفعل وإذا شهرت بلقب تكرهه فإنه نسب.

قالوا: ووقف هشام يوماً بحائط له فيه زيتون ومعه عثمان بن حيان، فسمع هشام نفض الزيتون، فقال لعثمان: انطلق إليهم فقل لهم: القطوه لقطاً ولا تنفضوه نفضاً فتتفقأ عيونه وتتكسر غصونه.

قالوا: وأدخلت على هشام جارية أعجبته، فاشتط صاحبها في الثمن، فأعطاه هشام عشرة آلاف فأبى فاشتراها الأبرش بحكم صاحبها وسومه، وبعث بها إلى هشام.

وأتى هشام بمال فقسمه على ولده وأهله، وقال لأم حكيم بنت يحيى بن الحكم، وقد عزل مائة وعشرين ألف درهم: من أحق بهذا المال؟ قالت: أنا. قال: لقد أخذت قسمك.

وقال لعبدة بنت عبد الله بن يزيد بن معاوية: قولي فإنكم آل أبي سفيان تدعون الرأي؟ قالت: أحق الناس

بهذا المال ما جاد لك بما بخلت به على نفسك، قال: صدقت، وأمر بحمل ذلك المال إلى الأبرش. وقال هذا الآن في هذا الموضع أحسن منه في ذلك الموضع.

قالوا: وقدم على هشام وفد وفيهم ابن عمار بن ياسر، فقال له هشام: من أنت؟ فأخبره. فقال:

ترجو الصغير وقد أعياك والده		وفي أرومته ما ينبت العود

لا والله ما نال مني خيراً أبداً ما بقيت.

المدائني عن مسلمة بن محارب قال: قال خالد بن صفوان: دخلت على هشام بن عبد الملك في يوم شديد الحر وهو في بركة ماؤها يغمر الكعبين، وقد وضع له كرسي فجلس عليه، فلما رآني دعا لي بكرسي، ثم جلس يسائلني فأقبلت أحدثه، ثم قال: يا خالد لرب خالد جلس مجلسك كان أحب إلي منك - يعني خالد بن عبد الله القسري - قال: فقلت: يا أمير المؤمنين، لو تفضلت عليه بصفحك وتغمدته بحلمك؟ فقال: إن خالداً أدل فأمل، وأوجف فأعجف، فسكت.

حدثني العمري عن الهيثم قال: أهدى خالد بن عبد الله وهو على العراق إلى ولد هشام وحشمه هدايا، وأغفل خادماً له، فأخذ الخادم ابناً له صغيراً فوقف به حيث يسمع هشام الكلام، ثم قرصه قرصة أبكته فقال: والله لو كنت من ولد خالد بن عبد الله القسري ما عدا، فسمع هشام قوله فكان ذلك أول ما وقر في قلبه.

قالوا: ولما غضب هشام على خالد أرسل إليه يذكره حرمته، فقال إن الإفراط في الدالة يفسد الحرمة.

حدثني أبو مسعود الكوفي عن عوانة قال: قال هشام: أرخى الناس بالاً من تخلى عن الدنيا ومتاعها فدافع الأيام، وأصبح أجله أحب قادم إليه.

وقال هشام للأحوص: مالنا وللفرزدق، حفر لنا خالداً نهراً. فقال:

أنفقت مال الله في غير حقه		على نهرك المشؤوم غير المبارك

فقال الأحوص: ما هذا كلامه. قال هشام: قاتلهم الله، إذا جاءت الحقائق نصر بعضهم بعضاً.

المدائني عن سحيم بن حفص قال: مر ابن هشام بن عبد الملك على إسماعيل بن يسار وقد اتخذ منزلاً وهو يصوره، فقال: يا إسماعيل ما هذا من منازلك، قال: بلى والله إنه لمن منازلي ومنازل آبائي ولكن منزلك خباء مضروب من شعر أو صوف على عمود من خشب.

قالوا: وتفقد هشام بعض ولده فلم يره يحضر الجمعة فقال له: ما منعك من الصلاة في يوم الجمعة في مسجد الجماعة؟ فقال: نفقت دابتي فعجزت عن المشي إلى الجمعة.

وقال هشام لخالد بن صفوان: عظني وأوجز، فقال: أنت فوق الخلق وليس فوقك إلا الله، وأنت صائر إلى

الله، فاتق الله.

المدائني عن حمزة بن إبراهيم قال: قال الحجاج لمعبد الجهني: يا معبد أتتكلم في القدر؟ قال: نعم، زعم فساق أهل العراق أن الله قضى وقدر أن يقتل عثمان، فقلت: كذبتم. فقال: صدقت. فبلغ هشاماً قوله فقال: لقد قدر الله قتل عثمان لما كتب على قاتليه من الشقاء، وكذب معبد والحجاج.

قالوا: وقدم راوية الفرزدق وجرير والأخطل على هشام، فدخل راوية جرير في فرو، ودخل الأخر في خز، فأنشد راوية الفرزدق شعراً:

كأن مفالق الرمان فيه وجمر غضىً قعدن عليه حام

فغضب هشام و لم يصل راوية الفرزدق والأخطل، ووصل راوية جرير.

المدائني عن عبد الرحمن بن خالد قال: رأيت هشاماً وهو يقول لغلمانه وهم يلقطون زيتوناً في أرض له: القطوا لقطاً، ولا تخبطوا خبطاً، فإن الخبط يفقأ عيونه ويكسر غصونه، وكان معه عثمان بن حيان فوجهه من وجهه إلى العراق للمسألة عن خالد فقدم عليه فأخبره، فكان ذلك سبب عزل خالد.

حدثني هشام بن عمار قال: بلغنا أن هشاماً حدث بأن خالداً يعطي من جاءه من قومه، فازداد غيظاً وغضباً وقال: إني أبخل بهذا المال عن نفسي وأهل وولدي، وخالد يفرقه في قومه، فحدثه بعض حضره أن رجلاً من بجيلة دخل عليه فسأله فمنعه فقال:

إذا المرء أثرى ثم قال لقومه أنا السيد المفضى إليه المعمم

ولم يولهم خيراً أبوا أن يسودهم وهان عليهم رغمه وهو أظلم

فرده وأعطاه فقال هشام: والله لأنقضن كور عمامته، ولأدعنه وهو لا يفضى إليه.

حدثني أبو مسعود عن ابن كناسة قال: اختلف هشام ومسلمة في إعراب حرف أو معنى حرف من الغريب، فحكما رجل فقال: القول قولك يا أمير المؤمنين، فقال مسلمة: هذا حكم الجهال وقولهم.

حدثني العمري عن الهيثم بن عدي قال: هدم إبراهيم بن هشام المخزومي دار عبد الله بن عامر بن الزبير بأمر هشام، فمر به وهو يصلي فقال: اصبر، فقال: إني أعرضكم على الله في كل يوم خمس مرات – يعني الدعاء –.

أبو الحسن المدائني عن عبد الله بن محمد عن أبيه عن عامر بن عبد الله قال: أراد هشام الحج فقال: من بقي من رجال قريش في المدينة ممن يتكلم؟ فقالوا: لم يبق أحد يرد على السلطان، فحج فأتاه عبد الله بن عروة بن الزبير فقال: يا أمير المؤمنين اعدني على خالك إبراهيم بن هشام، فإنك وليته ما بين المدينة

واليمن فلم يمنعه كثير ما في يديه عن قليل ما في أيدنا، فأنشدك الله أن تصل رحماً بقطيعة أخرى.

قال: لا أعديك عليه قال: و لم فوالله ما منعنا أن نموت مع عبد الله إلا هذه الأموال، وقد أخذت ولأن يموت الرجل عزيزاً خير له من أن يموت ذليلاً، فقال هشام: هذا واحد.

ثم أتاه إبراهيم بن محمد بن طلحة بن عبيد الله فقال: يا أمير المؤمنين أعدني على نافع بن علقمة، فإنه أخذ داري. قال: أفلا رفعت ذلك إلى أمير المؤمنين عبد الملك؟ قال: قد فعلت فسلك بي غير طريق الحق، قال: أفلا أتيت الوليد؟ قال: قد فعلت فسلك طريق أبيه. قال: أفلا رفعت إلى سليمان؟ قال: قد فعلت فسلك بي طريق أبيه وأخيه. قال: فعمر بن عبد العزيز؟ قال: عوجل رحمه الله، فغضب هشام وقال: لايزال الرجل يتكلم عند أمير المؤمنين بما يستحق من يتكلم بمثله أن يدق أنفه ويسحب على وجهه. قال: إذاً يسبق خيرك شرك، وتقطع رحمك، وتكون يد الله فوق يدك، وأمر الله من ورائك، أما والله، أن القضاء ليتعقب وإن الفاسق ليصلح.

فقال هشام: قبح الله من زعم أن قومي قد ذهبوا، هذا زعم إن قضائي يرد، وابن عروة يتهددني.

ثم قال لإبراهيم: لو كان فيك مضرب لضربتك مائة، قال إبراهيم: في مضرب ألف، قال هشام: سوءة اكتمها علي. قال: فما أخبرت بها أحداً حتى مات، فلما مات حدثت بها لأنها مكرمة.

وقال الفرزدق وقد خاف خالداً:

ألم تعلموا يا آل مروان نعمةً لمروان عندي مثلها تحقن الدما
وما كان عني رد مروان إذ طغى علي زياد بعدما كان أقسما
ليقتطعن حرفي لساني الذي به لخندف أرمي عنهم من تكلما
وكنت إلى مروان أسعى إذا جنى علي لساني بالمقال وأجرما
وما تركت كفا هشام مدينة بها عوج في الدين إلا تقوما

وقال الكميت في خالد بن مسلمة:

الشمس أدتك إلا أنها مرة والبدر أداك إلا أنه رجل
الغالب النفس حلماً عند طيرتها والمستثيب حلوم القوم إن جهلوا
ما أنت في الجود إذ عدت فواضله ولا ابن مامة إلا البحر والوشل

قال: و لم يقدم جرير على هشام فيمن أتاه من الشعراء عشر سنين، ثم تهيأ للخروج إليه وقال:

وكيف لا أشد إليك رحلي أروم إلى زيارتك المراما

فمات قبل أن يخرج إلى هشام.

قالوا: وقدم عروة بن أذينة الليثي على هشام، فسأله: ألست القائل

لقد علمت وما الإسراف من خلقي	أن الذي هو رزقي سوق يأتيني
أسعى له فيعنيني تطلبه	ولو صبرت أتاني لا يعنيني

وإني لأحسبك ممن يفضل قوله فعله، فقال عروة: فإني استغفر الله وأستقيله ولا أرغب إلا إليه، فخرج من عنده و لم يبت إلا في الطريق منصرفاً إلى أهله.

وتذمم هشام مما استقبله به حين بلغه انصرافه، فبعث إليه بألف دينار، فلما أتاه بها رسوله قال: أقرئ أمير المؤمنين السلام وقل له إني رضيت بالله ورغبت إليه فأتاني برزقي على فراشي، فقال هشام: صدق. إنما نحن خزان الله، فإذا أذن في شيء أمضيناه على محبة منا وكرامة.

المدائني قال: قال هشام لسعيد الأبرش: أوضعت أعترك؟ قال: أي والله قال: لكن أعتري تأخر ولادها فاخرج بنا إلى أعترك نصب من ألبانها، قال: نعم. وقدم خباء فضرب وغدا هشام والأبرش وغدا الناس فقعد هشام والأبرش على كرسيين، فقدموا إلى كل واحد منهم شاة فحلب هشام الشاة بيده ثم قال: يا أبرش إني لم أنس الحلب.

ثم أتى بخبزه أمر الأبرش بها فعلمت بين يدي هشام، فأوقد هشام النار بيده وفحصها، وألقى الخبزة فيها وجعل يقلبها في النار بالمحراث ويقول: يا أبرش كيف ترى رفقي، حتى نضجت، ثم أخرجها فجعل يضربها بالمحراث ويقول: جبينك، جبينك والأبرش يقول: لبيك لبيك، وهذا شيء كان يقوله الصبيان إذا خبزت لهم الخبز، ثم تغدى وتغدى الناس وانصرف هشام.

المدائني قال: قال رجل من أهل المدينة: انتقص الناس بعد هشام، ما كان أحد يشد رحله إلى رجل إلا وجد عنده رأياً وعقلاً وسخاء، فلما مات هشام انتقص ذلك.

المدائني عن شيخ من جرم أنه قال: إني لبالقريتين، وبينها وبين دمشق مرحلتان على الإبل، إذ نزلت قافلة جاءت من أرمينية فيها خلق، فجاء رجل من كلب من قبل هشام، ورجل آخر معه فقالا: أيتها النازلة أفيكم غيلان بن مسلم؟ فقام رجل أحمر عليه قباء نصيبي مجلد الازرار فقال: أنا غيلان أبو مروان، فقالا: أين صالح، فقام رجل ربعة حسن الوجه فقال: أنا صالح أبو عبد السلام فشداهما في الحديد وحملاهما إلى هشام، فقال هشام لغيلان: ويلك ما هذا الذي يبلغني عنك من القول؟ فسبقه صالح فقال: "لا يكلف الله نفساً إلا وسعها"، فقال له هشام: أتركت أن تتلو كتاب الله محكمة، وتلوت متشابهة، إن هذا ليحقق ما

قيل فيكما، قال: أو هذا متشابه؟ قال: أخرجوهما فاضربوهما سبعين سبعين، فضربا، وجاء قوم فشهدوا عليهما بأنهما قالا: وما ولى الله هشاماً شيئاً قط، وإن الناس يتغالبون على الأرزاق، وتاتيهم بالاتفاقات. فقال: لعلكم شهدتم لأمر وجدتم عليهما فيه، أو لعدواة واجبة؟ فقالوا: لا، ولكنك إمام وقد خرجنا إليك مما في أعناقنا، فقطع أيديهما ورجليهما، فمر عليهما عثمان بن حيان المري فقال: يا غيلان، كان هذا بقضاء اله وقدره؟ فقال: كان في علم الله.

ثم أمر هشام بإخراج ألسنتهما من أقفيتهما أو قطعها فلم يلبثا أن ماتا. وقيل إن غيلان وصاحبه كانا بأرمينية يتكلمان في هشام، فلما شخصا عنها، وكان قد وضع عليهما عيوناً فأخبر بترولهما حيث نزلا، فدس شهوداً شهدوا عليهما، فصنع بهما ما صنع ثم صلبهما.

قالوا: وعمل هشام منجنوناً وكتب إلى صاحب الرقة يأمره أن يبتاع له ثور المنجنون فاشتراه بثلاثين درهماً، وبعث به إليه مع بعض الشرط، فلما رأى هشام الثور أعجبه وقال: بارك الله فيك وفيمن وجه بك، أعطوا الرسول عشرة دراهم. فقال: يا أمير المؤمنين زدني في عطائي خمسة دنانير فقال: جئت بثور اشتري بثلاثين درهماً وإنما بيننا وبين الرقة ثلاثون ميلاً، وأنت تنال خمسة دنانير في عطائك، أنت أحمق. اذهب بارك الله فيك.

المدائني قال: قال عمرو بن عتبة المخزومي: أذن هشام يوماً إذناً عاماً، فدخل أعرابي فقال: يا أمير المؤمنين قد كبرت سني، ورق عظمي فأعني بالفرض لابني فإنهما كما يحب أمير المؤمنين في طاعتهما وجلدهما قال: ما ذاك لك عندنا، قال: فأقطعني دار إلى جانب داري كانت ليهودي هلك، ولا وارث له أوسع بها مترلي، قال: بيت المال أحق بها، قال: فأزرعني مزرعة إلى جانبي تخفف من خراجها عني، قال: لا. فولى الرجل وهو يقول: ما رأيت كاليوم قط رجل أفحش بخلاً ولا أسوأ رداً، وسمع هشام كلامه فنكس، ورفع الشرط عليه العمد، قال عمرو: فضممت إلي ثوري مخافة أن يقتل فيصيبني دمه، أو يشدخ فينتضح علي من دماغه، فقال الأعرابي: ما ينبغي أن ألومك وإني لأعلم أنك عبد من عبيد الله لا تعطي ولا تمسك إلا بإذنه، قال هشام: ردوه، كيف قلت؟ فأعاد قوله فقال: صدقت، أعد علي حوائجك، فقضاها.

قالوا: وأهدي إلى هشام حسان النبطي هدايا كثيرة، وركب هشام فعرضها عليه وأرضى حسان كل من يطيف بهشام غير خادمين صغيرين له احتقرها، فدخل هشام المتوضأ وجاء الوصيفان بالماء، فقال أحدهما أما تعلم أمير المؤمنين أن حسان يم يهد ما أهدى حتى أخذ لنفسه مثله؟ قال الآخر: بل لنفسه عشرة أمثاله، أفمن بيت أمه أهدى هذا؟ وسمعهما هشام، فلما دخل عليه حسان قال: وهبت لهذين شيئاً؟ قال: لا ولقد أغفلتهما. قال: فأحسن إليهما. فبعث إلى كل واحد منهما بألفي درهم.

وخلا به هشام وهما على باب البيت، فقال أحدهما: نحن نتكلم في أمر هذا الرجل بما لا نعلم، و أمير المؤمنين أعلم بنصيحته وتوفيره، وقال الآخر: ما صارت له عند أمير المؤمنين هذه المترلة إلا بفضل نصيحته وما فعل أحد مثل فعله، عماله يأكلون الدنيا ولا يهدون شيئاً. فقال هشام لحسان: أرضيتهما؟ قال: نعم. فضحك هشام وقال: ما أخبثهما قد رأينا أثر ذلك.

المدائني قال: لما اشتد وجع هشام بكى نساؤه وولده، فقال جاد لكم هشام بالدنيا وجدتم عليه بالبكاء، فترك لكم ما جمع، وتركتم عليه ما كسب، ما أعظم منقلب هشام إن لم يغفر الله له، ثم فاظت نفسه،

المدائني قال: أتى هشاماً محمد بن يزيد بن عبد الله بن عمر بن الخطاب فسأله فقال: لست معطيك شيئاً، فإياك أن يغرك الناس فيقولون إن أمير المؤمنين لم يعرفك، قد عرفتك، أنت محمد بن يزيد بن عبد الله بن عمر بن الخطاب، فلا تقم فينفق ما معك، والحق بأهلك.

حدثني علي الأثرم عن الأصمعي قال: حج هشام فأرد سالم بن عبد الله الدخول عليه بالمدينة فقال له بنوه: لو اعتممت فاستعاروا له عمامة، ولما دخل على هشام قال له: يا أبا عمر العمامة لا تشبه الثياب. قال: إنا استعرناه. قال: ما طعامك؟ قال: الخل والزيت. قال: أما تأجمهما؟ قال: إذا أجمتهما تركتهما حتى أشتهيهما. ثم قام فخرج فقال هشام: ما رأيت قط ابن سبعين أقوى كدنة منه. فما وصل إلى بيته إلا محموماً، فقال: أترون الأحول لعقني بعينه. و لم يبرح هشام المدينة حتى صلى عليه، وقد كتبنا خبره من جهة أخرى.

المدائني عن عبد الله بن سلم الفهري قال: دخل زيد بن علي بن الحسين على هشام، فلما مثل بين يديه لم ير لنفسه موضعاً يجلس فيه، فعلم أنه إنما فعل ذلك به على عمد، فقال: يا أمير المؤمنين إنه ليس أحد فوق أن يؤمر بتقوى الله، ولا أحد دون أن يأمر بها. قال: اسكت لا أم لك. قال: أم لم تلدني؟ قال: أنت الذي تنازعك نفسك الخلافة وأنت ابن أمة؟ قال: يا أمير المؤمنين إن لك جواباً، قال: هاته فما أنت وجوابك. قال: إن الأمهات لا يقعدن بالرجل دون بلوغ الغايات، كانت أم إسماعيل أمة، فلم يمنعه ذلك أن ابتعثه الله نبياً، وجعله أبا العرب وأخرج من صلبه محمداً صلى الله عليه وسلم، أفتقول هذا لي وأنا ابن فاطمة وجدي علي؟ قال: صدقت، ثم خرج فقال هشام لمن بقي عنده من أهل بيته: زعمتم أن أهل البيت قد بادوا. لا لعمري ما انقرض قوم هذا خلفهم.

قالوا: وخرج زيد على هشام بالكوفة، وقتل ودفن ليلاً، فدل على قبره عامل الكوفة فنبش وصلب، وكان فيمن نبشه خداش بن حوشب أخو العوام بن حوشب المحدث.

وكتب هشام إلى عامله بالعراف: إن زيداً قد قدم علي فرأيت حولاً قلباً خليقاً لصوغ الكلام وتنميقه، وقد كتبت خبر زيد ومقتله في نسب آل أبي طالب وأخبارهم.

حدثني هشام بن عمار عن الوليد بن مسلم قال: قال هشام: إني لأرى الرجل فأعرف عقله من حسن سماعه، وكان يقول: أنا أعرف الجاهل الأحمق بسرعة جوابه بالخطأ، وكثرة تلفته، وتدويمه نظره إلى جليسه بغير علة يصوب ويصعد فيه.

حدثني محمد بن سعد عن الواقدي عن إسماعيل بن عبد الملك بن نافع عن أبي عبيدة بن محمد قال: شرق ما بين ربيعة الرأي وأبي الزناد الخراج وما رواء بابه، وكان خالد قد علم الذي بينهما، فأرسل إلى ربيعة، وخيثم بن عراك، ومحمد بن عطاء الليثي، وعبد الرحمن بن القاسم بن محمد، فوجد عبد الرحمن قد تغيب فضرب هؤلاء وحلقهم، وقال: إنهم يطعنون على الأئمة ويرون رأي الخوارج.

وكتب خالد إلى هشام يعلمه بضرب هؤلاء النفر، وأنه طلب عبد الرحمن فوجده قد تغيب، وتوجه إلى ابن شريح بخراسان يدعو إليه، فجاء الكتاب إلى هشام وهو يومئذ بالرصافة فقال: أي رجل عبد الرحمن بن القاسم؟ فقال إبراهيم بن هشام: يا أمير المؤمنين، من أهل السنة والجماعة، فرمى بالكتاب فقرأه فقال: باطل والله يا أمير المؤمنين، وما خرج ابن القاسم إلا إليك. فأفرخ روع هشام، فقال: أرى ذلك، ووكل إبراهيم غلاماً له يتفقد عبد الرحمن عند مسلحة عليها طريق من قدم من المدينة إلى هشام، فكان مقيماً عندها أيام، ثم طلع عبد الرحمن على بغلة له وهو معتم فسلم فقالوا من الرجل؟ قال: رجل من قريش. قالوا: من أي قريش أنت؟ فأخبرهم، فأتى عبد الرحمن إبراهيم بن هشام، فأتى إبراهيم هشاماً، فأدخله إليه فقال: السلام عليكم يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته، فقال: وعليك السلام، كيف أنت يا عبد الرحمن، كيف أهل بيتك؟ قال: بخير يا أمير المؤمنين. قال: أحب أن يكونوا بخير، فما أقدمك يا عبد الرحمن؟ قال: ظلامتي، خاصمت إلي خالد: ابن أبي عتيق، فمال علي ميلاً بيناً، فرحلت إلى أمير المؤمنين مستغيثاً به لنصرني.

فكتب إلى خالد: أما بعد: فإذا أتاك كتابي هذا فأحضر رجالاً من أهل الفضل والستر والصدق والعفاف ممن يخيرهم عبد الرحمن بن القاسم، ثم أجمع بينه وبين خصمه، ثم مرهم أن يجزموا القضاء على أحدهما، ولا تعرض لعبد الرحمن في خصومة و لا غيرها، فإن لعبد الرحمن فضلاً، ومكان أبي بكر في الإسلام مكانه.

ثم ختم الكتاب ودفعه إلى عبد الرحمن فقال عبد الرحمن: قد بررت وقضيت الحاجة وأعفيتني من الظلم وعلي أربعمائة دينار. فقال: يا عبد الرحمن، لو جمعنا لأحد أن نرد ظلامته ونقضي دينه لفعلنا ذلك بك، ولكنا لا نفعله بأحد فامض لشأنك.

قال عبد الرحمن: فلحقني حسان النبطي فقال: قد سمعت كلامك في دينك، وهذه أربعمائة دينار من مالي

فخذها واقض بها دينك. فقال عبد الرحمن: ما أستجيز أخذها منك وأنا أستجيز أخذها من الخليفة، وأنا أقبلها على أن تكون قرضاً، فأخذها على هذه الجهة فقضاه إياها ورثة عبد الرحمن بعد ذلك.

قال ابن شوذب يمدح أبا الزناد نصر بن ربيعة وأصحابه:

حتى إذا ما دخيل الهم أرقني	فوق الفراش وكاد النوم يمتنع
وقلت حين أناجي النفس من رجل	والرأي مشترك والهم ملتفع
فصرت نحوك من أرضي لتنفعني	إذا بلغتك والمعروف متبع
أبا الزناد فلا تقعد بحاجتنا	إن الكريم إذا ما هز ينخدع
تحوي من العلم ما يشقي السقيم به	ويجبر العظم منه حين ينصدع
ما زلت بالحق إذا ضلت عقولهم	حتى ردعت ألي الأهواء فارتدعوا

الخوارج في أيام هشام بن عبد الملك

أمر صبيح الخارجي

قال أبو الحسن المدائني: اشترى سوار بن الأسعر المازني غلاماً من سبي الأزارقة غلاماً يقال له صبيح، فكان عنده حيناً فلما صار رجلاً أعتقه، وكان يرى رأي الخوارج، فخرج في حاجة لسوار وصحبه رجل من طيء فحضرت الصلاة فصلى صبيح و لم يصل الطائي فقال له: ألست مسلماً؟ قال: بلى ! قال: فما بالك لم تصل؟ فقال: وما أنت وهذا؟ أقبل على شأنك. فحكم صبيح وقتل الطائي.
واجتمع إليهرجال فخرج وسار إلى هراة وأغار على إبل لبني سعد وقتل رجالاً، فأتى السعديون ضرار بن الهلقام بن نعيم التميمي، وهو عامل للجنيد بن عبد الرحمن المري على بعض خراسان، فخرج ضرار إلى الخوارج فسار في المفازة ولقيه صبيح في أربعمائة، وضرار في جمع كثير من بني تميم وغيرهم، ومعهم البختي بن ضبيعة المري، فاقتتلوا فقتل من أصحاب صبيح خمسون، وقتل عامة من كان مع ضرار، ورجع صبيح إلى سجستان فقال سوار

لعمري لئن أغفلت من خشية الردى ... زرنج ولم أخرج حذار صبيح
لبئس إذاً حامي الحقيقة بعدها ... ولابس ثوبي ذلةٍ وفضوح

فكتب خالد بن عبد الله إلى عبد الله بن أبي بردة بطلب صبيح رجاء أن يظفر به دون الجنيد، ونزل صبيح قرية كانت صلحاً، فأخذوه أسيراً وأتوا به ابن أبي بردة، وقالوا: ما تجعل لنا إن أخذنا صبيحاً؟ قال: ما شئتم. فاشترطوا عليه الحطيطة من الأتاوة وشيئاً غير ذلك، فدفعوه إليهفبعث به إلى خالد، وبعث به خالد إلى هشام، فأراد قتله وصلبه فقيل له: إذاً تتخذ الخوارج الرصافة دار هجرة، فرده إلى خالد فقتله وصلبه، وأخذ الجنيد الخوارج ممن كان مع صبيح وعلى رأيه بخراسان فجعل يقتلهم حتى قتل مائة.
ويقال إن الجنيد أخذ رجلاً منهم أعمى فقال: أنا أدلك عليهم، فجعل يدله على رجل رجل من أهل السنة فيقتله حتى قتل مائة ثم قال: لعنك الله يا أحمق. تزعم أن دمي حلال لك، وأنا أدلك على قوم فتقتلهم، والله ما قتلت إلا أصحابك وما دللتك من أصحابي على أحد. فقدمه فقتله.

أمر خالد الخارجي

قال أبو الحسن المدائني: خرج خارجي من قبيل بوشنج وهراة في جمع عظيم فكان لا يأتي قرية إلا افتدوا منه بمال، ومضى إلى مرو الروذ وعليها ضرار بن الهلقام فأراد أن يعطيه شيئاً وينصرف عنه فجبنوه وعجزوه. وكان عامة الناس غزاة فقال: دعوني أرد هذا الخارجي عنكم بشيء ولا نقاتله فإن عامة الناس غزاة، قالوا: جبنت وضعفت. فقال: كأني بكم منهزمين تكسع الريح أدباركم، وخرج إليهم وأخرج معه الوجوه والأشراف من العرب والموالي، فبيت خالد عسكرهم فقتل من صبر وعامة من هرب، فلم ينج منهم إلا القليل، وأسروا ضراراً ثم قتلوه وأصحابه الذين بقوا معه، فقال منصور بن هبيرة التميمي ثم المازني قصيدة طويلة يرثيهم ويقول فيها:

لقد تماصوا وقد آسوا أميرهم عند اللقاء حذار الذمّ والعار

وقال رجل من بني العنبر في قصيدة له:

أأمام قد ذهب التجلّد والأسى فانعى فوارس مازنٍ وضرارا

ثم إن خالداً مات من جراح كانت به، ويقال مات حتف أنفه.

أمر عباد المعافري

قال أبو الحسن المدائني: خرج باليمن في أول سنة ست ومائة عباد المعافري فقابله مسعود بن عوف الكلبي، فلم يظفر به، فلم يزل باليمن حتى وليها يوسف بن عمر الثقفي فقتله.
وخرج على يوسف زحاف بن عباد الحميري الأباضي فبعث إليهيوسف كثيراً أبا العاج السلمي فقتله فقال جرير بن عطية.

الله أهلك عباداً وشيعته عادات ربك في أمثال عباد
لاقوا بعوث أمير المؤمنين لهم كالريح إذ بعثت نحساً على عاد
فيهم ملائكة الرحمن مالهم إلا التوكل والتسبيح من زاد

خبر الأشهب العنزي

قالوا: خرج رجل من عنزة يقال له الأشهب بناحية الفرات في ستين فارساً، فوجه خالد بن عبد الله القسري: السمط بن مسلم البجلي في سبعمائة فلقيهم قريباً من الكوفة فقاتلهم فضرب السمط على يده فندر سيفه، وأسرع سيف الضارب في يده، وانهزم العنزي هو وأصحابه، فقتلوهم حتى دخلوا الكوفة،

ورماهم الناس بالحجارة، ثم برئ السمط من الضربة وشلت يده، فكان يطلب سيفه عند قعد الخوارج بالكوفة.

خوارج بموقوع

في أيام هشام ويوسف بن عمر على العراق

قالوا: خرج خوارج بموقوع وكانوا تسعة عشر رجلاً وامرأة، والقاسم بن محمد الثقفي على البصرة، فقتلوا وأسرت الامرأة فلما قدم بها على القاسم قالت: يا حسن الوجه إني خدعت. قال عمر بن سعيد: فأرسلني القاسم إلى يوسف بن عمر فقدمت عليه بالفتح وبالمرأة فقال: ما استبقاؤه هذه؟ وقتلها. ثم أرسلني يوسف بالرؤوس إلى الشام.
وقال الهيثم: بعث بالرؤوس إلى الوليد، وكان هشام قد مات، فأقر الوليد يوسف على العراق، فلما قدم رسوله على يوسف قال: كيف الوليد الفاسق؟ ثم قال: إياك أن يسمع هذا منك أحد، فحلف له رسوله بالطلاق ألا يسمعه منه أحد فضحك يوسف.

أمر خارجي بالموصل

قال المدائني: وخرج خارجي يذكر من عترة بالموصل في ثلاثة عشر رجلاً، في أيام هشام، فوجه إليهالحر بن يوسف بن يحيى بن الحكم: المستنير بن عجلان العتري، أحد بني يذكر، فقال المستنير: لا ألقاه إلا في عدة من معه، فقاتلهم فظهر عليهم، فأوفده الحر إلى هشام، فقال له: ألك حاجة؟ فقال: تخرجنا من ربيعة وتردنا إلى بني أسد، فقال: نعم. فقال بنو يقدم بن عترة: لا نتحول، وقالت يذكر بن عترة: بلى. فاصطلحوا على أن صيروا سبعاً على حدة.

خبر البهلول بن بشر الشيباني

ويقال ابن عمرو، ويلقب كثارة.
قال أبو الحسن المدائني: خرج البهلول بن بشر الشيباني أيام خالد بن عبد الله القسري في سبعين رجلاً كان من أهل الديوان معروفاً بالشجاعة، وكان سبب خروجه أنه حج، فلما كان ببعض قرى السواد أرسل غلامه ليأتيه بخل فأتاه بخمر فردها فأبى الخمار أن يقبلها، فاستعدى عليه والي القرية وكان من أهل الشام فلم يعده، وقال: خارجي خبيث، والله لهي خير منك وإني لأنفس بها على مثلك، فتركه ومضى

لحجه، وجعل يخبر من لقي من إخوانه ويعجبهم، ويدعوهم إلى الخروج، فلما قضوا حجهم رجع إلى القرية التي كان بها الشامي فقتله، ثم أتى الموصل فاتبعه قوم من أهلها وأهل الجزيرة.

وأقبل خالد من الكوفة فلما كان في موضع يقال له قياض، وجه إليهخالد: يزيد بن قيس بن ثمامة الأودي أبو عافية بن يزيد الأودي القاضي، وكان على شرطة خالد، وكان في خف فلم يقاتله، فقال البهلول: إن صاحبكم هذا لأشجع الخلق وأحمق الخلق.

ومضى البهلول إلى عين التمر ثم أتى لعلع فأقام بها وهو في مائة وستين من الخوارج، وأقبل إليهعشرة نفر من الكوفة من أهل راية فعرض لهم قوم فقتلوهم قبل أن يصلوا إليه. وبلغه ذلك فسار إلى القرية التي قتلوا بها فقال لهم: من قتل هؤلاء الرهط فله عشرة آلاف درهم. فادعى قتلهم جماعة فقتلهم، فتنكر له قوم من أصحابه وقالوا: غدرت بالقوم. فقال: أما كان لي أن أقتلهم وقد قتلوا إخوانكم؟ قالوا: بلى ولكنك كذبتهم. قال: إنا في دار حرب والحرب خدعة. قالوا: تب وإلا اعتزلناك. فتاب فقبلوا منه، ورجع فأقام بلعلع. وكان معه رجل يقال له أثال فتذكر أهله وولده فبكى، فقال بهلول:

بكى جزعاً بعبرته أثال	وليس بحين مبكىً للرجال
فما أهل الديار لنا بأهلٍ	ولا المال المراح لنا بمال

وقال أيضاً :

من كان يكره أن يلقى منيته	فالموت أشهى على قلبي من العسل
فلا التقدم في الهيجاء يعجبني	ولا الحذار ينجيني من الأجل

فوجه إليهخالد رجلاً من آل حوشب بن يزيد بن رويم الشيباني، فارتحل بهلول عن مكانه فسار يصبح بأرض ويمسي بأخرى يجول بالسواد، حتى أحفى دوابهم، ثم لقيهم وقد ضجروا وكلت خيولهم، فلم يكن بينهم كبير قتال حتى انكشفوا، وصبر الرويمي في نفير قتلوا، وأهوى له بهلول ليطعنه فقال: أسألك بالرحم فاذكرك الله إني مستجير جانح، فأمسك عنه وأتى فلهم الكوفة، وقدم قائد من أهل الشام في تلك الأيام وهو من بلقين ليوجهه خالد إلى الهند، فقال له: سر إلى هذه المارقة فإن قتلتهم لم أغزكم الهند، فسار القيني في أصحابه وهم ألفان من أهل الشام، وضم إليهخالد جنداً من أهل الكوفة، فكان في خمسة آلاف، منهم ثلاثة آلاف من أهل الكوفة. فجعل البهلول ينتقل في السواد حتى قطع خيولهم، ثم أتى لعلع فالتقوا بها فقتل القيني، طعنه البهلول طعنة هتكت سلاحه وأوجره الرمح، فقال: قتلتني. قال: أبعدك الله يا عدو الله، وانهزم الشاميون، فقال البهلول لأصحابه: عليكم بالشاميين فإن الكوفيين أخرجوا كرهاً. فاتبعوهم فكانوا إذا لحقوا الشامي قتلوه وإذا لحقوا عراقياً لم يقتلوه. فقال رجل ممن نجا من الشاميين:

ما كنت أدري ما السيوف ووقعها حتى لقيت فوارس البهلول

يضحي بأرضٍ والمبيت بغيرها هيهات من ممساك حيث تقيل

وقال البهلول لأصحابه لما قتل القيني: علام نقيم على خالد وندع الذي أمره؟ فتوجه إلى الموصل وهو يريد الشام، فوجه إليهوالي الموصل قائداً يقال له سفيان، فهزمه البهلول. فكتب صاحب الموصل إلى هشام يخبره خبر البهلول ويستمده، فكتب هشام إلى عامل الجزيرة أن يمده فسرح إليهقائداً من أهل الجزيرة في خمسمائة، ووجه هشام من الرصافة جنداً، وكتب إليهأن ضم إليهم جند الموصل واستعمل عليهم كثارة، وهو لا يعلم أن كثارة هو الخارجي، فتوافت الجنود بالموصل وبهلول نازل إلى جانب دير بالكحيل.

فجعل عامل الموصل عليهم رجلاً يقال له ابن أبي عطاء، فساروا حتى لقوا البهلول، فانهزم ابن أبي عطاء وأهل الشام ولجأ بعضهم إلى الدير فحصرهم البهلول أياماً. وقدم جند من أهل الشام، أيضاً مدداً، وانضم إليهم الفل فنزلوا بعقوة البهلول، وخرج إليهم من كان في الدير محصوراً فتلا البهلول: "يا أيها النبي حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين" وحمل على أهل الشام فقتل منهم رجلاً، ثم قال لأصحابه: يا أخلاء إنما خرجتم غضباً لله فلا تجزعوا لا تكبروا القتل في الله، وناهضهم وقال: إن أصبت فأميركم دعامة بن عبد الله الشيباني. فعاجلوهم وكثر القتل والجراح في الفريقين، ثم ترجل البهلول وأصحابه عند المساء فشدوا عليهم، فجال أهل الشام والبهلول يقاتل ويقول:

من كان يكره أن يلقى منيته فالموت أشهى إلى قلبي من العسل

وكمن له أبو الموت الجدلي، جديلة قيس، فمر به فطعنه فأثبته، ويقال: الذي قتل البهلول عمرو بن ثوبان الحضرمي صاحب خيل الموصل، فقام بالأمر دعامة فانحازوا وتحاجزوا وقد أمسوا والجراح في الطائفتين فاشية، فقالت الخوارج لدعامة: فررت من الزحف وكفرت. فقال: إنما انحزت و لم أفر، فأبوا أن يرضوا به وبايعوا عمرو بن غالب اليشكري.

وأصبحوا فعاودهم القتال فقتل وقتل الخوارج غير نفير يسير انحازوا إلى العراق، وقال بعض الشعراء من الخوارج في دعامة:

لبئس أمير القوم معترفاً به دعامة في الهيجاء شر الدعائم

وكان الضحاك بن قيس– أحد بني محلم– جرح يومئذ فترف وعطش، فرفع له خباء، فأتاه فوجد فيه امرأة، فاستسقى فسقته، وسقط فلم يقدر على النهوض، فلما أفاق مما كان به وبرئ أتى أصحابه من القعد فقالوا: فررت من الزحف. و لم يقر بالفرار واعتذر فلم يقبلوا عذره فكانوا لا يجالسونه ولا

يكلمونه، فقال الضحاك: اللهم إني قد صدقتهم فكذبوني وبذلت نفسي فردوني، اللهم أنت خير لي منهم. وقال:

لا تطردوني إذا ما جئت زائركم | أرجو الفلاح وكونوا اليوم إخوانا
بدّلت بعد أبي بشر وصحبته | قوماً عليّ مع الأحزاب أعوانا

في أبيات.

ثم إنه أقر بالكفر واستتابوه فتاب.

قالوا: وكان بهلول لين السيرة لا يقاتل إلا من قاتله ولا يعرض لأحد ولا يأخذ شيئاً إلا بثمن.

أمر ابن شبيب بن يزيد

ويكنى أبا الصحارى

قال أبو الحسن: وأتى ابن لشبيب بن يزيد الخارجي خالد بن عبد الله فقال: افرض لي، فقال: ابن شبيب ماله وللفريضة؟ فخرج وأرسل خالد في طلبه فأبى أن يرجع فتعلقوا به ومنعوه من المضي، فانتضى سيفه فهربوا، ومضى على فرسه إلى الفرات فعقر فرسه، وركب سفينة وأتى ناساً من بني تيم اللات كانوا بجبل فدعاهم إلى الخروج فخرجوا، فوجه إليهم خالد خيلاً فقتلوا جميعاً.

أمر وزير الخارجي

قال أبو الحسن المدائني وغيره: خرج على خالد بن عبد الله القسري وزير الخارجي، فحكم بالكوفة في ثلاثة عشر رجلاً، وخالد بالحيرة، فقتل من لقي وحرق وغلب على بيت المال، فتلقته الفرسان فقتل بعض الخوارج وأسر بعضهم وارتث وزير فأتي به خالد، فجعل يقرأ القرآن ويعظ خالداً حتى رق له واستبقاه، وأمر به فحبس فكان يخرجه من الحبس فيسامره، وبلغ ذلك هشاماً فكتب إلى خالد: أتستحيي فاسقاً مارقاً قد قتل وحرق وفرق بيت المال فأحرقه، فلما أتاه كتاب هشام أخرجه ومن كان بقي معه من أصحابه فصب عليهم النفط ثم حرقوا في طنان القصب وقد أشعلت فيها النيران، فلم يجزع وزير و لم يتحرك وجعل يقرأ: "قل نار جهنم أشد حراً لو كانوا يعلمون". وجزع أصحابه واضطربوا.

تمت أخبار الخوارج في أيام هشام.

ولد هشام

قال أبو اليقظان: ولد هشام:

مسلمة، ويزيد، ومحمداً، وأم هاشم، أمهم أم حكيم بنت يحيى بن الحكم بن أبي العاص، وأمها زينب بنت عبد الرحمن بن الحارث بن هشام المخزومي.

وعبد الرحمن، ومروان، أمهما أم عثمان بنت سعيد بن خالد بن عمرو بن عثمان، وأمها أم عمرو بنت مروان بن الحكم.

وعائشة أمها عبدة بنت عبد الله بن الإسوار بن يزيد بن معاوية.

ومعاوية، والوليد، وسليمان، وقريشاً، لأمهات أولاد شتى.

وكانت عائشة تسير مع هشام في موكبه لإعجابه بها، وكانت لها خيل تسبق، وتزوجها عبد الله بن مروان بن محمد، وأما معاوية فكان أكبر القوم.

أمر خالد بن عبد الله القسري

وغيره من ولاة العراق في أيام هشام

قالوا: كان ابن هبيرة عاملاً ليزيد بن عبد الملك على العراق، وولي هشام فأقره، وكان خالد بن عبد الله بن أسيد بن كرز بن عامر بن عبد الله بن عبد شمس بن غمغمة بن جرير بن شق بن سعد بن يشكر بن رهم بن أفرك بن نذير بن قسر– واسم قسر: مالك– بن عبقر. وأخته بجيلة ابنة صعب بن سعد العشيرة بن مالك بن أدد بن زيد بن يشجب بن عريب بن زيد بن كهلان، ضرب وهو على مكة من قبل الوليد بن عبد الملك حبابة جارية ابن سهيل بن عبد الرحمن بن عوف، وكانت قينة تسمى العالية فصارت ليزيد بن عبد الملك وسماها حبابة.

فلما ولي يزيد خافه خالد، وخاف حبابة، وتبناها عمر بن هبيرة فسأله خالد أن يترضاها له وأهدى اليها هدايا ففعل. فقالت: قد وهبته لك، فلم يشكر له خالد ذلك وحبسه حين ولي العراق بعده.

قالوا: وعزل هشام: عمر بن هبيرة، وولى: خالد بن عبد الله العراق في أول سنة من ولايته.

وقالوا: قال عمر بن يزيد الأسيلمي– من بني تميم–: دخلت على هشام وخالد بن عبد الله القسري عنده يذكر طاعة أهل اليمن ووفاءهم، وذلك قبل ولايته العراق، وقال: فصفقت تصفيقة دوى منها البهو، وقلت: ما رأيت كهذا القول خطأ وخطلاً، والله ما قبحت فتنة في الإسلام إلا باليمن فهم سعوا على عثمان أمير المؤمنين فقتلوه، وهم خلعوا أمير المؤمنين عبد الملك، وإن سيوفنا لتقطر من دماء آل المهلب. فلما خرجت لحقني رجل من أهل الشام. فقال: يا أخا بني تميم وريت بك زنادي، قد شهدت مقالتك،

وأمير المؤمنين مول خالد العراق وليس هو لك بدار.

وقال أبو عبيدة معمر بن المثنى عن عبد الله بن أسيد الكلابي: ان إياس بن معاوية قال: كنت عند ابن هبيرة في يوم جمعة وقد أذنوا فجاء غلام له يعدو فقال: إن قوماً دخلوا علي البريد ووكلوا بالباب من يحفظه، قال إياس: فقمت فخرجت فمنعني الحرس، فقال وهو فزع منبهر: هكذا تقوم القيامة.

وأقيمت الصلاة فصلى خالد بن عبد الله بالناس، وقرأ عهده، وكتبه، ثم أرسل إلينا فأتيناه، فقلت: أنا إياس بن معاوية، فأطلقني، وحبس ابن هبيرة.

وقال إسماعيلبن عمار يعارض الفرزدق:

عجب الفرزدق من فزارة أن رأى ... عنها أمية بالمشارق تنزع

فلقد رأى عجباً وأحدث بعده ... أمرٌ تراع له القلوب وتفزع

بكت المنابر من فزارة شجوها ... فاليوم من قسر تضج وتجزع

وملوك خندف أضرعتنا للعدى ... لله درّ ملوكنا ما تصنع

فلما حبس خالد قال الفرزدق:

لعمري لئن نابت فزارة نوبة ... لمن حدث الأيام تسجنها قسر

لقد حبس القسري في سجن واسط ... فتى شيظمياً لا ينهنه الزجر

فتى لم توركه الإماء ولم يكن ... غداءٌ له لحم الخنازير والخمر

فقال ابن هبيرة: ما رأيت أكرم من الفرزدق: هجاني أميراً ومدحني أسيراً.

وكان الفرزدق هجا ابن هبيرة فقال في أيام يزيد:

أمير المؤمنين وأنت عفٌّ ... كريم لست بالطبع الحريص

أألطعمت العراق ورافديه ... فزارياً أحدّ يد القميص

ولم يك قبلها راعي مخاضٍ ... ليأمنه على وركي قلوص

تفهق بالعراق أبو المثنى ... وعلّم قومه أكل الخبيص

وقال فيه بعد هذا الشعر:

يلين لأهل الدين من لين قلبه ... لهم وغليظٌ قلبه للمنافق

فقال خالد: فأين أبو فراس، وطمع في أن يقع في يده فيعاقبه فحذره الفرزدق.

قالوا: وكتب هشام إلى خالد في عذاب ابن هبيرة والاستقصاء عليه.

وروي عن الصعق بن حزن أنه قال: رأيت خالداً لما قدم العراق يعذب عمر بن هبيرة فأخرج يوماً من السجن وعليه عباءة فألقي فتكشف فنظرت إليهوقد رفع إصبعه إلى السماء يدعو فعلمت أنه سينجو.

وقال أبو عبيدة: حدثني خالد بن جبلة بن عبد الرحمن عن أبيه قال: كنت مع ابن هبيرة في حبس خالد وكان ابن هبيرة قد ضربني قبل ذلك، فقال: يا جبلة، إن الحفظة تذهب الحقد وقد أمرت موالي أن يحفروا لي، وهم منتهون إلي الليلة، فهل لك في الخروج؟ قلت: لست فاعلاً. قال: فأشر علي. قلت: لا تخرجن في دار قوم، قال: لا. وكان أمر مولى له فاستأجر داراً إلى جانب السجن واتخذ فيها ألف نعجة فكانوا يحفرون الليل ويتخذون التراب في الدار فيصبح الشاء قد وطئته ولبدته بأبوالها فأفضوا بنقبهم إلى جبلة، فقال لهم: لست بصاحبكم فأتوا عمر بن هبيرة فقام حتى دخل النقب فخرج منه.

وكان جبلة أشار عليه أن يقدم كتاباً إلى هشام ويبعث معه رسولاً، فوجه بكتابه أبا الفوارس الباهلي الأعرج، فقدم به إلى الرصافة غدوة، وقدم ابن هبيرة عشية.

المدائني قال: سمع ابن هبيرة في طريقه امرأة من قيس تقول: لا والذي أسأله أن ينجي عمر بن هبيرة فقال: يا غلام اعطها ما معك وأعلمها أني قد نجوت.

ولما فقد الحرس ابن هبيرة من السجن أخبروا خالداً، فوجه في أثره سعيد بن عمرو الحرشي، لأن ابن هبيرة عزل سعيداً عن خراسان، وضربه حين قدم عليه مائة سوط ونفخ في دبره بكير، وحبسه فكان سعيد بن عمرو إذا ذكره قال: قبح الله ابن هبيرة فإنه أوهى مني بصراً حديداً وساعداً شديداً، فلم يزل محبوساً حتى قدم خالد فأكرمه فلم يقدر سعيد على ابن هبيرة، فترك خالداً وتم على وجهه إلى الشام.

وقدم ابن هبيرة فأشارت عليه قيس بأن يستجير بأم حكيم بنت يحيى امرأة هشام، فقال: امرأة؟ قالوا: فاستجر بأبي شاكر مسلمة بن هشام. قال: صبي، ولكني استجير بأبي سعيد مسلمة بن عبد الملك، قالوا: أتستجير به وقد وليت ما كان يليه و لم تبق عليه؟ فقال: هو كريم ولا يسلمني أبداً، فتوجه إليهومعه وجوه القيسية، فلما رآه مسلمه كره مصيره إليه، وانطلق إلى هشام فكلمه فيه وقال: هذا رجل خاف تحامل خالد عليه للمضرية، فأمنه هشام على أن يؤدي ما طولب به فأداه.

وقال عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز: كنا في رصافة هشام ومعنا مسلمة بن عبد الملك وسليمان بن هشام وابن هبيرة، فخرج علينا رسول هشام فقال: ان أمير المؤمنين يعزم عليكم أن تتلقوا أبا الهيثم خالد بن عبد الله، وكان قدم على هشام للسلام عليه، ولمناظرته في أمور، لم تحتملها المكاتبة والرسل، وحمل معه أموالاً وألطافاً، فقال ابن هبيرة: وأنا أيضاً ؟ قال: ما أراد أمير المؤمنين غيرك، فركب الناس لتلقيه، وركب ابن هبيرة بغلته. قال عبد العزيز: فسرنا حتى لقينا خالداً فسلم علينا وسلمنا عليه، فلم يسلم خالد

على ابن هبيرة فتقدم على بغلته، فصاح خالد: اباقا كاباق العبيد، قال ابن هبيرة: أنوماً كنوم الأمة، ويقال إنه قال له: أبقت اباق العبد، فقال له: نعم حين نمت نوم الأمة.

وقال الفرزدق في هرب ابن هبيرة

لما رأيت الأرض قد سد ظهرها فلم تر إلاّ تحتها لك مخرجا

دعوت الذي ناداه يونس بعد ما هوى في ثلاث مظلمات ففرّجا

خرجت ولم تمنن عليك شفاعة سوى ربذ التعريب من آل أعوجا

وظلماء تحت الليل قد خضت هولها ولوناً كلون الطيلساني أدعجا

هما ظلمتا ليل وأرض تلاقيا على جامح من همه ما تعوجا

وقال:

قد ضيّع السجن والتضييع عادته حتى نجا سالماً من سجنه عمر

وانقضت من قوى القسريّ مرّته وأحكمت من حبالٍ غيرها مرر

وقال أيضاً :

ألا قطع الرحمن ظهر مطيّة أتتنا تخطّى من دمشق بخالد

وكيف يؤمّ الناس من كان أمه تدين بأن الله ليس بواحد

قال: وجلس هشام لينظر فيما بين ابن هبيرة وسعيد بن عمرو الحرشي، وتظلم سعيد منه فخرج الربيع بن شابور مولى بني الحريش وهو حاجبه، فقال عمرو بن سعيد: لا يقم غيرهما. فقال سعيد: ولاني خراسان ففعلت ما يجب علي، وحمدني أهل البلاد، فكافأني بأن ضربني فأوهى بصري وأخذ مالي.

فقال هشام: ما تقول يا عمر؟ قال: وليت العراق فوجدت هذا صعلوكاً ليس له إلا فرسه ورمحه، لا يعرفه أحد إلا أن له حظاً من نجدة، فوليته البصرة ثم عزلته ووليته خراسان، فسرق الفيء واحتجنه و لم يبعث إلي الا ببرذونين حطمين، فعزلته وضربته، وأخذت ماله، ووضعته في بيت المال.

فقال: ألك يا سعيد حجة غير ما ذكرت؟ قال: لا. قال: فأنت يا عمر؟ قال: لا. قال: فليمسك كل واحد منكما عن صاحبه حتى يرى أمير المؤمنين رأيه، فأمسكا.

قالوا: ولما قدم ابن هبيرة على هشام وأمنه، كاده الأبرش وأصحاب خالد بن عبد الله، فأعدوا مائة من خيل المضمار سياسها وقوامها فقدموها وأضمروها، وأمروا مجريها أن يعارضوا بها هشاماً إذا ركب يوماً، فعورض بها، فسأل عنها، ورأى خيلاً لا يعرفها لنفسه، فقالوا: هذه لابن هبيرة. فاستشاط غضباً، وقال:

واعجباً، اختان ما اختان ثم قدم؟ فوالله ما رضيت عنه بعد وهو يوائمني في الخيل، علي بعمر، فدعي به وهو يسير في عرض الموكب فجاء مسرعاً وقد بلغه الخبر، فقال له هشام: ما هذه الخيل؟ قال: خيل أمير المؤمنين اخترتها وطلبتها من مظانها حتى جمعتها لك فمر بقبضها، وكان ذلك سبب نقاء قلبه له، وانشراح صدره بالرضا عنه.

ثم لم يزل عمر يتأتى لهشام حتى أنس به، فقال له يوماً: هل لك في أمر لم يطمع فيه أحد و لم يعرضه عليك قبلي أحد؟ قال: وما هو؟ قال: اعمل لك من قبل الوليد بن يزيد في البيعة لمسلمة ابن أمير المؤمنين. قال: أو تفعل؟ قال: نعم. قال: فإن فعلت وليتك العراق.

فأتى ابن هبيرة الوليد فقال له بعد حديث طويل جرى بينهما: أيها الأمير لم تزل تلقى مثل ما تلقى من هذا الأحول فيك، قد علم خؤولتنا لك وميلنا إليك فهو يجرعنا الغيظ بسببك لتصغيره إياك مرة وتهدده مرة، ولست آمنه عليك، فإن أذنت لي عملت لك في أمر تتعجل نفعه وتأمن به، ثم الأمر فيه إليك.

قال: وما هو؟ قال: تدعو هشاماً إلى أن يعقد الأمر بعدك لابنه أبي شاكر وتتعجل لك منه مالاً رغيباً جليلاً فإن حدث بهشام حدث نظرت في أمرك فإن شئت خلعت مسلمة وعقدت الأمر لمن أحببت، فقد علمت طاعتي في قيس وهم أخوالك، فالأمر منته إلى ما رأيت وأردت. قال: فافعل.

فأتى هشاماً فقال: قد حكمت الأمر فهات العهد على العراق فإذا بويع لمسلمة مضيت. فأعطاه عهدا، وكان خالد يخاف ابن هبيرة خوفاً شديداً، فيقال إنه دس رجلاً فضرب مضرباً في طريق ابن هبيرة إلى هشام، فلما مر به قام إليهفقال: أنا مولاك وقد لغبت فهل لك في شربة عسل تخوض بماء بارد، فشربها ثم نهض يريد منزله، وقوض الرجل مضربه وانشمر، ومات ابن هبيرة من يومه ويقال أنه فلج فمات.

وقال المدائني: كان يقال: رجل أهل الشام عمر بن هبيرة، ورجل أهل البصرة عمر بن يزيد الأسيدي، ورجل أهل الكوفة بلال بن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري. فذكر ذلك لعمر بن يزيد فقال: صدقوا ولكن بلالاً حية، فقيل ذلك لبلال فقال: رمتني بدائها وانسلت.

وقال المدائني: لما ولي خالد بن عبد الله العراق ولى البصرة أبان بن ضبارة من أهل اليمن، ثم عزله وولى عقبة بن عبد الأعلى الكلاعي، من أهل الشام، ثم عزله وولى عامر بن نفيل الكلاعي أو الكلابي، فكلهم كانوا على الصلاة بالبصرة. وعلى الشرط والأحداث مالك بن المنذر بن الجارود العبدي من قبل خالد.

وقال المدائني: أخذ الفضل بن برجان اللص العطاردي من بني تميم أخذه شعيب بن الحبحاب الفقيه في العتيك، فرفعه إلى مالك فضربه حتى مات ثم صلبه، وأخذ مالك بن المنذر سهماً الصبيري أحد بني صبير بن يربوع بن حنظلة فقتله، وكان سهم لصاً، وقتل جماعة من اللصوص فقال خليفة الأقطع:

إن كنت لم تسألي سهماً وصاحبه عن مالك فسلي فضل بن برجان

في أبيات.

وذكروا أن ابن المنذر سأل الحسن عن امرأة عذبت جاريتها حتى ماتت، فأمره أن يعزرها و لم ير عليها قوداً.

حدثني عمر بن شبه وغيره عن أبي عاصم النبيل قال: صلى مالك بن المنذر في ثوب رقيق، فقال له البتي: لا تصل في ثوب واحد رقيق، فلما ولي أرسل إليهفضربه عشرين سوطاً فقال: علام تضربني؟ قال: لأنك تأمر الناس ألا يصلوا إلا في الحجاب.

قالوا: وبعث مالك إلى الحسن: ما هذه الجموع؟ لئن جلست مجلسك لأضربنك ثلاثمائة سوط، فقال: يكفيني من ذلك سوطان، فجلس في بيته وأمسك عن ذكر الأمراء.

حدثنا خلف عن عبد الوارث عن محمد بن ذكوان قال: كان مالك بن المنذر على الشرط، فضرب ثابتاً البناني، وشتم الحسن وقال: اعتزل مجلسنا وإلا ضربتك مائة سوط على ظهرك وبطنك فإنك تعيب أمير المؤمنين، والأمير، وتحرم القبالات.

المدائني قال: كتب مالك بن المنذر إلى خالد يذكر له أمر الحسن وعيبه الأمراء، فكتب إليه: انك لست من الشيخ في شيء، فاله عن ذكره وإياك أن تعرض له، فأتاه رسول مالك فقال له: إن أبا غسان يقرئك السلام ويقول إن رأيت أن تأتي المقصورة. فجعل يقول: إن أبا غسان يقرئك السلام ويقول: إن رأيت أن تأتي المقصورة فافعل، يردد ذلك ثلاثاً: لا، لا، لا. ثم دخل على مالك فوعظه وقال: اتق الله ولا تترجح في هذه الأماني فإن أحداً لم يعط شيئاً بأمنية دون عمل.

وقال هشام ابن الكلبي: ضرب مالك عمر بن يزيد الأسيدي بالسياط حتى قتله.

قالوا: وكان عمر لمالك صديقاً فوشى به بالكوفة إلى عبد الحميد بن عبد الرحمن في أيامه فأزعجه من عنده، ووشى به إلى العباس بن الوليد بن عبد الملك حتى أزعجه، ثم وشى به إلى مسلمة بن عبد الملك فلم يقبل منه، فلما رأى عمر أن مسلمة لا يقبل صالح مالكاً، فلما ولي مالك أحداث البصرة ذكر عبد الأعلى بن عبد الله بن عبد الله بن عامر، فنفاه من أبيه وعنده عمر بن يزيد، وحفص بن عمر بن موسى بن عبيد الله بن معمر وغيره، فأتى عمر بن يزيد عبد الأعلى فأبلغه قول مالك، وقال: أنا أشهد لك عليه فشخص عبد الله إلى خالد وهو بواسط، وأشخص معه عمر بن يزيد وحفص بن عمر بن موسى بن عبيد الله بن معمر فشهدا على مالك بما قال فكذبهما خالد وتهددهما وقال لعمر بن يزيد: أنا أعرف شرارتك ومحلك

وحبسه عنده ودس شهوداً فشهدوا أنه يشرب الخمر فضربه خالد حداً وحدره إلى مالك فضربه بالسياط حتى وقذه، ثم أمر به فحمل إلى السجن فلويت عنقه فمات، وادعي انه مص خاتمه فمات، وإنما أشاع ذلك أصحاب خالد. فلما مات عمر جزعت بنو تميم، وتنمرت لربيعة، وحدبت ربيعة على مالك ومالت إليه، واشرأب الناس للفتنة فقمعهم السلطان.

وحدثني عمر بن شبه، حدثني أحمد بن معاوية عن المشجع قال: دخلت على عمر بن يزيد بن عمير السجن فقال: ما فعلت داري؟ قلت: هدمت. قال: فنخلي؟ قلت: قطع. قال: ما أهون ذلك علي إن سلمت نفسي.

المدائني عن سحيم بن حفص قال: قال الحسن: إن مالكاً قتل عمر بن يزيد ليعز، فلم يزده الله إلا ذلاً، وإن عمر بن يزيد قتل شهيداً، وكان مالك شاور بشير بن عبد الله بن ابي بكر وعمرو بن مسلم الباهلي في أمر عمر بن يزيد، فقال له بشير: إن قتلته قتلت عصفوراً، وإن تركته تركت أسداً، وقال عمرو: أقتله، فقال الفرزدق:

لله قوماً شاركوا في دمائنا	وكنا لهم عوناً على العثرات
فجاهرنا بالغش عمرو بن مسلم	وأوقد ناراً صاحب البكرات

وقال الفرزدق:

يا لتميمٍ ألا لله أمكم	لقد رميتم بإحدى المصمئلات
واستشعروا بثبات الذل واغتربوا	إن لم تروعوا بني أقصى بغارات
أو تقتلوا بفتى الفتيان قاتله	وتقتلوا بصعيد غير أشتات
لله درّ فتى راحوا به أُصلاً	مهشم الوجه مهشوم الثنيات

فخرجت رجال تميم وخرجت عاتكة بنت الملاءة امرأة عمر فدخلت على امرأة هشام، فجعلت لا ترى معها شيئاً حسناً من جارية أو غيرها إلا قالت: ما أحسن هذا، فتقول: هو لك، فلما جهدت وجهد القوم نزلوا على عثمان بن حيان المري.

قالت ابنة الملاءة: فأتيناه وهو في مزرعة له فشكونا إليهأمرنا، فقال: قد والله بلغنا أمركم فساءنا وأحفظنا، ولبس ثيابه ثم أقبل معنا إلى هشام وكان لا يحجب عنه، وأطفنا به، فصاح عثمان: قبح الله طاعة لا تعرف لأهلها، ونصيحة لا تشكر لمن عرف بها، فأسمع هشاماً فخرج الخدم يقولون: من هذا؟ فقيل عثمان بن حيان. فدخلوا فأعلموا هشاماً ثم خرجوا إليهفقالوا: ليدخل عثمان، فدخل فأعلم هشاماً وكلمه فقال هشام: ويحك اتتهمني في أمر عمر؟ والله لولا أن السماء والأرض قامتا بالعدل لقتلت قاتل عمر وعشيرة

قاتله.

ثم أقبل على الحر بن يوسف بن يحيى بن الحكم بن أبي العاص فقال: ما رأيت الرجل الصبيح الفصيح عمر بن يزيد بن عمير الأسيدي فإنه قتل، والله ما كنت أحب أن أمي ولدت رجلاً من العرب غيره، قال: يا أمير المؤمنين فمثل هذا يقتل دونك، قال: قد كتبت في حمل قاتله.

قالت عاتكة بنت الملاءة: فقدمنا ومالك قاعد على ضفة النهر فأخبر بمقدمنا ومقدم رسول هشام معنا فركب سفينة ثم أتى الكوفة فلم يفارقه الرسول حتى حمله إلى هشام.

حدثني عمر بن شبه عن أبي عاصم النبيل، أخبرني العذافر بن يزيد قال: لما قدم مالك بن المنذر واسطاً، أتيته أنا وأبي فجاءه رسول لأمير المؤمنين فكلمه على باب خالد، فقال: يا دكين اكسر أنفه، فدخل الرسول على خالد فقال: كسر أنفي على بابك. فقال: مالك له يا مالك؟. قال: منعني الدخول. فلما أراد الخروج قال: ما يسرني أن الله عافاني من النقرس ورجعني من وجهي سليماً وإني لم أكن فعلت به الذي فعلت.

المدائني قال: لما قتل مالك عمر دله أو كاد يدله، حتى كان يسلك الطريق من طرق البصرة فيقول: أين أنا؟. وكان عمر يقول لما ضربه مالك: يا هشام يا هشام.

وقال الفرزدق:

ألم يك قتل عبد القيس ظلماً ... أبا حفصٍ من الكبر العظام

قتيل جماعة في غير جرمٍ ... ينادي وهو يضرب يا هشام

المدائني وغيره قالوا: أدخل مالك بن المنذر على هشام فقال: لا مرحباً ولا أهلاً، لا قرب الله دارك ولا سهل محلتك، أقتلت عمر بن يزيد، فوالله لهو كان خيراً منك حسباً ونسباً وريشاً وعقباً، فقال مالك: و لم يا أمير المؤمنين؟ ألست ابن المنذر بن الجارود ومالك بن مسمع؟. فأمر به فوجئت عنقه، ثم أمر بحبسه وإثبات البينة عليه، فمات في السجن، فيقال إن القيسية دسوا إليهمن قتله في السجن، ويقال؛ مص خاتمه، ويقال: مرض ومات حتف أنفه.

وقال الفرزدق:

لئن مالك أمسى قد انشعبت به ... شعوب التي يودي بها كل ذاهب

وإن مالكاً أمسى ذليلاً لطالما ... سعى في التي من صادفت غير آيب

في أبيات. وقال أيضاً :

ألم تر أن الله ربي بحوله وقوّته أخزى ابن عمرة مالكا

فمن يك عنه سائلاً بصنيعةٍ فقد ظلّ في أرض الرصافة هالكاً

تظل الضباع العاويات ينشنه إذا جنّ مسودٌّ من الليل حالكاً

وقال أبو اليقظان: كان مالك حبس الفرزدق، وذلك أن خالداً حين كان على مكة من قبل الوليد بن عبد الملك ضرب محمد بن طلحة بن عبيد الله أو عبد الله بن شيبة مائة سوط، فكتب سليمان بن عبد الملك إلى طلحة بن داود الحضرمي، وكان على قضاء مكة يأمره أن يقصه منه، فضربه مائة سوط فمر به الفرزدق وهو يضرب فقال له: اضمم إليك جناحيك يا بن النصرانية، وقال:

لعمري لقد صبّت على ظهر خالدٍ شآبيب ما استهللن من سيل القطر

وعمري لقد صال ابن شيبة صولة أرتك نجوم الليل مظهرةً تجري

أتضرب في العصيان تزعم من عصى وتعصى أمير المؤمنين أخا قسر

فنفسك لم فيما أتيت فإنها جزيت جزاءً بالمجدرجة السّمر

ولولا يزيد بن المهلب حلّقت بكفك فتخاء الجناح إلى الوكر

قالوا: وكان سليمان أمر بقطع يده، فسأله يزيد أن يضرب كما ضرب الرجل.

قال هشام ابن الكلبي: هو عبيد الله الأعجم بن شيبة بن عثمان بن أبي طلحة بن عبد العزى بن عثمان بن عبد الدار، ضربه القسري فضرب له.

وقال الفرزدق:

سلوا خالداً لا أصلح الله خالداً متى وليت قسرٌ قريشاً بدينها

أبعد رسول الله أم قبل عهده أم اضحت قريشٌ قد أغثّت سمينها

أردنا هداه لا هدى الله قلبه وما أمه بالأمّ يهدى جنينها

كانت أم خالد سوداء نصرانية، فكتب خالد إلى مالك: خذ الفرزدق فإنه هجا نهر أمير المؤمنين فأمر مالك أيوب بن عيسى الضبي فتلطف له حتى أخذه، فلما قيل لمالك: قد أخذ الفرزدق، انتفخ وريده غضباً، فلما وقف بين يديه أنشده قوله:

أقول لنفسي حين غصّت بريقها ألا ليت شعري مالها عند مالك

لها عنده أن يرجع الله روحها إليها وتنجو من عظام المهالك

وأنت ابن جبّاري ربيعة أدركا بك الشمس والخضراء ذات الحبائك

قال: فسكن غضبه وأمر به إلى السجن فقال وهو في السجن:

رأيت أبا غسان علّق سيفه على عاتقي شغب على من يشاغبه

ترى الناس كالدّمعى له وقلوبهم تنزّى وما فيهم عريب يخاطبه

أذلّ به الله الذي كان ظالماً وعزّ به المظلوم واشتد جانبه

وقد علم المصر الذي ضاع أنه سيحمى وتمشي بالسيوف كتائبه

وقال في السجن:

يا مال هل لك في كبير قد أتت تسعون فوق يديه غير قليل

يا مال هل هو مهلكي ما لم أقل وليعرفنّ من القصائد قيلي

لا تأخذن عليّ قول محرّشٍ ضغن عليّ وترته متبول

إني بذمة مالك وبمنذرٍ أبويك محترسٌ لكل محول

وأم مالك عمرة بنت مسمع، ولم يطلقه حتى حبس عمر بن يزيد معه ثم قتله وأشاع أنه مص خاتمة فمات، فقال له الفرزدق:

لقد قيل قد مصّ الأسيديّ خاتماً وقد دقّ منه عظمه ومفاصله

وإني لأخشى مثلها منه إنه إذا علقت أنيابه وحبائله

بقرنٍ أصاب القلب منه بمخلبٍ ترمّل منه أنفه وجحافله

فلما حمل مالك قال الفرزدق:

ستعلم عبد القيس إن زال ملكها على أيّ حالٍ يستمر مريرها

وكان يجير الناس من سوط خالدٍ فأصبح يبغي نفسه من يجيرها

وكنت كعنز السوء قامت لحينها إلى مديةٍ مدفونة تستثيرها

وقال الفرزدق:

وزهّدني في شرطة المصر أنني رأيت عليها مالكاً عقب الكلب

وما مالك إلاّ عجوز كبيرة مضببة الأنياب توجف في الركب

وقال أيضاً :

لعمرك ما أشبهت جدك مالكاً ولا جدك الجارود يا عقب الكلب

ولم يزل الفرزدق محبوساً حتى ولي النضر بن عمرو فقال:

ألا طال ما رسّفت في قيد مالك فأصبح في رجليه فيدي محوّلا

واطلقني النّضر بن عمروٍ وربما بكفّيه قد فكّ الأسير المكبلا

قالوا: ولما هلك مالك ولى خالد بن عبد الله شرط البصرة:

بلال بن أبي بردة بن أبي موسى

وولى صلاتها النضر بن عمرو، وذلك في سنة عشر ومائة.

المدائني عن الوضاح بن خيثمة قال: رأيت النضر بن عمرو، وبلال بن أبي بردة، يمشيان في جنازة الحسن بن أبي الحسن والنضر على الصلاة، وبلال على الأحداث.

قال أبو بكر الهذلي: بعثني النضر إلى الحسن أسأله عن يوم عرفة ما كان الناس يصنعون فيه، فقال: وما لهذا وليوم عرفة؟. قلت: إنه لمن خيرهم، قال: صدقت إنه لمن خيرهم.

قالوا: ذكر الحسن من تقدم من هذه الأمة ثم أقبل على النضر بن عمرو فقال: قد أصبحت والله مخالفاً للقوم في هديهم وسيرتهم، وأنت تتمنى على الله الأماني، وتترجح فيها، فإن أخاك من صدقك ونصح لك في دينك، ولمن صدقك ونصح لك في دينك خير لك ممن غشك وغرك، وكان ثمامة بن أنس على القضاء من سنة ست ومائة إلى سنة عشر ومائة.

قالوا: وكتب خالد إلى بلال بعهده على البصرة، وولاه القضاء، فولى بلال الأحداث عبد الأعلى من الأزد، وكان بلال يقضي بين الناس وهو أمير، فقال رؤبة بن العجاج:

بلال يا بن الشرف الأمحاض والثابت النعل على الإدحاض

أنت ابن كل سند فياض وأنت يا بن القاضيين قاض

معتزم على الطريق ماض

وكان ثمامة موضحاً وكان مخلطاً استعدته امرأة على رجل ولم تقم البينة، فأراد إحلافه فقالت المرأة: إنه رجل سوء يحلف ليذهب حقي، ولكن استحلفإسحاق بن سويد فإنه جاره، فأرسل إلىإسحاق بن سويد ليستحلفه فقال خلف بن خليفة الأقطع يذكر بلالاً:

وكنا قبل مقدمه علينا من الشيخ المولع في بلاء

يعني ثمامة بن أنس.

ومدح بلالاً رؤبة، وذو الرمة، وكان رؤبة بخيلاً، فقال رؤبة لبلال: علام تعطيني؟ فقال ذا الرمة: والله ما يمدحك إلا بمقطعاتنا هذه، يعمد إليها فيوصلها ثم يمدحك بها، فقال: لو لم أعطه إلا على تأليفها لأعطيته.

المدائني قال: بثق بلال نهر معقل في الفيض، واحتفر نهر بلال، وبنى عليه الحوانيت، ونقل إليهالسوق وجعله ليزيد بن خالد القسري، ومدحه الفرزدق، فمن شعره:

ومظلمة علي من الليالي جلا ظلماءها عني بلال

بخير يمين مدعوٍّ لخيرٍ تعاونها إذا نهضت شمال

ترى الأبصار شاخصة إليه كما ينظرن حين يرى الهلال

حدثنا عمر بن شبه عن أبي عاصم النبيل قال: قال يزيد بن طلحة الطلحات لبلال، واستبطأه في عيادته، وعاد الزعل الجرمي:

أفي حمّى ثلاثٍ زرت جرماً وتترك شيخ قومك يا بلال

وقال أبو عاصم: أوصى يزيد فجعل للإناث من ولده مثلي ما للذكور، ولعن في وصيته من غيرها، فأتي بها بلال فقال: أنا أول من غيرها فعلى يزيد لعنة الله والملائكة والناس أجمعين.

حدثنا عباس بن هشام الكلبي عن خراش بن إسماعيلقال: ولى خالد بلالاً البصرة فانحدر إليها ابن بيض وكان له صديقاً وأقام على بابه أياماً لا يؤذن له فكتب إليه.

قل للأمير جزاه الله صالحةً أهل التقى والذي يحيا به الدّين

يا هل ترى حرجاً في شرب خابيةٍ صهباء يكّسر عن خرطومها الطين

وهل ترى حرجاً في نيك أرملة مسكينة ناكها قوم مساكين

فلما قرأها قال: هذا والله ابن بيض، ادخلوه الفاسق، فلما دخل عليه قال: والله يا فاسق ما كنت لأصل إليك إلا بالشر.

وأرسل بلال علي بن يزيد إلى هند بنت المهلب يخطبها فقالت: ما لي عنه رغبة، وهذا كتاب خالد بن عبد الله يخطبني ولو أردت التزويج ما عدوته.

المدائني قال: كتب خالد بن عبد الله إلى بلال أن ول نصر بن حسان العنبري ولاية، فأرسل إليهبلال يدعوه فقال للرسول: قل له أصلي ثم آتيك. فقال للرسول: قل له: إن الذي كنت تصلي له قد جاءك فدع الصلاة وأقبل.

وقال رجل من بني صبير: جيء بابن عون إلى بلال فتحدثنا بيننا أنه إنما جيء به بسبب قتادة فجاء قتادة فقام إليهابن عون فقال: يا أبا الخطاب اتق الله فقد وجدتما بدار مضيعة.

تعدو الذئاب على من لا كلاب له ... وتتقي صولة المستأسد الحامي

ثم لم نلبث أن دخلنا على بلال فقال لنا: اخرجوا، فبقي ابن عون وقتادة فقال له بلال: طلقها، قال: هي طالق. قال: طلقها ثلاثاً. قال: واحدة تبينها مني. قال: أتعلمني وأنا ابن أبي موسى صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم؟. قال: فهي طالق ثلاثاً. قال: يا أبا الخطاب في هذا شيء أكبر من هذا. قال: قد كانت الولاة تؤدب في هذا، أو قال: تعزر في هذا السوطين والثلاثة، فأمر بضربه ونحن نراه، فضربه أربعة وأربعين نعدها ثم خرج والدم يسيل.

قال أبو عبيدة: أخبرني يونس بن حبيب قال: زعم بلال أنه لو كان مكان أبي موسى ما خدعه عمرو بن العاص، وقد خدعه يوسف بن عمر بجنون من ثقيف، كتب إليه: لا سبيل عليك إنما وليت الصلاة والقضاء فأقم بمكانك وخذ العمال قبلك بالاستخراج، فأقام واستخرج له ما أراد ثم عدا عليه فحبسه حتى مات في حبسه.

قالوا: وكان بلال إذا غربت الشمس، أو كادت تغرب، وضع طعامه، فإذا مد الناس أيديهم نودي بالصلاة فقام وقاموا، فنودي مرة بالصلاة وقتادة يأكل فلم يقم ولم يقم رجل آخر معه فلحظه، قال الرجل فلم يؤذن لي بعد ذلك أشهراً، ثم إن امرأتي استعدته علي وادعت أني أضربها وأضر بها، فقال: صدقت وضربني أربعين سوطاً، وإنما ضربني لأكلي طعامه مع قتادة.

وكان الناس يتفرقون عن طعام بلال للصلاة، فيأخذه العسس والخدم، فكان من حوله يشترون ذلك، فكان من قرب منه يقولون: ما رأينا جاراً خيراً من بلال.

وقال بكر بن حبيب الباهلي: حكمت بلالاً في حاجة فقلت: أنت في كرمك وعدلك أحق من فعل هذا. فقال: وأنت في بلاغاتك وفصاحاتك لا تنقلب اليوم بحاجاتك. فقلت: لو علمت أن اللحن ينفعني عندك لخضرمت حضرمة أبي شيخ الفقيمي وكان لحاناً، فقال له أبو شيخ: كيف ذكرتني وتركت ابن عمك الذي يقرأ غير المغضوب عليهم ولا الضالون، ويقال لحضجت بها حضجات أبي شيخ.

وقال العريان بن الهيثم لبلال بن أبي بردة إنه ليريبني بياض راحتيك، وروح قدميك، وانتشار منخريك، وجعودة شعرك- يعرض له بالزنجية- فقال بلال: إني لأكره أن أجعل أبا موسى نداً للأسود، وأبا بردة نداً للهيثم ونفسي نداً لك، ثم تمثل:

أنا مسكين لمن يعرفني ولمن ينكرني جدّ نطق

لا أبيع الناس عرضي إنني لو أبيع الناس عرضي لنفق

قالوا: ودخل مسلم بن الشمردل الباهلي على بلال فتربع، فقال له بلال: جلست جلسة بغي، فقال له مسلم: وإنك بجلوسهن لعالم. فقال: يا بن اللخناء.

وقال أبو نوفل لبلال:

أبلال إني رابني من أمركم قولٌ تزيّنه وفعل منكر

مالي أراك إذا أردت خيانة جعل السجود بحرّ وجهك يظهر

متخشعاً طبّاً بكل عظيمةٍ تتلو القرآن وأنت ذئب أغبر

وقال الجارود بن أبي سبرة لبلال: أتدري ما قال حارثة بن بدر لعبد الرحمن بن أم الحكم؟ قال: ما قال له؟. قال: قال:

نهاره في قضايا غير عادلة وليله في هوى سعد بن عباد

فأمر صاحب الجالية فأغرمني ثلاثمائة درهم وما في أرضي ذمي واحد.

وقال ابن نوفل:

أقول لمن يسائل عن بلال وعبد الله عند ثنا الرجال

بلالٌ كان ألأم من علمنا وعبد الله ألأم من بلال

هما أخوان أما ذا فجونٌ وأما ذا فأحمر ذو سبال

وقال بلال وهو في حبس يوسف بن عمر: لو سئلت مائة ألف، أو مائتي ألف، أو ألف ألف لأديتها، ولكني دفعت إلى مجنون، فقال لصاحب عذابه من آخر الليل: إن أدى عشرة آلاف ألف درهم قبل طلوع الشمس وإلا فأزهق نفسه، فقلت: لو كان عندي بدر مهيئة ما فرغت من استيفائها في هذه المدة.

وقال بعضهم: ما قتل بلالاً إلا دهيه، قال للسجان: خذ مني مائة ألف وأعلم يوسف بن عمر أني قد مت. وكان يوسف بن عمر إذا سمع بموت محبوس قال: ادفعوه إلى أهله، فأتى السجان يوسف فقال: قد مات بلال، فقال: أرنيه ميتاً فإني أحب أن أراه وهو ميت، فجاءه السجان فألقى عليه شيئاً غمه به حتى مات، ثم أراه يوسف.

قالوا: وخاصم عيسى بن عمر النحوي إلى بلال وجعل يعرب وخصمه ينظر إليهمتعجباً، فقال بلال: أقبل على حجتك ودع النظر إلى خصمك فلأن يذهب حقه أحب إليهمن أن يلحن.

قالوا: وحبس بلال بن أبي بردة ثلاثة نفر اتهمهم بالزندقة، فبلغ خبرهم ابن برهمة، وكان من أخص الناس بخالد بن عبد الله، فاستأذنه في إتيان البصرة فقدمها فأتاه الناس و لم يأته بلال وجعل يوهم الناس أنه قدم ناظراً من قبل خالد فأتاه ابن أبي العوجاء وعنده عبد الرحمن بن يزيد بن المهلب، فرفع ابن أبي العوجاء وعبد الرحمن جالس على البساط، فقال ابن صديقة وكان ماجناً: عبد الرحمن على البساط وابن أبي العوجاء على الفراش، ثم جاءه فكلمه في الذين حبسهم فخلاهم، فقال يحيى بن نوفل:

زعم الزاعمون أن حسين بن عبي ... د بن برهمة زنديق

ولعمري لئن هم زعم ... وه ما اشتطّوا وإنّه لخليق

إن من يشرب الخمور ويزن ... ي في خلاءٍ بما رمي لحقيق

قال: وكان بلال سكيراً يعلن بشرب النبيذ.

قال: أبو الحسن المدائني: أرسل بلال رسولاً إلى قصاب في جواره بالسحر، قال: فدخلت عليه وبين يديه كانون، وفي صحن الدار تيس، فقال للقصاب: اذبحه. قال: فذبحه وسلخه وشرحه وأنا بين يديه فأكله إلا عظامه، وبقيت مضغة على الكانون فقال لي: كلها، وجاءت جارية بقدر فيها دجاجتان وناهضان وأرغفة فأكل ما فيها، ثم دعا بشراب فشرب منه أقداحاً ثم أمر لي بقدح فشربته ثم قال: الحق بأهلك.

قالوا: واتخذ بلال حوانيت كانوا يبيعون فيها النبيذ فقال بعضهم:

لله در عصابة نادمتهم ... في كل بيت من بيوت بلال

باتوا موتّرةٌ عليّ قسيّهم ... يرمونني رشقاً بغير قتال

الأصمعي عن أبي الزناد عن أبيه قال: عاتبت ابن هبيرة في بلال بن أبي بردة، وقلت: أراك تجفوه وتقصيه فقال: ويلك إن قربته أخذني فجعلني في كمه.

حدثني عمر بن شبه عن أبي عاصم، أخبرني أبي قال: كان كاتب يكتب خلف بلال فأقطر على ثوبه قطرة فقال: أتراني أحبك بعد هذا أبداً.

المدائني قال: وكان بلال يخاف الجذام، فوصف له السمن، فكان يستنقع فيه، ثم يبيعه فترك أهل البصرة أكل السمن إلا أن يسلأه رجل في بيته.

وروي عن الجارود بن أبي سبرة قال: قال لي بلال بن أبي بردة: أتأتي صديقك اليوم عبد الأعلى بن عبد الله بن عبد الله بن عامر؟ قلت: نعم. قال: فما تصنعون؟ قلت: نأتيه وهو متصبح فنقعد حتى يستيقظ فإن حدثناه أحسن الاستماع، وإن سكتنا ساقطنا أحسن الحديث، ثم يأتي خبازه فيخبر بما عنده مما أعد، فإذا

وضعت المائدة أخوى تخوية الظليم وعذر في الأكل، ويجيء من عند بناته ونسائه ألطاف، حتى إذا أمعن القوم في الأكل حسر عن ذراعيه وجثا على ركبتيه واستأنف الأكل.

على بن محمد المدائني قال: استرضع أبو موسى لابنه أبي بردة في بني فقيم في العراق في آل الغرق، فلما قدم بلال البصرة قيل له: لو وليت أبا العجوز ابن أبي شيخ بن الغرق، فقال: رأيت منه ثلاثاً: رأيته يحتجم في بيوت أخوانه، ورأيت عليه مظلة وهو في الظل، ورأيته يبادر إلى بيض البقيلة.

قال أبو الحسن المدائني: لما ولي بلال قال خالد بن صفوان: سحابة صيف عن قليل تقشع فدعا به فقال له: أنت القائل: سحابة صيف عن قليل تقشع؟. أما والله لا تقشع حتى يصيبك منها شؤبوب برد، فضربه مائة سوط.

ويقال إن خالداً كان يغشاه في سلطانه ويغتابه إذا غاب عنه، ويقول: ما في قلب بلال من الإيمان مثل ما في البيت أبي الزرد من الجوهر، وكان أبو الزرد الحنفي مفلساً، فأخذه بلال، وخاف خالد أن يقتله، فقال بلال: والله لا أتركك إلا بكفالة عشرة فيهم نعيم أخوك، فكفلوا به على أنه إن غاب فعليهم مائة ألف، فهرب خالد وأحضرهم فأخذ منهم بلال المائة الألف، فقال خالد:

فلا تحسبنّي يا بن واهصة الخصى ضعيف القوى لا يستطيع التحولا

أتيح لنا من أرضه وسمائه بلال أراح الله منه فعجّلا

فلما أخذ يوسف بن عمر بلالاً وثب عليه خالد فقال: أصلح الله الأمير، هذا بلال بن أبي بردة بن أبي موسى، وكان جده حلاقاً فاكتنى بموساه، وكانت جدته طهفة بنت ذمون حالكة الجلدة، قردة الشعر، وكانت أمه أمةً لأبيه يضربها في الدرهم، وتطوف في الأسواق وكأن رجليها حوافر حمار، يغمز العبيد شواكلها. فقال بلال: أنت تكلمني والأمير عنك راض وعلي ساخط، وأنا غريب، وأنت على باب مترلك.

وكان يوسف بالحيرة يومئذ فنسبه إلى أنه من أهل الحيرة. قال: ألست خالد بن صفوان بن الأهتم القائم على برثنه، وإنما أنت بمترلة الكلب يجتريء على باب أهله، علق أبوه وعمه محررتين من محررات أهل البصرة، حتى إذا خاف أهلوهما فضيحتهما زوجوهما بهما، فأنت ابن أمة بني زياد، فقال خالد ليوسف: أيها الأمير، هذا أحمق الناس والله ما يدري أين دار اعرابيته من دار هجرته، فقال بلال: بلى والله إن دار أعرابيتي اليمن ودار هجرتي المدينة، وأخبرك عن دار اعرابيتك وهجرتك، أما دار أعرابيتك فالحيرة وأما دار هجرتك فالبصرة.

و لم يزل بلال على البصرة حتى عزل هشام: خالداً عن العراق في سنة عشرين ومائة، وولى يوسف بن

عمر بن محمد بن الحكم بن أبي عقيل بن مسعود الثقفي. وكان خالد جواداً.
حدثني عمرو بن محمد الناقد وعمر بن شبه قالا: حدثنا أبو نعيم، أنبأ فضيل بن الزبير قال: سمعت خالداً يقول: زمزم لا تنزح ولا تذم، بلى والله انها لتنزح وتذم، هذا أمير المؤمنين قد ساق لكم قناة بمكة من حالها وحالها.
وحدثني محمد بن سعد عن الواقدي في إسناده أن خالداً قال: إن نبي الله إسماعيلاستسقى ربه فسقاه ملحاً أجاجاً، وسقي أمير المؤمنين عذباً زلالاً، بئراً احتفرها له.
وقال أبو عاصم النبيل: ساق خالد الماء إلى مكة فنصب طستاً إلى جانب زمزم، ثم خطب فقال: قد جئتكم بماء الغادية لا يشبه ماء أم الخنافس- يعني زمزم-.
وخطب خالد فأرتج عليه، فقال: إن الكلام يجيء أحياناً ويعزب أحياناً، وربما طلب فأبى، وكوبر فعصى، والتأني لمجيئه أيسر من التعاطي لأبيه، وقد يختلج من الجريء جنانه، ويعتاص على الذرب لسانه، ثم قال: لا يكابر القول إذا امتنع، ولا يرد إذا اتسع، وسأعود فأقول إن شاء الله.

وحدثني عبد الله بن صالح العجلي عن ابن كناسة قال: ارتج على خالد في خطبته فقال: أيها الناس إن الكلام يجيء أحياناً ويذهب أحياناً، فينطلق اللسان إذا أتى ويعجز إذا أبى، ولم يقصر بنا عن القول عي، ولا عرض لنا دون بلوغ الإرادة إفحام، وللجواد كبوة، وللصارم نبوة، وسنعود فنقول إن شاء الله.
حدثني عمرو بن محمد الناقد وغيره قالوا: ثنا أبو نعيم الفضل بن دكين عن رجل أخبره عن سفيان بن أبي عبد الله قال: سمعت خالداً يقول: اللهم العن علي بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم زوج فاطمة، وأبا الحسن والحسين، هل كنيت.
المدائني قال: صعد خالد المنبر فأرتج عليه فقال: إن الكلام يعرض أحياناً فيتيسر ويمتنع عند عزوبه، وأولى من عذر على النبوة من عرفت سهولته عليه. ثم نزل.
أبو عاصم النبيل عن عمر بن قيس انه سمع خالداً يقول حين أخذ سعيد بن جبير وطلق بن حبيب بمكة: كأنكم أنكرتم ما صنعت، والله لو كتب إلي أمير المؤمنين أن أنقضها حجراً حجراً لفعلت- يعني الكعبة-.
قالوا: وأمر خالد ببناء بيعة لأمه فكلم في ذلك فقال: نعم يبنونها فلعنهم الله إن كان دينها شراً من دينكم.
قالوا: وكلم في عامل له ضرب رجلاً، وسئل أن يقتص منه، فقال: أقتص من عامل؟ فوالله لئن اقتصصت منه لأقص من نفسي، ولئن اقتصصت من نفسي ليقصن أمير المؤمنين من نفسه، ولئن أقص أمير المؤمنين من نفسه ليقصن رسول الله صلى الله عليه وسلم من نفسه، ولئن أقص رسول الله من نفسه ليقصن هاه هاه- يريده تبارك وتعالى-.

ويقال إنه قال: أرسول أحدكم أكرم عليه أم خليفة؟. ويقال إن الحجاج قال ذلك.

حدثني عمر بن شبه عن أبي نعيم عن سفيان الثوري قال: كان أول سلطان خالد يقال له العرس.

المدائني قال: لحن خالد في خطبته فقال: إن تكونوا رجبيون فإنا رمضانيون، وكان يقول: اللهم أصلح عبدك وخليفتك هشام أمير المؤمنين.

وقال خالد للفرزدق وقد مدحه: ما بالك لم تقل في كما قلت في قوم سماهم من قريش وغيرهم؟ فقال: هات أنساباً كأنسابهم وشرفاً كشرفهم حتى أقول فيك كما قلت فيهم. فأراد السطوة به ثم كف عنه لكبر سنه.

قالوا: وكان عاصم ابن راعي الإبل أتى خالداً ومعه ابنان له فوصله، ومات أحد ابنيه فدخل على خالد فقال: أتيناك ثلاثة ونؤوب اثنين. قال: وما ذاك؟ قال: مات ابني. قال: ذاك ما لا أقدر على منعه. قال: فديته تدفعها إلي. قال: نعم. فدفع إليهدية فقال:

سننت من الموت الوداء ولم يكن	مقاديره يودى لحيٍّ مثيلها
فما سنّها من حميري متّوجٌ	ولا من معدٍّ حيث يلقى فضولها

وقال الكميت ليوسف بن عمر:

حلفت بربّ البيت ما أم خالدٍ	بأمك إذ أصواتنا الهال والهب
وإذ خالد يستطعم الماء قائماً	يرى الحرب والداعي إلى الموت ينعب

وهجاه زياد الأعجم فقال:

لعمرك ما أدري وإني لسائل	أمختونة من بظرها أم خالد
فإن تكن الموسى جرت فوق بظرها	فما ختنت إلا ومصّان قاعد

المدائني قال: لما أتى رسول هشام خالد بن عبد الله لتوليه العراق قال: رويداً يجف قميصي، فقال الرسول: انطلق أيها الرجل فإنك تدعى إلى قمص كثيرة.

حدثنا بكر بن الهيثم عن عبد الرزاق عن حماد بن سعيد الصنعاني عن زياد بن عبيد الله قال: أتيت الشام فبينا أنا على باب هشام إذ خرج رجل من عند هشام فقال: من أنت يا فتى؟ قلت: رجل من أهل اليمن، أنا زياد بن عبيد الله بن عبد الله الحارثي. فتبسم وقال: قم معي، ثم قال لي: قل لأصحابي– وأشار إليهم– : إن أمير المؤمنين ولاني وأمرني بالمسير ووكل بي من يزعجني، قلت: من أنت رحمك الله؟. قال: خالد بن عبد الله القسري. ثم قال: يعطى منديل ثيابي وبرذوني الأصفر، فأعطيت ذلك، وقال: إذا سمعت إني قد وليت العراق يوماً فالحق بي، فما أمسى بعسكر هشام أجود ثوباً ولا أكرم مركباً مني، و لم ألبث إلا يسيراً

حتى قيل: قد ولي هشام خالد بن عبد الله العراق فخرجت ووكلت العريف بقبض أرزاقي على أنها له إلى قدومي، وشخصت إلى العراق، فلما قدمت على خالد الكوفة وسلمت عليه أمر لي بدنانير وكسوة بقيمة ستمائة دينار.

وقال لي يوماً هل تكتب يا زياد؟ قلت: لا أنا أقرأ ولا أكتب. فضرب بيده على جبينه وقال: إنا لله، سقط تسعة أعشار ما كنت أريده بك وبقي لك واحد، واشترى غلاماً كاتباً حاسباً وبعث به إلي فعلمني الكتاب حتى قرأت قراءة جيدة وكتبت، فدفع إلي كتاباً من عامله، عامل الري فقرأته فسر بذلك وقال: قد وليتك عمله، فخرجت حتى قدمت الري، فأخذت عامل الخراج فأرسل إلي: إن أمير المؤمنين هشاماً لم يول قط عربياً الخراج، فتغطرست عليه، فقال: خذ مني ثلاثمائة ألف درهم وأمسك عني، وأقمت على علمي، ثم كتبت إلى خالد: إني قد اشتقت إلى الأمير فليرفعني إليه. فلما قدمت عليه ولاني شرطه.

قالوا: وكان خالد أقر الصقر بن عبد الله على شرطه أشهراً، وكان ابن هبيرة ولاه الشرط ثم عزله، واستعمل خالد على الكوفة عبد الملك الأزدي، من أهل فلسطين، ثم عزله، وولى رجلاً يقال له عبد الله بن عمرو من بجيلة، ثم عزله، واستعمل أخاه عاصم بن عمرو، وولى زياد بن عبيد الله بعد عدة عزلهم، فلم يزل عليها إلى أن ولي يوسف بن عمر العراق.

وقال بعضهم: كتب خالد بن عبد الله إلى أمه حين ولي العراق يدعوها إلى الإسلام ويسألها أن تقرب منه ليكون ذلك أقوى له على برها، فلما قرئ عليها كتابه دعت بداوة وقرطاس وقالت للرسول: اكتب: قد قرأت كتابك، فأما دعاؤك إياي إلى دينك فقد نصحت لي فيه بجهدك لأنك ارتضيت لي ما ارتضيت لنفسك، وديني لي ودينك لك.

وأما بري فلعمري إنك قادر عليه حيثما كنت، واعلم بأني قرأت في بعض الكتب أن الرجل إذا أتى كبيرة أسودثلث قلبه، وإذا أتى أخرى أسودثلثا قلبه، فإذا أتى الثالثة أسودقلبه كله، فأتى ما أتاه من قبيح وهو يراه حسناً، وأكبر من ذلك كله الدماء.

فلما جاءه كتابها يئس منها، فأرسل إليها بمال اتخذت به بيعة بالشام تدعى بيعة أم خالد.

وحدثني عبد الله بن صالح عن قوم من أهل الكوفة قالوا: اتخذ خالد طستاً في مسجد الكوفة ميضأة، وحفر لها قناة من الفرات، ثم أخذ بيد أسقف النصارى يمشي به في المسجد حتى وقف على الطست ثم قال للأسف: ادع لنا بالبركة، فوالله لدعاؤك أرجى عندي من دعاء علي بن أبي طالب.

قال: واتخذ كنيسة لأمه في قصر الإمارة، وكانت امتنعت من القدوم عليه فلم يزل بها حتى قدمت الكوفة، وأمر المؤذنين ألا يؤذنوا حتى يضرب النصارى بنواقيسهم.

وقال هشام ابن الكلبي والهيثم بن عدي: لما بنى خالد البيعة بالكوفة لأمه، كتب نصارى البصرة إلى من كلم أمه، فكتبت إليهأن يبني لهم بالبصرة بيعة، فكتب إلى بلال يأمره ببنائها فكتب بلال: إن أهل البصرة لا يقاروني على ذلك، فكتب إليه: ابنها لهم فلعنة الله عليهم إن كانوا شراً منهم ديناً، فبنى بيعة في اللبادين فقال الفرزدق.

بنى بيعة فيها الصليب لأمه وتهدم للبيعات فينا المساجد

وحفر خالد النهر المعروف بالمبارك فقال الفرزدق، ويقال الموج التغلبي:

كأنك بالمبارك بعد شهر تخوض غموره بقع الكلاب

كذبت خليفة الرحمن عنه وسوف يرى الكذوب جزا الثواب

وقال الفرزدق في شعر له:

أعطى خليفته بقوة خالد نهراً يفيض له على الأنهار

إن المبارك كاسمه يسقى به حرث السواد وناعم الجبار

وكأن دجلة حين أقبل مدّها ناب نمد له بحبل قطار

إن كان أجرى ماء دجلة خالدٌ فلطالما أعيت على الإجرار

يا دجل كنت عزيزة فيما مضى حتى أصابك خالد بصغار

وكتب خالد إلى هشام يستأمره في عمل منظرة على دجلة، فكتب إليههشام: لو كان هذا ممكناً لسبق الفرس إليه: فراجعه فكتب إليههشام: إن تيقنت أنها تتم فاعملها. فعملها فلم يلبث أن قطعها الماء فأغرمه هشام ما أنفق عليها.

وكان الفرزدق قال حين لم يثبه خالد على الشعر الذي قاله في المبارك:

أهلكت مال الله في غير حقه على نهرك المشؤوم غير المبارك

وتضرب أقواماً صحاحاً ظهورهم وتترك حق الله في ظهر مالك

أإنفاق مال الله في غير حقه وتركاً لحق المرملات الضرائك

يعني مالك بن المنذر بن الجارود.

حدثني أبو مسعود الكوفي قال: بنى خالد لأمه بيعة هي اليوم بسكة البريد بالكوفة، وكانت أمه نصرانية، فقال الفرزدق.

لعمري لئن كانت بجيلة زانها جرير لقد أخزى بجيلة خالد

بنى بيعةً فيها الصليب لأمه ولم تبن فينا إذ بناها المساجد

ويروى: وهّدم للبيعات فينا المساجد.

قالوا: وبنى خالد حوانيت أنشأها، وجعل سقوفها أزاجاً معقوداً بالآجر والجص وحفر خالد النهر المعروف بالجامع، واتخذ في القرية قصراً يعرف به.

قال الأصمعي وغيره: خرج خالد يوماً يتصيد فإذا هو بأعرابي على أتان له ومعه عجوز، فقال له خالد: ممن الرجل؟. قال: من أهل المآثر والحسب. قال: فأنت إذاً من مضر، فمن أيها؟ قال: من الطاعنين على الخيول، المعانقين في النزول. قال: فأنت إذاً من بني عامر، فمن أيها؟ قال: من الطالبين الثار، والمانعين الجار، قال: فأنت إذاً من بني كلاب، فمن أيها؟ قال: من بدرها وشمسها وليوثها في خيسها. قال: فأنت إذاً من بني الأحوص. قال: نعم. قال: فما أقدمك هذه البلاد؟. قال تتابع السنين وقلة الرافدين، قال: فمن أردت بهذا البلد؟. قال: أميركم هذا الذي ترفعه إمرته، وتضعه أسرته. قال: وما أردت منه إذ كان كذلك؟. قال: كثرة دراهمه لا كرم آبائه. قال: أفتوصلت إليهبشعر؟ قال: نعم. قال: فأنشدناه. فقال: يا أم جحش أنشديه. قالت: هيه كم تسومنا اليوم مدح اللئيم. قال: إنه لا بد منه. فأنشدت:

إليك ابن عبد الله للحمد جاوزت بنا البيد عيسٌ كالقسيّ عياهم

عليهنّ بيضٌ من ذؤابة عامرٍ حدتهم سنونٌ مجحفاتٌ مشائم

يزرن امرأً يعطي على الحمد ما له تهون عليه للثّناء الدراهم

فإن يعطنا شيئاً فهذا ثناؤنا وإن تكن الأخرى فما لك لائم

فقال خالد: ما أعجب أمرك، تقول فيه ما قلت ثم تمدحه بهذا الشعر، أفتعرفني؟ قال: لا. قال: أنا خالد وسأعطيك ولا أكافئك. فقال: يا أم جحش اصرفي وجه الأتان راجعةً. قال: إني مغنيك. قال: ما كنت لأسمع رجلاً مكروها ثم أرزؤه شيئاً. فقال خالد: بمثل صبر الشيخ أدرك آباؤه من الشرف ما أدركوا.

ويقال إن خالداً خرج ومعه بعض ولد المغيرة، وبعض ولد جرير بن عبد الله، فرأى هذا الأعرابي وكان مسناً فقال له: ما تقول في المغيرة بن شعبة؟ قال: أعور زناء. قال: فما تقول في الأشعث؟ قال: لا يعتزى قومه ما بقي أحد من ولده. قال: فما تقول في خالد بن عبد الله؟. قال: ترفعه إمرته وتضعه أسرته. قال: فهذا من ولد المغيرة وهذا من ولد جرير وأنا خالد. فقال: يا أم جحش انصرفي عنهم. فقالوا له: صر معنا إلى الكوفة نرفدك ونصلك ولا نؤاخذك بقولك. فقال: ما كنت لأستمنح قوماً أسمعتهم كلاماً. وانصرف.

حدثنا عبد الله بن صالح قال: بلغنا أنه دخل على خالد بالكوفة شيخ كبير فمثل بين يديه فقال: شيخ كبير ضرير، حدته إليك سنة أبدت العظام وألزمت الغني الإعدام، ذهب ماله، ودعدت آباله، وغيرت أحواله، فإن رأى الأمير أن يجبره بفضله، وينعشه بسجله، ويرده إلى أهله. فقال خالد: ممن الرجل؟ وإياك أن تكذب فإن الكذب عار لازم وذل دائم. قال: رجل من بني تميم. قال: لا قرب الله دارك، ولا سهل محلك، ولا حيا مزارك. فقال الأعرابي: ما رأيت كاليوم منطقاً أقطع، ولا كلاماً أشنع، ولا رداً أوجع، لقد سمعت قولاً أمر من الحنظل، وأيبس من الجندل، وأحر من المرجل، ما أعطيت من قدرة ولا نعشت من عثرة، ولا أقلت من صرعة.

قال خالد: هل لك في أن أقارعك وإن قرعتك لم أعطك شيئاً، وإن قرعتني أعطيتك؟. فقارعه خالد فقرعه فقال: أقلني فأقاله. ثم قارعه فقرعه خالد فقال: أقلني فأقاله، ثم قارعه فقرع خالداً فقال: أقلني. قال: لا أقالني الله إذاً. قال: أعطوه بدرةً يدخلها في حر أمه، فقال الأعرابي: وأخرى في استها، فضحك وأمر له ببدرتين.

وأتت امرأة من بني قشير خالداً فمثلت بين يديه فقالت:

إليك يا بن السادة الأماجد ... يعمد في الحاجات كل عامد

أشبهت يا خالد خير والد ... أشبهت عبد الله في المحامد

فالناس بين صادر ووارد ... مثل حجيج البيت نحو خالد

ليس طريف المجد مثل التالد

فقال لها خالد: من أنت؟. قالت: امرأة أكب عليها الزمان فلم يدع لها سبداً ولا لبداً ولا صافناً ولا ماهناً. فقيل لها: هل لك أن يتزوجك الأمير؟. قالت: والله لئن فقدت نشباً ما فقدت حسباً وما كنت لأتزوج دعياً، وإن كان مثرياً غنياً.

الهيثم بن عدي قال: ألقيت بين يدي خالد تراس فقال لمن عنده: اغمزوها أيها أصلب. فغمز رجل منهم يقال له عامر ترساً فضرط، فقال خالد: ما على رجل أمر رجلاً بأمر فأضرطه؟. قالوا: أربعون درهماً. فأمر له خالد بأربعين ألف درهم فقال شاعر من بني تميم:

أيضرط عامر من غمز ترس ... فيحبوه الأمير بها بدورا

فيا لك ضرطةً عادت بخيرٍ ... ويا لك ضرطةً أغنت فقيرا

فودّ القوم لو ضرطوا جميعاً ... فنالوا من عطيته عشيرا

أتقبل ضارطاً ألفاً بألفٍ فترخص أصلح الله الأميرا

فقال: خالد: ما سررنا بواحدة لما جاءتنا فما حاجتنا إلى ألف. أعطوه ألفي درهم. وقد قيل إن هذا كان عند بشر بن مروان، وهو الثبت.

وقال بعضهم:

أيقبض أربعين معاً ألوفاً لقد أعطي بضرطته كثيرا

وقال خالد حين أنشد قول الكميت:

إن الخلافة كائنٌ أوتادها بعد الوليد إلى ابن أم حكيم

يعني مسلمة بن هشام أبا شاكر، فقال خالد: أنا كافر بكل خليفة يكنى أبا شاكر.

وبلغ أبا شاكر قوله فحقده عليه، فلما مات أسد بن عبد الله أخو خالد كتب مسلمة إلى خالد كتاباً فيه شعر لابن نوفل، وكان معه، لحق به هارباً من خالد.

أراح من خالد وأهلكه رب أراح العباد من أسد

أما أبوه فكان مؤتشباً عبداً لئيماً لأعبدٍ قعد

يرى الزّناء والصّلب والخم ر والخنزير حلاً والغيّ كالرّشد

وأمه همّها وبغيتها همّ الإماء المواهن الشرّد

كافرةٌ بالنبيّ مؤمنةٌ بقسّها والصليب والعمد

فلما قرأ خالد الكتاب قال: يا عباد الله من رأى كهذه تعزية رجل عن أخيه.

المدائني قال: بصق خالد يوماً فقصر عن حيث أراد، فقام عنبسة بن سعيد بن العاص فأخذ بصاقه بمطرفه حتى اقتلعه، فقال خالد: لحسن والله ما صنع، ثلاث لا تعاب على الشريف: خدمته أميره وقيامه بنفسه، وخدمته ضيفه. ثم قال: ما مالك يا أبا خالد؟ فقال: وهل تركت لي دار أبي بالكوفة وواسط مالاً. فقال خالد: والله لعلالتنا أمثل من علالتك، قد أمرنا لك في دارك بواسط بمائة ألف درهم وفي دارك بالكوفة بخمسين ألفاً.

المدائني وعبد الله بن صالح قالا: قال خالد بن عبد الله يعرض بعنبة بن عمر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام المخزومي، وكان عنبة يستدين: إن الرجل لا يزال يستدين في ماله حتى إذا انفده استدان في دينه. فقال عنبة: إن الرجل يكون ماله أكثر من مروءته فيبقى له ماله، وتكون مروءته أكثر من ماله فيفنى ماله وتبقى له مروءته، فقال خالد: صدقت وإنك لمنهم.

قال عبد الله بن صالح: أراد عبد الرحمن بن عنبسة بناء داره بظاهر الكوفة، فركب معه خالد بن عبد الله

القسري ومع خالد: العريان بن الهيثم، وهو يومئذ على شرطة خالد فجعل خالد يطوف ويقول: قدم الحبل أيها الغلام، فيقول العريان: أنشدك الله أن تضيق على أحيائنا وأمواتنا. فقال عبد الرحمن بن عنبسة: اسكت فوالله ما أنطقك إلا السيف الذي قلدناك. فقال العريان: بل سيف عمي الذي أخرج به أباك حتى ألحقه بالمدينة قال: أما والله لأبشرنك بشر الأديم، فقال: شفرتك أكل من ذاك.

فقام إسماعيلبن واسط البجلي فقال: يا عريان، أترفع صوتك على صاحب الأمير؟ فقال: اسكت.

يا مالك بن مالك بن سيف ذميم يجهل حق الضيف

سلح حباري سلحت في صيف

وتكلم عبد الله بن عياش فقال له العريان: إنما قيمة همدان كلها رغيف. فقال ابن عياش: اسكت فإنما تشبع النخع في كل أضحى، وسار خالد وبنى عبد الرحمن داره.

حدثني عمر بن شبة، حدثنا ابو عاصم النبيل، حدثني نصر بن أشرس الباهلي قال: دخل العريان على القسري فقال: مكرمة لم تسبق إليها. قال: وما هي؟ قال: تمنع الموالي من أن يشربوا في عساس الخلنج، وأن يتكلموا بالعربية، وأن يشربوا لبن اللقاح. فقال جبلة بن عبد الرحمن: أما الخلنج فإنا غرسناه في أرضنا رطباً ونجرناه يابساً فنحن أولى به، وأما ألبان العرب فإن لنا في البان البخاتي غنىً عنه، وأما العربية فقد صدق هم أولى بها، ولكن ليدعوا الخز، وركوب البراذين، وأكل الشبارقات، وأما الكلام فلن نتكلم إلا بالزنجية.

وقال يحيى بن نوفل للعريان:

أعريان ما يدري امرؤ سيل عنكم أمن مذحج تدعون أم لإياد

فإن قلتم من مذحجٍ إنّ مذحجاً لبيض الوجوه غير حر جعاد

وأنتم صغار الهام سودٌ كأنما وجوهكم مطلية برماد

وقال أيضاً :

سمّتك أمك عرياناً وقد صدقت عريّت من صالح الأخلاق والدين

زعمت أنك عدلٌ في إمارتكم وأنت أسرق من ذئب السراحين

وقال أيضاً :

هل أنت يا عريان ويحك مخبري بأبيك دون الهيثم بن الأسود

وله فيه شعر أيضاً . فحلف العريان ليضربنه حتى يسلح من سوط أو أكثر، فلم يزل يحتال له حتى أتي به، وقد كان صار إلى مسلمة بن هشام، وبلغ ابن نوفل يمينه فضربه فجعل يقول: قد فعلت، فقال العريان: لا والله أو يفضح بها، فافتضح فقال: قد خريت أو قال قد سلحت فقال العريان:

محا السيف ما قال ابن دارة أجمعا

وقال العريان:

تيمّم حميراً واترك ثقيفا	فهم جلدوك يوم الدار حدّا
فلما أن جلدت وكنت فسلاً	سلحت ولم تجد من ذاك بدّا

قالوا: وأرسل بلال عون بن عبيد وآخر من أصحابه إلى هنادة بنت عيينة بن أسماء بن خارجة يخطبانها فقالت: والله ما كنت لأتزوج رجلاً أنتما خدناه وأليفاه من هذا المصر.

وهجا ابن نوفل خالداً بصحبته عون هذا فقال:

ولو كنت عونياً لأدنيت مجلسي	إليك أخا قيسٍ ولكنني فحل
رأيتك تدنى ناشئاً ذا عجيزةٍ	يحجر عينيه وحاجبه الكحل
فوالله ما أدري إذا ما خلوتما	وأرخيت الأستار أيّكما البعل
أأنت الذي يعلو عليك إذا خلا	بك الأقمر المولى أم انت الذي تعلو

وقال ابن نوفل في خالد:

ألا أيهذا الذي نفسه	إلى كل منكرةٍ تائقه
رضيت من العيش والعالمي	ن بعون اليفا وبالرائقة
بضخم المآكم في كمه	دنيء مودّته مائقه
وكفاك كف تحوز العطاء	وكفٌ لأرزاقنا سارقه

وقال ابن نوفل:

ونبّئت عوناً وتبّاً له	ونبئت عن خدنه خالد
بأنهما عند وقت العشاء	يبيتان في نمطٍ واحد
ويغتبقان الشراب الذي	يحلّ به الجّلد للجالد
شراباً يوافق شرب اليهود	ويكره للناسك العابد

قالوا: وبعث خالد محمد بن عبد الرحمن بن اسعد بن زرارة الأنصاري إلى إسماعيلبن جرير بن عبد الله يخطب إليهابنته أمإسحاق بنت اسماعيل، فقال: أبلغ الأمير السلام واعلمه أن عمه جريراً أوصى ألا تخرج واحدة من بناته إلا إلى رجل من قريش وهو أحق من لم يثرب وصية عمه، و لم يحاول نقضها مع أنا أملناه لعيالنا وأعقابنا، فوالله ما كان عنده ما ظننا به ما سهل في أذن ولا رفع من قدر، فلما أتت خالداً رسالته أمسك. وبلغ الخبر ابن نوفل فقال:

لعمري لقد أصبحت حاولت خطةً ممنّعةً والدهر يقذف بالعجب

أتخطب جهلاً إن وليت إمارةً بنات جريرٍ في المكارم والحسب

وأنت دعيٌّ ليس يعرف أصله منوط بقسر كالعلاقة في الحقب

فردّك ردّ العبد إذ جئت خاطباً وهل ينكح الأحرار عبداً إذا خطب

في أبيات. وقال أيضاً :

أخالد لا جزاك الله خيراً وأيرٌ في حر امّك من أمير

تمنى الفخر في أولاد قسرٍ كأنك من سراة بني جرير

وكنت لدى المغيرة عبد سوءٍ تبول من المخافة للزبير

وقد قلت أطعموني الماء جبناً ولؤماً إذ خريت على السرير

وكان المغيرة بن سعيد

هذا ظهر أيام خالد وكان يظهر التشيع لآل علي فروي عن جعفر بن محمد أن المغيرة بن سعيد كان يأتي محمد بن علي فيستفتيه ثم يمضي فيكذب عليه، فقتل بالكوفة، قتله خالد بن عبد الله القسري.

حدثنا محمد بن يزيد الرفاعي عن أبي بكر بن عياش عن عيسى بن المغيرة قال: كان الشعبي يقول للمغيرة بن سعيد مولى بجيلة: ما فعل الإمام؟ فيول: لا تهزأ به. فيقول: لست أهزأ به، إنما أهزأ بك.

ودخل المغيرة على عبد الله بن حسن بن حسن فقال: إنا نجد المهدي ابنك محمداً فأرنيه، فأراه إياه، فقال: هو هو.

حدثنا محمد بن الصباح البزار عن يحيى بن المتوكل عن كثير النواء قال: قال أبو جعفر: فعل الله بالمغيرة وبيان فإنهما كذابان علينا أهل البيت.

قالوا: وأتى المغيرة جعفر بن محمد بن علي بن الحسين فقال له: أقر بعلم الغيب حتى أجبي لك العراق.

فقال: أعوذ بالله. ثم أتى محمد بن علي بن الحسين فقال له مثل ذلك فزجره وشتمه.
حدثني الحسين بن علي بن الأسودعن يحيى بن آدم عن عبد الله بن إدريس عن جار له قال: سمعت مغيرة بن سعيد يقول: مات عثمان بن عفان وهو يعبد سبعة آلهة، فأخبر خالد بن عبد الله بذلك، فأرسل إليهفأخذه فاعترضته فقلت: في أي شيء أخذت؟ قال: لا أدري إلا أن يكون حميمات لأنبي.
قالوا: وكثر تبع مغيرة وتنبأ، وتنبأ بيان فخرج على خالد فقتله وصلبه فيقال إن خالداً أحرقهما. وقال خالد حين بلغه أمر المغيرة وبيان: اطعموني ماء. فقال ابن نوفل في ذلك ما قال. وقال مالك بن أسماء بن خارجة:

طال التجاوز من بيانٍ واقفاً ... ومن المغيرة فوق جسر العاشر
يا ليته قد سال جذعا نخلةٍ ... ببنيّ درٍّ وابن قيس الماصر

وقال الأصمعي وأبو عبيدة:

كان خالد على مكة

ولاه الوليد بن عبد الملك سنة خمس وتسعين فكان عليها حتى مات الوليد، وولي سليمان فأقره أشهراً ثمانية أو سبعة ثم تنازع الأعجم عبيد الله بن شيبة بن عثمان ومصعب بن شيبة بن جبير بن شيبة بن عثمان العبدريان، فكان هوى خالد مع مصعب، فكتب الأعجم إلى سليمان مع ابن ابنه محمد بن طلحة بن الأعجم يشكو تحامل خالد عليه، وعلى ولده، فكتب سليمان إلى خالد انه لا سبيل لك على الأعجم وولده، فقدم طلحة بالكتاب على خالد وهو بفخ مستنقع في ماء، فلما رآه قال: صيدك إن لم تحرمه، ثم ضربه مائة سوط، وقال أبو عبيدة: ضرب الأعجم نفسه فخرج بنفسه وثيابه التي ضرب فيها فألقاها بين يدي سليمان، وقال: إنه لما قرأ كتابك ضربني، فكتب سليمان إلى داود بن طلحة بن هدم الحضرمي، وكان عامله على قضاء مكة، بولايته على مكة وبقطع يد خالد. فكلم يزيد بن المهلب سليمان، وكان حاضراً، فقال: إن كان ضربه قبل أن يقرأ كتابك ضرب فكتب سليمان: إن كان ضربه بعد قراءته كتابي فاقطع يده، وإن كان ضربه قبل قراءته فاضربه مائة سوط كما ضربه، فقدم بالكتاب عشية عرفة وخالد واقف بالناس، فدفع الكتاب إلى داود الحضرمي، فقرأه وأمر بخالد فنحي عن مقامه، ووقف بهم داود.
فلما انقضى الموسم وخالد محبوس قعد له وللأعجم، فادعى أنه ضربه بعد قراءته الكتاب فخاف خالد على يده أن تقطع فجعل يصيح: نشدت الله رجلاً شهد ضربي إياه قبل أن اقرأ الكتاب إلا قام بشهادته، فقام داود بن علي بن عبد الله بن العباس، وكان على السقاية يومئذ فشهد له بذلك، وشهد له عبد

الأعلى بن عبد الله بن عبد الله بن عامر بن كريز، فأمر داود بن طلحة بجلد خالد فضرب مائة سوط، فجزع جزعاً شديداً وجعل يمد يده والفرزدق حاضر فقال: اضمم إليك جناحك يا بن النصرانية. فضم خالد يده فكان ذلك أهون للضرب عليه. فقال: والله ما أراد الفرزدق نصيحتي.
وقال الفرزدق:

سلوا خالداً لا قدس الله خالداً   متى وليت قسرٌ قريشاً بدينها

في أبيات قد ذكرناها.
ويقال إن خالداً أمر الأعجم بفتح البيت فأبى ذلك عليه فكان ذلك في نفسه على الأعجم حتى ضربه به، وسمي الأعجم لرتة كانت في لسانه.

وقالت أم الضحاك النضرية من بني نضر بن معاوية:

لعمري لقد باع الفرزدق عرضه   بخسفٍ وصلّى عرضه حامي الجمر
وكيف يسامي خالداً ويسبّه   خميصٌ من التقوى بطين من الخمر

فلم يزل خالد محبوساً بمكة حتى حج سليمان سنة سبع وتسعين فكلمه فيه المفضل بن المهلب، فقال له سليمان: يا أبا عثمان، أطت بك الرحم ولا رحم بينكما، إنه قبحه الله قد جرعني غيظاً، قال: فليهب ذلك أمير المؤمنين لي. قال: قد فعلت وأيم الله، ليخرجن إلى الشام راجلاً، فمشى خالد إلى الشام وشكر ليزيد والمفضل ما كان منهما، فأجاز عبد الرحمن بن يزيد حين ولي العراق بمائة ألف.
وكتب هشام إليهيأمره أن يستنفر الناس إلى الغزو مع الجراح بن عبد الله، فقدم عليه ناس من آل المهلب فردهم و لم يعزهم إلا عثمان بن المفضل فإنه وصله وأغزاه، وقال: لولا مخافة ألا يحتملها لي أمير المؤمنين لعقدت له على البصرة.
وقالوا:

كان أسد بن عبد الله

على خراسان من قبل أخيه، وكان شديد الصعبية لا يملك نفسه، فأخبر عن نصر بن سيار، ومنصور بن أبي الخرقاء السلمي، والبختري بن مجاهد مولى بكر بن وائل، وعبد الرحمن بن نعيم وسورة بن الحر أنهم يصغرونه ويقولون أمير، فدعا بهم وضربهم في جوانب مجلسه، وحلق رؤوسهم ولحاهم، وأرسل بهم إلى خالد، فلما أتي بهم خالد سب أسداً أخاه حين لم يبعث برؤوسهم وقال: أشبه أمه. وكانت من عرينة، ثم

أمر بهم خالد فحبسوا، ثم أمر ابنه يزيد أن يكلمه فيهم ليشرفه بذلك فكلمه فأخرجهم وأجازهم وخيرهم أين يترلون، فاختاروا أن يردهم إلى خراسان، إلا نصر بن سيار، فإنه قدم البصرة فابتنى مسجداً بحضرة بني يشكر، وهو يعرف به، و لم يأت خراسان حتى عزل عنها أسد، وولي أشرس السلمي، فقال الفرزدق:

أخالد لو لا الله لم تعط طاعةً ... ولولا بني مروان لم توثقوا نصرا

إذاً لوجدتم دون شد وثاقه ... بني الموت لا كشف اللقاء ولا ضجرا

مصاليت أبطالاً إذا الحرب شمرت ... أمرّوا بأطراف القنا مرراً شزرا

في أبيات.

قالوا: وبعث خالد إلى هشام بمال، وبعث إلى علي بن عبد الله، ومحمداً ابنه بمال، وكان يتعهدهما بصلته.

حدثني عبد الله بن صالح المقرئ عن ابن كناسة وغيره قالوا: كتب خالد إلى مالك بن المنذر أن خذ الفرزدق فاحبسه، وكان يحقد عليه أشياء، وأظهر أنه إنما حبسه لأنه هجا نهر هشام، فأمر مالك أيوب بن عيسى الضبي، فاحتال له حتى أخذه. وكانت ضبة أخوال الفرزدق فهجا أيوب بشعر فيه:

ستأتي ابن زبّ الخنفساء قصيدة ... يكون له مني عذابا يباشره

متتّ له بالرحم بيني وبينه ... فألفيته مني بعيداً أواصره

وقلت امرؤٌ من آل ضبّة فاعتزى ... إلى غيرهم جلد استه ومناخره

فلو كنت ضبّياً عرفت قرابتي ... ولكنّ زنجياً غليظاً مشافره

فلما ورد بالفرزدق على مالك أمر أن يوقر حديداً ويجلس فقال، وكان يصلي قاعداً:

خذا بيديّ فارفعاني إليكما ... لعلّي أصلّي قائماً غير قاعد

لئن قارب القسريّ خطوي لطالما ... تناولت أطراف الهموم الأباعد

بمأمومة الأعضاد خوص من السّرى ... خفاف الأداوي ناقصات المزاود

وقال أبو عبيدة: أخبرني أعين بن لبطة بن الفرزدق عن أبيه قال: كنت آتي مالك بن المنذر لأنشده شعر أبي فأحجب، ويرسل إلي: إن أمر أبيك إلى غيري، فالتمسوا له وجهاً سواي. فكتب الفرزدق مع ابن أخ له، ومعي إلى هشام بشعر يقول فيه:

بعثت إليك ابني يا خير من مشى ... ويا خير مطلوب إليهلخائف

فلو كنت أخشى خالداً أن يروعني ... لطرت بوافٍ ريشه غير جاذف

كما طرت من مصري زياد وإنه ... لتصرف لي أنيابه بالمتالف

ألم يك منكم آل مروان منعم — عليّ بنعمى بادئٌ ثم عاطف

ألم يكفني مروان لما أتيته — زياداً وردّ النفس بين الخوالف

عجبت لقومي إن رأوني تضرعوا — وإن غبت كانوا بين واشٍ وقاذف

وقال لسعيد بن الوليد الأبرش الكلبي:

إلى الأبرش الكلبي أسندت حاجةً — تواكلها حيا تميم ووائل

على حين إن زلّت بي النعل زلّةً — وأخلف ظني كل حافٍ وناعل

فدونكها يا بن الوليد فقم بها — قيام امرئ في قومه غير حامل

فإنك من قوم كرام أعزة — إذا عضّ يوماً شره بالكواهل

فكلم فيه هشاماً، فكتب إلى خالد بتخلية سبيل الفرزدق، فقال الفرزدق:

لقد وثب الكلبي وثبة ماجد — إلى خير خلق الله نفساً وعنصرا

أبى حلف كلب في تميم وعقدها — لما سنّت الآباء أن يتغيرا

ويقال إن هشام بن عبد الملك أنفذ كتابه إلى خالد مع جرير بن عطية، فلما قدم عليه أنشده جرير:

لقد كان داء بالعراق فمالقوا — طبيباً شفى أدواءهم غير خالد

سقاهم برفقٍ خالط اليمن والتّقى — وسيرة مهديٍّ إلى الحق قاصد

فهل لك في عانٍ وليس بشاكرٍ — فتنقذه من طول عض الحدائد

يعود وكان الخبث منه سجية — وإن قال إني معتب غير عائد

بني مالك إن الفرزدق لم يزل — كسوباً لعار المخزيات الخوالد

ويقال: كان الرسول غير جرير.

ويقال: وفد عمارة بن عقيل بن بلال بن جرير في أمر الفرزدق إلى هشام حتى أخ كتاباً بإطلاقه فقال الفرزدق: أنا أسير قسري، في حبس عبدي، طليق كلبي. وقال:

لا فضل إلا فضل أمٍّ على ابنها — كفضل أبي الأشبال عند الفرزدق

تداركني من هوّة كان قعرها — ثمانين باعاً للطويل العشنّق

وكان أسد حين ورد كتاب هشام خليفة أخيه بواسط، وذلك أن خالداً كان غائباً عن واسط، يقال إنه حج في سنته. وقال في أسد:

وكم لأبي الأشبال من فضل نعمة | تعدّ وأيدٍ أطلقتني سعودها
فأصبحت أمشي فوق رجليّ قائماً | عليها وقد كانت طويلاً قعودها
وكم يا بن عبد الله من فضل نعمة | بكفّيك عندي لم يغيّب شهودها

في أبيات.

حدثنا الرفاعي عن عمه عن عبد الله بن عياش الهمداني، والمجالد بن سعيد عن الشعبي قال: حضرت خالداً وقد أتي بقوم فأمر بضربهم فقلت: أصلح الله الأمير، إن أول من جعل السجن كان حليماً، فعليك بالتؤدة، وأياك والعجلة فإنك على فعل ما لم تفعل أقدر منك على رد ما فعلت، فأمر بحبسهم حتى يثبت في أمرهم. قال: أصبت أبا عمرو، وحبسهم.

وقال المدائني: هذا لعمر بن هبيرة.

حدثني حفص بن عمر العمري عن الهيثم قال: كان خالد يزوج أقاربه ويسوق عنهم المهر، فأراد أن يزوج أقاربه ويسوق عنهم المهر، فأراد أن يزوج بعضهم فذهبت عنه الخطبة فقال: إني والله أروي في النكاح كذا وكذا خطبة، وما يحضرني الآن منها شيء، فاشهدوا إني قد زوجت فلانا فلانة، وأصدقتها عنه كذا.

المدائني عن غير واحد قالوا: كان خالد سخياً بالمال شحيحاً على الطعام، و لم يكن له طعام إلا لنفسه خاصة، لا يحضره أحد يأكل معه، فأكل معه رجل يوماً فأجاد الأكل فقال لحاجبه: لا يدخلن هذا علي.

وقال الهيثم بن عدي عن ابن عياش قال: كان مصقلة العبدي طويل اللحية عريضها، فدخل على خالد بن عبد الله فقال له: يا مصقلة، لو أخذت من لحيتك. فقال: أعزمة فأطيع أم مشورة فأقبل؟. قال: لا واحدة منهما. ثم قال: ما فعل ابنك الفضل؟ وكانت– أمه ابنة الغضبان بن القبعثري– فقال: هلك رحمه الله فقد كان آخذاً لأربع تاركاً لثلاث، كان آخذاً لقلوب الرجال إذا حدث، حسن الاستماع إذا حدث، حسن البشر إذا هو لقي، جميل القول إذا خولف، تاركاً لمداعبة الأحمق ومقارفة المآثم، وإيتان ما يعتذر منه.

قال الهيثم: وقال خالد بن عبد الله: إني لأحب قتل الرجل ماله عندي ذنب إلا استخفاف حاجبه بي وشدة حجابه لي.

وقال الأصمعي: قال خالد: كنت أطعم في الحطمة ستة وثلاثين ألفا في كل يوم تمراً وسويقاً.

قال أبو الحسن المدائني: إنما أطعم الأعراب في حطمة أصابتهم في كل يوم ثلاثين ألف إنسان خبزاً وسويقاً وتمراً، فقيل لأعرابي: لو أتيت خالداً فإنه يطعم الأعراب فأبى وقال:

يقول ابن حجاج تجهز ولا تمت | هزالاً بحرّان تعاوي ذئابها

فأقسم لا أبتاع رغفان خالدٍ　　بأرواح نجدٍ ما أقام ترابها

وقال الهيثم بن عدي: قال ابن عياش: كانت حطمة خالد، فجاءت قيس وتميم وأسد وكلب وبلي، فكان يطعمهم ثلاث أكلات: أكلة بلحم، وأكلة بعدس، وأكلة بلبن أو بخل وزيت، وكان يحسيهم السمن ويقول: لا تبدأوهم بالطعام فيموتوا فإن الأمعاء تضيق، ثم يحسون بعد السمن المرق، فأنفق عليهم تسعين ألف ألف درهم، وكتب إلى هشام: إني أنفقت على الأعراب من مالك ليكثر لك الدعاء وعليك الثناء ويجب لك الأجر.

فكتب إليههشام: يا بن أم خالد إياي والخدع، والله لا أحسبها لك أبداً. فقال جوانانبه ابن رأس البغل: لك عندي خمسة آلاف ألف درهم، وقال بعض الدهاقين: لك عندي عشرة آلاف ألف، وتبادر الدهاقين حتى حملوها عنه.

المدائني قال: دخل رجل على خالد بن عبد الله فقال: أصلح الله الأمير، أكلمك بهيبة الآمل أم بجرأة اليائس؟ قال: بهيبة الآمل، وقضى حوائجه.

حدثني أحمد بن الحارث عن المدائني عن عوانه وأبي إسماعيل الهمداني قالا: كفل ابن بيض الحنفي بهشيم بن صفوان، وجميل بن حمران بألف ألف، فمات هشيم فجلس ابن بيض فكتب إلى أبان بن الوليد:

مستكين بألف ألفٍ أسير　　هالك أو إخال إني مود

لو بعشرين أو ثلاثين حبسي　　كان حبسي بالهّينِ الموجود

فتذكرت من لروعات دهرٍ　　ذي بنات بيضٍ وحمرٍ وسود

من لها يا سعيد قال أبان　　فاغتنمها أبان يا بن الوليد

فأراد أبان أن يكلم خالداً فيه فوافاه، وقد جاءه كتاب منه فيه:

ألم تر أني على عيلتي　　تحمّلت للحين حملاً ثقيلا

هشيماً تحملت من شقوتي　　وثنّيت بعد هشيم جميلا

فأودى هشيم بما عنده　　فأورثني ذاك همّاً دخيلا

وما بي تفرق أيتامه　　وإن أصبحوا بعد عيش كلولا

ولكن بني الألى عن قليل　　يرون أباهم وشيكا قبيلا

أطعني فإني امرؤ ناصح　　وخذ من فزارة غيري كفيلا

عليك عيينة أو مالكاً	وقيساً تجده وقوراً حمولا
فخذهم جميعاً بما عندهم	فأهل القتيل يلون القتيلا
وإن عدت في مثلها بعده	وجئتك من عثرة مستقيلا
فمر بي عطاءً وأشياعه	ينوطون رجليّ حتى أبولا

يعني عطاء بن مقدم، كان على عذاب خالد بن عبد الله، واستخراجه.

وكان ابن هبيرة ولى هشيم بن صفوان الفزاري فارس، فلما ولي هشام وشى هشيم بابن هبيرة وزعم أنه اقتطع اثنا عشر ألف ألف درهم.

وأبان بن الوليد بن عبيد الله بن مالك البجلي.

قالوا: وكان أبان بن الوليد يجالس إبراهيم وابن شبرمه، فكان إبراهيم إذا نظر إليهقال: ويحه أي خارجي هو، فلما قدم خالد بن عبد الله الكوفة عرض على ابن شبرمه العمل فقال: لا حاجة لي فيه ولكن اجعلني من أعوانك وارفع عني النوبة والمكروه ففعل فكان في الديوان.

وقال المدائني: كان أبان كاتباً لإياس بن معاوية بن قرة المزني، وكان إياس يلي سوق واسط والحسبة، أجبره ابن هبيرة على أن ولاه ذلك وضربه أربعين سوطاً حتى تقلده، فكان أبان يحمل الدواة والقرطاس لإياس، فلما قدم خالد ولاه الشرطة فقال ابن نوفل:

وهذا أبان بنيّ الوليد	خطيباً إذا قام لم يحصر
أبعد الدواة وحمل الطروس	وبعد الكتاب على الدفتر
ظللت أميراً بأرض العراق	للهفي على البيدق الأعور

وحمل أبان الحربة يوماً، فجعل ينتظر خروج خالد ليحملها بين يديه، فقال له رجل: لو وضعت الحربة حتى يخرج الأمير أو دفعتها إلى من يمسكها، فقال: لوددت أن رجلاً أعطاني حربة أخرى أسير بها بين يديه.

وكتب هشام إلى خالد: إنك وليت شرطتك رجلاً حدثاً فلو وليتها ذا حنكة، ونقلت صاحبك إلى ما هو أجدى عليه منه، فقال خالد لأبان: قد جعل أمير المؤمنين أصلحه الله السبيل لي إلى ما أحب فيك، فولاه فارس وقال: كلها هنيئاً مريئاً، وولى شرطته العريان بن الهيثم بن الأسودالنخعي، فأتى علي بن زيد بن عبد الله بن أبي مليكة، واسم أبي مليكة زهير بن عبد الله بن جدعان أبان بن الوليد بفارس فوصله بخمسة عشر ألف درهم، ويقال بثلاثة عشر ألفاً فقال له: إن منيت بها على شيخ من قريش كانت إليها حاجة،

قال يا أبا الحسين منتك علينا في زيارتنا أعظم.

وقال ابن نوفل يهجو أبان بن الوليد:

أخالد وليت امرأً حدّ سارق — حكومة أهل المصر يا ضيعة الحكم

أليس أبان أمس بالري أرسلت — عليه سياط الجعفري بلا ظلم

فلا تضربنّ الدهر للخمر شارباً — فمن قبلهم أغلى بعاتقة الكرم

وقال ابن نوفل أيضاً :

ما سمعنا لابن الوليد أبان — باب دون عامر بن قداد

فكان أبان يقول: قولوا لابن نوفل ينتسب إلى أبوين من حمير، فأما أبواه من موالي ثقيف فمعروفان.

وكان ابن نوفل يزعم في أيام الحجاج أنه من ثقيف، فلما كانت أيام خالد قال: أنا من حمير، فقال أبو عطاء السندي:

يقول ابن نوفل فيما يقول — أنا ابن الكلاعيّ من حمير

ودار الكلاعي علويّة — ودار ابن نوفل في نفر

وللكميت في أبان شعر منه قوله:

لا واضعٌ عن مطيّ الحمد أرجله — يوماً ولا هو للعوراء منتدب

أحلامكم لسقام الجهل شافية — كما دماؤكم تشفي من الكلب

وأتى أبان بن الوليد جندل بن الراعي عبيد بن حصين النميري فقال له:

نفس عصام سوّدت عصاما

فأعرض عنه واستلقى فقال ابن نوفل:

رأيت أبا الوليد وفيه إحن — إذا ما المرء واجهه الكلاما

أقر لجندلٍ والقوم فوضى — علانية وشبّهه عصاما

ووقره لها جهلاً وأغضى — عليه العين فاستلقى وناما

ولما حبس يوسف بن عمر عمال خالد حبس أبان بن الوليد وعذبه فقال:

طال في الحبس مجلسي وثوائي — واصطباري للجهد واللأواء

كل يوم يعدى علي ولا ق — وة لي أو يراح بالعذراء

فإلى الله لا إلى الناس أشكو — ما أرى من شماتة الأعداء

ربّ إني كلّفت ما ليس عندي فعويلي إليك رب السماء
فلئن مت أو قتلت فمحم ود كريم الصنع في الأحياء
كم وكم منّة ستذكر إن م ت لديهم ومن يدٍ بيضاء
فاندبيني إن مت أم حصين للندى والتقى وبذل العطاء

المدائني وغيره قالوا: أتي خالد بن عبد الله برجل تنبأ بالكوفة وقال إنه قد أنزل علي قرآن فقال له خالد: ما قرآنك؟. قال: إنا أعطيناك القاهر، فصل لربك وجاهر، ولا تطع كل فاجر، مغتر بالله كافر. فأمر به خالد فضرب حتى أثخن، ثم أمر به فصلب، فقال له حمزة بن بيض الحنفي وهو يشد على الخشبة: إنا أعطيناك العمود، فأطل عليه الركود، وصل لربك على عود، وأنا ضامن ألا تعود. ولم يلبث أن مات.

قالوا: وأتى محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان خالداً يستمنحه فلم ير منه ما يحب فقال: أما المنافع فللهاشميين، وأما نحن فما حبوتنا منه إلا شتمه علياً على منبره. فبلغ ذلك خالداً فقال: إن أحب تناولنا له عثمان بشيء.

المدائني قال: كان عامة عمال خالد الدهاقين فقتل دهقان منهم بفارس، فأمر خالد بنفي العرب وعيالاتهم من السواد، فقال ابن نوفل:

أيقتل عامل بدرابجردٍ فتنفون العباد من السواد
لعلك أن ترى عما قليل عيالك يسلبون بكل واد

المدائني قال: خطب أخو خالد إسماعيلبن عبد الله عند أبي العباس، ويقال عند أبي الجهم بن عطية، أحد رجال الدولة، فذم عمال بني أمية والحجاج وابن هبيرة ويوسف بن عمر، ولم يذكر خالداً، فقام بعض من حضر فقال: جزاك الله من خطيب خيراً، ذكرت أهل بيت اللعنة وعمالهم وأحسنت في ذمهم، إلا أنك تركت خالداً، وهو ابن زوينية اجتمع في بطن أمه الخمر ولحم الختزير، وسلط أهل الذمة على المسلمات فعلقوهن بثديهن، وبنى البيع غير متحرج ولا مرتاب.

وقال ابن نوفل:

عليك أمير المؤمنين بخالدٍ وعماله إن كنت تطلب خالدا
بنى بيعة فيها الصليب لأمه وخرّب من بعد الصلاة المساجدا

وقال حمزة بن بيض بن يمن بن عبد الله بن شمر بن عمرو بن عبيد الله بن عمرو بن عبد العزيز بن سحيم بن مرة بن الدؤل بن حنيفة:

ليتني من بجيلة اللؤم حتى | يعزل العامل الذي بالعراق
وإذا عامل العراق تولى | عدت من أسرتي الكرام العتاق

وقال أبو نعيم الفضل بن دكين، ثنا الفضل بن الزبير قال: أمسى خالد بالصلاة يوماً فقام إليهشاب من كندة فقال: الصلاة أصلحك الله. فقال: لعنك الله، أو لسنا في الصلاة؟.

حدثني داود بن عبد الحميد عن مروان بن معاوية، حدثني عبيد الله بن الوليد قال: قلت لعطاء بن أبي رباح: ما تقول في صاحب صاحب هؤلاء فلم يكتب معهم شيئاً مما يدخل ويخرج؟ قال: من الرأس؟ قلت: خالد بن عبد الله. قال: أما تقرأ ما قال العبد الصالح: "رب بما أنعمت علي فلن أكون ظهيراً للمجرمين".

ومدح ابن بيض خالداً فقال:

وأبوك آدم كان عند وفاته | أوصاك وهو يجود بالحوباء
ببنيه أن ترعاهم فرعيتهم | وكفيت آدم عيلة الأبناء

أخبرني عبد الله بن صالح عن ابن كناسة أن خالد بن عبد الله كان يقول: أيها الناس عليكم بالمعروف فإن فاعل المعروف لا يعدم جوازيه، فمهما ضعف الناس عن أدائه قدر الله على جزائه.

وقال أيضاً : أيها الناس تنافسوا في المكارم فإنها أعظم المغانم واشتروا الحمد بالجود، ولا تكسبوا بالمطل ذماً.

وقال خالد: أيها الناس عليكم بالمعروف فإن المعروف لو كان رجلاً لرأيتموه حسناً بسناً ذا بشر ومروءة ولا تملوا النعم فتعود نقماً.

وقال: أيها الناس لو رأيتم البخل لرأيتموه مشوهاً قبيحاً تنفر عنه القلوب وتغض دونه الأبصار، ومن لم يطب حرثه لم يزك نبته.

حدثني محمد بن أنس الأسدي عن ابن كناسة قال: دخل الطرماح على خالد فقال: يا أبا نفر أنشدني، فقال: اجلس ثم أنشدك، فقال: لا إلا قائما وإلا فلا شيء لك عندنا فخرج وقال:

حراً أموت ولم يشنّي مطمعٌ | إني نقيّ بطائن الأطمار

وقال بعض قريش: إن أبا نفر لعظيم المروءة.

المدائني قال: لما أتى ابن الراعي خالداً فمات ابنه وأعطاه خالد ديته، قال أبو الجويرية العبدي:

وبدأة مجدٍ لم تكن فاقترحتها | إلى كل أفقٍ فاحتوتها القصائد
ضمنت ابن راعي الإبل أن حان يومه | وشقّ له قبرٌ بأرضك لاحد

خباء لمثوى زائر فوديته فدتك الأكفّ طلقها والجوامد

وقد كان مات الجود حتى نشرته وأذكيت نار الجود والجود خامد

فأعطاه ثمانية آلاف، وقال: أنت أشعر من ابن الراعي.

وقال الفرزدق:

وما الشمس ضوء المشرقين إذا بدت ولكن ضوء المشرقين بخالد

قالوا: وكان طارق مولى خالد ابن أخت سعيد بن راشد، وسعيد مولى النخع، وكان طارق يأخذ من كل سفينة ذات شراع أربعة دراهم، ومن كل مصعدة ثمانية دراهم، وكان متحاملاً على عبد الله بن عبد الرحمن بن سعيد بن عتاب بن أسيد، وابن لعنبسة بن سعيد. فشكواه إلى خالد وقالا: هو يضربنا في أرضين لنا. فقال خالد: أما سمعتما قول القائل:

أسجد لقرد السوء في زمانه وارفق به ما دام في سلطانه

وإن تلقّاك بقيروانه

قالا: بلى. قال: فأرضياه. فحملا عهدتي أرضيهما وأتيا طارقاً. فقال: ما حاجتكما؟ فقالا: كنا ننازعك فيما تأخذه منا، وقد أتيناك بعهدتي أرضينا فاقبضهما هنيئاً مريئاً. فقال: فعلتما ما أنتما أهله في شرفكما. ودعا بأشربة عنده على ضياع فقال: دونكما هذه العهد وعهدتيكما فدخلا على خالد بعد، فقال: أسجدتما للقرد؟ قالا: نعم وقد أحسن وأجمل.

حدثني أبو مسعود الكوفي عن ابن كناسة قال: كان بين عبد الرحمن بن عنبسة بن سعيد بن العاص وبين جعفر بن عمرو بن حريث مماظة ومعاتبة، فدخل جعفر بن عمرو على خالد، وعنده عبد الرحمن بن عنبسة، وعلى صدر خالد صبي يقبله ويلاعبه، فقال لعبد الرحمن وكان جالساً إلى جنبه وخالد لا يسمع: من هذا الصبي؟ قال: ابني. قال: أصلح الله الأمير، نح هذا الصبي عن صدرك فما رأيت أقذر منه وأنت تقبله، فقال خالد: أفي نفسك على أبي عبد الله موجدة أو شيء؟ قال: ومن أبو عبد الله؟ قال: أسد أخي. فقال: أصلح الله الأمير، ما عرفته ولكن هذا الفاسق خدعني وغرني وزعم أنه ابنه، فضحك خالد حتى فحص برجليه.

قالوا: وأتى خالداً رجل من ولد السليل الشيباني فقال: أصلح الله الأمير إني حملت عشر ديات وأتيتك معتمداً، قال: فاحتكم. قال: نصفها. قال: قد فعلت. فخرج فلامه أصحابه وقالوا: حكمك الأمير أفلا حكمت بها كلها، وسمع خالد ذرواً من قولهم فقال: ما يقولون؟ فأخبره فقال: ردوه، فلما ردوه قال: قد

أقلتك، وأمر له بالعشر كلها. قال: فانصرف بألف بعير.

المدائني قال: دخل خالد بن عبد الله على عمر بن عبد العزيز في أيام خلافته فقال له: ما زينتك الخلافة، ولكنك زينتها، ولا شرفتك ولكنك شرفتها وإنك لكما قال الشاعر:

وتزيدين طيّب الطّيب طيبا إن تمسّ	يه أين مثلك أينا
وإذا الدّر زان حسن وجوهٍ	كان للدر حسن وجهك زينا

فقال عمر: أعطي هذا الرجل مقولاً و لم يعط عقلاً.

حدثني العمري عن الهيثم بن عدي قال: كان فروخ أبو المثنى على ضياع هشام متقبلاً بها، وكان قد تقبل بنهر الرمان، فقيل له فروخ الرماني فثقل على خالد فقال لحسان النبطي: ويحك اخرج إلى أمير المؤمنين فزد على فروخ، فزاد عليه ألف ألف، فثقل حسان على خالد فجعل يضربه، فقال له: لا تفسدني فإني صنيعتك ولا تضرن بي، فأبى، فشخص حسان فقال لخادم من خدم هشام: إن تكلمت بكلمة أقولها لك حتى يسمعها أمير المؤمنين فلك عندي ألف دينار. قال: فعجلها، ففعل. فقال: بك صبياً من ولد هشام، فإذا بكى فقل: تبكي كأنك من ولد خالد القسري، غلته ثلاثة عشر ألف ألف لا يؤدي منها شيئاً وهو يأكل العراق، فسمعها هشام، ودعا بحسان فسأله عما سمع فقال: لعمري إن غلته هذا المال. فكانت في نفس هشام حتى عزله.

وكان خالد يقول لابنه يزيد: ما أنت بدون مسلمة بن هشام، وإنك لتفخر على الناس بثلاث لا يفخر أحد بمثلها: سكرت دجلة و لم يتكلف ذلك أحد، ولي سقاية بمكة، وولاية العراق.

المدائني قال: كان خالد كثيراً مما يذكر هشاماً فيقول: ابن الحمقاء الورهاء، وكانت أم هشام كذلك فكتب مرة إلى هشام كتاباً غاظه فيه فكتب إليههشام: بلغني أنك تقول ما ولاية العراق بشرف لي، فيا بن اللخناء كيف لا تكون إمرة العراق شرفاً لك، وأنت من بجيلة، القليلة الذليلة، أما والله إني لأظن أول من يأتيك صقر من قريش يشد يدك إلى عنقك.

قالوا: وكتب هشام إلى خالد: بلغني أنك تقول أنا خالد بن عبد الله بن يزيد بن أسد بن كرز، ووالله ما أنا بأشرف الخمسة، أما والله لأردنك إلى بغلتك وطيلسانك القيروي.

وبلغ هشام أن خالد يقول لابنه: كيف أنت إذا احتاج إليك ولد هشام، فأغضب ذلك هشاماً.

وأتى رجل هشاماً فسأله عن خالد فقال: لقد سمعته يقول فيك قولاً عظيماً فبحثه عنه فقال: هو أفظع من أن يواجه به أمير المؤمنين فقال: أقال لك الأحول؟ قال: أعظم من ذلك. و لم يزل يبلغ هشاماً عنه ما يكره حتى تغير رأيه فيه، وكان أثيراً عنده، والذي كان الرجل سمعه يقول ابن الورهاء.

وأتى دهقان خالداً فقال له: إن غلة ابنك اليوم عشرة آلاف ألف ولا آمن من أن يبلغ ذلك أمير المؤمنين فيستكثره، وإن الناس يحبون جسدك، وأنا أحب روحك وجسدك، فقال: ويحك دع ابني فلربما طلب ألف درهم فلم يقدر عليها.

قالوا: وأتت امرأة خالداً فقالت: أصلح الله الأمير، إني امرأة مسلمة وإن عاملك فلان وثب علي وهو مجوسي فأكرهني على الفجور، وغصبني نفسي، فقال: كيف وجدت قلفته؟ فكتب حسان بذلك إلى هشام، فكان ذلك مما دعاه إلى عزل خالد، وولاية يوسف بن عمر.

وقال خالد: أن أكرم الناس عفواً من عفا عن ذنب أخيه بعد قدرة، ومن لم يطب حرثه لم يزك نبته، والفروع على مغارسها تنمى، وعلى أصولها تسمو

نشأ الصغير على أخلاق والده | إن العروق عليها ينبت الشجر

قالوا: أخفى هشام عزل خالد بن عبد الله، وكان:

يوسف بن عمر الثقفي

عامله على اليمن، فكتب هشام إليهبخطه يأمره أن يقبل في ثلاثين من أصحابه إلى الكوفة، وبعث بالكتاب بعهده على العراق، ووجه بذلك شعوذياً. ويقال بل كان عنده رسول ليوسف بعثه في حوائج له فحمله العهد، وكتب الولاية والتسليم، فخرج يوسف حتى صار إلى الكوفة في سبعة عشر يوماً فعرس قريباً منها، وقد ختن طارق خليفة خالد على الخراج ولده، فأهدي له ألف عتيق وألف وصيفة سوى المال والثياب وغير ذلك، فجاء رجل إلى طارق فقال له: إني رأيت قوماً أنكرتهم وزعموا أنهم سفار.

وصار يوسف إلى دور ثقيف فأمر بعض الثقفيين أن يجمع له من قدر عليه من مضر ففعل، فدخل يوسف المسجد مع الفجر فأمر المؤذن بالإقامة، فقال: حتى يأتي الإمام. فانتهره فأقام، وتقدم يوسف فصلى وقرأ: "إذا وقعت الواقعة" و "سأل سائل"، ثم أرسل إلى خالد وطارق وأصحابهما فأخذوا، وإن القدور لتغلي.

وقال أبو عبيدة: حبس يوسف خالداً فصالحه أبان بن الوليد عنه وعن أصحابه على تسعة آلاف ألف درهم، ثم ندم يوسف وقيل له: لو لم تقبل هذا المال لأخذت منه مائة ألف ألف درهم، فقال: ما كنت لأرجع عن شيء رهنت به لساني.

وأخبر أصحاب خالد خالداً فقال: أسأتم حين أعطيتموه هذا المال في أول وهلة. ما يؤمنني أن يأخذها ثم يرجع عليكم فارجعوا إليه. فاتوه فقالوا: إنا أخبرنا خالداً بما فارقناك عليه من المال، فذكر أنه ليس عنده، فقال: انتم أعلم وصاحبكم فأما أنا فلا أرجع عليكم وإن رجعتم لم أمنعكم، قالوا: فإنا قد رجعنا، قال:

فوالله لا ارضى بتسعة آلاف ألف ومثلها ومثلها، فذكر ثلاثين ألف ألف ويقال مائة ألف ألف.
وقال الكميت يمدح يوسف ويهجو خالداً بقصيدة طويلة منها:

لأجري من الآلاء آل أبي عمر اللائي لها كنت أضرب
أناس يبارون الرياح فلا القرى بكيّ ولا الجاني لديهم مؤنّب
يظل اليتامى الشعث حول جفاتهم عيالاً عليهم والضريك المعصّب
فداهم من الأقوام أولاد خالد ومعشره أيام يرجّى ويرهب
فأنت لدين الله فينا وطيده وأنت على الأحساب فينا المذبّب
خرجت لهم تمشي البراح ولم يكن ليحصنه منه الرتاج المضبّب

حدثنا العمري عن ابن عياش قال: أجمع هشام على عزل خالد لأنه اتخذ بالعراق أموالاً، وحفر أنهاراً حتى بلغت غلته عشرين ألف ألف درهم، منها نهر خالد كان يغل خمسة آلاف ألف درهم، وباجوا، وبارمانا والجامع، والمبارك، ولوبة، وسابور، والصلح، وأمواله بالبصرة والبحرين، وكان يقول كثيراً: ابني هذا مظلوم، ما تحت قدمي من شيء إلا وهو له، لأن عمر جعل لبجيلة ربع السواد، ثم صالحهم عنه.
قال الهيثم: فحدثني الحسين بن عمارة عن العريان بن الهيثم قال: قلت لخالد يوماً: إن الناس قد رمقوك بأبصارهم وحدجوك، وهي قريش وليس بينك وبينهم آل، وهم يجدون منك بداً، وأنت لا تجد منهم بداً، فأنشدك الله لما كتبت إلى هشام تخبره خبر أموالك، وتعرض عليه ما أحب منها، فما أقدرك على اتخاذ مثلها ولا يستفسدك، وإن كان حريصاً، وأعطه طائعاً خير من أن تعطيه كارهاً، وله عندك اليد الجليلة التي تحفظ ولا تنسى، وإنما نلت ما نلت في سلطانه، فإنه إن رفع عليك رافع، وسعى بك ساع لم آمن عليك أن يحوزها.
قال: ما أنت بمتهم، ولا يكون ذاك أبداً. فقال: أطعني واجعلني رسولك إليهفوالله لا يحل عقدة إلا شددها، ولا يشد عقدة إلا حللتها، قال: إني والله ما أعطي على الذل، فكان العريان يقول: كأنك بها قد أخذت منه على الذل والصغار.

حدثنا العمري عن الهيثم عن ابن عياش أن بلال بن أبي بردة كتب إلى خالد، وهو عامله بالبصرة، حين بلغه تعتب هشام على خالد، يستأذنه في القدوم عليه، فأذن له فسار إلى الكوفة في يوم وليلة على الجمازات فقال له خالد: يا أبا عمرو لقد أتعبت نفسك فقال: لأنه بلغني تعتب أمير المؤمنين عليك، وما بغاك به ولده، وأهل بيته، فإن رأيت أن تعرض عليه بعض أموالنا ليأخذ من ذلك ما أحب فافعل، فإن

أنفسنا طيبة بما نعطيه، فقال: يا بلال إني والله ما أعطي شيئاً قسراً، فقال: أتكلم أيها الأمير؟ قال: نعم، قال: يقول لك هشام وليتك ولا شيء لك فلم تر على نفسك من الحق أن تعرض علي بعض ما صار إليك، وأخاف أن يزين له حسان النبطي ما لا تستطيع تلافيه ولا تداركه، فاغتنم هذه الفترة. قال: أنظر في ذلك فانصرف راشداً، فانصرف بلال وهو يقول: كأنكم بهذا الرجل وقد بعث إليهرجل بعيد الرحم، سخيف الدين، بغيض النفس، قليل الحياء، فأخذه بالإحن والترات، فكان كما قال.

وقال ابن عياش: كان بلال اتخذ داره بالكوفة، وإنما استأذن لينظر إلى داره، فما نزلها إلا مقيداً، ثم جعلت سجناً إلى اليوم.

قال ابن عياش: كان خالد يخطب فيقول: تزعمون أني أغلي أسعاركم، فعلى من يغليها لعنة الله، وكان هشام بن عبد الملك كتب إلى خالد ألا يباعن من الغلات شيء حتى تباع غلة ولد أمير المؤمنين، فبلغت الكيلجة درهما.

قالوا: ولما غلب هشام، وقل صبره على ما يبلغه عن خالد، أزمع عزله، وكتم ذلك سالماً كاتبه، لصداقة كانت بينه وبين خالد، فكتب إلى يوسف بن عمر بخطه بولاية العراق، وإلى خالد بالتسليم.

المدائني عن بشر بن عيسى عن أبيه عن الربيع بن شابور مولى بني الحريش قال: أتى هشاماً كتاب خالد، وقدم عليه في ذلك اليوم رسول ليوسف بن عمر، فقرأ هشام كتاب خالد، فلما صلى المغرب نهض فصلى ركعتين ثم رفع يده يدعو، فقلت في نفسي: إنه ليستخير الله في عزل خالد، فكتب عهد يوسف من ليلته مع الرسول، والرسول لا يدري ما معه.

قال الهيثم: فسمعت أشرس مولى بني أسد، وكان تاجراً ليوسف يحدث الحسن بن عمارة قال: أتانا كتاب هشام فقرأه يوسف فكتمنا ما فيه، وقال: أريد العمرة، فخرج وأنا معه ودكين بن شجرة العاملي، وأخوه قرواش، وحجاج النصري، وكانوا أصحاب محمد بن يوسف الذين يؤانسهم، قال: فخرجنا واستخلف ابنه الصلت على اليمن، فما كلم أحداً منا بكلمة حتى انتهى إلى العذيب، فأناخ وقال: يا أشرس، أين دليلك؟. قلت؛ هوذا، فسأله عن الطريق فقال: هذه طريق المدينة، وهذه طريق العراق. فقلت: والله ما هي بأيام عمرة، فلم يتكلم حتى أناخ بين الحيرة والكوفة في بعض الليل، ثم استلقى على ظهره، ووضع إحدى رجليه على الأخرى وقال:

فما لبثنا العيس أن قذفت بنا — نوى غربة والعهد غير قديم

يا أشرس ابغني إنساناً أسائله، فأتيته برجل فقال: سله عن ابن النصرانية، فقلت: ما فعل خالد؟. قال: في الحمة، اشتكى فخرج إليها، قال: سله عن طارق، فقال: ختن بنيه وهو يطعم الناس بالحيرة وخليفته عطية

بن مقلاص يطعم الناس بالكوفة، قال: خل عن الرجل.

ثم ركب فأناخ بالرحبة، ودخل المسجد، فصلى يوسف، ثم استلقى على ظهره فمكثنا ليلاً طويلاً، ثم جاء المؤذنون، وزياد بن عبيد الله الحارثي يومئذ على الكوفة خليفة لخالد، فأذنوا ثم سلموا وخرج زياد وأقيمت الصلاة فذهب زياد ليتقدم فقال يوسف: يا أشرس نحه. فذهب ليتقدم فقلت: يا زياد تأخر، الأمير. فتأخر زياد، وتقدم يوسف وكان حسن القراءة فصيحاً فقرأ: "سأل سائل بعذاب واقع" و "إذا وقعت الواقعة" فصلى الفجر وتقدم القاضي فحمد الله وأثنى عليه، ودعا للخليفة وقال: ما اسم أميركم؟ فأخبر فدعا له بالصلاح، فما تفرق أهل الصلاة حتى جاء الناس، و لم يبرح يوسف حتى بعث الحكم بن الصلت وعطاء بن مقدم إلى خالد، وبعث محمد بن منظور الأسدي إلى أبان بن الوليد بفارس، وبعث كثير بن عبد الله أبا العاج إلى بلال بن أبي بردة بالبصرة، وبعث إبراهيم بن عاصم العقيلي إلى عبد الله بن أبي بردة بسجستان، وأمر هشام أن يعزل عمال خالد جميعاً إلا الحكم بن عوانة، وكان على السند فأقره حتى قتل هو وزيد بن علي في يوم واحد، قتله ناكهر، و لم يعرض يوسف لزياد بن عبيد الله، وبعث إلى محمد بن القاسم بن عبد الرحمن بن عضاه الأشعري، فقال له: من أنت؟. فانتسب له، وقال: إنما كنت على أعواد كرمان، قال: نعم أهل البيت أنتم فأد شيئاً. قال: قد أخبرتك أني لم أتول جباية، فقال: خليا سبيله.

فلما أتى خالد قيل له: الأمير الأمير. قال: دعوني من أميركم، أحي أمير المؤمنين؟ قيل: نعم. قال: لا بأس علي. فلما قدم بخالد على يوسف حبسه وضرب يزيد بن خالد ثلاثين سوطاً، فكتب هشام إلى يوسف: أعطي الله عهداً لئن شاكت خالد شوكةً لأضربن عنقك فخل سبيله بثقله وعياله. فأتى الشام فلم يزل مقيماً بالشام يغزو الصوائف حتى مات هشام.

وقال غير الهيثم: كانت ولاية خالد العراق في شوال سنة خمس ومائة، ثم عزل في جمادى الأولى سنة عشرين، وقد قدم عليه يوسف واسطاً فحبسه بها ثم شخص إلى الحيرة، فلم يزل خالد محبوساً بالحيرة ثمانية عشر شهراً، وحبس معه أخوه إسماعيلبن عبد الله، وابنه يزيد بن خالد، وابن أخيه المنذر بن أسد بن عبد الله.

واستأذن يوسف في البسط على خالد، فلم يأذن له هشام حتى ألح عليه بالرسل، واعتل بانكسار الخراج لما صار إليهوعماله منه، فأذن له فيه مرة واحدة، وبعث حرسياً يشهد ذلك، وحلف لئن أتى على خالد أجله وهو في يده ليقتلنه، فدعا به يوسف وجلس على دكان بالحيرة، وحضر الناس وبسط عليه فلم يكلمه خالد حتى شتمه يوسف وقال: يا بن الكاهن- يعني شقا أحد أجداد خالد وكان كاهناً-. فقال

له: إنك لأحمق، تعيرني بشرفي لكنك ابن السباء، إنما كان أبوك يسبي الخمر.

ثم رده إلى محبسه، فأقام ثمانية عشر شهراً، ثم كتب إليههشام يأمره بتخليه سبيله في شوال سنة إحدى وعشرين ومائة. وأخذ يزيد بن خالد وحده على بلاد طيء حتى ورد دمشق، وخرج خالد ومعه إسماعيلأخوه وغيره، وقد جهزهم عبد الرحمن بن عنبسة بن سعيد بن العاص، فسار خالد حتى نزل القرية، وهي من أرض الرصافة، فأقام بها بقية شوال، وذا القعدة، وذا الحجة، وصفر لا يأذن له هشام في القدوم عليه والأبرش يكاتب خالداً.

قال الهيثم: وخرج زيد بن علي على يوسف بن عمر، فكتب يوسف؛ إن أهل البيت من بني هاشم قد كانوا هلكوا جوعاً حتى كانت همة أحدهم قوت يومه، فلما ولي خالد العراق قواهم بالأموال حتى تاقت أنفسهم إلى طلب الخلافة، وما خرج زيد إلا بإذن خالد، وما مقامه بالقرية إلا لأنها مدرجة الطريق، فهل تسأل عن أخباره؟ فقال هشام للرسول، وهو رجل من بلقين: كذبت وكذبت صاحبك ومهما اتهمنا به خالداً فإنا لا نتهمه في طاعته وأمر بالرسول فوجئت عنقه.

وبلغ الخبر خالداً فصار إلى دمشق فأقام بها حتى حضرت الصائفة، فخرج فيها ومعه يزيد وهشام ابنا خالد، وعبد الله بن يزيد بن خالد، وكان على دمشق يومئذ كلثوم بن عياض بن جوح بن قيس القشيري، وكان متحاملاً على خالد مطابقاً ليوسف على أمره، فلما أدرب الناس ظهر في دور دمشق حريق في كل ليلة يلقيه رجل من أهل العراق يقال له أبو المعرس وأصحاب له، فإذا ارتفعت النار أغاروا يسرقون، وكان إسماعيلبن عبد الله، والمنذر بن أسد، وسعيد ومحمد ابنا خالد بالساحل لحدث كان من الروم، فكتب كلثوم إلى هشام يذكر الحريق، ويذكر أنه لم يكن قط قبل قدوم خالد، وأن موالي خالد يريدون الوثوب على بيت المال ونهب الناس.

فكتب هشام إليهيأمره بحبس آل خالد الصغير منهم والكبير، ومواليهم والنساء، وأخذ إسماعيلوالمنذر ومحمداً وسعيداً من الساحل، فقدم بهم في الجوامع ومن كان معهم من مواليهم وغلمانهم، وحبس أم جرير بنت خالد والرائقة وجميع النساء والصبيان.

ثم ظهر على أبي المعرس، فأخذ ومن معه، فكتب الوليد بن عبد الرحمن عامل الخراج بدمشق إلى هشام يخبره ببراءة من حبس من أهل خالد، وأخذ أبي المعرس وأصحابه.

فكتب هشام إلى كلثوم يشتمه ويعنفه ويأمره بتخليه من حبس من آل خالد ومواإليهوغيرهم ممن هو منهم بسبب، فخلاهم جميعاً.

ولما قدم خالد قال: غزوت في سبيل الله سامعاً مطيعاً، فأخذ حرمي، وحرم أهل بيتي فحبسوا مع أهل

الجرائم كما يفعل بأهل الشرك، فما منع عصابة منهم أن تقوم فتقول علام حبس حرم هذا الرجل، أخفتم أن تقتلوا جميعاً؟. أخافكم الله.

ثم قال: مالي ولهشام يسوق بناتي وحرمي كل يوم إلى السجون، ليكفن عني أو لأدعون إلى عراقي الهوى شامي الدار حجازي الأهل لو نخر نخرة، أو نعر نعرةً تداعت من أقطارها- يعني محمد بن علي بن عبد الله بن عباس-. فبلغ قوله هشاماً فقال: خرف الرجل. وكتب إليه: إنك هذأة، هذرة، أببجيلة القليلة الذليلة تتهددنا؟.

وقال رجل من عبس في خالد:

ألا إنّ بحر الجود أصبح ساحياً ... أسير ثقيفٍ موثقاً في السلاسل

فإن يسجنوا القسريّ لا يسجنوا اسمه ... ولا يسجنوا معروفه في القبائل

قال الهيثم: فأقام خالد بدمشق، ويوسف ملح على هشام في إشخاص يزيد بن خالد، فكتب إلى كلثوم يأمره بحمل يزيد إلى يوسف، فبعث إليهخيلاً وهو في بعض النواحي فقاتلهم و لم يقدروا عليه، فحبس كلثوم خالداً في سجن دمشق، وسار إسماعيلأخوه حتى أتى الرصافة، فدخل على ابن الزبير حاجب هشام فأخبره بحبس كلثوم خالداً، فأنهى ذلك إلى هشام، فكتب إلى كلثوم يعنفه ويقول: عجزت عمن أمرتك بأخذه، وحبست من لم آمرك بحبسه، وكتب إليهفي تخلية سبيل خالد فخلاه.

وقال الهيثم: أمر هشام الأبرش فكتب إلى خالد: بلغني أن عبد الرحمن الضبي قام إليك فقال: يا خالد إني أحبك لعشر خلال: إن الله كريم وأنت كريم، والله جواد وأنت جواد، والله حليم وأنت حليم، والله رحيم وأنت رحيم، وعد عشر خلال، وأمير المؤمنين يقسم بالله لئن تحقق ذلك عنده ليسفكن دمك، فاكتب بالأمر على وجهه لأخبر به أمير المؤمنين.

فكتب إليهخالد: إن ذلك المجلس كان أكثر أهلاً من أن يجوز لأحد من أهل البغي والفجور أن يحرف ما كان فيه، قام إلي عبد الرحمن بن ثويب الضبي فقال: إني لأحبك لعشر خلال: إن الله يحب كل كريم، وأنت كريم فالله يحبك، وعدد عشر خلال، ولكن أعظم من ذلك قيام ابن شفي الحميري وقوله: أمير المؤمنين خليفة الله، وهو أكرم على الله من رسوله فأنت خليفة ومحمد عليه السلام رسول، ولعمري لضلالة بجيلة بأسرها أهون على الخاصة والعامة من ضلالة أمير المؤمنين.

فلما قرأ الأبرش الكتاب على هشام قال: خرف أبو الهيثم، فأقام خالد بدمشق حتى مات هشام، ثم قام الوليد فقدم عليه خالد فيمن قدم من أشراف الأجناد فلم يأذن لأحد منهم، واشتكى خالد فاستأذن فأذن له فرجع إلى دمشق فأقام أشهراً، ثم كتب إليهالوليد، إن أمير المؤمنين قد علم حال الخمسين الألف الألف

التي تعلم فاقدم على أمير المؤمنين مع رسوله، فقد أمره يعجلك عن جهازك، فاستشار خالد ثقاته فأشير عليه بالامتناع حتى يعطى أماناً يثق به، فقال: إني لأكره أن تكون الفرقة والاختلاف على يدي، ولمسيري أصلح، وأنا أستعين بالله.

وخرج حتى قدم على الوليد، فلم يدع به، و لم يكلمه، وهو في بيته مع مواليهوخدمه حتى قدم برأس يحيى بن زيد بن علي من خراسان، فجمع الناس في رواق وجلس الوليد، وجاء الحاجب فأذن لثلاثة نفر ثم قال: قم يا خالد، فقال: قد تراني لا أقدر على المشي، إنما أحمل حملاً لعلتي، فحمل على كرسيه وأدخل إلى الوليد والموائد موضوعة والناس سماطان، وعقال بن شبة يخطب، ثم انصرف الناس، وحمل خالد إلى رحله، ثم أتاه رسول الوليد فرد فلما صار إلى باب السرادق وقف به، وخرج إليهرسول الوليد فقال: يقول لك أمير المؤمنين أين يزيد بن خالد؟. فقال: كان أصابه من هشام ظفر ثم طلبه فهرب منه، وكنا نراه عند أمير المؤمنين، ونحن نظن أنه في بلاد قومه بالشراة، فقال: ولكنك خلفته طلباً للفتنة. فقال: قد علم أمير المؤمنين أنا أهل طاعة أنا وأبي وجدي، فقال: والله لتأتين به أو لأزهقن نفسك.

فرفع خالد صوته، وكان الوليد بالقرب، فقال: قل له: هذا أردت، وإياه اعتمدت، وعليه درت، والله لو كان تحت قدمي ما رفعتهما لك عنه فاصنع ما بدا لك.

فأمر الوليد غيلان صاحب حرسه بالبسط عليه وقال: أسمعني صوته. فأتى به غيلان رحله فعذبه بالسلاسل فلم يتكلم فأعلم الوليد بذلك وقال: لم أر أصبر منه، ما ينطق بشيء. فقال: احبسه عندك فحبسه حتى قدم يوسف بن عمر بمال العراق، وجلس الوليد وأذن للناس ويوسف عنده فتكلم أبان بن عبد الله النميري في خالد فقال يوسف: إني أشتريه بخمسين ألف ألف درهم، فأرسل الوليد إلى خالد: إن يوسف يشتريك بخمسين ألف ألف درهم فإن ضمنتها وخرجت منها وإلا دفعتك إليه. فقال خالد: ما عهدت العرب تباع، والله لو سألتموني أن أضمن هذا– وأخذ عوداً من الأرض– ما ضمنته فلير أمير المؤمنين رأيه، فدفعه إلى يوسف فنزع ثيابه ودرعه عباءة ولحفه أخرى وحمله في محمل بغير وطاء ولا غطاء، وجعل زميله أبا قحافة المري ابن أخي الوليد بن تليد، وكان الوليد عامل هشام على الموصل، فانطلق به حتى نزل على مرحلة من عسكر الوليد ثم دعا به فشتمه وذكر أمه فقال: ما ذكر الأمهات لعنك الله، والله ما أكلمك كلمة أبداً.

فبسط عليه وعذبه عذاباً شديداً وهو لا يكلمه، ثم ارتحل به حتى إذا كان في بعض الطريق بعث إليهتميم بن زيد القيني بشربة سويق حب الرمان مع مولى له يقال له سالم، فبلغ ذلك يوسف فضرب تميماً خمسمائة سوط، وضرب سالماً ألف سوط، وكان يوسف يمشي خالداً في طريقه كثيراً إضراراً به.

ثم قدم يوسف الحيرة، فدعا بخالد وبإبراهيم ومحمد ابني هشام بن إسماعيل المخزوميين، وكانا ممن يشير بخلع الوليد، فبسط يوسف على خالد، فلم يكلمه بكلمة، وصبر إبراهيم بن هشام، وجزع محمد، ومكث خالد يوماً في العذاب، ثم وضع على صدره الدهق فقتل من الليل ودفن في ناحية الحيرة في عباءته التي كان فيها، وذلك في المحرم سنة ست وعشرين ومائة، فأقبل عامر بن سهلة الأشعري فعقر على قبره فرساً، فضربه يوسف سبعمائة سوط.

حدثني أبو بكر الأعين عن أبي نعيم الفضل بن دكين قال: حدثني رجل كان مع يوسف بن عمر قال: شهدت خالداً حين أتى به يوسف فدعا بعود فوضع على قدميه ثم قامت عليه الرجال حتى كسروا قدميه فوالله ما تكلم ولا عبس.

وقال الوليد بن يزيد لأبي الزناد: قد أمرت يوسف بعذاب ابني هشام بن اسماعيل، قال: سرور والله، فأخذ الوليد القرطاس وكتب إلى يوسف: إذا أتاك كتابي هذا فألح في العذاب على ابني هشام وخالد بن عبد الله حتى يموتوا، فكان يقال: ما قتلهم إلا أبو الزناد.

وقال المدائني: قالها رجل من قيس ونحلها الوليد وهو الثبت:

وهذا خالد أمسى أسيراً ... ألا منعوه إن كانوا رجالاً

عظيمهم وسيّدهم قديماً ... جعلنا المخزيات له ظلالا

فلو كانت قبائل ذات عزٍّ ... لما ذهبت صنائعه ضلالا

وقال عمران بن هلباء الكلبي في قصيدة له:

متى تلق السّكون وتلق كلباً ... بقيس تخش من ملك زوالا

لئن عيرتمونا ما فعلنا ... لقد قلتم وجدّكم مقالا

وقال منصور بن جمهور:

يا قوم لا تغلبوا عن رأيكم فلقد ... جرّبتم الغدر من أولاد مروانا

ما زال من قتلوا عمراً بغدرهم ... يدعون غدراً بعهد الله كيسانا

حتى استباحوا سنام الأرض مملكة ... قسراً فولّوا أمور الناس ولدانا

ووحّشوا بكتاب الله واتخذوا ... أهواءهم في معاصي الله قربانا

ألا ترى مضراً أضحت تثير معاً ... حرباً وضرباً شتات الأمر وحدانا

يقطعون بنا أعناق سادتنا ويعلقون بنا أثواب ذبيانا

وقال المدائني: أخذ يوسف عمال خالد وهم ثلاثمائة وخمسون، وقال: قد بقي منهم كبش كبير الصوف ولا بد من أن يجز- يعني الحكم بن عوانة الكلبي، وكان على السند، وكان هشام تقدم فيه إلى يوسف-. واستخرج منهم تسعين ألف ألف درهم ولولا عنفه لأخذ منهم أكثر من ذلك.

وأخذ يوسف مولى لخالد يقال له داود فسأله عن أموال خالد، فلم يقر له بشيء فضربه حتى مات، ودعا بسعيدانف وكان على طراز خالد فضربه حتى قتله، وهو من بني تميم، وكان المقفع- واسمه داذ به عذب في استيفاء مال، فتقفع- على خراج فارس ولاه إياها خالد، فدعا به فدفعه إلى صاحب العذاب فكان يرفق به لأنه تعين منه مائة ألف درهم، فدعا به يوسف فعذب بين يديه حتى مات.

وعرض على يوسف عماله فقال عامل منهم: جبيت فلم أدع في البلاد درهماً. فقال: كذبت وضربه ثلاثمائة سوط.

وقال آخر: جبيت فبقيت بقايا ليقوى أهل البلاد بها، فقال: بل اجتبيتها، فضربه أربعمائة سوط.

وقال آخر: جبيت الخراج فازددت مالاً، فقال: أخربت البلاد وضربه خمسمائة سوط.

المدائني قال: قيل لإسماعيلبن يسار: اطلب العمل ونحن نضمن عنك، قال: دعوني أنظر كيف معاملة يوسف عند رأس السنة وفعله بالعمال، فلما رآه يعذبهم قال:

رأيت صبيحة النوروز أمراً فظيعاً عن إمارتكم نهاني

برئت من الولاية بعد يحيى وبعد النهشليّ أبي أبان

أحاذر أن أقصّر في خراجٍ وفي النوروز أو في المهرجان

قالوا: وكان العريان بن الهيثم ضرب الجراح بن عبد الله بن عياش الهمداني بالسياط، وهو على شرطة خالد، فشكاه ابن عياش إلى خالد فلم يشكه، فلما عذب يوسف خالداً أتاه ابنا عياش فشتماه وقالا: أهكذا تضرب ابن النصرانية؟ إنما كان ينبغي أن تضرب أمه حتى تسلح على وجهه، فقيل لهما: أتشتما رجلاً أسيراً يعذب؟ فقالا: ضربنا أميراً ولا نشتمه أسيراً، فمتى ندرك بثأرنا؟. فقال لهما خالد: يا بني لئيمي قومهما أفلا صبرتما للسياط.

وغضب لخالد قوم فضربوهما ومزقوا ثيابهما فبلغ خبر الضاربين يوسف فقال: لم ضربتم هذين؟. قالوا: غضباً لخالد، فضرب كل واحد ألف سوط.

وقال المدائني: أمر يوسف ببلال فعذب فضمن ثلاثمائة ألف وأخذ منه كفلاء، فأخفرهم وهرب إلى الشام، فيقال إن غلامه أراد أن يشتري له دراجة فعرف، ويقال: بل شرى له غلامه دراجة فأحرقها،

فضربه فسعى به، فأتي به هشام، فأمر به فأقيم في الشمس فقال: ادنوني من أمير المؤمنين فله علي ما طلب فأبى، ورده إلى يوسف فعذبه حتى قتله.
وقال عبد الله بن أبي بردة للسجان: ارفع اسمي في الموتى، فرفعه، فقال يوسف: أرنيه ميتاً، فغمه السجان حتى مات، ويقال بل كان بلال الذي سأل السجان رفع اسمه في الموتى، والمقتول في العذاب عبد الله.
وقال يونس النحوي: ما قتل بلالاً إلا دهيه في نفسه، سأل السجان أن يرفع اسمه في الموتى ويعطيه مالاً فرفع اسمه في الموتى، فقال يوسف: اعرض الموتى علي فغمه حتى مات وعرضه عليه ميتاً.
قالوا: وتداعت قيس وتغلب إلى الصلح بعد الذي كان بينهم، فحمل رجل من تغلب في ذلك حمالة، وقدم على خالد، فأمر خالد سليمان بن المهاجر مولى بجيلة أن يقول في ذلك أبياتاً فقالها، وأذن خالد إذناً عاماً فدخل الناس والتغلبي معهم، فأنشد سليمان بن المهاجر أبياته:

أتغلب أم قيس ترى في بلادها ... من الحرب إذ عضتّهم الحرب أجزع
وإن القبيلين اللذين تداعيا ... إلى الصلح والداعي إلى الصلح أضرع
أينسى بنو الغلباء بالبشر وقعةً ... لجحاف قيس والقبائل تسمع

فقال التغلبي:

ألا لا ولا تنسى سليم وعامر ... مقام عمير حين ظل يقطع
فدع ذا ولكن ما تقولون في الذي ... أتيناكم فيه لنا فيه مطمع

فلم يصله ولم يعطه خالد شيئاً فمضى وتركه.

حدثني الأثرم عن أبي عبيدة قال: لما عذب يوسف خالداً ادعى أنه استودع زيد بن علي بن الحسين وداود بن علي بن عبد الله بن عباس مالاً عظيماً، وكتب يوسف بذلك إلى هشام، فكتب هشام إلى خاله إبراهيم بن هشام وهو عامله على المدينة يأمره بحملهما إليه، فحلفا أنه ما أودعهما خالد شيئاً، فقال: إنكما عندي صادقان ولكن أمير المؤمنين كتب إلي في حملكما إليهفحملا، فلما دخلا على هشام أحلفهما بأغلظ الأيمان ما أودعهما خالد شيئاً قط فحلفا، وقال داود: كنت قدمت عليه العراق فأمر لي بمائة ألف، وقال زيد: كيف يودعني رجل كان يلعن جدي على المنابر؟. فقال هشام: أنتما أصدق من ابن النصرانية، فاقدما على يوسف حتى يجمع بينكما وبينه فتكذباه في وجهه، ففعلا.
وقال خالد: مسني العذاب ففزعت إلى هذه العلة، وقلت يفرج الله قبل قدومكما.
المدائني وغيره قالوا: بدأ يوسف بالكوفة، فدخلها ولم يقم بها، وخرج إلى واسط فأقام بها سنة وأقر زياد

بن عبد الله الحارثي على الكوفة، ثم ولى يوسف بن عمر: محمد بن القاسم.
وقال الكميت:

ولما رأيت الدهر يقلب ظهره — على بطنه فعل الممعّك في الرمل
أخذت بحبل لا أخاف انجذامه — من الحكم بن الصّلت حسبي من حبل

في قصيدة له.

قالوا؛ ونظر يوسف يوماً إلى أسودمقيد قد جلس على مائدة من الموائد التي يطعمها الناس، وكان يأكل على موائده من أراد، فضرب رجل من الشاميين الأسودبنعل سيفه ليقيمه، فرآه يوسف، فدعا بالشامي فضربه مائة سوط، وقال للأسود: ما أنت؟. قال: عبد. فأمر بابتياعه وأعتقه وقال: احضر طعامنا في كل يوم.

وقال المدائني: كان يقال إنه كانت في يوسف خلال حسنة: طول صلاة، وحسن هدى، ووفاء ولزوم للمسجد، وضبط لحشمه وأهل بيته عن الناس وجمال وانبساط لسان، وتواضع في مترله، وحسن ملكة، وكثرة تضرع ودعاء، وكان يصلي الغداة فلا يزال مستقبلاً للقبلة يسبح ويدعو ولا يكلم أحداً حتى يصلي الضحى، ولزوم للسنة، وحفظ للقرآن واقتصاد، وبعد همة، وبصر بالشعر والأدب.

وقال سعيد بن سلم: ذكر قوم يوسف فاغتابوه فقال لهم يوسف بن سليم مولى أبي بكرة: أنصفوا يوسف فإن خالد بن عبد الله اصطنع من اليمن ومن العجم قوماً نحو أبان بن الوليد فأخملهم يوسف وأفناهم، وأفلت منهم واحد وهو ابن الكرماني، فقد رأيتم ما صنع بكم فكيف لو بقي الآخرون؟ حدثني عمر بن شبه عن حيان بن بشر عن جرير عن المغيرة قال: كان الإسلام ذليلاً حتى قدم يوسف، وقال ابن نوفل يمدح يوسف في شعر يقول فيه:

أتانا وأهل الشرك أهل زكاتنا — وحكامنا فيما نسرّ ونجهر
فلما أتانا يوسف الخير أشرقت — له الأرض حتى كل وادٍ منوّر
وحتى رأينا العدل في الناس ظاهراً — وما كان من قبل العقيلي يظهر

في أبيات. ثم قال بعد ذلك فيه:

أرانا والخليفة إذ رمانا — مع الإخلاص بالرجل الجديد
كأهل النار حين دعوا أغيثوا — جميعاً بالحميم وبالصديد

قالوا: وقال يوسف لكلوب الصريمي: دلني على رجل أوليه كرمان، فدله على نميلة بن مرة. فولاه فكسر خمسمائة ألف، فضرب كلوب خمسمائة سوط وضرب نميلة.

وولى يوسف عبد الله بن طارق العنبري أمر أكراد فسا ودرأبجرد فقتله بعض الأكراد، فأخذ ابنه قدامة كتاب يوسف إلى عبد الكريم المازني وهو على فسا ودرأبجرد يأمره بدفعه إليهفقال له عبد الكريم: ثأرك ثأري وعلى الرجل من الخراج شيء كثير فدعني استأديه ثم أدفعه إليك، فعجل قدامة فقتله، فكتب عبد الكريم بذلك إلى يوسف فضرب قدامة ضرباً مبرحاً، فلما عزل عبد الكريم رفع عليه قدامه وقال ليوسف: هذا الذي يقول له الشاعر:

إذا زفنت عليك سما بذخشٍ فقد أزجت خراج درابجرد

فقال يوسف لعبد الكريم: يا عدو الله وإذا أنت صاحب مثل هذا، فضربه ضرباً مبرحاً.

قالوا: وكان يوضع على موائد يوسف أنواع الطعام فيأكل كل امرئ ما يشتهي، فوضعت على مائدة منها سمكة، فقال رجل من أهل الكوفة يقال له حماد بن أبي الدرداء، وهو من أهل بيت ينتمون إلى أبي الدرداء وليسوا منهم، وأهل الكوفة يقولون: بنو أبي الضرطاء، فقال حماد: أيها الأمير، هذا النون. فقال يوسف: والله لتضربن أو لتتكلمن بلسان أبيك. فقال: هذا كوارا وهو السمك بالنبطية، فتركه.

قال المدائني: وولى يوسف بن عمر صالح بن كدين ولاية فخرجت عليه ثلاثون ألفاً فحبس بها، وبلال يومئذ محبوس، فقال له بلال: إن على العذاب سالماً ويلقب رتبيل فإياك أن تقول له يا رتبيل، وجعل يردد عليه ذلك فعذبه سالم فنسي اسمه وكنيته وجعل يقول له: يا رتبيل اتق الله، فيقول: اقتل. فلما خلى عنه قال له بلال: ألم أنهك عن رتبيل؟ فقال: وهل ألقاني في رتبيل غيرك، وأنا لم أكن أعرف رتبيل لولا أنت وما تدع شرك في سراء ولا ضراء.

قال: وكان على شرط يوسف العباس بن سعد المري من مرة غطفان وكان كاتبه قحذم بن سليمان بن ذكوان، وزياد بن عبد الرحمن مولى ثقيف، وكان على حرسه، وحجابته جندب وفيه يقول الشاعر:

أتانا أمير شديد النكال لحاجب حاجبه حاجب

وولى يوسف محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى القضاء، وكانت به حدة فقال له: إنما أنت أجير قوم فوفهم عملك إذا وفوك أجرك، وإذا أردت الخروج فكل لا أشبع الله بطنك، وانكح لا أعفك الله، وإذا غضبت فقم.

المدائني وغيره: أن يوسف بن عمر قال في خطبته: إن أول من فتح على الناس باب الفتنة وسفك الدماء علي وصاحبه الزنجي- يعني عمار بن ياسر-.

قال: وكان في خضراء واسط زوج من البوم فقال: انظروا إلي رجلاً رامياً بالبندق، فجيء برجل فرمى

وكرهما فخرج أحدهما فرماه فقتله، ثم خرج الآخر فرماه فقتله فأمر بحبسه فحبس نحواً من سنة، فلما تحول عن واسط ذكر له فأمر بتخلية سبيله.
المدائني عن الحكم بن النعمان قال: أراد الوليد بن يزيد بن عبد الملك عزل يوسف، واستعمال عبد الملك بن محمد بن الحجاج، فكتب إلى يوسف: إنك كتبت إلى أمير المؤمنين تذكر إخراب ابن النصرانية البلاد، وكنت مع ذلك تحمل إلى هشام ما تحمل، وقد ينبغي أن تكون قد عمرت البلاد حتى رددها إلى ما كانت عليه فأشخص إلى أمير المؤمنين مصدقاً ظنته بك: ليعرف أمير المؤمنين فضلك على غيرك لكفايتك، ولما جعل الله بينك وبينه من القرابة، فإنك خاله، وأحق الناس بالتوفير عليه، ولما قد علمت مما أمر به أمير المؤمنين لأهل الشام وغيرهم من الزيادة في أعطياهم، وما وصل به أهل بيته لطول جفوة هشام لهم حتى أضر ذلك ببيوت الأموال. فخرج يوسف واستخلف ابن عمه يوسف بن محمد، وحمل معه من الأموال والأمتعة والآنية ما لم يحمل مثله من العراق قط، فقدم على الوليد، وخالد بن عبد الله محبوس، فلقيه حسان النبطي ليلاً فأخبره أن الوليد على تولية عبد الملك بن محمد بن الحجاج، وقال له إنه لا بد لك من إصلاح أمر وزرائه وأصحابه، فقال: ليس عندي فضل درهم. قال: فعندي خمسمائة ألف فإن شئت فهي لك، وإن شئت فارددها إذا تيسرت فقال: أنت أعرف بالقوم وأقدارهم ومنازلهم ففرقها عليهم، ففعل فكان جميع من على باب الوليد يعظمه ويجله، فقال له حسان: لا تغد على الوليد ولكن رح إليه، واكتب على لسان خليفتك كتاباً إليك: إني كتبت كتابي هذا ولست أملك إلا القصر، وأمر أبان بن عبد الله النميري أن يتضمن خالداً بأربعين ألف ألف، ثم زد عليه عشرة آلاف ألف، وتسأل أن يدفع إليك. ففعل يوسف ذلك فقال له الوليد: ارجع إلى عملك، ودفع إليهخالداً فحمله في محمل بغير وطاء، فقال محمد بن القاسم: فرحمته وقد جمعت ألطافاً من أخبصة يابسة وغيرها في منديل، ثم دنوت منه فرميت بالمنديل إليهفقال لي: هذا من متاع عمان لأن أخي الفيض كان عامل عمان. فقلت في نفسي: هذا على هذه الحال وهو لا يدع شرارته. فقال يوسف وفطن: ما قلت لابن النصرانية؟ قلت: عرضت عليه الحاجة. فقال: أحسنت وهو أسير، ولو فطن بما صنعت به للقيت منه شراً.

وقالوا: أقر يوسف زياد بن عبيد الله الحارثي على الكوفة حتى أخذ له عمال خالد، ثم عزله، وولى العباس الهمداني، ثم الحكم بن الصلت، ثم عزله وولى عدة ثم أعاده، ثم ولى يوسف بن محمد بن القاسم الثقفي، وعلى شرطته ابن أراكة الثقفي، ثم ولى عبيد الله بن العباس الكندي، وعلى شرطه خراش بن حوشب أخي العوام بن حوشب، وهو تولى نبش زيد بن علي من مدفنه.
ولم يزل يوسف على العراق حتى قتل الوليد وولي يزيد بن الوليد، فهرب فظفر به فكان محبوساً في أيام

يزيد وإبراهيم أخيه، ثم قتله ابن خالد القسري في محبسه، وسنذكر خبره إن شاء الله.

وقال سلم بن قتيبة: أرسل إلي يوسف بن عمر، فلما دخلت عليه قال: لم أرك. فقلت: كنت عليلاً. قال: كذبت، ما عليك أثر العلة، إمض إلى مترلك فإذا كان مثل هذا اليوم من قابل فائتني. فانصرفت وأقمت في مترلي إلى ذلك الوقت ثم وافيته فأذن لي فدخلت عليه فسلمت فرد وقال: اجلس، فجلست فقال: إني قد هيأت لأمير المؤمنين ألطافاً وهدايا، وكتبت إليهأصفك له، وأخطب عليك ولاية خراسان، وأمرت الوفد بإطرائك وصيرتك عليهم، وفي الوفد قمير بن مسعود في نفر من بني تميم، فلما قدمت على هشام وصفني الوفد، فقال هشام: له في سائر أعمال مندوحة عن خراسان.

حدثني عمر بن شبه عن عبيد بن جناد عن عطاء بن مسلم الخفاف قال: لما قدم زيد بن علي على يوسف قال: يزعم خالد القسري أنه أودعني أموالاً وكيف يودعني وهو يشتم آبائي على منبره، فأحضر يوسف خالداً في عباءة فقال له: هذا زيد وهذا داود بن علي وقد حلفا أنك لم تودعهما مالاً، فقال: كيف أودع زيداً وأنا أشتمه وأباه، فشتمه يوسف ورده.

وقال أبو عبيدة معمر بن المثنى: قالا لخالد: ما دعاك إلى ما صنعت؟ فقال: غلظ علي في العذاب فادعيت ما ادعيت مستريحاً، ورجوت أن يفرج الله قبل قدومكما.

المدائني قال: قدم عبد الكريم بن سليط الحنفي على يوسف فأمضاه إلى هشام، فقال له هشام: بلغني أن لك بخراسان علماً، قال: أجل، قال: فمن ترى لها؟ قال: رجل أهلها الكرماني، قال: وممن هو؟ قال: من الأزد. فتبينت الكراهة في وجه هشام. قال: ما اسمه؟ قال: جديع بن علي، فتطير من اسمه وقال: لا حاجة لي فيه. قال: فأبو الميلاء يحيى بن نعيم بن هبيرة، ابن أخي مصقلة بن هبيرة الشيباني، فقال: إن ربيعة لا تسد بها الثغور. قال: فعقيل بن معقل الليثي. فأعجبه، فقال: إن اغتفرت منه خصلة. قال: وما هي؟ قال: ليس هو بعفيف البطن والفرج، قال هشام: فلا حاجة لي فيه. قال: فالمجرب الأديب منصور بن عمر بن أبي الخرقاء السلمي، فأعجبه. قال: إن اغتفرت منه واحدة. قال: وما هي؟ قال: أشأم العرب، قال: لا حاجة لي فيه. قال: فالمسن العاقل مجشر بن مزاحم السلمي. إن اغتفرت منه واحدة. قال: وما هي؟ قال: أكذب العرب. فقال: أي عقل مع الكذب، لا حاجة لي فيه. قال: فابن ذي الطاعة يحيى بن الحضين بن المنذر. قال: ألم أقل أن ربيعة لا تسد بها الثغور. فقال: قطن بن قتيبة بن مسلم على أنه ثائر بأبيه. قال: لا حاجة لي فيه. فقال: نصر بن سيار، فتفاءل باسمه. قال: فإنه لا عشيرة له بخراسان. قال: أنا عشيرته، لا أبالك، أتريد عشيرة أكرم مني، اكتب عهده يا غلام، وأمره في عهده أن يعامل يوسف بن عمر. قال: فخرج بعهده و لم يمر على يوسف وأخذ طريق حلوان.

وقالوا: أقر يوسف بلال بن أبي بردة على البصرة ثمانية أشهر، ثم كتب إليهأن احمل إلي عمالك فحمل

إليهسعيد بن راشد فقال له سعيد: والله ما مثلي ومثلك إلا مثل حلاقين قيل لأحدهما: احلق رأس صاحبك حتى يفرغ فيحلق رأسك. فأقر يوسف بلالاً أشهراً بعد صرف سعيد.
حدثني عبد الله بن صالح عن ابن كناسة والمدائني وغيرهما قالوا: كان يوسف قصيراً عظيم اللحية، يلبس ثياباً طوالاً يجرها، وكان شديد العقوبة مسرفاً في ضرب الأبشار، وكان يأخذ الثوب اليوسفي فيمر ظفره عليه فإن تعلق به خيط ضرب صاحبه وربما قطع يده.
قالوا: وضرب يوماً جماعة في درهم زائف اخرج من الدار، وفي درهم نقص حبة خمسة آلاف سوط، وأتي يوسف يوماً بثوب فقال للحائك الذي تولى عمله: ما يقال لهذا؟ قال: سهر بسهر فقال: ما تقول ويلك؟ قال قحذم كاتبه: يقول أحمر في أحمر. فقال: لا جرم لأحمرن ظهره- فضربه ثلاثمائة سوط.

وقال يوماً لكاتبه وقد أتى بثوب: ما تقول في هذا الثوب؟ قال: كان ينبغي أن يكون أصغر أبياتاً من هذه. فقال للحائك: صدق، يا بن اللخناء، فقال الحائك: نحن أعلم بهذا، فقال لكاتبه: صدق يا بن اللخناء هو أعلم بهذا منك. فقال قحذم: هذا يعمل في السنة ثوباً وأنا يمر على يدي في كل سنة مائة ثوب مثل هذا. فقال للحائك: صدق يا بن اللخناء، فلم يزل يكذب هذا مرة وهذا مرة حتى عد أبيات الثوب فوجدها تنقص بيتاً من أحد جوانب الثوب فضرب الحائك خمسمائة سوط.
قالوا: وكان له وصفاء صغار، فكانوا يأتون بالزنابير فيفلتونها في البيت الذي هو فيه فتطن فيخرج فيقول: يا خبثاء ما هذا؟ ثم يرجع.
قالوا: وأراد الخروج إلى بعض النواحي فدعا جواريه فقال لإحداهن: أتخرجين معي؟ قالت: نعم. قال: يا خبيثة هذا كله من حب النكاح، يا خادم، أو يا جديح إضرب رأسها. ثم قال لأخرى: ما تقولين؟ قالت: أحب أن أقيم فأكون مع ولدك. فقال: يا خبيثة أكل هذا زهادة في؟ اضرب يا جديح رأسها. ثم قال لأخرى: ما تقولين؟ قالت: ما أدري ما أقول، إن قلت ما قالت هذه أو هذه لم آمن عقوبتك. قال: يا لخناء أو تناقضين وتحتجين علي فأمر بها فضربت.
قال الهيثم عن ابن عياش أن رجلاً دخل على يوسف فقال له: لم أرك مذ أيام. قال: كنت خبيث البطن. فقال يوسف: والفرج- وإنما أراد وجع البطن-.
قالوا: وكان جالساً في خضراء واسط فنظر إلى عش بومة فيها، فقال لبعض من معه: ارمها فرماها بجلاهق فصرعها فقال: انك لغاو أوجعوا رأسه ولا يحضرني مثله.
وقال سعيد بن راشد مولى النخع يوماً: لو فعل الأمير كذا. فقال: يا بن اللخناء أتشير علي، وكان سعيد ابن اخت طارق مولى خالد القسري وفيه يقول الشاعر:

بكى الخزّ من إبطي سعيد بن راشد ومن دبره تبكي بغال المواكب

فواعجبا حتى سعيد بن راشد له حاجب بالباب من دون حاجب

المدائني قال: ولى يوسف الوازع بن عباد بن قيس السلمي البصرة فأخذ بلالاً فحمله إلى يوسف بالكوفة و لم يدعه يوسف عليها إلا قليلاً حتى عزله، ويقال إنه لم يوله وإنما وجهه في عمل بلال.

وولى يوسف:

أبا العاج كثير بن عبد الله السلمي البصرة.

وكان سبب توليته إياه أن أبا العاج كان عند هشام يوماً وعنده خاله إبراهيم بن هشام بن إسماعيل المخزومي، فذكر يوسف فنال إبراهيم منه فقال له أبو العاج: يا بن السوداء أيوسف يذكر بهذا؟ فلم يفهم هشام، وأشير إلى أبي العاج فسكت، ونمت إلى يوسف فشكرها له فكتب إليهفزاره فولاه البصرة، ويقال أخرجه معه.

قال المدائني: ولى أبو العاج شرطته محمد بن واسع العابد، وكان أبو العاج أعرابياً.

المدائني عن يونس النحوي أنه سمع أبا العاج يقرأ: فأدبر يشتد، يريد: يسعى.

وولى أبو العاج رجلاً بعض كور دجلة فقدم عليه فوصف له سيرته، وقال: لقد بلغ من رضا أهل عملي بي أن نثروا علي حتى كسروا قناديل المسجد الجامع فقال: لا جرم لتغرمن ثمنها، أو تشتري مثلها.

المدائني عن عمرو بن فائد قال: حفر أبو العاج نهراً فكان يمر إليهمتنكباً قوساً عربية.

حدثني عمر بن شبة عن أبي عاصم النبيل قال: عدا رجل من باهلة على رجل من بني ضبيعة فضربه، فاستعدى الباهليون أبا العاج واستعانوا عليه بسلم بن قتيبة، فقال أبو العاج: يأمرني ابن قتيبة أن أتعصب على بني ضبيعة، فوالله ما أحب أن الناس كلهم في الجنة إلا بني ضبيعة، يا غلام ائتني بسياط عليها ثمارها. فقال الباهليون لسلم: أصلح أيها الرجل بيننا. فأصلح سلم بينهم وانصرفوا وضبيعة بن ربيعة بن نزار، فيقال إن بهثة سليم هو بهثة ضبيعة، والله أعلم.

قالوا: وكان أبو العاج يغضب من أبي العاج فتقدم إليهرجل فقال: أصلحك الله يا أبا العاج فقال أبو محمد: يا بن البظراء، فقال: لا تقل هذا فإنها كانت مسلمة قد حجت، فقال: إن ذاك لا يمنعها من الحج.

وقيل لأبي العاج وأتي برجل مأبون: إن هذا يمكن من نفسه. قال: أفتريدون ماذا؟ أوكل به رجالاً يحفظون دبره، لقد وقعت إذاً في عناء. أطلقوه فالاست استه يصنع بها ما شاء.

تولى أبو العاج البصرة نحواً من سنة، ثم عزله يوسف، وولى:

فانحدر إليها من واسط وكان والياً عليها، وأقام على البصرة خمس سنين وأشهراً فاتخذ في مصلى البصرة بستاناً، واتخذ حوضين وبنى عليهما صومعة فكان يأمر بالحوضين في يومي العيدين فيملآن ماء يصب فيهما ألفا راوية، فإذا صلى وجلس في الجنيدة وضعت الآنية فيشرب الناس، وأقام مكانه حتى يخف الزحام، ثم يأتي دار الإمارة.

قالوا: وكتب يوسف إلى القاسم يأمره أن ينتخب له رجالاً يجعلهم أمناء على عماله، فانتخب رجالاً كانوا يدعون القصاص لأنهم يقصون أثر العمال، منهم: مطر بن فيل، والحارث الأحول فوجههم في أعماله فأما مطر بن فيل فامتنع من العمل فقال له يوسف: ما بالك لا تعمل؟ قال: لا أصلح للعمل. قال: و لم؟ اما تعلمت من جباية أبيك؟ قال: مات وأنا صغير. فقال: والله لأضربنك ثم لأحبسنك ثم لأولينك. فضربه وحبسه فعمل له بالشام حتى كتب إلى يوسف فأطلقه. وقال القاسم بن محمد بعد ذلك بيتاً لم يقل قط غيره:

نقمت الجور مني في زماني ... فكيف تراه يا مطر بن فيل

وقال الشاعر:

عذ بالأمير إذا خشيت ظلامةً ... بالقاسم بن محمد بن القاسم

وقال حمزة بن بيض:

وأمتعنا بالقاسم بن محمد ... أميراً وزاد الله في عمره عمرا

فلا خير في الدنيا إذا لم يكن بها ... أمير عقيلي يشبهه البدرا

المدائني عن أبي بكر الهذلي قال: خطبنا يوسف في مسجد الكوفة فتكلم إنسان مجنون فقال يوسف: يا أهل الكوفة أ لم أنهكم أن يدخل مجانينكم المسجد، اضربوا عنقه، فضربت عنق المجنون فقلت: لا أصلي والله خلفك أبداً، وكان مع هذا طويل الصلاة كثير القراءة للقرآن.

المدائني قال: خلع رجل ثيابه ليغتسل وألقى هميانه فجاءت عقاب فحملت الهميان تحسبه لحماً فخرج الرجل يصرخ ويبكي فأخبر يوسف فقال: كم أكثر ما تطير العقاب؟ قيل: كذا. قال: انظروا أقرب القرى من هذه الغاية فضمنوا أهلها هميان الرجل.

المدائني قال: لما قدم يوسف العراق قال لعامر بن يحيى بن عامر بن مسمع: إيه يا فاسق، أخربت مهرجا نقذق. قال: إني لم أكن عليها إنما كنت على ماه، وقد عمرت البلاد ووفرت الخراج. فأعاد عليه:

أخربت مهرجا نقذق، فأعاد عليه مثل قوله. فقال عامر: أشهد أنك مجنون. فعذبه حتى قتله.
وقال يوسف يوماً لكاتب له: ما حبسك؟ قال: اشتكيت بضرسي. فدعا بحجام فقلعه وضرساً آخر معه.
وخطب يوسف فقال– و لم يذكر الله في أول خطبته–: يا أهل المدرة الخبيثة أترجفون في فهلا أرجفتم بابن النصرانية الذي قال لأجعلن ملئها قمحاً بدرهم، هل نقمتم علي إلا أني لم أدع جندي يزدرعون فيكم.
وقال الواقدي: قدم المطلب بن عبد الله بن حنطب وأمه أم سلمة بنت الحكم بن أبي العاص بن أمية على هشام بسبب هذه الخؤولة، فقضى عنه سبعة عشرة ألف دينار، والبئر التي على طريق العراق تنسب إلى بئر المطلب وهي بئره.
بسم الله الرحمن الرحيم

خلافة الوليد بن يزيد بن عبد الملك بن مروان

يكنى أبا العباس، ولي الخلافة بعد هشام وقد ذكرنا كيف كانت بيعته، وكانت أيامه سنة وثلاثة أشهر، وقتل لخمس ليال بقين من جمادى الآخرة سنة ست وعشرين ومائة: وأمه أم الحجاج بنت محمد بن يوسف بن الحكم، والحجاج عمها، ولقب الوليد البيطار وذلك انه كان يصيد حمير الوحش فيسمها بالوليد ثم يخليها.
حدثني حفص بن عمر العمري عن الهيثم بن عدي عن أبيه وابن عياش أن الوليد نشأ في قصر أبيه على الترف فمجن وتهتك، وكان العهد له بعد هشام، فكان مسرفاً على نفسه معلناً للفسوق والشرب واللذات، وكان هشام ينهاه عن ذلك فلا يزعه نهيه ولا يردعه حتى هم بخلعه، وكان شاعراً وكانت عنده ابنة سعيد بن خالد بن عمرو بن عثمان بن عفان، فزارتها أختها سلمى بنت سعيد، وكانت من أحسن الناس وجهاً، فبصر بها الوليد فأعجبته وذلك قبل الخلافة فطلق أختها ثم خطبها إلى أبيها فامتنع عليه وقال: إنما تريد مني أن اتخذك فحلاً لبناتي، فكان يهجوه، وفيه يقول:

من يك مفتاحاً لخير يريده فإنك قفل يا سعيد بن خالد

وكان يقول في سلمى الأشعار فيغني بها المغنون وينشدها جلساءه ويشكو إليهم حبها حتى افتضح وسقط عند الناس. وفيها يقول:

تذكّر شجوة القلب القريح فدمع العين منهلٌ سفوح

ألا طرقتك بالبلقاء سلمى هدوّا والمطيّ بنا جنوح

فبتّ بها قرير العين حتى تكلم ناطق الصبح الفصيح

وكان مستهتراً بشرب الخمر لا يكاد يصلي، وقال وبلغه أن هشاماً هم بخلعه:

خذوا ملككم لا ثبّت الله ملككم ثباتاً يساوي ما حييت قبالا

ذروا لي سلمى والطلاء وقينةً وكأساً ألا حسبي بذلك مالا

أبالملك أرجو أن أعمّر فيكم ألا ربّ ملكٍ قد أزيل فزالا

ألا ربّ دارٍ قد تحمّل أهلها فأضحت قفاراً والبقاع تلالا

إذا ما صفا عيشي برملة عالج وعانقت سلمى لا أريد بدالا

المدائني والهيثم قالا: كان الوليد يلعب بالصوالجة في ملعب له، وهو يرتجز ويقول:

يا ربّ أمرٍ ذي شؤونٍ جحفل قاسيت فيه جالبات الأحول

قال: ولما ولي الخلافة بعث إلى سعيد بن خالد فقسره على أن يزوجه سلمى ابنته، فلما حملت إليهمن المدينة اعتلت في الطريق وماتت ليلة أدخلت عليه، و لم يزل على مجونه حتى وثبت اليمانية فقتلوه وبايعوا ليزيد بن الوليد بن عبد الملك.

وقال أبو نخيلة السعدي في الوليد:

بين أبي العاص وبين الحجاج يا لهما يورى سراج وهّاج

عليه بعد عمه عقد التاج

قالوا: وكان ولد الوليد: عثمان وأمه عاتكة من ولد محمد بن أبي سفيان بن حرب.

وسعيداً وأمه أم عبد الملك بنت سعيد بن خالد بن عمرو بن عثمان.

والعباس، ويزيد، والحكم، وفهر، ولؤي، وقصي، والعاص، ومؤمن، وواسط، ودوالة لأمهات أولاد شتى.

والوليد، ومفتح لأم ولد. درجوا كلهم.

المدائني قال: كان الوليد حين بايع له أبوه بعد هشام ابن إحدى عشرة سنة، قالوا: لما بلغ الوليد الحنث، ندم أبوه على تولية هشام عهده وقال: لو انتظرت بلوغه ولكن مسلمة لم يدعني وكان إذا رآه قال: الله بيني وبين من جعل هشاماً بيني وبينك.

وتوفي يزيد سنة خمس ومائة، وولي هشام فكان في بدء أمره مكرماً للوليد فمكث بذلك أعواماً، وكان مؤدب الوليد عبد الصمد بن عبد الأعلى الشاعر، وكان فيما يزعمون زنديقاً فحمله على شرب الخمر

والاستخفاف فاتخذ ندماء، وولاه هشام الموسم سنة عشرة ومائة فرأى الناس منه تهاوناً واستخفافاً، فأمر مولى له يقال له عيسى بن مقسم فصلى بالناس، وبلغ ذلك هشاماً فطمع في خلعه، فأراده على أن يخلعها ويبايع لابنه أبي شاكر مسلمة بن هشام فأبى، فتنكر له هشام وأضر به وجعل يشتمه ويتنقصه، وتمادى الوليد في الشرب واللذات فأفرط فقال هشام: ويحك ما أظنك على الإسلام، فكتب إليهالوليد:

يا أيها الباحث عن ديننا — نحن على دين أبي شاكر
تشربها صرفاً وممزوجة — بالسّخن أحياناً وبالفاتر

ويقال إن هذين البيتين لعبد الصمد بن عبد الأعلى قالهما فكتب بهما الوليد إلى هشام.

وكان في أبي شاكر بن هشام أيضاً مجون، وكان يكثر الشرب ويدمنه، فغضب هشام على مسلمة وقال: يعيرني الوليد بك، وأنا أرشحك للخلافة؟. فألزمه الأدب وحضور الصلوات والجمعات، وولاه في سنة سبع عشرة ومائة الموسم فأظهر النسك ولين الجانب، وقسم بمكة والمدينة أموالاً، فقال مولى لبعض أهل المدينة يعرض بالوليد بن يزيد:

يا أيها السائل عن ديننا — نحن على دين أبي شاكر
الواهب الجرد بأرسانها — ليس بزنديق ولا فاجر

وقال الكميت بن زيد:

إن الخلافة كائن أسبابها — بعد الوليد إلى ابن أم حكيم

فكان خالد بن عبد الله القسري يقول: أنا بريء من خليفة يكنى أبا شاكر. فبلغ مسلمة قول خالد، فلما مات أسد بن عبد الله أخو خالد كتب إليهمسلمة:

أراح من خالد وأهلكه — ربٌّ أراح العباد من أسد
أما أبوه فكان مؤتشباً — عبداً لئيماً لأعبد فقد

والبيتان لابن نوفل قالهما حين مات أسد، فلما قرأ خالد البيتين قال: ما رأيت كاليوم تعزية أعجب.

المدائني عن أبي محمد القرشي قال: كان هشام يعيب الوليد ويتنقصه فدخل عليه يوماً وعنده جماعة من بني مروان، وكانوا يعيبون الوليد قبل دخلوه فيقولون: هو أحمق، فقال له العباس بن الوليد بن عبد الملك: يا أبا العباس كيف حبك للروميات فإن أباك كان معجباً بهن، قال: إني لأحبهن، وكيف لا أحب من لا يزال يأتي بمثلك– وأم العباس رومية– فقال: لست بالفحل يجيء عسبه بمثلي. فقال له الوليد: يا بن البظراء. فقال العباس: يا وليد أتفخر علي بما قطع من بظر أمك؟.

وقال هشام للوليد يوماً: ما شرابك؟. قال: شرابك يا أمير المؤمنين، وقام مغضباً فقال هشام: هذا الذي يزعمون أنه أحمق، ما هو بأحمق ولكني أظنه على غير الملة.

المدائني عن أبي محمد القرشي قال: دخل الوليد يوماً مجلس هشام وفيه: سعيد بن هشام بن عبد الملك، وإبراهيم بن هشام بن إسماعيل المخزومي، خال هشام بن عبد الملك، وأبو الزبير مولى بني مروان، و لم يكن هشام بن عبد الملك حاضراً في المجلس فأقبل على سعيد بن هشام فقال: من أنت؟- وهو يعرفه-، فقال: سعيد ابن أمير المؤمنين. فقال: مرحباً بك، ثم قال لأبي الزبير: من أنت؟. قال: أبو الزبير. قال: نسطاس، مرحباً بك. ثم قال لإبراهيم بن هشام: من أنت؟. قال: إبراهيم بن هشام. قال: من إبراهيم بن هشام؟- وهو يعرفه-. قال: إبراهيم بن هشام بن إسماعيل المخزومي. قال: ومن إسماعيل المخزومي؟. قال: أنا الذي لم يكن أبوك يرى أنه في شيء حتى زوجه أبي. قال: يا بن اللخناء. وإئتخذا وأقبل هشام فقيل: أمير المؤمنين، فكفا وجلسا ودخل، فما كاد الوليد يتزحزح عن صدر المجلس، فزحل قليلاً وجلس هشام فقال: كيف أنت يا وليد؟ قال: صالح. قال: ما فعلت برابطك؟ قال: معلمة. قال: فكيف ندماؤك؟ قال: لعنهم الله إن كانوا شراً من جلسائك. وقام فقال هشام؛ يا بن اللخناء جؤوا في عنقه. فلم يفعلوا ودفعوه دفعاً رفيقاً، فقال الوليد:

أنا ابن أبي العاصي وعثمان والدي	ومروان جدي ذو الفعال وعامر
أنا ابن عظيم القريتين وعزّها	ثقيف وفهر والرجال الأكابر
نبيّ الهدى خالي ومن يك خاله	نبي الهدى يعلو الورى في المفاخر

وقال أيضاً :

أنا الوليد أبو العباس قد علمت	علياء معدٍ مدى ذكري وأقدامي
إني لدى الذروة العلياء إن نسبوا	مقابل بين أخوالي وأعمامي
بنى لي المجد بانٍ غير مدّركٍ	على منار مضيئات وأعلام
خلقت من جوهر الأعياص قد علموا	في باذخ مشمخرّ العزّ قمقام
صعب المرام يناغي النجم مطلعه	يسمو إلى فرع مجدٍ شامخٍ سام

قالوا: فلما كثر عيب هشام للوليد وتعبثه به وبأصحابه وخاصته، خرج في جماعة منهم فنزل بالأزرق بين أرض بلقين وفزارة، وخلف بالرصافة كاتبه عياض بن مسلم مولى عبد الملك، وأمره أن يكتب إليهما يحدث قبله.

قالوا: وكان سعيد بن عبد الرحمن بن حسان بن ثابت الأنصاري وفد على هشام، وكان غلاماً وضيء

الوجه فجعل يختلف إلى عبد الصمد بن عبد الأعلى الشيباني مؤدب الوليد بن يزيد بسبب الأدب، فراوده عبد الصمد بن علي عن نفسه فأتى باب هشام فأذن له فدخل مغضباً فقال:

إنه والله لولا أنت لم ينج مني سالماً عبد الصمد

قال هشام: ولم ذاك؟. قال:

إنه قد رام مني خطة لم يرمها قبله مني أحد

فهو فيما كان منه كالذي يتبغّى الصيد في خيس الأسد

فأساء هشام القول في عبد الصمد وهم به ثم أمسك.

قالوا: وكان عبد الصمد بن عبد الأعلى عند الوليد وهم يشربون، فقال عبد الصمد:

أظنّ الوليد دنا ملكه فأمسى إليهقد استجمعا

وإنا نؤمل في ملكه كتأميل ذي الجدب أن يمرعا

عقدنا له محكمات العه ود طوعاً وكان لها موضعا

فبلغ الشعر هشاماً فأغضبه، وكتب إلى الوليد: إنك اتخذت عبد الصمد خدناً وأليفاً ومحدثاً ونديماً، وقد صح عندي أنه على غير الإسلام، فحقق ذلك ما يقال فيك، ولم أر بك من سوء فاحمل إلي عبد الصمد مع رسول مذموماً مدحوراً. فلم يجد بداً من إشخاصه إليهوأنشأ يقول:

لقد قرفوا أبا وهب بأمرٍ كبيرٍ أو يزيد على الكبير

وأشهد أنهم كذبوا عليه شهادة عالم بهم خبير

قال: فلما صار عبد الصمد إلى هشام أمر بإنفاذه إلى يوسف بن عمر، ومعه أخ له يقال له عبد الرحمن، فبنى لهما يوسف بيتاً وجعلهما فيه وطين بابه وصير فيه كوة يرمي منها إليهما بالطعام، ووكل بهما محمد بن نباتة بن حنظلة، ثم أعطشهما حتى برصا أو برص أحدهما، وماتا عطشاً.

وقال هشام لعبد الله بن عبد الأعلى أخيهما وقد كلمه فيهما: أأنت على دينهما؟ قال: أنا عليه، والله ما يدينان إلا بالإسلام. فأمر به فأخرج عنه، وقال: لا يساكنني ولا يكلمنه أحد، فأتى الوليد بن يزيد فلم يأذن له عليه. وكان يجلس في المسجد وقد اجتنبه الناس.

المدائني عن مسلمة بن محارب عن رجل من قريش قال: قدمت الشام فرأيت عبد الله بن عبد الأعلى فتمنيت أن يكون حالي مثل حاله، ثم غبت أعواماً وقدمت الشام فإذا هو مفرد لا يجالسه أحد ولا يكلمه، فقلت له: إني قدمت الشام مذ أعوام فرأيتك في حال تمنيت أن أكون في مثلها، وأنت اليوم على ما أرى،

فقال: إنه بلغ قومنا عنا شيء فأخذوا بظاهر البلاغ، و لم يطلعوا على باطن الضمير، ومن ورائنا وورائهم الحساب.

المدائني عن أبي اليقظان قال: كان بالشام رجل من أهل اليمن يقال له عبد الله بن سهيل، وقد ولي دمشق أو شرطتها مراراً، فكتب الوليد إلى هشام يعلمه أنه قد فارق عبد الصمد ويسأله أن يأذن لابن سهيل في القدوم عليه، فضرب هشام ابن سهيل ونفاه، وأخذ عياض بن مسلم وبلغه أنه يكتب بالأخبار إلى الوليد فضربه وألبسه المسوح وقيده وحبسه، فغم ذلك الوليد فقال: من يثق بالناس أو يصطنع المعروف هذا الأحول المشؤوم قدمه أبي وولاه الخلافة وهو يصنع ما ترون.

وقال الوليد:

أنا النذير لمسدي نعمة أبداً	إلى المقاريف ما لم يخبر الدخلا
إن أنت أكرمتهم ألفيتهم بطراً	وإن أهنتهم ألفيتهم ذللا
أتشمخون ومنّا أصل نعمتكم	ستعلمون إذا صرتم لنا خولا
أنظر فإن أنت لم تقدر على مثلٍ	لهم سوى الكلب فاضربه لهم مثلا
بينا يسمّنه للصيد صاحبه	عدا عليه فلو يسطيعه أكلا

قالوا: وبلغ الوليد أن العباس بن الوليد بن عبد الملك وعمر بن الوليد وغيرهما من بني مروان يعيبونه بشرب الشراب فقال:

ولقد قضيت وإن تجلّل لمّتي	شيبٌ على رغم العدى لذّاتي
من كاعباتٍ كالدمى ومناصفٍ	ومراكبٍ للصيد والنشوات
إن يطلبوا بتراتهم يعطونها	أو يطلبوا لا يدركوا بترات

قالوا: وقطع هشام عن الوليد ما كان يجري عليه، وأسقط أسماء أصحابه وحرسه، وقطع ما كان يجريه عليهم، فكتب إليهالوليد: قد بلغني الذي أحدث أمير المؤمنين أصلحه الله في قطع ما قطع عني وعن أصحابي وحرسي وأهلي، و لم أكن خائفاً لأن يبتلي الله أمير المؤمنين بذلك، ولا يبتليني به منه، فإن يكن طلبي ابن سهيل علة ذلك فلم يبلغ أمر ابن سهيل وكتابي فيه ما بلغ أمير المؤمنين من قطيعتي، وإن يكن ذلك لشيء في نفس أمير المؤمنين علي فقد سبب الله لي من العهد، وكتب لي من العمر، وقسم لي من الرزق ما لا يقدر أحد على قطع شيء منه بدون مدته، ولا صرف شيء منه عن مواقعه، فأقدار الله تجري .بما أحب الناس أو كرهوا، فلا تأخير لعاجلها ولا تعجيل لآجلها، والناس بين ذلك مقترفون للآثام على أنفسهم.

فكتب إليههشام: قد فهم أمير المؤمنين كتابك، وأمير المؤمنين يستغفر الله من إجرائه ما كان يجري عليك، فإنه للمأثم في ذلك أخوف منه على نفسه في قطعه ما قطع لأمرين: أما أحدهما فإيثار أمير المؤمنين إياك بما كان يجريه عليك وهو يعلم المواضع التي تضعه فيها، وإنفاقك إياه في سبل المعصية، وأما الآخر فلأن أمير المؤمنين أثبت صحابتك وإدرار أرزاقهم وليس ينالهم ما ينال المسلمين في كل عام من المكروه عند قطع البعوث وجهاد العدو، وإنماهم معك تجول بهم في سفهك وبطلانك وفسوقك، ولأمير المؤمنين إلى التقصير في التغيير عليك أقرب منه إلى الاعتداء، ولقد بصر الله أمير المؤمنين من قطع ما قطع عنك وعن أصحابك المجان ما يرجو أن يكون كفارة لما سلف من إدرار ذلك عليكم وبالله الثقة. وأما ابن سهيل فهل زاد- لله أبوك- على أن كان زفاناً مغنياً، قد بلغ في السفه غايته، وليس هو في ذلك بشر ممن تستصحبه مع الأمور التي يكرم أمير المؤمنين نفسه عن ذكرها، مما أنت لعمر الله أهل للتوبيخ بها، فأما ما ذكرت مما سبب الله لك فإن الله قد ابتدأ أمير المؤمنين بذلك وأصفاه به، والله بالغ أمره، ولقد أصبح أمير المؤمنين على اليقين من ربه أنه لا يملك لنفسه فيما أعطاه الله من كرامته ضراً ولا نفعاً، وإن الله ولي ذلك منه، وإنه أرأف بعباده وأرحم من أن يولي أمرهم غير الرضا منهم، وإن أمير المؤمنين لحسن ظنه بربه على أعظم الرجاء أن ييسر له تسبيب ذلك لمن هو أهله في الرضا به، فإن بلاء الله عنده أعظم من أن يبلغه ذكره، ويؤدي حقه فيه شكره إلا بعون منه له، ولئن كان قد قدر لأمير المؤمنين تعجيل وفاة إن في الذي هو مفض إليهمن كرامة ربه إن شاء الله لخلفاً من الدنيا، ولعمر أمير المؤمنين إن كتابك إلى أمير المؤمنين بما كتبت به لغير مستنكر من سفهك وحمقك وسقوطك، فاربع على نفسك وغلوائها، فإن لله سطوات وغيراً يصيب بها من يشاء، وأمير المؤمنين يسأل الله العصمة والتوفيق لأحب الأمور إليه، وأرضاها له. والسلام.

فكتب إليهالوليد:

رأيتك تبني جاهداً في قطيعتي	فلو كنت ذا عقل لهدّمت ما تبني
ستترك للباقين مجنى ضغينة	وويلٌ لهم إن متّ من شر ما تجني

وقال الوليد:

أليس عظيماً أن أرى كل واردٍ	حياضك يوماً صادراً بالنوافل
وأرجع مجذوذ الرجاء مصرّداً	بتخليةٍ عن ورد تلك المناهل
فأويست مما كنت آمل فيكم	وليس يلاقي ما رجا كل آمل
كذي قبضةٍ يوماً على عرض هبوةٍ	يشد عليها كفه بالأنامل

وقال المدائني: ذكر الوليد عند المهدي أمير المؤمنين فقيل: كان زنديقاً، فقال: خلافة الله أجل وأكرم عليه من أن يوليها زنديقاً.

قال المدائني: وكانت عند الوليد أم عبد الملك بنت سعيد بن خالد بن عمرو بن عثمان بن عفان، فمرض سعيد وهو متبد، فعاده الوليد بن يزيد، فدخل عليه و لم يعلموا به، فرأى أختها سلمى بنت سعيد لمحة، فوقعت في قلبه، فطلق أختها وخطبها فلم يزوجه إياها أبوها، وكانت أختها أم عثمان بنت سعيد عند هشام، فأرسل هشام إلى سعيد: إياك أن تزوجه، فقال: أيريد الوليد أن يكون فحلاً لبناتك، يطلق واحدة ويتزوج واحدة، فلم يزوجه، فكتب إلى أبيها:

أبا عثمان هل لك في صنيع	تصيب الرشد في صلبي هديتا
فأشكر منك ذا المسدى وتحيي	أبا عثمان ميّتةً وميتا

فقال له عبد الصمد بن عبد الأعلى وهو بعد عنده، وليث وغيرهما من أصحابه: ما ترجو بها وقد ردك أبوها عنها، وسيزوجك إذا مات هشام فقال:

يعزيني أبو وهب وليث	ويعذل مالك وأبو ركين
فقلت لهم كلامكم محالٌ	دعوني من كلامكم دعوني

وقال ابو اليقظان: خرج الوليد إلى فدين ومترل سعيد بن خالد بفدين، فرأى رجلاً يبيع الزيت قريباً من مترل سعيد فأخذ ثيابه ولبسها، وساق حمار الزيت حتى أدخله قصر سعيد، وهو ينادي: من يشتري الزيت. فخرج الجواري فنظرن فقالت جارية منهن لسلمى: يا سيدتي ما رأيت إنساناً أشبه بالوليد من هذا الزيات ابن الخبيثة، انظري إليه، فاطلعت سلمى فقالت للجارية: ويحك هو والله الوليد، قد والله رآني فقولي له يا زيات أخرج لا نريد زيتك. فخرج وقد لمحها وقال:

إنني أبصرت شخصاً	حسن الوجه مليح
لابساً أثواب سوءٍ	من عباءٍ ومسوح
وأبيع الزيت بيعاً	خاسراً غير ربيح

وبلغه أنها خرجت في يوم عيد فقال:

خبّروني أنّ سلمى	خرجت يوم المصلّى
وإذا ثّم غرابٌ	فوق غصن يتفلّى
قلت بالله ادن مني	قال :ها ثم تدلى

قلت هل أبصرت سلمى قال :لا ثم تولّى

وقال الوليد أيضاً :

ألا ليت الإله يحين سلمى فإن الله يفعل ما يشاء
فيخرجها فيطرحها بأرض ويرقدها وقد سقط الرداء
ويأتي بي فيطرحني عليها فأوقظها وقد قضي القضاء
ويرسل ديمةً سحّاً علينا فيغسلنا فلا يبقى العناء

وقال أيضاً :

يا من لقلب في الهوى متشعب أم من لقلب في الحبال عميد
سلمى هواه فليس يذكر غيرها دون الطريف ودون كل تليد
إن القرابة والمودة ألّفا بين الوليد وبين بنت سعيد

وقال أيضاً :

شاع شعري في سليمى وظهر ورواه كل بادٍ وحضر
وتهادته العذارى بينها وتغنين به حتى انتشر
قلت قولاً لسليمى معجباً مثل ما قال جميلٌ وعمر
لو رأينا لسليمى أثراً لسجدنا ألف ألفٍ للأثر
واتخذناها إماماً مرتضىً ولكانت حجنا والمعتمر
إنما بنت سعيد قمر هل حرجنا إن سجدنا للقمر

وقال أيضاً :

رآني الله يا سلمى حياتي وفي يوم الحساب كما أراك
ألا تجزين من تيّمت عمراً ومن لو تطلبين لقد أتاك
ومن إن متّ مات ولا تموتي وإن ينسأ له أجلٌ بكاك
ومن لو قلت مت وأطاق موتاً إذاً ذاق الممات وما عصاك
ومن حقاً لو اعطي ما تمنى من الأرض العريضة ما عداك
أثيبي هائما كلفاً معنى إذا خدرت له رجل دعاك

وقال أيضاً :

أنا في يمنى يديها وهي في يسرى يديّه

إن هذا لقضاء غير عدلٍ يا أخيّه

ليت من لام محباً في الهوى لاقى المنّية

فاستراح الناس منه ميتةً غير سويّه

وقال أيضاً :

ويح سلمى لو تراني لعناها ما عناني

متلفاً في اللهو مالي عاشقاً حور الغواني

ولقد كنت زماناً خالي الذرع لشاني

وقال أيضاً :

أنا ابن يزيد بن عبد الملك وجدي مروان لا أم لك

فكيف إذا ما ملكت البلا د وقمت خطيباً على منبرك

فبخّ بخٍ بخ ما أكرمك وبخٍّ بخٍ بخ ما أفخرك

وقال أيضاً :

من لقلبٍ أمسى كئيباً حزينا مستهاماً بين اللهى والتراقي

أمّ سلاّم ما ذكرتك إلا شرقت بالدموع مني المآقي

حذراً أن تبين لي دار سلمى وتجيء الدنيا لها بفراق

وقال أيضاً :

نام من كان خلياً من ألم ولقد بتّ شجياً لم أنم

احكمي في الوصل إذ وليته ليس قتل النفس من عدل الحكم

أرقب النجم كأني مسند بأكفّ القوم تغشاني الظلّم

قالوا: و لم يزل الوليد مقيماً بالأزرق في البرية حتى مات هشام، فلما كان غداة اليوم الذي جاءته فيه الخلافة أرسل إلى المنذر بن أبي عمرو فأتاه فقال له: يا أبا الزبير ما أتت على ليلة مذ عقلت أطول من ليلتي هذه، ما زلت في هموم وحديث نفس واغتمام بأمر هذا الرجل الذي قد أولع بي– يعني هشاماً– فاركب بنا نتنفس، فركبنا هو كذلك إذ نظر إلى رهج فقال: هؤلاء رسل هشام نسأل الله خيرهم.

وبدا له رجلان على البريد أحدهما مولى لأبي محمد السفياني، فلما بصرا بالوليد بن يزيد نزلا ثم دنوا منه فسلما عليه بالخلافة، فوجم ثم قال: أمات هشام؟. قالا: نعم. قال: فممن الكتاب؟ قالا: من مولاك سالم بن عبد الله صاحب ديوان الرسائل، فقرأ الكتاب وانصرفا، ثم دعا مولى السفياني فسأله عن عياض فحدثه حديثه وإحرازه ما أحرز من الخزائن وغير ذلك من أمره.

وكتب الوليد إلى العباس بن الوليد بن عبد الملك يأمره أن يأتي الرصافة فيحصي ما فيها من أموال هشام، وأموال ولده ويأخذه عماله وحشمه إلا مسلمة بن هشام لأنه كان يكثر ان يكلم أباه فيه ويكف عنه شره ويسأله الرفق به.

فقدم العباس الرصافة فأحكم للوليد ما كتب به إليه، وأتته أم سلمة بنت يعقوب المخزومية وهي امرأة مسلمة بن هشام فقالت: إن مسلمة لا يفيق من الشراب ولا يكترث لموت أبيه وأمر إخوته. فأخبر العباس مسلمة بما قالت ووبخه، فطلقها مسلمة في ذلك المجلس، فشخصت تريد فلسطين، فتزوجها أبو العباس أمير المؤمنين.

وكتب العباس بن الوليد إلى الوليد بثبت ما أحصى من أموال هشام وما في خزائنه فقال الوليد:

ليت هشاما عاش حتى يرى	محلبه الأوفر قد أترعا
كلنا له بالصاع إذا كالها	وما ظلمناه بها أصوعا
وما أتينا ذاك عن بدعةٍ	أحلّه القرآن لي أجمعا

المدائني قال: كان هشام بن عبد الملك خطب إلى يزيد بن عمر بن هبيرة أخته أو ابنته على معاوية بن هشام، فأبى أن يزوجه إياها فجرى بعد ذلك بين يزيد بن عمر وبين الوليد بن القعقاع كلام بلغ هشاماً فبعث به هشام إلى الوليد بن القعقاع فضربه مائة سوط، وحبسه فقال ابن طيسلة:

ما فل خيس رجال لا عقول لهم	من يعدلون إلى المحبوس في حلب
إلى امرئٍ لم تصبه الدهر معضلة	إلا استقل بها مسترخي اللّبب

فلما مات هشام كان البشير بموته إلى الوليد بن يزيد فقال له الوليد: احتكم، فقال: ولاية قنسرين والتخلية بيني وبين الوليد بن القعقاع وأخيه عبد الملك بن القعقاع، فأجابه إلى ذلك، ويقال إنه ولاه جند قنسرين، فهرب الوليد وعبد الملك ابنا القعقاع فاستجارا بقبر مروان، فلم يجرهما الوليد وبعث بهما إلى يزيد بن عمر، وكان على حبسه رجل من فزارة يقال له نوفل بن سكين، فدفعهما إليهفحبسهما، فمات أحدهما في الحبس في العذاب، ويقال ماتا جميعاً، فقال عبد العزيز بن القعقاع:

أنوفل من يضمن دماً من دمائنا وشيخاً يشقّقن الجيوب أقاربه

وقال أبو الشغب العبسي واسمه عكرشة بن أربد بن عروة بن مسحل بن شيطان بن جذيم بن جذيمة:

أمست قبور بني مروان مخفرةً لا يستجار ولا يرعى لها الراعي

قبر التميمي أوفى من قبورهم يسعى بذمته في قومه الساعي

إنّ البرية قالت عند غدرته أفٍ لقبر به عاذ ابن قعقاع

وكان الكلام الذي وقع بينهما أن الوليد قال ليزيد: يا بن الفرار- يعني أباه حين هرب من سجن خالد- فقال له يزيد: يا بن الضراط، فقال الوليد: يا بن اللخناء. فقال يزيد:

بل أنت نزوة خوّارٍ على أمةٍ لا يسبق الحلبات اللؤم والخور

فقال: يا بن الفجواء. قال يزيد: إنما قدمتكم أعجاز النساء وقدمتنا صدور العوالي- يعني أن ولادة أم الوليد وسليمان كانت منهم، وكان القعقاع بن خليد ضرط عند الوليد، وذلك أن الوليد قال لابن رأس الجالوت: تزعمون أن في ولد داود علامة يعرفون بها وهي أن يمد أحدهم يده فتنال ركبته، فقال القعقاع: فيدي تنال ركبتي، وقام لينال ركبته فضرط، فقال الشاعر لشيبة بن الوليد بن القعقاع:

يا شيب هل لك في ألفٍ مدرهمةٍ بضرطةٍ ليس في إرسالها لها حرج

كدأب شيخك إذ أهوى لركبته فخان فقحته من ضعفها الشّرج

المدائني عن الهيثم ومسلمة قالا: استعمل الوليد بن يزيد العمال، وجاءته البيعة من الآفاق، فأجرى على زمنى أهل الشام وعميانهم وكساهم، وأمر لكل إنسان منهم بجائزة وخادم يخدمه، وأخرج لعيالات الناس الطيب والكسى، وزاد الناس في أعطياتهم عشرات نقصهم إياها يزيد بن الوليد بعد ذلك، فسمي يزيد الناقص، وكان الوليد يطعم الناس، وقال الوليد:

طاب عيشي وطاب شرب المدامة إذ تحسّيتها بغير ملامة

وقال أيضاً :

طاب عيشي وطاب شرب السّلافة إذ أتانا نعي من بالرّصافة

وأتانا البريد ينعى هشاماً وأتانا بخاتم للخلافة

وقال أيضاً :

طال ليلي وبتّ أسقى المداما إذ أتانا البريد ينعي هشاما

وأتاني بحلة وقضيبٍ وأتاني بخاتم ثم قاما

فجعلت الولي من بعد فقدي أفضل الناس ناشئا وغلاما

ذاكم ابني وذاك قرم قريشٍ خير خلفٍ وخيرهم قدّاماً

وقال أيضاً :

إني سمعت خليلي نحو الرصافة رنّه

خرجت أسحب ذيلي أقول ما شانهنّه

إذا بنات هشامٍ يندبن والدهن

يندبن شيخاً كبيراً قد كان يكرمهنّه

فقلن ويلي وعولي والويل حلّ بهنّه

أنا المخنث حقاً إن لم أنيكهنّه

قالوا: وكتب مروان بن محمد إلى الوليد بن يزيد: بارك الله لأمير المؤمنين فيما صار إليهمن ولاية عباده ووراثة بلاده، وقد كانت سكرة الولاية غشيت هشاماً فصغر ما عظم الله من حق أمير المؤمنين ورام من الأمر المستصعب عليه الذي أجابه إليهالمدخلون في آرائهم وأديانهم ما حال الله بينه وبينه، فزحمته الأقدار عنه بأشد مناكبها، وكان أمير المؤمنين بمكان من الله حاطه فيه حتى ألبسه أكرم لباس الخلافة فنهض مستقلاً بما حمله فالحمد لله الذي اختار أمير المؤمنين لخلافته واختصه بوثائق عرى كرامته وذب عنه ما كاده الظالمون فيه، فرفعه ووضعهم، وأعزه وأذلهم، فمن أقام منهم على الخطيئة أوبق نفسه وأسخط ربه، ومن عدلت به التوبة نازعاً عن الباطل إلى الحق وجد الله تواباً رحيما، وإني نهضت إلى منبري فأعلمت من قبلي من المسلمين ما امتن الله به عليهم من ولاية أمير المؤمنين فاستبشروا ببيعتهم، وقد بسطت يدي للبيعة فوكدها عليهم بالوثائق والعهود وتغليظ الأيمان فكل الناس حسنت إجابته وطاعته، فأثبهم يا أمير المؤمنين بطاعتهم من مال الله الذي أتاك فإنك أجود الناس جوداً وأبسطهم يداً، فقد انتظروك راجين فنلهم بفضلك وأوسع عليهم برفدك وعرفهم طولك على من كان قبلك، وإن رأى أمير المؤمنين أن يأذن لي في القدوم عليه لأشافهه بأمور أكره الكتاب بها فعل إن شاء الله.

وقال الوليد:

هلك الأحول المش ؤوم فقد أرسل المطر

وملكنا من بعد ذا ك فقد أورق الشجر

فاشكروا الله إنه زائدٌ كل من شكر

ويقال إن هذا الشعر لغير الوليد.

قالوا: وكتب الوليد حين ولي إلى الأطراف:

ضمنت لكم إن لم تغلني منيّتي بأنّ سماء الضرّ عنكم ستقلع

ستؤتون إلحاقاً معا وزيادة وأعطيةً تأتيكم تتسرّع

فلما ظهر أمره وتهتكه قال حمزة بن بيض الحنفي:

وصلت سماء الضرّ بعدما زعمت سماء الضرّ عنكم ستقلع

فليت هشاماً كان حياً يسوسنا فكنا كما كنا نخاف ونطمع

قالوا: وتهتك الوليد في الشراب وقال:

أحبّ الغناء وشراب الطّلا وأنس النساء وربّ السّور

ودلّ الغواني وعزف القيان بصبح يمانٍ قبيل السّحر

وأما الصباح فهمّي القداح وخيل شواح جياد حضر

ونصف النهار عراك الجوار وحلّ الإزار إذا تنبهر

وأما العشيّ فأمر جليّ وقتل الكميّ بعضبٍ ذكر

سبتني البغوم بدلٍّ رخيم ووجهٍ نضيرٍ شبيه القمر

وردفٍ نبيلٍ وخدٍ أسيل كسيفٍ صقيل يحير البصر

وقال أيضاً :

عللاني بعاتقات الكروم واسقياني بكأس أم حكيم

إنها تشرب المدامة صرفاً في إناءٍ من الزجاج عظيم

وأم حكيم بنت يحيى بن الحكم بن أبي العاص وهي أم مسلمة بن هشام.

قال أبو الحسن المدائني: كسا الوليد الغزيل أبا كامل المغني قلنسوة برود كانت عليه فكان يصونها ولا يلبسا إلا في يوم عيد ويقول: كسانيها أمير المؤمنين فقد أوصيت أهلي أن يضعوها في أكفاني، وقال فيه الوليد:

من مبلغٌ عني أبا كاملٍ إني إذا ما غاب كالهامل

وزادني شوقاً إلى قربه فيما مضى من دهرنا الحابل

إني إذا عاطيته مرّة ظللت بيوم الفرح الجاذل

وقال أيضاً :

لا عيش إلا بمالك بن أبي السّ مح فلا تلحني ولا تلم

مثل ضياء المصباح أو قبس ال قابس في حالكٍ من الظّلم

ويقال إن البيتين لحسين بن عبد الله بن عبيد الله بن العباس.

المدائني وغيره قالوا: لما قام الوليد لم يكن له همة إلا تزوج سلمى، فأرسل فخطبها فتزوجها فقيل له: قد كنت حلفت بطلاقها إذا تزوجتها ثلاثاً. فسأل عن يمينه فاختلفوا عليه، فقال بعضهم: طالق. وقال آخرون: لا طلاق إلا بعد نكاح، فهم أن يدخل بها فقيل: أنت إمام وإن دخلت بها أخذ الناس ذلك سنة فأمسك، وزوجها أخوها من ابن أخي الوليد ودخل بها ثم طلقها ابن أخي الوليد، وقيل أن أباها زوجها من ابن أخي الوليد فلما زفت إليهوكل به الوليد من منعه من الدخول بها حتى طلقها، ويقال إنه دخل بها ثم طلقها، وانتظر الوليد أن تنقضي عدتها فلما انقضت خطبها إلى أبيها فتزوجها وقال:

خفّ من دار جيرتي يا خليليّ أُنسها

أفلا تخرج العرو س فقد طال حبسها

قد دنا الصبح أو بدا وهي لم يقض لبسها

خرجت كالمهاة في ليل ة غاب نحسها

بين خمس كواعبٍ أكرم الجنس جنسها

وقال أيضاً :

أسلمى تلك في العير ففي إن شئت أو سيري

فلما أن دنا الصبح وأصوات العصافير

خرجنا نتّقي الشمس مطايا القوم كالعور

إذا ما أغرضٌ حالت سددناها بتصدير

قال: وقالت ابنة سعيد: أبي يصلح للخلافة، فقالت ابنة الوليد:

فإنك والخلافة يا سعيد لكالحادي وليس له بعير

فقالت سلمى: و لم لا يطمع في الخلافة وهو ابن أمير المؤمنين عثمان، وغضبت فقال الوليد:

غضبت سلمى عليّ سفاهاً أن شتمت اليوم فيها أباها

قالوا: فماتت بعد دخوله عليها بأربعين يوماً ويقال ليلة دخلت عليه أو بعدها بثلاث، ويقال بسنة، فقال:

ألم تعلما سلمى أقامت بمهمهٍ مضمّنةٍ قبراً من الأرض أُلحدا

في أشعار.

وقالوا: عقد الوليد لابنه الحكم واستعمله على دمشق، وعقد لابنه عثمان بعده، واستعمله على حمص وضم إليهربيعة الرأي بن أبي عبد الرحمن الفقيه.

وقال الهيثم بن عدي: وقال الوليد:

ولقد صدنا غزالاً سانحاً فأردنا ذبحه لما سنح

فإذا شبهك ما ننكره حين أشجى طرفه ثم لمح

فتركناه ولولا حبكم فاعلمي ذاك لقد كان ذبح

أنت يا ظبي طليق آمنٌ فاغد في الغزلان مسروراً ورح

وقال الهيثم بن عدي: سمي الوليد البيطار لأنه كان يصيد الحمر الوحشية فيسمها بالوليد ثم يخليها فوجدت في أيام أبي العباس السفاح والمنصور حمر موسومة باسمه.

وكان يحب دخول الحيرة والكوفة فخرج كالمتبدي، ثم أتى الكوفة فنادم شراعة بن أبي الزندبوذ، ومطيع بن إياس، وحماد الراوية، وحماد عجرد وبعض آل أبي معيط، وقال يوماً لشراعة: أسألك عن الأشربة فقال: سل يا أمير المؤمنين. قال: ما تقول في الماء؟ قال: الحياة ويشركن فيه البقر والحمير والكلاب. قال: فاللبن؟ قال: ما رأيته قط إلا ذكرت ثدي أمي. قال: فنبيذ التمر؟ قال: نبيذ الباعة والمهان ومن لا خلاق له، قال: فنبيذ السكر؟ قال: الخمرة المنتنة. قال: فنبيذ الزبيب والعسل؟ قال: مرعى ولا كالسعدان. قال: فالخمر؟ قال: واهاً لها، تلك صديقة روحي وحياة نفسي. قال: فعلى أي الوجوه تحب أن تشربها؟ قال: على وجه السماء.

ويقال إنه لم يخرج إلى الكوفة ولكن أشخص ظرفاؤها إليه، وكان فيهم شراعة بن أبي الزندبوذ.

وقال حماد: أنشدته أشعار العرب فلم يهش لها، وأنشدته شعراً سخيفاً فطرب له واستعادنيه فقلت: هذا والله الإدبار، ثم دخلت بعد على أبي مسلم فقال: أنشدني قصيدة الأفوه فأنشدته إياها، وجعل يستعيدني قوله:

تهدى الأمور بأهل الرأي ما صلحت فإن تولّت فبالأشرار تنقاد

فقلت: هذا والله الإقبال.

وقالوا: وكان مما سمع الوليد بالكوفة- أو ممن أشخص إليهمن أهل الكوفة- فأعجبه، غناء قينتين لعبد الله بن هلال الهجري المعروف بصديق إبليس، وهو من حمير، فقال:

يا أهل بابل ما نفست عليكم | من عيشكم إلا ثلاث خلال
خمر الفرات وليل قيظ باردٍ | وسماع مسمعتين لابن هلال

ويروى: ماء الفرات وخمرة حيرية وسورية.

قالوا: وكتب الوليد إلى خاله يوسف بن محمد بن يوسف- وكان عامله على مكة والمدينة- أن يأخذ ابني هشام بن اسماعيل: إبراهيم ومحمداً ويحملهما إلى يوسف بن عمر ليحاسبهما ويأخذ للناس حقوقهم منهما، وكتب في أخذ عمال هشام وحشمه بما عندهم إلا مسلمة ابنه.

وقال الوليد:

علّل القوم قليلاً | يا بن بنت الفارسية
غنّهم أنت وبشرٌ | وابن بنت الهذليه
انهم قد عاقروا اليو | م عقاراً مقديّه
عندنا مسكٌ وريح | ان وعود المندليه

وقال أيضاً :

عللاني واسقياني | من شراب الأصبهاني
من شراب الشيخ كسرى | وشراب القيرواني
وامزج الكأس ولا تك | ثر مزاج العسقلاني
إن بالكأس لمسكاً | وبكفّي من سقاني
إنما الكأس ربيع | يتعاطى بالبنان

وقال أيضاً :

اسقنا يا زبير بالقرقاره | قد طربنا وحنت الزمارة
اسقني اسقني فإنّ ذنوبي | قد أحاطت فما لها كفارة

وقال أيضاً :

أصبح اليوم وليد | هائماً بالغانيات

عنده طاس وإبري	ق وراح بالفلاة
ابعثوا خيلاً لخيلٍ	ورماة لرماة

وقال أيضاً :

اسقني يا زيد صرفاً	اسقني بالطرجهاره
اسقنيها مزة تأخ	ذني منها استداره
اسقنيها كي تسلّي	ما بقلبي من حراره

وقال أيضاً :

امدح الكأس ومن أعملها	واهج قوماً قتلونا بالعطش
إنما الكأس ربيع باكر	فإذا ما غاب عنا لم نعش

وقال أيضاً :

نزلت سلمى بقلبي	منزلاً ذا عدواء
فزجرت النفس عنها	لو تناهت بانتهاء
نظرت سلمى وقالت	حين صدّت يا نسائي
نظر الظبية ريعت	وهي وسنى في ظباء

وقال أيضاً :

وجدت العيش يا سلمى	مزاج الكاس بالكاس
إذا ما كأسنا دارت	فهزّت فروة الراس
وفتياناً أُنادمهم	كراماً غير أنكاس
فلولا رقبة الله	وإني رهن أرماس
لقد زرتك يا سلمى	على خوف وإيجاس
ولا والله يا سلم	اي ما بالحب من باس

وقال أيضاً :

أم سلامٍ لو لقيت من الوج	د عشير الذي لقيت براك
فأثيبي بالودّ صبّاً عميداً	مستهاماً لم يشجه ما شجاك

أنت تفدين عبد من كل خيرٍ ومن السّوء هي تكون فداك

وقال يرثي مؤمناً ابنه وكان محباً له:

أتاني سنان بالوداع لمؤمنٍ فقلت له إني إلى الله راجع

وكيف بكائي مؤمناً ولقد أرى بأني له يا نفس لا بدّ تابع

ألا أيها الحاثي عليه ترابه تعست وشلّت من يديك الأصابع

قالوا: وبعث الوليد إلى المدينة فحمل إليهالمغنون، فلما قربوا منه أمر أن يدخلوا العسكر ليلاً كراهة أن يراهم الناس، فأقاموا حتى أمسوا غير محمد بن عائشة مولى كثير بن الصلت فإنه دخل نهاراً فغضب عليه الوليد وأمر بحبسه حتى شرب ذات يوم وطرب فكلمه فيه معبد فدعا به، فغناه حين دخل:

أنت ابن مسلنطح البطا ح ولم نطرق عليك الحبيّ والولج

فرضي عنه.

المدائني قال: قدم الأحوص بن محمد الشاعر، ومعبد على الوليد فترلا في بعض طريقهما على غدير وجارية تستقي منه فزلقت فانكسرت جرتها فجلست تغني:

يا بيت عاتكة الذي أتغزّل حذر العدى وبه الفؤاد موكّل

إني لأمنحك الصدود وإنني قسماً إليك مع الصدود لأميل

فقالا لها: لمن أنت يا جارية؟ قالت: كنت بالمدينة لآل الوليد فاشتراني مولاي وهو من آل الوحيد بن كعب بن عامر بن كلاب، قالا: فلمن الشعر؟ قالت: سمعت أهل المدينة يقولون أن الشعر للأحوص، والغناء لمعبد. فقال معبد للأحوص: قل في هذا شيئاً أغني به فقال:

إن زين الغدير من كسر الج رّ وغنى غناء فحل مجيد

قلت من أنت يا ظعين فقالت كنت فيما مضى لآل الوليد

ثم صرت بعد عزّ قريش في بني عامر لآل الوحيد

وغنائي لمعبدٍ ونشيدي لفتى الناس أحوص الصنديد

فتضاحكت ثم قلت أنا الأحو ص والشيخ معبدٌ فأعيدي

فأعادت فأحسنت ثم ولّت تتهادى فقلت أمّ سعيد

يعجز المال عنك ولكن أنت في ذمة الإمام الوليد

أم سعيد هوىً كانت للأحوص بالمدينة، فلما قدما على الوليد غناه معبد بهذا الشعر وحدثاه الحديث.

وقال أشعب: قال لي الوليد: أما ترى خالي، كأن المحاجم بين عينيه، فإن أضحكته فاحتكم. فقلت: أخذني بطني مرة فخرجت فإذا الدنيا فسطاط واحد، فذكرت قول نبطي مرةً، قال: من حكمة فارس، إذا أخذك بطنك فشد على لسانك، فإن لم يسكن فشد على فخذيك، فإن جاءك أكثر من ذاك فانتف من شعر أستك شعرتين أو ثلاثاً ففعلت ذلك فارتفع. فضحك وقال: أتفعل ذلك وأنت محرم؟ قلت: نعم. فضحك وأخذت الجائزة.

قالوا: وأرسل الوليد إلى البصرة فحمل إليهالهيثم القارئ: وعبد الله بن عمر البكراوي فاستقرأ الهيثم فقرأ، ثم قال: غنني. فقال: الغناء شيء قد نسيته.

المدائني عن العلاء بن المغيرة قال: قلت للوليد: إني أريد العراق أفلك حاجة يا أمير المؤمنين؟ قال: بربط من صنعة زربي.

قال: وكان محمد بن سليمان بن عبد الملك من أضرب الناس وأحسنهم صوتاً وغناء، فكان يدخل على الوليد فيغنيه.

وقال أبو الحسن المدائني: قال العلاء بن المغيرة: وقف الوليد عل غدير فأمر بضرب فسطاط له عليه، ثم قال: والله لا أبرحه أو يشرب جميع مائه. فجعل الناس ينقلون ماءه بالروايا والقرب حتى نفد ماؤه، فلما نظر إليهقال: أنا أبو العباس. وأمر الناس بالرحيل بعد ثالثة.

قالوا: وكتب الوليد في إشخاص أشعب الطمع إليهفألبسه سراويل من جلد قرد له ذنب، وقال له: ارقص وغنني صوتاً يعجبني فرقص وأضحكه فأمر له بألف درهم، ويقال بعشرة آلاف درهم.

وقال الكلبي: قال حماد الراوية: دعاني الوليد فقدمت عليه فقال: أنشدني، فأنشدته جيد أشعار العرب فلم يرتح لشيء من ذلك، حتى جرى الحديث والمزاح فأنشدته قول ابن أبي كبار الهمداني وهو عمار بن عبيد بن يزيد بن عمرو بن ذي كبار السبيعي من همدان، وهو:

اشتهي منك مكاناً مجنبذا ... حبّذا ثم حبذا حبذا

حبذا من شذا بذا

فضحك وطرب ووصلني، ثم صرت بعد ذلك إلى أبي مسلم فقال: أنشدني شعر الأفوه الذي يقول فيه:

تهدى الأمور بأهل الرأي ما صلحت ... فإن تولّت فبالأشرار تقتاد

لا يصلح القوم فوضى لا سراة لهم ... ولا سراة إذا جهّالهم سادوا

فقلت: هذا والله الإقبال لا إدبار الوليد.

وقال هشام ابن الكلبي: لم يشخص الوليد إلى الكوفة كما قال بعض الناس ولكن فتيانها شخصوا إليهمثل شراعة بن أبي الزندبوذ، ومطيع بن إياس وحماد الراوية، وفتيان آل أبي معيط، وأشخصت إليهقينتان لعبد الله بن هلال الهجري الذي يقال له صديق إبليس، وحمل إليهخمر كثير من طيزناباذ والفلاليج، وسوار، وفرات بادقلى فقال في ذلك:

يا أهل بابل ما نفست عليكم — من عيشكم إلا ثلاث خلال

خمر الفرات بماء قيظ بارد — وغناء مسمعتين لابن هلال

وقال الحرمازي: سمعت من يحلف عن مشايخ الكوفيين أنه قدم متنكراً، ثم انصرف ومعه ظرفاؤها. وسئل هشام بن عمار عن هذا وجرى حديث الوليد فقال: أما الشخوص إلى الكوفة فلا أدري، ولكنه كان يسير في طريقها المرحلتين والثلاثة ويحمل إليهما يحبه منها.

وقال هشام بن عمار عن أبيه: كان الوليد منهمكا على لذاته مشغولاً عن أمور الناس، يصطبح الأربعين يوماً وأقل وأكثر فلا يراه إلا ندماؤه وخواص خدمه.

وقال المدائني: قال الوليد:

لمن دمنةٌ أقفرت بالجلي — ل أنكرتها بعد إيناسها

كخط الصحيفة بعد الزم — ان تبقى حلوكة أنقاسها

وأمر ابن عائشة فغنى بهذا الشعر.

المدائني عن جويرية بن أسماء عنإسحاق بن محمد قال: دخلت على منصور بن جمهور وعنده جاريتان من جواري الوليد، فقال: اسمع ما يحدثانك به، فقالتا: كنا آثر جواريه عنده فوطيء هذه، وجاء المؤذن يؤذنه بالصلاة فأخرجها وهي جنب متلثمة فصلت بالناس.

ولاعب الوليد بن يزيد رياح بن عثمان المري فضربه بقضيب كان معه. فقال: أوجعتني يا أمير المؤمنين، وأخذ رياح القضيب منه فضربه ضربة حمرت فخذه فقال: أوجعتني ويلك يا رياح.

حدثني عبد الله بن صالح عن ابن أبي الزناد عن أبيه قال: كنت عند هشام، وعنده الزهري، فذكر الوليد فتنقصاه وعاباه عيباً شديداً، و لم أعرض لشيء مما كانا فيه، وجاء الوليد فدخل وأنا أعرف الغضب في وجهه، فجلس قليلاً ثم قام، فلما مات هشام أرسل إلي فحملت إليهفرحب بي وقال: كيف كانت حالك، وألطف في المسألة وقال: أتذكر يا عبد الله بن ذكوان يوم الأحول وعنده الفاسق الزهري وهما

يعيباني؟ قلت: أذكر ذاك و لم أعرض في شيء منه. قال: صدقت، أرأيت الغلام القائم على رأس هشام؟ قلت: نعم. قال: فإنه رفع إلي ما قالا، وايم الله لو بقي الفاسق الزهري لقتلته. قلت: قد عرفت الغضب في وجهك حين دخلت يومئذ، ثم قال: يا بن ذكوان ذهب الأحول بعمري. قلت: يطيل الله عمرك يا أمير المؤمنين ويمتع الأمة ببقائك، ودعا بالعشاء فتعشى، وجاءت المغرب فصلينا وحدثنا حتى جاءت العشاء الآخرة فصلينا وجلس ثم قال: اسقني، فجاؤوا بإناء مغطى وجاء ثلاث جوار فصففن بيني وبينه حتى شرب ثم ذهبن فتحدثنا ثم استسقى فصنع الجواري الثلاث مثل ذلك، فلم يزل يتحدث ويستسقي على ذلك، حتى طلع الفجر، فأحصيت له سبعين قدحاً.

أبو الزناد عبد الله بن ذكوان مولى رملة بنت شيبة بن ربيعة بن عبد شمس، يكنى أبا عبد الرحمن، ومات بالمدينة سنة ثلاثين ومائة.

قال: وأرسل الوليد إلى محمد الحداد وصارعه، فاحتمله محمد فوضعه على منكبيه، ثم أتى به السرير فوضعه عليه فلطمه الوليد وضحك.

المدائني عن أبي محمد القرشي قال: كان عمر الأزرقي مولى سعيد بن خالد بن عمرو بن عثمان صريعاً للوليد فقال عمر: إني لجالس يوماً على باب البيت الذي فيه الوليد وهو مضطجع ما عنده أحد، إذ قال: يا عمر، قلت: لبيك يا أمير المؤمنين، قال: ويحك ما بقي منك؟ قلت: أغلب الأسد ولا تطيقني الرجال، فضحك وسكت، ثم وثب عن السرير فاحتملني على رأسه ثم ضرب بي الأرض فكاد يقتلني، ثم رجع إلى السرير واستلقى فضحك، قلت: يا أمير المؤمنين اغتررتني، أما لو أعلمتني لعلمت ما أصنع.

قالوا: وكان الوليد شديد البطش طويل أصابع اليدين والرجلين، توتد له سكة حديد وفيها خيط، ويشد الخيط في رجله، ويؤتى بالدابة فيثب عليها فينتزع السكة، ويركب وما يمس الدابة بيده.

هشام ابن الكلبي والمدائني قالا: خرج الوليد يتصيد ومعه حسين بن عبيد بن برهمة بن أذينة بن حارثة بنت جندلة بن عبيدة بن امرئ القيس بن عبد الله بن جناب الكلبي، فانفردا عن الناس حتى انقطعا عنهم، وتعالى النهار، وجاع الوليد فانتهى إلى قرية فرأى بها رجلاً جالساً فقال له: أعندك شيء نأكله؟ قال: نعم، وجاء بخبز شعير وربيثاء وزيت وكراث فأكل الوليد وحسين بن برهمة الكلبي وكان ماجناً خليعاً فقال:

إنّ من يطعم الرّبيثاء بالزي ... ت بهذا المكان والكراث
لخليق بلطمة أو بثنتي ... ن لسوء الصنيع أو بثلاث

فقال الوليد: ويحك إنما ينبغي أن تقول ببدرة أو بثنتين لحسن الصنيع أو بثلاث، وأقاما حتى لحقهما الناس، فأمر الوليد للرجل بثلاث بدر. ولحسين يقول الشاعر:

زعم الزاعمون أن حسين ب ... ن عبيد بن برهمة زنديق

ولعمري لئن هم زعموه ... ما أشطّوا وإنّه لخليق

يشرب الخمر كل يوم ويزني ... ويواري قمدّه الصندوق

قالوا: وكان الوليد يطأ جواري أبيه اللاتي كان وطئهن، فقالت جارية منهن: والله لقد نالنا بما تعافه البهائم.

قال المدائني: كان للوليد مضحك يقال له زبالة، فكتب الوليد بين عينيه بخضرة حر، فكره الناس ذلك وتحدثوا به وعابوه.

ومن شعر الوليد:

قد كنت أحسب أنني جلد القوى ... حتى رأيت كواعباً أترابا

يرفلن في وشي البرود عشية ... مثل الظباء وقد ملئن شبابا

وأنشدت مغنية للوليد:

أطربتني للصبح يوم صبوحي ... قينةٌ في يمينها إبريق

فقال: هو كذا فأتمي الأبيات. فقالت: لا أعرف منه غير هذا. فقال: قد كان حماد الراوية أنشدنيه مرة، فكتب في إشخاص حماد على البريد فلما دخل عليه قال: قينة في يمينها إبريق. وأنشد:

ثم نادوا ألا اصبحونا فقامت ... قينة في يمينها إبريق

قدّمته على عقار كعين الدي ... ك صفى سلافها الراووق

مزّةٌ قبل مزجها فإذا ما ... مزجت لذّ طعمها من يذوق

وطفت فوقها طوافٍ من اليا ... قوت حمر يثيرها التصفيق

في أبيات فكساه وأجازه وأمر فأقفل من ساعته.

قالوا: وكان عبد الجبار بن يزيد بن عبد الملك أخو الوليد يرمى بالتأنيث فتزوج ابنة محمد بن الوليد بن بد الملك، فلم يصل إليها، ففرق هشام بينهما فخلف عليها بعده محمد بن روح بن الوليد، فغضب الوليد بن يزيد، وكان آل الوليد بن عبد الملك أعداء آل مروان فأساء بهم، وتجنى على محمد بن روح فحبسه وحبس عدة منهم فيهم المؤمل بن العباس بن الوليد.

مقتل الوليد بن يزيد

قالوا: وكان الناس يتحدثون في أيام يزيد بن عبد الملك أن الوليد شهيد بني مروان.

وحدثني هشام بن عمار قال: سمعت مشايخنا يحدثون أنه كان في نفس الوليد بن يزيد بن عبد الملك على سليمان بن هشام شيء وذلك أنه كان يساعد أباه على ذمه ويشير عليه بخلعه وقتله، فلما ولي دعا به فقال: ألست أعدى الناس لي؟، ألست القائل كذا، فأغلظ له سليمان، فضربه الوليد مائة سوط ضرباً مبرحاً وحلقه وألبسه الصوف وثقله بالحديد، فكلم فيه فأخرجه، فكان أشد الناس تأليباً عليه.

وحدثني عباس بن هشام عن أبيه عن جده قال: كان سليمان عدواً للوليد، فكان يسعى في قتله لا يألو، وكان يزيد بن الوليد بن عبد الملك رجلاً حسن العقل، يظهر عفافاً وتورعاً إلا أنه كان ينسب إلى قول غيلان بن مسلم الذي قتله هشام في القدر، وكان الوليد قد أقصاه وجميع إخوته وأهل بيته، واستخف بهم وحرمهم، وأغلظ لهم، وحبس بعضهم فرموا الوليد بالكفر وغشيان أمهات أولاد أبيه وباللواط، وقالوا: قد اتخذ جوامع كتب على كل جامعة منها اسم رجل من بني أمية ليقتله.

قال المدائني عن رجاله: كان الوليد صاحب صيد وهتك ولهو ولذات يتثقل فيها، فلما ولي الأمر جعل يكره المواضع التي يراه الناس فيها فلم يدخل مدينة من مدن الشام حتى قتل، وكان تحول فثقل على الناس وعلى جنده واشتد على بني هشام حتى ضرب سليمان بن هشام مائة سوط وحلق رأسه ولحيته وغربه إلى عمان من أرض الشام.

وأخذ الوليد جارية لآل الوليد بن عبد الملك، فكلمه عمر بن الوليد فيها، فقال: لا أردها، فقال عمر: إذاً تكثر الصواهل حول عسكرك.

وقال أبو الحسن المدائني: حبس الوليد يزيد بن هشام، وهو الأفقم، وفرق بين روح بن الوليد وبين امرأته، وحبس عدة من ولد الوليد، وعذب بعضهم وعزم على البيعة لابنيه الحكم وعثمان وقال:

نأمل عثمان بعد الولي	د أو حكماً ثم نرجوا سعيدا
كما كان من كان من قبلنا	يزيد يرجّي لتلك الوليدا

وشاور الوليد في ذلك فأشار عليه ابن بيهس بن صهيب الجرمي ألا يفعل وقال: انهما صغيران لم يحتلما، ولكن بايع لعتيق بن عبد العزيز بن الوليد بن عبد الملك، فغضب عليه وحبسه حتى مات في الحبس.

قال المدائني: ودعا الوليد خالد بن عبد الله القسري إلى البيعة لابنيه فأبى فقال له بعض أهله: دعاك أمير المؤمنين فخالفته؟ فقال: ويحكم كيف أبايع من لا أصلي خلفه ولا أقبل شهادته؟ قالوا: فتقبل شهادة

الوليد مع مجونه وفسقه. قال: أمر الوليد أمر غاب عني فلا أتتبعه، وإنما هي أخبار الناس. فغضب الوليد على خالد وقال: كان الأحول أعرف به.

وأراد الوليد الحج، فنهاه خالد عن ذلك لأنه خاف أن يفتك الناس به لإنكارهم أمره، فقال له: لم كرهت حجي؟ فقال: لا تحتاج إلى أن أخبرك. فازداد غضباً وأمر بحبسه واستيدائه ما عليه من أموال العراق، ودفعه إلى يوسف بن عمر فعذبه حتى قتله، وكان من أمره ما قد ذكرناه.

المدائني عن عمر بن سعيد الثقفي قال: أوفدني يوسف بن عمر على الوليد، فلما قدمت عليه قال: كيف الفاسق– يعني الوليد– ثم قال: إياك وأن يسمع هذا منك أحد. فقلت: امرأتي طالق إن سمعه مني أحد ما دمت حياً، فضحك.

قالوا: فلما فعل الوليد ما فعل من قتل خالد بن عبد الله، وإبراهيم ومحمد ابني هشام بن إسماعيلحين قال: آخذهما بحق الله عليهما وحقوق الناس، وتجني عليهما، وما فعل ببني هشام وبني الوليد، وحبسه المؤمل بن العباس بن الوليد، وبني القعقاع، وآل القعقاع واضطغنت عليه اليمانية لفعله بخالد بن عبد الله، ورمي بالزندقة، وكان أشدهم فيه قولاً يزيد بن الوليد بن عبد الملك، وكان الناس مائلين إلى قوله لستره وإظهاره النسك، وجعل يقول: ما يسعنا الرضا بالوليد. حتى حمل الناس على الفتك به.

المدائني أن يزيد بن مصاد الكلبي قال: أخبرني عمرو بن شراحيل قال: سيرنا هشام إلى دهلك، فلم نزل بها إلى أن مات هشام وقام الوليد فكلم فأبى ردنا، ثم قال: والله ما عمل هشام عملاً أرجى أن تناله به المغفرة من تسييره هؤلاء، وقتله القدرية– يعني غيلان وصاحبه– وقد كانت جماعة من اليمانية اجتمعت إلى خالد بن عبد الله القسري من أهل دمشق قبل حبسه، منهم: شبيب بن أبي مالك الغساني، ومنصور بن جمهور الكلبي، وحميد بن نصر اللخمي، والأصبغ بن ذؤالة، وابن زياد بن علاثة، فدعوه إلى أمرهم فأبى ذلك، فسألوه أن يكتم عليهم ففعل، فلما حبس قال بعض الكلبيين شعراً على لسان الوليد:

وهذا خالد أمسى أسيراً ... ألا منعوه إن كانوا رجالا

فلو كانت قبائل ذات عزٍّ ... لما ذهبت صنائعة ضلالا

ولا تركوه مسلوباً أسيراً ... يعالج من سلاسلنا الثقالا

بها سمنا البريّة كل خسفٍ ... وهدّمنا السهولة والجبالا

فلا زالوا لنا أبداً عبيداً ... نسومهم المذلة والنكالا

فازداد الناس على الوليد حنقاً، وقال حمزة بن بيض الحنفي

يا وليد الخنا تركت الطريقا ... واضحاً وارتكبت فجّاً عميقا

وتماديت واعتديت واسرف ت وأغويت وانبعثت فسوقا

أبداً هات ثم هات وه ات حتى تخرّ صعيقا

أنت سكران لا تفيق فما تر تق فتقاً وقد فتقت فتوقا

جاثليق أسقف كفر وفسقٍ ثمّ فقت الأسقف والجاثليقا

قالوا: وأتت اليمانية يزيد بن الوليد فأرادوه على أن يبايعوه، فقال عمر بن يزيد الحكمي ليزيد: إن العباس بن الوليد أخاك سيد أهل بيتك، فإن بايعك لم يخالفك الناس، وإن أبى فالناس له أطوع، وإن أبيت مشاورته فأظهر بيعته لك.

وكانت أرض الشام في تلك الأيام وبيئة فخرج الناس إلى البوادي، وكان الوليد بن يزيد متبدياً، وكان العباس بن الوليد بالقسطل فأتى يزيد أخاه فأخبره الخبر وشاوره وعاب الوليد فقال له العباس: مهلاً يا يزيد فإن في نقض عهد الله فساد الدين والدنيا. فرجع يزيد إلى منزله ودب في الناس فبايعوه سراً.

ودس يزيد بن عنبسة السكسكي رجلاً من كلب وقوماً من ثقاته من وجوه الناس وأشرافهم يدعو الناس سراً، ثم عاود يزيد أخاه العباس، ومعه قطن مولاهم فشاوره وأعلمه أن قوماً يأتونه يريدونه على البيعة، فزبره العباس وقال: إن عدت لمثلها لأشدنك وثاقاً ولأحملنك إلى أمير المؤمنين.

فخرج يزيد وقطن، وبعث العباس إلى قطن فقال له: ويحك أترى يزيد جاداً، قال: جعلت فداءك ما أظن ذلك ولكنه قد دخله مما صنع الوليد بن يزيد ببني الوليد بن عبد الملك وبني هشام، وما يسمع من الناس من ذكر استخفاف الوليد وتهاونه بالأمور ما ضاق به ذرعاً. قال: أما والله إني لأظنه أشأم سخلة في بني مروان، ولولا ما أخاف من عجلة الوليد مع تحامله علينا لشددته وثاقاً وحملته إليه. فازجره عن أمره فإنه يسمع منك.

وسأل يزيد بن الوليد قطناً عما جرى بينه وبين العباس فأخبره به فقال: والله لا أكف، ثم لا أكف. وأتى معاوية بن عمرو بن عتبة بن أبي سفيان الوليد فقال له: انك تبسط لساني بالأنس بك وأنا أكفه بالهيبة لك وأنا أسمع من خوض الناس ما لا تسمع، وأخاف عليك ما لا أراك تأمن، أفأتكلم ناصحاً أم أسكت مطيعاً؟ قال: كل مقبول منك، ولله فينا علم غيب نحن إليهصائرون، ولو علم بنو مروان أنهم إنما يوفدون على رضف يلقونه في أجوافهم ما فعلوا ما يفعلون. ونعود فأسمع منك.

وبلغ مروان بن محمد وهو بأرمينية أن يزيد يؤلب الناس على الوليد بن يزيد ويدعو إلى خلعه، فكتب إلى سعيد بن عبد الملك بن مروان وكان متألهاً: إن الله جعل لأهل كل بيت أركاناً يعتمدون عليها، ويتوقون

المخاوف بها، وأنت بحمد الله ركن من أركان أهل بيتك، وقد بلغني أن قوماً من سفهاء أهل بيتك قد أسسوا أمراً إن تمت لهم رؤيتهم فيه على ما أجمعوا عليه استفتحوا باباً لن يغلق عنهم حتى تسفك دماء كثيرة منهم، ولولا انشغالي بهذا الفرج العظيم أمره، الشديد شوكة أهله لرمت فساد أمرهم بيدي ولساني، وأنت أقرب إليهم مني فاحتل لعلم أمرهم بإظهار المتابعة لهم، ثم تهددهم بإظهار أسرارهم، وخذهم بلسانك، وخوفهم العواقب لعل الله يرد إليهم ما عزب عنهم من دينهم وعقولهم، فإن فيما شرعوا فيه تغيير النعم وذهاب الدولة، فعاجل الأمر رحمك الله وحبل الأمة مشتد، وفي الناس سكون والثغور محفوظة، فإن للجماعة دولة من الفرقة، وللسعة دافعاً من الفقر.

وذكر كلاماً بعد ذلكن فبعث سعيد بكتاب مروان إلى العباس، فدعا العباس يزيد فعذله وتهدده، فحذره يزيد وقال: يا أخي لم أفعل وهذا من إرجاف أهل الحسد لنا والسرور بزوال نعمتنا، وحلف له على ترك المعارضة فأمسك عنه.

وخرج يزيد بن الوليد يوماً على حمار وهو بناحية القريتين فرمى ذئباً فقتله، فقال له مولى له متفائلاً: قتلت والله الوليد إن شاء الله.

وأتى بشر بن الوليد أخاه العباس بن الوليد فكلمه في خلع الوليد وبيعة يزيد، فنهاه العباس، وقال: يا بني مروان إني أظن الله قد أذن في هلاككم، وقال:

إني أعيذكم بالله من فتن	مثل الجبال تسامى ثم تندفع
أرى البرية قد ملّت سياستكم	فأمسكوا بعمود الدين وارتدعوا
لا تبقرنّ بأيديكم بطونكم	فثمّ لا حسرةٌ تغني ولا جزع

قالوا: فلما اجتمع ليزيد بن الوليد أمره وهو متبد، أقبل إلى دمشق ليلاً، وقد بايع ليزيد أكثر أهلها سراً، وبايع له أهل المزة وأكثرهم يقولون بقول غيلان أبي مروان الذي قتله هشام.

و لم يبايع له ابن مصاد وهو سيد أهل المزة، فمضى يزيد من ليلته إلى معاوية ماشياً في نفر من أصحابه وقد أصابهم مطر شديد فضربوا الباب وقالوا: يزيد بالباب، ففتح لهم فدخلوا فقال ليزيد: الفراش أصلحك الله، قال: إن في رجلي طيناً وأكره أن أفسد بساطك وفراشك. قال: الذي تريدني عليه أضر علي من فساد بساطي وفراشي، وكلمه يزيد فبايعه، ويقال إن هشام بن مصاد بايعه أيضاً .

ورجع يزيد إلى دمشق على حمار، فترل دار ثابت بن سليمان بن سعد الخشني، وكان على دمشق عبد الملك بن محمد بن الحجاج بن يوسف فخاف الوباء، فخرج عن دمشق واستخلف عليها ابنه، وجعل على شرطته أبا العاج كثير بن عبد الله السلمي، فقيل له إن يزيد خارج عليكم فلم يصدق.

وعزم يزيد على الخروج والظهور فأرسل إلى أصحابه بين المغرب والعشاء الآخرة من ليلة جمعة في سنة سبع وعشرين ومائة فمكثوا عند باب الفراديس بدمشق، ثم دخلوا المسجد فصلوا وفي المسجد حرس وقد وكلوا فيه بإخراج الناس منه بالليل، فلما قضى الناس الصلاة صاح بهم الحرس فخرجوا وتباطأ أصحاب يزيد فجعلوا يخرجونهم من باب ويدخلون في آخر حتى لم يبق في المسجد غيرهم وغير الحرس، ثم أخذوا الحرس، ومضى يزيد بن عنبسة إلى يزيد بن الوليد فأخذه بيده وقال: قم يا أمير المؤمنين راشداً مهدياً، وابشر بعون الله ونصره، فقام وقال: اللهم إن كان هذا رضىً فأعني عليه وسددني له، وإن لم يكن رضى فاصرفه عني بموت عاجل.

وأقبل في اثني عشر رجلاً، فلما كان عند سوق الحمر أتاه أربعون رجلاً من أصحابه فانضموا إليه، ثم لما كان عند سوق القمح لقيهم زهاء مائتي رجل فصاروا معهم، ثم مضى إلى المسجد وهو في مائتين ونيف وستين رجلاً فدخله، وأتى أصحابه باب القصر فدقوه وقالوا: رسل أمير المؤمنين الوليد ففتح لهم فهجموا في القصر وأخذوا أبا العاج كثير بن عبد الله السلمي وهو سكران، وأخذوا خزان بيت المال وصاحب البريد.

وأرسل يزيد بن الوليد من ليلته إلى عامر بعلبك وهو مولى لسعيد بن العاص فأخذ، وأرسل إلى عبد الملك بن محمد بن الحجاج بن يوسف فأخذ، وأمر يزيد ألا تفتح أبواب المدينة إلا لمن نادى بشعاره، وأصاب أصحابه سلاحاً كثيراً، وجاء أهل المزة، و لم ينتصف النهار حتى تتابع الناس إلى يزيد، وتمثل يزيد:

إذا استنزلوا عنهنّ بالطعن أرقلوا إلى الموت إرقال الجمال المصاعب

المدائني عن عمر بن مروان الكلبي عن زر بن ماجد قال: غدونا مع عبد الرحمن بن مصاد ونحن زهاء ألف وخمسمائة فلما انتهينا إلى باب الجابية وجدناه مغلقاً ووجدنا عليه رسولاً للوليد فقال: ما هذه الجماعة والأهبة، أما والله لأعلمن أمير المؤمنين- يعني الوليد- فقتله رجل من أهل المزة، فدخلنا من باب الجابية حتى وافينا المسجد الجامع، ودخلنا على يزيد فسلمنا عليه بالخلافة.

وكانت السكاسك في نحو ثلاثمائة فدخلوا من الباب الشرقي حتى دخلوا المسجد من باب جيرون، وأقبل يعقوب بن عمير بن هانيء في أهل داريا فدخلوا من الباب الصغير، وأقبل حميد بن حبيب اللخمي في أهل دير مران والأرزة فدخلوا من باب الفراديس، وأقبل ربعي وهشام الحارثي في جماعة من قومه ومن بني عذرة وسلامان فدخلوا من باب توما، وتوافت جموعهم وتتامت فقال الشاعر:

وجاءتهم أنصارهم حين أصبحوا سكاسكها أهل البيوت الصنادد

وكلبٌ فجاءتهم بخيلٍ وعدّةٍ — من البيض والأبدان ثم السّواعد
فأكرم بها قوماً وأنصار سنّةٍ — فهم منعوا حوماتها كلّ جاحد
فما أصبحوا إلا وهم أهل ملكها — قد استوثقوا من كل عاتٍ ومارد

قالوا: وأرسل يزيد بن الوليد إلى عبد العزيز بن الحجاج بن عبد الملك بن مروان وأمره أن يقف بباب الجابية، وقال لبني الوليد بن عبد الملك: تفرقوا في الناس وحضوهم، وقال: من كان له عطاء فليأت لقبض عطائه، ومن لم يكن له عطاء فله ألف درهم معونة.

وحدثني هشام بن عمار عن صدقة بن خالد قال: دعا يزيد إلى نفسه، فبايعه أهل المزة وأكثرهم غيلانية وقدرية، وبايعه أهل دمشق وجميع من أنكر سيرة الوليد وشغله بلهوه ولعبه وبالشرب، ففتح يزيد بيت المال وأعطى الناس، وجاءت أموال من الكور ففرقها ووجه عبد العزيز بن الحجاج بن عبد الملك بن مروان في كثف من الناس إلى الوليد وهو بالبخراء وكان نزلها للعلاج، وشرب اللبن لوجع وجده في كبده لإدمانه الشراب.

وقال أبو الحسن المدائني: أمر يزيد رجلاً فنادى: من ينتدب للفاسق الوليد وله ألف درهم؟ فاجتمع أقل من ألف على أن يأخذوا ألفاً ألفاً، ثم أمر فنودي: من ينتدب وله ألف وخمسمائة؟ فانتدب يومئذ ألف وخمسمائة، ويقال إنه ندبهم إلى ألفين ألفين، فأتاه ألفان فعقد لمنصور بن جمهور على طائفة، وليعقوب بن عبد الرحمن بن سليم الكلبي على طائفة، وعقد لحميد بن حبيب اللخمي على طائفة، وعقد لغيرهم على جماعة وجعل عليهم عبد العزيز بن الحجاج بن عبد الملك، فخرج عبد العزيز فعسكر بالمزة.

قالوا: ودعا الوليد بن يزيد السفياني وهو أبو محمد بن عبد الله بن يزيد بن معاوية فأجازه ووجهه إلى دمشق، فلما انتهى أبو محمد إلى قرب دمشق وجه إليهيزيد بن الوليد عبد الرحمن بن مصاد فسالمه أبو محمد وبايع ليزيد بن الوليد، وأتى الخبر الوليد وهو بالأزرق فقال:

يا ويح جندي الأُلى خاروا وما نظروا — في غبّ أمر عمود الدين لو وقعا
ألقحتها ثم شالت عاقداً أنفاً — ما نتّجوها فيلقوا تحتها ربعا
ولا ارتقوا من صميم المحض آونة — لكنهم يحتسون الصاب والعلقا
ما كنت أجزعهم من عرك كلكلها — حتى تدرّ نجيعاً أحمراً دفقا
من كل ليث شتيم الوجه ذي زيرٍ — ضرغامةٍ تحذر الآساد ما صنعا
غضنفرٍ أهرت الشّدقين قسورةٍ — كأنه ظالع نقباً وما ظلعا

يلقاك في الليلة الظلماء منفرداً كأن في رأسه نجمين قد طلعا

وقال الوليد أيضاً :

ضمنت لكم إن سلّم الله مهجتي عطاءً ورزقاً كاملاً في المحرّم

فلا تعجلوني لا أباً لأبيكم فإني لكم كالوالد المترحّم

قالوا: وقال بيهس بن زميل الكلابي: يا أمير المؤمنين، سر حتى تترل حمص فإنها حصينة، ثم وجه الخيل إلى يزيد فيقتل أو يؤسر، ويقال بل قال له ذلك يزيد بن خالد بن يزيد بن معاوية، فقال عبد الله بن عنبسة بن سعيد بن العاص: ما ينبغي للخليفة أن يدع عسكره وخزائنه وحرمه قبل أن يقاتل ويعذر، والله مؤيد أمير المؤمنين وناصره. فأخذ بقول عنبسة، فقال له الأبرش سعيد بن الوليد الكلبي: يا أمير المؤمنين تدمر حصينة وبها قوم يمنعوك. فقال: ما أرى أن آتي تدمر وأهلها بنو عامر وهم الذين خرجوا علي، واسمها أيضاً اسمها. قال: فهذه البخراء. قال: ويحك ما أقبح أسماء هذه الأماكن. فترل البخراء في قصر النعمان بن بشير وهو حصن كان للأعاجم، وقال:

إذا لم يكن خير مع الشر لم تجد نصيحاً ولا ذا حاجة حيث تفزع

إذا ما هم همّوا بإحدى هناتهم حسرت لهم رأسي فلا أتقنّع

قال أبو الحسن: وكان بيهس بن زميل أشار عليه حين كره حمص بالبخراء فقال: أخاف بها الطاعون. فقال: الذي يراد بك أشد من الطاعون.

وندب يزيد بن الوليد الناس إلى البخراء فتلقاهم ثقل الوليد فأخذوه، ونزلوا بالقرب من الوليد، وأتى الوليد بن يزيد رسول العباس بن الوليد بن عبد الملك: إنني آتيك فيمن أجابني إلى نصرتك والاعتصام ببيعتك، فخرج في ناس من ولده ومواليهوخاصته، وأمر الوليد بسرير فأخرج فجلس عليه في وسط عسكره وقال: أعلي يتوثب الرجال وأنا أثب على الأسد وأتخصر بالأفاعي، وجعل ينتظر العباس بن الوليد بن عبد الملك. فقاتلهم عبد العزيز بن الحجاج بن عبد الملك وعلى ميمنته عمرو بن حوي السكسكي، وعلى القلب منصور بن جمهور بن حصن بن عمرو بن خالد بن حارثة بن المتطرس أحد بني العبيد بن عامر الكلبي، وعلى الميسرة عمارة بن كلثوم الأزدي أو غيره، وركب عبد العزيز بغلاً له أدهم وبعث إلى الوليد وأصحابه زياد بن حصين ليدعوهم إلى كتاب الله وسنة نبيه، فقتله مولى الوليد، فانكشف أصحاب يزيد فترجل عبد العزيز وكر أصحابه وقد قتل منهم عدة، وحملت رؤوسهم إلى الوليد، وأمر الوليد فأخرج لواء مروان بن الحكم الذي عقده بالجابية لمحاربة الضحاك بن قيس فجعل بباب حصن البخراء وقتل من أصحاب الوليد عدة.

وبلغ عبد العزيز مسير العباس بن الوليد في خاصته وولده وموإليهليكون مع الوليد، فأرسل منصور بن جمهور في خيل وقال: إنك تلقى العباس بن الوليد في الشعب ومعه جميعة فخذهم، فنفذ منصور في الخيل، فلما صار بالشعب إذا هو بالعباس في ثلاثين فارساً فقال له: اعدل إلى عبد العزيز بن الحجاج، فأبى فقال له منصور بن جمهور: يا بن قسطنطين لئن أبيت لأضربن الذي فيه عيناك، فعدل معه إلى عسكر عبد العزيز وقال: بايع لأخيك يزيد بن الوليد فبايع، ووقف، ونصبوا راية وقالوا: هذه راية العباس وقد بايع لأخيه يزيد أمير المؤمنين، فقال العباس: إنا لله خدعة من خدع الشيطان، هلك بنو مروان. وكان عندهم كالأسير.

قالوا: وتفرق الناس عن الوليد بن يزيد وأتوا عبد العزيز والعباس، فظاهر الوليد بين درعين، وأتوا بفرسين يقال لهما السندي والزائد فقاتلهم، فناداهم رجل: اقتلوا عدو الله قتلة قوم لوط ارموه بالحجارة، فلما سمع ذلك دخل القصر وأغلق الباب. فقال: أما فيكم رجل شريف ذو حسب أكلمه، فقال له يزيد بن عنبسة السكسكي: تكلم. فقال: ومن أنت؟ قال: أنا يزيد بن عنبسة. قال: يا أخا السكاسك ألم أزد في أعطياتكم؟ ألم أرفع المؤن عنكم؟ ألم أعطج فقراءكم؟ ألم أخدم زمناكم؟ فقال له: ما ننقم عليك في أنفسنا ولكنا ننقم عليك انتهاك ما حرم الله من شرب الخمر ونكاح أمهات أولاد أبيك، واستخفافك بأمر الله، وإتيانك الذكور، قال: حسبك يا أخا السكاسك فلعمري لقد أغرقت وأكبرت، وإن في ما أحل الله لمندوحة عما ذكرت، والله لا يرتق فتقكم ولا يلم شعثكم ولا تجتمع كلمتكم، ورجع إلى الدار فجلس وأخذ مصحفاً وقال: يوم كيوم عثمان، ونشر المصحف يقرأه، فعلوا الحائط، وكان أول من علاه يزيد بن عنبسة، فنزل وسيف الوليد إلى جانبه فقال له يزيد: نح سيفك، فقال الوليد: لو أردت السيف كانت لي ولك حال. فأخذ بيد الوليد وهو يريد أن يحبسه ويؤامر يزيد بن الوليد فيه، فنزل من الحائط عشرة فضربه واحد على وجهه وضربه آخر على رأسه، وجره خمسة منهم ليخرجوه فصاحت امرأة كانت معهم في الدار فكفوا عنه فلم يخرجوه.

واحتز أبو علاقة القضاعي رأسه وأخذ عقباً فخاط الضربة التي في وجهه وحمل الرأس إلى يزيد بن الوليد روح بن مقبل، وقال: ابشر يا أمير المؤمنين بقتل الوليد الفاسق، وكان يزيد يتغدى فسجد ومن كان معه، وأخذ يزيد بن عنبسة بيد يزيد بن الوليد وقال: قم يا أمير المؤمنين وابشر بنصر الله وصنعه، فاختلج يزيد يده من كفه وقال: اللهم إن كان هذا الأمر لك رضىً فسددني ووفقني.

قالوا: وكان على ميسرة الوليد بن يزيد الوليد بن خالد أخي الأبرش الكلبي في بني عامر، وكانت بنو عامر ميمنة عبد العزيز بن الحجاج بن عبد الملك فلم تقاتل الميسرة والميمنة، ومالوا جميعاً إلى عبد العزيز،

وقال بعضهم: رأيت خدم الوليد وحشمه يأخذون بأيدي الرجال فيدخلونهم عليه.
وقال الهيثم بن عدي: خرج الوليد وعليه قباء خز وقد تحزم بريطة، فأتاه قوم من أهل حمص ينصرونه، عليهم عبد الرحمن بن أبي الجنوب البهراني، وأتاه بنو سليم بن كيسان صاحب باب كيسان بدمشق في ستة عشر فارساً، وتلقاه بنو النعمان بن بشير الأنصاري في فوارس، ثم صار إلى البخراء فضاق العلف على أصحابه، فاشترى زرع القرية فقالوا له: لا حاجة لنا في البقل إنما تسترخي عليه دوابنا وتضعف، أعطنا دراهم.
وأخبر بإقبال عبد العزيز بن الحجاج بن عبد الملك من قبل يزيد الناقص، فلم يكترث لذلك، وكان العباس بن الوليد قد أقبل يريد الوليد كراهة لنقض بيعته فوجه إليهعبد العزيز فحازه إليه.
وسمع الوليد تكبير أصحاب عبد العزيز بالبخراء، فخرج خالد بن عثمان فعبأ الناس، و لم يكن بينهم قتال حتى طلعت الشمس.
وكان مع أصحاب الناقس كتاب معلق في رمح فيه: إنا ندعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه وأن يكون الأمر شورى، فاقتتلوا فقتل عثمان الخشبي وكان من أولاد بعض الخشبية الذين كانوا مع المختار بن أبي عبيد الثقفي، وقتل مع أصحاب الوليد زهاء ستين رجلاً. وكان الأبرش على فرس له فجعل يصيح بابن أخيه: يا بن اللخناء قدم رايتك، قال: لا أجد متقدماً، إنها بنو عامر.
وقال هشام بن عمار: حدثت أن العباس بن الوليد قاتل مع الوليد بن يزيد وفاء ببيعته، فطعنه رجل من أصحاب عبد العزيز فأرداه عن فرسه، فعدل إلى عبد العزيز فسقط في يد أصحاب الوليد وانكسروا، ومكث العباس عند عبد العزيز أسيراً، ثم إن أخاه يزيد بن الوليد صفح عنه وكان به براً.

قالوا: وكان الوليد بن يزيد أرسل إلى عبد العزيز بن الحجاج يعرض عليه أن يعطيه خمسين ألف دينار ويجعل له ولاية حمص طعمة ما بقي، ويؤمنه على كل أمر كان منه على أن ينصرف ويكف عنه، فلم يجبه إلى ذلك، وجعل أصحاب الوليد يستعجلون ويشترطون عليه الشروط فيجيبهم إلى ذلك فانتقض عسكر الوليد وانهزم أصحابه، ودخل الوليد القصر، وجاء رجل طوال كان على فرس له فدنا من حائط القصر ثم تسلقه، وكان الوليد قد ألقى سلاحه وأخذ مصحفاً يقرأ فيه، ويقول: يوم كيوم أمير المؤمنين عثمان، فوجده الرجل وعليه قميص قصب وسراويل وشي، ومعه سيف في غمده وإذا الناس يشتمونه وهو يسمع، فقام الوليد فضربه الرجل على رأسه، ودخل عبد العزيز والناس حين تسلق الرجل فتعاوروه بأسيافهم، وأكب الرجل الطويل فاحتز رأسه. وكان يزيد قد جعل على رأسه مائة ألف درهم.
وجاء أبو الأسودمولى خالد بن عبد الله القسري، فسلخ من جلدة رأس الوليد قدر الكف فأتى بها يزيد

بن خالد بن عبد الله، وكان محبوساً في عسكر الوليد، حبسه حين دفع أباه إلى يوسف بن عمر، وانتهب الناس خزائن الوليد وما في عسكره.

وقال المدائني عن عمر بن مروان الكلبي: لما قتل الوليد قطعت كفه اليسرى وفيها خاتمه، وبعث بها إلى يزيد بن الوليد فسبقت رأسه إليهبليلة، وقدم برأسه من الغد فنصبه للناس بعد الصلاة.

وكان أهل دمشق قد أرجفوا بعبد العزيز فلما نصب لهم رأس الوليد سكتوا.

قالوا: ولما أمر يزيد الناقص بنصب رأس الوليد قال له يزيد بن فروة مولى بني مروان: إنما ينصب رأس خارجي وهذا ابن عمك وخليفة من الخلفاء ولا آمن إن نصبته أن ترق له قلوب الناس ويغضب له أهل بيتك وتدركهم الحمية. فقال: والله لا نصبه غيرك. فنصبه على رمح ثم قال: انطلق فطف به في مدينة دمشق وأدخله دار أبيه، ففعل فصاح النساء وأهل الدار، ثم رد إلى يزيد فقال: انطلق به إلى مترلك.

فمكث عنده قريباً من شهر ثم قال: ادفعه إلى أخيه سليمان بن يزيد، وكان سليمان ممن سعى على الوليد أخيه، فغسل ابن فروة الرأس ووضعه في سفط وأتى به سليمان فقال أخوه: أشهد أنه كان شروباً للحرام، ماجناً فاسقاً، ولقد أرادني على نفسي فأبيت، فخرج ابن فروة من الدار وتلقته مولاة الوليد فقال لها: ويحك، زعم أنه أراده على نفسه، فقالت: كذب والله لو أراده على نفسه لفعل، وما كان يقدر على الامتناع منه.

وقال هشام ابن الكلبي: خرج الوليد إلى البخراء لشرب الدواء والعلاج، وكان عليل الجوف من الصبوح والغبوق، وكان صاحب شرطه خالد بن عثمان بن بحدل الكلبي، وخليفته على الشرطة يزيد بن يعلى بن الضخم بن قرة العبسي، فلما أظهر يزيد بن الوليد أمره وبايعه أهل المزة والغيلانية وأهل دمشق والناس وفتح بيت المال فأعطى الناس، وجه عبد العزيز بن الحجاج بن عبد الملك بن مروان في كثف من الناس نهضوا احتساباً وحنقاً، حتى نزلوا بالوليد فقاتلوا أصحابه حتى قتل، وكان الذي قتله مولى لهم يقال له وجه الفلس وكان طوالاً صغير الوجه.

المدائني عن عمرو بن مروان قال: حدثني يزيد بن مصاد عن عبد الرحمن بن مصاد قال: بعثني يزيد بن الوليد إلى أبي محمد السفياني، وكان الوليد وجهه حين بلغه خبر يزيد بن الوليد والياً على دمشق، فلقيته فسالمني، وبايع ليزيد فلم أفارقه حتى رفع لنا شخص مقبل من ناحية المزة، فبعثت إليهفأتيت به فإذا هو أبو كامل الغزيل المغني وإذا هو على بغلة للوليد فأخبرنا أن الوليد قد قتل، فأتيت يزيد فوجدت الخبر قد بلغه.

وكان يزيد بن مروان بن محمد يغزو الصائفة مع الغمر بن يزيد، فلما قتل الوليد غلب على الجزيرة حتى قدم مروان بن محمد أرمينية.

وقال بشر بن هلباء الكلبي يوم قتل الوليد، وقد ضرب باب البخراء بسيفه، جواباً لما روي أن الوليد قاله في خالد بن عبد الله القسري:

سنبكي خالداً بمهندات ولم تذهب صنائعه ضلالا

المدائني قال: قال الحكم بن النعمان مولى الوليد: قدم برأس الوليد على يزيد الناقص منصور بن جمهور العامري من كلب في عشرة، منهم روح بن مقبل، فقال روح: يا أمير المؤمنين ابشر بقتل الفاسق، وأسر العباس، وكان في العشرة القادمين بالرأس عبد الرحمن بن وجه الفلس، وبشر مولى كنانة من كلب، فأعطى يزيد كل رجل منهم عشرة آلاف درهم.

قال: وكان يزيد قال: من جاء برأس فله خمسمائة درهم، فجاء قوم برؤوس فقال يزيد بن الوليد: اكتبوا أسماءهم، فقال رجل من موإليهجاء برأس ليس هذا بيوم يعمل فيه بنسيئة.

قالوا: وكان العباس بن الوليد لما صار يزيد إليهيستشيره قال: أنا أكتب إلى الوليد أمير المؤمنين بحجتك، فكتب إليه، فقال لرسوله: أترك صاحبك الصدق أي حجة لمن جاهر الله بعداوة خليفته وشق عصا المسلمين؟ قالوا: وكان مع الوليد مالك بن أبي السمح الطائي المغني وعمر الوادي فلما تفرق أصحاب الوليد عنه وحصر قال مالك لعمر: إذهب بنا، فقال عمر: ليس هذا من الوفاء وليس يعرض لنا لأنا ليس ممن يقاتل. فقال مالك: ويلك والله لئن ظفروا بنا لا يقتل أحد قبلنا فيوضع رأس الوليد بين رأسينا، ليقول الناس انظروا من كان معه الفاسق في هذه الحال، ولا يعاب بشيء أشد من هذا، فالنجاء عافاك الله، فهربا.

المدائني عن مسلمة بن محارب قال: قال أيوب السختياني حين بلغه خبر الوليد: ليتهم تركوا لنا خليفتنا و لم يقتلوه- وإنما قال ذلك خوفاً من الفتنة-.

المدائني عن أبي عاصم الزيادي قال: ادعى قتل الوليد عشرة فقال: إني رأيت جلدة رأس الوليد في يد وجه الفلس، وقال: أنا قتلته وأخذت هذه الجلدة.

وقال أمير المؤمنين المهدي، وذكر الوليد: رحمه الله ولا رحم قاتله فإنه كان إماماً مجتمعاً عليه، وقيل له: إن الوليد كان زنديقاً. فقال: إن خلافة الله أعز وأجل من أن يوليها من لا يؤمن به.

حدثني عمرو بن محمد الناقد، وعلي بن محمد المديني، ثنا سفيان بن عيينة قال: لما قتل الوليد اجتمع مشيخة من مشيخة أهل الكوفة، إلى الأعمش فقالوا: إنا نحب ألا نفترق إلا على أمر نعرفه، فقال الأعمش: اتقى امرؤ ربه، وكف يده وحفظ لسانه، ولزم بيته، قوموا وأنا النذير لكم.

قالوا: وكان يزيد بن خالد بن عبد الله القسري محبوساً، حبسه الوليد حين وجه أباه إلى العراق مع يوسف بن عمر، فلما تشاغل الناس وغفل عنه حفظته كسر قيده فخرج وأتى على الوليد، وهو صريع فضربه تسع ضربات وقال:

قتلتم خالداً بالظلم قسراً وما يبغي سوى الإسلام دينا

قتلت إمامكم بأبي فحسبي وقد قتلوا سواه آخرينا

وحدثني داود بن عبد الحميد قاضي أهل الرقة قال: سمعت أشياخنا يتحدثون أن الوليد خرج إلى البخراء للعلاج وشرب اللبن، وكان في عسكر عظيم، وصاحب شرطه خالد بن عثمان بن بحدل الكلبي، ويقال زيد بن يعلى بن الضخم بن قرة العبسي. فدعا يزيد بن الوليد إلى نفسه وأظهره، وكان يقول: والله ما أريد بهذا الأمر إلا إراحة الإسلام والمسلمين من هذا الرجل الذي لا يحل تركه. والله ما أريد أحفر فيكم نهراً ولا أبني قصراً، ولا أجعل أموالكم وقفاً على اللذات والنشوات، وركوب ما لم يحله الله، وما غايتي إلا الإصلاح ما استطعت، وما توفيقي إلا بالله. فبايعه الغيلانية، وصارت معه اليمانية طالباً بثأر خالد القسري فغلب على دمشق.

وبعث يزيد إليهعبد العزيز بن الحجاج فقاتلوا الوليد وأصحابه بالبخراء، ودخل الوليد حصن البخراء فحصروه ورموه بالحجارة وهم يقولون: يا فاسق هذه سنة في اللواطين أمثالك، تهيء الذكور بهيئة النساء وتفسق بهم، وترتكب العظائم، ثم تسوروا عليه وهو مصطبخ بشرابه، فعمد إلى مصحف ففتحه فلم ينفعه ذلك وقتل، وكان ممن تولى قتله مولى لهم يقال لهم وجه الفلس وقد كان بعض ولده مع عبد الله بن طاهر.

قالوا: وكانت ولاية الوليد سنة وشهرين وأياماً، ويقال سنة وثمانية أشهر والأول أثبت، وقتل في جمادى الآخرة سنة ست وعشرين ومائة وله ست وثلاثون سنة، ويقال تسع وثلاثون سنة، ويقال اثنتان وأربعون سنة، ويقال خمس وأربعون وأشهر، وكان الشيب قد وخطه. و لم يصل عليه أحد، ودفن بالبخراء، ثم إنه حمل إلى دمشق سراً فدفن في المقبرة التي عند باب الفراديس ليلاً، وحمل رأسه إلى يزيد فنصب عند باب الفراديس.

قالوا: وتغب عثمان والحكم ابنا الوليد بن يزيد في سرب في القصر، فطلبهما عبد العزيز فوجدهما في السرب فأتى بهما يزيد فدفعهما إلى عمهما سليمان بن يزيد بن عبد الملك فمكثا عشرة أيام ثم ردهما وقال: قد كثر اختلاف الناس إليهما، وقد كان أبوهما بايع لهما فأخاف أن أغلب عليهما فإن في الناس

غواة، فأمر يزيد بحبسهما فحبسا بالخضراء، فدخل عليهما الأفقم وهو يزيد بن هشام السجن، وكان الوليد قد ضربه وحلقه فشتم أباهما ولعنه، فبكى الحكم فزجره أخوه عثمان، وقال: اسكت، وقال للأفقم: ويحك تشتم أبي؟ قال: نعم فقال عثمان: لكني لا أشتم عمي هشاماً وايم الله لو كنت من بني مروان ما شتمت أبي، ولكنك لست من بني الحكم فانظر إلى وجهك في المرآة، فإن رأيت حكمياً يشبهك فأنت منهم، ولا والله ما في الأرض حكمي مثل وجهك.

قال أبو الحسن المدائني: قال محمد بن راشد الخزاعي: دخلت على الحكم وعثمان وهما محبوسان بالخضراء فحادثتهما ساعة فقال الحكم: ما اصابني في هذا الأمر شيء كان أغيظ لي من ذهاب بغلي المديزج. قال: قلت: قبح الله رأيك. قتل أبوك، وسلبت ملكك فلم يعظم عليك ذلك، وتتلهف على بغل ذهب منك؟

قال أبو الحسن: قتل الوليد يوم الأربعاء ليومين بقيا من الشهر سنة ست وعشرين ومائة وكانت ولايته سنة ونصفاً، فلما قتل الوليد اختلف بنو مروان بينهم، وكان سليمان بن هشام محبوساً بعمان فخرج من السجن فأخذ جميع ما كان بعمان من المال، وأقبل إلى دمشق وجعل يلعن الوليد بن يزيد ومن يهوى هواه ويعيبه ويكفره.

وقال ابن ميادة المري، وميادة أمه، واسمه الرماح بن الأبرد بن شريان بن سراقة بن سامي بن ظالم بن جذيمة:

أيا لهفي على الملك المرجّى ... غداة أصابه القدر المتاح

ألا أبكي الوليد فتى قريشٍ ... وأسمحها إذا فقد السماح

وأجبرها لذي عظمٍ مهيضٍ ... إذا ضنّت بدرّتها اللقاح

لقد فعلت بنو مروان فعلاً ... ذميماً ما يسوغ به القراح

فظلّ كأنه أسد عقيرٌ ... تكسّر في مناكبه الرماح

وقال بعضهم:

أُمّ الوليد فشقّي الجيب وانتحري ... إن الوليد وربّ البيت قد قتلا

وقال أبو محجن مولى خالد بن عبد الله:

لو شاهدوا حدّ سيفي حين أُدخله ... في است الوليد لماتوا عندها كمدا

وكان أدخل سيفه في استه.

بسم الله الرحمن الرحيم

أمر يزيد بن الوليد بن عبد الملك بن مروان

قالوا: ولما قتل الوليد بويع ليزيد بن الوليد بن عبد الملك وكان أقيل، ويكنى أبا خالد، وأمه شاه فريد بنت فيروز بن يزدجرد بن شهريار بن كسرى أبرويز بن هرمز بن أنوشروان كسرى بن قباذ بن فيروز بن يزدجرد بن بهرام جورد بن يزدجرد بن سابور ذي الأكتاف بن أزدشير.

وجعل أخاه إبراهيم بن الوليد ولي عهده، ومن بعده العزيز بن الحجاج بن عبد الملك لقيامه له بما قام به من محاربة الوليد، فبويعا أيضاً في سنة ست وعشرين ومائة.

ونقص يزيد بن الوليد الناس العشرات التي كان الوليد زادهم إياها، فسمي يزيد الناقص.

قال المدائني: يقال إنه سمي ناقصاً لن مروان سماه ناقصاً حين ولي، قال: وكان ناقص العقل، والثبت أنه نقص الناس العشرات التي زادهم إياها الوليد فسمي ناقصاً والله أعلم.

وقال أبو الحسن المدائني: كان يزيد بن الوليد أسمر، مديد القامة، صغير الرأس، وكان جميلاً وفي فمه بعض السعة، وأمه أم ولد من ولد المخدج بن يزدجرد، وكان المخدج ولد بخراسان، فلما فتح قتيبة بن مسلم ما فتح من خراسان أصاب جارية من ولد المخدج بن يزدجرد فبعث بها إلى الحجاج بن يوسف، فأهداها الحجاج إلى الوليد بن عبد الملك، فولدت له يزيد بن الوليد.

وكان ليزيد بن الوليد من الولد: أبو بكر وعبد المؤمن وعلي، وأمهم من كلب من ولد زبان الكلبي.

وعبد الله، أمه أم ولد.

وخالد والوليد، قتلهما مروان حين أسرهما. ويزيد القائل:

أنا ابن كسرى وأبي مروان ... وقيصر جدي وجدي خاقان

وليس إبراهيم بأخي يزيد لأمه، إبراهيم لأم ولد أخرى.

قالوا: وكان يزيد يعرف بالتنسك والتأله والتواضع، وكان الوليد بن عبد الملك يذكر ولده فيقول: عبد العزيز سيدهم، والعباس أفرسهم، ويزيد ناسكهم، وروح عالمهم، وعمر فحلهم، وبشر فتاهم.

قالوا: وكان الوليد بن يزيد قد حج في سنة ست عشرة أو سنة سبع عشرة، وحج أيضاً يزيد بن الوليد في تلك السنة فلما رآه يزيد وهو يطوف بالبيت قال: ورب هذه البنية إن هذا الذي يطوف لكافر بهذه البنية ولئن ولي أمر الأمة وأنا حي لأجاهدنه.

قالوا: ولقي يزيد بن الوليد أيوب السختياني في السنة التي حج فيها فكتب عنه، وكان يزيد كثير الصلاة طويل الليل.

قالوا: وعاتبته امرأته هند الكلبية فقالت: أوسع علينا، وكانت تدعى ابنة الحضرمية لأن أمها التي قامت عنها من حضرموت، وذلك حين ولي، فقال: قد فسدت علي فيمن فسد، أما لو علمت أنكم تميلون إلى الدنيا هذا الميل لكان أن أخر من السماء إلى الأرض أحب إلي من أن ألتبس بما التبست به، ومالك في هذا المال إلا ما لسوداء أو حمراء من المسلمين، ولكن ياقطن ائتني بثيابي، فجاءت بتخت، فقال لها: هذه ثياب كنت أتزين بها فشأنك فخذيها فإنه لا حاجة لي اليوم فيها، فأما مال المسلمين فلا حق لي ولا لك فيه إلا مثل ما للمسلمين.

قالوا: ولما قتل الوليد خطب يزيد فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه وصلى على نبيه صلى الله عليه وسلم: أيها الناس، إني والله ما خرجت بطراً ولا حرصاً على الدنيا ولا رغبة في الملك، وما أقول هذا إطراء لنفسي، إني لظلوم لها إن لم يرحمني ربي. ولكن خرجت غضباً لله ولدينه، وداعياً إلى الله وكتابه وسنة نبيه، لما هدمت معالم الدين، وعفي أثر الحق وأطفيء نور الهدى، وظهر الجبار العنيد المستحل لكل حرمة، والراكب لكل بدعة، مع أنه والله ما كان يصدق بالكتاب، ولا يؤمن بيوم الحساب، وإنه لابن عمي في النسب، وكفئي في الحسب، فلما رأيت ذلك استخرت الله في أمره وسألته أن لا يكلني إلى غيره، ودعوت إلى مجاهدته، فأجابني من أهل ولايتي، وسعيت عليه حتى أراح الله منه العباد بحول الله وقوته لا بحولي وقوتي.

أيها الناس إن لكم أن لا أضع حجراً على حجر ولا لبنة على لبنة، ولا أكري فيكم نهراً، ولا أبني قصراً ولا أكتز مالاً، ولا أؤثر به زوجة ولا ولداً، ولا أنقل مالاً من بلد إلى بلد حتى أسد ثغره وخصاصة أهله بما يعينهم، فإن فضل فضل نقلته إلى البلد الذي يليه مما هو إليهأحوج، ولكم علي ألا أجمركم فأفتنكم، ولا أفتن أهليكم، ولا أغلق بابي دونكم فيأكل قويكم ضعيفكم، ولا أحمل على أهل جزيتكم ما أجليهم به عن بلادهم، ولكم عندي إدرار أعطياتكم في كل سنة، وأرزاقكم في كل شهر حتى تستدر المعيشة بين المسلمين، فيكون أقصاهم كأدناهم، فإن أنا وفيت لكم بما قلت فعليكم السمع والطاعة وحسن المؤازرة والمكانفة، وإن أنا لم أف لكم أن تخلعوني إلا أن تستتيبوني فإن تبت قبلتم مني، وإن علمتم مكان رجل يعرف بالصلاح يعطيكم من نفسه ما أعطيتكم فبايعوه إن أردتم ذلك، فأنا أول من يبايعه ويدخل في طاعته.

أيها الناس إنه لا طاعة لمخلوق في معصية خالق، أقول قولي هذا واستغفر الله لي ولكم.

ودعا الناس إلى البيعة فجدد بيعة أخرى، فكان أول من بايعه يزيد الأفقم، وبعضهم يقول الأشدق بن هشام بن عبد الملك.

وقام قيس بن هانيء العبسي فقال: يا أمير المؤمنين دم على ما أنت عليه، فما قام مقامك أحد من أهلك،

ولئن قالوا عمر بن عبد العزيز فإنك أخذتها بسبب صالح، وأخذها بسبب سوء، فلما بلغ مروان بن محمد قوله قال: قاتله الله عابنا جميعاً، فلما ولي مروان أمر أن يطلب في المسجد فوجد يصلي فأُتي به فقتله.

قالوا: وأتى يزيد بن حجوة الغساني يزيداً، فقال: يا أمير المؤمنين إني لا أرى أحداً من قيس غشيك ولا وقف ببابك، وما قلوبهم بالمنشرحة لك. فقال يزيد: لولا أني أكره البسط لعاجلت قيساً بالمكروه. والله ما عزت قيس قط إلا ذلك الإسلام.

قالوا: ولى يزيد بن الوليد منصور بن جمهور الكلبي العراق، ويقال بعثه خليفة للحارث بن العباس بن الوليد بن عبد الملك، وأمره أن يحمل يوسف بن عمر إلى ما قبله.

وقال بعضهم: لم يوله العراق ولا بعثه خليفة لأحد، ولكنه وجهه لحمل يوسف ولكنه ورى بذكر خلافة الحارث عن أمره، فهرب يوسف بن عمر الثقفي، وكان عامل هشام والوليد من بعده على العراق وأتى دمشق فأُخذ وأُتي به يزيد فحبسه مع عثمان والحكم ابني الوليد.

وقال قوم إن منصور أتى العراق متغلباً، فهرب منه يوسف، وليس ذلك بثبت.

ويقال إن يوسف أتى يزيد حتى وضع يده في يده، فقال له يزيد: لست أطالبك بحقد ولا إحنة ولكني أريد أخذك بمال المسلمين حتى أستخرج لهم حقهم الواجب لهم، وأمر بحبسه ومحاسبته.

وكانت اليمانية ويزيد بن خالد بن عبد الله حقدوا على يوسف عذابه خالداً حتى قتله فدعا اليمانية يزيد إلى الطلب بدم أبيه فوثبوا بيوسف فقتلوه ونصبوا رأسه بدمشق، وذلك في أيام يزيد بن الوليد.

وكانت ولاية يزيد الناقص ستة أشهر، ويقال كانت خمسة أشهر وأياماً.

وقال الهيثم بن عدي: خرج سليمان بن هشام من مجلسه حين قتل الوليد، ونفذ منصور بن جمهور على حاميته في خمسة آلاف إلى العراق، فهرب يوسف بن عمر إلى مترله بالبلقاء، فوجه إليهيزيد بن خالد بن عبد الله القسري، وهو على شرطة يزيد بن الوليد: محمد بن سعيد الكلبي من أهل المزة فوجده في قرية له بأرض البلقاء، ففتش داره فاستخفى بين إمائه وبين الحائط، فأخذ ابناً له فضربه فقال له: ذاك أبي، فأخذه وقدم به على يزيد بن الوليد فلم يزل محبوساً في خلافته، وفي أيام إبراهيم بن الوليد أخيه حتى بلغ يزيد بن خالد قدوم مروان بن محمد الجعدي للطلب بدم الوليد، فأخرجه يزيد بن خالد فقتله.

قالوا: ولما قدم منصور بن جمهور العراق قال الناس: منصور بن جمهور أمير غير مأمور، أتى بالعهد منشور، وفيه الكذب والزور، وكان الصبيان والخدام يقولون هذا في الطرق، ثم ولى يزيد بن الوليد عبد الله بن عمر بن عبد العزيز العراق وقد كتبنا خبره مع نسبه.

قالوا: وكتب يزيد بن الوليد إلى أهل العراق وكان كاتبه ثابت بن سليمان بن سعيد: أما بعد فإن الله

اختار الإسلام وارتضاه وأظهره وطهره، وافترض فيه حقوقاً أمر بها، ونهى فيه عن أمور حرمها ابتلاءً لعباده فأكمل فيه كل عدل، ختم كل فصل ثم تولاه الله فكان له حافظاً ولأهله المقيمين حدوده ولياً وناصراً، فلم يكرم الله بالخلافة أحداً فيأخذ بأمر الله وحقه فيناوئه مشاق أو يحاول صرف ما حباه الله به باغ إلا كان كيده الأضعف، ومكره الأهون، حتي يتم الله له ما أعطاه ويتولاه فيما ولاه، ويجعل عدوه الأضل سبيلاً، والأخسر عملاً، فتناسخت خلفاء الله وولاة دينه قاضين بحكمه متبعين لكتابه حتى أفضى الأمر إلى عدو الله الوليد المنتهك للمحارم، والراكب للعظائم التي لا يأتي مثلها مسلم، ولا يقدم عليها كافر تكرماً عن غشيان مثلها، فلما استفاض ذلك وعلن، واشتد فيه البلاء، وسفكت الدماء، وأخذت الأموال بغير حقها مع أمور فاحشة لم يكن الله ليملي لمن عمل بها، سرت إليهبعد انتظار مراجعته منكراً لعمله، وما اجترأ عليه من معاصي الله، راجياً من الله إتمام ما نويت في ذلك من اعتدال عمود الدين، والأخذ في أهله بما هو لله رضىً حتى وافقت جنداً قد وغرت صدورهم على عدو الله بما رأوا منه مما لا مرية فيه ولا شك، ولا عليه غطاء، ولا به خفاء، فدعوتهم إلى تغيير ما أحدث من الأحداث التي بدل بها أمر الله وسنن نبيه صلى الله عليه وسلم، فأسرعوا إلى الإجابة وأحسنوا على الحق والمعاونة، فبعثت عليهم عبد العزيز بن الحجاج بن عبد الملك، فلاقى عدو الله ومن معه وهو بجانب قرية من قرى حمص تدعى البخراء، فدعاه إلى أن يجعل الأمر شورى ينظر فقهاء المسلمين وصلحاؤهم فيه لأنفسهم، فأبى ذلك متتابعاً في ضلالته، فقتله الله على شر عمله وأسوأ أثره بين عصبة من بطانته الخبيثة، فأطفأ الله جمرته، وأراح العباد منه فبعداً له ولمن كان على طريقته، أحببت أن أعلمكم ذلك لتحمدوا الله عليه وتشكروه، فبايعوا منصور بن جمهور لأمير المؤمنين فقد ارتضيته لكم ووليته أمركم، فإن العدل مبسوط لكم لا يسار فيكم بخلافه إن شاء الله، نسأل الله ربنا ولينا حسن توفيقه وتسديده، وكتب لليلتين خلتا- أو بقيتا- من رجب سنة ست وعشرين ومائة.

المدائني قال: عامل الناقص على العراق: عبد الله بن عمر بن عبد العزيز، وعلى مكة والمدينة: عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز وعلى مصر: إبراهيم بن عمر بن عبد العزيز. ويقال إنه ولاه إياها فلم يقبل عهده على مصر.

قالوا: ولما مات يزيد الناقص بن الوليد وثب الحكم بن ضبعان بن روح بن زنباع الجذامي بأرض فلسطين، فخلع واستمال لخماً وجذاماً ودعا لسليمان بن هشام بن عبد الملك.

وأقام منصور بن جمهور بالعراق، وكان قد انضم إلى عبد الله بن عمر بن عبد العزيز حين ولاه يزيد العراق فأكرمه وقدمه وصفح عما صار إليهمن المال.

وقال الهيثم بن عدي: لم يصف ليزيد بن الوليد إلا دمشق ومات بعد أشهر.

وقال ابن الكلبي: أقام منصور مع ابن عمر، ثم وجه مروان يزيد بن عمر بن هبيرة على العراق فقدم واسطاً وبها ابن عمر، فحصر ابن هبيرة ابن عمر، ثم أخذه وبعث به إلى مروان فحبسه بحران.

وخالف منصور بن جمهور مروان وجعل يجبي مال الجبل ويحمله إلى شيبان الخارجي وهو بكرمان، ومضى إلى السند فغلب عليها حتى كانت دولة بني العباس.

وبعث أبو مسلم عامله فركب منصور المفازة حتى مات عطشاً، وقد كتبنا قصصهم على التمام فيما تقدم من الجزء الذي قبل هذا.

وكان موت يزيد بدمشق وهو ابن ست وأربعين سنة، ويقال ابن نيف وثلاثين سنة، ويقال ابن ثلاثين سنة، وصلى عليه إبراهيم أخوه، وولي عهده، وكان أخوه العباس قد مات من جراحة أصابته يوم حروب الوليد، وقيل إنه بقي بعد ذلك معتزلاً منفرداً حتى توفي.

بسم الله الرحمن الرحيم

أمر إبراهيم بن الوليد بن عبد الملك

قالوا: بويع إبراهيم بن الوليد بن عبد الملك، ويكنى أباإسحاق ، وأمه أم ولد- وهو المخلوع .. بالخلافة في أول سنة سبع وعشرين ومائة بعد موت أخيه يزيد الناقص، وكان مروان بن محمد بن مروان بن الحكم حين قتل الوليد قدم الجزيرة فدعا إلى نفسه سراً، وسمى الوليد الخليفة المظلوم، وأظهر أنه يطلب بدمه وقال: إنما قتله قدرية غيلانية. فبايعه خلق من أهل الجزيرة، ثم أظهروا أمره بعد بيعة إبراهيم بن الوليد بشهر أو بأكثر منه بأيام بحران، وقال: أمري شبيه بأمر معاوية حين طلب بدم الخليفة المظلوم عثمان، ثم إنه سار بأهل الجزيرة وقنسرين وحمص يريد إبراهيم وبعث إلى الناس: انهضوا لمحاربة هذا القدري أخي القدري الغيلاني المبتز لأمور الناس، الآمر بالبدعة والضلالة، فإن جهاده واجب على كل مسلم، فقد كنت على مجاهدة أخيه فسبقني به أجله، وصار إلى نار الله وحر سعيره، مبتدعاً ضالاً.

فوجه إليهإبراهيم بن الوليد أخويه بشر بن الوليد ومسرور بن الوليد فأسرهما، وفض عسكرهما، فوجه إليهإبراهيم: سليمان بن هشام بن عبد الملك في خيول أهل دمشق فالتقيا بعين الجر من البقاع من عمل بعلبك، وذلك في صفر سنة سبع وعشرين ومائة فتناوشوا يومهم، ثم بكروا على الحرب فاقتتلوا أشد قتال وأبرحه، فانهزم سليمان ومن معه، وكان محدوداً، فلحقوا بإبراهيم.

وكتب مروان إلى وجوه أهل دمشق كتباً يعلمهم فيها أن الذين بايعوا يزيد الناقص شرارهم ورعاعهم وغواتهم ويدعوهم إلى طاعته ويعدهم ويمنيهم، ويحلف لهم على الوفاء والإحسان فانتقضوا على إبراهيم.

ونزل مروان بن محمد الغوطة، فخرج إليهخلق من الناس فبايعوه، فلما رأى ذلك عبد العزيز بن الحجاج بن عبد الملك، ويزيد بن خالد بن عبد الله القسري أخذا عثمان والحكم، ابني الوليد بن يزيد فقتلاهما في محبسهما، وخافا أن يتخلصا، فكان الناس يقولون: يا معشر الفتيان أين الحكم وعثمان.

وقال بعض الرواة إنهما قتلا يومئذ يوسف بن عمر، وقال بعضهم قتل في أيام يزيد بن الوليد، قتله يزيد بن خالد واليمانية.

قال أبو الوليد هشام بن عمار: قتله في ولاية يزيد أثبت، لأنه بلغنا أن الناقص قال: عجلتم بقتله قبل أخذ ما عليه للمسلمين من الأموال.

قال هشام بن عمار: وسمعت من يقول أن الحكم وعثمان قتلا حين تحرك مروان من حران، وقبل نزوله الغوطة والله أعلم.

وقال الشاعر حين أقبل مروان:

أتاك مروان شبيه مروان   يجرّ جيشاً غضباً للرحمن

بتغلب الغلباء وقيس عيلان

فقال بعض أصحاب إبراهيم:

قد جاء مروان شبيه مروان   يقود جيشاً غضباً للشيطان

بتغلب اللؤم وقيس عيلان

قالوا: ولما بويع مروان بالغوطة، وقوي أمره، ووهن أمر إبراهيم استخفى إبراهيم بن الوليد حتى أُخذ له الأمان فكان مع مروان وفي طاعته، و لم يزل حياً حتى قتله عبد الله بن علي بن عبد الله بن العباس سنة اثنتين وثلاثين ومائة مع من قتل من بني أمية.

ويقال إنه أتى مروان خالعاً لنفسه حتى وضع يده في يده فاعتذر إليه، ويقال أيضاً إن مروان ظفر به فقتله وصلبه. والخبر الأول أثبت.

وكانت أيام إبراهيم أربعة أشهر، ويقال ثلاثة أشهر، وبعضهم يقول أربعون يوماً.

ولما دخل مروان دمشق طلب عبد العزيز بن الحجاج، ويزيد بن خالد القسري فظفر بهما فقتلهما بعثمان والحكم، وصلبهما على باب الجابية، ويقال على باب الفراديس بدمشق، وقال هشام بن عمار: كان الذي ظفر بهما زامل بن عمرو الجذامي عامل مروان، وبايع مروان لابنيه عبد الله وعبيد الله.

أمر أبي محمد السفياني بعد مقتل الوليد

قالوا: ولما قتل الوليد غضب له مروان بن محمد بن مروان، ومروان بن عبد الله بن عبد الملك، وأبو محمد زياد بن عبد الله بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان، وكان مروان بن عبد الله عاملاً للوليد على حمص، وكان من سادة بني مروان نبلاً وفضلاً وكمالاً، فأكبر قتل الوليد ودعا أهل حمص إلى الطلب بدمه فأجابوه، وتأهب للمسير إلى يزيد بن الوليد الناقص فوقع بينه وبين أبي محمد السفياني اختلاف، فقال أبو محمد زياد بن عبد الله السفياني: يا أهل حمص إن مروان بن عبد الله يريد أن يريثكم عن الطلب بدم الخليفة، ووقع فيه، فوثب السمط بن ثابت من ولد شرحبيل بن السمط الكندي، والصقر بن صفوان الكندي، وغالب بن ربعي الطائي في جماعة فقتلوا مروان بن عبد الله بن عبد الملك، فلم يشعر أبو محمد السفياني إلا برأس مروان بن عبد الله على رمح، فاغتم وقال: لم أُرد هذا، قالوا: فقد كان.

وبايعوا أبا محمد السفياني، وأقبل حتى نزل جوسكية وهو حصن من حصون حمص، وبلغ يزيد بن الوليد الناقص أمره فوجه إلى أهل حمص سليمان بن هشام، وعبد العزيز بن الحجاج بن عبد الملك، فترلا ثنية العقاب، وأقبل أبو محمد السفياني فترل موضعاً يعرف بقطيفة هشام، وكان هشام بن عبد الملك اتخذها فقصد سليمان بن هشام إلى أبي محمد فالتقوا بالسليمانية، وكان سليمان بن عبد الملك اتخذها فقاتلهم أبو محمد فخذله جنده فأُسر وقدم به على يزيد الناقص فحبسه مع ابني الوليد الحكم وعثمان، ثم أمر أيضاً بحبس يزيد بن عثمان بن محمد بن أبي سفيان فحبس معهم.

وحدثني داود بن عبد الحميد عن أشياخه قالوا: لم يزل الغيلانية بيزيد الناقص حتى بايع لإبراهيم ولعبد العزيز بن الحجاج من بعده، ومات يزيد لعشر بقين من ذي الحجة سنة ست وعشرين ومائة، و لم يتم لإبراهيم بن الوليد أمر. كان يسلم عليه جمعة بالخلافة، وجمعه بالإمارة. وكان يقال له: الصلتان، وكانت أمه بربرية، و لم تكن أم يزيد الناقص.

وقال بعض الشعراء:

نبايع إبراهيم في كل جمعةٍ ... ألا إنّ أمراً أنت وإليهضائع

نبايع إبراهيم في كل جمعةٍ ... فكم كم إلى كم كل يومٍ نبايع

فما زال على هذه الحال حتى قدم مروان فخلع نفسه، وقتل مروان عبد العزيز بن الحجاج، وإبراهيم الخشبي من أولاد المختارية.

قالوا: ولما ولي مروان بن محمد نبش قبر يزيد بن الوليد بن عبد الملك واستخرجه وصلبه، فيزعمون أنهم وجدوا كتاباً فيه: يا مبذر الكنوز، يا سجاد الأسحار كانت ولايتك لهم رحمة وعليهم حجة، أخذوك فصلبوك.

وقد ذكر بعضهم أن الناقص سئل أن يولي أخاه إبراهيم عهده، فلم يفعل فلما أغمي عليه أو مات كتب قطن كتاباً، وختمه بخاتم الناقص عهداً لإبراهيم بالخلافة.

يوم القاع ويوم الفلج الأول باليمامة

قالوا: لما قتل الوليد كان على اليمامة من قبل يوسف بن عمر الثقفي: علي بن المهاجر بن عبد الله الكلابي فقال له المهير بن سلمى بن هلال أحد بني الدئل بن حنيفة: أخل لنا بلادنا فأبى ذلك فجمع له المهير وسار إليهوهو في قصره بقاع حجر فالتقوا بالقاع بسوق حجر، فهزمه المهير حتى أدخله قصرهن وخرج من ناحية القصر فهرب إلى المدينة، وقتل المهير بن سلمى ناساً من أصحابه، وكان يحيى بن أبي حفصة أشار على ابن المهاجر أن لا يقاتل فعصاه فقال:

بذلت نصيحتي لبني كلاب فلم تقبل مشوراتي ونصحي
فدى لبني حنيفة من سواهم فإنهم فوارس كل فتح

وقال شقيق بن عمرو السدوسي:

إذا أنت سالمت المهير ورهطه أمنت من الأعداء والخوف والذعر
به دفع الله النفاق وأهله وأحيا به أهل المجاعة والفقر
فتى راح يوم القاع روحة ماجد أراد بها حسن السماع مع الأجر

وتأمر المهير على اليمامة، وكان على شرطه عبد الحكم بن حكام العبيدي فركب المهير والناس معه فشد قوم على عبد الحكم فقتلوه فقال القحيف العقيلي:

لقد جمع المهير لنا فقلنا ألسنا نحن عرضتنا الجموع

ثم مات المهير واستخلف عبد الله بن النعمان أحد بني قيس بن ثعلبة بن الدؤل.

قالوا: فاستعمل عبد الله بن النعمان المندلث بن إدريس الحنفي على الفلج– والفلج قرية من قرى بني عامر بن صعصعة، وقال عمارة بن عقيل بن بلال بن جرير بن عطية بن الخطفى: هي لبني نمير– فجمع له بنو كعب بن ربيعة بن عامر ومعهم بنو عقيل، وأتوا الفلج فقاتلهم المندلث بالفلج فقتل المندلث، قتله رحال بن فروة القشيري، وقتل أكثر أصحابه وظفرت بنو عامر ولم يقتل منهم كبير أحد، وقتل يومئذ يزيد بن المنتشر، وأمه الطثرية من طثرين بن عتر بن وائل، وكان معهم فقال القحيف:

إن تقتلوا منا شهيداً صابرا فقد تركنا منكم مجازرا
خمس مئين لم يدخلوا المقابرا

وقال ثور بن الطثرية يرثيه:

أرى الأثل من نحو العقيق مجاوري ... مقيماً وقد غالت يزيداً غوائله

مضى فورثناه دلاصاً مفاضةً ... وأبيض هندياً طوالاً حمائله

وقد كان يحمى المحجرين بسيفه ... ويبلغ أقصى حجرة الحيّ نائله

في أبيات. وقال القحيف:

أتانا بالعقيق صريخ كعبٍ ... فحلّ النبع والأسل النهال

يوم الفلج الثاني

لما أتى عبد الله بن النعمان خليفة المهين قتل المندلث جمع جمعاً بلغ ألفاً من حنيفة وغيرها من ساكني اليمامة فغزا الفلج، فلما تصاف الناس انهزم أبو لطيفة بن مسلم العقيلي فقال الراجز:

فرّ أبو لطيفة المنافق ... والجعونيان وفرّ طارق

لما أحاطت بهم البوارق ... والموت حيث الخرّق الخوافق

طارق بن عبد الله القشيري، والجعونيان من بني قشير، وتجللت بنو جعدة البراذع وقاتلوا حتى قتلوا إلا نفراً منهم، وقطعت يد زياد بن حيان الجعدي فجعل يقول:

أنشد كفاً ذهبت وساعدا ... أنشدها ولا أراني واجدا

ثم قتل.

وقال الأسوار بن عمرو مولى بني هزان:

سلوا الفلج العاديّ عنا وعنكم ... وأُطمة إذ سالت مدامعها دما

عشيّة لو شئنا سبينا نساءكم ... ولكن صفحنا عفّة وتكرّما

وقال بعض الربعيين:

سمونا لكعبٍ بالصفائح والقنا ... وبالخيل شعثاً تنتحي في الشّكائم

فما غاب قرن الشمس حتى رأيتنا ... نسوق بني كعبٍ كسوق البهائم

بضربٍ يزيل الهام عن سكناته ... وطعنٍ كأفواه المزاد الشّواجم

وفر أبوك يا لطيفة هارباً ... ولم ينج من أسيافنا وهو سالم

يوم معدن الصحراء

وأغارت بنو عقيل وقشير، وجعدة بن كعب، ونمير بن عامر بعد الفلج الثاني، وقد تجمعوا عليهم بنو سهلة النميري، على من كان من بني حنيفة بمعدن الصحراء، فقتلوا من وجدوا من بني حنيفة، وسلبوا نساءهم، وكفت بنو نمير عن النساء، غير ان رباح بن جندل بن الراعي سبى امرأة واحدة مخصلةً بخصل الفضة، فقال القحيف:

ورثنا أبانا عامراً مشرفيةً — صفائح فيها اليوم أنصاف ما بها

ضربنا بها أعناق بكر بن وائل — جهاراً وجاوزنا بها من ورائها

يوم النشاش: قالوا: ولما أوقع بالعامريين يوم الفلج الثاني قال عمر بن الوازع الحنفي: لست بدون عبد الله بن النعمان وغيره ممن يغير، وهذه فترة يؤمن فيها السلطان، فمضى يريد أضاخ، فلما كان بأرض الشريف بث خيله فأغارت وأغار فملأ يده من الغنائم، وأقبل ومن معه حتى نزلوا النشاش، وأقبلت بنو عامر حاشدة حتى أغارت فلم يرع عمر بن الوازع إلآ رغاء الإبل، فجمع ابن الوازع النساء في فسطاط وأقام عليهن حرساً من ثقاته، ولقي القوم فقاتلهم فهزمت حنيفة ومن معها، وهرب ابن الوازع فلحق باليمامة، وتساقط منهم خلق في قلب النشاش من العطش وشدة الحر، فطلب ابن الوازع فلم يقدر عليه، ورجعوا بالأسرى والنساء. فقال بعض بني نمير:

إذا عدّ الفعال وجدت قومي — نميراً بذّ فعلهم الفعالا

هم قتلوا البهيم بها وجوناً — علانيةً وما قتلا اغتيالا

بهيم بن عزة.

وقال حديج النميري:

كأنّ أبانا عامراً لم يلد لنا — أخاً غير نصل السّيف عند الشدائد

فنحن نداوي بالقنا صفحاتهم — وبالبيض نخليها مناط القلائد

وقال دلم بن صامت النميري:

أنا النّميري الذي يحمي مضر — يرفع من أبصارهم فوق البصر

مبارك الراية مرزوق الظّفر — إنّ اليمانيينّ فرسان الحمر

لم يصبروا للمشرفيّات البتر — والطعن بالمرّان أجواف البهر

لما ضربناهم بصيّاحٍ ذكر — طاير عنه القين شذّان الشّرر

وقال القحيف أيضاً :

وبالنشّاش يومٌ طار فيه ... لنا ذكرٌ وعدّ لنا فعال

وقال أيضاً :

فداءٌ خالتي لبني عقيلٍ ... وكعبٌ حين تزدحم الجدود

وهم تركوا على النشاش صرعى ... بضربٍ ثمّ أهونه شديد

وقال حصين النميري:

يا دار جملٍ بلوى متالع ... كأنها بعد الجميع الرابع

سحق يمانٍ بعد لونٍ ناصع ... الله لقّى عمر بن الوازع

دائرة السوء بفجعٍ فاجع ... لما لقونا خلفه الطلائع

ولّوا شلالا كالنّعام الفازع

وقال بعض بني نمير:

فليت ابن المهير رأى نميراً ... بنشّاشٍ تواجهنا النّخيل

وفي أيماننا بيضٌ رقاقٌ ... صوارم ما يقوم لها قبيل

غزا يرجو الغنيمة من نمير ... فلم يغنم وأعجزه القفول

وقال القحيف العقيلي:

من مبلغٌ عنا قريشاً رسالةً ... وأفناء قيسٍ سارت وحلّت

بأنا تركنا من حنيفة بعدما ... أغارت على أهل الحمى ثم ولّت

تسكّ نميرٌ بالقنا صفحاتهم ... فكم ثمّ من نذرٍ لها قد أحلّت

في أبيات: وقال سعد بن عياش الغنوي:

نحن صبحنا عمر بن الوازع ... ملمومةٌ ذات غبار ساطع

باكره الورد بموتٍ ناقع ... تحت ظلال الخرّق اللوامع

وقال القحيف:

تركنا على النشّاش بكر بن وائل ... بطون السّباع العاويات قبورها

قتلناهم حتى رفعنا أكفّنا ... بمشهورةٍ بيضٍ حدادٍ ذكورها

وشيبان قد كانت لحينٍ وشقوةٍ كباحثة عن شفرةٍ تستثيرها

قالوا: وكفت قيس يوم النشاش عن السلب، فجاءت عكل من الحلة فسلبتهم، و لم يكن لحنيفة بعد هذا اليوم جمع، غير ان عبيد الله بن مسلم الحنفي جمع جمعاً وأغار على ماء لقشير يقال له حلبان فقال الشاعر:

لقد لاقت قشير يوم لاقت عبيد الله إحدى المنكرات

لقد لاقت على حلبان ليثاً هزبراً لا ينام على التّرات

وأغار على عكل فقتل منهم عشرين رجلاً، فقال نوح بن جرير بن عطية:

وضيّعتم يا عكل بالسّر نسوةً فباتت علوج القريتين تكومها

ثم قدم المثنى بن يزيد بن عمر بن هبيرة والياً على اليمامة من قبل أبيه، حين ولي العراق من قبل مروان الجعدي، فوردها وهي سلم فلم يحارب، وتشاهدت بنو عامر على بني حنيفة فتعصب لهم المثنى بالقيسية، فضرب عدة من بني حنيفة فقال بعضهم:

إن تضربونا بالسياط فإننا ضربناكم بالمرهفات الصوارم

وإن تحلقوا منا الرؤوس فإننا قطعنا رؤوساً منكم بالغلاصم

ثم إن المثنى جعل يرفعهم إلى قاضيه طلحة بن إياس العدوي، فلم يقبل شهادة عامري فهدأت البلاد وسكنت، و لم يزل عبيد الله بن مسلم مستخفياً حتى قدم السري بن عبد الله بن الحارث بن عباس بن عبد المطلب والياً على اليمامة، من قبل بني العباس فدل عليه فقتله لما صنع، فقال نوح بن جرير:

فلولا السريّ الهاشمي وسيفه أعاد عبيد الله شراً على عكل

بسم الله الرحمن الرحيم

أمر محمد بن مروان وولده

وأما محمد بن مروان بن الحكم، ويكنى أبا عبد الرحمن، وأمه أم ولد، وكان من أشد ولد مروان وأشجعهم في حسن خلق، وهو الذي حارب مصعب بن الزبير بن العوام فقتله بمسكن من أرض السواد، وقتل إبراهيم بن الأشتر النخعي وقد كتبنا خبره.

وكان عبد الله بن يزيد بن معاوية متقدماً محمد بن مروان عند عبد الملك، وذلك لأن أخته عاتكة بنت يزيد كانت عنده، وكان يحبها وكان يقال إن عبد الملك كان يحسد محمداً لأنه كان يرى جلد أخيه

وبأسه وعارضته، ويحب أن يصغر منه لا سيما بعد قتله المصعب، فعزم محمد على إتيان أرمينية فأمر بإبله فرحلت، فدخل على عبد الملك مودعاً وقال: إني أريد الغزو بأرمينية، وتمثل:

فإنك لن ترى طرداً لحرٍّ كإلزاقٍ به بعض الهوان

ولو كنا بمنزلةٍ جميعاً جريت وأنت مضطرب العنان

فقال عبد الملك: أقسمت عليك يا أخي لما أقمت في الرحب والسعه، فوالله لا أقذي في عينك ولا أقدم عليك غيرك ولا ترى مني سوءاً ما بقيت، وولاه الجزيرة وأرمينية.

أمر مروان بن محمد بن مروان

فولد محمد بن مروان: يزيد، وأمه أم يزيد بنت يزيد بن عبيد الله بن شيبة بن ربيعة.

وعبد الرحمن، وأمه أم جميل من ولد عمر بن الخطاب.

وعبد العزيز لأم ولد.

ومروان بن محمد، وهو الجعدي، وأمه كردية أخذها ابوه من عسكر ابن الأشتر، وكان مروان يكنى أبا عبد الملك.

وقال أبو الحسن المدائني: وقوم يقولون إن أم مروان عربية من تنوخ، وذلك باطل. ويقال: كانت أمه جارية لمصعب أخذت وبها حمل، ويقال: كانت جارية لزربي طباخ مصعب أو خبازه.

قالوا: وبويع مروان لأربع عشرة ليلة خلت من صفر سنة سبع وعشرين ومائة، وكان أبيض أحمر أزرق أهدل الشفة لا يخضب، ولم يكن بالذاهب طولاً، وكنت إذا استدبرته ظننت أن على منكبيه رجلين جالسين، واسع الصدر. وكان يقول: اللهم لا تبلني بطلب ما لم تجعل لي فيه رزقاً: وكان يقول في خطبته: اللهم إنك أعلم بولينا وعدونا منا، فكن لنا ولياً وحافظاً، وكان يقول: ما كان أبو بكر ولا عمر بأعف من هذا مني.

قال: وكان غيوراً، وجد كتاباً إلى جارية له من أمها فقال: من أدخل هذا الكتاب؟ فقال خصي: أنا رحمت أمها لبكائها. فقطع يد الخصي.

قالوا: وعرض مروان الجند فشكوا في حلية رجل فأسقطه، فقال:

هلا بعين الجر حليتني لما توافى القوم في الخندق

فقال: أجيزوه، فأجازوه.

وكان مروان أول من حلى الجند. وكان كاتبه عبد الحميد بن يحيى بن سعيد، مولى بني عامر بن لؤي

ويقال مولى بني مروان، ويقال كان من أهل الأنبار، وكان على شرطه الكوثر الغنوي، وكانت حرسه نوائب. قال الشاعر:

يا أيها السائل عن مروانا	دونك مروان بعسقلانا
يجيد ضرب القوم والطعانا	حتى ترى قتلاهم ألوانا

وكان مروان بخيلاً.

وولد مروان بن محمد: عبد الله وعبيد الله.

وقال أبو اليقظان: لا يعلم له ولد غيرهما، وغير عبد الملك بن مروان وعبد الغفار.

وولي مروان بعد خلع إبراهيم بن الوليد بن عبد الملك خمس سنين، وقتل بمصر سنة ثلاث وثلاثين ومائة، وهو ابن تسع وستين سنة.

قالوا: وكان الجعد ساير يوماً مروان في أول خلافة هشام، وقبل تولية هشام إياه أرمينية فأصابت ركبته ركبة مروان فقال: أعجلتني دابتي. فقال: على نفسك فأبق.

قرأت على أبي الحسن المدائني، وحدثني غيره من أهل العلم، قالوا: كان هشام بن عبد الملك ولى مروان بن محمد أرمينية وآذربيجان، فلما ولي الوليد بن يزيد أقره، فقتل الوليد ومروان بكسار من أرض أرمينية، فأتاه خبره وهو بها، فعزم على إتيان الجزيرة والشام فقيل له: إن عطلت الثغر اصطلم الخزر ومن فيه من الأمم أهله من المسلمين، فخطب مروان ودعا الناس إلى السمع والطاعة والبيعة لمن يجتمع الناس عليه، وأعطاهم أرزاقهم، وفرض لعشرة آلاف من الأبناء وغيرهم، وبعثإسحاق بن مسلم العقيلي، وثابت بن نعيم الجذامي إلى أهل الباب والأبواب وملوك الجبال وتفليس يدعوهم إلى بيعة من رضي المسلمون به، وولى آذربيجان حميد بن عبد الرحمن اللخمي، فلما رجع ثابت بن نعيم من حيث وجهه إليهمروان فارق مروان وخالفه، ودعا أهل الشام إلى الخروج معه، وقال: قد قتل الوليد بن يزيد بن عبد الملك فسيروا على راياتكم إلى الشام قافلين، فأجابوه وقالوا: قد قتل الخليفة فليس لأحد علينا سلطان، فالرأي أن نأتي الشام فنكون مع من يجتمع الناس عليه ويرضون به، فعسكروا وبلغ مروان ذلك فقال: إنكم إنما أردتم الإغارة على أهل الذمة فيما بينكم وبين الشام. فاجتمع على قتالهم ودعا أهل الجزيرة إلى ذلك فأجابوه، فترك أهل الشام ما أجمعوا عليه من أمر ثابت بن نعيم ورفضوه، وأسلموا ثابتاً فأخذه مروان فحبسه وحبس بنيه وهم: نعيم، وبكر، ورفاعه، وعمران، وهم بقتلهم فطلب إليهفيهم فخلاهم.

واستخلف مروان على أرمينية عاصم بن عبد الله بن يزيد الهلالي، وتوجه يريد الشام، وقدم ابنه عبد الملك

بن مروان بن محمد إلى الجزيرة، وبلغ يزيد بن عمر بن هبيرة الفزاري أن مروان قد عزم على إتيان الشام ليبايع ليزيد بن الوليد، فكتب إليه: العجب لك تبايع ليزيد وهو قتل الوليد فلم يبق أحد من بني مروان إلا وهو طامع في الخلافة وأنت سنهم وشيخهم.

فلما قرأ كتابه أقام بالجزيرة، فأرسل إليهيزيد بن الوليد الناقص يعقوب بن عبد الرحمن بن سليم الكلبي، وحميد بن نصر اللخمي، وعمارة بن كلثوم بن أبي كلثوم الأزرق ليأتوه ببيعته، وبيعه من قبله من أهل الجزيرة، وضمن له إن سارع إلى بيعته و لم يقدم ويؤخر أن يوليه أرمينية وآذربيجان والجزيرة، فيقال إنه أبى ذلك ودس إلى من معه أن يأبوا بيعة يزيد. فقالوا: لا نبايع الناقص وقد قتل خليفتنا. فقال بعض رسل يزيد لمروان: إن هذا الأمر تحت كنفك وتدبيرك. فقال له: يا بن اللحناء لهممت أن أضر عنقك.

ويقال إنه كتب إلى يزيد ببيعته مع رسله ثم ردهم، ثم جاءته وفاة يزيد، وقيام إبراهيم بن الوليد، فرد الرسل الذين مضوا ببيعته من قنسرين، ودعا الناس إلى الطلب بدم الوليد، وأتى أهل حمص وأهل قنسرين بيعة إبراهيم وتحرزوا، فوجه إبراهيم بشراً ومسروراً ابني الوليد بن عبد الملك إلى قنسرين في خمسة آلاف، ووجه عبد العزيز بن الحجاج بن عبد الملك إلى حمص، ونادى عبد العزيز: من وافى فله كذا. فقال الحنتف الضبي من بني ضبة بن سعد بن ليث بن زيد بن سود بن أسلم بن الحاف بن قضاعة:

لبيك لبيك ولي العهد	أتاك قومي ضبّة بن سعد
قد لبسوا الدروع فوق الزّرد	وجرروا كل حصان ورد
ونشروا للحرب كل نهد	ونهدةٍ تزلّ تحت اللّبد
إيها فداكم طارفي وتلدي	فجالدوا عن دينكم بجدّ
وعن ذوات الحجل الممتد	أتاك مروانٌ بكل عبد
مخالف ينصر دين الجعد	مكذّبٌ يجحد يوم الوعد

فسار مروان بجند أهل الجزيرة، فلقيه بشر ومسرور، ومالت قيس كلها، ويزيد بن عمر بن هبيرة إلى مروان، ومضى إلى حمص ومعه أهل الجزيرة وقنسرين، وكان عبد العزيز بن الحجاج محاصراً لأهل حمص، فلما دنا منه مروان رجع عبد العزيز إلى دمشق، فوجه إبراهيم إلى مروان سليمان بن هشام، فأقبل في خلق من الخلق فنزل بعين الجر، ورجع إليهمروان بأهل الجزيرة وقنسرين وهو في زهاء سبعين ألفاً، فنزل بدير الأبرش وسليمان بعين الجر وبينهما ثلاثة أميال وذلك في صفر سنة سبع وعشرين ومائة.

وكتب مروان كتاباً منه إلى أهل فلسطين: إني نزلت بدير الأبرش، وسليمان بعين الجر فطالعت عسكره

بنفسي فرأيت جيشاً كثيفاً، وأنا متوجه إليكم في طريق كذا، ودفع الكتاب إلى رجل قال له: تعرض لهم. ففعل فأُخذ وأُتي به سليمان بن هشام، فلما قرأ الكتاب قال: أنا أبو أيوب هرب مروان، والله لأحولن بينه وبين ذلك.

وقال مروان لابنه عبد الله: إني مرتحل غدوة فإن ارتحل سليمان من هذا المترل فانزله، وخلفه في غيضة هناك كامناً في العين.

وأصبح مروان يوم الأربعاء فغدا متوجهاً في طريق المغرب، وخرج سليمان زعم يبادره إلى الطريق التي ذكر مروان في كتابه أنه يسلكها، وأقبل ابن مروان فترل عسكره، وسرح إلى أبيه رسولاً يعلمه ذلك فلما أعلمه الرسول رجع وقد سار ستة أميال فصار في عسكر سليمان فقال سليمان: مكر بنا مروان، وإنما فعل ذلك لأن عسكر سليمان أخصب وأحصن وأكثر مياهاً، فقاتلهم مروان فظفر بهم وقتل منهم مقتله عظيمة يقال عشرة آلاف، وأخذ يزيد بن العقار الكلبي، والوليد بن مصاد فضربهما مروان بالسياط حتى ماتا.

ومضى سليمان منهزماً إلى دمشق فأخذ مالها فقسمه بين أصحابه، وأتى عبد العزيز بن الحجاج بن عبد الملك الخضراء في جماعة منهم يزيد بن خالد القسري، وفيها الحكم وعثمان ابنا الوليد بن يزيد، وأبو محمد زياد بن عبد الله بن يزيد السفياني، ويزيد بن عثمان بن محمد بن أبي سفيان وهو خال عثمان بن الوليد بن يزيد، ويوسف بن عمر الثقفي، فوثب أبو الأسودمولى خالد بن عبد الله فقتل الحكم وعثمان ويوسف بن عمر، وكان الناس قد أحجموا عن قتل ابني الوليد وقالوا: هما صبيان.

وقيل لرجل كان محبوساً من الأعاجم: اقتلهما. فقال: أنا أقتل الفرسان ولا أقتل الصبيان، ويقال إنه قتل ابني الوليد أبو الأسود، قتلهما بعمود، ثم دخل يزيد بن خالد إلى يوسف فأخذ بلحيته وكانت طويلة، فجذبه ونتره نتراً شديداً، فقال له يوسف: ما هذا السفه يرحمك الله؟ قال: أنت والله أسفه مني يا بن الحمقاء حين ضربتني بالعراق ألوف أسياط. فقال: فعلتموها، والله ما فعلتم هذا حتى أخزاكم الله ولقد الهزمتم، فأخرجه فضربه، وقال: لعلك يا بن الزانية ترى أنني أقتلك بأبي، وقال: ما أقتلك إلا بغلامنا غزوان أو طهمان، ثم رجع فأخذ بيد خال عثمان بن الوليد فقتله، وبقي أبو محمد السفياني فقام فرد الباب وكان حديداً وألقى محبسه وراءه واعتمد عليه، فدفع الباب فلم يقدر على فتحه.

وماج الناس حين قتل الصبيان ابنا الوليد والهزم سليمان، وهرب عبد العزيز، ويزيد بن خالد ومن كان معهما.

وجاء مولى لأبي محمد السفيان يقال له مهران فنادى من خوخة من ناحية المسجد: يا أبا محمد أبشر فقد

أتاك الفرج، فقال: ويحك أما ههنا أحد؟ قال: بلى. قال: فجئني بمن قدرت عليه، فأتى بجماعة ففتح أبو محمد الباب فاحتملوه في قيوده حتى وضعوه على المنبر، فدعا لمروان وبايعه الناس فقال:

شددنا ملكنا ببني نزار وقوّمنا بهم ما كان مالا

وطحطحنا بهم قحطان حتى أقرّوا بالصّغار لنا ذلالا

وقال بعض شعراء بني عامر بن صعصعة:

ويوم بعين الجرّ يفخر جاثماً سليمان كاليعفور جمّ الهزائم

وطار عليها المخلصون لربّهم سراعاً نبيعات الأكفّ السلائم

فلما تمّطت في الغبار وواجهت دمشق شجرنا رأسها بالشكائم

يقول: حبسنا شجرته عن الأمر: حبسته.

ومن زعم أن أبا محمد قتل في محبسه فقد غلط.

وأقبل مروان على اثني عشر ميلاً من دمشق، وهرب سليمان بن هشام، وقال أبو محمد السفياني: من جاء برأس عبد العزيز بن الحجاج فله عشرة آلاف درهم، فطلبه الناس وأتوا داره فاحاطوا بها ليحرقوها فقال بعضهم: إنه ألقى إليهم بدرةً نثرها فتشاغلوا بها، وخرج من باب آخر فرأته امرأة فعرفته، ومر بها قوم يطلبونه فدلتهم عليه فوطئوه حتى قتلوه. فقال الشاعر:

رجا أخذها عبد العزيز بسيفه فصار قتيلاً في الأزقة يسلب

ويقال إن مروان أقبل، فتلقاه أبو محمد السفياني، وعبد الله بن سفيان بن عتبة بن يزيد بن معاوية، فسلم عليه أبو محمد بالخلافة وعزاه عن الوليد وابنيه وقال له: يا أمير المؤمنين غنا لحكم وعثمان جعلا لك العهد بعدهما، وكان مع مروان حوثرة بن سهيل الباهلي، والكوثر الغنوي والوثيق بن الهذيل، وأبو الورد الكلابي، وعبد الرحمن بن الأشهب الجعدي، ونباتة العقيلي، وابن سعيد الحرشي فقال مروان: إن هذين الغلامين جعلا لي الأمر بعدهما، والله يعلم أنني لم أطلبها في ليل ولا نهار.

ثم ارتحل فنزل مرج راهط فقال له ابن سراقة الأزدي: هذا والله الموضع الذي ضرب فيه جدك مروان فسطاطه. فنظر إليهفسره ذلك.

وقيل لسراقة: كذبته وغررته فقال: اسكتوا، من كان يقوم فيرد علي؟ فبويع مروان ثم دخل دمشق من باب الجابية فرأى عبد العزيز مقبلاً فقال: يا كوثر من هذا؟ قال: السفيه عبد العزيز. فقال مروان: لا يزال صبي من آل مروان يتعرض للفتن، وطلب إبراهيم وسليمان ونادى بأمانهما فأتياه، فخلع إبراهيم نفسه

فأمنه، وأمر سليمان بن هشام، واستعمل مروان على حمص معاوية بن يزيد بن حصين بن نمير السكوني، ثم اتهمه فعزله، واستعمل عبد الله بن شجرة فناصحه ابن شجرة، واستعمل على فلسطين ثابت بن نعيم- وكان قد رضي عنه بعد حبسه إياه واستصلحه- ويقال ولاه فلسطين والأردن، والأول أثبت.
وولى قنسرين عبد الملك بن الكوثر، ووجه في طلب من شايع على قتل الوليد فأُتي بنحو من مائتي رجل، فقتل بعضهم، وقطع أيدي بعض.
وأمرإسحاق بن إبراهيم بن الوليد وسليمان بن يزيد بن عبد الملك فبايعاه.
ثم حمل مروان ما كان بدمشق وترك بها زامل بن عمرو السكسكي، وخلف معه خالد بن يزيد بن هبار في ألف فارس، فأقام في حران ثلاثة أشهر أو أربعة، ثم بلغه أن ثابت بن نعيم بن زرعة بن روح بن زنباع بن روح بن سلامة بن حداد بن حديدة الجذامي قد خلع، وكان عامله على فلسطين، فسار يريده فكان من أمره دونه ما نحن ذاكروه إن شاء الله.

أمر حمص ودمشق

وأمر يزيد بن خالد القسري

قالوا: سار مروان يريد ثابت بن نعيم فنزل حماه من حمص ليلة الفطر سنة سبع وعشرين ومائة، وسليمان بن هشام بن عبد الملك معه آثر من عنده من بني مروان، وكان قدم عليه حران فأكرمه فصلى مروان العيد بالناس، ومعه سليمان، وعبد الملك، وعبد الله، وعبيد الله وعبد الغفار بنوه، فلما صلى أتاه رجل من أهل حمص فأعلمه أن أهل حمص قد غدروا وأن كلباً دخلت المدينة وعليها الأصبغ بن ذؤالة، ومعه بنوه حمزه، وذؤالة، وفرافصة، ومعه عصمة بن المقشعر مولى كلب، وطفيل بن حارثة ومعاوية بن عبد الأعلى السكسكي، وقد بايع ابن ذؤالة من أهل حمص السمط بن ثابت بن يزيد بن شرحبيل بن السمط بن الأسودبن جبلة الكندي وغالب بن ربعي الطائي، فارتحل مروان من حماه فنزل على نهر الأرنط، ثم سار على تعبئة إلى حمص فأتاها نصف النهار، وعلى الحائط جماعة من كلب، فأرسل مروان إليهم: ما بالكم؟ قالوا: نحن على طاعتك وهؤلاء سفهاء دخلوا مدينتنا، فقال: افتحوا باباً ففتحوه، فاقتحم عمرو بن الوضاح في الوضاحية فقاتلهم وأصيب من الفريقين، وهرب الأصبغ بن ذؤالة، واتبعتهم خيل لمروان فقتلوا منهم جماعة، ونجا الباقون وأُسر في المدينة رجال منهم ذؤالة بن الأصبغ بن ذؤالة، وأخوه فرافصة بن الأصبغ بن ذؤالة.
وكان الأصبغ قد وجه ابنه حمزة إلى ثابت بن نعيم يعلمه دخوله مدينة حمص فبلغته قبل وصوله إلى ثابت

هزيمة أبيه وأسر أخويه فمضى إلى تدمر، وقتل مروان الأسرى، وقتل ابني الأصبغ أيضاً ، وكان الأسرى أربعمائة فصلبوا حول مدينة حمص، وهدم مروان من حائطها مائتي ذراع، وأقام بها ثمانية أيام.
وروي أيضاً أن اليمانية عصت لتقديم القيسية عليها، فهم بنو مصاد بن زهير الكلبي أن يفتكوا بمروان، فشاع أمرهم، وكان معهم معاوية بن عبد الأعلى السكسكي، فأتى حمص فدعا أهلها إلى خلع مروان فأجابوه، وأمروا عليهم السمط بن ثابت، ويقال الأصبغ، فخرج عبد الله بن شجرة عامل مروان على حمص إلى سلمية فقتل بها، قتله رجل من كلب يقال له المنهال بن عبد الملك.

وخرج رجل من حمص يقال له حجر، ومروان محاصرهم إلى القرى يستنجدهم، فأُخذ وأُتي به مروان فقال مروان: هيه يا حجر، خرجت تستنجد أهل القرى ثم تأتي حمص، أما إنك ستأتيها، وأمر به فوضع في المنجنيق ورمي به فصكوا به حائط المدينة فتفسخ.
وأُخذ غلام من المدينة فأُتي به مروان فخرجت أمه فقالت: يا أمير المؤمنين أذكرك الله فإنه مالي ولد غيره وقد نهيته عن السعي والقتال فعصاني. فقال مروان: ذلك أحرى أن أقتله إذ عصاك، وأمر به فضربت عنقه.
وكان أهل حمص ينادون ومروان محاصر لهم: يا بن مصعب فيقول: شريف كريم، وينادون: يا بن الأشتر، يا بن زربي الخباز، يا بن الكردية. فيقول: خلطتم لعنكم الله. وكان الخوارج في أيامهم ينادونه: يا بن الطنفسة.
قالوا: وأمن مروان أهل حمص إلا سعيد بن هشام، والسمط بن ثابت، وكان سعيد مع أهلها، فنجا سعيد بن هشام حتى قتله عبد الله بن علي.
وثلم مروان حائط المدينة فقال بعض الحمصين:

يا حمص ويحك لا تجزعي   قصصك الجعدي سكنينه

وكلم الوليد بن معاوية بن مروان بن عبد الملك، وكان عامل مروان على الأردن، مروان في السمط وعمل في أمره حتى أمنه مروان، وكان يختلف إلى إسحق بن مسلم العقيلي ونزل عليه، قال الحارث بن يزيد: فقال لي الوليد بن معاوية: ألا تعجب من السمط يترل علىإسحاق بن مسلم ويدعني وقد قمت بأمره، قال الحارث: فلقيت السمط فقلت له في ذلك فقال: أنت عاجز، أنا أدعإسحاق وهو رجل إن غضب غضب لغضبه عشرة آلاف، قال: فأخبرته بذلك فأقعد السمط رجلين فقتلاه وهو يريد مروان، ويقال بل دسهما مروان، ويقال دسهما عبد الله بن شجرة. وقال الهيثم بن عدي: قتله مروان.

قالوا: ولما فرغ مروان من أمر حمص بلغه أن أهل غوطة دمشق دعوا إلى ثابت بن نعيم، وحصروا عامله على دمشق، وهو زامل فوجه مروان إليهم أبا الورد الكلابي، وعمرو بن الوضاح في عشرة آلاف، فلما وردا دمشق أتاهم أبو علاقة السكسكي، ويزيد بن خالد القسري، فانضما إليهم مخالفين لمروان فاقتتلوا فانهزم أبو علاقة ويزيد وظفروا بعسكرهما، ثم ظفر أبو الورد بيزيد وأبي علاقة بالمزة فقتلهما، وبعث برؤوسهما إلى مروان.

ويقال إن يزيد لما انهزموا خرج من باب الفراديس هارباً فانتهى إلى برزة، فلقيه رجل من الأشعريين فقال له: ابغني منزلاً أكون فيه فأدخله منزله، ثم فكر فخاف فدل عليه فبعث به إلى مروان فدفعه إلى المضرية فحملوه على بغل بإكاف وجعلوا وجهه مما يلي ذنبه، وجعل رجل من محارب يقول: يا معشر الفرسان أين الحكم وعثمان؟ ويقال إن مروان كتب إلى زامل، إنك لتعلم مكان يزيد بن خالد، ووالله لتأخذنه، أو لأقتلنك، فطلبه فأصيب في بيت لهيا فقال رجل من موالي بني سلول: تأتون به زاملاً وهو يمان فيحبسه ثم يشفع فيه ويستوهبه، فشد عليه فطعنه، وذلك لقتله يوسف بن عمر، وكان يزيد بن خالد لما قتل يوسف أمر بحبل فشد في مذاكيره وجر به، ففعل بيزيد مثل ذلك.

ويقال إن رجلاً من لخم أتى زامل بن عمر فأخبره أن يزيد بن خالد يأتي زراعة لهم بقرب الغوطة مستخفياً، فأرسل زامل خيلاً فأصابته في زراعة اللخمي، وعليه قميص سنبلاني، فأخذوه وأقبلوا به على بغل بإكاف، وقد عرض عليه، فتلقاهم رجل من بني نمير فقتله واحتز رأسه وأتى به زامل بن عمر فقال: كله بخل وخردل، فقال: الأمير أحق برأس ابن عمه.

وبعث زامل برأسه إلى مروان وعلق الناس في رجله حبلاً فجرره الصبيان في السكك. ويقال أيضاً إن النميري مر بقوم من بجيلة وقد قطع من لحم يزيد قطعاً فألقاها إليهم فقال: كلوا، فجعلوا يأكلون قسراً والسيوف على رؤوسهم، ثم مضى.

أمر ثابت بن نعيم بن زرعة بن روح بن زنباع الجذامي:

قالوا: خلع ثابت بن نعيم وقال: أنا الأصفر القحطاني لست لنعيم إن لم أُخل الشام من أولاد قيس، وكان مروان قد ولاه فلسطين مستصلحاً له بعد حبسه إياه بأرمينية.

وذكر قوم أن سبب خلعه أن عطية بن الأسودمولى كلب قال:

يا ثابت بن نعيم دعوةً جزعا   عقّت أباها وعقّت أمها اليمن

أتاركٌ أنت مال الله يأكله | عير الجزيرة والأشراف تمتهن

وكان يقال لمروان حمار الجزيرة.

أُوقد على مضرٍ ناراً يمانيةً | تشفي الغليل وتحيي بعدها السّنن

ويقال إنه قال هذا الشعر بعد خلعه.

قالوا: فلما فرغ مروان من أهل حمص، وثار ما ثار من أهل الغوطة، ومعهم أبو علافة، ويزيد بن خالد القسري فانقضى أمرهم، أقبل ثابت من فلسطين في كنف من لخم وغيرهم يكونون زهاء خمسين ألفاً، فحصر الوليد بن معاوية بن مروان بن عبد الملك بن مروان عامل مروان بطبرية مدينة الأردن، فسار إليهأبو الورد، فلما التقوا خرج إليهم الوليد بن معاوية في أهل الأردن فهزموا ثابتاً وقتلوا أصحابه، وتفرق من بقي منهم عنه.

ومضى ثابت إلى فلسطين واتبعه أبو الورد فلحقه، فأسر من بنيه ثلاثة: نعيماً، وبكراً، وعمران، فبعث بهم إلى مروان فحبسهم. وغلب أبو الورد على فلسطين، ولحق ثابت بن نعيم وابنه رفاعة بجبال الشراة فظفرت به خيل لمروان كان قد وجهها مادةً لأبي الورد فأخذوه وأتوا به مروان وهو بدير أيوب فقتله مروان، وقتل بنيه وقطع أيديهم وأرجلهم، وأفلت ابنه رفاعة بن ثابت، وأُخذ مع عثمان بن هلال الجهني وعمرو بن يزيد اللخمي فقتلهم مروان جميعاً.

وقال بعضهم: لحق ثابت بمصر، فوجه إليهمروان الكوثر فهزم أصحابه وأخذه أسيراً فبعث به إلى مروان فقطع يديه ورجليه وصلبه على باب دمشق، سمره بمسامير. وقال بعض الشعراء قصيدة له ويقال إنه الرماح بن ميادة:

حذارك أن تلقاك يوماً بموطنٍ | فوارس يهديها أبو الورد والصّقر

فوارس صدقٍ لا يبالون من ثوى | يجرّون أرماحاً حواملها حمر

وكوثرٌ المهدي لمصر جياده | وأرماحه حتى استقامت له مصر

فمالك بالشام المقدس منزلٌ | ولا لك في نجدٍ ذراع ولا شبر

بنجد ثبا منا وبالشام مثلها | متى تعصنا يغضب لنا البرّ والبحر

وأقام مروان بدير أيوب إلى هلال المحرم، وبايع به لابنيه: عبد الله وعبيد الله، وزوج عائشة بنت هشام من عبيد الله ابنه، وزوج أم بنت هشام عبد الله بن مروان ابنه، وأقبل فترل الرصافة فأقام بها يوماً.

أمر سليمان بن هشام بن عبد الملك

قالوا: ولما توجه مروان إلى الرصافة استأذنه سليمان بن هشام في المقام ليتجهز، فأذن له، ومضى فترل الرقة، ثم أتى قرقيسياء، وأقبل عبد الرحمن بن أيوب الضبي إلى سليمان بن هشام وهو بالرصافة ومعه خيل لمروان كان ضمها إليه، فقال لسليمان بن هشام: أنت والله أحق بالخلافة من الجعدي. وكان في نفسه على مروان أشياء في يوم عين الجر وغير يوم عين الجر، فخلع مروان وصار إلى حمص فدخلها وبايع أهل حمص على الموت، فأقبل مروان زاحفاً بعد أن قرب من قرقيسياء وعلى مقدمته ابنه فألصق بحمص ووضع عليها المجانيق حتى فتحها، وهرب سليمان بن هشام إلى تدمر، وأقام مروان حتى استقصى هدم حائط حمص.

قال أبو الحسن المدائني عن أشياخه وداود بن عبد الحميد قالوا: أظهر سليمان خلع مروان وقد فارقه بالرصافة، وقدم مروان الرقة فتوفي ابنه عبد الملك، فترك الإنحدار إلى العراق.

ومضى سليمان في خف من أصحابه إلى حمص، وبنى ثلماً كان مروان ثلمه في حائطها. وكان في نهر الهني قصران يقال لأحدهما الكامل والآخر العجب، فخلف فيهما سليمان قوماً من الذكوانية وغيرهم وأكثرهم موالي هشام، وأمرهم أن يمنعوا من أراد مروان من أصحابه ومن يأتيه بالخبر، فبعث اليهم مروان: لئن أقمتم على ما أنتم عليه ثم ظفرت بكم لم أستبق منكم أحداً. فلم يقبلوا، فأما من كان في العجب فإنهم نزلوا على حكمه فأمنهم، وأما أهل الكامل فأبوا أن يقبلوا أمانه فبعث إليهم خالد بن عمير بن الحباب فعرض عليهم الأمان فلم يقبلوه، ورجع مروان ومر بهم فشتموه، فأمر رجلاً من أصحابه بقتالهم، فنصب عليهم المجانيق فلم ينتصف النهار حتى أفضى إلى القصر فطلبوا منه أماناً، فأبى أن يؤمنهم إلا على حكمه، فقطع مروان أيديهم وأرجلهم وسمل أعينهم وهدم الحصن، وجعل الرجل يقول للرجل منهم: أيما أحب إليك، أقتلك شدخاً أم أفقأ عينك أم أقطع يديك ورجليك، فأُتي برجل منهم فقيل له ذلك فضحك وقال: ما أدري ما أختار من الشرور. فقتلوا بالعمد وبقطع الأيدي والأرجل، فقال بحرين عمرو القشيري:

ظفرت بهم إذ عاندوك سفاهةً ... فنكّل بهم حتى تدرّهم العصب
فإنك إذ تفعل تجدهم أذلّةً ... إذا نكبوا يوماً أذّلهم النّكب

وقتل مروان يعقوب مولى هشام غدراً، خرج إليهمن الكامل بأمان فقال: لا أعطي أهل الكامل الأمان إلا على حكمي فليس بيني وبينهم إلا السيف، وقتله.

وبايع أهل حمص سليمان، وتبايعوا على الموت، واستوثقوا من حائطهم وبنوا ثلمه، فتوجه إليهمروان فلما دنا من حمص جدد فرسان أهل الشام ممن مع سليمان البيعة على الموت، وجددها أهل حمص أيضاً وقالوا: اخرجوا إلى الجعدي فإما قتلنا وإما ظفرنا به، فانتدب منهم ستة آلاف مع معاوية بن عبد الأعلى السكسكي وثبيت البهراني فبلغ ذلك مروان فسار اليهم على تعبئة، وتحرزوا وكمنوا لمروان في الزيتون فلم يشعر وهو يسير على تعبئته حتى ثاوروه فقاتلهم وصرع معاوية بن عبد الأعلى وانهزم الآخرون، وقتل منهم أربعة آلاف، فقال مروان لمعاوية: أنت مطاع في أهل حمص فادعهم إلى بيعتي وأؤمنك. قال: نعم. فأرسله إليهم في خيل وأمرهم أن يحفظوه ولا يفارقوه حتى يردوه، فأتاهم وهم مشرفون من المدينة فدعاهم إلى بيعته فقالوا: لا ولا كرامة، ولا نبايع لابن زربي الخباز. فقال: إذا لم تفعلوا فابعثوا إلي غلامي ميسرة الأسودوليكن معه ثيابي كلها، وانصرف إلى مروان، فقال للذين كانوا معه: ماذا قال؟، فأخبروه. فقال: أتدرون ما أراد؟. قالوا: لا. قال: إذا أمسيتم فاحملوا السلاح وبيتوهم واحملوا على الميسرة، فأمر بمعاوية فقطعت يداه ورجلاه وشدخ بالعمد.

وقال بعضهم: إن رجلاً من بني مجاشع كان مع مروان يقال له حوي أسر معاوية بن عبد الأعلى وأتى به مروان فقال: استبقني فإني أشد العرب. فقال: الذي أسرك أشد منك. وقال مروان:

يا ربّ إبراهيم أمتعنا به	إنّ حويّا نعم ما أبلى به
والسّكسكيّ صاغراً جانا به	

فلما أمسى مروان صير الفرسان وحماة قيس في الميسرة، فلما مضى ثلث الليل بيتهم أهل حمص وقد حذرهم مروان فاقتتلوا فلم يقدروا على ما أرادوا فرجعوا إلى سليمان، فرأى سليمان صلابة مروان وصعوبة الأمر في محاربته فخرج من حمص وخلف أخاه سعيد بن هشام وأتى تدمر فنزلها، وأقام مروان على حمص يقاتلهم عشرة أشهر أو أقل، وبسط لهم الأمان فقيل إنه أمنهم، وقيل إنهم نزلوا على حكمه فلم يقتل إلا عبداً أسودوشماساً نصرانياً كان شجاعاً وكان يقول: إن كان السكسكي ذهب فأنا السكسكي فقتله. وقال: ما كان خطر ببالي أن أؤمن شماساً. ويقال إنه لم يؤمن سعيد بن هشام ورجلاً من اليهود.

وأُتي بأمية بن معاوية بن هشام أسيراً فقطع يديه ورجليه ثم شدخه، فغلظ الناس على مروان ولعنوه، وهدم مروان حائط حمص، وكلم في سعيد فأمنه وكان معه وبقي حتى قتله ابن علي.

وقال المدائني: أمر مروان سليمان على إحداثه ومقاتلته إياه عن الناقص وإبراهيم، فركب سليمان يوماً مع مروان بعين الجر، فقال له مروان: يا أبا أيوب– ورفع حاجبيه كالمتوعد– فقال: يا أمير المؤمنين أعرض

عن هذا. فلم يزل سليمان مضمراً له على شر.

قالوا: وجمع سليمان بن هشام جمعاً بتدمر وبايعه أهلها، ولجأ إليها كل لص وخارب، وعامة أهلها كلب، فصار إليهم مروان، فقال زميل بن سويد:

يا ويح تدمر ويحها وعويلها	ماذا يراد بعامرية تدمرا
يا ويحها من كيد أبيض ماجدٍ	أعطى بعذراء الجيوش وشمّرا

فلما أناخ بها مروان سألوه الأمان وأن يضع لهم كل دم أصابوه، فأمنهم على أن يهدم حائطها فلم يمكنه، وهرب سليمان حين قرب مروان منها فانحط إلى خساف فترلها، فوجه إليهمروان عوف بناإسحاق بن مسلم فأسرته خيل لسليمان، فوجه إليهمروان الكوثر فقاتله سليمان، وأتاهم مروان فتقاتلوا فاستعلاهم سليمان ثم إنه انهزم فاتبعه مروان فالتقوا أيضاً بمرج خلف صفين، وقدم مروان ابن الصحصح فاقتتلوا فهرب سليمان وأُسر من أصحابه خلقاً فقتلهم مروان بالعمد بقرب ملاحة هشام، وصار سليمان مع الخوارج، وقد كتبنا خبره بعد هذه القصص، حتى قتله أمير المؤمنين أبو العباس.

ويقال إن مروان قتل سعيد بن هشام غيلة، ويقال ضرب عنقه. ويقال إنه بقي حتى خرج في أيام بني هاشم فقتل، والله أعلم.

وأسر خالد بن هشام بن إسماعيل المخزومي أخو إبراهيم ومحمد يوم خساف، أصابته خلفة فترل وستره موإليهوأخذ فأتي به مروان، فأمر فشدخ بالعمد.

خبر يوم المنتهب في أيام مروان

قال هشام ابن الكلبي، ثنا إبراهيم بن عبد الرحمن بن نعيم عن معدان بن عبيد بن عدي بن عبد الله بن خيبري بن أفلت الطائي قال: تزوجت امرأة من بني بدر من فزارة رجلاً منا على نبيذ لهم فأسرع فيهم النبيذ وجرت ملاحاة، فوثب رجل منا يقال له يعقوب بن سلامة فضرب شاباً منهم فشجه، فمات من شجته، قال معدان: فقلت للبدريين: لك دية صاحبكم، فأبوا إلا أن ندفع إليهم قاتله، فأبيت دفعه.

وكنا حين قتل الوليد بن يزيد ووقعت الفتنة منعنا الصدقة، فلم يؤدها من بني طيء إلا بنو جرم وبنو نبهان أو أكثرهم، فأتى البدريون أمية بن عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان، وكان عامل الأعشار والصدقات بالمدينة، وإليهصدقات الجبلين فأخبروه بخبر صاحبهم، فكتب أمية إلى مروان يخبره بمنعنا الصدقة، وبقتل البدري وامتناعي من دفع قاتله إليهم، وأنا على خلاف ومعصية، فكتب مروان إلي أن

أمكن البدريين من صاحبهم، فأدوا الصدقة إلى أمية وسعاته، وإلا وجهت إليك من حملك إلي، فإن امتنعت عليه أتاني برأسك، ثم والله لأبيلن الخيل في عرصاتكم.

قالوا: فأمر معدان بضرب عنق الرسول، فقال: إن الرسل لا تقتل والأسير فيكم يا معاشر طيء يستحيى، فقال: صدقت، وخلى سبيله وقال له: أديت إلي فأد عني، قل لابن زربي: أنت تبيل الخيل في عرصاتنا وبيننا وبينك رمل عالج، وخلف ظهرك الجبلان، وحولي عديد طيء. اجهد جهدك واحشد حشدك، فلا أبقى الله عليك إن أبقيت، ولا أرعى عليك إن أرعيت. وكتب إليه:

ألا من مبلغٌ مروان عني — على ما كان من بعد المزار

ألم تر للخلافة كيف ضاعت — لأن صارت لأبناء السّراري

وقال غالب بن الحر المعني:

لقد قلت للركبان من آل هاشم — ومن عبد شمس والقبائل تسمع

قفوا أيها الركبان حتى يجيئنا — وإيّاكم الأمر الذي ليس يدفع

حتى تروا أين الإمام وتشعبوا — عصا الملك إن الخيل رثّ مدعدع

أرى ضيعةً للمال ألاّ يضمّه — إمامٌ وهل في غير أهليه يوضع

فأدى رسوله إليهالرسالة والشعر فاستشاط ودعا عبد الحميد بن يحيى كاتبه فأمره أن يكتب منه إلى عبد الواحد بن سليمان بن عبد الملك عامله على المدينة، وإلى أمية بن عبد الله عامله على الأعراض والأعشار والصدقات بها، وعلى صدقات طيء بالجبلين أن يسيرا بأهل المدينة وأهل البوادي من قيس وغيرها إلى معدان بن عبيد حتى يأخذا صدقات قومه، ويدفعا إلى البدريين قاتل صاحبهم، ويوطئا الخيل بلاده حتى يحملاه إليه، أو يقاتل فيقتل في المعركة.

وقال بعضهم: كان الكتاب إلى عبد الواحد بن سليمان النصري، فسارا بالناس حتى نزلا فيداً، وبعث أمية إلى معدان بن عبيد بن عدي في أداء الصدقة، فبعث إليهوإلى عبد الواحد: إني غير دافع إليكما شيئاً مما تطلبان، أما الصدقة فإني أحبسها حتى يستقيم أمر الناس، وأما وضع يدي في أيديكما فذلك ما لا يكون أو أؤسر أو أقتل، وكتب:

إنّ الفرائض لا فرائض فاصطبر — حتى يقوم على البلاد أمير

فسار أمية وصاحبه في زهاء مائة ألف من أهل المدينة والبوادي من قيس وغيرها، وفي ألف من أهل الشام بعثهم مروان إلى عبد الواحد إعانة بهم، وبعث عبد الواحد على مقدمته رجلاً من الضباب لحنق قيس على طيء واتبعه، ويقال إنه لم يتبعه، وعسكروا بالمنتهب وهو من أجأ.

قال معدان: وكنت في اثني عشر ألفاً من بني معن بن عتود بن عتير بن سلامان بن ثعل، وبني جديلة وغيرهم من طيء فذهب يحيى بن الكروس بن زيد المعقلي منهم بستة آلاف، لأنه كره القتال، فبقيت في ستة آلاف، فلما انتهيت إلى عسكر الضبابي واسمه حزير بن يزيد بن كثيف، إذا جبال حديد، وإذا عسكر القوم لا يرى طرفاه، فرفعت النار على أجأ، فاجتمعوا فنحروا الجزر، وعملوا النبال والنشاب، وقالوا: قبح الله أجزع الفريقين من الموت.

قال: فتصافنا فلما رموا بالنبل حملنا عليهم حملة رجل واحد، فما كان إلا كلا ولا، حتى قتل الضبابي وانهزم الناس اسوأ هزيمة، فقتلنا وانتهبنا، وكان عسكرهم أكبر عسكر رثة، وأُتيت بأمية أسيراً فخليت سبيله، وأتيت بجارية له بعد ذلك فبعثت بها إلى المدينة وقلت: لا تتبعوا مدبراً ولا تجهزوا على جريح.
قال: ثم قرئ علينا بعد ذلك كتاب مروان إليهم يأمرهم فيه إذا نشبت الحرب أن يقتلوا ويسبوا، ولو علمت ما في الكتاب قبل ذلك ما نجا منهم مخبر.
وكتب صاحب المدينة إلى مروان بالخبر فعزم مروان على توجيه عبدة بن رياح الغساني في عشرة آلاف من أهل الشام وقال: أهل المدينة أضعف قوم وأفشله، والأعراب كذلك ما لم يوتروا ويطلبوا الطوائل، فبينا هو على لك إذ كتب إليهابن هبيرة عامله على العراق بقتل ابن ضبارة وإقبال قحطبة فقال: ما شغلنا عشرة آلاف بأعراب طيء، فصرف الجيش نحو العراق، فلم نعط الصدقة حتى استقام أمر الناس واستخلف أبو العباس، والتجأ إلى معدان يومئذ عبد العزيز بن أبي دهيل بن يزيد بن الطفيل بن مالك بن جعفر هرباً من الحرب.
وقتل يوم المنتهب الحزير، وسرحان مولى قيس، ومهلهل أحد بني بدر، ورجال من فزارة، وقتل من طيء المزر السنبسي، وسعيد بن الخليل المعني، وحرثان بن خالد الفزيري.
وقال معدان في انصراف يحيى بن الكروس عنه فيمن صرف معه من طيء كراهة للقتال:

ألا ما لمولى لا يزال كأنه — أميمٌ يداوي رأسه بالمجارف
لعمرك ما المولى بمولى حفيظة — إذا لم يؤرّق بالهموم الصوائف
فإن نحن أعطينا فزارة حقها — بغير يمين أو قسامة حالف
فنحن إذاً أولاد قينٍ مجنّب ال — يدين ضروب للمدى والكثائف
وأنتم بنو حرٍّ كريم نجاره — من السادة الشمّ الحماة الغطارف

وقال أُنيف بن حكيم بن أنيف أرجوزة أولها:

هل تعرف الدار بصحراء ريب ... إذ أنت غيداق الصبّا جمّ الطّرب

يقول فيها:

لم أر يوماً مثل يوم المنتهب ... أكبر دعوى سالبٍ ومستلب

لمّا توفت ثمّ أبناء العرب ... حتى إذا الجونة كانت في صبب

نادى منادي طيءٍ يا للحسب ... أين بنو البيض الكريمات النّجب

يا قوم عاداتكم عند الغضب ... تغمغم الأبطال من بعد الصّخب

ضرباً وطعناً بعد رميٍ كاللّهب ... تحرّق النار بأطراف القصب

وقال أنيف في قصيدة له طويلة يقول فيها:

ألا هل أتى أهل المدينة عرضنا ... خلالاً من المعروف يعرف حالها

على عاملينا والسيوف مصونة ... بأغمادها مازايلتها نصالها

عرضنا كتاب الله والحق سنّةٌ ... هي النصف ما يخفى علينا اعتدالها

وجئنا إلى فرتاج سمعاً وطاعة ... نؤدي زكاة كان حان عقالها

وفي فيد صدّقنا وجاءت وفودنا ... إلى فيد حتى ما تعدّ رجالها

فلم ندر حتى راعنا بكتيبةٍ ... يروع ذوي الألباب والدين خالها

جمعنا لهم من عمرو عوف ومالكٍ ... كتائب يردي الظالمين نكالها

ومن دون ما منّى أُمية نفسه ... غمار حتوفٍ ليس يرجى زوالها

وكانت امرأة أبي دهيل وأمه من نبهان فقالت:

أصبحت من طيّئٍ حتى يقوم لنا ... أمر الإمام وما أصبحت من مضر

الجاعليّ بحمد الله إذ شرعت ... فيّ الأسنة بين السمع والبصر

والمانعين فلا يسطاع ما منعوا ... والمحمدين إذا لم يحمد المطر

لقد نهيت جريراً وهو في مهلٍ ... وقد أتته ولم يوقن بها النّذر

وقال الرماح بن ميادة:

لا تحسبوا أنا نسينا بحائلٍ ... جرير الندى والعسكر المتبددا

ولا تستريثوا أمرنا فكأنكم ... بصمّ العوالي فيكم اليوم أو غدا

فرد عليه معدان بن عبيد:

أتوعدنا قيس وإن تلق جمعنا تكن كشفا قيس عن الموت حيّدا

فلا تحمد القيسيّ بالنّفج كلما رأى السّلم أو أضحى من الزاد أكبدا

إذا ما رأى الحرب اتقى الحرب باسته وإن أمن القيسيّ غنّى وأنشدا

ونحن أسلنا مصعداً بطن حائلٍ ولم ير واد قبله سال مصعدا

وظلت تمنّيك است ميادة المنى لتجمع أمراً فاسداً قد تبددا

وقال أبو دهيل:

وإن امرأً في الحرب معدان خاله إذا ما اختبا من دونه لمنيع

قال المدائني: كان الناس يقولون: ما خير مروان بين أمرين إلا اختار أحزمهما، فلما لقي المسودة جعل لا يختار شيئاً إلا كان عليه فيه الضرر والنقص.

قالوا: وكان مروان بخيلاً شديد العقوبة مفرطاً فيها.

وقال بعض الشاميين: قال الحكم بن الوليد بن يزيد، أو قيلت على لسانه أبيات، فيها:

ألا فتيان من مضرٍ فيحموا أسارى في الحديد مكبلينا

أيذهب عامر بدمي وملكي فلا غثّاً أصبت ولا سمينا

فإن أهلك أنا ووليّ عهدي فمروانٌ أمير المؤمنينا

وكان مروان يقول: أنا أطلب الخلافة عن بيعة.

المدائني عن سليمان بن المغيرة: حدثني يزيد بن أسيد قال: كنا في غدير مستنقعين أنا وإسحاق بن مسلم؛ وعبد العزيز بن محمد بن مروان، ورجل آخر فبرد الماء على عبد العزيز بن محمد بن مروان فخرج فلم أر خلقاً قط أحسن من خلقه، فتعجبت فقال الرجل الذي معنا: أنا والله وضعته في رحم أمه، فقالإسحاق بن مسلم: والله لأخبرن أمير المؤمنين، فأتاه فأخبره فقال: اسمع هذا معك أحد؟ قال: سمعه يزيد بن أسيد، فدعا يزيد فسأله فأخبره فجعل يقرض لحيته غضباً ثم قال: اجعلا لي موثقاً ألا يسمع هذا منكما أحد، فأعطيناه موثقاً فقال؛ أراد أن يفسد أخي فكذب عليه وعضهه. وقال: قوما فلا يسمعن هذا منكما أحد. وتفقدناه فلم يتغير للرجل في مجلس ولا لسان ولا عطية.

المدائني عن أبي سلمة الغفاري قال: أتيت مروان أطالب بدم فقال لي: إن الوالي وكيل الغائب فإن شئت

نازعتك، وإن شئت كتبت لك إلى عامل المدينة آمره بالنظر فيما تدعي بحضرة الفقهاء، فإن ثبت لك حق أخذ لك به، فقلت: نازعني. فكان ينازعني ويناظرني، فأمر يوماً بالرحيل فرحل الناس وأبطأ خروجه فقيل له: إن الناس قد ركبوا وقد أبطأت. قال: ويحك قبائي يخاط فتق فيه رأيته ولا والله ما عندي غيره.

قالوا: وقسم مروان قسماً في قيس، فقال رجل من بني كلب: إذا كانت القسم ففي القيسية وإذا كان الطعان فللقحطانية، فضرب مروان عنقه، فما بقي قيسي ولا قحطاني إلا حمده وأثنى عليه، لأن هذا تحريض منه واستدعاء للعصبية.

المدائني قال: أمر مروان مضمراً له أن يوافي بخيله للنصف من المحرم فيجريها، وكان أسوديقال له دعيج وقال:

من كان في شكّ يخادع نفسه فموعده حرّان نصف المحرّم

بسم الله الرحمن الرحيم

الخوارج في ولاية عبد الله بن عمر العراق ليزيد بن الوليد الناقص إلى آخر أيام مروان بن محمد

أمر بسطام الشيباني

في أيام مروان بن محمد:

قال علي بن محمد المدائني وغيره: خرج بسطام الشيباني، وكان يرى رأي البيهسية، ويقتل الأطفال، وكان يقول: أقتل المخلوق فألحقه بالخالق.

وكان خروجه في شعبان سنة ست وعشرين ومائة بآذربيجان في ثلاثة عشر فارساً، فقتل عاملاً لمروان، ومضى إلى الموصل فقدم الموصل ومعه أربعون فارساً فقاتله يحيى– أو سلمة– بن الحر بن يوسف بن يحيى بن الحكم بن أبي العاص بن أمية ببلد فهزمهم بسطام وأقام ببلد أياماً، ثم أتى باقردى فأقام بها ما شاء الله، ثم سار إلى ألف فارس من أهل الشام كانوا بين نصيبين ورأس العين، فبيتهم فأصاب منهم طرفاً، ثم أتى نصيبين وفيها المساور بن عقبة فأعطوه الرضا، ثم أتى بازبدى ثم أتى الموصل فأعطوه الرضا، فنزل الربض الأعلى، وأقام شهراً وأتته رسل مروان يدعونه إلى طاعته ونصرته فأبى عليهم، وسار بسطام إلى بلد فأقام بها شهراً، فتركه ناس من أصحابه وأتوا مروان، فأتى بسطام آذربيجان فلقي اليمان الحميري، وهو من أصحاب الضحاك، وقد اعتقد وأراد أن يأتي مروان فقتله بسطام فسرح إليهعاصم بن يزيد الهلالي وهو

على أرمينية وآذربيجان رجلاً يقال له عبد الملك في ستة آلاف، فقتل عبد الملك وهزم أصحابه وقتل منهم بشر، ثم سار بسطام فأتى الحناية من أرض الموصل في يوم سوق فقتل ثمانين رجلاً، وأقام عشرين يوماً، ثم أتى شهر زور فلقي عاملاً لمروان يقال له جدار بن قيس فلم يقاتله، وسار فلقي أكراداً فقتلهم، ثم سار إلى العراق وأتى المدائن فلقي بالمدائن عاملها غزير بن المتوكل وهو في ألفين فهزمه، وسرح إليهشجرة بن زهير أحد بني تيم بن شيبان فهزمه بسطام، فوجه إليهمروان الخيبري فبيته فقتل بسطام وعامة أصحابه وتفرق بقيتهم. فقال الشاعر:

حيّا الإله الخيبريّ الذي	ألحق روح الفاسق المارق
بالنار يصلاها كما أنه	قد يلحق المخلوق بالخالق

أمر الضحاك بن قيس

بن حصين بن عبد الله بن ثعلبة الشيباني

من بني ذهل بن شيبان.

قالوا: بويع الضحاك بن قيس بعد سعيد بن بهدل، فأراد حين بايعوه أن يأتي الشام فأبى عليه أصحابه، فوجه حبناء بن عصمة الشيباني إلى تكريت فغلب عليها، ووجه أبا الدبس أحد بني تيم الله بن شيبان إلى حولايا وأرضها، ورجلاً آخر إلى الدسكرة فلقي أبو الدبس جميع بن مقرن وحريث بن أبي الجهم الكلبيين، فقتل جميع بن مقرن، وانهزم حريث حتى أتى المدائن، ولقي الرجل الآخر الذي وجهه إلى الدسكرة سعيد التنوخي فقتل وانهزم أصحابه، فوجه عبد الله بن عمر بن عبد العزيز الأصبغ بن ذؤاله، ويقال ابنه حمزة بن الأصبغ إلى المدائن فقاتل أبا الدبس، وارتجز الأصبغ فقال:

أعددت للدبس ورهط الدبس	طعناً ينسّيهم سؤال الحمس

وتحاجزوا وجاء حبناء بن عصمة إلى المدائن فلما قدمها حبناء عبر الأصبغ دجلة وقطع الجسر وصار إلى الكوفة.

وأقبل الضحاك من شهر زور في ثلاثة آلاف ويقال في أربعة آلاف وعلى مقدمته عبيدة بن سوار في أربعمائة فانتهى عبيدة إلى جسر النهروان، وعليه قائد لأهل الشام في ألفين، وقد قطع القائد الجسر فشتموا عبيدة وأصحابه، فقال عبيدة: إنا لم ندع الأموال والأهلين ونحن نبالي ما قلتم فاختاروا واحدة من ثلاث: إما أن تجيبونا إلى أمرنا وتجنحون إلينا، وإما أن تعقدوا الجسر وتعبروا إلينا ونعطيكم موثقاً ألا يعرض لأحد منكم حتى تتاموا قبلنا فنحاكمكم إلى الله، أو تعطونا عهداً– وما أنتم بثقة– ألا تهيجوا أحداً

منا حتى يعبر اليكم عشرة فيقاتلونكم، فإن قتلتموهم عبر إليكم مثلهم حتى تأتوا على آخرنا أو نظفر. فأبوا.

وعقد الضحاك بن قيس الجسر وعبر أصحابه إلى المدائن، فكتب إليهالقعد الذين بالكوفة مع أصعر بن عبد الرحمن، وكتب إليهعاصم بن الحدثان فسره ذلك، وقال: قد آن لهم أن يكتبوا إلي، وكان كتاب عاصم مع جميل العجلي:

أما بعد فإني أوصيك بتقوى الله الذي "يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور" فإنه قال: "ولقد وصّينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم أن اتّقوا الله". واعلم يا أمير المؤمنين أن لكل عمل عند الله جزاء: إن حسناً فحسنٌ، وإن سيئاً فعقوبة،، إلا ما عفا الله عنه، واذكر نعمة الله عليك وعلى المسلمين إذ كثر كم بعد القلة وأعزكم بعد الذلة، كتبت إليك يا أمير المؤمنين وأنا ومن قبلي من المسلمين في نعم علينا من الله سابغة، نسأل الله تمام ذلك بكمال الإسلام والعون والنصر، وقد وجهت إليك مع حميد عصابة من المسلمين نفروا رغبة في الجهاد، واعلم يا أمير المؤمنين أنك مسؤول عما استرعيت ومحاسب بما كتبت "يوم تجد كل نفسٍ ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء تودّ لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً".

فكتب إليهالضحاك: قد قدم علي حميد العجلي بكتابك وفهمت ما أمرت به من طاعة الله فنسأل الله أن يجعلنا وإياك ممن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ويسارع إلى الخيرات. وقد قدمت العصابة وهم على ما وصفت في الرغبة في الخير إن شاء الله، فجزاهم الله عن أنفسهم وإخوانهم خيراً ما جزى الغازين في سبيله، ونحن ومن قبلنا من المسلمين على أحسن حال، نسأل الله أداء شكره والسلام. وكتب بسطام بن المثنى.

وأقام الضحاك بالمدائن أياماً فكان رجل من أصحابه ينادي في كل صباح: يا خيل الله اركبي وابشري بالجنة، وكان في أصحابه رجل مريض فإذا سمع النداء قام إلى فرسه فأسرجه. فلما كثر ذلك قال:

ألا ليت شعري هل أبيتنّ ليلة ... بعيداً من اسم الله والبركات

ثم سار الضحاك من المدائن وقدم إلى الفرات مسكين بن الحسن المحلمي، فلقي على الفرات عبيد الله بن العباس بن يزيد بن الأسودبن سلمة بن حجر بن وهب بن ربيعة بن معاوية بن الحارث بن معاوية بن ثور، وهو كندي، فلما رآه عبيد الله قطع الجسر ورجع إلى الكوفة، فأراد عبد الله بن عمران أن يوجه إليهالأصبغ بن ذؤالة ليمنعه من العبور، فقال له عبيد الله بن العباس: عبوره أيسر علينا من طلبنا له فدعه فليعبر. فأخذ برأيه.

وسرح مسكين الخارجي خيلاً فصعدت بالسفن فعقدوا الجسر وعبروا، وقد خندق أهل الكوفة على أفواه

السكك، فاقتحم مسكين الخندق ثم رجع، فسار الخوارج إلى النخيلة فنزلوها في سنة تسع وعشرين ومائة، وابن عمر بن عبد العزيز يومئذ يقاتل النضر بن سعيد الحرشي قبل ذلك اربعة أشهر في العصبية بين أهل اليمن والقيسية: أهل اليمن مع ابن عمر، والقيسية مع النضر بن سعيد، فلما نزل الضحاك النخيلة أرسل ابن عمر إلى النضر: إن هذا المارق يريدني ويريدك فهلم فلتكن اليدان عليه جميعاً ثم ننظر.
وسفر بينهما العباس بن عبيد الله بن عبد الله ببة بن الحارث بن عبد المطلب، فأصابه سهم فقتل، ويقال إنه قتل قبل ذلك، وكان السفير غيره، فصاروا جميعاً يداً على الضحاك بن قيس.
قالوا: وأصبحوا غداة أربعاء فساروا إلى الخوارج، فالتقوا فقتل من الخوارج يومئذ أربعة عشر رجلاً ونسوة، ثم التقوا من الغد فاشتد الأمر بينهم وجعل رجل من الخوارج يرتجز ويقول:

يا نفس من طول الحياة ملّي | وعيشك المقطّع المولّي
علّي ألقى عاصماً لعلّي | في جنة عالية وخلّ
وبيهسٍ وكهمس المصلّي

فحمل عليه عبيد الله بن العباس بن يزيد فحاد عنه الخارجي فقال له عبيد الله: تتمنى الجنة وتحيد؟ فقال: أحيد لما هو شر لك يا عدو الله.
وأبلى يومئذ عاصم بن عمر بن عبد العزيز فلم يعرض له فارس إلا قتله، فحمل عليه البرذون بن مؤرق الشيباني فضربه عاصم على رأسه، وحمل رجل من الخوارج على عاصم فاختلفا ضربتين فقتل عاصم الخارجي ووقعت ضربة الخارجي في رأس عاصم فأثقلته، وبقي ثابتاً على فرسه، ونظر إليهالبرذون بن مؤرق الشيباني فرماه بنفسه فطعنه فأرداة عن فرسه فسقط ميتاً، وتناول البرذون عموداً كان على سرجه فإذا عليه مكتوب عاصم بن عمر.

واشتد عليهم الحر وهم يقاتلون، فوضع جعفر أخو عبيد الله بن العباس بن يزيد بيضته عن رأسه يتنفس ويتروح وهو على شرطة عبد الله بن عمر، فقال عبد الملك بن علقمة العبدي: إني لأحسب هذا من فراعنتهم، وحمل عليه فطعنه جعفر في فمه فكسر ثنيته وجرحه في طرف لسانه، فوحش ابن علقمة برمحه وانتضى سيفه وحمل عليه فضربه على هامته فاعتنق فرسه، ودعا ابن أخيه وابن عمه: يا هيثم. فأقبل نحوه فعرضه رجل من الخوارج فضربه ففلق جبين هيثم، ثم برأ بعد فكان يقال له ذا الوجهين.
واتبع عبد الملك جعفراً فلحقه فعانقه فسقطا إلى الأرض فقتله، وانهزم ابن عمر وأهل الشام، فانتهى أهل الشام إلى خص قد أضجعته الريح فاقتحمه النضر بن سعيد في فوارس فلم يروا منفذاً فقالوا: هلكنا

سيحرقونه علينا، ثم وجدوا منفذاً فخرجوا منه.

ولحق الخوارج هبيرة بن عبد الرحمن بن حسان بن المنذر بن حسان الضبي، وابناً لأبي سماك فقتلوهما، وجاء الخوارج الخندق فوقفوا ملياً ثم رجعوا إلى معسكرهم وحمل الناس قتلاهم ودفن آل الأشعث عاصم بن عمر بن عبد العزيز في دورهم.

ثم التقوا يوم الجمعة، ولقيهم الأصبغ بن ذؤالة في عشرة آلاف فهزمهم الخوارج حتى دخلوا حيطان الكوفة، فلما امسوا خرج قواد من قواد ابن عمر من اليمانية: منصور بن جمهور، والأصبغ بن ذوالة، وخرجت القيسية مع النضر بن سعيد إلى واسط، وهو يريد أن يغلب عليها، فأصبح ابن عمر وقد تفرق الناس عنه فحمل الأموال وارتحل فسبقته القيسية إلى واسط، فأرسل إلى النضر بن شبيب بن مالك الغساني، وهو عامل ابن عمر على واسط فقال: افتح لنا باب المدينة لتكون أيدينا واحدة، فأرسل إليه: يا بن السقاء، يا بن نسعة، قد كنت أحسب أن لك عقلاً، كيف أفتح لك باب المدينة وقد عرفت غدرك. الحق بطريق البريد مقعد أبيك فهو أشبه بك.

وقدم ابن عمر بأثقاله فدخل المدينة، ومات عامله شبيب بن مالك يوم دخل ابن عمر المدينة فقالت القيسية: لا ندعكم تعبرون به، فسفروا بينهم حتى أذنوا لهم أن يعبروا بالجنازة قوم لا سلاح عليهم ودخل الضحاك الكوفة فوجد في دار المختار قوماً من أهل الشام فمن عليهم، ووجد قوماً في دار بلال بن أبي بردة فقاتلوه فقتلهم وأمن الناس.

وبعث أبا الرجال وحبناء بن عصمة وعكرمة فباعوا الغنيمة عند قصر الكوفة، وذلك في أول يوم من شهر رمضان، وكان من رأي أصحاب الضحاك أن يستعرضوا أهل الكوفة، فمنعهم الضحاك ذلك، فلما دخلوا الكوفة تلقوهم بالأسوقة، فقال الضحاك: ألم أخبركم بأن لكم بها إخواناً يكتمون إيمانهم في دار الكفر، فمر رجل من الخوارج برجل على باب داره وكان عظيم البطن فقال له الخارجي: أصائم أنت؟ قال: نعم. قال: ما بطنك ببطن مؤمن ولولا أني أكره أن أفسد سناني بما في بطنك لأخرجته من ظهرك، وجنح إلى الضحاك عبيد الله بن عباس الكندي.

وقال هشام ابن الكلبي: شهد عبيد الله الخوارج بالكوفة وهم يقتتلون بين الحيرة والكوفة أيام الضحاك، مع جعفر بن العباس بن يزيد الكندي أخيه، فقتل جعفر، وجنح عبيد الله إلى الخوارج فقال أبو عطاء السندي:

ألا يا عبيد الله لو كان جعفر	هو الحيّ لم يجنح وأنت قتيل
ولم يتبع المرّاق والثأر فيهم	وفي كفّه عضب الذباب صقيل

جنحت وقد أردوا أخاك وأكفروا أباك فماذا بعد ذاك تقول

تركت أخا شيبان يسكب بزّه ونجّاك خوّار العنان رجيل

فلا وصلتك الرحم من ذي قرابةٍ وطالب وترٍ والذليل ذليل

فلما أنشده قوله: فماذا بعد ذاك تقول؟ قال: أقول أعضك الله ببظر أمك.

وقال رجل من الخوارج:

نحن عبرنا الخندق المقعّرا يوم لقيناكم وجزنا العسكرا

حتى قتلنا عاصماً وجعفرا والفاسق الضبيّ لمّا أدبرا

واليمنيين ومن تنزّرا لا تحسبوا ضرب الشراة سكّرا

وقال عبد الله بن عمر يرثي أخاه عاصماً:

لعمري لقد نادى المنادي فأسمعا بصوت رفيع حين نادى فأوجعا

غداة نعى يوم النخيلة عاصماً فأبكى العيون الجامدات وأقطعا

في أبيات.

وقال خلف بن خليفة يرثي عاصماً:

ألم يك عاصم ذخري فدلّت منيّته على ذخري المنونا

وكان من المودّة نصب عيني فأمسى غاب في المتغيّبينا

تقدم صابراً وثوى شهيداً فلست أعدّه في الميّتينا

في أبيات.

وقال ابن الكلبي: كان ابن بيض الشاعر نديماً لعمر بن الغضبان بن القبعثرى الشيباني، وكان مع عبد الله بن عمر على شرطه، ثم صار مع عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر حين خرج، ثم أراد الجنوح إلى الضحاك فجاء حمزة بن بيض الحنفي يستشيره، والخوارج يومئذ بالكوفة فأخبر ابن عمر أنه قد عزم على الخروج معهم، فقال ابن بيض:

عمر الخير ما ترى يا بن غضبان في الشرا أترى لي نفسي فداؤك من نازل الردى

ترك سردابك المبلّط في طيّب الثرى وشراب مشعشع جيّد ليس يشترى

من فلان ولا فلان ولكن من القرى وجوارٍ بيض الوجوه دجوجية الذرا

أنت خير من أن ترى ذاك يا بن القبعثرى

قال عمر: فلم استشرتني يا فاسق إن كان رأيك هذا؟ وقال ابن بيحان لابن بيض حين دخل الضحاك الكوفة: لو لقيته فأخبرته عن أهل بلدك وقومك فإن لك لساناً وبياناً، فقال ابن بيض:

ألا لا تلمني يا بن بيحان إنني أخاف على فخّارتي أن تحطما

فلو أنني لو شئت ابتاع مثلها من السوق ما باليت أن أتقدما

قال أبو الكردي: لما غلب الضحاك على الكوفة ولاها ملحان بن معروف الشيباني، فخرج ابن الحرشي يريد الشام، فعارضه ملحان فقتله ابن الحرشي وهو النضر بن سعيد.

قالوا: وأقام الضحاك بالكوفة إلى شوال، ثم استخلف عليها ملحان بن معروف التيمي وعداده في بني شيبان، وسار إلى واسط، فلما بلغ النضر بن سعيد الحرشي مسيره شخص يريد مروان بالشام في نحو من ألف من أهل الشام، ومعه أبو أمية الثقفي، وعطية البعلي، وأقام نباته وجماعة من القيسية في الجانب الشرقي، ووادعوا ابن عمر، وأعابوه فعرض ملحان بالقادسية للنضر والقيسية فناشدوه الله وقالوا: إنا لا نريد القتال.

وكان مع ملحان قادم الذكواني فقاتلهم فقتل ملحان، ورجع قادم إلى الكوفة فقال بعض الحرورية:

سقى الله ملحاناً وبيّض وجهه كما جاهد الأحزاب يوم القوادس

ورثاه حبيب بن جدرة، ورثى عبد الملك بن علقمة فقال:

كابن ملحان فينا من أخي ثقة أو كابن علقمة المستشهد الشاري

من صادق كنت أصفيه مخالصتي فباع داراً بأغلى صفقة الدار

إخوان صدق أرجيهم وأخذلهم أشكو إلى الله خذلاني لأنصاري

فلما قدم الضحاك حصر ابن عمر، فقال ابن عمر لكاتبه الربيع بن سليمان: اعرض الناس فعرضهم فكانوا ثمانية آلاف فقال: ما هؤلاء بشيء فما الرأي؟ قال: إن بواسط خلقاً لا يلقاك الضحاك بمثلهم. قال: فاعرض فعرض لعشرة آلاف.

وقاتل الضحاك فكان نباتة يوجه ابنه محمد بن نباتة في القيسية فيقاتلون الضحاك ومعهم إسماعيلبن عبد الله البجلي في قوم من اليمانية، ثم يرجعون إلى المدينة الشرقية بواسط، ثم تركهم إسماعيلوشخص إلى البصرة. وكتب نباتة إلى مروان بذلك فكتب إليهمروان كتاباً لطيفاً أمره فيه بالاستقامة على منهاجه، والمداومة على أمره، وندم إسماعيلعلى ما كان منه فقاتلهم الضحاك ستة أشهر ويقال سنة على باب المضمار، وباب الزاب، وكان يلي قتال الخوارج منصور بن جمهور، و لم تكن القيسية بمناصحة لابن عمر فقتل منصور

يوماً رجلاً من عباد الخوارج في المعركة يقال له عكرمة، وجرح منصور جراحة خفيفة، فأمر له ابن عمر بثلاثين ألفاً.

ثم قاتلهم منصور على باب الزاب، فاستعلى الخوارج، وأكثروا القتل في اليمانية، وقتل من الخوارج عبد الملك بن علقمة العبدي، طعنه منصور فقتله، وحملت عليه أم العشترر فأخذت بلجام دابته وضربته ضربة خفيفة، وضربها منصور ضربة شديدة، وقتل أبي جحشنة أخي الضحاك.

ودنا الخوارج من المدينة فأمر ابن عمر بدواب مقاريف فأُلبست المشاقة، ثم أشعل فيها النار وأُرسلت في عسكر الخوارج فذعرهم وأحرقت فساطيطهم وأخبيتهم، و لم تمر بشيء إلا أحرقته، فتركوا خيولهم وتركوا عسكرهم، ونزلوا على أربعة فراسخ منه، ثم تدانوا فصاروا من ابن عمر على فرسخ أو فرسخين، وخرج منصور بن جمهور فقاتله الخيبري وأصحابه على باب البصريين أشد قتال حتى تعانقوا، وقتل عبد الحميد الكلبي وهو ابن عمر منصور، وقاتل ابن عمر الضحاك من ناحية باب الزاب، ثم تحاجزوا، فقال منصور لابن عمر: ما قاتلت مثل هؤلاء القوم عرباً ولا عجماً. فقال ابن عمر: الرأي أن نعطيهم الرضا ونضرب بهم مروان. فأجمع ابن عمر على مصالحتهم، وبعث رسلاً إلى الضحاك فدخلوا إليهوهو يتعشى فدعاهم إلى العشاء فأبوا فقال: إنه عدس طيب وخل وزيت، فكلموه وسفروا بينه وبين ابن عمر فاصطلحا على أن يسير الضحاك إلى مروان فإن قتل الضحاك فليس لأحد في عنق ابن عمر بيعة، وإن قتل مروان صار ابن عمر مع الضحاك. فقال الضحاك: لا بد من أن ألتقي وابن عمر. فالتقيا مع هذا فوارس، ومع هذا مثلهم، وكان سليمان بن هشام خرج على مروان فلقيه فأوقع به وحوى عسكره، وكانت وقعته بخساف أو قربها فصار إلى العراق ومعه قوم من أهل بيته، وكان سليمان خليفة إبراهيم بن الوليد على عسكره، ثم صار مع مروان فأكرمه ثم خرج عليه وحاربه فبايع سليمان بن هشام، وأبان بن معاوية بن هشام، وداود بن سليمان بن عبد الملك الضحاك، وكان الذي تولى أخذ البيعة للضحاك عبيدة بن سوار.

قالت أم العشترر لمنصور: قطع الله يدك إذ لم تدخل النار على يدي، وأُرزق الشهادة على يدك.

وبايع ابن عمر اليمانية وأبت القيسية أن تبايع، ومضوا إلى الشام: ابن نباته وأصحابه، واستعمل الضحاك على الكوفة المثنى بن عمران العائذي، من عائذة قريش.

وقال شبيل بن عزرة:

ألم تر أن الله أنزل نصره   وصلّت قريش خلف بكر بن وائل

ولم يكن شبيل يرى رأي الخوارج، ولكنه قال هذا بالتقية، بلغ الضحاك عنه شيء فخافه. وقال شبيل بن عزرة:

حمدنا الله ذا النعمان أنا	نحكّم ظاهرين ولا نبالي
برغم الحاسدين لنا وكنّا	نسرّ الدين في الحجج الخوالي
مخافة كل جبار عنيدٍ	غشوم من جبابرة الرجال
ندين بدين ضحاك بن قيسٍ	ومسكين ودين أبي بلال
ومروان الضعيف وخيبريٍ	أولئك منتهى النفر النبال

قالوا: فأقام الضحاك بواسط إلى شهر ربيع الآخر، ثم سار إلى المدائن، فقدم عليه عذار بن بيهس السدوسي في وفد من خراسان، فجمع لهم من أصحابه شيئاً وصلهم به.
قالوا: وكان مروان متشاغلاً بأهل حمص، وكان معه رجال من البيهسية من أصحاب بسطام، منهم عثعث التغلبي وابن عم له، فقالا لمروان: اندب معنا قوماً إلى الضحاك، فندب خمسة آلاف فيهم الدب القيسي ومروان بن البختري القرشي.
وبلغ الضحاك مسيرهم فوجه الخيبري والحسن بن منصور في خيل، وكان القطران بن أكيمة على الموصل، فنهى البيهسية من أصحاب مروان عن قتال أصحاب الضحاك، فلم يقبلوا وأوقعوا بالبيهسية وأسر الدب فمن عليه الضحاك.
وأتى الحسن بن منصور قطران، فقاتله قطران، ويقال بل قتل الحسن القطران، وكتب مروان إلى ابنه عبد الله، وهو على معونة الجزيرة يأمره بترول نصيبين، وكتب مروان إلى الضحاك كتاباً يقول فيه: قد كان لك في نفسك شغل بإصلاح فسادها عن سفك الدماء، فأجابه الضحاك بكتاب يقول فيه: إن أعظم الشغل وأولاه بالإيثار أداء ما فرض الله من جهاد الكفار والمنافقين.
وتكاتبا مرات، وسار الضحاك وعلى مقدمته مسكين اليشكري وأتى نصيبين فحصر عبد الله بن مروان، وبث خيوله في أرض الجزيرة فضج أهل الجزيرة إلى مروان، فقاالإسحاق بن مسلم العقيلي لمروان: إن الخوارج قد انتشروا بأرض الجزيرة وأحرقوا واستعرضوا وأنا خائف أن يرفض من معك مراكزهم ويلحقوا بحرمهم وأنت مقيم على هؤلاء.
فقال مروان: لو أحاطت الأعداء كلها بي ما برحت أو أفتح حمص أو أُقتل.

وكتب مروان إلى ابنه عبد الله أن اكتب إلى يزيد بن عمر بن هبيرة فليأتك، وابن هبيرة يومئذ بنهر سعيد

قد وقفه مروان هناك، فكتب إليه: لا حاجة بنا إلى ابن هبيرة لأنا لا نأمن أن يكر الناس إلى ما قبلنا فيغلو السعر، وفيمن قبلنا كفاية وليسر ابن هبيرة إلى العراق فإنها شاغرة وقد خرج عنها الضحاك.
فأعجب مروان ذلك من رأي ابنه عبد الله وقال: بأبي أنت وأمي. فكتب إلى ابن هبيرة أن يسير إلى العراق، ونصب مروان المجانيق على حمص حتى طلبوا الأمان، فأمن الناس غير سعيد بن هشام والسمط بن ثابت، ورجل من بني سليم، ورجل يهودي، وهدم حائط المدينة فقال بعض الحمصيين.

يا حمص ويحك لا تجزعي　　　قصّصك الجعديّ سكنينه

وارتحل مروان يريد الضحاك، فنزل بحران بباب التبن، وكتب إلى معاوية بن يزيد بن حصين بن نمير السكوني بحمص، وإلى زامل بن عمرو بدمشق، وإلى ثعلبة بن سلامة بالأردن، وإلى الرماحس بن عبد العزيز الكناني بفلسطين أن يوجهوا إليهفرسان أهل الشام.
ونزل مروان كفر توثا وقال: ما صنع أحد ما صنع عبد الله بن عمر، ضربني بعشرين ألف سيف واتكأ بواسط، إنه لأدهى العرب.
وقال أصحاب الضحاك له: قد اجتمع لك ما لم يجتمع لرجل على رأيك منذ اختلف الناس، فلا تباشر القتال بنفسك، ووجه الخيل وكن ردءاً للمسلمين تمدهم إن أرادوا المدد. فقال: مالي في الحياة أرب، وقد أعطيت الله عهداً إن ضمني وهذا الجبار معسكر لا أدع جهداً، فقاتله ثلاثة أيام، ومع الضحاك سليمان بن هشام في ذكوانيته، ومن انضم إليهمن أهل الشام، ورفاعه بن ثابت، وعصمة بن المقشعر الكلبي، فالتقوا ووقف الخوارج على تل فأزالهم أهل الشام عنه، ووقفوا عليه فقاتلهم الخيبري، فأزال أهل الشام عن التل ووقف عليه سليمان بن هشام في الذكوانية، فكره مروان موقفه وقال: يتعلم غلمان بني أمية على الطعان، وانصرف إلى عسكره، ورجع الخوارج مسرورين، فلما أصبحوا قال الضحاك: أما منكم أحد يشتاق إلى الجنة ويحب لقاء ربه؟. وأنشدهم شعراً قيل فيمن مضى من الخوارج، وبكى فاقتتلوا طويلاً والخيبري يقول:

ايهن بني شيبان طعناً نترى　　　طعناً يرى منه القنا محمرّا
يترك ذا الضّغن به مزورّا　　　يركب ردعا للردى مقرّا
فلعنة الله على من فرّا

وباشر مروان القتال وهو يقول:

أربعة تحمل شيخاً رائعاً　　　مجرّبا قد شاهد الوقائعا
قد صادفت شيبان ملكاً ضائعا

ويروى: سماً ناقعا.

وأصابت الضحاك جراحة، فقال: ليس كل من طلب الشهادة رزقها.

وتحاجزوا وخرجوا في اليوم الثالث وخرج الضحاك وقال: لا أرجع اليوم إلا أن يأبى ربي، ولست أملك إلا فرسي وسلاحي، وعلي سبعة دراهم منها ثلاثة في كمي فاقضوها عني وقال: ليس أمير القوم بالخب الخدع، ثم ترجل وقال: إن قتلت فليصل بكم شيبان بن سلمة، ويقاتل عدوكم الخيبري، و لم يعهد إلى أحد.

والتقوا نصف النهار وصبروا وصبر أهل الشام فكثرت بينهم القتلى، وهزمت الميمنة التي لمروان ميسرة الضحاك، واقتتلوا حتى أمسوا، وقتل من الخوارج خلق، وقتل الضحاك عند المساء و لم يعلم مروان بقتله فلما كان في الليل جاء مروان رجل من عسكر الضحاك فأخبره بقتله، فأرسل مروان من طلبه في القتلى فوجده وبوجهه ضربات فاحتز رأسه وأتى به مروان.

قالوا: فقال الخيبري لشيبان: يا أبا الذلفاء ولني قتال القوم، فإذا قتلت فالمسلميون على رأيهم. قال: نعم. فلم يقاتلهم ثلاثة أيام، وخرج في اليوم الرابع فحض الناس ثم لقيهم وعلى ميمنة مروان ابنه عبد الله، وعلى ميسرتهإسحاق بن مسلم، فانهزم يومئذ مروان وضربه رجل ضربة قطعت حمائل سيفه، وضربه مروان فقطع يده.

ويقال إنه قاتله في صبيحة الليلة التي قتل فيها الضحاك وكان يرتجز:

إن تك مروان فإني الخيبري — أضرب بالسيف على حكم النبيّ

سابغة درعي حصين مغفري

وهاجت ضبابة شديدة فلم يبصر بعضهم بعضاً، ودخل الخيبري عسكر مروان، وانجلت الضبابة وليس مروان في العسكر، وظن الخيبري أن مروان قد قتل، واعترض العسكر جماعة من أصحابه فقاتل ومعه أبو كيلة وهو يقول:

قد فرّ مروان عن الرفاق — نجّاه منا أعوجيّ باق

يظلّ يمريه بعظم الساق

ونادى سليمان بن مسروح البربري مولى محمد بن مروان– وكان في حرس مروان–: كل عبد جاءنا فهو حر. فاجتمع إليهمن العبيد والموالي وغيرهم خلق، فقتل الخيبري، دخلوا عليه وهو على فرش مروان فضربوه بالعمد.

وبشر مروان بمقتله، وخرج مروان إلى الناس. وبايعت الخوارج يعقوب التغلبي فقتل، فبايعوا مسكين اليشكري فقتل، فبايعوا شيبان، ويقال إنهم بايعوا شيبان حين قتل الضحاك فكان شيبان الذي ولى الخيبري القتال.

وقال الشاعر في قتل الضحاك والخيبري ويعقوب:

هم ضربوا الجنود بكفر توثا ... وهم نزلوا وقد كره الزّحام

سقى بلداً تضمّن خيبرياً ... ومسكيناً ويعقوب الغمام

هم ضربوا على فرع المنايا ... ولم يفزعهم الجيش اللهام

وكان عبد الله بن عمر وجه أبا الرمح بن عمر، فأخبره الخبر. وقالت امرأة من الخوارج ترثي أخاها:

من لعينٍ ريّا من الدمع عبرى ... ولنفسٍ من المصائب حرّى

أفسدت عيشنا صروف الليالي ... ووقاع من الكتائب تمرى

كلما سكّنت حرارة وجدٍ ... من فقيدٍ شجينا بأُخرى

في أبيات. وقالت أيضاً :

يا عين جودي بالدموع ... وابكي بجهد المستطيع

يا موت ويحك ما تزا ... ل مفرقاً بين الجميع

أبكي وما يغني التلهّ ... ف والبكاء عن الجزوع

وقال حبيب بن خدرة مولى بني هلال وقد صار بعد منهم.

إبكي الذين تبوأوا الغرف ال ... على فجرت لهم من تحتها الأنهار

أبكي لنفسي لا لهم أبكي ... هم لا صبر حيث تعارف الأبرار

في أبيات وقد قيل فيهم شعر كثير.

أمر شيبان بن سلمة الأكبر الشيباني

قال أبو الحسن المدائني وغيره: لما قتل الخيبري غادى شيبان أهل الشام فقاتلهم حتى انتصف النهار، ثم رجع بعضهم عن بعض فافترق الخوارج، فأتت فرقة منهم الجزيرة، وفرقة العراق، وأقام الباقون مع شيبان فقاتلهم مروان فانتصفوا، ثم تحاجزوا، فارتحل شيبان إلى الزابين، وسليمان بن هشام معه، فخندق شيبان وأتاهم مروان فخندق فقاتلهم عشرة أشهر، ويقال تسعة أشهر، ومروان في ثلاثين الفاً، وشيبان في خمسة

آلاف فأوسعهم شراً وهزموا مروان في تلك الأشهر نيفاً وسبعين مرة، وظفر يزيد بن عمر بن هبيرة بالجون بن كلاب بواسط لما توجه من نهر سعيد والياً على العراق، وكان الجون بن كلاب الشيباني- وهو الثبت، بعضهم يقول ابن النعمان- نازلاً بالسن رتبه الضحاك بها ليمده بالطعام والعلف، فكتب مروان إلى ابن هبيرة يستمده وهو بواسط فأمده بعبيد الله بن العباس بن يزيد الكندي في أربعة آلاف، ثم بعامر بن ضبارة في ستة آلاف، فأخذ عبيد الله بن العباس في شرقي دجلة فوجه إليهشيبان ابن السحاج الأزدي فواقعه فانهزم عبيد الله ورجع إلى ابن هبيرة، فضم أصحابه إلى عامر بن ضبارة فأتى ضبارة السن فقاتله الجون بن كلاب الشيباني، وخندق ابن ضبارة وقاتل الجون شهراً وجعل الخوارج يرتجزون:

نحن الشراة لا شراة غزّة ... ولا شراة الكوفة المبتزّة

غزة بعين التمر. ويقولون:

نحن بنو شيبان أهل الجنّة ... نقتلكم على هدىً لا ظنّه

وأمد مروان ابن ضبارة بمصعب بن الصحصح في ألفين، فقتل الجون، وقدم فله على شيبان، وقوي مروان، وقطع ابن ضبارة عن شيبان المادة من العراق، وقطع مروان عنهم مادة الشام فضاق الخوارج حتى صار الرغيف في عسكرهم بدرهم.

وخاف شيبان أن يأتيه ابن ضبارة من خلفه فحض مروان أصحابه وخرج إليهم في يوم أربعاء فواقعهم، ثم أجمع على أن يغاديهم في يوم الخميس، وكان مع مروان رجل يرى رأي الخوارج، فكتب إلى شيبان إن القوم مصبحوك فاحذر واستعد، ففعل.

وزحف إليهم مروان في كراديس فشدوا على الحسن بن منصور اليشكري، وهو في ميمنة شيبان، أو في ميسرته فأزالوه، وقواه شيبان بمدد فرجع إلى موقعه، وكشفت الخوارج خيل مروان وداست رجالته، وأكثر الخوارج فيهم القتل وصاروا إلى قصر مروان الذي في خندقه، فقال حبيب بن خدرة:

فلم أنسهم يوم الخميس وكرّهم ... عليه ويوم القصر إذ حرس القصر

ودفعهم الجعديّ إذ يطردونه ... وأدركه التحكيم والقضب السّمر

في أبيات.

وقال سليمان بن هشام، ويقال بن نحلها:

وسرت مع الضحاك لما تخاذلت ... معاشر أهل الشام شر المعاشر

جزى الله عنا الحيّ بكر بن وائل ... وتغلب خيراً من محام وناصر

هم صبروا يوم الخميس وقد شفوا ... غليل النفوس من سليم وعامر

غداة غدا مروان في عارض له ... تحرد علينا حرد أبلج قادر

سمونا له منا بجمعٍ معاودٍ ... قراع الأعادي واقتصاص العساكر

وفرّ وفرّت خيله مبذعرّةً ... وطار به قلب له غير صابر

وقال كهمس بن عثمان الرفاعي من بني يشكر لشيبان:

وليت المسلمين بكفر توثا ... على حالٍ يزلّ به القيام

في أبيات. وقال رجل من الخوارج:

قد علمت خيلك يا بن الصحصح ... بالزابيين والعيون تلمح

إنا إذا صيح بنا لا نبرح ... إن الحديد بالحديد يفلح

لن نبرح الموصل حتى تفتح

وقتل الحباب بن عمير بن الحباب، وقتل شقيق الغنوي فقال بعض الخوارج:

قد علمت خيلك يا شقيق ... أنك من سكرك لا تفيق

وقتل على لواء مروان سبعة عشر رجلاً، وقال شيبان: قد ترون ما نحن فيه من الضيق وقد رأيت أن نأتي بلداً يتسع لكم به المعاش، فمن أراد الجهاد فليمض معي، فصبر معه قوم وتفرقت جماعة من الأعراب فلحقوا بأهاليهم، فأتى آذربيجان في أهل البصائر ومعه سليمان بن هشام بن عبد الملك، والمعمر بن شعبة، وكان ذا بصيرة فيهم، وانصرف مروان عن الموصل وولاها عثمان بن عبد الأعلى بن سراقة الأزدي، وهو الثبت، ويقال زهير بن الأصم.

وكتب مروان إلى يزيد بن عمر بن هبيرة يعلمه خبر الخوارج، وأن طريقهم عليه، ويأمره بطلبهم وتوجيه الجنود إليهم.

قالوا: ووجه مروان لطلب شيبان أبو سلمة مصعب بن الصحصح الأسدي في ألف، وشقيقاً السلمي في ألف، وصالح بن حبيب في ألف، وعطيف بن بشر السلمي في ألف، وعليهم جميعاً عبد الله بن عبد العزيز بن حاتم بن النعمان الباهلي، ووجه ابن هبيرة إليهم خيلاً.

وأتى شيبان العراق منصرفاً من آذربيجان فنزل المدائن، فقال له المعمر بن شعبة: حتى متى هذا الروغان؟ فقال شيبان: إن في مطاولتهم غيظاً لهم ووهناً عليهم، وخالف المعمر في بعض الأحكام ففارقه وصار مع المعمر عامة أصحاب شيبان. وقال المعمر:

رأيت اليشكري بنا فروراً فرار العود لجّ به النداد

وأتى شيبان الأهواز ومعه سليمان بن هشام ومنصور بن جمهور، ثم أتى فارس ومنصور معه فكانا مع عبد الله بن معاوية، وندم المعمر على فراق شيبان، وقال لأصحابه: قد وليته فتولوه فقد صدق ما كان قال.

ولقي المعمر عامر بن ضبارة فقاتله، فأصابت معمراً جراحات مات منها، وتفرق أصحاب ابن معاوية عنه، فمضى إلى هراة، ومضى سليمان إلى عمان، ومنصور بن جمهور إلى السند، وتوجه شيبان إلى جزيرة ابن كاوان فأقام بها حتى قدم عليه المسيح بن الحواري من قبل أبي العباس فقاتله فانهزم أصحاب المسيح والمسيح، وأتى شيبان عمان فكره الجلندى بن مسعود قدومه وقال: تركت مهاجر الضحاك وجئت إلينا؟ فقال: يا أهل عمان ما تكرهون مني؟ أما والله لئن ركبت المزنوق وشددت عليكم لأكثرن فيكم القتل، فنافره الجلندى فقاتلهم حتى قتل.

وكان يزيد بن سالم الجحدري قال له: هذا الليل فلا تقاتل. فأبى وقاتل ورمي، وأمسكوا عن القتال فوجد ميتاً. وقيل طعنه رجل في عينه، ثم جاءه سهم فمات في موضعه، واحتز رأسه رجل فنظر إليهيزيد بن سالم فقال: ثكلتك أمك، أتدري أي رأس تحتز؟ وكان سليمان بن هشام قد تزوج ابنة شيبان فلما قتل شيبان رجع سليمان إلى البصرة، ثم تزوج امرأة بالكوفة واستؤمن له أبو العباس فأمنه، ثم أنه قتل بعد ذلك.

المدائني قال: قال بشر بن محدوج: قد مت من عمان وشيبان بجزيرة ابن كاوان، فأُخذت فأُتي بي شيبان فإذا رجل أهتم طويل على رأسه رجل يظله، ثم قال: ما فعل الشيخ الأزدي؟- يعني الجلندى بن مسعود- قلت: على ما تحب في سمعه وطاعته. فتبسم ثم قال: لئن بقيت له لألقينه بفتية يقولون اللهم لا ترجعنا إلى أهلينا.

خبر يزيد بن عمر بن هبيرة
والخوارج حين قدم العراق

قال أبو الحسن المدائني وغيره: كان الضحاك ولى الكوفة سعداً الخصي، وإنما قيل له الخصي لأنه كان أثط وهو من الأزد ثم عزله وولى الكوفة المثنى بن عمران العائذي من قريش وكان خارجياً.

ووجه مروان يزيد بن عمر بن هبيرة في ستين ألفاً وأمره أن يترل نهر سعيد، ثم إنه أمره بإتيان العراق

وولاه إياه.

وبلغ الضحاك ذلك فوجه الضحاك عبيدة بن سوار إلى الكوفة والياً عليها ومعه منصور بن جمهور وغيره، وقال قوم: وجهه إلى العراق بعد قتل الضحاك، فبلغ عبيدة مسيره إلى العراق فسرح إليهالمثنى بن عمران ومنصور بن جمهور ومطاعن بن مطيع الأزدي وجحشنة العجلي، فقاتلوه بالأنبار وعليهم منصور بن جمهور، فهزمهم ابن هبيرة، وقتل المثنى بن عمران، وقال قوم: لم يقاتلهم بالأنبار ولكنه نزل الأنبار، ثم مضى إلى عين التمر فعارضه منصور، فالتقوا فقتل المثنى وانهزم منصور وأصحابه فدخلوا الكوفة، فجمع منصور جمعاً من اليمانية، ثم خرج إلى ابن هبيرة فالتقوا بالروحاء فقتل البرذون من مورق وانهزم منصور فدخل الكوفة، ثم خرج من ليلته فأتى عبيدة بن سوار وهو بالبصرة وأقام ابن هبيرة أياماً ثم أقبل يريد الكوفة، فلقيه نصر بن فراس عامل عبيدة فقتل نصر، قتله أبو عثمان صاحب ابن هبيرة وانهزم أصحاب نصر، وظهر ابن هبيرة على الكوفة وأقام بالنخيلة أياماً فبلغه أن عبيدة يريد أن يسير إليه، فشخص من النخيلة وولى الكوفة رجلاً ومضى يريد عبيدة، ووجه عبيدة مطاعن بن مطيع، فوجه إليهيزيد بن عمر بن هبيرة عطية التغلبي فالتقوا على قناطر السيب، فقتل مطاعن وابنه مجاهد، وقام بأمر عسكر مطاعن رجل يقال له شيبان بن عبد العزيز الصغير، فقاتل عطية شهراً وأتاهم عبيدة، واحتفر ابن هبيرة خندقاً بين عسكر عبيدة وشيبان هذا، وأظهر أنه يتحول إليهفغلبه عبيدة وشيبان على ذلك الخندق فترلاه، وعقدا جسراً على الصراة.

وعزم ابن هبيرة على تبييتهم فلما صار إليهم وجدهم نياماً، فكبر أهل الشام فثار الخوارج إليهم وهم يحكمون، وجعل أهل الشام يحكمون أيضاً . وقتل بعض الناس بعضاً ثم اقتتلوا أياماً فقال عبيدة لأصحابه: حتى متى نحن كذا قبح الله العيش بعد مطاعن، فقال له منصور: أذكرك الله في نفسك. فلم ينته وخرج هو وأصحابه، وعقر أصحاب عبيدة دوابهم و لم يعقر عبيدة فرسه ثم اقتتلوا وعلى ميمنة ابن هبيرة ابنه داود بن يزيد، على الميسرة نباتة بن حنظلة، فلقي أهل الشام منهم شراً حتى كادوا يستعلون، وعبيدة على تل قد وقف على فرس له.

وقال داود بن يزيد لنباتة: يا أبا المقدام تأخر لي قليلاً أحمل عليهم.

فقال له: يا بن أخي أن الرجوع بعد التقدم قبيح بمثلي، فتقدم داود فحملوا عليه فولى، فأرسل ابن هبيرة إلى خالد بن الغزيل: إضرب داود ثلاثة أسواط فقنعه، ودنا نباتة من التل فانحدر عبيدة عن التل ونزل عن فرسه فغار الفرس، فلما رأوا الفرس غائراً اضطرب الناس فقاتلوا قليلاً ثم جالوا فقتل عبيدة وقتل جحشنة العجلي، وانهزم فل الخوارج نحو الكوفة، وهرب أبو طالب الحنفي نحو البصرة، وقدم ابن هبيرة وهرب منصور بن جمهور فأتى المدائن فترل على عون بن عتاب الجرمي، فأودعه جارية له، وأودع حميداً الأزرق

مالاً، وأقام بالمدائن حتى قدم شيبان الأصغر المدائن، ثم رجع معه إلى فارس، ثم أتى منصور السند فغلب عليها، ثم هلك بها. وقال غيلان:

لقد جلبت الخيل من مغارها — من غوطة الشام وأقصى دارها

في لجب أرعن من جرارها — لا يعرف البلق من اعتكارها

كأنها الرايات في أقمارها — عقبان دجن الظل في أقطارها

حتى بعثت الخيل من مغارها — إلى الصراة وإلى أنبارها

لشيخ شيبان وأصل دارها — ولصّها الداعي إلى بوارها

في أبيات. وقال أيضاً :

يا صاحبي ابشر بما منّيتا — من ملك لخيره دعيتا

تريد يا بن الأربعين صيتا — في بيت مجد تجمع الشّتيتا

سمّيت بالزائد إذ سمّيتا — رآك مروان إذ انتضيتا

أهلاً لما ولّيت إذ ولّيتا — نقاوة كنت لما انتقيتا

أبليت إحسانا فما نسيتا — إذ جئت بالصراة مستميتا

جند ابن جمهور بهم أغريتا — إذا خبت نارهم حميتا

حتى ثنوا قسراً وما ثنيتا — يقول من مرّ به خزيتا

إن كنت عطشاناً فقد رويتا

وكان منصور وقع في الماء ثم أخرج وقال غيلان:

لما رأيت الملحدين أسرفوا — وقادهم للحين دين أحنف

رميتهم بذي دهاء تزحف — قواعد الأرض له وترجف

عمراً أصابوا والمثنى أتلفوا — وأم كردوس نساها ينطف

ويوم روحاء العذيب ذفّفوا — على ابن موروق فأضحى ينزف

وهرب المجدول ركضاً يزحف

يعني منصور بن جمهور. وأم كردوس امرأة عبيدة.

وقال مسلم حاجب ابن هبيرة.

ألا هل أتى قيساً وخندف وقعنا بأكناف عين التمر في حمير الحرب
قتلنا بها عمرو النفاق بكفره وأُبنا بأسرى من تنوخ ومن كلب
وبالجسر أردينا المثنى وجمعه على حنقٍ والخيل تجري على لجب
أذقنا ابن سوّارٍ عبيدة حتفه وألحقن منصوراً بمنقطع التّرب

وقال رجل من غطفان:

إذا لواء أبي عثمان صبّحهم ظنوا بأنّ المنايا تسبق القدرا
لاقوا لدى الحرب آجالاً معجّلةً وبالنخيلة ضرباً يجتلي القصرا

أمر شيبان الصغير بن عبد العزيز

ومضى شيبان إلى فارس فسار إليهعامر بن ضبارة لكتاب يزيد بن عمر بن هبيرة إليهفي محاربته ومواقعته بأقاصي فارس، ثم صار شيبان إلى جيرفت من كرمان ففض عسكره، فهرب شيبان إلى سجستان، ثم صار من سجستان إلى خراسان، فكتب إليهجديع بن علي- ويقال ابن سعيد- الأزدي وسعيد أثبت، وهو المعروف بابن الكرماني، وقد خالف على نصر بن سيار وخلع مروان. إنك ونحن خالعون لمروان، فسر إلي لنجتمع على محاربة أوليائه أولياء الشياطين. فصار إليهفكانا يحاربان نصر بن سيار، وأظهر أبو مسلم الميل إلى ابن الكرماني، وبعث إلى نصر بن سيار وإلى ابن الكرماني وشيباني: إني رجل أدعو إلى الرضا من آل محمد، ولست أعرض لكم، ولا أعين منكم أحداً على صاحبه.
وقوي أمر أبي مسلم، فوجه إلى ابن الكرماني- وقد كان آنسه حتى اغتربه- من أتاه به فحبسه. وكان أبو مسلم قد وادع شيبان إلى مدة، فوجه إليهجيشاً فواقعوه فكشفوه، فصار إلى ناحية أبيورد وأهلها أول من سود، فكتب أبو مسلم إليهأن بايع للرضا من آل محمد حتى لا أعرض لك، فبعث إليه: بل بايعني أنت. فكتب أبو مسلم إلى بسام بن إبراهيم مولى بني ليث من كنانة وهو بأبيورد يأمره بمناهضته فناهضه وقتله وأصحابه إلا عدة يسيرة تفرقوا في البلاد، ويقال: بل صاروا إلى نصر قبل هربه ثم تقطعوا.

أمر عمر بن سالم الشيباني

قال أبو الحسن علي بن محمد المدائني وغيره: اعتقد عمر بن سالم بمسكن السواد وخرج إلى العامل بقطربل، وهو الحجاج بن عمارة، فهرب فاتبعه فأخذه فقتله رجل من أصحاب عمر يقال له شنطيز، ورجع عمر إلى مسكن فأقام شهرين، فأتاه أهل الأنبار يشكون عاملهم علي بن عمر الأسدي، وكان ابن

هبيرة استعمله عليها فسار إليه، فلما عاينه العامل رمى بنفسه وفرسه في الفرات فهرب.

ثم أتى عمر بن سالم كرخ با دوريا، وعليها رجل يقال له مروان، فقاتله فانهزم وتفرق أصحابه وقد قتل عمر منهم عشرين، وأصاب عمر بالكرخ متاعاً فقسمه، وأقام بالكرخ في مائة، فبعث إليهابن هبيرة أبا بكر الكلاعي في ألف فقاتله عمر بن سالم فقطعت يد عمر، فلم يزل يترف حتى مات، وقتل من أصحابه ثلاثون وانهزم الآخرون، واحتز رأس عمر وحمل إلى يزيد بن عمر بن هبيرة فأنفذه إلى مروان.

خبر عبد الله بن يحيى بن عمرو

بن شرحبيل بن عمرو بن الأسودالكندي وعبد الله بن يحيى هو طالب الحق

أبو الحسن المدائني وغيره عن رجالهم قالوا: كان عبد الله بن يحيى الكندي، أحد بني عمرو بن معاوية بحضرموت، وكان مجتهداً عابداً، وكان أعور ورأيه رأي الإباضية يقول: قومنا كفار نعمة وليسوا بكفار بالله، نقاتلهم على بغيهم ولا نغنم لهم مالاً، فرأى باليمن جوراً وعسفاً شديداً وسيرة في الناس قبيحة، فقال لأصحابه: لا يحل لنا المقام على ما نرى ولا يسعنا احتماله والصبر عليه، فكتب إلى أبي عبيدة مسلم كورين مولى بني تميم وإلى غيره من إباضية البصرة يشاورهم في الخروج فكتبوا إليه: إن استطعت ألا تقيم يوماً واحداً فافعل، فإن المبادرة بالعمل الصالح أفضل فإنك لا تدري متى يبلغ أجلك، ولله خيرة من عباده يبتعثهم إذا شاء لنصر دينه، ويخصهم بالشهادة إكراماً لهم بها.

وشخص إليهأبو حمزة المختار بن عوف بن عبد الله بن مازن بن مجاشر أحد بني سليمة، وبلج بن عقبة، وكان قبل ذلك في الشرط بالبصرة وهو حداني في رجال من الإباضية وهم أصحاب عبد الله بن إباض التميمي، فقدموا عليه حضرموت فحثوه على الخروج، وأتوه بكتب أصحابه فقال: إذا خرجتم فلا تغلوا ولا تغدروا واقتدوا بسلفكم الصالحين، وسيروا سيرتهم، فقد علمتم أنه إنما أخرجهم على السلطان العيب لأعمالهم.

فدعا أصحابه فبايعوه، فأتى دار الإمارة بحضرموت، وعلى حضرموت إبراهيم بن جبلة بن مخرمة الكندي، فأخذوه فحبسوه يوماً، ثم أطلقوه فأتى صنعاء.

وأقام عبد الله بن يحيى بحضرموت، وكثر جمعه، وسموه طالب الحق، ويقال بل هو سمى نفسه. وكتب إلى من بصنعاء من أصحابه: إني قادم عليكم، ثم استخلف على حضرموت عبد الله بن سعيد الحضرمي، وتوجه إلى صنعاء سنة تسع وعشرين ومائة في ألفين.

وبلغ القاسم بن عمر أخا يوسف بن عمر الثقفي، وهو عامل مروان على صنعاء مسير عبد الله بن يحيى، فاستخلف على صنعاء الضحاك بن زمل السكسكي، وخرج يريد ابن يحيى والإباضية، فلقوه بلحج، وهي قرية، وكان القاسم في عدد كثير، وعدة ظاهرة، وسلاح شاك، فقتل من أصحاب القاسم بشر كثير، ومضى هو إلى صنعاء، ثم خرج منها واستخلف عليها ابن زمل، وأقبل عبد الله بن يحيى فنزل على ميلين من عسكر القاسم، فوجه إليهالقاسم يزيد بن الفيض الثقفي في ثلاثة آلاف من أهل الشام واليمن فكانت بينهم مشاولة ثم تحاجزوا، ثم قاتلهم الصلت بن يوسف فقتل في المعركة، ثم قاتلهم يزيد بن الفيض ثم انهزم أهل صنعاء، فأراد أبرهة بن شرحبيل بن الصباح اتباعهم فمنعه عبد الله بن يحيى، ولحق يزيد بن الفيض بالقاسم فأخبره بقتل الصلت فقال القاسم:

ألا ليت شعري هل أذودنّ بالقنا وبالهندوانيات قبل مماتي

وهل أُصبحنّ الحارثين كلاهما بطعن وضرب يقطع اللهوات

ودخل عبد الله بن يحيى صنعاء، فأخذ الضحاك بن زمل، وإبراهيم بن جبلة بن مخرمة الكندي فحبسهما، ثم جمع الخزائن والأموال فأحرزها، وأرسل إلى الضحاك وإبراهيم فأطلقهما، وقال: إنما حبستكما مخافة عليكما من العامة، وليس عليكما مكروه، فأقيما أو اشخصا، فخرجا.

ولما استولى عبد الله بن يحيى على بلاد اليمن خطب فقال: الحمد لله المتحمد بالآلاء، المنان بالنعماء، ذي الأمر الغالب، والدين الواصب، أحمده في الضراء، وأشكره في السراء، واستعينه على احتجاجه علينا، وأستهديه لما يرضيه، واؤمن به إسلاماً وإيماناً، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله المصطفى ونبيه المرتضى، أرسله بالحق على حين فترة من الرسل وكفر من الملل، واختلاف من الدول، والتباس من الحق، وانسحاق من الصدق، وظهور من الأعداء، وبعد من الألفة، وأنزل عليه الكتاب، وشرع له الشرائع، وفرض له الفرائض، فقام بأمر الله صادعاً بالحق ناطقاً به، زاجراً عن الشبهات، داعياً إلى النجاة، مجاهداً للمعاندين، رؤوفاً بالمؤمنين، عزيزاً عليه عنتهم، حبيباً إليهصلاحهم، حتى كمل الإيمان، وأُخسيء الشيطان، وظهر النور، وزهق الباطل، وذل الكفر، وانقطعت الأحقاد، وسلمت الصدور، فجمعهم بعد التفرق، وأمنهم بعد الخوف، فأصبحوا على نعم مذكورة، وكرامة مشهورة، ودين مقبول، وعلم محمول. ثم قبضه الله إليهفقيداً، واختار له ما عنده حميداً، صلى الله عليه وعلى ذكره السلام، ورحمة الله وبركاته.

أيها الناس إنكم حذرتم عظيماً، وخوفتم جسيماً، لا تبلغه الصفات، ولا تحيط به الأوهام، العذاب الأليم جهنم، وسعير ولظى والهاوية والحامية، وسقر التي لا تبقي ولا تذر، نسأل الله مولانا ولي الإحسان أن

يجيرنا من عذابه الذي خوفنا، أيها الناس إنا نخيركم بين ثلاث خصال أيها شئتم فخذوا لأنفسكم، رحم الله امرأً أخذ الخيار لنفسه: إما قال امرؤ بقولنا، ودان بالدين الذي دنا فحملته نيته على أن يجاهد معنا بنفسه، فيكون له من الأجر ما لأفضلنا، ومن قسم الفيء ما لبعضنا، أو قال هذا القول ثم أقام في داره، فدعا الناس إليهبقلبه ولسانه فعله، إلا يكون ذلك أخس منازله، أو كرهنا فليخرج بأمان إلى ماله وأهله، ويكف عنا يده ولسانه، فإن ظفرنا لم يكن عرض لنا نفسه، و لم يحملنا على سفك دمه، وإن قتلنا كان قد كفي مؤونتنا، وعسى ألا يعمر بعدنا إلا قليلاً.

ندعو: إلى الله، وإلى كتابه، وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم، ونجيب من دعا إليها، الإسلام ديننا ومحمد نبينا والكعبة قبلتنا والقرآن إمامنا، رضينا بالحلال حلالاً لا نبغي به بدلاً، ولا نشتري به ثمناً، ولا قوة إلا بالله، وإلى الله المشتكى وعليه المعول.

ندعو: إلى فرائض بينات محكمات، وآثار مقتدى بها، ونشهد أن الله صادق فيما وعد، عدل فيما حكم.

ندعو: إلى توحيد الرب، واليقين بالوعيد، وأداء الفرائض، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والولاية لأهل ولاية الله، وإن من رحمة الله أن جعل في كل فترة بقايا من أهل العلم يدعون من ضل إلى الهدى ويصبرون على الألم في حب الله، يقتلون في سالف الدهر فما نسيهم ربهم "وما كان ربك نَسيّا"، أوصيكم بتقوى الله وحسن القيام على ما وكلكم بالقيام به، قابلوا الله حسناً في أمره وزجره.

وأقام عبد الله بن يحيى بصنعاء أشهراً حسن السيرة، لين الجانب كافاً عن الناس، فكثر جمعه، وأتوه من كل وجه، فلما كان في وقت الحج وجه أبا حمزة المختار بن عوف السلمي، وبلج بن عقبة الأزدي، وأبرهة بن الصباح الحميري إلى مكة في تسعمائة، ويقال في ألف ومائة وأمره إذا صدر الناس أن يقيم بمكة، ويوجه بلجاً إلى الشام. فأقبل المختار إلى مكة فقدمها يوم التروية وعليها عبد الواحد بن سليمان بن عبد الملك، وأمه ابنة عبد الله بن خالد بن أسيد، فكره قتالهم، فقال لعبد الله بن حسن بن حسن بن علي بن أبي طالب: إني لا آمن أن تفسد هذه العصابة على الناس أمرهم، فلا يتم للناس في عامهم هذا حج فلو لقيتهم فسألتهم أن يكفوا حتى ينقضي الموسم وأخرج لهم عن مكة، فأتاهم عبد الله بن الحسن في رهط معه، فقال لأبي حمزة: أيها الرجل إنك أتيت بلداً حراماً في يوم عظيمة حرمته فأُم أصحابك، ويؤم الوالي أصحابه، فإذا أفاض الناس وقضوا مناسكهم رأيت رأيك في الحرب وخرج عنك. فأجابه إلى ذلك، فصلى عبد الواحد ووقف بالجماعة، وصلى أبو حمزة بأصحابه ووقف بهم، و لم يعرض لأحد حتى صدر الناس، وخرج عبد الواحد بن سليمان إلى المدينة فقال مولى لعثمان بن عفان- ويقال قاله موسى شهوات- يعيب عبد الواحد لتركه البلاد وخروجه عنها:

جاء الذين يخالفون بدينهم دين الإله ففر عبد الواحد

ترك القتال وما به من علة إلاّ الوهون وعرقه من خالد

وكان النبي صلى الله عليه وسلم دعا على آل خالد بن أسيد أن يلزمهم العجز ويحرمهم النصر.

لو أن والده تخيّر أمه لصفت مضاربه لعرقٍ صاعد

وقال بعضهم أن هذا الشعر لابنة عمر بن عبد العزيز.

وقال عبد الحميد بن يحيى بن فالح بن عباس بن مرداس السلمي:

طوى الخيل طي العصب حتى إذا انطوت أياطل منها وهي وارٍ فصيدها

فشدّ على أهل الحصاب وكاثروا ببطن منىً والبدن صرعى خدودها

في أبيات.

وأقام أبو حمزة بمكة، ووجه رجلاً إلى الطائف، فخرج أهل الطائف عن القرية والحصن، فقال عامل الطائف: يا أهل الطائف أين رجالكم؟ فقال له أبو ولهية مولى بني علاج: أصلحك الله رجالنا غيب ونحن مغيبات فاحفظنا فيهم، فأمنهم وقال: هم آمنون. فرجعوا إلى الطائف.

ونادى منادي أبي حمزة أربعة أيام، في كل يوم: الناس آمنون إلا من حاربنا. و لم يزل مقيماً حتى خرج إلى قديد.

ولما أخذ أبو حمزة مكة صعد المنبر متوكئاً على قوس عربية فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أيها الناس إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان لا يقدم ولا يحجم إلا بأمر الله ووحيه، أنزل عليه كتابه وبين له ما يأتي وما يتقي فيه، فلم يكن في شيء من دينه شبهةً حتى قبضه الله إليه، وقد علم المسلمين معالم دينه، وولى أبا بكر صلاتهم وهي عماد دينهم، فولاه المسلمون أمر دنياهم فقاتل أهل الردة، وعمل بالكتاب والسنة حاسراً عن ذراعيه حتى قبضه الله إليهرحمة الله عليه.

وولي عمر بعده، فسار سيرة من كان قبله، وجبى الفيء، وأعطى الأعطية، ومصر الأمصار، ودون الدواوين، وجمع الناس على قيام شهر رمضان، وجلد في الخمر ثمانين، وغزا العدو في ديارهم، ثم مضى لسبيله على منهاج صاحبه، وقد جعلها شورى، فرحمة الله عليه.

ثم ولي عثمان فسار دون سيرة صاحبيه ست سنين، ثم أحبط فيما مضى له ومضى لسبيله.

ثم ولي علي بن أبي طالب، فكان على سداد، حتى حكم في كتاب الله، وشك في دينه فلم يبلغ من الحق قصداً، و لم يرفع له مناراً.

ثم ولي معاوية لعين رسول الله صلى الله عليه وسلم وابن لعينه، فاتخذ عباد الله خولاً، ومال الله دولاً، ودينه دغلاً، ثم مضى لسبيله ناكباً عن الحق، مداهناً في الدين.

ثم ولي يزيد ابنه فصيص لعنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وفاسق في بطنه وفرجه، فمضى على منهج أبيه، لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً.

ثم ولي مروان وبنو مروان، فسفكوا الدم الحرام، وأكلوا المال الحرام، فأما عبد الملك فجعل الحجاج له إماماً وإلى النار قائداً. وأما الوليد فسفيه أحمق منهوك في الضلال يخبطها عشواء مظلمة. وسليمان وما سليمان همه بطنه وفرجه فالعنوهم لعنهم الله، إلا أنه قد كان منهم عمر بن عبد العزيز هم فلم يفعل وقصر عما هم به.

ثم ولي بعده يزيد بن عبد الملك فاسق لم يؤنس منه رشد، وقال الله في اليتامى: "فإن آنستم منهم رشداً فادفعوا إليهم أموالهم" فأمر أمة محمد أعظم من مال اليتيم، مأبون في بطنه وفرجه، حيك له بردان فارتدى بأحدهما واتزر بالآخر، ثم أقعد حبابة عن يمينه وسلامة عن يساره، وقال: يا حبابة غنيني، ويا سلامة اسقيني حتى ثمل سكراً، وأخذت الخمر مأخذها منه شق ثوبيه، وقد اتخذا بألف دينار بعد أن ضربت فيهما الأبشار، وحلقت الأشعار، وهتكت الأستار، وأُخذ ما أنفق عليهما من غير حله، ووضع في غير حقه، ثم التفت إلى إحداهما فقال: ألا أطير. بلى، فطر إلى النار، أفكهذا صفة خلفاء الله؟! وقد حضرت كتاباً كتبه إليكم هشام في حطمة كانت، أرضاكم به وأسخط ربه ذكر فيه أنه قد ترك لكم صدقاتكم فزادت الغني غنىً والفقير فقراً، فقلتم جزاه الله خيراً، بل لا جزاه الله إلا شراً، فلقد كان بخيلاً بماله سخياً بدينه، فهؤلاء بنو أمية، فرق الضلالة، بطشهم بطش جبرية يأخذون بالظن، ويحكمون بالهوى، ويقتلون على الغضب، ويقضون بالشفاعة، ويأخذون الصدقة من غير موضعها. ويجعلونها في غير أهلها، وقد بين الله أصنافها الثمانية، فجاء صنف تاسع ليس له منها شيء، فأخذها كلها، فهي الفرقة الحاكمة بغير ما أنزل الله، وأما هذه الشيع فشيع جهلت كتاب الله، وأعظمت الفرية على الله، لم يقاربوا الناس بعمل بالغ في الدين، ولا ببصر نافذ في القرآن ، ينكرون المعصية على من عملها، ويرتكبون أعظم منها، يبصرون الفتنة ولا يعرفون المخرج منها، يؤملون الدول فيما بعد الموت، ويؤمنون ببعث إلى الدنيا قبل يوم القيامة، جفاة عن الدين أتباع كهان، قلدوا دينهم من لم ينظر لهم "قاتلهم الله أنّى يؤفكون".

يا أهل مكة إنكم تعيروني بأصحابي وتزعمون أنهم شباب، وهل كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا شباباً، أما إني عالم بتتابعكم فيما يضركم في معادكم، ولولا اشتغالي بغيركم ما تركت الأخذ فوق أيديكم، نعم شباب متكهلون في شبابهم، غيبة عن الشر أعينهم، بطيئة عن الباطل أرجلهم، قد نظر

الله إليهم في حنادس الليل منثنية أصلابهم بمثاني القرآن ، إذا مر أحدهم بآية فيها ذكر الجنة بكى شوقاً، وإذا مر بآية فيها ذكر النار شهق شهقة حتى كأن زفير جهنم في أذنيه، قد وصلوا كلالهم بكلالهم كلال ليلهم بكلال نهارهم، قد أكلت الأرض جباههم وأيديهم وركبهم، مصفرة ألوانهم، ناحلة أجسامهم، أنضاء عبادة مستقلون لذلك في الله، موفون بعهده ومتنجزون لوعده، إذا رأوا سهام العدو وقد فوقت ورماحهم قد أُشرعت وسيوفهم وقد انتضيت، وبرقت الكتيبة، ورعدت بصواعق الموت، استهانوا بوعيد الكتيبة لوعيد الله، فمضى الشاب منهم قدماً حتى تختلف رجلاه على عنق فرسه، وقد زملت محاسن وجهه بالدماء، وعفر جبينه بالثرى، وأسرعت إليهسباع الأرض، فكم من عين في منقار طائر طالما بكى صاحبها من خشية الله، وكم من كف بائنة طالما اعتمد عليها صاحبها في سجوده في جوف الليل لله، وكم من خد رقيق وجبين عتيق قد فلق بعمد الحديد، رحمة الله على تلك الأبدان، وأدخل أرواحها الجنان.

وقعة قديد

قالوا: وكتب عبد الواحد بن سليمان إلى مروان يعتذر من خروجه عن مكة ويخبر أن الناس خذلوه، ويقال بل خرج إلى مروان بن محمد فشافهه بهذا، فكتب مروان إلى عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز، وهو عامله على المدينة يأمره أن يوجه جيشاً إلى مكة، فوجه ثمانية آلاف من قريش والأنصار وغيرهم من التجار، واستعمل عليهم عبد العزيز بن عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان، وامه ابنة عبد الله بن خالد بن أسيد، فخرجوا في المصبغات ومعهم الملاهي لا يكترثون بالخوارج، ولا يرون إلا أنهم في أكفهم.
وسقط لواء عبد العزيز حين خرج من المدينة فتطير الناس وغمهم ذلك فقال رجل من قريش: لو شاء أهل الطائف لكفونا أمر هذه المارقة، أما والله لئن ظفرنا لنسبين أهل الطائف. من يشتري مني سبي أهل الطائف؟ فلما التقوا بقديد، حين التقوا، وانهزم أهل المدينة قال لخادمته: غاق باق- يريد أغلقي الباب دهشاً وذلك بعد أربعة أيام يرى أنهم خلفه- فلما كان أهل المدينة بذي الحليفة عرضهم عبد العزيز، فمر به أمية بن عنبسة بن سعيد بن العاص فرحب به وضحك في وجهه، ومر به حمزة بن مصعب بن الزبير فلم يكلمه و لم يلتفت إليه، فقال له عمران بن عبد الله بن مطيع: سبحان الله، مر بك شيخ من شيوخ قريش فلم تلتفت إليه، ومر بك غلام من بني أمية فضحكت إليهوألطفته؟ أما والله لئن التقى الجمعان لتعلمن أيهما أصبر.
فلما التقوا وانهزم الناس قال أمية بن عنبسة لغلامه: يا مجنب أدن مني فرسي فلعمري لئن أجررت نفسي

بسبب هؤلاء الأكلب إني لعاجز، وركب فرسه فمى، وصبر حمزة حتى قتل.
قال الهيثم: وشد رجل من الخوارج فجعل يقاتل وهو يقول:

وخارج أخرجه حب الطمع فرّ من الموت وفي الموت وقع
من كان ينوي أهله فلا رجع

قالوا: وبلغ أبا حمزة المختار بن عوف إقبال أهل المدينة إليه، فاستخلف على مكة أبرهة بن شرحبيل بن الصباح الحميري، وسار إليهم وعلى مقدمته بلج بن عقبة، وصار بإزائهم، وهو بقديد، فقال لأصحابه: إنكم لاقون قوماً أميرهم عثمان بن عفان أول من خالف سيرة الخلفاء، وبدل السنة، قد بين الصبح لذي عينين، فأكثروا ذكر الله وتلاوة القرآن .
وصبحهم غداة الخميس لسبع– أو تسع– بقين من صفر سنة ثلاثين ومائة، فقال عبد العزيز لغلامه: ابغنا علفاً. قال: هو غال. قال: ويحك البواكي علينا غداً أغلى.

وأرسل المختار إليهم بلج بن عقبة ليدعوهم، فأتاهم في ثلاثين راكباً، فذكرهم الله، وسألهم أن يكفوا أيديهم عنهم حتى يسيروا إلى مروان وقال: خلو سربنا لنلقى من ظلمكم وجار في الحكم عليكم ولا تجعلوا حدنا بكم، فإنا لا نريد قتالكم، فشتمهم أهل المدينة وقالوا: نخليكم وندعكم تفسدون في الأرض، فقالت الخوارج: يا أعداء الله، ونحن نفسد في الأرض؟ وإنما خرجنا لنكف الفساد، ونقاتل من استأثر بالفيء عليكم فانظروا لأنفسكم واخلعوا من لم يجعل الله له طاعة، فإنه لا طاعة لمن عصى الله، وادخلوا في السلم وعاونوا أهل الحق.
فقال عبد الرزاق: ما تقول في عثمان؟ قال: قد برئ المسلمون منه قبلي وأنا متبع آثارهم ومقتد بهم وبهديهم، فقال عبد العزيز: فارجع إلى أصحابك فليس بيننا إلا السيف فرجع إلى أبي حمزة فأخبره فقال: كفوا عنهم حتى يبدأوكم بالقتال.
ورمى رجل بسهم في عسكر أبي حمزة فأصاب رجلاً، فقال أبو حمزة: شأنكم فقد حل قتالهم، فحملوا عليهم ولاف بعضهم بعضاً ساعة ثم انكشف أهل المدينة فلم يتبعوهم، فكروا فاقتتلوا قليلاً ثم هزمهم أبو حمزة.
وقال رجل من الأنصار من بني زريق: الحمد لله الذي أذل قريشاً. وإلى جنبه عمارة بن حمزة بن مصعب، فضربه عمارة فقتله.
وكانت راية قريش مع إبراهيم بن عبد الله بن مطيع، وقتل من أهل المدينة من الأنصار ثمانون، ومن قريش

ثلاثمائة ويقال أربعمائة وخمسون، ومن القبائل والموالي ألف وسبعمائة. ويقال كان القتلى أربعة آلاف.

وعرض أبو حمزة من أُسر في المعركة فمن كان قرشياً قتله، ومن كان أنصارياً خلوا سبيله، وأتوه بمحمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان، وهو أخو عبد العزيز، فقال: أنا أنصاري، وشهد له قوم من الأنصار، فقال رجل من اليمانية: والله ما هذا بدن أنصاري، وما هو إلا بدن قرشي.

وقتل من آل الزبير جماعة، وهرب أمية بن عبد الله بن عمرو بن عثمان، وهرب عبد العزيز بن عبد الله بن عمرو بن عثمان أمير القوم، ومضى بلج إلى المدينة، فدخلوا جميعاً في طاعته وبايعوه، فكف عنهم ورجع أبو حمزة إلى مكة.

وخاصم بنو زريق آل الزبير في صاحبهم الذي قتله عمارة بن حمزة بن مصعب بن الزبير فقال لهم آل الزبير: إن حمزة قد قتل في المعركة ففيم الكلام، و لم يبق بيت في المدينة إلا وفيه مصيبة، فكانوا يقولون: لعن الله السراقي ولعن بلجاً العراقي فإنهما أهل شقاق، وضلال ونفاق. والسراقي أبو بكر محمد بن عبد الله بن عمرو، من آل سراقة بن المعتمر بن أنس بن أذاه بن رياح بن عبد الله بن قرط بن رزاح بن عدي بن كعب من بني عدي بن كعب، كان مع بلج بن عقبة، وكان السراقي على شرطة حمزة.

وقال ابن الكلبي: كان مع طالب الحق أبو بكر الأشل بن محمد بن عبد الله بن عبد الله بن مؤمل بن حبيب بن تميم بن عبد الله بن قرط بن رزاح بن عدي بن كعب، وإنما قيل السراقي لأن سراقة كان شريراً. قال النبي صلى الله عليه وسلم فيه: أشد الناس عذاباً كل جعار نعار صخاب في الأسواق مثل سراقة بن المعتمر، ويقال إن اسم السراقي أيوب بن محمد ويكنى أبا بكر، ويقال إنه أيوب بن عبد الرحمن بن عثمان بن عبد الله بن سراقة بن المعتمر.

وقالت نائحة تبكيهم:

ما للزمان وماليه	أفنى قديد رجاليه
فلأبكينّ سريرةً	ولأبكينّ علانيه
ولأبكينّ إذا خلو	ت مع الكلاب العاويه
ولأثنينّ على قد	يد بسوء ما أبلانيه

وقال بعضهم:

أصابوا على وادي قديدٍ مناسراً	أتتها مناياها فخفّت وفودها
جنائز صدق لم تصب بجريرةٍ	ولم تنتقض بعد الرسول عهودها

وقال عمرو بن الحسن مولى من أهل الكوفة كان إباضياً:

وما بال همّك ليس عنك بعازب	يمري سوابق دمعك المتساكب
وتبينت تكتليء الهموم بمقلة	عبرى تسرّ بكل نجم آيب
أخشى معاجلة المنون بداهةً	لم أقض من دمع الشراة مآربي
فأقود فيهم للعدى شنج النّسا	محض الشّوى أشران ضمّ الحالب
متجدداً كالسّيد أخلص لونه	ماء الحشيك من الجلال اللاتب
أرمي به من جمع قومي معشراً	بوراً أُلى جبرية ومعايب

فتجول نحن وهم وفيما بيننا	كأس المنون تقول هل من شارب
فنظل نسقيهم ونشرب من قنا	سمرٍ ومرهفة الشفار قواضب
بينا كذلك نحن جالت طعنةٌ	نجلاء بين رهائبي وترائبي
جوفاء منهرة مرى تامورها	ظبتا سنانٍ كالشهاب الثاقب
يا رب أوجبها ولا تتعلّقن	نفسي المنون لدى أكفّ قرائبي
في فتية صبر ألفّهم بهم	لفّ القداح يد المفيض الضارب

في أبيات:

وقعة وادى القرى

قالوا: وسار أبو حمزة إلى المدينة، وولى مكة أبرهة بن شرحبيل بن الصباح، وبلغ مروان خبر قديد فوجه عبد الملك بن محمد بن عطية، أحد بني سعد بن بكر في أربعة آلاف وفيهم فرسان أهل الشام، منهم رومي بن ماعز القيسي، ومنهم من أهل الجزيرة ألف اشترطوا على مروان فقالوا: إذا قتلنا الأعور قفلنا إلى الجزيرة، فقال الشاعر:

فلما أتى مروان بالصدق عنهم	رصينٌ من الأخبار لا يستزيدها
دعا أين من يحمي المساجد فاعترت	مصاليت من قيس كرام جدودها
يداوون داءً أو يفيئون مغنماً	ومجداً عليها حين تندى لبودها

وسار عبد الملك وأصحابه مسرعين فحدا حاديهم:

حرّم مروان عليهنّ النوم	إلا قليلاً وعليهنّ القوم

حتى تبين أو يقلن بالدّوم

وهاب الناس عبد الملك وأصحابه فتفرقوا في المياه، فلما أتى بلاد خثعم هربوا ومعهم غلام من كنانة، فلما أمنوا قالوا: من يغنينا ويسوق بنا؟. قال الكناني: أنا. فنزل فساق وهو يقول:

ألا إنني بالٍ على جمل بال　　　يقود بنا بال ويحدو بنا بال

فتغيروا وقالوا: قبحك الله ويحك ما تريد بنا؟.

وقال أبو صخر الهذلي حين بلغهم قدوم عبد الملك بن محمد وسرهم قدومه:

قل للذين استضعفوا لا تعجلوا　　　أتاكم النصر وجيش جحفل

عشرون ألفاً كلّهم مسربل　　　يقدمهم جلد القوى مستبسل

دونكم ذا أيمنٌ فأقبلوا　　　وواجهوا القوم ولا تستعجلوا

عبد المليك القلّبيّ الحوّل　　　أقسم لا يفلى ولا يرجّل

حتى يبيد الأعور المضلل　　　ويقتل الصباح والمفضّل

الأعور: عبد الله بن يحيى طالب الحق.

وقال أبو وجزة:

قل لأبي وجزة هيد هيد　　　أتاك بالغادية الصنديد

فارجع كما قد جئت من بعيد

فبعث أبو حمزة بلج بن عقبة في ستمائة ليقاتل عبد الملك، فلقيه بوادي القرى في جمادى الأولى سنة ثلاثين ومائة، وتواقفوا ودعاهم بلج إلى السنة والعمل بكتاب الله، وذكروا ظلم عبد الملك وحكمه بالهوى فشتمهم أهل الشام، وقالوا: أنتم أولى بما ذكرتم.

ثم حمل عليهم بلج وأصحابه فانكشف أهل الشام، وصبر عبد الملك في عصيبة ونادى: يا أهل الشام وأهل الحفاظ ناضلوا عن دينكم وأميركم، فكروا وصبروا وقتل بلج وأكثر أصحابه، واعتصم رجل من همدان يقال له الصباح في مائة من الإباضية فجعل يقاتلهم عبد الملك ثلاثة أيام فقتل منهم سبعون، ورجع إلى المدينة ثلاثون، ونصب عبد الملك رأس بلج على رمح فقال أبو وجزة أحد بني ظفر:

ورأس بلج مجتلىً محزوز　　　في عمدٍ من خشبٍ مرزوز

وقالوا: قدم الذين فروا من وادي القرى إلى أبي حمزة وقالوا: فررنا من الزحف، فقال أبو حمزة: أنا لكم فيئة، وخرج أبو حمزة عن المدينة إلى مكة واستخلف عليها رجلاً يقال له المفضل، فقاتلهم العبيد وأهل

السوق، فقتل المفضل وعامة أصحابه، وهرب الباقون فلم يبق من الإباضية بالمدينة أحد، فقال أبو البيضاء شميل مولى زينب، من ولد الحكم بن أبي العاص:

ليت مروان دنا — يوم الاثنين عشيّه
إذ غسلنا العار عنا — وانتضينا المشرفيّه

ثم إن عبد الملك بن محمد بن عطية قدم المدينة فأقام بها شهراً، ثم خرج إلى مكة والمختار بن عوف بها فقال: يا أهل مكة، هؤلاء الذين سألناكم عنهم فقلتم يجورون ويظلمون فلا تعينوهم علينا.

ولقي عبد الملك الخوارج من وجهين وقد جعل أصحابه فرقتين فصير طائفة بالأبطح، وصار هو والطائفة الأخرى بأسفل مكة، فاقتتلوا وهزم أهل الشام حتى انتهوا إلى عقبة منى، ثم كروا فقاتلوهم وصبروا فقتل أبرهة، كمن له ابن هبار القرشي عند بئر ميمون فقتله، ويقال قتله بالأبطح، وتفرق الخوارج.
ولقي أبو حمزة عبد الملك بن محمد بأسفل مكة فاقتتلا فقتل المختار بن عوف أبا حمزة على فم الشعب، وقتلت معه امرأته وهي تقول:

أنا ابنة الشيخ الكريم الأعلم — من سال عن اسمي فاسمي مريم
بعت سواريّ بسيف مخذم

وتفرق الخوارج، وأسر أهل الشام منهم أربعمائة فدعاهم عبد الملك فقال: ما دعاكم إلى الخروج؟ فقالوا: ضمن لنا أبو حمزة الكنة- يريدون الجنة-. فقتلهم، وصلب المختار، وأبرهة بن شرحبيل بن الصباح الحميري على فم شعب الخيف.
ودخل علي بن الحصين داراً من دور قريش فأحاط أهل الشام بها فأحرقوها فلما رأى ذلك رمى بنفسه من الدار، فقاتلهم فأُسر فقتل وصلب مع المختار، فلم يزل مصلوباً حتى استخلف أبو العباس أمير المؤمنين فحج المهلهل الهجيمي فاستنزله ليلاً فدفنه.
وقال أبو وجزة:

الله أخزى أبرهاً وبلجا — ومن طغى في دينه واعوجّا

وتوارى السراقي فلم يظهر حتى قام أمير المؤمنين أبو العباس، وقال بعضهم: قتل مع أبي حمزة.
وكان بمكة مخنثان: يقال لأحدهما أُسيلت، وللآخر صعترة، فكان أُسيلت يرجف بالاباضية فقتلوه، وكان صعترة يرجف بأهل الشام فأُخبروا بخبره فقتلوه، وقال قبل أن يقتل: يا ويلي إنما كنا نعبث ونتكاذب.

وطار دم صعتره من الفزع فكان يقال: أصفى دماً من صعتره، لأن دمه كان صافياً من الفزع.

وقال المدائني: قاتل أبو حمزة، وهو عليل وقد غسل رأسه، واعتم وهو يقول:

أحمل رأساً قد مللت حمله وقد مللت دهنه وغسله

ألا متى يطرح عني ثقله

فأجابه أبو محمد بن عطية:

أصبت من يطرح عنك ثقله يكفيك بالسيف الصقيل حمله

ويقال إن الذي قال هذا طالب الحق نفسه.

ومضى فل الإباضية إلى اليمن، وبعث عبد الملك عروة بن عطية بالفتح إلى مروان، وأقبل عبد الله بن يحيى الإباضي، وهو طالب الحق من صنعاء، وشخص إليهبعد الملك وقد استخلف بمكة والطائف خلفاء، فالتقيا بكثبة، فأكثر أهل الشام في الخوارج القتل، وتشاغل أهل الشام بالغنيمة والنهب، وركبهم الإباضية، فذمرهم عبد الملك فكروا وقاتلوا اشد قتال، ثم تحاجزوا وباكروا للقتال فترجل عبد الله بن يحيى وترجل معه ألف رجل وقاتلوا، وجعل عبد الله بن يحيى يقاتل وهو يقول:

أضرب قوماً حبطت أعمالهم الله مولانا ولا مولى لهم

فقتل عبد الله بن يحيى، وكان أعور، وانهزم أصحابه، وقتلوا في كل وجه، ولحق فلهم بصنعاء فقال أبو صخر الهذلي:

قتلنا دغيشاً والذي يكتني الكنى أبا حمزة الغاوي المضل اليمانيا

وأبرهة الكندي أردت رماحنا وبلجاً صبحناه الحتوف القواضيا

وما تركت أسيافنا يوم جرّدت لمروان جباراً من الناس عاديا

خبر صنعاء

وأمر يحيى بن عبد الله بن عمرو بن السياق الحميري:

قال أبو الحسن علي بن محمد المدائني: بعث عبد الملك ابنه يزيد بن عبد الملك بن محمد بن عطية السعدي بقتل عبد الله بن يحيى إلى مروان، ورجع عبد الملك إلى مكة، فكتب مروان إلى عبد الملك يأمره بالمصير إلى صنعاء، فلما كان يزيد بن عبد الملك بن محمد بالبلقاء منصرفاً إلى أبيه هلك، وقدم أصحابه بكتاب مروان إلى عبد الملك، فاستخلف ابنه محمد بن عبد الملك بن عطية على مكة وعزل رومي بن ماعز الغطفاني أحد بني مرة، وبعضهم يقول هو كلابي، وأقر على المدينة الوليد بن عروة بن عطية، وأمر محمد

بن عبد الملك ابنه أن يقيم للناس الحج سنة ثلاثين ومائة.
وأقفل أهل الجزيرة إلى الجزيرة، ووفى لهم بما اشترطوا إذا قتل الأعور، وهو عبد الله بن يحيى طالب الحق، فلما شارف عبد الملك بلاد صنعاء خرج عاملها الذي كان عبد الله بن يحيى ولاه إياها يريد حضرموت، واتبعه جمهور بن شهاب الخولاني في جماعة من أهل صنعاء فقاتلهم وأصاب حملين من مال وأثقالاً لهم، فقدم بما أصاب إلى صنعاء.

وقدم عبد الملك بن محمد صنعاء، فتبع الخوارج يقتلهم فقتل ثلاثمائة منهم بصنعاء، وبعث عماله وفرقهم في المخاليف، ودر له الخراج أشهراً، ثم خرج عليه يحيى بن عبد الله بن عمرو بن السياق الحميري من آل ذي الكلاع بالجند في جمع كثير، فبعث إليهعبد الملك عبد الرحمن بن يزيد بن عطية، فلقيه بالجند فهزمه وقتل عامة أصحابه، ورجع عبد الرحمن إلى صنعاء، ولحق يحيى بن عبد الله بعدن واجتمع إليهألفان، فسار إليهعبد الملك فواقعه فقتله وقتل عامة أصحابه، وتفرق الباقون، ورجع عبد الملك إلى صنعاء.

أمر يحيى بن كرب وعبد الله بن معبد

وخرج يحيى بن كرب الحميري- ويقال هو مذحجي- بساحل البحر، وانضم إليهجمع من الإباضية، فبعث إليهعبد الملك أبا أمية الكندي، فالتقوا بالساحل، فقتل من الإباضية، وتحاجزوا عند المساء، فمضت الإباضية إلى حضرموت وعليها عبد الله بن معبد الحضرمي، عامل عبد الله بن يحيى بن عمير الحميري، فصار يحيى بن كرب معه، ورجع أبو أمية إلى عبد الملك بن محمد، فاستخلف عبد الملك على صنعاء عبد الرحمن بن يزيد بن عطية وشخص إلى حضرموت.
وبلغ عبد الله بن معبد مسير عبد الملك إليهم، فجمعوا الطعام وما يحتاجون إليهفي مدينة شبام، وفي حضرموت مخافة الحصار، ثم رأوا أن يلقوا عبد الملك في الفلاة، فخرجوا فنزلوا على أربع مراحل من حضرموت في عدد كثير في فلاة من الأرض، ووافاهم عبد الملك فقاتلهم يومه كله، فلما أمسى بلغه ما تجمعوا من الطعام بشبام، فحدر عسكراً في بطن حضرموت إلى شبام ليلاً فلما اصبح قاتلهم حتى انتصف النهار، ثم تحاجزوا فلما أمسى عبد الملك اتبع العسكر الذي وجهه إلى شبام، وأصبح عبد الله بن معبد والإباضية فلم يروا من الشاميين أحداً فاتبعوهم وقد سبقوهم فأخذوا ما كانوا جمعوا من الميرة، وأخذ عليهم عبد الملك الطرق بالمسالح وقطع عنهم المادة فلم يقدروا على الميرة، ثم جعل يقتل من قدر عليه ويسبي، ويأخذ الأموال.
فلما كان في شوال سنة إحدى وثلاثين ومائة كتب مروان إلى عبد الملك يأمره أن يستخلف رجلاً

ويحضر الموسم فيقيم للناس حج، فصالح عبد الملك أهل حضرموت على أن يستعمل عليهم رجلاً منهم، فولى على حضرموت رجلاً من أهلها تراضوا به، ورد عليهم ما عرفوا من متاعهم، وكتب عليهم كتاباً، وكتب إلى الوليد بن عروة يأمره أن يوافي مكة من المدينة، فإن أبطأ قدومه أن يقيم أمر الموسم ويصلي بالناس، ووجه بكتابه إليهرجلاً، وأمر بإغذاذ السير وإجذامه وترك الفتور فيه، فخرج الرجل يركض إلى الوليد بالمدينة.

وخلف عبد الملك عبد الرحمن بن زيد بن عطية على صنعاء، وخرج عبد الملك في اثني عشر فلما كان بأرض مراد- وكان قد أصاب منهم قوماً مع طالب الحق- عرض له قوم منهم فقال: هذا كتاب أمير المؤمنين إلي في حضور الموسم، فكذبوه وقاتلوه فقتلوه وفتشوا ما معه فوجدوا كتاب مروان إليهفي توليته الموسم، فجاء قوم من همدان فدفنوه.

ويقال إنه خرج في أربعين فاتبعه قوم من همدان ومراد وظنوه منهزماً فقتلوه، وكانوا خوارج وقالوا له: قتلت عبد الله بن يحيى، والمختار وبلجاً، وأبرهة بن الصباح. وقتلوا أصحابه أيضاً ، وبعثوا برأس عبد الملك إلى حضرموت.

وبلغ عبد الرحمن بن زيد بن عطية خبره وهو بصنعاء، فأرسل شعيباً البارقي في الخيل فقتل الرجال والصبيان، وبقر بطون النساء، وأخذ الأموال، وأخرب القرى، وأقام الحج للناس أبو الوليد عروة، واستعمل مروان على مكة والمدينة والطائف يوسف بن عروة بن عطية.

وبعث الوليد بن عروة بن عطية إلى اليمن فقتل البري والنطف، ووجه إلى يحيى بن كرب وعبد الله بن معبد من حاربهما فقتلهما، ويقال إنه واقعها بنفسه فقتلهما، و لم يزل الوليد باليمن حتى استخلف أمير المؤمنين أبو العباس.

قالوا: وكان مروان لما بعث رسوله إلى عبد الملك بن محمد ذكره بعد أيام فقال: إنا لله وإنا إليهراجعون، أحسبني قد قتلت عبد الملك، يأتيه كتابي فيخاف أن يفوته ما ندبته له فيخرج مخفاً في قلة التماساً للسرعة، وهو في بلاد قوم قد وترهم فيقتل، ثم قال:

إن تنفري فقد وجدت نفراً ... أمّ عويفٍ وشياهاً عقرا

أمر يزيد بن عمر بن هبيرة

عامل مروان على العراق

قالوا: ولما قدم يزيد بن عمر بن هبيرة العراق والياً من قبل مروان، أشخص إليهوفداً من أهل البصرة منهم داود بن أبي هند، وسعيد بن أبي عروبة فقال: انظروا ما نقمتم علي فيه من أمر فعرفونيه أدعه، وأي عامل رأيتم عزله فأشيروا علي بذلك أعزله.

وكان عفيفاً متوقياً سخياً شجاعاً، وكان يعشي الناس في كل يوم: إذا صلى العصر توضع الكراسي، فإذا أخذ الناس مجالسهم أُتي بعساس اللبن والأشربة، ثم أُتي بالأطعمة فيأكلون إلى وقت المغرب. ثم يدعو بالمناديل فيتفرقون للصلاة.

وكان سماره قوماً من الفقهاء منهم داود بن أبي هند، وابن شبرمه، وابن أبي ليلى. فقال ابن شبرمه:

إذا نحن أعتمنا وماد بنا الكرى أتانا بإحدى الراحتين عياض

يعني حاجبه- وكان يقضي في كل ليلة عشر حوائج، فإذا أصبح أنفذها.

حدثني عمر بن شبه عن خلاد الأرقط عن سلم بن قتيبة قال: كان يزيد بن عمر بن هبيرة رما لحن في كلامه وذلك قليل، فقلت له يوماً: إنك ربما لحنت فلهو تعهدت أيها الأمير نفسك. قال فتحفظ من ذلك وقال: يا سلم، أكل العلم علمت؟ قلت: ما منه شيء إلا وقد أخذت منه ما يكفيني. قال: فما تقول في ابنتين وأبوين؟. قلت: للابنتين الثلثان وللأبوين السدسان، قال: فإن إحدى الابنتين ماتت؟. قلت: فللأم الثلث وما بقي فللأب. قال: يا سلم أهذا ما يكفيك من العلم؟ قالوا: وأخذ يزيد بن هبيرة الأصغر عمر بن النجم بن بسطام بن ضرار بن القعقاع ورجلاً من بكر بن وائل بسبب رأي الخوارج، فأطلق البكري وحبس التميمي. فلما كان يوم الفطر قام أبو نخيلة فأنشده:

أطلقت بالأمس أسير بكر فهل إلى حلّ القيود السّمر

عن التميمي القليل العذر من سببٍ أو سلّمٍ أو جسر

من كان لا يدري فإني أدري ما زال مجنوناً على است الدّهر

في حسبٍ ينمى وعقلٍ يجري

وكان يزيد متعصباً على صاحب خراسان، وهو نصر بن سيار، كان يكتب إليهمستغيثاً به لما ظهر أمر أبي مسلم ودعاة بني العباس فلا يغيثه، حتى قال:

أبلغ يزيد وخير القول أصدقه وقد تبيّنت ألاّ خير في الكذب

إنّ خراسان أرض قد رأيت بها بيضاً لو افرخ قد حدثت بالعجب

في أبيات قد ذكرناها.

وكتب إلى مروان بأبيات يقول فيها:

فقلت من التعجّب ليت شعري ... أأيقاظٌ أمية أم نيام

قالوا: وقال أبو عطاء السندي مولى بني أسد في ابن هبيرة:

أقام على الفرات يزيد حولاً ... فقال الناس أيهما الفرات

فيا عجباً لبحر بات يسقي ... جميع الناس لم يبلل لهاتي

قصائد حكتهنّ لقرم قيسٍ ... رجعن إليّ صفراً خائبات

رجعن إليّ لم يورين زنداً ... سوى أني وعدت التّرّهات

فقال ابن هبيرة: يا أبا عطاء كم يبل لهاتك؟ قال: عشرة آلاف درهم، فأمر له بها.

وقال أيضاً :

قصائد حكتهنّ لقرم قيسٍ ... رجوت بها المودّة والإخاء

رجعن على حواجبهنّ صوفٌ ... فعند الله ألتمس الرجاء

وقال بشار الأعمى في قصيدة طويلة:

إلى أمير الناس وجّهتها ... تجري على عارٍ من الطّحلب

إلى فتىً تسقي يداه الندى ... حيناً وأحياناً دم المذنب

فوصله وكساه.

وقال يزيد بن عمر لأبي عطاء السندي وكان أبو عطاء ألثغ.

فما صفراء تكنى أمّ عوفٍ ... كأن رجيلتيها منجلان

فقال: أيها المير.

أردت زرادةً وأردت أيضاً ... بما عاييت من هذا لساني

ويروى: أجريت من هذا. وقد ذكرنا أخبار يزيد بن هبيرة في حروبه ومقتله فيما تقدم من كتابنا هذا، وبعد هذا الموضع.

وقتل مروان ببوصير في ذي الحجة سنة اثنتين وثلاثين ومائة وهو ابن اثنتين وستين سنة، وورد خبر مقتله على أبي العباس بالكوفة.

وكان أول ولاته على البصرة سفيان بن معاوية بن يزيد بن المهلب، ثم عزل وولى حفص بن عمر بن عثمان بن قبيصة بن أبي صفرة، وقصد ابن هبيرة فقتل بواسط.

مقتل مروان بن محمد بن مروان بن الحكم

قالوا: قوي أمر أبي مسلم بخراسان وعلا شأنه وضعف أمر نصر بن سيار والي خراسان فيها، فكتب إلى مروان بشعر وهو:

أرى خلل الرماد وميض جمر ... خليقاً أن يكون له ضرام

فإن النار بالعودين تذكى ... وإن الحرب يقدمها الكلام

فقلت من التعجّب ليت شعري ... أأيقاظ أمية أم نيام

فكتب إليهمروان: الشاهد يرى ما لا يرى الغائب فاحسم الثؤلول قبلك. فلما قرأ نص الكتاب قال: أما هو فقد أعلمنا أنه لا نصر عنده. وكتب إلى يزيد بن عمر بن هبيرة، عامل مروان على العراق: أنشدك الله أن تضيع خراسان وكان يزيد حسوداً فكره أن يذهب نصر بسمعتها و لم يبل كيف وقع الأمر.
وكتب إليهنصر: أمدني بألف عمامة شامية، ووجه إلي في كل يوم رجلاً أو رجلين ليرى أهل خراسان أن لي مدداً، فلم يفعل، وكان يستخف بكتبه إذا كتب، فقال نصر: والله إني لأهم أن أكتب إليه: من نصر بن سيار الكناني إلى يزيد بن عمر الفزاري. وكتب إليه:

أبلغ يزيد وخير القول أصدقه ... وقد تبينّ ألاّ خير في الكذب

إن خراسان أرض قد رأيت بها ... بيضاً لو افرخ قد حدثت بالعجب

فراخ عامين إلا أنها كبرت ... ولم تطر ولقد سربلن بالزّغب

وإن يطرن ولم يحتل لهنّ بها ... يلهبن نيران حرب شأنها عجب

فكتب إليهابن هبيرة: لا تكثرن، فما عندي رجل واحد.
وكتب مروان إلى الوليد بن معاوية بن عبد الملك بن مروان عامله بدمشق يأمره بحمل إبراهيم بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس إلى ما قبله، وكتب إلى نصر ألا يدع بخراسان متكلماً بالعربية إلا قتله، فقال نصر: هذا أحمق. وفسدت الأمور على نصر وهرب، وقد كتبنا هذا الخبر فيما تقدم من كتابنا هذا عند ذكر امر الدعوة.
وقالوا: استحكمت لأبي مسلم الأمور، فوجه قحطبة بن شبيب بن خالد بن معدان بن شمس بن قيس بن أكلب بن سعد بن عمرو بن عمرو بن الصامت، واسمه أيضاً عمرو بن غنم بن مالك بن سعد بن نبهان

بن عمرو بن الغوث بن طيء بن أدد إلى العراق، ومعه أبو غانم عبد الحميد بن ربعي بن خالد بن معدان وغيره من وجوه أهل خراسان، وحمل قحطبة معه مالاً عظيماً.

وكان مقدمة قحطبة ابنه الحسن، فلقي قحطبة نباتة بن حنظلة بجرجان فقتل نباتة، وانهزم أهل الشام.

ووجه ابن هبيرة أيضاً عامر بن ضبارة ومعه داود بن يزيد بن عمر بن هبيرة، فلقيهم قحطبة بأصبهان فقتل ابن ضبارة.

ووجه قحطبة أبا عون عبد الملك بن يزيد الأزدي من نهاوند إلى شهرزور فقتل عثمان بن سفيان، وكان مروان بعثه مقدمة له، فلما بلغه خبر مقتله أقبل مروان فترل رأس العين، ثم أتى الموصل فترل على الزابي وحفر خندقاً.

ووجه أبو سلمة الداعية إلى أبي عون عيينة بن موسى بن كعب مدداً لأبي عون، وظهر أمير المؤمنين أبو العباس، فولى عبد الله بن علي بن عبد الله بن العباس حرب مروان، فلما ورد على أبي عون تحول له عن سرادقه بما فيه وخلاه له.

وصير عبد الله بن علي على شرطه حباش بن حبيب الطائي صاحب الجوبة ببغداد، في ظهر ربض حميد بن قحطبة، فلما كان لليلتين خلتا من جمادى الآخرة سنة اثنتين وثلاثين ومائة سأل ابن علي عن مخاضةً بالزابي فدل عليها، فوجه عيينة بن موسى بن كعب في خمسة آلاف فانتهى إلى عسكر مروان فقاتلهم، ورفعت النيران ثم تحاجزوا، ورجع عيينة إلى عسكر عبد الله بن علي، وخاض أصحابه تلك المخاضة.

وأصبح مروان فعقد جسراً وسرح عليه ابنه عبيد الله بن مروان فحفر خندقاً أسفل من عسكر ابن علي، فبعث عبد الله بن علي المخارق بن عفان في أربعة آلاف، فسرح إليهعبيد الله بن مروان الوليد بن معاوية فبيت المخارق وانهزم أصحابه وأُخذ أسيراً فبعث به إلى مروان مع رؤوس من قتل فقال مروان: أنت المخارق؟ قال: لا ولكني عبد من عبيد أهل العسكر- وكان المخارق نحيفاً دميماً- فقال له مروان: أفتعرف المخارق؟ قال: نعم. قال: فانظر رأسه في هذه الرؤوس، فأومأ إلى رأس منها فقال: هو هذا. فخلى سبيله.

وقال رجل من أصحاب مروان- ورأى المخارق-: لعن الله العبد أبا مسلم جاءنا بهؤلاء يقاتلنا بهم.

وقال العماني وهو من بني فقيم:

صبّحهم مروان بالدّهارس ... قبل الصباح والصقيع الجامس

دوس الجراجير الحصاد اليابس

وبلغ ابن علي خبر المخارق فدعا عبد الله بن علي بن محمد بن صول فاستخلفه على العسكر، وسار على ميمنته أبو عون، وعلى ميسرته موسى بن كعب، ويقال عيينة ابنه.

يوم الزابي من أرض الموصل

قالوا: لقي عبد الله بن علي مروان وعلى ميمنة مروان عبيد الله ابنه، وعلى ميسرته الوليد بن معاوية بن مروان بن عبد الملك بن مروان، وهو صهر مروان على ابنته. وقال مروان: إن زالت الشمس اليوم و لم يقاتلونا كنا الذين ندفعها إلى عيسى بن مريم، وإن قاتلونا قبل الزوال فإنا لله وإنا إليهراجعون.

وأرسل مروان إلى ابن علي يسأله الموادعة إلى بعد صلاة الظهر، فقال: كذبت يا بن زربي، لا تزول الشمس حتى أوطئك الخيل إن شاء الله. فقال مروان: قفوا وادفعوهم، فحمل الوليد بن معاوية بن مروان بن عبد الملك فغضب مروان وشتمه.

ونشبت الحرب، ونزل الناس وأشرعوا الرماح، وجثوا على الركب وقاتلوهم، وجعل أهل الشام يتأخرون كأنهم يدفعون.

ومشى عبد الله بن علي قدماً وهو يقول: حتى متى نقتل فيك يا رب. ونادى أهل خراسان: يا لثارات إبراهيم الإمام، يا محمد يا منصور، يا لثارات الحسين وزيد ويحيى، يا منصور أمت. واشتد بينهم القتال.

وروى قوم أن عبد الله بن عمر بن عبد العزيز كان مع مروان، وذلك باطل، ولكنه كان معه غيره من ولد عمر وهو عبد العزيز.

وقال مروان لليمانية: انزلوا فقالوا: قل لقيس فليترلوا– وذلك أنهم حقدوا عليه تقديمه قيساً وقتله ثابت بن نعيم الجذامي والسمط الكندي– فقال لصاحب شرطه الكوثر الغنوي: انزل. فقال: والله ما كنت لأجعل نفسي غرضاً. قال: أما والله لأقتلنك ولأسوءنك إن لم تترل. فقال: وددت والله أنك تقدر على ذلك.

ثم انهزم مروان وقطع الجسر فغرق ممن معه أكثر ممن قتل.

وقال بعضهم: عرض لمروان وجع في بطنه فحركه للخلاء فرآه الناس مولياً فقالوا: منهزم، وانهزموا فلم يقدر على ردهم. فلما رأى ذلك عبر الجسر الذي للزابي، وأمر بقطعه لئلا يتبع، فغرق ستة عشر رجلاً من ولد مروان بن الحكم وفيهم إبراهيم بن الوليد المخلوع، ويقال ان إبراهيم بقي حتى قتله ابن علي مع من قتل، ويقال انه قتل بعد موت أخيه يزيد الناقص حين ظفر بن مروان. والله أعلم. وأثبت ذلك أن عبد الله بن علي قتله.

وكان عبد الله بن علي في اثني عشر ألفاً، وأمر عبد الله بن علي بإخراج الغرقى فأخرجوا فقرأ: "وإذ فَرّقنا

بكم البحر فأنجيناكم وأغرقنا آل فرعون وأنتم تنظرون".

وأقام في معسكره سبعة أيام فقال رجل من ولد سعيد بن العاص يعيب مروان:

لجّ الفرار بمروان فقلت له عاد الظلوم ظليماً همّه الهرب

ولى طريداً ولم تحمد عزيمته لدى القتال فلا دينٌ ولا حسب

وكتب ابن علي إلى أبي العباس بالفتح وبهرب مروان، وأنه قد حوى عسكره فسجد أبو العباس، ثم صلى ركعتين وقرأ: "فلما فصل طالوت بالجنود قال إن الله مبتليكم بنهر" الآية.

وكتب إلى ابن علي يأمره بأن يصوم سبعة أيام، وصامها أبو العباس، وأمر أبو العباس لمن شهد الوقعة بخمسمائة خمسمائة، ووهب ابن علي لعيينة بن موسى بن كعب جارية كانت لمروان.

وقال إسماعيلبن عبد الله القسري: قال لي مروان بحران حين هرب بعد يوم الزابي: أبا هاشم إني قد أجمعت على حمل عيالي وقطع الدرب حتى آتي مدينة من مدائن الروم أنزلها وأكاتب صاحب الروم، ولا يزال يأتيني الخائف والهارب، ويتلاحق بي الناس حتى يكثر جمعنا، وكان ذلك رأياً فكرهته لسوء صنيعه إلى أهل اليمن، وقتله من قتل منهم وتقديمه قيساً، فقلت: أعيذك بالله أن يحكم فيك أهل الشرك وتملكهم أمرك، وأمر أهلك وحرمك ولكن استنفر الشام وكوره حتى تصير إلى مصر، فإن رجالها كثير، وتكون بين الشام وإفريقية. فقال: سبحان الله، ومضى ومعه الكوثر الغنوي ومعه الحربة يسير بها بين يديه، فمر بقنسرين فوثبت به تنوخ وطيء فاقتطعوا مؤخر عسكره، ومر بحمص فصنعوا مثل ذلك، و لم يدعوه يدخل مدينتهم، ثم مر بدمشق فروى قوم أنهم منعوا عامله عليها من دخولها، وهو الوليد بن معاوية بن مروان بن عبد الملك وكان معه. والثبت أن أهل دمشق لم يمنعوا عامله الوليد منها، فدخلها وأقام بها حتى قتله عبد الله بن علي، ويقال بل أسره وبعث به إلى أبي العباس فقتله وصلبه.

ومر مروان بالأردن، فوثب عليه هشام بن عمرو القيني، ومر بفلسطين فوثب به الحكم بن ضبعان بن روح بن زنباع، ثم مضى إلى مصر واتبعه الحجاج بن زمل السكسكي فصار معه، والرماحس بن عبد العزيز الكناني وكان عامله على الأردن، واتبعه ثعلبة بن سلامة وكان من عماله على ناحية قريبة من الأردن. فلما صار إلى فلسطين قال: يا رماحس انفرج الناس عنا انفراج الرأس ولا سيما قيس التي وضعنا معروفنا عندهم في غير موضعه، وأخرجناه من قوم كانت دولتنا تقوم بهم، فما رأينا لقيس وفاءً ولا شكراً.

وصار عبد الله بن علي إلى نهر أبي فطرس بعد أن غلب على دمشق، ووجه صالح بن علي بن عبد الله

لمحاربة مروان، وعلى مقدمته عامر بن إسماعيلبن عامر بن نافع أحد بني مسلية بن عامر بن عمرو بن علة بن خلد، فحارب عامر بن إسماعيلمروان ببوصير فقتله.

وقال الهيثم بن عدي: كان الذي قتل مروان مزاحم بن حسان الحارثي، وكان الكوثر الغنوي قد كاتب عامر بن إسماعيلفبلغ مروان ذلك، وهو في أول حد مصر فقتله.

ويقال إن قوماً من أصحاب مروان تيقنوا ذلك من فعل الكوثر فقتلوه وأتوا مروان برأسه، فقال: أبعده الله. وحمد القوم وقال فيهم خيراً. وقال قوم: إن عبد الله بن علي أتى مصر وذلك غير ثبت.

وقال المدائني عن بعض أشياخه: نزل عبد الله بن علي بباب دمشق وبها الوليد بن معاوية بن مروان بن عبد الملك بن مروان وكان مع مروان بالزابي، فلما صار مروان إلى دمشق خلف بها الوليد، وسار إلى مصر لأن أهل دمشق لم يخالفوه. فحصرهم عبد الله بن علي، وقد أغلقوا أبوابها، ثم وقعت بينهم العصبية فسودت اليمانية، وفتحت الأبواب، فدخلها ابن علي والخراسانية فقتلوا كل مبيض، وأخذوا الوليد، فبعث به عبد الله إلى أبي العباس، فقتله وصلبه.

ويقال بل وثبت به اليمانية فقتلوه، فبعث إلى أبي العباس برأسه، ويقال بل قتله ابن علي وبعث برأسه، والله أعلم.

وقدم عبد الصمد بن علي من قبل أبي العباس في أربعة آلاف مدداً لعبد الله بن علي، فوافاه بدمشق، وهدم عبد الله حائط دمشق، وصار إلى نهر أبي فطرس فسار صالح بن علي على نهر أبي فطرس إلى مصر في ذي القعدة سنة اثنتين وثلاثين ومائة ومعه عامر بن إسماعيل المسلي، وأبو عون عبد الملك بن يزيد الأزدي، فيقال إن عبد الله وجه صالحاً، ويقال بل ولاه أبو العباس مصر وأمر ابن علي أن يقلده محاربة مروان ويتشاغل هو بأمور الشام حتى يحكمها، فعدل صالح من الرملة، فنزل ساحل البحر وجمع السفن وتجهز للقاء مروان وهو بالفرما من مصر، فجعل صالح يسير على الساحل والسفن بحياله حتى نزل العريش. وبلغ ذلك مروان فأحرق ما حوله من الأعلاف، وأخذ صالح بعض أصحابه ممن يحرق تلك الأعلاف فقتلهم بالفسطاط.

ولما وافى صالح الفسطاط عبر مروان النيل وقطع الجسر، وقدم صالح أبا عون وعامر بن إسماعيلفلقوا خيلاً لمروان فهزموهم وأسروا بعضهم فسألوهم عن مروان فأخبروهم أنه في كنيسة ببوصير وقد جمع من بقي معه وضمهم إليهفهم مطيفون به.

وقال عامر بن اسماعيل: لقينا مروان ببوصير في السحر، ونحن في عدة يسيرة لم يكن أصحابنا تلاحقوا بنا ولا تتاموا إلينا، فشد أصحاب مروان إلينا فلجأنا إلى شجر ونخل هناك ولو يعلمون بقلتنا لهلكنا، وذكرت أن بكير بن ماهان قال لي: أنت والله تقتل مروان، فكأني أسمعك تقول: دهاد يا جونكان دهاد يا أهل

خراسان. فاشتد قلبي فكررنا عليهم فانهزموا وحمل رجل على مروان فطعنه بسيفه وكان من أهل البصرة فقتله.

وقال أبو الحسن: قتله محمد بن شهاب المازني من بني كابية بن حرقوص، واحتز رأسه فحمله إلى صالح بن علي، وكتب إلى عبد الله بن علي، ويقال إلى أمير المؤمنين أبي العباس بالفتح، وكان في كتابه: إنا اتبعنا عدو الله الجعدي حتى ألجأناه إلى أرض عدو الله فرعون شبيهه في كفره، فقتله الله ببوصير. ثم رجع صالح إلى الفسطاط.

وقال المدائني: يقال إنه طعن مروان رجل نحيف يكنى أبا العود، وهو لا يعرفه فصرعه، وصاح صائح: أمير المؤمنين. فابتدروه، فسبق إليهرجل كوفي كان يبيع الرمان فاحتز رأسه.

ويقال أيضاً إنه قتله مزاحم بن حسان الحارثي، ويقال بل قتله محمد بن شهاب بن عقبة بن شهاب المازني، وأخذ رأسه، فبعث به عامر إلى أبي عون، وبعث به أبو عون إلى صالح بن علي، وبعث به صالح إلى الخليفة، وهذا قول من قال أن صالحاً كان من قبل أبي العباس.

قال الهيثم: وكان يقال: إذا حملت مسلية الألوية دهت بني أمية الدويهية.

قالوا: ولما نفض رأس مروان ونقب ليخرج دماغه قطع لسانه فأخذه هر، فقال صالح: لو لم يرنا الدهر من عجائبه إلا لسان مروان في فم هر، لكان في ذلك عبرة موعظة، ثم بعث برأسه وخاتمه مع يزيد بن هانئ الكندي إلى أبي العباس، وهو بالحيرة فنصبه، وبعث به إلى خراسان.

و لم يزل صالح على مصر حتى مات أبو العباس، وعصى عبد الله بن علي، وكان الحكم بن ضبعان بن روح بن زنباع من قبل عبد الله بن علي على فلسطين، فسرح إليهصالح: أبا عون، ومحمد بن الأشعث الخزاعي فهرب الحكم إلى بعلبك، فدل عليه بعد فأخذ وذلك في ولاية عبد الوهاب بن إبراهيم الإمام، و لم يخالف صالح المنصور حين هرب عبد الله بن علي، وكان متمسكاً بطاعته غير متابع لعبد الله بن علي معصيته وخلافه، فلما انقضى أمره قدم فلسطين ومعه ليث بن سعد وابن لهيعة.

وروي أن بنات مروان كن في كنيسة عليهن خادم يقوم بأمرهن، فخرج الخادم شاهراً سيفه وقال: إن مروان أمرني بقتل نسائه وبناته فمنع من ذلك، وأرادوا قتل الخصي فقال: إن قتلتموني ذهب ميراث النبي صلى الله عليه وسلم، قيل: وما ذاك؟. فدلهم على القضيب والبرد والقعب المخضب، وكان مروان دفن ذلك أجمع في رمل في بعض المواضع لئلا يصير إلى بني العباس، وهذا خلاف قول من ذكر أن البرد اشتري من بعض النصارى. والله أعلم.

أمر بني مروان بن محمد

قالوا: لما التقى مروان وعامر بن إسماعيلببوصير من أرض مصر، فاقتتلوا ليلاً، وقف عبد الله وعبيد الله ابنا مروان في ناحية، في جمع من أهل الشام، فحمل عليهم أهل خراسان فأزالوهم عن موقعهم، ثم كروا عليهم فهزموهم حتى ردوهم إلى عسكرهم، وتفرق الناس عن عبد الله وعبيد الله حين قيل قد قتل مروان، وجعل أهل خراسان يقتلون من لحقوه من الفل فلم يكن لهما همة إلا الخلاص، فمضيا على وجوههما وذلك في السحر، وتفرق الشاميون في الرمال، فرجع أهل خراسان عنهم، فصار ابنا مروان إلى بلاد النوبة في عدة من أحشام أبيهما وموإليهوغيرهم، فأكرمهما صاحب النوبة وأجرى عليهما ما يصلحهما فأقاما بأرض النوبة شهرين، ثم أجمعا على إتيان اليمن فيمن معهما فنهاهما صاحب النوبة عن ذلك وقال: إني لا آمن عليكما الهلكة، فشكروه وساروا في بلاد العدو فدخلوا بلاد جاوة فلم يهجهم صاحبها وكان يبيعهم ملء القربة من الماء بخمسين درهماً حتى أخذ منهم مالاً كثيراً، ثم شخصوا عن بلاده فلقيهم بعض العدو فقاتلوه ونجو فساروا فعرض لهم جبل بين طريقين، فسلك عبد الله- وقد باين أخاه لتنازع وقع بينهما- إحدى الطريقين، وسلك عبيد الله الطريق الأخرى فلم يلتقوا.

وعرض لعبيد الله بعض العدو فقاتلهم بمن معه فسلبوهم ثم قتلوهم إلا جميعةً لا يبلغ عددها الثلاثين، وقتل عبيد الله وأُخذت ابنته أم الحكم وهي صبية، وبقي ممن معه قوم فكانوا يتنكبون العمران فهلكوا وهلكت دوابهم، وبلغ منهم العطش حتى شربوا أبوال دوابهم وأبوال أنفسهم إلى أن وصلوا إلى البحر، ووافاهم عبد الله بن مروان فكانوا خمسة وأربعين فيهم الحجاج بن قتيبة بن مسلم، فركبوا البحر وصاروا إلى مكة، فيقال إن العامل علم بهم فلم يعرض لهم، ويقال إنه لم يعلم بهم.

وخرجوا مع الحجاج وعليهم عمائم غلاظ وجباب الأكرياء حتى مروا بقوم فرقوا لهم فحملوهم. وفارق الحجاج بن قتيبة عبد الله بجدة، ثم أتى عبد الله بن مروان ومن معه تبالة بعد أن حج.

قالوا: وأتى عبد الله بن مروان اليمن مستتراً فأقام بها ما شاء الله، فدل عليه نصر بن محمد بن الأشعث الخزاعي، وكان والياً عليها من قبل أمير المؤمنين المنصور في آخر خلافته فأخذه وبعث به إلى المنصور فحبسه في القصر، فلما استخلف أمير المؤمنين المهدي أراد إخراجه إلى الشام ليخلع نفسه على منابر الشام لأن أباه كان ولاه عهده، وكان أبو العباس الطوسي على المدينة والمطبق والحبوس فبلغه ذلك، فقال: يا أمير المؤمنين من أشار عليك بهذا الرأي؟ أأبو عبيد الله أم ابن رغبان أم أبو سمير؟. هذا رأي لا تؤمن عواقبه، أيدخل ابن مروان مدن الشام وله في أعناق أهلها بيعة؟ فيقال إن المهدي أراد تخلية عبد الله بن

مروان، فقال له عيسى بن علي: يا أمير المؤمنين إن له في أعناقنا بيعة. فأمر به المهدي فثقل بالحديد وحول إلى المطبق، فلم يلبث أن مات.

وكان أبو عبيد الله من أهل الشام وكذلك أبو سمير، وكان ابن رغبان مولى حبيب بن مسلمة الفهري شامياً، وهو صاحب المسجد ببغداد.

حدثني حماد بن يعسل الوراق عن سلمويه أبي صالح قال: لما أقيم عبد الله بن مروان بين يدي المهدي- وكان عامل اليمن وجهه إلى أبي جعفر- فوافى فقال أبو جعفر: أيكم يعرف هذا؟ فتأمله عبد العزيز بن مسلم العقيلي فقال: آه أبا الحكم كيف كنت بعدي؟ نعم يا أمير المؤمنين هذا عبد الله بن مروان، فأمر به إلى المطبق فمات فيه.

قالوا: وكان على عبد الله فص ياقوت أحمر يساوي ألف دينار، فكان يقول وهو يمشي: ليت لي به دابة أركبها.

وقال بعض من كان مع عبد الله بن مروان: ما رأينا مثله، قاتل فكان أشد الناس، ومشى فكان أقواهم على المشي، وجاعوا فكان أصبرهم على الجوع.

قالوا: وبلغ مروان وهو بمصر قتل من قتل بنهر أبي فطرس فبكى حتى كاد يموت.

وقال بعض آل مروان: ما كان شيء أنفع لنا في هربنا من الجوهر الخفيف الثمن ما يساوي خمسة دنانير فما دون، كان يخرجه الصبي والخادم والامرأة فنبيعه، وكنا لا نستيطع إظهار الجوهر الثمين.

وقال الحجاج بن قتيبة: كنت مع نصر بن سيار، فلحقت بمروان، فصرت معه فقال وهو هارب: لقد عزبت عنا عقولنا حين لم نزوج نساءنا الأكفاء من قريش فنكفى مؤونتهم في هذه الحال، وأخذ لي سلم بن قتيبة أخي الأمان فقال لي أمير المؤمنين: أكنت مع مروان؟. فقلت: كنت مع قوم خلطوني بأنفسهم فلم تحسن لي مفارقتهم، فقال: هذا الوفاء.

وقيل إن المنصور- أو المهدي- دعا بعبد الله بن مروان فقال له: حدثني حديثك. فحدثه فهم بتخليته، حتى قال عيسى بن علي فيه ما قال.

ذكر من قتل من بني أمية وأتباعهم

المدائني وغيره قالوا: جلس عبد الله بن علي للناس في خضراء دمشق، فدخلت عليه قريش وغيرها فتكلم يزيد بن هشام، وهو الأفقم فأطرى بني هاشم وذكر فضلهم وقال: أهل السؤدد والأمانة، وأطنب. ثم تكلم بنو أمية فأثنوا عليه ودعوا ومتوا بالقرابة، فقال ابن علي: صدقتم وبررتم، إن قرابتكم لقريبة، وإن حقكم لواجب، أنتم أكفاؤنا وبنو عمنا ونحن أهل وراثتكم، وانتم أهل وراثتنا لو كان الثاني متلائماً.

ثم قال: مالي لا أرى عتيق بن عبد العزيز بن الوليد فقيل له: ليس عنده ما تكرهه. فقال: إن أتاني ما بينه وبين ثالثة وإلا فلا أمان له عندي. فأتاه ثم إنه قتله بعد.

ودعا عبد الله بالغداء، فتقدم من حضر إلا محمد بن عبد الملك فقال له: اقترب يا محمد. فقال: لست أطعم اليوم شيئاً، فجعل عبد الله ينظر إليه، فلما فرغوا من الغداء وخرج الناس فقيل له: دعاك إلى الغداء فلم تفعل، وتكلم أصحابك و لم تتكلم، وقد نظر إليك نظراً شزراً، وقتله بعد.

ودخل عليه حمزة بن الأصبغ بن ذؤالة الكلبي، وكان حمزة ممن شهد قتل زيد بن علي. فلما رآه تمثل عبد الله:

بسيف ابن عباس وسيف ابن زامل   بدت مقلتاها والبنان المخضّب

ثم قتل حمزة بعد أن خرج مع السفياني، وأخذ ابن علي سليمان بن سليم بن كيسان فحبسه، وقدم قوم من كلب برأس الفياض بن عنبسة بن عبد الملك من البادية، قتل بها.

وقتل عبد الله بن علي سليمان بن سليم وأخوته: كلثوماً، ومسلماً، ونصراً، وبشراً، وحماداً، وصدقة، ويونس بني سليم، وأخذ ابن علي بدمشق يزيد بن معاوية بن مروان بن عبد الملك، وعبد الله بن عبد الجبار بن يزيد بن عبد الملك فبعث بهما إلى أبي العباس فقتلهما بالحيرة، أو بعث برؤوسهما أو حمل ابن عبد الجبار فقط.

وقتل عبد الله بن علي صالح بن عجلان الأفطس، مولى محمد بن مروان بن الحكم سنة اثنتين وثلاثين ومائة، وكان يترل حران، وسالم الأفطس الذي يحدث عن ابن حبيب.

وأمر عبد الله بن علي الضحاك بن زمل السكسكي بقتل بعض ولد نوح بن الوليد بن عبد الملك، وكان حين دعاه بلغه أنه يريده لذلك فكسر يد نفسه فلم يزل الضحاك أثيراً عند أبي العباس حتى مات ببغداد، فحضر المنصور دفنه وقام على قبره.

وولى أمير المؤمنين أبو العباس عبد الله بن علي الصائفة سنة خمس وثلاثين ومائة، فتجهز وشخص، وأقبل أبان بن معاوية بن هشام يريده ليعترضه فوجه إليهحميد بن قحطبة فالتقوا، فالهزم أبان وأصحابه وانكشفوا وتحصنوا في حصن كيسوم، فحصرهم حميد فطلبوا الأمان فأمنهم، وهرب أبان فدل عليه فأُخذ في غار فقطع عبد الله يديه ورجليه وقتله، ومضى لوجهه.

ويقال إنه كان في الغار أمه وأخته وامرأته، فدل عبد الله عليه، فوجه إليهأربعين رجلاً فلما نذر بهم أراد قتالهم فمنعته أخته وأمه فاستسلم، فقطع عبد الله يديه ورجليه وحشمه وأطافه بالشام ثم حبسه فحل يديه

حتى نزف ومات.

وتحصن عبد الصمد بن محمد بن الحجاج بن يوسف في حصن، فبعث عبد الله من أخذه وأربعة عشر رجلاً من آل أبي عقيل، ومع عبد الصمد سيف الحجاج فضرب به عنقه وأعناقهم. ويقال إن صالح بن علي أخذهم.

وقتل ابن علي ذيخ قريش وهو أبو بكر بن عبد الملك، وقتل أبا القاسم بن الوليد بن عتبة بن أبي سفيان.

المدائني عن أبي عاصم الزيادي قال: قال عبد الله بن علي بنهر أبي فطرس ومعه بنو أمية، خرجوا معه من دمشق، فأمر ألا يدخلوا عليه وعلى أحد منهم سيف، فانتزعوا سيوفهم، وأمر بالخيل فرتبت حول الحجر، فلما دخلوا من باب المضرب عزلوا ناحية ونودي رجل رجل باسمه فدخل اثنان وسبعون رجلاً، ويقال كانوا نيفاً وثمانين.

وجاء حباش بن حبيب الطائي صاحب شرطة عبد الله بن علي، فأمر بهم فنزعت ثيابهم وكتفوا فجعل أهل خراسان يشقون أطراف اقبيتهم ويكتفونهم، فقال محمد بن عبد الملك: يا بني أمية اصبروا فهذا يومكم الذي كنتم توعدون، و لم تأخذوا له أهبته. فضربوا بالخشب والعمد والأيدي والأرجل حتى رضوا جميعاً.

قالوا: ورأى خفاف بن منصور فرساً لسليمان بن داود بن عبد الله بن مروان فأعجبه فقال: لمن هذا الفرس؟ فأخبر مولى لسليمان سليمان بذلك، فبعث إليهبالفرس فقال: ما كنت لأقبله ولكن قل لصاحبك إحذر أصحابنا، فحضر يومئذ فقتل. وقتل الغمر بن يزيد وقد ذكرنا خبره، وقتل إبراهيم بن مسلمة بن عبد الملك.

وبعث عبد الله بن علي إلى البلقاء من قتل سليمان بن يزيد بن عبد الملك أخا الوليد المقتول، وبعث عبد الله بالرؤوس إلى أبي العباس مع سلمة بن محمد الطائي، والوثيق بن زفر.

وكتب إلى عثمان بن عبد الأعلى بن سراقة وهو بدمشق: إذا ورد عليك الوثيق فاقتله واجعل رأسه مع الرؤوس، وانفذ بها سلمة بن محمد وجماعة معه يحفظونها، فإن بني أمية أرادوا نقض ما جعل الله لنا في أعناقهم فألحقتهم بأمهم الهاوية، والنار الحامية.

وحدثني هشام بن عمار عن أبيه قال: لم يوجه عبد الله بن علي الوليد بن معاوية بن مروان بن عبد الملك بن مروان حين أخذه بدمشق إلى أبي العباس، ولكنه بعث بأخيه زيد بن معاوية، فقتله أبو العباس وصلبه بالكوفة.

وقتل ابن علي الوليد وبعث برأسه إلى امرأته، وهي ابنة مروان بن محمد، فقالت: والذي ابتلاني بقتله ما تبينت صورة وجهه قط، وقال المدائني: كان يقال إنه من فتيان قريش.

وأما عبد الواحد بن سليمان بن عبد الملك فقتله صالح بن علي، دخل عليه وصالح يقرأ، ورجل يأخذ عليه في مصحف، فقال له: ما منعك من إتيان أمير المؤمنين؟ قال: كتاب أمير المؤمنين. فقال للذي كان يأخذ عليه: أطبق المصحف. وأمر به فضربت عنقه.

وقتل أبو العباس سليمان بن هشام وقد كتبنا قصته وسبب قتله.

وقتل أبو العباس زيد بن معاوية بن مروان بن عبد الملك بن مروان وصلبه بالحيرة.

وقال هشام ابن الكلبي: قتل ابن علي بنهر أبي فطرس ثمانين أو نيفاً وثمانين من بني أمية، فقال حفص بن أبي النعمان مولى عبيد الله بن زياد:

أين روقاً عبد شمسٍ أين هم ... أين أهل الباع منهم والحسب

قل لمن يسأل عنهم إنهم ... جثثٌ تلمع من فوق الخشب

احلبوا ما شئتم في صحنكم ... فستلقون صرى ذاك الحلب

قال: ويقال لبني حرب بن أمية، وبني أبي العاص بن أمية: الروقان. والروق: القرن.

وقال ابن الكلبي: صلب عبد الله بن علي عمرو بن سهيل بن عبد العزيز بن مروان الذي كتبنا خبره بالبصرة.

قال: ولما افتتح ابن علي دمشق أسر زيد بن معاوية بن مروان بن عبد الملك بن مروان، وعبد الله بن عبد الجبار بن يزيد بن عبد الملك، فبعث بهما إلى أبي العباس فصلبهما بالحيرة.

وقتل أبو العباس سليمان بن هشام وابنه وصلبهما.

قال: وقال أبو عدي العبلي من بني أمية:

تقول أُمامة لما رأت ... سهادي لدى هجعة النّعّس

أبي ما عراك فقلت الهموم ... طرقن أباك فلا تبلسي

لفقد العشيرة إذ نالها ... سهامٌ من الحدث الموئس

رمتها المنون بلا نصّلٍ ... ولا طائشاتٍ ولا نكّس

أفاض المدامع قتلى كرى ... وقتلى بلوثة لم ترمس

وقتلى بوجٍّ وباللاّبتي ... ن من يثرب خير ما أنفس

وبالزابيين نفوسٌ ثوت ... وقتلى بنهر أبي فطرس

أولئك قومي أذاعت بهم نوائب من زمنٍ متعس

أذلّت جبالي لمن رامها وأنزلت الرّغم بالمعطس

فما أنس لا أنس قتلاهم ولا عاش بعدهم من نسي

فقتله داود بن علي.

وقال بعض الشعراء:

تعساً أمية قد زلّت بكم قدمٌ فأصبح الملك من أيديكم نزعا

ونالها من بني العباس مضطلع بالحمل لو حمّلوها غيره ظلعا

ميراث أحمد كانوا يلعبون به يا ربّ محتصدٍ غير الذي زرعا

المدائني عن عبد الله بن المبارك عن الأوزاعي قال: قال لي عبد الله بن علي: ما ترى فيمن قتلته من هؤلاء؟ قلت: أمنتهم و لم يكن ينبغي أن تقتلهم، قال: فما تقول فيمن قتلت و لم اؤمنه؟ قلت: لو لم تقتلهم كان أحب إلي لك. قال: والله لو كان معنا ثالث من الناس ما رأيت الأحبة.

قالوا: وقتل داود بن علي بالمدينة عبد الرحمن بن عبد الجبار بن عبد الله بن عامر بن كريز.

وحدثني محمد بن سعد عن الواقدي وغيره قالوا: كان إسماعيلبن عمرو بن العاص من عباد الناس وخيارهم وهو صاحب الأعوص فقال عمر بن عبد العزيز: لو أن الأمر إلي لوليتها القاسم بن محمد أو إسماعيلصاحب الأعوص، وعرض له داود بن علي فقيل ليست بك حاجة أن تفزع إسماعيللدعاء عليك فتركه و لم يعرض له، وعرض لإسماعيلبن أمية بن عمرو بن العاص، ولأيوب بن موسى بن عمرو بن سعيد فحبسهما بالمدينة.

وروى ابن أبي سبرة وسليمان بن بلال عن إسماعيلصاحب الأعوص، وقيل لصاحب الأعوص ليالي قدم داود: لو تغيبت. فقال: ولا طرفة عين. و لم يتغيب.

أمر حبيب بن مرة المري

قالوا: وخرج حبيب بن مرة المري بحوران، فكتب ابن علي إلى أبي غانم عبد الحميد بن ربعي الطائي، وعثمان بن سراقة البارقي، وهما بدمشق يأمرهما بالمسير إلى حبيب، فتوجها إليهفغدر أصحاب عبد الحميد به وتفرقوا عنه، وذلك لأنهم كانوا يمانية فقالوا: لم نكن لنقاتل إخواننا، فكسر ذلك سائر الجند فرجعوا إلى دمشق منهزمين، فلما رأى ذلك أهل دمشق بيضوا وخلعوا، فأتاهم حبيب بن مرة فأحاط بالمدينة، فبعث أبو غانم سلمة بن محمد إلى باب الشرقي ومعه عبد الله الطائي فقاتلا أصحاب حبيب، وخرج أبو

غانم من باب الفراديس فمضى، فقال سلمة: غدر أبو غانم، وقاتل سلمة حتى قتل وناس من أصحابه، وطلب أصحاب حبيب أبا غانم ففاقهم بنفسه وما معه من الأموال والأثقال. وأتى بيروت فنزلها، وكتب إلى عبد الله بن علي يخبره، فكتب ابن علي إلى أشراف ربيعة واليمن يعدهم ويمنيهم ويقول: إنكم أنصارنا مذ كانت هذه الدعوة. فاعتزلوا ورجعوا وخلوا بينه وبين مضر.

وخرج أهل دمشق، وهم زهاء ثمانين ألفاً، فعسكروا يريدون قتال عبد الله بن علي، فلما نزعت اليمانية والربعية عن الحرب رجعوا وانكسروا.

وأتى عبد الله بن علي دمشق فكلم فيهم. وقيل إنه لم يكن لهم ذنب فأمنهم، ثم ارتحل في المحرم سنة ثلاث وثلاثين إلى حبيب بن مرة بحوران، فالتقوا فهرب حبيب إلى البادية ويقال بل هرب حين شارف ابن علي.

وفتح عبد الله حوران، ودخلها لعشر بقين من صفر سنة ثلاث وثلاثين ومائة، وقدم على عبد الله بن علي محمد بن خالد القسري، ومعن بن زائدة بفتح واسط، وقتل يزيد بن عمر بن هبيرة، ورجع أبو غانم بما حمل إلى دمشق، ودس لحبيب فقتل.

وكان قتل مروان بن محمد بن سنة ثلاث وثلاثين ومائة، وله تسع وستون سنة، فكانت ولايته خمس سنين.

تم أمر آل أبي العاص

ولد أبي عمرو بن أمية

ولد أبو عمرو بن أمية

أبا معيط، واسمه أبان، وأمه آمنة بنت أبان بن كليب بن ربيعة.

ومسافر بن أبي عمرو.

وكميم بن أبي عمرو. ولا عقب لكميم.

وأبا وجزة واسمه تميم.

وزينب، وصفية، أمهم ريطة بنت الحويرث. ثقفية.

وقال أبو اليقظان: يزعمون أنه عبد كان يسمى ذكوان، فاستخلفه أمية فكناه أبا عمرو فخلف على آمنة بعد أمية، وقال: بمكة دار نسبت إلى كميم ولا عقب له.

فأما أبو وجزة فله عقب ولهم أموال بالبصرة.

وأُسر الحارث بن أبي وجزة يوم بدر، وسمعه عمر بن الخطاب بعد ذلك يمدح خالد بن الوليد فقال له: يا بن أبي وجزة لا يسمعن هذا خالد منك فإنه يحب الفخر، وحب الفخر مفسدة في الدين.

وأما مسافر بن أبي عمرو فكان من فتيان قريش جمالاً وسخاء وشعراً، وكان نديماً لأبي طالب بن عبد المطلب، وكان أتى الحيرة حين اتهم بامرأة يقال لها هند هارباً فأصابته الدبيلة من شربه الخمر صرفاً، ويقال لما ناله من الأسف إذ لم ينلها، فكواه رجل فضرط الكاوي فقال مسافر: قد يضرط العير والمكواة في النار.

ثم خرج متوجهاً إلى مكة فمات بهبالة، فقال أبو طالب حين جاءهم نعيه:

ليت شعري مسافر بن أب	ي عمروٍ وليت يقولها المحزون
رجع الركب سالمين جميعاً	وخليلي في مرمسٍ مدفون
بورك الميت الغريب كما بو	رك صنو الريحان والزيتون
ميت صدقٍ على هبالة قدحا	لت فيافٍ من دونه وحزون
مدره يدفع الخصوم بأيدٍ	وبوجهٍ يزينه العرنين
ربّ خالٍ رزئته وابن عمٍّ	وخليل أتت عليه المنون
فتعزّيت بالجلادة والصّب	ر وإني بصاحبي لضنين

ويقال إن هذا الشعر لضرار بن عبد المطلب، والثبت أنه لأبي طالب.

وزعم قوم أنه كان قد زوج هذه المرأة فلم تهد إليه، وكان بينهما شيء فهرب إلى الحيرة.

وقال مسافر حين زوجت:

ألا إنّ هنداً أصبحت منك محرماً	وأصبحت شيخاً من حموّتها حما
وأصبحت كالمسلوب جفن سلاحه	يقلّب بالكفّين قوساً وأسهما

ولما مات مسافر نادم أبو طالب عمرو بن عبد ود، فلما بارزه علي عليه السلام قال له: إن أباك كان لي صديقاً.

وقال مسافر:

غشيت الدار موحشةً	فلم تؤنس بها أحدا
عفت آياتها إلا	أواريّاً ومنتضدا

وأشعث ماثلاً خلقاً — وسعفاً حوله ركدا

لهند إنّ ذكراها — يهيج لقلبك الكمدا

ملكت فاسحجي وعدي — ومنّينا غداً فغدا

فإنّا معشر أُنفٌ — نقيم الدّرء والصّيدا

ورثنا المجد عن آبائن — نا فسموا بنا صعدا

وقال مسافر لأبي أحيحة:

تمتّ إلى الأقصى بثديك كله — وأنت على الأدنى صروم مجدّد

فإنك لو أصلحت من أنت مفسدٌ — تودّدك الأقصى الذي تتودّد

أخوك الذي إن تجن يوماً عظيمةً — يبت ساهراً إذ سائر الناس رقد

وإنّ ابن عم المرء يحمي ذماره — ويمنعه حين الفرائص ترعد

وقال عمارة بن عقبة:

خلق البيض الحسان لنا — وجياد الرّيط والأُزر

كابراً كنا أحقّ به — حين صيغ الشمس القمر

فقال مسافر:

أعمار بن الوليد وقد ي — ذكر الشّعار من ذكره

هل أخو كاس مخفضها — وموقٍّ صحبه شكره

ومحيّيهم إذا شربوا — ومقلٍّ فيهم هذره

خلق البيض الحسان لنا — وجياد الرّيط والحبره

كابراً كنا أحقّ به — كلّ حيٍّ تابع كبره

وقال مسافر يهجو سعيد بن العاص أبا أحيحة:

فنحن البيض أشبهنا قصياً — وأنتم شبه أستاه المزاد

نسبه إلى السواد.

وقال أبو اليقظان: مات مسافر بالحيرة، وموته بهبالة أثبت، وكان عقبة بن أبي معيط بن أبي عمرو بن أمية مطعاماً للطعام. قال الشاعر:

من سرّه شحم ولحم داهن — فليأت جفنة عقبة بن أبان

وقال ضرار بن الخطاب:

عين بكّي لعقبة بن أبان   قرم فهرٍ وفارس الفرسان

وكان عقبة من أشد الكفار على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأُسر عقبة يوم بدر فأمر علياً فقتله صبراً بعرق الظبية، وقد كتبنا خبره في أول كتابنا.

وكانت لأبي معيط ابنتان: حكيمة وصفية وأمهما سالمة بنت أمية بن حارثة بن الأوقص السلمي.

فولد عقبة بن أبي معيط

الوليد بن عقبة. وخالد بن عقبة. وهشام بن عقبة. وعمارة. وأم كلثوم، وأم حكيم، أمهم أروى بنت كريز بن ربيعة بن حبيب بن عبد شمس.

وأبان بن الوليد. ويعلى بن الوليد. وعثمان.

فأما أم كلثوم فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يخرجها معه في المغازي فتداوي الجرحى ويضرب لها سهماً، وصافح رسول الله صلى الله عليه وسلم يدها بيده وبين يدها ويده ثوب، وخطبها إلى عثمان على زيد بن حارثة مولاه فتكره ذلك عثمان وأباها فأخبرها فقالت: لو أمرني رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أتزوج زنجياً عظيم المشافر محدد الأسنان لفعلت. فتزوجها زيد فقتل عنها، فتزوجها عبد الرحمن عوف الزهري فهلك عنها فتزوجها الزبير بن العوام، ثم طلقها الزبير فتزوجها عمرو بن العاص وكانت معه بمصر.

وحدثني مصعب بن عبد الله قال: هاجرت أم كلثوم بنت عقبة إلى المدينة في الهدنة بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وقريش، فأراد أن يردها فقالت: أتردني يا رسول الله إلى المشركين فيفتنوني عن ديني؟ فأنزل الله عز وجل: "إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات". الآية. فلم يدفعها وزوجها زيد بن حارثة.

وولى عثمان الوليد الكوفة فشهد عليه بشرب الخمر فحد، وقد كتبنا خبره، وكان يكنى أبا وهب، وكان النبي صلى الله عليه وسلم بعثه إلى بني المصطلق مصدقاً فأتاه فقال: منعوني الصدقة كاذباً، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بغزوهم فنزلت: "يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين".

ووقع بين الوليد وبين علي بن أبي طالب كلام في أمر هذه الدعوة التي ادعاها على بني المصطلق أو غير ذلك فقال: لأنا بالكتيبة وأضرب لهامة البطل المشيح منك. فأنزل الله عز وجل: "أفمن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً لا يستوون".

وتوفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو وال على عمل كان ولاه إياه، ولما استخلف عمر بن الخطاب ولاه صدقة تغلب فقال وكان شاعراً:

إذا ما شددت الرأس مني بمشوذٍ فويلك مني تغلب ابنة وائل

فعزله. وكان جواداً سخياً. وفيه يقول أبو زيد الطائي:

بحمد الله ثم فتى قريشٍ أبي وهب غدت غلباً غرارا

وقال الحطيئة:

أبى لابن أروى خلّتان اصطفاهما قتال إذا يلقى العدو ونائله

فتىً يملأ الشيزي ويروي بكفه سنان الردينيّ الأصمّ وعامله

وغزا الوليد أيام ولايته الكوفة آذربيجان فصارت إليهجارية خزرية، فقالت له يوماً ورأت فرساً جواداً: احملني على هذا الفرس. ففعل، فركضت ومضت فلم تلحق، وكانت حاملاً فجاء فتى إلى ولد الوليد فادعى أنه ابن الوليد من الخزرية، وذكر أنه نشأ بالباب والأبواب من أرمينية، فأنكروه ونفوه فكان يسمى الدعي، واسمه الحارث، ويقال عقبة. فقال لعمرو بن الوليد المعروف بأبي قطيفة:

يا عمرو يا بن أبي تلافوا أمركم حتى متى ترمي بي الرجوان

يا ليت حظي من تراث أبيكم أن ترفعوا لي نسبتي ومكاني

وقال الحارث الدعي ليعلى بن الوليد بن عقبة:

كأنّ على مفارق رأس يحيى خنافس موّتت زمن البطاح

وللوليد أشعار كتبناها في مواضع من هذا الكتاب، ولما احتضر قال وهو بالبليخ: اللهم إن كان أهل الكوفة صدقوا علي فلا تلق روحي روحاً ولا ريحاناً، وإن كانوا كذبوا علي فلا ترضهم بأمير، ولا ترض عنهم أميراً، وانتقم لي منهم، واجعل قولهم كفارة لما لا يعلمون من ذنوبي.

وزار الوليد معاوية بالشام فقال له: يا أبا وهب ألست أكثر قريش مالاً؟ قال: بلى. قال: فخرج وأنشأ يقول:

أعفّ وأستغني كما قد أمرتني فأعط سوائي ما بدا لك وابخل

سأصرف عنك الرّكز إن سجيتي إذا رابني ريبٌ كسلّة منصل

وإنّي امرؤٌ في الدار مني تطرّبٌ وليس شبا قفل عليّ بمقفل

ثم أتى الرقة فمات بها، وقال بعضهم: نزل الوليد بالرقة فلم يأت صفين.

وحدثني محمد بن سعد عن الواقدي قال: اعتزل الوليد علي بن أبي طالب ومعاوية، وأقام بالرقة حتى مات بها أو بالبليخ.

وقال أبو اليقظان: أعجبته البليخ فقال: منك المحشر فمات بالبليخ.

وولد الوليد بن عقبة: عمرا، كان يكنى أبا قطيفة وكان شاعراً.

وقال مصعب: كني أبو قطيفة بهذه الكنية لأنه كان كثير شعر الرأس والوجه والجسد، وسيره ابن الزبير من المدينة إلى الشام مع بني أمية فقال:

ليت شعري وأين مني ليتٌ هل على العهد يلبن فبرام

أم كعهدي البقيع أم بدّلته بعدنا المعصفات والأيام

خشيةً أن يصيبهم حدث الده ر وحرب يشيب منه الغلام

وبقومي بدّلت كلباً ولخماً وجذاماً وأين مني جذام

وقال أبو قطيفة:

بكى أحدٌ إن فارق اليوم أهله فكيف بذي وجدٍ من القوم آلف

من أجل أبي بكر جلت عن بلادها أمية والأعلام عوجٌ عواطف

وذكره ابن القلمس الكناني فعابه عند عبد الملك فقال:

أنبئت أنّ ابن القلمّس عابني ومن ذا من الناس البرئ المسلّم

تبيّن سبيل الرشد سيد قومه فقد يبصر الرشد الرئيس المعمّم

فمن أنتم إنّا نسينا من انتم وقد جعلت أشياء تنسى وتكتم

فولد عمرو بن الوليد وهو أبو قطيفة: ذا الشامة، وهو محمد، وأمه ابنة أسماء بن خارجة، وكان صاحب قرآن، ومن قرآنه إن الباقر تشابه علينا وكان به شامة، وولاه مسلمة بن عبد الملك الكوفة، فرماه أهلها بالزندقة، وقدم ذو الشامة على يوسف بن عمر، فأمر له بألف دينار فردها وقال:

قد قلت حين تيّممت وبدا لها قصد السبيل

قبح الإله قرابةً ترجى من آل أبي عقيل

قومٌ إذا ما جئتهم بالحقّ والنسب الأصيل

لم يرغبوا أو يرهبوا يوماً رجعت بلا فتيل

وإذا أردت نوالهم منهم فيعدل ألف ميل

وأما خالد بن عقبة

فاستقضاه مروان بن الحكم على المدينة في أيام معاوية، فوثب غلمان لسعيد بن عثمان عليه فقتلوا سعيداً، فقال عبد الرحمن بن سيحان حليف بني أمية:

يلومونني في الدار إن غبت عنهم وقد فرّ عنهم خالدٌ وهو دارع

وقال خالد:

لعمري لقد أبصرتهم فتركتهم بعينيك إذ ممشاك في الدار واسع

فولد خالد: خالداً ولقب أُجيح، ويكنى أبا العباس، وفيه يقول عبد الله بن الحجاج الغطفاني:

كأني إذ دخلت على أُجيحٍ دخلت على مقوقيةٍ تبيض

إوزّة غيطة لقحت كشافاً لقحقحها إذا ربضت نقيض

فإن يعرض أبو العباس عني ويرمي بي عروضاً عن عروض

ويجعل ما له بخلاً لغيري ويبغضني فإني من بغيض

فإن بمصر عبد الله يأسو ويجبر عظم ذي الكسر المهيض

عبد الله هو ابن عبد الملك بن مروان.

ومن ولد خالد بن عقبة

هشام. ولي الصائفة زمن الوليد بن عبد الملك وفي الجيش عمر بن عبد العزيز.

قالوا: ولما خرج مروان بن الحكم من المدينة قال خالد بن عقبة:

فوالله ما أدري وإني لسائل تعاجزت يا مروان أم أنت عاجز

فررت ولمّا تغن شيئاً وقد ترى بأن سوف ينثو الفعل حادٍ وراجز

فأجابه عبد الرحمن بن الحكم بن أبي العاص فقال:

أخالد أكثرت الملامة والأذى لقومك لما هزهزتك الهزاهز

أخالد إنّ الحرب عوصاء مرّةٌ لها كفلٌ نابٍ عن الكفل ناشز

يعجزّ مولاك الذي لست مثله وأنت بتعجيز امرئ الصدق عاجز

هو المرء يوم الدار لا أنت إذ دعا إلى الموت يمشي حاسراً من يبارز

وقال ابن الكلبي: نزل خالد الجزيرة، فولده بها اليوم.

قال: وأبو قطيفة الذي يقول:

ألا ليت شعري هل تغير بعدنا بقيع المصلّى أو كعهدي القرائن

أم الدور أكناف البلاط عوامرٌ كما كن أم هل بالمدينة ساكن

لعل قريشاً أن تريع حلومها ويزجر بعد الشؤم طير الأيامن

وأما عمارة بن عقبة بن أبي معيط، فإنه كان مقيماً بالكوفة، وبها ولده، وله يقول أخوه الوليد بن عقبة:

فإن يك ظنّي يا بن أمي صادقاً عمارة لا تطلب بذحل ولا وتر

وقد ذكرنا هذا الشعر في موضع آخر.

ومن ولده: أم أيوب، وأم نافع، أمهما ابنة هانئ بن قبيصة. فأما أم أيوب فكانت عند عبيد الله بن زياد، وكانت أم نافع عند زياد بن أبي سفيان.

وقال ابن الكلبي: ولى عبد الملك أبان بن الوليد بن عقبة حمص وقنسرين، وولى عثمان بن الوليد بن عقبة أرمينية.

وقال ابن الكلبي: كان الذي ذهب برأس يزيد بن المهلب إلى الشام خالد بن خالد بن الوليد بن عقبة.

وقال ابن الكلبي:

ولد هشام بن الوليد

معاوية.

فولد معاوية: هشام بن معاوية بن هشام بن الوليد، وهو أبو يعيش. ولي الصوائف في زمن الوليد بن عبد الملك.

قال ابن الكلبي: قدم عقفان بن قيس بن عاصم، أو متمم بن نويرة المدينة، فترل على أروى بنت كريز فأكرمته فقال:

خلّف على أروى سلاماً فإنما جزاء الثواء أن تعفّ وتحمدا

سلاماً أتى من وامقٍ غير عاشقٍ أراد رحيلاً ما أعفّ وأمجدا

وكان جساس المعيطي من ولد عمارة، ويكنى أبا الوليد، واسمه عمارة، شيخاً ماجناً تملأ لحيته صدره، وكان يخضب، فمر ومعه صديق له بين منازل أبي معيط فقال لصديقه: ما أشد الحر يا أبا الوليد. قال: أو

ما تعلم أنك بين منازل الصبية الذي أوجب لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم النار؟.

ورأى امرأة قد ضربت الحد، وقد حملت على حمار، وهي تنادي على نفسها: من رآني فلا يزني. فدنا منها ثم قال: أي زانية، إنك إذاً لمطاعة.

ومر بخمر قد صبت، وطنبور قد كسر، فقال: اللهم غير ما ترى.

وبات مع قوم من أهل الكوفة، فلما ناموا قام إلى غلام له ملتح ليفسق به، فلم يخل بينه وبين ذلك، وقال له: أما تستحي من الناس، ثم صار إلى غلام له آخر فطاوعه على ما أراد، فلما أصبح اشتري أثواباً فجعل يقطع لنفسه منها ثوباً ولغلامه الذي طاوعه ثوباً، فقال له الغلام الذي التوى عليه: فأنا مالي؟ قال: أنت يا بني تتكلم في النوم.

قال ابن الكلبي: وكان يقال للوليد بن عقبة: الأشعر بركا، وكان كثير شعر الصدر والجسد، والبرك: الصدر.

وقال الكلبي: كان سعيد بن عبد العزيز بن خدينة على خراسان من قبل مسلمة، وكان مقيماً بهراة فيما ذكر بعضهم، وكان عبد الملك بن بشر بن مروان من قبله على البصرة. وكان ذو الشامة محمد بن عمرو أبي قطيفة بن الوليد بن عقبة من قبله على الكوفة. فقال الفرزدق حين عزل مسلمة:

عزل ابن عمرو وابن بشر قبله ... وأخو هراة لمثلها متوقع

قال الحرمازي: قال هراة و لم يقل خراسان لضرورة الشعر.

ومن بني سفيان بن أمية

الأكبر بن عبد شمس

حكيم بن طليق بن سفيان بن أمية وكان من المؤلفة قلوبهم، أعطاه رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم حنين مائة من الإبل. وكان لسفيان ابن يقال له: المهاجر، فهلك.

وكان سفيان أحد من تعلم الخط العربي من بشير أخي أُكيدر السكوني في الجاهلية، وعلمه غيلان بن سلمة الثقفي، وله ابنة تزوجها المغيرة بن زياد بن سمية، ويقال زياد نفسه، فدرج عقب سفيان.

وقال الكلبي: كان لسفيان من الولد لصلبه: طليق، والحارث، وحمنه، وهي أم سعد بن أبي وقاص.

ومن بني أبي سفيان بن أمية:

سفيان بن أمية بن أبي سفيان بن أمية الذي ذهب بموت علي بن أبي طالب إلى الحجاز. ولا عقب له.
وأما عمرو بن أمية فولد: يزيد. وأمه أم قتال بنت عبد الله بن الحارث بن زهرة. درج ولا عقب لعمرو بن أمية.
وأما أبو حرب بن أمية فلا عقب له.

ولد حبيب بن عبد شمس

وأما حبيب بن عبد شمس فولد: ربيعة. وأمه فاطمة بنت الحارث بن شجنة.
وقال أبو اليقظان: أمه فاطمة بنت عد بن أبي الحارث من عدوان.
وسمرة بن حبيب لأم ولد سوداء يقال لها زبيبة. وأخوه لأمه أبو جمعة جد كثير بن عبد الرحمن بن أبي جمعة الشاعر.
وعمراً، وأمه من بني سهم.
فأما سمرة بن حبيب فولد: عمراً. وأمه ريطة بنت عثمان بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم.
وعبد الرحمن بن سمرة. وأمه كنانية.
فأما عمرو بن سمرة فقطعه النبي صلى الله عليه وسلم في سرقة. وولده يترلون البصرة، منهم: معاوية بن معاوية السمري. أمه من ولد زياد بن سمية. وكان من وجوه قريش وذوي المروءة منهم، وهلك بالبصرة وله عقب.
وأما عبد الرحمن بن سمرة فكان يسمى عبد كلال. فسماه رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الرحمن، وقال له النبي صلى الله عليه وسلم: يا عبد الرحمن لا تطلب الإمارة فإنك إن أُتيتها من غير مسألة أُعنت عليها، وإن أُتيتها عن مسألة وكلت إلى نفسك فيها.
وكانت له صحبة للنبي صلى الله عليه وسلم، وولاه عبد الله بن عامر سجستان فافتتحها. وكان متواضعاً فإذا كانا ليوم المطير أخذ مسحاة وكسح الطريق.
وافتتح كابل، ونزل البصرة، وبنى بها مترلاً على بناء كابل، وقد حدث عنه، ومات بالبصرة فحضر جنازته أبو بكرة، فسمع قائلاً يقول: رويدكم بالجنازة فعلاه بسوطه وقال: لقد كنا نهرول بها على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم هرولة.

فولد عبد الرحمن:

عبيد الله بن عبد الله بن عبد الرحمن بن سمرة، وكان أعور، وكان من رجال قريش، وكان مع عبد الملك بن مروان، فلما خرج عبد الرحمن بن الأشعث خرج معه ابناه فقال لعبد الملك: ائذن لي حتى أخرج فأراد ابني، فأذن له فلحق بابن الأشعث فولاه البصرة. وقال فيه الشاعر:

يا أعور العين فديت العورا لا تحسبنّ الخندق المحفورا

يدفع عنك القدر المقدورا

ثم هرب فأتى خراسان فقال المثنى بن عبيد الأزدي:

وتثعلب الروّاض بعد مزاحه وانسلّ بين غرارتين الأعور

الرواض: عبد الرحمن بن العباس الهاشمي، من بني الحارث بن عبد المطلب، وكان يركب البغال فيروضها.

ولما بلغ الحجاج أنه بخراسان تخوف أن يؤمنه عبد الملك، فبعث إلى قتيبة بخرقة وقطنة وتراب وزبيبة فقال قتيبة: يأمرني أن أقتل ابن زبيبة وهذا كفنه ولباسه في تربته. فأخذه فقتله. وزبيبة أم سمرة.

وقتل الحجاج ابنه عتبة بن عبيد الله بن عبد الرحمن بن سمرة بواسط، وهو صاحب درب ابن سمرة بالبصرة.

وكان ولد عبيد الله: أبا بكر وهو عتبة، وعثمان، وكانا خرجا مع ابن الأشعث. ولأبي بكر عقب بالبصرة.

وأما ربيعة بن حبيب بن عبد شمس فولد: كريزاً وأمه خزاعية.

فولد كريز: عامر بن كريز. وآمنة، وأروى. وأم طلحة وهي أرنب. أمهم البيضاء بنت عبد المطلب، وهي أم حكيم.

والحارث لأم ولد سوداء، وشهل بن كريز، وعبيس بن كريز، أمهما من عبد القيس، ويقال أم ولد.

وفاختة. أمها هند بنت جدعان أخت عبد الله بن جدعان.

فأما أروى فتزوجها عفان بن أبي العاص بن أُمية، فهي أم عثمان بن عفان. ثم خلف عليها عقبة بن أبي معيط.

وأما أم طلحة وهي أرنب فتزوجها عامر بن الحضرمي.

وأما آمنة فتزوجها الحكم بن كيسان حليف بني المغيرة، ثم عبد الله بن أبي سعيد، أو سعيد حليف بني أمية بن المغيرة.

وأما فاختة فتزوجها أبو العاص بن نوفل بن عبد شمس.

وأما عامر بن كريز فكان مضعوفاً، وأتى عبد المطلب فمسه فقال: وأعظم هاشم، ما ولد في بني عبد مناف مولود أحمق منه. وفيه تقول أم حكيم:

إذا ذكّرت أمرك عام عندي | أبيت بليلةٍ وصلت بشهر
فلم تشبه أباك ولا أبانا | ولكن أنت هذرٌ غير صفر
فلم آتيه سائلةً لشيءٍ | ولا أدعو له أبداً بغفر

فولد عامر: عبد الله. وأم رافع. أمهما: دجاجة بنت أسماء بن الصلت بن حبيب بن حارثة بن سماك السلمي، وأمها: أميمة بنت الأخنس سلمية.

وأبا الصهباء. أمه رومية.

فأما أم رافع فتزوجها عبد الله بن الأسودبن عوف الزهري.

وأما أبو الصهباء فكانت عنده أم حبيب بنت زياد، فولدت له، وله عقب بالبصرة.

وأما عبد الله بن عامر بن كريز بن ربيعة بن حبيب بن عبد شمس، فإن أباه عامر أتى به النبي صلى الله عليه وسلم فحنكه، وقال: هذا أشبه بنا منكم فتثاءب فتفل في فيه فازدرد ريقه، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: إني لأرجو أن يكون مسقياً.

وكان يكنى أبا عبد الرحمن، واستعمله عثمان بن عفان على البصرة وأعمالها، فافتتح اصطخر، وجور، وكوراً من فارس، وخراسان وسجستان، وكابل، واتخذ النباج في طريق مكة، وغرس بها نخلاً وحفر آباراً وعمر منازل واتخذ حياضاً، واتخذ بعرفات حياضاً وسقايات، واتخذ بالبصرة بالنجيب قصراً يعرف بقصر ابن عامر، وحفر بالبصرة نهرين أحدهما في السوق والآخر الذي يعرف بأم عبد الله، وغرس عليهما غراساً كثيراً.

وأمر ابن عامر زياداً- وقد استخلفه على البصرة- أن يحفر نهر الأبلة فحفره.

وكان ابن عامر مسقياً لو مس صخرة لأماهها- أي أخرج منها الماء- وقال ابن عامر: لو كنت تركت لخرجت المرأة في حداجها على دابتها، ترد كل يوم على ماء، وسوق حتى ترد مكة.

وكان ابن عامر أجود العرب وأسخاهم وأكرمهم. أعطى في ولاية البصرة أربعة وثمانين ألف ألف درهم أجاز بها.

وسأل الوليد بن عقبة مروان وهو على المدينة فأعطاه عشرة آلاف درهم فلم يقبلها، ومر بالمغيرة بن شعبة

فأعطاه عشرين ألفاً على يد ابنه عروة، وأما ابن عامر فشكا إليهدينه فقضاه عنه، وكان دينه مائة ألف، ووهب له مائة ألف أخرى. فقال:

ألا جعل الله المغيرة وابنه ومروان نعلي بذلة لابن عامر

لكي يقياه الحرّ والقرّ والأذى ولدغ الأفاعي واحتدام الهواجر

يفيض الفرات للذين يلونه وسيبك مالي كل بادٍ وحاضر

وكان يقال: أفلح سائل ابن عامر. وقال الراجز لابنه عبد الأعلى:

يا بن الذي أفلح عفواً سائله وأنجحت لما أتى وسائله

المدائني عن مسلمة عن الجارود بن أبي سبرة قال: أحرم عبد الله بن عامر من نيسابور شكراً لله، فأحدث السقايات بعرفات وعمر النباج، قال: فالنباج يعرف بنباج ابن عامر.

وقال أبو السنابل بن عبد الله:

أنا ابن مصدّر الحجاج ريّاً بمائهم وألبان اللقاح

وكان إذا أصاب الناس جهد يباري الريح من فضل السماح

فلما قتل عثمان أتى مكة فقدم مع طلحة والزبير وحضر يوم الجمل فقتل ابنه عبد الرحمن، ثم لحق بدمشق فقال الشاعر:

أتاني من الأنباء أن ابن عامر أناخ وألقى في دمشق الرواسيا

فلما ولي معاوية الخلافة، ولى عبد الله بن عامر البصرة وأعمالها، وكان عقده عليها بالنخيلة بالكوفة، وزوج معاوية ابن عامر هند ابنة معاوية، وكانت ولايته لمعاوية خمس سنين، ثم عزله معاوية واستعمل الحارث بن عبد الله الأزدي، ثم استعمل زياداً فتحامل على ابن عامر.

ثم ولى عبيد الله بن زياد فأضر به في موإليهوأمواله ودوره وأنهاره، ثم أتى مكة فمات بها ودفن بعرفات، وأوصى إلى ابن الزبير.

وقال الواقدي: لما فتح رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة أتي بعبد الله بن عامر وهو ابن خمس أو ست فقال: إن شبهنا لفيه. وتفل في فمه وقال: لو أنه قدح حجراً أماهه.

قالوا: قدم الأحنف البصرة من خراسان على فرسه الذي أبدى عليه وبغله الذي عليه ثقله إلا أن معه شيئاً سوى ذلك أتى به ابن عامر فقال: هذا شيء ذكر لي انه هدية النوروز، فقال عبد الله بن عامر: هو لك. قال: لا حاجة لي فيه. قال: فلابنك. قال: ما كنت أرضى له إلا بما أرضى لنفسي. قال الحسن: فضم ذلك إليهرجل مضم. قالوا: وأراد معاوية أن يصطفي أموال ابن عامر، فقال ابن عامر: قال رسول الله

صلى الله عليه وسلم: المقتول دون ماله شهيد، والله لأقاتلنه حتى أُقتل دون مالي. فأعرض عنه معاوية.

وقال أبو الأسودفي ابن عامر وعيب عليه:

ألم تر ما بيني وبين ابن عامر   من الودّ قد بالت عليه الثعالب

فأصبح باقي الود بيني وبينه   كما لم يكن والدهر جمّ العجائب

فما أنا بالباكي عليه صبابة   ولا بالذي تأتيه عني المثالب

إذا المرء لم يحببك إلا تكرهاً   بدا لك من أخلاقه ما تجانب

وقال المدائني: كانت هند بنت معاوية أبر الناس بابن عامر، فجاءته يوماً بالمرآة والمشط وكانت تولي خدمته نفسها. فنظر في المرآة فالتقى وجهه ووجهها في المرآة، فرأى شبابها وجمالها ورأى الشيب في لحيته قد ألحقه بالشيوخ فرفع رأسه إليها وقال: الحقي بأهلك وأبيك، فانطلقت حتى دخلت على أبيها فأخبرته فقال: وهل يطلق الحر حر؟! فأرسل إليه: أكرمتك بابنتي فرددتها علي. فقال: إن الله من علي بفضله وجعلني كريماً لا أحب أن يتفضل أحد علي، وإن ابنتك من أكرم صاحبة وقد أعجزتني مكافأتها لحسن صحبتها، ونظرت فإذا أنا شيخ وهي شابة لا أزيدها مالاً إلى مالها ولا شرفاً إلى شرفها، فرددتها عليك لتزوجها، وكان رجلاً سخياً كريماً.

وقال النابغة:

فيا ليت من يأتي ابن هند بحاجتي   ومروان والأقباء تهدى وتجلب

يخبّر عني ما أقول ابن عامرٍ   فنعم الذي يأوي إليهالمصعّب

كريم ينال الصالحين نواله   ويروى بكفيه السّنان المجرّب

وقال أبو الأسود:

يا خليلي ما الذي غيّر لي   ودّه والنصح حتى ودّعه

لا تهنّي بعد أن أكرمتني   فشديدٌ عاده منتزعه

وقال ابن عامر لعبد الله بن عمر: اتخذت مصنعة كذا، وحفرت بئر كذا، وسقيت الناس الماء بمكان كذا، فقال له ابن عمر: إذا طابت المكسبة زكت النفقة، وسترد فتعلم.

وقال ابن الأعرابي: حدثني سعيد بن سلم عن أبيه قال: تخاصم رجلان من قريش إلى مروان بن الحكم بالمدينة في مال، فقال لبعض حرسه: انطلق بهما إلى عبد الله بن عامر وقل له: انظر في أمر ابن عميك،

فقال: ما قيمة ما تتنازعان فيه؟ قالا: عشرة آلاف دينار. قال: أيعجز مروان أن يغرم عشرة آلاف دينار في إصلاح بينكما. فغرمها، فقال مروان: أردنا أن نفضحه ففضحنا.

فولد عبد الله بن عامر

عبد الرحمن الأكبر. وعبد الله الأعمى. وعبد الملك. أمهم كبيشة بنت الحارث بن كريز.

وعبد الحكيم. وعبد الواحد الأكبر. وأمهم أم حبيب بنت سفيان، كنانية.

وعبد الحميد الأصغر. وعبد العزيز. أمهما من بني المطلب بن عبد مناف.

وعبد العزيز. وعبد المجيد لأم ولد.

وأبا النضر واسمه عبد الرحمن لأم ولد.

وعبد الجبار لأم ولد. وعبد ربه. وأم كلثوم وأمهما أمة الله من بني عدي بن كعب. وكانت أم كلثوم عند يزيد بن معاوية. وفيها يقول:

إذا ظللت على الأنماط متكئاً ... بدير مروان عندي أم كلثوم

وأم رافع. وزينب، وكان أبان بن عثمان بن عفان تزوجها. وأمهما ثقفية. وأمة الحميد وأمها هند بنت سهيل بن عمرو. وأم عبد الملك، أمها هند بنت أبي العاص بن نوفل بن عبد شمس، تزوجها عبد الرحمن بن عتاب بن أسيد بن أبي العاص بن أمية.

وعبد الكريم. وعبد الرحمن أبا السنابل لأم ولد.

وعبد السلام أمه من بني عبد الدار.

فأما عبد الرحمن بن عبد الله فقتل يوم الجمل ولا عقب له.

وأما عبد الله الأعمى فولد: عبد الرحمن. وعبد الأعلى. وأمة الرحمن لأم ولد. وعبد القدير. وعبد الحميد. وعبد الواحد. وعبد الجبار. وحميدة. وأمهم خزاعية، وعبد العزيز أمه ابنة الحارث بن نوفل، وأمها هند بنت أبي سفيان بن حرب. وعبد الملك، وأم عبد الله، أمهما من بني عقيل. وعبد الغفار، وأم عبد الملك أمهما من ولد قدامة بن مظعون.

وعبد الله وعبد القدوس أمهما كلبية.

فأما حميدة فكانت عند محمد بن يوسف أخي الحجاج.

وأما عبد الرحمن فكان يترل المدينة وعقبه بها.

وأما عبد العزيز فكان راوية للشعر، وكان يرمى بالكذب. على أنه كان له قدر.

وأما عبد الأعلى بن عبد الله بن عبد الله بن عامر فكان يكنى أبا عبد الرحمن، وكان من أفصح الناس وأسخاهم، وكان شجاعاً، وشهد يوم الزاوية مع الحجاج، ويوم رستقاباذ، وقال فيه رؤبة بن العجاج:

لأهدينّ مدحة لا تبلى إلى ابن عبد الله عبد الأعلى

قد سربل المجد فتى وكهلا

ومات بالبصرة. وكان سخياً، وعقبه بالبصرة كثير.

وقال بلال بن أبي بردة لرجل: أتأتي صديقك اليوم- يعني عبد الأعلى بن عبد الله بن عبد الله- فقال: نعم نأتيه وهو متصبح، ثم ينتبه فيقعد فإن حدثناه أحسن الاستماع، وإن سكتنا ساقطنا أحسن الحديث، ثم يأتي طباخه فيخبره بما عنده مما أعد له ثم يقدمه، ويؤتى من عند نسائه بألطاف فيأكل ويمعن ثم يأكل معنا.

قال: وقال الفضل بن عبد الرحمن بن العباس بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب: لكرم عبد الأعلى وسخاؤه أنصع وأفضل من كرم عبد الله بن عامر، وسعيد بن العاص وسخائيهما، لأن ذينك كانا يعتمدان في إنفاقهما على بيت المال، وهذا يعتمد على صلب ماله.

وولى الرشيد أمير المؤمنين عمر بن عبد الرحمن بن عبد الأعلى بن عبد الله بن عبد الله البصرة، وكور دجلة.

وأما عبد الملك بن عبد الله بن عامر، فكان يقال له قفيز، وولي بعض فارس للقباع وهو الحارث بن عبد الله بن أبي ربيعة أيام الزبير.

وقال ابن الكلبي: ولي البصرة أيام ابن الزبير وولده بالبصرة.

فولد عبد الملك: عبد الكبير. وأم عبد الغفار وأمهما حنفية، وكان البراء بن قبيصة الثقفي خطبها فقال:

أم عبد الغفار هاتي نوالا وصلي حبل عاشق إرسالا

فتزوجها عبد الأعلى بن عبد الله بن عبد الله بن عامر، وولد عبد الملك بالبصرة.

وولد عبد الكريم بن عبد الله بن عامر: عبد الحميد، فولد عبد الحميد: عبيد الله بن عبد الحميد بن عبد الكريم بن عبد الله بن عامر ولقب عبيد الله ترفل، قتله أبو مسلم، وقتل أخاه عبد العزيز بن عبد الحميد بن عبد الكريم، ولترفل يقول ثابت قطنة:

أيذهب هذا الدهر لم نسق ترفلاً وأشياعه الكأس التي صبّحوا جهما

وقد ذكرنا خبر ترفل الذي قيل هذا الشعر فيه مع خبر خدينة سعيد بن عبد العزيز بن الحارث بن الحكم بن أبي العاص، وعبد الحميد بن عبد الكريم بن عبد الله بن عامر هو الذي قتل ابن ناشرة الحنظلي بسجستان، ويقال بل قتله ابنه عبد العزيز بن عبد الحميد.

وقال المدائني عن أبي اليقظان: قتل ابن ناشرة عبد العزيز بن عبد الله بن عامر بن كريز، وكان سبب ذلك أن طلحة الطلحات الخزاعي لما احتضر استخلف رجلاً من بني يشكر على سجستان فأخرجته المضرية، وغلب كل امرئ منهم على ناحية، فكانوا كذلك حتى قدم هذا الكريزي، فاتفقت عليه مضر وصالحوه، فدخل مدينة زرنج وقاتل رتبيل، وعاد المضريون إلى أماكنهم التي كانوا يأكلونها، وأرسل إليهعبد الله بن ناشرة أن خذ ما في بيت المال وانصرف.

وغلب ابن ناشرة على زرنج، وبلغ ذلك وكيع بن أبي سود التميمي فلحقه فرده، وأخرج ابن ناشرة إلى مكانه، ودلف إليهعبد الحميد أو عبد العزيز ابنه ومعه وكيع فتحاربا، وعثر بابن ناشرة فرسه، فاندقت رجله وهزم أصحابه، وقتل فقال أبو حزابة أو حنظلة بن عرادة:

لعمري لقد هدّت قريش عروشنا — بأبيض نفّاح العشيات أزهرا

فلا صلح حتى تنحط الخيل بالقنا — بنا وبكم أو نصدر الأمر مصدرا

ألا لا فتىً بعد ابن ناشرة الفتى — ولا شيء إلا قد تولّى وأدبرا

فتى حنظليٌّ ما تزال يمينه — تجود بمعروف وتنكر منكرا

أكان حصاداً للمنايا ازدرعنه — فهلا تركن النّبت ما كان أخضرا

في أبيات: ولم يزل هذا الكريزي على سجستان حتى قتل مصعب فولى عبد الملك مكانه رجلاً.

وقال الكلبي: هذا الكريزي عبد الحميد.

وقال المدائني: هو عبد العزيز ابنه أخو ترفل.

وقال ابن الكلبي: اسم ترفل عبد الله.

وقال غيره: اسمه عبد الحميد، وقول الكلبي أثبت.

وأما أبو السنابل وهو عبد الرحمن بن عبد الله بن عامر فولد: عبد المجيد، أمه سلمة من ولد أسيد بن عبد العزى. وعبد الله لأم ولد. وأمة الواحد لأم ولد، ولأبي السنابل عقب، وحضر أبو السنابل- وكان شاعرا- سيل الجحاف.

وأما عبد الجبار بن عبد الله بن عامر فولد أولاداً. وكذلك عبد الرحمن بن عبد الله بن عامر. وكذلك عبد الحميد بن عبد الله بن عامر.

وأما الحارث بن كريز، وأمه سوداء فولد: عبد الله. وعثمان، أمهما من بني سامة بن لؤي. وكبشة، أمها عبدرية. فتزوج كبشة مسيلمة الكذاب، ثم تزوجها عبد الله بن عامر.
وأما عيسى بن كريز فولد:
مسلم بن عيسى، وكان له قدر بالبصرة، قتله الخوارج من الأزارقة وقد كتبنا خبره. وحدثني عباس بن هشام ابن الكلبي عن أبيه- وذكره المدائني- قالا: كان يقع بين ابن عامر وبين مروان الكلام فيظفر به ابن عامر، فقال معاوية لعبد الله بن عامر: إنه يكون بينك وبين مروان الشيء فتظفر به. فقال: إنه يجدني عضاً شديد الخصومة. فقال: لو لقيت رجلاً عرفك نفسك. فقال ابن عامر: فكن أنت ذلك الرجل يا أمير المؤمنين. قال: أنا ابن هند بنت عتبة. قال: وأنا ابن أم حكيم بنت عبد المطلب. قال: ارتفعت جداً. قال: وانخفضت يا أمير المؤمنين، فقال معاوية: اذكر دجاجة بنت الصلت. قال: وأنت فاذكر حمامة- وحمامة امرأة من بني غفار نالت معاوية ولادتها وكان يقال فيها.
قالوا: وضعف أمر ابن عامر، فكتب إليهمعاوية في القدوم عليه، وذلك في سنة أربع وأربعين فاستخلف على البصرة قيس بن الهيثم وقدم فرده على عمله، فلما ودعه قال له معاوية: إني سائلك ثلاثاً فقل هي لك. قال: هي لك وأنا ابن حكيم. قال معاوية: ترد علي عملي ولا تغضب. قال: قد فعلت. قال: وتهب لي مالك بعرفة. قال: قد فعلت. قال: وتهب لي دارك بمكة. قال: قد فعلت، قال: وصلتك رحم. فقال ابن عامر: يا أمير المؤمنين إني سائلك ثلاثاً. قال: هي لك وأنا ابن هند. قال: ترد علي مالي بعرفة. قال: قد فعلت. قال: ولا تحاسب لي عاملاً، قال: قد فعلت. قال: وأنكحني هند ابنتك. قال: قد فعلت.
ويقال إن معاوية قال له: اختر بين أن أردك إلى عملك وأحاسبك فاتبع عليك، وبين أن أسوغك ما أصبت وأعزلك. فاختار أن يسوغه ذلك.
المدائني عن مسلمة وغيره قال: كان ابن عامر لين الولاية لا يقطع في ولايته ولا يعاقب، وكان أتوه أحمق. وشكا ابن عامر إلى زياد فساد الناس، فقال: جرد فيهم سيفك. فقال: أصلحهم بفساد نفسي.

بنو ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف

ولد لربيعة بن عبد شمس: عتبة. وشيبة. وريطة. وعاتكة، أمهم خناس من بني عامر بن لؤي.
وأبا عتبة. وصفية. وعاتكة الصغرى. وهالة، وأمهم من بني زهرة يقال لها ضيزنة. فأما هالة فكانت عند الأفقم بن أبي عمرو النصري.
وأما عتبة فكان سيد قريش في زمانه وكان من المطعمين يوم بدر، روي عن عبد الله بن عمر أنه قال: كان عتبة سيد قريش في الجاهلية، وقيل: ماساد قريشاً مملق غير عتبة، وأبي طالب.

وقتل عتبة عبيدة بن الحارث يوم بدر، ويقال إنه شرك في قتله علي بن أبي طالب، ويقال قتله حمزة. وقد كتبنا خبره فيما تقدم.

فولد عتبة: الوليد. قتل يوم بدر. وأبا هاشم بن عتبة وكان صالحاً فقيهاً ومات بالشام. وهاشماً. وآمنة. وأبا الحكم. والمغيرة. وعبد شمس. وهنداً. وفاطمة. وعاتكة. وفاختة، وأمهم من ولد الأوقص السلمي. وأبا حذيفة بن عتبة. وحفص بن عتبة، وأمهما أم حفص ويقال أم صفوان بنت صفوان كنانية. ونعمان. وربيعة، أمهما بره دوسية.

والفارعة.

وقد كتبنا خبر هند بنت عتبة ومن تزوجها، وهي أم معاوية.

وتزوج أم أبان بنت عتبة: يزيد بن أبي سفيان فهلك عنها، فخطبها عمر بن الخطاب فقالت: لا أتزوجه لأنه يدخل عابساً، ويخرج عابساً، يغلق أبوابه ويقل خيره.

ثم خطبها الزبير بن العوام فقالت: يد له على قروني، ويد له في السوط.

ثم خطبها علي بن أبي طالب فقالت: ليس للمرأة منه حظ، إلا أن يقعد بين شعبها الأربع.

ثم خطبها طلحة بن عبيد الله فتزوجها فدخل عليها علي فقيل: رددت هذا وتزوجت ابن الحضرمية؟ فقالت: القضاء والقدر. فقال: أما لقد تزوجت أجملنا أمراً وأجودنا كفاً، وأكثرنا خيراً على أهله.

وأما عاتكة فتزوجها أبو أمية بن المغيرة المخزومي.

وأما فاطمة فتزوجها القاسم بن حبيب الثقفي.

وأما الفارعة فكانت عند جندب بن عمرو بن حممة الدوسي.

وأما صفية فكانت عند عبد شمس بن الشريد المخزومي.

وكان عتبة نديماً لمطعم بن عدي.

وأما أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة فأسلم واسمه هشيم، ويقال مهشم، وأم أبي حذيفة أم صفوان وهي فاطمة بنت صفوان بن أمية بن محرث الكناني، وبعضهم يقول أم حفص. والأول أثبت.

حدثني الوليد بن صالح، ومحمد بن سعد قالا: حدثنا محمد بن عمر الواقدي عن محمد بن صالح عن يزيد بن رومان قال: أسلم أبو حذيفة بن عتبة قبل دخول رسول الله صلى الله عليه وسلم دار الأرقم.

وقال الواقدي: نزل أبو حذيفة وسالم مولى أبي حذيفة بالمدينة على عباد بن بشر، وآخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أبي حذيفة وعباد وقتلا جميعاً باليمامة.

وحدثني محمد بن سعد عن الواقدي عن عبد الرحمن بن أبي الزناد عن أبيه قال: شهد أبو حذيفة بدراً، فدعا أباه عتبة بن ربيعة إلى البراز فقالت هند أخته:

الأحول الأثعل الملعون طائره أبو حذيفة شر الناس في الدين

أما شكرت أباً ربّاك في صغرٍ حتى شببت شبابا غير محجون

وكان عتبة قد حمل على الخروج مع قريش، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن يكن عند أحد منهم خير فعند صاحب الجمل الأحمر. فذكر غير الواقدي أن عتبة دعا للبراز فتعرض أبو حذيفة للنبي صلى الله عليه وسلم ليأمره بمبارزته فأعرض عنه، فلما قتل بكى أبو حذيفة، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: ألم أرك تعرضت لمبارزته فما بالك تبكي؟. أو كما قال. فقال: لو أمرتني لفعلت فعلاً يعجب الناس. ولكن سمعتك تقول ما قلت فيه، وكان رجلاً عاقلاً، فلما قتل جزعت له من النار. وكان له قول في أمر العباس قد ذكرناه في خبر العباس.

قال: وكان أبو حذيفة رجلاً طوالاً، حسن الوجه، مترادف الأسنان، وهو الثعل وكان أحول، شهد بدراً وأُحداً والخندق والمشاهد كلها، وقتل يوم اليمامة سنة اثنتي عشرة وهو ابن ثلاث أو أربع وخمسين سنة. وكان أبو حذيفة من مهاجرة الحبشة في المرتين جميعاً، ومعه امرأته سهلة بنت سهيل بن عمرو من بني عامر بن لؤي.

فولد له بالحبشة: محمد بن أبي حذيفة وأمه سهلة. وعاصم بن أبي حذيفة وأمه بنت عمرو بن حرب بن أمية، ولا عقب له ولا لمحمد أيضاً ، فلما قتل أبو حذيفة كفله عثمان بن عفان وأحسن إليهومانه وأنفق عليه، فلما خرج عبد الله بن سعد بن أبي سرح إلى مصر والياً عليها من قبل عثمان، خرج محمد بن أبي بكر ومحمد بن أبي حذيفة إلى مصر. فغزوا في البحر سنة أربع وثمانين، فصلى عبد الله بن سعد فكبر محمد بن أبي حذيفة خلفه تكبيراً أفزعه فنهاه وقال: لولا أنك حدث أحمق لقاربت بين خطاك.

وكان يعيبه ويعيب عثمان بتوليته إياه، ويقول: ولي عثمان رجلاً أباح رسول الله صلى الله عليه وسلم دمه يوم الفتح، ونزل القرآن بكفره. ثم أظهر الطعن على عثمان وذم سيرته، فكتب عبد الله بن سعد بن أبي سرح إلى عثمان: إن محمد بن أبي بكر، ومحمد بن أبي حذيفة قد أنغلا عليك المغرب وأفسداه. فقال عثمان: اللهم إني ربيته رحمة له وصلة لقرابته، وكتب إلى عبد الله بن سعد بن أبي سرح: أما محمد بن أبي بكر فإني أدعه لأبي بكر وعائشة، وأما ابن أبي حذيفة فإنه ابني وابن أخي، وأنا ربيته وهو فرخ قريش. فكتب عبد الله بن سعد: إن هذا فرخ قد استوى ريشه، و لم يبق إلا أن يطير، فبعث عثمان إلى محمد بن أبي حذيفة بثلاثين ألف درهم وبجمل عليه كسوة، فأمر بذلك فوضع في المسجد ثم قال: يا معشر

المسلمين ألا ترون إلى عثمان يخادعني عن ديني ويرشوني عليه، فازداد الناس طعناً على عثمان واجتمعوا على ابن أبي حذيفة فرأسوه عليهم.

وكتب إليهعثمان يذكره بره به ويقول: لقد كنت أنكث المخ على المائدة فأؤثرك به، فقد عاد ذلك بالمكروه علي أحوج ما كنت إلى شكرك.

فلم يزل ابن أبي حذيفة يحرض أهل مصر على عثمان، حتى سربهم إلى المدينة، فاجتمعوا مع أهل الأمصار إليه، فلما حوصر عثمان، وثب هو على عبد الله بن أبي سرح فطرده عن مصر وصلى بالناس.

فلما قتل عثمان، وبويع لعلي بن أبي طالب ولي قيس بن سعد بن عبادة مصر، فقال ابن أبي سرح: أبعد الله ابن أبي حذيفة، بغى على ابن عمه، وسعى عليه فجهز الرجال عليه ووثب بعماله، ثم ولي عليه من هو أبعد رحماً فلم يمتعه بسلطان بلده حولاً ولا شهراً، ولم يره لذلك أهلاً. وخرج ابن أبي سرح حتى صار إلى معاوية.

ثم إن علي بن أبي طالب اتهم قيس بن سعد بالميل إلى معاوية لكفه عن قتال مسلمة بن مخلد الأنصاري ثم الخزرجي، وكان قد جمع وطلب بدم عثمان، فولى محمد بن أبي بكر مصر، فلما مضت صفين بلغ علياً التياث الأمر على ابن أبي بكر، فولى مصر الأشتر فهلك بالقلزم، وكان من أمر ابن أبي بكر ومقتله ما قد ذكرناه فيما مضى.

وأصيب محمد بن أبي حذيفة فبعثوا به إلى معاوية وكان ابن خالة معاوية بفلسطين فوبخه وعنفه ثم حبسه في سجن له مرفهاً موسعاً عليه فهرب، وكان معاوية يهوى خلاصه ويكره إظهار ذلك لأهل الشام، وكان عثمان حد محمد بن أبي حذيفة في الشراب، ضربه ثمانين.

وقال أبو مخنف وغيره: فقال رجل من خثعم يقال له عبيد الله بن عمرو بن ظلام– وكان عثمانياً–: أنا أتبع محمداً، فخرج في خيل فلحقه بحوران وقد دخل غاراً فكره أن يأتي به معاوية فيعفو عنه فضرب عنقه.

وقال هشام ابن الكلبي عن أبيه: هرب محمد بن أبي حذيفة من سجن معاوية بعد قتل معاوية حجر بن عدي الكندي، فطلبه مالك بن هبيرة بن خالد الكندي ثم السلولي، ووضع الأرصاد عليه فقتله غضباً لحجر، وقد كان التمس خلاص حجر فألفاه وقد قتل.

وقال ابن الكلبي: قد انقرض ولد أبي حذيفة وانقرض ولد عتبة بن ربيعة إلا ولد المغيرة بن عمار بن عاصم بن الوليد بن عتبة وهم بالشام

وأسلم سالم مولى أبي حذيفة

وهو في رواية موسى بن عقبة: سالم بن نبتل، ونبتل من أهل اصطخر، وذكر أن سالماً مولى ثبيتة بنت يعار من الأنصار من الأوس، فسالم يذكر مع الأنصار لأن ثبيتة أعتقته، ويذكر في المهاجرين لولاء أبي حذيفة.

حدثني محمد بن سعد عن الواقدي عن إبراهيم بن إسماعيلبن أبي حبيبة عن داود بن الحصين قال: كان سالم لثبيتة بنت يعار الأنصارية، وكانت تحت أبي حذيفة بن عتبة بن ربيعة فأعتقته سائبة، فتولى أبا حذيفة وتبناه أبو حذيفة فقالت سهلة بنت سهيل امرأة أبي حذيفة: جئت إلى النبي صلى الله عليه وسلم بعد نزول الآية: "ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله" فقلت: يا رسول الله إنما كان سالم عندنا ولداً. قال: فأرضعيه خمس رضعات ويدخل عليكم. قالت: فأرضعته وهو كبير. وزوجه أبو حذيفة ابنة أخيه فاطمة بنت الوليد بن عتبة، فلما قتل سالم يوم اليمامة أرسل أبو بكر بميراثه إلى مولاته فأبت أن تقبله، وقالت: إني سيبته. فجعله أبو بكر في بيت المال.

قال الواقدي: فحدثت ابن أبي ذئب بهذا الحديث فقال: أخبرني يزيد بن ابي حبيب عن سعيد بن المسيب قال: كان سالم سائبة، فأوصى بثلث ماله في سبيل الله، وبثلثه في الرقاب وبثلثه لمواليه.

حدثني محمد بن سعد وروح بن عبد المؤمن قالا: حدثنا عارم بن الفضيل، ثنا حماد بن زيد، وحدثني أبو الربيع الزهراني، ثنا حماد بن زيد، أنبأ أيوب عن محمد بن سيرين أن سالماً مولى أبي حذيفة أعتقته امرأة انصارية سائبة وقالت: وال من شئت، فوالى أبا حذيفة، فكان يدخل على امرأته فذكرت ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم وقالت: إني أرى ذلك في وجه أبي حذيفة، فقال: أرضعيه. قالت: إنه ذو لحية. قال: قد علمت أنه ذو لحية. قال: فقتل يوم اليمامة فدفع ميراثه إلى المرأة.

حدثني محمد بن سعد، ثنا الفضل بن دكين أبو نعيم، ثنا معقل بن عبيد الله عن ابن أبي مليكة عن القاسم بن محمد أن سهلة بنت سهيل بن عمرو أتت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت: يا رسول الله سالم مولى أبي حذيفة معي وقد أدرك مدرك الرجال. فقال: "أرضعيه فإذا فعلت فقد حرم عليك".

حدثني محمد بن سعد عن الواقدي عن معمر عن الزهري قال: قالت أم سلمة: أبى سائر أزواج النبي صلى الله عليه وسلم أن يدخل عليهن أحد بعد الرضاع وقلن: إنما هذه رخصة من النبي صلى الله عليه وسلم لسالم خاصة.

وقال الزهري: حدثني عروة عن عائشة أنها أخذت بذلك من بين أزواج النبي صلى الله عليه وسلم.

حدثني محمد بن سعد والحسن بن الأسودقالا: ثنا عبيد الله بن موسى عن إسرائيل عن منصور عن مالك

بن الحارث قال: كان زيد بن حارثة معروف النسب، وكان سالم مولى أبي حذيفة غير معروف النسب.
حدثني محمد بن سعد، ثنا أبو معاوية الضرير عن الأعمش عن سفيان عن مسروق عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: خذوا القرآن عن أربعة: عبد الله بن مسعود، وأبي بن كعب، ومعاذ بن جبل، وسالم مولى أبي حذيفة.
وحدثني عمرو الناقد، والحسين بن الأسودعن أبي معاوية بهذا الاسناد مثله.

حدثني عمرو بن محمد الناقد، ثنا عبيد الله بن نمير عن عبيد الله بن عمر عن نافع عن ابن عمر أن المهاجرين الأولين لما قدموا من مكة إلى المدينة نزلوا إلى جنب قباء، فأمهم سالم مولى أبي حذيفة لأنه كان أكثرهم قرآناً، وفيهم عمر بن الخطاب، وأبو سلمة بن عبد الأسد.
وقال الواقدي: كان سالم يؤم المهاجرين من مكة إلى المدينة ويؤمهم بقباء إلى قدوم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة لأنه كان أقرأهم لكتاب الله.
حدثني محمد بن حاتم المروزي، ثنا عبيد الله بن عمر عن نافع عن ابن عمر قال: لما قدم المهاجرون الأولون من مكة مقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة نزلوا العصبة فكان سالم مولى أبي حذيفة يؤمهم لأنه كان أكثرهم قرآناً فيهم عمر بن الخطاب وأبو سلمة بن عبد الأسد. قال: وآخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بين سالم وبين أبي حذيفة وبين أبي عبيدة بن الجراح وآخي بينه وبين معاذ بن ماعص من الأنصار وهو أحد من استشهد يوم بئر معونة.
حدثني محمد بن سعد عن الواقدي عن يونس بن محمد الظفري عن يعقوب بن عمر بن قتادة قال: أخبرني محمد بن ثابت بن قيس بن شماس قال: لما انكشف المسلمون يوم اليمامة قال سالم مولى أبي حذيفة بن عتبة: ما هكذا كنا نفعل مع رسول الله صلى الله عليه وسلم. فحفر لنفسه حفرة وقام فيها ومعه راية المهاجرين يومئذ، ثم قاتل حتى قتل شهيداً، وذلك في سنة اثنتي عشرة.
قال الواقدي: وقال غير يونس: فوجد رأس سالم عند رجلي أبي حذيفة أو رأس أبي حذيفة عند رجلي سالماً.
حدثني أبو موسىإسحاق الفروي، ثنا أبو معاوية الضرير عن أبيإسحاق الشيباني عن ابن أبي الجعد عن عبد الله بن شداد أن سالماً مولى أبي حذيفة قتل يوم اليمامة فباع عمر ميراثه بعد فبلغ مائتي دينار، فأعطاها أمه، وقال: كليها.
وقال ابن الكلبي: كان لأبي حذيفة من الولد: عاصم بن أبي حذيفة، وأمه آمنة بنت عمر بن حرب بن أمية وقد انقرض ولد أبي حذيفة، وانقرض ولد عتبة بن ربيعة إلا ولد المغيرة بن عمار بن عاصم بن الوليد

بن عتبة وهم بالشام.

وقال أبو اليقظان: أسلم أبو هاشم بن عتبة وغزا بعض الشام.

وقال أبو اليقظان: ولد أبو هاشم عبد الله، وأمه ابنة شيبة بن ربيعة، وأم خالد أمها خثعمية. وسالماً لأم ولد، فكانت أم خالد عند يزيد بن معاوية، ثم خلف عليها مروان بن الحكم وهي التي قتلته غماً. ولا عقب لأبي هاشم بن عتبة.

وأما الوليد بن عتبة فقتل يوم بدر، فادعت هند بنت عتبة رجلاً يقال له عاصم أنه ابنه، فولاه معاوية المدينة يسيراً فقال الشاعر:

كانت إمارة عاصم كسحابة   برقتّ ولم تمطر بنوء العقرب

ولا عقب للوليد.

وأما هاشم بن عتبة فولد: درة، وأمها صفية من بني كنانة.

وأما شيبة بن ربيعة، ويكنى أبا هاشم، فكان يؤذي رسول الله صلى الله عليه وسلم أذى كثيراً، ولا يتولاه بنفسه، وإنما كان يدس من يتولاه، فقتله عبيدة بن الحارث بن المطلب يوم بدر، وذفف عليه حمزة وعلي، ويقال قتله حمزة، وقد كتبنا خبره فيما تقدم.

فولد شيبة: عبد الله. وزينباً، وأمهما الفارعة بنت حرب بن أمية.

ورملة، أمها من بني عامر بن لؤي، وكانت رملة عند عثمان بن عفان فقتل عنها.

وأما عبيد الله فولد: يزيد، وأمه ثقفية. وعبد الرحمن، وأمه ابنة المطلب بن الحويرث من بني أسد بن عبد العزى.

وأما عبد الرحمن فولد: أبا يسار، وأمه مخزومية، وكان أبو يسار يتيماً لعثمان بن عفان تبناه، فدخل عليه الزبير بن العوام يوماً فسبه أبو يسار، فقال له الزبير: سبه- يعني عثمان- فقال: هذا أبي. فأوجعه الزبير ضرباً.

ثم إنه تزوج ابنة الزبير، واسمها خديجة، فولدت من أبي يسار: عبد الرحمن. وأم عبد الله، وعقب أبي يسار بالشام.

وأما يزيد بن عبيد الله بن شيبة فولد: فاطمة، تزوجها علي بن عبد الله بن الحارث بن أمية الأصغر.

ورملة، تزوجها محمد بن مروان بن الحكم.

وقال ابن الكلبي: منهم أبو يسار، وهو محمد بن عبد الرحمن بن عبيد الله بن شيبة وولده بالبلقاء.

بنو عبد العزى بن عبد شمس

ولد لعبد العزى بن عبد شمس: ربيع. وربيعة، أمهما أم المطاع بنت أسد بن عبد العزى بن قصي. وقال الشاعر:

فأدّى الله خفرتها إليها وأداها كنانة والربيع

هما لا أشعران إذا أكبّا ولا هبران لحمهما يضيع

يعرض بعتبة وشيبة، يعني خفرة زينب بنت النبي صلى الله عليه وسلم حين سار معها هذان. فولد الربيع بن عبد العزى: أبا العاص بن الربيع، زوج زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم، وابن خالتها هالة بنت خويلد، وكان أبو العاص يلقب جرو البطحاء أي ابن البطحاء، واسمه لقيط، وذلك الثبت، وبعضهم يقول اسمه القاسم، وزعم بعض البصريين أن جروي البطحاء ربيعة بن عبد العزى وأبو العاص معاً. وقد كتبنا خبره فيما تقدم من ذكر أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم وأولاده.

وكان إسلام أبي العاص قبل الحديبية بخمسة أشهر، ثم رجع إلى مكة و لم يشهد مع النبي صلى الله عليه وسلم شيئاً، ومات في ذي الحجة سنة اثنتي عشرة.

فولد أبو العاص: علياً. قتل يوم اليرموك شهيداً. وأمامة، تزوجها علي بن أبي طالب، فقتل عنها، ويقال إن علياً مات صغيراً. ولا عقب للربيع.

ومن ولد عبد العزى بن عبد شمس: كنانة بن عدي بن عبد العزى وهو الذي بعث معه زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أبيها، فعرض لها هبار بن الأسودبن المطلب بن أسد بن عبد العزى ونافع بن قيس. وقد ذكرت خبرهما فيما تقدم أيضاً .

وكان ولد ربيعة بن عبد العزى: عدياً. وحارثة. ويزيد، وأمهم سلمى بنت عمرو بن سفيان الثقفي.

فأما عدي بن ربيعة فولد: العلاء. وكنانة الذي ذكرناه، وسعيداً.

وربيعة بن ربيعة، أمهم من ولد الغوث بن مر.

وعلياً، أمه كريمة كنانية.

والوفي أمه هالة بنت خويلد وهو أخو أبي العاص بن الربيع لأمه.

وأما حارثة فولد: محرزاً وحريزاً وحرازاً، وأمهم من بني الغوث بن مر وهي أم ولد عدي بن ربيعة الأربعة، وبقية ولد محرز بن حارثة بالكوفة.

واستخلف عتاب بن أسيد محرزاً على مكة في سفرة سافرها.

وكان من ولد محرز: العلاء بن عبد الرحمن بن محرز، وكان على الربع أيام ابن الزبير. وموضع داره

بالكوفة دار عيسى بن موسى اليوم.

ومن ولد يزيد بن ربيعة: عبد الله بن الوليد بن يزيد بن ربيعة، قتل يوم الجمل مع عائشة.

وقال أبو اليقظان: كان ولد محرز بن حارثة: عبد الله، وعبد الرحمن، وحرازاً، وأم السائب، أمهم هند بنت ربيعة بن عبد شمس، وبقيتهم بالكوفة يقال لهم بنو محرز وسكتهم سكة محرز.

واستعمل عثمان بن عفان علي بن عدي بن ربيعة بن عبد العزى، وهو ابن الكنانية على مكة، وشهد الجمل مع عائشة فقالت امرأة منهم:

يا ربّنا اعقر بعليٍّ جمله	ولا تبارك في بعيرٍ حمله
إلاّ عليّ بن عديّ ليس له	

فقتل يوم الجمل.

وكان عبد الله بن علي بن عدي هذا عاملاً لعبد الملك على سجستان، وكان كزاً بخيلاً سيء الخلق لم يغن، ولم يأمر بخير، فقال فيه أبو حزابة الحنظلي:

يا بن عليّ برح الخفاء	قد علم الجيران والأكفاء
أنك أنت النذل اللقاء	أنت لقبر طلحة الفداء
بنو عليٍّ كلهم سواء	كأنهم زونية جراء

وقال أيضاً:

يا طلح يا ليتك عنا تخبر	حين أتانا الجعطريّ الجيدر
أقصر من شبرين حين يشبر	أنكره سريرنا والمنبر
ودارنا والمسجد المطهّر	مثل أبي القعواء لا بل أقصر

وولد العلاء بن عدي: محمداً. ويعلى. وبنات، وأمهم أم الحكم بنت عبد الله بن الحارث بن أمية الأصغر.

وولد كنانة بن عدي: محمداً. وعبد الملك. وعلباء. وعثمان الأكبر. وعقبة. وعمراً. وعثمان الأصغر. وبنات.

وقال ابن الكلبي: ومن بني علي بن عدي: عبد الله بن عمر بن عبد الله بن علي بن عدي بن ربيعة بن عبد العزى بن عبد شمس الشاعر، الذي يقول لهشام بن عبد الملك، وحج فقسم في أخواله من بني مخزوم مالاً:

خسّ حظي إذ كنت من عبد شمس	ليتني كنت من بني مخزوم
فأفوز الغداة منه بقسم	وأبيع السّناء مني بلوم

بنو أمية الأصغر بن عبد شمس

وولد أمية الأصغر بن عبد شمس: الحارث، وأمه عاتكة بنت عبد مناف بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة، وكان الحارث شاعراً وهو الذي يقال له: ابن عبلة، وقال في عبد الله بن جدعان:

عطاؤك زين لامرئٍ إن حبوته | بنيل وما كل العطاء يزين

وليس بشينٍ لامرئٍ بذل وجهه | إليك كما بعض العطاء يشين

فولد الحارث: عبد الله، أمه زينب بنت نوفل بن عبد شمس، وأدرك عبد الله معاوية وهو شيخ كبير، وكان ورث دار عبد شمس بمكة لأنه كان أقعدهم. فلما حج معاوية دخل الدار لينظر إليها فوثب عبد الله بن الحارث إليهبمحجن ليضربه فقال: لا أشبع الله بطنك أما تكفيك الخلافة حتى تطلب هذه الدار؟ فخرج وهو يضحك.

قالوا: ودخل على معاوية– وكان بديناً– فقال: والله لقد شججت أخاك حنظلة فما أعطيت عقلاً ولا أرشا، فقال معاوية: إنك هربت إلى أخوالك بالطائف. قال: إنه إذا مال بي أحد شقي عدلته بالآخر.

وولد أيضاً : عبد الرحمن بن الحارث، وأمه بنت أسيد من ثقيف.

وعتبة. وعبد الله الأصغر. وحكيماً، أمهم من بني مازن بن منصور بن عكرمة بن خصفة.

وعقبة، أمه ثقفية.

فمن بني أمية الأصغر: أبو جراب وهو محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الله بن الحارث بن أمية الأصغر، قتله داود بن علي بمكة.

وقال بعضهم: كان أبو جراب يترل الفتق على ثلاث ليال من مكة، فبلغ العرجي أن أبا جراب بمكة فأقبل إلى قصره، فخرجت إليهجارية لأبي جراب بدوية ودفعته وجعلت ترميه، واستسقاها ماء فلم تسقه فقال: ستعلمين. فقال أبياتاً، منها:

أمشي كما حركت ريح يمانية | غصناً من البان رطباً طلّه الرّهم

قالت رضيت ولكن جئت في قمرٍ | ألاّ تلبّثت حتى يدخل الظّلم

فاتهمها عند أبي جراب حتى حلفت له بين الركن والمقام على براءتها.

وقال أبو اليقظان: كان أبو جراب من أفضل قرشي بمكة وقد وليها في أيام بني مروان، وقتله داود بن علي وهو على مكة وقال الشاعر لابن أبي جراب:

ثلاث طوابح ولهنّ جئنا | فيسّرهنّ يا بن أبي جراب

فإنك ماجد في بيت مجدٍ بقيّة معشر تحت التراب

وله يقول الشاعر:

إذا متّ لم يوصل بعرفٍ قرابةً ولم يبق في الدنيا رجاء لسائل

وكانت أم أبي جراب رملة بنت العلاء بن طارق بن المرفع الكناني وهو الذي كانت بناته يقلن: نحن بنات طارق. ويقال إنهن أردن: نحن بنات النجم.

ومنهم: الثريا بنت عبد الله بن الحارث بن أمية التي كان عمر بن أبي ربيعة المخزومي يشبب بها وفيها يقول:

أحسن النجم في السماء الثريا والثريا في الأرض زين النساء

وتزوجها سهيل بن عبد الرحمن بن عوف فقال عمر:

أيها المنكح الثريا سهيلاً عمرك الله كيف يلتقيان

هي شامية إذا ما استقلّت وسهيل إذا استقل يماني

والثريا مولاة الغريض المغني، وكان يعرف بمولى العبلات، وكان يسمى عبد الملك، ويكنى أبا زيد.

وولد عبد أمية بن عبد شمس: معقلاً. وعقيلاً. وكنود ولدت أبا محجن بن حبيب الثقفي الذي يقول:

لا تسألي القوم عن مالي وكثرته وسائلي القوم عن مجدي وما خلقي

هل أطعن الطعنة النجلاء عن عرضٍ وأكتم السرّ فيه ضربة العنق

والأحوص بن عبد أمية، كان عاملاً على البحرين في أيام معاوية بن أبي سفيان.

وقال ابن الكلبي: من ولد عبد أمية بن عبد شمس: منصور بن عبد الله بن الأحوص بن عبد أمية وهم بالشام.

وقال بعض العلماء: كان الأحوص بن عبد أمية على البحرين، وسعى بمروان بن الحكم.

وولد نوفل بن عبد شمس- وهو من العبلات-: أبا العاص وأمه فطيمة مخزومية، وقتل أبو العاص بن نوفل يوم بدر كافراً.

فولد أبو العاص بن نوفل: حاجباً، وعثماناً، وهباراً، وحزناً، وحزاماً، وعبيداً، وعبداً، وأمهم فاطمة بنت وهب مخزومية.

ومن ولد هبار: خالد بن يزيد بن عثمان بن هبار بن أبي العاص بن نوفل، قتله عبد الله بن علي بالشام

وكانت أم أمية الأصغر. وعبد أمية. ونوفل بني عبد شمس عبلة بنت عبيد بن جادل بن البراجم من بني تميم، فلذلك سمي هؤلاء العبلات.

بنو المطلب بن عبد مناف بن قصي بن كلاب

قالوا: كان بنو المطلب بن عبد مناف مع بني هاشم يدا على جميع الناس، قسم رسول الله صلى الله عليه وسلم قسماً بين بني هاشم وبني المطلب، وجعل سهم ذي القربى في بني هاشم وبني المطلب، فأتاه عثمان، وجبير بن مطعم، فقالا: قرابتنا برسول الله صلى الله عليه وسلم، وقرابة بني عبد المطلب واحدة، فكيف أعطيتهم دوننا؟ فقال: إنا وبني المطلب كذا وشبك أصابع يديه وكنا في الشعب معاً.

ويقال أنه قال: كنا وهم في الشعب كذا وشبك أصابع يديه.

حدثني عمرو بن محمد الناقد ووهب بن بقية الواسطي وغيرهما قالوا: ثنا يزيد بن هارون عن ابنإسحاق عن الزهري عن سعيد بن المسيب عن جبير بن مطعم أنه وعثمان بن عفان كلما رسول الله صلى الله عليه وسلم في سهم ذي القربى، وقالا: قسمته بين بني هاشم وبني المطلب بن عبد مناف، ونحن وبنو المطلب إليكم في النسب سواء، فقال: إنا وهم لم نزل في الجاهلية كبيرنا وصغيرنا شيئاً واحداً، وكانوا معنا في الشعب، وشبك أصابعه.

وحدثني بشر بن الوليد عن أبي يوسف عن ابن اسحق عن الزهري عن سعيد بن جبير بن مطعم بمثله.

فولد المطلب بن عبد مناف: مخرمة، وأبا رهم، أمهما هند بنت عمرو بن ثعلبة من الأنصار.

وهاشما، وأبا عمرو، وأمهما خديجة بنت سعيد بن سعيد بن سهم.

وأبا رهم الأصغر، وعبادا، وامهما عنترة بنت عمرو بن طريف الطائي.

والحارث، وأبا شمران، ومحصن، وأمهم حنظلية من بني تميم.

وعلقمة وعمر، أمهما من بني ضبة بن اد.

فمن بني المطلب: عبيدة، والطفيل، والحصين، بنو الحارث بن المطلب بن عبد مناف.

وكان عبيدة يكنى أبا الحارث، ويقال أبا معاوية، وكان أكبرهم سنا، وشهد بدرا فبارز عتبة بن ربيعة يوم بدر فضربه عتبة على ساقه، وضرب عبيدة عتبة، وأعانه علي بن أبي طالب فقتلاه، فقالت هند بنت عتبة:

أعينيّ جودا بدمع سرب ... على خير خندف لم ينقلب
تداعى له قصرة رهطه ... بنو هاشم وبنو المطلب

ومات عبيدة بالصفراء وبها دفن، ووجد من قبره ريح المسك فقيل للنبي صلى الله عليه وسلم: إنا وجدنا من قبره ريح المسك، فقال: وما ينكر ذلك لأبي معاوية، وكانت عنده زينب بنت خزيمة، من بني هلال، وهي أم المساكين، فخلف عليها النبي صلى الله عليه وسلم.

قال أبو اليقظان: ولا عقب لعبيدة.

قال الواقدي: كانت زينب عند الطفيل، و لم تكن عند عبيدة.

قال الواقدي والكلبي: وأم عبيدة بن الحارث وأخوته سخيلة بنت خزاعي بن الحارث من ثقيف، وكان لعبيدة من الولد: معاوية، وعون، ومنقذ، والحارث، ومحمد، وإبراهيم، وريطة، وخديجة، وسخيلة، وصفية لأمهات أولاد شتى، وكان عبيدة أسن من النبي صلى الله عليه وسلم بعشر سنين.

وقال الواقدي: كان يكنى أبا الحارث، والأول قول أبي اليقظان، وكان مربوعاً أسمر حسن الوجه.

حدثني محمد بن سعد، عن محمد بن عمر الواقدي، عن محمد بن صالح، عن يزيد بن رومان قال: أسلم عبيدة بن الحارث قبل دخول النبي صلى الله عليه وسلم دار الأرقم بن أبي الارقم، وقبل أن يدعو فيها.

وقال الواقدي في إسناده خرج عبيدة، والطفيل، والحصين بنو الحارث بن المطلب، ومسطح بن أثاثة بن عباد بن المطلب من مكة للهجرة، فاتعدوا بطن ناجح، فلدغ مسطح فتخلف بالحصاص فأتوه فحملوه، والحصاص واد في ذي طوى، فلما قدموا المدينة نزلوا على عبد الله بن سلمة العجلاني، وأقطع رسول الله صلى الله عليه وسلم عبيدة وأخوته موقع خطتهم بالمدينة فيما بين بقيع الزبير وبني مازن، وآخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بين عبيدة وبلال، وآخى بين عبيدة وعمير بن الحمام الأنصاري فقتلا ببدر، وكان أول لواء عقده رسول الله صلى الله عليه وسلم لحمزة، ثم لعبيدة.

حدثني محمد بن سعد عن الواقدي عن يونس بن محمد الظفري عن أبيه قال: قتل عبيدة بن الحارث شيبة بن ربيعة يوم بدر، وجرح فدفنه النبي صلى الله عليه وسلم بالصفراء، وكان يوم استشهد ابن ثلاث وستين سنة.

وأم الطفيل بن الحارث أيضاً سخيلة بنت خزاعي الثقفية، وكان لطفيل من الولد: عامر بن الطفيل، وآخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بين الطفيل والمنذر بن محمد بن عقبة بن أحيحة بن الحلاج، هذا في رواية الواقدي.

وقال محمد بن اسحق: آخى بينه وبين سفيان بن نسر بن زيد الانصاري.

وقال الواقدي شهد الطفيل بدراً، وأحداً، والمشاهد كلها مع النبي صلى الله عليه وسلم، وتوفى سنة اثنتين وثلاثين، وهو ابن سبعين سنة.

وأم الحصين بن الحارث بن المطلب أيضاً سخيلة، وهي أم عبيدة، والطفيل، وكان للحصين من الولد: عبد الله الشاعر، وأمه أم عبد الله بنت عدي بن خويلد بن أسد بن عبد العزى، وآخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بين الحصين ورافع بن عنجدة.

وقال محمد بن اسحق: آخى بينه وبين عبد الله بن جبير أخي خوات ابن جبير.

وقال الواقدي: شهد الحصين مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بدراً، وجميع المشاهد، وتوفي بعد الطفيل بأشهر في سنة اثنتين وثلاثين.

ومنهم: أبو حذافة بن الحارث بن المطلب، قتل يوم الفجار في الجاهلية.

ومن بني المطلب أيضاً عبد الله بن قيس بن مخرمة بن المطلب، ولي مكة زمن عمر بن عبد العزيز، وولاه أيضاً الحجاج حين فارق الحجاز المدينة أو مكة فقال له عبد الملك لقد وليته من أحمق بيت في قريش، وكان عبد الملك يقول: أحمق بيت في قريش آل قيس بن مخرمة، وكان قيس بن مخرمة يمكو ويصفر فيسمع صوته من حراء، وفيه نزلت: "وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاءً وتصدية" والتصدية التصفيق أن يسمع لذلك صدىً.

ومنهم: مسطح بن أثاثة بن عباد بن المطلب، وهو أحد من قال الأفك في عائشة فحد، وأم مسطح ابنة أبي رهم بن المطلب بن عبد مناف، وأمها ريطة بنت صخر، خالة أبي بكر الصديق، وكان أبو بكر حلف أن يقطع عن مسطح جراية كان يجريها عليه، ونيلا كان ينيله إياه، فترل فيه: "ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة أن يولوا أولي القربى والمساكين والمهاجرين في سبيل الله وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم" فرد عليه جرايته وما كان ينيله، وكانت أم مسطح من المبايعات. وآخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بينه وبين يزيد بن المزين، في رواية محمد بن إسحق.

وقال الواقدي: شهد مسطح بن أثاثة بن عباد بن المطلب: بدراً، وأحداً، والمشاهد كلها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأطعمه خمسين وسقا بخيبر، وتوفي مسطح سنة أربع وثلاثين، وهو ابن ست وخمسين سنة، وكان قصيراً غائر العينين شثن الأصابع يكنى أبا أثاثة.

قالوا: ولما نزلت الآية قال له أبو بكر: مرحباً برجل عاتبني فيه ربي.

ومنهم: ركانه بن عبد يزيد بن هاشم بن المطلب كان أشد العرب، صارعه رسول الله صلى الله عليه وسلم فصرعه فقال: يا معشر قريش ساحروا بمحمد من شئتم.

وحدثني عباس بن هشام الكلبي عن أبيه عن ابن خربوذ وغيره قالوا: قدم ركانه من سفر، فأخبر النبي صلى الله عليه وسلم، فلقيه في بعض جبال مكة، فقال: يا بن أخي بلغني عنك أمر و لم تكن عندي كذاباً، فإن صرعتني علمت أنك صادق، فصرعه رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وقال هشام ابن الكلبي: حدثني أبي عن أبي صالح عن ابن عباس قال: لقي رسول الله صلى الله عليه وسلم ركانة بن عبد يزيد بن هاشم بن المطلب، وكان أشد العرب لم يصرعه أحد قط، فدعاه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الإسلام، فقال: والله لا أسلم حتى تدعو هذه الشجرة وكانت سمرة أو طلعة، فقال

رسول الله صلى الله عليه وسلم: أقبلي باذن الله فاقبلت تخد الأرض خداً، فقال ركانة: ما رأيت كاليوم سحراً أعظم فمرها فلترجع، قال: ارجعي باذن الله فرجعت، فقال له: ويحك أسلم فقال: إن صرعتني أسلمت وإلا فغنمي لك، وإن صرعتك كففت عن هذا الأمر، فأخذه النبي صلى الله عليه وسلم فصرعه ثلاثا، فقال: أسلم، قال: لا، قال: فإني آخذ غنمك قال: فما تقول لقريش؟ قال: أقول صارعته فصرعته فأخذت غنمه قال: فضحتني وخزيتني، قال: فما أقول لهم؟ قال: قل قمرته قال: إذاً أكذب قال: أولست في كذب من حين تصبح إلى أن تمسي، قال: خذ غنمك، قال: أنت والله خير مني وأكرم، قال النبي صلى الله عليه وسلم: "وأحق بذلك منك".

وقال أبو اليقظان: قال ركانة للنبي صلى الله عليه وسلم وسلم حين جاء ليسلم في الفتح: والله لقد علمت إذ صرعتني أنك أعنت علي من السماء، وقدم المدينة وأقام بها، ومات بها في أول أيام معاوية، ومنازلهم في دار عقيل بن أبي طالب.

ومنهم: العجير بن عبد يزيد بن هاشم، أخو ركانة، بعثه عمر بن الخطاب فيمن بعث لإقامة أنصاب الحرم، وجلد عمر بن الخطاب ابنا لعجير ثمانين في شراب.

ومن بني المطلب:

ضعيفة بنت هاشم بن المطلب ولدت الحجاج من قبل النساء.

قالوا: وكان يزيد بن طلحة بن ركانة ممن يحمل عنه الحديث، ومات أول أيام هشام بن عبد الملك.

وكان أخوه محمد بن طلحة بن ركانة محدثا، ومات في أول أيام هشام أيضاً .

وكان علي بن يزيد بن ركانة بن عبد يزيد، من أشد الناس بطشاً في زمانه، فدخل على عمر بن عبد العزيز، وهو والي المدينة، فقال له: أرني من شدتك شيئاً، فدخل تحت سريره فحمله من الأرض، ولهم بقية بالمدينة، وكان لركانة بن يزيد مجذىً يضرب به المثل فيقال: أثقل من مجذى ركانة وهو حجر له مقبض يرتج.

ومنهم: السائب بن عبيد بن عبد يزيد بن هاشم بن المطلب، وقد كان أسر يوم بدر، وهو أحد من كان يشبه بالنبي صلى الله عليه وسلم، ومن ولده: عباس، وعلي، وشافع جد الشافعي الفقيه، وهو محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع بن السائب بن عبيد بن عبد يزيد بن هاشم بن المطلب.

وقال الكلبي: كان يقال لعبد يزيد بن هاشم المحض لاقذى فيه، لأن أمه الشفاء بنت هاشم بن عبد مناف.

وقال المدائني: ضرب خالد بن عجير بن عبد يزيد ثمانين في الشراب.

ومن بني المطلب: جهيم بن الصلت بن مخرمة بن المطلب بن عبد مناف، أسلم بعد الفتح وتعلم الخط بالعربية في الجاهلية فجاء الإسلام وهو يكتب بها، وقد كتب لرسول الله صلى الله عليه وسلم بعدما

أسلم، ورأى جهيم وهو بين النائم واليقظان أن رجلاً أقبل على فرس ومعه بعير له فقال: قتل عتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، وأبو الحكم بن هشام، وأمية بن خلف وعدد رجالا ممن قتل يوم بدر من أشراف قريش، ثم ضرب في لبة بعيره وأرسله فلم يبق خباء من أخبية عسكر المشركين إلا أصابه نضح من دمه، فبلغت الرؤيا أبا جهل فقال: وهذا أيضاً نبي من بني المطلب، سيعلم غداً من المقتول إذا التقينا.

ومن بني المطلب بن عبد مناف: عمرو بن علقمة بن المطلب، وكان خداش بن عبد الله بن أبي قيس بن عبد ود بن نصر بن مالك بن حسل بن عامر بن لؤي بن غالب خرج إلى الشام في تجارة، وهو في ركب من قريش، فاستأجر عمرو بن علقمة بن المطلب، فلما كان ببعض الطريق إذا هم بركب يستمتعون بفضل حبل، أي يستعيرونه، وشردت أباعرهم، فطرح إليهم عمرو بن علقمة حبلاً، وكان خداش قد مضى لبعض شأنه، فلما جاء قال: ما حملك على ما صنعت وقد ترانا بأرض لا يوجد بها شيء يطلب فيشترى أو يستعار وضربه بعصاً معه، فضمن من ضربته، فلما أحس بالموت كتب إلى أبي سفيان بن حرب، وكان أكبر بني قصي يومئذ، فأخبره بخبره، وأنه لما به حين كتب إليه، فلما قدم خداش من وجهه ذلك طلب بنو عبد مناف العقل عنده، فأباه عليهم، وقال قد مكث أياماً ليس به بأس، ثم اشتكى بعد ومات لم يصدقوه، وأكبوا على العقل، وكان أبو طالب بن عبد المطلب أشد القوم في أمره، فقال أبو طالب لخداش:

أفي فضل حبل لا أبا لك صدته ... بمنسأة قد جاء حبل بأحبل

هلمّ إلى حكم ابن صخرة إنه ... سيحكم فيما بيننا ثم يعدل

كما كان في أشياء كانت تنوبنا ... فيعمد للأمر الجسيم فيفصل

ابن صخرة الوليد بن المغيرة، وكانت قريش تتحاكم إليهوكانوا على أن يتحاربوا، فاستعدوا للحرب، ثم إنهم اصطلحوا بعد على أن تبرئ صدورهم بنو عامر بخمسين يميناً عند الحطيم، فحلف منهم خمسون رجلا وامتنع حويطب بن عبد العزى بن قيس بن عبد ود من اليمين، فافتدى قومه يمينه بأربعين أوقية، والأوقية أربعون درهماً.

قالوا: فمات جميع من حلف وجاء الإسلام و لم يبق منهم أحد، وبقي حويطب وأسلم يوم الفتح وحسن إسلامه.

وقال قوم من العلماء، منهم أبو عمرو الشيباني: إنهم كانوا تحاربوا ثم مشت السفراء بينهم فاصطلحوا على خمسين يمينا عند الحطيم.

وقال العباس بن عبد المطلب:

أبا طالب لا تقبل النصف منهم — وإن أنصفوا حتى تعق وتظلما

أبى قومنا أن ينصفونا فانصفت — قواطع في أيماننا تقطر الدما

إذا خالطت هام الرجال رأيتها — كبيض نعام في الوغى قد تحطما

تركناهم لا يستحلون بعدها — لذي رحم يوماً من الناس محرما

ضربنا أبا عمرو خداشا تخمّطا — وملنا على ركنيه حتى تهدما

بنو نوفل بن عبد مناف بن قصي

ولد نوفل بن عبد مناف: عدي بن نوفل، وأمه هند بنت نسيب بن زيد من بني مازن بن منصور.

وعمرو بن نوفل. وعبد عمرو، وأمهما قلابة بنت جابر بن نصر بن مالك بن حسل بن عامر بن لؤي.

وعامر بن نوفل. وأمه كهيفة بنت جندل بن ابين بن نهشل بن دارم. وزعموا أن بني نوفل كانوا يداً مع عبد شمس على سائر بني عبد مناف فقال أبو طالب:

جزى الله عنا عبد شمس ونوفلا — جزاء مسيءٍ عاجلا غير آجل

فمن بني نوفل بن عبد مناف: مطعم بن عدي بن نوفل بن عبد مناف، ويكنى أبا وهب، زعموا ان النبي صلى الله عليه وسلم أتاه فقال: يا عماه أجرني حتى أطوف حول البيت، فأجاره حتى طاف، وأعان مطعم بني هاشم وبني المطلب على نقض الصحيفة التي كتبتها قريش عليهم، وعلى اخراجهم من الشعب، وقال النبي صلى الله عليه وسلم يوم بدر لابنه جبير بن مطعم: لو كان أبوك حيا فاستوهب مني هؤلاء الأسرى لوهبتهم له. وفيه يقول أبو طالب:

أجرت رسول الله منهم فأصبحوا — عبيدك ما حل الحجيج وأحرما

وقال أبو طالب أيضاً:

أمطعم إن القوم ساموك خطة — وإني متى أوكل فلست بآيل

أمطعم لم أخذلك في يوم نجدة — ولا مشهدٍ عند الأمور الجلائل

ومات مطعم بن عدي في سنة اثنتين من الهجرة، قبل بدر، ودفن بالحجون، وله بضع وتسعون سنة، وأقيم النوح عليه سنة.

فولد مطعم، جبيراً، وكان سيداً عالماً نسابة للعرب، وكان اسلامه قبل الفتح، وشهد دفن عثمان بن عفان، وصلى عليه، وسأل عمر بن الخطاب جبيراً، وأتي بسيف النعمان بن المنذر: ممن كان النعمان؟

فقال: من بني قنص بن معد، وذلك أن ولد قنص انتموا إلى لخم بن دي، ومات جبير بن مطعم- ويكنى أبا محمد- بالمدينة في داره في أيام معاوية، وكان أول من لبس طيلسانا بالمدينة.

وكان نافع بن جبير بن مطعم بن عدي تائهاً، عظيم النخوة والكبر، وكان فصيحاً جهير الكلام يفخم كلامه، وكان المغيرة بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام يلحن ويفخم كلامه، فقال سليمان بن عبد الملك بن مروان: إن المغيرة بن عبد الرحمن ليفخم اللحن كما يفخم نافع بن جبير الاعراب، وكان جبير يتخذ سقاية من أدم يسقي فيها الناس، وكان لنافع بن جبير ابن من امرأته ابنة عبيد الله بن العباس بن عبد المطلب، يقال له علي، فقال له: يا بني أنت ابن السقايتين، يعني سقاية الحاج التي كان يقوم بها العباس، وسقاية جبير بن مطعم، فدخل علي على أمه فقال لها: إن أبي قال لي: يا بن السقايتين، فقالت يا بني ارجع إليهفأعلمه أن إحداهما ركوة.

المدائني قال: تكلم عبد الله بن السائب بن أبي حبيش فقال له نافع بن جبير: صه فقال له عبد الله: ألطه قال نافع: أنا ابن عبد مناف، قال: أنا ابن بعثطها، قال عبد الله: عبد مناف بيتان: هاشم وعبد شمس فانت بين دارها والجية.

ومن بني جبير بن مطعم: محمد بن جبير، ويكنى أبا سعيد، كان فقيهاً، وكان أبو سليمان بن جبير بن محمد بن جبير أيضاً فقيهاً.

قال الكلبي: وقد كان نافع بن جبير أيضاً فقيهاً.

وقال المدائني: جلد ابن لإبراهيم بن محمد بن جبير بن مطعم في الخمر.

وقال الواقدي: مات محمد بن جبير، وهو أبو سعيد بالمدينة في أيام عمر بن عبد العزيز.

قال: ومات نافع أخوه ويكنى أبا محمد بالمدينة في أيام سليمان بن عبد الملك، وكانا ينزلان داراً واحدة بالمدينة بينهما.

ومنهم: طعيمة بن عدي، أخو مطعم بن عدي، ويكنى طعيمة أبا الريان، وكان مؤذيا لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فأسر يوم بدر، فأمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقتل بين يديه صبراً، وتولى قتله حمزة بن عبد المطلب، وقد ذكرنا خبره فيما تقدم.

ومن بني نوفل بن عبد مناف: الخيار بن عدي بن نوفل وكان عبيد الله بن عدي بن الخيار بن عدي بن نوفل من رجال قريش وصلحائهم، وهو الذي عقد مجلس القلادة، وكان يجلس فيه أشراف قريش والأنصار وعلماؤهم المتخيرون، لا يجلس فيه غيرهم، فلم يزل كذلك حتى وقع فيه شر ومشاتمة، فافترق أهل ذلك المجلس وانتقض إلى اليوم.

ومنهم: عمارة بن الوليد بن عدي بن الخيار بن عدي بن نوفل بن عبد مناف الذي يقول:

تلك هند تصد للبين صدا أدلالاً أم صرم هند أجدّا

يعلم الله أن قد أورثت مني غير منّ بذاك نصحاً وودّا

ما تقربت بالصّفا لأدنو من ك إلاّ نأتي وازددت بعدا

ومن بني نوفل بن عبد مناف: نافع بن ظريف بن عمرو بن نوفل، الذي كتب المصاحف لعثمان بن عفان، ويقال لعمر بن الخطاب.

ومنهم: الحارث بن عامر بن نوفل، كان شريفا عظيم القدر في الجاهلية، وهو أحد المطعمين يوم بدر، وله يقول ابن الزبعرى.

والحارث الوهاب أشرق وجهه كالبدر أشرق ليلة الاظلام

وقتل يوم بدر كافراً، وهو أحد سرقة غزال الكعبة، وكان النبي صلى الله عليه وسلم قال: من لقي الحارث بن عامر بن نوفل فليدعه لأيتام بني نوفل، وفيهم نزلت: "وقالوا إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا".

وأبو سروعة بن الحارث بن عامر بن نوفل، وكان صاحب شراب، حده عمرو بن العاص، وحد معه ابنا لعمر بن الخطاب.

حدثنا عفان بن مسلم ثنا يزيد بن زريع ثنا عبد الرحمن بنإسحاق أن ابن شهاب الزهير حدثه عن أبيه قال: خرجت أنا وأخي عبد الرحمن بن عمر غازيين إلى مصر، فشرب أخي وأبو سروعة شراباً فأتي بهما عمرو بن العاص، فجلد أبا سروعة ظاهرا وجلد أخي في الدار، فأرسل إليهعمر أن أجمع يديه إلى عنقه وجب عليه مدرعة، واحمله إلي على قتب، فلما قدم على عمر جلده علانية على رؤوس الناس، وحلق رأسه وحبسه ستة أشهر فبرأ من جلده ثم أغزاه، فرجع فمات، ومات أبو سروعة بمكة.

ومن بني نوفل: مسلم بن قرظة بن عبد عمرو بن نوفل قتل يوم الجمل، وأخته فاختة بنت قرظة امرأة معاوية بن أبي سفيان، وفي قرظة يقول أبو طالب، وكان قرظة يكنى أبا عمرو:

وإن أبا عمرو أبى غير بغضنا ليطعننا في أهل شاءٍ وحائل

وكان قرظة أعمى، وتزوج ابنة عتبة بن ربيعة، فولدت له فاختة بنت قرظة.

بنو عبد الدار بن قصي

ولد عبد الدار بن قصي: عثمان بن عبد الدار، ووهب بن عبد الدار درج، وكلدة درج، وعبد مناف، وامهم هند بنت لؤي بن ملكان من خزاعة، والسباق، وكان ولده أول من بغى بمكة على قريش فأهلكوا، وأمه من هوازن.

فمن بني عبد الدار: طلحة، وعثمان الأوقص، وأبو سعد بنو طلحة بن عبد العزى بن عثمان بن عبد الدار، قتلوا يوم أحد ومعهم لواء المشركين، ومسافع. والجلاس. وكلاب. والحارث بنو طلحة بن أبي طلحة قتلوا يوم أحد كفارا، ومعهم اللواء، وعثمان بن طلحة بن أبي طلحة، أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم منه المفتاح يوم فتح مكة، فنزلت فيه: "إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها" وقد كان دفع المفتاح إلى العباس فارتجعه منه ورده عليه.

وقال الواقدي قدم عثمان بن طلحة على النبي صلى الله عليه وسلم قبل الفتح بأشهر هو وخالد بن الوليد، وعمرو بن العاص، فأسلموا.

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم حين دفع المفتاح إلى عثمان: دونكموها يا بني أبي طلحة تالدة خالدة لا يظلمكموها إلا ظالم، وكانت الحجابة فيهم.

وقال الواقدي: أقام عثمان بن طلحة بن أبي طلحة بالمدينة حين توفي النبي صلى الله عليه وسلم، ثم رجع إلى مكة ونزلها، ومات في أيام معاوية، ولعثمان عقب، فمن ولده: إبراهيم بن عبيد الله بن عثمان بن عبد الله بن عثمان بن طلحة بن أبي طلحة، الذي يقال له الحجبي، ولاه أمير المؤمنين هارون الرشيد بن أمير المؤمنين المهدي اليمن.

ومنهم: يزيد بن مسافع بن أبي طلحة، قتل يوم الحرة.

وعبد الله بن مسافع قتل يوم الجمل مع عائشة.

ومنهم: شيبة بن عثمان الأوقص بن أبي طلحة، وشيبة الحاجب بعد عثمان بن طلحة بن أبي طلحة، وكان شيبة هذا شديداً على المسلمين، وكان ممن دخل في الأمان يوم فتح مكة، فلما كان يوم حنين صار مع هوازن طمعاً في أن يصيب من النبي صلى الله عليه وسلم غرة.

قال شيبة: فدنوت منه فإذا أهله محيطون به، ورآني فقال لي: يا شيب إلي فدنوت منه فمسح صدري ودعا لي فأذهب الله كل ما كان فيه وملأه إيمانا، وصار أحب الناس إلي، وكان شيبة يكنى أبا صفية، واصطلح الناس على شيبة بن عثمان بمكة، فأقام لهم الحج في أيام يزيد بن شجرة حين وجهه معاوية لإقامة الحج، وعلى الموسم من قبل علي يومئذ: قثم بن العباس. ومن ولده: أم حجر بنت شيبة، كانت عند عبد الله بن خالد بن أسيد، ومسافع بن شيبة، ومات شيبة بمكة في أيام يزيد بن معاوية.

ومنهم:

عبيد الله بن الأعجم بن شيبة الذي ضربه خالد بن عبد الله القسري وهو على مكة، فضرب له خالد، فقال الفرزدق:

لعمري لقد صبت على ظهر خالد شآبيب ليست من سحاب ولا قطر

هذا قول ابن الكلبي، وقال غيره ضرب محمد بن طلحة بن عبيد الله، أو عبد الله بن شيبة، لأنه جرى بينهما كلام، وقد كتبنا خبره في خبر خالد القسري فيما تقدم من كتابنا هذا، والحجابة في بني شيبة والمفتاح عندهم إلى اليوم.

وقاسط بن شريح بن عثمان بن عبد الدار، قتل يوم أحد ومعه اللواء.

وعامر بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار، الذي عقد الحلف بين الأحلاف على المطيبين، وقد ذكرنا قصة المطيبين والأحلاف في أول كتابنا هذا.

والأسودبن الحارث بن عامر، أسر يوم بدر.

ومنهم: مصعب الخير بن عمير بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار.

حدثني الوليد بن صالح ومحمد بن سعد عن الواقدي عن إبراهيم بن محمد العبدري عن أبيه قال: كان مصعب بن عمير فتى مكة شباباً وجمالاً وسيباً، وكان أبواه يحبانه، وكانت أمه تكسوه أحسن الثياب وأرقها، وكان أعطر أهل مكة يلبس الحضرمي من النعال، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكره فيقول: ما رأيت بمكة أحداً أحسن لمة، ولا أرق حلة، ولا أنعم نعمة من مصعب بن عمير فبلغه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو في دار الأرقم بن أبي الأرقم إلى الإسلام، فدخل عليه فأسلم وصدقه وخرج فكتم إسلامه خوفاً من أمه، فكان يختلف إلى النبي صلى الله عليه وسلم سراً، فبصر به عثمان بن طلحة يصلي، فأخبر أمه وقومه بذلك، فخرجت أمه ناشرة شعرها وقالت: لا ألبس خماراً، ولا أستظل، ولا أدهن ولا آكل طعاماً، ولا أشرب شراباً حتى تدع ما أنت عليه، وجاء أخوه فأخذه فحبسه فلم يزل محبوساً حتى تخلص، وخرج إلى أرض الحبشة في الهجرة الأولى والثانية، ثم رجع مع المسلمين حين رجعوا، وهو متغير الحال متقشف، فكفت امه عنه من العذل.

قال الواقدي: وهو مصعب الخير بن عمير بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار بن قصي وأمه خناس بنت مالك بن المضرب بن وهب بن عمرو بن حجير بن عبد بن معيص بن عامر بن لؤي، ويكنى أبا محمد.

وحدثني محمد بن سعد ومظفر بن مرجا قالا: ثنا أبو بكر بن عبد الله بن أبي أويس عن سليمان بن بلال عن أبي عبد العزيز الربذي عن أخيه عن عروة قال: أقبل مصعب بن عمير ذات يوم بالمدينة، وعليه قطعة

نمرة قد وصلها بإهاب قد ردنه، ثم وصله إليها، فلما رآه أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم نكسوا رؤوسهم رحمة له، وليس عندهم ما يغيرون عنه، فسلم فرد عليه النبي صلى الله عليه وسلم وأحسن عليه الثناء وقال: الحمد لله لقد رأيت هذا وما بمكة فتىً من قريش أنعم عند أبويه نعيما منه، ثم أخرجته عن ذلك الرغبة في الخير، وحب الله ورسوله.

حدثني محمد بن سعد عن الواقدي عن ابن أبي سبرة عن عاصم بن عبيد الله عن عبد الله بن عامر بن ربيعة العنزي– من بني عنز بن وائل– قال: كان مصعب لي خدنا وصاحباً مذ يوم أسلم إلى أن استشهد بأحد، خرج معنا إلى الهجرتين جميعاً بأرض الحبشة، وكان رفيقي من بين القوم، فلم أر رجلاً قط كان أحسن خلقاً، ولا أقل خلافا منه.

حدثنا أحمد بن إبراهيم الدورقي ثنا هشام بن عبد الملك أبو الوليد ثنا شعبة أنبانا أبو اسحق قال: سمعت البراء بن عازب يقول: أول من قدم علينا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم مصعب بن عمير، وابن أم مكتوم، يعني في الهجرة إلى المدينة.

وروى الواقدي في إسناده عن مشيخته: أن أهل العقبة الأولى الاثني عشر لما انصرفوا إلى المدينة، ففشا الإسلام في دور النصار، أرسل الأنصار إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يسألونه أن يبعث إليهم رجلا يفقههم في الدين ويقرئهم القرآن ، فبعث إليهم مصعب بن عمير، فقدم على أسعد بن زرارة، وكان يأتي الانصار في قبائلهم ودورهم فيدعوهم إلى الإسلام ويقرأ عليهم القرآن ، فيسلم الرجل والرجلان حتى ظهر الإسلام، وكتب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يستأذنه في التجميع بهم، فأذن له، وكتب إليهرسول الله صلى الله عليه وسلم يأمره أن ينظر إذا زالت الشمس يوم الجمعه فيصلي بهم ركعتين، ويخطب قبلهما، فجمع بهم في دار سعد بن خيثمة، وهم اثنا عشر رجلاً، فهو أول من جمع في الإسلام يوم جمعة.

قال: وقد روى قوم من الأنصار أن أول من جمع بهم أبو أمامة أسعد بن زرارة. ثم خرج مصعب بن عمير من المدينة إلى مكة مع السبعين الذين وافوا العقبة من الأوس والخزرج، فقدم مكة فجاء منزل رسول الله صلى الله عليه وسلم و لم يأت منزله فجعل يخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الأنصار وسرعتهم إلى الإسلام واستبطائهم قدوم رسول الله صلى الله عليه وسلم بما سره، وبلغ أم مصعب قدومه، فأرسلت إليه: ياعاق تقدم بلداً أنا فيه فلا تبدأ بي؟! فقال: ما كنت لأبدأ بأحد قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم ذهب إلى أمه فقالت: أنك على صبأتك بعد، قال: أنا على دين رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو الدين الذي ارتضاه الله لنفسه ورسله، فقالت: ما شكرت تربيتي، مرة بأرض الحبشة ومرة

بأرض يثرب فقال: أفر والله بديني، فبكت فدعاها إلى الإسلام، فقالت: والثواقب لادخلت في دينك، ولكني أدعك وما أنت عليه، فأقام مصعب مع النبي صلى الله عليه وسلم بقية ذي الحجة والمحرم وصفر وقدم المدينة مهاجراً قبل النبي صلى الله عليه وسلم باثنتي عشرة ليلة.

حدثني أبو بكر الأعين ثنا روح بن عبادة عن ابن جريج عن عطاء قال: أول من جمع بالمدينة رجل من بني عبد الدار، قلت: بأمر النبي صلى الله عليه وسلم؟ قال: فبأمر من؟ وقال الواقدي: آخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بين مصعب بن عمير وسعد بن أبي وقاص، وآخى بينه وبين أبي أيوب الأنصاري، ويقال آخى بينه وبين ذكوان بن عبد قيس.

وكان لواء رسول الله صلى الله عليه وسلم الأعظم، وهو لواء المهاجرين، مع مصعب ابن عمير، وكان لواء قريش في الجاهلية في قومه من بني عبد الدار، فلذلك خصه رسول الله صلى الله عليه وسلم من بينهم.

وقال الكلبي والواقدي: شهد مصعب بن عمير بدراً، وحمل اللواء يوم أحد، فلما جال المسلمون ثبت مصعب، فأقبل ابن قميئة، وهو فارس، فضرب يده اليمنى فقطعها، فأخذ اللواء بيده اليسرى وحنا عليه، فضرب يده اليسرى فقطعها فحنا على اللواء وضمه بعضديه إلى صدره، ثم حمل عليه الثالثة بالرمح فأنفذه فاندق الرمح ووقع مصعب وسقط اللواء، فأخذه أبو الروم أخوه، وكان اسمه عبد مناف، فلم يزل في يده حتى دخل المدينة حين انصرف المسلمون.

ويقال إنه لما قتل مصعب وسقط اللواء أخذ اللواء ملك في صورة مصعب، فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول له في آخر النهار: تقدم يا مصعب، فالتفت إليهالملك فقال: لست بمصعب، فعرف رسول الله صلى الله عليه وسلم انه ملك أيد به.

حدثني الحسين بن علي بن الأسودالعجلي ثنا عبيد الله بن موسى ثنا عمر بن صهبان عن معاذ بن عبد الله عن وهب بن فطن عن عبيد بن عمير أن النبي صلى الله عليه وسلم وقف على مصعب بن عمير، وهو منجعف على وجهه، فقرأ هذه الآية: "من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر" ثم قال: أنتم الشهداء عند الله يوم القيامة، ثم أقبل على الناس فقال: زوروهم وسلموا عليهم فوالذي نفسي بيده لا يسلم عليهم مسلم إلى يوم القيامة إلا ردوا عليه.

وحدثني عمرو بن محمد الناقد ثنا أبو معاوية عن الأعمش عن شقيق عن خباب بن الأرت قال: هاجرنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، وجاهدنا في سبيل الله نبتغي وجه الله، فوجب أجرنا على الله فمنا من مضى لم يأكل من أجره شيئاً، منهم مصعب بن عمير قتل يوم أحد فلم يوجد له شيء يكفن فيه إلا نمرة، فكنا إذا وضعناها على رأسه خرجت رجلاه، وإذا وضعناها في رجليه خرج رأسه فقال لها رسول

الله صلى الله عليه وسلم: اجعلوها مما يلي رأسه، واجعلوا على رجليه من الإذخر.
حدثني محمد بن سعد عن محمد بن عمر الواقدي عن إبراهيم بن شرحبيل العبدري عن أبيه قال: كان مصعب بن عمير رقيق البشرة، حسن اللمة ليس بالقصير ولا بالطويل، قتل يوم أحد وهو ابن أربعين سنة أو يزيد شيئاً، فوقف عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو في بردته مقتول فقال: لقد رأيتك وما بها أرق حلة، ولا أحسن لمة منك، ثم أنت اليوم شعث الرأس في بردة، ثم أمر أن يقبر، فنزل في قبره أبو الروم بن عمير أخوه، وكان أسلم بعد اسلامه حين أسلم وعامر بن ربيعة العنزي من بني عنز بن وائل وسويبط بن سعد بن حرملة العبدري.

وكان لمصعب بن عمير ابنة يقال لها زينب تزوجها عبد الله بن عبد الله بن أمية بن المغيرة، وأمها حمنة بنت جحش، فولدت له ابنة.
وقال أبو اليقظان: كان لمصعب بن عمير من حمنة بنت جحش ابنة تزوجها ابن أبي عزيز بن عمير.
ومنهم: أبو الروم بن عمير، كان اسمه عبد مناف، فدعي بكنيته، وكان من مهاجرة الحبشة في رواية الكلبي، وقد اختلف في هجرته فقيل: إنه لم يهاجر إلى أرض الحبشة، ولكنه هاجر إلى المدينة، وقد ذكرناه في أول كتابنا هذا، وأبو عزيز بن عمير قتل يوم أحد كافراً، وكان اسم أبي عزيز زرارة.
ومن ولده: مصعب بن عمير بن أبي عزيز بن عمير بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار قتل يوم الحرة.
ومن بني عبد الدار: سويبط بن حرملة- وبعضهم يقول حريملة- بن مالك الشاعر بن عميلة بن السباق بن عبد الدار بن قصي، وأمه هنيدة بنت خباب خزاعية، وكان سويبط من مهاجرة الحبشة، شهد بدراً وأحداً، ومات ورسول الله صلى الله عليه وسلم متوجه إلى تبوك، وكان يكنى أبا حرملة.
حدثني أبو بكر الأعين ثنا روح بن عبادة عن زمعة بن صالح عن الزهري عن عبد الله بن وهب عن أم سلمة أن أبا بكر خرج في سفر له ومعه نعيمان الأنصاري وسويبط بن حرملة وكلاهما بدري، وكان سويبط على الزاد فجاءه نعيمان فقال: أطعمني قال: لا حتى يأتي أبو بكر، وكان نعيمان رجلاً مزاحاً مضحاكاً، فقال: لأغيظنك، فذهب إلى قوم جلبوا ظهرا، فقال: ابتاعوا مني غلاما عربيا فارهاً ذا بيان ولسان، ولعله يقول بالمراغمة لي: أنا حر فان كنتم تاركيه لذلك فأعلموني ولا تفسدوا علي غلامي وتكسروه، قالوا: بل نبتاعه منك بعشر قلائص نسوقها، وأقبل القوم معه، وهو يسوق القلائص العشر حتى عقلها، ثم قال: دونكم المولد فقالوا لسويبط: قم فقد اشتريناك، فقال سويبط: أنا رجل حر وقد كذبكم، فقالوا عندنا خبرك وألقوا الحبل في عنقه ومضوا به، فلما جاء أبو بكر أخبر الخبر فذهب في اصحاب له فرد القلائص وأخذ سويبطاً.

ومن بني عبد الدار: عكرمة بن عامر بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار وهو الذي باع دار الندوة من معاوية بن أبي سفيان.

ومنهم: بغيض بن عامر بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار الذي كتب الصحيفة بين قريش وبني هاشم وبني المطلب ابني عبد مناف فشلت يده.

وقال غير الكلبي: كتب الصحيفة عكرمة بن عامر.

وقال بعضهم: كتبها منصور بن عكرمة بن عامر بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار، والأول أثبت.

ومنهم: جهم بن قيس بن شرحبل بن هاشم، ويقال: ابن عبد شرحبيل بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار، وكان في مهاجرة الحبشة.

ومنهم: الحارث بن علقمة بن كلدة بن عبد مناف بن عبد الدار رهينة قريش عند أبي يكسوم الحبشي حين دخل مكة قوم من تجارهم في حطمة كانت، فوثب أحداث قريش على بعض ما كان معهم فانتهبوه، فوقعت بينهم منافرة ثم اصطلحوا بعد أن مضت عدة من وجوه قريش إلى أبي يكسوم، فأرضوه واعتذروا إليهوسألوه أن لا يقطع تجار أهل مملكته عنهم فدفع الحارث وغيره رهينة عنده فكان يكرمهم ويصلهم، وكانوا يبضعون البضائع إلى مكة لأنفسهم.

وابنه النضر بن الحارث بن علقمة بن كلدة بن عبد مناف بن عبد الدار ويكنى أبا فايد، وقد ذكرنا خبره في أول كتابنا وقتل يوم بدر كافراً، أسره المقداد فقتله علي بن أبي طالب صبراً بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وأخوه النضير بن الحارث بن علقمة بن كلدة، وكان– فيما قال الواقدي– من مسلمة الفتح، ومات بمكة، وكان ممن أقام بمكة فلم يهاجر إلى المدينة، و لم يذكره محمد بنإسحاق في الهجرة إلى الحبشة.

وقال الهيثم بن عدي: أسلم النضير، وهاجر إلى الحبشة، وقدم إلى مكة فارتد، ثم صحح الإسلام يوم الفتح أو بعيده، واستشهد يوم اليرموك بالشام.

ومنهم: فراس بن النضر بن الحارث بن علقمة بن كلدة بن عبد مناف، هاجر إلى الحبشة في المرة الثانية، وكان قدومه من أرض الحبشة بعد الهجرة إلى المدينة، وقتل يوم اليرموك شهيداً ويكنى أبا الحارث، و لم يذكر الكلبي فراساً.

ومن بني عبد الدار: محمد بن المرتفع بن النضير بن الحارث بن علقمة صاحب البئر بمكة، وهي تعرف ببئر ابن المرتفع، ومات محمد بن المرتفع بمكة، وزعم أبو اليقظان أنه من ولد عثمان بن عبد الدار، والأول أثبت.

ومنهم:

عبد الله بن أبي مسرة بن عوف بن السباق بن عبد الدار، قتل يوم دار عثمان.

ومنهم: أبو السنابل بن بعكك بن الحارث بن السباق، وكان بعكك شريرا شديد البغي، وقد بقي أبو السنابل حينا بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم، وهو الذي قال لسبيعة بنت الحارث، من ولد مالك بن أفصى أخى أسلم، وهي تنسب إلى أسلم فيقال سبيعة الأسلمية، وقد ولدت بعد وفاة زوجها سعد بن خولة حليف بني عامر بن لؤي، ويقال مولاهم: لا يحل لك النكاح حتى يمضي عليك أربعة أشهر وعشر.

حدثني علي بن عبد الله وعباس بن يزيد البحراني قالا: ثنا سفيان بن عيينة عن الزهري عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود عن أبيه قال: وضعت سبيعة بعد وفاة زوجها بعشرين يوماً أو شهر أو نحو ذلك، فمر بها أبو السنابل بن بعكك فقال قد تصنعت للأزواج لا أو يأتي عليك أربعة أشهر وعشر، قالت سبيعة: فأتيت النبي صلى الله عليه وسلم فذكرت ذلك له: فقال: كذب أبو السنابل قد حللت للأزواج فانكحي.

وروى قوم أن أبا السنابل كان خطبها وقال الشاعر:

إن كنت تسأل عن عز ومكرمة ... فتلك دار أبي السّبّاق بالبلد

قال أبو اليقظان: ومن بني عبد الدار بنو جبير، ولهم بقية قليلة بالبصرة.

وقال: هو بعكك بن أصرم بن الحارث بن السباق.

وقال محمد بن سعد كان: نبيه بن وهب أحد بني عبد الدار فقيهاً، مات في فتنة الوليد بن يزيد، روى عنه نافع وليس نبيه بأسن منه.

بنو عبد بن قصي

ولد عبد بن قصي: وهب بن عبد، كان أول من ولي الرفادة، والمنهب بن عبد، وهو أبو كبير وبجير بن عبد.

منهم: طليب بن عمير بن وهب بن عبد بن قصي، وأمه أروى بنت عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي، هاجر إلى الحبشة في المرة الثانية، وهاجر إلى المدينة مع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، واستشهد يوم أجنادين بالشام وهو ابن خمس وثلاثين سنة، وكان يكنى أبا عدي.

وقال الواقدي هو طليب بن عمير بن وهب بن كبير بن عبد، والأول قول ابن الكلبي عندنا، وهو أثبت.

وقال الواقدي: كان إسلام طليب بن عمير في دار الأرقم، فلما أسلم دخل على أمه أروى فقال: قد تبعت محمداً وأسلمت لله، فقالت: إن أحق من آزرت وعضدت ابن خالك، والله لو كنا نقدر على ما يقدر عليه الرجال لمنعناه وذببنا عنه، فقال: يا أمه ما يمنعك من أن تسلمى وتتبعيه فقد أسلم أخوك حمزة؟

فقالت: أنظر ما يصنعه أخواى ثم أكون كأحدهم، ثم إنها شهدت أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وكانت بعد تعضد النبي صلى الله عليه وسلم بلسانها، وتحض ابنها على نصرته، والقيام بأمره.
وقال الكلبي والواقدي: شهد طليب بدراً و لم يكن يذكر ذلك موسى بن عقبة ومحمد بنإسحاق ، وأبو معشر، وليس لطليب عقب وقالوا: لقي طليب بن عمير أبا أهاب بن عزيز التميمي، أحد بني عبد الله بن دارم، وكان أبوه هرب فحالف بني نوفل بن عبد مناف، وقد دس للفتك برسول الله صلى الله عليه وسلم، فضربه بلحي جمل فشجه، فضرب وحمل إلى أمه فقالت: محمد ابن خاله، وهو أولى من دافع عنه وغضب له، وقالت أروى:

إن طليبا نصر ابن خاله　　　آساه في دمه وماله

وكان المسلمون يصلون في شعب فهجم عليهم أبو جهل، وعقبة بن أبي معيط، وجماعة من سفهاء أهل مكة، فعمد طليب إلى أبي جهل فشجه، فأوثقوه فقام أبو لهب دونه فتخلصه، وشكي إلى أروى فقالت: خير أيامه أن ينصر محمداً، وكانت قد أسلمت.
ومن بني عبد بن قصي: الحويرث بن نقيد- بدال غير معجمة- ابن بجير بن عبد، أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقتله من وجده يوم فتح مكة، فقتل كافراً، وكان الذي قتله عليرضي الله عنه.
ومن ولده: جبير بن الحويرث بن نقيد بن عبد، أدرك النبي صلى الله عليه وسلم ورآه و لم يرو عنه شيئاً، وروى عن أبي بكر.
قال أبو اليقظان: لم يبق من بني عبد بن قصي أحد، بادوا كلهم حتى ورث آخرهم عبد الصمد بن علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب ورجل آخر من بني المطلب بن عبد مناف.

بنو عبد العزي بن قصي

وولد عبد العزى بن قصي: أسد بن عبد العزى، وأمه ريطه، وهي الحظياء بنت كعب بن سعد بن تيم بن مرة، وهي التي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا، وكانت ورهاء تنقض ما تغزل.

فولد أسد بن عبد العزى

خويلداً: وامه زهرة بنت عمرو بن حنثر من بني كاهل بن أسد بن خزيمه، وإياها عنى فضالة بن شريك الأسدي في قوله:

أقول لغلمتي أدنو ركابي　　　أفارق بطن مكة في سواد

ونوفل بن أسد. وحبيب بن أسد، قتلا يوم الفجار الآخر، وصيفي بن أسد، درج، وأمهم خالدة بنت هاشم بن عبد مناف بن قصي، والحويرث وأمه ريطة بنت الحويرث الثقفي. وعمرو بن أسد. وهاشم بن أسد، ومهاشم بن أسد درجوا وأمهم ناهية بنت سعيد بن سهم، وطالب بن أسد، وطويلب بن أسد، قتلا يوم الفجار، ولا عقب لهما، وأمهما من الأوس، وخالد بن أسد لأم ولد، والمطلب بن أسد، والحارث بن أسد لبرة بنت عوف بن عبيد بن عويج بن الحارث بن كعب.

فولد خويلد: العوام، وامه من بني مازن بن منصور وحزاماً، وخديجة بنت خويلد، زوج النبي صلى الله عليه وسلم، ونوفل بن خويلد، قتل يوم بدر كافرا، وقتل حزام يوم الفجار الآخر.

فمن بني خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي: أبو عبد الله الزبير بن العوام بن أسد بن عبد العزى، حواري رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأمه صفية بنت عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي. والسائب بن العوام، وأمه صفية، وبجير بن العوام، قتله سعد بن الدوسي بأبي أزيهر، لقيه باليمامة. وعبد الرحمن. وأسود. وأصرم. وبعكك، وأمه من بني السباق.

فأما الزبير فحدثني محمد بن سعد والوليد بن صالح قالا: ثنا الواقدي عن مصعب بن ثابت عن أبي الأسودقال: كان إسلام الزبير بعد أبي بكر، فكان رابعاً أو خامساً، دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: بأبي أنت إلى ماذا تدعو؟ فقال: أدعوك إلى أن تشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، قال: فإني أشهد أن لا إله إلا الله، وأنك رسول الله يا رسول الله، إن شئت لنبادينهم بالإسلام ولا نستتسر به، فإنا على حق وهم على باطل، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إنا لم نؤمر بالقتال، فخرج الزبير ولقيه أبو البختري، وهو العاص بن هاشم بن الحارث بن أسد بن عبد العزى قال: أفعلتها يا بن العوام؟ قال: نعم، قال: إنا لا نقرك وما تريد من مفارقة دين آبائنا وعيب آلهتنا، قال الزبير: اصنع ما بدا لك فإنما تعبدون حجراً لا يسمع ولا يبصر، ولا ينفع ولا يضر، قال أبو البختري: إنما نعبدهم "ليقربونا إلى الله زلفى إن الله يحكم بينهم فيما هم فيه يختلفون".

حدثني محمد بن سعد عن الواقدي عن مصعب بن ثابت عن عبد الله بن الزبير قال: شهد الزبير بدراً وهو ابن تسع وعشرين سنة، وقتل وهو ابن أربع وستين.

وقال محمد بن سعد أخبرت عن أبي أسامة حماد بن أسامة عن هشام بن عروة قال: أسلم الزبير وله ست عشرة سنة، و لم يتخلف عن غزاة غزاها رسول الله صلى الله عليه وسلم.

حدثني مظفر بن مرجي عن عبد الله بن محمد بن أبي شيبة عن أبي أسامة عن هشام بن عروة عن أبيه

بنحوه.

وحدثني الوليد بن صالح ومحمد بن سعد عن ابن أبي الزناد عن هشام بن عروة عن عروة قال: كنت ربما أخذت بالشعر الذي على منكبي الزبير، وأنا غلام، فاتعلق به إلى ظهره.

وقال الواقدي: أخبرني غير واحد من آل الزبير أنه كان رجلاً ليس بالقصير ولا الطويل، إلى الخفة ما هو في اللحم خفيف اللحية أسمر اللون، أشعر لا يغير شيبه.

وحدثني الحسين بن علي بن الأسودثنا أبو أسامة عن هشام بن عروة عن أبيه قال: قاتل الزبير، وهو غلام بمكة، رجلاً فكسر يده، وضربه ضرباً شديداً، فمر بالرجل إلى صفية وهو يحمل، فقالت: ما شأنه؟ قالوا: قاتل الزبير فقالت:

كيف رأيت زبرا … أأقطاً أم تمرا

أم مشمعلاً صقرا

وكانت صفية تزفن الزبير، وهو صغير، وتقول:

إن ابني الأصغر جب حنكل … أخاف أن يعقني ويبخل

يا رب أمتعني ببكري الأول … بالماجد الفياض والمؤمل

حدثنا عفان ثنا حماد بن سلمة أنبأ هشام بن عروة عن عروة أن صفية كانت تضرب الزبير ضرباً شديداً، وهو يتيم، فقيل لها: قتلته، خلعت فؤاده، أهلكت هذا الغلام فقالت:

انما أضربه كي يلب … ويجر الجيش ذا الجلب

قال: فكسر يد غلام ذات يوم فجيء بالغلام إليها فقالت:

كيف رأيت زبرا … أأقطا أم تمرا

أم مشمعلا صقرا

حدثني محمد بن سعد ثنا عمرو بن عاصم الكلابي عن همام عن هشام بن عروة عن أبيه قال: كانت على الزبير ريطة قد اعتجر بها يوم بدر وكانت صفراء، وكانت على الملائكة يومئذ عمائم صفر فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: نزلت الملائكة اليوم على سيماء الزبير.

حدثنا اسحق بن اسرائيل ثنا يعقوب بن الحضرمي ثنا سكين بن عبد العزيز ثنا حفص بن خالد عن شيخ صحب الزبير بن العوام في بعض أسفاره، قال: أصابت الزبير جنابة في أرض قفر، فقال لي استرني فسترته، قال: فحانت مني التفاتة فقلت: والله لقد رأيت بك آثاراً ما رأيتها بأحد قط، فقال: والله ما منها

جراحة إلا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، وفي سبيل الله.

حدثنا أبو يعقوب اسحق بن أبي اسرائيل ثنا إسماعيلبن إبراهيم الأسدي عن سوار بن عبد الله عن الحسن أن الزبير دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يشتكي فقال: ما أكثر ما تعمدك جعلني الله فداءك، فقال صلى الله عليه وسلم: "أما تركت أعرابيتك بعد" أو كما قال صلى الله عليه وسلم، قال إسماعيلبن إبراهيم: يعني في قوله جعلني الله فداءك.

محمد بن سعد عن الواقدي عن ابن أبي الزناد عن هشام بن عروة قال: أخبرني أبي أن الزبير قال: رأيت طلحة سمى ولده باسماء الأنبياء وأنا أسمي بني بأسماء الشهداء لعلهم يستشهدون، فسمى عبد الله: بعبد الله بن جحش، والمنذر: بالمنذر بن عمرو بن خنيس، وعروة: بعروة بن مسعود الثقفي، وحمزة: بحمزة بن عبد المطلب، وجعفرا: بجعفر بن أبي طالب، ومصعب: بمصعب بن عمير، وعبيدة: بعبيدة بن الحارث، وخالداً: بخالد بن سعيد، وعمراً: بعمرو بن سعيد بن العاص قتل يوم اليرموك.

حدثني يحيى بن معين ثنا عبد الرزاق أنبأ معمر عن قتادة عن أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم رخص للزبير في قميص حرير.

حدثنا وهب بن بقية الواسطي ثنا يزيد بن هرون عن سعيد بن أبي عروبة عن نافع قال: سمع ابن عمر رجلاً يقول: أنا ابن حواري رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال ابن عمر: إن كنت من ولد الزبير وإلا فلا.

حدثنا روح بن عبد المؤمن المقرئ ثنا المعلى بن أسد، أخو بهز بن أسد، ثنا محمد بن حمران ثنا عبد الله بن بشر عن أبي كبشة الأنماري قال: كان الزبير على المجنبة اليسرى، والمقداد على المجنبة اليمنى يوم فتح مكة فلما هدأ الناس جاءا بفرسيهما، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فمسح الغبار عن وجوههما بثوبه وقال: "إني جعلت للفرس سهمين، وللفارس سهماً فمن نقصهما نقصه الله".

حدثنا محمد بن سعد ثنا أنس بن عياض عن هشام بن عروة عن أبيه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "إن لكل نبي حوارياً وحواري الزبير ابن عمتي".

حدثني عمرو بن محمد الناقد ومحمد بن سعد قالا: ثنا أبو نعيم الفضل بن دكين ثنا سفيان عن محمد بن المنكدر عن جابر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الاحزاب: من يأتيني بخبر القوم؟ فقال الزبير: أنا، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن لكل نبي حوارياً وحواري الزبير.

حدثنا محمد بن سعد أنبا أنس بن عياض أنبا هشام بن عروة عن أبيه أن الزبير محا نفسه من الديوان لما قتل عمر بن الخطاب.

حدثني محمد بن سعد ثنا أبو نعيم الفضل بن دكين ثنا حفص أبو غياث عن هشام بن عروة عن أبيه أن

الزبير جعل داراً له حبيساً على كل مردودة من بناته.
حدثنا عفان ثنا حماد بن سلمة أنبا هشام بن عروة أخبرني أبي قال: سمعت عبد الله بن الزبير يقول: فدى رسول الله صلى الله عليه وسلم الزبير يوم الأحزاب بأبويه.

حدثنا الحسين بن علي بن الأسودثنا أبو أسامة حماد بن أسامة عن هشام بن عروة عن أبيه عن عبد الله بن الزبير قال: لما وقف الزبير يوم الجمل دعاني فقال: يا بني إنه لا يقتل اليوم إلا ظالم أو مظلوم، وإني لأراني إلا مما قتل مظلوماً، وإن أكبر همي ديني، أفترى ديننا يبقي من مالنا شيئاً؟ ثم قال: يا بنى بع مالي واقض ديني، قال: وأوصى بالثلث وقال: إن فضل من مالنا بعد قضاء الدين شيء فثلثه لولدك، وكان بعض ولد عبد الله قد إرى بعض بني الزبير: خبيب، وعباد، وقال: إن عجزت عن شيء من ديني فاستعن بمولاي- يعني الله تبارك وتعالى- قال: فوالله ما دريت ما عنى حتى أخبرني به، فما وقعت من دينه في كربة إلا قلت: يا مولى الزبير أقض عنه فيقضيه، قال: وقتل الزبير و لم يدع ديناراً ولا درهماً إلا أرضين منها الغابة، وأحد عشر داراً بالمدينة، وداراً بمصر، وداراً بالكوفة، وداراً بالبصرة، قال: وما ولي الزبير إمارة قط ولا جباية ولا خراجاً ولا شيئاً إلا أن يكون في غزاة مع النبي صلى الله عليه وسلم، أو مع أبي بكر، أو مع عمر، أو مع عثمان.
قال عبد الله: فحسبت ما عليه من الدين، وإنما كان الرجل يستودعه المال فيقول له الزبير: هو سلف علينا إني أخشى عليه الضيعة، قال: فلقيني حكيم بن حزام فقال: يا بن أخي كم على أخي من الدين؟ قلت: مائة ألف، فقال: والله ما أرى أموالكم تتسع لهذا، قلت: أفرأيت إن كان ألفي ألف ومائتي ألف؟ قال: ما أراكم تطيقون هذا، فإن عجزتم فاستعينوا بي، قال: وكان الزبير اشترى الغابة بسبعين ومائة ألف فبيعت بألف ألف وستمائة ألف. قال: من كان له على الزبير دين فليوافنا بالغابة، قال: فأتاه عبد الله بن جعفر بن أبي طالب، وكان له على الزبير أربعمائة ألف، فقال لعبد الله: إن شتم تركتها لكم؟ فقال عبد الله: لا، فقال قال: فإن شئتم جعلتموها فيما يؤخر إن أخرتم شيئاً؟ قال: عبد الله: لا، قال: فاقطعوا لي قطعة، فقال عبد الله: لك من ها هنا إلى ها هنا، قال: فباع ذلك بدينه فاستوفاه، وبقي منها أربعة أسهم ونصف فباعها بأربعمائة ألف وخمسين ألفاً، وكان ما بيع قبل ذلك بتمام ألف ألف وستمائة ألف، فلما قضى دين أبيه قال ولد الزبير: اقسم بيننا ميراثنا فقال: لا والله أو أنادي بالموسم أربع سنين: ألا من كان له على الزبير دين فليأتنا نقضه، فنادى أربع سنين ثم قسم الميراث بينهم فرفع الثلث، وكان للزبير اربع نسوة فأصاب كل امرأة من ثمن عقاراته ألف ألف ومائة ألف، فكان الثمن: أربعة آلاف وأربعمائة ألف درهم، وكان ثلثا المال الذي اقتسمه الورثة خمسة وثلاثين ألف ألف ومائتي ألف.

وحدثني عبد الله بن صالح المقرئ قال: سمعت سفيان بن عيينة يقول: اقتسم ميراث الزبير على أربعين ألف ألف درهم.

حدثني محمد بن سعد عن الواقدي عن ابن أبي سبرة عن هشام بن عروة عن أبيه قال: قيمة ما ترك الزبير أحد وخمسون أو إثنان وخمسون ألف ألف درهم.

حدثني محمد بن سعد عن الواقدي حدثني أبو حمزة عبد الواحد بن ميمون عن هشام عن عروة قال: كانت للزبير خطط بمصر، والاسكندرية، وبالكوفة، والبصرة دور، وكانت له غلات تأتيه من أعراض المدينة.

حدثني الوليد بن صالح عن الواقدي عن محمد بن عبد الله عن الزهري عن عروة أن رجلا من الأنصار خاصم الزبير في شراج الحرة، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: اسق يا زبير، ثم أرسل إلى جارك.

حدثنا خلف البزار عن أبي بكر بن عياش عن هشام بن عروة عن أبيه قال: أقطع عمر خوات بن جبير الأنصاري أرضاً مواتا، فاشتريناها منه.

حدثني الحسين بن علي بن الأسودعن يحيى بن آدم عن أبي معاوية عن هشام بن عروة عن أبيه قال: أقطع أبو بكر الزبير ما بين الجرف إلى قناة.

وحدثنا الحسين ثنا يحيى بن آدم أنبا قيس بن الربيع عن هشام عن عروة قال: أقطع رسول الله صلى الله عليه وسلم الزبير أرضاً من أرض بني النضير ذات نخل وشجر.

وروي ان عمر اقطع الزبير العقيق أجمع.

المدائني عن أبي اليقظان عن جويرية قال: أقطع رسول الله صلى الله عليه وسلم الزبير حضر فرسه فركض حتى أعيى فرسه، ثم رمى بالسوط.

حدثني أحمد بن إبراهيم الدورقي ثنا أبو اسامة أنبا هشام بن عروة عن أبيه عن أسماء بنت أبي بكر قالت: تزوجني الزبير وماله في الأرض مال ولا مملوك ولا شيء غير فرسه، فكنت أعلفه وأكفيه مؤنته وأسوسه، وأدق النوى لناضحه، وأعلفه، واستقي الماء وأخرز غربه، وأعجن، و لم أكن أحسن الخبز فكن جاراتي من الأنصار يخبزن لي، وكنت أنقل النوى من أرض الزبير التي اقطعه إياها رسول الله صلى الله عليه وسلم على رأسي وهي على ثلاثة فراسخ، قالت: فجئت يوماً وعلى رأسي نوى فلقيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه نفر من أصحابه فدعاني ثم قال: اخ اخ ليحملني خلفه، قالت: فاستحييت أن أسير مع الرجال، وذكرت الزبير وغيرته، قالت: وكان الزبير أغير الناس، فعرف رسول الله صلى الله عليه وسلم أني قد استحييت فمضى، فأخبرت الزبير بما صنع رسول الله صلى الله عليه وسلم وباستحيائي منه،

وقلت: عرفت غيرتك، فقال: أعلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أغار، والله لحملك النوى كان أشد علي من ركوبك معه، ثم أرسل إلي أبو بكر بعد ذلك بخادم فكفتني سياسة الفرس، فكأنما أعتقني.

حدثني أحمد بن إبراهيم ثنا عبيد بن موسى أنبا الفضيل بن مرزوق حدثني شقيق بن عقبة عن قرة بن الحارث عن جون بن قتادة.

قال قرة بن الحارث: كنت مع الأحنف يوم الجمل وكان جون بن قتادة ابن عمي مع الزبير بن العوام فحدثني جون قال: كنت مع الزبير فجاء فارس، وكانوا لا يسلمون على الزبير إلا بالإمرة فقال: السلام عليك أيها الأمير، فقال: وعليك السلام، قال: إن هؤلاء القوم قد أتوا إلى مكان كذا وكذا، فلم أر قوماً أرث سلاحاً، ولا أقل عدداً، ولا أرعب قلوباً منهم، ثم انصرف، وجاء فارس آخر فقال: السلام عليك أيها الأمير، قال: وعليك السلام، قال: جاء القوم حتى أتوا مكان كذا فسمعوا بما جمع الله لكم من العدد والعدة والحد فقذف الله في قلوبهم الرعب فولوا مدبرين، فقال الزبير: إيهاً عنك الآن، فوالله لو لم يجد ابن أبي طالب إلا العرفج لدب إلينا فيه، ثم انصرف وجاء فارس وقد كادت الخيول ترخ من الرهج فقال: السلام عليك أيها الأمير، قال: وعليك السلام، قال: هؤلاء القوم قد أتوك، ولقيت عمارا فقلت له وقال لي، قال الزبير: إنه ليس فيهم، قال: بلى والله إنه لفيهم، قال: والله ما جعله الله فيهم، قال: بلى والله لقد جعله الله فيهم، قال: فلما رأى الرجل يخالفه، قال لبعض أهله: اركب فانظر أحقاً ما يقول؟ فركب معه وأنا أنظر إليهما حتى وقفا في ناحية الخيل طويلا ثم رجعا إلينا، فقال الزبير لصاحبه: ما عندك؟ قال: صدقك الرجل، فقال الزبير: يا جدع أنفاه، أو يا قطع ظهراه، قال الفضيل: لا أدري أيهما قال، قال: ثم أخذه أفكل حتى جعل السلاح ينتفض، قال جون: فقلت: ثكلتني أمي، هذا الذي كنت أريد أن أموت معه، أو أعيش، والذي نفسي بيده ما أرى هذا إلا من شيء سمعه، أو رواه، وهو فارس رسول الله صلى الله عليه وسلم.

قال: فلما تشاغل الناس انصرف فجلس على دابته ثم ذهب، قال: فانصرف جون فجلس على دابته فلحق بالأحنف وجاء فارسان حتى أتيا الأحنف وأصحابه فنزلا فأكبا يناجيانه، فرفع الأحنف رأسه فقال: يا عمرو بن جرموز، يا فلان فأتياه، فأكبا عليه فناجاهما ساعة، ثم انصرفا ثم جاء عمرو بن جرموز إلى الأحنف، فقال: أدركته بوادي السباع فقتلته، فكان قره يقول: والذي نفسي بيده إن صاحب الزبير الأحنف.

حدثناإسحاق بن اسرائيل ثنا معاوية بن عمرو الأزدي أنبا ابن المبارك حدثني ابن لهيعة ثنا محمد بن عبد الرحمن بن نوفل قال: سمعت عروة يقول: سمعت الزبير يقول: أنا والله أقرعت لمائة من المهاجرين سهمان بدر، فاسهمت لهم.

حدثنا اسحق بن ابي اسرائيل ثنا رفاعة بن إياس أبو العلاء الضبي حدثني أبي عن أبيه أن عليا دعا الزبير فقال: أنت آمن ابرز إلي أكلمك، فبرز له بين الصفين حتى اختلفت أعناق دابتيهما فقال: يا زبير أنشدك الله الذي لا إله إلا هو، أخرج نبي الله يمشي وخرجنا معه أنا وأنت فقال لك: يا زبير لتقاتلنه ظالماً، وضرب كتفك؟ فقال: اللهم نعم، قال: أفجئت تقاتلني؟ فرجع عن قتاله وسار من البصرة ليلة فنزل بماء لبني مجاشع، فلحقه رجل من بني تميم ثم من بني سعد، يقال له ابن جرموز فقتله، وجاء بسيفه إلى علي فقال: بشر قاتل ابن صفية بالنار.

حدثني أبو بكر الأعين ثنا الحسن بن موسى الأشيب حدثني ثابت بن يزيد عن هلال عن عكرمة عن ابن عباس: أنه أتى الزبير فقال: يا بن صفية بنت عبد المطلب جئت تقاتل علي بن أبي طالب بن عبد المطلب؟ قال: فرجع الزبير فلقيه ابن جرموز فقتله، فقال ابن عباس لعلي: إني رأيت قاتل ابن صفية فقال: إلى النار، إلى النار.

حدثني بكر بن الهيثم حدثني عبيد الله بن موسى عن الحسن بن صالح عن رجل عن الشعبي قال: لقي طلحة والزبير الأحنف بن قيس فدعواه إلى بيعتهما على الطلب بدم عثمان ومخالفة علي، فقال: أنتما أمرتماني ببيعته؟ فقالا: أف لك إنما أنت فريسة آكل وتابع غالب، فتركهما ومضى.

وحدثني محمد بن أبان الواسطي ثنا جرير عن الحسن أنه ذكر الزبير فقال: عجباً للزبير أخذ بحقوي أعرابي من بني مجاشع: أجرني، أجرني، حتى قتل، أما والله لقد كنت في ذمة منيعة.

حدثني بكر بن الهيثم حدثني أبو حكيم العدني عن معمر عن قتادة قال: لما اقتتلوا يوم الجمل فكانت الدبرة على أصحاب طلحة والزبير، أفضى علي إلى الناحيةالتي فيها أصحاب الزبير، فلما رآه واجهه قال له علي: يا أبا عبد الله أتقاتلني، وقد عرفت ما أعطيتني من بيعتك، وما سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فانسل على فرسه منصرفاً إلى المدينة، فلما صار بسفوان لقيه رجل من بني مجاشع يقال له النعر بن زمام فقال له: أجرني، فقال النعر: أنت في جواري يا حواري رسول الله، فقال الأحنف: واعجباً للزبير لف غارين من المسلمين، ثم قد نجا بنفسه، فسمع ذلك ابن جرموز، فاتبعه وأصحابه فقتله، وأخذ رأسه فأتى به علياً، فبعث علي من دفنه مع بدنه بوادي السباع.

حدثني روح بن عبد المؤمن المقرئ حدثني أبو عامر العقدي عن الأسودبن شيبان عن خالد بن سمير قال: قتل الزبير عمرو بن جرموز، فقبر بوادي السباع.

حدثني عمرو الناقد ثنا أبو نعيم الفضل بن دكين ثنا عمران بن زائدة عن أبيه عن أبي خالد الوالبي قال: دعا الأحنف بني تميم فلم يجيبوه، ثم دعا بني سعد فلم يجيبوه، فاعتزل في رهط فمر الزبير على فرس له

يقال له ذو النعال، فقال الأحنف: هذا الذي ألب بين الناس، قال: فاتبعه رجلان ممن كان معه، فحمل عليه أحدهما فطعنه، وحمل عليه الآخر فقتله، وجاء برأسه إلى باب علي، فقال: بشر قاتل ابن صفية بالنار، فألقاه من يده وذهب.

حدثني عمرو ثنا قبيصة ثنا سفيان عن جعفر بن محمد عن أبيه قال: قال علي: إني لأرجو أن أكون أنا وطلحة والزبير من الذين قال الله: "أخواناً على سرر متقابلين".

حدثنا أحمد بن إبراهيم الدورقي ثنا أبو عامر العقدي ثنا الأسودبن شيبان عن خالد بن سمير قال: قال الناس: بايعوا الزبير على الخلافة فلما سمعت ذلك عائشة قالت: لا تبايعوا الزبير على الخلافة، ولكن بايعوه على القتال، فإن أظفركم الله فسترون رأيكم، قال: فوثب عبد الله بن الزبير فقال: يا زبير أتدري ما تريد هذه؟ تريد أن تجعل حار الناس بك وبارده لابن عمها طلحة، أقعد على نجائبك ثم ارم بها مكة حتى تقلع سيوف العرب وقد أفنيت سراتها ووجوها فتركب إليك سعاتها، قال: فركب الزبير فأصابه أخو بني تميم بوادي السباع.

وقال أصحاب السيرة: لما كان يوم الجمل وهو يوم الخميس لعشر ليالي خلون من جمادى الآخرة سنة ست وثلاثين بعد القتال، انصرف الزبير يريد المدينة، فلقيه النعر بن زمام المجاشعي فقال: يا حواري رسول الله إلي فأنت في ذمتي، وبلغ الأحنف ذلك فقال: ما أصنع إن كان الزبير لف بين غارين من المسلمين فقتل أحدهما الآخر، ثم هو يريد اللحاق بأهله، فاتبعه عمرو بن جرموز بن قيس، احد بني جشم بن ربيعة بن كعب بن سعد بن زيد مناة بن تميم، وفضيل بن عابس، ونفيل بن حابس التميميون، فلحقه ابن جرموز فطعنه، فحمل عليه الزبير، فلما ظن أنه قاتله دعا صاحبيه وقال: الله الله يا زبير فأمسك الزبير، فحملا عليه وابن جرموز معهم فقتلوه، واحتز ابن جرموز رأسه، وأخذوا سيفه، فلما أتي به علي قال: سيف طال ما جلى به عن رسول الله صلى الله عليه وسلم الكرب، ولكنه الحين ومصارع السوء، فذلك قول جرير للفرزدق:

قتل الزبير وأنتم جيرانه ... غيّا لمن قتل الزبير طويلا

قالت عاتكة بنت زيد بن عمرو بن نفيل امرأة الزبير، وهي التي كان أهل المدينة يقولون: من أراد الشهادة فليتزوجها، وذلك أنها كانت عند عبد الله بن أبي بكر، ثم عند عمر بن الخطاب، ثم عند الزبير.

غدر ابن جرموز بفارس بهمةٍ ... يوم اللقاء وكان غير معرّد

يا عمرو لو نبهته لوجدته ... لا طائشاً رعش السّنان ولا اليد

شلت يمينك أن قتلت لمسلماً حلت عليك عقوبة المتعمد
ثكلتك امك هل اخرت بمثله فيمن مضى فيما تروح وتغتدي
كم غمرة قد خاضها لم يثنه عنها طرادك يا بن فقع الفدفد

وغزا الزبير مصر فصعد سور النوبة وحده، فقاتل عليه، فكان فتحها بصعوده.

وأما السائب بن العوام أخو الزبير

فإن أباه مات قبل المبعث، وقال بعضهم: قتل في الجاهلية، والسائب يرضع وكان السائب حين اسلم الزبير صغيراً، استشهد يوم اليمامة في أيام أبي بكر.

حدثني عبد الواحد بن غياث ثنا حماد بن سلمة عن هشام بن عروة عن أبيه في حديث طويل قال: التقى المسلمون والمشركون باليمامة فولى المسلمون مدبرين حتى بلغوا الرحال، فقال السائب بن العوام: أيها الناس إنكم قد بلغتم الرحال لا مفر لامرئ بعد رحله، فهزم الله المشركين، وقتل مسيلمة.

وقال أبو اليقظان البصري: كان للعوام ابن يقال له الأسود، وكان أكبر ولد العوام، وأمه من بني عبد الدار، فلما أسلم الزبير قيده واشتد عليه، ولا عقب له. قال وكان له: أصرم وبعكك، أمهما من بني السباق بن عبد الدار درجا.

قالوا جميعاً: كان الزبير والسائب لصفية بنت عبد المطلب، خلف عليها العوام بعد الحارث بن حرب بن أمية بن عبد شمس.

وأما بجير بن العوام فقتل بأبي أزيهر باليمامة.

وأما عبد الرحمن بن العوام فاستشهد في أيام عمر في بعض المغازي، وقتل ابنه مع عثمان يوم الدار.

وولد للزبير: عبد الله بن الزبير وهو أول مولود في الإسلام بالمدينة من قريش، فكبر المسلمون حين بشروا به، وكان المشركون يقولون قد انقطع نسلهم.

وعروة والمنذر. وعاصم. والمهاجر. وخديجة الكبرى. وأم الحسن. وعائشة. وأمهم أسماء بنت أبي بكر الصديق.

وخالد. وعمرو. وحبيبة. وسودة وهند، أمهم أم خالد، وهي أمة بنت خالد بن سعيد بن العاص بن أمية.

ومصعب. وحمزة. ورملة، أمهم الرباب بنت أنيف بن عبيد من بني عليم من كلب.

وعبيدة بن الزبير، وجعفر، أمهما زينب، وهي أم جعفر بنت مرثد بن عمرو من بني قيس بن ثعلبة بن عكابة.

وزينب بنت الزبير، أمها أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط.
وخديجة الصغرى أمها الحلال بنت قيس من بني النضير بن قعين بن الحارث بن ثعلبة بن دودان بن أسد.
حدثني الحرمازي عن العتبي قال: قال بعض حشم زينب بنت الزبير لزينب: أهزل ما تكونين إذا قدم زوجك؟ فقالت: إن الحرة لا تضاجع زوجها بملء بطنها، وكانت عند عنبسة بن أبي سفيان.
قال: وخطب عبد الملك رملة بنت الزبير، فقالت: إني لا آمن نفسي سوء ظن من قتل أخي، وكانت أخت مصعب لأمه.
وحدثني التوزي عن أبي عبيدة قال: قدمت ابنة للزبير مكة حاجة فخطبها رجل من بني أمية قد كانت أمها وأمه قبل ذلك عند رجل من قريش فأبت وقالت: أأباه لخصال ثلاث: لأني أكره أن أرجع إلى أرض هاجر منها أبي، ولأني قدمت حاجة على ظهر بعير ثم أتزوج، وأن أكون كنةً لمن كانت لأمي ضرة.
قالوا: وأسلم مع الزبير حاطب بن أبي بلتعة اللخمي، ثم أحد بني خالفة بن أذب بن جزبلة، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم سمى بني خالفة حين وفدوا بني راشدة وكانت كنية حاطب أبا محمد، وهو حليف الزبير، وقد شهد: يوم بدر، وأحد، والخندق والمشاهد كلها، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أرسله إلى المقوقس بالاسكندرية.

حدثني محمد بن حاتم بن ميمون المروزي ثنا محمد بن فضيل أنبأ حصين عن سعد بن عبيدة عن أبي عبد الرحمن السلمي عن علي قال: بعثني رسول الله صلى الله عليه وسلم، والزبير، وأبا مرثد الغنوي، وكلنا فارس، فقال لنا: انطلقوا حتى تبلغوا روضة خاخ فان بها امرأة معها صحيفة من حاطب بن أبي بلتعة إلى المشركين فأتوني بها، قال: فأدركناها حيث قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلنا: اين الكتاب؟ قالت: ما معي كتاب، فأنخنا بعيرها، وفتحنا رحلها فلما رأت الجد أهوت إلى حجزتها وعليها إزار من صوف فأخرجت الكتاب، فقال النبي صلى الله عليه وسلم لحاطب: ما حملك على ما صنعت؟ فقال: يا رسول الله ما بي ألا أكون مؤمنا بالله ورسوله، ولكني أردت أن يكون لي يد عند القوم يدفع الله بها عمن بين ظهريهم من أهلي ومالي، فإنه ليس من أصحابك أحد إلا وله بمكة من يذب عن ماله وأهله سواي، فقال: صدق ولا تقولوا له إلا خيراً فقال عمر: يا رسول الله إنه قد خان الله ورسوله فاذن لي اضرب عنقه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أو ليس هو من أهل بدر، وما تدري لعل الله قد اطلع على أهل بدر فقال لهم: اعملوا ما شئتم فقد أوجبت لكم الجنة، فدمعت عينا عمر وقال: الله ورسوله أعلم، فنزلت: "يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودّة".
وحدثني أحمد بن هشام بن بهرام ثنا عمرو بن عون ثنا خالد بن عبد الله الطحان عن حصين عن سعد بن

عبيدة عن أبي عبد الرحمن عن علي أنه سمعه يقول: كتب حاطب بن أبي بلتعة إلى أهل مكة: إن محمداً سائر إليكم، ثم ذكر نحوا من حديث محمد بن فضيل.

حدثني بكر بن الهيثم أنبا هشام بن يوسف عن معمر عن الكلبي وقتادة والزهري قال: كتب حاطب بن أبي بلتعة إلى أهل مكة مع امرأة يقال لها سارة- قال الكلبي: مولاة عمرو بن هاشم، وقال الزهري مولاة قريش- فوجه رسول الله صلى الله عليه وسلم في طلبها فوجدت في بعض الطريق وقد جعلت كتاب حاطب في عقصتها، فأخذ منها فترلت: "يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة".

وحدثنا محمد بن حاتم بن ميمون ثنا شبابة أنبأ ليث عن أبي الزبير عن جابر أن عبداً لحاطب بن أبي بلتعة جاء يشكوه فقال: ليدخلن حاطب النار يا رسول الله، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: كذبت لا يدخلها لأنه قد شهد بدراً.

قالوا: وانصرفت سارة إلى مكة مرتدة فقتلها رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم فتح مكة.

قال الواقدي: كان حاطب من الرماة المذكورين من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، ومات بالمدينة سنة ثلاثين، وهو ابن خمس وستين، وصلى عليه عثمان.

قال الواقدي: وحدثني شيخ من ولد حاطب عن أبيه قالوا: كان حاطب رجلاً حسن الجسم، خفيف اللحية أجلى، إلى القصر ما هو، شثن الأصابع.

حدثنا محمد بن سعد عن الواقدي عن يحيى بن عبد الله بن أبي فروة عن يعقوب بن عتبة قال: ترك حاطب بن أبي بلتعة يوم مات أربعة آلاف دينار ودراهم ودارا وغير ذلك، وكان تاجراً يبيع الطعام وغيره. قالوا واسلم سعد مولى حاطب بن أبي بلتعة، وهو سعد بن خولي بن سبرة بن دريم بن القوسار بن الحارث بن مالك بن عميرة بن عامر بن بكر بن عوف بن عذرة بن زيد اللات بن رفيدة بن ثور بن كلب بن وبرة بن قضاعة، وكان أصله سباء، فصار إلى حاطب فأنعم عليه وشهد بدراً، وقتل يوم أحد شهيداً، وفرض عمر بن الخطاب لابنه عبد الله بن سعد في الانصار.

قال ابن الكلبي وفي امرأة من ولد القوسار يقول أيمن بن خريم بن فاتك الأسدي:

ان ابنة القوسار يا صاح دلني ... عليها قضاعي يحث جماليا

فأعطيت خوليّ بن فروة ما اشتهى ... من المشمخرات الذرا والروابيا

والقضاعي خولي بن فروة.

قال: وخولي بن فروة بن القوسار دله عليها فروة بن القوسار هذا رجل من بني عميرة أيضاً .

وقال قوم: هو سعد بن خولي بن فروة بن القوسار، وذلك وهم.
وقال أبو معشر: هو من مذحج وذلك وهم. قالوا: وليس لسعد عقب.
قال أبو اليقظان: كان الزبير، حواري رسول الله صلى الله عليه وسلم، واحداً ممن سمي للجنة، وقتل وهو ابن ستين سنة.
قال: وتزوج رملة بنت الزبير عثمان بن عبد الله بن حكيم بن حزام، ثم خلف عليها خالد بن يزيد بن معاوية وقد ذكرت قصتها وشعره فيها فيما مضى من كتابنا هذا.

وكانت خديجة بنت الزبير عند أبي يسار بن شيبة بن ربيعة.
وكانت عائشة عند الوليد بن عثمان بن عفان.
وكانت أم الحسن بنت الزبير عند عبد الرحمن بن الحارث بن هشام، وكانت إحدى بناته عند عنبسه بن أبي سفيان، وكانت أخرى من بناته عند عبد الرحمن بن الأسودبن أبي البختري من ولد أسد بن عبد العزى.
وأما جعفر بن الزبير فكان من فتيان قريش وكان يتغزل وهو القائل:

ولمجلس القرشي حق واجب	فارعى له حق الكريم الأروع
ما تأمرين بجعفر وبحاجة	يستامها في خلوة وتضرع

ولجعفر عقب بالمدينة.
وأما: عبيدة بن الزبير وله عقب، ومن ولده أبو بكر بن عبيدة، وكان له ابن معتوه يقال له عبد الرحمن بن أبي بكر، فكان خاله المغيرة بن عبد الرحمن بن هشام يقول لشأنه، وكان لا يطعم شيئاً إلا رمى به، ولا يكسى ثوباً إلا خرقه، فكان المغيرة قد اتخذ في مترل المعتوه كوى يجعل فيها ألوان ما يؤكل من خبز ولحم وفاكهة، وتجعل الثياب على معاليق فيأكل المعتوه ويلبس، وهو الذي قال لعمرو بن الزبير حيث توجه لقتال عبد الله أخيه امض معي إليهوأنت في جواري فإن آمنك وإلا رددتك إلى مأمنك، فلم ينفذ عبد الله بن الزبير جواره، وقد كتبنا خبره فيما تقدم، فقال الشاعر في عيدة بن الزبير:

أعبيد إنك قد أجرت فجاركم	تحت التراب تنوبه الاصداء
أعبيد لو كان المجير لولولت	بعد الهدو برنة اسماء
اضرب بسيفك ضربة مذكورة	فيها أداء أمانة ووفاء

وأما حمزة بن الزبير فلا عقب له، وقتل مع عبد الله بن الزبير أخيه.

وأما خالد بن الزبير فاستعمله عبد الله على اليمن وله عقب، ومنهم: خالد بن عثمان بن خالد بن الزبير، وكان خرج مع محمد بن عبد الله بن حسن بن حسن بن علي بالمدينة، فقال أبو جعفر أمير المؤمنين المنصور: ما آل الزبير وآل علي؟! وأخذه أبو جعفر فقتله وصلبه.

وأما عمرو بن الزبير فكان ذا تيه وكبر وعجب، انتدب لقتال أخيه فكان من أمره وقتله إياه بالاقتصاص منه ما قد ذكرناه، وكان يقال: من نخوته عمرو لا يكلم، من يكلمه يندم.

المدائني عن مسلمة بن محارب قال: قال مالك بن أسماء المنى– وهي أمه–: أنا أغضب معاوية واستجعل على ذلك جعلاً فأتى معاوية، وقد حضر الموسم، فقال: يا أمير المؤمنين ما أشبه عينيك بعيني أمك هند فقال: تانك عينان طالما أعجبتا أبا سفيان فانظر ما أعطيت فخذه ولا تجعلنا متجراً لك، فقال له رجل من قريش: لك مثلا جعلك إن قلت لعمرو بن الزبير كما قلت لمعاوية، وكان عمرو ذا نخوة وكبر فقال له: ما أشبهك بأمك يا عمرو، فأمر به فضرب حتى مات، فبعث معاوية إلى أمه بديته وقال:

ألا قل لأسماء المنى أم مالكٍ — فإني لعمرو الله أقتلت مالكا

يقول: عرضته للقتل بحلمي عنه.

ولعمرو بن الزبير عقب، وفي ابنه عمرو بن عمرو بن الزبير يقول الشاعر:

لو ان اللؤم كان مع الثريا — تناول رأسها عمرو بن عمرو

وقتل من قتل من ولد الزبير، وقتل العوام، وقتل خويلد، وقال الشاعر في قتل العوام يوم الفجار:

وعوّاماً تركناه صريعاً — على إثر الفوارس بالغريف

وأما عروة بن الزبير ويكنى أبا عبد الله، وكان فقيهاً فاضلا، وقال لعبد الملك حين كتب الحجاج إليهفي حمله، فأمره عبد الملك بذلك: ليس الذليل من قتلتموه، ولكنه من ملكتموه فلما قال هذا القول استحيى عبد الملك فلم يهجه، وكتب إلى الحجاج: أمسك عن ذكر عروة، فما لك عليه سبيل.

وحدثني عبد الله بن صالح المقرئ قال: قال الحجاج لعروة وقد أغلظ لعبد الملك في كلام: يا بن العمياء ألا تسكت، فقال له عروة: يا بن المتمنية، يعني جدته أم أبيه، وكانت كنانية، وهي القائلة:

هل من سبيل إلى خمر فأشربها — أم هل سبيل إلى نصر بن حجاج

فسمعها عمر فأخذ نصراً فسيره إلى البصرة، وكان نصر جميلا.

وقال بعضهم: إن المتمنية أم الحجاج الفارعة بنت همام بن عروة بن مسعود الثقفي. واستودع عروة طلحة

بن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي بكر مالاً، وأودع غيره، وشخص إلى الشام، فكان يسأل عن طلحة، فيقال هو يبني الدور ويقسم الأموال، فخاف أن يذهب بماله، فلما قدم كابره قوم على ما أودعهم، وأعطاه طلحة ماله موفرا، فقال متمثلاً:

وما استخبأت في رجل خبيئاً	كدين الصدق أو حسب عتيق
ذوو الاحساب أكرم من رأينا	وأصبر عند نائبة الحقوق

وقال هشام الكلبي: أصابت عروة الأكلة في رجله، وهو بالشام عند الوليد بن عبد الملك، فقطعت رجله بميشار وهو يقرأ فما تتعتع ولا تحرك، ولم يشعر الوليد بقطع رجله حتى كويت، وكان ذلك بحضرة الوليد وبقي بعد ذلك ثماني سنين ثم هلك في ضيعة له بقرب المدينة، وكان يقول: لقد أحسن بي ربي أخذ مني واحدة، وترك لي ثلاثاً، وامتعني بسمعي وبصري ولساني، وكان له ابن يحبه فضربته دابة فسقط ميتاً وذلك قبل وقوع الأكلة في رجله، فقال حين قطعت رجله صبراً واحتساباً: "لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا".

وقال عروة: أعظم من المصيبة سوء العوض وروى ذلك عن عبد الله بن الزبير أيضاً .

قال المدائني: عزى عيسى بن طلحة بن عبيد الله عروة فقال: يا أبا عبد الله ذهب أقلك وبقي أكثرك، فالحمد لله الذي بقى لنا سمعك وبصرك فقال: ما عزاني أحد بمثل ما عزيتني به.

قال: ووقعت الأكلة في رجله، وضرب برذون ابنه فقتله، وقطعت رجله بميشار وحسمت فلم يقبض وجهه، ولم يحرك عضواً منه إلا أنه غشي عليه عند الحسم.

وأتي الوليد بقوم أصيبوا بمصائب عظيمة فقال ائتوا عروة بهؤلاء ليعلم أن مصائب الدنيا كثيرة.

وحدثني مصعب الزبيري أن عروة صلى بالناس يوماً، وكانوا مقحطين، فقال لهم: أقنطتم؟ قالوا: نعم قال فتوقعوا الفرج فان الله يقول: "وهو الذي يترل الغيث من بعدما قنطوا وينشر رحمته وهو الولي الحميد".

وكان عروة احتفر بئراً بالمدينة فهي تعرف ببئر عروة، فلم يكن بالمدينة بئر أعذب منها، وفيها يقول الشاعر:

كفنوني ان مت في درع أروى	واستقوا لي من بئر عروة مائي

وقال الواقدي: مات عروة في مال له بناحية الفرع في سنة أربع وتسعين ودفن هناك.

وقال عروة: إذا رأيتم من الرجل خلة خير، وكان عندكم رجل سوء فلا تيأسوا منه فإن لها عنده أخوات، وإذا رأيتم من رجل خلة شر فاحذروه، وإن كان صالحاً.

فولد عروة بن الزبير: عبد الله، أمه ابنة الأسودبن أبي البختري.

ومحمداً، ويحيى بن عروة، ويكنى أبا عروة وعثمان أمهم ابنة الحكم بن أبي العاص أخت مروان.
وعمراً. ومصعباً، وعبيد الله. وأمهم ابنة سلمة بن عمر بن أبي سلمة المخزومي.
وهشام بن عروة لأم ولد.
فاما عبد الله فكان خطيباً بليغا، وكان خالد بن صفوان يشبه به في بلاغته، وعمي قبل موته، وله عقب بالمدينة.
وقتل صالح بن عبد الله بن عروة بقديد قتلته الخوارج.
وكان عمر بن عبد الله فقيها، حدث عنه ابن جريج، سمع من القاسم بن محمد وغيره، وحج عبد الملك بن مروان فأتى المدينة، فدخل على عبد الله بن عروة بن الزبير فقال: يا أمير المؤمنين أعدني على إبراهيم خالك فإنك وليته ما بين المدينة واليمن فلم يمنعه كثير ما في يده من قليل ما في أيدينا، فنشدتك الله أن تصل رحمك بقطيعة أخرى، فوالله ما يمنعنا من أن نموت مع عبد الله إلا مكان هذه الأموال.
وأما محمد فلم يكن له عقب من الرجال، وكان من أجمل الناس وفيه يقول ابن يسار:

وغنينا كابني نويرة حينا — بعد عيش ونعمة واتفاق
ثم صرنا لفرقة ذات يوم — كل قوم مصيرهم للفراق

يعني مالكا ومتمم بن نويرة.
وكانت لمحمد بن عروة ابنة جميلة، تزوجها الحكم بن يحيى بن عروة فطلقها، فتزوجها أمية بن عبد الله بن عمرو بن عثمان، فطلقها فراجعها الحكم على أن كتبت عليه كتابا بأربعين ألف درهم وبغلة أرضه وبعطائه ولا يغيرها ولا يخالفها، فإن خالف شيئاً من شرطها فأمرها بيدها، فكان يقال: أثقل من شرط ابنة محمد بن عروة.
وأما عثمان بن عروة فكان فائق الجمال، وكان خطيباً جلداً ومات في أيام أبي جعفر المنصور، وله عقب بالمدينة.

وأما يحيى بن عروة، فكان له علم بالنسب والناس، فنازع إبراهيم بن هشام عامل هشام بن عبد الملك على المدينة فضربه بأمر هشام فمات بعد الضرب، وله عقب بالمدينة.
وأما عمرو بن عروة فقتل مع عبد الله بن الزبير، ولا عقب له.
وأما عبيد الله بن عروة فله عقب بالمدينة، وقد روى الزهري عن عبيد الله بن عروة، ويكنى أبا بكر، وعن يحيى بن عروة، ويكنى أبا عروة.

وأما هشام بن عروة، ويكنى أبا المنذر، فكان فقيها نبيلاً له عقب بالمدينة والكوفة والبصرة، وكان هشام في وسط من أيامه على تدينه يسمع الغناء، فواعد قوماً من أهل المدينة أن يأتوا مترل جارية تتغنى فسبقوه ومضى ليلحقهم، وجعل يقول:

قائمتيّ ألحقان بالقوم لا تعداني كسلاً بعد اليوم

فلما سمع غناء الجارية قال: أعيذك بالله إنه لينبغي أن يكتب على صدرك آية الكرسي، وبين كتفيك المعوذتين ثم خرج.

وقال هشام: ما تم دين لأحد حتى يتم عقله.

وقال هشام: الغنى يجعل الغربة وطنا، والفقر يجعل الوطن غربة.

وقال هشام، ورأى رجلاً يبني داراً أسرف في النفقة عليها: عجباً لمن يبتني القصور وهو غداً في القبور.

وقال هشام بن عروة: وجدت خير الدنيا والآخرة في التقى والغنى، وشرهما الفجور والفقر.

ومات هشام بن عروة ببغداد في سنة ست وأربعين ومائة قبل موت أبي حنيفة بأربع سنين.

وأما المنذر بن الزبير بن العوام، ويكنى أبا عثمان فكان سيداً حليماً وقتل مع عبد الله بن الزبير وله يقول ابن مفرغ.

لابن الزبير غداة يذمر منذراً أولى بغاية كل يوم وقاع

ليس الكريم من يغادر أمه وبناته بالمنزل العجّاع

فمن ولده: محمد بن المنذر، امه ابنة سعيد بن عمرو بن نفيل العدوي، وعاصم بن المنذر لأم ولد، وكان يترل البصرة، وعبيد الله بن المنذر أمه ابنة نهشل بن حري التميمي، وإبراهيم بن المنذر وغيره.

المدائني قال: ساب محمد بن المنذر بن الزبير عبد الله بن عمرو بن عثمان، وهو المطرف، فقال له محمد: لقد عشت زماناً وأنا أظنك جارية أهم أن أخطبك إلى أبيك. قال: أنا عبد الله بن عمرو بن عثمان، قال: عهدتك ولك اسم أحب إليك من هذا، وكان يدعى لجماله المطرف.

وأما: مصعب بن الزبير فكان يكنى أبا عبد الله، ويقال أبا عيسى، وولد له عيسى وعكاشة، أمهما ابنة السائب بن أبي حبيش، وعمر لأم ولد. وجعفر لأم ولد. وحمزه لأم ولد، ومحمد وخضير واسمه إبراهيم لأمهات أولاد شتى. وقال بعضهم اسم خضير مصعب بن مصعب، والأول قول ابن الكلبي، وكان مصعب جواداً عظيم المروءة وقد كتبنا خبره ومقتله، وكان يقول: أفضل النساء الفخمة الاسيلة، وشرهن القفرة، وقتل ابنه عيسى معه، فقال الشاعر:

لبيك أبا عيسى وعيسى كلاهما موالي قريش كلها وصميمها

وقال الأصمعي: قدم مصعب البصرة على راحلته مضطبعاً بردائه، فقال بعض من رآه من أشياخ العرب: لقد انتشط الملك انتشاطا.

وقال مصعب على منبر البصرة لبعض بني أبي بكرة: إنما كانت أمكم مثل الكلبة يترو عليها الأعفر، والأسود، والأبقع، فتودى إلى كلب شبهه.

ولا عقب لعيسى، ولعكاشة بن مصعب عقب بالمدينة، وتزوج عكاشة ابنة عامر بن عبد الله بن الزبير، فولدت له، فمن ولده مصعب بن عكاشة بن مصعب، قتل يوم قديد في أيام مروان بن محمد، قتلته الخوارج، فقال الشاعر:

قل لأنواح قصيّ كلها ... ونساء موجعات من أسد

فمن فاندبن رجالا قتلوا ... بقديد ولنقصان العدد

ثم لا تعدلن منهم مصعبا ... حين يبكى بقتيل من احد

إنه قد كان فينا باسلا ... صادقاً يقدم إقدام الأسد

وأما عمرو بن مصعب فولده بالبصرة.

وأما جعفر بن مصعب، وكان سرياً فتزوج مليكة بنت الحسين بن علي، فولدت له حمزة، فقتل وابن له يقال له عمارة يوم قديد، وله بالمدينة عقب، وكان بعض عمال أهل المدينة أخذ حمزة بن جعفر شارباً فحده وأقامه للناس.

وأما إبراهيم بن مصعب وهو خضير فكان على شرط محمد بن عبد الله بن حسن حين خرج، ويقال: اسم خضير مصعب بن مصعب، وله عقب، وقتل خضير مع محمد بن عبد الله.

وقال الأصمعي: قال مصعب لعبد الرحمن بن عياش بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب، وكانت عنده جويرية بنت زياد: أتثأر الناس بسيوفهم وثأرت بأيرك؟! وقال حين قدم البصرة: بلغني إنكم أهل البصرة تلقبون أمراءكم وإني أنا الجزار.

قالوا: وكتب كاتب مصعب: من المصعب فقال: ما هاتان الزائدتان؟! وأما عبد الله بن الزبير، فكان يكنى أبا بكر، وأبا خبيب، وكان من أشد الناس قلباً ولساناً، وهو أول مولود ولد بالمدينة في الإسلام من أبناء المهاجرين، فكبر المسلمون لمولده، وكان بخيلاً قال الشاعر:

رأيت أبا بكر وربك غالبٌ ... على أمره يرجو الخلافة بالتمر

وقتل وهو ابن ثلاث وسبعين سنة، وقد كتبنا أخباره فيما تقدم من كتابنا هذا. فولد عبد الله بن الزبير: حمزة وكان مضعوفا، وخبيباً، وثابتاً، وعباداً، أمهم تماضر بنت منظور بن زبان الفزاري، وعامر أمه ابنة عبد الرحمن بن الحارث بن هشام، وعبد الله بن عبد الله، أمه أم ولد، وقيسا درج صغيراً، وموسى.

فاما حمزة فكان جوادا يعطي يوماً فيباري الريح، ويمنع يوماً شسعا، وكان ابن سريج المغني صديقاً له، وكان حمزة يكرمه ويعظمه، وهو الذي غنى في هذا الشعر:

حمزة المبتاع حمداً بالندى ويرى في بيعه أن قد غبن

فكلم ابن سريج رجل من قريش في مسألة حمزة إسلافه ألف دينار، فوهب له ألف دينار، ووهب لابن سريج ألفا آخر، وقد كتبنا خبر حمزة في ولايته العراق، وتزوج حمزة بالبصرة أم عبد الله بنت عبد الله بن عثمان بن أبي العاص الثقفي، وأمهما ضباعة بنت الحارث بن نوفل أخت ببة، وكانت عند حمزة فاطمة بنت القاسم بن محمد بن جعفر بن أبي طالب، فقال لها في مرضه، كأني بك قد تزوجت طلحة بن عمر بن عبيد الله بن معمر، فحلفت بصدقة مالها، وعتق رقيقها لا تفعل، فلما مات حمزة خطبها طلحة وقال: أنا أخلف عليك مكان كل شيء شيئين، فتزوجته فغرم عنها عشرين ألف دينار، وولدت له: إبراهيم، ورملة، فزوج طلحة بن عمر ابنته رملة إسماعيلبن لعي بن عبد الله بن العباس على مائة ألف دينار، وكانت أجمل الناس فقال إسماعيلبن يسار لطلحة: أنت أتجر الناس، تزوجت فاطمة على اربعين ألف دينار، وزوجت ابنتها على مائة ألف، فربحت إبراهيم وستين ألف دينار.

وأما خبيب فكان عقيماً، وكان الوليد بن عبد الملك غضب عليه لأمر بلغه عنه، فكتب إلى عمر بن عبد العزيز، وهو عامله على المدينة، فضربه عمر فمات من ضربه إياه، فكان ذلك مما عيب على عمر بن عبد العزيز.

وأما ثابت بن عبد الله فكان يكنى أبا حكمة، وكان بذيئاً ذا لسن، وله عقب، وقيل لثابت: اشتم علياً، فقال: ماذا أقول؟ قالوا: قل: سم أبا بكر، ودس لعمر من قتله، وقتل عثمان، فقال: والله ما علمت ذاك فأقوله.

قالوا: وأقامه هشام بن إسماعيلفقال: اشتم علياً، فقال لعن الله الفاسق الأشقى قاتل أمير المؤمنين عثمان، قال: هيه اذكر علياً فقال: لعن الله الأشدق لطيم الشيطان خالع أمير المؤمنين عبد الملك، قال: هيه اشتم علياً الآن قال: لم يبلغه الشتم حتى أشتم غيره، و لم يزل يشاغله.

وقال له عبد الله بن عمرو بن عثمان يوماً، وهو المطرف: يا ثابت لقد صرت خطيباً، فقال: أما والله لولا أني أكره ذكر حويلك خويل السوء فأغم بذلك رجالاً من ثقيف وقوماً من بني هاشم لذكرته، يعني

المختار، لأن أم المطرف ابنة عبد الله بن عمر، وأمها صفية بنت أبي عبيد، أخت المختار.

ومن ولده: عبد الله بن مصعب بن ثابت الذي كان عامل هارون الرشيد أمير المؤمنين على المدينة، ثم على اليمن، وكان ابنه أبو بكر بكار بن عبد الله بن مصعب بن ثابت ولي بعد أبيه، وكان سيء الولاية، فلما مات جعل الناس يقولون: من يكتب إلى مالك؟ يعنون مالكاً خازن جهنم.

وكان مصعب بن ثابت بن عبد الله فقيهاً، ويكنى أبا عبد الله مات بالمدينة سنة سبع وخمسين ومائة، وهو ابن اثنتين وسبعين سنة.

وأما عامر بن عبد الله فكان من أعبد أهل المدينة في زمانه، وكان لا يزوج بناته، وخطب إليهيزيد بن عبد الملك، وإبراهيم بن هشام المخزومي فلم يزوجهما، وقتل ابنه عتيق بن عامر بقديد، وهدم إبراهيم بن هشام دار عامر بن عبد الله، فقال إبراهيم لعامر: اصبر قال: أما إني أعرضك على الله في كل يوم خمس مرات، يقول أدعو عليك في أعقاب الصلوات الخمس.

وكان عامر يكنى أبا الحارث، ومات قبل موت هشام بن عبد الملك بيسير، ومات هشام في سنة أربع وعشرين ومائة.

المدائني عن ابن أبي الزناد عن أبيه قال: نزل عامر بن عبد الله بمر، فمر به عبد الله بن حسن بن حسن بن علي، فقال: يا عامر نزلت بمر فمرر عليك عيشك، قال: بل نزلت مراً فطاب لي به مأكلي إذ بالست بالس بني مروان، فقال عبد الله: أما والله لولا عمتي لكنت كبعض الحميدات التوتيات في شعاب مكة، يعني صفية. قال عامر: ولولا عمتي كنت كبعض ولد عقيل بن أبي طالب ملقىً بالأبطح، يعني خديجة بنت خويلد أم فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وأما عباد بن عبد الله، فله ولد بالمدينة، وكان يحيى بن عباد بن عبد الله فقيهاً روى عن عبد الله بن ابي بكر الحزمي، ومحمد بنإسحاق ، ومات بالمدينة وهو ابن ست وثلاثين سنة.

وقال أبو الزناد رأيته معتماً، فما رأيت شاباً أحسن في العمة منه وكانت له مروءة.

وأما موسى بن عبد الله فله عقب بالمدينة، ومن ولده صديق بن موسى بن عبد الله بن الزبير، كان سرياً.

وأما عبد الله بن عبد الله، فكان فيما يقال أشبه القوم بأبيه، وله عقب.

قالوا: وزوج عبد الله بن الزبير بناته من بني أخوته، وتمثل قول الشاعر:

جعلت بناتي في مواليّ قصرةً ... وما راعني ذو هيئةٍ وجمال

ولا رزمتا شكد وبرد معضدٍ ... ولا درع نوبي أسك طوال

وقال هشام ابن الكلبي: كان مصعب بن الزبير قتل أبا أشعب الطمع، فكان أشعب يقول: أخذت من مال آل الزبير أضعاف دية أبي.

فولد خويلد بن أسد بن عبد العزى أيضاً ، سوى خديجة زوج النبي صلى الله عليه وسلم، العوام بن خويلد، وحزام بن خويلد، ونوفل بن خويلد، وأمه من عدي قريش، قتله علي بن أبي طالب يوم بدر كافراً، وكان يقال لنوفل بن خويلد أسد قريش.

وكان الأسودبن نوفل بن خويلد من مهاجرة المسلمين إلى الحبشة، في المرة الثانية، وقدم المدينة بعد قدوم النبي صلى الله عليه وسلم إياها.

وأما حزام فولد: حكيم بن حزام، وأمه ابنة زهير بن الحارث بن أسد بن عبد العزى، واسمها فاختة، وولدته في جوف الكعبة. وخالد بن حزام وله عقب بالمدينة، وكان قد أسلم وهاجر إلى الحبشة في المرة الثانية، فمات في طريقه قبل أن يصل، وكان حكيم بن حزام يكنى أبا خالد وشهد بدراً مع المشركين يوم بدر فنجا و لم يقتل و لم يؤسر، فقال حسان بن ثابت الأنصاري:

نجى حكيما يوم بدر بشده ونجا بمهر من بنات الأعوج

ثم أسلم فحسن إسلامه، وكان يقال هو وجبير بن مطعم من سادة مسلمة الفتح، وكان حكيم بن حزام إذا بالغ في يمينه قال: والذي نجاني يوم بدر.

وذكر أبو اليقظان أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لحكيم: إن الدنيا خضرة حلوة فمن سألها بإسراف لم يبارك له فيها. فكان لا يقبل من أحد شيئاً، وكان لا يأخذ عطاءه فقال عمر بن الخطاب: يا معشر المسلمين إني أشهدكم على حكيم بن حزام أدعوه إلى عطائه فيأباه، وباع حكيم داراً له بمكة بعشرة آلاف درهم، فقيل له غبنت، فقال اشتريتها في الجاهلية براوية من خمر، واما والله لتعلمن أني لم أغبن، اشهدوا أن ثمنها في سبيل الله فهل غبنت؟ ويقال بل جعلها في سبيل الله، وقال بعضهم: هي دار الندوة، وذلك أعظم الخطأ لأن دار الندوة كانت لبني عبد الدار فباعها عكرمة بن عامر بن هاشم العبدري من معاوية، فقيل له: بعت شرفك فقال: إنما الشرف اليوم الإسلام والكفاف.

وقال حكيم بن حزام: الجواد المبرز من لم يختر مواضع المعروف و لم يبال من أصاب به، وعمر مائة وعشرين سنة، فكان يقول: طول العمر يذكر لك الناس.

وحضر حكيم أمر عثمان ودفنه والصلاة عليه، فقال: إنكم سخطتم من أمر عثمان ما سترضون من غيره بأعظم منه.

وقال حكيم: من بخل بمعروفه على صاحبه فإنما بخل بالأجر على نفسه.

وحدثني عبد الواحد بن غياث ثنا حماد بن سلمة أنبأ هشام بن عروة عن عروة عن حكيم بن حزام أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: خير الصدقة ما كان عن ظهر غنىً، واليد العليا خير من اليد السفلى، وليبدأ أحدكم بمن يعول، ومن يستعفف يعفه الله، ومن يستغن يغنه الله. قال عبد الواحد: ثم قال أبو أسامة حماد: قال هشام: وكان حكيم يحتاج إلى الشيء فلا يسأله أحداً، ويقول: لو انقطع شسع نعلي ما طلبت من أحد شسعا.

وحدثني محمد بن سعد عن الواقدي عن المنذر بن عبد الله عن موسى بن عقبة عن أبي حبيبة قال: سمعت حكيم بن حزام يقول: تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم عمتي خديجة وهي ابنة أربعين سنة، وكانت أسن مني بسنتين، وولدت أنا قبل عام الفيل بثلاث عشرة سنة، وشهدت الفجار وأنا ابن ثلاث وثلاثين سنة، قال: ومات حكيم سنة أربع أو خمس وخمسين.

وقال حكيم: كانت عمتي أسن من النبي صلى الله عليه وسلم بخمس عشرة سنة.

قال الواقدي: مات حكيم بن حزام بالمدينة في داره عند بلاط الفاكهة عند زقاق الصوافين.

المدائني عن ابن جعدبة قال: اشترى حكيم بن حزام حلة من حلل ذي يزن بثلاثمائة دينار فقال: ما أرى أحداً لها أهلاً إلا محمداً، فأهداها لرسول الله صلى الله عليه وسلم في الهدنة التي كانت بينه وبين قريش قبل الفتح، فقال صلى الله عليه وسلم: لو كنت قابلاً هدية مشرك قبلت هديتك، فأدخلها حكيم السوق ليبيعها، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم فاشتريت له ورآها حكيم عليه وقد خرج للصلاة فتمثل حكيم قول الحطيئة في علقمة بن علاثة:

فما ينظر الحكام بالفصل بعدما ... بدا واضح ذو غرة وحجول

فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم إنه كساها أسامة بن زيد بن حارثة مولاه، فقال حكيم بخ، بخ يا أسامة عليك حلة ذي يزن، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: قل له: وما يمنعني وأنا خير منه، وأبي خير من أبيه.

وولد حكيم بن حزام: عبد الله بن حكيم، وأمه زينب بنت العوام بن خويلد.

وهشام بن حكيم. وأما عبد الله بن حكيم فقتل يوم الجمل مع عائشة، وكانت عنده ابنة الضحاك بن سفيان الكلابي فولدت له عثمان بن عبد الله بن حكيم، فولد عثمان بن عبد الله بن حكيم: عبد الله بن عثمان بن حكيم، أمه رملة بنت الزبير، وكان عثمان بن عبد الله بن حكيم ممن ضربه عمرو بن الزبير،

فاقتص منه، فتزوج عبد الله بن عثمان بن عبد الله بن حكيم بن حزام سكينة بنت الحسين بن علي بن أبي طالب، فولدت له قرين واسمه عثمان، وله عقب، وفي عبد الله بن عثمان يقول الشاعر:

تزوجتها من عترة خير عترة أبوها ابن بنت المصطفى خاتم الرسل

به أنقذ الله البرية كلها وقد غمرتها الجاهلية بالجهل

فأكرم بها إلفا لديك وزوجة حويت بها غنما وفضلا إلى فضل

ويروى:

حويت بها فضلاً من الله ذي الفضل

وأما: هشام بن حكيم بن حزام فكانت له صحبة، وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: إن الله يعذب يوم القيامة الذين يعذبون الناس.

حدثني شيبان بن فروخ الآجري الأبلي ثنا عبد العزيز بن مسلم القسملي ثنا هشام بن عروة عن أبيه عن هشام بن حكيم بن حزام أنه رأى ناساً محبوسين في الشمس، فدخل على عمير بن سعد فقال له: ما هؤلاء؟ قال: قوم حبسوا في الجزية، فقال هشام أشهد على رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: إن الله يعذب يوم القيامة الذين يعذبون الناس في دار الدنيا.

وقالوا: كان عمير بن سعد الأنصاري يلي بعض الجزيرة.

وقالوا: كان هشام بن حكيم عظيم القدر قوياً على أمر الإسلام، وكان عمر بن الخطاب يقول- إذا ذكر أمر فيه وهن على الإسلام ومخالفة الحق أو سبله-: أما ما عشت وهشام بن حكيم فلا.

ولا عقب لهشام بن حكيم.

وأما خالد بن حزام بن خويلد فنهشته أفعى وهو يريد الهجرة إلى الحبشة، ومن ولده: الضحاك بن عثمان بن عبد الله بن خالد بن حزام، ويكنى أبا عثمان، مات سنة ثلاث وخمسين ومائة.

وولد نوفل بن أسد بن عبد العزى

ورقة بن نوفل، وعدي بن نوفل، وعبيد الله بن نوفل درج صغيرا.

فأما: ورقة فترك عبادة الأوثان ومال إلى النصرانية، ويقال طلب دين إبراهيم، فمر يوماً ببلال بن رباح والمشركون يعذبونه، وبلال يقول: أحد، أحد. فقال ورقة: أحد، أحد، نعم ما قلت فاستغث به، وقد ذكرنا له فيما تقدم من كتابنا هذا أخبارا، وكان ورقة شاعراً وهو الذي يقول:

أجزيك أو أثني عليك وإن من أثنى عليك بما فعلت كمن جزى

وقال في زيد بن عمرو بن نفيل، وكان زيد قد ترك عبادة الأوثان:

رشدت فأنعمت بان عمرو وإنما تجنبت تنوراً من النار حاميا

وأما عدي بن نوفل فمن ولده: الزبير بن عدي، وله عقب بالحجاز، وعبيد الله بن نوفل بن عدي بن نوفل بن أسد، قتل يوم الحرة.

وولد حبيب بن أسد بن عبد العزى: تويت بن حبيب، فمن ولد تويت عثمان بن عطاء، وكان سرياً ضربه عمرو بن الزبير فيمن ضرب، ولهم عقب بمكة، وكانت أم تويت أمة للعباس اسمها مجد.

وولد المطلب بن أسد بن عبد العزى: الأسودبن المطلب بن أسد، وأبا حبيش بن المطلب بن أسد.

فأما الأسودفكان يكنى أبا زمعة، وهو أحد المستهزئين، وكان منيعاً، وقد كتبنا خبره في أول كتابنا هذا.

وعمي الأسودفلم يحضر يوم بدر، وله شعر فيها وقد كتبناه، أوله:

تبكي أن يضل لها بعير ويمنعها من النوم الشهود

فولد الأسودبن المطلب بن أسد بن عبد العزى: زمعة بن الأسود، وهبار بن الأسود، والحارث بن الأسود، فأما زمعة بن الأسودفكان يكنى أبا حكيمة، وفيه يقول أبو طالب بن عبد المطلب: عظيم الرماد سيد وابن سيد وقتل يوم بدر كافراً.

وقال معاوية بن أبي سفيان: كان زمعة فينا كهرقل في الروم، وكان يقال له زاد الراكب، فولد زمعة: عبد الله، وعقيلاً، ووهباً ويزيد، قتل عقيل يوم بدر كافراً، ولا عقب له.

وكان يزيد بن زمعة من مهاجرة الحبشة، واستشهد يوم حنين، ويقال يوم الطائف.

وكان عبد الله بن زمعة ممن حضر دار عثمان بن عفان، وقاتل عنه، وقبض النبي صلى الله عليه وسلم ولعبد الله خمس عشرة سنة، وهو الذي خرج برسالة عمر إلى الناس يأمرهم بالصلاة حين قال النبي صلى الله عليه وسلم: مروا أبا بكر فليصل.

فمن ولد عبد الله بن زمعة: يزيد بن عبد الله بن زمعة بن الأسود، وأمه زينب بنت أبي سلمة بن عبد الأسد المخزومي، وجدته أم سلمة زوج رسول الله صلى الله عليه وسلم، شهد يوم الحرة فأخذ وأتي به مسلم بن عقبة، فدعاه إلى أن يبايع ليزيد على أنه عبد قن فأبى وقال: أبايعه على كتاب الله وسنة نبيه، وعلى أبي ابن عمه، فقدمه فضرب عنقه، فلما توجه أهل الشام نحو مكة فمات مسلم ودفن بالمشلل، أقبلت أم ولد ليزيد بجارية في غلمة لها فنبشت قبر مسلم واستخرجته فصلبته.

ومن ولد عبد الله بن زمعة: أبو عبيدة بن عبد الله بن زمعة بن الأسود، وله عقب وكانت هند بنت أبي

عبيدة عند عبد الله بن حسن بن حسن فيما ذكر أبو اليقظان، فولدت له: محمداً، وإبراهيم، وكان أبو عبيدة سرياً سخياً مطعاماً للطعام يعده للأضياف، ومن أتاه من إخوانه، وقد روي عنه الحديث، فلقي إبراهيم بن هشام المخزومي أبا عبيدة وإبراهيم وال على المدينة من قبل هشام، فسأله عن الطريق إلى موضع اعتمده، فقال: خذ على موضع كذا، ثم خذ على أنف مخزوم، فقال: بل على أنف زمعة، وضحك.

قالوا: ومر إبراهيم بمترل أبي عبيدة بن عبد الله بن زمعة مع طلوع الشمس، ويقال في وقت طلوع الفجر، فدخل إليهوقال له: أنا والله جائع فهل من شيء حاضر، فأمر برؤوس كانت في مطبخه فأتي بها من التنور، وقدمت إليه، فأكل، ثم قدمت إليهحلواء كانت معدة في مترله، فقال: تالله ما رأيت أكرم من هذا الرجل، فقيل: إن الرؤوس اتخذت بالأمس وهي رؤوس غنم ذبحت لضيفان له فأما الحلواء فشيء لا يفارق مترله، فقال: هذا والله أعجب.

ومنهم كبير بن عبد الله، وله عقب فمن ولده أبو البختري وهب بن وهب بن ركانه من بني عبد المطلب بن عبد مناف، وكان أبو البختري قاضياً لأمير المؤمنين هارون الرشيد، ثم ولاه المدينة وكان الحديث يحمل عنه حتى دخل إلى بعض الكبار، وعنده حمام يسابق بها، فقال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا سبق إلا في حافر أو خف أو جناح، فاسقط حديثه وشنئت كتبه.

وقال الكلبي: قتل عبد الله بن وهب بن زمعة يوم الحرة، وكان ابنه يعقوب بن عبد الله بن وهب بن زمعة أبو محمد محدثاً، مات في آخر أيام أبي جعفر المنصور.

وأما هبار بن الأسودبن المطلب فهو الذي أهوى إلى زينب بنت النبي صلى الله عليه وسلم بالرمح حين أخرجت من مكة إلى المدينة فألقت ما في بطنها، وقد ذكرنا خبره حين ذكرنا أولاد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم سرية وقال: إن لقيتم هبار فاجعلوه بين حزمتين من حطب وأحرقوه، ثم قال: سبحان الله، أبعذاب الله، إن لقيتموه فاقطعوا يده ثم رجله، فلم تلقه السرية وقدم هبار مسلماً وكان يساب رجلاً، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: سب من سبك.

فمن ولد هبار: إسماعيلبن هبار وأمه أم ولد.

قالوا: فاتفق إسماعيلبن هبار ومصعب بن عبد الرحمن بن عوف الزهري بالمدينة في حمام، وكان ابن هبار يرمى بالذكور، وكان مصعب ذا عجيزة ضخمة وخلق حسن فمسح يده على رانفتيه وظهره متعجباً من عظم عجيزته وقال: ما يحمل النساء إلا دون ما حملت، فحقد مصعب ذلك عليه و لم يظهر له شيئاً مما في نفسه، ولاطفه حتى أمه، ثم إنه اتاه ومعه معاذ بن عبيد الله بن معمر التيمي، وعقبه بن جعونة الليثي،

ويقال خالد بن جعونة فدعاه إلى حش طلحة، وهو موضع نخل، فأجابه إلى الانطلاق معه في غد يومه ثم إنه بعث إليهعند طلوع الفجر غلاماً له يكنى أبا زيتونة ليسأله المصير إلى الحش للاجتماع به، فلما اجتمعوا حيث أراد، قام مصعب إلى نخلة قد دس فيها سيفاً قاطعاً فأخذه وعلاه به، وأعانه التيمي، والليثي وأبو زيتونة عليه فقتله وأخفى أمره، ويقال إن مصعباً دعاه إلى موضع يعرف بحش بني زهرة فقتله به، وجعل انصرافه إلى حميد بن عبد الرحمن أخيه فأخبره بما صنع به إسماعيلوبقتله إياه، فأخذ حميد ثياب أخيه فألقاها في تنور قد سجر وألبسه ثياباً غيرها، وغدا به معه لصلاة الصبح وقال: إنك ستسمع قائلاً يقول: كان من الأمر كيت وذيت حتى كأنه معكم فلا يروعنك ذلك ولا يتغيرن له وجهك، وأصبح الناس يتحدثون بقتل ابن هبار ويرون مصعباً مع أخيه حميد فيكذبون عنه، وكان أخو إسماعيلبن هبار يقوم في دبر كل صلاة فيقول: نشدت الله رجلاً عنده من أخي علم إلا أخبرنيه، فقام عبد الله بن مطيع العدوي من قريش فقال: اللهم إنك تعلم أمره ونعلمه، فقال له: من هو؟ قال: مصعب بن عبد الرحمن، فأدخله إلى مروان فتوقف عنه، وأخذ أبو زيتونة فأدخل إلى مروان فأنكر فضربه فأقر ثم أنكر، فقيل هذا إقرار منه حين ضرب ولا يقطع الحكم به، وأرسلت أخت إسماعيل الى عبد الله بن الزبير فأخبرته خبرهم، فركب عبد الله، والمنذر ابنا الزبير وغيرهما من وجوه بني أسد بن عبد العزى إلى معاوية بالشام، وزعم قوم أن معاوية قدم المدينة حاجاً فلقيه عبد الله والمنذر ومن معهما فحكم بأن يحلف عشرة من بني أسد بن عبد العزى خمسين يميناً بالله أن مصعباً قتله، فإن حلفوا ملكوا دمه، وإن نكلوا عن اليمين حلف من بني زهرة عشرة بالله ما قتل مصعب إسماعيلوما يدرون من قتله فقال بعض آل عبد الرحمن بن عوف: يختار للحلف على دمه المسور بن مخرمة، وبني سعد بن أبي وقاص، والحسن والحسين وعبد الله بن جعفر، ويزيد بن معاوية، ومروان بن الحكم، وسعيد بن العاص، وعمرو بن عثمان بن عفان، فقال من حضر من هؤلاء: ما بالنا نحلف دون بني زهرة، فرد معاوية اليمين على بني زهرة. فقال مصعب: والله ما كنت لأحلف كاذباً، وحلف خمسين يميناً عند المقام، وحلف العشرة من بني زهرة أنهم لا يعرفون قاتله.
وقال ابن الكلبي: قالت أخت إسماعيلبن هبار: ما قتل أبا فايد أخي– تعني ابن هبار– إلا مصعب والثلاثة الذين كانوا معه، ولقد جاء أبو زيتونة غلام مصعب في الليل فدعاه فما رجع، فأخذ مروان أبا زيتونة فضربه فكان يقر تحت الضرب فإذا رفع عنه قال: والله ما قلت، ما قلت إلا للضرب، وبعثت إلى عبد الله بن الزبير والمنذر بن المنذر واعلمتهما الخبر وقالت:

قل لأبي بكر الساعي بذمته ... ومنذر فهو ليث الغابة الضاري
جدّا فدى لكما أمي وما ولدت ... ولا تميلا إلى المخزاة والعار

فصارا إلى معاوية بالشام، ويقال تلقياه بين المسجدين، وكان حاجاً فكلماه في هذا الأمر فحكم بأن يحلف مصعباً وعشة معه من بني زهرة أنه لم يقتل إسماعيلبن هبار فحلف مصعب وحلفوا خمسين يميناً، وكان ممن حلف محمد، وأبو سلمة، وحميد بنو عبد الرحمن بن عوف، والمسور بن مخرمة، وبنو سعد بن أبي وقاص، وكانت يمين مصعب أنه لم يقتل ابن هبار، وحلف الباقون أنهم لا يعلمون من قتله، وتشاجروا فتدافع الحكم، فقال ابن قيس الرقيات:

فلن أجيب بليل داعياً أبداً	أخشى الغرور كما غرّ ابن هبار
باتوا يجرونه في الحش منعفراً	بئس الهدية لابن العم والجار

ويقال ان ابن الزبير قال: ليحلف مصعب والتيمي والكناني فحلفوا جميعاً، وقال الهيثم بن عدي: قيل للأسديين احلفوا أن مصعباً قتل صاحبكم فقالوا: اليمين على المنكرين، فحلف الزهريون.

وقال بعض أهل المدينة: لما اختلط الأمر وأشكل ضرب المتهمون مائة مائة وسجنوا سنة ثم أخرجوا والله أعلم.

ومن ولد هبار بن الأسود: سعد بن هبار وكان مع عبد الرحمن بن عبد الله الثقفي، وهو ابن أم الحكم أخت معاوية بن أبي سفيان، وكان يشاربه ويجامعه على هواه، فقال فيه حارثة بن بدر الغداني:

نهاره في قضايا غير عادلة	وليله في هوى سعد بن هبار
يعاب أصحابه فيما يسر به	أخذاً بأخذ وتكراراً بتكرار
لا يسمع الناس أصواتاً لهم خفيت	لها دوياً دوي النحل في الغار
فيصبح القوم أطلاحاً أضرّ بهم	حث المطيّ وما كانوا بسفّار
لا يرقدون ولا يغفي عيونهم	ليل التمام وليل المدلج الساري

وأما الحارث بن الأسودبن المطلب فقتل يوم بدر كافراً.

وأما أبو حبيش بن المطلب بن أسد بن عبد العزي فمن ولده: السائب بن أبي حبيش، وكان ندياً ذا نخوة وقدر في نفسه وكان أبو حبيش ملازما الحجر، فكان يقال له خيمة أبي حبيش، وقال عمر بن الخطاب: ما أحد إلا وفي نسبه وصمة غير السائب بن أبي حبيش. وتزوج مصعب بن الزبير ابنة له على مئة ألف درهم. وكان عالي السن روى عن عم.

ومن ولد حويرث بن أسد بن عبد العزى: عثمان بن الحويرث الشاعر، وكان مخالفاً لقريش، وأسر ابنه الحارث بن عثمان بن الحويرث يوم بدر كافراً.

وقال الواقدي وغيره: كان عثمان بن الحويرث بن أسد بن عبد العزى قد رفض الأوثان ومات على النصرانية، فقدم على قيصر فكان ترجمانه يحرف ما يقول له فلا يرى عند قيصر ما يحب، فبينا هو ذات يوم يمر في بعض الطريق إذ سمع رجلاً في زي الروم يتكلم العربية وينشد بيت شعر فقال له: يا هذا إنك تتكلم بلساني فمن أنت؟ قال: رجل من بني أسد بن خزيمة فاكتم ما سمعت، فشكا إليهأمره وما يلقى من جفوة قيصر له، فقال: قد بلغني خبرك وإنما تؤتى من الترجمان، ثم إن عثمان دخل على قيصر ودعا له الترجمان فقال عثمان: قل للملك: إن الكذوب الفاجر الغادر، قال: هيه؟ فالتزم عثمان الترجمان يريد أنه الموصوف بهذه الصفة. فقال قيصر: ان لهذا العربي قصة فدعا له بترجمان آخر يكلم، وأدى عنه إلى قيصر فقال: إني ضارب للملك على قريش جزية يؤدونها كل عام إذا وردوا الشام بتجاراتهم، قال: فافعل، ثم أتى مكة فقال لقريش وغيرها: إن قيصر يأمركم أن تجعلوا له عليكم ضريبة وخرجاً وإلا منعكم التجارة إلى الشام فزبروا عثمان وقرصوه وعابوا دينه وأمره وقالوا: قبحك الله وما جئت به وكان أشدهم عليه أبو أحيحة سعيد بن العاص بن أمية والوليد بن المغيرة، ثم إن سعيد بن العاص قدم الشام ومعه أبو ذؤيب هشام بن شعبة بن عبد الله بن أبي قيس بن عامر بن لؤي وكان أبو ذؤيب ابن أخته فسعى بهما عثمان إلى قيصر وقال: ان هذين اعترضا علي وحملا قريشاً على إباء ما كانوا سمحوا به من الجزية والضريبة فحبسهما قيصر وقدم الوليد بن المغيرة في آخرين فسعى بهم عثمان أيضاً فحبسهم مع سعيد بن العاص وأبي ذؤيب، فمات أبو ذؤيب في حبس قيصر ثم ان عثمان كلم قيصر في الباقين واطلقهم، وفي ذلك تقول أروى بنت الحارث بن عبد المطلب:

أبلغ لديك بني عمي مغلغلة ... حربا وعفان أهل الصيت والحسب

وانبي ربيعة والأعياص كلهم ... واعمم بني عبد شمس سادة العرب

مالي أراكم قعوداً في بيوتكم ... وخيركم منكم للجار والجنب

أبو أحيحة محبوس لدى ملك ... بالشام في غير ما ذنب ولا ريب

لو كان بعضكم في مثل محبسه ... ألفيتموه شديد الهم والنصب

إن الذي صدكم عنه وثبطكم ... عبد لعبدٍ لئيم حق مجتلب

لو كان فيكم صميماً في أرومتكم ... لشفّه ما عناكم غير ما كذب

أما عمرو بن أسد فهو زوج خديجة بنت خويلد رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان ابن عمها.

وأما الحارث بن أسد فمن ولده عبد الله بن حميد بن زهير بن الحارث بن أسد قتل يوم أحد كافراً،

وبعضهم يقول قتل يوم بدر كافراً.

وعبد الله بن معبد بن حميد قتل يوم الجمل، ويقال لبني تويتة بن حبيب بن أسد بن عبد العزى ولبني حميد بن زهير التويتات والحميدات، وقال ذاك عبد الله بن عباس في كلام تكلم به.

وقال ابن الكلبي: كان عمرو بن أمية بن الحارث بن أسد بن عبد العزى من مهاجرة الحبشة، وبها مات.

ومن بني الحارث بن أسد بن عبد العزى: أبو البختري، وهو العاص ابن هاشم بن الحارث بن أسد، قتل يوم بدر كافراً، وكان الذي قتله المجذر بن زياد، وقد كتبنا خبره فيما تقدم من كتابنا هذا، وأمه من بني عبد الدار بن قصي، وولد أبي البختري يقولون نحن بنو قتيل الملائكة، فقال بعضهم لابن لمصعب بن الزبير: أنا ابن عقير الملائكة فقال ابن مصعب، عمر بن مصعب: أنا ابن من نصرته الملائكة، يعني الزبير يعني حين قتله، وشر مقتول، فقال ابن أبي البختري: انا ابن من سد البطحاء، فقال ابن مصعب: سدها أبوك بسلحه، وفتحها أبي برمحه.

ومن ولد ابي البختري: الأسودبن أبي البختري وكان من أشد قريش وشهد الجمل مع عائشة، وكان ابنه عبد الرحمن بن الأسودمع ابن الزبير، وكانت تحته ابنة الزبير، وهو ممن كان أعان على عمرو بن الزبير حتى قتل يوم اقامه أخوه للناس، ولولد أبي البختري عقب بالمدينة.

قال الكلبي: ومن ولد الأسودبن أبي البختري: طلحة بن عبد الرحمن بن عبد الله بن الأسودالذي يقول:

جدي عليّ وأبي البختري ... وطلحة التيمي والأسود

أم طلحة ابنة سعيد بن الأسودبن أبي البختري، وأمها فاطمة بنت علي بن أبي طالب، وسعيد بن أبي البختري وكان جميلاً وله تقول المرأة:

ألا ليتني أشري سواري ودملجي ... بنظرة يوم من سعيد بن الاسود

قالوا: وكان من المحدثين أبو الأسودمحمد بن عبد الرحمن بن نوفل من بني أسد بن عبد العزى بن قصي، يتيم عروة، مات في آخر سلطان بني أمية.

انقضى نسب بني قصي بن كلاب